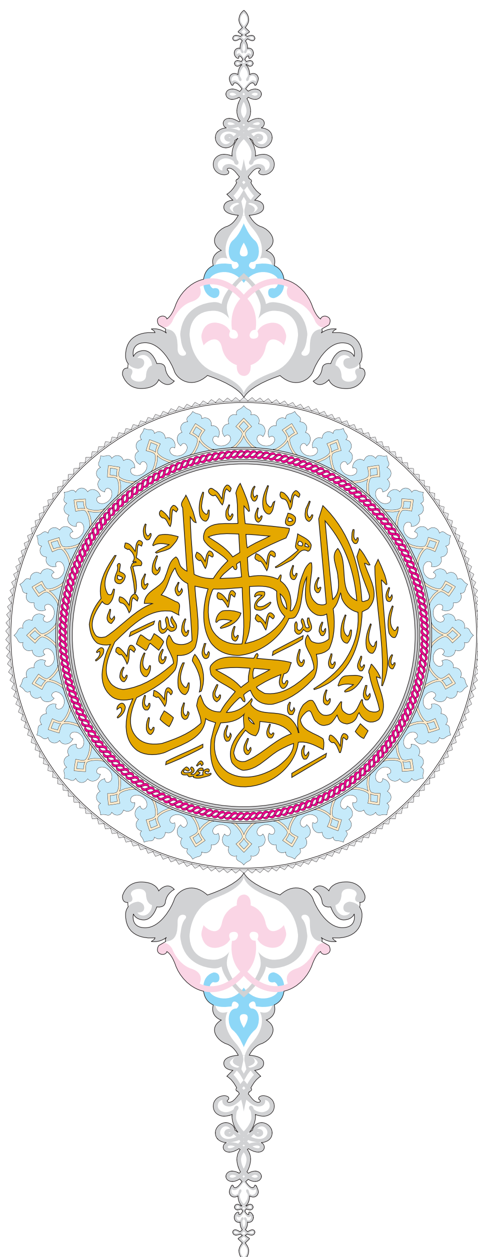
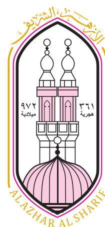




مجلة الأزهر
٥٥


بسم الله الرحمن الرحيم

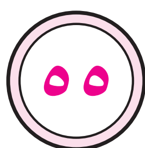




مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

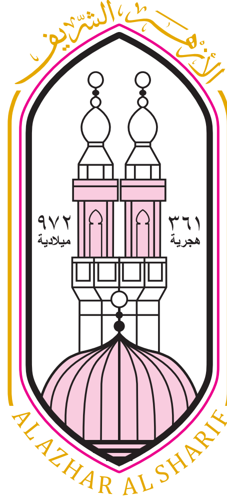
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي



المجلد الخمسون ـ القسم الأول

السنة ١٣٩٨هـ

سقيفة الصفا العلمية
الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبي

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
في أول كل شهر عربي

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٥٩١٤ ٩٠٥٥٠٦

الجزء الأول • السنة الخمسون • محرم • صفر • ربيع الأول ١٣٩٨
يناير • فبراير • مارس ١٩٧٨



بسم الله الرحمن الرحيم

موقف الإسلام من الفلسفة

لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

— ١ —

نحب بتوفيق الله تعالى أن نتحدث عن موقف الاسلام من الفلسفة .... وليس كل دراسة عقلية تسمى فلسفة : فان الرياضيات من المباحث العقلية اليقينية ولا تعد في العصر الحاضر من مباحث الفلسفة.

ونحن حينما نتحدث هنا عن الفلسفة فانما نعنى : البحث العقلى البحث في ما وراء الطبيعة وفي الأخلاق. ونعنى بما وراء الطبيعة : الالهيات أو ما يسمى في عرف المتكلمين : العقائد ، ونعنى بالأخلاق : معناها

الشامل الذى يتضمن التشريع الذى يحرم المنكرويردع الذين يفعلونه،وقد يخالفنا هذا الباحث أو ذاك فى هذا الذى نعنيه بالفلسفة ، ولكننا أحببنا أن نتفق والقارىء على اصـــطلاح محـــدد ، وفى اطار هذا الاصطلاح يسير بنا البحث •

يقول الاستاذ « اندريه كرس » فى كتابــه : « المشكلة الاخلاقية والفلسفية » ما يلى :

ان الفلسفة بمعناها الخـــاص قد دارت ـــ ولا تزال تدور ـــ حول طائفتين اساسيتين من المسائل :

١ ــ المسائل النظرية :

ما الكائن ؟

ما أصله ؟

ما المصير الذى ينتظره هـــو وما تفرع منه ؟

أفى طوق العقل الانسانى أن يضع حلولا لهذه المسائل ، أم أن ذلك فى حكم المستحيل ؟

كل هاتيك المسائل تعتبر مسائل ميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) •

٢ ـــ المسائل العملية :

كيــف يجب أن يكون مسلكنا فى الحياة ؟

كيف نربى الناشئين تربية حسنة؟

ماذا يجب لقيـــادة الدولة حتى تسير على النهج المستقيم ؟

كل هاتيك المسائل عليها تتوقف الاخلاق او تستمد هى من الاخلاق

* وهذا الذى ذكره الأســـتاذ اندريه كرسن هو رأينا الذى نسير على ضوئه فى موضوعنا هذا •

* * *

* ان كـــل من يتصفح تاريخ الفكر الفلسفى فى الاســـلام يجـــد مجموعة من كبار المفكرين بحثوا ، فى تعمق ، الموضوعات الفلســـفية هذه ، وأنتجوا فيها انتاجا يتفاوت كما وكيفا بحسب شخصياتهم •

وبدأت هذه المجموعة بفيلسوف العرب : « أبو يعقوب الكندى » •

* وقد نال ابو يعقوب الكندى تقديرا كبيرا ، ونال شهرة ذائعـــة فى الشرق والغرب ، وفيـــه يقـــول الفيلســـوف الايطـــالى المتـــوفى سنة ١٥٧٦ م

« انه واحد من اثنى عشر مفكرا هم أنفذ المفكرين وأرجحهم نقدا وتفكيرا ، وعنه يقول القفطى : فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها » .

* ونال جميع فلاسفة الاسلام مثل ما نال الكندى من شهرة ومن تقدير ، بيد ان شهرتهم وتقديرهم لم يمنعا ان يكون لهم خصوم هم من المكانة بالمنزلة الرفيعة بل ان خصومهم اكثر من انصارهم .

* وعلى رأس خصومهم المحدثون ، وعلى رأس المحدثين : الامام احمد بن حنبل ، ومن خصومهم المتعمقين : الامام ابن تيمية .

* على ان الخصم الذى كان لكتابته شهرة لا حد لها ، وتأثير عظيم هو : حجة الاسلام ، الامام الغزالى ، صاحب كتاب : « تهافت الفلاسفة » . وكلمة « تهافت » تعنى السقوط والانهيار .

* وسنتحدث فيما بعد عن رأى الامام الغزالى :

* ولكننا نتساءل الآن : لماذا كان المحدثون وكثير غيرهم خصوما للفلاسفة ؟ وما هى حكمتهم فى ذلك؟

* ان موقفهم من الوضوح بمكان ، وذلك ان موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين .

* ان الدين : الهيات وأخلاق تستند الى الوحى والوحى معصوم ، والفلسفة الهيات وأخلاق تستند الى العقل والعقل يخطىء ويصيب ، وهو حينما يخطىء لايعلم يقينا أنه أخطأ ، وحينما يصيب لا يعلم يقينا انه أصاب .

* ويقولون ، او لسان حالهم يقول :

« لقد ضمن الله لنا العصمة فى الوحى ، ولم يضمن لنا العصمة فى الآراء العقلية »

* وحينما أخذ المتفلسفون يترجمون كتب اليونان وغيرهم قال معارضو الفلسفة :

« اذا كان ما عند اليونان فى العقائد حقا فعندنا ما هو احق منه وهو عقائد الاسلام لأنها بالأسلوب

الالهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه ، ونحن اذا فى غنى عن عقائدهم واذا كان ما عندهم باطلا فنحن فى غنى عن البـاطل ، وكذلك كان موقفهم من الأخـلاق بمعناها العام ان كانت أخلاق اليونان فاضلة فعندنا ما هو أفضل منها ولم تتم مكارم الاخلاق الا فى العهد الاسلامى (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وان كانت أخلاق اليونان فاسدة فنحن نعوذ بالله من كل فساد .

* وعارضوا الترجمة فى الجانب الالهى وعارضـوها فى الجانب الأخلاقى ... ولكنهم لم يعارضوها وانما شجعوا عليها فى جانب العلوم المادية : مثل الطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ... وعـارضوا التفلسف بكل ما أوتوا من قوة .

* ولكن التيار الفلسفى استمر فى المجتمع الاسلامى ، واذا كان قـد تهافت فى المشرق بتأثير حجة الاسلام فانه قد ازدهر فى المغرب على لسان ابن ماجة وابن طفيل وابن رشد .

* أما تبرير الفلاسفة لموقفهم فى مواجهـة معارضة خصومهم فانـه يلخصه ما كتبه ابن طفيل فى رسالته « حى بن يقظان » ومـا كتب ابن طفيل رسالته هذه او قصته الاليبرر موقف الفلاسفة ويشـد من أزرهم بالنسبة لمـا يعترض عليهم بـه من مخالفة الفلسفة للدين .

وتحـرى ابن طفيل فى ما كتب أربعة أهداف :

١ ــ هل يصل الانسان بعقله الى اثبـات وجـود الله تعـالى والى رسم طريق للسلوك يرضى عنه الله سبحانه ؟

٢ ــ هــل يصل الانسان روحيا الى القرب من الله تعالى والى المعرفة عن طريق مباشر ، أو بتعبير آخر : هل الطريق الصوفى طريق موصل ؟ وان كـان ابن طفيل لم يستعمل كلمة تصوف .

٣ ــ هــل يلتقى الطريق العقلى والطريـق الروحى فى انسـجام لا اختلاف فيه ؟

هل يلتقى ذلـك كله بمبادىء الوحى أو بالطريق الدينى فى تناغم ووحدة وائتلاف ؟

ومن أجل الاجابة على هذه الأسئلة كتب ابن طفيل قصة ، قصة خيالية عقلية لطيفة .

انها قصة طفل نشأ فى جزيرة منذ طفولته الأولى، وأخذ ابن طفيل يتدرج معه فى تطوره الجسمى الى ان اكتمل جسميا ، وأخذ يتدرج معه فى تطوره العقلى من فكرة الى فكرة ومن مبدأ الى مبدأ حتى وصل الفتى الى اثبات وجود الله بطريق العقل المحض .

والحق ان ابن طفيل كان بارعا فى تسلسله بالافكار والمبادىء الى أن انتهى الى غايته وهى أن الانسان يستطيع بعقله أن يثبت وجود الله وبدأ فتانا يفكر فرأى ان كل موجود يمكن الاتصال به على وضع يليق به فأخذ يفكر فى كيفية الاتصال .

ونحب أن ندع ابن طفيل نفسه يتكلم :

انه يرى أن هناك رتبة من المعرفة ينتهى اليها بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى وهذه الرتبة : تعتبر طورا من أطوار « حى بن يقظان » فانه بعد أن شب وترعرع وبلغ دور التمييز، وانتهى الى مرحلة التعقل والاستدلال ، والبرهان :

أدرك بطريق النظر ، حقيقة الجسم، وأنه متناه ، وأدرك أبدية العالم وحصلت عنده فكرة نظرية عما وراء الطبيعة ، واستقام له الحق ، بطريق البحث والنظر .

فلما انتهى من هذه المرحلة ، بدأ فى المرحلة الثانية مرحلة الوصول الى الحكمة بطريق الرياضة ،

وكان مما يقوم به من الارتياض :

انه كان يلازم الفكرة فى الموجود الواجب الوجود . ثم يقطع علائق المحسوسات ، ويغمض عينيه ويسد أذنيه ، ويضرب جهده ، عن تتبع الخيال ، ويروم ، بمبلغ طاقته ، أن لا يفكر فى شيء سواه ولا يشرك به أحدا .

ويستبين على ذلك : بالاستدارة على نفسه ، وبالاستحثاث فيها فكان اذا اشتد فى الاستدارة . غابت عنه جميع المحسوسات ، وضعف الخيال وسائر القوى التى تحتاج الى الآلات

الجسمانية ، وقوى فعل ذاته ، التى هى بريئة من الجسم .

فكانت فى بعض الأوقات ، فكرته قد تخلص عن الثوب ، ويشاهد بها الموجود الواجب الوجود .

ثم تكر عليه القوى الجسمانية ، فتفسد عليه حاله ، وترده الى أسفل السافلين فيعود من ذى قبل .

فان لحقه ضعف يقطع به عن غرضه ، تناول بعض الأغذية بحسب شرائط معينة ثم انتقل الى شأنه .

ثم رأى أن الحركة من أخص صفات الأجسام ، وكان يريد طرح أوصاف الجسمية عن ذاته ، فأخذ يقتصر على السكون فى مغارته مطرقا ، غاضا بصره معرضا عن جميع المحسوسات ، والقوى الجسمانية ، مجتمع الهم والفكرة فى الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة .

فمتى سنح لخياله سانح سواه ، طرده من خياله جهده وواقعه ، وراض نفسه على ذلك ، وذهب فيه مدة طويلة ، بحيث تمر عليه عدة أيام لايتغذى فيها ولا يتحرك .

وفى خلال مدة مجاهدته هذه : ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الأشياء الا ذاته ، فانها كانت لاتغيب عنه فى وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الأول الحق ، الواجب الوجود ، فكان يسوؤه ذلك ، ويعلم أنه شوب فى المشاهدة المحضة وشركة فى الملاحظة .

وما زال يطلب الفناء عن نفسه ، والاخلاص فى مشاهدة الحق ، حتى تأتى له ذلك ، وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما ، وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية ، وجميع القوى المفارقة للمواد ، والتى هى الذوات العارفة بالموجود الحق وغابت ذاته فى جملة تلك الذوات ، وتلاشى الكل واضمحل ، وصار هباء منثورا ، ولم يبق الا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود ، وهو يقول بقوله الذى ليس معنى زائدا على ذاته :

« لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار » ففهم كلامه ، وسمع

نداءه ، ولم يمنعه عن فهمه ، كونه لايعرف الكلام ولا يتكلم •

واستغرق فى حالته هذه ، وشاهد ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ا هـ •

وكان كل ما وصل اليه ابن طفيل، عن طريق الرياضة ، منسجما تماما ــ فيما يزعم ــ وما وصل اليه عن طريق العقل •

وابن طفيل فى هذا يسير على نمط سار فيه ابن سينا من قبله ، وهذا التوافق بينهما بالغ الأهمية : انهما من كبار المفكرين ويكاديكون متطابقا تماما فى أن العقل الانسانى يصل الى الله بالدليل والبرهان ، وفى أن القلب الانسانى يصل الى الله بالرياضة الروحية : العبادة : صلاة وصياما وذكرا ••••

لقد أثبت ابن سينا وجود الله بالعقل ، ودليله المرتكز على :

« الامكان والوجوب »

معروف مشهور

أما جانب الرياضة الروحية فيقول عنها فى كتابه الذى كان يعتز به كثيرا ، والذى ألفه فى أواخر حياته وهو كتاب الاشارات •

« ثم اذا بلغت به الارادة والرياضة حدا مّا ، عنت له خلسات من اطلاع نور الحق، لذيذة كأنها بروق تومض اليه ، ثم تخمد عنه •

ثم أنه تكثر عليه هذه الفواشى اذا أمعن فى الارتياض ، فكلما لمح شيئا عاج عنه الى جناب القدس ، فيذكر من أمره ، فيغشاه غاش ، فيكاد يرى الحق فى كل شيء • ثم أنه لتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوف مألوفا والوميض شهابا بينا ، وتحصل له معرفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة •••

الى ماوصفه ــ على حد تعبير ابن طفيل ــ من تدريج المراتب وانتهائها الى النيل بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق•

وحينئذ تدر عليه اللذات العلى ، ويفرح بنفسه لما يرى بها من أثر الحق ويكون له فى هذه المرتبة نظر

الى الحق ، ونظر الى نفسه ، وهـو بعد : متردد ثم أنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جنـاب القدس فقط ، وان لحـظ نفسه فمن حيث هى لاحظة وهناك يحق الوصول »

ونعود الى ابن طفيـل

أنه بعد أن وصل الى الله بطريق العقل وبطريق الرياضة الروحيـة ، تأمل فى ثمرة الطريقين فوجـد أن نتيجتيهما واحدة ، وانهما لايختلفان الا فى درجة الوضـوح وأبان عن ذلك ، وبذلك يكون قد وصل الى الاجابة عن السؤال الثالث .

وأتاحت المصادفة للشيخ ــ حى ابن يقظان ــ أن يلتقى برجل يدين بدين منزل صحيح وتفاهم معه فى كل ما وصل اليه عقله ، وما وصل اليه قلبه فوجد التطابق التام، ووصل ابن طفيل برسالته اللطيفة الحجـم الى كل ما كان يرجو أن يصل فيـه الى جواب صحيح يرضى العقل ويرضى الدين ... وكانت آمـال وأمانى فلاسفة الاسلام الوصـول ــ عن طريق المحاولات العقلية المستمرة ــ الى التوفيق بين الدين والفلسفة .

* والفلسفة فى الاسـلام اذن تحاول جاهدة أن تعلن فى نوع من الدعاية المزخرفة انها تتفق مع الدين فيما أتى به الدين ، وانها لا تختلف عنه فى مبادئها .

* وعند كل فيلسوف فى الاسلام وعند كل مؤرخ للفلسفة الاسلامية فقرات وفصول بعنوان « التوفيق بين الدين والفلسفة » سواء أكان هذا العنوان ظاهرا أم مستورا أنجحت الفلسفة فى هذا أم أخفقت ؟

* ومن أجل الاجابة على هـذا السؤال نحب أن نتحدث أولا عن الجو الذى نشأت فيه الفلسفة .

* انها نشأت عند قدماء اليونان قبـل الميلاد .

* وكانت اليونان فيمـا قبـل الميلاد بقرون تدين بدين وثنى ، كانوا يؤمنون بمجموعة من الآلهـة قابلة للزيادة عن طريق الزواج والتناسل . وهى آلهـة تحب وتبغض وتتنازع وتتشاجن ، ويحـاول بعضـها أن يعتدى على الأعراض وعلى السلطان ، وهى فى نزاع مسـتمر . ثـم هى

تحـابى من البشر من يقـدم لهـا القرابين والأضاحى وتخـذل من لم يفعـل ذلك ، وكانت فى مسـتواها الأخلاقى العـام بعيـدة عن الكمال والفضيلة ، وكان الالف والتكرار والتعود يجعل هذا الوضع للآلهـة وضـعا عاديا لا يثـير نقـدا ولا استنكارا .

* بيد أنه نشأ فى القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد فى بلاد اليونان مجموعة كثيرة من المفكرين النابهين ، بل ومن العباقرة ، وفكروا وتأملـوا ونقـدوا واسـتنكروا وانفصـلوا عن الدين يعلنون ذلك فى صخب أو فى هدوء ، وفى كثير من الأحيـان يسرون ذلك ويخفونه فى نفوسهم ، ولكنهم على أى وضع كانوا ، ألفوا مذاهب آمنـوا بهـا واعتقدوها مذاهب بشرية لم تؤسس على وحى ولم ينزلها الله على لسان أنبيائه ورسـله .

* ألغـوا مذاهب تتصل باللـه سبحانه وبالآخرة وبالسلوك الانسانى الذى يجب ان يلتزمه الانسان .

* انهـا مذاهب مؤسسة على العقل : عنه تصدر ، ومنه تنبـع ، وعليه تقوم ، ان العقل ينشئها ويسير معها خطوة فخطوة حتى يصل بها — فى تدرج — الى غايتها ، انها مذاهب عقلية ، انها مذاهب بشرية . انهـا فى المستوى البشرى .

* واذا كانت أسطورية الدين اليـونانى هى التى دفعت هـؤلاء المفكرين على ما أقدموا عليـه فان الأمر لم يكن كذلك فيما قبل .

* كان الوضع فيما قبل التفرقة بين مجالين من مجالى المعرفة :

١ — مجال المعرفة الحسية ، وهو مجال آلات المعـرفة فيه الحواس وموضوعه المـادة ، والعقل يجول فيه مستنبطا ومستنتجا ، فيؤلف فيه ويركب ويعيـد تأليفـه وتركيبه ، ويستخرج قوانينه وقواعده ، فتكون الحضـارة ويكون العـلم بمفهومه الغربى الحديث أو بمفهومه الكونى المـادى : طبيعة وكيمياء وفلك .

٢ — مجـال المعـرفة الروحية والأخلاقية وهو مجال ليست الحواس مصـدره وليس العقـل منشئه أو مبتدعه ، وانما مـرده الى الوحى ينزله الله على ألسنة من يصطفيهم لحمل الرسالة من خلقه ، انه مـن

اختصاص الله تعالى يبينه على ألسنة رسله .

* وسار الأمر على هذه الكيفية الى العهد اليونانى القديم : فخلص الانسان فى مجال الحس ـ وهو اختصاصه ـ وخاض فى مجال الروح بعقله ، وليس للعقل فى مجال الغيب الا محاولة الفهم : اذ الانشاء والابتداع فى هذا المجال ليس للانسان ، وليس من اختصاصه .

* وجاءت المسيحية فردت الأمر الى حالته الطبيعية : عالم الحس للانسان ان يفكر فيه ويستنبط وعالم الروح يتفهمه الانسان عن طريق الوحى .

* ولكن التيار الفلسفى اليونانى ـ وقد أصبح سنة مألوفة ـ غزا الجو المسيحى وأخذ مكانته المرموقة بين المفكرين الغربيين فنشأ فيهم الفلاسفة ونشأت فى أجوائهم الفلسفة .

* وأخذ فلاسفة الغرب يحاولون التوفيق بين المسيحية والفلسفة وكان أبرزهم فى هذا المجال الفيلسوف « توما الاكوينى » .

* واذا قرأت « ديكارت » تجده كأنه كان يمشى على الشوك وهو يتفلسف محاولا ـ ما استطاع الى ذلك سبيلا ـ مداراة القساوسة وعلماء الدين ، والجو العام الفلسفى اذ يعلن ، فى مجاملة بالغة ، أنه يؤيد الدين ولا ينحرف عنه وأنه يقدم انتاجه ويعرضه على علماء الدين متقبلا ملاحظاتهم التى يوليها عنايته الفائقة . كان هذا موقف ديكارت وغيره ...

* وجاء الاسلام : يهدى للتى هى أقوم ، وليخرج الناس من الظلمات الى النور ، وليقود الانسانية نحو مرضاة الله تعالى ، ووضع الأمور فى نصابها مبينا بأسلوب لا لبس فيه أن : العقيدة ، والأخلاق ، ونظام المجتمع ، والتشريع ، من أمر الله تعالى . وقد شاءت رحمته سبحانه أن يرسم للانسانية طريقها المعصوم فى كل ذلك فأرسل الرحمة المهداة ، خاتم النبيين ـ محمدا صلى الله عليه وسلم :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » .

* ولكن الفلسفة اليونانية دخلت على استحياء فى عهد المنصور ، وقوى جناحها فى عهد المأمون ، وأصبح فى الأمة الاسلامية فلاسفة، وسنبين فى استفاضة ـ ان شاء الله ـ ذلك فيما بعد .

د . عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

المؤمن يلوم نفسه

عن أنس بن مالك أنه قال لما نزلت هذه الآية : «ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى الى آخر الآية » جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال انا من أهل النار واحتبس عن النبى صلى الله عليه وسلم فسأل النبى صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو وما شأن ثابت أشتكى قال سعد أنه لجارى وما علمت له بشكوى قال فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت نزلت هذه الآية ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو من أهل الجنة .

رواه مسلم

الحكمة فى تعدد الزَّوجات والطلاق فى الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير

قال الله تعالى :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » (الآية ٣ من سورة النساء)

« الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » (الآية ٢٢٩ من سورة البقرة)

البيان

لم يكن زواج العربى أو غيره قبل الاسلام ، مُتقيِّداً بعدد معين من النساء ، بل كان يتزوج منهن العدد الذى تتيحه له قدرته ، وكان هذا أمرا عاديا لا يثير عجبا ، ولا يستتبع تَثْرِيباً ، لا من علية القوم ولا من سفلتهم .

ولما أنزل الله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » للحيلولة دون المآثم والمظالم التى كانت تستتبعها تلك الحرية فى تعداد الزوجات ــ لما أنزلها الله ــ أمر النبىُّ صلى الله عليه وسلم مَنْ كان عنده أكثر من أربع نساء ، أن يمسك منهن أربعا يختارهن كما يشاء ، ويفارق سواهن ليتزوجن من يقوم بأمرهن .

وكان من هؤلاء رجل اسمه غيلان ، أسلم وهو زوج لعشر نساء ، فقال له النبى صلى الله عايه وسلم « أمْسك أربعا وفارق سائرهن » ومنهم قيسُ بن الحارث الأسدى ، أسلم وعنده ثمان نسوة ، فقال له صلى الله عليه وسلم « اختر منهن أربعا وخَلِّ سائرهن » أى

وفارق باقيهن ، ولهذا التشريع حكم عديدة نبينها فيما يلى :

١ ــ أن الرجل لا يستطيع أن يعول أكثر من أربع نساء ونسلهن غالبا ، فحتى لا يتردى النساء فى مزالق الفاقة ولا يتشرد الأولاد ، لم يشرع الله الزواج بأكثر من هذا العدد .

٢ ــ ان اباحة التعدد الى أربع كانت له آثار عظيمة فى زيادة المسلمين وكثرتهم أمام أعدائهم على امتداد العصور ، فخافوهم وفتّ فى أعضادهم ، فانطلق الاسلام يشق طريقه فى المشارق والمغارب لايخشى مخالفيه الذين يتربصون به الدوائر ولا يستطيعون منازلة رجاله .

٣ ــ ان الرجل لا يستطيع ــ غالبا ــ أن يُعِفّ أكثر من أربع ، فحماية للزوجات من الجنوح الى الرذيلة وشطط الهوى والجوع الجنسى ، أوجب الله عليه أن لا يتجاوز هذا العدد .

٤ ــ ان الزوجين قد يكونان متحابين ، ولكن الزوجة لا تنجب أولادا ؛ وكلاهما يريد البقاء مع الآخر ، فحفاظا على دوام عشرتهما ، وطلباً لانجاب الأولاد أبيح للزوج أن يجمع معها فى عصمته غيرها بحيث لا يزيد على هذا القدر .

٥ ــ ان الزوجة قد يكون لها أولاد ، ولكنها سيئة العشرة مع زوجها ، فلكيلا يطلقها فيتعرض أولادها للمتاعب الكثيرة ، أبيح له أن يتزوج سواها وهى فى عصمته ، ليستريح من سوء عشرتها معه ، ولتبقى مع أولادها لرعاية شئونهم .

٦ ــ ان الحرب يخوض غمارها الرجال ، فيموت منهم كثيرون ، وتتأيم بعدهم نساؤهم ، وتتيتم بناتهم ، ويفقدن من يعولهن ، كما أن عدد النساء فى معظم البلاد أكثر من عدد الرجال ، فيتعرضن بسبب ذلك لأخطار العرض ، وأخطار الفاقة ، فلهذا عالج الاسلام كثرتهن وأخطارها باجازة التعدد على النحو الذى جاء فى الآية الكريمة .

٧ ــ ان الزام الزوج بزوجة واحدة مهما كانت صفاتها وأحوالها يؤدى الى انتشار البغاء السرى

والعلنى ، واتخـــاذ الخليــلات ، وانجـــاب أولاد غير شرعيـين ، لا ينتسبون الى والد شرعى ، وتلك ظاهرة يشهد بها الواقع ، فان الأمم التى تدين بالزوجـة الواحـدة ، تنتشر فيها الدعارة بشتى ألوانهـا المخزية ، وبعض الخاطئـات يحملن سـفاحا ، ثم يلدن فى دور الولادة العامة ، ومنهن من يلدن فى عيادات طبيــة خاصــة ، ومنهن من يجهضن أنفسهن بشتى الوسائل ، وكثيرات منهن يمارسـن رذيلة السـفاح ولا يحملن : امّا لأنهن عاقرات ، أو لأنهن يستعملن وسائل مانعـة من الحمل .

ولقد ازدادت نسبة الانحراف فى هـذا العصر ، وولادة الأولاد غير الشرعيين ، وقد أحصى بعض المعاهد المعنية بالاحصاء فى احدى الدول التى توجب شريعتها الزوجة الواحدة — أحصى الأولاد الشرعيـين وغـيرهم سـنة ١٩٦٨ م فوجد نسبة أولاد السفاح الى الأولاد الشرعيين واحدا الى ستة ، وهذا الاحصاء لا يمثل نسبة السفاح على وجه الحقيقة، فانه يعتمـد علـى الـلائى ولـدن فى المستشفيات العامة من الفتيات اللائى لم يسبق لهن الزواج ، أو سبق لهن الزواج ، وتوفى أزواجهن ، والمطلقات مدنيا أو بسبب ثبوت جريمة الزنا عليهن .

وقد أغفل من حسابه اللائى ولدن بالعيادات الخاصة، والنساء المتزوجات اللائى يلوثن فراش الزوجية بالسفاح وغير المتـزوجات اللائى يسـتعملن العقاقير المـانعة للحمل ، ويمارسن هذه الرزيلة ، وما أكثر السفاح الذى لم يستعقب أولادا بسبب استعمال هذا العقار فلو استطاعت الجهة التى قامت بهذا الاحصاء ، أن تتعرف هذه الحالات وما أكثرها — لظهرت نسبة هذه الرزيلة بشكل مروع خطير .

ولا غــرابة فى ذلك ، فان قصر الزوج على الزوجة واحده لا يملك أمر التخلص منها بالطلاق ، أو الزواج بأخرى وهى فى عصـمته ، من أهم الأسباب المستتبعة لتلك الجريمـة وأثارها ، فقد تكون المرأة غير جميلة فلا ترضى زوجها ، أو جميلة ولكنها شـاذة الطبع مشاكسة أو متساهلة

فى عرضها وهو لا يستطيع اثبات انحرافها حتى يطلقها ، أو غير ذلك من الأسباب ،فيضطر الزوج الى طلب المتعة فى سواها بطريق غير شرعى ، فيتخذ من الخليلات ما شاء له هواه وقد شاعت الفاحشة فى دول بأكملها من أجل ذلك ، وأطلقوا عليها عنوان الحب تخفيفا لاسم الجريمة،ولا تجد أبا أو أما يمنعان ابنتهما عن ممارسة حريتها الجنسية ؛ لأنهما يمارسانها بنفس القدر الذى تمارسه ابنتهما أو أكثر •

فأى الأمرين أجدى على الخلق وأنفع للمجتمع ؟•• أن يباح للرجل تعدد الزوجات بطريق شرعى يستتبع أولادا شرعيين ، أم أن يقتصر على زوجة واحدة لا يتعداها ولا يستطيع طلاقها ان وجد بها ما يمنع من دوام العشرة الراضية الوديعة معها ويتخذ من الخليلات ما شاء وقد يتجاوز أربعا ، ثم ينسل منهن أولاد غير شرعيين ، لا شك عند المنصف فى أن الأول هو الأجدى على الأخلاق ، والأنفع للمجتمع ، اننا نسمع دعوات صريحة من نواح عديدة فى أوروبا وأمريكا تدعو الى تعدد الزوجات وفق ما كان الأمر يجرى عليه قبل أن تتدخل الكنيسة لمنع تعدد الزوجات ، فقد كان التعدد موجودا فى الوسط المسيحى بين الملوك والرعايا ، ثم تدخلت الكنيسة فمنعته من غير نص تستند اليه••ويلاحظ أن التوراة هى العهد القديم عندهم ، وهى لا تحرم التعدد بل تجيزه ، فمن أين جاءوا بحظره وتحريمه ؟ ••

متى يباح تعدد الزوجات فى الاسلام:

ان شريعة الاسلام لم تطلق اباحة التعدد للرجال ، بل قيدتها بأن لا يخافوا الجور عليهن فى حقوقهن المشروعة ، من اعفافهن ورزقهن وكسوتهن واسكانهن ، فان خافوا الجور وعدم العدل وجب الاقتصار على زوجة واحدة ، وحرم التزوج بأكثر منها ، قال تعالى « فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » ثم قال « ذلك أدنى أن لا تعدلوا » أى ذلك الاقتصار على الزوجة الواحدة ، أقرب من أن تجوروا عليهن ، أى أنه يبعدكم عن الجور فى حقهن •

وانما حرم التعــدد حينئــذ لأن الجور حرام ، فما يؤدى اليه يكون حراما .

وقد أصبح الجور فى زماننا هذا متوقعا بل حاصلا بطريقة عامة لكل من يتزوج أكثر من واحدة،لارتفاع تكاليف المعيشــة وتعدد أنواعها ، وحاجة أولاد الزوجات المتعــددات الى التربية الحسنة ، وثقل تكاليف هذه التربيةكما هومشاهد وملموس، وهذا لا يجعل الأزواج قادرين على العدل بين زوجاتهم المتعددات ، ولا بين أولادهن ، ويبعث على الهرب من القسم العادل بينهن ، والانحياز الى بعضهن ، ليتجنبوا مطالب سائر الزوجات وأولادهن ، وما أقسى هذا فى شريعة الاسلام الحريصــة على العدل والانصاف .

أضف الى هذا انحدار مستوى الأخلاق بين الرجال والنساء فى هذا العصر ، فحب المــرأة حظ نفســها وايثارها مصــلحتها على حق غيرها يدعوها الى حمل زوجها على هجر ضراتها وظلمهن بمختلف الوسائل ، واستجابة الأزواج لنداء الجور من أثيرة زوجاتهم على أنفسهم أمر واقع لا شك فيه ، فاذا كان سلفنا الصالح اسـتطاع أن يعــدل بين زوجــاته العــديدات فان ذلك لقوة الوازع الدينى والخلقى عنده وعند زوجاته، أما فى هذا العصر فان العدل بينهم متعذر لضعف الوازع الدينى .

ولو أن رجلا فى زماننا له أخلاق أولئك الصــالحين وجمع بين أكثر من واحدة الى أربع وهو يعتقد أنه سـيعدل بينهن فان ذلك جائز حتما بنص الآية الشريفة .

ولكن هذا اللون من الرجال يندر وجوده الآن ، فلو جمــع أحد لا تتوفر فى نفسه دواعى العدل ، فمع حرمة الجمع يصح الزواج .

والأجدر بالناس فى هذا العصر تفادى هذه الحرمة بالاقتصــار على الزوجة الواحدة ، ما لم يجد الزوج من الدواعى الملحة ما يقتضى التعدد، فان كان الأمر كذلك فليفعل ، وعليه أن يلزم نفسه العدل والمســاواة فى الحقوق العينية ، وبشاشة الوجه ولين الكلام قدر الامكان،وأما ميل القلب

فليجتهد فى العدل فيه بقدر الطاقة البشرية ، وما لم يقدر عليه فمعفو عنه ، وينبغى أن يقول ما كان يقوله النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » يعنى بذلك محبة القلب وميله ، فان ذلك الى الله تعالى الذى يحول القلوب كيف يشاء .

وقد يكون من أسباب الميل وزيادة الحب ، أمور غالبة فى بعض النساء لا تتوافر فى ضراتهن كطيب القلب ولين الجانب ، وبشاشة الوجه وسماحة النفس ، وحسن التأويل لتصرفات الزوج ، وغير ذلك من الفضائل التى تقهر الزوج على الميل القلبى نحو صاحبتها ، ولكن على الزوج — مع هذا — أن يعالج قلبه ويحاول العدل بينهن فى الحب قدر الطاقة البشرية ، كما عدل بينهن فى العينيات ، والله تعالى يغفر ما يتجاوز طاقته .

وقل أن نجد اليوم فى البيئات الواعية من يقدم على هذا الامتحان الرهيب الا مضطرا ، فموارده صعبة وعلومه غير هضمية ، فكم فيه من متاهات ، وكم له من دروب مخيفة ، وكم له من آثار عنيفة على الأولاد وعلى المجتمع ، وكم له من مشكلات فى دور القضاء .

ما غيَّر أهل الوعى ؟ ! . فانهم لا يبالون بالتعدد ، ولا يهتمون بمسئولياته ، ولا يحسبون لآثاره حسابا ، وغالبا ما يكون الباعث لهم عليه الاستكثار من الأولاد للاستفادة من كسبهم كما هو الحال فى بلاد الريف ، ولعل فيما ذكرناه عبرة وتبصرة لأولى الألباب ، فان الله تعالى لا يشرع حكما الا لما يترتب عليه من المصالح والمنافع . فلا ينبغى للمسلم أن يحول تشريع ربه الى غير هدفه . ونستطيع أن نقول استنباطا من واقع الحياة المصرية ان أمر التعدد فى بلادنا غير مخيف لأنه فى سبيله الى الاضمحلال ، لما يحدثه فى زماننا هذا من متاعب مالية وقضائية ، ومشكلات اجتماعية — كما مر بيانه — فليس الأمر بحاجة الى جهد والتشريع للحد من تعدد الزوجات .

قضية من الطرائف

من أطرف القضايا التى عرضت على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قضية تدل على امكان صبر المرأة عن زوجها ثلاث ليال ، أخذا من آية اباحة التعدد فى الزوجات . وخلاصتها أن امرأة جاءته فقـالت : ياأمـير المؤمنين . زوجى يصـوم النهـار ويقوم الليل ، فقال لها : نعم الزوج زوجك ، فجعلت تكرر عليه القول ويكرر عليها الجواب ، فقال كعب الأسـدى يا أمير المؤمنين : هـذه الزوجة تشكو زوجها فى مبـاعدته اياها عن فراشه ، فقال له عمر : كما فهمت كلامها فاقض بينهما ، فأحضر زوجها وقال له : ان امرأتك هـذه تشكوك ، فقال : أفى طعـام أم فى شراب ؟ قال : لا ، قالت المرأة :

ياأيها القاضى الحكيم رشـده
ألهى خليلى عن فراشى مسجده
زهّده فى مضـجعى تعبّده
فاقض القضا كعب ولا تردده
نهـاره وليـله مـا يرقـده
فلست فى أمر النســاء أحمده

فقال زوجها :

زهدنى فى فرشها وفى الحجل(١)
أنى أمرؤ أذهلنى ما قد نزل
فى سورة النحل وفى السبع الطول
وفى كتاب الله تخويف جلل(٢)

فقال كعب :

ان لها حقا عليـك يارجـل
نصـيبها فى أربع لمن عقـل
فاعطها ذاك ودع عنك العلـل

ثم قال : ان الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام بلياليها تعبد فيها ربك فقال عمر : والله ما أدرى من أى أمريك أعجب ، أمن فهمك أمرهما ، أم من حكمك بينهما ، اذهب فقـد وليتك قضاء البصرة .

---

(١) الحجل جمع حجله وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس.

(٢) السبع الطول ـ اى الطوال وهى السـور السـبع الطويلـة فى أول القرآن ، والتخويف الذى جاء فيها وفى سورة النحل ، المراد منه ما جاء فيها من آيات الوعيد على ترك الطاعات وغشيان المعاصى .

الطلاق وحكمته

أنزل الله تعالى فى الطلاق عدة آيات لتشريع أحكامه المختلفة ، منها قوله تعالى « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » .

وفى هذه الآية شرع الله الطلاق ثلاث مرات ، اثنتان منهما تحل المراجعة بعد كلتيهما وقبل انقضاء عدتها منهما ، والثالثة هى التى عبر الله عنها بقوله جل ثناؤه «أوتسريح باحسان» أخرج أبو داود وجماعة عن أبى رزين الأسدى ، أن رجلا قال : يا رسول الله انى أسمع الله تعالى يقول.. « الطلاق مرتان فأين الثالثة » ؟ فقال « التسريح باحسان هو الثالثة »

وقد كان الطلاق والمراجعة قبل نزول هذه الآية بدون قيد ولا عدد استتباعا للعهد الجاهلى ، أخرج الامام مالك والشافعى والترمزى وغيرهم عن عروة قال : (كان الرجل اذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضى عدتها ، كان ذلك له وان طلقها ألف مرة ، فعمد رجل الى امرأته فطلقها ، حتى اذا ما شارفت انقضاء عدتها ، ارتجعها ثم طلقها ، ثم قال : والله لا أوويك الىّ ولا تخلين أبدا ، فأنزل الله تعالى الآية .

بهذا التحديد لعدد المرات فى الطلاق ، قضى على استغلال الزوج الماجن لاباحة الطلاق بلا قيد ولا شرط فى الاضرار بالزوجة وتعذيبها بتكرارالطلاق والمراجعة كما يشاء ، فلا هو يتركها حتى تنقضى عدتها فتتزوج غيره ، ولا هو يمسكها بالمعروف .

وحكمة مشروعية الطلاق أن الزوجين قد يظهر لهما بعد الزواج أنهما غير مؤتلفين فى الطباع والأخلاق ، وان دوام العشرة الطيبة بينهما متعذر ، أو قد يطرأ على عشرتهما الطيبة من الأسباب المالية أو الخلقية أو غيرها ما يعكر صفوها ويجعل حلوها مرا ، ونعيمها شقاء ، ويتعذر علاج الجراح التى سببتها تلك الأحداث ، أو أن تكون الزوجة عاقرا والزوج ليس كذلك ويريد الانجاب ولا يستطيع أن يجمع بين امرأتين ، فلهذا كله شرع الله الطلاق حتى تستقيم لكليهما الحياة ان أصرا أو أحدهما على الفراق والانفصال، أو يعود الى المسىء منهما رشده

فيؤنبه ضميره على ما اقترف ، ويعده الى رجعة يسود فيها المعروف ، وتزول فيها دواعى الخصومة والانفعال .

ولهذا شرع الله عدة للمطلقة كافية لمراجعة النفس وتهذيبها بعد درس الطلاق القاسى على كليهما ، وشرع الرجعة فى أثنائها ، وجعل الطلاق الذى تحل بعده الرجعة مرتين أثناء العدة تكرارا للتأديب ان عادت المساءة مرة أخرى ، وشرع المراجعة مرتين رحمة بالزوجين ، ورغبة فى دوام الترابط بينهما .

فان تجددت المساءة بعدهما ولم يمكن رأب الصدع وجبر الكسر ، وطلقها الزوج للمرة الثالثة ، فلا يحل لهما أن يتراجعا ولا أن يعقد عليهما لا فى العدة ولا بعدها،تأديبا للمسىء منهما ، ولتعذرحسن العشرة بينهما. فان تزوجت غيره بعد انقضاء عدة الطلاق الثالث ، ثم طلقها الزوج الثانى ، جاز للأول أن يتزوجها بعد أن يطلقها الثانى وتنقضى عدتها منه عملا بقوله تعالى « فان طلقها فلا فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ويعود اليه الحق فى عدد الطلاق بالنسبة اليها كما لو كانت زوجةجديدة.وانما ساغت له العودة اليها شرعا بعد تعذر العشرة بينهما من قبل لأن فيما حدث من أدب الطلاق الثلاث وحرمان كلا الزوجين من الآخر ، وتزوج المرأة بزوج آخر ثم تطليقه لها ـ لأن فى كل ذلك ـ ما يكفى لتهذيب المسىء ورده الى الصواب والحكمة فى المعاملة .

لماذا كان الطلاق من حق الزوج

جعل الله تعالى حكم الطلاق من حق الزوج لحكم عديدة ، (منها) أن الزوج هو الذى أعطى الصداق فلا يليق ولا يجمل أن ينزع منه حق الطلاق ويعطى للزوجة التى لم تدفع له شيئا تخاف ضياعه ، حتى لا تستعمله سلاحا ضده عند غضبها منه ، فتضيع عليه ما بذله فى سبيلها ، وقد يكون مالا كثيرا أنفق فيه الجهد حتى دبره ، فضلا عن أنها بهذا الطلاق تحمله على أن يدبر غيره ليتزوج سواها ، وقد يعجز عن ذلك فيتضاعف ضرره ، أضف الى ذلك أنها اذا طلقته استفادت نفقة العدة وأجرة حضانة أطفالها منه ، وخسر الزوج كل شىء ، فيكون وضع هذا السلاح فى يدها شديد الخطورة عليه وعلى أولاده ، فلذا

جعل من حق الزوج دون الزوجة (ومنها) أن اعطاء حق الطلاق للزوج ، يجعله يتأنى فى استعماله حذرا من الأضرار المترتبة عليه فى ماله وفى أولاده،ولهذا نرى الأزواج يتحملون مرارة العيش ، ويصبرون على المتاعب الزوجية ، فلا يسارعون الى تطليق زوجاتهم ، أملا فى صلاح أحوالهن معهم ، وحرصا على مصلحة أولادهم ، وحذرا من ضياع ما انفقوه فى زواجهم بهن ، وما سوف ينفقونه عليهن فى العدة وأجرة الحضانة للأطفال ، وما يتكبدونه من الأموال فى القضاء عند الاختلاف، فضلا عن احتياجهم أو اضطرارهم الى العودة الى تجربة الزواج من جديد وخوفهم من الخلاف بين الزوجة الجديدة والأولاد وتحملهم فى سبيل هذا الزواج الجديد أموالا قد لا يستطيعونها ، وقد يفشلون فى هذا الزواج ، فلهذا كله جعل حق الطلاق للأزواج دون الزوجات ، فهم أكثر منهن حرصا على دوام العشرة وازالة أسباب الخلاف ، ليتجنبوا تبعات الطلاق السيئة عنهم .

لماذا لم يجب الطلاق أمام القضاء

لم يوجب الشرع الحكيم أن يكون الطلاق أمام القاضى ، لأنه سوف يسأل المطلق عن دواعيه ، وقد يكون منها ما لا يليق اعلانه أمامه ، وعلى مسمع المتقاضين ، كالزنا والسرقة ، فان فى اعلان ذلك تشهيرا بالزوجة وفضيحة لها ولأسرتها وأولادها ، وقد يترتب على ابدائه أن يقتل الزوجة أهلها ثأرا لكرامتهم وشرفهم ممن لوثته ، ويقتلوا من اعتدى عليها وفسق بها ، وهيهات أن يتزوجها غيره بعد أن استعلن أمرها أمام القضاء ، فلهذا جعل الطلاق حقا للزوج يمارسه دون تشهير واعلان.

ويعتبر تشريع الطلاق فى ذاته وفى عدده ، وعدم وجوبه أمام القضاء ، وأن أسبابه ليست قاصرة على الزنا وحق الرجعة بعده مرتين . ويعتبر الطلاق ـ بهذه الصيغة ـ من محاسن الشريعة الاسلامية الغراء ، ولهذا نرى المطلقة من رجل يتزوجها آخر دون تحرج من أنها طليقة لأن معظم أسباب الطلاق فى ديننا ترجع الى الشقاق ، ورب امرأة تكون غير موفقة فى عشرتها مع زوج ، فان فارقته وتزوجت سواه يحالفها التوفيق والسعادة .

مصطفى محمد الحديدى الطير

فى ذكرى إحراق المسجد الأقصى

للعلامة المودودى

— ٢ —

من الوطن القومى الى الدولة القومية:

رفعت حكومة بريطانيا قضية فلسطين الى جمعية الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧ . كأنها ترمى من ذلك الى أن الخدمة التى كانت ألقتها عصبة الأمم على عاتقها أدتها على ما يرام فلتتقدم الآن جمعية الأمم المتحدة : خليفة عصبة الأمم الراحلة ، بالقضية والتوصل بها الى الهدف المنشود ، فلندرس الآن موقف جمعية الأمم المتحدة التى حملت لواء نشر العدل والسلام فى الدنيا من قضية فلسطين و « اجراءاتها العادلة » حيالها .

قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود فى نوفمبر ١٩٤٧ م . فكيف صدر هذا القرار ؟ كان عدد الأصوات الى جانب التقسيم ٣٣ صوتا وعدد الأصوات ضد التقسيم ١٣ صوتا . وامتنعت عشر دول من التصويت . وهذا هو أقل نسبة الأصوات لاستصدار أى قرار فى الجمعية العامة . والى ما قبل بضعة أيام من صدور هذا القرار لم يكن من الممكن الحصول على هذا القدر من الأصوات.ولكن فى النهاية ركزت أمريكا ضغطها الشديد على كل من هايتى والفلبين وليبريا لانجاح قرار التقسيم ، والذى نجده مسجلا اليوم فى مضابط الكونجرس الأمريكى: أن أمريكا انتزعت هذه الأصوات الثلاثة باستخدام وسائل الارغام والاجبار كما أن جيمس فورستال كتب فى مذكراته : « قد بلغت الاجراءات فى تكريس الضغط على الأمم الأخرى وارغامها على التصويت الى جانب التقسيم درجة الفضيحة الصريحة .

وبعد استخدام هذه الوسائل البغيضة لاصدار قرار التقسيم قد أعطى ٥٥٪ من مساحة فلسطين الى ٣٣٪ من سكانها اليهود الدخلاء ، و ٤٥٪ من مساحتها الى ٦٧٪ من سكانها العرب الأصليين ، والحال أن اليهود ما كانوا يملكون من فلسطين أيام صدور القرار الا نسبة ٦٪ منها فقط • هذا هو العدل الذى التزمت به جمعية الأمم المتحدة بيد أن اليهود لم يرضوا حتى بهذه القسمة الضيزى فلجأوا عقب صدور القرار الى وسائل القتل والارهاب وتشريد العرب من ديارهم وأموالهم والسيطرة على أكثر ما يمكن من المساحة •

وان المجازر التى ارتكبها الصهاينة فى هذه المرحلة يشير اليها المؤرخ البريطانى توينبى فى كتابه : دراسات فى التاريخ قائلا : ان هذه المجازر لم تكن فى فظاعتها وهمجيتها أقل مما ارتكبه النازيون • وقد ذكر توينبى مذبحة دير ياسين بصفة خاصة حدثت فى ٩ أبريل ١٩٤٨ م • هجم اليهود على قرية دير ياسين العربية الكائنة فى قطاع العرب الذين كانوا عزلا عن كل سلاح • فجمع اليهود سكانها صفا واحدا، رجالا ونساءا وشيوخا وأطفالا • ثم رشوهم بالنار وأمعنوا فى تعذيبهم أثناء عملية القتل والذبح فبقروا بطون الحبالى وأخرجوا الأطفال وذبحوهم وقطعوا أوصال الضحايا وشوهوا أجسامهم حتى يصعب التعرف اليها ثم جمعوا الجثث وجردوها من الألبسة وألقوا بها فى بئر القرية • وسيّروا النساء بعد تجريدهن من الألبسة فى الشوارع عاريات • وأعلنوا بمكبرات الصوت فى مختلف الأنحاء بأننا نحن اليهود فعلنا بأهل دير ياسين كذا وكذا والذى يحب الأمان فليخرج من داره •

وعلى كل من به مسحة من العقل أن يتفكر هل يمكن أن تصدر هذه الأعمال من شعب فيه ذرة من الانسانية والنبل •

وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ م حينما كانت الجمعية العامة قد استأنفت بحثها فى موضوع القضية الفلسطينية أعلنت الوكالة اليهودية فى فلسطين اقامة دولة اسرائيل فى الساعة العاشرة من

الليل • وبادرت أمريكا وروسيا الى الاعتراف بها قبل غيرهما • مع أن الجمعية العامة لم تخول اليهود بعد اقامة دولتهم • وفى الوقت الذى أعلن فيه قيام دولة اسرائيل كان ستمائة ألف نفر من العرب الفلسطينيين مشردين منفيين من أملاكهم • كما كانت اسرائيل احتلت أكثر من نصف مدينة أورشليم (القدس) ضد اقتراح الأمم المتحدة •

وبعد اعلان دولة الصهاينة تدخلت الدول العربية المجاورة لانقاذ السكان العرب المنكوبين من العدوان الصهيونى ، ودخلت الجيوش العربية فلسطين • غير أن اليهود كانوا قد بلغوا من القوة والمنعة حيث لم تتمكن سائر الدول العربية المجاورة من قمعهم وقطع دابرهم • بل لما أصدرت الأمم المتحدة قرار الهدنة فى نوفمبر ١٩٤٨م كانت القوات الاسرائيلية استطاعت بسط احتلالها على أكثر من ٧٧٪ من مساحة فلسطين • والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذا الصدد من الذى وفر لليهود هذا القدر الهائل من القوة الحربية حتى ما تمكنت القوات الموحدة من خمس دول مجابهتها ؟

الجواب : أن الرأسمالية والاشتراكية كلتاهما كانت تزود اسرائيل بهذه القوة • بل معظم الأسلحة الحربية التى أستخدمتها اسرائيل فى تلك الآونة كانت أسلحة تشيكوسلوفاكية البلد الاشتراكى الذى يعانى اليوم الاضطهاد الروسى • والمناقشات التى جرت فى قاعة الأمم المتحدة حول قضية فلسطين مضابطها تبرهن على أن حاملى لواء النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى كانوا يتسابقون فى مساعدة اليهود ومناوأة العرب وكان من المتعذر القول على وجه التحديد أيهما أكبر مؤيد لليهود •

المرحلة الثالثة من المخطط الصهيونى:

وبدأت المرحلة الثالثة من المخطط الصهيونى التى طالت ١٩ عاما وبلغت مرماها فى ٥ حزيران ١٩٦٧ م باستيلاء الصهاينة على القدس والبقية المتبقية من فلسطين (الضفة الغربية) وشبه جزيرة سيناء بكاملها ومرتفعات الجولان الكائنة فى حدود سورية • كانت المساحة المحتلة فى

نوفمبر ١٩٤٨ م سبعة آلاف وتسعمائة وثلاثة وتسعين ميلا مربعا ٠

وأضيفت فى ٥ حزيران ١٩٦٧ م اليها تلك المساحة الجديدة التى تشتمل على سبعة وعشرين ألف ميل مربع ٠ ووقع حوالى المليون ونصف المليون من العرب تحت استعباد الصهاينة ٠ والسر فى نجاح اسرائيل فى تنفيذ مخططها المشؤوم فى هذه المرحلة يعود الى كون أمريكا أكبر مساند لها وقيام بريطانيا وفرنسا والدول الغربية الأخرى بخدمة تأييدها فى نطاقها ٠ أما روسيا والكتلة الشرقية فانها كانت الى ما قبل عام ١٩٥٥ م صديقة اسرائيل علنا ، ولما خابت آمال العرب فى الحصول على السلاح من أمريكا والدول الغربية للدفاع عنهم مالوا مكرهين الى الكتلة الاشتراكية التى سارعت الى تزويدهم بالسلاح رامية من ورائه الى كسب الفرصة لبث الاشتراكية فى دائرة نفوذها ٠ولكن هذا التحول لم يوصل البلاد العربية الى ما كانت تهدف اليه من كسب القوة والتكافؤ لمجابهة اسرائيل ، بل الذى حصل هو أن روسيا وجدت الفرصة المتاحة لبث بذور الاشتراكية امتدادا من مصر وسوريا الى اليمن ومن العراق الى الجزائر ٠ وأثر ذلك رفع الصراع بين الرجعية والتقدمية رأسه ، وتفاقم أمره حتى أصبحت هذه البلدان تتصارع بعضها مع بعض بدلا من أن تتخلص من اسرائيل ٠

والمعونة المالية التى قدمتها أمريكا لاسرائيل فى هذه المرحلة التى طالت ١٩ عاما قدرها ألف وستمائة مليون دولار ٠ كما أن ألمانيا دفعت التعويضات الهائلة لاسرائيل ومجموعها اثنان وثمانمائة مليون دولار كما أن اليهود فى العالم اغدقوا عليها بالتبرعات التى بلغ مجموعها أكثر من ألفى مليون دولار فقوت بها اقتصادها ٠

ومن الناحية العسكرية فقد جعلوها مدججة بالسلاح الحربى من رأسها الى أخمصها تكهن معه الخبراء الأمريكان قبل نشوب حرب حزيران بأيام بأن اسرائيل تستطيع أن تضرب جميع الدول المجاورة

فى خمسة أو ستة أيام . ومن الناحية السياسية فقد دعمتها أمريكا وحليفاتها فى كل مناسبة من المناسبات ونظرا للمساعدات الأمريكية لاسرائيل ماقدرت الأمم المتحدة على ردع اسرائيل من اعتداءاتها المتكررة ومن الغريب فى الأمر أن اسرائيل فى الفترة ما بين عامى ١٩٧٤م و١٩٧٥م . قد مزقت ٢٨ قرارا صادرا من الأمم المتحدة كما استصدرت الأمم المتحدة من سبتمبر ١٩٤٨ م الى نوفمبر ١٩٦٦م سبع قرارات نددت فيها بعدوان اسرائيل . غير أنها لم تعر أسماعها الى كل ذلك . ولتقدروا مدى جسارتها وعنادها كفاكم أن تعرفوا أنه لما تقرر انعقاد جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد حرب حزيران ١٩٦٧م صرح رئيس وزراء اسرائيل آنذاك ليفى أشكول: « لن ننسحب من المناطق المفتوحة أبدا ولو صوت مائة وواحد وعشرون عضوا من بين مائة واثنين وعشرين عضوا فى الأمم المتحدة ضدنا ولم يبق فى تأييدنا الا صوت اسرائيل نفسها ويرجع غرورها وعنادها وضربها الرأى العالمى عرض الحائط الى أن أمريكا وحليفاتها تعضدها بمعنى الكلمة وأصبحت الأمم المتحدة نفسها عاجزة أمامها .

ولكى تعرفوا مدى اهتمام أمريكا باسرائيل عليكم أن تجيلوا نظركم فى الموقف الذى وقفته أمريكا فى حرب ٥ حزيران . فقد قال رئيس أركان الحرب الأمريكى الجنرال ويلراكد للرئيس جونسون بأن اسرائيل اذا أخذت زمام المبادرة بشن الهجوم الجوى على البلاد العربية فلا جرم أنها ستنكس العرب فى خلال ثلاثة أو أربعة ايام . غير أن جونسون لم يقتنع بهذا التأكيد وطلب من رئيس المخابرات الأمريكية هيلمز (Helms) رأيه فى هذا الباب وافق بدوره على صحة تقدير ويلر فخف جونسون واتصل بروسيا . وبعد أن نال الاقتناع من روسيا أيضا بأنها لن تتدخل فعلا لمساعدة العرب ، « أوحى » الى اسرائيل بأن هذه هى الفرصة الذهبية للهجوم على البلاد العربية . ومضافا الى ذلك فان الأسطول السادس كانت سفنه تبحر قرب سواحل مصر

واسرائيل تترقب فرصة الخدمة التى تلزمها .

ومن ظواهر ممالأة بريطانيا لاسرائيل أنه كانت لبريطانيا الباخرتان الحربيتان حاملتا الطائرات احداهما واقفة فى مالطة والأخرى فى عدن مستعدتين لدخول المعركة بعد الانذار بدقيقة واحدة فقط . وقد نشرت جريدة صنداى تيمس البريطانية بعد الحرب بأيام كتابا أسمته : « حرب ٥ حزيران المقدسة » وجعلت عنوان الباب الذى يتناول قصة الاحتلال الاسرائيلى على القدس : « العودة بعد ٨٩٦ عاما . » ومن الظاهر الجلى أن كانت القدس الى ما قبل ٨٩٦ عاما محتلة من قبل الصليبيين لا من قبل اليهود. ويبد ومن ذلك بوضوح أن التعاون الانكليزى اليهودى تخالطه العواطف الصليبية . وأن الانكليز نظروا الى هذه الحرب نظرتهم الى الحروب الصليبية بل اعتبروها حلقة من حلقاتها .

وأما ما يتعلق بصداقة روسيا مع العرب فان روسيا قد أكدت لصديقها عبد الناصر ليلة فجر الهجوم على القواعد المصرية بأن لاهجوم من اسرائيل . ويشبه هذا التأكيد بالتأكيد الذى أعطته أمريكا لباكستان فى سبتمبر ١٩٦٥ م بأن الهند لن تخرق أبدا الحدود المعترف بها دوليا . والتعليق الذى أصدره أحد الدبلوماسيين اليوغوسلافيين على موقف روسيا هذا من العرب لمن الدروس القاسية يقول الدبلوماسى: اذا أرادت قوة كبيرة أن تتخلى عنكم تسقطكم من الطائرة بدون المظلات.

هذه هى الأسباب التى ضمنت لليهود نجاح حلقتهم الثالثة من التخطيط طويل الأمد وقد احتلوا بموجبها القدس والضفة الغربية وسيناء بكاملها .

الحلقة الرابعة من التخطيط الصهيونى :

والذى يواجهه اليوم العالم الاسلامى هو الحلقة الرابعة والأخيرة من التخطيط اليهودى . الحلقة التى يتململ الصهاينة لتحقيقها من ألفى سنة . ويتابعون نشاطهم الفعلى لابرازها منذ ٩٠ عاما .

ومن أجزاء هذه الحلقة جزءان هما من الأهمية بمكان • الأول : هدم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبناء الهيكل السليمانى على موقعه• وأن بناء الهيكل لايتم الا بهدم هذين الأثرين الاسلاميين • والثانى الاستيلاء على الأرض كلها التى يعتبرها اليهود (أرض الميعاد) ونود أن يكون المسلمون على معرفةجيدة بهذين الجزأين من المخطط •

أما الجزء الأول فإن اسرائيل كانت أحرزت القوة للاقدام على ابرازه حينما هجمت على القدس واحتلته فى حزيران ١٩٦٧ م• غير أنها بقيت بين الاقدام والاحجام لسببين : أولهما تخوفها وتخوف حليفتها أمريكا من حدوث رد الفعل العنيف فى العالم الاسلامى على هذا الاجراء وثانيهما اختلاف اليهود فيما بينهم من الوجهة الدينية على هذه الأسطورة • اذ هناك طائفة يهوديه تعتقد بأن الهيكل لايقوم باعادة بنائه الا المسيح فعلينا أن ننتظره حتى يظهر ويبنى الهيكل مرة ثانية • ويقول بهذا الرأى اليهود المحافظون الرجعيون • كما أن الطائفة الثانية التى تعد من الطوائف التقدمية المتنورة والتى تملك فعلا زمام السلطة فى اسرائيل ترى أن اليهود باستيلائهم على القدس وحائط المبكى دخلوا عصر المسيح (Messiahic Era)وهذا ما أعلنه كبير الحاخامين فى الجيش الاسرائيلى يوم وقف أمام حائط المبكى بعد احتلال القدس وبيده التوراة فكان مما قال دخلنا اليوم عصر المسيح للملة اليهودية ونظرا لهذين السببين فان اسرائيل بدل أن تفاجىء العالم بهدم المسجد الأقصى دبرت احراقه كخطوة تمهيدية لتتبين بذلك مدى رد فعل العالم الاسلامى فى جانب، وفى الجانب الآخر تجهز الشعب اليهودى تدريجيا لمجابهة اجرائها النهائى •

والجزء الثانى من هذا المخطط الاستيلاء على أرض الميعاد • وما هى حدود « أرض الميعاد » ؟ نجد هذه الحدود مكتوبة على باب الكنيست الاسرائيلى بكلمات تالية: « حدودك يا اسرائيل ، من الفرات الى النيل » •

واسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العـــالم التى سجلت مطامعهـا فى أراضى الشـعوب الأخـرى على برلمـانها بكل وقاحة . وأى بلد غيرها ما تجاسر على اعــلان مطامعه العدوانية بهذه الصورة المكشوفة .

والتفصيــل الذى ذكرته الحـركة الصـهيونية فى العـالم فى خريطتها لمملكـة اسرائيل بموجبـه فـرض سيطرتها على البلدان التالية : مصر حتى دلتا النيــل الأردن بكامله ، سورية بكاملها ، لبنـان بكاملها ، الجزء الكبير من العـراق ، الجـزء الجنوبى من تركيا ، وكذلك أعالى الحجاز حتى المدينـة المنـورة .

ولو استمرت البلاد العربية فيما هى فيه من الضعف والتفكك اليوم، ولم ينفع رد فعل العالم الاســلامى على جريمة احراق المسجد الأقصى ، ولا سمح الله ، فلا منـاص أن نواجـه اليوم الذى يتخذ فيه أعداء الاسلام اجـراء حاسما لتنفيـذ مطامعهم الخطيرة اللعينة .

ما هو السبيل :

ويتضح مما سبق الأمور التالية :

١ ــ السر فى نجاح اليهود فى تنفيذ مخططاتهم البغيضة حتى اليوم يكمن فى أن القـوى الكبيرة فى العـالم تساندهم وتشد أزرهم . ولا نلمح أى اثر لتغير موقف هذه القوى فى المستقبل . وخاصة مادامت أمريـكا تؤيدهم فلا يستطيع أحد أن يردعهم عن ارتكاب جريمة ما اشنعها .

٢ ــ تعليــق الآمال على الكتــلة الاشتراكية فى هذا الباب غلطة كبيرة .. هذه الكتلة لن تعرض نفسـها للخطر بمنع اسرائيل من العـدوان. وأكثر ما يمكن لنا من الاستفادة من هذه الكتلة هو الحصول على السلاح منها . وذلك الأمر أيضـا مقرون بشرط أن نضـع فى أعناقنا أغلال الاشـتراكية وننفى الاســلام من موطننا .

٣ ــ لاتتعدى الأمم المتحده دور اقرار الاقتراحات أبدا .. اذ هى لا تملك من القوة والمنعة ما تصد به اسرائيل من خطوة اجرامية تريدها.

٤ ــ القوة العربية لا تعادل القوة الاسرائيلية . هذا ما برهنت عليـه تجارب اثنتين وعشرين سنة مضت.

ولم يبق لنا أمام هــذه الحقائق التاريخية لا لانقاذ المسجد الأقصى فقط بل للدفاع عن المدينة المنورة من مد المطامع الصهيونية القـادمة أيضا الا أمر واحد .. هو : تكتيل قوة العالم الاسلامى بأسره بصورة دائمة لمجـابهة الخطـر اليهـودى والدفاع عن المقدسات الاسـلامية ومن الخطأ الذى ارتكبه بعض القادة العرب حتى اليـوم قصـر قضية فلسطين على الدول العربية مع أن المسلمين فى العالم ظلوا يعلنون أن هذه القضية قضية اسـلامية تخص جميع المسـلمين فى العالم . ومما نشـكر الله عليه أن جريمة احراق المسجد الأقصى فتحت عيون هؤلاء القادة وعادوا يتفهمـون أن هذه المؤامرة الدوليـة التـى دبرتهـا الحركة الصهيونية العالمية وتساهم فى تنفيـذها القوى العالمية بكـل حماس واندفاع ليست أمرا هينـا تكفى لمجابهته البلاد العربية وحدها واذا كان عدد اليهود فى العالم ستة عشر مليونا فان المسـلمين عددهم سبعمائة مليـون وزيادة . وتمتد رقعة حكـوماتهم وهى ثلاثون أو اثنتـان وثلاثـون حكـومة ، من اندونيسيا شرقا الى مراكش وغربى افريقيـة غربـا ... واذا التقـى رؤساء وملوك هذه الحكـومات ودرسوا هذه القضية بجد واهتمام واخلاص وصدق واستعد المسلمون فى أرجاء العالم أن يضحوا بأنفسهم وأموالهم لا يتعذر علينا حـل هذه القضية باذن الله .

الحل الوحيد لقضية فلسطين :

ويجب أن نكون على بينة من أن القضية لا تقتصر على الدفـاع عن عن المسجد الأقصى فقـط فما دام القدس تدنسه أقدام اليهود لايمكن صون المسجد الأقصى منهم والقدس نفسـه لا يصـان من الاجراءات اليهودية التعسفية لو بقوا يحتلون فلسطين .

ولذلك فان القضية قضية تحرير فلسطين من السيطرة المغتصبة لليهود والحل المعقول السليم لها هو قصر حق العيش فى فلسطين على اليهود الذين كانوا يعيشون فيهـا قبـل وعد بلفور أما اليهود الذين جلبوا

من الخارج بعد عام ١٩١٧ م فعليهم أن يخرجوا منها انهـم جعلوا وطن شعب يعيش فيه منـذ مئـات من السنين وطنهم القـومى بوسائل الحـديد والنـار ثم حـولوه الى « الدولة القومية » ثم شرعوا فى تنفيـذ سلسـة غير متناهية من المطامع التوسعية العـدوانية لبسط الاحتلال على الأراضى المجاورة • بل كتبوا على برلمانهم علنا أسماء البلدان التى يريدون أن يجعلوها عرضـة لعدوانهم وان وجود دولة عدوانية كهذه جريمـة بنفسها وخطـر على السلام العالمى • ويعرض العـالم الاسلامى للخطر أكثر من غيره لكون مقدساته الاسـلامية هدفا لمطامعهم الاجرامية اذن لا نستطيع أن تتحمل كيان هذه الدولة الغاشمة • ويجب أن يطرد المغتصبون المجرمون الذين دخلوها من الخارج وجعلوها وطنا قوميا لهم أولا ثم دولتهم القومية •

ليس من حل معقول وسليم ماعدا هذا الحل • أما أمريكا التى تندفع وراء تأييد المغتصبين بعد أن وضعت ضميرها رهنا فى أيديهم ، وانتهكت حرمة كل مبدأ من مبادىء الأخلاق فقد آن الأوان لأن ينـذرها جميع المسلمين فى العالم بصراحة بأن موقفها هذا اذا استمر فى شناعته فانها لن تجـد على وجـه الأرض نفرا من المسلمين يضمر فى صدره أدنى ذرة من النية الحسنة تجاهها •

أبو الأعلى المودودى

حرب فلسطين
فى الحديث الشريف

لفضيلة الأستاذ عبد الله كنون

من أعــلام نبوته صلى الله عليه اخباره بمغيبات وقعت كما أخبر بها ان فى حيــاته أو بعــد وفــاته ، وهى مما يدخل فى حيز المعجزة التى تدل على صدق الرسالة ، لأنهــا بمثابة تزكية الله لرسوله . والمعجزة هى الأمر الخارق للعــادة المقرون بالتحدى مع عدم المعارضة ، وتكون مادية ومعنويةوأمرا مترددا بينهما . واذا كانت معجزات الرسل السابقين عليهم السلام فى أكثرها مادية فان معجــزة نبينا العظمى انمــا كانت معنوية أى عقلية علمية وهى القرآن وذلك لكونه خاتم الرسل ، فناسب أن تكون معجزته باقية على مــر الزمان ليؤمن بها من يأتى بعده من الأمم والأجيال ، ولذلك جــاء فى الحديث الصــحيح : « ما من نبى الا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

وليس معنى هــذا أنه صلى الله عليه وسلم ليس له معجزات مادية من جنس المعجزات المحسوسة التى كانت للأنبياء قبله ، وانما المقصود التنويه بمعجزات القرآن الخالدة لأنه اختص بها من بين سائر المرسلين للحــكمة المشار اليها ، فالقصر فى الحديث اضافى وليس حقيقيا . ويخطىء بعض الكتاب المعــاصرين حين يســكتون عن معجزاتــه غير القرآن، ويوهمون قراءهم بأن معجزته الوحيدة أو الثابتة هى القرآن فقط تملقا للعقلية العصرية التى تميل الى نفى الأعاجيب وانكار الخوارق ، والأمر ما دام متعلقا بالعقيدة الدينية والاحتجاج لها بما روى متواترا عن جميع الأنبياء والرسل ، فــلا معنى لاستثناء خاتمهم منه وغض الطرف

عن معجزاته المشابهة ، ولاسيما ومنها ما روى لنا بطريق التواتر ، ففى البخارى طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر » أى ما جاء به القرآن وهو قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ومنها ما روى بالطرق الصحيحة كحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه وتسبيح الحصى فى كفه ، وغير ذلك حتى لقد عقد بعض العلماء مقارنة بين معجزاته ومعجزات النبيين قبله ، وفضل بعضها على بعض معجزاتهم كنبع الماء من بين أصابعه وتفجير موسى عليه السلام للحجر باثنتى عشرة عينا،فان انفجار الأحجار بالماء معهود ولا كذلك انفجار الأصابع بالماء •

ونحن هنا يهمنا من معجزاته (صلى الله عليه وسلم) ما كان من قبيل الاخبار بالغيب ، وهو الذى نعده مترددا بين المادى والمعنوى ، وقد روى لنا الكثير منه بالتواتر والطرق الصحيحة ، فمن المتواتر اخباره (صلى الله عليه وسلم) بغلبة الروم للفرس بعد هزيمتهم لهم وفرح المشركين بذلك لأنهم وثنيون مثلهم واظهارهم الشماته بالمسلمين لأنهم أقرب للروم من الفرس بحكم كون الروم من أهل الكتاب ، وقد حدد ذلك على سبيل الجزم والقطع ببضع سنين فكان الأمر كما قال وهو ما تشير اليه الآية الكريمة :

« الم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » •

ولرب قائل يقول بأن أمرا مثل هذا مما يدرك بالحذق والذكاء ومشارفة أحوال الأمم والاطلاع على مجريات السياسة العامة ، ونحن نقول ان المجازفة بالاخبار عن مثل هذا الأمر مع تحديد زمن وقوعه بهذه الطريقة الحاسمة ، لا تكون الا بوحى وتوقيف من عالم الغيب سبحانه وتعالى ، والا فهذا قمة من قمم الفكر الحديث ورائد الشيوعية العالمية كارل ماركس قد تنبأ بأن الثورة العمالية ستكون فى الدول المصنعة كألمانيا وبريطانيا ، فاذا بها تقوم فى الدولة الأكثر تخلفا والأقل تصنيعا ، أفكان ينقصه علم بأحوال الأمم والسياسة العامة فى عهده ! ؟• ان علماءنا قسموا الخارق للعادة الى

أقسام، ومنه ما يقع على يد الفاسق، قالوا فان كان وفـق مراده فهـو استدراج أخبر عنه القرآن الكريم فى هذه الآية : « سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم، ان كيدى متين » وان جرى على خلاف مراده فهـو اهانة . وذلك كما حكى عن مسيلمة الكذاب حين أخبر بمعجزات النبى (صلى الله عليه وسلم) فقيل له أنه مسـح بكفه على عين أعمى فصار بصيرا . فقال أنا أفعل مثل ذلك ومسح على عين أعور فذهبت عينه الصحيحة ، وقيل له ان محمدا تفل فى بئر مالحة قليلة الماء ففاضت بالمـاء العـذب فتفـل هو فى بئر شحيحة فنضبت وجفت . وما أشبه أن يكون خـبر ماركس من هـذا القبيل !.

ومما روى فى الصحيح من خـبر الغيب قوله (صلى الله عليه وسلم) فى الحسن أن ابنى هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . وقد تحقق هـذا الخبر بتنازل سـيدنا الحسن (رضى الله عنه) لمعاوية بعـد وفاة سيدنا على (رضى الله عنه) وحقنه بذلك لدماء المسلمين واطفائه لنـار الحرب التى كانت مشـتعلة بين الطرفين وكانت هذه المنقبة العظيمة للسبط النبوى الكريم ، مما وطد سيادته ، ورفع قدره فوق الولاية ، وجعله قبـلة أنظـار المسلمين روحيا وانسانيا ، فبزهده فى الحكم ارتفع الى مقـام القطبانية الدينية ، وباشاعته للسلام تيمن النـاس بنقيبته وعـدوا كل ما جاءهم من خير بعد ذلك انمـا هو ببركته . أليس هذا مصـداق كلام النبـوة وتطبيـق حديثها الصحيح ؟ .

ومن هذا الباب، ولكن على النطاق العام ، حديث ثوبان عن أبى داود وأحمد عن النبى (صلى الله عليـه وسلم) ، أنه قال : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كـل أفق تداعى الأكلة على القصعة ، قيـل : أمن قلة بنا يا رسول الله ؟ قال : لا ، أنتم كثير ولكن غثاء كغثاء السيل ، يقـذف فى قلوبكم الوهن وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت . » وقد تحقق هـذا الخبر مرارا ، وأكثر ما كان

ذلك فى الحروب الصليبية التى تمالأت فيها أمم الصليب من كل شعب على المسلمين .. وهو اليوم أكثر تحققا، ولا منجاة لنا الا بعكس القضية وتغيير ما بأنفسنا ، فان عزفنا عن الدنيا ، ولا سيما دنيا الذل والهوان التى نعيشها ، واسترخصنا أرواحنا فى سبيل العزة والكرامة فذلك هو سبيل نجاحنا وفلاحنا .

ومنه حديث حذيفة، وهو برواية البخارى قال : كان الناس يسألون النبى (صلى الله عليه وسلم) عن الخير وكنت أسأله عن الشر ، مخافة أن يدركنى . فقلت يا رسول الله : انا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير — يعنى الاسلام — فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم ويعنى (صلى الله عليه وسلم) ما وقع بين الصحابة من الخلاف — قلت فهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن . قلت وما دخنه ؟ قال : أناس يهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر — ويعنى بذلك (صلى الله عليه وسلم) ظهور المذاهب والفرق الضالة . قلت فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها . قلت صفهم لنا يارسول الله قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . وهذه اشارة الى المبادىء والأفكار المادية المستوردة ، فانها شر محض ، وشر ما فيها تبنى أناس منا لها ودعوتهم اليها . قال حذيفة : قلت فما تأمرنى يا رسول الله ان أدركنى ذلك ؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وامامهم ، وهذا من الكلام البليغ المعجز الذى لم ندرك قيمته الا فى أيامنا هذه . حين أصبح فى المسلمين طوائف وأحزاب كل له ميل ولون ، فأمر الرسول عليه السلام بملازمة الجماعة التى لا انتماء لها الا الى الاسلام ولا تعرف الا به، كالماء الذى تكون به الطهارة ، فانه ما يصدق عليه اسم ماء بلا قيد ، لا ماء زهر ولا ماء كولونيا ولا غيرهما ، كذلك لم يقل النبى (صلى الله عليه وسلم) جماعة المسلمين ورئيسهم أو زعيمهم أو ما الى ذلك . بل قال امامهم ، فالرئيس ان لم يكن اماما للمسلمين أى متقيدا بشرع الاسلام وملتزما

شعائره ، فليس هو المراد ، وفى هذا التعبير فائدة أخرى : وهى الاشارة الى البلاد التى لها رئيس غير مسلم أو يكون الحكم فيها لغير المسلمين، فالمقصود حينئذ هو امام الصلاة ، لأن الصلاة هى فرق ما بين المسلم والكافر . فنرى أنه (صلى الله عليه وسلم) فى هذا الحديث ينظر الى الغيب من ستر رقيق ، ويصف حال المسلمين فى هذه الأيام وصفا كاشفا للدقيق والجليل ، ويعطى فى الوقت نفسه النصائح النافعة ، والارشادات الناجحة .

والأحاديث فى منحى الاعلام بالغيب عن مستقبل الاسلام والمسلمين، كثيرة يطول تتبعها ، فلننظر فيمـا يرتبط منها بهذا الحدث الأخير ، وهو حرب فلسـطين المحتلة من طرف اليهـود بمعاونة الصليبيين الجدد ، ولنبـدأ منها بما دلالته عامة ، ولكنه يؤول اليها فى الأخير ، ثم نأتى بمـا هو صريح فيها من غير تأويل ، وان كان لا ينفصل عن الأول ، بل هو نتيجة له مترتبة عليه .

فالأول هو قوله (صلى الله عليـه وسلم) : (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحـق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك، أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن والامام أحمد وابن حيـان والطـبرانى وغيرهم ، وبلغ عـدد الصـحابة الـذين رووه عن النبى (صلى الله عليـه وسلم) أكثر من خمسـة عشر صـحابيا منهم ثوبان والمغيرة ومعاوية وأبو هريرة وقرة ابن اياس وجابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وعمران بن حصين وعقبة بن عامر وسعد بن أبى وقاص وأبو أمامة وسـلمة بن نفيـل وسواهم ، فهو حديث متفق عليه متواتر ، ناهيـك ان مسلما رواه عن سبعة من الصحابة بأحد عشر طريقا . أما البخارى فقد رواه فى ثلاثة مواضع من صحيحه عن اثنين من الصحابة . وقد بين فى أحد هـذه المواضع المراد بالطائفة المذكورة فقال (هم أهـل العلم) وقال ابن المدينى « هم أصـحاب الحديث » كذلك قال الامام أحمد : « ان لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم » .

وقال بعض شراح الحديث: (هم الفقهاء) أخذا من رواية معاوية للحديث التى جاء فيها « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وانما أنا قاسم والله يعطى ولا تزال طائفة من أمتى ظاهرين (الحديث) ، فجمع بين أول الحديث وآخره وحمل هذه الطائفة على الفقهاء (١)٠

ولكننا اذا نظرنا فى روايات الحديث وألفاظه المختلفة عند مسلم فقط ، وقد قلنا أنه رواه من طريق سبعة من الصحابة ، فاننا نجد فى بعضها : « لن يبرح هذا الدين قائما (يقاتل عليه) عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة» وفى رواية أخرى: « لا تزال طائفة من أمتى (يقاتلون على الحق) ظاهرين الى يوم القيامة » وفى ثالثة : (لا تزال عصابة من أمتى (يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم) لا يضرهم من خالفهم حتى تأتى الساعة » فالأمر اذن أمر معركة وجهاد ، والقصة قصة قتال وغلبة للعدو ، لا أمر علم وفقه وحديث

وتأتى رواية النسائى للحديث فترفع كل لبس لأنها صريحة فى الحرب والنضال من أجل الحق والدين ونصها عن سلمة بن نفيل قال : كنت جالسا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال رجل يا رسول الله : أزال الناس الخيل ، ووضعوا السلاح وقالوا : لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها ، يعنى تماما كما يقول القعدة اليوم ودعاة التخاذل ، فأقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بوجهه وقال : كذبوا ، الآن الآن جاء القتال ، ولا يزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ويزيغ الله لهم قلوب أقوام (هكذا بالتنكير يعنى يساندونهم) ويرزقهم منهم ، حتى تقوم الساعة وحتى يأتى وعد الله » ٠

---

(١) فى رأى النووى انه يجوز أن تكون هذه الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث وقائم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد بل يجوز اجتماعهم وتفرقهم فى الاقطار .

ولا أعلق على هذه الرواية بأكثر مما قلت فانها أوضح من أن تحتاج الى تعليق . ولكنى أسارع فأذكر ما جاء فى بعض روايات الحديث من بيان لمكان تواجد هذه الطائفة وفى بعضها الآخـر من تعيين لها بالنص الذى لا يحتمل التشكيك .

فعن المكان جاء فى البخارى تعليقا عن معاذ (رضى الله عنه) : « وهم بالشام » وجاء عند أحمد من حديث أبى أمامة « أنهم ببيت المقـدس » ونحوه للطبرانى ، وله فى الأوسط من حديث أبى هريرة (يقاتلون على أبواب دمشق وما حولهـا ، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله) .

وعن تعيينها بالنص جاء فى صحيح مسلم موصـولا مرفوعا من طريق سعد بن أبى وقاص : لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق» الحديث. واختلف العلماء فى أهل الغرب هؤلاء من المراد بهم» فقال على بن المدينى: (المراد بالغرب الدلو الكبيرة وهم العرب ، لأنهم أصحابها لا يسقى بها غيرهـم » ونظن أن البـلاغة النبوية لا تضيق بها العبـارة حتى تكنى عن العرب بأهل الغرب ، وجاء فى حديث مماثل فى المعنى : (اذا ذل العرب ذل الاسـلام) .. فلو كان (صلى الله عليه وسلم) يريد العرب مطلقا لعبَّر بهم كما عبَّر فى هـذا الحديث .

وقيل المراد بالغرب الحدة والشدة، فغرب كل شى حده ومنـه غرب السيف أى حده ، ولا شك أن أهل الشـدة والشجاعة يكونون ظاهرين وغالبين ، ولكن لا يلزم أن يكونوا على الحق بل كثير ما كان أهل القوة ظالمين غاشمين .. وقد قيل : الظلم تحت جناح كل أحد ، القوة تظهره والعجز يخفيه ، فحمل الحديث على هذا المحمل بعيد أيضا .

والصواب حمله على الجهة والناحية كما قال بذلك آخـرون ، قالوا : والمراد بها حينئذ الشـام لأنها تقع غربى الحجاز .. لكن وقع فى رواية عبـد بن حميـد وبقى بن مخلد للحديث « لا يزال أهل المغـرب) بالميم ، وفى رواية للـدار قطنى : (لا تزال طائفة من أمتى ظـاهرين على الحق (فى المغرب) حتى تقوم

الساعة » . وبحث فيه ابن حجر باحتمال أن يكون راويه رواه بالمعنى فأبدل الغرب بالمغرب وهو تمحل ظاهر .

على كل حال ترجح أن المراد بأهل الغرب فى حديث مسلم ، أهل هذه الناحية ، والشام داخل فيها ، ولاشك من حيث كونه غربا من الحجاز ومن حيث تعيينه فى بعض الروايات ، ولكن رواية أهل المغرب لا يجوز ردها ما دام الجمع بين الروايات ممكنا .

وانطلاقا من حديث على كرم الله وجهه وقد قيل له : « هل خصكم آل البيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بشىء .. ؟ فقال : لا ، الا ما فى هذه الصحيفة أو فهم" أو تيه رجل مسلم .. ونقول : يظهر والله أعلم أن المراد بالحديث المنطقة التى تبتدىء بالشام وتنتهى مميزة معينة محدودة موصوفة..هى المنطقة التى تبتدىء بالشام وتنتهى بالمغرب ولم تذكر فيها مصر ، لأنها داخلة بحكم وقوعها بين الحدين المذكورين . وتخصيص هذه المنطقة بعينها من بين بلاد الاسلام لوقوعها مقابل منطقة غرب البحر المذكور ، ونحن جميعا نعلم من بتلك المنطقة وتمالأهم على حربنا ، فمنها انطلقت الجيوش الصليبية ، والحملات الاستعمارية ، وما تزال غائلتهم لا تؤمن ، وفى الوقت الحاضر ، نعلم أن أمن المتوسط أصبح مشكلة دولية ، ومن أجلها تسربت الأساطيل من الشرق والغرب اليه ، بدعوى حفظ التوازن وما الى ذلك ، فالحديث الشريف يثير انتباهنا الى وجوب الاستعداد والتأهب للحرب التى تكون تارة بدعوى حماية الأماكن المقدسة وتارة بدعوى حماية الدول القائمة فى المنطقة وتارة وتارة مما لا أحتاج الى ذكره من عوامل اقتصادية وسياسية ، فوجود الطائفة المذكورة فى الحديث فى هذه المنطقة أمر ضرورى وواقع مصداقا للحديث ، واذا قلنا بأن الحديث ربما كان معناه الطلب وان جاء بلفظ الخبر ، وهذا أسلوب بلاغى معهود ، فدلالته حينئذ : الأمر والطلب بأن تكون فى هذه

المنطقة العربية المسلمة طائفة هذه صفتها ، وذلك على سبيل الدوام والاستمرار الى قيام الساعة ، مع الاخبار بوعد الله لها وتعهده بنصرتها وبأن تكون ظاهرة على من ناوأها وهي بشارة عظيمة للمجاهدين في هذه المنطقة ما دام قصدهم نصرة الحق والقيام بأمر الله وحماية العقيدة والدين .

ولسنا نقول هذا الكلام بدون دليل ، فلنا من السنة سند نستظهر به ونعتمد عليه فيما ذهبنا اليه من هذا الرأى ، وذلك هو حديثه (صلى الله عليه وسلم) الذى حدد فيه مواقيت الحج ، فجعل لأهل اليمن يلملم ولأهل نجد قرنا وذات عرق للعراق وذا الحليفة لأهل المدينة ولأهل الشام الجحفة .

ولم يعين لمصر ولا للمغرب ميقاتا ، فجعلت الأمة باجماع ميقات الشام ميقاتا لأهل مصر والمغرب حملا لهذه البلاد على أنها منطقة واحدة وقطر واحد . واذا كان هذا فى الحج وهو يجب مرة فى العمر — وعلى التراخى لا على الفور ، فهو فى الجهاد الواجب دائما والمتعين بمجىء العدو أولى وأخرى .

ويا لله من حديث الصادق المصدوق ، ما أبلغه !! وما أحكمه !! وما أدلة على أنه وحى يوحى من لدن العليم الخبير !! فقبل أن تقع الحوادث الراهنة — هل كان لنا أن نفسره بهذا التفسير المطابق للواقع ، حتى كأنه خبر عما يجرى أو أمر بما يجب فعله فى هذا المقام على حسب ما قررناه من جواز حمله على الطلب ؟ .

واذا كنا فى فهم المراد بهذا الحديث على وجه الحقيقة والواقع ، قد لجأنا الى الشرح والتأويل فان الحديث الثانى الذى نورده الآن ، صريح فى الموضوع ، لا خفاء به ولا يحتمل أى تفسير غير ما يؤخذ من ألفاظه الواضحة والدالة بدلالة المطابقة على المراد منه ، وهو قوله (صلى الله عليه وسلم) فيما أخرجه البخارى ومسلم والترمذى عن ابن

عمر : « تقاتلون اليهود ، فتسلطون عليهم حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر ، فيقول الحجر: يا عبد الله ، هذا يهودي ورائى فاقتله » وفى رواية أخرى لمسلم عن أبى هريرة: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهود من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله » .

فى الرواية الثانية لهذا الحديث ، يتجه المؤشر ليلتقى مع الحديث السابق فى قدر من الزمن غير محدد، ولكنه مشترك بينهما بكل تأكيد ، وذلك حين يقول الرسول فى الحديث السابق : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق .. حتى تقوم الساعة ، ويقول فى هذا الحديث : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود .. » .

والمهم أنه يخرج الحروب التى قامت بين المسلمين وبين اليهود فى حياته (صلى الله عليه وسلم) . وإذا خرجت هذه الحروب ، فانه لا يبقى فى التاريخ أى حرب قاتل المسلمون فيها اليهود ، الا حرب فلسطين هذه القائمة الآن .

وإذا كانت العبرة الأولى فى الحديث، هى الاخبار عن قيام حرب ضروس بين المسلمين واليهود ، فى حين أن أمرا مثل هذا لم يكن يخطر بالبال أيام عز المسلمين وامتداد دولتهم من المشرق الى المغرب وذل اليهود وتشتتهم فى أنحاء الأرض ، فان الأعمال بالخواتم ، وقد تضمن الحديث الى جانب هذا الخبر بشارة عظمى وهى انتصار المسلمين على اليهود فى هذه الحرب ، مهما كانت الظروف والأحوال انتصارا حاسما لا يبقى منهم ولا يذر ، وهذا أمر آت ولا ريب ، كما أتى ما أخبر به الحديث السابق ، وتحقق بجميع تفاصيله ، من قيام طائفة من أمته (صلى الله عليه وسلم) بالقتال على الحق وعلى أمر الله ودينه لا يضرها من خالفها أو خذلها ، وها هى الآن مرابطة ما بين الشام والمغرب وعلى

أبواب دمشق وما حولها وأبواب بيت المقدس وما حوله ، وقد كتب لها من الظهور والغلبة وقهر عدوها العنيد ، ما هو مشاهد ومعلوم ، فكذلك الشطر الثانى من الحديث الأخير سيتحقق لا محالة ونقاتل — نحن المسلمين — اليهود فى فلسطين المحتلة ونطهر أرضها المقدسة من رجسهم ودنسهم بحول الله وقوته، تصديقا لخبر رسوله (صلى الله عليه وسلم) الذى لا ينطق عن الهوى ، وايمانا بوعده عز وجل لعباده المؤمنين بالنصر والتمكين والفتح المبين . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

وفائدة الخبر — بل الأخبار كلها — أن ذلك لا يكون الا بالقتال والاستعداد له وتحفز المسلمين — فى هذه المنطقة من الأرض بالخصوص — على الدوام والاستمرار لمنازلة عدوهم المتربص بهم الدوائر ، وقد كان فيما قبل انما هو الصليبى المتعصب المتعنت الذى لا يفتأ متطلعا للسيطرة على الأرض التى ولد فوقها المسيح وقام منها ، فانضم اليه اليوم عدو جديد لم يكن فى الحسبان وان أخبرنا به الرسول من قبل وهو الصهيونى العنصرى المقيت الذى يريد أن يقيم فيها له دولة . ويبنى هيكل سليمان — بزعمه — على أنقاض المسجد الأقصى ..

فليستيقظ المسلمون من سباتهم وليأخذوا حذرهم ، وليكونوا فى مستوى أحداث الزمن دائما ، وليجعلوا من قوله تعالى « وأعدوا لهم » شعارا خالدا .

عبد الله كنون

الفتنة نائمة :

لولا الإسلام لما بقى دين سماوى

للأستاذ أحمد حسين

هذا بحث ودراسة يحسن بكل من يتصدى للوعظ والارشاد أن يعيها جيدا ، وخاصة اذا ماكان من رجال هذين الدينين ، ولما كانت مجلة الأزهر منارة للعالمين ، فقد رأيت أن ألفت النظر على صفحاتها لهذه الحقيقة المؤكدة تاريخيا ، تاركا لرجال الاختصاص أن يزيدوها شرحا وتفصيلا ، ليعلم من لم يكن يعلم أن كل تهجم على الاسلام ممن يؤمنون باليهودية أوالنصرانية، فان هذا الهجوم يعود على أديانهم بالشر والوبال ، فلولا فضل الاسلام على هاتين الديانتين لانقرضتا وزالتا من الوجود باعتبارهما ديانتين سماويتين ، واعتبرتا من الأديان الوثنية .

وأنا أقرر ذلك لا باعتبارى مسلما يتعصب لدينه ، ولكن باعتبارى مجرد مفكر درس الأديان المقارنة وتاريخ الانسانية ، ووضع المؤلفات فى كلا الفرعين ، ولكى أقدم الدليل على ذلك ، فسوف أخرج القرآن الكريم من البحث فى الشق الأول منه ، لأستعرض ما يقال فى كتب كل منهما ، وسنرى كيف أن الحال كان سينتهى بهما الى ما انتهى اليه أى دين آخر ، لولا أن جاء الاسلام أو بالأحرى نزل القرآن الكريم .

اليهودية كما هى فى كتاب اليهود :

ان الكتاب الذى يسميه المسيحيون بالعهد القديم ، ويسميه اليهود « بالتوراة » والتوراة لا يمكن الا أن تكون منه براء ، هذا الكتاب يجعلنا من أول صفحة فيه حتى آخر صفحة ، نؤمن اننا بازاء دين وثنى مائة فى المائة ، من هذا النوع الذى ساد البشرية فى فترة من الفترات عندما كان لكل قبيلة آلهها الخاص وشعائرها وطقوسها الوثنية

والمغرقة فى الوثنية ، فالله فى هـذا الكتاب هو « رب الجنود » الذى يعيش وسط شعبه اسرائيل، ويسير أمامهم وهم يتبعونه ، وهـو الههم الخاص بهـم ، ولا يعترف بأحـد غيرهم ، ويدعو شعبه لأن يعتبروا بقية البشر عبيدا وخداما لهم يقتلون منهم من يشاءون ويبقون على من يشـاءون ، وقد عقـد الاله معهم صفقة وأبرم عقدا مع جدهم الأول ابراهيـم ، وهى أن يعبـدوا الله ويكونوا شعبا له وفى مقـابل ذلك فسوف يعطيهم الأرض من النيـل الى الفرات ، ويمضى هذا العهـد القديم ، وليس فيه الا جرائم الكفر بالله وبالأخلاق وبالسلوك تنسـب الى قادتهم وزعمائهم سـواء كانوا أنبياء أو ملوكا ، ابتداء من ابراهيم نفسـه وبقيـة أفراد أسرته ، ولن نزعجك بالتفاصيل والا لاحتجنا أن ننقل لك العهد القـديم كله بألوف صفحاته ، حسبك أن تعلم على سبيل المثال أن ابنتى « لوط » سـقيتا أباهما خمرا حتى يغيب عن وعيـه ويضاجعهما ليكون لهما من أبيهما نسل ، وليس ذلك الا مثالا واحدا من ألوف الأمثلة ، فهارون شقيق موسى هو الذى صنع من الذهب عجلا وطلب من اليهود أن يسجدوا له باعتباره الههم •

وداود عندما كان ملكا وقع فى غرام امرأة متزوجـة لأحـد قادة جيوشه فبعث به الى الحرب وأوصى بأن يقتـل فى الحرب ليغنم هـو زوجته ، وسليمان ابنه أقام الأوثان وعبدها مرضاة لزوجاته الوثنيات ، وكان عـدد زوجاته ٣٠٠ وعـدد سراريه (أى جواريه) ٧٠٠ أى انه كان يعيش مع ألف امرأة •

وانتهى هـذا الدنس والرجس والكفريات الى المسـيح عيسى ابن مريم ، وكان من غير المعقـول أن يصدقوا بولادته المعجزة ، فهم قوم ماديون وثنيون ، فقالوا عن مريم ما قالوا ، وانتهوا بالمسيح حسـب رواية كتـاب النصارى الى الصلب وقتلوه بعد أن عذبوه •

الى أين كان يمكن أن ينتهى كل ذلك:

ويكون السـؤال الى أين كان يمكن أن ينتهى كل ذلك ؟ لسنا فى

حاجة للاستنتاج أو التخيل ، فقد أغنتنا حقائق التاريخ وهى أن البشر وبدون استثناء اعتبروا اليهود أعداء البشر ، وعملوا على القضاء عليهم وتشريدهم .. بل وابادتهم ، وقد حدث هذا فى التاريخ مرتين ، أولاهما على يد نبوخذ ناصر (بختنصر) قبل الميلاد بعدة قرون، وثانيتهما على يد أحد قياصرة الرومان .

ولم يكن للمسيحية دخل فيما حاق باليهود فعلينا أن نتصور ما الذى يحل باليهود فى ظل الدول المسيحية ، لقد سمح لليهود الذين يظلون بعد المذابح التى تجرى عليهم أن يعيشوا فى مناطق خاصة بهم باعتبارهم وباء وجراثيم .

وماذا عن النصرانية ؟

وغنى عن البيان أن صفحة النصرانية باعتبارها مبادىء وأفكار هى صفحة مشرقة فقد كانت حياة المسيح دعوة متصلة للحب والتآخى وكل القيم الروحية والانسانية ، ولكن المسيحية على يد الكنيسة الرومانية ، سرعان ما تقمصت المبادىء الوثنية الرومانية (وهذه حقيقة تفوت على الكثيرين وهى ان الكنيسة المصرية قد برئت من هذه الخطايا ، وكان هذا هو السر فى اضطهادها) .

وأول هذه المبادىء الوثنية انهم أحلوا مريم العذراء محل ايزيس (الالاهة الفرعونية) فكادوا يعبدونها باعتبارها أم الاله ، ولا تزال تماثيلها فى كل كنيسة كاثوليكية شاهدا على ذلك ثم راحت المجامع الكنسية تتدخل فى صياغة العقيدة المسيحية ، ولست أناقش هذه العقيدة فهذا شأن المسيحيين .

ولكن الأمر المحقق تاريخا ، انه كلما حاولت أوروبا النهوض الى ما تسميه عهد التنوير والعلم ، كانت تبدأ أول ما تبدأ بمحاولة اقتلاع العقيدة المسيحية ، حدث هذا فى القرن الثامن عشر خلال الثورة الفرنسية ، حتى نادى روبسبير زعيم الثورة بدين العقل ، ونصبه العامة فى احتفال شعبى كاهنا أعظم لدين العقل .

وتكرر ذلك مرة ثانية فى نهضة أوروبا فى القرن التاسع عشر حيث نادى المنادى ووجد من يستمع له فى كل أرجاء أوروبا ان الدين هو « أفيون الشعوب » وغنى عن البيان ان الدين الذى يعرفونه هو اليهودية والنصرانية ، ولما آلت السلطة الى اتباع هذه الدعوة المتنورة التقدمية فى روسيا نزلت الضربة على الدين ورجاله وأصبح الالحاد والكفر بالله والدين هو شرط أساسى لكل مواطن متعلم مستنير فعندما نقرر أن اليهودية والنصرانية كانتا حتما الى زوال ، فنحن تستند الى أحداث وقعت بالفعل وهى محل اتفاق ، فما الذى أبقى على هاتين الديانتين ، لا شىء غير القرآن والاسلام واليك التفصيل .

وجاء الاسلام وما أدراك ما الاسلام :

وكان القرآن الكريم ، والقرآن الكريم فقط هو الذى حمى هاتين الديانتين من أن تزولا وطهرهما من الرجس والشوائب والانحرافات التى ألمت بهما ، وقرر ان جوهرهما من جوهر الاسلام ، وأطلق على معتنقى هاتين الديانتين « أهل الكتاب » ودعا الى تعايش المسلمين معهم بأن أباح للمسلم أن يتزوج كتابية ، وللمسلمين أن يأكلوا من طعام الكتابيين ، واعتبر من يرغب منهم أن يحتفظ بدينه وأن يعيش فى سلام مع المسلمين « ذمى » له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ويشدد الرسول صلوات الله عليه فى حمايتهم وتوفير العدل لهم فيقول: « من آذى لى ذميا صرت له خصما يوم القيامة » .

القرآن واليهود :

وقد كان القرآن هو الذى أكد وجود سيدنا ابراهيم عليه السلام وأكد رسالته وانه مبعوث الله للبشر بدين التوحيد الصافى، وكشف عن كونه جد العرب المستعربة عن طريق اسماعيل وانه هو بانى الكعبة ، والداعى الى شريعة الحج التى هى أحد أركان الاسلام بل جعل جوهر الاسلام هو عين ما دعا اليه سيدنا ابراهيم وهى « الحنيفية السمحة » وسجل القرآن الكريم دور سيدنا موسى وكيف بعثه الله رسولا نبيا ، وأنزل عليه التوراة ،

الى الحد الذى جعل اليهود يحاجون رسول الله والمسلمين من بعده بسؤال واحد ، هل التوراة من عند الله أم لا ؟ والرد على هذا السؤال «نعم هى من عند الله» فيكون قولهم : « فهل من المعقول أن يغير الله كلامه » وعندنا ان هذا هو السبب الذى نزلت للرد عليه آية النسخ « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها » فجوهر التوراة هو جوهر الاسلام وهو الايمان بالله واحد منزه عن الشريك والولد واننا ميتون فمبعوثون فمحاسبون اما الى جنة أو نار •

والمهم فى كل ذلك ان القرآن شهد لليهودية بأنها تستند الى دين سماوى •

القرآن والمسيحية :

أما بالنسبة للمسيحية فقد حسم الله قضيتها الأساسية الى الأبد ، والتى لولا القرآن الكريم لظلت فرية اليهود تلاحقها وخاصة فى المجتمعات والعصور المادية التى تؤمن بما يسمونه « العقلانية » وهذه القضية الأساسية هى قضية ميلاد السيد المسيح المعجز عن غير أب وقال القرآن الكريم ، ان خلق عيسى عن غير أب لن يكون أكثر اعجازا من خلق آدم من غير أب ولا أم •

المسلمون فتحو الدنيا فى ظل هذه المبادىء :

وفى ظل الشهادة لليهودية والنصرانية بأنهما ديانتان سماويتان هزم المسلمون القوتين المتحكمتين فى العالم ، ولما كانت أحد القوتين « وثنية » وهى قوة الفرس الذين كانوا يعبدون « النار » فقد أزالوها من الوجود ولم يرضوا من الفرس بغير الاسلام دينا ، أما بالنسبة للقوة الثانية قوة النصرانية فقد تركوها قائمة وأعطى المسلمون النصارى فى كل بلد دخلوه عهد الأمان ليس فقط على أرواحهم وأموالهم بل على كنائسهم ومعتقداتهم •

وحيث كان اليهود يعاملون فى أوروبا على ما قدمنا ، فقد عاشوا فى الدولة الاسلامية ، لا أقول فى أمان بل وفى ازدهار •

العصر الحديث :

فلا يتصورن متصور أن المستقبل للمسيحية أو اليهودية ، فلو سادت الآراء المسماة «بالتقدمية والتحررية» لأبيدت الدياتنان ، وليس الا فى ظل عالم اسلامى قوى يرفع لواء الشريعة الاسلامية ، ما يمكن تصور امكان وجود الدياتنين اليهودية والنصرانية حيث لا يشهد لهما الا الاسلام ولله فى خلقه شئون .

احمـد حسين

بيـان من ادارة المجـلة

تعلن ادارة المجلة عن عميق أسفها لهذا التأخير الذى لم يكن فى مقدورها تلافيه أو تجنبه .

لقد تدخلت عوامل كثيرة فى هذا التـأخير الذى أدى الى احتجاب المجلة فترة طويلة واعتبار العـدد الخـاص الذى صدر بمناسبة انعقاد المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية ختام السنة الماضية ١٣٩٧ هـ ، كما أدى الى اعادة ترتيب أعداد السنة الحالية بحيث يشتمل هذا العـدد على ثلاثة أعداد من السنة الجديدة وهى أعداد أشهر محـرم وصفر وربيع الأول حتى نتمكن من تخطى هذه الفجوة التى فرضتها علينا ظروف قاسية ، ولمـا كانت المجلة تحتجب عادة فى شهرى جمادى الأولى وجمادى الاخرة من كل سنة فقد تقرر صدور المجلة فى هذه الفترة تعويضا لمـا فاتها فى الأشهر السابقة .

الدفاع عن الفصحى

للواء الركن : محمود شيت خطاب

عقد فى مدينة (بازل) السويسرية عام ١٨٩٧ المؤتمر الصهيونى الأول برئاسة هيرتزل ، فخرج بمقررات خطيرة جدا ، منها خلق دولة العدو الصهيونى فى الأرض المقدسة : فلسطين .

وبعد انقضاء هذا المؤتمر ، صرح هيرتزل قائلا : « ولدت دولة اسرائيل ، خلال خمس سنوات .. ربما .. وخلال خمسين سنة .. حتما .. » .

وكان من جملة مقررات المؤتمر الصهيونى الأول ، احياء التوراه لغة وعقيدة ، ليكون للصهيونية ودولتها ما يميز الوطن القومى : لغة يتفاهم بها اليهود هى العبرية ، وعقيدة تجمع شتاتهم هى اليهودية وأرض هى فلسطين .

ولكى يحققوا أهدافهم فى احياء التوراة لغة وعقيدة ، جابهوا صعوبات هائلة ، لأن العبرية لغة ميتة مهجورة من مئات السنين ، لا تتواجد الا ضمن نطاق بعض المعابد اليهودية لاقامة الطقوس الدينية ، أما المعابد الأخرى فتؤدى تلك الطقوس فيها باللغات المحلية ، لهجر اليهود للعبرية وخاصة فى أوروبا وأمريكا ..

وكما هجر اليهود لغتهم العبرية ، هجروا دينهم اليهودى ، فاقتصر التدين على الطاعنين فى العمر ، واندمجت الأكثرية فى أوروبا وأمريكا بالمجتمع ، فأصبحوا يهودا جغرافيين بالاسم فقط ، دون التطبيق العملى ، وأصبح الدين شعارا لا عملا .

وبدأت عقول الصهاينة بعد مؤتمرهم الأول ، تبذل قصارى جهدها ، لتحقيق قرار (الاحياء) كما يطلقون عليه ، فأنشأوا المدارس

والمعاهد والجامعات لتعليم العبرية وتدريس الدين ، واشترطوا على المهاجرين الجدد الى فلسطين شرطين: التكلم بالعبرية أولا ، والتمسك باليهودية ثانيا ، لقاء حوافز مادية ومعنوية مغرية ، يتلقاها المهاجرون الجدد مكافأة لهم على تعلم اللغة والتمسك بالدين •

أما فى الأرض المقدسة ، فقد فرضت الوكالة الصهيونية تعلم العبرية ، وجعلت منها بمعاونة الاستعمار الانكليزى لغة رسمية بالنسبة ليهود فلسطين القدامى والجدد ، وحرمت استعمال لغة أخرى فى المكاتب الرسمية وفى المعاملات والمصارف وفى المعابد •

وكما بذلت الصهيونية العالمية مبالغ ضخمة لخلع السلطان عبد الحميد ، لأنه رفض رفضا قاطعا ما عرضه عليه هيرتزل سنة ١٩٠٣ حول تخصيص قطعة من الأرض الفلسطينية لليهود مقابل ملايين الجنيهات الذهبية ، بذلت الصهيونية مبالغ ضخمة لاحياء التوراة لغة وعقيدة من جهة ، واماتة القرآن لغة وعقيدة وتشريعا من جهة أخرى، لأن العرب أصحاب فلسطين الأصليين لا يمكن أن يغلبوا من قلة أبدا ، ماداموا متمسكين بالذكر الحكيم•

وقد اكتشفت أن حركة (احياء) التوراة لغة وعقيدة حديثا ، بدأت فى نفس الوقت بالضبط الذى بدأت فيه الأصوات الناشزة المريبة بحركة اماتة القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعا !

بدأت الدعوة الى العامية،وحجتهم أن كل قطر عربى له لهجته العامية الخاصة به ، فللعراق ولمصر ولسورية وللبنان مثلا لهجة خاصة بكل قطر من هذه الأقطار شائعة على ألسنة سكانه ، ولكل قطر من أقطار المشرق العربى والمغرب العربى ، لهجة خاصة بسكانه ، فلماذا يعانى العرب من الازدواجية فى اللغة ، وهذه الازدواجية تعرقل تعلم التلاميذ !

ولا أعرف دعوة أسخف ولا أكذب من هذه الدعوة •

دعوة كاذبة سخيفة ، لأن الفصحى هى التى تجمع شمل العرب شرقا وغربا ، فاذا تكلمنا العامية فقد مزقنا الشمل وجعلناه بددا .

وكاذبة سخيفة ، لأن الفصحى هى لغة القرآن الكريم ، وهى همزة الوصل بين العرب والمسلمين بكل مكان ، فلمصلحة من تقطع هذه الصلة القوية الرصينة .

لقد سمعنا كثيرا من المسلمين ، قدموا من روسيا والهند وأوروبا وأمريكا واستراليا وافريقية يتكلمون العربية الفصحى بطلاقة ، فيتفاهمون بها مع العرب وفيما بينهم بسهولة ويسر فبماذا كانوا يتفاهمون لو تحول العرب عن الفصحى الى العامية ؟ !

ولكن !

وهل العربية وحدها تعانى من العامية ، ان كل لغات العالم فيها عامية ، فلماذا نطالب العرب وحدهم بالتخلى عن الفصحى من أجل العامية ؟

ان الذين يدعون أن العرب وحدهم لهم لهجات عامية كاذبون بادعائهم ، اذ لا أعرف لغة فى العالم كله الا وفيها لغة فصحى ولغة عامية .

وفى مصر مثلا لهجات عامية كثيرة ، بل فى كل مدينة من مدنها لهجات عامية كثيرة ، وما يقال عن مصر يقال عن سائر الأقطار العربية ، فأى لهجة عامية نلزم بها أبناء المدينة الواحدة فى القطر العربى الواحد ؟ !

لقد زرت المغرب فى رمضان المنصرم وأنا من العراق ، ولولا الفصحى لما استطعت أن أتفاهم مع الأشقاء هناك ولما استطاعوا .

ومن حق أعداء العرب والمسلمين أن يدعوا الى العامية ، حتى تصبح الفصحى غريبة بين أبنائها ، ومن ثم يصبح القرآن غريبا .

فما عذر أبناء العرب والمسلمين ، الذين يشايعون أعداءهم فى هذا المجال ؟ !

أيمكن أن يكون هؤلاء جهلاء ؟ أيمكن أن يكونوا مغررا بهم ؟

انهم مثقفون ثقافة عالية كما يزعمون أو كما يزعم من وراءهم من الأيدى الخفية التى تشيد بهم صباح

مساء ، وتنعتهم بنعوت العلمـاء ، وتمنحهم أعلى الدرجات العلميـة ، وتغدق عليهم المناصب الرفيعة والمال الحرام •

ومن نعوتهم : قادة الفكر،وهكذا يكون القادة والا فلا •

والمذهل حقا ، أن هؤلاء جميعا ، لم يدخلوا مسجدا للصـلاة فى كل حياتهم ، ولم يؤدوا هذه الفريضة فى يوم من الأيام •

ولست أنسى يوم مات أحدهم ، فحمله أهله الى أحد المساجدللصلاة عليه ، ولكن أحد الحاضرين الذين عرفوا الميت فى حيـاته واطلعوا على طويته قال بأعلى صوته : «لا أصلى عليـه أبـدا ، لأنه لم يكن يؤمن بالصـلاة ، ولم يدخـل مسـجدا وهو حى» •

وغادر المصلون المسـجد ، وبقى فيه غير المصلين ، حيث حملوا الميت الى مثواه الأخير دون صلاة •

وأخفقت الدعوة الى العـامية ، واسودت وجوه دعاتها ، ولا عبرة بألقابهم العلميـة والصـحائف التى سودت بالثنـاء عليهـم وبالمناصب الرفيعـة التى تسـنموها وبالمـال الحـرام الذى اقتنوه ، فقد ذهبت الألقـاب والمناصب وتفـرق المـال بين الورثة ، وانكشفت الصـحائف للناس ، ولم يبـق لهم غير الخزى والعار •

وسيفضحهم الله ويكشف حقيقتهم اليوم أو غدا ، ويومئذ يجد الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون !

وظهـرت مع الدعـوة الى تبنى اللهجات العامية ، دعوة مريبة أخرى لا تقل خطرا عن الدعوة الأولى ، هى كتـابة الفصـحى بالحروف اللاتينية !

وحجة دعاة الحروف اللاتينية أنها حروف عالمية ، والكتابة بها أسـهل من الكتابة بالحروف العربية ، وقد استبدل كمـال أتاتورك فى تركيـا الحروف اللاتينية بالحروف العربيـة فنجحت تجربته •• الخ ••

أما الحروف اللاتينية التى يدعون أنها عالمية ، فالحروف العربية عالمية

أيضا ، لأن العرب يستعملونها ويستعملها معهم مئات الملايين من اخوانهم المسلمين فى كثير من الدول الاسلامية ، ويكفى أن تكون عالمية لأن القرآن الكريم مكتوب بها .

أما الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية بحجة أن الكتابة بها أسهل من الكتابة بالحروف العربية ، فهذا غير صحيح أبدا ، فهناك حروف عربية غير موجودة فى الحروف اللاتينية ، والكتابة بالحروف العربية أسرع من الكتابة بالحروف اللاتينية، فاذا كتبنا كلمة (الأزهر) بالحروف العربية واللاتينية ، كان الوقت الذى نقضيه بكتابتها بحروف لاتينية أكثر من ضعف الوقت الذى نقضيه عند كتابتها بالحروف العربية ، والتجربة خير برهان عملى على ذلك .

وتجربة كمال أتاتورك لم تنجح مطلقا ، ويكفى أن تجربته قضت قضاءا مبرما على التراث التركى ، فأصبحت مصادره تباع بالوزن للبقالين ، ولا أحد من الجيل التركى الحاضر يستطيع قراءتها والاستفادة منها ، وهكذا جنى أتاتورك على الأتراك بحرمانهم من تراثهم الفكرى والحضارى الأصيل .

كما أن الحروف العربية لها جمالها الخاص بها ، حتى ليمكن اعتبار الخط العربى نوعا رفيعا من النقوش الجميلة .

وبين مخلفات بابوات روما ، ثوب لأحدهم ، مكتوب عليه آية الكرسى بالحروف العربية ، وكان البابا الذى يرتديه يظن أن ثوبه مطرز بنوع رفيع من أنواع التطريز ، دون أن يعرف أنها آية الكرسى من القرآن الكريم بالحروف العربية !

وكان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى قد سأل عبد العزيز فهمى عن أسباب دعوته لكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، فقال عبد العزيز فهمى : نريد أن (نعمم) العربية .

فأجابه المرحوم البشرى فورا : « تريد أن (تبرنطها) لا أن (تعممها) » .

نعم ، انه كان يريد أن يجعل العربية ذنبا للاتينية ، ويقضى قضاءا

مبرما على التراث العربى الاسلامى، والأهم من كل ذلك ، وهو الهدف الذى تريده الصهيونية ويريده أعداء العرب والمسلمين ، أن يجعلوا القرآن مهجورا ، فلا يستطيع أحد أن يقرأه كما أنزله الله ، ومن ثم يدخل عليه التحريف والتبديل .

وهيهات ...

وصدق الله العظيم : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (١) .

وأخفقت الدعوة الى الحروف اللاتينية ، كما اخفقت الدعوة الى العامية ، والفضل فى كل ذلك يعود الى القرآن الكريم .

واسودت وجوه دعاة الحروف اللاتينية ، ولا عبرة بالقطارات التى أطلق اسم قسم منهم عليها، وبالشوارع فى القاهرة التى بأسماء قسم منهم ، فسيأتى الوقت الذى تخلع فيه أسماؤهم من القطارات والشوارع، يوم يعرف أصحاب السلطان حقيقة أمر أولئك النفر المخربين والأسباب الخفية التى دفعتهم الى الجهر بدعوتهم .

ولكن دعاة العامية ودعاة الحروف اللاتينية لم ييأسوا من تطبيق مخططاتهم المريبة الهدامة فى يوم من الأيام ، لأن الأيدى الخفية التى وراءهم تستحثهم على الدأب فى مجال تطبيق خططهم لجعل هذا القرآن مهجورا ، فلا يسعهم الا تنفيذ ما يريده أسيادهم لقاء ما يتلقونه من سند مادى ومعنوى ودعم .

والواقع هو أن محاولة الطعن فى لغة القرآن الكريم قديمة قدم نزول القرآن ، فقد بدأت بيهود يثرب ثم امتدت الى عبد الله بن سبأ اليهودى الذى عاصر الامام عليا ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وتبناها الشعوبيون بعد الفتح الاسلامى العظيم ، وكانت موضع حقد الصليبيين أيام الحروب الصليبية . وبعد ذلك عمل من أجلها المستشرقون فى أواخر القرن

---

(١) الآية الكريمة التاسعة من سورة الحجر .

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لأهداف استعمارية ، فكتب (ولهلم سبيتا) سنة ١٨٨٠ كتابه : (قواعد العربية العامية فى مصر) باللغة الألمانية متنبئا فى هذا الكتاب بموت الفصحى كما ماتت اللاتينية من قبل . وفى سنة ١٨٨١ انبرت مجلة (المقتطف) تدعو الى كتابة العلوم بالعامية ، زاعمة أن الفصحى لغة النخبة وليست لسان الشعب .

وزج الاستعمار القديم كل قوته لتطويق الفصحى ، ففى سنة ١٨٩٩ جعل التعليم فى المدارس العصرية بمصر وبعض أقطار المشرق بالانكليزية وفى أقطار المغرب العربى بالفرنسية، ولم يكتف الفرنسيون بالمدارس بل فرنسوا الشارع والمكتبة والمكتب والكتب .

ويمضى المخطط الى غايته ، فيدعو مهندس الرى الانكليزى فى مصر (ويلكوكس) الى احلال العامية محل الفصحى ، فيتساءل : « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الى الآن ؟ » ، ويجيب: «ان الفصحى هى السبب الكامن من وراء هذا التخلف ، لأنها لغة ترف ذهنى ، وليست لغة ابداع علمى ، ولأنها لغة عزلت الجماهير الهائلة من محاولات الفعل والخلق » ، ثم يزعم أن الحل الذى لا بديل عنه ، هو طرح الفصحى، والتمسك بالعامية» .

وفى سنة ١٩٠١ نشر القاضى الانكليزى (ولمور) كتابه : (العربية المحكية فى مصر) لضرب الفصحى والترويج للعامية .

وفى سنة ١٩٢٥ عاد (ويلكوكس) الى الميدان من جديد ، فترجم (الانجيل) الى العامية ، ونشر رسالة بالانجليزية يزعم فيها أن مصر وشمالى افريقية وسورية ومالطة تتكلم البونية لا العربية ، وألف بالعامية كتابه : (الأكل والايمان) الذى صدرت منه ثلاث طبعات الى سنة ١٩٢٩

وتصاعدت محاولات اضعاف الفصحى تمهيدا للقضاء عليها بظهور كتاب بالعربية يطعنونها من الخلف بخناجر مسمومة ، ففى الربع الثانى

من القرن الثانى تبنى الكاتب المصرى (سلامة موسى) مهاجمة الفصحى بطريقة أشد من طرق المستشرقين الأجانب ، فزعم أن الفصحى لاتخدم التفكير العلمى والفلسفى وليست قادرة على ايجاد مجتمع علمى ولا على التفكير السديد ،وهى لغة الانفعالات والعواطف والماضى والمبالغة والكراهية والمترادفات والاطناب والتعقيد ، وزعم : « أن اتخاذ الخط اللاتينى يحمل الأمة الى الأمام مئات السنين ويكسبها عقلية المتمدنين ويجعل دراسة العلوم سهلة وهو خطوة نحو الاتحاد البشرى » .

وضرب (أميل شميل) على نفس الوتر ، فزعم أن العربية الفصحى وصلت الى مرحلة العجز الكامل عن مواكبة التطور الحضارى ، ولذلك فلابد من هجرها الى لغة أجنبية أكثر قربا من التطور الحضارى ، وأن العربية ماضية فى طريقها الى الموت كما ماتت من قبلها لغات كانت لها نفس الخصائص والمكونات ، كاليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، وأن بعث لغة ماتت لا جدوى فيه ، وأن اللغات الأوربية فيها تراث على مستوى صوابى أروع من التراث العربى فلا خوف من التخلى عن تراثنا اذا تخلينا عن العربية،وأن الكساد المادى والمعنوى جميعا منوط بأولئك الذين يجهدون أنفسهم فى دراسة اللغة العربية ، وأن الانفتاح والامتلاء جميعا منوطان بأولئك الذين يعملون فى مجال اللغات الأوربية الحية .

هكذا بكل بساطة،يريد (شميل) هذا ، شطب العربية من الوجود ، واتخاذ اللغات الأوربية لغة للعرب، دون خوف على التراث ، وعلى رأسه القرآن الكريم ، لأن فى اللغات الأجنبية تراثا أرقى من التراث العربى الاسلامى وأكثر جدوى منه .

ولكن ، لماذا يدعى (شميل) بأن العربية ماتت ولا يدعى نفس الادعاء بالنسبة للغة العبرية ! ومن قال : ان اليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية قد ماتت ؟

ان اليونان والأقباط قادرون على تكذيب هذا الادعاء ، كما أستطيع أن أكذبه جازما بصفتى من أهل العراق ، بالنسبة للغتين السريانية والكلدانية ، وحسبى أن أذكر أن هناك (مجمعا) فى بغداد للغة السريانية ، وأن هذا المجمع أصدر عدة كتب بهذه اللغة وعقد مؤتمرا عالميا قبل عامين احتفالا بذكرى أحد علماء السريانيين الغابرين .

وظهر عبد العزيز فهمى الذى دعا : الى العدول الكامل عن الحرف العربى الى الحرف اللاتينى ، توخيا للسهولة المزعومة ، وتمشيا مع الفكر الحديث ، واستغناءا عن عبثية الضبط بالشكل الى صوابية الضبط بالحروف .

وانتهز (سلامة موسى) هذه الفرصة السانحة ، فرصة دعوة عبد العزيز فهمى ، فشن حملة ضارية على الحرف العربى ، مؤكدا أن أفدح عناصر الجذب الوراثى فى تاريخ المنطقة العربية هو رفض ارتفاق لغة حضارية حية والاستمساك بأحافير لغة الصحراء والناقة والحجاب والدم والجنون ، الى آخر هذه النعوت التى رددها بدون خوف ولا حياء .

وكانت خطورة آراء (سلامة موسى) تأتى من أنه كاتب عربى ، ولكن عبد العزيز فهمى كان أكثر خطرا ، لأنه مفكر عربى مسلم ، وهو يدرك بدون شك خطورة مثل هذه الدعوات على القرآن الكريم وعلى التراث العربى الاسلامى ، وعلى كل مقومات العرب والمسلمين .

وأخيرا ، جاء مؤتمر بيروت الذى عقد فى شهر جزيران (يونية) سنة ١٩٧٣ ، فدعا الى الاقتصار على الجملة الاسمية ، وقبول المفردات العامية فى اللغة المكتوبة ، والاكتفاء فى جمع المذكر السالم بصيغة الياء والنون ، وتوحيد صيغة الأسماء الخمسة فيقال : (أبو) فى الرفع والنصب والجر ، وجميع الكلمات والتراكيب العامية .

وظهر من يدعو الى تسكين أواخر الكلمات هروبا من صعوبات الضبط وتملصا من قوانين الحركة فى اللغة .

وظهر من يدعو الى تيسير قواعد العربية ، والى تيسير الكتابة بالحروف العربية ، والى تيسير علوم اللغة .

وأشهد أن الذين درسوا اللغة وعلومها بالأسلوب القديم الذى كان يتخذه الأزهر الشريف فى أروقته ، ويتخذه الشيوخ الأجلاء فى الزيتونة والقرويين والجوامع والمساجد فى أرجاء العالم الاسلامى ، اعتمادا على كتب اللغة وعلومها القديمة ، أتقنوا ما تعلموه اتقانا متميزا لا مثيل له ، فتخرج فى تلك المدارس والمعاهد والجامعات علماء أفذاذ فى اللغة وعلومها لا يشق لهم غبار علما وغيرة على العربية واعتزازا بها وحرصا على تعلمها وتعليمها .

أما الذين درسوا اللغة وعلومها بالأسلوب الحديث ، الذى طبقته المدارس والمعاهد والجامعات الحديثة ، اعتمادا على كتب اللغة وعلومها الميسرة ، كالنحو الواضح والبلاغة الواضحة (مثلا) وغيرهما من الكتب الميسرة ، فلم يتقنوا ما تعلموه ، وليست لديهم غيرة على العربية وعلومها ولا حرص على تعلمها وتعليمها كما كان الذين تعلموا بالأسلوب القديم .

وقد شهدت مناقشات رسائل (الدكتوراه) فى الجامعة والأزهر الشريف خاصة باللغة وعلومها ، فسمعت أخطاء لغوية شنيعة نحوا وصرفا وقراءة !

وكان خط الذين درسوا بالأسلوب القديم كأنه اللؤلؤ المنضود حسنا وجمالا ، فأصبح خط الذين درسوا بالأسلوب الحديث كأنه آثار ذبابة غطست فى محبرة وتحركت فوق قرطاس أبيض قبحا وضعفا .

وهناك مصاحف لا تعد ولا تحصى ، وكتب قديمة من التراث العربى الاسلامى لا حصر لها ، فى المتاحف والمكتبات العامة والخاصة ، مكتوبة بخط عربى جميل ، تثبت ما كان عليه السلف الصالح من اهتمام بالخط العربى الأصيل .

وقد أخرجت بعض المطابع مصاحف عديدة بالتصوير نقلا عن خطها اليدوى الجميل ، فكانت آية

فى الجمال والدقة والاتقان ، وكمثال على ذلك المصحف الذى أخرجته أوقاف العراق للناس ، فبهر المسلمين بجمال خطه وأدهش خبراء الخط المسلمين وغير المسلمين .

وفى المتحف البريطانى مصحف خطته امرأة أندلسية قبل قرون ، يستحيل على أى خطاط عربى اليوم أن يأتى بمثله ، وقد اعتذرت كاتبة هذا المصحف فى الصفحة الأخيرة منه فقالت : « كتبت المصحف وأنا أهز مهد طفلى الرضيع ، فجاء الخط كما لا أشتهى » !

ان المعلم والأستاذ يؤثران فى التلميذ والطالب بالمثال الشخصى وقد كان معلم العربية وأستاذها ، يؤمنان بأن الفصحى لغة القرآن الكريم ولغة الاسلام ، وأن اتقانها عبادة من أجل العبادات ، لذلك فتعلمها موضع اعتزاز وفخر ، وهى ليست صعبة ولا عويصة ،وقد أتقنها كثير من العجم اتقانا رائعا بسهولة ويسر ، فكيف يصعب اتقانها على العرب وهى لغتهم وهم أبناؤها ؟ !

وأصبح المعلم والأستاذ أسوة سيئة للتلميذ والطالب ، لأنهما يعتقدان بأنها لغة الصحراءوالكهوف والتخلف نتيجةللمناهج الاستعمارية التى طبقت عليهما فى التعليم ، فاستقر فى خلدهما أن الفصحى لغة صعبة عويصة ، واتقانها من المستحيلات التى لا تتحقق الا لذوى العزم ، وأن حسن الخط لا أهمية له ولا قيمة ، فهو وسيلة للقراءة فحسب ، وليس غاية من أعظم الغايات .

لقد كان المعلم والأستاذ اللذان تعلمنا عليهما الفصحى خريجى مناهج دولة مستقلة ، فتغذينا على يديهما بالاعتزاز والفخر بالفصحى وكل ما يمت اليها بسبب .

وتعلم أولادنا على معلم وأستاذ خريجى مناهج دولة مستعمرة ، فتغذوا على يديهما ازدراء الفصحى وكرهها وكل ما يتصل بها من علوم وفنون .

وحتى الذين لم يتقنوا الفصحى من جيلنا يرونها شيئا مقدسا وأساسا

لكل علم وأدب وفن ، وحتى الذين أتقنوها من الجيل الذى جاء بعدنا ، يرونها شيئا هامشيا لا صلة لها بالعلم والأدب والفن .

وقد استفتت مجلة عربية صفوة علماء العربية : هل تصلح العربيـة لغة للعلم ؟ فأجاب أكثرهم : أنهـا لا تصلح للعلم فى الدراسـات الجامعية !!

وكان جـوابى الحاسم : انهـا تصلح ، والضعف ليس فى العربية ولكن فى العرب .

والتقيت بأحد الذين يعتبرهـم الناس من صفوة علماء العربية من الذين أجابوا : انها لا تصـلح ! فسألته : هل قرأت كتاب المخصص لابن سيد ؟؟

وصدمت صـدمة عنيفة ، لأنه قال : لم أقرأ هـذا الكتاب ، ولم اسمع به !!

وكنت أظن أن هذا الكتـاب اللغوى أشهر من أن يعرف،ولكننى كنت بواد ، وأمثال هذا الذى من (الصفوة) بواد آخر .

وقد درست المصطلحات العسكرية فى هذا الكتاب ، ونشرت قسما من هذه الدراسة فى مجلة : (الأزهر)، قبـل سـنوات ، فظهر لى أن المصطلحات العسكرية المتيسرة فيه، تغطى كـل ما نحتـاج اليـه من مصطلحات عسكرية حديثة ثم يبقى منها احتياط للمستقبل .

وكان للمصطلحات العسكرية فى (المخصص) شأن أى شأن فى مجال توحيد المصطلحات العسـكرية للجيوش العربية ،والمعجم العسكرى الموحد الذى صـدر قبـل خمس سنوات شاهد على ذلك .

ومـا يقـال عن المصـطلحات العسكرية فى (المخصص) ، يقال عن مصطلحات العلوم والفنون الأخرى وألفاظ الحضارة ، ولكن أين من ينقب فى هذا الكتاب وفى أمثاله من الكتب الأخرى من العلماء ، ليقتبس ألفاظه العلمية والحضارية فى مجال وضع المصطلحات العلمية والحضارية

ان المصيبة بالنسبة للصفوة من العلميين العرب ، هى أن أكثرهم تلقوا العلم فى جامعات أجنبية بلغة غير عربية دون أن تكون لهم أسس قويمة فى العربية وعلومها ، أو تلقوا العلم فى جامعات عربية بلغة غيرعربية على أساتذة مستغربين ؛ وهؤلاء مصادرهم أجنبية ، ويكادون يجهلون كل الجهل مصادر العربية وعلومها والمرء عدو ماجهل ، فمن الطبيعى جدا أن يعارضوا تدريس العلوم بالعربية فى الجامعات العربية ، وأن يؤمنوا بأن العربية لا تصلح لغة للعلم ، لسبب بسيط هو جهلهم العربية وطاقاتها المذهلة المتيسرة فى مصادر اللغة ومعجماتها خاصة ، وقدرة العربية الفذة على النهوض بألفاظ العلوم والفنون والحضارة وتاريخ العربية ــ لمن يعرفه ــ خير شاهد ودليل •

وكل عربى وكل مسلم ،يستطيع أن يفهم أهداف أعداء العرب والمسلمين فى انتقاص العربية والتشنيع عليها •

أما أن يطعن عربى أو مسلم العربية من الخلف ، فهذا ما لا يستطيع عربى ومسلم أن يفهمه •

لقد سأل أحد النواب الأنكليز اللورد جراى عن تعليم اللغةالعربية بمصر ، فأجابه : « لا تصلح اللغة العربية اليوم لتعليم العلوم لأنها تفتقر الى الاصطلاحات العلمية والفنية » •

وأصدر (دانلوب) وهو ابن قسيس متعصب لدينه ، وكان مستشارا لنظارة المعارف منشورا بتعليم جميع العلوم فى المدارس باللغة الانكليزية ما عدا مختارات من اللغة العربية والدين الاسلامى فى نطاق محدود •

وما فعله (دانلوب) فى مصر فعله أمثاله فى البلاد العربية التى ابتليت بالاستعمار الانجليزى والفرنسى والايطالى •

والدعوة الى العامية ، والى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، لم تقتصر على مصر وحدها ، بل شملت البلاد العربية كلها ، والقاسم المشترك الظاهر بين جميع الدعاة الى العامية والحروف اللاتينية من العرب المسلين هو عدم التزامهم بتعاليم الاسلام أولا ، وانتمائهم الى

جمعيات مريبة كالماسونية ثانيا ، وارتباطهم الوثيق بالاستعمار الفكرى ثالثا .

ذلك ما ظهر فى هؤلاء الدعاة ،وما خفى كان أعظم !

ولا لوم على دعاة العامية والحروف اللاتينية من الاجانب ومن العرب غير المسلمين ، لأنهم يصاولون لغة القرآن من أجل هدفهم فى هجر القرآن ، ولكن اللوم كله يقع على الدعاة العرب المسلمين ، اذ لا أجد لهم عذرا مقبولا ولاحجة مقنعة .

هل من المصادفة أن تتفق محاولة توقيت احياء التوارة لغة وعقيدة بمحاولة توقيت اماتة القرآن لغة وعقيدة وتشريعا ؟

أيمكن أن يصدق أحد ، بأن اللغة العربية تعجز عن حمل رسالة العلم والحضارة ؟

لقد استوعبت العربية جميع الحضارات السابقة ، فأصبحت لغة الحضارة والعلم فى العالم ، وكانت الجسر الذى عبرت فوقه الحضارات والعلوم الى أوروبا ، كما يقرر ذلك المنصفون من العلماء الأجانب .

وقد تتلمذ (جيربر Gerber) على علماء العرب فى أشبيلية وقرطبة زهاء ثلاث سنين ، درس فيها الهندسة والفلك والميكانيكا ، فلما عاد الى أوروبا بهر الانظار بعلمه . وتدرج فى مناصب الكنيسة حتى ارتقى كرسى البابوية باسم سلفستر الثانى ، وقد حملت براعته العلمية الكثيرين على اتهامه بالسحر ، وينسب اليه فضل ادخال الارقام العربية الى فرنسا ، وكذلك الساعة الدقاقة .

وكان أمراء أوروبا كلما احتاجوا الى جراح أو مهندس أو مغن أو خياط ، وجهوا طلبهم الى قرطبة ، فذاع صيت هذه العاصمة الاسلامية ، ووصفتها راهبة سكسونية بأنها جوهرة العالم .

وقد غزت العربية لغات العالم كلها ، وكان العلم والحضارة من

وسائلها فى هذا الغزو ، وقد صدرت معجمات فى جميع اللغات العالمية وغير العالمية تسجل المفردات العربية فى تلك اللغات ، وآخر ما صدر من تلك المجمعات معجم : المفردات العربية فى اللغة الروسية.

فهل يمكن أن تشيع العربية فى جميع اللغات بدون استثناء عبثا ؟

ان الصهاينة يدرسون العلوم الحديثة فى جامعاتهم باللغة العبرية بعد احيائها .

فهل من المعقول والمنطق أن تنهض العبرية بالدراسات العلمية كافة ، وتعجز العربية عن النهوض بتلك الدراسات !

ولست أخاف على العربية من أعدائها ، ولكننى أخاف عليها من أبنائها .

ان العربية لغة (حية) فهى لا تحتاج الى احياء ، وهى لغة (عالمية) لأنها لغة خمسين ومئة ألف ألف من العرب ولغة ألف ألف ألف مسلم .

واذا كانت (العبرية)قد أصبحت لغة العلم ، يتباهى بها الصهاينة ويعتزون ، فمن العار على عربى أو مسلم أن يدعى بأن العربية لا تصلح لغة للعلم الا اذا كان ذلك العربى أو المسلم جاهلا أو عميلا أو امعة أو معتنقا مذهبا مريبا يعمل لمصلحة أعداء العرب والمسلمين لا لمصلحة العرب والمسلمين .

ومرة ثانية ، ان الضعف ليس فى فى العربية ، ولكن الضعف فى العرب والمسلمين .

مخالطة الناس افضل

ذكروا عند وهب بن منبه عزلة بنى اسرائيل وشتاتهم فقال وهب رحمه الله : « من خالط الناس فورع وصبر على اذاهم هم كان أفضل عندى » .

لغتنا العربية
ماذا يراد بها ؟

لفضيلة الدكتور على العمارى

٣

قد يهول العاقل ، الحريص على مجد أمته ، الحفيظ على تراثها ، الحدب على دينها ولغتها .

قد يهوله مايقرؤه وما يسمعه فى الحين بعد الحين من تطاول على ما ورثناه من علم وأدب،وما يلمسه من الاستهانة بما بذل فيه أسلافنا كل مرتخص وغال .

فان أفرادا من قومنا ، ومن بنى جلدتنا ، دينهم ديننا ، ولغتهم لغتنا، ومجدنا مجدهم ، ودينهم الاسلام ، ولغتهم العربية ، يرفعون أصواتا واضحة حينا ، مضطربة أحيانا ، بأن تتخلى عن تراثنا ، أو عن بعضه ، فاللغة العربية الفصحى عندهم لغة تراث ، وليست لغة عصر ، وعلوم البلاغة العربية تاريخ أكثر منها رؤية مستقبلية ، زاعمين انها كتبت لعصر غير عصرنا ، ولأجيال غير جيلنا ، وفى أحوال لا تشبهها أحوالنا .

وان افرادا آخرين يفعلون ولا يقولون ، يهدمون بما يصنعون أفخر امجادنا ،موقنين أنهم سيكونون القدوة والأسوة فيما يتخذون من مناهج فى الاستهانة باللغة العربية الفصحى ، والابتعاد عنها .

ولقد رصدت الأسباب التى دفعت بهؤلاء الى ما يقولون وما يصنعون فبان لى منها أمور :

فمنهم – بل أكثرهم – ينادى بذلك جهلا بتراثنا ، وقصورا عن فهمه ، ومنهم من يتظرف بالزراية على القديم ،يرى أنه يكون ذامكانة عند الناس حين يتظاهر بأنه رجل عصرى . ومنهم الساخطون الناقمون على القديم كراهية للأسلام ، وبغضا للعرب والعربية .

ومنهم المقلدون لفريق من هؤلاء ، يهرفون بما لا يعرفون ، يرون أن القول بما يقوله فلان وفلان من ذوى الصيت البعيد والصوت الجهير لحوق بهم ، ومشاركة فى مضمارهم .

وقليل منهم خلصت نواياهم ، وسلمت صدورهم ، ولكن التبست عليهم الأمور ، واشتبهت فى طريقهم المعالم ، فظنوا أن من الخير للأمة أن تجدد لغتها كما تجدد ثيابها ، وأن تبتكر فى شريعتها ما يرضى عنه الضائقون بالشريعة الاسلامية .

وأحب أن أؤكد أنى ، وكل الذين يطلقون عليهم محافظين ، لا ندافع عن القديم لأنه قديم ، ولا تتنكر لبعض الجديد لأنه جديد .

فانه وان كان ما هدتنا اليه الدراسة أن القديم فى جملته خير وأنفع ، وأعمق وأوعى من الجديد فى جملته نؤثر الجيد النافع من أى انسان صدر وفى أى مكان أو زمان قيل .

وفى مجالنا هذا أؤكد أن الذين نادوا بالتخلى عن تراثنا لم يكتبوا شيئا يمكن الانتفاع به ، والاعتماد عليه .

ولنأخذ علوم البلاغة مثلا .

لقد قرأنا ، ومازلنا نقرأ أن علوم البلاغة القديمة لا جدوى من دراستها ، ولا غناء فيها ، وأنه ينبغى التخلى عنها ، واحلال بلاغة عصرية محلها ، وقد ألفت فى هذه الدعوة كتب ، ونشرت أبحاث تعيب على علماء البلاغة المتقدمين مناهجهم فى تدوين البلاغة ، ومع كل هذا الهرج والمرج والصراخ الطويل العريض لم نقرأ لواحد منهم كتابا يحدد لنا فيه ملامح بلاغة عصرية نعتمد عليها فى الافادة والتدريس ، ولم نر واحدا منهم وضع ــ ولو فصلا واحدا ــ يغنينا عن فصل شبيه به من فصول البلاغة القديمة . اللهم الا اذا كان كتاب (البلاغة العصرية) لسلامة موسى هو الأمل المنشود ، والمنقذ الموعود ، والجدير بأن نحله محل أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز ، وسر الفصاحة والمثل السائر ،

والصناعتين ، والايضاح والعمدة ، وأشباه هذه الكتب .

فان هجس فى خاطر واحد منهم مثل هذا الضلال ، فياخيبة الأمل ، وياضلال المسعى ، وياسفاهة الرأى .

فاذا أشرنا الى ما صنع بالنحو العربى كانت حجتنا أقوى ، ودليلنا أنصع ، لقد عاب بعض الباحثين على النحاة ، ولا يزال أفراد الجيل الناشىء يعيبون عليهم ، فهل وضعت فى عصرنا كتب أو كتاب واحد يغنى عن كتب المتقدمين ؟

لقد قلت فى مقال سابق ، ان كل المحاولات التى بذلت فيما سمى باحياء النحو أو تحرير النحو ماتت فى مهدها ، لم تنفع أحدا ، ولم يقتنع بها معهد واحد من المعاهد التى تدرس لأبنائها النحو العربى .

وقل مثل ذلك فى كل العلوم التى قتلها المتقدمون بحثا ودرسا .

والمدعون بأنهم أنصار الجديد لا يرضيهم الا أن يؤمن الناس بجديدهم ، وأن يسجدوا له مقدسين لجلاله ، معترفين بكماله ، سواء منهم التام والخديج ، والسمين والغث ، ان كان فيه تام وسمين .

ونحن مهما سايرنا هؤلاء ، وأحسنا الاصغاء الى ما يهرفون به فلن يكون ذلك نكرانا للحق والنفع والخير ، ولن نستطيع أبدا أن نقول للعائر الأرمد : أنت رزقاء اليمامة ، والا كنا مثله عورا أو عمشا أو عميا

والعلم والأدب والرأى لا يصلح منها شىء اذا كان المتصدون له لا يعالجونه الا رغبة فى الجدل ، أو تكثرا من العلم ، أو تظاهرا بالتجديد .

وأسوأ ما نلقاه من دعاة التجديد أنهم يناضلون عن عجزهم ، أو من عجز الآخرين ، فكل ما لا يحسنونه قديم بال ينبغى القاؤه فى البحر ، ومن العبث أن نحاول الارتفاع بمستوى العاجزين ، بل علينا — فيما يزعمون — أن نضع القواعد والضوابط التى تجعل عجزهم مشروعا بقانون .

ومما لا شك فيه أن ما يصدر عن الأمم فى أيامها الأولى أجمل وأروع

مما يصدر عنها حين تختلط عليها الأمور ، ويسود أبناءها الضعف والجهل .

ومما لا شك فيه ـ أيضا ـ أنه لا يوجد عاقل يتنكر للجيد من الجديد أو يخف من وزنه ، ويحط من قدره ، فالذى يعجب بالقديم لا يعجب به عصبية أو حقدا على الجديد ، وانما يعجب به لأنه/جيد ، فهو ـ اذن ـ يعرف لكل جيد قدره ، وينزله منزلته اللائقة به .

والذى يدفع كل شك فى ذلك أننا قرأنا كثيرا صدر من علماء عصرنا وأدبائه فى قضية القديم والجديد ، فوجدنا من يسمونهم محافظين ، أو متعصبين للقديم ، وجدناهم يشيدون بفضل الجيد من الجديد ، ووجدنا دعاة التجديد يغضون من شأن القديم كأنهم يرون أن جديدهم لا يقف شامخا عاليا الا على أنقاض القديم ، وقل منهم المنصفون .

ففى الأبحاث النحوية ـ مثلا ـ وجدنا أكثر من يتصدون للتجديد يبدأون بالازراء على النحويين القدامى ويلقون عليهم التهم جزافا فى حين نرى المحافظين على تراثنا يباركون صنيع كل من يأتى بجديد نافع فى قضايا النحو ، أو فى طرق تدريسه .



وقد كنت على نية المضى فى التنبيه الى ما تضمنته كتب - (من أسرار اللغة) و (لغتنا المعاصرة) و (النحو المعقول) من تجن على النحاة ، ومن مجانبة الصواب فيما ذكرت هذه الكتب وزعمته أخطاء .

ولكن لفت نظرى مقال ورد فى احدى المجلات الشهرية يعيد فيه كاتبه قضية (فصحى التراث) و (فصحى العصر) .

وقد كنت عرضت لهذه القضية فى أول مقال من هذه المقالات التى أكتبها فى مجلة الأزهر ، كما عرضت لها فى مقال نشر بمجلة الاذاعة ، وظننت أن ما أوردته من حجج على ابطال هذا التفريق كفيل بأن يعيده الى الصواب ، ويقنعه بأنه من الخطأ والخطر أن نبرز لغة أخرى نجعلها

مقابلة للغتنا العربية ، وأن ندعو الى أن تكون اللغة (المستهدفة) فى التعليم والتأليف والاذاعة .

فيبدو أن الكاتب لم يقرأ ما كتبت أو قرأ ولم يقتنع ، أو قرأ واقتنع ولكن غلبه حب الجدل على ايثار الحق ، والرجوع الى الصواب .

لفت نظرى هذا المقال فرأيت أن أعيد الحديث موجزا عن هذه القضية .

وأول ما تعجب له من أمر هؤلاء الذين يتصدون للقضايا الكبرى أن أقلامهم لا تتورع عن اتهام الذين يريدون أن يحافظوا على العربية كما كان ينطق بها العرب ، والتى نزل بها القرآن الكريم ، وصيغت بها احاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكتبت بها ملايين الكتب .

لا تتورع أقلامهم عن اتهامهم بالجمود ، وقذفهم بأشنع الأوصاف ، فهم — كما ورد فى المقال — أصحاب (نظرة متشنجة ، تدعى لنفسها الغيرة والحفاظ والتشدد فى الحق بينما هى تطعن التطور اللغوى فى صميمه) وأصحاب (نظرة متعصبة متزمتة) وهم (يعوقون بفكرهم المتخلف ، وعجزهم عن التجدد والتطور كل جهد مثمر يبذله المخلصون) وهم (مازالوا يصرون على أن تكون مسيرة هذه اللغة مغايرة لمعنى التقدم ، بل مضادة له أيضا حين تمضى قافلتها ، ورأسها الى الوراء بحثا عن المثل الأعلى فى صفحات تراث قديم ، وتكرارا لحصاد سابق فى اللغة والفكر) (١) .

أكل هؤلاء العلماء ، وجلهم من كبار رجال التعليم فى الأزهر ، وفى وزارة التربية والتعليم . أكل هؤلاء أصحاب فكر متخلف ، وعصبية وجمود ، وليس صاحب فكر تقدمى الا كاتب المقال ، وحفنة من أمثاله لا تعد على الأصابع ؟

---

(١) مجلة الهلال عدد يوليه سنة ١٩٧٧ ، مقال : (لغتنا الجميلة والمشكلات المعاصرة) .

أهذا جزاء رجال قضوا أعمارهم فى تعليم اللغة العربية والحفاظ عليها ؟ . وممن يجىءهذا الاتهام؟. من أحد تلاميذهم الذى لقن العربية من أفواههم ، ومضى فى الطريق مهتديا بأضوائهم .

وقد كان الكاتب فى مقال سبق تكرم على القراء بأن لهم لغتين : (فصحى التراث) و (فصحى العصر) .

وفى هذا المقال ــ نقلا عن أحد الباحثين ــ رفع العدد فجعله خمسا، فهناك ــ كما نقل ــ فصحى التراث، وفصحى العصر ، وعامية المثقفين ، وعامية المتنورين ، وعامية الأميين .

ولو أقسم انسان أنه لا يعرف فرقا بين هذه المستويات الثلاث الأخيرة لبر فى قسمه .

وهأنذا أنقل له عبارات أرجو أن يرشدنى من أى مستوى هى ؟

بدأ الكاتب كلامه بقوله : (مش قوى كده) ، وقد جاء فيه : (والحياة عندما أصبح الموت نفسه أهم منها بكثير، نحتفل به ، ونقيم له الشوادر، ويلعلع صوت المقرىء ، وتوزع القهوة ، والماء المثلج) . كما جاء فيه (تعالوا بنا نبدأ من أول وجديد) وقوله : (احنا مالنا مزنقينها على نفسنا كده ليه،ما تبحبحوها شوية، ده كده الموت أرحم من الحياة) . وقوله:(من يريد أن يهلس فليهلس).

وسيحار الكاتب ولا شك فى تعيين مستوى هذه العامية،وغالبا ما يقول انها لغة السوقة ، وربما قال انها عامية المثقفين أو المتنورين ، ولكن هل يدرى أنها لكاتب مشهور فى مقال نشرته صحيفة وقور ، كانت فى بعض عهودها ميدانا للأدب الرفيع .

ولا أدرى لم تحمل صحيفة الأهرام القاهرية وزر محاربة اللغة الفصحى بما تنشره لبعض الكتاب الذين قد يقتدى بهم الناشئة ، من مذكرات أو كلمات تصطنع العامية الهابطة ؟ .

ان أصغر كاتب من هؤلاء لا يعجزه — فيما أظن — أن يكتب مقاله كله بلغة عربية صحيحة ، ان لم أقل فصيحة ، فلم الارتكاس الى درك العامية وهى كما نعرف ليست لغة أدب .

وأى كسب أدبى يعود على هذه الصحيفة الوقور من افساحها المجال أمام العامية ، وتكون بذلك قدوة سيئة لمن يعالجون كتابة المقال الأدبى ؟

أما يكفى ما نسمعه فى الاذاعة والتلفزيون مما يؤذى آذاننا ، ويحزن قلوبنا ؟

اننا لنأسف لهذا العداء الصريح للغتنا العربية الصريحة ، ولئن كان يقبل على الرغم منا من غير المثقفين ثقافة عربية أن يتحدثوا بالعامية الدارجة فانه لا يقبل ممن يعالجون موضوعات ثقافية دينية أو لغوية ، وقد شدوا شيئا من العربية ، لا يقبل منهم أن يصطنعوا العامية فى أحاديثهم .

واذا لم يكن فى قدرة هؤلاء أن يتحدثوا بعربية صحيحة فعليهم أن يتركوا هذه المجالات حتى يقدروا ، وعليهم أن يستضيئوا بقول الشاعر القديم :

اذا لم تستطع شيئا فدعه
وجاوزه الى ما تستطيع

ولكن نرى أن كثيرين ممن يكتبون أو يذيعون لا يحسنون الا الادعاء والتبجح ، ونراهم يدخلون فى ميادين لم يعدوا أنفسهم لها الاعداد الكافى فهم كما قيل (كساع الى الهيجا بغير سلاح) .

ومن هنا ضيمت اللغة العربية على ألسنتهم ، وفى أقلامهم .

ثم أعود الى فصحى العصر ، وفصحى التراث .

لقد قلت فيما سبق أن اللغة العربية فى أى عصر من العصور لم تكن ذات مستوى واحد . وانما كانت لها مستويات حتى فى العصر الجاهلى ، فقد وجدنا البون بعيدا — مثلا — بين معلقة لبيد بن ربيعة ، ومعلقة الحارث بن حلزة ، من حيث غرابة الألفاظ والفها ، ومن حيث

جزالة الكلمات ورقتها ، ومن حيث غموض التراكيب ووضوحها . والأمثلة كثيرة لا تكاد تحصى .

وقد قلت فى بعض المواقف ، ان من الشعر الجاهلى شعرا لو قرأه من شدا شيئا من العربية لفهمه ، ولا يكاد يحتاج الى البحث فى المعاجم عن كلمة من كلماته ، وضربت مثلا بقول النابغة الذبيانى وهو من كبار شعراء الجاهلية :

المرء يأمل أن يعيش
وطول عيش قد يضره
تغنى بشاشته ويبغى
بعد حلو العيش مره
وتسوءه الأيام حتى
ما يرى شيئا يسره
كم شامت بى ان هلكت
وقائل لله دره

ومثل هذا الشعر فى العصر الجاهلى كثير ، وانما قلت ذلك لأن محدثى — وكنا فى جماعة المثقفين — زعم أن الشعر الجاهلى كله غامض ، وأن علينا أن نقى تلاميذ المدارس من دراسته .

ولأن صاحب المستويات ادعى أن من أخطائنا فى التعليم أن نبدأ الطالب بلغة التراث كما يسميها ، فأردت أن أثبت لهم أن فى لغتنا العربية ، وفى تراثنا مستوى سهلا كل السهولة ، واضحا كل الوضوح ، وأننا — لو أخلصنا — نستطيع أن نصطنع هذا المستوى فى التعليم ، وعند مخاطبة العامة وأشباههم ، ولا حاجة بنا الى أن نفرد لغة نسميها (فصحى العصر) فنباعد بين الناشئة وبين لغتنا العربية الصحيحة الفصيحة .

ولا تصرفنا الدعوة الى أن نستعمل لغة عربية ميسرة فى التعليم أو فى مخاطبة العامة ، عن الدعوة — وبنية صادقة — الى أن يرتفع الكتاب والمؤلفون الى لغة البلغاء من أمثال الجاحظ والتوحيدى والمتنبى والشريف الرضى .

ثم : من قال ان اللغة الفصحى تعوق الشاعر أو الكاتب أو المتحدث عن الانطلاق)

انما يعوق بعض هؤلاء عن الانطلاق جهله بالعربية ، وضآلة ثروته من مفرداتها وتراكيبها .

ان كثيرا ممن يتصدون للشعر والكتابة والحديث لا يحفظون من اللغة الا النزر اليسير ، ولو أنهم عنوا بالقراءة والحفظ من شعر الشعراء ، ورسائل البلغاء ، ووصايا الحكماء لاستطاعوا أن يؤدوا ما يجول بخواطرهم فى يسر وسهولة، ودون مشقة أو معاناة .

لقد عاب مرة أمامى أحد المتشاعرين الشعر العربى ، ورماه بالجمود والتحجر فطلبت منه أن ينشد ثلاثة أبيات متتابعة من أى قصيدة عربية قديمة فعجز ، فقلت له : كيف تحكم على شىء أنت أجهل الناس به ؟

ثم :

هل يريد الكاتب من المجامع اللغوية ، ومن المهيمنين على العربية أن يصدروا قانونا يجعل الجهل بلغة التراث ــ كما يسميها ــ تقدما وحضارة ؟ !

وعليهم ــ كما يطلب ويلح ــ أن يضعوا القواعد للغة أخرى يسمونها (فصحى العصر) لتصبح اللغة المستهدفة فى التعليم والتأليف والكتابة .

اننا نسأل سؤالا واحدا : هل تسير هذه الفصحى العصرية فى مفرداتها وتراكيبها على أصول العربية أو تحيد عنها ؟

فان كان الجواب أنها تسير على نهج العربية فهى عربية ، ولا داعى لوضع اسم جديد لها مما يشعر بأنها لغة أخرى غير العربية التى نعهدها ، وان كان الجواب أنها تحيد حينا أو أحيانا عن منهج العربية فهى ــ حينئذ ــ مرفوضة ممقوتة من كل حريص على لغته ، خائف عليها من الضياع .

ان الكاتب يريد أن نقترب من العامية ، بل نجعلها مدخلا لتعليم الطفل العربية ، والحريصون على العربية يرون وجوب الارتفاع عن العامية وتبغيضها الى المتعلمين حتى ينشأوا على حب العربية الصحيحة.

وقد قال مرة أحد كبار رجال التربية : يجب أن نقول للتلميذ فى

أول عهده بالمدرسة : هذا شباك ، ولا نقول له : هذه نافذة . فقلت له : هب انك تريد أن تعرفه معنى هذه الصورة بالانجليزية الست تشير له الى النافذة ، وتقول له : يطلق على هذه فى لغة الانجليز كذا . فلتقل له: والعرب يسمونها نافذة ، وتكرر أمامه الكلمة كلما جاءت لها مناسبة فيحفظها ، وهكذا حتى يعرف قدرا كبيرا من ألفاظ اللغة مما يتناسب مع مداركه .

ان حديث المستويات يصلح أن يكون بحثا نظريا لا تترتب عليه أى نتائج فيما يتصل بتعليم العربية، وهو ــ بعد ــ حديث لا يثبت عند الفحص والتحليل والا فما الفوارق والفواصل بين عامية المثقفين وعامية المتنورين ؟

قد يذكر الباحث فروقا ولكنها فى النهاية تتضاءل حين نرى أن ما يجرى على ألسنة المثقفين كثيرا ما يجرى على ألسنة المتنورين ، بل على ألسنة الأميين .

فى رأيى أن مثل هذه الأبحاث انما هى تفتيت للغة ، وتكثير لا طائل تحته .

واذا كنا نرفض ــ وباصرار ــ أن يقال : ان اللغة التى يجب أن تسود فى التعليم وفى التأليف هى فصحى العصر فاننا نرفض كذلك ، وبكل عنف أن نجعل للعامية سواء كانت عامية المثقفين أو المتنورين مكانا فيما يكتب الناس أو يؤلفون، أو يتحدثون الى الجماهير .

لا بد أن نحارب العامية فى الكتابة وفى الصحافة وفى الاذاعة ، ونكتب بلغة عربية فصيحة ، ونتحدث الى المستمعين بلغة عربية صحيحة ميسرة، ثم نحاول أن نرتفع بمستوى هؤلاء المستمعين فندخل فى أحاديثنا الأساليب العالية الرفيعة ، وبذلك نحافظ على لغتنا ، ونرتفع بعقول قومنا وأذواقهم .

ولسنا نحارب التطور ولا التقدم، وانما نحارب الكسل والجهل ، والدعاوى الضارة، واصطناع العامية فى الكتابة ، لا سيما فى المجلات

الثقافية ، والصحف اليومية التى لا ينكر تأثيرها على القراء •

انها لظاهرة مروعة أن تفتح صحيفة كبيرة فنجد فيها كل يوم كلمة أو كلمات لا تتورع عن ايراد كلمات عامية تظرفا أو جهلا بمرادفاتها العربية •

أو نستمع الى احدى الاذاعات العربية فى قطر شقيق فنفاجأ بأحد القائلين يفسر القرآن باللغة العامية، المسرفة فى عاميتها ، ولقد أضحكنى وأبكانى هذا القائل حين سمعته يعبر عن بعض الاستفهامات الواردة فى القرآن الكريم بعامية عجيبة •

أضحكنى لأن الأسلوب الذى استعمله يهبط بالتعبير الى أدنى الدركات ، وأبكانى لأنه أساء الى المعنى القرآنى حين أبرزه فى هذا المعنى العامى الساذج •

وانها لنكسة خطيرة أن يدعونا بعض من يظهرون الحرص على لغتنا الجميلة ، يدعونا الى أن نعزل لغتنا العربية الفصحى عن مجالات التعبير العصرى ، وأن نستكين الى جهل الجاهلين ، وتخبطات المتخبطين الذى يجعلون جهلهم مبررا لهجرهم الفصحى ، وادعائهم أنها لا تفى بالمعانى العصرية مع أن لغة العربى الذى كان يأكل الشيح والقيصوم تستطيع أن تؤدى أدق المعانى ، وأعمق الأغراض •

د • على محمد حسن العمارى

التطور والتقدم العلمى
من أسباب القوة

للواء محمد جمال الدين محفوظ

من الحقائق المعروفة أن محتويات « القوة » وأسبابها تتطور على مر العصور ، فلقد كانت قوة الأمم فى الماضى تقاس بقوة جيوشها ، لكن الأمر لم يعد كذلك فى عصرنا الذى نعيش فيه ، حيث أصبحت قوة أية دولة تقاس بمتانة اقتصادها ووحدة شعبها ومدى تقدمها العلمى (والتكنولوجى) وغيرها من العوامل المادية والمعنوية الى جانب قوتها العسكرية .

وتتسابق الأمم فى عصرنا نحو التفوق فى مجالات التطور والتقدم العلمى ، بعد أن أصبح من الضرورات الحيوية لأمن الأمة ألا تتوقف أهداف العلم والمعرفة والبحث العلمى عند حد حل المشكلات أو استخلاص النظريات والقوانين ، بل يجب أن تمتد الى تحقيق غاية عليا هى التجديد والتطور .

وأصبح من سمات العصر أن جميع مرافق الدولة وقواتها المسلحة تحتوى على أجهزة متخصصة للبحوث والتطوير لا تضن عليها الدولة بالمال ولا بالعلماء والمتخصصين ، لايمانها بالارتباط الوثيق والمباشر بين التقدم وبين أمنها وسلامتها ووجودها ومستقبلها .

والأمة العربية والاسلامية أحوج ما تكون فى هذا العصر الى الأخذ بكل أسباب التطور والتقدم ، والى أن تلقى بكل ثقلها فى هذا المجال الحيوى وهى تسعى نحو نهضتها الحضارية الشاملة .

● فالتكليف القرآنى للأمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » تكليف قائم ومستمر الى أن تقوم الساعة ، وهذا يقتضى

ــ منطقيا ــ أن تتطور « القوة » فى شكلها ونوعها وتركيبها لتناسب روح العصر الذى يحتويها • وان لم تفعل الأمة ذلك تخلفت عن مقتضيات عصرها ، وفقدت القوة التى أمرها ربها باعدادها قيمتها وفاعليتها ، ومن ثم تتعرض للخطر والهلاك •

● والتطوير يمكن الأمة الاسلامية من أن تكون لها أسرارها الصناعية والحربية وغيرها ، مما يمنحها ميزة التفوق على أعدائها •

● كما أن التطوير يحقق للأمة الاكتفاء الذاتى فى مجالات بناء القوة ، فتكون المصادر المختلفة لانتاج القوة فى أرضها ومن ابتكار أبنائها ونبوغهم ، وبذلك تتحرر الأمة من التبعية لغيرها ، تلك التبعية التى تنطوى على مخاطر كثيرة ، وتضعها فى مهب تقلبات المصالح والأهواء ، وموازين القوى •

● والحق أن القرآن لم ينبه عقول المسلمين وقلوبهم الى شىء بعد التوحيد مثلما نبههم الى سنة التطور فى الكائنات جميعها ، وفى الأكوان قاطبة ، فى الانسان الفرد وفى المجتمعات •• وقد دعاهم الى كشف آثار هذه السنة والانتفاع بها وحذرهم من تجاهلها أو الوقوف فى وجهها ، وليس ذلك سوى النتيجة الطبيعية لكون الدين دعوة لتغيير الانسان ، وتغيير عاداته الفاسدة ، ومعتقداته السيئة ، وأوهامه وتصوراته الجامدة المعوقة لحركته نحو الكمال •

لذلك كانت لعنات الله تعالى تترى على الذين يأبون التطور والتغيير بحجة أنهم يتمسكون بما ورثوه عن الآباء ، وهو ما يفهم من قوله جل شأنه :

« انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون »(الزخرف٢٣) ــ « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (البقرة ١٧٠)

● ووصف الله سبحانه وتعالى المقلدين بأنهم يرددون ما تلقوه كالببغاوات أو العجماوات فقال جل شأنه :

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (البقرة ١٧١) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يكن أحدكم امعة ، يقول : ان أحسن الناس أحسنت ، وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا ، وان أساءوا أن تتجنبوا اساءتهم » .

● ولا بد هنا من التنويه بأن منهج الاسلام فى العلم والبحث يؤكد صلتهما بالأخلاق وتلك احدى الخصائص الرفيعة والنبيلة لهذا المنهج الذى لا يرضى للعلم أن يكون علما ضالا مفسدا تسخره الشهوات ويقود الى الخراب والدمار ، وصدق الله اذ يقول : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

● ولقد قدم لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا يحتذى فى مجال التطور والتقدم وملاحقة العصر ، فقد كان جيش الاسلام الأول فى معركة بدر — أول مواجهة عسكرية مع العدو — جيشا صغيرا لا يزيد عن ثلاثمائة وخمسة من المقاتلين ومعهم سبعون بعيرا وفرسان اثنتان فقط ، وكانت أسلحته يسيرة جدا ، ثم تطور هذا الجيش ليلحق بمقتضيات عصره بتخطيط رائع محكم يتجلى فيما يلى :

١ — كانت الاستراتيجية العسكرية لكل من فارس وبيزنطة وهما أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت، تقوم على أساس أن عنصر الفرسان يشكل « القوة الرئيسية الضاربة » فى جيوشهما ، فحرص النبى صلى الله عليه وسلم على ملاحقة هذا المستوى المعاصر الذى تتفوق فيه الجيوش الأجنبية المحيطة بالدولة الاسلامية ، وليس أدل على ذلك من اجراء مقارنة بسيطة بين قوة الفرسان فى جيش الاسلام فى أول معركة وآخر معركة فى عهد النبوة :

— ففى غزوة بدر كانت نسبة الفرسان الى قوة الجيش لا تكاد تذكر ، اذ كانت أقل من واحد

بالمـائة (فرسـان مع ٣٠٥ من المقاتلين) •

ـ أما فى غزوة تبوك فقد كانت قوة المسلمين ٣٠٠٠٠ر٣٠ مقاتل منهـا ١٠٠٠٠ر١٠ فارس أى أن النسبةقفزت الى الثلث (٣٣ بالمـائة) وقد حدث هذا التطور فى أقل من سبع سنوات، وهـذا التطور يفسر سر اهتمـام الرسول صلى اللـه عليه وسـلم الشديد بتدريب المسلمين على ركوب الخيل والحرب بها ومن ذلك قوله :

« الخيل معقـود فى نواصـيها الخير الى يوم القيـامة ، الأجـر والغنيمة » ـ « عاتبوا الخيـل فانها تعتب » (١) •

كما رغب عليه الصلاة والسـلام فى اقتناء الخيل والعناية بها ، فجعل للفارس عند توزيع الغنـائم سهمين وجعل للراجل سهما واحدا ، وذلك لكى يسـتعين الفـارس بالسـهم الزائد على اعاشة فرسه واعـدادها للحرب ، وكان من أثر ذلك أن كان بعض الفرسان الأشداء يخرج للقتال بفرسين يحارب عليهمـا ويأخـذ أسهمهما كما فعل الزبير بن العـوام فى غزوة حنين وفى حروب الشـام المختلفة •

٢ ـ وكانت مهـارة الفرس فى الرماية مهارة فائقة،ويقول الطبرى فى ذلك :

« بلغ من مهارة الفرس فى الرماية أن أحدهم كانت ترفـع له الـكرة فيرميهـا ويشكها بالنشـاب (أى السهم) » • وقد أدرك الرسـول صلى اللـه عليه وسلم أن الفرس يتفوقون على العرب فى هذا المجال كما يستفاد من قوله عن الفرس :

« هم أقوى منكم رمية » ، ومن ثم كان اهتمامه الفائـق بتـدريب المسلمين على الرمى بصورة توحى برغبته الشديدة فى رفع مسـتوى كفاءتهم فيه الى أعلى المسـتويات فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام•

---

(١) عاتبوا الخيل : اى أدبوها وروضوها للحرب والركوب فانها تتأدب وتقبل العتاب (النهاية فى غريب الحديث والأثر) .

ــ « ألا ان القــوة الرمى » وكررها ثلاثا .

« ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد ثلاثة نفر ، صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به والممد به، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب الى من أن تركبوا » .

ــ « كل ما يلهو به المرء المسلم باطل ، الا رميه بقوسه ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله » .

« وخرج صلى الله عليه وسلم مع نفر من أسلم ينتضلون بالسوق (أى يتسابقون فى الرمى) فقال : ارموا بنى اسماعيل ، فان أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، فأمسك أحد الفريقين ، فقال : مالكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم جميعا .

وقال أنس : ما ذكرت القوس عند النبى عليه السلام الا قال : « ما سبقها سلاح الى خير قط » .

ومن أعظم ما يدل على اهتمام الرسول بالتدريب على الرمى أنه مر بموضع كان الصحابة يتدربون فيه على الرمى ، فنزع نعليه وقال : روض من رياض الجنة .. يقصد أن العمل الذى يعمل فى هذا الموضع (وهو التدريب على الرمى) يوجب روضة من رياض الجنة ، وكان عليه الصلاة والسلام يشجع المسلمين على اقتناء الرمح والقوس بالاشادة بهما فى قوله لما رأى القوس : « بهذا وبرماح القنا تفتحون البلاد » ، وقوله « جعل رزقى تحت ظل رمحى » .

وقد بلغ من تقدير المسلمين للتدريب أن بعضهم كان يتدرب حتى فى يوم العيد ، ثم ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يؤكد على ضرورة «الاستمرار» فى التدريب ويحذر من الانقطاع عنه حتى لا يضعف مستوى الكفاءة فى الرمى فيقول :

« من ترك الرمى بعد ما علمه فانما هى نعمة جحدها » ويقول

أيضـا : « من علم الرمى ثم تركه فليس منا ، أو فقد عصى » .

٣ ـ كذلك عنى النبى عليه الصلاة والسلام بملاحقة التطور فى أسلحة القتال ، فكان حريصا على تزويد الجيش بالأسلحة المعاصرة والتى لم يألفها من قبل ، وعلى تدريب المسلمين عليها ثم استخدامها فى القتال .

فقد أرسل عليه الصلاة والسلام بعثة من اثنين من المسلمين هما عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة الى جرش ليتعلما صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات وكلها من أسلحة القتال التى لم يألفها المسلمون من قبل .

وقد استخدم الرسول المنجنيق والدبابات فى حصار الطائف ، كما روى أنه نصب المنجنيق فى حصار خيبر للتهديد ولكنه لم يرم به فعلا فقد روى ابن خلدون (أن الرسول هم بنصب المنجنيق على خيبر فلما أيقنوا بالهلكة سألوه الصلح) .

● ولقد سار المسلمون على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التطوير والتقدم فلم يكتفوا بملاحقة عصرهم بل انهم تناولوا الأسلحة بالتحسين والتهذيب حتى أدهشوا فى ذلك الفرس والروم حين كثر استخدامهم لهذه الأسلحة فى قتالهم وفى حصار المدن المحصنة ذات الأسوار العالية فى حروب العراق والشام وفتح مصر وغيرها .

وقد اعترف بذلك الامبراطور البيزنطى (ليو) مع ما عرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين ، فقد نقل عنه فون كريمر (فى كتابه الشرق تحت حكم الخلفاء) قوله : « ان الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح فالأسلحة هى نفس الأسلحة القوس والسهم والسيف والبلطة والخوذة وقاية للرأس ، والدرع وقاية للبدن والحديد يلبس فى الأذرع والسيقان » .

● ولعل أبرز ما يذكر فى هذا المجال هو اتقان المسلمين ـ وهم أبناء الرمال ـ لركوب البحر وحرب الأساطيل ، وامتلاكهم لناصية هذا

الجانب الهام من الحرب علما وصناعة وتطبيقا ، حتى لقد هزمت الأساطيل الاسلامية أسطول بيزنطة فى المعركة البحرية ، وأصبحت البحرية الاسلامية قوة يحسب حسابها .

يقول ابن خلدون « كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله ، ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه ، فلما استقر الملك لهم وشمخ سلطانهم صارت أمم العجم تحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ جودة صناعته ، فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيرا من هؤلاء وأنشأوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأسسوا دارا لصناعة الآلات البحرية بتونس ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله ابن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا » .

ويقول ابن خلدون أيضا : « ان المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم (يعنى البحر الأبيض المتوسط) وان أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية الى تونس . والرومان والصقالبة والفرنجة جميعا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته » .

اللواء محمد جمال الدين محفوظ

أنفع الناس واضرهم

أنفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيرا أو تصنع اليه معروفا فانه نعم العون لك على منفعتك وكما لك فانتفاعك به فى الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر ، وأضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصى الله فيه فانه عون لك على مضرتك ونقصك .

ابن القيم ـ الفوائد

الشيخ أمير خسرو الدهلوى وشعره الغزلى

للدكتور ظهور أحمد أظهر

ان تاريخ المسلمين الثقافى والأدبى والعلمى فى شبه القارة غنى جدا اذ هو ملىء بالأمجاد والآثار الخالدة كما أنه ملىء بالعباقرة الأفذاذ من العلماء والفنانين والشعراء ، ومن بين هؤلاء العباقرة الأفذاذ كان الشيخ أمير خسرو بن الشيخ سيف الدين محمود البخارى ثم الدهلوى ، ان الشعب المسلم فى هذه المنطقة ليزهو ويفتخر بما قام به العلماء من أمثال الشيخ أمير خسرو الدهلوى فى خدمة اللغة العربية وعلومها وفنونها وآدابها واننا لا نبالغ اذا قلنا ان الشيخ أمير خسرو قد كان أعجوبة من عجائب الوجود وآية من آيات الله فى خلقه فقد كان هو ، الى جانب المكانة المرموقة بين متصوفى شبه القارة وعلمائها ، الموسيقار المبدع العملاق لم يبلغ شأوه أحد من القدماء والمحدثين فى هذا الفن ، وقد أبدع أصوات الغناء وألحان الموسيقى التى لا تزال متداولة شعبية حتى اليوم والتى عول عليها الأجيال القادمة من الفنانين كما أنه أبدع أوتارا وأدوات موسيقية قد عرفت باسمه وخلدت ذكراه .

وكذلك فانه قد كان شاعرا موهوبا ملهما يقول الشعر بالعربية والفارسية والتركية والسنسيكريتية والهندية وغيرها من اللغات المحلية حتى أنه عرف بشاعر اللغات السبع (هفت زبان شاعر) وعدد أبيات شعره باللغات المختلفة يزيد على مئات من الألوف !

مولده ونشأته :

وقد ولد هذا الشاعر الموهوب والفنان العبقرى فى قرية اسمها « بتيالى » من قرى الهند فى ناحية من نواحى دلهى ، ونشأ فى أسرة كريمة محافظة كانت قد هاجرت الى الهند من بلاد ماوراء النهرين فاستوطنت الهند وأقامت بها

وعاشت تحت رعاية سلاطين دلهى وأمرائها عيشة الأغنياء والمترفين وذلك فى عهد السلطان محمد بن غياث الدين الملك المسلم الذى عرف بعنايته بالعلم وأهله والانفاق من خزائنه على العلماء والفنانين وتقديره لهم ؛ وقد بدأ الشيخ أمير خسرو الدهلوى يتدرج فى مهد الثراء والفضل فقرأ القرآن على المنهج المتداول فى أبناء زمانه من المسلمين ثم تعلم اللغات المحلية والفارسية والعربية وتخرج فى العلوم الدينية المتداولة على علماء مدينة دلهى وفضلائها ، ففاق أقرانه حتى أصبح نادرة زمانه وعلما من أعلام التاريخ الاسلامى .

ومنذ طفولته كان يميل الشيخ الى الشعر والموسيقى والتصوف ، فبعد فراغه من التعليم العادى المتداول وتخرجه انقطع الى الشعر والموسيقى وبلغ فيهما غاية لا غاية بعدها ، وأضاف اليهما قيثارة جديدة ، وأتى بالعجائب من ابداع الصنائع والبدائع وايجاد الألحان والأصوات الموسيقية الجميلة ، حتى احتل مكانة كبرى فى هذين الفنين ، واعترف بفضله أهل زمانه والأجيال القادمة ، وقد ابتدع الشيخ ، كما قلنا ، بعض الأدوات الموسيقية جميلة الوقع وخلابة التأثير وهى تعرف باسمه الى الآن يتداولها الفنانون فى بلادنا بكل اعجاب وتقدير .

تصوف الشيخ وزهده :

ومن الطبيعى أن يميل الشاعر الفنان العالم المتدين الى الزهد والتصوف ، وعليه فنراه ينقطع الى عبادة الله والزهد فى الدنيا ، وأراد أن ينسلك فى سلسلة من سلاسل المتصوفين والزهاد فتوجه الى شيخ المشائخ وسيد الأولياء نظام الدين محمد بن أحمد البدايونى الدهلوى الذى يعتبر من كبار المتصوفين والزهاد فى شه القارة ، فالتحق أمير خسرو بحلقة الشيخ البدايونى واكتسب منه فيوضا روحية ، وتقدم فى درجات التصوف حتى أصبح من أخص أتباعه ومريديه ، وكان الشيخ البدايونى يحبه حبا شديدا ويفيض عليه من قلبه أنوار الحضرة السرمدية .
ومما لا شك فيه أن انقطاع الشيخ أمير خسرو الى سلسلة التصوف والرجوع الى الله والزهد فى الدنيا كان قد أضاف أبعادا جديدة الى شعره من لطافة المعانى ورقتها

وسلاسة الألفـاظ ودقتها ورونـق الأسلوب وجماله .

مكانته الاجتماعية :

وقد كان الشيخ أمير خسرو — رحمه الله — من المحظوظين السعداء الآمنين فقد كان ملوك عهده وأمراء عصره يقربونه من حضرتهم ويفيضون عليه من صلاتهم وجوائزهم وعطاياهم . كما أنه كان قد حظى بسمعة طيبـة وعزة ومكانة فى نفوس عامة الشعب . وقـد لقى كل تقـدير وتكريم من الحكام والمواطنين : ويقال ان سلطان دلهى الملك محمد بن غيـاث الدين أراد أن يستدعى الشـيخ السعدى شاعر اللغة الفارسية الشهير فاعتذر اليه ، واقترح عليه أن يختار الشيخ أمير خسرو الذى كان فى عنفـوان شبابه فى ذلك الوقت وقـال له : « انى لأرى فيه كفاءة وبراعة ويبدو عليه علامات واضحة تدل على عظمته ومكانته فى المستقبل » .

وفاته :

وقد توفى الشيخ أمير خسرو ابن سيف الدين الدهلوى فى الثامن عشر من شوال المكرم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وقد بلغ الرابعة والسبعين من عمره ، رحمه الله .

آراء أهل العلم فى شخصيته :

ويقول ضياء الدين البرنى المؤرخ المعاصر للشيخ أمير خسرو : « ان الشيخ أمير خسرو قد كان ملك ملوك الشعراء وأمير أمرائهـم ولم يبلـغ أحد علو كعبه فى كثرة المؤلفـات وجودتهـا ولم يوجـد له نظير فى اختراع المعانى الدقيقـة وابـداع الرموز الغريبة ! » ؛ وكان الشـيخ عبد الحـق المحدث الدهلوى يلقب الشيخ أمير خسرو بسلطان الشعراء وبرهان الفضـلاء ووحيـد النوع البشرى : وذكره فى كتابه المعروف بأخبار الأخيار فقال : « انـه كان عالمـا فريدا وخطيبا مصقعا وقـد توفر له من ابداع المعانى وابتكار الألفاظ فى ميدان الشعر والنثر ما لم يتوفر لأحد من القدماء والمحدثين ؛ ويقول عنه عمدة المتأخرين الشـيخ الشريف مولانا عبد الحى اللكنوى والد الشيخ العلامة أبى الحسن على الندوى : « ان الشيخ الامام الفاضل أمير خسرو بن سيف الدين محمـود البخارى الدهلوى أشهر الشـعراء

فى الهند ولم يكن له نظير فى العلم والمعرفة والشعر والموسيقى وفنون أخر ، قبله ولا بعده ! » .

مؤلفاته :

وقد أكثر الشيخ أمير خسرو من تأليف الكتب ونظم الشعر حتى أنه ترك تراثا غاليا غنيا جدا ومن بينها : اعجاز خسروى (وهو مجلد ضخم يشمل النثر العربى والفارسى ويتخلله الشعر باللغتين العربية والفارسية) ومحينات الكلام فى الصنائع والبدائع) وأفضل الفوائد وخمسة دواوين من الشعر الفارسى وهى : تحفة الصغر (الشعر الذى قاله فى الطفولة) ووسط الحياة (شعر الشباب) وغرة الكمال (وهو يشمل الشعر الفارسى الذى قاله عند الشباب الناضج) ونهاية الكمال (شعر الكهولة) والبقية النقية (وهو الشعر الذى قاله فى الشيخوخة)؛ وله خمسة دواوين أخرى باللغة الفارسية من الطراز المثنوى عارض بها الدواوين الخمسة للشاعر الفارسى الشهير « نظامى كنجوى » وهى : مطلع الأنوار وشيرين خسرو وليلى مجنون وآتينه سكندرى (وهشت بهشت) أى الجنات السبع وهذا الديوان الأخير وحده يشمل ثمانية عشر ألف بيت من الشعر وأكمله فى مدة سنتين فقط ! ، ومن مؤلفاته قران السعدين وتاج الفتوح وخزائن الفتوح ونه سبهر وديول رانى خضر خان وتغلق نامه .

شعره :

ومن أغرب ما اكتشفناه فى خلال دراستنا المتتابعة لكتب التراجم وسير الرجال التى عنيت بتراجم علماء العربية وشعرائها فى شبه القارة خاصة هى لا تكاد تذكر الشيخ أمير خسرو الدهلوى كشاعر اللغة العربية وكاتبها، وحتى الشاعر المفلق والأديب المؤرخ حسان الهند غلام على آزاد البلكرامى قد أهمل الشيخ أمير خسرو ولم يذكره فيما ذكر من شعراء الهند وأدبائها فى كتابه « سبحة المرجان فى آثار هندوستان » ومع ذلك فاننا نرى هؤلاء المؤلفين الذى اعتنوا بتراجم شعراء الهند وعلمائها قد ترجموا لأشخاص لم يساهموا فى الأدب العربى الا بشرح كتاب أو التعليق عليه أو قالوا بيتا أو بيتين من الشعر

فقط ، أما الشيخ أمير خسرو فان أبياته التى قالها باللغة العربية لا يقل عددها عن ست مئة بيت من الشعر الى جانب النماذج الرائعة من النثر العربى الفنى :

على كل فان الشيخ أمير خسرو قد كان شاعرا عربيا مجيدا كما أنه كان كاتبا عربيا بارعا ، وله شعر جميل رصين وعليه طابع خاص يجمع بين الفصاحة العربية واللطافة الفارسية ، ومعظم شعره العربى نجده فى ديوانه « غرة الكمال » وبعضه فى كتابه الخالد « اعجاز خسروى » متفرقا كاللآلىء المتناثرة فى قيعان البحار كما أنه يوجد بعض شعره العربى فى مؤلفاته الأخرى فى الشعر والنثر . وأما نثره الفنى العربى فكذلك قد جاء معظمه فى « اعجاز خسروى » ونخص بالذكر من بين ذلك رسالته النادرة الرائعة فى معانى الحروف الأبجدية العربية .

وكما ذكرنا أنه — رحمة الله — كان يقول الشعر بشتى اللغات ، ولسنا الآن بصدد دراسة شعره الفارسى فهو بحر لا ساحل له وهو غنى بالأصداف النقية والجواهر المتلألئة التى لا حصر لها ، ولكنه لا بأس اذا درسنا منه بيتا أو بيتين على سبيل المثال فمنه هذا الدوبيت أو الرباعى :

ايوان مراد بس بلندرست
آنجا بهوس رسيدنتوان

أين شربت عاشقى است
بى خون جكرچشيد نتوان

ان قصر الأهداف لرفيع جدا ولا يمكن لأحد أن يصله أو يحقق أهدافه بالأمانى الكاذبة والأهواء الباطلة :

فهو كأس العشق التى لا يمكن مسها الا بالكد والكدح والتضحية والجهاد !

ورغم أن شعره العربى شعر رائق شيق الا أنه كان متواضعا جدا فنراه يعترف بعدم كفاءته ومعرفته بالعربية :

ترك هندوستانيم من ، هندوى كويم چو آب

شكر مصرى ندارم كز عرب كويم سخن

اننى من الأتراك الهنديين وأقول شعرا رصينا بالهندية أما باللغة العربية فلست أملك السكر المصرى (أى فصاحة المصريين وحلاوة كلامهم) حتى أقول الشعر بها !

ورغم هذا كله فانه قد كان يواظب على دراسة الشعر العربى كما صرح به فى كتابه « اعجاز خسروى » ومقدمة ديوانه « غرة الكمال » ، فانه يقول : قد درست دواوين الشعراء العرب من أمثال كعب بن زهير وابن الوردى وحسان ابن ثابت الأنصارى والمتنبىء وأبى تمام والبحترى وغيرهم ، وقد خرجت من مطالعة هذه الدواوين بثقة وعزم أن أخلط المسك العربى بالصندل العجمى على طريقة لا يمكن التمييز أو التفريق بينهما وليجمع شعرى بين الفصاحة العربية واللطافة الفارسية !

وهذه الأمثلة الثلاثة من شعره تجمع بين الأسلوب العربى والأسلوب الفارسى فقوالبها عربية ومعانيها عربية :

ذو الزور تذكره بطيب شمائل
كالكذب تكتبه بمسك ضائع

انشاء رب من عجائب صنعه
الورد تسكت والروائح تنطق

كمسك ليس يخفى فى ثياب
وريح الورد فى حجب كثيرة

ومن قصيدته الميمية فى ديوانه غرة الكمال :

ذاب الفؤاد وسال من عينى الدم
وحكى المدامع كل ما أنا أكتم

أفنيت عمرى وحانت منيتى
خان الزمان وللمنية أسقم

واذا أبحت لدى الورى كرب النوى
تبكى الأحبة والأعادى ترحم

يا عاذل العشاق دعنى باكيا
ان السكون على المحب محرم

من بات مثلى فهو يدرى حالتى
طول الليالى كيف بات متيم

يا صاح لا تطعن علينا فالهوى
هذا من الرحمن حكم محكم

لا تشربن مدام ود خرائد
قد ذقته أن الصبابة علقم

ما جاء صحبى راحلو من بيننا
جاء البهار وقد تبسم جوجم

وقد كان الشيخ أمير خسرو مولعا بالصنائع اللفظية والبدائع المعنوية

وقد ابتكر عدة أنواع فمنها صنعة سماها « ترجمة اللفظ » وهى أن يأتى الشاعر بلفظة فى شعره من اللغة العربية ثم يأتى بعدها بلفظة أخرى من اللغة نفسها الا أن القارىء قد يتوهم أن اللفظة الثانية كلمة فارسية قد جاءت كترجمة اللفظة الأولى :

اذا دعا بعطـايالك انجما نـادى
غدا النجوم كما فى مسرة شادى

ومحل الاستشهاد المطلوب هنـا فى الكلمتين الأخيرتين من المصرعين كليهما فمثلا كلمـة « انجما » هى جمع نجم بالعربية ولكن بالفارسية كلمة « انجمن » معنـاها المجلس أو النادى ، وكلمة نادى (على صيغة المـاضى هنا) اذا قرئت بكسر الدال تصـبح ترجمـة لكلمة « انجمن » الفارسـية ، وهـكذا فى كلمتـى « مسرة » و « شادى » فشـادى بالفارسية معناها : المسرة وبالعربية اسم الفاعل من الشدو ص ٩ .

ومن الصناعات الشعرية البديعية التى ابتـكرها الشيخ أمير خسرو الدهلوى صنعة سماها «ذوالرؤتين» أو ذو الوجهين وهى أن ينظم الشاعر بيتا من الشعر يمكن قراءته باللغتين العربية والفارسية فى نفس الوقت والمعنى يختلف فى كلا الوجهين ومثال ذلك ما قاله الشيخ :

رشيدى نديدى مرادى نجـائى
رمانى بيـأسى تبارى نسائى

فهو فى هذا البيت يخاطب صديقا له قائلا بأنه هو مقصـوده وقبلته وبذكائه الباهر يمكن أن يخلصه من نسوته اللاتى تبارين وقد ييأس من خيرهن :

وهذا البيت نفسه يمكن أن نقرأه باللغة الفارسية وذلك بتغيير بعض النقط فقط :

رسيدى بديدى مرا ، دى بجائى
زمانى بباشى بيارى بشـائى

والمعنى : أنك جئت بالأمس ورأيتنى فى مكان خاص وكان يجب أن تبقى عندى لمدة فانك تسـتحق الود والصداقة :

د . ظهور احمد اظهر

المرأة فى الإسلام

لفضيلة الدكتور رءوف شلبى

— ٢ —

(ب) الواجبات على الزوجة نحو زوجها

على حافتى طريق الورود الذى تتهادى فيه الحياة الزوجية يغرس الاسلام لافتات الحقوق على المرأة تجاه زوجها من أجل حياة عشها الأمين وعرشها الوردى فيلزمها بما يلى :

● **احترام مشاعره :**

ففى الحديث الشريف : لا يحل لا مرأة تؤمن بالله أن تأذن فى بيت زوجها وهو كاره ولا تخرج وهو كاره ولا تطيع فيه أحدا ، ولا تعتزل فراشه ، ولا تضربه فان كان أظلم فلتأته حتى ترضيه « الحاكم » .

ففى الحديث حث على الوفاء الجميل واحترام للعشرة وتأكيد للميثاق الغليظ .

ومن الاحترام لمشاعره الا تنعت له صاحبتها ففى الحديث الشريف :

لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر اليها .

(رواه أحمد والبخارى والترمذى)

● **التزين له وحده :**

الزوجية معاشرة بالمعروف ومقتضى هذا المعروف أن تكون مفاتن المرأة لزوجها وحده .

انها ان استبقت محاسنها لزوجها فقط فقد ادخرت لها وله عمرا طويلا فى مباهج السعادة الزوجية .

أما اذا بذلت مفاتنها للمجتمع فقد فتنت قلب الرجل مطلقا وصارت النسب فى تفاوت المحاسن مشتهى لكل من يهوى وانتقلت اللذة من

عشها الوردى الحلال الى قارعة الطريق كأنها حبات تفاح عطبت وعف عنها الذوق الكريم فصارت نهبا لكل جاثم من أبابيل الذباب .

ومن هنا ترسم اللوحة الفنية لزينة المرأة فى الجو الاسلامى على نحو ما يبين الحديث الشريف :

اذا تعطرت المرأة لغير زوجها فانما هو نار وشنار .
(الطبرانى)

والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى زانية (أحمد) .

وما غض البصر للمؤمنين والمؤمنات فى سورة النور الا منعا لتطاول البصر عن محاولة كشف المستور من الزينات وليس من معناه أن يكون القفل عن المكشوف منها اذ القرآن لا يبيح حراما وينهى عن التطلع اليه ليبقى عرفا مسنونا .

● **الوفاء وعدم التطاول عليه :**

وصدق المعاشرة يستلزم حسن الأخلاق ومن محاسن الأخلاق الاعتراف بالجميل ، وقد أرسى الاسلام الحنيف هذه القواعد فى حياة الاسرة ، فقرر الحديث الشريف :

« لا يحل لامرأة أن تهجر فراش زوجها » .

« اذا باتت المرأة هاجرة زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

« اذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فلم تأته لعنتها الملائكة حتى تصبح .
(البخارى وأحمد)

ومن الملاحظ فى هذه الأحاديث أن الأحكام فقها غير منتهية بجزاء مادى كما فى السرقة والزنا بل الأحكام فيها متروكة لفطرة التدين والخوف من الله .. ومعنى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو صاحب حق فى التشريع لم يضع عقابا ماديا لمن تخالف هذه الأحكام، فان الأسرة لا تقوم أحكام تنظيمها على أساس من العقاب المادى بقدر ما تقوم على أساس من الخلق ورعاية محارم الله جل شأنه .

ولهذا فان أى تشريع وضعى يحاول أن يضيف قيودا جديدة على أنظمة الاسلام فى تشريع للأسرة فهو

عبث وتدخل لا مبرر له وافساد للجمال الذى شرعه الله تعالى :

● الحفاظ على ماله :

التصرف فى بيت الزوجية متروك لمستوى العلاقة والثقة بين الزوجين، وقد وضعت السنة المطهرة موازين هذا التصرف انه لا ضرر ولا ضرار، ولا اسراف ولا مفسدة •

يقول النبى صلى الله عليه وسلم: اذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب ، وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا •

من مشكلات الأسرة

● الخلافات الزوجية :

● الطلاق :

● تعدد الزوجات :

● منهج التغلب على الخلافات الزوجية :

القاعدةالعامة فى الاسرةالاسلامية والتى يمكن لكل زوجة أن تجعلها نبراسا شخصيا لها : حديث النبى صلى الله عليه وسلم :

خير النساء امرأة اذا نظرت اليها سرتك واذا أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك •

- (الطبرانى)

ولكن هناك شذوذ عن القواعد العامة لأن الحياة بصفة عامة لا تخلو من الكدر ، والحياة الزوجية مثل الحياة العامة والتشريع الاسلامى تشريع يلمس الواقع ويضع له الموازين بالقسط والعدل •

ومن النشاز الشاذ عن القاعدة الأسرية نشوز الحياة الزوجية وهو نشوز قد يكون من الرجل أو قد يكون من المرأة أو منهما معا •

وقد وضع الاسلام لمعالجة هذا النشوز منهاجا •

(ا) فان كانت المرأة هى الناشز كان على الرجل معالجة هذا النشوز:

بالموعظة الحسنة أو

بالهجر فى المضجع أو

بالضرب لا على الوجه ولا مع تقبيح بلفظ خارج •

وهذا النهج الثلاثى صالح لثلاث مستويات من نماذج النساء •

فهناك نموذج يكفيه الكلمة الطيبة اذا سمعتها الزوجة من زوجها فكأنما هدهد على العواطف ومسح بيد الحنان على أساها وغسل بمعسول كلامه وسوسة الشيطان •

وهناك نموذج لا تعى أذنها الكلمة الطيبة ولا يعبأ بالهجر فلم يبق الا تنبيه الأعصاب بضرب غير مبرح لا يقع على الوجه ولا يصاحب بتقبيح •

وهناك نموذج لا تعى أذنها الكلمة الخطة الأولى والثانية وجب على الرجل أن ينهى قطيعة زوجته بالاتصال وهذا الاتصال هو ارهاص بألم عبر عنه القرآن بالضرب لأنه الوسيلة الطبيعية وحددته السنة بأنه ألم لا يحدث كسرا ، ولا يبقى فى السمع صدى لفظ جارح فهو نوع من المغازلة فى صورة الضرب لأن الموقف موقف خصام •

وهذا النهج الثلاثى الخطوات يصلح لذلك بالتدريج فى معالجة الزوجة الواحدة :

أولا يعظها •

ثانيا يهجرها •

ثالثا يضربها •

ولا ملامة من المرأة على الاسلام اذ أذن للزوج أن يضرب لأن الاسلام قدم لها الموعظة والهجر كحلين بل كعاصمين من فشل الحياة الزوجية •

وأباح الضرب لا من أجل أذاها بل للحفاظ على مقدسات الأسرة وحمايتها من الضياع •

فصورة الضرب هنا هى آخر علاج يقدمه الاسلام للاعلان عن اهتمام الاسلام ببقاء الاسرة سليمة دون تفكك والاهتمام بها عند التفكك حتى لا تصير الى الضياع •

فاذا لامت المرأة أحدا فلابد وأن تلوم نفسها لأنها عند النشوز لم تصغ للموعظة الحسنة ، ولم ترتدع بعد الهجر ، فماذا يبقى لصيانة الاسرة : الضرب فهو تنبيه أعصابها قبل أن يفيض الكيل ويتسع الخرق على الراقع •

(ب) وان كان النشوز من الرجل أو منهما معا :

فان الاسلام لا يترك أسرار الأسرة نهبا للقيل والقال فى المؤسسات الاجتماعية بل ضيق الشروط وقلل فى أعداد الحكمة فقال الله تعالى :

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما حكيما » .

(٣٥ النساء)

فمن المعروف أن بين الزوجين أسرارا والاسلام لا يسمح بافشائها ولا بالاطلاع عليها لأجنبى عن الأسرة ولذا قرر :

١ ـ ارسال حكم من أهل الزوجة .

٢ ـ ارسال حكم من أهل الزوج .

(ب) واشترط فيهما ارادة الاصلاح بين الزوجين لا التعصب للتغلب والنصرة لواحد على الآخر .

اذن ليس كل واحد من أهل الزوجة ولا من أهل الزوج يصلح لهذه الحكومة بل هناك شرط أساسى وهو أن يكون معروفا بميله للصلح فى الخصومات .

فهل يسمح الاسلام بعد هذا أن تتعدى مسألة العلم الى لجان أو منظمات أو محاكم يعيده عن الأسرة .. ؟

انه بالقطع لا يسمح أبدا .

واذن فكل تقنين يخالف هذا فهو مرفوض من قبل الله ورسوله وجماعة المسلمين .

الطلاق أبغض الحلال

الحياة الأسرية سكن :

انها سكن للروح وللفكر وللمشاعر كما هى سكن للجسد والغرائز .

والسكن هو نعمة الله الكبرى على الانسان وقد وصف الله الحياة الأسرية بأنها سكن وبأنها لباس .

وتبقى قيمة السكن وقيمة اللباس ما بقى أثرها محمودا مؤنسا .

أما اذا عجزت عن اعطاء الروح والفكر والمشاعر مباهج الحياة الأسرية ولم يمكن التغلب على

أسباب هذا التضرر فماذا يكون الحل .. ؟

هل يبقى الزوج وزوجته حبيسين فى سجن داخل بيت يسمى بيت الزوجية ؟

أو يتصرف كل واحد على انطلاق تام فى الاباحة لهواه ؟

أو يتفرقا فيغنى الله كلا منهما من سعته .. ؟

أخذ الاسلام بالحل الثالث :

لم يقبل الأسلام أن يبقى الزوجان فى سجن دائم .

ولم يقبل الأسلام أن يترك الهوى يعبث بقيم النفوس بل شرع الطلاق بعد المحاولات التى بذلت سالفا ولم تنجح .

يقول الله تعالى :

« وان يتفرقا يغنى الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما » .
(١٣٠ ــ النساء)

فهو حل يحترم الطبع البشرى لأن الله جل شأنه خلق الناس ولم يشأ لهم أن يتعاشروا على الهون والضيق .

والاسلام اذ يشرع الطلاق انما يلجأ الى الحلال البغيض الذى لا مفر منه تجنبيا للاسرة عن الأذى .

وفى الحديث الشريف :

«أبغض الحلال الى الله الطلاق».
(أبو داود ، وابن ماجه)

وكان الطلاق حلالا لأنه حماية للأعراض والأنساب من السقوط اذا عاشت الأسرة فى ظل عقم من الحب والمودة ، وسجن الزوجان على كره وهون فانزلقا الى هاوية الشهوة ، فكان الطلاق حلال لأنه يعطى فرصة يتنفس بها كلا الزوجين ، فربما بعد الطلاق يجد كل منهما من يسعده ويؤنسه .

وكان أبغض لأنه فراغ بعد أن أخذ الله من كلا الزوجين ميثاقا عظيما .

ولهذا فلم يسمح الاسلام أن يكون الطلاق والرجعة ألعوبة تتبع الهوى والرغبة فأعفى من مسئولية

ذلك النساء ولم يجعله فى يد الرجل هكذا دون شروط وأدب بل جعل الطلاق بمقدمات للصلح ، وحدده فى ظروف بيولوجية خاصة بالزوجة وزمن مخصوص ، وعلق عليه آثارا تحمى حق المرأة فى الحياة وفى الشرف والعرض .

فالزم الرجل بالنفقة والسكنى .

وألزمه بالمهر المتبقى .

وألزمه بمتعة جبرا للضرر الأدبى الذى قد يلحقها بسبب الطلاق وألزمه برعاية الولد الرضيع .

وجعل العدة على المرأة حفاظا على شرفها واستيثاقا بخلوها من صلة نسبية بزوجها الأول أو فترة قد يتراجعان فيها .

وقد جعل الاسلام هذه الشرائع كلها فى اطار المعروف ولا تنسوا الفضل بينكم ، والعفو من الذى بيده عقدة النكاح والتآمر بالرضى والمودة .

ولم يلجأ الاسلام فى تشريعات الأحكام المترتبة على الطلاق الى عنف أو قسوة مما يفيد أن أمر الأسرة كله ينبغى أن يقوم على :

« فامساك بمعروف أو تسريح بأحسان » .

فاذا ما تخلخلت الأمور فى العصر الحديث فانما هو لفساد المسلمين فى بعدهم عن الدين وعن روح الاسلام ومنهجه .. فهل يصلح المسلمون بشرع وضعى أو بعودة كاملة الى دين الله ؟

ليس فى المسيحية شرع للطلاق :

ذلك شرعنا شرع الأمة التى قالت لربها سمعنا وأطعنا أما الذين قالوا لله : « سمعنا وعصينا » فقد خلقوا لأنفسهم قانونا ليس من عند الله ولا من عند رسوله عليه السلام ، فان ما يدعى بأن المسيحية ليس فيها طلاق ليس صحيحا بالاطلاق ، فقد ذكر فى الانجيل على فرض التسليم بأنه لصاحبه الذى ألفه محاورة بين الفريسيين وهم طائفة من اليهود مع سيدنا عيسى عليه السلام ، حول ما جاء عن موسى من شريعة الطلاق وما رأى فى ذلك ، وهى

محاورة مبتورة لا تصلح أن تكون حكما بأن عيسى حرم الطلاق أو انه يقول ما ينسخ ما جاء به موسى كما لا تنهض نصا يصلح للاجتهاد فيه لاستنباط حكم منه .

فمن يدعى أن المسيحية تحرم الطلاق هو عمل القساوسة وقد سجل الله عليهم فى القرآن الكريم هذا .

يقول الله تعالى :
« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » (التوبة

وذلك بما شرعوه لهم من دون الله .

على أن الحياة المعاصرة للمسيحيين اليوم جعلتهم يقتربون فى حياتهم الأسرية الى النظام الاسلامى فقد أباحت الكنيسة فى ايطاليا الطلاق كما أباحته من قبل كنيسة ألمانيا البروتستانتية . فماذا تريد الحركة النسائية العربية المعاصرة من تقييد حكم الطلاق فى الاسلام ؟ .. وهو عمل لم يرد به نص ولم يرد حوله شىء من عمل الصحابة ، ولا قال به أحد الفقهاء السابقين ، وقد عاشت الأمة الاسلامية ردحا طويلا من الزمن مع دول جارات مثل فارس والروم وأوروبا وحكومات الاسلام المتعاقبة فى الدولة العباسية والأندلس لم تغير من حكم الله شيئا فى الطلاق .

فماذا تريد الحركة النسائية العربية المعاصرة من تقييد الطلاق وقد حرم الله ذلك ؟ أفغير دين يريدون ؟

« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » .
(النحل)

تعدد الزوجات

من الخطأ الشائع والخطأ المقصود أن يقال أن الأسلام صانع تعدد الزوجات .

ومن الخطأ المقصود ما يثيره أعداء الأسلام بربط قضية تعدد الزوجات بالنظام الاسلامى .

والحق أن تعدد الزوجات كان ظاهرة عالمية قبل الاسلام ، بل انه فى العصر الحديث مسألة تمارس عن

طريق الخليلات والعشيقات اللائى يسمح بهن – كنظام اجتماعى – قانون الدول الحديثة ، ولكنهم لا يطلقون عليه تعدد الزوجات مع أنه أفحش فى قيم الأخلاق وأضر بالمجتمع من اباحة تعدد الزوجات :

ولقد أباحت الشرائع السماوية قبل الاسلام تعدد الزوجات .

فقد تزوج سيدنا ابراهيم ساره وهاجر .

وأباح تلمود اليهود تعدد الزوجات على اطلاقه دون قيد .

وليس فى الانجيل على تعدد نسخه وكاتبيه ما يفيد منع التعدد .

– بل ان ملك ايرلنده فيارمات كان له زوجتان .

– وكان لشارلمان زوجتان وعدد كثير من المحظيات .

– وكان فيليب ملك هيسى وفردريك ويليام الثانى ملك بروسيا يمارسان تعدد الزوجات تحت بركات القساوسة اللوثريون .

– وفى مونستر عام ١٥٣١ دعا القساوسة الى تعدد الزوجات .

– بل أن مفكرى أوربا جوستاف لوبون ، وتوماس يذهبان الى اباحة التعدد عندما انفرط عقد البغاء وعللوا رأيهم فى اباحة ذلك بقولهم :

« ان اباحة التعدد تجعل كل امرأة ربة بيت وتجعلها أما لأولاد شرعيين ، ويعفيها من التردى فى هاوية الانحرافات وأعشاش العشاق وظلام المستقبل .. ! » .

وهناك فرق مسيحية فى المجتمع المسيحى المعاصر تدافع عن تعدد الزوجات . ومن هذه الفرق .

(ا) فرقة المورمون

بالولايات المتحدة الأمريكية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر وكانت ترى أن تعدد الزوجات نظام الهى فى الديانة المسيحية .

(ب) فرقة أنا بافستى الألمانية التى ظهرت فى القرن السادس عشر وكانت تدافع عن تعدد الزوجات كنظام بديل عن نظام العشيقات .

اذن فتعدد الزوجات ليس قضية اسلامية تنسب الى الاسلام ، بل الذى

ينسب الى الاسلام انه حدد التعدد ونظمه وجعله علاجا لمشكلات اجتماعية .

ولقد نقل الاسلام التعدد من اطلاقه الى تعدد محدود بأربع .

ونقل الاسلام التعدد من اطلاقه الى تعدد مع اقامة العدل وأدناه : فلا تذروها كالمعلقة .

وتبرز قصة تحديد التعدد فى سورة النساء حفاظا على شئون البنية ففى الحديث الشريف :

كان عروة بن الزبير قد سأل عائشة رضى الله تعالى عنها عن قول الله تعالى : وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .. « قالت : يا ابن أختى هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشاركه فى ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .. الحديث .

فأصل حد التعدد بأربع هو الدفاع عن حق نوع من النساء ضعيفات .. فلما نزلت الآية والمجتمع صاخب بأنماط من التعدد تفوق الأربع بين النبى صلى الله عليه وسلم : ان كل مسلم تحته أكثر من أربع وجب عليه أن يقلل من التعدد والا يبلغ بالعدد الذى تحته أكثر من الأربع ففى الالوسى : ان غيلان أسلم وتحته عشر نسوة فقال صلى الله عليه وسلم امسك أربعا وفارق سائرهن .

فالحديث الشريف هو الذى حصر أعلى التعدد فى أربع بعد أن كان التعدد فوضى .

واذن فالاسلام لم ينشىء مسألة تعدد الزوجات بل الاسلام حد منها ووضع لها الضوابط والأهداف .

حكم الاباحة يبقى اباحة :

والله سبحانه وتعالى جعل التعدد المحدود بأربع مباحا بشرط العدل ولا يصح بعد تشريع الله أن يضاف شرط لهذا الشرط أبدا .

لأن التعدد قائم لحل مشكلات قد تكون فردية وقد تكون عامة .

فالدولة التى تحارب ويظهر لديها فى بعض الأحايين أعـداد كثيرة من الأرامل ماذا تفعل بهن ؟

ان منـح الدولة لهن بالمعـاش لا يكفى حاجاتها كأنثى واذا تزوجت انقطع المعاش ، وحياتها فى جـوار رجل حلال أشهى لنفسها من التخفى فى ستائر الليل البهيم •

فهل اذا أرادت أن تتزوج يتحتم عليها أن تأخـذ اذنا من الزوجـة الأولى ، أو أن يكون ذلك أمـام القاضى ؟ والمسألة الزوجيـة أسرار تمس الذوق والمشاعر قبل العقـل والمنطق •

وهنا يأتى حكم الاباحـة ليريح جماعات الأرامل من فضائح الضرات فى المحاكم •

وقد يقال انها نصف سعادة أو أنه نصف رجل مع كل زوجة •

ونجيب نعم ، ولكنه أحلى وأشهى من رجال كثير مع سيدة واحدة •

ونجيب نعم ، ولكنـه أحلى من اتخاذ عشيق واحد •

ونجيب نعـم ولكنـه أحلى من الرهبنـة لمن اسـتطاعت الى ذلك سبيلا •

والأفراد أذواق وقدرات وهناك الأغنياء الذين لا تكفيهم واحـدة وعندهم القدرة على كفالة الحقوق فأى الأمور أفضـل زوجات لثرى أو عشيقات له •• ؟ !

والعقم له دور خطير فأى الأحوال أفضل : زوجة عقيم تبقى مع زوجها على ضرة قد ينجب منها أو يطلقها ؟ أو يبقى عقيما الى الأبد ؟

رابعا : الطور الرابع

الجنة تحت أقدام الأمهات :

ولا يترك الاسلام المرأة بعد أن أدت رسالتها تحت رحمة التقاليـد والعادات بل جعل الوفـاء بجميلها دينا ، وجاور هذا الحق فى القدسية الايمان بالله يقول الله تعالى :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقـل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا

كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا (٢٣ ــ ٢٥ الاسراء) .

لقد طلب الاسلام من الأنبياء تجاه الوالدين أن يخضعوا لهما فى خشوع رحيم ، وابرز ذلك فى صورة «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» تتهادى آثار عطف الوالد على والديه كما تتهادى أجنحة الطير من عل فى خفة خفيفة لا يضار معها هابط ولا مهبوط عليه .

وجعل الاسلام هذا الحق للأم مطلقا حتى ولو كانت مشركة ، ففى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت :

قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد قريش اذ عاهدهم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك .

والله تعالى يقول فى القرآن الكريم :

(ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير .

وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون) .
(١٤ ، ١٥ لقمان)

وبعد :

أفغير الاسلام هناك قانون أو دين يقدر على هذه المعطيات للمرأة ؟

انها قبل أن تجىء الى الكون وضعت فى جناب سلطان الله العلى العظيم :

وهى طفلة جعلها الله عونا لأبيها فهى مصدر بركة .

وهى فتاة أعطاها حرية الرأى فى اختيار زوجها فرضاها أصل وهى زوجة على كرامتها ومشاعرها ونسبها وأموالها وقيل لها أدخلى الجنة من أى الأبواب شئت .

وهى أم قيل لها الجنة تحت أقدام الأمهات فماذا تريد المرأة المعـاصرة فى بلادنا الاسلامية ؟

لعلها صريحة : أتريد الاسـلام أم غيره ؟

أما أنها تريد أن تضع فى الاسلام الأفاعيل باسم التطور والتقدم فهذا مرفوض من جانب الاسلام فقـد أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرنا .

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبـدل لكلماته وهـو السميع العليم » .

(سورة الأنعام)

د . رءوف شلبى

النصـح للمسلمين

أمر جرير بن عبد الله رضى الله عنه مولاه أن يشـترى له فرسا، فاشترى له فرسا بثلثمائة درهم، وجاء بهوبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس : فرسك خير من ثلثمائة درهم أتبيعه بأربعمائة درهـم ؟ ، قـال ذلك اليك يا عبد الله ، فقال : فرسك خير من ذلك أتبيعه بخمسمائة درهم ؟ ثم لم يزل يزيده مائه فمائه وصاحبه يرضى وجرير يقول فرسك خير الى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها ، فقيل له فى ذلك ، فقال انى بايعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لـكل مسلم .

عظمة الرسول

كما يراها الكاتب الأمريكي واشنجطون أرفنج

التحرير

لقد تناول « واشنجطون أرفنج » حياة النبى فى مختلف مظاهرها ودرس عبقريته فى شتى صورها .

وكان طبيعيا أن يتحدث عن مدى تعلق هذا النبى برسالته واخلاصه لدعوته.وفى هذا الصدد كتب يقول:

« تعتمد حياة هذا النبى على الاخلاص ، ولم يكن هناك ما يدفعه الى خوض هذه المصاعب والعقبات التى صادفته عند اعلان دعوته ، لو لم يكن الايمان الخالص لرب العالمين يملأ فراغ عقله وقلبه . لقد كان قبل دعوته أمينا محبوبا منتميا الى أشرف قبائل العرب ، وكانت زوجته خديجة على ثراء عريض ، فاجتمع لديه قبل دعوته كرم المحتد والنسب ووفرة المال وطيب السمعة ، ومع ذلك أعلن دعوته بالرغم عما كان يحطيها من متاعب واضطهادات ، وهو لا يرجو من ورائها الا اعلاء كلمة ربه .

ومن مظاهر عظمة الرسول التى أشار اليها « واشنجطون أرفنج » تسامحه مع خصومه ومعارضيه بعد فتح مكة ، وفى هذا الصدد كتب يقول :

« لقد وقف أبو سفيان ــ الذى لم يترك فرصة واحدة تمر لايذاء النبى وأتباعه الا انتهزها ــ أمام النبى بعد فتح مكة فعفا عنه،فما كان من أبى سفيان الا أن عاد الى قومه مناديا قائلا :

يا معشر قريش من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. ومن دخل داره فهو آمن .

أما عكرمة بن أبى جهل الذى ورث العداوة عن أبيه ففر عند

دخول النبى مكة . تاركا زوجته الصغيرة الجميلة تتقدم الى النبى وتركع عند قدميه طالبة العفو عن زوجها ، فتقدم نحوها النبى وأخذ بيدها ، معلنا عفوه عن زوجها ، فأسرعت هذه الزوجة الشابة الى الشاطىء لتخبر زوجها بهذا العفو قبل أن يرحل من البلاد . ولما علم عكرمة بتسامح النبى وعفوه عاد هو وزوجته معلنا اسلامه . وعندما وقفت نساء قريش أمام النبى بعد فتح مكة رأى بينهن هندا زوجة أبى سفيان ، تلك الزوجة التى لاكت قلب حمزة بعد قتله وقرضته بأسنانها . وظل النبى صلى الله عليه وسلم شاخصا اليها فترة طويلة ، فشعرت بالندم والخجل ، وأسرعت نحوه راكعة تحت أقدامه طالبة الصفح والغفران قائلة :

أنا زوجة أبى سفيان أطلب الصفح والغفران . فعفا عنها النبى بالرغم مما أبدته من قسوة وعنف، وصفح النبى أيضا عمن صفع ابنته وهى فى طريقها من مكة الى المدينة صفعة كانت سببا فى القضاء عليها .

فهل وجدنا فى تاريخ العالم كله تسامحا كالذى رأيناه من هذا الرسول الكريم .

لقد كان هذا التسامح سلاحا فعالا من أسلحة المسلمين ، فقد أثرت سماحة النبى وتسامحه فى نفوس العرب فلانت قلوبهم ورقت نفوسهم، فأقبلوا نحوه فى نفوس آمنة وقلوب واعية ..

وتناول « واشنجطون أرفنج » بعد ذلك بعوثه السياسية ورسله الى القياصرة والملوك فكتب يقول :

« أراد النبى أن ينشر دينه فى نطاق واسع ففكر فى الوسائل السياسية والدبلوماسية فأرسل رسله الى القياصرة والملوك والأمراء ، داعيا اياهم الى احتضان دينه ونشره ، ولذلك لم يلجأ الى السيف الا بعد أن استنفذ الوسائل السلمية الأخرى .

لقد أرسل رسله الى كسرى ملك الفرس ، والى قيصر ملك الروم والى المقوقس حاكم مصر كما أرسلها الى الى النجاشى ملك الحبشة .

وعندما ذهب رسوله الى كسرى قدم اليه رسالة نبيه ، فأعطاها كسرى لأحد رجاله الذى بدأ يقرأ ويقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله .. ورسول الله .. الى كسرى ملك الفرس .

فصاح كسرى غاضبا :

ماذا يقول ؟ !

هل هناك من يجرؤ على أن يكتب اسمه قبل اسم كسرى ؟ !

وأمسك بالخطاب فى غضب وحقد ومزقه قبل أن يعرف محتوياته .

« لم يكتف كسرى بذلك بل أصدر أوامره الى حاكم اليمن بأن يلقى القبض على نبى الاسلام ، فأرسل هذا الحاكم رجلين الى المدينة لهذا الغرض فلما وصلا الى المدينة أبلغا النبى رسالة ملكهم .

فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم :

هل لكما ملك ؟

فبدت الحيرة على وجوههم .

ولما عادا الى دارهما عرفا أن كسرى قضى نحبه مقتولا بيد ولده فى نفس اللحظة التى كانا يحادثان فيها النبى . أما رسول النبى الى قيصر الروم فكان أوفر حظا ، اذ قابله قيصر مقابلة حسنة ، وحمله عند عودته بالهدايا وان كان لم يرد على الرسالة ردا حاسما .

وفى مصر استقبل المقوقس مبعوث النبى أحسن استقبال وأكرم وفادته وحمله ايضا بالهدايا عند عودته وكان من بين هذه الهدايا بغلة لركوب النبى وجاريتان ، فوقع النبى فى حيرة من أمر قبول الجاريتين كمحظيتين ، فتزوج أحداهما وهى مارية القبطية وتزوج أحد أتباعه الجارية الأخرى ، وكان لذلك أثر حسن عند أقباط مصر . أما النجاشى ملك الحبشة فقد قبل الاسلام بمجرد أن تلقى دعوة النبى .

هذه الرسل والبعوث تدل دلالة واضحة على أن النبى لم يلجأ الى القتال الا بعد أن استنفد جميع الأساليب السياسية والدبلوماسية . وفى هذا حكمة وروية ومحبة للسلام ..

وبحث « (واشنجطون أرفنج) » انتصاراته الحربية وتوسعه السياسى وأثرها فى تغير نفسيته وخلقه فكتب فى هذا الصدد يقول :

« لم يوقظ انتصاراته الحربيـــة والسياسية فيه الزهو والفخار ، ولم تثر فى نفسه الأنانيـــة والرغبـات الشخصية الجامحة ، بل بقى النبى بالرغم من هذا كله زاهدا متواضعا كما كان فى بداية حياته .

لقد كانت الثروة والجاه بين يديه ورهن اشارته ولكن لم ينفقها الا من أجل الدين واعلاء كلمة الله .

لم يكن فى بيت النبى عند موته دينار ولا درهم ، ولا عبد ولا جارية، لقد وضع الله كنوز الأرض كلها بين يديه ولكنه كان زاهدا فيها كلها» .

ولكى يصور «واشنجطون أرفنج» موقف الرسول عند موت ابنه كتب يقول :

وقد بدأ خضوعه لارادة الله فى وضوح تام عندما كان واقفا بجانب ابنه ابراهيم وهو على فراش الموت .. وكان عزاؤه الوحيد أنه سيلقى ابنه فى الفردوس .

وعندما تبعه الى قبره كان يدعو الى دينه ووحـــدانية ربـــه ورسالة نبوته .

وحتى فى ساعات موته كان يردد صلاته ويتحدث عن دعوته .

وكانت الكلمات الأخيرة التى اضطربت على شفتيه رغبته فى أن يدخل ملكوت اللـــه مع الأنبيـــاء السابقين .

من الدراسات المقارنة فى الأديان

فكرة الألوهية والنبوة مابين أهل الكتاب والإسلام

للمستشار محمد عزت الطهطاوى

فكرة الألوهية عند الاسرائيلين :

ويسمون أيضا باليهود بعث الله اليهم نبيه موسى عليه السلام فاستنقذهم من فرعون وعذابه اذ كان يستحى نساءهم ويذبح أبناءهم وبعد أن نجاهم الله من فرعون وملائه أمرهم بمتابعة الكتاب الذى أنزله على موسى عليه السلام خصوصا ما تعلق بالعقيدة وقد كانت عقيدة التوحيد فى بداية أمرهم .

وفى هذه العقيدة كانت تتصف الذات الالهية بالوحدة والكمال ويدل على ذلك ما ورد فى سفر التثنية قوله (اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد .. فتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ») .

(انظر الاصحاح ١٦ من سفر التثنية عدد ٤ ، عدد ٥ ــ العهد القديم من الكتاب المقدس) .

الا أن أسفار العهد القديم والتلمود وهى المراجع الحالية التى تستقى منها فكرة الالوهية عند اليهود ذكرت أن ذلك الاله فى صورة (يهوا) اله شعب اسرائيل فقط وهى صورة بعيدة عن الوحدانية يشترك معه آلهة كثيرون تعبدها الأمم التى جاورت اليهود فى أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم وكان تصورهم لهذا الاله فى صورة مجسمة ووصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب والغفلة والجهل كما ورد فى سفر التكوين وهذا نصه (فحزن الرب لأنه عمل الانسان فى الأرض وتأسف فى قلبه) وقوله (فنزل الرب لينظر المدينة والبرج) انظر الاصحاح ٦ عدد ٦ من سفر التكوين وكذلك الاصحاح ١١ عدد ٥ من السفر المذكور من العهد القديم من الكتاب المقدس .

ولقد كان اعتقاد اليهود أن الههم (يهوا) هذا لا يريد من شعب اسرائيل أن يلتفت الى الآلهة الأخرى لأنه يريد أن يستأثر بشعب اسرائيل لنفسه بين سائر الشعوب وأن يستأثر شعب اسرائيل به لأنفسهم بين سائر الآلهة ــ وكان النبى أرميا يقول لهم بلسان الرب الههم أن آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة أخرى ــ وعبدوها وسجدوا لها واياى تركوا وشريعتى لم يحفظوا .

(ماذا وجد فى آباؤكم من جور حتى ابتعدوا عنى وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا ــ ولم يقولوا أين هو الرب الذى أصعدنا من أرض مصر ..) .

(تقول لهم كما أنكم تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم هكذا تعبدون الغرباء فى أرض ليست لكم) .

انظر سفر أرميا الاصحاح الثانى عدد ٥ وكذلك الاصحاح الخامس عدد ١٩ من السفر المذكور من العهد القديم من الكتاب المقدس .

ويستخلص مما تقدم أن اليهود لم يكونوا ينكرون وجود الآلهة الكثيرين غير الههم (يهوا) الذى يعبدونه تارة ــ ويتركونه تارة أخرى انما يحسبون الكفر به ضربا من خيانة الرعية لملكها ــ واذا تركوا (يهوا) حينا من الزمن ثم آثروا الرجعة الى عبادته فانما يرجعون اليه لاعتقادهم بالتجربة المزعومة أنه أقدر على التمكن منهم والتنكيل بهم ــ وان الآلهة الأخرى عجزت عن حمايتهم من سخطه وانتقامه .

والمتتبع لتاريخ اليهود منذ نشأتهم حتى عصر الميلاد المسيحى يتبين أنهم ضيقوا أفق العبادة لهذا الاله (يهوا) حسب الآتى :

١ ــ فمنذ الابتداء كان شعبه المختار عاما شاملا لأبناء ابراهيم عليه السلام .

٢ ــ ثم أصبح بعد بضعة قرون محصورا على أبناء يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم عليهم السلام .

٣ ــ ثم صار قاصرا على قوم موسى عليه السلام فقط .

٤ ــ ثم اقتصر بعــد ذلك على أبناء داود وعلى من يدينون لعرشه بالولاء ومن ذريته يعتقدون أنه كان ينبغى أن يظهر المسيح المخلص لهم فى آخر الزمان من الذلة والضعف وينهض بهم نهضة قوية كما فعــل بهم داود عليه السلام من قبل .

وجمد اليهود على هذا المفهــوم حتى ظل فى عقيدتهم أن (يهــوا) اله عبرى يستأثر به الذين يدينــون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده الذين هم من نسل ابراهيم بالجسد فعقيدتهم هى عقيدة شعب مختار بين الشعوب فى اله مختار بين الآلهة .

واذا فليس فى هذه العقيدة ايمان بالتوحيد ولا هى مما يتسع لديانة الانسانية عامة .

فكرة الالوهية عند النصارى :

وهم الذين يقولون أنهم أتبــاع المسيح عيسى عليه الســلام ولقــد تطورت هذه الفكرة الى مراحــل ثلاث .

المرحلة الأولى :

ابتدأ المسيح عليه السلام دعوته فى البداية مختصا بها بنى اسرائيــل دون سواهم من العالمين كما هــو مصرح بذلك فى الأناجيل المتــداولة بينهم أنه لم يرسل الا الى خــراف بنى اسرائيل الضالة ــ لكنه مع ذلك كان يبشر بدعــوة التوحيــد للاله الواحد وأنه مجرد رسول بشر كما ورد فى الأناجيل على لسانه (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) ــ أنظر الاصحاح ١٧ عدد ٣ من أنجيل يوحنا وقوله (فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا هى اسمع يا اسرائيل الرب الهنــا رب واحد) أنظر الاصــحاح ١٢ عدد ٢٩ من انجيل مرقص .

المرحلة الثانية :

لمــا مضى عصر المســيح عليــه السلام جاء بعده عصر بولس والذى لم ير المسيح ولم يتتلمذ عليه بل كان عدوا له ولأتباعه وبعد ذهاب المسيح عن العــالم انضــم الى تلاميــذه

وحوارييه وزعم أنه رسول مثلهم ثم اختلف معهم وانفرد بتعاليم خاصة اذ أضاف الى عقيدة الألوهية التى كانت لدى العبرانيين من ذرية ابراهيم تفسيرا آخر بأن البنوة لابراهيم عليه السلام لا تتوقف على بنوة الجسد بل أنها بنوة روحية تشمل الغرباء عن اليهود ممن يعتقدون باعتقاد بولس لذلك كانت عقيدة النصرانية وقتئذ فى الألوهية فكرة متطورة عن العقيدة اليهودية فى الألوهية فبعد أن كانت العقيدة الالهية عند اليهود هى الايمان بالاله لأبناء ابراهيم فى الجسد صارت عند النصارى الايمان بالاله لأبناء ابراهيم فى الروح (فانه ليس بالناموس كان الوعد لابراهيم أو لنسله أن يكون وارثا للعالم بل ببر الايمان) هذا ما ورد برسالة بولس الى أهل رومية بالاصحاح الرابع عدد ١٣

المرحلة الثالثة :

لما اتصلت النصرانية بالأمم الأجنبية بعد ذلك وفى مقدمتها الأمة المصرية شاعت فيها عقيدة الهية جديدة هى عقيدة الثالوث المجتمع من الآب والابن والروح القدس وتتلخص فى اعتقادهم بأن المسيح المخلص هو ابن الله وان الله أرسله ليقتل فداء لأبناء آدم وحواء وكفارة عن الخطيئة التى وقعا فيها أثر أكلهما من شجرة المعرفة فى الجنة بعد أن نهاهما ربهما عن الاقتراب منها •

وان الله وان كان واحدا الا أنه من أقانيم ثلاثة هى الأب والابن والروح القدس ــ وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم وهو ذو طبيعة الهية واحدة فى مذهب فريق من النصارى وذو طبيعتين الهية وانسانية فى مذهب فريق آخر •

فكرة الالوهية فى الاسلام :

المتتبع للعقيدة الاسلامية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يجد أن هذه العقيدة هى عقيدة التوحيد الخالص المجرد لله سبحانه وتعالى ــ وأن موقف الاسلام فى هذه العقيدة كان موقف المصحح للعقائد الكتابية السابقة ــ ولم يكن موقف الناقل المستعير (كما يزعم بذلك المبشرون والمستشرقون) •

لذلك كانت دعوته الى الله دعوة الى اله منزه عن لوثة الشرك منزهعن جهالة العصبية وسلالة النسب منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية الى الأديان الكتابية .

فالاله الذى يؤمن به المسلمون هو اله واحد أحد منزه عن كل نقص متصف بكل صفات العزة والكمال واليك بعضا منها :

١ — فالله الذى تعبده أمة الاسلام اله واحد لم يكن له شركاء قال تعالى (أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون) سورة الطور ٤٣

٢ — وما هو برب قبيلة ولاسلالة يؤثرها على سواها كسلالة ابراهيم ويعقوب وداود ولكنه هو رب العالمين — قال تعالى :

(الحمد لله رب العالمين) سورة الفاتحة ٢

٣ — خلق الله الناس جميعا ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى فلا فضل بينهم لعربى على عجمى أو قرشى على حبشى قال تعالى :

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا — ان أكرمكم عند الله أتقاكم) سورة الحجرات ١٣

٤ — وهو واحد أحد ما كان له أن يلد أو يولد قال تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد .) سورة الاخلاص ١ ، ٢ ، ٣

٥ — ولم يكن له شبيه قال تعالى:

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) سورة الشورى ١١

٦ — لا يأخذ انسانا بذنب انسان قال تعالى :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) سورة الاسراء ١٥

٧ — ولا يحاسب أمة خلقت بذنب أمة سلفت قال تعالى :

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) سورة البقرة ١٣٤

٨ — ولا يدين العالم كله بغير نذير قال تعالى :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) سورة الاسراء ١٥

٩ ــ والاسلام دين الرحمة فافتتح كل سورة من كتابه الكريم بقوله تعالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم) سورة الفاتحة ١

١٠ ــ كما ان الاسلام أيضا دين العدل قال تعالى :

(وما أنا بظلام للعبيد) سورة ق ٢٩

١١ ــ والاله فى الاسلام عليم بكل شىء قال تعالى :

(وسع ربنا كل شىء علما) سورة الأعراف ٨٩

(وهو بكل خلق عليم) سورة يس ٧٩

١٢ ــ وحمل الانسان بوصفه خليفة الله فى الأرض أمانة التكليف فان أقامها ارتفع مكانا فوق مكان الملائكة ــ وان أهملها هبط الى أسفل سافلين بل الى زمرة الشياطين قال تعالى :

(انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان) سورة الأحزاب ٧٢

١٣ ــ ويتصل بأمانة التكليف قابلية الانسان للعلم قال تعالى :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) سورة العلق ١

(اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) سورة العلق ٣، ٤، ٥

١٤ ــ ولا يعرف الاسلام الخطيئة الموروثة فخطيئة آدم لا تدينه أبدا ما دام قد رجع الى ربه ولا تدين أبناءه من بعده ــ ونجاته كانت رهينة بتوبته الى الله قال تعالى (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) سورة طه ١٢١ ، ١٢٢ (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) سورة البقرة ٣٧

أما عن الشر والشيطان فقد كان اعتقاد اليهود فى الشيطان أنه روح من أرواح كثيرة (تستطيع القيام

بالعمل كما يفعل معبـودهم والههم (يهـوا) .

(ا) ففى الاصحاح الثالث عشر من سفر زكريا عدد ٢ قوله (وأزيل الأنبيـاء أيضا والروح القدس من الأرض) .

(ب) وقوله (وأرسل الرب روحا رديا بين أبيمالك وأهـل شكيم) انظر سفر القضاة اصحاح ٩ عـدد ٢٣ بالعهد القديم .

(جـ) وقوله (والآن هوذا قـد جعل الرب روح كذب فى أفـواه أنبيائك هؤلاء) انظر سفر أخيـار الأيام الثـانى اصحاح ١٨ عدد ٢٢ بالعهد القديم .

(د) كما جاء فى سفر أخيـار الأيام الأول بالعهد القديم أن الشيطان هو الذى وسـوس لدا ود وأمره باحصـاء بنى اسرائيل ومعهم بنو يهـوذا وذلك فى الاصـحاح ٢١ عدد ١ وما بعده فى قوله (ووقف الشيطان ضد اسرائيل وأغوى داود ليحصى اسرائيل) .

ولمـا ظهرت النصرانية شاع فى اعتقادها أن للشيطان عمـلا جسيما يوشك أن يضارع عمل الاله حتى أنه سمى فى كتبهم باسم رئيس هذا العالم الذى يضل العالم أو الأسـد الزائر وقد كانت له مملكة الدنيـا ولله ملكوت السموات ـ وانه لولاه لمـا وقعت الخطيئـة التى سـقط الجنس البشرى فيهـا ولاوجبت الكفارة بالفـداء . فقـد ورد فى الاصحاح الخامس من رسالة بطرس الأولى عـدد ٨ قوله (اصـحوا واسهروا لأن ابليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمسا من يبتلعه) كما ورد فى الاصحاح الثانى عشر عدد ٧ من رؤيا يوحنـا اللاهوتى قـوله (والشيطان الذى يضل العالم كله طـرح الى الأرض وطرحت معـه ملائكته) أما الاسلام فقـد اعتبر الشيطان قوة الشر لا مراء ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الانسان ما لم يستسلم لها بهواه قال تعالى فى كتابه العزيز حاكيا عن الشيطان (وقال الشيطان لمـا قضى الأمر ان اللـه وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليـكم من

سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ـ فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) سورة ابراهيم ٢٢

(ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) سورة الحجر ٤٢

فكرة النبوة عند اليهود والنصارى:

كانت النبوات فى القديم تقوم حجتها الكبرى على الغرائب والأعاجيب والخوارق والمعجزات ـ وكان اليهود يسمون النبى بالرائى أو الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اسم النبى الا بعد مجاورتهم للعرب ـ ومعرفتهم بأربعة من أنبيائهم هم ملكاى صادق الذى كان معاصرا لابراهيم الخليل ـ وأيوب ـ وبلعام ـ وشعيب معلم موسى عليهم السلام •

وقد ذكر الأستاذ هولشر والأستاذ شميدت وهما من علماء الغرب أن كلمة نبى دخلت فى اللغة العبرية بعد وفود بنى اسرائيل الى فلسطين ـ وكان بنو اسرائيل يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ـ ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحانا لصدق النبى فى دعواه •

ففى سفر صموئيل انهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدنه أجره على ردها والنصوص الآتية تؤكد ذلك وهى فى الاصحاح التاسع من سفر صموئيل الأول •

١ ـ (وكان رجل من بنيامين اسمه قيس بن أبيبيل •• وكان له ابن اسمه شاول••فضلت أتن قيس أبى شاول فقال قيس لشاول ابنه: خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش على الأتن •• ولما دخلا أرض صوف قال شاول لغلامه الذى معه تعالى نرجع لئلا يترك أبى الأتن ويهتم بنا ـ فقال له هو ذا رجل الله فى هذه المدينة والرجل مكرم ـ كل ما يقوله يصير لنذهب الآن الى هناك لعله يخبرنا عن طريقنا التى نسلك فيها فقال شاول للغلام هوذا نذهب فماذا نقدم للرجل ـ لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله ـ ماذا معنا ـ فعاد الغلام وأجاب شاول

وقال هوذا يوجد بيدى ربع شاقل فضه فاعطه لرجل الله فيخبرنا عن طريقنا سابقا فى اسرائيل هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله « هلم نذهب الى الرائى » لأن النبى اليوم كان يدعى سابقا الرائى .. والرب كشف اذن صموئيل قبل مجىء شاول بيوم .. فاجاب صموئيل شاول وقال أنا الرائى .. واما الاتن الضالة لك منذ ثلاثة أيام فلا تضع قلبك عليها لأنها قد وجدت ..) .

(انظر سفر صموئيل الأول الاصحاح التاسع من عدد ١ الى عدد ٣٠) .

كان يؤخذ من النبوءات التى نسبوها الى النبى يعقوب جد بنى اسرائيل انهم كانوا يعولون عليه فى صناعة التنجيم – كما أن النبوءات المقرونة بأسماء أبناء يعقوب قد تشير الى حيوانات أو الى أبراج السماء وما ينسب اليها من طوالع – ومثال ذلك ما ورد فى الاصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين منسوبا الى يعقوب عليه السلام فى قوله (ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام – اجتمعوا واسمعوا يابنى يعقوب واصغوا الى اسرائيل أبيكم) .

١ – راوبين أنت بكرى قوتى ... فائرا كالماء لا تتفضل ...

٢ – شمعون ولاوى اخوان آلات ظلم سيوفهما فى مجلسهما لا تدخل نفسى .

٣ – بمجمعهما لا تتحد كرامتى .... ملعون غضبهما فانه شديد وسخطهما فانه قاس .

٤ – يهوذا ... جرو أسد من فريسة صعدت يا ابنى – جثا وربض كأسد وكلبوة من ينهضه .

٥ – زبلون عند ساحل البحر يسكن ...

٦ – يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر ...

٧ – دان يدين شعبه ... يكون دان حية على الطريق أفعوانا على السبيل يلسع عقبى الفرس .

٨ ــ جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره •

٩ ــ أشير ــ خبزه سمين وهو يعطى لذات ملوك •

١٠ ــ نفتالى ــ أيله مسيبه يعطى أقوالا حسنه •

١١ ــ يوسف غصن شجرة مثمرة على عين أغصان قد ارتفعت فوق حائط •

١٢ ــ بنيامين ــ ذئب يفترس فى الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبا •

وكانت النبوة صناعة وراثية عند اليهود يتلقاها الأبناء عن الآباء كما جاء فى سفر الملوك الثانى فى الاصحاح السادس (وقال بنو الأنبياء لاليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك ضيق علينا فلنذهب الى الأردن) وكان يجب على النبى فى عرف اليهود أن يكون مستعدا بكراماته ومعجزاته كلما أرادها أو طلبت منه خصوصا استطلاع الخبايا كما قدمنا أو انذار من نقمة (يهوا) الذى تعودوا أن يعاقبهم بالمصائب الجسيمة كلما انحرفوا عن شريعته وأشركوا بعبادته ربا آخر من آلهة الشعوب الأخرى ومثال ذلك ما ورد بالاصحاح الخامس عشر من انجيل متى عدد ٢١ عن المسيح عليه السلام قوله (ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحى صور وصيدا واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة ارحمنى ياسيد يا ابن داود ابنتى مجنونة جدا ••• حينئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيم ايمانك ليكن لك كما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة) •

فكرة النبوة فى الاسلام :

أما النبوة فى الاسلام فقد برئت من شوائب السحر والكهانة والتنجيم والمغيبات وخوارق العادات لذلك لم تكن منقولة من نبوة اليهود ولا هى محرفة عنها أو نسخة منها لأن النبوة فى الاسلام تقوم حجتها الكبرى على هداية العقل والضمير لا على عمل الغرائب والأعاجيب وكانت لا تدعو الى رب

سلالة أو رب قبيلة بل كانت نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تدعو الى عبادة الله رب العالمين رب العربى والأعجمى رب الأبيض والأسود ورب كل قبيلة .

قال تعالى (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) سورة الأعراف ١٥٨

وأن النبى فى الاسلام لايعلم الغيب ولا يملك خزائن الأرض ولا يدفع السوء عن نفسه فضلا عن قومه ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحدا لا ينتفع بعقله ولا يتفكر فيما يسمع من نبى أو رسول .

قال تعالى (قل أن الأمر كله لله) سورة آل عمران ١٥٤

وقال تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) سورة الأنعام ٥٠

المستشار
محمد عزت اسماعيل
الطهطاوى

شذرات متفرقة

* ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه .
* الذنوب جراحات ورب جرح وقع فى مقتل .
* قيل لبعض العباد الى كم تتعب نفسك فقال راحتها أريد .
* المعاصى سد فى باب الكسب وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

نقد نظرية التطور الحيوى عند داروين وأتباعه

للدكتور يحيى هاشم

المقال الأول

يتوجه هذا النقد الى ناحيتين : ناحية عامة يشترك فيها ما يشاع عن هذه النظرية مع النظريات الأخرى التى تحاول أن تتخذ من العلم التجريبى سندا لرفض المعرفة الالهية أو الميتافيزيقية وذلك حيث تقوم على « الاعتقاد » بأن المادة أصل الأشياء .

والرد على ذلك بوجه عام يرجع الى المباحث الخاصة بالعلاقة بين الدين والعلم ، وبيان انحراف المذاهب المادية عن العلم الصحيح فيما تذهب اليه من انكار الغيبيات METAPHYSIC أو المطلقات ABSOLUTE أو انكار الارادة الالهية .

ويتوجه النقد الى نظرية التطور من الناحية الخاصة بها فى النقاط الخمسة التالية :

أولا : وقوعها فى جملة من الأخطاء والتجاوزات العلمية شاع أمرها فى الأوساط العلمية التجريبية المعاصرة .

ثانيا : قيامها على عدد من الافتراضات غير الملزمة .

ثالثا : قيامها على القول بالصدفة فى أهم مراحل التطور ، وهو قول لا يستسيغه العلم أو الدين على السواء .

رابعا : استناد أدلتها الى فكرتى التشابه والترتيب بين الأطوار ، وهو لا يصلح أساسا للقول بضرورة وجود علاقة ذاتية بين هذه الأطوار .

خامسا : أنه مع التسليم بصحة الافتراضات التى قامت عليها النظرية فهى لا تقتضى الغاء الارادة الالهية ومن ثم ينبغى أن يبقى فيها مكان

خاص لنظرية الخلق الخاص بالنسبة لبعض الأنواع (الانسان) . وهذا ما تحتمه وجهة النظر الاسلامية التى لا تترك مجـالا للتوفيق بينها وبين هذه النظرية فيما يتعلق بخلق آدم مهما تكن محاولات هذا التوفيق .

وسنتكلم عن كل نقطة من هـذه النقاط بشىء من التفصيل فيما يلى:

ولا :نقد المذهب فى الاوساط العلمية :

١ ــ علت الصيحة من جوانب العالم الجديد ــ أمريكا ــ منـذ سنين بأن نظرية داروين فى أصـل الأنـواع لا تتفـق والمشـاهدات الحديثة التى قامت بها فئة من العلماء الطبيعيين ، وعلى رأسهم العـلامة باتسون ، حيث صرح فى الاجتماع الذى عقدته جماعة تقدم العـلم فى أمريكا بمدينة تورنتـو عام ١٩٢١ بقوله : « ان جزءا جوهريا من نظرية النشوء العضوى ــ ذلك الجزء الذى يبحث فى أصل الأنواع وطبيعتها ــ لايزال فى حيز الآراء المستعصيةعلى العلم . وأننا اليوم لا نشـعر ذلك الشعور الذى كنا نشعر به من قبل، والذى كان يوحى الينا بأن منهـج التغاير ــ الذى لابد من أن يكون مستمر التأثير دائب الفعـــل فى عصرنا هذا مطاوعة لنظرية النشوء ــ هو بدء عمل عضوى خطير لايحتاج لسوى مر الزمان وكر الأعوام لكى يبلغ كماله ومنتهاه » .

ولقد بلغت حملة دكتور باتسون على نظرية النشوء غاية ما يمكن أن تبلغ حملة عملية من التأثير .... فان دعوة ذلك الباحث قد امتدت الى نواح من أوربا ، وكانت عـلى أشدها فى الولايات المتحدة وكندا، حتى أن ولاية « كانســاس » قـد أصدرت قانونا يحرم على جامعاتها تدريس مذهب النشوء (١) .

٢ ــ وترتبط نظـرية النشـوء بنظريات علم الجيولوجيا ، وتتوقف

(١) انظر ملقى السبيل لاسماعيل مظهر ص٣١٥ ، بينما يتصدى المؤلف لشرح نظرية داروين والدفاع عنها دفاعا عاما . والذى يعنينا هنا هو أن نوضح أن النظرية ليست موضع التسليم من الاوســاط العلميـة نفسها ، بما فى ذلك المعاصرة .

صـحتها على ما يتقـرر فى عـلم الجيولوجيا من نظريات أو حقائق ، لصلة ذلك بالحفريات التى تتخذها النظرية دليـلا على ما تذهب اليه . ومن المقرر أن هذه النظـرية تعتمد اعتمادا أساسـيا على بطلان مذهب النكبات فى الجيولوجيا .

وينحصر القول فى مذهب النكبات بأن الأرض كان ينتابها فى عصورها الأولى نكبات جيولوجية تمضى بكل ما على سطحها من حيوان ونبات، ثم تأخذ الحياة العضوية فى الظهور على سطح الأرض حالا بعد حال ، حتى تنتابها نكبة أخرى تمضى بمـا يكون قد نشأ فيها من الأحيـاء ، وهكذا دواليك على مر العصور..

يقول الأستاذ اسماعيل مظهـر « لاجـرم أن هـذا المذهب الذى انتشر وذاع فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان أكبر حائل يقوم دون انتشار مذهب النشوء والارتقاء » .

وذلك لأنه يقضى قضاء تاما على دلالة الحفريات التى تعتمد عليهـا نظرية النشوء ..

وكان يؤيد مذاهب النكبات كثير من فحول العلماء منهم «سيدويك» و « بوكلاند » و « كونيسـير » و « هيوبيـل » و « هنسـلو » و « كوفييه » .

وفى أوائل القرن التاسـع عشر ظهر كل من سـكروب ، وليـل ، اللذين أخذا يهدمان مذهب النكبات.

واذا كـان كثير من العلمـاء يستبعدون مذهب النكبات فانهـم يفعلون ذلك باعتبار أنه يتحدث عن أخبـار أو فروض أو احتمـالات لاسبيل له الى أن يؤكدها بالبحوث التجريبية .

وفى نظرى أن من يبطلون هـذا المذهب يرتكبون نفس ما ارتكبـه من الانسياق وراء فروض لاسبيل الى تأكيدها عن طـريق البحـوث التجريبية .

ويتبين ذلك من الأساس النظرى الذى يقـوم عليه ابطـال مذهب النكبات . فهو يقوم على القـاعدة التالية التى وصفها سـكروب فى كتـابه الذى نشره عـام ١٨٢٢ م

« هنالك ظاهرات طبيعية عديدة تؤثر فى الوقت الحاضر فى سطح الكرة الأرضية فتحدث تغايرات متعددة فى تكوين أوصافها الظاهرة شبيهة كل الشبه بما كان ينتاب الأرض فى عصروها الأولى » (١) .

ويتبين من كلام سكروب أن علم الجيولوجيا يجب أن يقتصر على دراسة « الظاهرات الطبيعية العديدة التى تؤثر فى الوقت الحاضر فى سطح الكرة الأرضية » وأنه يفترض أن هذه التغايرات « شبيهة كل الشبه بما كان ينتاب الأرض فى عصورها الأولى » .

ومن الواضح أن هذا الأساس يقوم على مجرد التشابه المفترض ، وهو لا يشفى غليلا ، ولا يكفى لاستخلاص النتائج التى تذهب اليها نظرية النشوء والارتقاء ، بل انه يقوم على افتراضات لا فرق بينها وبين الأخبار التى ذهب اليها مذهب النكبات فى ميزان النقد العلمى التجريبى الصحيح .

ويعلق كونانت على مذهب تشارلى ليبل «مذهب اطراد القوى» فيقول :«أنه غالى فى موقفه من انكار التغيرات العنيفة المحتملة مغالاة صرفت عنه الجيولوجيين من بعده » كتب أحد رجال هذا العلم منذ قريب يقول « ان مذهب اطراد القوى ليس صحيحا كله فى كل وقت » . ثم يقول كوتانت « ونحن اذا قرأنا اليوم فى كتاب فى الجيولوجيا : أن الصخور تصنع اليوم بنفس الطريقة التى صنعت بها منذ مئات الألوف من السنين وآمنا بكل ما فى هذه الجملة من معنى لم نأمن ضلالا(٢).

ويقول كونانت بعد أن يسوق تقدير الجيولوجيين المحدثين لعمر الأرض بأنه حوالى بليونين من الأعوام : « أن أكثر من عالم فيزيائى شك فى صحة فرض أن المادة كانت تنطبع فى تلك الأعمار البعيدة كما هى تنطبع اليوم ، وتساءل : ما أثر هذا المعنى الجديد ــ معنى الزمن

---

(١) انظر ملقى السبيل من ص ٢٠٠ الى ٢٠٦

(٢) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ص ٣٨٩

يقاس بآلاف الملايين من السنين فيما نحن فيه اليوم من أمور ؟

أن الفيزيائى وجد أخيرا أن الضرورة تضطره الى تغيير آرائه عن كل من الفراغ والزمن ، اذا واجهته فى بحوثه سرعات عالية بالغة العلو ومسافات صغيرة بالغة الصغر لم يكن له بها عهد ، والذى جاز هناك يجوز هنا ــ أى فى الجيولوجيا ــ ، واذن يصح أن نقول أن صورتنا الحاضرة عن الزمن لايصح نقلها فى الشئون الكونية الى ملايين السنين ومشروعاتنا التصورية فى العلم عندما يدخلها هذا العامل الجديد ــ عامل هذا الزمن البعيد ــ قد تتعرض لمعارضات ومناقضات كلما حاولت أن تحتوى الجديد من حقائق العلم .

ثم يقول بالنسبة لمذهب اطراد القوى :

هذه الأرض أحداث عنيفة فى أحقاب سابقة بعيدة ، كان فيها بناء الجبال وأشباه الجبال ، عملت فيها قوى هائلة أعنف كثيرا مما تعودنا منها على ظهر الأرض .. (١) وهذا يعنى عدم اطراح مذهب النكبات اطراحا تاما .

واذا كان بعض الباحثين يتشكك فى دلالة الحفريات الآن بعد أن حدثت أخيرا التفجيرات الذرية وامتلأ الجو بالاشعاعات وكثر تشغيل الأفران الذرية (أو مايسمى بالمفاعلات النووية) مما نتج عنه أحزمة منيعة حول الأرض لم يسبرغور أثرها حتى الآن ..(٢) .

فان لنا أن نتوقف كثيرا أمام دلالة هذه الحفريات حتى قبل حدوث التفجيرات النووية المعاصرة ، لاحتمال قريب يفرضه التصور

« أما اليوم فكل النظريات العلمى لحدوث أحداث كونية أو الجيولوجية متفقة على أنه كانت على أرضية شبيهة بهذه التفجيرات أو

---

(١) مواقف حاسمة ص ٣٩٦ ، ٣٩٧

(٢) الدكتور محمود أحمد الشربينى فى بحث له بعنوان « الانسان بين العلم والبيئة » بمجلة عالم الفكر . العدد الرابع من المجلد السابع ص ٩١٣ ــ ٩١٥

أعظم منها فى تاريخ الأرض الطويل تحول بيننا وبين أى استنتاج صحيح من الحفريات ..

ويعلق كونانت على دلالات الاشعاع فى علم الجيولوجيا فيقول « فى السنوات الختامية من القرن الماضى اكتشفت ظاهرة النشاط الاشعاعى ، ونشأ منذ الخمسين من السنوات الماضية علم جديد نافع شديد النفع للجيولوجيين ، فقد وجد أنه به يمكن تحديد تاريخ طبقات الصخور المختلفة ..

ولكن كونانت يكشف لنا عن أن دلالات الاشعاع فى هذا المجال مبنية على افتراضات ، هى :

أولا : افتراض أن سرعة التغير الحادث فى النشاط الاشعاعى كانت ثابتة على الأحقاب الكثيرة الماضية» .

ثانيا : « افتراض أن المعدنيات التى حللناها بقيت ثابتة التركيب طوال تلك الأجيال ، ويؤكد كونانت ما نذهب اليه فيقول : « ومع هذا فهى افتراضات (١) .

المقال الثانى

ثالثا : وتفتقد نظرية النشوء والارتقاء أساسها التجريبى عند ما تعجز عن تقديم مشاهداتها « للحلقات المتوسطة » .

يقول أصحاب هذا النقد أن فقدان الصور الوسطى التى تربط بين الأنواع ، وعدم ظهور جزئيات التحول الحقيقى فى شعب النظام العضوى فى الحفريات التى عثر عليها حتى الآن دليل على أن المذهب غير صحيح ، أو على الأقل على أن المذهب أبتر غير كامل فى كثير من وجوهه العملية والاستنتاجية .

ويلخص الأستاذ مظهر دفاع زعماء النشوء ضد الاعتراض فيقول :

« ان الباحث اذا تعمق فى الدرس وجد أن الجيولوجيين والحفريين وعلماء التاريخ الطبيعى والحياة قد اتفقت مباحثهم على الايمان بوجود حلقات تربط بين كثير من الأنواع الحية ، وحلقات تربط بين أنواع

(١) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ص ٣٩٤ ، ٣٩٥

حيـة وأنواع منقرضة منـذ أزمان موغلة فى القدم ٠٠ » ٠

ثم يقول «فاذا وعينا أن النواميس الطبيعية واحدة لم تتغير ــ ولن تتغير على مدى الأزمان ــ ثبت لدينا أن ما يصدق على قليل من الأنواع قد يصدق على غيرها قياسا (١) ٠

وهكذا يتضح أن هذا الدفاع يبين أن النظرية لا ترتكز على أسس تجريبية وانما تقوم على الايمان ــ مطلق الايمان ــ بوجود حلقات لم تعرف بعد ، ويقوم كذلك على الاعتقاد بأن ما يصدق على قليل من الأنواع قد يصدق على غيرها قياسا ٠

وهذا أيضا يقوم على مطلق الايمان ، كما يقوم على أساس أن النواميس الطبيعية حتمية لا تتغير على مدى الأزمان ٠

وما يقوله اسماعيل مظهر عن القوانين الطبيعية يخالف به ما تقرر فى الأوساط العلمية من احتمالية هذه القوانين ، وخضوعها للتغير ، شأنها فى ذلك شأن الظواهر سواء بسواء ٠

ثم ينحو الأستاذ اسماعيل مظهر فى دفاعه ضد النقد المذكور نحوا آخر اذ يقول : (ان الذين يؤمنون بصحة هذا الاعتراض لم يستطيعوا أن يأتوا ببرهان واحد على أن صور الأحياء المنقرضة برمتها قد يمكن حفظها سالمة فى باطن الصخور) وهذا وضع مقلوب ، لأن الناقد مانع ، فليس مطلوبا منه أن يأتى بدليل ، وانما الدليل مطلوب من أصحاب نظرية التطور ، فهم الذين يقال لهم أين دليلكم على أن صور الأحياء المنقرضة برمتها لا يمكن حفظها سالمة فى باطن الصخور ، فاذا عجزوا عن ذلك وذهبوا الى القول بأن (الكثير من صور الأحياء الأولى ــ أو بالأحرى الحلقات ــ قد تلاشت بتأثير الأعاصير الطبيعية) فان هذا لا يعنى شيئا الا أن أصحاب النظرية ــ نظرية التطور ــ قد فقدوا مصادر الأدلة التى يمكن أن يلجأوا اليها ٠

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٥٥

ان داروين نفسه يقول «ان الشطر الأعظم من مجموعتنا الحفرية وصور الحياة المتحجرة غير كامل ، بل هو جزء صغير بالنسبة لما هو مختنف فى باطن الأرض » . ويقول « ان الملاحظات الجيولوجية التى تؤيد مذهب النشوء على حال من الاضطراب والنقص قل أن تسبق الى حدس الباحثين » .

ويقول الدكتور بخنر — أحد العلماء الفلاسفة الذين آمنوا بداروين على نحو مادى صريح : اذا تذكرنا أن ثلثى الأرض أو ثلاثة أخماسها تحجبها البحار ، وأن قسما كبيرا من الثلث الباقى تغطية الجبال الشاهقة علمنا أنه تمنعنا عن الأبحاث العلمية موانع طبيعية (١) » .

فهل يصلح هذا اعتذارا يجعلنا نتقبل النظرية وقد فقدت مصدر أدلتها ؟؟

ان النظرية الداروينية فى هذا الموضع الأساسى تقوم على مجرد الايمان .. يقول الأستاذ اسماعيل مظهر — وهو بصدد الدفاع عن داروين — : (لقد أثبت داروين بالدليل والمشاهدة أن الحلقات الوسطى كانت موجودة خلال زمن ما من الأزمان ، وأظهر كيف أن بقاءها فى الطبيعة متعذر ، وأن العثور عليها أشد تعذرا) (٢) .

ومن الواضح أن القول بما يتعذر بقاؤه فى الطبيعة ، وبما يكون العثور عليه فيها أشد تعذرا ، ليس قائما بحال من الأحوال على «الدليل والمشاهدة » وانما يقوم على مجرد الايمان بالغيب .

ان داروين نفسه يعترف بخطورة النقد الموجه الى هذا الموضع من النظرية : انه يقول : (الحقيقة أن علم الجيولوجيا لا يحبونا بتلك السلسلة المنظومة من الصور العضوية ، والراجح أن يكون هذا الاعتراض أنكى ما يقوم فى وجه التطور) (٣)

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٥٦ ، ٢٥٧
(٢) ملقى السبيل ص ٢٥٧
(٣) ملقى السبيل ص ٢٥٨

أيمكن بعد أن ظهر تهافت هـذه النظرية فى ادعائها القيام على الأدلة التجريبيـة والمشاهدة الطبيعية أن يعترض أصحابها على نظرية الخلق المستقل بأن القول بالخلق المستقل لم يقم عليه دليل تجريبى أو مشاهدة طبيعية ؟ (١)

وهـل كان الاستناد الى الأدلة التجريبية الا دعوى أصحاب التطور ؟ • أليس أصحاب نظـرية الخلق المستقل بعيدين تماما عن هذا الادعاء) فكيف يحاسبون عليه ؟ بينما الذين يدعونه صفر اليدين منه ؟؟

وبالرغم من أنه من المقرر أن نظرية التطـور لم تستـند الى أدلة علم الحفريات الا بعد أن تصدى العلماء مثـل سكروب وليـل لنقد مذهب النكبات الا أنه من العجيب أننـا نجد أصحاب هذه النظرية يلجأون الى الاعتذار بالنـكبات عنـدما يواجهون بفقدان الحلقات المتوسطة•

يقول اسماعيل مظهر : (وخليق بنا أن لا نغفـل عن أن الاضـطرابات الأرضية والزلازل وطغيـان المـاء والأعاصير الطبيعية التى كانت تنتاب الأرض حينا بعـد حين ، وتحـول الأرض من يابس الى بحـر ، ومن بحـر الى يابسة ، كانت من أبلـغ تلك المؤثرات التى ذهبت ببقايا تلك العصـور ، فالعصـور التى غمرها البحر وقذف بها فى طياته لا يمكن معرفتها ، والبقاع التى صارت أرضا بعد أن كانت بحرا لا يوجد فيهـا صور جديرة باعتبار الباحثين ، اللهم الا بعض أصداف وبقايا الأسماك شائعة فى كثير من بقاع الأرض وهذا محض اعلان ــ غير مقصـود ــ لافتقاد الأدلة التى تحتـاج اليهـا النظرية فى باب الحفريات (٢) •

(٤) واذا كان النقد يوجـه الى هذه النظرية لفقدان الحلقـات المتوسطة ، فانه وجه اليها أيضـا لوجود « الصور الثابتة » •

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٦١

(٢) ملقى السبيل ص ٢٨١

لقد دلت مباحث الحفريات على أن كثيرا من المراتب الحيوانية قد ظلت غير متغايرة خلال أزمان مديدة من الأعصر الجيولوجية فأطلق عليها الباحثون اصطلاحا اسم « الصور الثابتة » .

وهذه الصور الثابتة بعضها « يستنفد قدرته على انتاج التنوعات والأنواع والأجناس حتى تضمحل وتأخذ طريقها الى الانقراض » .

« وكثير من الصور الثابتة قد احتفظت بكيانها الى عصرنا الحاضر، مقصورة فى البقاء على بقاع معينة .. قد حازت أكبر الكفاءات التى أهلتها للبقاء فى تلك البقاع » (١) .

ومن الواضح أن وجود هذه الصور الثابتة لا يتمشى بأية حال مع قوانين نظرية التطور ، اذ ليس فى هذه القوانين ما يجعلها تكف عن احداث التغيرات فى بعض الصور ، ويتركها مع ذلك قادرة على البقاء « عصرا برمته من العصور الجيولوجية » بينما « لا نلبث أن نرى فى أول العصر الذى يليه أنواعا برمتها أو أجناسا قد انقرضت من الوجود » .

وهذا ما دفع الأستاذ اسماعيل مظهر ــ بالرغم من ايمانه المطلق بنظرية داروين ــ الى القول :

(الحقيقة أن نشوء العضويات وتطورها كان ذا قفزات فجائية الى التغاير أو الثبات على صفة من الصفات .. خضوعا لسنن نجهل أكثرها الجهل كله ..) (٢) .

ومع ذلك فان الأستاذ اسماعيل مظهر يقول فى نقده لنظرية الخلق المستقل معتمدا على ما يثبته علم الحفريات :

(لو فرضنا مثلا أن الأنواع قد ظهرت طفرة أو خلقت ووضعت على سطح الأرض بين فترات زمان محدود مستقلة فى الخلق والنوعية لوجدت آثار الحيوانات العليا كذوات الثدى

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٤١ ، ٢٤٢

(٢) ملقى السبيل ص ٢٨١

مثلا فى طبقات العصر الجيولوجى الثانى ، أو الحيونات الفقارية فى طبقات العصر الجيولوجى الأول .

أما وقد دل البحث على أن كل طبقة من طبقات الأرض تختص بأنواع وصور مخالفة لما تختص به سابقتها أولاحقتها (١) كان ذلك دليلا على تدرج الوجود ، وعرفنا من جهة أخرى السبب فى أن كل طبقة من الطبقات تختص فى كل زمان بظهور أنواع معينة من النباتات والحيوانات تنسب اليها) (٢) .

وكلام الأستاذ اسماعيل مظهر ينطوى على مغالطتين :

أولاهما : قوله بأن نظرية الخلق المستقل تحتم القول بظهور الأنواع « بين فترات زمان محدود » ، وقد ارتكب هذه المغالطة لكى يجعل هذه النظرية تصطدم مع ما تدل عليه الحفريات — ان صحت — من أن الظهور كان على أزمان شديدة التطاول ..

ومن الواضح أن نظرية الخلق المستقل تصدق على كلا الحالين : أى سواء قلنا بالأزمنة القصيرة أم الطويلة .

ثانيتهما : قوله بأن نظرية التطور تقتصر على ما تدل عليه الحفريات وهو « التدرج فى الوجود » ، وقد ارتكب هذه المغالطة لكى يجعل من علم الحفريات حليفا لنظرية التطور، ومن الواضح أن نظرية التطور تقول بأكثر من ذلك ، انها تقول بأن الأنواع ظهر بعضها من بعض، وهذا هو — وحده — موضع الخلاف ، وهو مالا سبيل للحفريات الى أن تدل عليه .

---

(١) يفترض البحث الجيولوجى المتصل بالحفريات أن الاسماك واللافقاريات ظهرت فى العصر الجيولوجى الاول ، والزواحف فى الثانى ، والثدييات فى الثالث ، والقردة والانسان الاول فى الرابع . انظر ملقى السبيل ص ٢٥٠

(٢) ملقى السبيل ص ٢٥٣ ، ٢٥٤

٥ — وأثبت البحث العلمى الحديث خطأ نظرية التطور فى جوانب أخرى .. ونجد ذلك عندما يسمى بالداروينية الجديدة ، أو التركيبية الحديثة .

وقد استعمل اسم « الداروينية الجديدة » لأول مرة لآراء العالم الألمانى فايزمان، الذى نشر أبحاثه فى هذا الموضوع من عام ١٨٦٨ الى ١٨٧٦ م .

ثم اقترح بعض العلماء عدم استعمال هذه التسمية لتجنب الارتباك . فاستبدل بها اسم النظرية « التركيبية الحديثة » . وهى ليست من عمل عالم واحد ، كما أنها لم تنشأ فى صورة كاملة ، وانما تطورت ببطء خلال الأربعين عاما الأخيرة ومازالت حتى الآن تنمو فى اطراد .

ومن النتائج الهامة التى توصلت اليها الداروينية الحديثة :

١ — أن التطور لا يحدث بنفس السرعة فى الأنواع المختلفة من الكائنات الحية .

فالسلاحف — مثلا — ظلت بدون تغيير يذكر لمدة تقدر بحوالى ١٧٥ مليون سنة بينما نشأت ثم انقرضت عدة أنواع من الجنس البشرى فى أقل من نصف مليون سنة .

(ب) أن التطور يحدث فى بعض الأزمنة بسرعة أكبر من حدوثه فى أزمنة أخرى ، وذلك بالنسبة للنوع الواحد .

وتعليقنا على هاتين النقطتين أن نقول :

أنه لما كان ذلك لا يتفق مع حتمية قوانين التطور ، وأنه لما كان العلم لا يقدم تفسيره لذلك فأن الرجوع الى مبدأ الارادة الالهية يصبح هو التفسير الوحيد .

(جـ) أن التطور لا يكون دائما الى كائنات أكثر تعقيدا — وهى القاعدة الأساسية فى كل نظريات التطور — اذ توجد بعض الأمثلة لتطور ارتدادى .. فمثلا ، قد انحدرت معظم الطفيليات مثل الاسكارس والبلهارسيا من أسلاف كانت تعيش معيشة حرة ،

وأعضاؤها أكثر تعقيدا . وتعليقنا على ذلك أن فكرة التقدم والانتقال من البسيط الى المركب هى أساس لكل نظرية تحاول التملص من الاعتراف بوجود العناية الالهية ، وبانهدام هذه الفكرة ــ علميا ــ ينهار أساس النظرية .

(د) تذهب نظريات التطور الحديثة وعلى رأسها نظرية داروين الى أن الانسان تطور من مخلوق بدائى له سمات أقرب الى سمات القردة العليا .

وأن أقدم أصل للانسان ككائن منتصب القامة يرجع الى نحو مليون سنة فقط حيث يلتقى فى هذه الفترة بأصله المشار اليه .

لكن هناك اكتشافا أعلنه أخيرا الدكتور ريتشارد ليكى ــ مدير المتحف الوطنى فى كينيا فى نوفمبر ١٩٧٢ أمام الجمعية الجغرافية الوطنية . عن بقايا جمجمة بشرية يرجع تاريخها الى مليونين ونصف مليون سنة ، وعن عظام ساق ترجع الى تلك الحقبة ذاتها .

وهذا يدل على أن الكائن البشرى المنتصب القامة الذى يسير على ساقين اثنين كان معاصرا للسلالة الشبيهة بالقردة وليس منحدرا عنها .

يقول الدكتور أحمد أبو زيد (المهم من كل هذه الكشوف وغيرها هو أن علماء الانثروبولوجيا الفيزيقية يعيدون الآن تقديراتهم السابقة حول نشأة الانسان وظهوره ويردونها الى أحقاب أقدم بكثير مما كانوا يذهبون اليه فى الماضى . والمهم أيضا هو أن فكرة وجود نوع ما من علاقة القرابة بين الانسان والقردة العليا لا تزال تثير الجدل فى الأوساط العلمية على الرغم من ميل معظم العلماء الى قبولها) .

ثم يقول « هناك من العلماء من يرفض فكرة وجود أى صلة ولو بعيدة بين الانسان والقردة العليا ، ولقد عبر ذلك الموقف المتشكك ــ أو حتى الموقف الرافض ــ عن نفسه فى الاجتماع السنوى الأخير الذى عقدته الرابطة الأمريكية للأنثربولوجيا عام ١٩٧٦ فى واشنطن حيث دارت مناقشات طويلة وصاخبة

حول الفرع الجديد من العلوم الاجتماعية المسمى « البيولوجيا الاجتماعية » (١)

ويقول الدكتور كونانت عن داروين :

« ان تخيله للنشوء كيف حدث ويحدث قد تغير اليوم تغيرا يحمل المرء على أن يقول ان نظرية قديمة قد ذهبت وحل محلها شيء جديد .

ثم ان مسألة الحياة على هذه الأرض « كيف نشأت » مسألة لاتزال الى اليوم غامضة كغموضها عند داروين وفى أيامه (٢) .

ثانيا : وهكذا يتبين لنا أن نظرية النشوء والارتقاء لا تقوم على أساس من المشاهدة التجريبية وانما على أساس من الافتراضات الاعتقادية البحتة .

---

(١) أنظر مقالة مجلة عالم الفكر عدد أبريل ، ومايو ، يونيه سنة ١٩٧٧ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٢) مواقف حاسمة ص ٧٦

الخوانك والتكايا والرباطات

فى القاهرة الإسلامية

للأستاذ محمد كمال السيد

— ٥ —

غاز طبيعى فوق الصوة :

ذكرنا فى المقال السابق جامع وخانكاه منجك اليوسفى بشارع باب الوداع وهو امتداد سكة المحجر . وقلنا أن المقريزى ذكره ضمن الجوامع وقال أنه تحت قلعة الجبل خارج باب الوزير ويعرف موضعه بالثغرة .

كما ذكرنا المارستان المؤيدى وأن المقريزى قال أنه فوق الصوة تحت طبلخاناه قلعة الجبل . والصوة ما غلظ وارتفع من الأرض .

ويهمنا أن نذكر الخبر الآتى الذى ساقه الجبرتى فى تاريخه فى أواخر أخبار سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) وان كان بعيدا عن الموضوع ولكنه يستحق الذكر لما قد يكون له من أهمية فى الوقت الحاضر . قال الجبرتى :

(وفيها من الحوادث الغريبة أنه ظهر بالتل الكائن خارج رأس الصوة المعروفة الآن بالحطابة قبالة الباب المعروف بباب الوزير فى وهدة بين التلول نار كامنة بداخل الأتربة . واشتهر أمرها وشاع ذكرها . وزاد ظهورها فى أواخر هذه السنة . فيظهر من خلال التراب ثقب . ويخرج منها الدخان بروائح مختلفة كرائحة الخرق البالية وغير ذلك وكثر ترداد الناس للاطلاع عليها أفواجا نساءا ورجالا وأطفالا فيمشون عليها وحولها . ويجدون حرارتها تحت أرجلهم . فيحفرون قليلا فتظهر النار مثل نار الدمس . فيقربون منها الخرق والحلفاء ونحو ذلك فتدق النار فيها وتورى . ويصعد منها الدخان . وان غوصوا فيها خشية أو قصبة احترقت . ولما

شاع ذلك وأخبر بها كتخدابك نزل اليها (١) بجمع من أكابره وأتباعه وغيرهم . وشاهد ذلك . فأمر والى الشرطة بصب الماء عليها واهالة الأتربة من أعالى التل فوقها . وأحضروا السقائين وصبوا عليها بالقرب ماءا كثيرا وأهالوا عليها الأتربة . وبعد يومين صارت الناس المتجمعة والأطفال يحفرون تحت ذلك الماء المصبوب قليلا فتظهر النار ويظهر دخانها . فيقربون منها الخرق والحلفاء والبدكات فتورى وتدخن . واستمر الناس يفدون ويروحون للفرجة عليها نحو شهرين . وشاهدت ذلك من جملتهم . ثم بطل ذلك) اهـ .

ويفهم من وصف الجبرتى أن هذا الموقع خارج باب الوزير بالقرب من قبر طراباى الشريفى الذى ذكرناه فى المقال السابق .

سوق السلاح :

ذكرنا فى المقالين السابقين أن شارع الدرب الأحمر يمتد باسم شارع التبانة حتى الزاوية المعروفة باسم زاوية عارف باشا . ثم يتفرع الى فرعين متجهين الى جهة القلعة . الفرع الشرقى منهما باسم شارع باب الوزير ثم شارع المحجر ثم سكة المحجر . أما الفرع الغربى فاسمه شارع سوق السلاح ويصل الى الميدان الذى به جامعا السلطان حسن والرفاعى (راجع الخريطة الملحقة بالمقال الثالث) .

واسم سوق السلاح هذا اسم لسوق جدت بعد عهد المقريزى . فقد ذكر المقريزى سوق السلاح فى جهة بين القصرين من القاهرة الفاطمية . فلما انتقل مقر الحكم الى القلعة فى عهد الأيوبيين . وعمرت المنطقة بين القاهرة والقلعة بالمساكن .

---

(١) كتخدا معناها الوكيل وقد حرفتها العامة الى كيخيا . وكتخدا بك وكيل الباشا الوالى . وهى وظيفة قريبة من وظيفة رئيس الوزارة . وكان الباشا الوالى محمد على وكتخدابك كان محمد بك لاظ أوغلى المنسوب له التمثال بالميدان المعروف باسمه بجهة المالية والدواوين . وقول الجبرتى (نزل اليها يعنى من القلعة التى كانت مقرا للحكم .

بعد أن كانت مقابر للأموات . نشأت هناك سوق لصناعة وتجارة الأسلحة . وقد ذكرها الجبرتى فى تاريخه مرارا بهذا الاسم . وكانت مسرحا فى كثير من الأحيان للمصادمات التى كانت بين المماليك البكوات فى عهد الحكم العثمانى. والاسم باق للآن .

سويقة العزى :

وكانت منطقة سوق السلاح المذكورة تعرف فى عهد المقريزى بسويقة العزى . نسبة الى الأمير عز الدين أيبك العزى الذى كان نقيبا للجيوش فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون . واستشهد فى فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) .

وظل الاسم باقيا للآن .

وفى وصف على مبارك لشارع سويقة العزى نرى أن هذا الاسم فى وقته كان يطلق على شارع النبوية الحالى من عند جامع أصلم وعلى الجزء الأول من شارع سوق السلاح الحالى حتى حارة حلوات عند جامع الجائى اليوسفى .

وقد أوقع الفرنسيون فى خرائطهم للقاهرة (١٧٩٨ ــ ١٨٠١ م)شارع سوق السلاح بنفس وضعه الحالى تماما . وانما سموا جزءا منه فى أوله باسم درب التبانة والباقى باسم شارع سوق السلاح .

وشارع سوق السلاح ومنطقته غنيان بالآثار الاسلامية فى عهد السلاطين المماليك والعثمانيين . ويطول بنا الأمر لو تعرضنا لهذه الآثار ولكن نذكر منها أكثرها أهمية مما له علاقة بموضوع المقال جامع مدرسة الجائى اليوسفى أو جامع السايس .

ذكره المقريزى فى المدارس . وقال : هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل كان موضعها وما حولها مقبرة ويعرف الآن خطها بسويقة العزى . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجائى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ودرسا للفقهاء الحنفية وخزانة كتب وأقام بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة . وهى من المدارس المعتبرة الجليلة . اهـ .

والجامع على يسار المتجه بشارع سوق السلاح الى القلعة على رأس حارة حلوات وتدخل اليه من طرقة ملتوية تؤدى الى صحن سماوى يحيط به أربعة ايوانات وبصدر الداخل ايوان القبلة ويبدو وأنه سقط سقف هذا الايوان فرمم بعروق عادية من الخشب . وبالجامع قبر منشئه بأعلاه قبة . والمئذنة مملوكية رشيقة . ولا عمد بالجامع . وبدائره أبواب تؤدى الى غرف بالدورين الأعليين لخدمة الجامع .

والجائى اليوسفى كان من أمراء مصر فى عهد الأشرف شعبان بن الأمير حسين بن الناصر محمد بن قلاوون الذى عينه أتابك العساكر . وتزوج الجائى من خوند بركة أم السلطان الأشرف صاحبة جامع أم السلطان بالتبانة الذى سبق ذكره فى المقال الثالث . فعظم قدره واشتهر ذكره وتحكم فى شؤون الدولة تحكما زائدا . فلما توفيت خوند بركة فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٧٧٤ هـ اختلف مع ابنها فى ميراثها فخرج بمماليكه يريد محاربة السلطان . وخرج له السلطان بعساكره . وتحاربا خارج القاهرة . فانكسر الجائى وهرب والعسكر وراءه حتى ضاقت به الطرق فألقى بنفسه فى النيل بالقرب من قليوب فمات غريقا فى ٩ المحرم سنة ٧٧٥ . ونجا الجواد . فأخرجوا جثته . ودفن فى جامعه هذا .

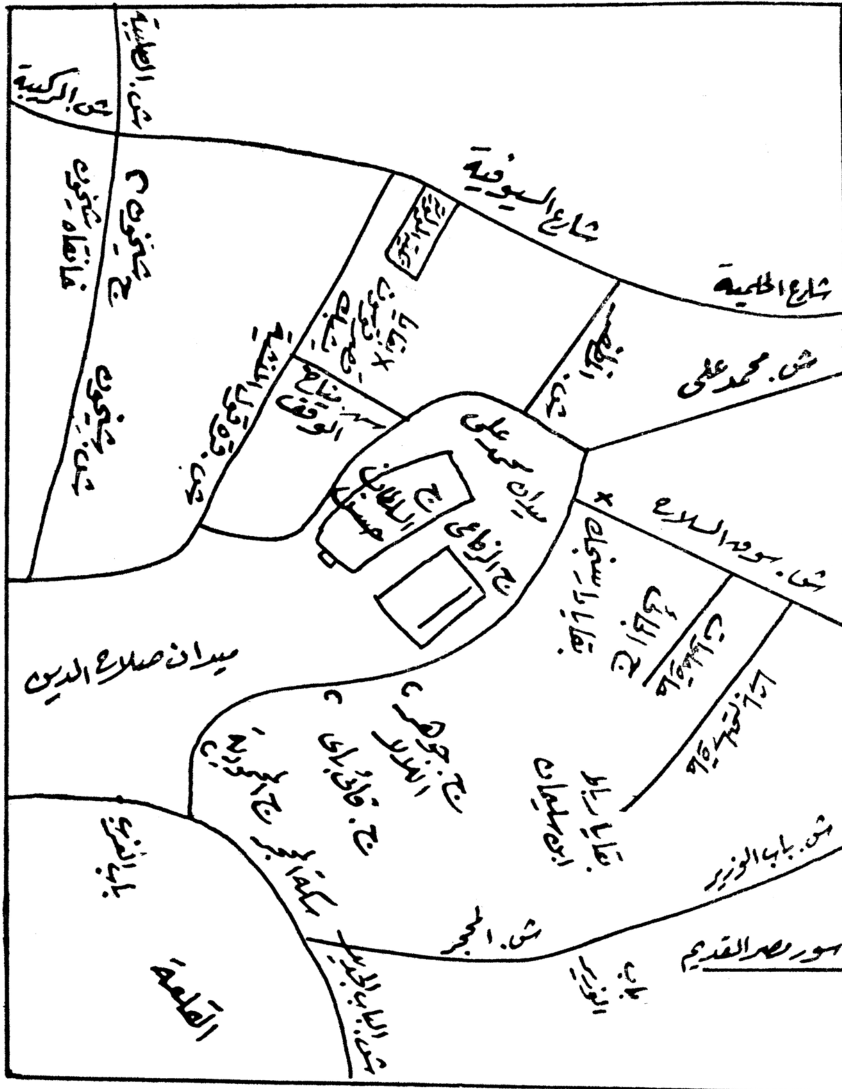
وكان ظالما قاسيا جبارا . وقد ذكرنا فى المقال المذكور أنه من المصادفات ما قاله أحد الشعراء :

فى ثامن العشرين من ذى قعدة
كانت صبيحة موت أم الأشرف
فالله يرحمها ويعظم أجره
ويكون فى عاشوراء موت اليوسفى

ويعرف الجامع المذكور أيضا باسم جامع السايس . لأن الأمير علاء الدين على بن أحمد الطيبرسى الشهير بالسايس تولى نظارة هذه المدرسة والجامع بعد وفاة الجائى اليوسفى .

وذكر على باشا مبارك أنه برأس الحارة (يعنى حارة حلوات) عمود يضرب الى الزرقة طوله متران تقريبا

رسم كروكى
عن جزء من سوق السلاح وميدان صلاح الدين



وهو من توابع جامع السايس وفوقه مكتب عامر بالأطفال . وقال أنه فى عهد محمد على راجت اشاعة بأن من يدهن هذا العمود بماء الليمون ويلحسه بلسانه ويكرر اللحس حتى يخرج دم أسود من لسانه فاذا استعمل ذلك ثلاث مرات شفى من داء اليرقان وغيره من الأمراض الباطنية . فأقبل الناس على ذلك . واستمروا حتى عهد عباس حلمى الأول . فمنعوا عنه الناس . وغطوا العمود بطبقة من الجبس . ثم تحايل بعض خدمة الجامع فكشفوا جزءا من أسفله وعملوا عليه دولابا على قدر القامة له باب لا يفتح الا بدراهم . وقال على مبارك أن هذا ظل جاريا حتى عهده فى أواخر القرن الماضى .

وبعد وفاة الجائى اليوسفى تولى أتابكية العساكر ايدمر نائب طرابلس الذى توفى بعد مدة يسيرة فخلفه منجك اليوسفى صاحب الجامع خارج باب الوزير وسبق ذكره والذى توفى سنة ٧٧٦ هـ .

دار منجك اليوسفى :

وكانت دار منجك عند نهاية شارع سوق السلاح من جهة الميدان . وقد اندثرت ولم يبق منها الا بضعة عقود على الشارع .

رباط ابن سليمان :

ذكره المقريزى وقال أنه خارج باب زويلة بحارة الهلالية وأنه عرف بأحمد بن سليمان الرفاعى شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر . وكان عبدا صالحا له قبول عظيم من أمراء الدولة وغيرهم . وينتمى اليه كثيرون من الفقراء الصوفية . وروى الحديث عن سبط السلفى ، وحدث وكانت وفاته ليلة الاثنين ٦ ذى الحجة ٦٩١ هـ بهذا الرواق (نوفمبر سنة ١٢٩١م)

وأخطأ المرحوم على باشا مبارك أن ذكر أن هذا الرباط بدرب الأغوات بالسروجية . وقال أن مكانه الزاوية الصغيرة المعروفة بزاوية الشيخ القيسونى وآخر يقال له الشيخ عبد الله .

والزاوية التى ذكرها على مبارك موجودة للآن . ودرب الأغوات

متفرع من شارع المغربلين أحد أجزاء امتداد شارع المعز لدين الله على يمين الخارج من باب زويلة .

وقد ذكرنا فى مقال سابق فى سلسلة مقالات (صفحات من تاريخ القاهرة ١٠ عدد المحرم سنة ١٣٩٦) الحارات التى استجدت خارج باب زويلة على جانبى امتداد الشارع الأعظم . وقلنا أنه على يسار الخارج من باب زويلة نشأت حارة البانسية . ثم جنوبا منها حارة المصامدة . ثم جنوبا فى المصامدة حارة الهلالية ، أما على يمين الخارج من باب زويلة فقد استجدت حارة السودان أو المنصورية ثم حارة المنتجبية . ثم حارة حلب التى ضاع جزء منها عند فتح شارع محمد على (القلعة حاليا) .

فدرب الأغوات المذكور اما أنه من حقوق حارة المنتجبية أو حارة حلب . وليس من حارة الهلالية . والدليل على ذلك أن على مبارك نفسه عندما تكلم عن درب الأغوات (الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٣٨) قال أن هذه الحارة هى التى عبر عنها المقريزى بحارة المنتجبية . كما أنه عند الكلام فى حارة الدالى حسين (جـ ٢ ص ٣٥) — وهى متفرعة من امتداد الشارع الاعظم على يسار الخارج من باب زويلة وتقابل تقريبا درب الأغوات — قال أنه يعتقد أن حارة الدالى حسين هى حارة الهلالية التى ذكرها المقريزى .

ويظهر أن حارة الهلالية كانت ممتدة الى قرب موقع الرباط المذكور الموجود بقاياه فى نهاية حارة سليم باشا المتفرعة من شارع سوق السلاح .

وقد ذكر على مبارك موقع هذا الرباط (جـ ٢ ص ١٠٥) أن بآخره حارة سليم باشا زاوية الرفاعيين ويقال لها الزاوية البيضاء شعائرها معطلة لتخربها وبداخلها ضريح الشيخ أحمد الحريرى ونظارتها للسيد محمد ياسين شيخ الطريقة الرفاعية .

وذكر المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب بقايا هذا الرباط فى كتابه

(جامع السلطان حسن وما حوله) وقال أنه أثر نفيس مستتر وقال أن القبة على بساطة مظهرها من الخارج ولكن رائيها من الداخل ينبهر بزخارفها وألوانها ونوادر الصناعة فيها وتنوع الخط ما بين نسخ وكوفى .. الخ

وبكل أسف قد سقط أخيرا منزل بجوار الرباط فهدم كثيرا من بقاياه وتصدعت القبة ويحتاج المكان لأسعاف عاجل قبل أن يتلاشى نهائيا .

تكية السليمانية :

وقبل أن ننتقل من هذه الجهة نذكر تكية السليمانية .. لتشابه الاسم مع صاحب الرباط السابق ذكره — وهى فى شارع السروجية أحد أجزاء امتداد الشارع الأعظم . قبل تقاطعه مع شارع محمد على عند الحلمية بقليل . على يسار المتجه الى جهة الحلمية والصليبية . فقال عنها على مبارك (جـ ٦ ص ٥٦) أنه عمرها الأمير سليمان باشا سنة ٩٢٠ هـ . وكان أصلها مدرسة باسم مدرسة سليمان باشا ثم صارت تكية وبها خلاوى للدراويش القادرية (أتباع السيد عبد القادر الجيلى أو الجيلانى) .

ونلاحظ على هذا التاريخ أن رتبة الباشا لم تعرف فى مصر الا بعد دخول العثمانيين سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧ م) . وكانت تطلق على الوالى العثمانى . وأن أول الولاة العثمانيين بهذا الاسم كان سليمان باشا الخصى تولى من سنة ٩٣١ — سنة ٩٤١ هـ . ثم من سنة ٩٤٣ — سنة ٩٤٥ هـ .

ميدان صلاح الدين ـ محمد على :

قد تعاقبت الاسماء التاريخية على هذا الموقع . فعرف أولا بالرميلة حيث أنشأ أحمد بن طولون (٢٥٤ــ ٢٦٩ هـ) قصره العظيم بالقرب من جامعه الملحقين بمدينة القطائع . ثم عرف بسوق الخيل . ثم عرف بالمنشية وقره ميدان حيث كان هناك السجن المشهور بهذا الاسم . وعرف جزء منه بميدان محمد على حيث ينتهى شارعا محمد على وسوق السلاح . ثم عرف أخيرا بميدان

صلاح الدين الذى بدىء فى انشاء القلعة فى عهده . ونحن تتكلم هنا عن هذا الجزء من الميدان الذى كان يسمى ميدان محمد على .

ويحتوى ميدان محمد على على مجموعة من تحف العمارة الاسلامية فبوسطه جامعا السلطان حسن والرفاعى . وبدائره جامع جوهر اللالا وجامع ومدرسة قانى باى الرماح وبقايا قصر منجك اليوسفى السابق ذكره . وبالقرب منه بقايا قصر قوصون صاحب الخانكاه التى ذكرناها فى المقال السابق . والذى آل الى يشبك بن مهدى الدوادار ثم من بعده الى اقبردى الدوادار الذى صرفت العامة اسمه الى بردق حيث أطلقوا اسم حوش بردق على مجاورات موقع القصر . وسنتناول كلا مما ذكر بكلمة موجزة . ولو أنها ليست من الخوانك ولكن بعضها جمع بين الجامع والمدرسة . وفى أوقافها ماقد يربطها بالخوانك برابط الصدقة الجارية . فالخوانك صدقتها جارية على المنقطعين للعبادة والمدارس فى مقرراتها صدقة جارية على المنقطعين للعلم والدراسة .

جامع ومدرسة السلطان حسن :

قال عنه المؤرخون أنه أكبر معبد فى الاسلام . ووصفه المقريزى بقوله : فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع . وقبته لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها . وقال : وفى هذا الجامع عجائب من البنيان منها أن ذرع ايوانه الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها . ويقال أنه أكبر من ايوان كسرى الذى بالمدائن بخمسة أذرع ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له . ومنها البوابة العظيمة . ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع وغير ذلك . وقال : واستمر العمل فيه ثلاث سنوات بدون انقطاع مصروفها كل يوم عشرون ألف درهم وقال : وبلغه أن السلطان حسن قال لولا أن يقال أن ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ماصرف عليه .

وذكر لنا المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب طائفة من أقوال بعض المؤرخين . فنقل عن ايبرس : (ان كل ما تراه فى هذا الجامع مركب فى مكانه تركيبا هائلا منسجما . فاذا أمعنت النظر فى زخارف ايوان القبلة وقبة القبر جزءا جزءا أحسست احساس الرضا . فهناك ثروة فنية وأشكال رشيقة بارعة) .

ونقل عن جومار فى كتاب وصف مصر (أنه من أجمل مبانى القاهرة والاسلام ويستحق أن يكون فى المرتبة الأولى من مراتب العمارة العربية بفضل قبته العالية وارتفاع مئذنتيه وعظم اتساعه وفخامته وكثرة زخارفه التى تكسو الأرضية والجدران فى أوضاع بسيطة خاصة بهذه العمارة . كما أن محاشى الخشب والبرونز التى تكسو الأبواب الخشبية والنحاسية محفورة حفرا فنيا) .

ونقل عن المصور لينوار : ان جامع السلطان حسن يشرف على القاهرة كلها . وأسلوب بنائه من أرقى الأساليب المعمارية . ومساحته عظيمة ولذا يعد أجمل جامع فى الشرق كله بلا نزاع .

ونقل عن الورتيلانى الرحالة المغربى الذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م) : (انه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد فى فخامة البناء ونباهته وارتفاعه واحكامه واتساع حناياه وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح فى أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل فى شواهق الجبال) . اهـ

والسلطان حسن منشىء هذا الجامع هو الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، تولى السلطنة وكان ترتيبه السابع من اخوته الذين تولوا الحكم بعد أبيهم الناصر محمد بن قلاوون . وكانت سلطنته الأولى من سنة ٧٤٨ ـ سنة ٧٥٢ هـ وخلع . وتولى بعده أخوه الصالح صلاح الدين صالح . الذى خلع سنة ٧٥٥ هـ وأعيد السلطان حسن حيث استمر فى الحكم حتى قتل سنة ٧٦٢ كما هو الارجح . فلم يعرف كيف ومتى قتل . ولم يظهر لجثته

أثر بعد أن كان مقررا أن تدفن فى الجامع المذكور . وكان هذا فى الاسرار التى احتفظ بكتمانها التاريخ .

وكان محل الجامع المذكور قصر هائل أنشأه الناصر محمد بن قلاوون ليلبغا اليحيارى أحد أمراء دولته والمقربين اليه . فهدمه الناصر حسن وأنشأ مكانه جامعه ومدرسته للمذاهب الأربعة .

وبدأ العمل فيه سنة ٧٥٧ هـ . ويفهم من تقدير المقريزى أن الاعمال الاساسية قد تمت سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وافتتح الجامع والمدرسة فى حياة الناصر حسن . وبعد وفاته أتم الطواشى بشير الجمدار (١) الأعمال التكميلية لغاية سنة ٧٦٤هـ .

وكان فى تصميم الجامع انشاء أربع مآذن . أنشىء منها ثلاث . ثم سقطت احداها التى فوق الباب فى ٦ ربيع الآخر سنة ٧٦٢ فهلك تحتها نحو الثلثمائة نفس من الايتام الذين كانوا رتبوا بمكتب السبيل هناك . فتشاءم السلطان ومنع تجديدها . وألغى المئذنة الرابعة . ولهجت الالسن بأن هذا نذير شؤم على السلطان . وفعلا صادف أنه قتل بعد ٣٢ يوما من سقوط هذه المئذنة .

ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل البراعة الهندسية فى عمارته . أو الذوق الرفيع فى زخارفه الفنية من نقوش وكتابة ونجارة وقيشانى ورخام ونحاس مشغول ومحاريب وغير ذلك . فهذا يطول شرحه ويخرجنا من موضوع المقال . ولن يغنى الوصف عن مشاهدة هذه التحفة الفنية المجيدة من العمارة الاسلامية . وقد أسهب فى وصفه المرحوم حسن عبد الوهاب فى كتابه المذكور كما ذكره المرحوم على مبارك تفصيلا فى خططه . ونكتفى أن نذكر أن مساحة الجامع والمدرسة ٧٩٠٦ م.م. أى أقل قليلا من فدانين وارتفاع قبته ٤٨ مترا . وارتفاع مئذنته القبلية ٨١٫٦٠ متر عن صحن

(١) الجمدار هو من يتولى مباشرة ملابس السلطان .

الجامع . أما البحرية ــ التى تقابل جامع الرفاعى ــ فقد سقطت سنة ١٠٧٠ هـ (سنة ١٦٦٠ هـ) . وجددها الوالى العثمانى ابراهيم باشا كتخدا سنة ١٠٨٢ هـ (تولى الولاية من شعبان سنة ١٠٨٠ ــ صفر سنة ١٠٨٤ هـ) .

وفى وقت الاضطرابات والفتن فى دولتى السلاطين المماليك . استعمل الجامع لارتفاعه مقابلا للقلعة فكان يرمى من سطحه عليها ، فأزيل الدرج وسد الباب الذى كان يؤدى الى السطح ، واشترى المؤيد شيخ (٨١٥ ــ ٨٢٤ هـ) هذا الباب والتنور النحاس الذى كان معلقا هناك بخمسمائة دينار ونقلهما الى مسجده على يسار الداخل من باب زويلة سنة ٨١٩ هـ ثم فى سنة ٨٢٥ أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان . وأعيد بناء الدرج والبسطة. وركب باب آخر بدلا من الباب الذى أخذه المؤيد شيخ .

وقد تولت لجنة حفظ الآثار العربية فى مطلع القرن الحاضر العناية بهذا الأثر النفيس فرممت جدرانه وجددت بهاء النقوش والنجارة والرخام حتى عاد للجامع رونقه .

ونحن نعالج هذا الاثر الاسلامى الجليل . لا من الناحية المعمارية الهندسية الفنية . ولكن من الناحية الانسانية . ففى أوقافه التى أوقفها منشئه والتى تزيد عن ١٥٠٠٠ فدان من أجود الاراضى . لمسات من الخير والصدقة الجارية وتشجيع العلوم . فننقل للقارىء بالارقام بعض مصارف هذه الاوقاف على الجامع والمدرسة . وهى تكفى لرسم صورة من تفكير ذلك العصر ومن سخاء الواقف قياسا على أسعار وقته ومن تفصيل الخدمة فى الجامع والمدرسة وهو صورة أيضا من تقويم الوظائف المختلفة . فنرى مثلا الفرق الكبير بين شيوخ العلم وبين الاطباء .وغير ذلك .

فجعل فى كل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب على أربع فرق . كل فرقة ٢٥ طالبا وبها ثلاثة معيدين . وقرر المصارف الآتية :

٣٠٠ درهم شهريا لكل شيخ من شيوخ المدارس الاربع .

١٠٠ درهم شهريا لكل معيد (٤٨ معيدا) .

٤٢٥٠ درهم شهريا لطلبة كل مذهب (١٠٠ طالب) ويزاد ٢٠درهم شهريا لأحدهم نقيب عليهم و ١٠ دراهم شهريا لأحدهم ليدعو للواقف بعد القراءة .

٣٠٠ درهم شهريا لمدرس تفسير القرآن .

٣٠٠ درهم شهريا لثلاثين طالبا مع المدرس المذكور ويزاد ١٠ دراهم لأحدهم لاثبات الحضور والغياب . ولآخر مثلها ليكون داعيا .

٣٠٠ درهم شهريا لمدرس الحديث الشريف .

٣٠٠ درهم شهريا لثلاثين طالبا معه ويزاد ١٠ دراهم لأحدهم لاثبات الحضور والغياب . ولآخر مثلها ليكون داعيا .

٣٠٠ درهم شهريا لشيخ متصدر عالم بالفتوى يجلس بالايوان القبلى أربعة أيام فى الاسبوع .

٤٠ درهم شهريا لمقرىء يحضر مع الشيخ المذكور .

٤٠ درهم شهريا لمادح يمدح رسول الله (ص) بالمسجد بعد الفراغ من التلاوة ثم يدعو للسلطان

١٥٠ درهم شهريا لشيخ حافظ بالقراءات السبع يجلس كل يوم بالايوان القبلى بعد صلاة الصبح.

١٥٠ درهم شهريا لشيخ حافظ لتلقين القرآن بالايوان القبلى .

١٠٠ درهم شهريا لامام بالايوان الكبير .

٦٠ درهم شهريا لأربعة أئمة بالمدارس الأربع . ويزاد ٤٠ درهما لكل منهم فى شهر رمضان .

١٠٠ درهم شهريا لاثنين ميقاتيين عالمين بالمواقيت . ويزاد لكل منهم ١٦ درهما فى رمضان .

١٠٠٠ درهم شهريا لـ ٣٢ مؤذنا حسنى الأسواط . ويزاد لكل منهم ١٠ دراهم فى شهر رمضان .

١٠٥٠ درهم شهريا لـ ٣٠ قارئا بالقبة نهارا .

١٣٥٠ درهم شهريا لـ ٣٠ قارئا بالقبة ليلا .

٨٠ درهم شهريا لنقيبين لاثبات حضور القراء ليلا ونهارا .

١٠٠ درهم شهريا لقارئين يقرآن القرآن بالايوان القبلى .

٣٠ درهم شهريا لحامل المصحف يضعه على الكرسى بعد صلاة الصبح وقبل صلاة الجمعة . ثم يعيده الى موضعه .

١٠٠ درهم شهريا لخازن كتب الوقف .

١٥٠٠ درهم شهريا لعشرة خدمة لحفظ القبة وصيانتها من أهل الفساد .

٢٠٠ درهم شهريا لاثنين لخدمة المزملة (مايبرد فيه الماء) وحفظ أوانيها وملء الكيزان وسقى من يرد اليها .

٣٦٠ درهم شهريا لتسعة فراشين اثنين للقبة وثلاثة للجامع وواحد لكل مدرسة . ويعملون يوما بعد يوم .

٣٦٠ درهم شهريا لتسعة فراشين يتناوبون العمل مع من ذكروا .

١٠٠ درهم شهريا لرئيسين على الفراشين المذكورين .

٢٤٠ درهم شهريا لستة بوابين لحفظ الأبواب وفتحها وغلقها .

٣٠٠ درهم شهريا لمائة يتيم نفقة وكسوة فى مكتبين كل مكتب مائة يتيم .

٦٠ درهم شهريا لمؤدب لكل من مكتبى الأيتام .

٤٠ درهم شهريا لعريف لكل من مكتبى الأيتام .

٥٠ درهم لكل يتيم حفظ القرآن. ويصرف مثلها للمؤدب .. ومن أتم حفظ القرآن من الأيتام يستبدل بغيره .

١٢٠ درهم شهريا لطبيبين مسلمين يحضران يوميا لعلاج أرباب الوظائف والطلبة أحدهما طبيب أبدان والآخر عارف بصناعة الكحل (طبيب عيون).

٤٠ درهم شهريا لجراح يحضر مع الطبيبين المذكورين .

١٠٠٠ درهم شهريا لناظر الوقف .

٤٠٠ درهم شهريا لمتولى استيفاء حساب الوقف .

٣٠٠ درهم شـهريا لشـاهدين يضبطان ما يرد من ريع الوقف .

١٥٠ درهم شهريا لكاتب حسابات الوقف .

٢٠٠ درهم شهريا لمباشر تحصيل أموال الوقف .

١٠٠ درهم شهريا لأمين يتـولى حفظ وصرف المرتبات فى آخر كل شهر .

١٠٠ درهم شهريا لصراف مسلم دين .

٤٠ درهم شهريا لسطوحى يتولى حفظ الأسطحة .

٤٠٠ درهم شهريا لعشرة يتولون كنس المراحيض والطرقات والرش أمام الجامع .

وقرر أن يصرف بحسب الحاجة على سقاية المزملة والسبيل والمكتب وما يحتاج اليه أرباب الوظائف ونقل المـاء العذب والأسفنج وغـيره .

وقرر كمية وافرة من الشمع الأبيض المشغول على القطن المفتول لمحراب القبلة ومحراب الايوان القبلى الكبير للوقود فى صلاة الصبح والعشـاء والتروايح فى شهر رمضان . وقرر بحسب الحاجة مايلزم لحفظ وتجديد أثاث الجـامع من حصر وبسـط وقناديل وسلاسل وأسطال ومكانس وزيت الوقود ولوازم ليـلة نصف شعبان وختم رمضان .

وفى كل ليلة جمعة يصرف خمسة قناطير من لحـم الضـأن وعشرون قنطارا من الخبز غير الأرز والعسل والحبـوب وحب الرمان والدهن والحطب وأجرة من يتولى طبخ ذلك ويصرف النصف لأرباب الوظائف بالمسجد والنصف يوزع على الفقراء والمساكين .

ويشترى فى أول كل سنة مايكفى من زيت الزيتون أو ما يقوم مقامه .

ويوزع فى شهر رمضان ٢٣ قنطارا من السـكر عـلى أرباب الوظائف بحسب درجات مقرراتهم المذكورة .

وفى عاشوراء يصرف ٤٠ قنطـارا من الخبز و١٠ قناطير من لحم الضأن

وأردبين من الحبوب التى تعمل فى عاشــوراء و ٤ قناطير من العســل و ٢٠ قنطارا من الســيرج وقيمــة الأبازير والحطب وأجرة الطبــخ • ويصرف نصفها على أرباب الوظائف والنصف على الفقراء والمساكين •

وفى كل يوم من رمضان يصرف ١٠ قناطير من اللحم و ٤٠ قنطــارا من الخبــز غــير الأرز والعســل والحبوب ولوازم المطبخ وأجــرة الطبخ • ويوزع ذلك مناصــفة بين موظفى المســجد وبين الفقــراء والمساكين •

وفى عيد الأضــحى يصرف ثمن رأسين من الأبل وعشرين رأسا من البقر وعشر رؤوس من الضأن تذبح وتفرق مناصفة كما ذكر •

وكل سنة يصرف ثمن ألف قميص وألف طاقيــة وألف مداس تفــرق مناصفة أيضا •

واذا فضل شىء من ريع الوقف بعد المصارف المذكورة يحفظ تحت يد النــاظر حتى يتكون مائة ألف درهم تظل رصيدا دائما لمصــاريف الجامع • فاذا زاد الريع عن ذلك تشترى بالزائد أرض تضم لأوقاف الجامع • على أنه اذا كان الجــامع غير محتاج لهــذا الوقف الجــديد فيصرف ريعــه فى وجــوه البر من خــلاص المســجونين • ووفاء دين المدينين • وفك أسرى المأسورين • واعانة فى تأدية فريضــة الحــج • وتجهيز فقراء أموات المســلمين • ومداواة المرضى • واطعام الطعام •

جامع الرفاعى :

ويقابل جامــع الســلطان حسن جامع الرفاعى • وهو لا يضــاهى جامع السلطان حسن ضــخامة وان كان يساويه ارتفاعا تقريبا • ولكن به أناقــة وفــن وربمــا كــان لمجاورته للجــامع الأكبر ما أوحى لمهندسه أن يبذل قصارى جهدهحتى لايكون قزما بجــوار هــذا الطود الشامخ •

وهو مجرد جامع للعبادة ويمتاز أن به مدفن لبعض أفــراد الأسرة المالكة السابقة •

وكان من ضمن مكان الجامع زاوية للرفاعيين أتباع الطريقة الرفاعية وتعرف بالزاوية البيضاء • وذكر هذا على باشا مبارك تابعه المرحوم حسن عبد الوهاب • ولكن نلاحظ أن على مبارك ذكر هذا أيضا على موقع رباط أحمد بن سليمان السابق ذكره • ونعتقد أنه اختلط عليه الأمر لنسبة الرباط الى أحمد بن سليمان الرفاعى • وأن زاوية الرفاعى هى محل هذا الجامع• ومدفون بها الشيخ على أبو شباك والشيخ يحيى الأنصارى وطائفة من أتباع الطريقة الرفاعية • والشيخ على أبو شباك من نسل السيد أحمد الرفاعى الكبير المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ومدفون بقرية أم عبيد من قرى العراق والذى يعتبر أحد الأقطاب الأربعة عند عامة الصوفية كما ذكرنا فى المقال الأول من هذه السلسلة •

وكان مكان زاوية الرفاعى هذه مسجد فاطمى ذكره المقريزى باسم مسجد الذخيرة • أنشأه ذخيرة الملك متولى الحسبة فى القاهرة سنة ٥١٦ هـ وعرفته العامة باسم مسجد (لا بالله) لأنه كان يقبض على الناس فى الطريق فيستحلفونه (لا بالله) أن يتركهم فيرفض ويسخرهم فى العمل بالمسجد بدون أجر • وكتب بعض الناس على مسجد الذخيرة هذين البيتين المشهورين :

بنى مسجدا لله من غير حله
وكان بحمد الله غير موفق

كمطعمة الأيتام من كد فرجها
لك الويل لا تزنى ولا تتصدق

وقال المقريزى : وابتلى الله ذخيرة الملك هذا بالأمراض الخارجة عن المعتاد • وذكر عنه فى حالتى غسله وحلوله بقبره ما يعيذ الله كل مسلم • وتجنب الناس تشييعه والصلاة عليه •

وأمرت خوشيار هانم والدة الخديوى اسماعيل سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) بانشاء مسجد فى هذا المكان على أن يلحق بالمسجد مدافن لها ولأسرتها وقبتان للشيخين على أبى شباك ويحى الأنصارى من ضمن من كانوا مدفونين بزاوية الرفاعى المذكورة •

فاشتريت الأرض المجاورة للزاوية حتى بلغت مساحة المسجد ٦٥٠٠م م تقريبا . وبدىء العمل فيه ثم أوقف سنة ١٨٨٠ م . لكثرة النفقات وحالة مصر وقتذاك . وتوفيت خوشيار هانم سنة ١٨٨٥ . فاستمر العمل موقوفا حتى أوائل القرن الحاضر . فأعيد العمل وانتفع بما كان مخزونا من أدواته . وافتتح للصلاة فى غرة المحرم سنة ١٣٣٠ هـ (٢٢ ديسمبر سنة ١٩١١) وكان يوم جمعة .

وظل اسم الرفاعى علما على المسجد .

ولا نطيل فى وصف المسجد . وانما نقول اجمالا أنه آية من روائع الفن الاسلامى الحديث . سواء فى ارتفاع قبابه وسقوفه أو الدعامات الهائلة من الحجر يحيط بكل دعامة أربعة عمد من الرخام ووزراته الرخامية الملونة والمشغولة بتقاسيم هندسية وأثاثه وسجاجيده ونجارته ونقوشه وغير ذلك من البدائع الفنية .

وفى مواجهة الداخل من الباب المقابل لجامع السلطان حسن تجد ضريح الشيخ على أبى شباك وفوقه قبة شاهقة الارتفاع تساوى ارتفاع المسجد ويحيط بالضريح دائر من الخشب الثمين المشغول . وفوقه ثريا من الكريستال الفاخر . أما ضريح الشيخ يحيى الأنصارى فبعد قليل من يمين الداخل .

وعلى يسار الداخل حاجز من الخشب المشغول يفصل جزءا عن باقى الجامع . وبهذا الجزء ضريح الملك السابق أحمد فؤاد الأول وابنه فاروق فى ضريح واحد . وضريح فريال هانم والدة أحمد فؤاد . وعلى الضريحين تركيبتان من الرخام بأدق صنعة .

أما باقى المقابر فهى فى الناحية الأخرى من الجامع ولها باب خارجى مستقل فضلا عن أبواب تصلها بالجامع . ومدفون بها الخديوى اسماعيل ووالدته خوشيار هانم منشئة الجامع . والسلطان حسين كامل وزوجته السلطانة ملك .

والأميران ابراهيم حلمى وعلى جمال الدين من أبناء اسماعيل • والأميرتان توحيدة وزينب من بنات اسماعيل • وثلاث من زوجات اسماعيل • وعلى كل قبر تركية من الرخام يبدو فيها الفن الجميل والذوق الرفيع •

ولاحظت وجود صليب فى نقوش التركيبة الوسطى من أضرحة زوجات اسماعيل • لأنها كانت ايطالية • ويبدو أأنها لم تعتنق الاسلام ! ؟ •

والمسجد بنقوشه وزخارفه وأبهته جدير بالمشاهدة •

جامع ومدرسة قانى باى امير اخور الرماح :

ذكره على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية باسم قايتباى بالتاء • وذكره المرحوم حسن عبد الوهاب باسم قاينباى بتقديم الياء عن النون • وذكره ابن اياس فى بدائع الزهور باسم قانى باى • وهكذا الاسم منقوش بالجامع •

وقانى باى كان من مماليك الأشرف قايتباى • (٨٧٢ ــ ٩٠١ هـ) • وأعتقه • فتدرج فى الوظائف حتى وصل الى رتبة أمير أخور كبير سنة ٩٠٣ هـ • وقد ذكرنا فى مقال سابق أن هذه الوظيفة كانت من الوظائف الكبرى يتولى صاحبها الأشراف على الاسطبلات السلطانية بما فيها من خيل وبغال وجمال وغيرها •

وظل فى وظيفته حتى توفى سنة ٩٢١ هـ • أى قبل دخول العثمانيين بسنة • فلعله آخر الجوامع والمدارس التى أنشئت فى عهد السلاطين المماليك • ودفن بجامعه هذا •

وكان ظالما جبارا يأكل الحقوق ويجور على الناس • وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية ولعب الرمح • ولذلك كان يلقب بالرماح • ومن قسوته أن السلطان أرسله مرة الى جهة الشرقية بسبب فساد العربان هناك فكان اذا ظفر بأحدهم يسلخه من رأسه الى قدميه • وقال عنه ابن اياس : وقد أراح الله منه • وقال فيه كعادته بيتين من الشعر :

جهنم منذ قالت
لقانى باى خذ حذارك

قـد زاد نـيران وجـدى
من كثـرتى لاتنظـارك

وقال على مبارك (حـ ٢ ص١٠٤) أنه كان بهذا الجامع حجر عتبا لأحد الشـبابيك عليه كتـابة هيروغليفية وطوله ٢ × ٤٠ر × ٣٠ر وأخـذه الفرنسيون أثناء وجودهم بمصر •

متر سنتى سنتى

وهو من المساجد المعلقة يرتفع عن أرض الميدان بعدة أمتار تصعد اليها بمرتقى ثم بعدد من الدرجات وتدخل الى الجامع من طرقة ملتوية تصـل بك الى صـحن سـماوى • وعلى اليمين ايوان القبلة • وعلى اليسار ايوان آخر • ومئـذنة الجامع من ذوات الرؤوس المزدوجة وهوالطراز الذى انتشر فى أواخر عهد السلاطين المماليك •

ولقانى باى مسجد آخر غير هذا بحى الناصرية •

وتسكن المسجد حاليا احـدى العائلات نتيجة لازمة المساكن •

جامع جوهر اللالا :

وبالقرب منه جامع جوهر اللالا (راجع الخريطة) وذكره على مبارك حـ ٢ ص ١٠٤ وجـ ٤ ص ٧٦ وقال أن وقفيته تاريخها سـنة ٨٣٣ هـ • وأن جوهر اللالا توفى سنة ٨٤٢هـ• وكان بجوار الجامع حمام قد زال •

واللالا وظيفة الطواشى الذى كان يباشر تربية أولاد السلطان • فكان السلطان يرعاه بعطفه • واذا تولى أحد الأولاد السلطنة حفظ له حق التربية وقدمه فى المناصب •

وكان جوهر هـذا مربيا لأولاد الأشرف برسباى (٨٢٥ـ٨٤١ هـ)• واختبل عقل برسباى فى آخر حكمه وتولى بعد ابنه العزيز يوسف وخلع بعد ثلاثة شهور سنة ٨٤٢ هـ •

وهو كجامع قانى باى تصعد اليه بمرتقى ثم عدة درجات وتدخل اليه من طرقة ملتوية تؤدى الى صـحن مسقوف وعلى يمين الداخل ايوان القبلة وعلى اليسار ايوان آخـر • وأرضـية الصـحن منخفضـة عن أرضية الأيوانين بدرجة • وبالجامع وزرة من الرخام الملون بأشـكال هندسية بديعة • وبه دكة المبلغ • وهو جامع صغير وبدائره عدة غرف

ربما كانت خلاوى للصوفية وبه قبر منشئه . وقبته بسيطة . ومئذنته فى حالة سيئة .

جامع المحمودية :

وهو بالقرب من جامع قانى باى ويقابل باب الغرب أهم أبواب القلعة .

ذكره على مبارك (جـ ٢ ص ١٠٤) اجمالا مكتفيا باسم منشئة محمود باشا . وقال به قبره . وذكره المرحوم حسن عبد الوهاب ص ٣٦ أن منشئه محمود باشا كان واليا على مصر (٩٧٣ ــ ٩٧٥ هـ) وكان ظالما مما أدى الى اغتياله ودفن فى مسجده هذا .

والمسجد أيضا مرتفع عن أرض الميدان تصعد اليه بست عشرة درجة وبوسط الجامع طرقة تفصل ايوان القبلة على اليمين عن الايوان الآخر على اليسار . والطرقة منخفضة عن الايوانين بدرجة . وبأعلاه عدة نوافذ مشغولة بالزجاج الملون بها آيات قرآنية . ومنبره بسيط .

وقبته بسيطة تقل كثيرا عن قبة قانى باى بما حوت من نقوش وحليات فى الداخل والخارج . وقد لفت ذلك المرحوم حسن عبد الوهاب واستنتج منه انحطاط الفن منذ دخول العثمانيين مع أن بين القبتين ما يقرب من الخمسين سنة فقط .

بقايا قصر قوصون ــ يشبك ــ اقبرد :

وكان قانى باى الرماح قد تزوج سنة ٩٠٣ هـ بنت الدوادار يشبك ابن مهدى المتوفى سنة ٨٨٦ هـ.وقد ذكرنا فى مقال سابق عن حى القبة (المقال رقم ١٢ من سلسلة صفحات من تاريخ القاهرة ــ ربيع الأول سنة١٣٩٦ هـ) أن اسم القبةمنسوب للقبة التى أنشأها يشبك بن مهدى هناك . كما أن اسم شارع الدوادار هناك مسمى لذكراه .

وكان يشبك بن مهدى قد سكن قصر قوصون صاحب الخانكاه الذى سبق ذكره فى المقال السابق وقلنا أن هذا القصر نهبه الناس عند القبض على قوصون سنة ٧٤٢ هـ .

وآل القصر المذكـور الى يشـبك فجدده ونقش اسمه ورنكه(سقاره) على جانبى مدخله .

وبقايا هذا القصر تقابل تقريبـا خلف جامع السلطان حسن (راجع الخريطة) .

وبعـد يشبك بن مهدى سكن القصر المذكور أقبردى بن على . وكان قريبه وحل محله فى وظيفته. وأعطاه السلطان قايتباى هذه الدار وجميع ما فيهـا من أوانى وأثاث وخيول وسـلاح . وتمرد أقبردى وعصى وهرب الى الشـام يريـد الاستيلاء عليه . فلم يستطع . وظل فى عصيانه يحارب الجيـوش التى ترسل اليه . وتوفى سـنة ٩٠٤ فى سلطنة الظاهر قانصوه بن قانصوه.

وقد حرفت العامة اسم أقبردى الى بردق . وكانت الجهة هنـاك تعرف باسم حوش بردق . كما أن مصـلحة المسـاحة ذكرت بخرائطها مكان القصر المذكور وقالت عنـه بقايا سراى الأمير بشتك . وصحته يشبك كما مر ذكره .

محمد كمال السيد محمد

يقول من لاخلاق له « در مع الدهر حيث دار » واذا لم يسالمك الزمان فسالمه،وأنا أقول اذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه حتى يفيىء الى أمر الله »

محمد اقبال

أخطاء شائعة

للأستاذ عباس أبو السعود

٢٥١ ــ ويقولون: انصاع الولد لرأى أبيه ، وانصاع الخادم لأمر سيده ، وهذا خطأ ، والفصيح أن يقال : انقاد الولد لرأى أبيه ، أو خضع لرأيه ، أو أطاع رأيه أو وافقه على رأيه ونحو ذلك ، أما الانصياع فلا علاقة له بهذه المعانى ، وانما معناه التفريق ، تقول : الكمى يصوع أقرانه فينصاعون ، أى يحمل عليهم فيفرق جمعهم ، وصاع الراعى الغنم يصوعها صوعا أى فرقها فانصاعت وتفرقت ، قال أوس بن حجر .

يصوع عنوقها أحوى (١) زنيم (٢)
له ظأب (٣) كما صخب الغريم

ويقال : انصاع القوم اذا تفرقوا وذهبوا سراعا ، وانصاع فلان اذا انفتل راجعا ، ومر مسرعا ، وفى حديث الأعرابى « فانصاع مدبرا » أى ذهب سريعا ، قال رؤبة :

(فانصاع يكسوها الغبار الأصيعا) أى المتفرق

وقال العجاج :

فانصاع مذعوراوما تصدفا (٤)
كالبرق يجتاز أميلا (٥) أعرفا

والتصوع التفرق .

تقول :

تصوع الجند اذا تفرقوا

قال ذو الرمة

عسفت اعتسافا (٦) دونها كل مجهل (٧)
تظل بها الآجال حتى تصوّع

---

(١) الاحوى : الشاب الاسود .
(٢) الزنيم : الدعى .
(٣) الظاب : الجلبة .
(٤) تصدف : أعرض .
(٥) الاميل : جبل من الرمل مرتفع .
(٦) الاعتساف : الميل والعدول .
(٧) المجهل : الارض لايهتدى فيها .

٢٥٢ — ويقولون : صعد الولد على السطح ، وصعد الخطيب على المنبر ، فيعدون الفعل خطأ بعلى والفصيح أن يتعـدى اما بنفسه واما بالى ، فيقال : صعد الولد السطح أو الى السطح • وصـعد الخطيب المنبر أو الى المنبر ، ومما تعدى بالى قوله تعالى « اليه يصعد الكلم الطيب » وقد يتعدى بفى كما فى قولك : صـعدت فى السـلم أو فى الدرج صعودا •

وأما صعد المضعف فانه يتعدى بفى ، وبعلى ، فيقال : صعد الصياد فى الجبل أو على الجبل تصـعيدا اذا رقيه وعلاه ، قال تعالى « ومن يرد أن يضله يجعل صـدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » •

وأما أصعد المزيد بالهمز فلا يتعدى الا بفى ، تقول : أصعد الفـلاح فى الأرض اذا مضى وسار ، وأصعد فى الوادى اذا انحدر ، وقد يكون لازما كما فى قـوله تعـالى « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد » •

والتصعد والتصاعد يتعدى فعل كل منهما بنفسه ، تقول : تصعدنى العمل وتصاعدنى اذا شق عليـك وصعب ، الصعيد التراب الطاهر ، ومنه قوله تعالى « فتيمموا صـعيدا طيبا » وكذلك هـو وجـه الأرض لقوله تعالى :

« ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا » وهو أيضـا الطريق جمعه صـعد وصعدات بضمتين فى كل منهما ، وفى الحديث « اياكم والجلوس بالصعدات » •

والصعود بالفتح هو العقبة الكئود والمشقة فى الأمر ، ومنه قوله سبحانه « كلا انه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا » أى سأغشيه عقبـة شاقة المصعد •

والصـعد بالتحريك العـذاب الشديد ومنه قوله تعـالى « ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابـا صعدا •

٢٥٣ — ومما فشا على الألسنة من الأخطاء قول كثير من الخاصة : هذا الولد عالة على أبيه ، لأنهم أخبروا فى

هذا التعبير بالجمع عن المفرد، والفصيح أن يقال : هو عبء على أبيه ، أو عائل على أبيه ، والأولاد عالة على أبيهم ، وذلك مأخوذ من قول العرب : عاله الشيء اذا ثقل عليه وغلبه والأولاد ثقل على أبيهم لأنهم فقراء وبحاجة الى عونه .

تقول : عال الولد يعيل من باب سار عيلا وعيلة اذا افتقر ، فهو عائل ، والعيلة الفقر ومنها قوله تعالى « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء » والعائل الفقير ومنه قوله سبحانه « ووجدك عائلا فأغنى » والجمع عالة كقائل وقالة ، وبائع وباعة ، وعيل بضم العين وتشديد الياء مفتوحة كصائم وصيم .

وتقول : عالنى الشيء عيلا ومعيلا اذا أعوزك وأحوجك .

وللعيل معنى آخر ، تقول : عال فلان فى مشيه اذا تمايل واختال وتبختر كتعيل ، وامرأة عيالة أى مختالة .

كل هذا من عال اليائى ، أما عال الواوى فتقول منه ، عال أبى هذا الصبى يعوله عولا من باب قال اذا كفله ومانه ، وعلت ابنى اذا أنفقت عليه ، قال :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا
تعل بما أحنو عليك وتنهل

وقولهم : هذا يتيم عائل ليس له عائل معناه هذا يتيم فقير ليس له من يمونه ويعوله فعائل الأول من العيل اليائى ، وعائل الثانى من العول الواوى .

من الواوى يقال أيضا : عال الحاكم فى حكمه اذا جار وظلم ، ومنه قوله تعالى « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب من ألا تميلوا ولا تجوروا ، وقولك : أعوذ بالله من ميل الظالم وعول الحاكم .

وكذلك يقال : عال الميزان يعول اذا نقص وجار ، وعال فلان فى الميزان ، قال الشاعر :

انا تبعنا رسول الله واطرحوا
قول الرسول وعالوا فى الموازين

٢٥٤ ـ ويطلقون على بعض أبنائهم اسم عبد العاطى ، زاعمين أن العاطى من أسماء الله الحسنى وليس الأمر كذلك ، والصواب أن يكون الاسم عبد المعطى ، لأن المعطى اسم فاعل من أعطى .

أما العاطى فهو الظبى ، تقول : عطا الظبى يعطو عطوا اذا تطاول الى الشجر ليتناول من ثمره فهو عاط وعطو وزان عدو ، فالعطو التناول ورفع الرأس واليدين ، قال الشاعر يصف ظبية :

تحك بقرنيها برير(١) أراكة
وتعطو بظلفيها اذا الغصن طالها

ولهذا قالوا : هذا الشىء طويل لا تعطوه الأيدى ، أى لا تتناوله ، قال امرؤ القيس :

تعطو برخص غير شثن (٢) كأنه
أساريع(٣)ظبى أومساويك(٤)اسحل

أما أبو المعاطى فهو اسم صحيح ، لأن المعاطى جمع لمعطاء بمعنى كثير العطاء ، صفة للرجل والمرأة .

٢٥٥ ـ ويرد على ألسنتهم وأسنة أقلامهم كلمة (التطاحن) فيقولون: تطاحن الجيشان ، يعنون تقاتلهم وطحن بعضهم بعضا ، والحق أن التفاعل من الطحن لم يرد عن العرب ، فيجب أن تنكره حتى يأتى الينا من يثبته بالبرهان ، والذى ورد بكتب اللغة هو الفعل الثلاثى ومصدره .

قال الزمخشرى : ومن المجاز طحنتهم المنون ، وكتيبة طحون ، وقال ابن منظور : والطحون اسم للحرب ، وقيل هى الكتيبة من كتائب الخيل اذا كانت ذات شوكة وكثرة .

وقال الجوهرى : هى الكتيبة تطحن ما لقيت أى تهلكه ، والطحن بالكسر الدقيق ومنه المثل « أسمع

---

(١) البرير : الأول من ثمرة الأراك .
(٢) الشثن : الخشن .
(٣) الاساريع : جمع أسروع بالضم وهو عصبة تستبطن الرجل واليد .
(٤) الاسحل : شجر يستاك به .

جعجعة ولا أرى طحنا ، والطواحن الأضراس » .

ولك أن تتوسع فى المجاز فتقول: طحنه بمعنى هزمه فى جدل،أو غلبه فى ملاحاة (١) ، أو كادله حتى صرعه فى أى ميدان من ميادين الحياة .

٢٥٦ ــ ويقولون لما يضرب به النجاد القطن ليرق وينتفش:القوس ، والأفصح أن يقال له المندف ، والمندفة ، والكربال بكسرهن،تقول: قطن مندوف ، ونديف ومندف بتشديد الدال ، وقيل المندف وزان منبر هو الخشبة التى يطرق بها الوتر ليرق القطن ، ووتر المندف يسمى المشوار بكسر الميم ، والهبرية وزان شرذمة ما طار من زغب القطن أو الريش .

وانما قلنا الأفصح لأننا نميل دائما الى التخصيص ، اذ للقوس ألوان عدة،ولابد أن تضاف الى ما يخصصها فيقال :

قوس ندف ، وهى التى تعنينا ها هنا ، وقوس جلاهق بضم الجيم وهو البندق الذى يرمى به ، وأصله بالفارسية (جله) وزان صرر ، وقوس نبل ، وهى العربية المعروفة،وقوس النشاب بضم النون وتشديد الشين، وهى الفارسية ، وقوس الحسبان بضم الحاء ، وهى السهام الصغار ، والحسبانة واحدتها .

وفى المثل « رموهم عن قوس واحدة » ويضرب فى الاتفاق .

٢٥٧ ــ ويقولون : أجنح الولد الطائر يعنون أنه أصاب جناحه ، والصواب ــ كما فى أمهات اللغة ــ أن يقال :

جنحه بالفعل الثلاثى ، لأن القاعدة فيما تقصد اصابته أن يكون فعله ثلاثيا ، تقول رأسته اذا أصبت رأسه ، وبطنته اذا أصبت بطنه ، وأفخته اذا أصبت يافوخه ، ودمغته اذا أصبت دماغه،وكبدته اذا أصبت كبده ، ورأيته اذا أصبت رئته ،

(١) الملاحاة : اللوم والمشاتمة .

وكليته اذا أصبت كليته ، ويديته اذا أصبت يده . وفخذته اذا أصبت فخذه ، وصدرته اذا أصبت صدره، وفرصته اذا أصبت فريصته،ومعدته اذا أصبت معدته،وكتفته اذا أصبت كتفه ونسيته اذا أصبت نساه (٢) ، ومثنته اذا أصبت مثانته وهكذا .

ومن اشتكى عضوا من أعضائه يقال فيه : فعل بالبناء للمجهول فهو مفعول . تقول : صدر فلان اذا اشتكى صدره فهو مصدور ، وكبد اذا اشتكى كبده فهو مكبود، ومعد اذا اشتكى معدته فهو ممعود وهكذا .

٢٥٨ ــ ويقولون : فلان عيان يقصدون أنه مريض ، وهذا خطأ ، لأن العيان هو من لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطق احكامه، تقول : عى الخطيب فى المنطق ، وعى فلان عن حجته اذا حصر ولم يتمكن من البيان ، فهو عى على فعل ، وعيان كحر فهو حران .

وتقول أيضا : عيى بالأمر يعيا عيا بالكسر كرضى فهو عيى على فعيل .

ويقال : أعيا الماشى اذا كل فهو معى ، وأعياه الأمر اذا عجز عنه ولم يضبطه .

وأعيانى السفر اذا أتعبنى فأعييت ، يستعمل لازما ومتعديا ، ويقال : داء عياء اذا كان صعبا لا دواء له ، كأنه أعيا الأطباء،وفحل عياء اذا كان لا يلقح .

والصواب أن يقال:هو مريض ، وهى مريضة ، وهم وهن مراض بالكسر ، ومرضى ومراضى بفتحهما، ويقال : فى قلبه مرض أى نفاق ، وشمس مريضة أى ضعيفة الضوء وأرض مريضة أى ضعيفة الحال أو كثيرة الفتن ، قالت ليلى الأخيلية.

اذا بلغ الحجاج أرضا مريضة
تتبع أقصى دائها فشفاها

أو يقال : هو عليل أو معتل ، أومعل وهى عليلة أو معتلة ، أو معلة وكذا يقال : هو معلول من تداخل

---

(١) النسا : عرق من الورك الى الكعب وتثنيته نسوان ونسيان .

اللغتين ، والأصل أعله الله فعل بالبناء للمجهول فهو معلول ، وهي معلولة .

٢٥٩ ـ ويقولون : جبة خلقة بمعنى بالية ، قياسا على قولهم في المذكر قميص خلق ، والصواب أن يقال جبة خلق ، وملاءة خلق بغير هاء ، لأن العرب ساوت فيه بين وصف المذكر والمؤنث ، وذكر بعض العلماء العلة في ذلك فقال : كان الأصل : أعطني خلق جبتك ، فلما أفرد من الاضافة أبقى على ما كان عليه .

ويقال : ملحفة خليق بضم ففتح، صغروه بلا هاء ، لأن الهاء لا تلحق تصغير الصفات كما قالوا : نصيف في امرأة نصف بالتحريك ، وهي المرأة بين الحدثة والمسنة ، وهن أنصاف ونصف بضمتين وبضمة ، وهو نصف محركة من أنصاف ونصفين .

ويقال : خلق الثوب من أبواب نصر وكرم وسمع خلوقة بالضم ، وخلقا بالتحريك اذا بلى فهو خلق ، وجاءوا في أخلاق الثياب وخلقانها بضم الخاء .

ويقال : جبتان خلقان بفتحتين ، وأنشد ثعلب شاهدا عليه لأبي العالية .

كأنهما والآل (١) يجري عليهما

من البعد عينا برقع خلقان

٢٦٠ ـ ويقولون : فلان حدث السن بالتحريك ، يعنون أنه شاب فتى ، والفصيح أن يقال : هو حديث السن . والمعنى أن سنه جديدة قريبة ، ومنه قول العرب : فلان حديث عهد بالاسلام أي قريب عهد به ، فاذا حذفت كلمة السن قلت هو حدث ، وهم أحداث ، أما قولهم : رجل حدث وزان عجز وحدث وزان كتف فمعناه أنه حسن الحديث ، قال الجوهري : ورجل حدث وحدث بضم الدال وكسرها أي حسن الحديث ، ورجل حديث وزان سكيت أي كثير الحديث ،

---

(١) الآل : السراب أو خاص بما يكون في أول النهار .

ففرق بين الأولين بأن معناهما الحسن الحديث ، والأخير معناه الكثيره .

٢٦١ ــ ويقولون : استأجرنا فى هذا البيت شقة بفتح الشين ، وهذا فاسد ، لأن هذه الكلمة بهذا الضبط عامية ، والصواب أن يقال : استأجرنا شقة أو شقا بكسر الشين فيهما ، وقد قال رجال اللغة : قعدوا فى شق الدار أى فى ناحية منها .

وفى اللسان : الشق والشقة نصف الشىء ، يقال : أخذت شق الشاة وشقة الشاة والعرب تقول : خذ هذا الشق لشقة الشاة ، وفى الحديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة » أى بنصفها ، يريد ألا تستقلوا من الصدقة شيئا .

والشقة بالكسر شظية من لوح ، وهى من العصا والثوب ما شق مستطيلا ونصف الشىء اذا شق ومن معانى الشق بالكسر .

١ ــ المشقة والجهد والعناء ، ومنه قوله تعالى « وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس » .

٢ ــ الشقيق ، قال ابن سيدة : شق الرجل وشقيقه أخوه لأمه وأبيه ، يقال هو أخى وشق نفسى .

والشقة بالضم لها معنيان : أحدهما الطريق والسفر الطويل ، ومن هذا قوله سبحانه « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة » .

والآخر القطعة من الثوب ، تقول : أعطنى شقة من الثوب وشققا .

٢٦٢ ــ ويقولون : غز الولد زميله بابرة ، يعنون أنه طعنه ونخسه بها ، وهذا خطأ ، لأن للغز معنى لا صلة له بمعناهم هذا ، تقول غز الولد بزميله غززا ، واغتز به اذا اختصه بالرد من بين أصحابه ، وغز الرجل الابل والصبى اذا علق عليهما العهون من العين ، والغز بالضم جنس من الترك الواحد غزى كروم وروى ، وأغزت الشجرة اذا كثر شوكها واشتد ، وأغزت البقرة اذا عسر حملها ، وتغازنا الشىء تنازعناه ، والغزاز وزان رمان البررة بالقرابات والأولاد والجيران ولكى

يؤدى المعنى المبتغى يحسن استعمال أحد التعبيرات التالية :

١ ــ عرز الولد زميله بابرة يغرزه عرزا من باب ضرب ، واسم المكان مغرز بكسر الراء ، والجمع مغارز ، ومن المجاز أن تقول لصديقك : أطلب الخير فى مغارسه ومغارزه ، وابغ الكرم فى معادنه ومراكزه .

٢ ــ نخس الولد زميله بدبوس من بابى نصر وقطع نخسا أى طعنه به ، والفاعل نخاس مبالغة ، ومنه قيل لدلال الدواب نخاس .

٣ ــ غمز الولد زميله بيده يغمزه غمزا من باب ضرب ، أى نخسه ، وغمزه بالعين والحاجب أى أشار اليه بهما ، وفى التنزيل « واذا مروا بهم يتغامزون » وتقول : أغمزنى الحر اذا فتر فاجترأت عليه وسرت فيه ، وأغمز الرجل فى فلان اذا عابه وصغره ومنه قول الكميت :

ومن يطع النساء يلاق منها
اذا أغمزن فيه الأقورينا

أى من يطع النساء يلاق منهن الدواهى التى لا طاقه له بها اذا عبنه وصغرنه فى عيون الناس .

ويقولون : هذه الفتاة ناشئة فى بلاد الانجليز لأنها تجيد اللغة الانجليزية ، والصواب أن يقال : هى ناشىء بغير هاء ، لأن كلمة ناشىء من الألفاظ التى يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث تقول : نشأ الولد ينشأ من بابى قطع وخضع نشءا ، ونشوءا اذا حيى وشب وجاوز حد الصغر فهو ناشىء ، والجارية ناشىء أيضا ، قال أبو قدامة الطائى :

قد أجلس المجلس لم يحرج
من ناشىء ذات شوى (١) خدلج (٢)

وقال عبد الواسع بن أسامة الخزامى من بنى خزامة :

منازل من عوجاء اذهى ناشىء
مؤزرة تصطاد من لا يصيدها

والجمع لهما نشء كصاحب وصحب ، ووافد ووفد ، تقول : هم

(١) الشوى : قحف الرأس .

(٢) والخدلج : الممتلىء ، تقول : أمراة خدلجة أى ممتلئة الساقين والذراعين .

نشء سوء قال بشر بن أبى خازم :

سبته ولم تخش الذى فعلت به
منعمة من نشء أسلم معصر

ويجمع أيضا على نشأ بالتحريك كما فى قول نصيب :

ولولا أن يقال صبا نصيب
لقلت بنفسى النشأ الصغار

ويقال : جارية ناشىء من جوار نواشىء ، والاسم من النشءالنشأة، ومنه قوله تعالى « ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » .

أما ناشئة الليل فهى أول ساعاته، وقيل هى ما ينشأ فيه من الطاعات، وقيل هى مصدر على فاعلة كالعافية والباقية فى قوله سبحانه « فهل ترى لهم من باقية » أى من بقاء.

ومن الألفاظ التى يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث خلق بالتحريك ، بمعنى بال تقول : ثوب خلق ، وملاءة خلق ، وعروس تقول : رجل عروس من رجال عرس ، وفتاة عروس من فتيات عرائس .

وعاقر ، تقول لمن لا يولد له : رجل عاقر ، وامرأة عاقر ، وأيم وزان كيس تقول لمن لا زوج له : رجل أيم، وامرأة أيم وعانس ، تقول لمن حبس عن التزويج : رجل عانس ، وامرأة عانس . وبكر تقول : هذا بكر أبويه لأول ولد يولد لهما ، وهذه بكر أبويها اذا كانت أول من ولد لهما ، وهذه نار بكر اذا لم تقتبس من نار، وهذه ضربة بكر اذا كانت أول ضربة قاتلة وهذه حاجة بكر اذا كانت أول حاجة رفعت ، قال ذو الرمة .

وقوف لدى الأبواب طلاب حاجة
عوانا من الحاجات أو حاجة بكرا

وقن ، تقول : عبد قن لمن ملك هو وأبواه ، وأمة قن ، وعبيد واماء قن ، وقيل : عبيد واماء أقنة ، قال جرير :

ان سليطا فى الخسار انه
أولاد قوم خلقوا أقنة

ويقولون لمن يفضل نفسه ويؤثرها على غيره (أنانى) وهذه كلمة عامية، والصواب أن يوصف هذا الانسان بأنه أثر وزان ضجر ، والاسم الأثرة

بفتحات ، تقول : استأثر فلان بكذا اذا استبد به وخص به نفسه ، وفى الحديث « سترون بعدى أثرة » أى يستأثر أمراء الجور بعدى بالفىء ، وضد الأثرة الايثار ، وهو أن يؤثر الانسان غيره على نفسه ، تقول : آثرت فلانا بمد الهمزة ايثارا اذا قدمته على نفسك وأكرمته ، ومنه قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وقوله « بل تؤثرون الحياة الدنيا » .

أما قولهم (أنانى) فيزعمون خطأ أنه منسوب الى قول من يؤثر نفسه ويفضلها : أنا أنا وهذا نسب فاسد ، لأن الضمير لا ينسب اليه ، على أنه لو جاز النسب اليه جدلا لقيل : (أنوى أنوى) اذ أن ألف المقصور يجب أن تقلب واوا فى النسب اذا كانت ثالثة كما تقول قنوى فى النسب الى قنا ، وقهوى فى النسب الى قها .

٢٦٣ ــ ويقولون فى نسب الانسان الى حرمى مكه والمدينة : فلان حرمى بفتحتين والصواب أن يقال : رجل حرمى ، وامرأة حرمية بكسر الحاء وسكون الراء فيهما على غير قياس ، هكذا ورد عن العرب ، نعم يقال : ثوب حرمى ، ومنازل حرمية بالفتح على القياس أى أن هناك فرقا بين الانسان وغيره فى النسب الى الحرم ، فان كان المنسوب انسانا كان النسب بكسر الحاء ، وان كان غيره كان بفتحها ، قال الأعشى :

لا تأوين لحرمى مررت به
يوما وان ألقى الحرمى فى النار

وقال أبو ذؤيب :

لهن نشيج (١) بالنشيل كأنها
ضرائر حرمى تفاحش (٢) غارها (٣)

وقال النابغة :

من صوت حرمية قالت وقد ظعنوا
هل فى مخفيكم (٤) من يشترى أدما (٥)

---

(١) النشيج : الغصص بالبكاء وتردده فى الصدر .
(٢) تفاحش : زاد فى القبح .
(٣) الغار : الغيرة .
(٤) المخف : وزان المعز تقول : أخف فلان اذا صار خفيف الحال .
(٥) الادم : اسم جمع الطعام المأدوم .

ويخطئون حين يجمعون الشعار بالكسر ويفتح على شعارات جمع مؤنث سالما ، وقد فشا هذا الجمع على ألسنة الخاصة وفى وسائل الاذاعة ، والصواب أن يجمع جمع قلة على أشعرة كبناء وأبنية ، وجمع كثرة على شعر ككتاب وكتب ، وللشعار معان عدة : فهو العلامة فى الحرب ، وكذلك هو ما يلى شعر الجسد من الثياب وفى المثل « هم الشعار دون الدثار » يصفهم بالمودة والقرب . وفى حديث عائشة « أنه كان لا ينام فى شعرنا » وفى حديث آخر « أنه كان لا يصلى فى شعرنا ولا فى لحفنا » وفى حديث الأنصارى « أنتم الشعار والناس الدثار » أى أنتم الخاصة والبطانة ، والشعار بالفتح الشجر الملتف ، تقول أرض ذات شعار .

٢٦٤ ـ ومن أخطائهم فى تسمية بعض البقول .

١ ـ قولهم لهذه البقول (خضار) والفصيح أن يقال لها : خضر وزان صرر وغرف، كأنه جمع خضرة، أو يقال لها خضراء ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « ليس فى الخضراوات صدقة » هى جمع خضراء وقياسها خضر ، كما يقال حمر وصفر ، لكنه غلب فيها جانب الاسمية فجمعت جمع الأسماء ، كصحراء وصحراوات، وعلى هذا فالجمع قياسى ، لأن فعلاء هنا ليست مؤنثة أفعل فى الصفات حتى تجمع على فعل ، واذا فقدت الوصفية تعينت الاسمية، وقد سمت العرب الخضر خضراء ومنه «تجنبوا من الخضراء ماله رائحة كريهة » يعنى الثوم والبصل والكراث .

٢ ـ قولهم: حمص بضمتين ثانيتهما مشددة ، يعنون ذلك الحب الذى يزيد فى المنى والشهوة ويقوى البدن ، بشرط ألا يؤكل قبل الطعام ولا بعده ، بل فى وسطه ، والصواب أن يقال له حمص بكسر الحاء وفتح الميم مشددة . أو حمص بكسرتين ثانيتهما مشددة ، ويرى الرأى الأول ثعلب اذ يقول : والاختيار فتح الميم كقنب ، ويرى الرأى الثانى المبرد ويقول لم يأت عليه من الأسماء الا حلز وهو القصير ، وجلق وهو اسم لموضع بناحية الشام .

٣ ــ قولهم لأرومة معروفة (فجل) بكسر الفاء ، والصواب فجل بضمة وبضمتين الواحدة بهاء وهو جيد لوجع المفاصل ، واليرقان ، ولوجع الكبد والاستسقاء ، ونهش الأفاعى والعقارب ، وان وضع قشره أو ماؤه على عقرب ماتت ، وتناوله بعد الطعام يهضم وأقوى ما فيه بزره ثم قشره ثم ورقه ثم لحمه ، وحب الفجل دواء آخر ، ومنه يتخذ دهن الفجل ، قال ابن دريد : وأحسب اشتقاقه من فجل فجلا من باب تعب اذا غلظ واسترخى .

٤ ــ قولهم لبقلة حريفة توم ، والفصيح أن يقال ثوم بالثاء المضمومة ،

وهو بستانى وبرى ويخرف بثوم الحية ، وكلاهما مخرج للدود ، مدر جدا ، وهذا أفضل ما فيه ، كما أنه جيد للنسيان وللربو والسعال المزمن ، والطحال وعرق النسا والنقرس ، ولسع الهوام والكلب الكلب ، باهى جذاب ، ومشويه نافع لوجع الأسنان المتآكلة ، حافظ صحة المبرودين والمشايخ والثومة واحدته ، والثومة وزان عنبة شجرة عظيمة بلا ثمر أطيب رائحة من الآس تتخذ منها المساويك .

أما التوم بالتاء فمعناه الدر أو اللؤلؤ ، واحدته تومة ، تقول : صبى ذو تومتين أى ذو درتين وهو متوم أى مقرط بدرتين ، وقيل : التومة حبة من فضة شبه الدرة ، قال المسيب بن على :

عاتية صرف معتقة
يسعى بها ذو تومة لبق

وقال أبو النجم :

يا رجل قد كنت زمانا محرما
ما كنت تعطين الفقير درهما

وتفرقين للشيخ والمتوما
وتمنعين السنبل المحزما

ويقال للصدفة أم تومة علم لها ، ولذلك لم يصرف كابن دأية للغراب ، ومن المجاز قول ذى الرمة :

وحتى أتى يوم يكاد من اللظى
به التوم فى أفحوصه يتصبح

أى يتشقق أراد البيض فسماه توما على الاستعارة .

٥ ــ وقولهم لنبت معروف يطهى ويؤكل (خبيزة) بضم الخاء وكسر الباء مشددة ، وهذا خطأ والصواب

أن يقال له : خباز بضم الخاء وتشديد الباء مفتوحة وزان تفاح وقفاز وخبازة وزان تفاحة ، وفى لغة بألف التأنيث المقصورة فيقال : خبازى بتشديد الباء ، ويخفف فيقال خبازى كخزامى ، وفى لغة أخرى خبيز بضم الخاء وتشديد الباء مفتوحة مع سكون الياء •

٦ ـ وقولهم لبقل معروف كثيرا ما يتناوله الناس مع طعامهم خص بفتح الخاء وتشديد الصاد والصواب أن يقال له خس بالسين بدلا من الصاد •

أما الخص فهو التفضيل ، تقول : خصه بالشيء خصا بالفتح، وخصوصا وخصوصية بضمهما ويفتح الأخير ، وخصيصى ويمد اذا فضله •

وأما الخص بالضم فهو البيت من القصب ، جمعه خصاص بالكسر ، وخصوص بالضم •

٧ ـ وقولهم لبقلة معروفة (شبت) بفتحتين ، والصواب شبت بكسرتين وزان سجل ، قاله الفارابى وابن الجواليقى •

وقال الصغانى : الشبت عرب الى سبت بالسين المهملة ، قال وانما قيل انه مثقل لأن باب المثقل كثير، وباب المخفف نادر نحو ابل •

٨ ـ وقولهم لأغلظ أنواع الكرنب: أرنبيط بالهمزة ، وقرنبيط بالقاف ، وكلاهما خطأ والصواب : قنبيط بضم القاف وتشديد النون مفتوحة، قال بعض الأئمة وأظنه نبطيا •

كما أنهم يقصرون الكرنب على أنه مضموم الكاف والراء، والصواب أن فتحهما لغة أخرى للسلق بكسر السين أو نوع منه أحلى وأغض من القنبيط ، والبرى منه مر ، ودرهمان من سحيق عروقه المجففة فى شراب ترياق مجرب من نهشة الأفعى •

٩ ـ وقولهم لنبات معروف كثير الشبه بالخباز : سبانخ والفصيح أن يقال له اسفاناخ بكسر الهمزة •

١٠ ـ وقولهم لنوع من الأبازير: كسبرة بضم الكاف وسكون السين وفتح الباء والصواب كزبرة بضمتين بينهما سكون •

١١ ـ وقولهم لبقلة معروفة (جرجير) بفتح الجيم الأولى وكسر الثانية ،

والفصيح جرجير بكسرهما وزان ازميل ، ويقال لها أيضا جرجر وزان سمسم .

١٢ ـ وقولهم لحب مضلع محزز يتسلى بأكله (ترمس) بكسر التاء والميم،والصواب ترمس بضمهما وزان بلبل ، وهو أيضا السرداب ، تقول: حفر الفلاح ترمسه تحت الأرض ، ومنه قالوا ترمس فلان اذا تغيب عن حرب أو شغب .

٢٦٥ ـ نشر فى صحيفة الأهرام بخط عريض قول أحد محرريها .

لشهادات (استثمار) البنك الأهلى المصرى ربح (وفير) فزود منها مشترياتك ، واحتفظ بشهاداتك (يزداد) أمنك ورفاهيتك .

وهذه العبارة على وجازتها تضمنت أربعة أوهام .

الأول : كلمة استثمار ، اذ لم يرد عن العرب ادخالها السين والتاء على الفعل ثمر .

فلم تقل : استثمر الرجل ماله استثمارا ، كما لم تقل : استساغ فلان هذا الكلام ، وانما قالت : ثمر ماله تثميرا بالفعل المضعف ، وأساغ فلان الشراب بالفعل المزيد بالهمز .

والثانى : كلمة (بنك لأنها أعجمية) .

والعرب تقول فى هذا المعنى مصرف وزان منزل ، اسم مكان من قولك : صرف فلان الدراهم بالدنانير ، والذهب بالدراهم صرفا، ومنه الصراف ، والصيرف، والصير فى وهو من الصيارفة ، والهاء فى هذا للنسبة ، ويقال بين الدرهمين صرف أى فضل لجودة فضة أحدهما .

والثالث : كلمة (وفير) يعنون بها الكثرة ، وهذه عامية ، والفصيح أن يقال : ربح وافر ، من وفر الربح وفرا اذا كثر ، أو موفور اسم مفعول من وفرت الربح اذا أكثرته فهو موفور ، أو موفر من وفرت الربح توفيرا فهو موفر اسم مفعول من المضعف .

والرابع : كلمة يزداد المرفوعة ، ويحسن فى هذا الفعل أن يجزم فى جواب الأمر كما فى قول الشاعر :

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استبعد الانسان احسان

وكما فى قــول ذى الاصبع العدوانى :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعــوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك .

٢٦٦ ــ ويقولون : تشكلت اللجنة من ثلاثة رجال ، وتشكلت الوزارة من عشرين وزيرا ، وهذان التعبيران يشوبهما الفساد ، والصــواب أن يؤدى هــذا المعنى بقولنـا تألفت اللجنة ، أو ائتلفت ، أو تكونت من كذا ، واللجنة بالفتح جماعة يجتمعون فى الأمر ويرضونه ، وكذا الوزارة أما التشكل فلا صلة له بالمعنى الذى ارتضوا له عبارتيهم ، اذ تقــول : تشكل المريض اذا تماثل للشـــفاء من علته وقارب البرء ، وشكلت المرأة اذا تدللت ، والشكل بكسر الشين وفتحها غنج المرأة ودلهــا ودلالها ، يقال : تشكلت وتدللت ، وتشكل العنب اذا أينع أو اسود وأخذ فى النضج ، وتشكل فلان اذا تصور ، وشكله غيره تشكيلا اذا صوره ، وشكلت المرأة شعرها اذا ضـفرته خصلتين من مقــدم رأسها عن يمين وشمال .

٢٦٧ ــ قرأت فى صحيفة الأهرام عنوانا مؤلفـا من ثلاث كلمات كلها خطـأ هو تصـليح بوابير الجـاز فالتصليح مصدر لم يرد عن العرب ، لأنهم لم يســتعملوا الفعـل الرباعى المضعف ، وانما استعملوا الثلاثى ، والرباعى الموازن لفاعل ، والرباعى المهموز .

تقول من الأول : صلح العمـل صلوحا من باب قعد فهو عمل صالح ومنه قوله تعالى « من عمـل صالحا فلنفسه » وتقول أيضا صلح الرجل صلاحا وهو ضد الفساد ، وقد قالوا : كيف لا يكون من أهل الصلاح من هو من أهل صلاح ، وهو اسم مكة شرفها الله تعالى ، قال حرب بن أمية لأبى مطر الحضرمى يوم الفجار :

أبا مطر هلم الى صلاح
فتكفيك العداوة من قريش
وتأمن وسطهم وتعيش فيهم
أبا مطر هديت لخير عيش

والصلح بالضم الاسم ومعناه السلم والتوفيق ، يذكر ويؤنث ، ومنه قوله جل شأنه « والصلح خير » وقد يأتى اسم جمع بمعناه المصالحون كما فى قولك : هم لنا صلح وتقول من الثانى صالحه مصالحة وصلاحا بكسر الصاد .

أما الثالث فهو المطلوب الذى به يؤدى المعنى المبتغى ، تقول أصلح الله الأمير وأصلح فى ذريته وماله ، ومنه قوله تعالى «وأصلح لى فى ذريتى» والمصدر اصلاح ومنه قوله سبحانه «ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما» واسم الفاعل مصلح ومنه قوله «والله يعلم المفسد من المصلح» .

وأما (البوابير) فهى كلمة عامية عربيتها مواقد جمع موقد ، وهو موضع الوقود بضم الواو ، كما أن المجلس موضع الجلوس .

وأما الجاز فكلمة عامية أيضا ، والفصيح أن يستبدل بها كلمة نفط بكسر النون وفتحها والكسر أجود أو يستبدل بها كلمة وقود بفتح الواو بمعنى الحطب على تشبيه النفط بالحطب ، لأن كلا منهما سبب فى الاتقاد والاشتعال .

مما عرضنا آنفا استبان أنه كان يجدر بمحرر الأهرام أن يكتب العنوان على النحو التالى :

اصلاح مواقد النفط ، أو اصلاح مواقد الوقود .

٢٦٨ ـ ويقولون : الاتفاق الذى تم للصلح بين الدولتين مبنى على خمسة بنود ، البند الأول كذا ، والبند الثانى كذا وهكذا ، وهذا التعبير خطأ .

والصواب أن يقال : مبنى على خمسة أمور ، أحدهما كذا ، وثانيها كذا وهكذا أما البنود فجمع بند وهو العلم الكبير ، تقول : أقبل العدو مع الجنود والبنود وهى أعلام الروم تحت كل بند عشرة آلاف .

وكذلك هو الحياة والداهية ، تقول : فلان كثير البنود أى كثير الحيل والدواهى .

٢٦٩ ـ ويقولون بين بلدنا وبلدكم عشرون محطة ، وهذا فاسد ، والصواب أن يقال محطا بغير هاء ،

اسم مكان بزنة مفعل من حط يحط ، ومعناه المنزل تقول حطوا الأحمال عن ظهور الجمال من باب نصر حطا اذاأنزلوها من علو الى سفل وحططت من الثمن كذا اذا أسقطت،والحطيطة ما يحـط من الثمـن فعيلة بمعنى مفعولة وجمع المحط محاط بتشديد الطاء فى المفرد والجمع ، لأن الأصل محطط ومحاطط ، ومثل ذلك محل ومحال ، ومقر ومقار والاسم الحطة بكسر الحـاء ، ومنهـا قوله تعالى « وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم » أى قولوا حط عنا أوزارنا

ومن المجـاز قـولك حط الله أوزارهم،وحط فلان فى عرض عدوه اذا انـدفع فى شـتمه ، وأكل من حلوائهم فانحط فى أهوائهم .

ويقال انحط السـعر اذا نقص ، والأسـعار حاطة ومنحطـة ، وأتانا صاحب البيت بطعام فحططنا فيه أى أكثرنا منه ، وأحططنا فيه أى أقللنا منه .

أما المحطةوالمحط بكسر الميمفيهما فكل منها اسم آلة يصقل بها الجلد وينقش ، تقول جـارية محطـوطة المتنين كأنما حـطا بالمحط ، وهـو ما يحط به الأديم أى يدلك ويصقل، قال النابغة .

محطوطة المتنين غير مفاضة(١)
ريا الروادف (٢) بضة (٣) المتجرد

٢٧٠ ــ ويقولون لنوع معروف من الفاكهة (مانجو أو مانجة)وكلا هذين اللفظين عامى والصواب أن يقال له : أنبج وزان أحمد ، وتكسر باؤه ، ثمر شجر هندى معرب أنب وزان أنت ، يكـون على خلقـة الخوخ ولبابه كلبابه يربب بالعسل.

ونباج الكلب بضم النون،ونبيجه بفتحها نباحه ، تقول : هـذا كلب

---

(١) المراة المفاضة : من كانت ضخمة البطن مسترخية اللحم غير مجدولة .

(٢) الروادف : طرائق الشـحم الواحدة رادفة ويريـد بقـوله ريا الروادف أنها كثيرة اللحم كبيرة العجز .

(٣) البضـة : رخصـة الجسد رقيقة الجلد ممتلئة ، ومعنى بضة المتجرد أنها بضة عند التعرى .

نباج بتشديد الباء ونباجى بالضم أى كثير النباح .

ومنبج وزان مجلس اسم موضع ينسب اليه على غير قياس فيقال : كساء منبجانى وانبجانى بفتح بائهما ...

ويقال للرجل الذى يعطى بلسانه ما لا يفعله منبج بكسر الميم وزان منبر وهو نفاخ نباج ليس معه الا الكلام ، وعند فلان الأنبجات أى الأشياء التى تربب بالعسل كالاهليلج والأترج وهى من الأنبج .

٢٧١ ــ ويقولون : ولّع الخادم المصباح ونحوه توليعا ، وهذا التعبير مشوب بالخطأ ، لأن التوليع معناه استطالة البلق بالتحريك، وهو سواد وبياض يكونان فى الفرس ونحوه ، تقول فرس مولع وثور مولع وفى لونه توليع ، ويقال : رجل مولع اذا كان به لمع أى بقع من برص تقول: ولع الله وجه فلان أى أبرصه ، قال رؤبة :

كأن فى الجلد توليع البهق

والبَهَق بفتحتين بياض رقيق يكون بظاهر البشرة ، وقولهم : فى جلده توليع البهق مأخوذ من قولهم للشديد البياض أمهق وأبهق ، والأمهق هو الأبيض لا يخالطه حمرة ويقال من الفعل الثلاثى : ولع فلان من باب وضع ولعا وولعانا اذا استخف وكذب والوالع الكذاب ، جمعه ولعة ككاتب وكتبه ، وولع والع مبالغة ، أى كذب عظيم ويقال لمن يولع بما لا يعنيه ولعة وزان همزة .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه يجب أن يقال : أشعل الخادم المصباح فاشتعل ، ومنه قيل على سبيل المجاز: اشتعل فلان غضبا اذا امتلأ غيظا ، وقوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » فيه استعارة بديعة ، اذ شبه انتشار الشيب باشتعال النار فى سرعة الالتهاب ، قال لبيد :

ان ترى رأسى أمسى واضحا
سلط الشيب عليه فاشتعل

أو يقال : أوقد الخادم المصباح فاتقد وتوقد ، ومن هذا قوله تعالى :

« كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله» أى كلما دبروا مكيدة يلتمسون بها الانتصار أبطلها الله .

٢٧٢ — ويقولون لمتاع من أمتعة البيت يجلس عليه ويتكأ (كنبة) بفتحات ، ويجمعونه على كنب بالتحريك ، وهذا فاسد ، لأن الكنبة كلمة عامية ، والكنب ليس جمعا لها، وانما هو مصدر معناه غلظ يعلو الرجل واليد ، أو هو خاص باليد اذا غلظت من العمل القاسى .

تقول : كنبت اليد تكنب من باب فرح كنبا اذا غلظت .

والفصيح أن يقال لهذا المتاع : أريكة وزان سفينة ، والجمع أريك وأرائك تقول هم متكئون على الأرائك مع بيض كالترائك ، ورأيت على الأريكة تركية كالتريكة وهى بيضة النعامة ، وشاهدت نساء كالسبائك والترائك لينات العرائك متكئات على الأرائك .

وفى التنزيل قوله تعالى «هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون » وقوله « متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا » .

٢٧٣ — ويقولون : بيت فلان دافىء ، وجلسنا نتحدث فى احدى غرفه الدافئة ، وكان يقوم بما نحتاج اليه رجل دافىء فى ليلة دافئة ، وهذه التعبيرات كلها لا نصيب لها من الصحة ، لأن اسم الفاعل من الفعل دفىء لم يأت على وزن فاعل .

والفصيح أن يقال : دفىء البيت يدفأ من باب تعب فهو دفىء،والحجرة دفئة كتعب وتعبة ويقال : دفىء الرجل من البرد دفئا ودفاءة بفتحهما فهو دفئان والمرأة دفأى ، كغضبان وغضبى ، وذلك اذا لبس كل منهما من الثياب ما يدفئه .

قال الشارح ما نصه : الدفئان وأنثاه خاص بالانسان ، والدفىء ككريم خاص بغيره من زمان أو مكان، ودفىء ككتف مشترك بينهما .

وعلى هذا تقول : الرجل دفئان ودفىء ، والمرأة دفأى ودفئة،والبيت دفىء ، ودفىء والليل دفىء ودفىء.

أما الدفء بالكسر ويحرك فهو نقيض حدة البرد كالدفاءة بفتح الدال ، وكذلك هو نتاج الابل

وألبانها وما ينتفع به منها ، قال تعالى « ولكم فيها دفء » وهو ما يستدفأ به من الوبر والصوف والشعر ، لأنه يتخذ منها الأكسية والأخبية ، وفى الحديث « لنا من دفئهم ما سلموا بالميثاق » .

ويقال : ما على فلان دفء أى ثوب يدفئه ، ودفؤ يومنا فهو دفىء ودفؤت ليلتنا فهى دفيئة .

ومن المجاز قولهم : ابل مدفئة ، ومدفئة بتشديد الفاء ، أى كثيرة ، لأن بعضها يدفىء بعضا ومن تخللها أدفأته ، وقيل تبنى البيوت بأوبارها قال الشماخ .

وكيف يضيع صاحب مدفئات .
على أثباجهن (١) من الصقيع (٢) .

وروى بفتح الفاء أى يدفئها شحومها وأوبارها .

وتقول : أدفأت فلانا ودفأته اذا أجزلت له العطاء ومنحته دفءا كثيرا ، قال :

فدفء ابن مروان ودفء ابن أمه
يعيش به شرق البلاد وغربها

٢٧٤ — ويقولون : لقينا فلانا صدفة بضم الصاد ، وهذه الكلمة لا وجود لها فى العربية ، وانما هى عامية ، والفصيح أن يقال : لقيناه مصادفة ، وذلك مأخوذ من قولنا : صادفناه مصادفة اذا وجدناه وقابلناه

يقال : تصادفا اذا تقابلا ، ومنه صدفا المحارة لتقابلهما ، وقوله تعالى «حتى اذا ساوى بين الصدفين» أى رأسى الجبلين المتقابلين .

وتقول : صدف فلان عن الفحشاء من بابى ضرب وجلس صدفا وصدوفا اذا أعرض عنها ومن هذا قوله سبحانه « سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب » وقولك : هذه امرأة صدوف مدح لأن المعنى أنها تعرض وتصد عن الريبة : أما قولك : رجل صدوف فهو ذم اذ معناه أنه أبخر ، فكلما تحدث صدف بوجهه لئلا يشم محدثه رائحة بخره وهو نتن الفم .

عباس ابو السعود

(١) الأثباج : جمع ثبج بالتحريك وهو ما بين الكاهل الى الظهر .
(٢) الصقيع : الجليد المحرق للنبات .

رسالة الأدب الصوفى

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى

تلتقى موضوعات الأدب الصوفى مع ما قرره الناقد العربى البصير قدامة بن جعفر فى كتابه نقد النثر بقوله « وأما الحسن من الكلام فهو كل ما كان فى معالى الأمور وفى محاسنها ، وأحسنه الدعاء الى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » ثم يتلوه كل ما كان من مكارم الأخلاق ؛ فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وكل ما كان من دعاء الى بر وتعطف واصلاح وتآلف وخير يجتلب وشر يجتنب ، فهو من أحسن الكلام وجميله .. والقبيح من الكلام ما كان فى سفساف الأمور وأراذلها كالنميمة والغيبة والسعاية والكذب واذاعة السر والمكر ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : «ان الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها .. » .

ينطبق على الصوفية قوله تعالى: « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله » فهم يدعون اليه ، ودعوتهم اليه ــ سبحانه ــ دعوة خالصة مخلصة ، لم يغرهم جاه ، ولم يرهبهم سلطان ، ولم يقصر بهم عن دعوتهم طول أمل أو يقعدهم عنها غلبة خمول أو ضعف كسل ، بل نذروا أنفسهم لله الذى غلب حبه على قلوبهم فاستعذبوا فى الدعوة اليه كل عذاب ، واستهانوا بكل صعب ، واستلذوا كل تعب، وتغلبوا على كل مشقة .

وكان كلامهم فى ذلك كلام المحب المخلص الذى يؤمن بكل كلمة تخرج من لسانه فتجد طريقها الى الأسماع

والقلوب وتترك صداها قويا مؤثرا فى الأرواح والنفوس ، وكانوا فى دعوتهم الى الأخلاق قدوة طيبة وأسوة حسنة ، فلذلك كان لقولهم قيمته وأثره ، ليس كلاما يشبه كلام كثير من الوعاظ التقليديين الذين يحاولون تنميق الكلام بغية التأثير ثم يلتمسون صداه مع أدراج الرياح فلا يجدون شيئا . سئل أحدهم : مالك تعظ فيبكى الناس وواعظ المدينة يعظ فلا يبكى من كلامه أحد ؟ فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

روعة الفن الأدبى فى سمو معناه :

يقول الجرجانى : « ان من كمال الجمال البلاغى أن تكون مادته الخير والفضيلة » وقد حقق الصوفية بأدبهم هذا الهدف فوفقوا نتاجهم الأدبى على الخير والفضيلة ، وبذلك جعلوا للأدب رسالة سامية وغاية كريمة . وهذا هو ما يلتقى مع آراء النقاد المنصفين قدمائهم ومحدثيهم .

أما القدامى فقد رأينا قول قدامة والجرجانى ، ونستشهد للمحدثين برأى عيسى الناعورى الذى ذكره فى كتابه أدب المهجر حين قال : « وهل الأدب الصحيح سوى رسالة سامية تنير سبل الحياة ؟ وتُعرِّف الناس كيف يهتدون الى منابع السعادة والمعرفة فيها ؟ وكيف ينهلون من ذلك النبع الأزلى الأبدى الذى لا يحده الزمان ولا المكان لأنه أصل الزمان والمكان وأصل الحياة والوجود بكل ما فيها من شمول وأبدية ؟ وهل الأديب الحق سوى رسول يحمل بيده مشعل الحب والحرية ويبحث بكل ما فى ضميره من شوق وشغف وما فى نفسه من نشاط واخلاص عن مصدر السعادة والمعرفة فى الحياة ليهدى اليهما نفوس البشر الحائرة فيزيل عن وجه الحياة قشور الكآبة والجفاف ويكلله بنور الغبطة والانتعاش ؟ » .

وهذا الكلام الذى يقرره الناعورى ينطبق على الأدب الصوفى ؛ فرسالته نشر المحبة بين الناس والدعوة الى الأخلاق والتحلى بالفضائل والهداية أولا وأخيرا الى الله ، وتلك رسالة من أسمى الرسالات فى الوجود ، بل هى أسماها على الاطلاق ، فهى

الرسالة التى قصر الأنبياء والمرسلون دعوتهم عليها ، ووقف الهداة والمصلحون أنفسهم على آدائها وارساء قواعدها .

وفى الأدب الصوفى ـ كما يقول المرحوم طه عبد الباقى سرور فى كتابه أعلام التصوف ـ « نماذج للفضيلة والخير تهتف بها لحونه وتنطق بها كلماته ، وهو الأدب العاطفى الحار فى مناجاته وابتهالاته وسبحاته ، هو أدب فنى أصيل ابتدع وحده أدب الحب الالهى بل أدب الحب الكونى ، الحب لكل شىء فى الوجود ـ حب الجمال المطلق السارى فى كل ذرة أبدعها المبدع الأعظم ، ثم هو أدب موضوعى يستهدف رسالة فى علم النفس والأخلاق والتربية لا يستطيع أن يحلق حول قممها سواه » .

وحقا ذلك فان كل كلمة خطها الصوفية ـ كما تقول مقدمة كتاب التعرف على مذهب أهل التصوف ـ كانت خالدة كالقلب الصوفى ؛ لأنها ارتبطت بالله واستهدفت رضاه واقتبست من هداه وأشرقت بحبه وأضاءت بنوره ، ومادة التصوف سواء أكانت أخلاقا أم معرفة أم سلوكا أم تعبيرا عن مشاهدة أم تصويرا لمناجاة أم تذوقا لتجليات أم تحليقا حول اشراقات فهى مادة موصولة بالله قائمة به وله فانية فيه سبحانه .

مهمة الأدب الصوفى :

ويمثل الأدب الصوفى فى مختلف عصوره النزعة الروحية التى وقفت تجاه الرغبات المادية لتهذب من ضراوتها وتقوم من وحشيتها ، فهو كعصا المؤدب التى تلوح للمتمردين على قواعد الخلق ومبادىء السلوك الانسانى ، وتضرب على أيديهم ليحولوا مجراهم من الاندفاع الاباحى التحررى الى الطريق السوى الخالص ، انه رسالة الاحتجاج على ذلك العبث الماجن الذى أباحته نظرية الفن للفن ، ودعت اليه المدنيات الزائفة فى جميع أطوارها ، وروجت له المبادىء الهدامة التى أرادت أن تنال من القيم والمثل العليا ، وأوحت به المادية العنيفة من تحلل وفساد .

لقد أعلنت هذه الرسالة أن الاستهانة بالخلق والتحرر من الدين ليس الا تمردا على الانسانية نفسها وعلى جميع ما تمتلكه من مثل كريمة ومبادىء قويمة ، ولا يمكن للانسان أن يستغنى فى انطلاقه الى مستقبله المشرق عن زاد روحى يعينه على أمره وعن قائد الهى يأخذ بزمامه الى غايته • كما لا يمكنه أن يكتفى بما أفاده من علم وتجارب قامت على المادة والعقل أكثر مما قامت على الروح ، والعلم ان لم يكن له من الأخلاق ما يهذبه انقلب وحشا ضاريا وأصبح خطرا على كل منتفع به •

وليست قيمة الأدب الصوفى قاصرة على موضوعاته التى تفهم مما تقدم ، ولكنها تتناول تعبيراته وعاطفته وصوره وأخيلته ، فهو فى كل ذلك يعد من أرقى الفنون الأدبية على الاطلاق ، وهو مع ذلك لم يحظ بعد بعناية الأدباء ونقاد الأدب ومؤرخيه العناية الكافية • يقول الدكتور زكى مبارك فى كتابه التصوف الاسلامى وأثره فى الأدب والأخلاق : « كان للصوفية أدب هو أعلى وأشرف من أدب البحترى والمتنبى وأبى العلاء » ويقول الدكتور أحمد أمين عن الأدب الصوفى : « انه أدب غنى فى شعره ، غنى فى فلسفته ، شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها ، وهو سلس واضح وان غمض أحيانا ، وفلسفته من أعمق أنواع الفلسفة الالهية وأرقاها ومعانيه فى نهاية السمو ، خياله رائع يسبح بك فى عالم كله جمال وعواطف صادقة » •

وفى كل ذلك شفاء للصدور وأمن للقلوب وصيانة للعقول وتصديق لهذه الكلمة : « اذا سيطرت المادة فى زمننا هذا على كل شىء فقد آن أن تمضى موسيقى الأدب الروحى الى مكان العلة من هذه القلوب فتذهب بقسوتها وجفوتها وترد لها مناعتها الروحية » •

موضوع الأدب الصوفى :

مما تقدم ندرك موضوع الأدب الصوفى فقد حفل بكثير من الموضوعات وطاف حول كثير من المعانى ، فنثر ونظم فى الأخلاق وأدب النفس ووسائل تهذيبها وألوان

معاملتها ومجاهدتها ، وصاغ كثيرا من مواجيده وألحانه فى التضرع والمناجاة ، وأنشأ الكثير فى المحبة الالهية وأسرارها وآدابها وأحوالها ، وفى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، كما حوى الأدب الصوفى كثيرا من الرسائل والوصايا والمواعظ والحكم التى تحث على التزام الطريق السوى واجتناب طريق الغواية والضلال .

وحال الأديب الصوفى دائما بين مجاهدة وذوق لثمار هذه المجاهدة . وفى تعبيره يدور فى هذين الفلكين .

فالمجاهدة وما يصحبها من آداب وسلوك ومعاملة ومقامات كانت مصدر الهام لما قيل من دعوة الى الخلق والتمسك بالفضيلة والتحقق بالمقامات المختلفة من صبر وتوبة وتوكل وزهد وغيرها ، ويطلق على هذا اللون من الأدب اسم أدب التصوف العملى .

وتثمر هذه المجاهدة غالبا ثمارا يانعة من المعرفة كما تثمر أحوالا مختلفة من القبض والبسط والحب وما يتصل به من وجد وشوق وأنس وغير ذلك ، وتلك مادة سخية لما يطلق عليه أدب التصوف النظرى .

التقاء موضوعات الأدب الصوفى مع معانى القرآن الحديث :

ومن شعر الزهد الذى فتح الطريق لشعر الصوفية الزاهدين وغيرهم من الشعراء قول عروة بن أذينة :

لقد علمت وما الاسراف من خلقى
أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

كم من فقير غنى النفس تعرفه
ومن غنى فقير النفس مسكين

وأكثر أبو العتاهية من شعر الزهد وله فيه أفانين كثيرة واختلط فى شأنه النقاد ، ولكن قول الامام الشافعى رضى الله عنه يمثل شعر زهاد الصوفية تمام التمثيل . ومن ذلك :

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها
وسيق الى عذبها وعذابها

فلم أرها الا غرورا وباطلا
كما لاح فى ظهر الفلاة سرابها

وما هى الا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همهن اجتذابها

فان تجتنبها عشت سلما لأهلها
وان تجتذبها ناهشتك كلابها

فطوبى لنفس أوطأت قصر بيتها
مغلقة الابواب مرخى حجابها

وقد نظر الشافعي فى هذه الأبيات الى تصوير القرآن الكريم لحال الدنيا فى قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » والى تصوير الحديث الشريف للدنيا فى قوله « الدنيا جيفة وطلابها كلاب » .

وهكذا الشأن فى الأدب الصوفى الذى ينحو هذا المنحى نراه لا يبعد عن أدب القرآن والحديث ، بل ينسج على منوالهما فى الدعوة الى الفضائل والحث على الأخلاق ، وأمثلة ذلك كثيرة لا أطيل بذكرها .

حتى فى شعر التصوف النظرى الذى يتحدث عن ثمار المجاهدة وآثارها وعما يشاهده الصوفى من مشاهدات وعما يضمره من حب شديد لله ولرسوله الكريم انما يتحدث عن ذلك فى ضوء ما أدركه من أمثال قوله تعالى « والله بكل شىء محيط » ومن قوله تعالى « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف به فى النار ، وأن يكون الله ورسوله أحب اليه ممن سواهما » .

ومن شعر الصوفية فى هذا المعنى قول أستاذنا العارف بالله الشيخ محمد على منصور الأقدمى رحمه الله :

وأينما وليت لم أر غيره
محيطا ، ولا يدركه عبد هواه

وقول القائل الذى استشهد به ابن عجيبة فى ايقاظ الهمم :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد
الا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا
وكيف يعرف من بالعزة استترا

وفى تعبيرهم عن الحب الالهى يؤثرون أسلوب الرمز ضنا بما يعرفون من أسرار الجلال حتى

لا تتعرض للابتذال ، ومن أمثلةذلك ما يقوله ابن الفارض :

جرى حبها مجرى دمى فى مفاصلى
فأصبح لى عن كل شغل بها شغل

فنافس ببذل النفس فيها أخا الهوى
فان قبلتها منك ياحبذا البذل

فمن لم يجد فى حب نعم بنفسه
ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل

ولولا مراعاة الصيانة غيره
ولو كثروا أهل الصبابة أو قلوا

لقلت لعشاق الملاحة أقبلوا
اليها على رأيى وعن غيرها ولوا

وقد احتل مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم فى أشعار الصوفية مركزا مرموقا ، وصاغوا فيه دررا غوالى ، اقتداء بأدب القرءان الكريم الذى امتدحه بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » وسيرا على قدم من تقدمهم من شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم من أمثال حسان بن ثابت الذى يقول :

وأحسن منك لم ترقط عينى
وأفضل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءا من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

وكعب بن زهير الذى يقول :

ان الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

ومن بعدهما البوصيرى الذى تسنم شعر المديح ببردته الذهبية ، وهمزته الوضاءة التى منها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد
حال سنا منك دونهم وسناء

انما مثلوا صفاتك للناس
كما مثل النجوم الماء

وقد سار الشعراء على نمط هؤلاء سواء كانوا صوفيين أم غير صوفيين .

فنون الأدب الصوفى :

والأدب الصوفى ليس قاصرا على الشعر ، ولكنه فى النثر له مقام مشهود . والشعر بأغراضه التى أشرت اليها آنفا وأوردت بعض أمثلة لها من الأخلاقيات والحب الالهى والمدائح النبوية ، يتصل

بها ما صاغوه فى مدح شيوخهم ، ويضاف اليها ما صاغوه من نظم لعلوم التصوف وضبط قواعده ومصطلحاته بأسلوب سهل أخاذ .

أما النثر الصوفى فيتنوع الى رسائل ووصايا وأحزاب وأدعية وصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم وقصص وحكم وغير ذلك مما يغص به النثر الصوفى من ألوان أدبية رائعة .

كما أننا نجد بجوار ذلك كتبه المتعددة التى قعدت قواعد التصوف، وبينت أصوله وأحواله ومقاماته ، وضبطت أحكامه وأركانه مما يعد ثروة علمية وذخيرة أدبية .

وقد لا يتسع المجال لعرض نماذج لكل فنون النثر الصوفى ولكنى أكتفى ببعض ذلك للتذكير وفى الذكرى نفع للمؤمنين .

فمن نماذج الرسائل ما كتبه ذو النون المصرى ردا على أحد اخوانه ـ وقد اعتل فكتب الى ذى النون يرجوه أن يدعو له ـ :

« سألتنى أن أدعو الله لك أن يزيل عنك النعم ، واعلم يا أخى أن العلة مجازاة يأنس بها أهل الصفاء والهمم والضياء، ومن لم يعد البلاء نعمة فليس من الحكماء ، ومن لم يأمن الشفيق على نفسه فقد أمن أهل التهم على أمره ، فليكن معك يا أخى حياء يمنعك من الشكوى ، والسلام » .

والرسالة على ايجازها نموذج رفيع للفن الأدبى الصوفى وما فيه من معان مثالية تدل على ايثار الله بالحب، والاستئناس بالبلاء والفرح بالضراء ، والاستحياء من الشكوى.

ومن نماذج وصاياهم ما أوصى به أبو سعيد الخراز بعض أصحابه فقال له : « احفظ وصيتى أيها المريد . وارغب فى ثواب الله تعالى، وهو أن ترجع الى نفسك الخبيثة فتهذبها بالطاعة وتميتها بالمخالفة وتذبحها بالاياس فيما سوى الله ، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ،

ويكون الله حسبك ، وتسارع الى جميع الخيرات وتعمل فى جميع المقامات وقلبك وجل ألا يقبل منك» .

ومن ذلك قول عبد الله بن المبارك لرجل قال له أوصنى : « اترك فضول النظر توفق للخشوع ، واترك فضول الكلام توفق للحكمة ، واترك فضول الطعام توفق للعبادة ، واترك عيوب الناس توفق لمعرفة عيوبك ، واترك الخوض فى ذات الله تسلم من الشك والنفاق » .

وهى وصايا جامعة فى أسلوب رائع ومنطق جميل عنيت بالأسباب والمسببات دون تعقيد والتواء .

أما الأحزاب والأدعية والأوراد وصيغ المناجاة والصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى كثيرة لا تحصى ، وان دلت فانها تدل على مدى ما وصل اليه هؤلاء من صفاء فى الروح وصدق فى التوجه واخلاص فى الطلب ، الى جانب ما رزقوه من موهبة أدبية وبلاغة ومقدرة على صوغ أدق المعانى فى أجمل العبارات .

اقرأ هذا الدعاء « هربت اليك بنفسى يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب أحملها على ظهرى ، لا أحد شفيعا اليك الا معرفتى أنك أكرم من قصد اليه المضطرون ، وأمثّل فيما لديه الراغبون ، يامن فتق العقول بمعرفته ، وأطلق الألسنة بحمده ، وجعل ما امتن به من ذلك على خلقه كفاء لتأدية حقه ، لا تجعل للهوى على عقلى سبيلا ، ولا للباطل على عملى دليلا »

واقرأ للشاذلى رضى الله عنه : « اللهم انك تعلم أنى بالجهالة معروف وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شىء من جهالتى بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك ... اللهم انا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم ... »

فهل ترى معنى أعمق من هــذا افتنان :
وأسلوبا أرق من هذا ؟

ثــم اقرأ هــذه الضراعة التــى أجعلها مســك الختام لهذه الحلقة والتى أرجو الله أن يوفقنى ليربطها بحلقــة أخــرى تتحدث عن القصة الصوفية والحكمة الصوفية ـ اقرأ هذه الضراعة التى تشهد بما أوتيه هؤلاء الأدباء من قوة بيان وحسن

« اللهم انى أســتغفرك من كل ذنب قــوى عليه بدنى بعافيتك ، ونالته يدى بفضل نعمتك،وانبسطت اليه بسعة رزقك ، واحتجبت فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على أناتك وحلمك ، وعولت فيه على كريم عفوك »

عبد الحفيظ فرغلي على القرنى

مناجاة

يــارب : اين ترى تقــام جهنم
للظالمــين ــ غداً ــ وللفجــار ؟
لم يبق عفوك فى الســموات العلى
والأرض ، شــبرا خاليــا من نار
فمر الوجود يشف عنك لكى أرى
غضب الحليم ورحمة الجبــار

يعقوب بن داود وزير المهدى

للأستاذ السيد حسن قرون

كان النصف الأول من القرن الثانى الهجرى فريدا فى مفاهيمه العقائدية، ومذاهبه الفقهية والفكرية، وحركاته الثورية والسياسية ، اجتمع له من النوابغ فى كل علم وفن كواكب مضيئة ونجوم زاهرة كان لهم الأثر الكبير فى صوغ المجتمع الاسلامى والعربى فى صورة حضارية أخاذة ، وكان الحوار فى كل شيء سمة العصر ، ولا يسل السيف من غمده الا اذا اتصل الحوار بالخلافة ، فعندها تخرس الألسنة وتصرخ الأسنة ، كان الحوار فى كل مجتمع وصقع ، فى المسجد وفى الأسواق وغيرها .

كل يتحدث ، كل يخطب ويجادل ويتحرك ، ويكتب أيضا ، وكم طال الحوار حول مرتكب الكبيرة ، وبه قامت مذاهب متنوعة: مرتكب الكبيرة أكافر أم فاسق أم هو المنزلة بين المنزلتين ؟ وسارت فى الناس كلمات المعتزلة وأهل العدل وأهل السنة ، والمشبهة ، والقدرية والجبرية ، ويطيلون الكلام حول عمل الانسان والجزاء عليه أو بتعبيرهم أمخير أم مسير ؟ وكانت طبقة أولى البصائر على مستوى كبير من المعرفة ، لا تركن الى علمها ، ولا تحبس نفسها فى مساجدها، ولكنها تدخل فى الجدل الدينى والسياسى ، وتنصر فريقا على فريق .

فى هذا الجو الفريد الجديد على المجتمع الاسلامى نشأ (يعقوب بن داود بن طهمان) من موالى بنى سليم وفى خراسان حيث يعمل والده موظفا عند الوالى (نصر بن سيار) وشاهد الصراع السياسى والمذهبى بين الهاشميين والامويين والهجمات الضارية التى يشنها الخوارج فى كل موسم من مواسم الحج ، وعرف جدال العلماء فى الكوفة والبصرة ، فكان ابن عصره علما وأدبا وسياسة وقد

اتيح له أن يكون مثقفا ثقافة واسعة تؤهله لحمل أمانة العمل فى الدولة الناهضة ، وظهر رجل فى عصره شد الانتباه اليه ، كان بارعا رائعا فى كل أموره ، ذلك الرجل هو (زيد بن على زين العابدين) حفيد الشهيد (الحسين بن على) رضى الله عنهما ، كان يحاور فى كل شىء ، ويجادل كل شخصية لها مكانتها فى المجتمع ، حاور الخليفة هشام بن عبد الملك ورماه بالجور ، ورماه هشام بخلوه من مؤهلات الخلافة ، لأنه ابن أمة ، حاور والى العراق ، وجادل بنى عمومته من أبناء (الحسن بن على) وجادل أخاه ، لانه عاب عليه مجالسة المعتزلة .

وأعجب من كل ما ذكرنا جداله اتباعه وهو فى حاجة اليهم ، فقد أرادوه على التبرؤ من الشيخين أبى بكر وعمر فأثنى عليهما فرفضوه واتجهوا الى ابن أخيه فسموا «الرافضة» . وكان خروجه على هشام ووالى العراق لدفع الظلم ورد الحق الى أصحابه ثم استشهاده وصلبه مأساة قومية هزت المجتمع الاسلامى هزا عنيفا ، فبقيت تعاليمه تتوغل فى كل مكان ثم صارت مذهبا يتخذه الأتباع للتعبد ، وفر ابنه (يحيى) الى خراسان فقتل فى (الجوزجان) بعد أن أوصى الى (محمد بن عبدالله) من ولد (الحسن بن على) فقتل وعهد الى أخيه (ابراهيم) فقام بالبصرة وشايعه أولو البصائر من أصحاب الفقه والكلام واستولى على فارس والأهواز ، فأرسل اليه الخليفة المنصور العباس جيوشه فهزمت ثم قتل(١) ابراهيم وهو منتصر .

وما شأن يعقوب بن داود فى ذلك؟ يقول التاريخ : كان داود بن طهمان وهو أبو يعقوب واخوته كتابا لنصر بن سيار ، وقد كتب داود قبله لبعض ولاة خراسان ، فلما كانت أيام (يحيى بن زيد) العلوى كان يدس اليه والى أصحابه بما يسمع من نصر ويحذرهم ، فلما خرج أبو مسلم يطلب بدم يحيى بن زيد ويقتل قتلته والمعينين عليه من

---

(١) سنة ١٤٥ هـ

أصحاب نصر أتاه داود بن طهمان مطمئنا لموقفه منه ، فأمنه أبومسلم ولم يعرض له فى نفسه ، وأخذ أمواله التى استفادها من عمله مع نصر ، وترك منازله وضياعه التى كانت له ميراثا بمدينة (مرو) .

فمامات داود حتى كان أبناؤه أهل علم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ، ونظروا فاذا ليست لهم عند بنى العباس منزلة فلم يطمعوا فى خدمتهم لحال أبيهم من العمل لنصر بن سيار ، فلما رأوا ذلك أظهروا « الزيدية » ودنوا من العلويين ، وطمعوا أن تكون لهم دولة فيعيشوا منها ، فكان يعقوب بن داود يجوب البلاد منفردا بنفسه حينا ومع ابراهيم بن عبد الله أحيانا فى طلب البيعة لمحمد بن عبد الله .

فلما ظهر محمد وابراهيم ابنا عبد الله وأعلنوا خلافة علوية كتب (على ابن داود) لابراهيم بن عبد الله والى البصرة ، وكان يعقوب يصحب ابراهيم فى كل مكان يؤمه ، وكان معه حين قتل فى المعركة ، تبخرت آماله ، وخاف المنصور على نفسه ، فلجأ الى الفرار ، لكن المنصور لم يتركه فقبض عليه ووضعه فى السجن مع من بقى من أبناء عبد الله العلوى ، واسحق بن الفضل الهاشمى فعاش فى السجن فى صحبة الحسن بن ابراهيم واسحق بن الفضل ، وانعقدت بينه وبين اسحق صداقة متينة ، وكانا يتحدثان فى كل ما تزخر به الحياة من شئون الدين والدنيا ، وكان اسحق يرى أن الخلافة قد تجوز فى صالحى بنى هاشم جميعا ، ومن كلامه أن الامامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصلح الا فى بنى هاشم ، وهى فى هذا الزمن لا تصلح الا فيهم ، وكان يكثر فى قوله « للأكبر من بنى عبد المطلب » وكان يعقوب يجاريه فى مسلكه ، واسحق هذا من ولد (الحارث بن عبد المطلب) .

ومات المنصور ١٥٨ هـ وتولى المهدى بعده ، فرأى أن يطلق سراح المسجونين الا من كان قبله تباعة من دم أوقتل ، ومن كان معروفا بالسعى فى

الأرض بالفساد ، أو من كان لأحد قبله مظلمة أو حق فأطلقوا ، فكان ممن أطلق يعقوب بن داوود ، وبقى الحسن بن ابراهيم العلوى فى السجن ، لأنه ابن الثائر ابراهيم ابن عبد الله،ولكن أتباعه من الشيعة احتالوا له فحفروا سردابا نفذ الى سجنه فهرب الحسن منه •

خرج يعقوب من السجن فوجد دنيا غير الدنيا التى عهدها ، ليس فيها مروان ولا بنو أمية ، وليس بها الأمير ابراهيم ولا مجلسه العامر فى البصرة ، ولا المنصور فقد صار من سكان القبور ، ولم ير أحدا من أولى البصائر فقد تفرقوا أيدى سبا، ونظر حوله فلم يجد عملا ولا وظيفة ولا قريبا ولا حبيبا ، فأوى الى المساجد يعمرها ، ولم تكن بغداد عنده الا مسجدا ، والخليفة المهدى مستطار الفؤاد ، مرتاع النفس لهرب الحسن بن ابراهيم يجد فى طلبه ، ويبث العيون فى أثره فلا يبلغ مما يبغى شيئا ، الخليفة المهدى فى قلق وأرق من خصمه ويعقوب فى هم من مآله • وكانت المفاجأة •وافاه رسول المهدى يدعوه للمثول بين يديه ، فارتاع والتاع ، وود لو أن بينه وبين الخليفة أمدا بعيدا ، فنهض ولم يتكلم فكل كلمة محسوبة عليه ، وكل حركة يؤاخذ عليها لقد أفرج عنه ولما يسترح بعد • أو شاية بلغت الخليفة ؟ ليكن ما يكون ، ولم يدر فى خلده ما جرى فى مجلس الخليفة ، ان الخليفة عناه أمر الحسن فعرض على جلسائه ما يشغله فقال : لو وجدت رجلا من الزيدية له معرفة (بآل الحسن) وعيسى بن زيد لكفانى المتاعب • قال جلساؤه • يا أمير المؤمنين ، لايصلح لهذا الأمر الا يعقوب بن داود فكان الأمر باحضاره •

دخل يعقوب بن داود وملبسه يدل على تقشفه ، فكلمه وفاتحه فوجده رجلا كاملا ، وصار من حاشية الخليفة • خرج من المجلس فعاوده الأمل وعاوده طموحه،وذكر فيما يريده المهدى منه . وما يريده هو فأفتى لنفسه فتوى عمل على تنفيذها ، كل ما يريده الخليفة (الحسن بن ابراهيم) أو بمعنى

أوفق يريد الراحة من ثورات بنى عمه ، وماذا عليه لو جمع بين المتنازعين ، وأزال البغض من النفوس ؟ ان الرعية كما عرفها تتوق الى رتق الفتق بين بنى هاشم ، فلو فعل هذا لأرضى الطرفين بل أرضى الناس جميعا . لقد كان دعاة بنى العباس يدعون للرضا من آل محمد ، وأبو مسلم الخراسانى كان يقتل قتلة يحيى بن زيد العلوى ، وشاعرهم حرض (عبد الله بن على) على قتل وجوه بنى أمية بقوله

واذكروا مصرع الحسين وزيد
وقتيلا بجانب المهراس

فقد اثاره بذكر مصرع الحسين بن على وابنه زيد ، وبحمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وهو ما يعنيه الشاعر بالقتيل الذى قتل بجانب المهراس ، فالزيدية كانت سمة هاشم كلها ، علويها وعباسيها فلا مانع من عودة المياه الى مجاريها وتصبح الخلافة خلافة الهاشميين جميعا ، وصديقه اسحق بن الفضل يرى ذلك ، بل يرى أن تكون الخلافة فى الأكبر من بنى عبد المطلب ، فلنرأب الصدع أولا ثم يجىء الاتفاق ثانيا . هذا ما أفهمه من موقفه ، فليس صحيحا أنه سعى بالحسن حتى قبض عليه ليرتفع شأنه عند المهدى ؛ لأن ما فعله حين ولى الوزارة يناقض هذا تماما ، فهو حين أراد أن يجمع الحسن بالمهدى اشترط على المهدى أن يعطيه أمانا ويصله ويحسن اليه » وكان ذلك على رءوس الأشهاد .

ورأى يعقوب أن يفيد المهدى بخبرته واخلاصه فقال له ذات يوم: يا أمير المؤمنين ، لقد بسطت عدلك لرعيتك ، وأنصفتهم وعممتهم بخيرك وفضلك ، فعظم رجاؤهم فيك ، وانفسحت آمالهم ، وقد بقيت أشياء لو ذكرتها لك لم تدع النظر فيها بمثل ما فعلت فى غيرها ، وأشياء مع ذلك خلف بابك يعمل بها لا تعلمها ، فان جعلت لى السبيل الى الدخول عليك وأذنت لى فى رفعها اليك فعلت . فأعطاه المهدى ذلك ، وأمر خادم المنصور الأسود (سليما) أن يكون فى اذن يعقوب كلما أراد الدخول عليه .

صار يعقوب يتردد على الخليفة ، ولا ينكر ذلك الوزير (أبو عبيد الله معـــاوية بن يســـار) من موالى الأشعريين ولا القـــاضى (محمد بن عبد الله بن علاثة الكلابى) وهمـــا أقرب النـــاس الى قلب المهـــدى وموضع نجواه ، فكان يعقوب يرفع النصائح فى الأمور الحسنة من أمر الثغور ، وبناء الحصون ، وتقـــوية الغـــزاة وتزويج العزاب ، وفكاك الأسرى والمحبوسين ، والقضاء على الغارمين ، والصدقة على المتعففين ، فحظى بذلك واتخذه أخا فى الله ، وأخرج بذلك توقيعا ، وأثبت ذلك فى الديوان، ووصله بمائة ألف درهم، فانتعشـــت حاله ، وارتـــاح باله ، واتســـعت آماله ، وضعفت مكانة الوزير والقاضى فقال على بن خليل:

عجبا لتصريف الأمو
ر مسرة وكراهية

والدهر يلعب بالرجا
ل له دوائر جارية

رثت بيعقوب بن دا
ود حبال معـــاوية

وغدت على ابن علاثة ال
قاضى بوائق عافيه[1]

قل للوزير أبى عبيد الله
هل لك باقيـــة ؟

يعقوب ينظر فى الأمو
ر وأنت تنظر ناحية

أد خلته فعـــلا عليـــك
كذاك شؤم الناصية

ولم يطل أمر الوزير فى منصبه ليتلقى الهجاء صريحا أو تعريضـــا فقد صدر الأمر بتعيين يعقوب بن داود بن طهمان مولى بنى ســـليم وزيرا . وصرح الخليفة عند تعيينه « أن وصف لى يعقوب بن داود فى منامى فقيل لى اتخذه وزيرا » ولا حاجة بى الى النظر فى حلم المهدى فالرجل أعجب به و « فاتحه فوجده رجلا كاملا » فوجب الانتفاع به ، فبه هدأت ثائرة العلويين كما ظن ، وفى يده (الحسن بن ابراهيم) وهنا

---

(١) القاضى عافية بن يزيد الأزدى .

فوض اليه أمر الخلافة فصار الخليفة يملك ولا يحكم كما نقول اليوم . كان ذلك سنة ١٦١ هـ .

ومن أول يوم نفذ ما رسمه فى مخيلته فأرسل الى «الزيدية» فأتى بهم من كل أوب وولاهم نفيس الأعمال فى الشرق ، والغرب ، وجعل على المدن الكبرى من يثق به من أولى البصائر كالكوفة والبصرة ودمشق ومرو ، وكان فى نيته أن تكون مصر من نصيب زميله فى السجن اسحق بن الفضل الهاشمى لكن تعيينه وزيرا أثار طوائف وجماعات لها وزنها فى الدولة ، أثار بنى الحسن والعاويين عموما وأغضب الوزير والقاضى ولهما أتباع وأشياع ، وأغضب أبناء الدعوة من الخراسانيين ، لأنه فى نظرهم ابن رجل خدم نصر بن سيار والى الأمويين فى خراسان ، وأغضب خدم القصر لأنه غريب عنهم .

ويمثل ثورة بنى الحسن بشار بن برد ، لأنه ويعقوب كانا فى صحبة ابراهيم بن عبد الله ، وبشار مدح ابراهيم بقصيدة فضلها النقاد على شعر الفرزدق وجرير ، وفيها ذم المنصور وحين قتل ابراهيم غير مطلعها وحذف ما يخص ابراهيم ، ولا بأس من ايراد بعضها لتعلم مدى حب بشار واعجابه بالأمير ابراهيم والد الحسن غريم المهدى . قال :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم
ولا سالم عما قليل بسالم
تجردت للاسلام تعفو سبيله
وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فمازلت حتى استنصر الدين أهله
عليك فعادوا بالسيوف الصوارم
فرم وزرا ينجيك يا بن سلامة (١)
فلست بناج من مضيم وضائم
لحا الله قوما رأسوك عليهم
وما زلت مرءوسا خبيث المطاعم
أقول لبسام (٢) عليه جلالة
غدا أريحيا عاشقا للمكارم
من «الفاطميين» الدعاة الى الهدى
جهارا ، ومن يهديك مثل ابن فاطم؟
سرج لعين المستضىء وتارة
يكون ظلاما للعدو المزاحم
اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن
برأى نصيح أو نصيحة حازم

(١) أم المنصور وهى امة .
(٢) ابراهيم

بشار يرى المنصور مضيعا للاسلام ويعرى ظهره لليوث الضراغم ، ويرى ابراهيم هو الهادى والسراج وعاشق المكارم ثم هومن « الفاطميين » ولا أعرف أحداسبق بشارا الى هذه النسبة (فاطمى) التى صارت فيما بعد علما على دولة بأسرها . فبشار حزين وغاضب وثائر على يعقوب لأنه تنكر للمبادىء ، وخان العهد ، وعمل مع قتلة ابراهيم ولو كان أحد يعفىمن لسان بشار لأعفى يعقوب لأنه من الموالى وبشار شعوبى متعصب للموالى ، ولكن يعقوب رضى أن يكون وزيرا للعباسيين بعد صحبة ابراهيم وهذا سر هجائه . قال :

بنى أمية هبوا طال نومكم
ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا
خليفة الله بين الدف والعود

ويخيل الى أننكبةابراهيمأذهلت بشارا فجعلته يخرج عن طوره ، فيعلن ثورته على المسلمين ويكفرهم جميعا بعد وفاة رسول الله صلىالله عليه وسلم ، بل يتمادى فى الخبل فيفضل ابليس على آدم ، فاذا ولى الوزارة يعقوب للمهدى بعدالقبض على (الحسن بن ابراهيم) فتلك الطامة الكبرى ، ولا تسكن ثائرته حتى يرى يعقوب طريدا منمنصبه أو قتيلا بيد من يخدمه .

وعلى رغم ثورة بشار وحسد الحساد ونقمة الناقمين من أبناء الدعوة العباسية وخدم القصر فقد كان يعقوب رجل الساعة فى مجتمعه ضبط الأمور ضبط الحازم الخبير، وسهر حين نام غيره ، متفقدا أحوال الامبراطورية ، له دين وعقل ، وعلم وحلم ، ولقد استطاع التخلص من بشار بقتله ولكنه عجز أن ينال منالا من خدم المهدى وأبناء الدعوة من خراسان لدالتهم على بنى العباس .

ومع أنه نفذ ما كان ينصح به المهدى من بناء الجسور والقلاع ، وتأمين السبل ، واشاعة الأمن فى ربوع الدولة وتقوية الغزاة ، وارساء قواعد العدل وبسط المساواة بين الناس الى كثير مما

يوجب تكريمه والثناء عليه الا أن أعداءه ومنافسيه جعلوا الحسن قبيحا ، والجد فى الأمور تقصيرا . كانت الدعاية تعمل عملها فى العامة والخاصة ترميه بالوصولية ولو على حساب الشرف والدين ، وتآمر عليه من عرفوه قبل الوزارة ومن عرفوه وهو متقلدها ، وكان الوشاة ينتهزون فرصة غيابه عن الخليفة فيقولون ما يقولون،وكانوا ينتظرون نكبته من حين الى حين.يقول بعض خدم القصر : كنا ننتظر نكبته صباحا فاذا دخل على الخليفة سرعان ما تشيع البهجه فى وجهه وينسى ما نواه ، فاذا أمره نافذ ، ومكانته فى ازدياد.

والتهم التى وجهت اليه كثيرة كان يخرج منها بريئا نقيا ، اتهم باستغلال النفوذ ، وصل الى المهدى أنه بنى متنزها انفق عليه خمسين ألف ألف من بيت مال المسلمين فوجه الخليفة اليه التهمة وآذاه بيده فنفاها وحلف قائلا والله ما سمعته أذناى،ولا كتبه الكرام الكاتبون ، ثم تبين أن بانى المتنزه أحد أمراء بيت الخلافة . وكيف يفعل ذلك وهو الذى عاب على المهدى اسرافه ، فقال له : « ويلك لولا السرف لم يعرف المكثرون من المقلين » .

وحكاية العلوى الذى أمر باعتقاله فى داره ثم هربه أو أراد أن يهربه فحيل بينه وبين ما يريد أقرب الى الشائعات منها الى الوقائع ، لأن هناك شائعة أخرى تصادم تلك الشائعة وهو سعيه ليكون الحسن بن ابراهيم العلوى فى قبضة المهدى والشائعتان تخدمان المهدى ، لأن الأولى تحمله على القضاء على يعقوب أو اقصائه من منصبه،والأخيرة تجعل الزيدية والعلويين يناصبونه العداء ، والعلوى الذى زعمت الشائعة أنه هربه لم يذكر الرواة اسمه،ولو كان الأمر حقا لعينوه بالاسم واللقب .

والتهمة التى يستسيغها العقل ويأباها الواقع هى تدبير يعقوب لقلب نظام الخلافة من أجل صداقته لاسحق بن الفضل الهاشمى . فقد قالوا انه كان يريد أن يعين يوما للانقلاب ، وجميع الولاه من صنعه. وفرق كبير بين أن يتحدث اثنان فى

السجن فى شأن من الشئون وبين تنفيذ تلك الأحلام ، فالأرض ثابتة تحت أقدام العباسيين واذا كان « النفس[١] الزكية » وهو المبايع من السفاح والمنصور لم يستطع أن يتغلب على المنصور فبعيد أن يبلغ ذلك أى هاشمى آخر ، ومع بنى العباس القواد والجنود والأموال ، انما ما تحدث فيه يعقوب واسحق ضرب من الأمانى فى أن تكون الخلافة شورى بين بنى عبد المطلب وفى الأكبر منهم حتى لا يتولاها الصبية الجهلاء بالوراثة وحتى لا يقعوا تحت امرة الخدم والمتسلطين كما حدث فيما بعد ،وقد وجد أعداء يعقوب فرصتهم حين رأوا أن الولايات فى يد الزيدية أنصار الوزير،وأن الدسائس تنفع هنا . ويروى (على بن محمد النوفلى) من ولد (الحارث بن عبد المطلب) أن بعض خدم المهدى ذكر له : أنه كان قائما على رأس المهدى يوما يذب عنه اذ دخل يعقوب فجثا بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين، قد عرفنا اضطراب مصر ، وأمرتنى أن ألتمس لها رجلا يجمع أمرها ،فلم أزل أرتاد حتى أصبت لها رجلا يصلح لذلك . قال : ومن هو ؟ قال ابن عمك اسحق بن الفضل . فرأى يعقوب فى وجهه التغير ، فنهض وخرج ، واتبعه المهدى نظره ثم قال قتلنى الله ان لم أقتلك . ثم رفع رأسه الى وقال : اكتم على،ويلك! . قال الخادم : ولم يزل مواليه يحرضون عليه ويوحشون منه حتى عزم على ازالة النعمة عنه ، وقد كان.

قال النوفلى : أمر المهدى بعزل أصحاب يعقوب من الولايات فى الشرق والغرب ، وأن يؤخذ أهل بيته وأن يحبسوا ، ففعل ذلك بهم . هل كان يعقوب يرى مصيره من ستر رتيق ؟ انه كثيرا ما طلب من المهدى اعفاءه من العمل ، مدعيا أنه ينفزع فى نومه مخافة أن يقصر فى شأن المسلمين واعطاء الجند ، ويقول له ، ليس دنياك عوضا عن آخرتى فيقول المهدى : اللهم غفرا ، اللهم

(١) محمد بن عبد الله العلوى .

أصلح قلبه ، والماجنون حين يسمعون يقولون :

فدع عنك يعقوب بن داود جانبا
وأقبل على صهباء طيبة النشر

وقد أعفى قسرا وأدخل السجن منكوبا سنة ١٦٧ هـ . ولم يكتف المهدى بسجنه،فكان يعاوده بالعذاب من حين الى حين .

ويبدو من منطق الحوادث أن يعقوب بن داود كانت له منزلة فى المجتمع الاسلامى،وأن الخليفة كان يخاف عليه أن يموت قتيلا ، وهذه الحادثة التى نذكرها تدل على ذلك، أمر الخليفة « على بن عيسى بن ماهان » أن يضربه مائة سوط وحين نفذ الأمر عيسى لم يضربه ضربا مبرحا فلما خرج من عنده قال له الخليفة : « ما صنعت بالرجل ؟ » قال : « صنعت به ما أمرت » .قال: « فما حاله » ؟ قال : « مات » ففزع الخليفة وقال : « ويلك فضحتنى والله عند الناس ، هذا رجل صالح يقول الناس قتل يعقوب بن داود ، فلما رأى جزعه قال : « هو حى يا أمير المؤمنين لم يمت ولكن الخليفة كانت الهواجس تؤرقة من موقف يعقوب من اسحق بن الفضل ففى ليلة أحضر الخليفة اسحق بن الفضل ويعقوب من السجن وواجه يعقوب بالتهمة وهى العمل على نقل الخلافة الى اسحق فقال يعقوب : « ما علمت بهذا قط ؟ « وغضب الخليفة وقال له : « أتكذبنى وترد على » وأمر بضربه بالسياط فضرب اثنى عشر سوطا ثم تبين أن الساعى الى هذا غيره فاعتذر اليه ثم أخذ يستجوب اسحق فنفى اسحق سعيه الى الخلافة وطمعه فيها وقال له فيما قال : « ان ذلك ليس من شأنى وكيف أقول هذا ياأمير المؤمنين وقد مات جدى فى الجاهلية (الحارث بن عبد المطلب)، وأبوك الباقى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووارثة(يعنى العباس بن عبد المطلب) » ومع أن القضية واضحة وأن الرجلين بريئان مما نسب اليهما فان الخليفة أصر على أن يبقى يعقوب فى سجنه يقاسى الظلام والأسقام حتى أتاه الفرج على يد الرشيد الذى كان يعجب به ويميل اليه من صغره .

ولنترك يعقوب يحدثنا عن نهاية سجنه قال : « أمر المهدى بحبسى فحبست فى « المطبق » واتخذ لى فيه بئر فدليت فيها ، فكنت كذلك أطول مدة لا أعرف عدد الأيام وأصبت ببصرى وطال شعرى حتى استرسل كهيئة شعر البهائم فانى لكذلك اذ دعى بى فمضى بى الى حيث لا أعلم أين هو ؟ فلم أعد أن قيل لى سلم على أمير المؤمنين فسلمت . فقال : « أى أمير المؤمنين أنا ؟ » قلت : « المهدى » قال : « رحم الله المهدى » قلت : « فالهادى » قال : « رحم الله الهادى » قلت : « فالرشيد » قال : « نعم » قلت : « ما أشك فى وقوف أمير المؤمنين على خبرى وعلتى وما تناهت اليه حالى » قال : « أجل كل ذلك عندى . فسل حاجتك » قلت : « المقام فى مكة » قال : « تفعل ذلك فهل غير هذا ؟ » قلت : « ما بقى فى مستمتع بشىء ولا بلاغ » قال : « راشدا » فخرجت وكان وجهى الى مكة » قال ابنه : « ولم يزل بمكة فلم تطل حياته بها حتى مات . كان ذلك سنة ١٧٠ هجرية وبذلك انتهت حياة رجل عظيم يعرف أمانة الحكم ويحملها بنزاهة وحزم أضاعته الدسائس والأحقاد ففقدت به الدولة الاسلامية وزيرا مصلحا يحسن رعاية ما قلده تمام الاحسان .

السيد حسن قرون

بـاب الفتـوى

اعداد وتقديم : الأستاذ/ عبد الحميد شـاهين

(س) هل يمنـع وجود اللزقـة الأمريكانى على الجسد بمكان به ألم من رفع الجنابة اذا أراد الغسل منها ؟

(جـ) مذهب الحنفية يوجب على الجنب غسل كل جزء من أجزاء البدن فان ضره الغسـل بالمـاء مطلقـا ولو ساخنا مسح الجزء الذى يضره الغسل ، فان ضره مسـحه أيضـا مسح على الجبيرة أو الخرقـة ، ومثلهما اللزقة ، فان ضره المسـح على ذلك أيضا سقط عنه هـذا الواجب ..

وبهذا يعلم حكم هذه الحادثة . فانه ان ضره غسل موضع اللزقـة أو ضره أيضا مسحه أو ضره حلها، ليغسل ما تحتها أو يمسحه ، مسح على اللزقة ، فان ضره المسح عليهـا لم يجب عليه شىء بالنسبة الى هذا الموضع . ويكفى فى معرفة الضرر التجربة أو اخبار الطبيب الموثوق به .

(س) لى بنت مريضة مرضا عصبيا لم أجد لها علاجا وقيل انها مريضـة بسبب مس من الجن ، فهل لى أن أعالجها بالطرق الروحانية ؟

(جـ) نفيد بأن مس الجن حاصل بنص القـرآن الكريم : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » .

والعلاج منه بالرقيـا والفـوائد الروحانية لا مانع منه متى كان ذلك على يد رجـل صالح موثوق به . مجرب بعيد عن الدجل والشعوذة ، وجرى بأدعية مفهومة أو منقولة عمن يوثق به ..

(س) يتحرج بعض النـاس من التبليغ ضد التجار الجشعين لبيعهم المواد بأسعار غالية تزيد على الأسعار

المقررة ، أو ضد من يختزنون أقوات الناس وما يلزمهم .. لاعتقادهم أن هــذا التبليغ ليس واجبــا عليهم شرعا .. فما رأى الدين الحنيف ؟

(جـ) اذا قررت الحكومة أسعارا لما يحتاجه الناس فى معيشتهم من طعام ولباس وغيرهما دفعا لظلم أصحابها ومنعا للضرر العام عن الناس وجب شرعا البيع بهذه الأسعار وكان البيع بأزيد منها ظلما محرما شرعا ..

واذا نهت عن اختزان ما يحتاجه الناس كان الاختزان أيضــا محرما شرعا ، ومنكرا يجب ازالته . ويجب على كل من يعلم أن من التجار من يبيع بأسعار زائدة عن الأســـعار المقررة أو يختزن ما يحتاجه الناس أن يبلغ الحكومة لتعمل على ازالة هذا المنكر فانها لا تستطيع ازالته الا اذا علمت به ..

ووجب شرعا على من يعلــم أن يبلغها ويعلمها بذلك ، وبذلك يسعى فى ازالة الظلم ، وهو من أعظم وجوه البر وقد قال تعالى: « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على تحريم الاحتكار وهو: احتباس الشىء انتظارا لغلائه فقد روى مسلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال: « لا يحتكر الا خاطىء (الخاطىء المذنب العاصى) .. وروى أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة ــ أى بمكان عظيم من النار ، وروى ابن ماجة عن عمر أنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من احتكر على المسلمين طعــامهم ضربه الله بالجزام والافلاس » الى غير ذلك من الأحاديث .

والخلاصة أنه يجب على من يعلم أن من التجار من يبيع بأسعار مرتفعة عن الأسعار المقــررة أو يختــزن أقوات المسلمين وما يلزمهم فى معاشهم فاذا كان واحدا وجب عليه وحــده التبليغ فان لم يبلغ كان آثما ، واذا كان من يعلم أكثر من واحد وجب على كل منهم أن يبلغ فاذا قام به

بعضهم لم يأثم أحد منهم لحصول المقصود بتبليغ بعضهم ، واذا تركوا التبليغ كلهم كانوا جميعا آثمين كما هو حكم الواجب الكفائى والله أعلم .

(س) توصل الطب الى دواء حديث يعطى للمرأة عند عملية الولادة فيخفف عنها آلام الوضع ، فهل يمنع الشرع استخدام هذا الدواء ؟

(ج) اذا استطاع الطبيب تخفيف آلام الولادة عن طريق دواء يحقق ذلك ، فذلك مباح لأنه عمل انسانى وقد قال تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقال : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال صلى الله عليه وسلم « ان الدين يسر » .

فاذا استعملت المرأة هذا الدواء لهذا الغرض فلا مانع منه اذ لم يصحبه ما هو ممنوع شرعا . كأن يكون الدواء نجسا أو من مادة ممنوع استعمالها شرعا .

(س) هل يوجد فى الشرع ما يحرم عقد القران فى شهر المحرم أم أن ذلك عرف جرى عليه الناس ؟

(ج) لا يوجد فى الشرع ما يحرم عقد القرآن فى شهر المحرم . وما تعورف عليه عند بعض الناس فعرف فاسد لا أصل له .

(س) فى بعض الأحيان لا أجد ملبسا طويلا عند الصلاة ، مما يضطرنى الى لبس القصير ، وهو تحت الركبة بكثير ، فهل تصح الصلاة فى هذا الثوب ؟

ان الصلاة فى الثياب القصيرة تحت الركبة للمرأة أو مع كشف الرأس والذراعين صحيحة عند المالكية غير أنها تكون مكروهة اذا استطاعت ستر هذه الأطراف[1] .

---

(١) من سجلات لجنة الفتوى بالأزهر بتصرف .

الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد العلامة

الدكتور محمد إقبال

- محمد إقبال — الدكتور عبد الودود شلبي
  أمير شعراء الإسلام
- إقبال فى مصر — الدكتور محمد السعيد جمال الدين
- فى ذكرى إقبال — الدكتور عبد الجليل شلبى
- إقبال — الدكتور يحيى الخشاب
- محمد إقبال — كلمة سفير باكستان

محمد إقبال: أمير شعراء الإسلام

للدكتور عبد الودود شلبي
مدير ورئيس تحرير مجلة الأزهر

لا أنكر أننى أحبه ..

وقد بدأت معرفتى به حين كنت طالبا صغيرا فى الأزهر ..

وتوثقت معرفتى بـه حين قرأت ما كتبه عنه علامة الهند أبو الحسن الندوى ..

وتأكد حبى له وأنا أبكى فى زيارة ضريحه المسجى بالجلال والعظمة بجوار بادشاهى مسجد فى لاهور..

ان احتفالنا بالذكرى المئوية لمولده اليوم .. يعنى الاحتفال بمولد البعث للأمة الاسلامية ..

ويعنى الاحتفال بـ « الحق » الذى استرده المسلمون فى شبه القارة الهندية الباكستانية ..

ويعنى الاحتفال بالقيم الانسانية الرفيعة والمثل العليا ..

وفى مصر كان أول احتفال بهذه المناسبة فى جامعة الأزهر ..

ومن الأزهر الشريف جئت أحمل قلبى الى شاعر الاسلام والمسلمين الأكبر ..

لقد قالوا عنه : شاعر، وفيلسوف، ومتصوف ..

ولكن..من من الشعراء والفلاسفة والمتصوفة كان مثل :

« اقبال » فى شعره ، وفلسفته ، وتصوفه ..

هوميروس .. أو .. دانتى جيته أم شكسبير ؟ طاغور أم شوقى والمتنبى ؟

لقد كانوا شعراء حقا .. ولكن الذى بقى من شعر هؤلاء لا يزيد على مجموعة من الدواوين؟أو بعض المسرحيات والقصص ، أو بعض الاغانى والأناشيد تلقى فى المناسبات

العابرة ، ثم ينتهى الانشاد والغناء بستار كثيف على الشاعر والشعر، ويتحول ما كتب أو قيل الى صدى بعيد فى أذن التاريخ والدهر ..

وقد حاول « طه حسين » أن يعقد مقارنة بين « اقبال » وأبى العلاء كشاعرين تميزا فى رأيه بلون من التفكير لا يتوفر عند غيرهما من الشعراء والفلاسفة والمتصوفة فقال :

شاعران يتقاربان كأشد ما يكون التقارب ، ثم يتباعدان كأشد ما التباعد : كلاهما شاعر أولا ، وكلاهما فيلسوف ، أخضع الفلسفة للشعر ، وأخضع الشعر للفلسفة ، وكلاهما تصوف حتى بلغ الغاية من التصوف ، وكلاهما بعد ذلك خرج على التصوف التقليدى المعروف واتخذ لنفسه سبيلا خاصا فى التصوف لا يشاركه فيه أحد ولكنهما بعد ذلك يختلفان ويفترقان أشد ما يكون الافتراق..

فاحدهما ــ وهو أبو العلاء كان فى أيامه ينظر الى الهند ويطيل النظر اليها ، والأخذ عنها ، والتأثر بها حتى التزم فى حياته حياة المتنسكين من البراهمة ..

والآخر ــ وهو اقبال ــ كان ينظر الى العرب ويشيد بهم ويثنى عليهم ، ويتخذهم المثل الأعلى للانسانية الجديرة بالوجود والحياة والبقاء ..

كلاهما آمن بشخصيته ، ودعا الناس الى أن يؤمنوا بأنفسهم ولكن أحدهما ــ وهو أبو العلاء ــ آمن بشخصيته ايمانا انتهى به الى اليأس، وانتهى به الى اعتزال الناس .. والآخر ــ وهو اقبال ــ آمن بنفسه، والتمس مثله عند العرب ولم يلتمسه قريبا منه فى الهند ثم لم يعتزل ، وانما كره العزلة ، ولم يلغ غرائزه ــ كما فعل ابو العلاء ــ وانما دبر وسيطر عليها وحكم عقله فيها ..

هذه المقارنة بين ــ « اقبال » وبين « أبى العلاء » ــ تظهر تفوق (اقبال) فى شاعريته كشاعر ، وفى ايمانه كمسلم ، وفى عبقريته كمفكر وفى انسانيته كرائد من رواد الاصلاح والتقدم ..

وقــد قالوا عن « اقبــال » انه فيلسوف ..

ولكــن أية فلســفة هــذه التى يريدون انتسابه اليها ؟

وماذا بقى من هذه الفلسفة التى جن المتفلسفون بآرائها وأقوالها ؟

خيالات وأوهام .. وشطحــات عقول تسقط وتتهــاوى أمام أول تجربة لهذه الآراء والأقوال انهــا شىء أشــبه بالسراب فى صــحارى المعرفة والعقل ، وستظل سرابا لانها **لم تثبت أمام الواقــع المتغير فى كل** عصر وأمام الصراع المتجدد فى كل وقت .

ماذا بقى لـ (سقراط «وأفلاطون» « وأرسطو ») ؟ قديما ؟

وماذا تحقق لـ « نيتشه » « و » هيجل « وكانت » ؟ حديثا

لقد كان « سقراط » أبا الفلسفة كما قالوا : ولكن « افلاطون » هدم مذهبه وبنى مذهبه على انقاضه ، ثم جاء « أرسطو » وهدم مذهب « أفلاطــون » وبنى مذهبــه على انقاض مذهب اســتاذه .. وهكذا دواليك كلما جــاءت أمه لعنت أختها وبنت أراءها على أنقاض من سبقها ..

وفى ذلك يقول اقبال :

ان الفلسفة التى لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضره » .

وقد انتهت به دراسته للفلسفة الى القول بأنها « صدفة خالية من اللؤلؤ » وقد كتــب بذلك ــ الى صديق له من « الهاشميين » أثرت فيه الفلسفة تأثيرا عميقــا ــ يقول له :

أنا رجل ــ كما تعرف ــ انتهى فى أصلى الى « سومنات » وكان أبى من عبــاد « اللات ومنات وأن أسرتى عريقة فى أبرهميــة . وأنت تجرى فى عروقك دماء الهاشميين ، وتنتسب الىسيد الاولين والآخريين، وقد امتزجت الفلسفة بلحمى ودمى، وجرت منى مجــرى الروح ، وأنا وأن كنت لا أحسن شــيئا ــ فلا شك أنى نزلت فى أعمــاق هــذه الفلســفة ، وتغلغلت فى أحشائها ، وبعد ذلك أقول :

ان الحكمة الفلسفية ليســت الا حجابا للحقيقة،وأنها لا تزيد صاحبها

الا بعدا عن فهم الحياة ، وأن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل.

هذا « هيجل » الذى تبالغ فى تقديره .. أن صدفته خاليه من اللؤلؤة .. وأن نظامه ليس الا وهما من الأوهام .. لقد انطفأت شعلة القلب فى حياتك أيها السيد ، وفقدت شخصيتك .. ان البشرية تريد أن تعلم كيف تتقن حياتها وكيف تخلد شخصيتها ولكن الفلسفة لا تساعدهم فى ذلك .

ان الدين هو الذى ينظم الحياة .. ولا يؤخذ ذلك الا من « (ابراهيم) » و محمد عليهما الصلاة والسلام . فالزم أيها السيد تعاليم جدك « محمد » عليه الصلاة والسلام ..

***

فاذا كان هذا هو رأى « اقبال » فى الفلسفة فهل كان « اقبال » واحدا من هؤلاء الفلاسفة ؟

واذا لم يكن « اقبال » شبيها بهؤلاء فى المنهج والفكرة ..

فماذا يكون « هو » ان لم يكن رأس الفلسفة والحكمة ؟

لقد كان « اقبال » شاعرا ينظم شعره من فيض الوحى ..

وكان فكره تفسيرا للحقيقة الالهية فى الحياة والكون . .

***

وقالوا عن « اقبال » انه متصوف ..

فهل كان « اقبال » متصوفا ؟؟

لقد تناول المرحوم « عباس العقاد » هذا الجانب من حياة « اقبال » فى سياق حديثه عن العظمة ومقاييسها العادلة ..

وهى عظمة ليست بالدنيوية المادية ..

وليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا ..

ذلك : لأن العظمة الدنيوية المادية ــ أغرقت الغرب فى الجحود والقنوط ودفعته الى النزاع والعدوان بين الأمم وبين الطوائف وبين الطبقات والآحاد ..

واذا تكشفت النفس الغربية عن شىء فانما تتكشف عن حيرة لا تفقه

معنى الحياة .. لأنها كمـا يقول دكتـور « كـاريل » فى كتـابه (الانسان ذلك المجهول) حضارة تولدت من خلال الكشوف العلمية، ومن خلال شهوات الناس .. تفعل هذا الشيوعية ، كما تفعل الرأسمالية .. ان هذه وتلك تعيشان على الشره والجشع وخداع الانسانية ..

فالشيوعية ــ تقضى على الدين.. والرأسمالية ــ تقضى على الروح ، وكلاهما موت للانسـان الذى استخلفه الله على هذه الأرض ..

كذلك ، فان العظمة الأخرويـة التى تعرض عن الدنيـا قد هبطت بالشرق الى الحضيض الأسـفل ، وجرت عليـه نكبات الاسـتعمار والاستغلال ..

ولقد كان « اقبال » مثالا للعظمة الجامعـة بين الحسنيين .. صوفى على الطريقة الوسطى ..

أو زعيم من زعماء العمـل بين العدوتين من الدنيا والآخرة ..

وحين انقسمت الصوفية قسمين كان « اقبال » الى جانب أفضـل القسمين ، وأصلحهما للعمل،واذكاء النخوة ، وشـحذ الهمة ، وايقـاظ الضمير ..

انها عظمة صوفى يعمل ..

وعظمة عـامل يتصـوف ..

واذا وجب للعظماء حقهـم فى كل زمن ، اذا كان هذا الحق أوجب ما يكون على الشرق فى هذا الزمن ، واذا نظرنا حولنا نبحث عن مثـال لهذه العظمة وهذه الشـخصية .. فذلك المثال هو « اقبال » وذكرى « اقبال » ..

* * *

ومن حق « اقبال » ان يذكره فى مثل هذا اليوم كل مسلم ، بل كل مفكر فى الوجود ، فلـم يكـن « اقبال » .. ابـن الباكسـتان وحدها ، ولا شاعر الشرق وحده ، بل كان كما يقول الأديب المصرى ــ أحمد حسـن الزيات ــ بضعة من طبيعة الهند المؤمنة نفخ فيها الاسلام من روحه فصفت صفـاء الفطرة ، وخلصت خلوص الحـق وسـطعت سطوع الهدى ..

فهم « اقبال » الاسلام على حقيقته التى أنزلها الله وعلى طريقته التى سنها الرسول ، وعلى سياسته التى نفذها الصحابة ، فهمه على أنه سعادة الحياتين بالايمان الخالص ، وعمارة الدارين بالعمل الصالح ، وقوة المشرقين بالوحدة الشاملة ، فدعا فى « أسرار خودى » الى تقوية الذات فى الفرد بالحب والتقوى وفى « صليل الجرس » الى يقظة الوعى بالثورة والجهاد ، وفى « رسالة المشرق » الى توثيق الأخوة الاسلامية فى الشرق بالوحدة والتعاون، ثم كان هذا الرجل المختار الذى نبت جسمه فى رياض الهند ، وانبثق روحه من ضياء مكة ، وتألف غناؤه من ألحان شيراز ..

كان لسانا لدين الله فى دنيا العجم ، يفسر القرآن بالحكمة ، ويصور الايمان بالشعر ، ويدعو الى حضارة شرقية قوامها الله والروح ، وينفر من حضارة غربية عمادها الانسان والمادة ، ثم يشيد بماضى الاسلام الذى حرر الرؤوس وطهر النفوس وأصلح الأرض ، ويندب حاضر المسلمين الذى مزق التراث المحمدى المهمل بين أقوام سخرهم الشيطان لافساد الكون . فسخروا العلم لاستغلال الطبيعة ، وسخروا الطبيعة لاستغلال الناس ، وهم الذين عناهم فى بعض شعره حيث قال :

« (خلقت يارب من النار ابليس واحدا ، وخلقت من الطين ألف ابليس ...) »

فاذا كان « حسان » شاعر الرسول . فقد كان « اقبال » شاعر الرسالة ..

واذا كان ل « حسان » من نازعه شرف الدفاع عن « محمد » فليس ل « اقبال » من نازعه شرف الدفاع عن (الرسول) ، واذا كان فى الشعراء الصوفيين من عطر مجالس الذكر بفضائل الاسلام ، فليس فيهم من بلغ مبلغ « اقبال » فى فقه

الشريعة وعلم الحقيقة ، والتـأمل الفلسفى فى كتاب الله والنظر العلمى فى كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشـرق وجديد الغـرب ، فى قوة تمييز ، وسلامة فهم ، وصحة حكم ••

* * *

فاذا كان للعـرب فى عصـرهم الحاضر شاعر يلقب بأمير الشـعراء هو (أحمد شوقى) فقد كان **أمير** شعراء الاسلام فى عصرنا الحاضر ـ من غير منـازع ـ هـو **العـلامة** الدكتور (محمد اقبال) •

رحمه الله رحمة واسعة ••

وجـزاه عن الاسـلام والمسلمين خير الجزاء ••

د • عبد الودود شلبى

حين جمعت متاعى راحلا عن هذا العالم . قال الجميع . اننا نعـرفه جيدا .

لكن أحدا لم يعرف شيئا عن هذا المسـافر من أين جـاء ؟ وماذا قال ؟ ومع من تكلم ؟

محمـد اقبال

إقبال فى مصر

للدكتور محمد السعيد جمال الدين
الأستاذ المساعد للغة الفارسية وآدابها
بجامعة عين شمس

منذ أن زار اقبال مصر فى طريقه الى لندن سنة ١٩٣١ م وهو يكاد يكون شخصية معروفة فى الديار المصرية ، التى كانت قد تأججت فيها نيران الحركة الوطنية ، واستعرت فيها حركة البحث عن الذات ، وهى الحركة التى حاولت أن تجد لمصر – بمنأى عن الاستعمار – مقومات ذاتية تصلها بماضيها العريق وتجد فيها متنفسا لتلك الرغبة العارمة فى الأخذ بأسباب الرقى ، وهى الرغبة التى تتملك وجدان هذا الشعب الأصيل .

فى ذلك الوقت جاء اقبال الى مصر ، ولم يكن معروفا الا من جانب بعض الدارسين المصريين فى بلاد الغرب (١) ، وألقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة .

يقول واحد ممن حضروا هذه المحاضرة وهو الاستاذ / فتحى رضوان – الذى عمل فيما بعد وزيرا للثقافة فى مصر ، وكان أحد الذين تأثروا بفكر اقبال وفلسفته – يصف فتحى رضوان مشاعره عند لقائه باقبال قائلا : « كان اقبال فى هذا اليوم صورة غامضة أخذت بمجامع فؤادى واستولت على لبى وقد سمعته فى المساء فى جمعية الشبان المسلمين يتحدث عن مجمل فلسفته ويتخذ من الاسراء وسورة الاسراء سبيلا الى شرح هذه الفلسفة » (٢) . ولقد حضر

---

(١) أنظر عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال، حيانه وشعره وفلسفته، طبع مصر سنه ١٩٥٤ ، ص٤

(٢) محمد اقبال طبع مصر ١٩٦٥ ، ص ٣١ – ٣٢

هـذه المحـاضرة أيضـا المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عزام ، الذى يعد صاحب الفضل الأول فى تعريف اقبال الى الناطقين بالعربية والذى أخذ على عاتقه منـذ التقى باقبال فى جمعية الشبان المسلمين أن ينشر دعوته بين العرب ، ويترجم أشعاره الفارسية والأردية ، ويعرّف بفكره ويقدم له ، وبذل عزام منذ ذلـك الوقت مجهودا سـخيا فنشر أول الأمر عددا من المقالات عن فكر اقبال مشفوعة بترجمـة منثورة لأشعاره فى مجلة « الرسـالة » التى كانت تعد فى ذلك الوقت كبرى المجلات الأدبية والتى كانت توجـه التيار الأدبى لا فى مصر وحدها ولكن فى العالم العربى كله ولقد تركت هذه المقالات لدى قرائها ــ ومن بينهم عدد ممن كتب بالعربية عن اقبـال من المعاصريين له كفضيلة الامـام الشـيخ عبد الحليم محمود (١) ــ شيخ الازهر ــ تركت هذه المقالات انطباعات نورانية قدسية عن اقبال ، وصـادفت فى النفـوس قبـولا واستجابة وحماسا شديدا لأفكاره ودعوته ، وواصل الاستاذ عزام ــ رحمه الله ــ جهوده التى لا تعرف الكلال لتعريف العرب باقبال فأخذ يلقى المحاضرات ، ويعقد الندوات للتعـريف به وبشـعره وفكره فى أرجاء القطر المصرى حتى انتقل اقبال الى جوار ربه فى أبريل سنة ١٩٣٨ ، فكان لعـزام أيضا جهـد وافر فى حفلات تأبين العلامة بعـد وفاته ، وهى الحفـلات التى ألقيت فيهـا الكلمات أيضا لشرح فلسفة اقبال وبيان أفكاره . والحـق أن هـذا المجهود الوافر الذى بذله أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام وهذه المقـالات التى نشرهـا فى مجلتى الرسالة والثقافة وهذه المحاضرات التى ألقاها بالقـاهرة والاسكندرية للتعريف بشاعرنا الكبير . كل ذلك كان أكثـر تأثيرا وأشـد فائدة فى التعريف باقبال من الدواوين التى نقلها بعد ذلك الى العربية وحرص

---

(١) راجع كلمته التى القيت فى احتفال جامعة الأزهر بالذكرى المئوية لمولد اقبال فى ١٩٧٧/١١/١ م .

على أن يترجمها ــ بلغة الشعر ــ وفى رأينا أن أستاذنا الدكتور عزام قد قام بدورين فى هذا الصدد ، دور الوسيط الأدبى الذى عرف أمته العربية باقبال ، وكان داعية له فيهم ، فكان عزام فى ذلك اشبه ما يكون بالأديب الفرنسى الشهير فولتير عرف الفرنسيين بشكسبير (١) .. ولقد نجح عزام نجاحا بالغا فى القيام بهذا الدور ، أما الدور الثانى فقد كان دور المترجم ، وهو الدور الذى لم يصب فيه عزام نفس القدر من النجاح الذى أتيح له وهو يقوم بدور الوسيط . لقد حرص عزام وهو يترجم دواوين اقبال: بيام مشرق ضرب كليم ــ أسرار خودى ــ رموز بن خودى ، حرص عزام على ترجمة الشعر بالشعر ، وهو امر نجح فيه من الناحية الفنية الى حد بعيد ، ولكن هذه الأشعار المترجمة تكاد لا تؤثر فى نفس قارئها تأثير الشعر الرقيق ، ولا تعطى صورة واضحة لأفكار اقبال ورسالته ، ويغلب فيها رونق اللفظ على عمق المعنى بحيث تغيب المعانى التى أرادها اقبال فى غياهب الألفاظ المنمقة والمصاريع الشعرية المركزة . وشعر اقبال فى الفارسية والأردية على السواء شعر يركز المعنى الواسع فى عبارات موجزه هى أشبه بالكلمات القصار التى يسهل حفظها وتداولها على الألسن، فاذا ما ترجمنا هذا الشعر الى شعر عربى ، والشعر العربى كما تعرفون ــ يفضل الايجاز على الاطناب والاسهاب ، فأننا نزيد من تركيز الشعر ، ونغلفه بشىء من الغموض، يذهب بتأثير الشعر وروعته .

ونحن لا نريد بهذا أن ننقص من شأن المترجم ، الذى عرف بعلو الهمة وجودة القريحة والاخلاص والمثابرة ؛ وانما نريد أن نقول أن ترجمات عزام الشعرية لم تفصح عما يكنه شعر اقبال من أسرار ولم تبن عن قيمته الحقيقية التى تتفق من الشهرة التى أتيحت لاقبال ، وهى الشهرة التى كان عزام نفسه هو

(١) انظر : محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن ط . مصر ١٩٦٢ ص ١٣٠ ــ ١٣١

الذى قام بالدور الرئيسى فى تحقيقها . ولعل هذا هو مادفع الأديب العربى الكبير الأستاذ على الطنطاوى أن يوجه نداء الى العلامة الأستاذ أبى الحسن الندوى فى مجلة « المسلمون » التى تصدر فى دمشق ، قائلا له « .. هل لك أن تختار من شعر اقبال ما يجعلنا نتذوق طعم أدبه ونلم بطريقته ، وتتجلى أسباب عظمته فان كل ما قرأنا من كلامه مترجما الى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلنا عليه .. فهل تضيف يا أخى يا أبا الحسن الى مآثرك هذه المأثرة ، فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة أو تحمل اليهم زهرات منه فتحسن بذلك الى العرب وباكستان والى الأدب والاسلام (١) .

وجاء أبو الحسن الندوى فنظر فى دواوين اقبال وأشعاره التى ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام ونشر بدمشق كتاب « روائع اقبال سنة ١٩٦٠ » ولاحظ فى مقدمة الكتاب أن حرص عزام على ترجمة شعر اقبال الى شعر عربى هو الذى أدى الى هذا الغموض الذى أحاط بافكار الشاعر بعد ترجمتها الى العربية شعرا (٢) والحقيقة أن كتاب « روائع اقبال » للأستاذ أبى الحسن الندوى ـ كان على ضآلة حجمه ـ اضافة جديدة للمكتبة العربية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فقد استطاع كاتبه فى براعة وبصيرة أن يختار من دواوين اقبال مقتطفات توضح طريقته وأفكاره الى حد كبير وأن يقدمها فى نثر سهل ميسور دل على تمكنه من اللغتين العربية والفارسية وامتلاكه لناصيتهما . غير أن هذا الكتاب رغم أهميته لم يكن متداولا فى مصر على نطاق واسع ، لأنه طبع فى دمشق ، ولذلك حرم منه أغلب المثقفين المصريين ، وربما لم يسمع بعضهم بصدوره ، وظلت نسخه نادرة تتلقفها الأيدى .

(١) المسلمون العدد الثالث المجلد السادس

(٢) انظر ابو الحسن الندوى روائع اقبال طبع دمشق ١٩٦٠ ص ٩ ـ ١٠

ولقد جاء كتاب « روائع اقبال » تتويجا للجهود التى بذلها العلماء فى شبه القارة الهندوباكستانية من أجل المساهمة فى تعريف العرب باقبال ، وقد بدأت هذه الجهود عندما أحس هؤلاء العلماء بالغيظ لأن طاغور أشهر فى الأقطار العربية من اقبال •

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى مقدمته لكتاب « روائع اقبال » وكان يغيظنا أن طاغور أشهر فى الأقطار العربية من اقبال ، واعجاب اخواننا العرب والأدباء فى مصر وسورية لشعره أكثر ، وكنا نعد ذلك تقصيرا منا فى تعريف شعر أقبال ، وكلما رأينا تنويها بشعر طاغور واطراء له فى مجلة عربية — وما أكثر ما كنا نرى ذلك فى المجلات العربية — قوى عزمنا على ترجمة شعر اقبال ، ورأيناه أمانة فى أعناقنا » (١) • وقد أسفرت جهود هؤلاء العلماء فى شبه القارة الهندوباكستانية عن صدور مقال للأستاذ مسعود الندوى بعد وفاة اقبال فى سنة ١٩٣٨ بمجلة « الفتح » التى كانت تصدر بالقاهرة • وعن عدة محاضرات ألقاها الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥١ ، وقد ضمن الأستاذ أبو الحسن هذه المحاضرات كتابه « روائع اقبال » ، كما أسفرت هذه الجهود عن كتابين آخرين صدرا بالعربية فى مصر أولهما كتاب « فلسفة اقبال » الذى ألفه كل من الاستاذ محمد حسن الأعظمى وفضيلة الشيخ الصاوى شعلان ، ونشر بالقاهرة سنة ١٩٥٠ ، وثانيهما كتاب « نظرات جديدة فى شعر اقبال » لمؤلفه الدكتور محمد اسماعيل الندوى ، وقد نشر الكتاب فى سنة ١٩٦٩ •

ولئن كان المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام قد جانبه التوفيق — الى حد ما — فى ترجمة الشعر بالشعر ، فقد استطاع فضيلة الشيخ الصاوى شعلان بما حباه الله من شاعرية متدفقة وروح اسلامية

---

(١) روائع اقبال : ص ٥ — ٦

حقه ، أن يفصح عن المعانى التى أرادها اقبال كأنه ألهمها هو فى شعر يهتز له الوجدان . ولعل أوضح مثل على ما أقول ترجمته لقصيدتى «شكوى» و « جواب شكوى» و « أنشودة المسلم » ، وترجمته لديوان «بس جه بايد كرد أىأقوام شرق » وهى الترجمة التى صدرت هذا العام (عام ١٩٧٧) بالقاهرة .

وللشيخ الصاوى شعلان طريقة خاصة فى الترجمة يجمع فيها بين الحسنيين ، بين الشعر والنثر ، فهو يترجم شعر اقبال نثرا أول الأمر ، ثم ينقله شعرا بعد ذلك ، فيكون امام القارىء ترجمتان احداهما نثرية والأخرى شعرية ، يقرأ القارىء الترجمة النثرية الواضحة أولا فيتمثل المعانى التى أرادها اقبال بتمامها ، ثم يقرأ الترجمة الشعرية بعد ذلك فيرى هذه المعانى قد لبست ثوب الشعر الجميل . وهذه الطريقة من أفضل الطرق وأشدها تأثيرا فى نفس القارىء . وقد نشر الأستاذ الصاوى شعلان سيلا متدفقا من المقالات التى تتضمن أشعارا مترجمة بنفس الطريقة فى مجلة « منبر الاسلام » وهى مجلة شهرية يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة.



فىسنة ١٩٥٤ أصدر الدكتور عزام كتابا بعنوان « محمد اقبال : حياته وفلسفته وشعره » ويشتمل الكتاب على ترجمة منثورة لأجزاء من منظومتى « أسرار خودى » و « رموز بى خودى » وفى سنة ١٩٥٥ صدرت الترجمة العربية لكتاب اقبال « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » ونظر الأدباء والمثقفون فى مصر الى هذين الكتابين نظرة اكبار واجلال ، وعدوهما مجمعا تجمعت فيه أفكار اقبال وفلسفته كلها ، فوضعوا الكتابين أمامهم ، واستندوا اليهما فى اصدار احكامهم عن فكر اقبال وفلسفته ، وقنعوا بالرجوع اليهما باعتبارهما جامعين شاملين فى هذا الصدد . وهذا يعد — فى رأينا — خطأ كبيرا ، ومن هذا الباب جاءت

أغلب الانتقادات التى وجهها العلماء المصريون الى اقبال .

ذلك لأن نظرية الذاتية هى الجانب الوحيد الذى عرضه عزام فى كتابه المذكور من فلسفة اقبال ، فبدت هذه النظرية وكأنها كل ما لاقبال من فلسفة ، فى حين أن هذه الفلسفة تنطوى على جوانب كثيرة ومتعددة غير الذاتية ، وما نظرية الذاتية الا أساس طوّره تطويرا شاملا بعد ذلك وأقام عليه نظاما فلسفيا شامخا ، كذلك يبين اقبال بنفسه أن ما عرضه من آراء وأفكار فى كتاب « تجديد الفكر الدينى » انما عرضه بأسلوب عقلى محض قد لايخلو من تعقيد ، فقال :

من يطبع عصر خود كفتم دوحرف
كرده ام بحرين را اندر دو ظرف

حرف بيجابيج وحرف نيش دار
تاكنم عقل ودل ردان شكار

حرف ته دارى باندار فرنك
ناله مستانة از تار جنك (١)

لقد كانت منظومة «جاويد نامة» التى لم تكن قد ترجمت بعد الى العربية هى المنظومة التى شرح اقبال فيها بأسلوب شعرى وجدانى كثيرا من آرائه التى وردت فى « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » ، بل نلاحظ أيضا أنه عدل عن بعض هذه الأراء وصححها فى « جاويد نامه » وهى الآراء التى أخذها عليه بعض العلماء المصريين من أمثال الشيخ عبد العزيز المراغى (٢) ، والدكتور محمد البهى (٣) ، والدكتور عبد الحليم محمود (٤) .

فلقد كان اقبال يتمتع بشجاعة أدبية نادرة ، وكان لا يتحرج من العدول عن فكره ، ولا يتردد فى تصحيح رأى مادامت التجربة قد أثبتت خطأه . من ذلك مثلا أنه

---

(١) محمد اقبال : جاويد نامه ، لاهور ١٩٣٢ ، ص ٢٢٧

(٢) فى تعليقاته على اجتهاد اقبال فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم

(٣) فى كتابة الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

(٤) فى كتابة الاسلام والعقل .

أشاد بتركيا الحديثة ونهضـتها فى كتاب « تجديـد التفكير الدينى » ولكنه ما لبث بعد سنتين تقريبا أن عدل عن هذا الرأى بعد أن تكشفت له حقيقة الحركة الكمالية ونزوعها الى تقليد الغـرب فى نبذ الدين ، فشن عليها هجوما شديدا ونقدها نقدا لاذعا فى « جاويد نامة » على لسان السـياسى التركى الكبير «سعيد حليم باشا» ولكن الدكتور محمد البهى مدير جامعـة الأزهر السـابق أفاض ــ دون ان يقـرأ « جاويد نامه » ــ فى نقـد اقبال على حسن ظنه بالحركة الكمالية [1].

وفضلا عن أن فكر اقبال يتسم بالتطور والتجدد والمرونة ، فأن من سماته أيضـا أنـه يوضـح نفسه بنفسه ، ففكرته الخاصـة بتطور الأنسـانية التى بدت غامضة فى « تجديد التفكير الدينى » والتى انتقـدها الدكتور عبـد الحـليم محمود [1] ، قد وضـحت أبعادها تماما فى « جاويد نامه » من خلال عرض اقبال لتطور العقيدة الانسانية فى فلك القمر ، ومن خلال فكرته الشاملة عن الحياة والموت والخلود التى عرضها على لسان السـلطان الشهيد « تيبو » .

وهكذا نلاحظ أن الدراسـات العربية لفكر اقبال كانت قد توقفت عند مرحلة مبكرة نسبيا من مراحل تطور فلسفته وآرائه [3] ، ولم يجل هذا الغموض أو يعالج هذا القصور الا الدراسات الأكاديمية المتخصصة فى الجامعات المصرية التى تمت بعد ذلك .

ولقـد دأبت الهيئات الدينيـة والعلميـة والثقـافية فى مصر على الاحتفـال فى كل عام بذكرى وفاة اقبال ، فالأزهر والجامعات المصرية والمحافل الدينية والثقافية والسفارة الباكستانية بالقاهرة لا يتركون هذه المناسبة تمر دون وقفة تأمل واعجاب

---

(١) انظر محمد البهى : الفكر الاسلامى .. ص ٤٤٢ وما بعدها

(٢) فى كتابة الاسلام والعقل ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) نشر اقبال « جاويد نامه » فى سنة ١٩٣٢ بعد نشر ديوانى الأسرار والرموز بنحو ١٥ عاما

بهذا الشاعر الفيلسوف الذى لا ينضب معينه والذى لا يفتأ شعره يتفتق كل حين عن كل جديد وعجيب .

ولقد كان اهتمام الجامعات المصرية بالاحتفال بذكرى اقبال (١) حافزا دفع بعض الدارسين على التخصص فى الدراسات الاقبالية . ولقد بدأت جامعة عين شمس بالقاهرة فى هذا المضمار عندما سجلت فيها فى سنة ١٩٦٧ رسالة للحصول على درجة الدكتوراه فى الآداب فى موضوع « جاويد نامه » دراسة تحليلية نقدية ، وكان صاحب هذه الرسالة هو هذا العبد الفقير الذى نشر كتابا عن نفس الموضوع فى سنة ١٩٧٤ . وفى جامعة القاهرة حصل زميلى وصديقى الدكتور سمير عبد الحميد على درجة الماجستير (Master of Arts فى موضوع « أرمغان حجاز » لاقبال . وتقدمت الدراسات الاقبالية فى المحافل الأكاديمية المصرية خطوة أخرى ، تنزع الى عقد المقارنة بين اقبال وغيره من المفكرين والشعراء الاسلاميين ، فقد منحت جامعة عين شمس سنة ١٩٧٦ درجة الماجستير فى موضوع « المعراج فى الآداب الاسلامية » وهى دراسة اتخذت من « جاويد نامه » لاقبال نموذجا للموضوع . كما سجلت أخيرا بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة رسالة بقسم الدراسات الفلسفية بعنوان « محمد اقبال والفكر الاسلامى » .

* * *

وهكذا ــ أيها السادة ــ تستمر فى مصر الدراسات والأبحاث والترجمات لأفكار اقبال دون توقف ،

---

(١) ونخص بالذكر ذلك الاحتفال الكبير الذى أقامته جامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٦ بذكرى وفاته ، وقد القى صفوة من كبار الشخصيات المصرية كلمات عن اقبال منهم الدكتور طه حسين ، والاستاذ عباس العقاد ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ أحمد حسن الزيات وقد نشرت سفارة الباكستان بالقاهرة فى السنة نفسها كتابا تضمن كلماتهم فى هذا الاحتفال .

وتتصـاعد درجة درجة فى سـبيل التوصل الى استيعاب أفكار اقبال وادراكها ، وأنتم تعرفون أن مصر هى مركز الدائرة من الاشـعاع الثقافى والحضارى فىالعالم العربى، فمنها تتوالى التأثيرات وتنتقل الى مختلف أرجاء هذا العالم العربى ، ومن هنـا كان حب العرب قاطبـة لاقبال ــ كحب المصريين له سواء بسواء .

* * *

ولكن ، قد يحق لنـا أن نسائل أنفسنا ، لمـاذا وجدت دعوة اقبال هذا الصـدى الواسـع فى مصر ؟ ولمـاذا لقيت كل هذه الاسـتجابة والحماس لدى المصريين ؟ . وقـد نستطيع أن نجيب علىهذا التساؤل بأن هناك أسبابا عديدة نذكر منها :

أولا : ان مصر وجدت فى دعوة الذاتية (المعروفة لدى اقبال باسم « خـودى ») طلبتها ورغبتها فى تحقيق ذاتها ، كانت مصر عنـدما بدأت تتعرف على أفكار اقبال تجد فى البحث عنمقومات ذاتية لنفسها. وكانت حركة البحث عن المقومات الذاتية المصرية فى مجملها موصولة الأسباب بالاسلام لكنها كانت تنزع الى التجـديد ، والى طرح الأفكار الجامدة ، والاندماج فى حياة واقعية تمتـد مـثـلـهـا من الدين الحنيف ، ولذلك وجـدت نظرية اقبال عن الذاتية وعن الرجل المؤمن « أو » « مرد مؤمن » ترحيبا واسـتجابة كبيرة فى مصر ، واتخـذت أبعـادا ظهـرت فى الحركات الاصـلاحية المصرية التى جعلت الدين أساسـا لكل اصـلاح وتطـور ، كحركة الاخوانالمسلمين، فلقد تأثرالاخوان المسلمون ــ أفرادا وجماعة ــ بفكر اقبال عامة ، حدثنى أحد الأصدقاء أن بعض الاخوان كانوا يسـمون أبناءهم بمحمد اقبال ، تيمنا بهـذا الاسم وتبركا باسم اقبال ، مع أن اطلاق اسم اقبال علىالأولاد لميكن شائعا فى مصر . ولقد رأى الاخوان المسلمون فى شعر اقبال نموذجا حيا للشعر الاسـلامى الذى يعبر تعبيرا حقيقيا عن دأب المسـلم الحق وعن انفعالاته وعن سره ونجواه ، ورأوا أن شعر اقبال ــ بصورته هذه ــ شـعر لم يتيسر من قبل فى الأدب

العربى ذاته(١) • ولم يقتصر تأثير نظرية الذاتية على مصر وحدها بل ربما امتد هذا التأثير الى المغرب العربى وكان فعالا فى تكوين نظرية « الأصالة » التى بدت كدعوة سياسية فى كل من تونس والجزائر والمغرب •

كما أثرت نظرية الذاتية أيضا فى تأسيس نظرية فلسفية جديدة فى مصر هى نظرية « الجوانية » التى أعلنها الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة ، وهى نظرية تعد فى مجملها امتدادا لنظرية الذاتية عند اقبال •

والشىء الذى جعل لفكرة الذاتية عند اقبال قيمة كبيرة فى مصر هو انها لم تكن فكرة نظرية فحسب ، بل تمخضت عن واقع عملى رائع يتمثل فى دولة باكستان الاسلامية ، التى لفتت أنظار المصريين وبهرتهم باعتبارها نموذجا قويما لدولة حديثة تقوم على أسس اسلامية • وبينت أن ما كان يزعم الزاعمون بأنه صعب التحقيق أصبح أمرا ممكنا عمليا وواقعيا لا مراء فيه •

ثانيا : ان دعوة اقبال كانت دعوة فريدة من نوعها، مضادة لكل الأفكار البراقة التى كان الناس يتحمسون لها فى مصر باسم التجديد والنهضة• فلقد تحمس المصريون تحمسا شديدا لفكرة الوطنية ، وأعجبوا فى أول الأمر بالحركة الكمالية ، وظلوا ردحا من الزمن ينظرون الى كمال أتاتورك باعتباره بطلا اسلاميا ومحررا وطنيا وظلوا يعلقون صوره فى منازلهم وينظرون اليه فى اجلال واكبار (٢) •

وربما لم تكن فكرة العلمانية فى الحكم أو فصل الدين عن الدولة — وهى الفكرة التى طبقها كمال أتاتورك بعد أن استتب له الأمر فى تركيا ، ربما لم تكن هذه الفكرة واردة فى أذهان المصريين ، الذين لا يتصور معظمهم — حتى وقتنا هذا — أن تقوم دولة بغير دين ، وحيث يوجد الأزهر تلك القلعة المنيعة التى حافظت

---

(١) انظر محمد قطب منهج الفن الاسلامى ص ٧ — ١١ ، ص ٣٦٥

(٢) انظر حديث الرئيس محمد أنور السادات فى التليفزيون بمناسبة الاحتفال بثورة التصحيح جريدة الأهرام ١٦ مايو سنة ١٩٧٧

على الدين وعلى نفوذه لدى الحكام ولدى الشعب طوال ألف سنة ولذلك حظيت الحركة الوطنية فى مصر بمساندة الأزهر ، ولم يكن شبح العلمانية يتراءى أمام المصريين فى حركتهم الوطنية ، لأن الحركة الوطنية كانت مرتبطة عندهم بالدين وبطرد المستعمرين الأجانب من البلاد ، ولم تكن هذه الحركة تنطوى عندهم على مفهوم الأثرة القومية أومفهوم التعصب الممقوت. ولعل هذا هو السر فى تمسك المصريين ردحا من الزمن باحترامهم لكمال أتاتورك . ولكن دعوة اقبال الى نبذ الوطنية الضيقة والى نبذ العلمانية ، وادانته للحركة الكمالية قد لفتت أنظار المصريين الى مضار الحماس الشديد للوطنية .

ثالثا : جاءت دعوة اقبال الىمصر لتساعد فىوقف تيار الحركة الثقافية التى قالت بأن مصر تنتمى فى ثقافتها وحضارتها الى الثقافة الاغريقية والى الحضارة اليونانية ، وانها أقرب الى أوربا ولا شأن لها بآسيا وافريقيا . وكانت هذه الحركة الثقافية قد ازدهرت فى مصر بتأثير دعاوى الاستشراق الأوربى التى أثرت فى عقلية عدد من الدارسين المصريين فى أوربا ، فعادوا الى وطنهم يبشرون بهذه الدعاوى بأساليب مستحدثة ، مما جعل حركتهم تنتشر وتتوسع بفضل تشجيع المستعمرين الانجليز، وبسبب فقدان علماء المسلمين للوسائل الفعالة للرد على هذه الدعاوى .

ولا نقول ان دعوة اقبال كانت ذات أثر مباشر فى هذا الأمر وانما جاءت دعوة اقبال مساندة قوية للاتجاه الاسلامى ، فلقد ساهمت هذه الدعوة فىتصحيح مسار الثقافة فى مصر ، وبدت دعوة اقبال فىهذا المجال أشبه ما تكون بدعوة السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده دعوةاصلاحية بالدرجةالأولى. يقول الأديب المصرى الكبيرالمرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات(١)

---

(١) محمد اقبال : لصفوة من كبار الكتاب ، مصر ١٩٥٦ ، ص ٦٥

« وما علمنا من آراء اقبال فى الاسلام والمسلمين يحله محل الزعيم المصلح» ولقد تمكن الاتجاه الثقافى الاسلامى من أن يسترد مكانته من جديد ، ورجع بعض أقطاب الحركة اليونانية عن دعاواهم بل وأشادوا بفكر اقبال وأصالته الاسلامية ، وكان منهم المرحوم الدكتور طه حسين الذى اشترك بعد ذلك فى سنة ١٩٥٦ فى الاحتفال بذكرى اقبال وألقى كلمة قال فيها ان اقبالا « رفع مجد الآداب الاسلامية الى الذروة ، وفرض هذا المجد الأدبى الاسلامى على الزمان » (١) .

رابعا : كانت الأوساط الأدبية والفنية فى مصر تفتقر الى نظرية قائمة بذاتها فى النقد الأدبى والفنى، نظرية تستمد مثلها من الاسلام وتعاليمه ، ومن روح الشرق ، وجاءت أشعار اقبال وآراؤه لتسد هذه الثغرة ، ولتؤسس نظرية فى الفن تربط الفن بالقوة كما يرتبط الجلال بالجمال ، كما يقول اقبال .

والواقع أن كل من كتبوا عن معايير الأدب الاسلامى وعن مقاييس الفن الاسلامى ومناهجه قد أفادوا من نظرية اقبال فى الفن ، ومن بين من حاولوا أخيرا وضع أسس لمنهج اسلامى فى الفن الأستاذ محمد قطب الذى ألف كتابا بعنوان « منهج الفن الاسلامى » خصص فيه فصلا للحديث عن اقبال ومذهبه فى الشعر . وفى المجال الأدبى نشرت بعض المقالات للمقارنة بين اقبال وبعض الشعراء العرب المعاصرين مثال ذلك المقارنة التى عقدها الأستاذ فتحى رضوان فى عدة مقالات بمجلة الشعر بين أمير الشعراء أحمد شوقى ومحمد اقبال ، ومن شأن هذه المقارنات أن تفيد فى استخلاص موازين جديدة للنقد الأدبى تخدم الاتجاه الذى دعا اليه اقبال وحث عليه . ولا شك أن أشعار اقبال وطريقته قد تركت آثارا ملموسة فى عدد من الكتاب الذين يلتزمون الاتجاه الاسلامى فى مصر . ونذكر هنا على سبيل المثال الصحفى

---

(١) أيضا ، ص ١٧
«محمد اقبال» : لصفوة من كتاب الكتاب مصر ١٩٥٦

والأديب الكبير الأستاذ أحمد بهجت الذى نشر طوال شهر رمضان الماضى فى جريدة « الأهرام » المصرية سلسلة أدبية عن رحلة تخيل أنه قام فذهـا بزيارة للجنَّة وزيارة للنَّار ، وقد بدا بوضوح أن الأستاذ أحمد بهجت متأثر باقبال وبمنظومته « جاويد نامة » ، وهى المنظومة التى كان الأستاذ بهجت قد كتب عنها مقالا مستفيضا فى الأهرام أيضا فى سنة ١٩٧٥ بعد نشر الترجمة العربية للمنظومة .

وبعد ، قد كانت هذه الأسباب وغيرها ، هى التى جعلت اقبالا ودعوته يلقيان هذا الترحيب الواسع وهذه الاستجابة القوية فى مصر ، وبالتالى فى العالم العربى بأسره ، رحم الله اقبالا وجزاه عن أمته الاسلامية خير الجزاء .

محمد السعيد جمال الدين

« المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد » اذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع فى العالم الا ما يرضاه ويحبه » .

محمد اقبال

فى ذكرى إقبال

للدكتور عبد الجليل شلبى

كلما ذكرت الشاعر الفيلسوف محمد اقبال ذكرت الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام ، فهو الذى أسدى الى العربية وقرائها تلكم المنة الكبيرة بتعريفهم بهذا الشاعر الاسلامى ، وبما له من نزعات اسلامية أصيلة ، فقد كتب الدكتور عزام عن اقبال عددا من المقالات ، وترجم كثيرا من شعره وشرح كثيرا من انطباعاته عنه . وكانت هذه الأفكار تنشر فى مجلة الرسالة يوم أن كانت كبرى المجلات الأدبية وأوسعها انتشارا ، وكانت هى المجلة الوحيدة التى توجه التيار الأدبى فى الشرق الأوسط كله ، وكانت تقرأ فى كل مدرسة وناد وبين كل جماعة أدبية ، فأتاح الحديث عن اقبال فيها فرصة التعريف به على أوسع نطاق .

كنت أقرأ هذا الشعر المترجم فتهتز له نفسى ، وأشعر بما فيه من عمق التفكير ورهافة الحس ، وصدق العاطفة ، وكان الجانب الروحى فى هذا الشعر مما يثير فى نفوس قرائه جميعا شعورا بسمو صاحبه النفسى ، وأدبه الانسانى ، وأشواقه الفياضة نحو واجب الوجود سبحانه وتعالى .

وأود فى هذه الكلمة الموجزة أن أذكر طرفا من حياة اقبال وشيئا عابرا عن شعره ، لأضع أمام الجيل الجديد الذى لم يدرك عهد الرسالة صورة — أى صورة — عن هذا الشاعر الكبير .

أسرته :

ينحدر محمد اقبال من أسرة برهمية كانت تقيم فى كشمير . وقد اعتنق أحد أجداده الأعلين الاسلام فى أواخر القرن السادس عشر

الميلادى أو ربما أوائل القرن السابع عشر ، كان اسلامه على شيخ معروف بورعه وعلمه وكان يدعى الشيخ شاه همدانى . وظل أولاده بعد ذلك مسلمين لا بالوراثة فقط ، بل أيضا عن طريق الدراسة والتفقه فى الدين . وقد هاجر الى سيالكوت من هذه الأسرة أربعة اخوة كان أحدهم يسمى محمد رفيق هو جد محمد اقبال المباشر ، ونجد بين هؤلاء الأخوة الأربعة رجلا يدعى الشيخ محمد رمضان يمتاز بالعلم والصوفية ويخرج باللغة الفارسية عديدا من الكتب والمقالات . أما والد أقبال فكان يسمى باسم محمد نور ، ولم يكن على حظ وافر من الثقافة ولكنه كان متصوفا ويحب قراءة القرآن ، وكان يقول لابنه : اذا قرأت القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك ، وقد نشأ ابنه على الأدب الاسلامى وحبه فى العبادة ، وحكى اقبال أنه انتهر مرة سائلا وضربه ، ورآه والده فاغتم وأخذ يبكى بدموع ثرة وبعد أن استرضى المسكين أخذ يلقى على ابنه عظة طويلة بالغة الروعة والتأثير وكلها تنم عن اخلاص ومراقبة لله وخوف من عقاب الآخرة ، وقد وصف اقبال هذا الحادث فى عبارات شعرية مؤثرة جاء فيها .

سيقف هذا المسكين فى المحشر وبين الناس جميعا صارخا باكيا

سوف يحاسبنى الله على هذه الاساءة لأننى والدك المسئول عن سلوكك وأخلاقك .

سيقول لى رب العالمين : انى رزقتك شابا صحيح البنية والعقل ولكنك لم تؤدبه بأدب الاسلام ، بل لم تجعله انسانا وقد خلقته أنا انسانا .

تمثل يابنى موقفى وذلتى وخجلى أمام الله تعالى وأمام النبى الكريم .

تفكر قليلا واذكر اننا معشر المسلمين أمة هى خير أمة أخرجت للناس .

انظر يا بنى شيبى وقلقى واضطرابى .. لا تفضحنى أمام رب العالمين .

انك واحد من الأكمام الكثيرة التى تنتمى الى غصن المصطفى الأمين .

احرص على أن تكون وردة من نسيم ربيعه •

خذ من ربيع النبى النضر المزهر نصيبا ، واظفر من أخلاقه بكل ما تستطيع •

* * *

وهذه العاطفة الفائضة الفاخرة تصور منهج أبيه ومدى اخلاصه لله وللدين الذى ارتضاه •

ولم تكن أمه أقل من أبيه ورعا ، بل كانت أعمق عاطفة وأشد مراقبة لله •كان والده يعمل فى دائرة اشتهر أن رئيسها يقبل الرشوة من الناس ، ولكن راتب محمد رفيق ــ والد اقبال ــ لم يكن من يد هذا الرئيس، فاقتضى ورع أمه وتنزهها الا تأكل من راتب زوجها ، واعتبرته من الشبهات التى تحتمل أن تكون حلالا أو حراما •

اقبال اذن ينحدر من سلالات كلها تتشبع بعواطف الدين سواء قبل اسلامها أو بعده ، وأبواه يمتازان بالعبادة والورع والتقوى، فلا عجب أن يكون اقبال ذا عاطفة اسلامية ونزعة صوفية ورجل عبادة وقرآن •

وكان يتحدث عن أجداده البراهمة ، ويذكر من نعم الله عليه أن هداه وهدى أسرته كلها للاسلام •

هاجر جد اقبال والذين معه من اخوته الى سيالكوت ، وسيالكوت كانت مركزا من مراكز الدراسة الاسلامية واليها ينتمى الشيخ عبد الحكيم السيالكوتى ، وفى هذه المدينة ولد اقبال وتلقى تعليمه الابتدائى والثانوى ــ ولم يكن بها تعليم عال ، فانتقل الى لاهور ليدخل احدى كلياتها •

كانت الأقدار تهيىء لاقبال كل شىء يوجهه الى الاسلام ويحببه فيه، كما كانت تهيىء له أسباب التربية السليمة والتعليم السليم والسلوك القويم •

بدأ تعليمه فى مكتب فى سيالكوت، وكانت المكاتب تعلم القراءة والكتابة وتحفظ القرآن الكريم ، وكان أبوه يتعهده اذ ذاك ولا يدعه للمدرسة وحدها ، ثم أدخل مدرسة انجليزية كان بها عالم اسلامى مشهور يدعى مير حسن ، كان الناس يتحدثون عن ورعه وتقواه وسعة علمه

كما يتحدثون عن ذكائه وأدبه وظرفه وكان مير حسن شاب القلب والروح والعمـل ، على أنه كان قد اكتهل وضعف جسمه ونحل ، وقد أعجب بذكاء اقبال وأدبه ولما شب قليلا كان يقول الشعر فأعجب أستاذه أكثر ، ولكنه يستعمل اللغة البنجابية فوجهه أستاذه مير الى أن يستعمل اللغـة الأوردية ، وكان مير من الأشراف الذين ينتمون الى آل البيت ، وكان هذا الشعور مما نمى فى نفسه صفات النبل وحب الأخلاق النبيلة العليا ، وقد انعكس الكثير منها على تلميذه اقبال •

وفى لاهور كان أستاذه المحبب اليه هو السير توماس آرنولد — صاحب كتاب الدعوة الى الاسلام — وآرنولد كان ممن يقدرون الاسلام وينصفونه ، وفى كتابه الذى ذكرت دفاع عن الاسلام ومعارضته للذين يقولون انه انتشر بالقـوة أو بحد السيف ، وفى غير موضع من هـذا الكتاب شاد بسماحة الاسلام وحسن معاملته للذميين •

هـذا العالم الانجليزى بدوره أحب اقبالا وأحب ذكاءه وأدبه وقدر شعره وخصه بكثير من العنـاية وحسن التوجيه •

أحب اقبال هذين الأستاذين حبه أهله وذويه، وظل وفيا لهما ما عاشا •

حصـل من هـذه الكلية على شهادتها الجامعية الأولى فى الآداب B.A — ثم على درجة المـاجستير فى الآداب أيضـا M.A ثم عمـل مدرسا للفلسفة والتاريخ فى الكلية الشرقية فى لاهور ، ثم انتقـل الى الكلية الحكومية التى كان يعمل بها لتدريس الفلسفة واللغة الانجليزية، وفى كلتا المدرستين نال اقبال اعجاب تلاميذه كما نال اعجاب أساتذته من قبل ، وفى هذه الفترة ظهرت آثاره الأدبية فى مجتمعه وفى الهند كلها ، أكثر من قول الشعر الجيد ، ونشر شعره فى الصحف فلفت الناس اليه، وكانت لاهور اذ ذاك تموج بتيارات الفكر وتعبق بأريج الأدب وكانت ذات محافل ومواقف خطابيه وشعرية، وكان اقبـال صوت خطابتهـا وتغريد شعرها ، وروح مجامعها •

ودفع به طموحه الى الاستزادة من العلم ، فسافر الى انجلترا ليكمل دراسته، فبدأ مهموما بالمعرفة لا يشبع، دؤوبا على الدرس لا يمل ، حتى أعجب به الأوربيون كما أعجب به الشرقيون من قبل .

ذهب أولا الى كمبردج فدرس الفلسفة وحصل من الكلية على درجة فيها ، لكنه سافر توا الى ألمانيا فتعلم اللغة الألمانية بسرعة ساعده عليها معرفته بالانجليزية ، ودخل جامعة ميونيخ ، وكتب رسالة فلسفية قدمها للجامعة وأهداها الى سير توماس آرنولد . كانت الرسالة عن التطور والنمو الميتافيزيقى فى بلاد فارس، وبهذه الرسالة عرف قدر اقبال العلمى ، وقدرته على كثرة القراءة وسعة الاطلاع . وكانت هذه الرسالة خليقة أن توجهه الى الانقطاع لدرس الفلسفة ، لكنه شاعر ، والشعراء كطيور الحدائق وفراشات الأزهار يحلو لهم التنقل من زهرة الى أخرى لذلك انتقل اقبال مرة ثانية الى انجلترا ، وفى هذه المرة ذهب الى جامعة لندن ليدرس القانون وعلوم السياسة ولينال اجازة المحاماة وكانت هذه آخر دراسته الرسمية واتصاله بالجامعات .

نال اقبال من أوربا علما كثيرا ، ودرس فنونا من المعارف ، ورأى ما فى عواصم أوربا من مظاهر الحضارة وألوان الحرية ورقى الحياة ولكنه لم يقف من هذا كله موقف المأخوذ المشدود، ولم يجرفه هذا التيار العاتى العنيف لقد كان له من قوة الذكاء وقوة الأعصاب وقوة التفكير ما جعله يقف موقف الناقد لا موقف المقلد الساذج . أعجبه العلم وراقه ، ولا ريب أنه رأى فى كل من ألمانيا وانجلترا ما لم ير فى بلاده ، من طرق البحث ، وضخامة المكاتب ووفرة المراجع ، وتهيئة البيئة للدارسين ، ولكنه لم يعجبه ما لدى الأوربيين من تبرج وانحلال ، فأنكر على الأوربيين كل مظهر لا يقره الاسلام وعاب عليهم انقيادهم للغريزة وامتهانهم للمرأة ، واستهانتهم بالأعراض .

قابل كثيرين من الأساتذة الكبار وناقشهم فى مسائل كثيرة من الفلسفة

وغير الفلسفة من العلوم ، ولم يتحرج أو يضعف بل جاهرهم بالنقد المر الازدراء الصريح • ومع كل ما عاب وأزرى لم يغضبوا منه بل أحبوه وأجلوه •

تحدث كثيرا عن الاسلام — حاضر عنه فى الأندية ونشر عنه فى الصحف وناظر فيه الأساتذة والطلاب ، أما حضارة الغرب فأنكر منها خلوها من المعانى الانسانية ، انها تجارة وتبادل منفعة ، ومثل هذه الأخلاق ليست الا بهرجا زائفا ، وهى كالشجرة التى لا جذور لها • ومن شعره فى هذا الموضوع :

« يا ساكنى بلاد الغرب
ما أنتم الا فى ضلال

ليست أرض الله حانوتا لتبادل المنافع وكسب الأموال •

ما تتوهمونه ذهبا خالصا انما هو زيف لا قيمة له ولا بقاء •

كيف يستقر عش يبنى على غصن دقيق ، انه لا يلبث أن تعصف به الرياح وتذهب به الأنواء ، سوف تذبح حضارتكم نفسها بخنجرها ، كما تنقض غزلها البلهاء » •

وعاد اقبال بعد هذا الطواف الى وطنه — لم تكن الفترة التى غابها طويلة فى قياس الزمن ، ولكنها واسعة جدا فى مقاييس الأفكار والعلوم • كانت هذه الفترة ثلاثة أعوام ، درس خلالها فى ثلاث كليات وظفر بشهادات وحاضر وكتب وألف وذلك ما لا يعمله غيره فى عدد من السنين • ولهذا عاد مزودا بزاد للجامعات فيه فضل التوجيه وله هو فضل التفكير والتحصيل والفلسفة والابتكار •

ولم يعد الى سيالكوت ، وانما عاد الى لاهور •

واشتغل بالمحاماة ثم بالتدريس ثم بالمحاماة وخلال ذلك كله كان متجها الى الشعر والسياسة والاصلاح ، ولم يكن يعجبه أن يستكثر من القضايا ، ولكن كان حسبه أن يجد ما يكفى نفقاته ثم يتفرغ لرسالته الكبرى وهى الاصلاح والدعوة الى الاسلام ، وكان يدعى الى الكليات والمجتمعات

العلمية فى بلاد الهند المترامية فنجده يوما فى مدارس وآخر فى عليكرة وثالثا فى دلهى،وقد جمعت محاضراته فى كتب بعد ذلك ، ومنها فلسفة اقبال التعليمية Iqbal's Educational phelesophy واعادة الفكر الدينى فى الاسلام Reconstruction of "Religious In Islam"

ودعى الى المحاضرات فى جامعة أفغانستان ، ومن هناك سافر الى غزنه وزار قبر محمود الغزنوى ، وزار بعض البلاد الأخرى ، وحينئذ أصبح له اسمه وشهرته .

أما أعماله السياسية فكان لابد أن تكون .

كانت الهند تحت امرة الانجليز وكان كل شخص يطالب بجلائهم عن بلاده ،فليس بدعا أو عجيبا أن يكون اقبال بين المنادين ــ وقد رأس مجامع سياسية وسند حزب الرابطة الاسلامية ودعا الى اصلاح التعليم فى بلاده ، وكان عضوا فى الجمعية التشريعية ، واشترك فى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن لاصلاح الدستور الهندى ، وكان له من الأعضاء أثر واضح ، وأجيب لبعض ما دعا اليه .

وقدره حاكم البنجاب الانجليزى فدعاه الى قصر الحكومة ليخلع عليه لقبا أو يمنحه وساما فأبى ، ولكن بعض رفاقه ألحوا عليه ، وقد عرض عليه الحاكم بعض ألقاب الشرف دون لقب سير فرفض ، ثم قبل لقب سير على شرط أن يمنح أستاذه مير حسن لقب شمس العلماء ، ولم يكن لمير من الأعمال ما يؤهله لهذا اللقب، ولا كان ذا شهرة فى العلوم ، ولكنه أعطى هذا اللقب ارضاء لاقبال .

وشغلت اقبالا رسالته عن نفسه ، فكما عزف عن المال عزف عن الزواج فلم يتزوج الا فى سن متأخرة فعندما مات عن نحو ست وستين سنة ، كان ابنه دون الخامسة عشر من عمره .

وقد أدركت اقبالا الأمراض،وكان يطب له طبيب مكفوف البصر وكاد يعرف باسم الشاعر البصير ، ولكن مرضا أصاب قلبه فلم يفلح الطب فى علاجه ، فمات فى شهر أبريل سنة ١٩٣٨ م .

كلمة عن شعره :

أوجز ما يقال فى شعر اقبال أنه صورة صادقة لحياته ووصف نابض

لمشاعره، واذا كانت شخصية كل واحد منا تبنى وتتكون فى سنواته الباكرة الأولى ، فقد كانت شخصية اقبال مكونة من الورع ومراقبة الله تعالى ، وكان شعره أينما قلبته يتسم بسمات اسلامية وروح صوفى . وأبرز ما فى هذا المنهج أنه لا يخاف الموت ولا يتزعزع للأحداث، ولا يكترث لذهاب الدنيا ولا يفرح لاقبالها كان يرى أن الأحداث طرق وسمات خطها القلم الحكيم ، وانها شىء لابد واقع فلا يخفف الجزع من وقعهـا ولا تزيد مظاهر البهجة من قيمتها قليـلا ولا كثيرا وكان يرى أنه من العبادة أن يعمل الشخص للآخرين . ولكنه يرى أن الناس كالأطفال يفرحون بمالا بقاء له ولا نفع فيه ، وكما يقدم الرجل لابنه دمية يلعب بها ثم يحطمها يرى أن عليه أن يقدم للنـاس ما يبهجهم ويسرهم ، وان كانت مسرة موقوتة وبهجة الى حين .

وبهذا الشعور كان اقبال يرى أنه يفهم من الحياة ما لا يفهم غيره ، ويدرك من أسرارها ما عميت عنه عيون الآخرين ، وكان يردد هذه المعانى فى كل موضـوعات شعره ، ويرى أن الشىء الخليق بالاهتمام هو الاسلام والعمل لاصلاح حال المسلمين .

وأنت اذا حللت هـذه المشـاعر وجدتها مزيجا من الاسلام والصوفية جميعا وهى أفكار فيلسـوف درس الفلسـفة نظريات ومارسها فكرا ، وقاس الحياة وشئون النـاس على ما درسه وما فكر فيه فبدت الحياة أمامه صغيرة ، ولذلك لا يبكى عليها ، ورأى أن خير ما فيهـا هو العمـل للآخـرة ، وأن خير ما يهتـدى به الانسان فى طريقه وما يعرف به الجيد من الردىء هو الاسلام ، وكان يذكر أصله البرهمى ويرى أن من نعم الله الكبرى عليه أن هداه للاسلام .

وقد ترك اقبـال تسـعة دواوين ينظمها جميعا سلك واحد هو تقدير الانسـان وابراز أنه المخلوق الذى كرمه الله وسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا وهذه النظرة هى التى جعلت اقبالا شاعرا عالميـا وليس خاصا بباكستان ، لأن دفاعه عن بلاده وعن قومه يتسم دائما بهذا الشعور الانسانى .

جعل الله له لسان صدق فى الآخرين

إقبال

للدكتور يحيى الخشاب

نشأ اقبال كسائر المسلمين المثقفين فى الهند نشأة دينية . ففى المدارس الابتدائية ثم الثانوية تلقى من علوم الدين ما حببه فى الاسلام وأهله . وعكف على دراسة الشريعة والتاريخ الاسلامى واقتنع تماما أن مسلمى الهند لا ينهضون ولا يرد اليهم اعتبارهم الا فى ظل دولة اسلامية موحدة . دولة اسلامية قوية تستطيع أن تدافع عن المسلمين فى كل مكان. ومسلمو الهند أشد ما يكونون حاجة الى هذه الحماية الاسلامية من الدولة الاسلامية لأنهم أقلية بالنسبة لغيرهم من أهل الهند .

وسافر اقبال الى أوربا ، فى مطلع هذا القرن الرابع عشر الهجرى ، وعكف فى انجلترا وألمانيا على دراسة الفلسفة والتاريخ ، ويوم استطاع التفاهم مع فلاسفة الغرب ومفكريه لقيهم وناظرهم وعنى بالرد فى أحاديثه وكتبه عليهم، فهو لم يكن كغيره ممن يذهبون للغرب للحصول على شهادة. انما هو نسيج وحده ، ذهب الى الغرب ليتعلم وليناظر وليدافع عن رأيه الذى بناه على حقيقة ناصعة وهى أن الاسلام قادر على توجيه البشرية الى الخير .

وعاد اقبال الى وطنه . والهند بلد عظيم لقى فيه الاسلام مجالا ممهدا لينتشر وتعلو فيه كلمة الله ، ففيه قامت دولة المغول الاسلامية التى رفعت من شأن الحضارة الاسلامية مما تشهد به آثارها حتى اليوم .

ولكن بعض حكام المسلمين فى الهند، وقلة من علمائها ، دأبوا منذ البداية على القول بتشجيع فكرة خاطئة هى امكان توحيد الأديان فى دين واحد. واقبال كفيلسوف وشاعر له سعة

الفكر ودقة الحس ، شعر بأن واجبه أن يبدد ما شاب الاسلام فى الهند من أفكار دخيلة مفسدة منافية لأصوله هادمة لروحه • انه عرف أن القرامطة منذ البداية ، لجأوا الى الهند ، وعلم أن من البابية والبهائية من لجأوا اليها ، وأن أفكار « أكبر » ونظريته المضللة فيما أسماه «بالدين الالهى» لها أثر ، وان المصلح الذى أقام الجامعة وتحدث عن التعليم وجمع من حوله المثقفين من المسلمين قد أخذ يدعو الى آراء ما جاء بها أحد من المسلمين من قبل ، ثم لمس بنفسه تشجيع الانجليز للقاديانى ومحاولة هذا لأن يستخدم الاسلام لخدمة الانجليز ، وعرف أن سذاجة الهنود،مسلمين وغير مسلمين جعلت فكرة الدين مطية لكل طموح فى سلطان أو طالب لمنفعة • ومن هنا بدأ رسالته فى بث الوعى بين المسلمين •

لم يدع اقبال أنه رئيس أو زعيم ولكنه يقرر أنه لم يكن «امعة» لأحد• انما هو رجل صحا ويريد أن يوقظ النائمين • هو مفكر وشاعر ومسلم يعرف الاسلام ويدرك حقيقته • وهو يرى ويسمع أن الانجليز وجدوا فى المسلمين أشجع الجند وأفدر المحاربين • وبدأ اقبال يتحدث عن شخصية المسلم • وأن هذا المسلم لو عنى بذاته يصل الى تحقيق ما تصبوا اليه نفسه وماينبغى أن تكون عليه أمته • وأخذ على عاتقه أن يفهم المسلمين فى الهند حقائق الاسلام • واتجه الى الذين استناموا بأن تبعوا المتصوفة المتشائمين الذين ساروا وراء « التصوف العجمى » الذى ينيم الأمة لأنه يقتل فى المسلم روح العمل • حارب فكرة الجبر ودعا المسلم الى أن من جد وجد •

بسلسلة القضاء ربطت رجلا
وفى سعة العوالم ضقت حالا

فقم ان كنت فى ريب وأقدم
تجد للرجل فى الدنيا مجالا

ويقول :

دع الشطآن لا تركن اليها
ضعيف عندها جرس الحياة

عليك البحر صارع فيه موجا
حياة الخلد فى نصب تواتى

وفى شعر عذب له تحدث عن حوار بين غزالين :

غزالا بث شكواه غزالا
فقال سأقصد البلد الحراما
أرى الصياد حولى كل حين
فلا أسطيع فى أرض مقاما
أبدل خيفة الصياد أمنا
وأنفى الغم عن قلبى المعنَّى

* * *

أجاب رفيقه أن يا خليلى
حياتك فابغ فى الخطر الجليل
ونفسك فاشحذن فى كل آن
وعش أمضى من السيف اليمانى
ففى الأخطار للهمم اختبار
لأرواح وأجساد عيار

* * *

وكما ألمَّ اقبال بأحوال المسلمين فى الهند ، أدرك ما يجرى فى العالم الاسلامى خارجها . والخلافة التى هى رمز للمسلمين وجامع لهم تتهددها الأخطار . وخليفة المسلمين فى الآستانة تنوشه سهام من أهله ، وفلاسفة المسلمين وشعراؤهم يشفقون على الاسلام والمسلمين من التفكك اذا ما اعترى الخلافة الهوان . محمد عاكف ، شاعر الاسلام وغيره من الكتاب الترك والمسلمين يدعون الى الوحدة الاسلامية ، حول الخليفة ، ويجادلون عن العربية ، لغة القرآن، ضد العامية ، ويستمدون أدبهم من العهد الاسلامى الأزهر ، عهد الراشدين ضد التقليد الأعمى للأدب الغربى ... يرى اقبال كل هذا فيدلى بدلوه فى هذه الدعوة اللازمة ويتجه فى أشعاره الى المسلمين . يريد أن يعود المسلمون الى عهدهم الرشيد فيتخذوا مثلهم العليا منه . من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم الذى هو المثل الأعلى للبشرية كلها . من سيرة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى الذين عملوا للاسلام والمسلمين ولم يعملوا لأنفسهم قط .

يريد أن يعود المسلمون الى الشريعة وأن يدعوا هذه القوانين الوضعية التى استشرى الفساد فى ظلها فلا أمن ولا أمانة ولا رضا ولا قناعة . وقال ان المسلمين تبعوا الغرب اتباعا عن غير تبصر لما فى

دينهـم من القيم التى تنفعهـم فى دنياهم وفى آخرتهم ، وانهم لذلك أصبحوا نهبا لـكل أفاق يرى أن يتجه بهم يمنة حينا ويسرة أحيانا . وذات الرجـل فى الاستمساك بدينه وقـوة الأمـة فى العمـل بمبادىء الـدين . ويوم استمسكت أمـة المسلمين بالشريعـة بلغت الأوج ، ويوم أتاحت لأفكار الغرب أن تمخر فيهـا ضعفت وتحللت وصارت الى ما هى عليه اليوم من الهوان .

وقفتـان تاريخيتان لاقبـال فى شعره : الأولى يوم وقف فى القدس والثانية يوم زار مسجد قرطبة .

يوم زار مسجد قرطبة سرح به الخيال الى المسـلمين الذين فتحوا الأندلس وأقاموا فيها دولة للاسلام ، وبنوا هذا المسجد الذى يعد آية فى جمال الفن الاسلامى ، وتخيل المئذنة وليس لهـا مؤذن يدعـو النـاس للصـلاة ، والمنبر وقـد خلا من خطيبه ، والساحة وقـد خلت من المصلين . وبكى اقبال وهو يحكى المجد الذى قضى، وبكى وهو يصف الأثر الباقى على السنين ، الشاهد على ما كان للمسلمين من قوة وعظمة وبأس .

والوقفة الثانية وقفة القـدس ! مهبط الوحى ، ساحة الأمن والهدوء والرضـا والتأمل . بلد المسـجد الأقصى وقبـة الصـخرة ، وتذكر الاسراء والمعـراج ، وتذكر موقف عمر ـ رضى الله عنه ـ ساعة الفتح .

وتمضى الأيام يا اقبـال فاذا المسـجد الأقصى ومـكان الاسراء والمعراج وقبة الصخرة فى حـوزة اسرائيل . ولو عشت يا اقبال حتى ترى حـال القـدس اليوم لحملت مصـباحك لترى من يعيشـون فى الظـلام طريقهم الى النـور ولقلت يا اقبال للمسلمين : هذا بلدكم وفيه مسجدكم . على الترك والايرانيين والمصريين والأفغان والعرب وسائر المسـلمين أن يعيدوه الى حـوزة الاسـلام . انهم يتحدثون يا اقبال عن دول المواجهة ولا يتحدثون عن الدول الاسلامية وواجبها . لم يقرأوا التاريخ يا اقبال ولو قرأوه عرفوا

أن أرض القـدس رُويت بـدماء المسـلمين جميعـا . تمنى الفيصل العظيم أن يصلى فى المسجد الأقصى قبـل أن يموت وكانت أمنية ملك مسـلم يتمنى المسـلمون أن تلقى أمنيته أذنا صاغية وقلبا متفتحا من جميع ملوك المسـلمين ورؤسائهم : انها أمنية للجهاد فهل لها اليوم من يعلنها يا اقبال ؟ .

أما بعد فان من يذكر اقبالا يذكر صنوه ومريده عزام . عزام الذى عرفنا باقبال والذى دعا دعوته يوم نادى « بالأخوة الاسلامية » .

يرحمهما الله ويلهم المسلمين أن ينظـروا فى أمر دينهم وأن يعيدوا للأمة الاسلامية وحدتها ومجدها .

د . يحى الخشـاب

« ياوارث التوحيد الاسلامى ، لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر ، والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوما من الأيام اذا نظرت الى أحد ارتعد فرقا منك وطار قلبه شعاعا ، وقد اصبحت اليوم كسائر الناس لاتحمل روحا ولا تجذب نفوسا » .

« اقبال »

محمد إقبال

لسعادة الدكتور سميع الله مجاهد
سفير باكستان فى القاهرة

بدأت الاحتفالات التى أقيمت بمصر بمناسبة الذكرى المئوية لمولد شاعر باكستان وفيلسوفها محمد اقبال باجتماع كبير عقد بقاعة الشيخ محمد عبده بجامعة الأزهر ٠

وفيه ألقى السيد الدكتور سميع الله مجاهد قريش سفير باكستان بالقاهرة كلمة ننشرها فيما يلى :

أيها السادة الأجلاء :

لا يسعنى الا أن أزجى الشكر للأساتذة الأجلاء الذين اشتركوا معنا اليوم فى هذا الحفل الذى أقيم لتكريم وذكرى الفيلسوف الحكيم العظيم وشاعر باكستان الوطنى محمد اقبال ٠ كما أشكر أيضا فضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر وأشكر مدير جامعة الأزهر ورجال الجامعة جميعهم وذلك لسماحهم باقامة هذا الحفل فى هذه القاعة ٠

والواقع أن ليس هناك ما يضفى على اقبال من تكريم أكثر من اقامة هذا الحفل فى رحاب الأزهر الذى يتطلع اليه العالم بوصفه أقدم وأعرق معهد للعلوم الاسلامية طوال عشرة قرون والذى يأتى اليه المسلمون من بعيد عابرين البحار والصحارى والسهول والجبال لينهلوا من معينه العلوم الاسلامية الحقة ٠ واذا قدر لتعاليم اقبال وفلسفته أن تتركز فى مكان واحد من أمكنة العلم فهذا المكان هو الأزهر ، وذلك لأنه هنا بالأزهر تختفى وتندمج كل اختلافات الجنس واللون والانتماء الى العشيرة أو القبيلة لتمجيد الاسلام وهنا تستطيع الألوف المؤلفة من

العلماء والطلبة المسلمين أن يحققوا مبتغاهم ليس الآن فقط ولكن على مرّ السنين ، وكأن روح اقبال قد وجدت راحتها فى هذا الجو الرائع، وقد ناشد اقبال الأمة « من شواطىء النيل الى جبال كشغر » بأن يقفوا صفا واحدا وأن يتناسوا كل الفوارق • وقد حذر من « أن من سيقف وحيدا مزهوا بدمه ولونه فأنه يلقى الضياع » •

وتتميز القاهرة بأن بها العديد من كبار المثقفين الذين يعرفون اقبال ، وقد كتبوا كثيرا من المؤلفات عن أعماله وترجموا شعره •

وفى هذا المكان الجليل وبين هذه الصفوة من العلماء أجد نفسى عاجزا عن التعبير عما يجول فى نفسى كما أحبوأرضى • وكنت أود أن أعرض لأى جانب من جوانب اقبال وفى أى موضوع من الموضوعات الممتازة ولكنى آسف لأنى لا أستطيع أن أعرض ما يجول فى نفسى باللغة العربية بما يتناسب وهذه المناسبة الكبيرة • ولكنى سأقصر حديثى على كلمات بسيطة عن اقبال • وفلسفة اقبال لها جوانب عديدة وحياته ثرية تعكس شجاعته فى اعلان الحق الأمر الذى يجعل من غير الانصاف أن يعالج الانسان حتى ناحية واحدة من نواحى فكره فى جلسة واحدة •

ما هى العوامل التى خلقت عبقريته وصاغت أفكاره ؟ هذا سؤال هام نطرحه اذا أردنا دراسة شخصيته التى تركت بصماتها على التاريخ • وأود أن أذكر بايجاز هذه العوامل •

ولد اقبال وتربى فى وقت كان مسلمو شبه القارة يمرون فيه بمرحلة من اليأس والقنوط • ولد بسيالكوت وهى مدينة تشارف البنجاب وكشمير عام ١٨٧٧ • وقبل أن يولد اقبال بعشرين سنة كان المسلمون قد قاموا عام ١٨٥٧ بنضال عنيف ضد القوى البريطانية الزاحفة ولكنه لم يقدر له النجاح

وفشل المسلمون فى محاولتهم طرد البريطانيين وسقطوا فريسة لاضطهاد وحشى على أيدى السادة المستعمرين. وقد أمكن لهؤلاء انتزاع الحكم الذى حكم به المسلمون شبه القارة مدة ألف سنة الأمر الذى تركهم عزلا ضعفاء. وقد عدهم السادة المستعمرون منافسين لهم عليهم أن يسحقوهم، وهنا بدأت عمليات منظمة لابادتهم فى كل المجالات، لا من الناحية السياسية وحسب بل حتى من الناحية الاقتصادية أيضا. وبذلك أمكن القضاء على المسلمين. وقد عادى المسلمون البريطانيين وامتنعوا عن التعاون معهم، وقد كرهوا أيضا فرض لغة أجنبية عليهم ونموا فى صدورهم عداوة حتى لطريقة حياتهم ولوسائل التعليم الغربية. وكان المسلمون أول من ثار وناهض القوى الاستعمارية بشبه القارة. ومن هنا نبعت جذور العوامل التى خلقت فى نفس اقبال شعوره ازاء القيم الغربية. والواقع أنه مهما مر الزمن فان اقبال يبدو دائما معارضا وناقدا للنظام الغربى.

وفى تلك الأيام كان من الطبيعى أن يبدأ الطفل المسلم تعليمه فى المساجد أو المدارس أو المكاتب التى كان يشرف عليها رجال الدين. وقد حصل اقبال على تعليمه فى مراحله الأولى بهذا الأسلوب، وكان معلمه الأول مولانا مير حسن الذى ترك أثره على فكر اقبال طوال عمره.

وفى ١٨٩٥ انتقل اقبال للاهور ليلتحق بجامعتها، وهناك تتلمذ على معلم كبير آخر هو سير توماس أرنولد. وفى حين أثر مير حسن على اقبال من الناحية الاسلامية أعد سير توماس أرنولد الشاب الى تقبل آداب الغرب وأفكاره. ولما بلغ اقبال الرابعة والعشرين من عمره ذهب الى أوربا لاكمال دراساته وخلال السنوات الثلاث التى قضاها هناك، التى عاد بعدها الى بلاده بدرجة الدكتوراه من جامعة ميونخ،

كان كثير التردد على مكتبات كمبردج ولندن وبرلين • وعين أستاذا للغة العربية بجامعة لندن لمدة ستة شهور • ولما عاد للاهور عرض عليه كرسى الفلسفة والأدب الانجليزى • ولكنه سرعان ما هجر حياة التدريس ليمارس المحاماة بعد أن حصل على درجة فى القانون من لندن •

ومع أن اقبال قام بدراسة عميقة للأفكار والنظم الغربية الا أنه لم يبتعد عن ثقافته الأصلية بل انه راح يقدرها كل التقدير •

ولما عاد الى وطنه كان أكثر معارضة للغرب وخلال هذه الفترة اهتم اقبال بما يمكن أن يفعل للارتفاع بمستوى المسلمين • وكان الشاعر الاسلامى العظيم الطاف حسين حالى قد نظم (المسدسات الاسلامية) وفيها يرثى لحال المسلمين وحالة القنوط التى يعيشون فيها وتخلفهم وظروفهم السيئة • وكان حالى يناشدهم العمل لاعادة بناء أنفسهم لاستعادة أمجادهم السالفة • وقد بدأ مستقبل المسلمين السياسى يومذاك قاتما للغاية ، الأمر الذى أثار فى نفس اقبال الرغبة فى التعبير عن الأحوال السياسية السائدة بالشعر ، وذلك لأنه كان شاعرا منذ مطلع حياته • وكأى شاعر آخر بدأ اقبال حياته الشعرية حسب التقاليد المرعية من قول الغزل والقصائد الصغيرة وما شابهها • وقد عملت الأيام التى قضاها بأوربا على ايقاظ الملايين من بنى البشر من سباتهم • وقد تركزت أشعاره على مسائل ثلاث : لماذا يختلف المسلمون ولماذا يقعون فريسة لغيرهم ؟ كيف يتسنى لهم اعادة تكوين أنفسهم ولماذا يظل الشرق فى هذه الحالة من السكون والجمود ؟ ولماذا قضى على شرف آسيا العريق ؟

ولا يسع المرء الا أن يجد فى اقبال الاهتمام البالغ بحالة المسلمين والشرق أيضا • قلبه قلب مسلم وتوعيته توعية اسلامية ، وكان قلبه

يخفق مع كل انسان مضطهد مظلوم مغـلوب على أمره . ولذلك كان اقبال شاعر الاسلام وشاعر الشرق أيضـا .

ولمـا عاد اقبـال من أوربا كتب قصـيدتيه الرائعتين (شـكوى) و (جواب شكوى) . وعلى الرغم من أن هاتين القصيدتين تعدان من روائع الشعر الأوردى اللتين أثارتا النفوس واحتلتا مكانتيهما الطيبة فى مجال الشعر فانهما يعدان أيضا نقطة تحول فى تطوير القومية الاسلامية. وهاتان القصيدتان كانتا ولا تزالان على لسان كل مسـلم ، وكانتا قد ألهبتا وأيقظتـا الوعى الاسـلامى السياسى بشبه القارة .

وفى قصيدته (شـكوى) يسأل أحـد المسـلمين الله عن سر محنته ويشكو اليه أنه برغم قيـامه بنشر الرسالة هنا وهناك وبرغم أن ضحى بالكثير من أجل ذلك من قارة الى قارة ، فان الشخص الذى لا يؤمن بهذه الرسالة هو الذى يحكم العالم ويسيطر عليه .

وفى (جواب شكوى) يرد الله على الشـاكى مذكرا اياه بتبـديد المسلمين لقواهم ويقارن بينهم وبين أسلافهم . والواقع أنه لم يحـدث أن اهتزت نفوس الملايين من المسلمين كما اهتزت بسبب هاتين القصيدتين. فقد انتشرتا من بيت الى بيت وأيقظتا المسلمين جميعهم من السبات الذى كانوا مستغرقين فيه .

وقـد حلل اقبال أسباب جمود المسلمين وأهل الشرق . وانتقـد الغـرب بشـدة واصـفا نظامهم الاجتماعى بأنه نظـام غير انسانى ، يتحركون فيه كمـا تتحرك الآلة ، نظـام قاس صلب خـال من القيم الأخلاقية . وقد انتقد بشدة ماركس ووجه اليه هـذا السؤال . « ماذا هناك فى كتبك أنت يا فيلسـوف الخبز .. هـذه الكتب لا تتضمن الا رسوما هابطة ورسوما مستديرة» كان اقبال يقول للغرب ان أى نظام لا يقوم على المثـل الانسانية نظام يدمر نفسه بنفسه ، وبذلك أبـدى عدم انتمائه لا للنظـام الرأسمالى ولا للنظام المـاركسى ، ولكنه ركز

أفكاره وآراءه على النظام الأخلاقى الذى يجب أن يكون .

وكان مهتما أشد الاهتمام بمحنة الفلاحين والعمال ويطالب بايجاد نظام عادل منصف يقوم على المثل العليا الانسانية وليس على نظم لا تعترف بالله . ولم يكن اقبال يؤمن بأى نظام سياسى لا يعترف بالله . وكان يقول انه اذا افتقدت السياسة القيم الأخلاقية فانها تصبح طقسا من طقوس جنكيز خان . وكان هذا هو نفس ما تضمنه الفكر السياسى الاسلامى لأن السياسة والأخلاق كانتا متلازمتين ، وقد صدق هذا مع ما قاله أحد الفلاسفة الأقدمين من أن الدولة والدين شقيقان توأمان .

ان اوربا تحتضر . والروح تموت عطشا فى سرابها الخادع . فيها حضارة نعم ؟ ولكنها حضارة تحتضر وان لم تمت حتف أنفها فلسوف تنتحر غدا وتذهب .

محمد اقبال

المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين

غرة ذي القعدة ١٣٩٧ حتى ٣٠ ذي القعدة ١٣٩٧هـ
١٤ من أكتوبر ١٩٧٧ حتى ١١ من نوفمبر ١٩٧٧م

١- كلمة الرئيس المؤمن محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية
في أعضاء وفود المؤتمر .

حفل افتتاح المؤتمر

١- كلمة نائب رئيس الجمهورية السيد / محمد حسني مبارك

٢- كلمة صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر ورئيس المؤتمر

٣- كلمة صاحب الفضيلة الدكتور عبد الجليل شلبي
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

٤- كلمة صاحب السماحة السيد محمد عبد الرحمن بكر وزير العدل
بدولة الإمارات العربية - نيابة عن أعضاء المؤتمر

٥- وصف تفصيلي لوقائع المؤتمر، وقراراته وتوصياته

بقلم وإعداد : زاهر عزب الزغبي

كلمة

الرئيس المؤمن

السيّد محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

إلى أعضاء المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين

حينما استقبلهم فى استراحته بالقناطر الخيرية

ظهر الأربعاء ٦ من ذى القعدة ١٣٩٧هـ

٩ من أكتوبر ١٩٧٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله أننا نلتقى اليوم لنتحدث فى أمور عالمنا الاسلامى كله مع هذه الصفوة الممتازة من علماء المسلمين ، وما أجدركم أن تضعوا فعلا الطريق الى الايمان ، فلعل أخبث سلاح استخدمه الاستعمار ضدنا فى الفترة الماضية كان هذا السلاح هو ضرب الايمان ..حاولوا أن يضربوا الايمان فى نفوسنا جميعا

ومن خلال ضرب الايمان يستطيعون أن يتسللوا لكى يطبقوا سياستهم المعروفة : فرق تسد .

اليوم لا حجة لنا لقد تولينا جميعا أمورنا بأنفسنا ، ولا بد لنا من أن نختط الطريق السليم لاعادة بناء مجتمعاتنا .

لابد أنكم جميعا تعلمون ما ينتاب الشباب المسلم فى عالم اليوم وما يتقاذفه من تيارات خبيثة ليس لها أى ركيزة ، وليس لها أى جذور فى مجتمعاتنا .. يزينون الكلام على أن قمة العلم وقمة المعرفة هى فى أن يتنكر الانسان لايمانه .

ما أحراكم أن تجدوا الطريق الى هذا .. واذا كان لى أن أضع أمامكم بندا من بنود جدول الاعمال الذى تأخذون أنفسكم به..فاننى أجدنى مطالبا من شعبنا ومن جمهور المسلمين فى كل أنحاء الأرض .. مطالبا بأن أضع أمامكم فى جدول أعمالكم كلمة هى الايمان ..

شعارنا العلم والايمان

تعلمون أننى قبل أن تمر سنة من ولايتى أعلنت شعار الدولة وهو العلم والايمان .. العلم لاننا لا نستطيع أن نتخلف عما يعيشه عالم اليوم من علم والا كان ذلك أيذانا بالقضاء علينا جميعا كما قضى من قبل على أمم كالهنود الحمر . فلا سبيل لنا أن ننكص أبدا أو نتأخر عن متابعة العلم فى أحدث ما يصل اليه فى عالم اليوم .. لقد كان هذا أيضا من أساليب الاستعمار الخبيثة أن نتخلف عن العلم وان نظل شعوبا متخلفة لكى يفعل بنا ما يشاء .

ولكن وكما قلت لكم وقد أصبحنا نملك أمورنا

بأنفسنا فلا حجة لنا .. ويجب أن تقضى على تلك الفجوة .. فجوة تخلفنا عما يعيشه العصر اليوم من علم وتكنولوجيا ولكن العلم وحده أصم .. وسمعنا ونسمع عن تفجير الذرة .. التفجير الهيدروجينى وآلات الدمار .. كل هذا من ثمار العلم .. واجبنا ألا تتخلف لانه كما قلت ستلعننا أجيالنا المقبلة اذا تخلفنا ولم تترك لهم زادا يعيشون به فى عالم اليوم يتميز بالعلم والذى يتطور فيه العلم كل يوم تطورا كبيرا .

العلم وحده كما قلت خطر ومدمر .. ولكن بالعلم والايمان يستقيم الأمر،ويصبح العلم بدلا من أن يكون اداة تدمير وخراب يكون أداة محبة وبناء .. وأداة رخاء مشترك يعيشه العالم كله .. اذا كان لى أن أضع أمامكم فى جدول أعمالكم كما قلت .. فانني أريد أن أضع كلمة الايمان فى هذا الشأن ..

دعاوى تزعم انها عقائد

أريدكم أن تستنبطوا كيف نربى الطفل منذ طفولته الى شبابه الى رجولته الى شيخوخته .. كيف نربيه على الايمان .. قد يكون هذا بالنسبة لى أمرا أساسيا يوصف أننى مسئول فى هذا البلد الذى عرفتموه وعرفتم كفاح شعبه وعرفتم ايمان شعبه أنا مسئول أن أوصل الأمانة .. مسئول أن أؤدى الرسالة وما وجدت عدوا فى أداء هذه الرسالة أو تسليم هذه الأمانة الى الاجيال المقبلة .. لم أجد عدوا الا فى تلك الدعاوى التى تتسرب اليوم الى نفوس النشء .. الى نفوس شعبنا عن طريق المذاهب الاجتماعية التى وصل البعض بها الى أن يصفها بأنها عقيدة .. ماذا كانت النتائج لهذا الضياع الذى يعيشه طفلنا وشبابنا المسلم .. كانت النتيجة زيادة فى الحيرة .. زيادة فى التيه، اختلاط كل الأمور بحيث أصبح كل فتى وكل فتاة فى عالمنا الاسلامى يتجاذبه أو تتجاذبها تلك التيارات الجديدة،ولأننا لم نضع المنهج المبسط منذ الطفولة لهؤلاء سمعنا عن الانحرافات وما قرأتموه مثلا عندنا عما حدث أخيرا هنا ممن أسموا أنفسهم بجماعة التكفير والهجرة .

انصاف المتعلمين

يقولـون أن اخطـر الناس هم أنصاف المتعلمين .. لا هو بالجاهل ولا هو بالمتعلم الذى يلم بأطـراف كل ما يتحدث عنه أو يتعرض له ، وانما هو نصف متعلم يأخـذ آية من القـرآن ثم يفسرها كما يشـاء وكما يحلو له أو كما تسـيطر عليه نزواته سواء كانت نزوات فرديـة أو نزوات انفعالية أو نزوات أساسها التيه الذى يعيشه فى هذا العالم .

فى هذا الخضم الذى يحيط بنا .. الذى أصبحت المادة تسيطر على كل شىء فيه .. الايمان .. مطلوب منا أن نبسّط الايمان للطفل منـذ أن يولـد فى المنزل .. فى المدرسة .. فى العمـل فى السـلوك .. فى كل شىء .

لن أنسى أبـدا .. اننى حينما بـدأت أدرك أو حينما تفتحت عيناى .. كنت فى القرية .. وفى القرية مدرستنا هى الكتـاب وفى الكتاب بدأت أحفظ القرآن .. ثم ذهبت الى المدرسة .. مدرسة التعليم العـام .. وكان تدريس الدين فى ذلك الوقت .. كان هذا فى العشرينات .. يعتمد أول مايعتمد على قصص له روعة وعذوبة مثل قصص القرآن بل لم يعلمونا .. أو يضعوا امامنا آيات بذاتهـا لكى نحفظها .. كما يحدث اليوم .. وانما كان الحديث حديثا من قصص القرآن وبعد أكثر من خمسين سنة وأنا أتحدث اليكم اليوم .. لا أزال اذكر يوم أن كان يدرس لنا أسـتاذ الدين كيف أن محمد صلى الله عليه وسلم .. وهو يرعى جـاءت الملائكة لتشق صدره .. ولكى تنتزع منه الشيطان ..

يومها تعلمت

لا أزال أذكر هذا اليوم .. أو هذه الحقبة بالذات وأنا طفـل صـغير .. ليس للمعجزة فى ذاتها .. وقد يتعرض لها البعض .. بانها غيبيات أو كما يقولون اليوم اولئك الذين يتحذلقون .. ويدعون ان العـلم لا دخل للايمان فيه على الاطلاق .. أبدا .. لقد أذكت هــذه القصة فى نفس عوامل الخيال .. ومن يومهـا تعلمت .. أن فى داخل كل منا الى الى جانب ما أراده الله سبحانه وتعالى فى خلقنا .. أن فينا شيئا من روح

الله .. الى جانب هذا يوجد ايضا شيطان .

علينا أن نغلّب روح الخير والحق وروح الله على هذا الشيطان الذى يكمن فى صدورنا . بهذه البساطة تعلمت الايمان ..

من الطفولة الى الشيخوخة

كما قلت لكم .. بعد أن غادرت الكتاب لم يحفظونا آيات نكررها كالببغاوات .. وانما تلقفونا بحديث قصص القرآن فلما كبرت وقرأت فى مختلف الفروع قرأت حكمة تقول ان الله سبحانه وتعالى خلق الملائكة من عقل بلا شهوة وخلق الشياطين من شهوة بلا عقل .. وخلق ابن آدم من كليهما .. فمن غلب عقله على نزواته وعلى شيطانه وعلى شهوته كان أفضل من الملائكة .. ومن غلب شهوته على عقله كان أسوأ من الشياطين .

فى مختلف مراحل حياتى كما حكيت لكم .. وهذ ما أريد أن تجدوا له سبيلا فى عملكم اليوم .. علنا أن نضع علامات متتالية منذ الطفولة إلى الشيخوخة ..

ومطلوب منا أن تتعلم العلم من المهد الى اللحد .. كيف نضع هذا الأسلوب الذى يتدرج بطفل بأن يذكى روح الخيال فيه .. وهو يستمع لقصص القرآن وهو يسمع عن الملائكة ، وهو يسمع عن عن الشياطين وعن سلوكهم .. كيف نتدرج بهذا الايمان .. ونغرسه فى النفوس منذ الطفولة الى الشيخوخة .

أعتقد أن هذا يساوى كثيرا .. وأعتقد أنه شيء أساسى فى هذا العصر الذى نعيش فيه .. وكما قلت لكم يتقاذف شبابنا فيه تيارات ملحدة .. وتيارات مادية وتيارات تبتعد به عن أصالة الايمان ... وجذور الايمان .

خطيب الجمعة

بعد ذلك لما قرأت القرآن وحفظته .. أقرأ أن الله سبحانه وتعالى يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم . « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » .. لا حجاب بين الانسان وربه أبدا .

فى القرية كنت أصلى الجمعة دائما قبل أن آتى الى القاهرة وانضم الى المدارس هنا .. وكان فقيهنا حين

يعتلى المنبر يحذر ويتوعد لأقل خطأ .. ولا أخفيكم اننى جئت الى القاهرة .. والى التعليم العام .. وأنا مشدود الأعصاب مما سمعته من خطيب خطبة الجمعة حينما يتحدث عن الآثام والذنوب.ويحكى « فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .. وكأن الله سبحانه وتعالى ليس الا منتقما جبارا لا يعرف الرحمة أو لا يعرف الشفقة .

بعد قراءة القرآن يقول الله سبحانه وتعالى لأجل أن يصل الينا هذا الحديث .. « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » . يقول أيضا « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك » هذا هو التحريم القاطع : لا شرك بالله .. « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

القرآن وحياتى بالسجن

لأننى حفظت القرآن عرفت هذا .. ولكن كيف سيعرف شبابنا هذا الأمر .. ونحن نصور لهم أن أبسط خطيئة هى فى النار .. وأن الله يغضب على عبده الذى يخطىء غضبا لا سبيل الى رده .. فى الوقت الذى يحدثنا الله سبحانه وتعالى كما تحدثت اليكم فى أكثر من موضع بأنه الرحمن الرحيم الغفار .. وبأنه أكثر من ذلك حينما عشت فى السجن ..

حينما عشت فى السجن وبين الجدران الأربعة للزنزانة..لم يكن يؤنسنى أو لم يحل بينى وبين أن أنهار كاملا بعد أن كنت أعيش خارج السجن حياة كاملة وأنا أكافح من أجل وطنى ثم أجد نفسى فجأة بين جدران أربعة بلا شىء على الاطلاق .. كان الايمان .

فى الزنزانة رقم٥٤ فى طرة ميدان .. أو سجن مصر العمومى تعلمت شيئا من ذلك الانفتاح الذى تلقيته وأنا طفل .. وذلك فى الخيال الذى عشته بأن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم .. قادر على كل شىء يغفر الذنوب جميعا .. لا حائل بينى وبينه .. تعلمت ذلك .. تعلمت أن الانسان قد يصادف فى حياته ونحن فعلا نصادف فى حياتنا معارك

كثيرة من أجل الحياة ومن أجل البقاء فى هذا العالم المادى الذى نعيش فيه .

يريد لنا الخير

ويحدث أن يخون الصديق .. أو أن يتنكر حتى الابن..ولكن فى الزنزانة رقم ٥٤ .. تعلمت أن هناك صديقا لا يخون أبدا .. صديق قادر على كل شيء .. صديق اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون .. من قصص القرآن .. كان مع موسى عندما خرج مع بنى اسرائيل من مصر هنا .. وكما تعلمون فى القرآن .. لما خاف القوم ..

قالوا انا لمدركون..قال لهم موسى كلا ان معى ربى سيهدين..فانفلق له البحر حينما أوحى الله له أن يضرب البحر بعصاه .. قادر على كل شيء .. وصديق لا يحسد .. ذو قلب يجمع كل هذه الخليقة .. يريد لنا الحياة شريفة قوية .. يريد لنا الخير ..

يومها عرفت أن صداقة الله سبحانه وتعالى هى أعظم كنز يستطيع انسان فى هذه الحياة أن يصل اليه .. فاذا ما وصل اليه هانت أمامه كل الصعاب .. وارتفعت نفسه الى أقصى الآفاق ..

وهكذا عشت الشهور الستة الأخيرة فى الزنزانة رقم ٥٤ .. وكتبت عنها منذ أكثر من عشرين سنة اننى ما عشت ولن أعيش أحلى من تلك الشهور الستة دعونا نعلم أبناءنا الايمان فى كل مراحل حياتهم ..لكى يعلموا أن الله سبحانه وتعالى صديق .. أعظم صديق ..

يريد لنا الخير لا فاصل ولاحائل بيننا وبينه .. اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون ..

العلم وحدة .. مدمر

أردت أن أحكى لكم هذا .. ولعلنى حاولت أن أستعرض جزءا من حياتى منذ أن بدأت فى القرية الى أن انتهيت بها فى الزنزانة فى سجن قرامدان .. وبعد ذلك وأنا مسئول عن شعب مصر وكنت أزور بريطانيا .. فى العام قبل الماضى سألنى صحفى بريطانى.. ماذا تعنى بكلمة .. أو بشعار العلم والايمان .. فحكيت له عما حكيت لكم من

اننا لن نستطيع أن نتخلف والا لعنتنا أجيالنا المقبلة وخاصة اننا نملك أمرنا فى يدنا .. لم يعد هناك مستعمر .. ولم يعد هناك حاكم يطوع أى شىء لنفسه أو لذاته .. انما على كل حاكم أن يستجيب لما يراه الشعب ولما اصطلحت عليه أمته من عقيدة .. ومن سلوك .. قلت له أن العلم وحده مدمر ولكن بالعلم والايمان .. يكون العلم أداة الايمان .. وأداة معرفة .. وأداة رشد .. وضربت له مثلا .. قلت له حينما كنت بصدد اتخاذ قرار المعركة .. كان الذى يقرأ صحف الأمة العربية كلها خلال تلك الأيام السوداء .. أيام النكسة .. يحس بما كان يعانيه شعبنا العربى نتيجة مايكتبه أولئك الذين يحللون وأولئك الذين يعتبرون أنفسهم من أصحاب المعرفة والثقافة . وهم كما قلت لكم من أنصاف المثقفين .. وهم أخطرنا .. تفشت دعاوى الهزيمة والانهزامية الى أقصى الحدود — ليس فى العالم فقط — بسبب الانتصار الخرافى الذى حصلت عليه اسرائيل بدون جهد على الاطلاق ..

ليس فقط فى العالم وقد كان العالم يؤمن أن العرب جثة هامدة لا حراك فيها لخمسين سنة مقبلة بل أخطر شىء أن انتقلت هذه الدعاوى الانهزامية الى داخل الأمة العربية وبدأ كتابنا وأدعياء الثقافة فيها يحللون ويكتبون عن استحالة أى عمل ضد اسرائيل .

العلم وروح الايمان

قلت للصحفى الانجليزى .. لعلى وقتها خلال عام ٧٣ لو اننى لجأت الى العلم وحده وأقصى ما توصل اليه العلم هو العقل الالكترونى .. لعلى اذا لجأت اليه ووضعت فيه كل العوامل والمسببات والمعلومات وقوى الطرفين ومايدور فى العالم ويدور داخل الأمة العربية ثم طلبت من العقل الالكترونى كما يحدث اليوم فى العالم كله .. هم يضعون جميع مشاكلهم ببياناتها فى هذا العقل وينتظرون منه الاجابة .. قلت له لعلى اذا كنت قد جمعت

كل تلك المعلومات ووضعتها فى العقل الالكترونى وانتظرت الاجابة .. وقلت له .. ماذا تظن أن الاجابة كانت ستكون .. قال .. بالتأكيد .. لا .. لا معركة .. هو صحفى انجليزى .. بالتأكيد الاجابة لامعركة لأننا نحن فى العالم كله نؤمن بأن العرب جثة هامدة وأنه لا حراك فيهم ولن يكون لهم أى وزن لا سياسى ولا عسكرى للخمسين سنة المقبلة .

قلت له لقد أجبت على سؤالك .. لم أضع حساباتى فى العقل الالكترونى .. المادى البحت .. وانما هناك جانب لا يمكن للعقول الالكترونية مهما أبدعت .. ومهما كان اختراعها .. ومهما كانت دقتها .. هناك شىء لا يبين فى هذا العقل .. الايمان .. روح الله الكامنة فى كل منا .. وكيف أنه عندما يغلبها على روح الشر والشيطان يكون أفضل من الملائكة ..

من الطفولة الى الشيخوخة

أردت بهذا أن أتحدث اليكم عن أمر يزعجنى حقيقة وهو كيف نستطيع أن نعلم الايمان لشبابنا ولفتياتنا .. منذ الطفولة الى الشيخوخة .. نريد أن نضع لهم برامج وأساليب مما يأخذ به العصر اليوم .. لكى نعلمهم الايمان ولكى يزدهر خيال الطفل فيصل فى يوم من الأيام الى أن يحس بالرباط القوى الذى يربطه بالخلاق العليم .. وأن يصادقه .. وعندما يصادق الانسان الله سبحانه وتعالى .. فسيصادق الناس .. وسيصادق الأشياء وسيحس أنه لم يخلق فى هذه الدنيا عبثا .. وانما هو جزء من خلق كامل .. أبدعه الخلاق العليم ووضع له من النواميس .. والقوانين بحيث من اتبعها فاز ونجا .. ومن خالفها .. خاب وانهزم .. ادعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقكم فيما أنتم بصدده .. وأن يوفقكم فى أن تضعوا لنا أسلوبا يوفر علينا ما نعيشه من معاناة من أجل أجيالنا المقبلة .. ويزيح من طريقهم ذلك التيه .. الذى يعيشون فيه فتستقيم نفوسهم .. وتتوطد ضمائرهم .. ويتخذون الله سبحانه وتعالى الصديق الذى يريد لنا الحياة قوية شريفة .. وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة

السيد / محمد حسنى مبارك
نائب رئيس الجمهورية
فى حفل افتتاح
المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أيها السادة العلماء أعضاء المؤتمر : أحييكم وأرحب بكم ، وأنقل اليكم تحيات السيد الرئيس محمد أنور السادات ، واعزازه لمجمعكم الموقر ، ورجاءه لكم بالتوفيق فيما اجتمعتم من أجله ، وتحية من أبناء مصر الى الأمة الاسلامية جميعا ممثلة فيكم ، تحية أخاء وولاء .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

أيها السادة العلماء :

ان مجمع البحوث الاسلامية ـ بوصفه أعلى هيئة علمية بالأزهر ـ يحمل واجبا كبيرا تجاه العالم الاسلامى كله ، وتجاه المشكلات التى تواجه المسلمين اليوم ، وهى مشكلات تتجدد وتتلاحق ، تبعا لظروف عصرنا ولأوضاع مجتمعاتنا .

ان من واجب هذا المجمع فى هيئته الدائمة ، وفى مؤتمراته المتكررة ، أن يتابع الأحداث التى تهم المسلمين ، وأن يدرس المشكلات التى تشغلهم، وأن يقوم فيهم بالرأى والفتوى ، والتذكير والدعوة ، ففى كل يوم حدث جديد ، ولكل حدث حكمته وواجباته .

لقد نصرنا الله فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ « وما النصر الا من عند الله . ان الله عزيز حكيم » .

دخلنا هذه المعركة معتمدين عليه سبحانه ـ آملين فى نصره، مستنيرين بهدى الاسلام وبنور القرآن . ووقف أبناؤنا فى مواجهة أخبث عدو وفى موقف من أرهب المواقف وأضراها، فضحوا بأرواحهم ودمائهم مؤمنين بقوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . فأمدهم الله بعونه ، وأيدهم بنصره .

أيها الأخوة :

ان أجزاء من قلب العالم الاسلامى ما تزال مغتصبة ، تحتلها قوى الشر الصهيونية ، وان المسجد الأقصى الشريف ما يزال فى أيدى أعدائنا ، وان اخواننا أبناء فلسطين لم يستردوا حقوقهم الشرعية بعد ، وهذا الموقف يحتم استمرار الجهاد حتى نستنقذ وطننا ومقدساتنا ، وحقوق اخوتنا .

هذا واجبنا جميعا لا يثتنى منه أحد ، واننا لا نمل أن نذكر المسلمين ونذكر العالم كل يوم بعدالة قضيتنا .

ان قضايا الأمم لا تتقادم . وان حقوقها لا تضيع ولو طال عليها الزمن . وانه لينبغى لمؤتمركم أن يكون له دور ايجابى تجاه هذا الواجب .

أيها الاخوة :

اننا نواجه اليوم تيارات فكرية وأخلاقية عنيفة مدمرة ، ونواجه مشكلات اقتصادية واجتماعية عديدة فنحن فى حاجة الى جهود العلماء والباحثين ، والى رأى أولى الرأى والى علم أولى العلم والى عمل علمى مخلص نواجه به هذه المشكلات .

ان فى مبادىء الاسلام علاجا لكل ما يعرض لنا فانه يدل الى الخير ، ويجمع على الرشد ، ويهدى الى الصراط المستقيم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام

ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى الصراط المستقيم » .

ان مبادىء الاسلام فى الأخلاق أوفى المبادىء وأكثرها تفصيلا وتحديدا . فلنعالج بها ما قد يتسرب الى مجتمعاتنا من فكر غريب ونزعات منحرفة ، واننا لنجد فى آية واحدة من كتاب الله تعالى صلاحا لما قد نشكو منه من أمرنا ، يقول الله تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ولو أن كل مؤمن كان قواما بالقسط ، ملتزما للحق ، شهيدا على نفسه وأهله لله ، فى كل ما يأتى وما يذر ، لصلح شأن الجماعات ، واستقرت به أمورها .

نحن اليوم فى أشد الحاجة الى أن تنمى نوازع الخير فى أبنائنا ، ونغرس فى نفوسهم كريم الأخلاق ، وهذا أساس لبناء للأمم ، وقاعدتها الأولى لكل عمل عظيم .

واجبكم أيها العلماء هنا واضح فانكم تضعون الخطة ، وترشدون الى الوسيلة الصالحة لتربية الأبناء على المبادىء الكريمة ، وحمايتهم من النزعات الفاسدة .

أيها السادة أعضاء المؤتمر ..

لقد أصبحت مصالح العالم اليوم متشابكة ، والعلاقات القائمة بين أجزائه معقدة وحياة العوالم الاسلامية ليست بمعزل عن تيار الحياة العام . ولكن كتاب الله الذى وسع كل شىء لن يضيق بحل هذه المشكلات . وانه ينبغى أن نتبع دائما قوله تعالى :

« فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » وقوله سبحانه : « ولو ردوه الى الرسول وأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم » .

وأنتم الذين تستنبطون الأحكام وتبينونها للناس .

هذا دوركم أيها العلماء تجاه عصرنا المتغير فى شئون الاقتصاد والاجتماع .

أيها السادة أعضاء المؤتمر :

نحن نعلم أهمية الرسالة التى تحملونها ، ونشارككم شرف القيام بها ، واسمحوا لى أن أقول لكم : « اننا بالعلم والايمان يمكن أن تتغلب على أقوى الصعوبات » .

ونحن والعالم الاسلامى كله فى انتظار ما يسفر عنه مؤتمركم ،

وختاما : أكرر لكم ترحيب الشعب المصرى والسيد الرئيس محمد أنور السادات بكم — وأتمنى لكم اقامة طيبة وتوفيقا وسدادا ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الايمان . حياة . وقوة . واى شعب ومجتمع يعيش بعيدا عن الايمان يفقد أمانه . وتتحول حياة الأفراد فيه الى نوع من القرصنة والخداع والتوحش .

توماس ارنولد

كلمة

صاحب الفضيلة الإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر
ورئيس المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين فى حفل افتتاحه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين .

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » .

السيد نائب رئيس الجمهورية

أيها الاخوة المؤمنون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وأهلا بكم ومرحبا فى رحاب الأزهر : معهدكم العتيق ، وبيتكم العريق .

لقد استجبتم لدعوة الأزهر وحضرتم الى القاهرة من جميع أنحاء العالم لنؤكد معا وحدة الفكر الاسلامى ووقوف المسلمين فى وحدة متماسكة ضد كل انحراف عن التوجيهات الربانية . والأزهر اليوم اذ يفتح ذراعيه مرحبا بكم فى بيت الأسرة العريق فانما يؤكد بذلك حرصه على استمراره فى أداء رسالته الخالصة لدين الله ، ويجدد العزم على مواصلة السير فى طريقه التاريخى .

لقد مكث الأزهر ألف عام — ولا يزال يقوم بنشر رسالة الاسلام ، ايمانا منه بأنها جوهر الوجود الاجتماعى للمسلمين ، والنبع المتجدد لرقيهم .

أيها الاخوة أعضاء المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية :

اننا نجتمع اليوم للبحث فى موضوع « الاسلام وقضاياه المعاصرة » وهذه القضايا المعاصرة مطروحة أمامكم اليوم فى مجموعة من البحوث النفيسة تتمثل فى ثلاث شعب :

الشعبة الاولى :

عن دور اللغة العربية فى الحفاظ على الجو الاسلامى .

الشعبة الثانية :

تتمثل فى ضرورة مواجهة الغزو الفكرى .

الشعبة الثالثة :

عن ضرورة الاعتصام بالاسلام . شريعة وسلوكا .

أيها الاخوة المؤمنون :

لقد مكث الأزهر ألف عام — ولا يزال — يقوم على المحافظة على اللغة العربية ، ولقد وقف فى وجه كل النزاعات التى أرادت بها شرا .

انه وقف فى وجه الدعوة الى العامية ، والدعوة الى العامية ضعف وسخف،فقد يوجد فى القطر الواحد عدة لغات ولهجات عامية ، ثم انها ستقطعنا عن تراثنا الماضى والحاضر، وستقطعنا عن التفاهم مع بقية اخواننا العرب ، وما كانت العامية فى يوم من الأيام لغة حضارة .

ووقف الأزهر فى وجه الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية وانى لأعلن هنا فى غير لبس أو غموض أن كل دولة اسلامية اتخذت الحروف اللاتينية لكتابتها انما فعلت ما يغضب الله ورسوله،وما يمقته الله ورسوله، والذين يبوءون باثم ذلك هم المنفذون والراضون بالتنفيذ .

ولقد وقف الأزهر فى وجه تيارات الغزو الفكرى الآتى من الشرق أو من الغرب . وأعنف صور هذا الغزو اليوم تتمثل فى المذهب الماركسى ، وبخاصة بعد أن أخذ أتباعه يروجون له فى العالم الاسلامى تحت أثواب كاذبة خادعة .

لقد قال ماركس كلمته المشهورة الحاسمة فى بيان موقف المذهب الماركسى من الدين : قال « ان الدين أفيون الشعوب » ولقد تلقف لينين هذه الكلمة لكارل ماركس ،

وأعلن أن هـذه الكلمة هى حجر الزاوية فى الفلسفة المـاركسية فيما يتعلق بالدين .

انه يقول حرفيا :

« قال ماركس : ان الدين هـو أفيون الفقراء ، وهـذا هـو حجر الزاويـة فى الفلسـفة المـاركسية جميعها من ناحيـة الدين ، وتعـد الماركسيةالديانات جميعهاوالكنائس وكل أنواع المنظمـات الدينية آلة لرد الفعـل البرجـوازى الذى يستهدف الاستغلال بتخدير الطبقة العاملة » .

وفى المقـدمة التى كتبت لكتاب لينين ما يلى نصا :

« الالحـاد جـزء طبيعى من المـاركسية لا ينفصل عنها » .

ويقول « لوناشارسكى » الذى كـان يومـا مـا وزيرا للتعليم فى حـكومة الشيوعيين « نحن نكره المسيحية والمسيحيين ، وحتى أحسن المسيحيين خلقا نعده أشَرّ أعدائنا ، وهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة ، وهـذا يخالف مبادئنا ، والحب المسيحى عقبة فى سبيل تقدم الثورة ... » .

وفىالبرنامج الذى وضع للمؤتمر الـدولى الشـيوعى السادس الذى عقد فى عام ١٩٢٨ : (ان الحـرب ضدالدين ـ وهو أفيونالشعوب ـ تشغل مكانا هاما بين أعمال الثورة الثقافيـة ، ويلزم أن تستمر هـذه الحرب باصرار وبطريقة منظمة) .

انه من الواضح وضوحا شديدا أن الشيوعية فى العقيدة معارضـة للاسلام وهى فى الأخلاق معارضـة للاسلام . وهى فىالاقتصاد معارضة للاسلام . فهى اذن ملحدة ، لايشك الشيوعيون فى ذلك ، ولا يشكفيه غيرهم .

وأخذت معاول الهدم الشيوعية تنال من الدين فى كل مكان تسود فيه الشيوعية ، وهى لا تنـال من الدين بأسلوب فيه هوادة ورأفة ، وانما تنال من الدين ومن رجـال الدين بأسلوب عنيف قاس . انهـا مجازر تقام ، ودماءتسفح ، وسجون تمـلأ ، وتفنن فى التعـذيب ، أما الخراب فانه ثمرة كل ذلك .

وكارل ماركس يهودى .

أيها الاخوة المؤمنون : ان قراءة كتـاب « بروتوكولات حكمـاء

صهيون » مفيد كل الافادة لمعرفة المخطط الخبيث الذى يقوم بتنفيذه اليهود :

انهم يروجون لكل فكرة منحرفة ، ولكل رأى ضال ، ويحاولون عن طريق الصحافة والكتب والاذاعة الترويج لكل منحل ، واذاعة كل فاسد • لقد تعاهدوا فى مواثيقهم على نشر آراء طائفة معينة من الذين عقدوا العزم على افساد العالم بآرائهم ، وكان من هؤلاء ماركس •

ويقول اليهود فى مواثيقهم :

نحن الذين رتبنا نجاح كارل ماركس •

لقد رتبوا نجاحه لأنه يفسد على الناس النظام الطبيعى والربانى ، انه يفسد عليهم نظامهم فى العقائد وفى الأخلاق وفى الاقتصاد • ووقف الأزهر فى وجه كل ذلك، وقف كالطود الراسخ يدافع عن الذاتية الاسلامية، ويحاول فى صمود لايلين أن ينفى عن الذاتية الاسلامية الدخيل والغزو الفكرى ، وما لانت قناته يوما ما •

أيها الاخوة المؤمنون :

وان الشيوعية لتلتقى مع الاستعمار الغربى ومع الصهيونية فى مقاومة اعتصام المسلمين بالاسلام •

وهذه هى القضية الثالثة من قضايا الاسلام المعاصرة التى تطرح فى هذا المؤتمر •

ماذا حدث أيها السادة فى غيبة التوجيه الاسلامى عن حياتنا المعاصرة ؟ •

١ ـ حدث هذا الرجس الذى نراه فى الاستهتار بالقيم الدينية استهتارا بلغ من شأنه أن أصبح الالحاد فى دين الله من الأمور التى تمر فلا تسترعى انتباها •

٢ ـ وفى غيبة التوجيه الاسلامى كان هذا الطوفان من الاستهتار بالقيم الأخلاقية الذى يسود فى كثير من زوايا المجتمعات الاسلامية •

٣ ـ وفى غيبة التوجيه الاسلامى كان هذا الفساد الذى يسود المعاملات ، من الربا والرشوة ،

والاختلاسات ، وغير ذلك من المفاسد التى انتشرت شرقا وغربا .

أيها الاخوة المؤمنون :

ان هناك تحالفا صهيونيا استعماريا شيوعيا ضد الاسلام . وآثاره كما هى واضحة فى مقاومة التشريع الاسلامى : فاننا نجدها فى كل مكان يئن فيه شعب مسلم جريح .

نجدها فى القدس ، وفى فلسطين ، وفى الأرض العربية المحتلة . نجدها فىالشعب المسلم الجريح فى الفلبين.

نجدها فى الشعب المسلم الجريح فى أريتريا .

نجدها فى التآمر الخفى لتدمير المجتمعات الاسلامية فى أنحاء مختلفة من العالم . وان علينا أن نواجه ذلك كله . علينا أن نواجه الاعتداء على الأرض المقدسة ونعلن صيحتنا المدوية من أجل استنقاذ المسجد الأقصى من اسار العدوان الصهيونى .

كما أن علينا أن نواجه الاعتداء على العقائد ، ونستخلص ضمائر المسلمين من براثن الغزو الفكرى .

أيها الاخوة :

ان للأمة الاسلامية رسالة هى رسالة الله الى العالم ، وهى آخر الرسالات ، طابعها الرحمة لكل عوالم الله فى الأرض وفى السماء ، ومنهجها الرقى بالمجتمع المنهج الذى أعلنه الله تعالى فى كتابه العزيز .. المنهج الذى يجب علينا نشره بكل الوسائل وبشتى الطرق ، وأن نأخذ به فى أقطارنا هو العلم ، وتزكية النفس .

« يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .

والقرآن يشرح هذا المنهج فى جملته وفى تفصيله ، انه يحث فى استفاضة على العلم ، ويتحدث عن مكانة العلماء وعن مكانة العلم وعن ثمار العلم . ولن تنهض أمة بغير علم ، ويتحدث القرآن الكريم فى استفاضة عن تزكية النفس ، وعن كل ما يتصل بتزكية النفس وسائل وغايات وثمارا .. ولن تنهض أمة بغير تزكية النفس .

ولن تنهض أمتنا الاسلامية الا اذا التزمت المنهج القرآنى مطبقة له

فى جانبه العلمى : فنشرت العلم فى عموم وشمول ، وأخذت بتزكية النفس فى قوة متبعة مبادىء الاسلام فى ذلك . وهذا المنهج هو الذى اتبعه أسلافنا فكانوا سادة وكانوا أعزة بالله تعالى .

أيها الاخوة العلماء :

أن واجبا مقدسا فى العصر الحديث ينادينا لنحيى من جديد مسيرة سلفنا الصالح وذلك بالاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وحراسة تراث الاسلام وتعاليمه من كل خطر يتهدد الأمة الاسلامية فى الفكر والعادات والنظم والسلوك . وان أخص مهمة نقوم بها اليوم فى دفع عجلة التقدم الاسلامى أن نسعى ـ بالتكاتف والمؤازرة والتعاون ـ للعمل على تطبيق الشريعة الاسلامية من أجل سعادة الانسان فى حياته الدنيا ، والآخرة . فاذا ما طبقت الشريعة الاسلامية انتفت الشيوعيه وآمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . واذا أخذنا بالمنهج الاسلامى (يعلمهم ويزكيهم) العلم وتزكية النفس فاننا نكون قد ضمنا النهضة الاسلامية فى صورة صحيحة لانها الصورة التى رسمها كتاب الله وطبقها رسوله صلى الله عليه وسلم .

ان علينا أن نبدأ كما بدأ أسلافنا، والله فى عون المجاهدين . « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله مع المحسنين » .

أيها الاخوة المؤمنون :

فى ختام هذه الكلمة نحب أن نقول : ان الأزهر للعالم الاسلامى كله لا يختص به قطر دون قطر وقد وجد ـ بحق ـ فى مصر خير موئل، وفى رئيسها المؤمن محمد أنور السادات خير نصير .

انه يقول عن الأزهر : « لولا الأزهر ما انتشر الاسلام شرقا وغربا » ولقد كان الرئيس المؤمن فى كل ظروفه وأوقاته خير نصير للأزهر من أجل أن يؤدى رسالته كاملة غير منقوصه .

وفى رحاب الأزهر العريق نقول لعلماء المسلمين من جميع أنحاءالعالم « اهلابكم ومرحبا » .

كلمــة
صاحب الفضيلة الدكتور عبد الجليل شلبى
الأمين العام لمجمع البحـوث الاسـلامية
فى حفـل افتتـاح المؤتمر الثامن لعلمـاء المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهـذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا .

والصلاة والسلام على أكرم خلق الله وخاتم رسله سيدنا محمد النبى الأمى الذى أرسـله الله شـاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا .

نسأل الله تعـالى أن يجعلنا من المهتدين بهديه ، والمستنيرين بسنته، والعـاملين على نشر دعوته ، وأن يهبنا التوفيق فيمـا ندعو اليه من الخير والفلاح .

اخوتنا الأعزة :

مرحبـا بكـم فى بلدكم وبـين اخـوتكم المسلمين فى هـذا القطر العريق ، ومرحبـا بكم فى رحاب الأزهـر جامعـكم وجامعتـكم ، مدرسـة كل مسلم يهفو قلبه الى الارتواء من روحانيـة الاسـلام ، ويتطلع عقله الى التغذى من ثقافته الواسعة وفكره العميق .

لقد كانت مصر أول بلد فى هذه القـارة الأفريقية يُبْنى فيه مسجد وتقوم مدرسة اسلامية ، ومنذ أنشأ عمرو بن العاص مسجده كان منارة تبعث بأضواء الثقافة الاسلامية الى كل ماوراءها من الأقطار .. وطوال ثلاثة قرون كان وحده منهل الظامئين لمختلف الثقافات دينية وغير دينية ، ثم آل تراثه الى الجامع الأزهر فحمل لواء الحركة الثقافية الواسعة منـذ أكثر من ألف عام ، ويكفيه — الى جـانب ما له من جـلال الغرض وقداسة الرسالة — أنه ظـل طوال هذه الأحقاب يتضوع بنور الاسلام وتتجاوب بين جدرانه أصداء الدرس والعبادة جميعا .

ومجمع البحوث الاسلامية يضطلع بجانب من جوانب النشاط العلمى فى هذا المعهد العتيد .

والمؤتمرات الاسلامية التى يعقدها المجمع ويعتبرها جزءا من رسالته ، انما هى مرآة تنعكس عليها مظاهر نشاطه ، وقراراتها وتوصياتها تنتقل مع مندوبيها ومع مبعوثى الأزهر العديدين ، وتنال تقدير المسلمين واهتمامهم فى كل مكان تنتقل اليه ، وهى فى مصر موضع عناية كبيرة من الهيئات العلمية ودوائر البحث الفقهى ، وقد نُفِّذ منها ما سمحت به الظروف المحيطة بنا وبالعالم الاسلامى كله ، وسائرها بسبيل التنفيذ ان شاء الله تعالى .

ومما يُكسب قرارات مؤتمراتنا وتوصياتها أهميتها أنها لم تصدر الا بعد تمحيص ودقة ، وشهودها من ذوى الرأى الاسلامى من مختلف الأقطار قد يجعل لها صفة الاجماع الشرعى ، وآراء المجمع التى يصدرها فى غير المؤتمرات لها أيضا هذه الصفة لأن أعضاء المجمع هم الصفوة البارزة من علماء الأقطار الاسلامية .

وقد خصص المجمع لجنة خاصة لمتابعة المشكلات الفقهية ، وهى تحاول حل هذه المشكلات فى كثير من المرونة ورحابة الأفق ، ولكنها دائما فى اطار الشريعة الاسلامية وتعاليم السنة والقرآن .

وازاء ما اتجهت اليه الدول الاسلامية بأن تجعل قوانينها كلها مشتقة من الشريعة الاسلامية ، وأن تتخذها المصدر الأساسى فى كل تشريعاتها ، لجأ العديد من هذه الدول الى مجمعنا هذا ليصوغ ابواب الفقه الاسلامى فى مواد قانونية .

وقد خصص المجمع لجانا لهذا التقنين على المذاهب الأربعة المشهورة كل مذهب على حدة ، وبدأت بالأبواب ذات الأهمية ، ولكنها ستأتى على سائر ابواب الفقه ان شاء الله ، وقد طبعت كميات هائلة من هذا التقنين ولكن الطلبات المتلاحقة من هيئات القانون المختلفة فى مصر وخارج مصر أستنفدت كل هذه الكميات ونحن مضطرون الى اعادة طبعها مرارا .. وتدل هذه الطلبات المتزايدة أنها ذات أهمية

كبيرة ، وأن العالم الاسلامى كان متعطشا الى هذا التقنين ، والشريعة الاسلامية بحمد الله ذات شمول وسعة ، وموادها تفى بمطالب الحياة المتطورة ، وليس العمل بها متوقفا على هذا التقنين ، ولكنه عمل توضيحى يقصد منه تسهيل الرجوع الى هذه الأحكام •

والى جانب هذا النشاط الفقهى وسنادا له وايضا تيسيرا لاشاعة الثقافة الاسلامية أخرج المجمع تفسيرا للقرآن الكريم فى لغة مبسطة ، وبعيدا عن الخلافات المذهبية ، ودل الاقبال الشديد على هذا التفسير أنه سد فراغا كبيرا فى حياة الناس ،

وقد أخرجت اللجنة الموكول اليها هذا العمل اربعة عشر جزءا منه ، والله وحده يتولى جزاءها على ماتعانى من جهد مضن فى تمحيص الاراء واختيار الأنسب والأسهل من المذاهب والعبارات •

وقد اختار المجمع منذ بضع سنوات كتاب الجامع الكبير للامام السيوطى ليبعثه فى ثوب عصرى جديد ، يصحح ألفاظه ويخرج أحاديثه ويبين درجاتها ، ويشرح غوامضها ، وكأن السيوطى ـ رحمه الله ـ قد أراد بهذا الكتاب أن يجمع كل الاحاديث النبوية،فتضخم الكتاب ونما ، ولكننا مصرون على اخراجه كله ، ومن الله وحده العون وعليه قصد السبيل •

وفى سبيل نشر الدعوة والثقافة الاسلامية يضطلع المجمع بأعباء وأعمال كثيرة متنوعة •

فلنا الآن مبعوثون فى أنحاء العالم كله ، يقومون بالأمانة والارشاد والتدريس • وبعض المعاهد العليا والجامعات فى البلاد العربية تعتمد على أبناء الازهر وحدهم • وفى كثير من الأقطار يتحمل المجمع نفقات مبعوثيه ، ولا يكلف البلاد التى يعملون بها شيئا ، وهذا يحمله أعباء مادية كبيرة ، ولكنها تهون فى سبيل نشر الاسلام واللغة العربية ، وفى سبيل تأكيد الأخوة والتعاون مع هذه الأقطار •

وفى السنوات الأخيرة فتحت مساجد ومركزا سلامية جديدة فى

البلاد الأوروبية وفى أمريكا وشرق آسيا وجنوبها ، وفى استراليا،وكان ذلك نتيجة لتقارب أطراف العالم ونزوح أقليات من المسلمين الى هذه البلاد ، فنشأت جاليات اسلامية بين قوم لم يكونوا يعرفون عن الاسلام الا اسمه ، أو ماقرأوا عنه مما كتبه أعداؤه المستشرقون .

وقد اتجهت هذه المراكز الى مجمع البحوث تطلب أئمة ومعلمين ، ولابد أن يكون هؤلاء ملمين بلغات البلاد التى يذهبون اليها ، والمجمع الآن بصدد ارسال بعثة قوامها مائة على الاقل من خريجى كليات الازهر لدرس اللغات الاوروبية الشائعة حتى يمكن أن يقوموا بما تتطلبه هذه المراكز الجديدة . ففى ألمانيا الغربية وبلجيكا وهولانده وفرنسا وانجلترا وبعض دول البلقان واليونان وايطاليا وأسبانيا . وغيرها بنيت مساجد جديدة . وفتحت مساجد كانت مغلقة أواتخذت متاحف أثرية . وعبء ذلك كله ملقى على عاتق مجمع البحوث ، وكل ذلك يتطلب جهودا مادية كبيرة الى جانب الاعداد العلمى والثقافى ، فهذه المراكز والمساجد لاتطلب أئمة فقط ، بل تطلب الكتب والمراجع العربية حيث لا وجود للغة العربية فى هذه البلاد .

واننا نأمل من وجود مبعوثينا فى هذه البلاد وشرحهم حقائق الاسلام بالكلام والكتابة أن ينجحوا فى وضع صورة حقيقية للاسلام يبرز سماحته وعدله ومابه من جوانب انسانية لاتوجد فى غيره من الأديان ، وقد يزيل توضيح هذه الحقائق ما بين الاسلام والأوروبيين ومن جفوة منشؤها الجهل بحقائق الاسلام ، كما أننا نأمل أن يقوم المبعوثون الوافدون على الأزهر ليتعلموا فيه بمثل هذه الرسالة حين ينقلبون الى بلادهم مزودين بثقافة الاسلام وأخلاق الاسلام .

ومع امتداد الاسلام وظهور لمعات منه فى هذه البلاد النائية تقوم ضده تيارات الحادية عنيفة ، وأخرى صهيونية خبيثة ماكرة ،

تهدف الى تشويه سمعة الاسلام ووقف تياره ، وقد انضم هذا النشاط الحديث الى ما كان يكتبه المستشرقون من قبل . ولم يقف مجمع البحوث موقفا سلبيا ازاء هذا الهجوم ، بل نشط لمقاومته وتفنيد مفترياته ، فأصدر النشرات والكتب والرسائل للرد على الشيوعيين وتصحيح أقوال المستشرقين وكبح الأقلام المسمومة عن الاسترسال فى مفترياتها .

ولعل هذا الجانب الذى أوضحته من نشاط مجتمعنا يبين تلقائيا أن المجمع والأزهر كله ليس جامعة مصرية وحسب ، وانما هو هيئة اسلامية عامة ؛ لكل دولة اسلامية وجماعة وفرد منه نصيب .

ونحن فى بهجة هذا اللقاء وسرورنا برؤية اخوتنا فى الدين وشركائنا فى الجهاد نذكر بالأسى المرير والحزن البالغ ما يدبر للمسجد الأقصى من كيد ، وما يراد به من سوء ، وقضية فلسطين لا تخص الفلسطينيين ولا تخص العرب وحدهم وانما هى قضية الاسلام والمسلمين ، فكل منا يحمل ازاءها مسئوليته ، ونحن لا نيأس من روح الله ، ولكننا نستدعى نصره بنصرنا دينه « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) » .

ومصر والحمد لله تعيش فى عهد ايمان وعلم يقودها رئيس مسلم يتخذ من القرآن حجة ومن الله هاديا ونصيرا .. وما نعلمه فيه من حب الاسلام ورغبته فى العمل على نشره هو ما شجعنا على طلب المزيد من مبعوثى الأزهر ، فعملهم ليس الا نوعا من الجهاد الفكرى ، واستعدادا لنشر الاسلام ، وأن الله تعالى قد منح هذا الرئيس المؤمن نصره بسبب ايمانه العميق به وحسن اعتماده عليه ، وقد اتسمت معركة العبور بسمات اسلامية أعادت الى ذاكرتنا معارك الاسلام الأولى .

ونسأل الله له المزيد من التوفيق وتوالى النصر حتى يحقق فيه آمال العرب والمسلمين .

كلمــة
الشيخ محمد عبــد الرحمن بكر
وزير العدل بدولة الامارات العربية فى حفل افتتــاح المؤتمر الثامن لعلماء المســلمين

الحمد لله الذى هدانا لهــذا وما كنا لنهتدى لولا أن هــدانا الله ، وأصلى وأسلم على محمد رســول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واقتفى أثره وسار على سنته الى يوم الدين .

السيد نائب رئيس الجمهورية.. فضيلة الامام الأكبر .. أصــحاب السماحة والفضيلة .. أيها الاخوة:

ان خير ما أحييــكم به تحيــة الاســلام فتحية الاسلام السلام ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد .. بالنيابة عن أعضاء الوفود وبالأصــالة عن نفسى يطيب لى أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لفخامة الرئيس محمد أنور السادات ولصاحب الفضيلة الامام الأكبر على اتاحتهم لنا فرصة هذا اللقاء الأخوى الكريم .

أيها الاخوة : انه لشرف عظيم أن أقف بين أيديكم هذا الموقف ... ولو ترك الخيار لى ، لتنحيت سعيدا عن مكانى هذا ، للأساتذة والشيوخ والعلماء ، الذين أدين لهم بالفضل، ويعترف الجميع لهم بالمكانة ورفعة القدر .

ولكن الأيثــار هنا ، ليس معناه التفضيل .. انه نوع من الأمانة ، التى ينوء بحملها الكثيرون ، وأظن أنهم توسموا فى الشباب شيئا من القوة ، ولكن القوة الحقيقية هنا ، وفى هذا المؤتمر ، هى أولا وأخيرا قوة الايمان ، وقوة العلم ، وقــوة الفكر وقوة الحكمة، غير أنى أتجاوز فى كلمتى هذه تلك الاعتبارات الى معنى الطاعة والوفاء للآباء والأساتذة فانزل على رأيهم واختيارهم .

ونحن هنـا فى مصر •• عنـدما نجتمـع فى مثل هـذا المؤتمر انما نجتمع أولا فى رحاب البلـد الذى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه كنانة الله •• وان أجناده‌هم‌خير أجناد الأرض ، وأن مصر وشعبها فى رباط الى يوم القيامة ، دفاعا عن الاسـلام ••• رسالة الله الأخيرة الى البشر •

وحين نذكر مصر••يجىء الأزهر الشريف ويقف شامخا •• ومشعا •• ومشرقا فى أعين المسلمين فى كل‌شعب وفوق كل أرض •• انه المعهد الذى يحمل رسالة الاسلام ، وقد حملها زهاء عشرة قرون •• تعرض خلالها لمحن وأهوال •• ولكنه خرج منها ظافرا منتصرا •• لأنه رمز الاسلام، وقلعة القرآن الذى تعهد الله بحفظه الى نهاية الحياة •• انا نحن نزلنـا الذكر وانا له لحافظون •

فما بقى القرآن سيبقى الأزهر•• وسيخرج من كل محنـة ظـافرا ، ما حفظ كلمة اللـه ، وأدى رسالته كما ينبغى أن تكون •

فالأزهر اذن •• هو قلعة الاسلام الحصينة ، والمصنع الضخم للرجال، وأعداء الاسلام‌يدركون هذه‌الحقيقة ويعملون دائما على طمسها وهدمها، ولن ننسى ما قاله أحد المستعمرين العتاة ، حيث قال : لن‌يهزم‌المسلمون ما بقى فيهم ثلاثة أشـياء ، الكعبة والمصحف •• والأزهر •

وهذا الاجتماع انما هو صورة لهذه الحقيقة الاسلامية الخالدة••، التوحيد الذى‌هو جوهر الاسلام•• وحقيقة الوحـدة التى هى شـعار الاسلام •• وحقيقة التعـاون على التقـوى والبر ، الذى هـو دعوة الاسلام •

اننى اذ أتكلم باسم‌الوفود المدعوة الى هـذا المؤتمر ، فانما أعبـر فى الحقيقة عما يأتى :

أولا : عن معنى هذا اللقاء‌الذى يصـدر أساسا عن حقيقة الايمان الذى بدونه تصبح حيـاة المسلمين ضياعا وعبثا •

ثانيا : أن أذكر وأذكر أن هـذا الأزهر بالنسبة للشعوب الاسلامية

بمثابة القلب الذى اذا صلح صلح الجسد كلهواذا اعتراهوهن أوضعف، انسحب أثر ذلك على الحياة كلها..

لذلك فان من واجبنا المقدس ، أن نذود عن هذا الأزهر بكل ما نملك وبكل ما نستطيع ، لأن الأزهر هو الروح الجامعة لشتات المسلمين ... الأزهر جامعة .. والأزهر ثقافة .. والأزهر فكرا .

ولا تستقيم حياة بدون روح أو فكر أو ثقافة .

ثالثا : أننا نذكر لمصر حكومة وشعبا دورها الأصيل لحماية الاسلام، وفى الحفاظ عليه ، وفى الدعوة اليه فقد كان ذلك قدرها كما كان ذلك قدرها منذ مئات السنين ، ومنذ أشرقت فوق ربوعها شمس الاسلام ودين الله الى الناس كافة .

وقد كان هذا دور مصر بالأمس، وهو دورها اليوم ، وستظل باذن الله قائمة بهذه الرسالة وهذا الدور الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يا أصحاب السماحة والفضيلة :

ان أربعةعشر قرنا من تاريخ الاسلام، تهتف بنا فى رحاب هذا المؤتمر ، وان عشرة قرون من تاريخ الأزهر تحضر هذا اللقاء الذى هو لقاء الأمل لشعوب الاسلام فى كل أرض، ولقاء العمل للهاتفين للدعوة الى الاصلاح والحق ، ولقاء المحبة للبشرية التى فشلت كل أنظمتها وشرائعها فى تحقيق المحبة والأمن ، ولقاء الجهاد فى البلد الذى يحمل لواء الجهاد فى هذا العصر ، ولقاء الشكر والامتنان لمصر والأزهر ولكل عالم وانسان فى الأزهر ومصر .

وفى الختام لا يسعنى الا أن أكرر الشكر ، وأتمنى لهذا المؤتمر كل توفيق ونجاح والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين
وصف تفصيلي

بقلم وإعداد : زاهر الزغبي

منــذ عشرة قرون ونيف ، كان الأزهر ــ ولما يزل ــ منارة تشـع على العالم الاسلامى كله نور الله فيضىء الفكر بوميض العلم ، ويشرح الصدور بروحانية الايمان .

وعلى مر السنين صـار الأزهر للاسلام حصنا منيعا لا يقهر ، وقلعة قوية لا تقتحم .. حتى فى الأزمنة السوداء .. حيث تراخى المسلمون فى اعتصـامهم بحبل الله ، وتهاونوا فى التمسك بشريعته ، واسـتكانوا لمغريات الشهوة والأنانية ، واستناموا لدعـاية الشعـوبية والانعـزالية ، فتحللت امبراطوريتهم الى شـظايا ودويـلات ، وهـان أمـرهم على الطامعين فيهم .. فأتى اليهم غزاة من برابرة الشرق ــ المغول الذين خربوا الديار ، وحرقوا الزروع ، ونهبوا الثمـار وقتلوا الرجـال والنسـاء والأطفال .. وتركوا كل مكان قاعا صفصفا .

وبهذا ضـاع المسـلمون ودالت دولتهم .. ولكن الاسـلام ظل فى الأزهر محفوظا بعنـاية الله .. لا جمرة رمضاء ران عليها رماد الهوان والضياع ، بل شعلة ملتهبة وقودها عناد الايمان ، ولهيبها العزم المصمم على رفع راية الاسلام أو الاستشهاد دونه .

وخرجت من رحاب الأزهر ــ من قاهرة المعز لدين الله .. عاصمة مصر ــ جحافل المؤمنين تصد الغزاة فتقهرهم وتسقط دولة الكفر ، وتعـود أمة المسلمين من جديد قوية .. عزيزة بعز المسلمين وبتأييد من الله .

وهكـذا كانت ارادة الله بـأن يحفظ الاسـلام بالأزهر ، والأزهر ومصر وحدة واحدة وكل لا يتجزأ ..

ومن ثم كان الأزهر ـ وان شئت قلت كانت مصر ـ كعبة القصاد من شتى أنحاء العالم الاسلامى ، ليتثقفوا بالعلم ، ويتفقهوا فى الدين ، ويتحدثوا بلغة الوحى ، أو يلجأوا طلبا للسلامة والحماية والأمن اذا حاقت بهم فى بلادهم أخطار تهددهم ، أو هوان يلحق بهم ..

وظل الأزهر كالعهد به ، حين أعاد التاريخ نفسه ، وجاء برابرة آخرون أتوا من الغرب .. فغزوا أمة الاسلام ، واقتسموها فيما بينهم .. مستعمرات يستنزفون خيراتها ، ويسخّرون انسانها ، ويحاولون طمس معالمه بردته وتحويله الى دينهم ، وانطاقة بلغاتهم ..

وأجيالنا المعاصرة تشهد كيف ناضل الأزهر حتى نالت مصر استقلالها ، وكيف ناضلت مصر حتى استعادت لبقية الدول الاسلامية ـ بل وغير الاسلامية ـ استقلالها وعزتها .. فمصر والأزهر للاسلام حتما .. ولكن خيرهما مع ذلك يعم الانسانية برمتها .

وخلال هذا العمر الطويل .. استطاع الأزهر أن يساير موكب الزمن ، ويواكب ركب التاريخ ، ويتلاءم ويتكيف مع مقتضيات كل عصر ، ويتطور مع كل تطور .. لأنه كان على الدوام الوعاء الحافظ لشريعة الله وشريعة الله لا تتعطل فاعليتها فى أى زمان أو مكان .. بل هى دائمة الصلاحية لكل مكان وكل آن .

ولما تراكمت تحديات العصر وتفاقمت مشكلاته ، وتعقدت معاملاته ، وتباينت وتضادت فيه النظم السياسية والاجتماعية لدول العالم .. وراجت فيه مذاهب وعقائد كفرية والحادية وانحلالية .. تتوالى ضارية موجة تتبعها أخرى ، واستشرى الفساد أو كاد ، وضاعت القيم أو اضمحلت ، واهتز الايمان ووهن فى قلوب الكثير من البشر ، كان على الأزهر أن يقف فى مجابهة كل هذا وينازله .. حتى تزول كلمة الكفر وتسود كلمة الايمان ، وأن يعرض على مقاييس الشريعة

وضوابطها كل مستحدث من النظم ، وكل جديد فى التعامل .. فان وافقها فهو حق مجاز ، وان ضادها فهو باطل مردود ، وان لم يكن على نهجها تماما عدله حتى يطابق .. فيكون مقبولا من الله والناس .

والأزهر فى هذا يقف الآن وسط المعركة جهادا فى سبيل الله .. ومجمع البحوث الاسلامية ــ وهو أحد مؤسسات الأزهر ، وأعضاؤه يكونون نخبة العلماء وخلاصة الفقهاء وأئمة العربية فى مصر والعالم الاسلامى ــ قد بدأ هذه المعركة منذ انشائه فى العقد الماضى .. حيث ألف اللجان ، وقدم البحوث ، وقنن للشريعة ، ودعا لسبعة مؤتمرات عالمية حضرها العديد من علماء العالم الاسلامى للتداول والتشاور فيما يهم المسلمين من قضايا العصر ، فأنجزوا الكثير من الأحكام الباتة فى الكثير من القضايا المتداولة .

وكان أن نشطت ــ تبعا لذلك ــ منظمات اسلامية فى دول اسلامية أخرى ــ تأسست على غراره وتأسست بخطته ، فدعت الى مؤتمرات مماثلة ، فساعدها مجمع البحوث الاسلامية وساهم فى نشاطاتها وجهد على انجاح مؤتمراتها ، ونسق خطة العمل فيما بينه وكل منها ..

ثم كان المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين حيث رتب له مجمع البحوث الاسلامية ، ودعا اليه نخبة العلماء والمصلحين والأئمة والمهتمين بقضايا الفكر من شتى أرجاء العالم الاسلامى ليتدارسوا مع الأركان من أعضائه الدائمين قضايا الساعة التى تهم المسلمين كافة ، ليقوموا حصاد المؤتمرات السابقة من توصيات وقرارات .. فيتعرفوا على ما تم تحقيقه منها .. وما ظل معطلا ينظرون فى سبل تذليل العقبات دون انجازه ..

وقد كان انعقاد المؤتمر على مرحلتين : الأولى وتشمل الأعضاء الدائمين لمجمع البحوث الاسلامية

وأعضاء الوفود المدعوة ،وقد بدأت بحفل الافتتاح يوم السبت ٢من ذى القعدة ١٣٩٧ الموافق ١٥ من أكتوبر ١٩٧٧ وانتهت يوم الخميس ٧ من ذى القعدة ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٠ من أكتوبر ١٩٧٧ م حيث اصدر المؤتمر التوصيات والقرارات التى أقرها فى جلسات ومناقشات هذه الفترة .

ثم استمر الأعضاء الدائمون فى المجمع فى تقديم بحوثهم ومناقشاتها حتى نهاية ذى القعدة عام ١٣٩٧ هـ الموافق ١١ من نوفمبر ١٩٧٧ م

وفيما يلى بيان بأسماء أصحاب الفضيلة والسماحة الأعضاء الدائمين بمجمع البحوث الاسلامية والعلماء الذين وجهت اليهم الدعوة للاشتراك فى هذا المؤتمر .

بيـــان

بأسماء السادة الأعضاء الدائمين بمجمع البحوث الاسلامية

١ ـ فضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود جمهورية مصر العربية .

٢ ـ السيد الأستاذ الدكتور ابراهيم اللبان ـ جمهورية مصر العربية .

٣ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى ـ جمهورية مصر العربية .

٤ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد العال هريدى ـ جمهورية مصر العربية .

٥ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور بدوى عبد اللطيف ـ جمهورية مصر العربية .

٦ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف ـ جمهورية مصر العربية .

٧ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور سليمان حزين ـ جمهورية مصر العربية .

٨ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الجليل شلبى ـ جمهورية مصر العربية .

٩ ــ فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى ــ جمهورية مصر العربية .

١٠ ــ السيد الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى ــ جمهورية مصر العربية .

١١ ــ فضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز عيسى ــ جمهورية مصر العربية .

١٢ ــ فضيلة الأستاذ الشيخ على الخفيف ــ جمهورية مصر العربية .

١٣ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر ــ جمهورية مصر العربية .

١٤ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد البهى ــ جمهورية مصر العربية .

١٥ ــ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد خاطر محمد الشيخ جمهورية مصر العربية .

١٦ ــ السيد الأستاذ محمد خلف اللهأحمد ــ جمهورية مصر العربية .

١٧ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ــ جمهورية مصر العربية .

١٨ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى ــ جمهورية مصر العربية .

١٩ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد حسن فايد ــ جمهورية مصر العربية .

٢٠ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد الفحام ــ جمهورية مصر العربية .

٢١ ــ السيد الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام ــ جمهورية مصر العربية .

٢٢ ــ سماحة السيد الأستاذ على عبد الرحمن الأمين ــ السودان .

٢٣ ــ السيد اللواء الركن محمود شيت خطاب ــ العراق .

٢٤ ــ السيد الأستاذ الدكتور اسحق موسى الحسينى ــ فلسطين .

٢٥ ــ السيد الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن محمد ــ ماليزيا .

بيـــان

بأسماء أصحاب السماحة المدعوين من غير الاعضاء الدائمين بمجمع البحوث الاسلامية

سماحة السيد/محمد عبد الرحمن البكر ـ دولة الامارات العربية .

سماحة السيد/عبد الله المحمودى دولة الامارات العربية .

سماحة السيد/سعيد عبد الله حارب ـ دولة الامارات العربية .

سماحة السيد/صقر عبد الله المدى ـ دولة الامارات العربية .

سماحة السيد/محمد سيف النصر ـ دولة الامارات العربية .

سماحة السيد يوسف الحجى ـ الكويت .

سماحة السيد فيصل مسعود ـ الكويت .

سماحة السيد/أحمد بسيونى ـ الكويت .

سماحة السيد/عبد الستار السيد ـ سوريا .

سماحة السيد/محمد ضرار الأصبحى ـ سوريا .

سماحة السيد/خير الدين السيد ـ سوريا .

سماحة السيد/عبد الحميد السايح ـ الأردن .

سماحة السيد/راشد راجح الشريف ـ السعودية .

سماحة السيد/عبد الله بن حسن ابن قاعود ـ السعودية .

سماحة السيد/محمد المنتصر الكتانى ـ السعودية .

سماحة السيد/كاكا عمر ـ الهند

سماحة السيد/أسعد مدنى ـ الهند .

سماحة السيد/القاضى بشير أحمد ـ الهند .

سماحة السيد/فيض الرحمن بشير ـ الهند .

سماحة السيد/ادريس قدرى ـ توجو .

سماحة السيد/آدم عبد الله ـ نيجيريا •

سماحة السيد/الامام موسى الصدر ـ لبنان •

سماحة السيد/حسين الموسوى ـ ـ لبنان •

سماحة السيد/أحمد اسماعيل ـ لبنان •

سماحة السيد/عباس بدر الدين ـ لبنان •

سماحة السيد/زهير عسيران ـ لبنان •

سماحة السيد/عثمان عبد القادر صافى ـ لبنان •

سماحة السيد/حسن القوتلى ـ لبنان •

سماحة السيد/عمر تدمرى ـ لبنان •

سماحة السيد/رشدى ايتام ـ اليونان •

سماحة السيد/رفعت مصطفى ـ قبرص •

سماحة السيد/اسماعيل بلتش ـ النمسا •

سماحة السيد /أبو بكر سراج الدين ـ انجلترا •

سماحة السيد/ضياء الدين بابا خانوف ـ روسيا •

سماحة السيد/الله باروف عزام روسيا •

سماحة السيد/أحمد حماه الله ـ مالى •

سماحة السيد/عمر عبد الله ـ جزر القمر •

سماحة السيد/محمد على ـ تنزانيا •

سماحة السيد/حبيب عبد الرحمن شاذلى ـ بنجلاديش •

سماحة السيد/محمد عويس أحمد ـ سيرالانكا •

سماحة السيد/حسن عبد الله فارح ـ الصومال •

سماحة السيد/أحمد حمامى ـ الجزائر •

سماحة السيد/كامل السيد محمد الباقر – السودان .

سماحة الشيخ محمد جازولى – السودان .

مولانا مغنى محمود – باكستان

دكتور همكا – اندونيسيا .

سماحة السيد/رشدى همكا – اندونيسيا .

سماحة السيد/حسن بصرى – اندونيسيا .

سماحة السيد/أحمد زاهر بشير اندونيسيا .

سماحة السيد/محمد على هردن ماليزيا .

سماحة السيد/هاشم صادق المجددى – أفغانستان .

سماحة السيد/محمود محمد صبحى – ليبيا .

سماحة السيد/على مفتاح أبو قرين – ليبيا .

سماحة السيد/يوسف القرضاوى قطر .

سماحة السيد/الحاج جبريل سيسى – سيراليون .

سماحة السيد/عبد الكريم سيتو اليابان .

سماحة السيد/دكتور سيد مهدى خراسانى – ايران .

* * *

وقد شهد غرة ذى القعدة ١٣٩٧ هـ الموافق ١٤ من اكتوبر ١٩٧٧ م اكتمال وصول أعضاء الوفود المدعوة .. وقد بدأت على الفور فى هذا اليوم مراسم العمل بالتجمع لصلاة الجمعة فى الجامع الأزهر ، حيث خطب للجمعة وأم صلاتها فضيلة الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية ، وقد أدى الصلاة كل أعضاء المجمع وعلى رأسهم صاحب الفضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس المجمع ، وجميع أعضاء الوفود المدعوة ، وعدد كبير من أصحاب الفضيلة علماء الأزهر ، وأساتذة وعمداء الكليات بجامعته ، وجمع من كبار رجال الدولة .

وفى خطبة الجمعة هذه ذكر فضيلة الدكتور عبد الجليل شلبى الأزهر بما هو أهل له ، وذكر بأن المسجد الأقصى ، وهو أول قبلة — صلى تجاهها الرسول الأمين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ومنتهى اسرائه ، وفيه صلى آما جميع الأنبياء والمرسلين ، ومنه عرج الى الملكوت الأعلى وشاهد نور رب العالمين .. هذا المسجد يعانى الآن الهوان من شرذمة الصهاينة المارقين، وطالب العالم الاسلامى — ممثلا فى صفوة علمائه — أن يهبوا لانقاذه وتحريره من قبضة هؤلاء الأشرار الآثمين .

وفى صباح السبت التالى رفرفت أعلام الدول الاسلامية الممثلة فى المؤتمر على ضفاف النيل الكريم الخير .. حيث قاعة اللجنة المركزية التى شهدت جلسات المؤتمر ، وجرت فيها كل مناقشات الفترة الأولى التى حضرها الضيوف القادمون من كل القارات : أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا .

وفى تمام الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم بدأ حفل الافتتاح حيث حضره السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ممثلا للرئيس المؤمن محمد أنور السادات كما حضر هذا الحفل السيد / ممدوح سالم رئيس مجلس الوزراء وعدد من نوابه الوزراء وكبار رجال الدولة .

توسط السيد حسنى مبارك — نائب رئيس الجمهورية — المنصة الرئيسية ، وعن يمينه جلس صاحب الفضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ورئيس المؤتمر ثم سماحة السيد/ محمد عبد الرحمن بكر وزير العدل بدولة الامارات العربية ممثلا لأعضاء المؤتمر .

وعن يسار السيد نائب رئيس الجمهورية جلس صاحب الفضيلة الشيخ محمد المتولى شعراوى وزير الأوقاف وشئون الأزهر ثم صاحب الفضيلة الدكتور عبد الجليل

شلبى أمين عام مجمع البحوث الاسلامية الذى بدأ حفل الافتتاح بكلمته ثم تبعه صاحب الفضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس المؤتمر ثم سماحة السيد / محمد عبد الرحمن بكر وزير العدل بدولة الامارات العربية فألقى كلمة أعضاء الوفود .. وجميع هذه الكلمات قد نشرت بنصها فى صدر هذا السياق .

ثم سارت أعمال المؤتمر بعد ذلك على الخط المقرر لها .. احدى عشرة جلسة فى ستة أيام من العمل المكثف الجاد استغرقت خمسا وثلاثين ساعة .. ناقش المؤتمر خلالها سبعةوعشرين بحثا .. كما خصصت ثلاثجلسات للمناقشة الحرة فى غير الأبحاث المدرجة فى جدول الأعمال ..

وفى هذه الجلسات الحرة أجمع الأعضاء على أن الوحدة الاسلامية ــ على أى صورة ممكنة ــ لا بد وأن تتحقق بين الدول والشعوب الاسلامية .. كما أجمعوا على ضرورة نجدة ومساندة الأقليات المسلمة التى تتعرض للاضطهاد والابادة : فىأريتريا والفلبين ولبنان على سبيل المثال لا الحصر ..

وقد ارتأوا أن الجهاد واجب على كل مسلم لتحرير الوطن السليب : فلسطين ، وانقاذ المسجد الأقصى والشعب العربى المسلم فى تلك الأراضى المقدسة من ربقة الاستعمار الصهيونى الغاشم .

ثم كان ختام الفترة الأولى فى يوم الخميس السابع من ذى القعدة ١٣٩٧ هـ الموافق للعشرين من اكتوبر ١٩٧٧ م حيث لبى الأعضاء دعوة الرئيس محمد أنور السادات فاستقبلهم ، ورحب بهم باستراحة القناطر الخيرية ، وألقى فيهم كلمته المنشورة فى صدر هذا السياق .

وفى الجلسة المسائية لهذا اليوم أعلن المؤتمر توصياته وقراراته ونصها كما يلى :

قرارات وتوصيات

الفترة الأولى للمؤتمر الثامن للعلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

فى رحاب الأزهر الشريف ، وعلى أرض القاهـرة العريقة ، اجتمـع المؤتمـر الثامـن لمجمـع البحوث الاسـلامية ، بعـون الله وتوفيقه مستجيبا لدعوة فضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ،شيخ الازهر ، ورئيس المؤتمر ، ووفـد اليه علماء المسلمين منأربع وخمسين دولـة من جميـع أنحاء العالم ، ليسهموا فى عرض مشكلات العالم الاسلامى ، وليتدارسوا حلها ،على ضوء ما جاء فى كتاب الله تعـالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعلى مدى الأيام السـتة لفترة المؤتمر الأولى ، التى بدأت فىصباح يوم السبت ، الثانى من ذى القعدة عام ١٣٩٧ هـ الموافق الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٧٧ ، أكد المؤتمر عزمه الراسـخ على تقـوية وعى المسلمين بما يجب عليهم من صيانة لمقدسات الاسلام ، وعمل على درء الأذى عن أتباعه،وكشفللمخططات التى تستهدف تضليل المسلمين عن حقائق دينهـم ..

وأنه فى ختام الفترة الأولى لهذا المؤتمر الذى تم فيه التلاقى بين علماء المســلمين متواصين بالحق ، داعين الى الوحدة ، متعاونين على البـر والتقـوى ..

يســجل المؤتمر عظيم شــكره وتقديره للسيد الرئيس محمد أنور السـادات رئيس جمهـورية مصر العربية لرعايته للمؤتمر فى جميـع مراحله : تفكيرا فى الدعوة اليـه ، وتحقيقا لاجتماعـه ، وحـدبا على نجاحه ، وتفضـلا بانتداب السـيد محمـد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ليفتتح المؤتمر باسمه ، ثم تفضـله باستقبال اعضاء المؤتمر واحتفائه بهم ..

ويعلن المؤتمر ابتهاجه بان يواكب انعقاده احتفالات مصر والأمة العربية بعيد النصر لحرب العاشر من رمضان ، واقتحام الجيش المصرى الباسل حصن الصهيونية الذى كان رمز الاعتداء ، ويرى فى هذا النصر انجازا مباركا فى سبيل نشر السلام القائم على الحق والعدل ، يستحق أن تقدم من أجله التهنئة للسيد الرئيس محمد أنور السادات ، وللذين عاونوه وآزروه وللأمة المصرية ، والعربية ، والاسلامية .

كما يقدر المؤتمر للامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ورئيس المؤتمر جهوده الموفقة فى نجاح هذا المؤتمر ، واضطلاعه بحمل رسالة الأزهر ، فى خدمة الاسلام والمسلمين ، واعلاء كلمة الدين فى نشر العدل ، والخير ، والرحمة والتسامح ، والعلم والايمان ، فى كل قطر وكل بيئة .

وقد أسفرت الدراسات والبحوث التى قام بها المؤتمر فى فترته الأولى عن التوصيات الآتية :

« فلسطين » والاحتلال الاسرائيلى :

يؤكد المؤتمر ما سبق أن أعلنه من توصيات وقرارات فى دوراته السابقة بخصوص تحرير الأرض العربية التى اغتصبتها اسرائيل فى فلسطين ، وسوريا ، والأردن ، ولبنان ، ومصر ، ويؤكد دعوته للجهاد من أجل تحريرها ، ويقرر ضرورة عودة الفلسطينيين الى ديارهم واقامة دولتهم بارادتهم الحرة المستقلة .

ويعلن المؤتمر أن لأهل فلسطين الذين أخرجوا منها الحق كل الحق فى أن يعودوا اليها ، وأن يقيموا مع سائر الفلسطينيين دولتهم المستقلة التى يريدونها ، على أرض وطنهم فلسطين بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية التى تعبر عن ارادتهم الحرة .

كما يعلن المؤتمر أن اعادة القدس الى السيادة العربية الاسلامية كما كانت قبل العدوان شرط أساسى فى أى بحث يتناول هذه القضية .

لبنان :

يعلن المؤتمر عميق حزنه وأسفه للأحداث المؤلمة التى نزلت بلبنان ، ويدعو جميع المعنيين الى العمل على

انتشاله من محنته واحترام وحدته ، والالتزام بما يبقى عليه سيادته ، وكرامته .

المسلمون فى انحاء العالم :

ويوصى المؤتمر أن يؤلف المجمع لجنة دائمة تعنى بشئون المسلمين الذين يعانون صعوبات تجاه دينهم فى دولهم ، وأن يمنح هذه اللجنة الامكانات التى تيسر عملها ، وتحقق أهدافها ، ويعلن المؤتمر اهتمامه بأحوال المسلمين وسلامهم فى كل من قبرص وأريتريا والفلبين وتايلاند والصومال وغيرها من البلاد التى يعانى فيها المسلمون اضطهادا ، كما يوصى بمساندتهم ويمد يد المساعدة لهم .

الشريعة الاسلامية :

يقرر المؤتمر وجوب العمل الجاد من أجل تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ، فى جميع البلادالاسلامية فى المعاملات ، والعقوبات ، وفى جميع فروع هذه الشريعة .

ان المؤتمر يرى أنه قد حان الوقت الذى ينبغى أن يتحرر فيه المسلمون من ربقة التشريعات الوضعية التى لا تلائم ما جاءت به شريعة الاسلام .

ويؤكد المؤتمر أن التغاضى عن تنفيذ الشريعة الاسلامية هو السبب الأساسى فيما تفشى بين الناس من فساد فى العقيدة ، والأخلاق ، والمعاملات ، ويعلن انه لا سبيل الى انقاذ المجتمعات الاسلامية من هذه المفاسد الا بالاعتصام بالشريعة الاسلامية ، ووضعها موضع التنفيذ ، بكل أجزائها .

ويرشد المؤتمر الى أن الشريعة الاسلامية تتصف بالسعة والشمول ، وتقوم على احتواء كل ما يجد من مشكلات فى حياة الناس ، وتضع لها أوفق الحلول ، بما يناسب طبيعة البشر ، وأهدافهم فى حياتهم الدنيا ، والأخرى ، ولهذا يطلب المؤتمر أن يراعى المسئولون عن وضع القوانين أن تكون مبنية على أسس الشريعة الاسلامية ، وأن يراجعوا قوانينهم القائمة حاليا لتحقيق هذه الغاية .

ويؤكد المؤتمر انحراف كل دعوة الى اغفال النصوص الشرعية الواردة فى الكتاب والسنة ، أو تفسيرها وفقا

للأهــواء الشخصية أو الجماعية ، ويرى فى ذلك نزعة معادية للاسلام .

ويوصى بنشر المؤلفــات المبسطة التى تشيع مفاهيم الشريعة على أوسع نطاق ، والتعريف بمزاياها .

ويحث الفقهاء على مصاولة أعداء الشريعة فى الداخل والخارج والرد على تخرصاتهم وعدم السكوت على كل ما يمس الشريعة الغراء من قريب أو بعيد .

الغزو الفكرى :

يدعو المؤتمــر كل ذى شأن فى سياسة الأمة الاسلامية أن يعمل على وقاية الأمــة الاسلامية من الغــزو الفــكرى الذى يستهدف تقــويض عقــائد المسلمين ودفعهم الى دائرة الالحاد ، واضطراب القيم ، وانحراف السلوك .

ويؤكد المؤتمر أن مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقتضى أن تتآزر جميع الأجهزة المختصة فى المجتمعات الاسلامية لتوضــيح أن الاسلام نظام متكامل للحياة ، غنى بنفسه ، برىء من النزعات الدخيلة الوافدة من الغرب أو من الشرق .

ويؤيد المؤتمر الجهود التى تكشف عن التناقض الاسلامى القــائم بين الاسلام والمــاركسية ويرى أنها من أخطر المذاهب المعادية للدين ، ويقرر المؤتمر استحالة التوفيق بين الاسلام باعتباره وحيا من اللــه سبحانه وتعالى ، وبين المــاركسية ، بما تقوم عليه من انكار لوجود الله ، ولسائر الغيبيات ، وبما ترتكز عليه من تفسير مادى لأصــل الكون ، ولحــركة التاريخ .

ويؤكد المؤتمــر أن المــاركسية تنتهى فى التطبيق الى تحطيم الفرد والمجتمــع عقيدة وأخــلاقا ويهيب المؤتمر بكل مسلم ، وكــل جماعة أو حكومة تدين بالاسلام أن تعمل على وقاية أبنائها من أخطار هــذا المذهب ، وأن تعمل على سد الطرق والمنافذ التى يسلكها ، ما ظهر منها وما استقر ، وأن تعمل على استبعادهم ، ومحــاربة أفكارهم ، فى أجهــزة الاعلام والتربية فى المدارس والمعاهد والجامعات .

ويدعو المؤتمر الى أن يكون عرض المذاهب المادية فى الدراسات المتخصصة مصحوبا ببيان وجهة النظر الاسلامية التى توضح ثغرات هذه المذاهب وترد عليها .

كما يطالب المؤتمر جميع الحكومات الاسلامية بالعمل على وقف نشاط المبشرين حماية للمسلمين من الزيغ والضلال .

اللغة العربية :

أولا ـ يطلب المؤتمر : أن تعمل كل دولة اسلامية غير عربية على ادخال اللغة العربية فى مناهج تعليمها ، وابراز أهميتها فى ميدان الثقافة العامة ، والثقافة الاسلامية خاصة ، وعلى انشاء كلية فى احدى جامعاتها للتخصص فى فرع الثقافة الاسلامية العربية ، وعلى تخصيص أقسام لهذه الدراسات فى بعض جامعاتها وعلى تقرير منح وجوائز لمن يحفظون القرآن كله أو بعضه ، ولمن يتفوقون فى اللغة العربية، قراءة وكتابة ، وحديثا ، ولمن يؤلفون بالعربية من أبناء هذه البلاد فى فروع الدراسات الاسلامية ، بمختلف أنواعها .

ثانيا : يقرر المؤتمر : وجوب الوقوف فى وجه اللغة العامية والدعوة الى استعمالها ، فهى لا تصلح أن تكون رابطة بين أبناء الشعوب العربية ، وهى ليست ذات ثقافة أو فكر يدرس ، واستعمالها امتهان للغة العربية ، وقضاء عليها ، وبذا يتعسر على النشء فهم لغة القرآن، والتراث الاسلامى .

ثالثا : يقرر المؤتمر : الوقوف بكل وسيلة فى وجه الذين يدعون الأمة الاسلامية الى استعمال الحروف اللاتينية ، فان كل دولة اسلامية تتخذ الحروف اللاتينية تباعد بين المسلمين ولغة دينهم ، وتضعف صلتهم بكتاب الله ، المنزل بلسان عربى مبين ، وتقطع صلتهم بالتراث الاسلامى .

الدعوة والدعاة :

يوصى المؤتمر بتنسيق نشاط الدعوة بين البلاد الاسلامية والتعاون فيما بينها على توضيح مفاهيم الاسلام خالية من الزيف والتحريف، منعا للأفكار الدخيلة ، والمذاهب الالحادية .

الاعلام :

يطالب المؤتمر الحكومات الاسلامية والعربية بدعوة الاعلام ــ من صحافة واذاعة صوتية ، ومرئية ، وكتب ، ونشرات ــ الى التزام القيم الاسلامية والأخلاقية رعاية لتربية الناشئة ، وحفاظا على المثل والأخلاق التى تقوم عليها المجتمعات ، وصيانة للروابط الأسرية التى تتأثر بكل ما تنشره وتعرضه أجهزة الاعلام وهى تلاحق الفرد والمجتمع فى كل مكان .

ان المؤتمر يهيب بأولى الأمر الى أن التجارة الرابحة للأمم انما هى فى صيانة الأعراض والأخلاق وحماية الآداب العامة .

ويطالب المؤتمر أجهزة الاعلام فى البلاد العربية بالعناية باللغة العربية الفصحى وتجنب استعمال اللغة العامية حفاظا على لغتنا وتراثنا الاسلامى .

ويؤيد المؤتمر الامام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس مجمع البحوث الاسلامية فى بيانه المؤسس على قرار المجمع بأنه لا يقر انتاج فيلم « محمد رسول الله » بهذا الاسم أو باسم «الرسالة» أو أى فيلم آخر يتناول بالتمثيل صاحب الرسالة أو أحد أصحابه الكرام .

ولا يجوز السماح بعرضه صيانة لشخصية الرسول الكريم وأصحابه الأجلاء من التعرض لما لا يليق بمنزلتهم المصونة .

ويطالب المؤتمر بمراقبة الأفلام السينمائية والتمثيليات قبل عرضها ، ومنع ما يتعارض فيها مع تعاليم الدين الحنيف ، ويطالب باختيار رؤساء تحرير الصحف والمجلات على مستوى المسئولية ، وأن تمنع المجلات والكتب المستهترة بالقيم الدينية والخلقية .

الأخلاق والتربية :

ان المؤتمر يدعو الحكومات والهيئات الى الالتزام بالأخلاق الاسلامية ومقاومة التبرج ، والخروج على تقاليد الاسلام ، وتحريم جميع أنواع المسكرات ، ويرى أنه من العار على أى دولة اسلامية أن تبيح أى شىء من هذه المشروبات فى حفلاتها .

التعليم الدينى :

يوصى المؤتمر بتعميم التعليم الدينى وتعميق التربية الاسلامية بالمدارس فى البلاد التى لم تدخله فى مناهجها ، وأن تكون مناهجه ميسرة واضحة لعقول الناشئة ، ليكون هديا لهم فى سلوكهم ومعاملاتهم .

ويحيى المؤتمر الكليات والمعاهد والمدارس التى خصصت أماكن لاقامة الصلاة ، ويدعو سائر دور العلم لانتهاج هذا السبيل .

الطفولة :

يوصى المؤتمر أن يدرك الآباء والامهات وجميع القائمين على تربية الناشئة الاسلامية . ان من أهم رسالاتهم فى الحياة أن ينشئوا الجيل الصاعد على أسس الايمان بالله ، والثقة فى حكمته ، وحكمه ، ليكون ذلك الايمان هو سياج الأمن والأمان لكل فرد فى خطواته ، منذ طفولته حتى شيخوخته .

الشباب :

ويوصى المؤتمر بتوجيه عناية أكبر بالشباب . من أجل تنشئتهم وجدانيا وعقليا على العلم والايمان . ويرى المؤتمر أن الشباب هو عدة الأمة وسلاحها فى السلم والحرب ، وأن بناء الأمة انما يقوم على بناء الشباب على أسس صحيحة ، روحيا ، وماديا ، وأن المنهج الاسلامى يقدم أفضل السبل والوسائل لتحقيق هذه الغاية .

القرآن الكريم :

يوصى المؤتمر بتشكيل لجنة من أعضاء المجمع ، يمثلون البلاد الاسلامية لمتابعة ترجمة معانى القرآن الكريم التى تصدر باللغات الأجنبية والاوروبية والشرقية وتقديم تقرير عنها للمجمع ، لبيان اتجاهاتها لكى يوضح للمسلمين مالا يعتمد عليه منها وما هو أقرب منها الى معانى القرآن .

كما يؤكد المؤتمر توصياته السابقة بشأن تقوية اذاعة القرآن الكريم فى جمهورية مصر العربية حتى ينتشر ارسالها فى كل المناطق الاسلامية ، ويؤيد فضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر فى جهوده من أجل دعم هذه الاذاعة حتى تتمكن من خدمة الدعوة الاسلامية على الوجه الأمثل .

القرن الهجرى :

يوصى المؤتمر الجماعات الاسلامية، حكومات وهيئات بالتخطيط من الآن لاستقبال القرن الخامس عشر الهجرى، باقامة مؤتمرات واجتماعات عامة تعرض فيها تعاليم الاسلام فى بيئتها المحلية وفى غيرها ، كما تخص بدء ذلك القرن الجديد بموسم للعناية بحفظ القرآن الكريم وفهمه على مستوى الأمة الاسلامية.

البيئة :

نظرا للتغييرات المتلاحقة السريعة التى تمر بالعالم الاسلامى ، والتى تؤدى الى تغيرات كثيرة فى بيئاتنا .

فان المؤتمر يحث أولى الأمر فى العالم الاسلامى على التروى فى كل ما يؤدى الى تغيير البيئة ، ومراعاة المحافظة على القيم الاسلامية الأصيلة المرتبطة بها وبخاصة فى الأماكن المقدسة .

العناية بتنفيذ قرارات وتوصيات المؤتمر :

يطلب المؤتمر من السلطات والهيئات الاسلامية العمل على تنفيذ توصياته وقراراته التى صدرت فى مؤتمراته جميعا تحقيقا لأمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

كما يطلب من المجمع أن يعمل على متابعة توصيات هذا المؤتمر والمؤتمرات السابقة عن طريق لجنة خاصة تشكل لهذا الغرض .

ويطلب المؤتمر من المجمع أن يضع النظام الكفيل بالاستعانة بأعضاء المؤتمر من خارج جمهورية مصر العربية فى تنفيذ مقرراته ومتابعتها.

قرارات وتوصيات

المؤتمر الثامن ـ للفترة الثانية

بحمد الله وتوفيقه أتم المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية الفترة الثانية من انعقاده ، والتى بدأت من يوم ١٣ من ذى القعدة وانتهت يوم ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧/١١/٨م وبعد دراسة الموضوعات التى عرضت عليه انتهى الى اصدار القرارات والتوصيات التالية :

١ ـ يوصى المؤتمر أن يقوم الأزهر ، ومجمع البحوث الاسلامية بصفة خاصة بوضع دستور اسلامى ليكون تحت طلب أية دولة تريد أن تأخذ بالشريعة الاسلامية منهاجا لحياتها ، ويرى أن يؤخذ فى الاعتبار عند وضع هذا الدستور أن يعتمد على المبادىء المتفق عليها بين المذاهب الاسلامية ، كلما أمكن ذلك .

وأن يدعو المجمع لاجتماع طارىء للمؤتمر لدراسة ما يكون المجمع قد أعده لمشروع هذا الدستور .

ويرى المؤتمر كذلك أن القواعد الفقهية الشرعية تكفى حاجة الشعوب الاسلامية وتغلق الباب لديها فى وجه القوانين الوضعية ـ ومن هنا فان المؤتمر يؤكد دعوته الى عرض هذه القواعد فى صورة مناسبة لظروف العصر الحاضر .

٢ ـ ويعلن المؤتمر أن الحكم بالشريعة الاسلامية يضمن لغير المسلمين حقوقهم الانسانية ، ويكفل لأهل الأديان الكتابية حرية العقيدة والعبادة .

٣ ـ يقرر المؤتمر أن منهج المسلم فى الحياة هو منهج الاتباع للكتاب والسنة ، وهذا المنهج يكفل للمسلمين أفرادا وجماعات مقاومة الغزو الفكرى فى العقائد والأخلاق والتشريع .

يوصى المؤتمر بأن تعمم التربية الاسلامية فى جميع مراحل التعليم

بما فى ذلك المرحلة الجامعية وعلى مستوى يتناسب مع كل مرحلة من هذه المراحل .

ويوصى المؤتمر ألا يقتصر فى التربية الاسلامية على الدراسات النظرية وأنه ينبغى أن يعنى بالجانب العملى منها .

ويوصى أن يهتم المربون بما يمس واقع الحياة العملية فيما يقدمونه للطلاب من دراسات دينية ، وأن يبتعدوا عن الخلافات المذهبية واللفظية .

ويوصى بأن تقوم المناهج التربوية على مواجهة مشكلات البيئة المعاصرة لكل مجتمع ، ويطلب المؤتمر الى الأزهر أن يتوسع فى انشاء المعاهد الأزهرية بمراحلها المختلفة ، تيسيرا للتربية الاسلامية لكل راغب بالقرية أو المدينة ، وتلبية لاحتياجات العالم الاسلامى المتزايدة الى العلماء والدعاة .

ويوصى الدول الاسلامية بعقد الاتفاقات والمعاهدات الثقافية بينها على وجه يدعم التربية الاسلامية .

٤ ـ كما يوصى المؤتمر بانشاء جهاز من المتخصصين لمتابعة أهم ما كتبه المستشرقون عن الاسلام للرد على مطاعنهم ، وترجمة هذه الردود ونشرها بمختلف اللغات .

ويوصى بأن تكون هذه الدراسات موضع عناية فى الجامعات ، وموضوعات للبحث فى الدراسات العليا (الماجستير ـ الدكتوراه) .

كما يرى المؤتمر أن يكون الرد على دعاوى المستشرقين موضوعيا دون أن يتجه الى منهج الدفاع أو الهجوم .

٥ ـ ويدعو المؤتمر الى سد النقص فى مجال التأليف فى الدراسات الاجتماعية والنفسية وأن تبنى هذه الدراسات على أسس اسلامية .

ويرى المؤتمر انه فى مجال الاستشهاد بالقرآن الكريم لبعض الآراء العلمية الحديثة ينبغى أن يكون ذلك فى صورة موضوعية بريئة من التعسف فى تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأن يتجه التأليف فى هذه الموضوعات

الى شبابنا فى الجامعات بصفةخاصة، وأن يكون بعض هـذه المؤلفـات بلغات أجنبية يفهمها المسلمون وغير المسلمين ممن لا يعـرفون اللغـة العربية .

٦ ــ يرى المؤتمر انه فى مجـال الدعوة الاسلامية ينبغى المبادرة الى وضـع خطة أساسية محـكمة ذات شقين :

الشق الأول منها : يهـدف الى بنـاء الاسلام فى نفوس أبنائه عن طريـق التربيـة والتعليم والاعلام بأسلوب منـاسب لظـروف العصر الحاضر .

ويهدف الشق الثانى الى : حماية الاسلام من أعدائه فى البلاد المهددة بخطر الغزو الفكرى أو المـادى .

ويعلن المؤتمر عن شعوره بالخطر الذى يهدد المجتمعات الاسلامية ــ نتيجة للنشاط التبشيرى والشيوعى الخطير المجاور لهذه البلاد .

ويقرر أن دور الاسلام فى مواجهة هذا الخطر دور أساسى وانه الأمل فى قدرة هذه المجتمعات على الصمود .

ويتقدم المؤتمر بنـداء الى الدول الاسـلامية أن تمـد يد العـون للمجتمعات الاسلامية فى كفاحهـا ضد الشيوعية والتبشير .

ويطلب الى المجمـع أن يقـوم بالدعوة لانشـاء صندوق للدعوة الاسـلامية تشـارك فيـه الدول الاسـلامية كل بما تسـتطيع لنشر الاسلام وتقويته فى المجتمعات الاسلامية المهددة بالغزو الشيوعى والتبشيرى .

ويوصى المؤتمر بدعم المؤسسات الدولية الاسلامية التى ترعى مصالح المسلمين فى البلاد المختلفـة ويدعو الأزهر الى أن يكون له تمثيـل فى هذه المؤسسات .

الفهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

محمد حمدى السعيد

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٧ / ١٩٧٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٢٨٦٣س١٩٧٧-١٠٠٠٢

عدد ٤٢٦

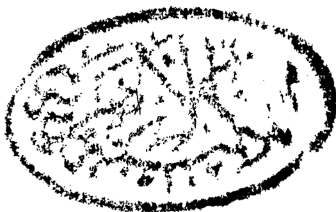
مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢ ٩٠٥٩١٤ ٩٠٥٥٠٦

الجزء الثانى – السنة الخمسون – ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ / أبريل ١٩٧٨ م





موقف الإسلام من الفلسفة

فضيلة الإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر

– ٢ –

والآن نتساءل : ما هى السمات العامة للفلسفة ؟

– وأنه لا يتأتى أن نحدّد فى صورة مقنعة موقف الاسلام من الفلسفة قبل تحديد سماتها العامة ، فما هى هذه السمات ؟

* وأول سمة من هذه السمات – وهى أهمها ، وتعتبر كالمنبع الذى عنه تفيض السمات الأخرى – هى أن الفلسفة لا مقياس لها للتفرقة بين الحق والضلال ، بين الصواب والخطأ . فإذا اختلف فيلسوفان فى أمر من أمور الفلسفة فإنهما لا يجدان مقياساً يرجعان إليه للحسم بينهما فى موضوع الخلاف .

* أما فى العلم فإن المقياس هو «التجربة» . . فإذا اختلف عالمان فى أمر كونى رجعا إلى التجربة ، وهى تعلن فى صراحة مشاهدة خطأ هذا وصواب ذاك .

* ما هو – فى عالم الفلسفة – الذى يجرى مجرى التجربة فى مجال العلم ؟

* لا شيء . .

* ما الذى يحسم الخلاف فى عالم الفلسفة ؟

* لا شيء . . .

* * *

ما هو المرجع من أجل الاتفاق فى عالم الفلسفة ؟

لا مرجع .

ولقد شعر الفلاسفة بذلك : فقام اثنان من كبار عباقرة الفلسفة بمحاولة لإيجاد هذا المقياس ، وهما أرسطو فى الماضى وديكارت فى العصور الحديثة .

ولقد أخفق كل منهما إخفاقاً تاماً كاملا .

ونبدأ الحديث عن أرسطو – ولا ننسى أننا فى عالم الإلهيات :

مجال الفلسفة الرئيسى :

لقد فكر أرسطو وقدر ، ثم فَكَّرَ وقَدَّرَ ، وخرج على العالم بما يسمى «المنطق الأرسطى» أو «المنطق الصورى» ، وأخذ هذا المنطق فى عالم الفكر الفلسفى مجالاً من الشهرة والعناية لا حدَّ له . وأخذ فى الجو الإسلامى شهرة ذائعة الصيت .

وتبناه جميع فلاسفة الإسلام إبتداء من الْكِنْدى فى المشرق إلى ابن رشد فى المغرب .

ولكن كثيراً من المسلمين ذوى الأصالة فى الفكر الإسلامى أبانوا فى وضوح أن المنطق الأرسطى منهار ، وأنه متهافت ، وأن الخلل فى جوهره وأركانه . وأنه خلل لا يصلح .

وكان من هؤلاء ابن تيمية الذى كتب كثيراً فى نقد المنطق ونقضه . لقد كتب فى ذلك كتباً ، وكتب فى ذلك فقرات منثورة هنا وهناك فى خلال كتبه الكثيرة وفتاواه المستفيضة .

وممن كتب فى نقد المنطق ونقضه : ابن حزم

والمحدثون جميعا لا يجد المنطق عندهم ترحابا ولا قبولا .

وقد كتبنا نحن ننبه على أن المنطق لا يحسم خلافاً ولا يفصل حقاً عن باطل ، ومما كتبناه فى المنهج الحديث والمنهج الأرسطى ما يلى :

إن المقاييس هى :

(ا) الاستقراء .

(ب) القياس .

أما الاستقراء – وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية – فإنه :

١ – مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسَّات ، إنه تتبع جزئيات لا تخرج عن نطاق الواقع ، أما المساتير فهو برىء منها كل البراءة ، لأنها لا تدخل فى دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ – ثم إن الاستقراء : تام ، وناقص . والتام – كما يعترف المناطقة – لا غناء فيه ولا فائدة .

أما الناقص – وهو المهم فى نظرهم فإنه – فى رأيهم أيضاً – ظنى ، وهو – لذلك – عرضة للتغيير فى كل آونة .

« كل معدن يتمدد بالحرارة » تلك قضية من قضايا الاستقراء : إنها قضية عامة شاملة ولكن المعادن لم تتكشَّف – بعد – بأكملها ،

ومن الجائز أن يكتشف فى الغد معدن لا يتمدد بالحرارة ، إنها إذن قضية مؤقتة ظنية تتبرأ من اليقين الفلسفى .

« والعلم كما يقول أحد المفكرين – لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله – وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة لها قيمتها ، حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيِّرها »

وهكذا قضايا الإستقراء . . . إنها :

١ – خاصة بالطبيعة ، ولا شأن لها بما وراءها .

٢ – ظنية لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ – فإنه مبنى على الاستقراء ، إذ هو منطوٍ دائماً على كليَّة ، كليَّة استقرائية ، ومادامت قضايا الاستقراء ظنية – كما رأينا – وميدانها المحسات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسات .

٢ – إن المناطقة لا يشترطون فى مقدمات القياس ، أن تكون مسلَّمة صادقة فى نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلِّم بها المتجادلون فحسب ، وقد تكون – كما يقول صاحب

البصائر النصيرية : منكرة كاذبة فى نفسها ، وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ونتيجته باطلة . وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ ما قيمته إذا كان لا يُعَوَّل فيه إلا على أن تكون المقدِّمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟ ما قيمته إذا كان يحفل بصدق النتيجة أو كذبها ؟

إنك إذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى الاستقلال الفردى ، وكل ما يؤدى إلى الاستقلال الفردى مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً فى نظر المناطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدى إلى التماسك الاجتماعى ، وكل ما يؤدى إلى التماسك الاجتماعى مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد للمجتمع كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناطقة ، ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

٣– ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة فى نحو قولنا :

« محمد إنسان ، وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق ، متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ، لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنسانى إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد ، ولو كنت فى شك من ذلك لما أستطعت تعميم الحكم على جميع أفراد الإنسان ، وإذن تكون الكبرى متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس :

إستدلالاً دورياً فاسداً ، فلا يعول عليه .

٤– وأخيراً ، فالمفروض . أن نتيجة القياس : جديدة كل الجدة ، إنها استنتاج مجهول هو النتيجة من معلوم ، هو المقدمات .

ولكن النتيجة متضمنة فى المقدمات . إنها ليست مجهولة ، والقياس إذن لا يؤدى إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم ، إنه – إذا أردت الدقة – استنتاج معلوم من معلوم ! !

تلك هى موازين العقل ، وهى موازين لا غناء فيها ولا جدوى منها فيما يتعلق بالإلهيات . فالعقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحدثت فى التشريع ، فإنَّ التشريع داخل فى نطاق الأخلاق .

أخفق إذن منطق أرسطو ، واستمر الاختلاف بين الفلاسفة كما كان من قبل ، واستمر الخلاف حتى بين المناطقة الأرسطيين : الكبار منهم والمغمورون ، بل حدث الاختلاف بين تلاميذ أرسطو نفسه ، وهم أتباع مدرسة واحدة هى المدرسة الأرسطية .

ومرت العصور ، وتوالت القرون ، وجاء ديكارت ، وبدأ ديكارت يتفلسف على استحياء وعلى حذر بالغ ، فما كان جوُّ زعماء المسيحية فى الغرب إذ ذاك يوحى بالاطمئنان . أو السكينة ، لقد كان جواً رهيباً يأخذ على الظِّنة وينكل على الشُّبهة ، لا يتحرى عدالة ولا يستشعر رحمة .

وأخذ ديكارت يتحسس طريقه فى حيطة بالغة : مُدَارِياً ، مجاملاً ، مادحاً ، متواضعاً . . وذات يوم أعلن أنه عثر على المنهج المعصوم .

وأنه على أساس من هذا المنهج ستعود الإنسانية إلى الحق . .

ورأى أن هذا المنهج صالح للكشف عن الحق فى الكون وفى ما وراء الكون ، فى الطبيعة وفى ما وراء الطبيعة .

وكان من سخرية القدر أن التجربة أظهرت خطأه فى أثناء حياته .

وأن الخلاف استمر حول آرائه فى الإلهيات ، وآراء معاصريه ، وآراء من قبله ، كما كان الأمر من قبل أن يولد منهجه ، وأخفق منهج ديكارت كما أخفق من قبل منهج أرسطو . .

وبقيت الحقيقة التى لاشك فيها ، وهى أن الفلسفة لا مقياس لها .

هذه هى السمة الأولى . .

السمة الثانية :

مادامت الفلسفة لا مقياس لها فهى إذن ظنية ، إنها ظنية وإن عجنت بمنطق أرسطو الذى أخفق . . وهى ظنية وإن خبزت بمنهج ديكارت الذى لم ينفع فى قليل ولا فى كثير، إنها ظنية لأنه لا يتأتى أن تفرق فيها – ولا مقياس – بين الحق والضلال ، وستستمر هكذا إلى الأبد .

السمة الثالثة :

مادام لا سبيل إلى اليقين فى موضوعات الفلسفة فإن من البدهى أن « اختلاف الآراء فيها دائم » .

وهذا هو الواقع حينما يتصفَّح الإنسان الفكر الفلسفى عبر القرون . .

إن الاختلاف والجدل دائم مستمر منذ أن نشأ الفكر الفلسفى . . إنهم يختلفون حتى فى المدرسة الواحدة .

وانظر مثلاً إلى مدرسة سقراط فستجد تلاميذه يقرّون بأستاذيته فى إحترام بالغ ، وفى تبجيل يشبه التقديس ، فإذا جئت إلى آرائهم فى الإلهيات ، أو فى الأخلاق ، فستجد الإختلاف والإفتراق . .

الإختلاف والإفتراق بينهم وبين أستاذهم ، والاختلاف والإفتراق بين بعضهم وبعض . .

بل إن الأمر يصل بالشخص الواحد إلى أن يختلف مع نفسه ، بحسب تطور حياته أو اختلاف بيئته أو اختلاف ما يقرأ من مصادر ثقافته .

وكل هذا واضح عبر العصور .

ومن غرائب الأمور أن الفلاسفة يعلمون ذلك علماً يقينيًّا ، ويعلمون أن كل فيلسوف أتى من قبلهم هدم آراء سابقيه جميعاً : إنه لم يعترف بوصول أحدهم للحق ، إنه يخطِّئهم جميعاً ولو لم يكن الأمر كذلك لأخذ بآرائهم ، وأكتفى بما حبَّروه ، أو بما أنشأه أحدهم من قبل .

ولكنه مع علمه بأن الفلسفة دائماً إلى نقد ونقض فإنه لا يأبه بهذه المعرفة ويقيم مذهبه على أنقاض مذاهب سابقيه ، فيأتى من بعده ويهدمه ويقيم مذهباً مآله السقوط . . وهكذا دواليك .

السمة الرابعة :

ومادام الاختلاف مستمراً فإن المسائل التى هى موضوع الفلسفة تستمر هى هى . .

« إن مسائل الفلسفة لم تتغير على مر الدهور » .

ما هى مسائل الفلسفة ؟ . .

إنها :

الله سبحانه وصفاته ، وصلته بالعالم خلقاً وتصريفاً ، وصلته بالإنسان قرباً وتوجيهاً . .

والبعث وكيفيته .

والخلق الكريم الذى يمثل الفضيلة والكمال . .

والخلق السيئ الذى يمثل الشر والفساد . .

والنبوة والصلة بالله عن طريق الوحى : إثباتاً وإنكاراً . .

ثم : هل المعرفة ممكنة ؟ وفى كل هذه الموضوعات الكبرى وغيرها مما يتصل بها : اختلف الفلاسفة ومازالوا . . واستمرت هذه المسائل على مدى سبعة وعشرين قرناً تقريباً مثار بحث وجدل إلى الآن . . . لم يصل الفلاسفة فى واحدة منها إلى اليقين ، ولم توضع واحدة منها موضع الاتفاق .

السمة الخامسة :

إن الاختلاف فى مسائل الفلسفة ليس اختلافاً فى الإيجاب فحسب . . وذلك أنه قد يجوز أن يكون لمسألة مّا عدة حلول كلها إيجابية .

وليس اختلافاً فى السلب فحسب ، وذلك أنه قد يجوز أن يكون لمسألة واحدة عدة حلول كلها سلبية . .

كلا ، إن الخلاف عام فى الإيجاب وفى السلب ، وإنه ليصل إلى الإنكار المطلق وإلى الإثبات المطلق فى كل مسألة ، وإنه ليصل بك أحياناً إلى طرق مسدودة ،

أتحب أن تعرف شيئاً من ذلك ؟

إن الأستاذ «البيرريفو» يقول فى كتابه : الفلسفة اليونانية :

« أما عن العقل فإن سلسلة الآراء الرواقية المتتالية نفسها أثبتت بسهولة أنه ليس له قدرة مطلقة جازمة .

١- فهل فى إمكاننا أن نعرف عن حبات من القمح متى تكف عن تكوين التوأم ؟

٢- وإلى أى حد نثق فى اعتراف الكذاب الذى يعترف بأنه كذاب ؟

٣- وعندما نقرر أن دليلاً منطقيًّا هو من الصحة إلى الحد المقنع . . ألا يتعين علينا أن نقيم دليلاً آخر على صحة حكمنا بأنه صحيح ، ثم على الحكم الأخير ، وهكذا إلى مالا نهاية ؟

٤- وكيف يمكن التمييز بين الفكرة الجلية الواضحة وسواها ؟

٥- على أن الصور التى نراها فى الأحلام تفرض علينا بنفس القوة المقنعة التى لصور اليقظة . . فالوحش الذى يطاردنا فى الأحلام ليس أقل ترويعاً لنا من وحوش الغابة ؟

٦- ثم ، إذا نظرنا إلى المجانين . . ألا نجد لديهم أيضاً إدراكاً واعياً جليًّا ؟

٧- وعندما نجد أنفسنا ، بالصدفة ، أمام شيئين متشابهين تماماً كورقتى شجرة ، أو بيضتين ، أو توأمين ، فأى وسيلة مصطنعة تمكننا من تمييز أحدهما عن الآخر ؟ . .

٨- وحتى فى العلوم الرياضية هل يمكن أن نجد بين قضاياها ماهو جلىّ بحيث يضطر الشعور إلى التسليم بصحته » « ا هـ »

ومع ذلك فإنه إذا كان ذلك يحتمل فى الحياة العقلية البحتة ، فإنه لا يحتمل فى الحياة التى تتصل بالسلوك العملى . . السلوك الملح الذى تحتاج الحياة العملية إلى الفصل فيه سريعاً ، فما موقفنا من هذا النوع وما موقف الفلسفة منه ؟ . .

إنها تكتفى فى الحياة العملية بالترجيح ، يقول كاريناد :-

« ومع ذلك فلابد لكى نحيا حياة عملية ، من وجود معادل يساوى ما هو قاطع وجازم » ، ثم يقول «كاريناد» : « إننا نستطيع أن نجد ذلك المعادل فى « الرجحانية » ، إن ادراكنا على وجه الترجيح يمكن أن يسمح لنا بالحكم على الأشياء فى الأمور العملية ، بطريقة وضعية » ، وتصل بك الفلسفة أحياناً إلى معقولات يكذبها الواقع ، أو إلى واقع يكذبه المنطق العقلى مع أنه واقع مشاهد . .

أتحب أن تتسلى بشىء من ذلك ؟

إن الأستاذ « البيرريفو » يقول :

« إن التغيُّر يحدث فى المكان أو فى الزمان . . وإذا تصورنا المكان قابلاً للتجزئة إلى مالا نهاية فإن المتحرك لن يبلغ أبداً غاية سيره مادام يلزمه ، للوصول إليها ، أن يقطع أولاً نصف المسافة ، ثم نصف النصف ، وهكذا دواليك إلى مالا نهاية .

ولن يبلغ أبداً «آشيل» ذو القدمين السريعتين السلحفاة إذا كانت تسبقه ولو بمسافة ضئيلة ، ذلك إنه بينما يجتاز نصف هذه المسافة ، تسبقه هى أيضاً بمسافة يجب عليه بدوره أن يقطع نصفها ، بينما تتقدم هى من جديد» .

وهناك حجة أخرى تنكر إمكان تكوين الكل من أجزاء ، فإن كومة من القمح تحدث عندما ترش على الأرض صوتاً يسمع على بعد ، ومع ذلك فنحن لا نسمع الصوت الذى

تحدثه حبة قمح واحدة وهى تسقط » «ا هـ»

وإذا كان الأستاذ «البيرريفو» موجزاً مركِّزاً لا يذكر المسائل فى سهولة ويسر فإن صاحب قصة الفلسفة بسطها فى شىء من الوضوح فيقول متحدثاً عن زينون بما يلى :

الدليل على بطلان الكثرة : —

إن كانت الكثرة حقيقة واقعة – ونعنى بالكثرة ان الكون ليس شيئاً واحداً بل وحدات كثيرة متراكمة – كان الكون لا متناهياً فى الكبر ، ولا متناهياً فى الصغر . . لأنه مؤلف من وحدات كما فرضت أولاً ، ولابد أن تبلغ تلك الوحدات من الصغر حدَّ اللانهاية بحيث لا يكون لها حجم ، لانه إن كان للوحدة حجم سقطت عنها صفةُ الوحدة واصبحت قابلة للانقسام إلى وحدات أصغر منها ، فإذا سلمنا بأن كل وحدة على انفراد لا حجم لها لزم أن يكون الكون الذى يتكون منها لا حجم له كذلك ، لأَنّه حاصل جمعها .

وكذلك يكون الكون لا متناهياً فى الكبر ، لأن له جرماً لاشك فيه وكل جرم قابل للانقسام إلى جزيئات لا نهاية لعددها ، ومهما بلغت تلك الجزيئات من الصغر ، فهى إذا ضربت فى عدد لا نهائى كان الناتج عظيماً يمتد إلى مالا نهاية .

وإذن ففرض الكثرة يؤدى إلى نتيجتين متناقضتين لا يسلِّم بهما معاً منطق سليم ، فلم يعد أمامك من سبيل إلاَّ أن تنكر إنكاراً باتًّا الكثرة ، وأن تسلم بأن الكون كله شىء واحد لا يقبل التجزئة وأن هذه الأجزاء التى تراها متفرقة : باطلة ليس لها وجود .

الدليل على بطلان الحركة :

(ا) إذا أردت أن تقطع مسافة مّا ، فستقطع نصفها الأول ويبقى أمامك نصفها الثانى ، ثم ستقطع نصف هذا النصف ويبقى نصفه الآخر ، وهكذا ستظل تقطع نصفاً ويبقى نصف إلى مالا نهاية . . وإذن فلن تصل إلى غايتك المقصودة إلى الأبد .

(ب) تسابق رجل وسلحفاة ، فهب أن السلحفاة تقدمت عشرة أمتار قبل أن يبدأ الرجل ، نظراً لبطء سيرها وكانت سرعة الرجل عشرة أمثال سرعة السلحفاة ، فلما بدأ الرجل وقطع عشرة الأمتار التى تفصله عن السلحفاة ، وجد أنها قد تقدمت متراً (أى عشر المسافة التى قطعها هو) ، فلما قطع هذا المتر كانت السلحفاة تقدمت عشر المتر ، فإذا قطع هذا العشر ، تكون قد تقدمت جزءاً من مائة جزء من المتر ، وهكذا يظلان إلى مالا نهاية ، فلو ظل المتسابقان إلى آخر الدهر فلن يلحق الرجل السلحفاة .

(جـ) إذا إنطلق سهم فى الهواء ، فلابد أن يكون فى أية لحظة زمنية ثابتاً فى مكان

معين ، لأنه لا يجوز أن يكون فى اللحظة الواحدة فى مكانين مختلفين ، ولكن إذا كان السهم فى كل جزء زمنى ساكناً فى مكان بعينه ، لزم أن يكون فى مجموع الفترة الزمنية ساكناً كذلك ، لأن استمرار السكون ينتج سكوناً ولا يولد حركة .

من هذه الأمثلة الثلاث يتضح أن الحركة مستحيلة الحدوث وإن خيِّل لنا أنها حقيقة واقعة ، لأنك – كما ترى – إن فرضت حدوث الحركة تورطت فى سلسلة من المتناقضات لا تستقيم مع العقل والمنطق .

وإن الفكر الفلسفى ليصل بك أحياناً إلى إنكار السماء والأرض ، وما بين السماء والأرض ، ويقول لك ليس فى الوجود – يقيناً – غيرك أنت وحدك .

وإن السمة الأخيرة فهى سمة تؤدى إليها – لا مناص – السمات السابقة .

وإذا كانت السمات السابقة يسلم كل منها إلى الآخر ، فإنها جميعاً تتكاتف لتؤدى إلى هذه السمة الأخيرة .

هذه السمة الأخيرة هى أن :

« الفلسفة لا رأى لها » .

وقد تكون هذه السمة مفاجأة لبعض الناس . . كيف يتأتَّى أن تكون هذه الفلسفة التى ملأت الدنيا صياحاً ، منذ أن نشأت ، ولم تكف – منذ أن نشأت للآن – عن الصياح لا رأى لها ؟ .

والأمر أيسر من أن يحتاج إلى استفاضة :

أما أولاً فلأن : « الفلسفة لا رأى لها » نتيجة واضحة لكل ما قدمنا .

وأما ثانياً : فخذ أى مسألة من مسائل الفلسفة فستجد فيها الآراء التى تنكر ، والآراء التى تثبت . . إنك ترى الرفض والقبول فى كل أمر .

والرفض فلسفة ، والقبول فلسفة ،

وقد يكون الرأى توقفاً عن الرفض والقبول وهو فلسفة ، وقد يكون شكاً فى الرفض ، وشكاً فى القبول فى آن واحد ، وهو أيضاً فلسفة .

والشك إما أن يكون شكاً فى قيمة الآراء التى تعرض : نفياً أو إثباتاً .

وإما أن يكون شكاً فى قيمة وسيلة المعرفة نفسها ، وهى الحواس والعقل .

وكل ذلك فلسفة فى كل مسألة .

وإذا تساءلت – وأنت على علم بالجو الفلسفى : جو المتاهات والوهم – ما الرأى الفلسفى فى هذه المسألة أو تلك فستجد كل ما قدمناه ماثلاً أمامك يثبت لك بما لا مرية فيه أنه : « لا رأى للفلسفة » .

وقبل أن نخلص إلى الخاتمة نذكر أمراً فى منهج الفكر الفلسفى فيه عظة وفيه عبرة : إن محاورة « فيدون » لأفلاطون لها أهميتها لأكثر من وجه . . منها أنها :

١– محاوَرَة يدور البحث فيها حول خلود النفس .

٢– وهى محاورة لا تتعارض فيها أهداف المناقشين ، وإنما تتحد وتتفق . . ويحب المناقشون أن يصلو فيها إلى نتيجة محببة إلى نفوسهم وهى أن : « النفس خالدة » .

٣– إن الذين يدور بينهم الحوار فلاسفة من الذين لهم وزنهم واعتبارهم ، وأحدهم يسمونه « أبا الفلسفة » ويسمونه « أبا الفلاسفة » .

٤– المتحاورون ليسوا من مدرسة واحدة وإنما هم من مدرستين مختلفتين : هما مدرسة سقراط ، ومدرسة فيثاغورس ، وهما وإن كانتا متقاربتين فإنه ما من شك فى أن جو سقراط العقلى يختلف عن جو فيثاغورس الروحى .

ولهذا الاختلاف فإن اتفاقهما على غاية واحدة : « إثبات خلود الروح » ومحاولتهما الاستدلال عليها له أهميته الخاصة .

٥– بيد أن الأمر الأساسى المهم الذى من أجله نتحدث فى هذا الموضوع هو اتفاق المدرستين على أن « الوحى » فيما يتعلق بما بعد الطبيعة هو السفينة الأمينة الآمنة المتينة ، وأن العقل فى مجال الإلهيات ، إن هو إلاَّ عبارة عن لوح من الخشب إذا قابلته أو إذا وازنته بالوحى : إن الوحى سفينة والعقل لوح من خشب .

لقد كان الحوار يدور بين سقراط واثنين من الفيثاغوريين هما : « سيماس » و « قابس » وهما من كبار فلاسفة المدرسة الفيثاغورية .

وأخذ الجميع يجهدون ذهنهم فى البرهنة على خلود النفس ، ويقيمون أدلة . . وتنقسم بعض أدلتهم إلى فروع ثم :

« ويسكت سقراط ، ويسكت الجميع ، وبعد هنيهة يقول سيماس :

إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً فى هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب :

إماَّ الاستيثاق من الحق .

وإمّا- إن امتنع ذلك- استكشاف الدليل الأقوى والتذرع به فى اجتياز الحياة. كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح خشب، مادام لاسبيل لنا إلى مركب أمتن وآمن.. أعنى إلى وحى إلّهى[١].

وبعد ذلك يعودون إلى البحث من جديد حتى:

يقتنع قابس، ويعلن سماس أنه مقتنع أيضاً، إلا أن شعوره المزدوج بعظم المسألة وبالضعف البشرى يضطره إلى بعض التحفظ بإزاء هذه الأدلة على وجاهتها.

فيسلِّم له سقراط بحقه فى هذا التحفظ، ويزيد قائلاً:

بل إن المقدمات أنفسها مفتقرة إلى بحث أوكد».

إن هناك بحر الإلهيات، وهناك البحر المادى.

وكما أن للبحر المادى آلة عبور هى السفينة، فإن لبحر الآلهيات آلة عبور هى «الوحى».

فإذا استعمل الإنسان العقل فى عبور بحر الالهيات، فإنه يكون كإنسان يستعمل لوحاً من خشب فى عبور البحر المادى.

ولكن المضطر- حيث لا وحى- يستمسك بلوح الخشب- كما يقول سماس- «مادام لا سبيل إلى مركب أمتن وآمن، أعنى إلى وحى إلّهى».

إن هذه الخاتمة تجربة شخصية.

ولعل القارئ الكريم يسمح بأن أتحدث عن الجو الذى عشته فى بواكير حياتى الفلسفية.

لقد كان ذلك لأول عهدى بجامعة باريس حينما ذهبت إلى فرنسا للدراسة: أحب أن أصف الجو الذى عشته، وكيف تصرفت- بتوفيق الله- أثناءه.

ودخلت الجامعة، وبدأت الدراسة فى علم الاجتماع وعلم النفس، ومادة الأخلاق، وتاريخ الأديان.

وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود، أو الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود.

وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدَّد.. هو: أنها «علوم مجتمع» أى أنها لا تتقيد بوحى السماء، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلّهى، فهى تدرس موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية، وظواهر إنسانية.

---

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية.

وبدأنا فى الدراسة نسمع مختلف الآراء فى نشأة الدين ومختلف الآراء فى تفسير النبوة ، وينتهى الأمر برأى الأستاذ فى الموضوع .

وليس فى هذه الآراء – على اختلافها وتعددها – ما يتجه إلى أن الدين وحى من السماء ، أو أن النبى موصول الأسباب بالسماء ، وإذا انتظرنا من الأستاذ أن يصحح الوضع ، فيدلى فى النهاية برأيه مثبتاً الألوهية والنبوة هادماً للآراء الأخرى واصفاً لها : بأنها ضلال :

إذا انتظرنا ذلك منه فإننا نكون واهمين ، فإنَّه واحد من هؤلاء العشرات من الأساتذة فى هذه المواد وما شابهها المنغمسين فى تيار المادية . . لقد فسرت الجامعات الأوربية العلم على أنه القواعد التى تقوم على التخيل والملاحظة ، والتزمت أن تفسر وأن تشرح علم الاجتماع وعلم النفس وجميع الظواهر فى الآفاق ، وفى الأنفس ، على هذا الأساس ، والتزمت ذلك أيضاً فى تاريخ الأديان.

هذه العلوم بالذات وفروعها تتكاتف لتقود الإنسان متعاونة متساندة إلى الإلحاد.

إن للدين – فيما يزعمون – نشأة إنسانية اجتماعية ، وإن للخلق – فيما يرون – نشأة إنسانية اجتماعية ، وقد تواضع الناس على سلوك معين سموه : « فضيلة » وعلى سلوك آخر سموه « رذيلة » فدراسة الدين والأخلاق إذن تتجه إلى النشأة والمظاهر وعوامل التطور وظواهر التطور . . وليس للسماء فى الدراسة من نصيب ، اللهم إلا الوصف لظاهرة نشأت فى المجتمع !

وكل الظواهر والمظاهر فى هذه الدراسات اعتبارية نسبية متغيرة متبدلة لا تثبت على حال ، ولا تستقر على وضع ، لأنها فى كل يوم تتبدل حالاً بحال . . .

وهذه الأفكار تتكرر فى هذه المواد : تسمعها فى علم الاجتماع ، وتسمعها فى علم النفس ، وتسمعها فى دراسة مادة الأخلاق ، وتسمعها فى دراسة تاريخ الأديان ، وتسمعها فى دراسة العلوم المتفرعة من كل ذلك .

والشاب الذى انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه ، فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة ، والمثل العليا التى يقررها الدين ، وتقررها الأخلاق ، إذا كان الأمر كذلك فإن الطالب الذى يعيش فى أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومثله وقيمه ينتهى به الأمر فى الأغلب الأعم من الحالات – بأن تنهار هذه القيم فى شعوره .

ومن هنا كانت الظاهرة التى تجدها فى طلبة الجامعات فى أوربا من الاستخفاف بكثير

من العقائد ، وبكثير من القيم وينتهى الطالب بالإلحاد ، أو على أقل تقدير بالإيمان الكامن الذى لا فاعلية له ، ولا تأثير فى سلوك الإنسان .

وكنت – من غير ما شكٍّ – أَضِيقُ بكل ما يجرى فى هذه الدراسات ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى التفكير فى قيمة وآراء الأساتذة أنفسهم فى هذه المواد .

وبدأت أفصل بين عالَمين من المعرفة : عالَم الماديات كالطب والطبيعة والكيمياء ، وهى أمور تحكمها التجربة ولا تتعارض مع الدين ، ولا اختلاف فيها وعالم التفكير المجرد فى الدين والأخلاق والمجتمع .

وأخذت أدرس فى أناة هذا الجانب الأخير من الزاوية التاريخية ، فوجدت أنه منذ أن بدأ التفكير ، بدأ فى اللحظة الأولى الاختلاف فيه ، وبدأ كل زعيم من زعمائه ينتقد الآخرين فى عَصْره ، وكل مفكرى عَصْر ينتقدون المفكرين فى العصر السابق عليه . . وهكذا الأمر .

وما من شك فى أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرسون لنا ينتقد بعضهم بعضاً فى آرائهم ، ويخطِّئ بعضهم بعضاً ، كما ينتقدون السابقين عليهم ويخطئونهم ، وسيصنع من بعدهم صنيعهم فيوجهون إليهم النقد ويخطئونهم . . وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد أخذ « دوركايم » اليهودى يعمل بمعاول هدامة فى كل القيم والمفاهيم الدينية والأخلاقية ، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودى « ليفى بروهل » ينهج منهجه ويسير على طريقه فى علم الاجتماع وفى علم الأخلاق . . وكتاب « ليفى بروهل » : « الأخلاق وعلم العادات » – مثل واضح لهذا النوع من هدم القيم ، ومحاولة التطاول على كل المثل .

فكرت إذن فى إختلاف الآراء ، أو فى هدم بعضها البعض فى مواجهة كل ما يقوله الأساتذة ، وكنت أقول فى نفسى – فى مواجهة كل أستاذ – سيهدمك المعاصرون لك ، وسيهدمك الذين يأتون من بعدك .

ولكنى فى مواجهة كل هذه الآراء الإلحادية – كنت أتشبث بيقين لا شك فيه .

كنت أقول فى نفسى : إذا كانت الأخلاق نسبية ، فهل سيأتى الزمن الذى نعتقد فيه : أن الصدق رذيلة أو أن الشهامة شر ، أو أن الشجاعة سوء ، أو أن العفة جريمة . . . أو أن كذا ، أو كذا . . . ثم أعود إلى نفسى فأقول : كلا . . .

وأتساءل من جديد فى مجال العقائد : هل سيأتى اليوم الذى لا نقول فيه بوحدانية الله ؟ أو لا نقول فيه بإرادته وعلمه ؟

وأعود إلى نفسى وأقول : كلاَّ . . .

كنت أحاول دائماً أن أردِّد أن هؤلاء القوم يسيرون فى طرق لا تنتهى إلى غاية . . ما هدفهم من ذلك ؟

وما كنت أجد الإجابة عن هذا السؤال آنئذٍ ، لكنى عرفت فيما بعد أن هذا هو المنهج اليهودى الذى رسموه بعد تفكير طويل ، والتزموا القيام به بكل الوسائل ، أو بكل الطرق ، وهو منهج التشكيك فى القيم والمثل والعقائد والأخلاق .

يستخدمون هذا المنهج فى المجالات المختلفة لإفساد المجتمعات وتحللها أخلاقياً ودينياً ، ويضيفون إليه العمل على إثارة العمال على أصحاب رؤس الأموال ، وعلى إيجاد الضغائن والفتنة بين مختلف فئات الشعوب ، والثمرة التى يعملون دائبين على الوصول إليها : أن يكون المجتمع شاكاً مليئاً بالفتن ، وذلك سبيلهم إلى السيطرة .

إن اليهود يهدفون من وراء كل ذلك إلى السيطرة على العالم ، إنهم يحطمون القيم والمثل حتى لا يكون فى المجتمعات قوة من عقائد أو قوة من خلق ، ومن أجل ذلك تكاتفوا على أن تكون لهم الكلمة الأولى فى الجامعات فى علم الاجتماع وفى علم النفس ، وفى مادة الأخلاق ، وفى تاريخ الأديان ، ولم يكن من السهل علىَّ أثناء هذه الدراسة الاستمساك الواثق بالقيم والمثل التى نشأت عليها ، لولا عون من الله سبحانه ، وتوفيق منه ، ولولا لطف الله لصرت كواحد من هؤلاء الألوف الذين يدرسون فى الجامعات الأوربية ثم يخرجون منها ، وقد تحطمت فى نفوسهم المثل الدينية الكريمة .

وإنتهيت من هذه الدراسة ، ثم كانت المرحلة التالية هى مرحلة « الدكتوراه » .

وبعد تجارب هنا وهناك فى مجالات مختلفة من الموضوعات ، وبعد تردد بين هذا الموضوع أو ذاك – هدانى الله ، وله الحمد والمنة – إلى موضوع التصوف الإسلامى ، ولم يكن ذلك مصادفة ، وإنما هى هداية وتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، وهى عناية أعجز عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها ، وانغمست فى العنصر الآساسى فى موضوع الرسالة ، وهو دراسة الحارث بن أسد المحاسِبى .

انغمست فى جو مجموعة من المخطوطات لهذا العالم الكبير ، والصوفى المستنير ، ورأيت أنه قد مرت به – هو الآخر – صروف من الضيق لاختلاف الآراء وتفرقها ، وللحيرة فى أيها الأحق وأيها الأصوب ؟ . ثم هداه الله سبحانه إلى الطريق الأقوم .

ووجدت فى جو الحارث بن أسد المحاسِبى الهدوء النفسى ، أو الطمأنينة الروحية ،

ولكنه هدوء اليقين ، وطمأنينة الثقة بما يعلم .

فقد ألقى بنفسه فى معترك المشاكل التى يثيرها المبتدعون ، والمنحرفون ، وأخذ يصارع مناقشاً ومجادلاً ، وهادياً ، ومرشداً ، متخذاً الأساس الأصيل ، والمصدر الأول : القرآن والسنة ، متخذاً ذلك مقياساً وحاكماً متحكماً فى كل ما يقال أو يفعل .

وإنتهيت من دراسة « الدكتوراه » وأنا أشعر شعوراً واضحاً بمنهج المسلم فى الحياة ، وهو منهج : « الاتباع » .

إن ابن مسعود رضى الله عنه يقول كلمة موجزة عن هذا المنهج هى إعجاز من الإعجاز ، إنه يقول :

« اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » .

وهى كلمة حق وصدق ثرية بالمعانى الطويلة العريضة يبرهن آخرها على أولها ، والنهى فى وسطها يبرهن عليه أيضاً آخرها : أى اتبعوا فقد كفيتم ، والكافى هو الله سبحانه وتعالى الذى أوحى المبادئ والأصول والقواعد ، وطبق رسول الله ﷺ كل ذلك وبيَّنه ، ، فكان تطبيقه مقياساً وبياناً ومرجعاً يرجع إليه المختلفون .

« ولا تبتدعوا فقد كفيتم » : إن الذى يبتدع هو من لا كفاية له ، ولكن الله سبحانه وتعالى بعد أن أكمل الدين ، وأتم النعمة ، فليس هناك من مجال ، ولا من حاجة إلى الابتداع .

لقد كفانا الله ورسوله ﷺ كل ما أهمنا من أمر الدين .

وبعد أن قَرَّ هذا المنهج فى شعورى واستيقنته نفسى أخذت أدعو إليه : كاتباً ومحاضراً ومدرساً ، ثم أخرجت فيه كتاباً خاصاً هو كتاب : « التوحيد الخالص ، أو الإسلام والعقل » .

وما فرحت بظهور كتاب من كتبى مثل فرحى يوم ظهر هذا الكتاب ، لأنه هو خلاصة تجربتى فى حياتى الفكرية .

وكل ما كتبته عن التصوف ، وعن الشخصيات الصوفية ، فإنما يسير فى فلك هذا المنهج ، منهج الاتباع ،

وهذا المنهج يفترض :

١ – مقاومة الغزو الفكرى :

والغزو الفكرى له مجالات مختلفة : هناك الغزو الفكرى فى العقائد يتمثل فى كل هذا

التراث الضخم الذى نقل إلى اللغة العربية فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ، وهو تراث مختلف متعارض ، بل ومتناقض ، وهو نتاج بشرى بكل ما يتسم به النتاج البشرى من خطأ وضلال .

٢- والغزو الفكرى فى نظام المجتمع : الذى حاول أن يفرض علينا نظام المجتمعات الأوربية ،

وإذا نحن سرنا فى تياره ، فإننا نصبح ولاشخصية لنا ولا ذاتية ، ونصبح وقد فقدنا رسالتنا التى كلفنا بتبليغها للناس ونشرها وهى رسالة الإسلام التى من أجلها كانت الأمة الإسلامية ، وبدونها تصبح الأمة الإسلامية ولا مبرر لها .

٣- والغزو الفكرى فى مجال التشريع :

وهذا الغزو الفكرى فى مجال التشريع توجد أسسه وأصوله بصورة مشروعة فى مختلف الأقطار العربية ممثلة فى كليات الحقوق التى تنفق عليها الدولة وتعتمد شهاداتها .

وكليات الحقوق هذه دراستها غزو فكرى ، وإستعمار فكرى ودراستها : أثر من آثار الاستعمار التى لم تزل بعد أن زال الاستعمار .

وإذا كانت الأمم الواعية تحاول جاهدة أن تتخلص من وصمة الاستعمار بما فيها من شرور ورجس وآثام ، فإن الكثير من الدول العربية لم تحاول أن تتخلص من وصمة الاستعمار الصارخة الواضحة الممثلة فى هذه الكليات .

إن هذه الكليات تخصص عشرين ساعة فى الاسبوع للقوانين الأوروبية أى للفكر الأوربى فى التشريع ، وتفرض على الطالب أن يذاكره ويستوعبه ويحفظه ، ويتمثله ، وينجح فيه فى الامتحان .

أى أنها تفرض على الطالب أن يستعمر فكره الأوربيون فى مجال التشريع ، وأن يلغى ذاتيته الإسلامية فى هذا المجال ، وأن يكون تابعاً للأوربيين فى هذا المجال ، مقلداً لهم تجره عجلتهم ، مستسلماً لغزوهم ، وبينما تخصص هذه الكليات عشرين ساعة أسبوعياً للفكر الأوربى فى التشريع ، إذا بها تخصص ساعتين فقط للتشريع الإسلامى .

ولو أن هذه الكليات فى فرنسا أو فى إنجلترا لما فعلت أكثر من ذلك . . . ومنهج الاتباع : إذن يقتضينا أن ننظر فى جد فى أمر هذه الكليات من أجل أن تمثل الوطنية والإسلامية والعروبة .

وبعد : فإن منهج الاتباع هو الخلاصة الجوهرية لتجاربى الخاصة بالطريق الذى ينبغى

أن يسلكه المسلم فى حياته وإذا سار فيه المسلم فرداً ، أو سار فيه المجتمع مجتمعاً ، فإن الله – سبحانه وتعالى – يكتب له الهدوء والطمأنينة والسعادة ، لأنه يكون فى جوربَّانى ملئ برعاية الله سبحانه وتعالى وعنايته .

«ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم» . . .

مناجاة

رَبِّ قَابِلْنى بِنُورِ اسْمِكَ . . مُقَابَلَةً تَمْلأُ وُجُودى ظاهِراً وَبَاطِناً ، حَتَّى تَمْحُو مِنِّى خُطُوطَ ٱلأشْكَالِ كُلَّهَا . . فَيَبْدُو لى فى وُجُودى وَمِنْ وُجُودِى سِرَّ مَاكَتَبَهُ قَلَمُ تَقْدِيرِك مِنْ كُلِّ مُسْتَوْدَعٍ فى مُسْتَقَرٍّ ، ومُسْتَقَرٍّ فى مُسْتَوْدَعٍ ، فَلاَ يَخْفَىَ عَلَىَّ مَا غَابَ عَنِّى ، فَأَنْظُرنى بِكَ ، وَأَنْظُر مَنْ سِوَاىَ بِنُورِ اسْمِكَ ، فَأرى الْكَمَالَ الْمُطْلَق فى الْمَلِكِ الْمُطْلَقِ ، يَا مُودِعَ ٱلأَنوار قُلُوبَ عِبَادِهِ الأَبْرَار . . يَا سَرِيعُ يَا قَرِيب . . .

نظرة مؤمن واع
إلى المدنيات المعاصرة الزائفة

للعلامة : أبى الحسن الندوى

قصة يرويها المؤرخون العرب ، نمر بها مراً سريعاً عابراً ، تستحق منا لفتة كريمة عميقة ، وبها أفتتح حديثى هذا ، ولها اتصال وثيق بالموضوع ، وهى تدل على موضوعية نظرة المؤمن الواعى إلى المدنيات المعاصرة الزائفة ، لعلكم أيضاً مررتم بهذه القصة فيما قرأتم من كتب تاريخ الفتوح الإسلامية ، فى العصر الأول ، ولست أدرى هل استوقفتكم هذه القصة كما استوقفتنى ، وهل استلهمتم منها تلك المعانى الواسعة العميقة والنتائج الكبيرة الخطيرة التى استلهمتها ، وقد تلفت قصة أوحديث قارئاً من عامة القراء ولا يلفت ذلك الحديث قراءً آخرين ، وإن كانوا يفوقون القارىء الأول فى كثير من الفضائل العلمية والنبوغ وبعد النظر والعمق .

قصة رواها المؤرخون العرب ، على عادتهم فى بساطة واختصار ، ومن غير تعليق واستنتاج ، يقولون : إن « رستم » [١] - قائد قواد الفرس - طلب من سيدنا سعد بن أبى وقاص قائد جيوش المسلمين فى فارس أن يرسل إليه رجلاً يستوضحه عن أغراض هذا الغزو الذى لم يكن للفرس به عهد ، ولم يكن للعرب به شأن ، إنما عرف العرب بالانطواء على نفوسهم فى باديتهم قروناً طويلة ، فكانت هذه مفاجأة لم يكن الفرس يتوقّعونها . والعرب قد عرفوا بالقناعة والتقشف فى الحياة ، والانعزال عن العالم الخارجى فى عامة الأحوال ، وعدم الطموح إلى فتح إمبراطوريات جاورتهم ، فلما خرج العرب لأول مرة فى التاريخ الطويل يغزون فارس والروم ، استلفت ذلك نظر المتأملين ، ونظر الذين واجهوا هذا الغزو وجهاً لوجه ، فأرسل سعد ربعى بن عامر [٢] ، وكان « رستم » قد بالغ فى التزيين ، بل

---

(١) كان قائد الجيوش فى إيران ووزير الحربية فيها وكان من أبطال الفرس المعدودين الذين يضرب بهم المثل فى الشجاعة والشدة ، وهو الذى سعى فى تنصيب الملك يزدجرد الثالث سنة ٦٣٢م وقاد مهمة دفع العرب المسلمين حين قدومهم لفتح فارس وقتل سنة ٦٣٥ م (المحرم ١٤ هـ) فى يوم القادسية ، وكان من البيوتات السبعة التى تم شرفها ، وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف وهى علامة من تم شرفه فى ذلك العهد (ملخصاً من كتب التاريخ) .

(٢) كان من الصحابة كما صرح به الحافظ ابن حجر فى كتابه الإصابة فى تمييز الصحابة وكان من أشراف العرب ، ولاّه الأحنف على « طخارستان » راجع « الإصابة فى تمييز الصحابة » جـ ١ ، ص ٥٠٣ .

التهويل ، قد زين مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابى الحريرية ، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة وعليه تاج وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب [١] .

جاء ربعى بن عامر لا يكترث بشيء ، ولا يحتفل بهذه الزينة العظيمة ، التى لم يعهدها ، فجلس بجنب « رستم » كأنه جالس بجوار رجل من زملائه .

فقال « رستم » ما جاء بكم ؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه » [٢] .

أيها الإخوة : إننى لا أريد أن أتناول هذه الأجزاء الثلاثة التى جاءت فى هذه الكلمة البسيطة البليغة كلها شرحاً وإيضاحاً ، ولكننى أتناول شيئاً واحداً ، وهو قول ذلك المؤمن الواعى يخاطب « رستم » وهو فى غاية أبهته ، وفى زهوه ، وعلى قمة مجده ، يقول له : « من ضيق الدنيا إلى سعتها » إننى لا أستغرب قوله : « لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله » ولا من قوله : « من جور الأديان إلى عدل الإسلام » فقد كان كل ذلك حقيقة بديهية للمسلمين الذين غرس رسول الله ﷺ عقيدة التوحيد فى نفوسهم ، وحبّب الله إليهم الإيمان وزيّنه فى قلوبهم ، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ينظرون إلى جميع أنواع الشرك والوثنية وعبادة الإنسان للإنسان بعين الازدراء والاحتقار ، وكانوا يعافونها ، وكانت أذواقهم تمجها وتأباها ، وكان ربعى بن عامر يعرف أن ملوك فارس وأمراءها قد استعبدوا الناس ، وكانوا يعاملونهم معاملة الآلهة للعباد ، لا معاملة السادة للعبيد ، وكان الناس يكفرون [٣] لهم ويسجدون ، ويرون أنهم فوق البشر ، يجرى فى عروقهم دم إلهى مقدس [٤] وكانوا يؤمنون بأن الإسلام هو الشريعة العادلة ، وأن غيره من الأديان قد أصبحت جائرة تستعبد الإنسان للإنسان وتسخره للأحبار والرهبان ، وتقيده بأغلال وقيود وأحكام ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد قرأوا قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأُمى

---

(١) راجع « البداية والنهاية » لابن كثير جـ ٧ ص ٣٩ ، طبع بيروت ١٩٦٦ م .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير جـ ٧ ، ص ٣٩ طبع بيروت ١٩٦٦ م .

(٣) كفر الرجل للرجل : خضع بأن يضع يده على صدره ، ويطأطئ رأسه ، ويتطامن تعظيماً له .

(٤) راجع للتفصيل كتاب « إيران فى عهد الساسانيين » لآرتهر كرستون سين .

الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم »[١] وقرأوا قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله »[٢]. وقد آمنوا بذلك وشاهدوا آثارها فى الأمم والديانات التى عرفوها ، كنصارى الروم ، ومجوس فارس ، ويهود المدينة .

ولو قال ربعى بن عامر « لنخرج من شاء من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة » لم أستغرب ذلك ، لأنه آمن بالآخرة التى لا آخر لها ، وبالجنة التى لا حد لها ولا نهاية . وقد قرأ فى الكتاب الذى قرأه وآمن به وعاش فيه « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين »[٣]

ويقول رسول الله ﷺ فى غزوة بدر : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض[٤] »

وقال : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها »[٥] .

ولكننى أستغرب قوله : « من ضيق الدنيا إلى سعتها » هنا أتساءل : ما هو الضيق الذى كان فيه الفرس ، وما هى السّعة التى كان فيها العرب ؟ حتى ساغ لربعى بن عامر رضى الله عنه ، أن يقول : إنا معشر العرب المسلمين نريد أن نخرجكم أيها الفرس الأشقياء المنكوبون . من ضيق الدنيا إلى سعتها . هل كان ما كان فيه العرب يستحق أن يسمى السعة ؟ وهل كان ما كان فيه الفرس يستحق أن يسمى الضيق ؟ ونسأل التاريخ عن ذلك ، وهو شاهد عدل ، وتاريخ العرب وتاريخ الروم والفرس مسجل مدون ، لا يتطرق إليه الشك ، قد جاء برواية الرواة العادلين الموثوق بهم ، وتضافرت الروايات والشهادات على ذلك ، فإذا كان العرب يعيشون فى بحبوحة من العيش ، لم يكن ذلك مجهولاً أغفله التاريخ ، وإذا كان الفرس يعيشون فى ضيق لم يكن ذلك خافياً .

وقد قرر التاريخ وأجمع المؤرخون على أن الفرس والروم كانوا يعيشون فى رغد من العيش ، ويتقلبون فى أعطاف النعيم ، قد اتسعت لهم الدنيا ، ولانت لهم الحياة ، أما العرب فبالعكس كانوا يعيشون – حتى بعد الإسلام – فى شظف ، وكان العهد عهد خلافة

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٤ .

(٣) آل عمران الآية ١٣٣ .

(٤) رواه مسلم .

(٥) حديث متفق عليه رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

عمر ، وكان الناس على الفطرة– العربية الإسلامية– وكانت المدنية لم تتعقد ولم تتوسع بعد ، وكان عمر– وهو خليفة المسلمين– يعيش حياة متقشفة زاهدة ، ويأخذ الناس بالتقشف والتخشن فى الحياة ، وكانت هذه الحياة التى يحياها العرب فى الجزيرة حياة بداوة وتخلف فى نظر الفرس والروم ، وكانوا يأسفون على حالهم ، ويرون أنهم فى جهد من العيش وضيق من الدنيا .

فهنا نتساءل : ما هو الضيق الذى كان فيه الفرس ، حتى رثى له ذلك المسلم العربى ؟ وما كانت السعة التى فيها العرب ، حتى افتخر بها ذلك الصحابى ؟ هل هو ضرب من ضروب المبالغات الشعرية ؟ إن العرب لم يتعودوا ذلك ، إن الإسلام لم يبح لأىٍّ واحد من أفراد الأمة المسلمة أن يتبجح [1] ، ويبالغ هذه المبالغة الشعرية إنهم كانوا بعيدين كل البعد عن المبالغات والتول الجزاف ، كانوا أصحاب جد وصدق ، أصحاب صراحة وشجاعة ، فما هو الضيق ؟ إنه كان إذا دخل هذا المجلس بل إذا دخل فى حدود المملكة الفارسية العظيمة ، كان جديراً كل الجدارة بأن يسيل لعابه ، ويتحلّب فمه على هذه الزخارف التى كان يتمتع بها الفرس ، وعلى هذه الأنواع من الأطعمة والأشربة ، إنه لابد قد شاهد الكثير من نفائس الأشياء وغوالى الطُّرف ، ومظاهر الحضارة والأناقة والترف ، إنه واجه هذه المدنية الزاهية الزاهرة ، التى بلغت قمتها ومجدها ، فقد وسعها الفرس بذكائهم واختراعهم وبتجاربهم الطويلة الأمد ، وبمغانمهم الكثيرة وفتوحهم الواسعة ، وكانت فيها مدن بقصورها الفاخرة ، ومبانيها العظيمة ، وحدائقها الغناء ، ومتنزهاتها الساحرة ، وأسواقها الزاخرة ، وطرقها ووارداتها العظيمة ، فمن أى نوع كان هؤلاء العرب الذين تمردوا وقسوا على هذه المظاهر الفتانة ، المظاهر التى يجن بها الإنسان جنوناً ! ؟

إنه لا ينقضى عجبى من قوله : « إن الله ابتعثنا –أيها الفرس– لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها » لماذا ؟ لأنه كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء ، كما ينظر العاقل إلى دُمًى قد كسيت ملابس فاخرة جميلة ، إلى تماثيل قد أُحكمت صناعتها ، وتأنق صانعوها فى تصوير قسماتها ، وملامحها ولكنها على كل حال تماثيل من حجر أو جبس ، لا حياة فيها ولا حراك بها ، كان ربعى بن عامر– وهو أحد أفراد الجيش الإسلامى– ينظر إلى « رستم » كطائر مدلل فى قفص من ذهب ، وكان كسرى يزدجرد– الذى لم يره بعد كذلك كعندليب وكطاووس ، أو كأىّ أجمل طائر ، لكنه على كل حال ، طائر محبوس ، هذا

(١) يتبجح : يفتخر ويتعظم ويتباهى .

الطائر يوضع فى قفص ، والقفص من ذهب ، أسلاكه كلها من ذهب ، والإناء الذى يأكل ويشرب فيه الطائر ، من ذهب كذلك ، ولكن هل يحسد هذا الطائر أى إنسان عرف قيمة الحياة ، وعرف قيمة الحرية والشعور ، وعرف قيمة العقل وعرف قيمة العلم ؟ هل يحسد هذا الإنسان الذى أكرمه الله بالإنسانية ، يحسد هذا الطائر المدلل لأنه فى قفص من ذهب ، وهو فى بيت من مدر أو وبر ، بل نخطو خطوة أخرى هل نحسد كلباً مدللاً كلباً يربيه صاحبه الأوربى ، ويغذيه بأطايب الطعام ولذيذ الفاكهة ويسقيه اللبن ، ويقلده قلادة ذهبية ، وينيمه على فراش وثير ناعم ؟

إن نظرة ربعى بن عامر لم تكن تختلف عن نظرتنا إلى طائر مدلل فى قفص ذهبى أو إلى كلب مدلل عند سيد أوربى ، وذلك كله لأنه كان كبير الاعتزاز بالعقيدة التى آمن بها ، وبالدعوة التى حملها ، وبالشخصية التى ملكها ، وبالرسالة التى اضطلع بها ، وبالقرآن الذى درسه وشغف به وأحبه ، إنه كان معتزاً بالمعانى وبالقيم وبالحقائق التى هى أسمى من تلك الزخارف والمظاهر ، فلم تبهره هذه المدنية ، ولم تسحره مفاتنها إنه كان يعرف أن « رستم » ولو كان قائد قواد الفرس ، يعبد النار .

ثم إنه يعبد نفسه كما أنه يعبد سيده ، ويعبد عاداته .

وليست القضية قضية « رستم » أو قضية قائد من القواد ، أو أمير من أمراء الفرس ، بل هذا هو الشأن مع سيدهم جميعاً ، مع الإمبراطور يزدجرد ، إنه كان– يعرف أنه عبد لعاداته ، أو عبد لعبيده ، لا يستطيع أن يتحرك إلا بهم ، ولا يستطيع أن يصول ويجول إلا على أكتافهم : إنه ليس إنساناً حُرًّا ، بأى معنى من معانى الكلمة ، بل هو إنسان استعبدته الشهوات ، واستعبدته العادات ، واستعبدته الأعراف ، واستعبدته المظاهر ، واستعبدته النفس الأمارة بالسوء ، واستعبدته اللذات الجسدية الخسيسة – والمطالب الحيوانية الحقيرة .

أنتم تعرفون أن الإمبراطور يزدجرد » هو ثانى الامبراطورين العظيمين اللذين توزعا العالم المتمدن المعمور : كسرى الفرس ، وقيصر الروم ، وقد انتهت بى دراستى الحديثة للتاريخ المعاصر للفتح الإسلامى ، إلى أن إمبراطورية الفرس كانت تفوق الإمبراطورية البازنطينية كانت أوسع منها ، وكانت ولايات من الهند تحت حكم الفرس ، منها ولايات موغلة فى الهند ، ولكن هذا الإمبراطور العظيم ، قد روى عنه التاريخ أنه لما هرب من عاصمته « المدائن » ناجياً بنفسه ، وكان فى حالة اللجوء والفرار ، حمل معه ألف طاه (طباخ) هل تصدقون : ألف طباخ وألف مغن ، وألف قيم للصقور والنمور ؛ ثم كان يقول : ياويل

نفسى إننى لم آخذ معى إلا هذا العدد القليل من الأعوان ومن الخدم والحشم ، وكان يقول : أنا أستحق الرحمة والرثاء ! ! فهل يعد هذا الرجل رجلاً حرا سعيداً ، صاحب شخصية ، وصاحب إرادة ؟ ثم إنه لما لجأ إلى عجوز فقيرة وقدمت له الطعام وهى ترثى له ، وقد توسمت فيه الملك والشرف ، قال : لا أستطيع أن أستسيغ هذا الطعام حتى يُغَنّى لى (١) .

إلى هذه النقطة وصلت عبوديتهم ، ووصل رقيهم ، ووصل خضوعهم للعادات القاهرة ، إنه لم يكن يستطيع أن يتناول طعاماً وهو فى حاجة إلى الطعام : حتى يغنى له المغنون ، أما من غير أغنية ، فهو غير قادر على أن يتناول الطعام ! !

ونذكر أن « الهرمزان » – ملك الأهواز . وأحد كبار أمراء الفرس – لما أسر وجاء إلى سيدنا عمر رضى الله عنه فى المدينة ، كان – رضى الله عنه – نائماً فى المسجد متوسداً برنسه ، فاستيقظ بالجلبة ، ودار الحوار بينه وبين عمر – رضى الله عنه – وشعر « الهرمزان » بالعطش فطلب الماء ، فأتى به فى قدح غليظ ، فقال : لومِتُّ عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا ، فأتى به فى إناء يرضاه ، فشرب (٢)

ونبه أمير المؤمنين أصحابه على ذلك ، وحثهم على الحمد لله تبارك وتعالى والشكر على نعمة الإسلام ، الإسلام الذى حررهم من هذه العبوديات ، ومن هذه الأصنام التى يَنْحَتُها الإنسان بنفسه ، ثم يفرضها على نفسه ، ويقول إبراهيم عليه السلام : – « أتعبدون ما تنحتون » وهذه عادات وأعراف إنما نضعها نحن وننفق عليها ، إنه لا يعتبر الإنسان شريفاً إلا إذا سكن فى كذا من البيوت ، ولبس كذا من اللباس ، وظهر فى المظهر الفلانى ، وكان له من الأثاث والرياش كذا وكذا ، وإن الفرس فى العصر الذى نتحدث عنه ، كانوا يعيرون الرجل الكبير الذى لا تبلغ قيمة قلنسوته مائة ألف ، ومن بلغ نصف الشرف ، كانت قيمة قلنسوته خمسين ألفاً . . وكانت مِنْطقة كبرائهم تُقَوَّم بخمسين ألفاً (٣)

وهذه الأعراف والمثل كلها من مخترعات الناس التى « ما أنزل الله بها من سلطان » أليست هذه المدنية الأوربية مجموعة من الأعراف المصطنعة ، والقيود المزورة ، والمصطلحات الموضوعة ، والالتزامات التى التزمها الأوربيون ومن قلدهم .. ماهو

(١) راجع للتفاصيل « إيران فى عهد الساسانيين » لارتهر كرستن سين ، وكتاب المؤلف « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الفصل الثانى من الباب الأول .

(٢) تاريخ الطبرى ٤ / ٢١٧ ، وفتوح البلدان / ٣٧٤ .

(٣) راجع تاريخ الطبرى ٤ / ٦ – ١١ – ١٣٤ .

مصدرها ؟ ومن أين جاءت هذه الالتزامات التى التزمناها ؟ وقد خضعنا لتأثير هذه الحضارة وابتعدنا عن الطبيعة والتقشف الذى عُرِف به العرب ، وحث عليه المربون للأمة الإسلامية ، كعمر بن الخطاب رضى الله عنه (١)

وكان ربعى بن عامر بنظره البعيد ، وبإيمانه القوى وعلمه العميق ، وإن كان قصير النظر فى عين كثير من الذين يدعون العلم والمدنية ، ينظر الى هذه الالتزامات التى التزمها الفرس كقيود وأغلال ، وأطواق وأصفاد ، وهو لا يعرف منها الا قليلا ولكن الذى عرفه كان كثيرا ، وكان كافيا للشهادة ، وبذلك استطاع أن يقول : « الله ابتعثنا لنخرجكم من ضيق الدنيا الى سعتها » أيها الفرس لا تغرنكم انفسكم ، ولا تخدعنكم هذه البهرجة ، لا تخدعنكم هذه المظاهر الجوفاء ، انتم تعيشون فى قفص ، والقفص قفص وإن كان من ذهب ، والقفص قفص ، وإن كان من زجاج ، القفص قفص وإن كان واسعا سعة المدينة ولكنه قفص .. ما هو السجن ؟ لماذا يسمى سجنا ؟ ألا يكون واسعا ، ألا تكون فيه الغرف ، الغرف التى قد لا يوجد مثلها فى بيوت كثير من أوساط الناس ، لكنه سجن على كل حال ، وليس منا من يريد أن يعيش فى السجن ، مهما توفرت فيه أسباب الراحة والرفاهية ، ومهما اتسع وانفسح ، وكانت فيه حدائق وبرك ، ومتاحف ومتنزهات ! !

إن هذا العربى المسلم الواعى الذى كان بعيدا عن كل ظل من ظلال ما نسميه اليوم : (مركب النقص) ومن كل شبح من أشباح الانهزامية وفقدان الثقة ، لو عاش الى هذا العصر .. لنظر الى المدنية الغربية ، والمدنية الباذخة التى يعيشها العرب ، والمسلمون فى كثير من بلادهم ، لنظر إليها بنفس النظرة التى نظر بها الى المدنية الإيرانية ، والمدنية الرومانية ، ولرثى لأهلها كما رثى للفرس والروم ، وتمنى أن يخرجهم من ضيق الدنيا الى سعتها ، كما تمنى ذلك للفرس والروم .

كان هذا العربى يتنعم بالحرية التى عَرّفه بها الإسلام ، فنقله من دنيا ضيقة محدودة خانقة – دنيا المعدة والمادة ، ودنيا الشهوات والأغراض ، ودنيا العبودية والاستعباد ، دنيا الحياة الفانية الزائلة المكدرة بالهموم والأمراض ، والأحزان والآلام ، الى دنيا واسعة غير محدودة ، الى دنيا اليقين والإيمان ، الى دنيا القلب والروح ، والإيثار والمواساة ، والعدل

---

(١) فقد كتب إلى بعض عماله العرب وهم فى بلاد العجم : «إياكم والتنعم وزى العجم وعليكم بالشمس ، فإنها حمام العرب ، وتمعددوا (يعنى تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف) واخشوشنوا (أى تخشنوا فى المطعم والملبس) . . . إلخ ، رواه البغوى عن عثمان النهدى .

والمساواة ، والعطف والرحمة ، والطيب والصفاء ، والخلود والبقاء . . دنيا لا كدر فيها ولا فساد ، ولا خوف فيها ولا حزن ، إنه كان يتمتع بهذا النعيم الذى حُرِمه الفرس والرومان فى وقت واحد ، فكان ينظر الى مدنية الفرس والروم وحياتهم كقفص ضيق يختنق فيه الإنسان الحر الكريم ، المؤمن الواعى ، كما تختنق السمكة اذا أخرجت من الماء ووضعت على فراش وثير ناعم أو فى علبة ذهبية مزخرفة .

هذه نظرة أعرابى مسلم ، فكيف نظرتنا نحن أيها الأخوان المثقفون ، أيها المعلمون الكبار ، يا أساتذة الجامعات ، يا موجهى التربية والتعليم ، يا حملة الأقلام ، ياسائحُون فى أوربا ، كيف نظرنا الى المدنية المعاصرة الزائفة ، هل هناك نسبة بين نظرة ذلك الأعرابى الذى لا ثقافة له ، والذى لم يعرف العالم مثلما عرفنا ، ولم يدرس التاريخ مثلما درسنا ، ولم يعرف تجارب الأمم مثلما عرفنا ، ولم يقرأ الفلسفات ولم يتعمق فيها كما تعمقنا ؟؟ هذه نظرة رجل من العرب ملأه رسول الله ﷺ ، وملأه ثقة واعتزازا ، وإيمانا وشجاعة ، واحتقارا للدنيا ومعرفة للحقيقة ، كان يستطيع أن يقول لأكبر قائد فى العالم المعاصر « رستم » الذى كان اسمه يخلع القلوب ، وكان بعد كسرى ، وفوق كل قائد وأمير فى فارس ، كان يستطيع أن يقول له وبصوت ملؤه التحكم والتهكم : أنا أرثى لك يا رستم ، أنت فى الشقاء ، أنت فى ضيق من الدنيا ، ونحن العرب المسلمين الذين أبدانهم نصف عارية ، والذين أجفان سيوفهم بالية وثيابهم مرقعة ، ونعالهم مخصوفة . . نحن نعيش فى الجنة وأنت تعيش فى جهنم ! !

مالذى حمله على هذا القول ، القول الجرئ القوى ، الكلمة المدوية المجلجلة ؟ إنما هو ايمانه وثقته بشخصيته ، وبفضل رسالته والتعاليم التى أكرمه الله بها . . فكم منا أيها الأخوان . قولوا لى بصراحة : كم منا فى جامعاتنا ، وفى مكاتبنا وفى مكتباتنا ، وكم منا فى أدبنا ، وفى شعرنا ، وصحافتنا ، من يستطيع أن يخاطب أوربيا أو أمريكيا ، يعيش على فتات مائدتنا : نحن الذين يغذونهم . . فلولا هذا النفط الذى يفيض من جزيرتكم ، لما كان لأمريكا ، ولما كان لأوربا هذه الصولة . . الأوربى الذى أفلس فى ايمانه ، وفى خلقه ، وفى شخصيته ، وهو الآن مصاب بالجذام الخلقى ، وبذلك دخلت حضارته فى دور التفسخ والتعفن ، وهو لا يعرف لها علاجا ، ولا يملك لها زماما . . تاجر مرتزق مستأثر مستغل ، تنكر للمسيحية قبل مدة طويلة ، فانقطع آخر خيط كان يربطه بالسماء وبالنبوات والأخلاق ، بل بالعكس ننظر اليه نظرة تمجيد وإجلال ، نظرة تقديس وتأليه ، ونحتقر

نفوسنا وحضارتنا ومثلنا ودِيننا ، أمام حضارته ومثله ، ونذوب أمامه كما يذوب الندى أمام الشمس ، والشمع أمام وهج النار ، ذاك العربى المسلم الذى عرف قيمته وقيمة رسالته ، يقول لرستم « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من ضيق الدنيا الى سعتها » والله : إن هذه الكلمة لو وضعت على الجبال لزالت ، ولو وضعت على البحر لتبخر . فكيف بالقلوب ، كيف بالنفوس ، كيف بالضمائر ؟ هذه النظرة التى كان ينظر بها المؤمن الواعى فى عصر الدعوة الإسلامية الأول ، الى المدنيات المعاصرة الزائفة ، وهذه النظرة التى يجب أن ينظر بها المؤمن الواعى اليوم الى المدنية المعاصرة الزائفة .. هذا الذى أُريد أن أقوله اليوم وأتركه أمانة لكم فى هذه المدينة الجميلة الزاهية ، العاصمة التى قفزت من الصحراء كزهرة جميلة ، فوصلت الى هذه القمة من المدنية ، أُريد أن أقوله هنا ، وأُرسله الى أقصى ما أستطيع أن أرسله اليه .

يجب أن ينظر العرب ، يجب أن ينظر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، بهذه النظرة الواعية ، بهذه النظرة المؤمنة المملوءة بالاعتزاز ، الى المدنية الزائفة المعاصرة التى تحيط بنا ، لسنا متطفلين ، لسنا أدعياء[1] لسنا من الذين لفظتهم الأرض ، ما لنا نسب ، مالنا أصالة ، مالنا تراث ، مالنا حضارة ، مالنا تاريخ ، مالنا أجداد ، ولا أمجاد ؛ لا ، لا .

أيها السادة ، إننا أغنياء ، إننا معلمون للعالم ، إننا موجهون للأمم .. لكن ما هو الواقع المرير الأليم ؟ الواقع أننا مسيرون لا مخيرون ، أننا موجهون – بفتح الجيم – لا موجهون – بكسر الجيم – أننا تلاميذ لا أساتذة ، أننا متطفلون ، لسنا أصحاب موائد وأصحاب كرم ، لسنا أصحاب شخصية !؟

وجزى الله المؤرخين العرب المسلمين الذين حفظوا هذه الكلمة الخالدة التى تلقى الأضواء على شخصية العرب الأولين الذين أكرمهم الله تعالى بالرسالة الخالدة ، والتى كانوا معتزين بها كل الاعتزاز ، مكتفين بها كل الاكتفاء ، وكانوا يعتبرونها أفضل من كل شئ ، وكانوا يرون أن الشئ الذى لا ينبع من هذا المصدر ، ولا يرجع الى هذا الأصل أنه شئ ، لاقرار له ، وأنه شئ لاقيمة له !؟

هكذا يجب أن يكون موقفنا إزاء المدنيات ، إزاء التحديات الجديدة التى تتحدانا بها هذه المدنية ، وهذه الفلسفات المعاصرة ، ليكن موقفنا موقف عملاق معتدّ بكرامته معتز بشخصيته ورسالته ، مستخدم لعقله ومواهبه ، حرّ فى رفضه وقبوله ، مقتبس منها ما ينفعه

(١) أدعياء : جمع دعى وهو المتهم فى نسبه ، والذى يدعى غير أبيه أوغير قومه .

ولا يضره ، ويطابق أهدافه ومُثله ولا ينافيها ، ويضفى عليه قوة جديدة ، ولا يوهن هيكله وينخره ، لا موقف قزم فقد الثقة وخسر الإيمان ، وتضاءل وانضوى أمام كل شبح من أشباح القوة والسلطان ، وأحب الحياة وأشفق من الموت ، وبعُد عن ميدان المغامرة والطموح والأصالة والابتكار ، والامامة والقيادة ، فهو ينظر الى المدنية المعاصرة الزائفة كما ينظر طفل صغير واقف فى سفح جبل الى قُلَّتِه ، يتمنى لو ارتقى إليها !؟

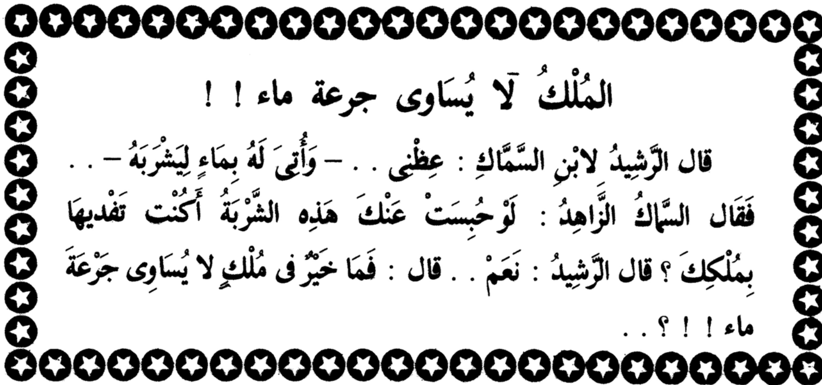
* * *

واختم حديثى هذا بمقطوعة شعرية لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، خاطب فيها الشباب المسلم المثقف ، الذى سحرته المدنية الغربية ، فجهل شخصيته ، وجهل أبعادها وأعماقها ، ومضمراتها ومكنوناتها ، فعشق المادة ، وعاش فى خوف من الموت .. يقول :

« عجبا لك أيها المسلم . تجلت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك ، الى متى تظل غافلا جاهلا ، وتجلس ضائعا عاطلا ، إنك نور قديم ، فأنر به الليل البهيم ، فى كمك اليد البيضاء ، فاعمل بها عمل الكليم[1].

تخط حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن ، وستكون ولا تكون .

هل تخاف الموت أيها الإنسان الحى الخالد ؟ لقد كان جديرا بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له وترصد به ، اعلم يقينا أن الكريم إذا وهب شيئا لا يسلبه ولا يسترده . . وليس حتف ابن آدم فى فراق الروح ، إنما حتفه فى ضعف الإيمان والحرمان من اليقين »[2].



المُلْكُ لا يُسَاوى جرعة ماء ! !

قال الرَّشِيدُ لابْنِ السَّمَّاكِ : عِظْنى . . – وَأُتِىَ لَهُ بِمَاءٍ لِيَشْرَبَهُ – . . فَقَال السَّماكُ الزَّاهِدُ : لَوحُبِسَتْ عَنْكَ هَذِهِ الشَّرْبَةُ أَكُنْت تَفْديهَا بِمُلْكِكَ ؟ قال الرَّشِيدُ : نَعَمْ . . قال : فَمَا خَيْرٌ فى مُلْكٍ لا يُسَاوِى جَرْعَةَ ماء ! ! ؟ . .

---

(١) يعنى بها موسى الكليم .

(٢) «روائع إقبال» ص ٩٨ بتعديل يسير .

الإسلام والمدنيّة الحديثة

العلامة أبو الأعلى المودودى

إن المدنية الحديثة التى يقوم فى ظلها نظام الحياة الحالى بمختلف فروعه العقائدية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والثقافية ترتكز على دعائم ثلاث ، هى المبادئ الرئيسية الآتية :

العلمانية أو اللادينية

القومية

الديمقراطية

ولنبحث كل واحد منها على حدة ، ولنبدأ بأولها :

العلمانية :

يمكن إيجاز معنى العلمانية فى عبارة واحدة هى : عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للأفراد ، وهذا يعنى أن العلمانية ترى أن العقيدة الدينية والهدى السماوى وما يتبع ذلك من اتباع الدين وطاعة الله ، والوقوف عند حدود شرعه لا يجب الالتزام بها إلاّ فى حياة الأفراد الشخصية ، أما ما عدا ذلك من شئون العالم فى حياة الناس فإنه يجب أن يعالج على أساس المادية البحتة ، وفق رغبات البشر ووجهات نظرهم وميولهم دون مراعاة الحياة وقد نشأت العلمانية نتيجة لرد الفعل الذى أصيب به الغربيون كراهية لِلاَّهوت [1] «Devenity»

الذى افتعله الكهنة فى الديانة المسيحية ، حيث وقف هؤلاء حجر عثرة أمام الفكر الواعى الذى يهيم بحثا وراء الحقيقة ، وحاربوا كل عقل متحرر مستنير ، فصنعوا لأنفسهم

---

(١) اللاهوت : تعبير اصطلاحى فى الفلسفة المسيحية عند القائلين بالاتحاد وعلى رأسهم النسطورية . ويراد به الجزء الإلهى الذى حل فى المسيح الإنسان الذى يعبر عنه الناسوت فيقولون : أنه اللاهوت حل فى الناسوت ، والأستاذ يريد باللاهوت هنا فكرة السلطة الإلهية التى ادعاها رجال الكنيسة لأنفسهم ، بسطا لنفوذهم – وتحقيقاً لمطامعهم وأهوائهم – بمحاربة كل فكر متحرر ، واتهامه بالزندقة والإلحاد .

بهذا الموقف أغلال مهانتهم . ولم يلبث الأمر طويلا حتى تحول العداء لفكرة اللاَّهوت الى نظرية مستقلة وأصبحت هذه النظرية حجر الأساس فى قاعدة المدنية الغربية .

قد نسمع كثيرا من يقول : الدين صلة بين العبد وربه . وهذه الجملة القصيرة هى العقيدة التى تدين بها المدنية الحديثة ، وهى تعنى أنه إذا كان الإنسان يؤمن بوجود إلٰـه يستحق العبادة وحده دون سواه . فله أن يعتقد ذلك على أن تكون عبادته فى نطاق حياته الفردية . وليس لهذا الإلٰـه ولأديانه السماوية سلطة على شئون العالم تتحكم فى مقدراته .

وعلى هذه العقيدة أرست المدنية الحديثة قواعدها ، وأقامت أنظمة حياتها بكافة العلاقات الإنسانية فى صلة الإنسان بأخيه ، متحررة من السلطة الإلٰـهية والتشريعية فى ميادين الحياة كلها : الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والقانونية ، والسياسية ، وشئون الحكم والإدارة والعلاقات الدولية ، فكل شأن من شئون الحياة البشرية التى لا حصر لها إنما يعتمد على معارف الإنسانية المكتسبة ، ويكون وفق رغباته الخاصة ، ولا ينبغى السؤال بعد ذلك عما إذا كان الله قد شرع للإنسانية فى هذا السبيل شيئا من المبادئ ، والأسس أم لا ؟ بل أصبح مثل هذا السؤال رجعية وتخلفا .

وليت الأمر اقتصر على التحرر من سلطة الله والدين فى الحياة الاجتماعية لتسلم الحياة الفردية التعبدية ، فإن فكرة التحرر من شريعة الله فى الشؤون الاجتماعية قد حولت حياة المجتمع ولا تزال تحولها الى حياة علمانية محضة . لأن هذه الثمرة التى يجنيها المجتمع العلمانى من التعليم اللادينى ، فمن الضرورى فى مثل هذا المجتمع أن يصبح الأفراد الذين يؤمنون بوجود إلـه يستحق العبادة : قلة نادرة . لاسيما الذين يتولون قيادة المدنية الحديثة ، بل ان هؤلاء – بصفة خاصة – قد استهانوا بالدين فى حياتهم الشخصية وتمزقت صلتهم الفردية بالله إرباً إرباً ، وانفصموا من عُراها انفصاما كاملا .

القومية :

كان لتعسف البابوات والقياصرة فى أوربا فعل سيئ نشأت عنه القومية ، حيث هب رجال الإقطاع من أمراء وملوك للخلاص من تحكم الكنيسة وقياصرة الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، أى السلطة الروحية والسلطة الزمنية ، فإن هاتين السلطتين قد فرضتا الحكم التعسفى لأمد طويل ، وتلاعبتا بمقدرات البلاد حتى تدهورت وأصبحت فى حالة يرثى لها ، ووضع لا تحسد عليه .

ولذا كان هدف الحركة القومية فى منشئها أن تعطى للقوميات المختلفة حرية ممارسة حق سيادتها فى أرضها بكافة الحقوق السياسية والتجارية والاقتصادية وغيرها ، حتّى تكون أداة فى أيدى السلطات الروحية والزمنية الموجودة فى العالم .

ومن هذه البداية السهلة البريئة فى ظاهرها تطورت فكرة القومية من رحلة الى أخرى الى أن صارت فى موضع القداسة ، وخرجت عن أن تكون وسيلة للتخلص من تحكم الكنيسة وقياصرة الامبراطورية ، وأصبحت هدفا وغاية ، بل غدت معبودة من دون الله الذى استبعدته العلمانية الغربية من قبل عن شؤون الحياة (١) .

وابتدعت القومية مناهج وقيما جديدة ، وجعلت مقياسها الوحيد الذى تزن به الأمور هو مصلحة الأمة ورغباتها . فأصبحت الفضيلة فى نظر المناهج القومية وأعرافها هى ما يحقق مصالح الأمة ويساير رغباتها ولو كانت لحمتها الكذب والتزوير والخيانة ، وسَداها الظلم والعدوان أو أى جريمة أخرى مما يعد فى الدين والأخلاق ذنبا لا يغتفر . وعلى النقيض من ذلك أصبح الشر هو ما يمس مصالح الأمة ويُسيئ إليها ولو كان فى حقيقته من أُسس واجبات الحق والعدل والصدق وسائر ما يعتبر لدى الدين والإنسانية فضائل خلقية . كما أصبحت بطولة الأفراد تقاس بما يقدمه أحدهم من تضحية لمصالح الأمة أيا كان نوع هذه التضحية ، بالنفس أو المال أو الوقت ، بل وبالفضائل الخلقية والمعانى الإنسانية والكرامة الشخصية كذلك . إذ أنه على هؤلاء الأفراد أن يكرسوا جهودهم متساندين فى سبيل تحقيق آمال الأمة وأمانيها لأن غايتهم الجماعية القصوى تنحصر فى جمع أكبر عدد ممكن من الأفراد الذين يلتقون فى صف واحد مُنَسَّقٍ ، وتتضافر جهودهم لرفع راية أُمتهم خفاقة مستعلية على رايات الأُمم الأُخرى .

وصار من المصطلحات المألوفة فى قاموس القومية :

الويل للمغلوب ، والغاية تبرر الوسيلة ، ولا مكان للضعيف تحت الشمس ، وقَتْلُ شعب آمن قضية فيها نظر ، واكذب حتى يصدق الناس . والاستعمار والوصاية والحماية والانتداب ، بل أصبحت هذه المصطلحات مبادئ سامية فى نظر القومية ، تتردد على الألسنة من حين لآخر طالما كانت فى خدمة المآرب القومية وتأمين رغباتها ومطالبها .

(١) وبهذا تتضح الصلة بين العلمانية والقومية فكلاهما قرين للآخر فى عوامل نشأته .

الديموقراطية . . أو الشعب مصدر السلطات :

نشأت فكرة الديموقراطية أول الأمر فى عهد الإقطاع بأوربا فى محاولة للتمرد على تسلط الإقطاعيين لإنقاذ جماهير الشعوب من مخالبهم . واذا كانت الديمقراطية تعنى أنه ليس لفرد أو أسرة او طبقة أىّ حق فى فرض إرادتها على الملايين من الناس واستخدامهم لإشباع المطامع الخاصة والأنانية الشخصية ، فلا شك أنها بهذا المعنى كانت صحيحة لا تعارض الحق غير أن الديمقراطية بجانب هذه الصورة السلبية تتضمن صورة إيجابية أخرى ، وهى : إشعار كل شعب فى كل بلد بأنه سيد نفسه وحاكمها .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لظلت الديمقراطية فى غاية من الصحة كذلك . ولكنها انحرفت وتحولت فيما بعد عن مفهومها الصحيح ، وأصبحت تعنى إطلاق العنان لتصرفات كل أمة لتحقق رغباتها كيف تشاء ؟ هذه الرغبات التى تمثل فى الواقع رأى الأكثرية ، لا رأى أفراد الأمة جميعا (١) وليس هناك من ضابط يضبط هذه الرغبات (٢)

فقوانين البلاد ومبادئها وانظمتها فى الاخلاق أو المدنية أو الاجتماع أو السياسة اخذ صفة الحق وتصير صحيحة مادامت تؤيد رغبات اكثرية الأمة ، وتأخذ صفة الباطل وتصير خطأً مادامت تجافى هذه الرغبات التى تتبع اهواء النفوس وتميل معها . ولهذه الاكثرية أن تسن من القوانين ما تشاء وتلغى ما تشاء ، وعلى الحكومة التى تمثلها ان تركز جميع امكانياتها لتحقيق الامانى القومية .

وخلاصة القول : فكل ما ساير أهواء الأكثرية ومالأها ، كان خيرا وحقا وعدلا ولو كان فى الواقع شرا وباطلا وظلما ، وكل ما جانب تلك الأهواء وجافاها كان محض شر ولو كان فيه الخير العميم .

ومن الطبيعى أنه فى ظل هذه الديمقراطية تتلاعب الأكثرية بالقوانين والأنظمة فتغير فيها وتبدل وفق الرغبات والأهواء لا وفق قواعد الحق الثابتة التى لا تخضع لتبديل أو تغيير المبادئ الثلاثة فى الميزان .

تلك المبادئ الثلاثة التى ذكرناها آنفا ، والتى ترتكز عليها دعائم الدولة القومية

---

(١) لأن الحكم يكون للأكثرية ، وتعتبر القرارات فى المجالس النيابية قانونية إذا أقرها أكثر الأعضاء ، ولا يشترط أن يكون القرار إجماعياً .

(٢) لأنه لا مقياس لها فى الخير والشر سوى رغبات الناس أنفسهم .

الديمقراطية العلمانية .

هى روح الحياة المعاصرة التى يعتبرونها أرق صورة وأمثل طريقة لأى نظام حضارى ، أو تنظيم اجتماعى .

ونحن نرى أن المبادئ الثلاثة خاطئة فاسدة . بل نعتقد من قرارة أنفسنا عن بصيرة وهدى واقتناع ، أنها منبع الشرور والمصائب والمآسى التى تعانى الإنسانية من جرّائها اليوم ما تعانيه ، وقد أخذنا على عاتقنا أن نحاربها ونحطمها ، حتى نجتثها من جذورها بكل ما لدينا من إمكانيات ووسائل .

أما كيف ننتقد هذه المبادئ ؟ وما منهجنا فى نقدنا ؟ فهذا يحتاج إلى بحث مستفيض ، ومناقشة مسهبة ، لا يتسع المقام للخوض فيها ، الا أننى سأحاول فى كلمات موجزة أن أفهمكم ذلك ، لتكونوا على بصيرة من أهمية معركتنا . تمكنكم من تقدير مدى خطورتها وضرورة القيام بها للوقوف فى وجه تيار هذه المبادئ .

نقد العلمانية :

أما العلمانية – وهى حجر الأساس لنظام الحياة العصرى – فإن فكرتها التى تقْصر العلاقة بين الإلـه والإنسان على حياة الفرد الخاصة وتستبعد هذه العلاقة من الحياة الاجتماعية فكرة فارغة غير ذات موضوع حتى تكون مجالا للتعقل والتفكير ، إذ أنه من الوضوح بمكان أن العلاقة بين الإنسان والإلـه لا تتعدى أحد أمرين بحال من الأحوال :

أحدهما : أن يكون الله هو خالق الإنسان وخالق الكون الذى يعيش فيه . وموجدهما وسيدهما ، وحاكمهما .

وثانيهما : أن لا يكون الله كذلك :

فإذا فرضنا التقدير الثانى ولم يكن الله هو الخالق السيد الحاكم فلا داعى على هذا التقدير أن تقوم أىّ علاقة خاصة معه ، لأنه من الخطل والحمق أن نعبد كائنا ليست له بنا علاقة ، ولا يستطيع أن يفعل لأَجلنا شيئا .

أما إذا كان الله هو الخالق السيد الحاكم للإنسان وللكون الذى يعيش فيه ، فليس من المعقول أن تقتصر أحكامه وتشريعاته على حياة الفرد الخاصة وتنتهى سلطته عندما تبدأ علاقة الفرد مع غيره فى الحياة الاجتماعية .

ولو ادَّعى إنسان أن الله هو الذى قصر سلطته وعلاقته بخلقه على حياة الفرد الخاصة فهذا الادعاء لا دليل عليه ، أما إذا كان الإنسان نفسه هو الذى ابتكر هذا الاستقلال فى حياته الخاصة وفرضه ، وأبعد السلطة الإلـهية عن حياته الاجتماعية فى الشؤون كلها ، فإنه بذلك يكون قد أعلن عصيانه وتمرده على خالقه وسيده وحاكمه .

وليس هناك أسخف لدى العقول من أن يدعى كل إنسان بمفرده أنه عبد الله وخادم له ومتّبع لدينه ، حتى إذا ما اجتمع مع غيره من الأفراد وكَوَّنَوا مجتمعا وشكلوا دولة ، تنكروا لعبوديتهم لله واستبعدوا دينه من حياتهم ، إذ ليس من المعقول أن يذعن كل جزء من أجزاء المجموع على حدة ، العبودية لله ، فإذا تكونت من الأجزاء كلها وحدة مجتمعة اصبحت خارجة عن هذه العبودية ، ولا يقول بهذا إلا من أصيب بالجنون .

واذا لم تكن هناك حاجة الى الله وهديه فى حياتنا العائلية ، ولا فى شؤون بلدتنا ولا فى حقل المدرسة والكلية ، ولا فى السوق والمتجر ، ولا فى البرلمان (مجلس الشورى) ومقر الحكم ، ولا فى المحكمة ، ولا فى الإدارة الحكومية ، ولا فى المعسكر الحربى ، ولا فى مراكز الشرطة ، ولا فى ميدان القتال ، ولا فى مؤتمر الصلح – إذاً لم يكن هناك حاجة الى الله وهديه فى هذا كله وفى نظائره من شؤون الحياة فأىّ معنى من معانى العبودية يبقى للإلـه المعبود ؟ وأىّ عقل يستسيغ آداء طقوس تعبدية لإلـه ابعد سلطانه عن الحياة كلها بتلك الصورة فلا يأخذ بيدنا فى أىّ ناحية من النواحى . وقد عُطّل عن خصائص ألوهيته ؟

هذا من الناحية العقلية ، أما من الناحية العملية فإن هذه الفكرة تجر الانسان إلى عواقب وخيمة ، ونتائج رهيبة ، لأن واقع الحياة يشهد بأنه لا تكاد علاقة الإنسان بالله تنقطع فى ناحية من نواحى الحياة حتى تتوثق علاقة الشيطان معه فى هذه الناحية .

ثم إن ما يدعونه من الحياة الفردية الخاصة ليس إلا مجرد وهم ، فالإنسان كائن اجتماعى ، وحياته فى كافة مراحلها حياة اجتماعية ، إنه يظهر إلى الوجود نتيجة لعلاقة اجتماعية بين الأبوين ، ويفتح عينيه فيجد نفسه بين أفراد أسرته ، وحين يشب ويترعرع بمجتمعه ، تتوثق علاقته بأبناء بلدته ومواطنيه وأمته ، وتتوثق بما يسود هذه الأمة من نظام ثقافى واجتماعى واقتصادى وسياسى وهذه العلاقات المتعددة المتشعبة التى تربطه بالآخرين وتربط الآخرين به لا تحقق رفاهة الفرد ومجتمعه ، ولا تحقق للبشرية كلها نجاحها وتقدمها وازدهارها ، الا إذا كانت على أُسس صحيحة صالحة ، والله وحده هو الذى يعطى الإنسان أسساً عادلة نزيهة ثابتة توثق هذه العلاقات وتؤكدها وتثبت دعائمها ، وماذا

يبقى للإنسان من تعاليم اذا حرم نفسه من مصادر الهداية الثابتة ، والتوجيه السديد الخالد ، والعدالة السماوية ؟ سوى الهوى والشهوة والعلم الناقص والخبرة القاصرة ؟ ومادام الانسان بطبيعة خلقته لم يكن – ولن يكون – كائنا كاملا فإن أحكامه وتشريعاته لن تكون أبداً كاملة لا يعتورها النقص .

لهذا فإن المجتمع الإلحادى اللاديني الذى يحتل فيه الإنسان مركز المشرع الموجه ، نرى مبادئه توضع لتلغى من حين لآخر وفق رغبات الشعب المتغيرة ، وأهوائه الجامحة .

وفى استطاعتنا – من هذه الثغرة الكبيرة – أن نرى كيف تسربت مظالم الاستبداد ، وآثام الإلحاد ، وفقدان اليقين والثقة ، الى كل ناحية من نواحى العلائق الإنسانية ؟ .

وكيف صبغت أنانية الفرد والطبقة والجنس كل أعمال البشر وظللتها بظلها القاتم الرهيب .

ولو أننا تتبعنا العلاقات القائمة بين شخصين ، أو جماعتين ، أو شعبين ، فإننا لن نجد صورة من صورها قد خلت من شرور الأنانية وأوضارها ، إذ أن كل شخص ، أو طبقة أو جماعة ، أو شعب أو دولة – كلٌّ فى نِطَاق تصرفاته ومدى سلطته – وضع مبادئ بأثرة بالغة تلائم رغباته ، وتبارك أهواءه ، دون أن يبالى بما عسى ان يكون لها من الآثار فى غيره من الأشخاص ، أو الطبقات ، أو الجماعات ، أو الشعوب ، أو الدول ، والشيء الوحيد الذى يلقون له بالاً عندما يتخذون لأنفسهم ما يتخذون من قرارات هو (العصا) رمز القوة والعنف – وحيث وجدت (العصا) تهز رأسها فى يد شخص أو طبقة أو شعب أو دولة يبدأ الآخرون يتقلص ظلهم ، وتتراجع أيديهم وأرجلهم عن المكان الذى امتدت إليه ظلما وزوراً إلى المكان الذى ينبغى أن تكون فيه وتقتصر عليه ، ومن الواضح أن (العصا) لن يكون لها شيء من الرُّشد أو الشعور بالعدل والإنصاف ، وانما هى قوة عمياء ، وهكذا فإن التوازن لا يقوم فى الدنيا أبداً على أساسها ، والذى تكون (عصاه) أكثر متانة وقوة من (عصا) غيره ، هو الذى يحتل مكانة الآخرين ، ويذهب بسلطانهم ، ويفرض سيْطرته عليهم ، وهلم جرًّا .

هذا ، لأن الذى يتبنى العلمانية ويتخذها نظام حياته ينحدر بنفسه الى الهاوية ويصير عبداً لرغباته وأهوائه ، متحررا من كل قيد ، سواء كان فرداً ، أو جماعة ، أو أمة أو مجموعة أمم (١).

---

(١) العلمانية فى ظاهرها مصدر صناعى من العلم، وربما تبادر إلى الذهن أن المقصود بها قيام الدولة على أسس=

....

= علمية ، إلا أن مفهومها الحقيقى هو ما ذكره الأستاذ المودودى ، وكان من شعارها إقصاء الدين عن شؤون الحياة الاجتماعية : دع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر – والدين لله والوطن للجميع ، والمستغربون فى ديار الإسلام ينحون هذا المنحى – والحق الذى لا مراء فيه .

(ا) أن الإسلام لا يعرف الكهنوت ، ولا يقف حجر عثرة فى وجه العقل البشرى المستنير ، وإنما ينميه ويوجهه ويرفع مكانته ، وقد لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى الكون وما فيه ، وحث على تدبره والإفادة منه ، وجعل ذلك سبيل الاستدلال الفطرى على توحيد الله تعالى .

(ب) وأن الإيمان بالله يقتضى تحكيم شريعته فى الحياة كلها ، لا فى حياة الإنسان الخاصة وحدها ، وإلا كان كفراً صريحاً .

(جـ) وأنه ليس هناك شئ لله وآخر للناس ولو كانوا قياصرة ، لأن الكون كله لله والإسلام يجعل الحياة كلها متجهة نحو خالقها فى اتباع هديه وابتغاء مرضاته أى أن الحياة الاجتماعية كالحياة الفردية تقوم على الهدى الإلهى فى كافة أنظمتها لتسير على النهج الأقوم متجهة نحو الحياة الأفضل ، وهذا هو ما نعنيه عندما نقول : الإسلام دين ودولة ، فمتى يعى الناس الحق ، وينيبون إلى الله بالإذعان لشريعته ؟ !

الكتب

أَعَزُّ مَكَانٍ فِى الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ (١)

وَخَيْرُ جَلِيسٍ فى الزَّمَانَ كِتَابُ

« المتنبى »

---

(١) السوابح : الخيل لسبحها بيديها فى سيرها .

من ضيق الوطنية المحلية إلى سعة الإسلام العالمية

الأستاذ أحمد حسين

حب الوطن غريزة كامنة فى النفس ، والبعض يتصور أن هذا الحب من قبيل الشعر أو التمسك بالشعارات ، حيث إن هذه المحبة هى جزء من كيان الإنسان ، إنها شيء جِبِلِّى فطرى ، وكما يتكون الإنسان ماديا فى طفولته من أمه التى تغذيه من ذات نفسها ، فإن الإنسان يتكون بعد ذلك من البيئة المباشرة المحيطة به ابتداء من هوائها ومائها ، حتى كافة أنواع الأغذية والملبوسات ، التى تهيئوها البيئة ، فصلة الإنسان بمسقط رأسه هى من قبيل صلة النبات بتربته .

فحب الوطن أحد مكوِّنات أى إنسان ، ومن يخلو قلبه من هذا الحب والإعزاز فهو إنسان شاذّ لا يؤمن جانبه ، ومن هنا قيل : «إن حب الوطن من الايمان . .»

ومما يروى عن سيدنا رسول الله ﷺ ، أنه وجه الحديث عند هجرته مخاطبا مكة قائلا «اللهم إنك تعلم أن مكة هى أحب بقاع الأرض إلىّ ، ولولا أن قومكِ أخرجونى لما خرجت» ثم دعا الله قائلا : «اللهم حبب إلينا يثرب كحبنا لمكة» (١).

وروى ان المهاجرين ، مرض أكثرهم بحمى المدينة أول وصولهم إليها .

والخلاصة ان حب الوطن ليس من قبيل الشعر أو المناداة بالشعارات ، وإنما هو كما قدمنا بعض مكونات الإنسان .

ويبقى بعد ذلك أن هذا الوطن يكبر ويتسع وينمو بنمو الإنسان ، فوطن الإنسان الأول وهو فى أول مراحل الطفولة ، هو أمه ، فهو يقضى فترة من حياته داخل رحمها الذى يشبه أن يكون جُنَّة بالنسبة له ، ويبكى الطفل ويصرخ ويتألم وهو يغادر هذا الوطن المحدود إلى ما هو أكثر رحابة ، وينمو الطفل وتنمو دنياه ، أو بالأحرى وطنه معه – ويصبح البيت ثم الحارة ومدرسة القرية فالقرية بأكملها وطن الصبى ، وهكذا يكبر وطن الإنسان .

---

(١) أو كما قال ، فقد جئنا بالمعنى .

وينمو بقدر نمّو الإنسان وحظه من العلم والمعرفة وطول العمر ، ومدى ارتباطه ببعض البقاع والأمكنة .

حبى لمصر :

سُقت هذه المقدمة بين يدى ما سوف أقوله من تعلق اليوم بالعالم الإسلامى شرقه وغربه ، واعتزازى ، بل وفرحى بكل بادرة خير أسمع عنها لأى مسلم فى أى ركن من أركان العالم الإسلامى ، بعد أن أصبح هذا العالم الكبير هو وطنى بكل ما تحمله كلمة الوطن من معنى بالنسبة للمواطن .

ولقد كان حبى لمصر مضرب المثل ، والتندُّر فى بعض الأحيان كأن يقال « مجنون مصر » فقد كانت صيحاتى « المجد لمصر ، مصر فوق الجميع » .

واليوم أصبح كل فكرى وخواطرى مع الإسلام والعالم الإسلامى ، تاركا لغيرى وخاصة من الشباب أن يحبُّوا مصر ويَتدلَّهوا فى حبها ما شاءوا ، حيث أصبح ما أُحبه فى مصر هو بمقدار ما وعى شعبها الإسلام ، وما عمله الأزهر فى المحافظة على علوم الإسلام ، وما فعلته جيوش مصر من إنقاذ للعالم الإسلامى من الصليبيين والتتار ، وما فعلته وسوف تفعله عن قريب فى دفع غارة الصهيونية والماركسية على الإسلام .

أى إن حبى لمصر أصبح مرتبطا بدورها فى الإسلام .

نموٌّ طبيعى :

وقد يرى البعض فى ذلك بعض التحول والتغير ، ولكنه فى الحقيقة لا يعدو أن يكون تطورا طبيعيا تفسره المقدمة التى سقتها ، فحيث ذوى جسدى ، ولم أعد سوى فكر فقد أصبحت أتعلق بالفكر . . . ولما كان فكر مصر إسلاميا ، فلم أعد أتجاوب إلّا مع الإسلام ، ولم تعد اهتماماتى بالشئون المحلية الضيقة ، فهذه أصبح لها رجالها وشبابها يعالجون قضاياها ومشاكلها ، وليس بقدرتى ، أن أعالج أو أسهم فى علاج العالم الإسلامى عن غير طريق الفكر أبسطه على صفحات ، مجلة الأزهر ، ليصل الى ارجاء العالم الاسلامى . .

حتمية الاسلام بالنسبة للعالم :

ولقد سمعنا فيما سمعنا عن حتمية « الحل الاشتراكى » وهو قول سرعان ما كشفت الأيام

عن زيفه . . لا أقول فى بلادنا ، فهى بلاد إسلامية والحمد لله ، ولكن زيف هذا القول ثبت فى بلاد يتزعمها أحد زعماء الماركسيين ، وأعنى به المارشال «تيتو» فى يوجوسلافيا ، فقد حدثنى الثقة الأمين ، وكان قد زار ولاية البوسنة والهرسك لحضور الاحتفال بافتتاح أول كلية إسلامية فى أوروبا كلها ، حدثنى عن شباب المسلمين فى يوجوسلافيا وكيف يشتعلون حماسة ، ويتأججون بنور الإسلام ، ويرون فى كليتهم ، الفصل الأول فى كتاب جامعة يوجوسلافيا الإسلامية ، أى بعد نصف قرن من انتصار الماركسية يخبو ضوؤها فى أحد معاقلها ويزدهر الإسلام لا الماركسية ، ولست أُريد أن أُسهب طويلا فى سرد البيانات والأمثلة التى أجهزت على حكاية حتمية الحل الاشتراكى ، وحسبى أن أذكر أن الاتحاد السوفييتى نفسه راعه تناقص الانتاج باستمرار ولم يجرؤ بطبيعة الحال أن ينادى بالعودة إلى النظام الرأسمالى ، فاكتفى بأن فتح بابه لرؤوس الأموال الأجنبية ، وبدأ هو فى اتباع أساليب الانتاج الرأسمالى من حيث إطلاق الحوافز وغريزة التملك ، وهكذا انتهت خرافة الماركسية بعد ثلثى قرن من التطبيق .

الاسلام فى مواجهة الإلحاد :

وفى إيمانى أن موجة الإلحاد لن تزول من الكون ، فقد كانت على مرّ التاريخ وستبقى وقد حدثنا القرآن الكريم عن الدهريين ، «وما يهلكنا إلا الدهر» ولكن الشىء المحقق أن هذه الموجة من الإلحاد والإيمان بالمادة فى طريقها إلى الانحسار ، بعد أن بلغت ذروتها ، ولم تلق الإنسانية منها سوى التعاسة ومزيد من التعاسة ، وليس سوى الإسلام مَن يعيد البشر إلى التوازن بين الروح والمادة ، وهذا التوازن هو إكسير الحياة ، وهو الحل الطبيعى لمواجهة مشاكلها ومصاعبها ، فقد نعمت أُوروبا وأمريكا بالحياة والتقدم والحضارة ، عندما اعتنقت تعاليم الإسلام (من حيث لا تدرى) ونحن نشهد اليوم بدء انحسار ذلك كله عنها ، بعد أن بعدت عن تعاليم الإسلام التى تقوم على الجانبين الروحى والمادى معا ، وأوغلوا فى المادية والإلحاد .

ولماذا الاسلام :

وقد يبدو كلامى غريبا بعض الشىء ، وأنا أتحدث عن أُوروبا وأمريكا ونجاحها بعد أن اعتنقا تعاليم الإسلام ، حيث المشهور والمعلوم والمتفق عليه : أن أُوروبا وأمريكا تدينان

بالمسيحية ، والحقيقة انهما يدعيان ذلك لمجرد المكابرة والكبرياء فى مواجهة العالم الإسلامى ، والحقيقة التى لا مراء فيها أنّه ليس لكل من يدعى المسيحية اليوم سوى الاسم ، أما السلوك والتعامل والأخلاق والتشريع والنظم (واعنى الخير والحسن من كل ذلك) فهو فى حقيقته من صميم التعاليم الإسلامية – وإن ادَّعى القوم خلاف ذلك – ويكفى أن تعلم أن المسيحية براء من كل ما تراه ، وماكان من حضارة وتقدم ، وقبل أن أزيدك شرحا فأُريد أن أُسرع لأجعلك تطمئن : أننى لا أُلقى الكلام على عواهنه ، ولست أُسرف فى إصدار أحكامى ، فضلا عن أن أتكلم بغير علم .

عصور الظلام :

فالأوربيون يطلقون على العصر الذى سادت فيه المسيحية أوروبا ، وبلغ سلطان الكنيسة الى ذروته ، وكان كل إنسان ابتداء من الراعى حتى الامبراطور محكوما بالمسيحية ، هذا هو الوقت الذى يسميه « الأوربيون المسيحيون » – وليس نحن – بـ « عصور الظلام » وقد تتصور أن التعبير بـ « العصور المظلمة » هو مجرد كلمة بيانية لا تعنى شيئا ، كلا يا صديقى ، لقد كانت ظلاماً بمعنى أنها كانت عصور جهالة وقذارة وعفن ، ولن أُسهب فى ذلك ، والآطال بنا المدى[1] .. وحسبى أن أذكر واقعة واحدة ترمز لذلك كله ، فقد أرسل هارون الرشيد ، لشارلمان سيد أُوروبا كلها ، ساعة تعمل بقوة الماء ، وذلك على سبيل الهدية ، فاعتبر كلُّ مَن يحيط بشارلمان هذه « الساعة » شيئا من صنع الجن والعفاريت ، ولكى تكمل القصة فقد بقى أن تعرف أن شارلمان هذا لم يكن يعرف أن يكتب اسمه ، فكان يوقع مراسيمه وأوامره وخطاباته بأن يرسم علامة الصليب ، ولا عجب فى ذلك فقد كان هذا شأن الرقىّ المسيحى ، لأن الديانة المسيحية كما سوف أُحدثك عنها فى مقال قادم ، لا يمكن أن تنتج إلا هذا ، وحسبك أن تعلم أن شعار الكنيسة فى ذلك الوقت كان هو « اطفئ سراج عقلك واعتقد » واطفأ المسيحيون سراج عقولهم ، فأُغلقت المدارس وتوقف التعليم وساد الظلام .

وجاء الاسلام :

يُعلى من شأن العقل ، ويدعو إلى العلم والفكر ويطهر العقيدة ، عقيدة التوحيد ، بما يجعلها قوة محركة تدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والتعمير ، وكل مظاهر الرقىّ والتحضر

(١) إقرأ للمؤلف كتاب « تاريخ الإنسانية » أوكتاب « الأمة الإنسانية »

الإنسانى وسرى ذلك كله إلى أوروبا ، فقد كان المسلمون هم الذين سحقوا قوة الفرس والروم فى سنوات معدودات فأثبتوا بذلك أنهم الناس ، وإن دينهم هو الحق ، ولو لم يعترف الإسلام بالمسيحية لزالت كما زالت ديانة فارس الوثنية ، ولكن القرآن أقرّ المسيحية واليهودية وأن جوهرهما هو جوهر الإسلام ، ولكن الكهنة (أى الكنيسة) هى التى شوهت جوهر الدينين ، وحرفت كتبهما ، بل جاءت بكتب غير الكتب ، وبعد أن اطمأن المسيحيون واليهود إلى أن القرآن يعترف بهم ، أسرعوا يصلحون من أحوالهم ، ويطهروا معتقداتهم ، فإذا كان الإسلام ينادى بوحدانية الله المطلقة فليكن هذا قول المسيحيين ، وليؤوِّلوا حديثهم عن الآلهة الثلاثة ، أنها صفات وأسماء لله ، ولكن الأساس هو «وحدانية الله» فعندما نسمع أىّ مسيحى يقول لك بالفم المليان «الله الواحد» فاعلم أن ذلك هو أثر الإسلام .

وإذا كان الإسلام يحارب الأصنام والتماثيل والنُّصُب ، فليفعل المسيحيون ذلك ، فكانت حركة «اللاأيقونات» فى بيزنطية وهى تحطيم التماثيل فى الكنائس ، وكان الإصلاح الدينى فى أوروبا ، على دعامتين من دعائم الإسلام ، وهما : لا وساطة بين العبد والرب ، ولا أصنام فى الكنيسة .

مبادئ السلوك والنجاح فى الحياة :

واقتبس المسيحيون كل تعاليم الإسلام فى السلوك ومقومات النجاح فى معركة الحياة ، فالقوم الذين يقدسون القذارة ، نقلوا من المسلمين النظافة ، والقوم الذين أطفأوا سراج عقولهم ليكونوا مسيحيين طيبين أناروا هذه العقول ، والقوم الذين كفُّوا عن كل عمل فى انتظار «يوم الدينونَة» الذى أنبأهم «بولس أبو المسيحية الأُوربية» أنه على الأبواب ، رموا بهذا القول وراء ظهورهم وراحوا يعملون كما يعمل المسلمون .

والقوم الذين لَخّصوا كل عقيدتهم فى الإيمان بأن المسيح قد خلّصهم وفداهم بنفسه ، فلا عليهم من فعل أىّ شىء .. طرح المسيحيون هذا المعتقد وتحلوا بأخلاق القرآن من استقامة وفضيلة وأمانة .

وعلى هذه الأسس التى هى دعوة الإسلام ، وليست هى دعوة اليهودية والنصرانية اللتين كانتا قد انتهيا إلى أن يكونا دينين وثنيّين ، مائة فى المائة نهضت أُوروبا وكان منها هذا الذى كان باعتناق التعاليم والمبادئ الإسلامية .

واليوم لا علاج سوى الاسلام :

واليوم إذ يعود الأوربيون والأمريكان بالتدريج الى أصولهم فترى شبابهم يعود ليقدس القذارة وتتدهور العلاقات الجنسية الى ما دون الحيوانية ، فليس سوى الإسلام والمسلمين مرة أخرى ليقودوا البشر .

إن الإسلام يقدم لبنى الإنسان فى العصر الحديث متطلباتهم فى العالمية التى تتسع لبنى البشر كافة على اختلاف أجناسهم ، والعالم يتطلع لشجب التمييز العنصرى ، والعالم يتطلع لإعادة التوازن بين الروح والمادة ، وكل ذلك متحقق فى الإسلام .

« يا أيها الناس إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وليس مطلوبا من المسلمين ليعودوا ليقودوا العالم ويكونوا صناع حضارته : إلا أن يعودوا لتعاليم دينهم التى ساد كل مَنْ تمسك بها واعتنقها ، وذلّ كلٌّ من هجرها وانحرف عنها .

وهى : النظافة ، والاستقامة ، والجد ، والعمل ، والعلم ، والفضيلة .

هذا هو ما يريده العالم اليوم ، وما يحققه الإسلام ، ومِن هنا تعلق قلبى به ، ولذلك فسأكون ما بقى من حياتى لأجل الإسلام والمسلمين ، وهذا هو النمو الطبيعى من « ضيق الوطنية المحلية ، إلى رحابة الإسلام العالمية » . .

أحمد حسين

الله

سُئِل عَلِىٌّ بن أبى طالب « بِمَا عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟ » ، فَأَجَاب : « عَرَفْتُهُ بِمَا عَرَّفنى به نَفْسُه ، لاَ يُدْرَكُ بالْحَواس ، وَلاَ يُقَاسُ بالنّاسِ ، وَلا يُشبَّهُ بالنَّاس ، قَريبٌ فى بُعْدِه ، بَعِيدٌ فى قُرْبه ، فَوْقَ كُلِّ شَىْء ، ولا يُقَالُ تَحْتَهُ شَىْء ، وَأَمَامَ كُلِّ شَىْء ، وَلاَ يُقَال أَمَامَه شَىْء ، وَهُوَ فى كُلِّ شَىْءٍ لاَ كَشَىْءٍ فى شَىْء ، فَسُبْحَانَ مَنْ هُوَ هَكَذا ، وَلاَ يَزَالُ هَكَذَا ، وَلاَ يكون هَكَذَا أَحَدٌ سِوَاه ، مَشْهُورٌ بالآيات ، مَنْعوتٌ بالصِّفَات ، عَدْلٌ لاَ يَجُورُ وَلاَ يَحِيف ، تَرَاهُ القُلُوب بِحَقَائِقِ الإيمَانِ والأَنْوَارْ ، وَتَسْتَدِلُّ عَلَيهِ بِوَاضِحَاتِ الآثَار » . .

الزواج طمأنينة ومودة ورحمة

فضيلة الشيخ
مصطفى محمد الحديدى الطير

قال الله تعالى :

« ومن آياته أنْ خلق لكم مِن أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون »

سورة الروم ٣٠ الآية ٢١ .

البيـان

يمضى الرجل يومه جاهداً من أجل طعامه وطعام ذويه وخدمة مجتمعه ، ثم يعود إلى منزله كليلاً مُرْهَقاً محطَّم الأعصاب وقد ولَّى النهار أوكاد .

فما لم يجد فى بيته من أسباب الراحة ما يسترد به أنفاسه الحُرَّة ، ويعيد إليه نشاطه الطليق ، فإنه يرجع إلى عمله فى اليوم التالى وهو يشعر بثقل الحياة على كتفيه ، ويُحسُّ بالمتاعب فى أعماقه ، ويجد نفسه غير منبعثة إلى الجد ، ورجليه لا تطاوعانه فى مسيره ، ويديه لا تعملان فى استجابة ونشاط .

ومن آيات الله الدالة على باهر قدرته وحكمته ، وعظيم فضله ورحمته ، أن خلق لنا من أنفسنا زوجات لتطمئن إليهنَّ النفوس ، وتستريح إلى مودتهن القلوب ، وَليكُنَّ منابع الرحمة للأزواج المكدودين ، فيُبدِّلْنَهم من تعبهم راحة ، ومن كسلهم نشاطاً ، فيخرجون إلى أعمالهم والابتسامة تعلو شفاههم ، والرغبة فى الجد والعمل تملأ صدورهم ، وتفيض على تفكيرهم وأعضائهم حركة ونشاطاً .

فعلى كل زوجة أن تدرك أن بديع السموات والأرض خلقها لتحقيق هذه الأغراض الشريفة ، فتعمل على أن تكون هى الواحة الخضراء التى يتفيأ زوجها ظلها إذا عاد من عمله يتصبب عرقاً ، وأن تكون النسيم العليل الذى يمر به برفق فينعش فؤاده ، فإن راحة

زوجها راحة لها ، وهناءَه هناؤُها ، فإن كانت على عكس ذلك حطَّمته وحطَّمت نفسها وأولادها .

ولكى تكون الحياة الزوجية وافية بما خلقت لأجله ، رتبت الشريعة الإسلامية لكل من الزوجين حقوقاً على الآخر ، فإن أداها على وجهها المشروع أعطت ثمرتها من الهناء والسعادة ما يديم الابتسامة على الثغور ، والغبطة فى القلوب ، وإن قصَّر فيها انعكست الآثار على قدر ما حدث من التقصير ، وفيما يلى حقوق كلا الزوجين على الآخر :

حقوق الزوج على زوجته

من حق الزوج على زوجته أن تكون حفيظة على ماله – إن كان لديها منه شىء – فلا تنفق منه شيئاً ولا تعطيه لأحد إلا بأذنه ولوكان على وجه الصدقة ، ما لم يكن طعاماً رطباً يخشى فساده إن بقى ، فلها أن لا تنتظر إذنه فيه ، فإن الأزواج عادة لا يمانعون فى التصدق بمثله ، كما أنه لا فائدة فى إبقائه حتى يحضر الزوج فتستأذنه ، لأنه عرضة للفساد ولها أن تتصدق ببعض ماله إن علمت يقيناً أنه يرضى بما فعلت ، وإن لم يأذن فيه بعينه ، وعليها أن تبلغه بما تصدقت به ، فربما بدا له أن يرشدها إلى أمر لم تتنبه له ، أو أن يضع لها خطة جديدة تتفق مع ما طرأ على موارده المالية من نقص .

ومن حقه عليها أن تحفظ سره فلا تبديه لقريب أو بعيد ، وأن تحفظ عرضه فى نفسها وفى بناته وأخواته ، فلا تخونه فى شىء من ذلك ، وأن تبتعد عمَّا من شأنه أن يؤدى إلى الخيانة أو يثير الشبهات ، فلا تأذن لصديقة أو لأى رجل بدخول داره فى غيبته ، فإن ذلك مصدر شر كبير ، وعليها أن لا تجالس الرجال الأجانب وحدها أو مع زوجها ، فنى ذلك إزالة لحاجز الحياء الذى يمنع المرأة عما لا يليق ، وكثيراً ما يكون ذلك وسيلة لمودة غير مشروعة ، ومجلبة لخراب البيوت ، وعليها أن لا تخرج من البيت بغير إذنه ، فإن أذن لها فخرجت فنى غير زينة ، وفى ثياب محتشمة ، والأفضل أن يكون خروجها بصحبة زوجها ، فإن ذلك يدعو إلى الطمأنينة بين الزوجين ، ويبعد أصحاب الفضول ، ولْتَعْلم الزوجة أن بقاءها بمنزلها يرضى ربها ، بل صلاتها فيه خير من صلاتها فى المسجد ، قال ﷺ « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت فى عُقْرِ بيتها – أى وسطه – وإنّ صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد » إلى آخر الحديث ، ومن حقه عليها أن لا تختلط بجاراتها – وبخاصة فى هذا الزمان الذى فسدت فيه المعايير الخلقية – وعليها أن

لا تتصل بهن إلاَّ فى حدود الضرورة أوما يشبهها ، ولتحذر من إخبارهن بأسرار زوجها ، حتى لا تستخدم تلك الأسرار فى الإضرار بها أو بزوجها ، فإن كيد النساء عظيم ، فلتفوت على أصحاب الغرض أطماعهم لتعيش مع زوجها فى سلام .

وعليها أن تبتعد عن كل من ينفرها من عشرته ، ولا تسمح لنفسها بالاستماع إلى من ينتقص خلقه أو ماله أوشهادته أو وظيفته أوحسبه أو نسبه أوجماله ، ولترض بما قسم الله لها فى شأن زوجها ، ولتعلم أن أهم ما يطلب فى الزوج عفة اليد واللسان ، والاستقامة على منهج الحق ، والحب لزوجته والقيام بشئون بيته على قدر استطاعته ، فإذا توفر فيه ذلك ، فقد توفرت لها أسباب السعادة والهناء ، وما سوى ذلك فسراب خادع ، وظِل زائل .

العسر الطارئ ليس بعيب

الحياة لا تمضى على نسق واحد ، فقد يطرأ على الزوج عسر بعد يسر ، فلا يدفعها هذا إلى كراهة زوجها وتحويل حياته إلى جحيم ، وينبغى أن تساعده فى محنته بالصبر وبعث الأمل فى نفسه ، وإرشاده إلى ما قد يكون خفى عليه من أبواب الاسترزاق ، ومساعدته فى محنته إن كانت تقدر عليها ، بشرط أن تكون المساعدة من منبع شريف ، فإذا تحقق ذلك أمكن أن يتحول عسر الزوج إلى يسر ، قال تعالى «فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً» .

وبالجملة : فالحب والرضا بين الزوجين هما صمام الأمان ، والعاصم من ريب الزمان ، والفقر لا يعيب الرجال ، فكم يبدل الله من حال إلى حال ، روى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما أنها قالت : تزوجنى الزبير ومالَهُ فى الأرض من مال ولا مملوك ، ولا شىء غير فرسه وناضِحه [1] فكنت أعلف فرسه ، وأكفيه مؤونته وأسوسه ، وأدُقُّ النوى لِنَاضِحه[2] وأعلفه ، وأستقى الماء ، وأَخْرِزُ غَرْبَهُ[3] وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ ، حتى أرسل لى أبو بكر جارية ، فكفتنى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى .

فها هى ذى أسماء ذات النطاقين ، زوّجها والدها أبو بكر الصديق للزبير بن العوام ، فى حين أن أبا بكر كان خير الرجال حسباً ونسباً وسابقية فى الإسلام ومن أعظمهم مالاً ،

---

(١) الناضح الجمل أو الناقة .

(٢) أى تدق النوى لناضحه .

(٣) أى أخيط دلوه الكبيرة التى يسقى بها النخل .

وأن الزبير كان وقت تزوجه بها فقيراً ، فاحتملت فقره وساعدته فى شئونه ، وصبرت حتى جاء اليسر بعد العسر.

وقد كان للزبير بعد ذلك شأن عظيم فى الفتوحات الإسلامية ، وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان من أولاده من أسماء : عبد الله بن الزبير الذى بويع خليفة على المسلمين بالمدينة ، وقاتله جيش يزيد بن معاوية ، وقتل شهيداً – رحمه الله – ولا يعيب الزوج أنه غير جميل ، فالجمال الحقيقى هو جمال الخلق ورقة الشمائل وسعة الأفق ، والبِشْرُ وطلاقة الوجه ونقاء القلب ، فلا ينبغى أن تفخر عليه الزوجة بجمالها أو تزدريه لدمامة خلقته ، قال الأصمعى : دخلت البادية فإذا أمرأة من أحسن الناس وجهاً ، متزوجة رجلاً من أقبحهم وجهاً ، فقالت لها : أترضين أن تكونى زوجة مثله ، فقلت : يا هذا لقد أسأت فى قولك . لعله أحسَنَ فيما بينه وبين الله فَجَعَلَنى ثوابه ، أو لعلى أسأتُ فيما بينى وبين خالقى فجعله عقوبتى ، أفلا أرضى بما رضى الله لى ؟ قال الأصمعى : فأسكتتنى المرأة .

ولا ينبغى أن تفخر عليه بحسبها أو مالها أو شهادتها أو وظيفتها ، أو أن تعيره بفقر أسرته ، فمثل ذلك يوغر الصدر ، ويقضى على الألفة ، ويفتح أبواب الشقاق ، ويعرض الأسرة لهزات شديدة ، ويفسد أخلاق الأولاد ، ولا يستتبع أية فائدة ، ولا تفلح امرأة تتبع هذا النمط فى عشرتها الزوجية ، فإن كانت تريد بذلك أن يطلقها زوجها لتتزوج سواه ، فهل ضمنت السعادة عند سواه حتى تهدم بيتها بيدها ، وهل فكرت فى أولادها إن هى تركت أباهم إلى غيره ، وهل أمنت عقاب الله فى الدنيا بالحرمان من السعادة الزوجية عند غيره ، وفى الآخرة بعذاب النار ، جزاء هذا البطر الأعمى .

ألا رحم الله امرأة راضية قانعة ، وأورثها السعادة فى الدنيا والأخرة :

زينة المرأة لزوجها

من آداب الزوجة أن تظهر لزوجها فى زينة وبهجة وانشراح ، حتى يشعر باهتمامها به ، وانعطافها نحوه ، فلا تنصرف نفسه عنها .

ولا يمنعها دينها وصلاحها عن التزين لزوجها ، قال تعالى « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن » وقال الأصمعى : رأيت فى البادية أمرأة عليها قميص أحمر وهى مختضبة ، وبيدها مِسْبَحَةُ ، فقلت ما أبعد هذا من ذاك ، فقالت :

ولله مِنّى جانب لا أضيعه وللَّهو منى والبطالة جانب

قال الأصمعي : فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له فعلى الزوجة أن يكون همها إصلاح شأنها ، وتنظيف نفسها وبيتها وأولادها ، لتدخل السرور على زوجها ، ولتحذر من أن تكون زينتها للشارع وأعين الفضوليين من السابلة ، فى حين أنها تهمل أمر نفسها أمام زوجها فى بيتها ، فإنها بذلك تتسبب فى لعن الملائكة لها ، وعودتها إلى منزلها بآثام لا تعلم قدرها ، ومن يدرى لعلها بما تفعله من التزين للغرباء تكون سبباً فى ترديها من رفعة الشرف إلى ضعة الانحراف ، ومن عمار البيت إلى خرابه ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

من آدابهـــا

ينبغى للزوجة أن تقدم حق زوجها على حق أقاربها ، وأن يعف لسانها عن سب أولادها وغيرهم ، وأن لا تراجع زوجها فيما لا يضيرها السكوت عليه ، ما لم تكن المراجعة لصالح الزوج والأولاد والأسرة ، فلها أن تراجع بأدب وحكمة وإقناع ومن آدابها أن تلازم الصلاح والانقباض إذا غاب زوجها ، فإذا عاد رجع إليها انبساطها ومرحها .

وينبغى أن لا تطالبه بأكثر من حاجتها ، ومن حق الله عليها فى شأنه أن تنبهه إلى الامتناع عن الكسب الحرام ، وتخوفه من عاقبته ، كما كان يفعل نساء السلف الصالح وبناتهم ، ويحرم عليها أن تنكر إحسانه وتتنكر لمعروفه وتتجنى على حقوقه ، قال ﷺ « أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء : يَكْفُرْنَ : قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

وصية امرأة عظيمة لابنتها

لما تزوج الحارث بنُ عمر ملكُ كندة ، ابنةَ عوف بن محلّم الشيبانى ، أوصتها أمها عند فراقها لبيت أبيها إلى بيت زوجها ، وصية نافعة لكل فتاة ما استطاعت أن تعمل بما يناسبها منها وفيما يلى نصُّها – قالت الأم لابنتها :

عليك بالصُّحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينيه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا طيب ريح ، والكحل أحسن الكحل ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء

عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع مَلْهبَة ، وتنغيصَ النوم مَبْغَضَة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال جميل التدبير ، ولا تفشى له سرًّا ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوْغرت صدره ، ثم اتَّقى مع ذلك الفرَحَ إن كان تَرِحاً ، والاكتئابَ إن كان فَرِحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاماً ، يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، واعلمى أنك لا تَصِلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت ، واللهُ يَخِيُر لك . . . اهـ .

وقد عملت ابنتها بوصيتها ، فعمرت وأنجبت منه الملوك السبعة الذين حكموا اليمن بعده .

حقوق الزوجة على زوجها

كما ذكرنا حقوق الزوج على زوجته ، نذكر فيما يلى حقوق الزوجة على زوجها ، حتى لا يظن الأزواج أن كل الحقوق لهم ، وليس عليهم لزوجاتهم مثلها ، وقد قرر الإسلام ذلك ، قال الله تعالى « ولهنَّ مثل الذى عليهِن بالمعروف وللرجالِ عليهنَّ درجة » وكيف لا يكون الأمر كذلك وكلا الزوجين شريك الآخر فى مزرعة الحياة ، فعلى كل من الشريكين مثل ماله نحو الشريك الآخر .

وأول حقوق الزوجة على زوجها أن يتزوجها بصداق عاجل أو آجل ، أو بعضه عاجل والآخر آجل ، قال تعالى « وآتوا النساء صَدُقَاتِهِنّ نِحْلَةً » فإذا زُفَّتْ إليه عاشرها بالمعروف ، لأن الزواج شُرِع ليدوم ، ولا يدوم إلا مع العشرة الهنيئة ، وبما أن الزوجة تركت أسرتها التى هى جزء منها ، وانتقلت إليه وهو منها غريب ، فالواجب يقتضيه أن يُسَلِّيها عن هذه الفرقة بِعِشْرةٍ هنيئة لينة ، حتى تزول الوحشة بينه وبينها وتستبدل بها أُلفة ، وقد أوصى الله بحسن عشرتهن بقوله « وعاشروهن بالمعروف » ولا ينبغى أن يديم مؤاخذتها على الهفوات ، فَمَنْ مِنَ الناس لا يخطىء ؟ ولا بأس أن يعظها بالمعروف من غير تأنيب ولا تعنيف ، ويجعل ذلك الوعظ فى أُسلوب الإرشاد إلى الخير ، والرغبة فى الوصول دائماً إلى درجة أحسن ، فإن الكمال الإنسانى لا يتناهى ، وقد أوصى النبى ﷺ بهن فقال « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضِلَعٍ ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوجَ ، فاستوصوا بالنساء خيراً » .

ومن حسن العشرة مداعبة الزوجة والمزاح معها ، ففي ذلك تطييب لقلبها ، وقد كان النبى ﷺ يمزح مع نسائه ويعاملهن كزوج ، وينزل تكرماً لمستوى عقولهن ، روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة فى العَدْوِ ، فسبقته يوماً ، ثم سبقها وقال لها : هذه بتلك ، وفى الخبر أنه ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه ، أقول : وكان ذلك منه ﷺ مراعاة لبشريتهن ، والجانب البشرى منه ﷺ ، فالنبوة لا تتعارض مع حقوق البشرية .

وكان عمر مع خشونته يقول : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى ، فإذا التَمسوا ما عنده وُجِد رجلاً ، أى فإذا طلبوا ما عنده وقت الجد كان رجلاً كامل الرجولة .

لا تبالغ فى الدعابة والمزاح

ينبغى أن لا يبالغ الزوج فى الدعابة ولين الخلق مع الزوجة ، حتى لا تسقط هيبته ، فتجترئ عليه وتفسد أخلاقها ، فالاعتدال فى ذلك هو اللائق بأخلاق الزوج المؤمن ، فإذا رأى ما يخالف الشرع أو الأدب ، أظهر الجد وامتعض حتى تثوب إلى رشدها ، ولا تندفع فى سوء الأدب ومخالفة الشرع ، قال ﷺ «تَعِسَ عبد الزوجة» وهو الذى تسيره زوجته على هواها ، فلا يليق أن يمكِّن رجل لزوجته من نفسه ، فيعكس الوضع الذى شرعه الله «الرجال قوامون على النساء» .

قال الحسن : ما أصبح رجل يطيع أمرأته فيما تهوى إلا كبَّه الله فى النار ، ومع أن عمر رضى الله عنه كان يرى التبسط مع المرأة ، كما تقدم ، لكنه كان يقول : شاوروا النساء وخالفوهن – وذلك إذا كانت المخالفة أنفع من الموافقة ، أو كانت مساوية لها فى الفائدة ، ولكنها لإثبات استقلاله وعدم تبعيته للمرأة دائماً ، فمرة يوافق وأخرى يخالف – إن اقتضى الأمر ذلك – فادرس طباع زوجتك وعاملها بما يصلحها وفق حالها ، وكن فى ذلك مثل الطبيب ، يعطى الدواء وفق الداء ، فاستعمل اللين والسياسة ، ثم الخشونة فى علاج شر المرأة ، فإن بَدا منها الهدوء والدعة والمسالمة ، فُعدْ إلى اللين والرحمة ، ولا تعكس فتكون كالذى يَضَعُ السيف فى موضع الندى ، أو الندى فى موضع السيف .

الاعتدال فى الغيرة

عليك أيها الزوج بالإعتدال فى الغيرة على زوجتك ، فلا تستعملها فى غير موضعها ، قال ﷺ «إن من الغيرة غيرةً يبغضها الله عز وجل ، وهى غيرة الرجل على أهله من غير

ريبة » لأن ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه ، قال تعالى « إن بعض الظن إثم » وقال ﷺ « لا تكثر الغيرة على أهلك فَتُرْمَى بالسوء من أجلك » .

وأما الغيرة فى موضعها فمحمودة ، ففى الحديث الشريف « إن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله » ثم قال : « فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة » . . . إلخ ، وقال ﷺ « إن الله يغار والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى الرجل ما حرم عليه » أقول وفى حكمة أن تأتى المرأة ما حرم عليها .

فإذا رأيت من زوجتك ما يخشى شره فنبهها إليه وامنعها من الاسترسال فيه ، فالوقاية تمنع من الداء ، ولا تبالغ فى إساءة الظن بها وتتبع عوراتها حتى لا تفسدها ، وأحسن علاج لمنع الغيرة أن لا تكثر من نزولها إلى الأسواق ، قال الحسن : أتَدَعُونَ نساءكم يزاحمن العلوج – أى الرجال – فى الأسواق ؟ قَبَّحَ الله من لا يغار .

فإن خرجَتْ فبإذنه ، والأفضل أن يكون زوجها معها كما تقدم ، وأن تكون فى ثياب تنم عن الاحتشام ، وكما أن الزوج مكلف بأن لا يغار على زوجته إلا فى مواطن الغيرة حتى لا يفسدها ، فكذلك الزوجة مأمورة أن لا تغار عليه إلا فى مثل ذلك حتى لا تفسده .

عودة إلى حقوق الزوجة

ومن حقوق الزوجة على الزوج أن ينفق عليها باعتدال ، بحيث لا يكون فيها تَقْتِير ولا إسراف قال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » وقد حَضَّ النبى ﷺ على نفقة الأهل فقال « خيركم خيركم لأهله » وقال فى حديث عَدَّدَ فيه النفقات التى يثاب عليها « أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » وكان الإمام علىٌّ رضى الله عنه متزوجاً أربع نساء بعد فاطمة رضى الله عنها ، فكان يشترى لكل واحدة منهن فى كل أربعة أيام بدرهم لَحْماً – مع أنه كان من أهل التقشف والزهد – وكان الدرهم فى حينه يشترى به لحم كثير .

وكان ابن سيرين يستحب أن يعمل الرجل لأهله كل جمعة (فالوذجا) وهو طعام يتخذ من الدقيق والماء والعسل والسمن ، وقد اقتبس فى عصرنا اسم (البالوظة) من (الفالوذج) لطعام يشبهه ، ويصنع من النشا والسكر والسمن والماء وأحياناً يستغنى عن السمن والماء باللبن ، وما كان يطلق عليه الفالوذج فيما مضى ، يسمى اليوم عَصِيدَةً ، فهى طعام يتخذ

من الدقيق والعسل أو السكر والسمن والماء . ولا يليق بالزوج أن يستأثر بمأكول طيب عن أهله ، سواء اكان ذلك فى البيت أم خارجه .

وينبغى أن لا يصف لأهله طعاماً ممتازاً رآه أو أكله ولا يريد إطعامهم منه ، وعليه أن يشرك معه فى تناول الطعام زوجه وأولاده ولا ينفرد عنهم ، فإن الانفراد عنهم خُلُقٌ مُسْتَهْجَنٌ فى الإسلام .

وعلى الزوج أن يعرِّف زوجته من الأحكام الشرعية ما تجهله ، إن كان على بينة منه ، فإن تشكك فى معلوماته فليسأل العالم ويبلغها بعد علمه ، وعليها أن تعمل بما يبلغها من الأحكام لترضى ربها وزوجها ، وتكون من أصحاب المنازل الرفيعة فى الجنة .

وعلى الزوج أن يستعمل السياسة الشرعية عند نشوز الزوجة وعدم طاعتها له ، بأن يعظها ويحذرها من عقاب الله ، فإن لم يفلح ذلك فى ردها إلى الجادة ، هجرها فى المضجع إلى ثلاث ليال ، وله أن يهجرها فى أمر الدين إلى شهر – كما فعل رسول الله ﷺ مع زوجاته لتأديبهن ، ثم عاد إليهن بعد أن رجعن عما اقتضى غَضَبَهُ عليهن فإن لم يفلح الهجر أصلح بينهما حَكَمٌ أو اثنان يمثل كل واحد منهما طرفاً ، وقد بعث عمر رضى الله عنه حكماً ليصلح بين زوجين ، فعاد يقول : لم أستطع ، فضربه عمرُ بِدرَّتِهِ وقال : إن الله تعالى يقول – أى عن الحكمين – « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » فعاد الرجل وتلطَّف بهما وأحسن النيَّة فأصلح بينهما .

وإذا كان النشوز من أحدهما أو كليهما فليجتهد كل منهما فى حل الخلاف وإعادة الوفاق بينهما رعاية لكيان الأسرة ، وحماية للأولاد من آثار الانفصال بين الزوجين ، وهى فى عصرنا هذا مُدَمِّرة وعنيفة ، فهى دائرة بين التشرد وضياع المستقبل وفساد الأخلاق ، ومن لا يعيش لأولاده فالموت خير له من الحياة .

وليجتهد كلا الزوجين أثناء الخلاف فى منع لسانه عن الآخر وكثرة اللفظ فى شأن الشقاق حتى لا تتسع الشقة بينهما .

وبعد فإن الزواج قصد به الشارع الحكيم أن تسود المودة والطمأنينة والرحمة بين الزوجين كما قال سبحانه « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فليحرص كلا الزوجين على تحقيق أهداف الشريعة الغراء من الزواج ليعيش المجتمع الإسلامى مثاليًّا بَيْنَ العالمين ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

مصطفى محمد الحديدى الطير

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

نقد نظرية التطور الحيوى عند داروين وأتباعه- بقية

الدكتور يحيى هاشم

أولاً : انتهينافى المقال السابق من بيان نقد النظرية فى الأوساط العلمية التجريبية .

ثانياً : ونبدأ فى هذا المقال بتوضيح أن النظرية إنما تقوم على افتراضات غير ملزمة .

يقول الاستاذ عباس العقاد :

اذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علما قاطعا من أصوله وفروعه .

وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه صحيح فى بعض ملاحظاته ومقارناته .

ويجوز بعد ذلك أن يكون التطور قد حصل فى جهات عديدة لا فى جهة واحدة وأن لا يكون ملازما للارتقاء ، وإن كانت شواهد الارتقاء أكثر من ظواهر النكسات .

ويقول الاستاذ وحيد خان :

أن محاميّ نظرية الارتقاء لم يتمكنوا حتى الآن من تمكيننا من مشاهدة أو تجربة أى أساس تقوم عليه مزاعمهم .

فعلى سبيل المثال : ليس بوسعهم أن يثبتوا لك بالرؤية المباشرة فى معمل مّا كيف توجد الحياة من مادة لا حياة فيها . .

وهكذا لم يخضع أى تغيير من نوع إلى آخر لتجربةٍ أومشاهدةٍ من أى إنسان . . فلم يحدث أن أجريت تجارب فى إحدى حدائق الحيوانات فخرجت الزراف من بطون الشياه .

ولقد عبر السيد أرثر كيث عن رأيه فى نظرية الارتقاء بأنها « العقيدة الأساسية فى المذهب العلمى » . ولم يقل بأنها حقيقة علمية ، وكذلك عرَّفت موسوعة علمية نظرية الارتقاء « بأنها نظرية قائمة على تفسير بدون براهين . .)

أما أوبارين فقد قامت نظريته على افتراض ظهور « الحياة » لمجرد تطور التجمعات البروتينية إلى البروتوبلازم .

والتدليل على صحة هذا الفرض - على أساس المنهج العلمى - يكون بتحقيقه علميا .
فهل فعل أوبارين ذلك ؟

لقد بدأ أوبارين واثقا من إجراء هذه التجارب المعملية ، فى أهم نقاط هذه النظرية الخاص بظهور الحياة ، فهو يقول فى ختام كتابه الذى بسط فيه نظريته « إن النجاح الذى حققته علوم الجيولوجيا السوفيتية حديثاً تؤيد « الوعد » بأن مسألة خلق كائنات حية بسيطة بطرق صناعية ليس ممكناً فحسب بل سيُحَقَّق عمَّا قريب . . » .

ولكنه تراجع عن ذلك :

يقول فى بداية بحثه الذى ألقاه فى المؤتمر الدولى للبحار فى نيويورك فى عام ١٩٥٩ : (إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية سواء تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل قد باءت بالفشل .)

ثم يبدو يائسا معتذرا عن فشله فيقول أيضا فى نفس العام : « إن الظروف الطبيعية والكيميائية التى سادت على الأرض فى معمل الطبيعة العظيم - قبل ظهور الحياة - والتى تمت فيها التفاعلات المعقدة التى أدت إلى ظهور تلك الحياة تختلف تماما عن الظروف السائدة الآن . ومن ثمَّ فمن غير المحتمل - ان لم يكن من المستحيل - إن تتم نفس هذه العمليات فى المعمل ، وإن تمَّت فإلى حد معين فقط . »

ويقول كونانت عن النظريات التى تبحث فى أصل الحياة « إن الباحث فى هذا الأمر لن يجد إلا آراء . . . لا يمكن - الا بشىء من الكرم - أن نسميها فروضا مثمرة نافعة . . »

ويقول « إن الآراء التى تخرج تحاول تفسير أصل الحياة كثيرة كل عشرة منها بقرش وأنا لا أستطيع أن أسميها بأكثر من خواطر . . »

ويقول « أنه فيما يختص بمسائل مثل أصل الجرانيت والبترول والحياة فسوف ننظر إلى ما كنا نقوله فيها فى عام ١٩٥٠ عند حلول عام ٢٠٠٠ ونعجب من أنفسنا كيف قلناه وكيف أسغناه »(١)

ويقول الأستاذ إسماعيل مظهر وهو بصدد نقد نظرية التولد الذاتى :

إن أنصار التولد الذاتى لا يزالون فى حيرة من القول به . . . فانهم لم يثبتوه بتجربة ، بل يفرضونه فرضا ، ولم يقيموا عليه دليلا علميا ثابتا وفى معتقدى أن التولد الذاتى إن صح وقوعه بالتجربة لأوقع الماديين فى إشكال آخر أنكى من القول بالخلق الأول . لأنهم حتى مع

(١) مواقف حاسمة ص ٤٠٦ : ٤٠٧ ، ص ٤٠٩ .

ذلك لا يستطيعون أن يعرفوا سر الحياة وتولدها » .

وينقل عن العلامة الفردروسيل وولاس قوله فى عام ١٩٢٣ (أن نواة الخلية الحية ليست شيئا كماويا عويص التركيب وفى الإمكان إعادة تركيبها ثانيا إذا حللت . ولكنها حينئذ لا تكون نواة حية . انهم – أى الماديون – يتجاهلون ذلك كله . يتجاهلون القوة المدبرة الخفية التى تستطيع الخلية الحية بفضل تأثيرها الدور فى سلسلة من التحولات يستحيل إيضاحها بأية طريقة كماوية أو ميكانيكية » (١)

وما يقوله الاستاذ إسماعيل مظهر عن نظرية التولد الذاتى للحياة ينطبق تمام الانطباق على نظرية النشوء الذاتى للأنواع أو نظرية النشوء والارتقاء عند داروين .

واذن فكما يقول الأستاد وحيد خان : « أنه اذا كان لأصحاب نظرية التطور أن يعتمدوها بالرغم من هذه الفرضيات التى لم تخضع للبحث التجريبى بناء على أخذهم بمبدأ أن العلم لا ينحصر فى الوقائع التى يمكننا تجربتها مباشرة ، وإنما يعتبر أن أية قرينة منطقية تستند إلى تجارب ومشاهدات غير مباشرة يمكنها أيضا أن تصبح حقيقة علمية بنفس درجة الحقائق العلمية التى نتمكن من مشاهدتها مباشرة ، وعلى هذا الأساس لا غير تم اعتراف العلم بالالكترون على أنه حقيقة علمية بالرغم من أنه لا يخضع للمشاهدة ، نظرا لتناهى وجوده فى الصغر بحيث لا يمكن لمنظار ما مشاهدته ولا يمكن لميزان ما وزنه ، كما تم اعترافه بظواهر مماثلة أخرى على أنها حقائق علمية . . .

اذا كان الأمر كذلك فإن الحقائق الدينية يمكن أن تدخل فى ساحة العلم على نفس هذا المنوال .

يقول البروفسير مانديز فى شرحه لأسباب قبول نظرية الارتقاء :

أولا : هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

ثانيا : فى هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع التى لا يمكن فهمها الا عن طريقها .

ثالثا : لم تظهر بعد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهذه الدقة . . .

ويعلق الأستاذ وحيد خان على ذلك فيقول : (فإذا كانت هذه الأدلة كافية لجعل نظرية الارتقاء حقيقة مقبولة فى ضوء مقاييس الاستدلال العلمية فإن هذه الأدلة نفسها موجودة كذلك فى جانب الدين بصورة أشد وأكمل . وفى هذه الحالة يعجز العقل الحديث

---

(١) ملقى السبيل ص ٥٧ : ٥٨ .

عن تبرير رفضه للدين – باعتبار أنه غير قابل ولو لمجرد البحث العلمى . . مع تكافؤ الأدلة بين نظرية الارتقاء والدين كليهما .)

ثالثا: من ناحية الصدفة :

فى المنهج العلمى يفترض العالم مبدأ الحتمية ، ويستبعد المصادفة والاتفاق ، لأنه ينظر إلى الظواهر على أنها ضرورية وليست ممكنة ، والا فقد العلم شرعيته أصلا .

ومع ذلك فقد تورطت مذاهب التطور فى الصدفة لتنسج بها نظريتها فى أهم محاورها :

أولا : فى الحركة الأولى التى حدثت للمادة فى حالتها الأولية الراكدة .

ثانيا : فى ظهور الحياة فى البروتوبلازم .

ثالثا : فى ظهور الإنسان بتكوينه المشتمل على العقل وعلى الجهاز البدنى شديد التعقيد .

يقول الدكتور يوسف عز الدين عيسى :

لا يمكن أن نتصور بأى حال من الأحوال أن جهازا دقيقا معقدا أشد التعقيد متناسقا كالمخ قد تكوَّن من تلقاء نفسه نتيجة للصدفة العمياء . .

ولو نظرنا إلى طرق التنفس مثلا فى الحيوانات المختلفة على اختلاف درجاتها ابتداء من الأميبا – ذلك الحيوان البسيط المكون من خلية واحدة – إلى أن نصل إلى الإنسان أرقى الحيوانات لوجدنا أن عمليات التنفس هذه تتم بطرق وأجهزة مختلفة ولكنها جميعا تنتهى إلى نفس النتيجة وهى أكسدة المواد الغذائية وانطلاق الطاقة التى يستخدمها الحيوان فى أوجه نشاطه المختلفة .

وعندما نقول إن الطيور لكى يخف وزنها كونت فى عظامها أكياسا هوائية فهذا قول يدعو إلى الضحك . اذ أن الطائر ليست لديه القدرة على تغيير تركيبه ولا يمكن أن يقوم بأحداث هذا التغيير الواعى سوى القدرة الإلهية . .)

وهذا فى حد ذاته كاف لكى يجعل من مذهب التطور الذى قدمه داروين وأتباعه وأوبارين وأتباعه – وابتعدوا به عن افتراض وجود قوة مدبرة عليا – مذهبا « اعتقاديا » لا أساس له من العلم الصحيح .

رابعا : قاعدة التشابه والترتيب :

إن أدلة التطور الحيوى المستمدة كلها من علم التشريح المقارن ، وعلم الأجنة وعلم

التقسيم وعلم الحفريات ، ترجع كلها إلى قاعدتين : التشابه ، والترتيب ، وهما لا يؤديان بالضرورة إلى الاعتراف بوجود علاقة ذاتية بين الأطوار ، بل على العكس من ذلك يؤيدان موقف الدين فى تفسيره لكل منهما بوجود إرادة إلهية عليا .

ومن العجيب أن يسوق الأستاذ إسماعيل مظهر اعتراضه على القائلين بالخلق المستقل على النحو التالى :

ماذا يقول مؤيدو هذا القول فى تشابه الأنواع الحية وتقارب صورها من صور الحفريات التى يعثر عليها فى ذات البقعة التى تقطنها ؟

وليظهر زعماء الخلق المستقل السبب فى مشابهة الأنواع الحية فى استراليا للأنواع المنقرضة . . .) [١]

بالله ، لقد أدهش السيد فى اعتراضه وأعجز ! !

ويكفى فى الرد عليه فى هذا ما يقوله الدكتور يوسف عز الدين عيسى :

(ان تشابه الحيوانات فى الإطار الأساسى لتكوينها يدل على وجود أسلوب واحد للخلق يبدعه خالق واحد .

فعين القطة مثلا لا تختلف فى تكوينها عن عين البقرة أو الأرنب أو الإنسان وكذلك الجهاز الهضمى والعصبى والغدد الصماء وغيرها من الأعضاء فى شتى أنواع الحيوان تدل على وجود أسلوب واحد للخلق . تماما كما يقرأ الإنسان بعض صفحات من كتاب أحد مشاهير الكتاب فيستدل عليه من أسلوبه .)

وفى قاعدة الترتيب :

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر : (إن تدرج وجود الحيوانات والنباتات التى نعثر على بقاياها مستحجرة فى باطن الأرض ليدل واضح الدلالة على أنها لم تخلق طفرة خلال عصر محدود من العصور ، وإنما نشأت متسلسلة بعضها من بعض متعاقبة فى الوجود الزمانى) (ملقى السبيل ص ٢١٦)

ونحن نقول بأن غاية ما تدل عليه هذه الحفريات «أن الأنواع نشأت متعاقبة فى الوجود الزمانى» أمَّا أنها نشأت «بعضها من بعض» وهذا هو جوهر مذهب النشوء والارتقاء فليس فى هذه الحفريات ما يدل عليه .

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٦١ .

وان الأمر هنا أشبه بمن يقول إن الترتب الزمانى المتدرج الدقيق فى اللقطات الفوتوغرافية التى تسجل قصة سينمائية «مثلا» يدل على أنها «نشأت متسلسلة بعضها من بعض» فى حين أنه من الظاهر أن ذلك ليس دالاً على شيء أكثر من التعاقب الزمانى

يقول الاستاذ وحيد خان : (إن نظرية الارتقاء لا تثبت شيئا أكثر من أن الأنواع المختلفة لم توجد فى وقت واحد ، بل وجدت أنواع مختلفة فى مراحل مختلفة وأن هناك ترتيبا زمنيا فى الأنواع الحية ، أى أن الأنواع البسيطة للحياة وجدت قبل الأنواع الحية المعقدة . والأمر الذى لا يزال غير ثابت بكل قطعية هو : هل الأنواع الحية المعقدة هى حقيقةً صور راقية للأنواع البسيطة التى وجدت فى الزمن السحيق ثم تطورت تلقائيا إلى صورها الحالية نتيجة للعمل المادى الطويل أم أنها ليست كذلك ؟

إن المشاهدة تؤكد الجزء الأول . .

أما الجزء الثانى من نظرية الارتقاء فلا يزال افتراضا محضا اختلقه العلماء الذين آمنوا بتلك النظرية ، وهذا الجزء الافتراضى من نظرية الارتقاء لا يمكن مشاهدته تحت أى ظرف من الظروف ، كما أنه غير قابل للخضوع للتجارب بأى شكل من الأشكال ، هذا بينما يتوقف جواز الاستدلال بنظرية الارتقاء على ثبوت هذا الجزء الثانى منها فقط) .

خامسا :(١)إنه مع التسليم بصحة الافتراضات التى تقوم عليها نظرية التطور من حيث وجود تشابه وترتيب بين الأنواع فإن ذلك لا يقتضى الغاء الإرادة الالهية .

إن الذين ينكرون الخالق بناء على نظرية التطور يتصورون أن الخالق ليس فى إمكانه أن يوجد مخلوقاته بترتيب ونظام يُنَفَّذُ فى زمن طويل .

وهذا التصور خاطىء سواء ثبتت نظرية التطور أو لم تثبت .

إنه مع التسليم الجدلى بأن نظرية التطور تقوم على قوانين حتمية فإن ذلك لا يلغى «الإرادة الإلهية» إلا عند أولئك الذين يتصورون الألوهية تصوراً بشرياً .

وعلى سبيل المثال لهؤلاء نقرأ النص التالى[١] :

من بين مجموعة النقوش الكاتدرائية التى تعبر عن كثير من حقائق اللاهوت فى العصور الوسطى نقش يمتاز عن مذهب لاهوتى فى أصل الكون ظل موضع الاحترام والإجلال أزمانا طوالا . .

---

(١) أنظر «بين الدين والعلم» لأندرو ديكسون وايت ، ترجمة إسماعيل مظهر طبعة ١٩٢٩ ص ١٧١ .

الواحد القهار فى صورة بشرية جالس بوداعة ولين يصنع الشمس والقمر والنجوم ويعلقها فى القبة الصلبة التى تحمل من فوقها السموات العلا ، وتظلل الأرض السفلى .

أما علائم التفكير الظاهرة فى تقطب جبينه فتنم على أنه أجهد نفسه إمعانا فى التدبر والاستبصار ، كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد اضطر إلى أن يكد وينصب . ومن الطبيعى أن يكون المثالون والمصورون خلال القرون الوسطى وفى بدء العصور الحديثة قد عمدوا إلى تمثيله على مقتضى ما تصوره كُتَّاب ذلك العصر اذ كانوا يقولون بأنه استراح فى اليوم السابع) ومن هذا حق للعلماء التجريبيين فى أوربا أن يقعوا فى وهم التناقض بين النظام وبين الألوهية . .

ومنشأ ذلك أن صورة الألوهية عندهم مستمدة من الأساطير الإغريقية . أو من إله أرسطو ، أو من الأديان الشرقية القديمة .

وهى كلها لا تعطى تصورا يوفق بين الألوهية والنظام أو بين الألوهية والقانون . . أما تصور الألوهية فى الإسلام فهو لا يتعارض مع تصور القانون والنظام .

بل إن الإسلام هو الذى يضع ضمان الاستمرار للقانون الطبيعى ، وذلك فى قوله تعالى « ولن تجد لسنة الله تبديلا » الا أن هذا الاستمرار مستمد من الإرادة الالهية ومتوقف عليها : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (٨٢ سورة يس)

فهنا يبدو الانسجام واضحا بين إرادة الله واطراد القانون ، ويظل هناك موضع للخوارق التى يظهرها الله بين الحين والآخر ، تذكيرا للإنسان بمصدر الوجود ومصدر القوانين وهو الله سبحانه وتعالى . .

ان النزعة الالحادية فى نظرية التطور إذ تنكر على الدين قوله بوجود إله عالم مدبر للكون ، منظم له ، معتن به . . . تقول أيضا بالتطور المنتظم المتقدم نحو غاية عليا ، وتسند هذا التطور إلى المادة التى بدأت وجودها وهى فى أحط صورة من صور الوجود التى يمكن للعقل أن يتصورها .

ولا شك أن هذا تناقض صارخ . .

إنه من المؤكد أن فكرة التطور التقدمى التى يتبناها العلم الحديث (والالحاد الحديث) لا تستقيم إلا إذا أخذنا بفكرة وجود إله عالم مدبر للكون .

يقول الأستاذ يوسف كرم « وقد نسلم بالتطور ، ثم نرانا مضطرين إلى الإقرار بموجد للمادة ، موجِّهٍ لها ، لقصور المادة عن تنظيم نفسها . »

إن فكرة التطور التقدمى – بعد تهذيبها وتجريدها من التناقض الذى يوقعها فيه الإلحاد – تضيف إلى رصيد الإيمان بالله ، ولا تأخذ منه ، وذلك حيث ترسم للمادة طريقاً منظماً صاعداً من الأدنى إلى الأعلى ، تستهدف فيه الوصول إلى الغاية ، فمن ثم تستلزم وجود المدبر المنظم ، وهو أمر لا يكون للمادة التى يقول بها الملحدون ، وإنما يكون لذات الله .

إن هذه النظرية تفرض أولاً : التقدم . والتقدم لابد أن يكون له غاية مرسومه والنظرية لا تقدم هذه الغاية ، والدين هو الذى يقدمها .

ومن ناحية أخرى فإن التقدم الذى تفترضه هذه النظرية يعنى النقص فى المتقدم والناقص محتاج إلى غيره فى تقدمه ، والدين هو الذى يقدم لنا الله الغنى الذى يتجه إليه كل محتاج . . .

يقول الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين عيسى :

(إن الخطأ الرئيسى الذى وقع فيه جميع هؤلاء العلماء هو أنهم تجاهلوا وجود خالق مبدع جبار هو الذى خلق هذا الكون وأبدعه . فقد تكون الحيوانات أنحدرت من حيوانات سبقتها وتطورت وارتقت ، ولكن ما هى القوة التى تقف وراء ذلك كله وتحركه فى دقة مذهلة وقدرة جبارة نحو هدف معين فيه ارتقاء وكمال ؟

أنه بلا شك خالق هذا الكون الذى تعجز عقولنا عن إدراك مبلغ قدرته وعظمته مهما تخيلناها . . .

فتطور الكائنات لا يفسر بمثل هذه الافتراضات وهذه التكهنات ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون صُدَفاً عشواء تتخبط فى الظلام .

ولقد اقترب العلماء الآن كثيراً من التسليم بوجود خالق للكون سواء شعروا بذلك أو لم يشعروا .

. . فالقول الذى يصر عليه جراهام كانون [1] ، بأن فى كل كائن حى قوة تدفعه للسير والتطور نحو هدف معين يعنى بلا جدال وجود قوة إلهية وراء هذه العملية . . .)

وإذا كانت فكرة التطور التقدمى تتناقض عندما يغتصبها الملحدون الماديون فينكرون بها وجود الله ، فإنها تتهافت وتتلاشى عندما يقفون بها من ناحية المبدأ عند طور ظهور الإنسان ، ومن ناحية النهاية ، عند انزلاقه إلى العدم ، بعد هذه الحياة الدنيا وبيان ذلك :

---

(١) أحد العلماء المحدثين الذين لهم بحوث متخصصة فى نظرية التطور .

أن التطورية التقدمية الحقيقية تقتضى نظرة دائمة الانفتاح إلى المستقبل ، وكلما كانت هذه النظرة أكثر امتداداً وشمولاً ونمّواً ، كانت أحق بوصف التقدمية .

ومن هنا يمكننا أن نقول أن (دين الإسلام) هو المجال الذى تستقيم فيه هذه النظرة ولا تتناقض ولا تتهافت . وأنه أحق بوصف التقدمية من غيره ، لأنه يجتاز بنظرته إلى المستقبل حاجز الحياة الدنيا ، ويجعل حياة الإنسان ممتدة إلى مستقبل بعيد (فى الآخرة) يحصل فيه على الخلود والكمال بشروط يمارسها فى حياته الدنيا ، تجعل هذه الحياة بدورها أقرب إلى الكمال . . .

فدعوى التقدمية ، ألصق بالدين ، وأجدر به وأشد تنكراً للإلحاد فى أى مظهر من مظاهره ، وهى عند الملحدين تتناقض مع فرضية مسبقة ، تدعى زوراً وبهتاناً وبغير سند من العلم أو العقل – أن المادة هى الأصل .

يقول الأستاذ وحيد خان : (لا يزال الإنسان منذ آلاف السنين يؤمن بأن خالقه وخالق الشجر هو القادر المطلق ، مع أنه ظل طوال هذه القرون الطويلة يشاهد الطفل يصبح رجلاً كاملاً بعد أربعين سنة من ولادته ، والشجر العملاق يكتمل عوده بعد قرن أو نصف قرن من الزمان ولكن هذه المشاهدة لم تزلزل من إيمان الإنسان بأن الله هو القادر المطلق ، فعقله لم يوجب أبداً – أن كون الله « الخالق القادر المطلق » يستلزم ظهور الإنسان والشجر فى أشكالها الكاملة مرة واحدة .

وهكذا فإن كشوف المستقبل حتى لو أثبتت أن مظاهر الحياة إنما ظهرت إلى الوجود نتيجة لخضوعها لعمل تطورى طويل الأمد فإن ذلك الإثبات – الذى لم يتوافر حتى الآن – لن يبطل قضية الدين ، ولن يستلزم إعادة النظر فيها ، ذلك لأنَّ هذا الإثبات المفترض إنما يتعلق بأسلوب الله فى الخلق ، ولا يفسر لنا ماهية الخالق) لقد جاء فى الموسوعة الكاثوليكية فى مادة الخلق أن حقائق العلم وحقائق الوحى فى هذا الموضوع لا تتناقضان . .

وقال اللاهوتيون أصحاب كتاب العلم وما فوق الطبيعة : بأن العلل الثانوية التى تبدو فى أعماق الطبيعة لا تبطل العلة الأولى التى تنتهى إليها جميع العلل وتقف عندها جميع المقاصد والغايات .(١)

ويقول الأستاذ يوسف كرم : « وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى اعتبار الإنسان نوعاً قائماً بذاته بسبب ما يختص به من علم وفن وصناعة وخلق ودين ، وهى مظاهر للعقل

(١) أنظر عقائد المفكرين فى القرن العشرين للأستاذ عباس العقاد ص ٥٨ .

لا نظير لها ولا أصل فى سائر الحيوان . . » .

(٢) وما دام أن هذه النظرية كما بينا لا تلغى بالضرورة الإرادة الإلهية فإنه ينبغى أن يبقى فيها مكان خاص لنظرية الخلق الخاص – بالنسبة لبعض الأنواع على الأقل – إذا وردت بذلك الأخبار الصحيحة .

ولا شك أن الأخبار الصحيحة قد جاء بها القرآن الكريم فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام ، وما ورد فى القرآن الكريم بهذا الخصوص لا يترك احتمالاً لإدخال آدم عليه السلام فى السلسلة التى نسجتها افتراضات نظرية التطور .

وذلك للأسباب الآتية : –

أولاً : إن ما ذكره القرآن الكريم عن ملابسات خلق آدم يحتم القول بظهوره مستقلاً وليس على مراحل من التدرج غير الملحوظ فى مدارج الأنواع المختلفة .

وهذا ما يقتضيه دعوة الله تعالى ملائكته للسجود لآدم إثر خلقه إياه يقول تعالى :

« وإذ قال ربك للملائكة أنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . . » (٢٨ – ٣١ سورة الحجر)

والنصوص القرآنية الواردة فى نفس هذا المعنى كثيرة أنظر الآيات ١١ ، ٣٤ من سورة البقرة .

والآيات ٦٠ وما بعدها من سورة الأسراء ، والآيات ٤٩ وما بعدها من سورة الكهف والآيات ١١٥ من سورة طه على سبيل المثال .

ثانياً : إن ما ذكره القرآن عن آدم يقتضى ظهوره وهو فى أعلى مراحل النضج البشرى لا كونه فى أدنى هذه المراحل كما تقضى بذلك نظرية التطور ، وذلك ما يدل عليه قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون .

وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . » . (٣٠ – ٣٣ سورة البقرة) .

ثالثاً : إن ما ذكره القرآن عن خلق آدم يقتضى ظهوره لا على نحو يتفق مع السنن

العادية – كما تقضى بذلك نظرية التطور إن صحت – وإنما على نحو خارق لهذه السنن وهذا ما يدل عليه قوله تعالى :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . . » . (٥٩ – ٦٠ سورة آل عمران) .

وبما أن سيدنا عيسى عليه السلام قد خلق من غير أب بطريقة خارقة للعادة ، وأن الآية تقرر أن خلق آدم مثله ، فإن النتيجة الحتمية لذلك أن خلق آدم تم بطريقة خارقة للسنن العادية .

والله الموفق للصواب .

د . يحيى هاشم

وَحْدَانِيَّةُ الخالق

مِمَّا رُوِىَ عَنِ الإِمَام جَعْفَر الصَّادِق أَنَّهُ رَأى جَدَّهُ رَسُولَ الله ﷺ فى مَنَامِه فَسَأَلَهُ عَنْ حَقِيقَة التَّوْحِيد . . فَقَال لَهُ رَسُولُ الله ﷺ :

كُلُّ ما خَطَرَ بِبَالِكَ فَهُوَ هَالِكٌ وَاللهُ بِخِلَافِ ذلِك :

الإسلام فى التجربة التاريخيّة

الأستاذ زاهر عزب الزغبى

أربعة عشر قرنا ونيف من التاريخ الحافل الملئ عمر التجربة الاسلامية عبر الزمن ، وليس ثمة أحد يستطيع أن ينكر أن التعاليم الاسلامية قد نجحت وحدها فى تأسيس مجتمع إسلامى بحت ، وأنها استطاعت أن تكتل العناصر الإنسانية المتنافرة المتمردة فى صحراء العرب . . تلك العناصر التى لم تتفق فى وقت مّا من تاريخها الطويل على رأى أو تجتمع على عقيدة ، ولكن الاسلام نجح فى أن يُكوِّن منها مجتمعا متماسكاً تربطه أواصر الإخاء والمساواة التى لا يشوبها تفاضل من جاه أو جنس أو ثروة .

وقبيل وفاة النبى محمد (ﷺ) كان الإسلام قد تكامل كدين ، وبدا بوضوح أن هذا الدين ليس مجرد عقيدة لا تضم سوى طقوس تعبدية وإنما يشتمل أيضا على أسس قوية ونهج عملى لقيام مجتمع واضح المعالم : له سماته الخاصة ونظم حكمه الخاصة وقوانينه الخاصة . .

وبقيادة تستلهم الحكمة والقوة من وحى الله ، وبإيمان هادٍ موجِّه استطاع هذا المجتمع الوليد فى أوائل عمر تجربته أن يوسِّع مداه فيقفز بسهولة ويسر على حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية ويضم حوض الأردن . . وفى نفس الوقت ينتزع من إمبراطورية فارس كل بلاد ما بين النهرين . . ثم لم تمض عشر سنوات بعد وفاة النبى محمد (ﷺ) حتى كانت كل منطقة الهلال الخصيب وآسيا الصغرى والأراضى المصرية تابعة لأمير المؤمنين . . وقامت فى كل أرجاء هذه المنطقة المساجد ، وترنمت فى أجوائها حناجر المؤذنين بـ « الله أكبر . الله أكبر . »

ولم يكن هذا النجاح الباهر الا مقدِّمة لما هو أعظم ولما هو أروع . . ففى أقل من نصف قرن كانت كلمة الله وراية الإسلام قد ارتفعتا عاليتين على منائر المساجد فى شمال أفريقيا حتى مراكش على ساحل الأطلسى . . ثم تعبرانِ البحر الأبيض المتوسط الى أسبانيا وسهول فرنسا . . أما فى آسيا فتتوسع المنطقة الإسلامية شمالا حتى تهدد أسوار القسطنطينية ، وشرقا

يتوغل المسلمون حتى مشارف الصين ، وجنوبا يتجاوزون حوض الأندوس الى الولايات الجنوبية فى شبه القارة الهندية . .

وقد برهن هذا النجاح الذى حققه الإسلام – فى سعته وسرعة انتشاره – على أصالة هذا الدين كما عزّز الثقة فيه . .

ولكن الذى كان أكثر دلالة على نجاح الإسلام وقوته أنه قد قابل مدنيّات العالم الخارجى بمبادئه الفكرية فانتزع الإعجاب والاحترام ، وبعقيدته الدينية ونظمه الاجتماعية فانتصر بلا مقاومة على المسيحية فى الدولة الرومانية ، وعلى الزرادشتية فى فارس ، كما تغلب بسهولة على الهندوكية وفلسفتها فى البلاد الهندية ، وعلى البوذية أيضا فى كل مواطنها . . أما اليهودية فإنها كانت آنذاك قد انسحبت من ميدان التنافس الفكرى إلى دائرة ضيقة داخل إطار من التعصب القومى الإسرائيلى ممثلا بأفراد أو جماعات صغيرة متناثرة هنا وهناك فى أماكن متفرقة على سطح الكرة الأرضية . .

ولما كانت الدعوة إلى الإسلام تقوم أساسا على مبدأ «لا إكراه فى الدين» فإنه من التعسف أن ينسب انتشار الإسلام إلى عامل مّا غير ذى صلة بعامل الإقناع . . وصحة القضية وصلاحية القواعد التنظيمية فى الإسلام قد سهلا إلى حد كبير مهمة المجاهدين المسلمين . . وكان التطبيق العملى للقواعد والقوانين والمبادئ الإسلامية على سكان المناطق المفتوحة يُشكِّل العامل الأهم فى إحراز انتصارات تالية . . فالرعايا الذين كانوا يرزحون تحت أثقال من جبروت رجال الكهنوت والنبلاء قد أقالهم المسلمون من أوزار الرومان الإقطاعيين . . وحينئذ تحقق لهم – فى ظل الاسلام – الأمن المطلق والكرامة الحقة والحرية المضمونة ، وكذلك كان الحال مع الفرس وغيرهم من البشر فى كافة الأصقاع التى وصل إليها الإسلام . . وهذا التطبيق الصحيح للقواعد الإسلامية كان خير داعية للإسلام . . فقد استروح فيه الناس إرادة الله فى صون الإنسانية والحفاظ على كرامتها فسارعوا إلى اعتناقه أفواجا . .

والإسلام ليس فقط كغيره مما سبقه من أديان ، بل هو دين أعمق وأوسع وأشمل . . نعم . . لقد سبق أن أطلع الله الإنسان مرارا على كنه رسالته . . ولكن الإنسانية فى كل مرة لم تكن قد نضجت إلى المستوى الذى يؤهلها لأن تفهم رسالة الله بتمامها . . وكان الله – وهو الحكيم الرءوف الخبير بعباده – يقدِّر لكل شئ قدره ، فيكشف للإنسان عن قدر من نوره لا تعشى منه عيناه، ولكنه قدر ينير له الطريق إلى الأمام ، ويزيدَمن قدرته على تفهُّم كمٍّ

أكبر من الحقيقة فيما بعد . .

أما فى هذه المرة فكانت الإنسانية قد بلغت الرشد . . واستعد ابن آدم أن يتقبل رسالة الله بحذافيرها ، فجاءته كاملة ونهائية . . وتضمن الإسلام كلمة الله تامة وشامله ، وكشف الخالق عن وجوده السرمدى وعظمته غير المحدودة . . فعرفه الإنسان – ولأول مرة – معرفة حقَّة على نحو لا يخطئ بعد ذلك أبدا . . وبحيث لا يعود إلى تصوِّره على ما يتنافى مع كماله المطلق . . كلاَّ ، ولن يسمح الله للإنسان بعد ذلك أن يعبده لأنه كما يتصوره اليهود إله قاس فظ وجبار غضوب . . صوت عذاب وليس نداء رحمة . . أو كما يتصوره النصارى أبا لنبيهم عجز عن حماية ابنه وعن تدبير وسيلة لرفعة إليه سوى أن يسلِّمه إلى شرذمة من اليهود المشاغبين فيقتلوه ويصلبوه . . ثم بعد ذلك – كما يزعمون – يضم هذا الابن إليه فى عرشه صنوا له أو عدلا وضريعا . .

ولأول مرة أيضا أعطى الله للإنسان صورة كاملة ونهائية عن الكيفية المثلى التى ينبغى أن يكون عليها سلوكه فى الأرض . . فجاءت رسالة الله فى الإسلام تامة وشاملة : فهى من ناحية مفتوحه على عظمة الله التى لا تحد، وهى من ناحية أخرى مرتبطة باحتياجات وضرورات الانسانية المتشعبة . .

ولهذا كان الإسلام دينا متميزا عما عداه . . دينا لا يمكن تحديده وإن كان من الممكن أن يرسم بخصائصه ومميزاته . .

وإذا قلنا إن أبسط تعريف للاسلام أنه مجموع ما جاء فى وحى الله إلى رسوله محمد ﷺ فإنه من الخطأ بل من الخطر أن نعتبر بعضا من هذا المجموع أونحاول أن نجزِّئه ، فالإيمان والعمل فى الاسلام وجهان لقطعة واحدة من العملة . . والثواب والعقاب فى الآخرة لا يستغنى عنهما الإسلام بما شرعه من حدود وعقوبات دنيوية ، كما أن الأخلاق ليست فضلة بعد الشريعة . .

إذن فالإسلام فى حقيقته ليس الا إيماناً خاصا حيًّا متجددا مع كل صباح ، بل مع كل هنة من لحظات الزمن فى قلب كل فرد مسلم . .

ومن المسلَّم به أن الإسلام : إنما هو دين الله لم يبدأ ببعثة محمد ، وإنما مع بدء الخليقة على الأقل . .

والله عندما خلق العالم أمر بأن تجرى قوى الطبيعة حسب نظام ارتآه . . والطبيعة مجبرة على طاعة أحكام الله وسننه الخالدة . . وهى من خلال انصياعها لأحكام الله تقوم فى

الوقت نفسه بإيضاح الصورة الممتازة التى أرادها الله لمسيرتها ، كما تكشف عن وجوده وقدرته وسلطانه على ملكوته ، وكذلك عن جلاله وعظمته . .

وقد جعل الله لـلإنسان كذلك نظاما مثاليا يجب عليه أن يسلك وفقه . . فالله من عليائه قد بيَّن للناس الكيفية التى يجب عليهم أن يتصرفوا طبقا لها جماعات وفرادى . . ولكن الانسان هنا يختلف عن بقية المخلوقات بأنه خلق واعيا وحرا . . فهو وحده الذى أُعْطِىَ حق اختيار الفعل أو الإقلاع عنه ، سواء ا(كان ذلك مجرد كسب - كما قال أهل السنة - أم آداءً حقيقيا للفعل كما يقول المعتزلة . . وكانت هذه الحرية مسئولية خطيرة وهامة . . ومن الأصح أن نقول بأن الانسان وحده هو الذى اضطلع بها ، لأنه وحده الذى هو أهل لها : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان . . . » (سورة الأحزاب : ٧٢)

وعلى هذا فالإنسان لا يستطيع أن يجنِّب مجتمعه الفوضى والانحلال إلا إذا عاش حياته مستقيما وفق شريعة الله . . ولكن أيضا له الحرية فى اختيار النهج الأعوج وتدمير النظام الاجتماعى كلِّه . .

وهذا الإنسان كان - ولمّا يزل ، وسيظل إلى الأبد - ذروة الخليقة وخليفة الله . . ومنذ بدء خليقته بيّن الله له القانون الخلقى ووضَّح له كيف يعيش ويتصرف . . فلقد كان آدم نفسه نبيا علَّمه الله ما يجب أن يفعل . . ولكن التاريخ قد سجل على الإنسان إخفاقه فى السير على هذا النهج . . كما أن أبناء آدم سرعان ما أهملوا الرسالة أو نسوها أو أضاعوها أو زيّفوها . . وكثيرا ما جاءت فترات كان فيها الإنسان يتخبط فى الظلام لا يعرف ما هو الأصوب . . حينئذ تحلُّ عليه رحمة الله فينزّل عليه الرسالة مرة ثانية . .وهكذا يكون رسول جديد يكشف لـلإنسانية عن ماهية المطالب والحقائق الخالدة . . ولكن القصة البشرية تعيد نفسها . . فمرة أخرى يهمل الإنسان الوحى أو ينساه أو يشوِّهه . . ثم يكون رسول آخر . . وهكذا دواليك . . وكثير مَّاهم هؤلاء الرسل . . غير أن الشئ الجوهرى هو أن مضمون الرسالة - رغم تعدد الرسل - كان دائما ينبع من معين واحد وعلى أسس واحدة . .

لقد كانت دعوة ابراهيم هى التبشير بوجود الله ووحدانيته وسلطانه . . ومن ذلك الحين لم تنطفئ جذوة التوحيد التى دعا إليها . . أما الوثنية فقد ازدراها ابراهيم وكذلك يزدريها على الأقل قسم من البشر . .

أما فيما يتعلق بموسى فإن أتباعه قد آمنوا برسالته ولكنهم مع ذلك لم يخلصوا كل الإخلاص فى تقبلهم لها . . فإنهم حين وضعوها موضع العمل سمحوا – أو تسببوا – بافساد النسخ التى كانت تحفظ نص الرسالة المكتوب . . فأصبحت توراتهم غير صحيحة . . أضف الى ذلك أنهم ارتكبوا خطأ كبيراً إذ أخذوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار وضنُّوا بكلمة الله ، بدلا من أن يفطنوا الى أن الله الذى سوَّى الخليقة وبرأ الكون إنما هو رب الجنس البشرى كله .

وشاء الله أن يصلح هذا الخطأ الشنيع ، فبعث فى الوقت المناسب رسولا آخر هو المسيح . . « ولجملة أسباب أدرك أتباعه الطبيعة العالميَّة للدين ، ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا يؤلِّهونه وينسبون اليه وإلى أمه تهما رهيبة . . وهؤلاء الأتباع الذين ينسبون أنفسهم إلى المسيح قد ركَّزوا اهتمامهم عليه إهمالا منهم جريئا لله الذى حطوا بذلك من سموه ومن علاه . . كما أنهم من ناحية أخرى قد أحاطوا أنفسهم بالاحترام الشخصى ، ولكنهم أهملوا النظام الخلقى الكامل ، وسمحوا للعدالة الاجتماعية أن تنزلق تاركين إدارة هذه الأمور الدنيوية لقوى علمانية ليس للمقاييس الأبدية سلطان عليها ، وهكذا فقد تركوا التاريخ يسير على هواه ، دون أن يدركوا أن الله لا يقبل أن تنتهك عدالته . .

وهكذا أخفق الإنسان مرة أخرى وأظهر ضلاله وتخبُّطه فى رفضه المتواصل وفى تشويهه للحقيقة القوية والرشاد الأسمى الذى واصل الله تقديمه له .

وهكذا يتراءى تاريخ البشرية الى هذه النقطة . . « قصة غير مشجعة » . . ولكن ثمة تقدم دون ريب ، فبعد سلسلة الإهمالات لأوامر الله جاء دور إدراك عظمة الله بالمبدأ .

وهنا يتساءل المرء : ترى هل سيعجز الناس أبدا عن استيعاب الرسالة الخالدة ؟ . . وهل سيعجزون عن العمل بها جديًّا . . وعن العيش كما أمر الله أن يعيشوا فى اتحاد خالد مع عدالة الله نفسه . . ذلك الاتحاد الذى لم تكن عملية الخلق الا مقدمة له . والذى سيبقى حتى بعد أن يقضى أمر هذا العالم الفانى ؟ . . وهل سينجح الناس فى تحويل التاريخ الى سجل خال من مرارة الفشل وتكرار الإخفاق . . إلى سجل ملئ بالرشاد المقدس ؟ ؟ .

وفى وسطٍ من ضباب الشك تتجلى رحمة الله عظيمة ، فيبادر سبحانه الى إنقاذ الموقف بإشارة من عنده ويمنح هديه السماوى للإنسان .

لقد أنزل رسالة متضمنة حقيقته وعدالته . . واختار رسولا هو خير من يؤدى هذه الرسالة ويفسرها . . يشرح حقيقة ذات الله ويبين تفاصيل الحكمة فى عدالته . . ويعيش

حياته وفق هذه الرسالة بإحكام مستقيم . . ويسير خلفه طائفة يتحمسون للمحافظة على الرسالة بصدق ، ويحملونها منتصرة قاهرة الى أطراف الأرض ، ويعملون بكل ما تضمنته من أحكام عملية . .

وفى هذه المرة توضع الضمانات حتى لا يكون هناك تشويه أو إهمال . فالرسول فى هذه المرة يتشدد فى تمييز الوحى الإلهى الخالص ويضمِّنه كتابا فريدا هو القرآن . . حيث تتلألأ الرسالة بتمامها فى لغة من الوضوح الصافى والجمال الرائع الأخَّاذ .

انها لآخر دعوة حاسمة . . ومن ثَمَّ فأتباع هذا الرسول يحافظون على تلك الأمانه محافظة الإنسان على كيانه نفسه ، لأنهم قد لمسوا فى آيات هذا القرآن عيوب التجربة الدينية التى خاضها قبلهم أقوام البشر الذين أضاعوا هداية الله بإهمالهم فى صيانة وحيه . . فهم بالتالى لا يتهاونون فى حراستها من أن تضيع حيث أودعوها قلوبهم ، ولم يتهاونوا قط فى مراجعة أنفسهم حيالها ، تماما كما يفعل رب المال الحريص فى مراجعة رصيده . . لأن هذا الرصيد هو قوام حياته كلها . . ولم يكن الوحى هذه المرة مجرد نص جامد للحقيقة السامية ، وإنما تضمن شيئا مهما عظيما بنَّاءً . . هو الحقيقة مضافا اليها نتيجتها . . وتطبيق هذه الحقيقة قد أوجد مجتمعا متطوّرا . مجتمعا تمسك جيدا بالوصايا التى أوحيت اليه ، وكرَّس نفسه لأن يعيش بموجب هذه الوصايا . . وبذلك أخذ على عاتقه أن يعيد بناء الحياة البشرية على الأرض . . وهذا المجتمع ليس بالمقصور على نفسه . . إنه على العكس من ذلك يرحب بالخلق كلهم ترحيبا حارا . . بل أنه يلح فى دعوة الغير للاشتراك فيه ، وأبواب الانضمام اليه للمساهمة فى هذا العمل الأجل الأسمى مفتوحة على مصراعيها . . وهو مجتمع ليس بالمغامر لأنه يسير بتأييد إلٓهى . وقد وعد الله جازما بأنه سوف يكون مع هذا المجتمع لإرشاده وتأييده . . هذا بالإضافة إلى أن الشرائع التى سلمت اليه والتى سيسير وفقها إنما هى شرائع سماوية خالدة صحيحه مناسبة ، فاذا ما عمل بها فإنه يكون قد عاش حياته منتظما مع كيان العالم .

وبهذه الطريقة جاء الإسلام الذى صمّم بنجاح بناء شامخا لمجتمع يسير وفق مرسوم الله . . والخطوط الأولى فى تصميم هذا البناء توضح حقيقة الإلٓه ذاته . . وهذه الحقيقة الإلٓهية تتغلغل فى كل جزء من أجزاء البناء وتتضح فى كل لبنة بل فى كل ذرة فيه ، لأن هذا المجتمع فى الحقيقة ليس الا جزءا ضئيلا من كون هائل أوجده وخلقه هذا الإلٓه . ومن ثمّ كان مجرد التوصل الى معرفة هذا الإلٓه وصدق رسالته مفتاحا يدخل به الإنسان الى

رحاب هذا المجتمع . . وكان أيضا مجرد الإقرار دليلا كافيا على نجاح الإنسان فى التوصل إلى هذه المعرفة ، وهذه السهولة فى الانتماء إلى هذا المجتمع واكتساب عضويته ليست إلاَّ مثالا لكل وجه من وجوه طبيعة هذا الدين . . هذه الطبيعة ذات النهج التطبيقى العملى . . ومن شأن كل نهج عملى أن يراعى فيه تفاوت القدرة فى كل عنصر من عناصر المساهمة فيه . وأى مجهود –مهما كان ضئيلا – يبذل شركة فى العملية التطبيقية يعتبر مساهمة فعلية . . ومن أجل هذا كانت شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله بمثابة بطاقة صحيحة تجعل من حاملها مسلما وعضوا لا يفضله عضو آخر فى المجتمع الإسلامى بأسره . . لأن الإسلام– كمجتمع – قد روعى فيه أساسا أن يتسع للعنصر الإنسانى كله . . يتسع للعالم أجمع .

ولسنا الآن بصدد الإطناب فى تعداد مزايا هذا الدين وإيضاح ما فيه من كمال يجد فيه المرء كفاية تشبع العقل والوجدان من حيث هو عقيدة ، وتحقق له الصلاح فى أمور الحياة من حيث هو عدالة وتشريع . . كما أننا لسنا الآن بحاجة الى التعريف بالقمَّة التى ارتقى إليها الإسلام فى عقيدته بالصورة التى شرح بها ذات الإله ، ولا بالطريق المثلى التى طبَّق بها عدالة الله ، ولكن يكفينا هنا أن نعيد الإشارة إلى الفترة الزمنية التى عاشها الإسلام فى تاريخ الإنسان . . أربعة عشر قرنا من الزمان كانت فيها التعاليم الإسلامية هى الدافع الأقوى فى (ديناميكية) التطور الحضارى الإنسانى مادامت هذه التعاليم محل اعتبار من الإنسان . . كما ظلت العقيدة الإسلامية من حيث التعريف بذات الله وصفات العظمة والجلال والكمال فيه تريح روح الإنسان وتملأ شعوره بالإيمان الواثق المطمئن .

وإذا كان الانسان قد ظل طوال تاريخه فى هذا الوجود قلقا شقيا يبحث عن راحة الضمير فى الإيمان ، وعن أمان النفس فى العدل والحرية ، فإن الإسلام قد أتاح للإنسان حلاًّ لمشاكله . . وأتاح له على نطاق واسع كل ما كان ينشده ويبحث عنه . . أعطاه ثلاثة أمور جوهرية : أولها تفسير روحى لحقيقة العالم ، وثانيها تحرير روحى لذات الفرد ، وثالثها نظام من المبادئ العالمية توجِّه تطور المجتمع الانسانى على صعيد روحى ومادى معا .

وإذا كان الإسلام قد تكامل فى حياة النبى كدين يشتمل على عنصرين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر : حقيقة إلهية وعدالة إلهية . . فإن المجتمع الاسلامى الأول الذى قام على أساس هذا الدين لم يكن أبدا فى حاجة إلى شئ آخر خارجى غنه لكى يبسط سلطانه بقوة الدين وحدها على معظم الرقعة المأهوله من العالم فى أقل من نصف قرن من الزمان . . وتبدو هذه الحقيقة الرائعة دليلا قويا على أن الإسلام قد حقق حاجة الإنسانية . وأعطاها

الجواب المقنع للتساؤل المحيِّر الخالد الذى ظل على الدوام يقلقها ويشقيها . . إذا أخذنا فى اعتبارنا أن الاسلام عندما زحف من بيئته الأولى – شبه الجزيرة العربية – وتوسع كطوفان جارف الى العالم الخارجى لم يكن هذا الاكتساح المذهل فى أرض خلاء . . وإنَّما كان فى منطقة شاسعة احتلتها ورسَّخت أقدامها فيها من قبله ديانات وفلسفات ومدنيات وحضارات لها قيمتها ولها قوتها . . ولكنها لم تستطع أن تصمد أمامه وإلى الأبد . . فحضارة فارس وفلسفة الأغريق ومدنية الرومان والمسيحية واليهودية قد ولَّت كلها أمامه وانهزمت . . ولم يحصل لأى منها بعد ذلك خلال ثلاثة عشر قرنا ونيِّف أن استطاعت أى منها أن تسترد موقعا قد كسبه الاسلام من قبل . .

وإذا كانت المسيحية قد عادت بسبب أحد الأخطاء التاريخية إلى أسبانيا فليس فى ذلك ما ينقض مجمل الحقيقة ، فإن المسلمين فى أسبانيا قد هجروا المنطقة أمام غزو الأفرنج ، والذى لم يستطع منهم الهرب قتل ولم يرتدّ عن دينه ، وشبيه بذلك تماما قيام إسرائيل فى الرقعة المغتصبة من الأرض المقدسة. إذ ليس معنى هذا أن اليهودية قد عادت فى آخر الزمان واستردت من الإسلام موقعا ، بل إن الذى تمكن منه البغى اليهودى قد قتل ، ومن فر بحياته ودينه بقى على الحدود شريدا لاجئا . وإذا كانت هناك أقلية ضئيلة لم يسعفها الحظ بالقتل أو الفرار فإنها بقيت تحت النير اليهودى أسيرة مستذلة . . ولكن المسلم منهم سيظل متمسكا بدينه قويا بصبره حتى تلحقه عناية الله بالتحرير أو بالموت . .

أما نجاح الاسلام فقد كان شاملا ومثيرا معا . فالفتح الإسلامى لم يكن يعنى بامتلاك الأرض . . وإنما كان يهمه أن يكتسب الإنسان . وحتى فى هذا لم يكن يريده مرغما أو رقيقا مهدَّدا ، وإنما كان يريده عقلا مقتنعا ونفسا مؤمنه . وكان المسلمون الفاتحون يبقون أهل البلاد المفتوحة على ذمتهم وفى دينهم ، ولا يمنعون أحدا منهم من آداء شعائر دينه الذى كان عليه قبل الفتح . . بل يضمنون له الحرية الكاملة فى العقيدة والعبادة ، ولا يتعرضون لكنيسة أو بيعة .

لقد ظلت دائما عملية التبشير بالدين الاسلامى والدعوة له منذ بدأها النبى ﷺ تسير تحت شعار « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . . وتحت هذا الشعار أيضا اكتسب الاسلام فى فتوحاته الأرض والإنسان معا ، وسارت موجه الاكتساح الإسلامية بشكل متناسق . . تزيد من مساحة الأرض تحت السيادة الإسلامية ، وفى نفس الوقت وبنفس النسبة تزيد من عدد أعضاء المجتمع الاسلامى وتكسب للاسلام أنصارا جددا .

وفى كل ذلك لم يكن هذا النجاح قوميًّا ولا عنصريًّا وإنما كان نجاح الإسلام الخلَّاق المسئول . . فهؤلاء الذين فتحوا القدس والشام ووادى النيل وشمال أفريقيا وأسبانيا من ناحية ، وأرض الرافدين وأواسط آسيا وشطرا من الهند من ناحية أخرى لم يبرهنوا على أنهم محاربون شجعان أكفاء بقدر ما برهنوا على أنهم مؤمنون مخلصون لدين أصيل بنَّاء . . وبفضل هذا الدين أوجدوا للعالم حضارة جديدة وأسسوا مجتمعا جديدا قام على أساس من دين قويم جعل الحياة كلاًّ تتألف منه تلك الحضارة .. والمجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية لم ينبنيا على الجهود العربية وحدها – وربما كان ايمجهود العربى فى عملية البناء هذه ضئيلا لا يذكر– وإنما أسهمت فيها بالقسط الأوفر عناصر هلينية وعناصر من ثقافات الشرق الأدنى القديم الساميَّة وأخرى من ايران الساسانيَّة وأخرى من الهند ، وكذلك أسهمت فيه عناصر من مصر وبدو الصحراء الكبرى والبربر والأندلس . . وقد صُهر كل ذلك فى بوتقة واحدة وخرج سبيكة إسلامية جديدة متميزة عن أصولها القديمة تميُّزا كليًّا ، وكان الإسلام هو الوقود الذى أتم هذه العملية كما كان الضمان الوحيد لصيانة هذا الشئ الجديد المدهش والمحافظة عليه . . كما أعطى الشكل الإسلامى لكل ناحية من نواحى الحياة مهما كان الشئ الذى تنطوى عليه . وقد كان هذا الطابع الإسلامى هو الذى أعطى المجتمع الجديد صلابته وحيويته . . . ويقول ولفريد كانتويل سميث (Wilfred Cantwell Smith)

فى الفصل الأول من كتابه «الاسلام فى التاريخ الحديث»

(Islam In Modern History)

«إن مركز هذه القوة الموحِّدة لم يكن الا الدستور الدينى الذى نظَّم ضمن تياره القوى المحكم كل شئ من شعائر الصلاة الى حقوق الملكية ، وأن ذلك الدستور قد منح التماسك والقوة للمجتمع الإسلامى وزوده أيضا بديناميكية التطور وقوة الاستمرار» .

والآن وإذا كنت قد آثرت فى البداية الاكتفاء بوقائع التاريخ لأثبت أن الإسلام قد حقق ضرورته ، فإن التجربة الإسلامية قد برهنت على أن هذا الدين لم يلبِّ الحاجة البشرية فحسب بل أنه فتح أمام الإنسان أيضا الآفاق التى لا حدود لها . . ورسم له الطريق واضحا لكى يستغل كل ما وهبه له الله من عقل وحواس وإمكانيات فى اقتحام هذه الآفاق . . والقرآن كثيرا ما يحث المسلمين لأن ينتفعوا بما أنعم الله به عليهم . وأباح لهم الطيبات ، وأمرهم بالسعى وعدم القعود ، ورسم خطط هذا السعى . . حركة دائمة الى الأمام . . تجدد نحو الرقى . . وتقدم فى تيار التطور . . فلا وقوف ولا انتكاس . . وهذا

المسلك السليم الذى وضّحه القرآن لم يكن يعتبر أنَّ بذل الجهود فى سبيل التبشير بالدعوة الإسلامية ، واكتساب الأعضاء الجدد للمجتمع الاسلامى جهاد فى سبيل الله فحسب . . بل إنه ضاعف لذلك الثواب . . فالدين الإسلامى دين البشرية جمعاء ومجتمعه أتاح الانتماء اليه لكل إنسان . . ودعوته عملية ديناميكية دائمة الحركة ، من طبيعتها ألاَّ تتوقف فى أية ناحية ، بل تسير فى كل اتجاه حتى تغطِّى سطح الكرة الأرضية بمجتمع إسلامى بحت . . وهذه الغاية ليست بالبعيدة أو عسيرة التحقيق ، لو أن كل فرد أو جماعة من المسلمين تشبَّعوا بالمبادئ الإسلامية ، وعملوا بمقتضى تعاليم هذا الدين وبذلوا الجهود الكافية للدعوة له . . واستعدوا لهذه الدعوة ووفروا لنجاحها الإمكانيات . . وهكذا كان شأن المسلمين الأول . ولهذا انتشر الدين . . وبفضل هذه الجهود الأولى ارتفع المد الاسلامى وطفح الى الغاية التى كانت أقصى ما تستطيع أن تصل اليها تلك الدفعة الأولى . . وما أبعدها من غاية وأوسع به من مدى ! ! . . والنظرة المتفحصة تدرك ولا شك أن تلك الدفعة التوسعية فى تاريخ الإسلام لم تتعد مدة خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخليفة الثانى ، أما عهد أبى بكر الصديق الخليفة الأول فلم تكن سوى فترة استكمال لمهمة النبى عليه الصلاة والسلام : إرساء لقواعد الدين وتثبيتها فى نفوس الأتباع الأول . . وتربيتهم على هذه القواعد الروحية الجديدة ، وجمع شملهم حولها ليتكون منهم – وهم العناصر الانفرادية المتنافرة – مجتمع إسلامى صغير واضح المعالم فى نظمه وصور تكوينه . . بحيث يكون هذا المجتمع الصغير نواة صالحة لمجتمع إسلامى أكبر وأوسع وأشمل .

وقد أبدى كثير من المؤرخين دهشتهم من أن سعة الأقطار التى بسط الإسلام عليها سيادته كانت أعظم وأكبر من القوة التى جندت للفتوح الاسلامية ولا تتناسب مع الأمد القصير الذى تم فيه النصر . . وقد حقَّ لهؤلاء المؤرخين أن يدهشوا ، فقد نظروا إلى المجاهدين المسلمين كجنود ، وكقوة حربية ، وفاتهم أن هؤلاء المجاهدين كانوا دعاة يدعون لدين الله ، ويسيرون على هدى من الله ، ويعملون وفق تعاليمه ويلتزمون مبادئه ويطبقونها . . وبذلك لم تكن القوة الحربية تمثل فى حقيقة الأمر إلا قدرا غير كبير من العوامل التى أسهمت فى نشر هذا الدين ووسعت أطرافه ، وكان أقوى هذه العوامل وأشدها تأثيرا وحسما هو الدين نفسه : فقد لبى حاجة الانسان الروحية والمادية ، ووازن بين نفسه وحسه ، ولاءم بين شخصه ومجتمعه ، وضمن له الأمن والكرامة ، والعدالة . . فلا فرق بين إنسان وإنسان ، ولا فضل لفرد على فرد . . . وبقدر محافظة الانسان على دينه وجهوده فى السعى فى أمور

دنياه تكون قيمته ومنزلته أمام الله والناس .

ومن أجل ما فى هذا الدين القويم من قوة فقد تمكن من أن لّا يهدى فقط سكان المناطق المفتوحة بل إنه تمكن أيضا من أن يهدى الغزاة . . ففى غضون خمسين عاما من بدء اجتياح المغول للرقعة الإسلامية وتدميرهم لكل تراث إسلامى تحول هؤلاء الغزاة من برابرة كفرة إلى مسلمين موحدين ، فتحضَّروا واضطلعوا هم أنفسهم بدور البطل فى القضية الإسلامية . . وكذلك بفضل ما لهذا الدين من قوة فإن هؤلاء الغزاة الكفرة قد تعهدوا – بعد أن هذبهم الاسلام – بعقيدة وقوة وألمعية أن يعملوا على تجديد حيوية هذا الدين الذى سبق لهم أن أسقطوه ، وأن يدفعوه ثانية الى الأمام .

والآن فلنختتم هذا العرض التاريخى الموجز الذى من خلاله أوضحنا كيف أن الإسلام وقد جاء لضرورة عالمية ملحة قد حقق هذه الضرورة . . فقد تكفل بهداية الانسانية جمعاء ، وأرضى ضمير الإنسان وروحه ، ولبى مطلبه فى العقيدة والإيمان ، ورسم الطريق لبناء مجتمع عالمى يقوم على أسس من العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية ، وعالج ما كانت قد تردت فيه الإنسانية قبله من أخطاء ، وقضى على ما كان يخالطها من شرور . . وليس من المهم الآن أن نوضح بالأدلة لم كان الإسلام كذلك ، أما الآن فيكفينا أن أوضحنا نجاح الإسلام فى مهمته عبر تجارب التاريخ . وقد رأينا كيف تغلبت العقيدة الإسلامية ، وكيف أن التعاليم والمبادئ الإسلامية مكنت المسلمين الأوائل – لأول مرة وبلا سابق تجربة – من أن ينجحوا فى تحمل عبء الحكم ومسئولياته ، كما أنهم نجحوا فى تحمل ما هو أكثر من ذلك الا وهو عبء الخلق الحضارى فى أوسع معنى ، ورأينا أيضا كيف اضطلعوا بهذه المسئولية فى تفوق وامتياز . . . وهذا يجعلنا نحن مسلمى العصر الحاضر نتطلع الى المستقبل بثقة واطمئنان . . فنحن على الأقل أكبر من أسلافنا قوة وأكثر عددا ، فإذا استكملنا ما تفوقوا علينا به وهو الاستمساك بالدين ، أمكننا أن نستأنف دورهم فى قيادة العالم وهدايته وتخليصه مما يرزح فيه الآن من شرور أخطاء الإنسان ومطامعه .

لقد رأينا أن الله علَّم البشر كيف يعيشون ، ورأينا أن الذين قبلوا تعاليم الله وراحوا يعيشون بموجبها تنعَّموا ببركات الله ... وهؤلاء يجب علينا أن نترسم خطاهم وأن نواصل العمل فى توضيح كلمة الله التى نطق بها من خلال الاسلام . . تلك الكلمة التى تمسك بها اسلافنا فربحوا . . والنجاح الباهر الذى أصابه مسعاهم برهن على صحة القضية كلها . لقد أكد التاريخ صحة الإيمان .

زاهر عزب الزغبى

التكنولوجيا وسيلة إلى الإيمان

الدكتور حسن محمد الشرقاوى

ان النجاح الحقيقى للانسان فى هذه الحياة لايكمن فى حقيقة الأمر فى الحصول على أكبر لذة أومنفعة أومصلحة ذاتية[1] ، وتجنب أكبر ألم ممكن كما يتوهم كثير من المتفلسفين والمتبطلين وأنصاف المتعلمين .

إن هذا التصور القاصر للغاية من الحياة ، يجعل الإنسان فى كهولة مظلمة ، مريضا فى صراعات قاتلة ، خائفا من كل شىء ، شاكا فى كل شىء ، الأمر الذى ينتهى إلى فقدان اللذة المزعومة ، والمنفعة المطلوبة ، وبذلك لايحقق ما استهدفه من لذات ، ويرجع بخفى حنين ليحيا حياة اليأس والضياع والقنوط .

لقد قامت فلسفات عديدة ومازالت تقوم إلى الآن فى الشرق الغرب مذاهب ونظريات توظف رأسمالها فى الدفاع عن النزعات الالحادية والنعرات اللاأخلاقية بغرض الزج بالناس فى شراك المادية الظالمة وعبادة التماثيل الحسية الجامدة والسجود لتكنولوجيا باعتبارها المعبود الأوحد . .

ويندفع المستجيبون لهذه المزاعم إلى طريق مسدود بعد تخديرهم بأفيونها الفتاك واستحواذهم بأساليبها العارية وإثارتهم بنعرات الجنس المحمومة وإقامة قصور لهم من الوهم على أكوام الرمال . .

ويتجه إنسان هذا العصر المخمور حتى الثمالة إلى حتفه الأبدى دون أن يدرى ، وإذا ماأفاق برهة من سكره ، ووعى ماحوله ، سارعت الدعايات الكاذبة ووسائل الإعلام المغرضة فأطبقت كسكين الجزار على رقبته لتمنعه من التعبير عن رأيه حتى يسلم لها القياد فى أمره مكرها لابطلا . .

أن كثيرا من تلك الفلسفات المعاصرة تقتل فى النفس الأمن والأمل وتذهب بالانسان إلى صحراء الضياع ليتناسى الهدف من خلقه ، ويتغافل عن خالقه ، ويترك هناك وحيدا فى

(١) لمزيد من الاطلاع فى هذا الموضوع يرجع إلى المذاهب التجريبية والعلمية والنفعية .

أرض قفراء ، لازرع فيها ولاماء ، ليبحث عن الكنز المفقود ، والحقيقة الكبرى التى ليس لها وجود .

ويمضى إنسان هذا القرن المسكين وقد أدمى شوك الصحراء القاحلة قدميه ، وملكه الجوع والعطش واعتصره الألم ، وفاض به الحنين ، ولامعين له ولارفيق فى هذه الرحلة القاسية فى عالم الدنيا الزائلة . .

لقد ظلم إنسان هذا القرن عندما فرض عليه أن يمسك بدمية يتلهى بها ، لاتأكل ولاتشرب ولاتضر ولاتنفع أسموها « التكنولوجيا » فصارت بعد أن سحب عقله ، وفقد السبيل إلى ربه محسوبته الوحيدة وأمله الباقى ، وأغنيته المفضلة ، وإذا بالناس يجدون لذاتهم فى التضاحك والسخرية والاستهزاء بعضهم بالبعض ، وكأننا نعيش فى سيرك كبير لايعرف من منا الذى يضحك من الآخر . .

لقد تحول الانسان فى عصرنا هذا إلى قزم صغير وتابع حقير فى لعبة التكنولوجيا الحديثة ، فهى أبدا تبهره بجمالها ، وتثيره بفتنتها وتكشف له عن ساقيها ، فيذوب فى سلطانها ويتقوقع فى فلكها ، ورغم أنه الذى استجلبها فهى التى تسيّره ، وهو الذى صنعها ويصنعها بيده إلا أنها هى التى تقهره فيسجد لها عابدا ، يدفعها أمامه كأنها قبلته ويجرى خلفها كالطفل الساذج الذى لاحول له ولاقوة إلاالعبث واللعب واللهو ويظن أنه يحسن بذلك صنعا . .

ومازلنا إلى اليوم نتهم الجاهلين الأولين الذين عبدوا العجل والتماثيل بأنهم كانوا قوم بداوة وتخلف ، وما أدركنا إلى الآن أننا ننتكص مثلهم إلى هذه الردة ، ونمضى القهقرى فى جاهلية القرن العشرين ، ولكن بأسلوب جديد . .

إننا الآن وقد فتنَّا بالحديث والمستحدث ، والجديد والمستجد ، نعبد طاغوت الهوى ، ونسجد لآلهة الشهوات ، ونركع مستعبدين لمثيرات الجنس ليحرك فينا غريزة الحيوان ويلهبنا بأسواط القلق ، والخوف والعذاب ، ونحن نحسب أن ذلك كله جنة الله فى أرضه وهى النار التى أعدت للكافرين . .

لقد ضاع كل شيء مع عبادة التكنولوجيا الحديثة فلامحبة ولاوئام ، ولاطاعة ولا إخلاص ، فالقوى يأكل الضعيف ، والكبير يسحل الصغير ، والكل لهى يتصارعون على أطباق الطعام الذى لايسمن ولايشفى من جوع . .

إننا ننسى أنها الدنيا ، تلك الرحلة القصيرة التى ماتلبث أن تنتهى وننسى أونتناسى أننا

سنلقى بعدها فى ساحات الموت ، وفى سراديب النسيان ، يغطينا الطين والحجارة وهناك حيث تنخر الديدان أجسادنا ، ويتسرب السوس إلى عظامنا ثم تتحلل أجسادنا ولايبقى شىء سوى رحمة الله وفضل الله .

ماذا تستطيع التكنولوجيا أن تفعل فى رحلة الموت ، تلك الدمية المسحورة ، أتبعث ذلك الجسد المتحلل فى الأرض الميتة حيا من جديد ؟ . . أتساعد صديقها الذى أفنى حياته فى حبها ؟ . . أتخلصه من هذه الهوة السحيقة التى تردى فيها ، أم تبحث عن صيد جديد ؟ . .

لقد أخلص إنسان القرن العشرين فى عبادة الآلة الجامدة الصماء ولم يؤمن بالإله الواحد . . وأطاع شيطانه فهوى على أم رأسه ذليلا متحسرا ، بعد أن فجع فيما ظن أنهم الأولياء والشفعاء ، وتقاذفته ريح عاتية ففقد كل شىء وكأنه لم يكن شيئا مذكورا . .

ربما يعلم بالأكذوبة التى يعايشها ، ولكن بعد فوات الأوان بعد أن يتردى فى الخسران والضياع ، وبعد أن يتأكد له أنه أمضى حياته لعباً وعبثاً ، ولم يتبع الحق الواجب الاتباع . .

ألا يجدر أن يتعظ الظالمون فلايتورطوا فيما وقع فيه السابقون ، اذ أن لحظة الموت آتية لاريب فيها ، وكلنا ذائق من كأسه ، فلماذا العناد ، ويوم الميعاد قريب ولماذا التغافل ولن يوقف قضاء الله علم ولاأسباب ولاظواهر ؟ . .

ألايجدر بنا أن نعقل الحقيقة الكبرى ، وأن نعرف أن الموت ليس ظنا ولاوهما وإنما هو عين اليقين ، وأننا مهما تهربنا منه فهو آت لاريب فيه . .

لماذا التسابق إذن من أجل شهوات فانية ، ولذات ضائعة ، وأمانى غرورة ؟ . .

لماذا لايكون تسابقنا من أجل مغفرة من الله ، وجهادنا فى سبيله من أجل أن نحظى ببعض من فيض رحمته ؟ . .

لماذا لايكون تنافسنا لننال فضل نعمته ، وسعينا من أجل تحقيق أمره وشريعته ؟

أيها الغافلون فى بحر الظلمات . . إن ساعة الموت لاتعادلها الدنيا ومافيها من زخارف ومتاع ربانى ، إنها تأتى بلامقدمات ولاترتيبات ، إنها أمر قاطع يقينى ، فلماذا لانعد له العدة ليفتح الله لنا أبواب مننه ويغمرنا بوافر عطاياه ويكون الرسول ﷺ شفيعا لنا من العذاب المقيم . .

لقد طال العهد بالجاهلين ففسقوا من أمر ربهم ، وحسبوا أن الدنيا قد دانت لهم ، وأنهم بغرورهم قادرون عليها ، وأنهم يحسنون بذلك صنعا ، ولايدرون أنها القاضية وحقت

كلمة ربك عدلا وصدقا ، وأنهم ملاقونه عن قريب حيث لاينفع الإنسان مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم . .

لن ينفعهم مااستحدثوه من آلات ، وما استجلبوه من أدوات ، وماأقاموه من عمارات وبنايات ، وماصنعوه من عقول الكترونية جامدة وماركبوه من سفن الفضاء السابحة ، لن ينفعهم كل ذلك ماداموا فى شططهم يعمهون ، وفى غيهم يكابرون ، وفى ظلمهم يفاخرون ، وفى طلبهم اللذات والشهوات لايشبعون .

إن التقدم العلمى ، والرقى الحضارى ، واستكشاف غامض الطبيعة التى خلقها الله ، كان يجب أن يزيد المؤمن إيمانا ، إذ هى وسائل تبين للعالم فى وضوح حجج الله الدامغة وحكمته تعالى البالغة ، فكل مايتوصل اليه العلماء من أسرار خفية هى شهادة لله أنه خلق فأبدع ، وأنه أمر فعدل ، وأنه حكم فأوفى ، وأنه قدر فهدى . .

إن على العلماء أن يراجعوا أنفسهم ويشكروا الله على ماهداهم إليه وأن ينسبوا مايتوصلوا إليه من علم إلى فاطر السموات والأرض ومابينهما العليم الخبير ، الخالق على الحقيقة فلايغتروا بعقولهم ولايكابروا فيما يسره الله لهم من الأدوات والقدرة على الملاحظة والتجريب .

إذا أراد انسان القرن العشرين أن يهتدى إلى العلم الحق ، وينعم بالأمن والسكينة فليتوجه بكليته فى تواضع بلاريبة ولاتشكك إلى فاطر السموات والأرض ومابينهما ، ليأخذ بيده فى الحلكة الدامسة ، وأن يقيم وجهه للدين القيّم الذى شرعه الله للناس جميعا ، وجعله فطرتهم التى فطروا عليها ، عند ذلك سيعلم الصادقون أن طريق الله هو الأسلم والأغنى والأخلد ، وأن زخارف الدنيا دمى لاتشفى ولاتغنى من جوع . . وأن الإيمان بيت الله الأقيم الذى إذا دخله الإنسان كان آمنا فلاخوف ولايأس ولاقنوط . .

وهو بذلك يكون قد حقق الرسالة التى من أجلها أوجده الله على الأرض ، وفى يوم اللقاء العظيم يعرف يقينا أن لاظل إلا ظله . .

فليكن الإنسان مايكون ، مهندسا أومفكرا أوفنانا أوماشاء الله أن يكون ، ولكن يجب أن يكون قلبه متوجها دوما إلى وجه الله الكريم حتى يمكن أن يحظى بالسعادة الكبرى واللذة التى تبقى ولاتفنى ويتحقق له ماوعده الله من جنات ونعيم . .

دكتور حسن محمد الشرقاوى

كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

مبادئ فى القيادة من هدى النبى

اللواء محمد جمال الدين محفوظ

القيادة ضرورة اجتماعية :

يقرر الرسول ﷺ أن القيادة ضرورة لصالح الجماعة ، فمع وجود عدد من الأفراد فى عمل مشترك تنشأ الحاجة إلى من ينظم العلاقات فيما بينهم ويوجه طاقاتهم نحو تحقيق الهدف المرجو من ذلك العمل ، وذلك هو دور القائد . قال عليه الصلاة والسلام : «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمِّروا أحدهم» وفى هذا توجيه إلى ضرورة وجود قائد للجماعة حتى ولو كانت صغيرة جداً .

الطاعة حق للقائد على مرؤسيه :

وترتيباً على أن صالح الجماعة يقتضى وجود قائد لها ، فإنه لابد أن يطيع أفرادها أوامر قائدهم ، فذلك لصالح الجماعة أيضاً . . ولقد كرم الإسلام القائد خير تكريم ووضعه فى أسمى منزلة وجعل حقه فى الطاعة ثابتاً مقرراً فى أكثر من آية فى القرآن الكريم :

- «يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» .
- «وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون» .
- «من يطع الرسول فقد أطاع الله» .
- «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» .
- «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين» .

ويقول النبى ﷺ فى حق القائد فى الطاعة :

- «إسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى» .
- «إنما الطاعة فى المعروف» .
- «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» .

– «من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى» .

الكفاءة والحب أهم معايير الاختيار :

قال عليه الصلاة والسلام : «أيُّما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس ، علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين ، وأيُّما رجل أمَّ قوماً وهم له كارهون ، لم تجز صلاته أذنيه» (لم تجز أى لم تتعد) .

يضم هذا الحديث الشريف الشرطين الرئيسيين للقائد وهما الكفاءة والحب :

● الكفاءة ، فى القسم الأول من الحديث وهى أساس التفضيل عند الاختيار إلى درجة أن الانحراف عنها يعد غشا لله وللرسول ولجماعة المسلمين .

● الحب ، فى القسم الثانى من الحديث حيث تبلغ أهميته كشرط فى اختيار القائد إلى حد سقوط الصلاة عن الإمام الذى يكرهه الناس . كذلك قال عليه الصلاة والسلام : «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، وتصلُّون عليهم ويصلون عليكم (أى تدعون لهم ويدعون لكم) . وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم» .

الرجل المناسب فى المكان المناسب :

يقول عليه الصلاة والسلام : «كلٌّ ميَّسر لما خلق له» .

ويقول أيضاً : «إنى لأؤمِّر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب» .

وينطوى هذا المبدأ الذى يقرره الرسول على المعانى التالية :–

● ضرورة المواءمة بين قدرات الفرد واستعداداته ، وبين متطلبات العمل الذى سوف يسند إليه ، فإن قيام الفرد بالعمل الذى تناسبه استعداداته وقدراته ، يمكن من استغلال طاقاته أفضل استغلال مما يرفع من مستوى الآداء ومن مستوى الكفاية فى تحقيق الأهداف والنتائج المرجوة .

● ضمان «الصحة النفسية» للفرد الذى يوضع فى المكان المناسب لقدراته ، لأن التوافق بين الفرد والعمل ، يوفر للفرد المناخ والفرصة لتحقيق ذاته فى ميدان العمل ، ولتكيِّفه وتوافقه مع البيئة التى تحيط به ، ولسلوكه بالطريقة التى تتفق مع فكرته عن نفسه ،

وشعوره بالسعادة والرضا عن نفسه وعن عمله وعن الآخرين . وكلها أمور ينادى بها علماء النفس والصحة النفسية ويعدونها من أهم أسباب النجاح فى إنجاز الأعمال .

صور من هدى الرسول :

● ولقد طبق الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه مبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب وكان حريصاً عليه ، فسجل عصر النبوة قدرته الفائقة ، وخبرته الواسعة ، وبصيرته النافذة فى معرفة النفوس والأخلاق والمواهب والقدرات ، ومعرفة ما يلائمها من المهام والأعمال وكذلك معرفة الوقت المناسب .

وقد عبَّر الأستاذ العقاد عن عبقرية النبى فى هذا المجال فقال(١) :

فمن علامات العظمة التى تحيى موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها ، أولاهما أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم ، ولأى المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ، ومتى يحين أوان ندبته (أى دعوته للعمل) ومتى ينبغى التريث (الانتظار والتمهل) فى أمره إلى حين . .

وقال عن اختيار أبى بكر للخلافة : إن محمداً عليه السلام قد عرف من هم رجاله وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه بعد وفاته ، فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم ، والعمل الذى يتولاه خير ولاية فى ذلك الموضع . فلقد كان عليه السلام يعرف فى أبى بكر الرفق والدعة واللين ، ويعرف فى عمر الشدة والقوة والصرامة ، فاختيار أبى بكر للخلافة بعده ، كان وضعاً له فى المكان الذى يناسبه ، لأن الإسلام كان فى حاجة إلى الرفق والدعة والتآلف من أبى بكر ، كما كان فى حاجة إلى الشدة والصرامة والقوة من عمر ، وقد ضمن النبى كل ذلك باستخلاف أبى بكرٍ ، لأن شدة عمر ستكون مع أبى بكر معبأة حاضرة إذا احتاج إليها .

● وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ (أى تولينى عملاً عامًّا) قال فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذ بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » .

(١) عبقرية عمر – عباس محمود العقاد .

● وفى مجال الحرب كان عليه السلام يعرف كيف يختار القائد المناسب لما يحتاج إليه الموقف الحربى ، فقد بعث عمرو بن العاص على سرَّية فيها أبو بكر وعمر ، فلما وصلوا إلى مكان الحرب نهاهم أن يوقدوا ناراً ، فغضب عمر فنهاه أبو بكر وأفهمه أن الرسول لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فهدأ عنه ، واقتنع بوجهة نظره . . وفى غزوة أحد أمسك الرسول بسيف وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال يريدون أخذ السيف ، لكن الرسول أمسكه عنهم حتى قام أبو دجانة فأعطاه له . ولقد أثبتت حوادث المعركة حسن اختيار الرسول القائد لأبى دجانة ، فقد سأل رسول الله قائلاً : وما حقه يا رسول الله ؟ ، قال الرسول : أن تضرب به العدو حتى ينحنى . ولقد قاتل أبو دجانة بهذا السيف قتالاً شديداً ، فلما دارت الدائرة على المسلمين قام بعمل يدل على الشجاعة والفدائية ، إذ حنى ظهره على الرسول وجعل من ظهره ترساً تحميه وكان النبل يقع فيه .

التجرد من الهوى عند الاختيار :

● عن يزيد بن سفيان قال : قال لى أبو بكر الصديق حين بعثنى إلى الشام : يا يزيد ، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله ﷺ : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فأمَّر عليهم أحداً محاباة ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » (صرفاً ولا عدلاً : أى لا يقبل الله منه فرضاً ولا نفلاً) .

● ومن أروع صور التجرد عن الهوى وعدم المحاباة حرص النبى ﷺ أن يواجه آل بيته قبل غيرهم مكاره الحرب ، وأن يقاسموا المسلمين فى شدائدها ومصاعبها ، وبخاصة حين نادى المشركون : يا محمد أخرج لنا الأكفاء من قومنا ، فقال الرسول : « يا بنى هاشم قوموا قاتلوا بحقكم الذى بعث الله به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله » فقام حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف .

● كذلك عين الرسول الكريم ﷺ بلالاً رضى الله عنه والياً على المدينة ، وفيها من فيها من الأنصار والمهاجرين ، وولَّى أسامة بن زيد – وهو أحد الموالى – قيادة جيش كان فيه أبو بكر وعمر وغيرهما من كبار الصحابة ، وبعث عبادة بن الصامت سفيراً للمسلمين إلى المقوقس ، وكان عبادة أسود اللون حتى طلب المقوقس إبعاده عنه ، إلا أن أعضاء وفد المسلمين قالوا له : إننا لا نستطيع ذلك لأنه رئيسنا وأفضلنا عقلاً ، وأسددنا رأياً ! !

● وهكذا يقرر الرسول ﷺ أن الاختيار أمانة ، والأمانة عصب الأمة فى جميع شئونها ، فالله تعالى يأمرنا فيقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وأمانة الاختيار تعنى استقامة الضمير ونقاء النفس وشجاعة الرأى وخلوص القلب من الجبن والرياء والنفاق على أساس من العلم والمعرفة ، وتعنى تنزُّه الإنسان عن اختيار غير الأكفاء لمنفعة أو لهوى . يقول الله تعالى :

— « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

— « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا » .

وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى ﷺ بخصال من الخير : أوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مُرًّا » .

● ثم إن شأن الذى لا يختار بأمانة ، وبهدف المصلحة العامة ، وشأن من يستشار ولا يقول رأيه بصدق وإخلاص واختار من لا يصلح ، شأن من يشهد شهادة الزور ، والشهادة الكاذبة من مظالم اللسان التى يضيع بها الحق ، وتختفى معالم العدل ، والله تعالى يحذر من قول الزور ويقرنه بعبادة الأوثان فيقول : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » .

ويقول النبى ﷺ :

« من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل ، فليتبوأ مقعده من النار » .

● وشأن من يتجنب إبداء الرأى فى اختيار الأصلح ، شأن من يكتم الشهادة ، والله تعالى يحذر من كتمان الشهادة فيقول : « ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

من صفات الحاكم

لا يُقِيمُ أَمْرَ النَّاسِ إلاَّ حَصِيفُ العُقْدَةِ ، بَعِيدُ الْغُرَّةِ ، لاَ يَطَّلِعُ مِنْهُ النَّاسُ عَلَى عَوْرَةٍ ، وَلاَ يَحْنَق فى الحقِّ عَلَى جِرَّة ، وَلاَ تَأْخُذُهُ فى اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ . .

عمر بن الخطاب

وقفة على مشهد .... !

الأستاذ : السيد حسن قرون

لا أدعى أنى لا أعرفه ، ولا تربطنى به صلة ، أولا يمت إلىّ بسبب ، فأنا أعرفه حق المعرفة ، وكثيراً ما تراءى لى فى اليقظة أو المنام ، وإنى لأذكره فى كل مقام ذكر فيه الشهداء ، أو الذين قتلوا دون ذنب جنوه ، وحين أتلو من القرآن قصة ابنى آدم تطل على صورته ، ويحضرنى مصرعه حتى كأنه مات بالأمس أو صرع اليوم ، ورأيتنى بقصد أو دون قصد أتتبع ما كتب عنه قديماً أو حديثاً ، وما كتب عنه لا يشبع دارساً أو مؤرخاً أو قاصًّا ، ولكن الذين تعرضوا لتاريخنا الإسلامى يذكرونه كأنه علامة على الخطأ ، أو إشارة إلى الخطر ، أو دعوة إلى النظر والاعتبار ، إلى أن جاء العصر الحديث فقرأت للدكتور طه حسين أسطراً عنه فى كتابه «مرآة الإسلام» ، فدفعنى شعورى دفعاً إلى أن أكتب عنه علَّ الكتابة تخفف ما أشعر به نحوه من إشفاق ورثاء وبكاء ، أو تعيننى على التهوين من شناعة مصرعه ، أو التأسى بما أتى به الزمان بعده من مصارع قوم نُحبُّهم ونجلهم ونرجو لهم المغفرة والرضوان ، وإن كنت فى شك مما أقول فاقرأ معى تلك السطور التى سطرها محمد بن سعد فى طبقاته عنه : «قالوا : وأفرج الناس يوم الجمل عن ثلاثة عشر ألف قتيل ، فسار على من ليلته فى القتلى معه النيران فمر بمحمد بن طلحة بن عبيد الله قتيلاً ، فرد رأسه إلى الحسن بن على ، فقال : يا حسن ، السجَّاد ورب الكعبة قتيل كما ترى . ثم قال : أبوه صرعه هذا الصرع ، ولولا أبوه وبرُّه به ما خرج ذلك المخرج لورعه وفضله . فقال الحسن : ما كان أغناك عن هذا ! فقال على : يالى ولك يا حسن ، وقد كان قال له قبل ذلك : يا حسن ، ودَّ أبوك أنه قد كان مات قبل هذا بعشرين سنة» .

هذا الحوار القصير بين أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وابنه الحسن يكشف لنا عن جلل المصيبة فى السجَّاد (محمد بن طلحة) وشدة وقعها على النفوس ؛ لأنه رجل زاهد فى الرئاسة والمال ، حبِّب إليه المسجد من صغره ، فنشأ نشأة دينية قويمة ، ثم تعرَّض لأمرٍ ما كان له أن يتعرض له لولا الحوادث العنيفة التى أخرجته من حياته بين القبر والمنبر من

مسجد رسول الله ﷺ إلى ميدان القتال بأرباض البصرة سنة ست وثلاثين من الهجرة .

كان أبوه (طلحة بن عبيد الله) من بنى تيم أسرة أبى بكر الصديق ، من العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض كما أخبرنا عمر بن الخطاب فى آخر عهده بالدنيا ، وكان طلحة من أثرياء الصحابة إن لم يكن أكثرهم مالاً ، ولكن محمداً ابنه عاف المال والجاه والرفاهية منذ عقل ، فشب على التقوى ، والعزوف عن زخارف الدنيا ، وتقشف وتبتل ، فكان المسجد دنياه وعزه وراحته ونعيمه ، ولا عجب فى ذلك فقد نشأ فى بيت أبوين مهاجرين أبليا فى الإسلام والدفاع عنه بلاء حسناً ، فأبوه لا ينكر أحد بذله فى غزوة أحد ، حتى قال الرسول الكريم عنه « أوجب طلحة » ، وأمه (حمنة بنت جحش) أخت زينب زوج رسول الله ، كانت تحت (مصعب بن عمير) رضى الله عنه فلما استشهد فى « أُحُد » تطلع إليها طلحة لمنزلتها الدينية وقرابتها من رسول الله فهى ابنة عمته (أميمة بنت عبد المطلب) فتزوجها ، ثم ولدت له محمداً هذا فخرجت به إلى رسول الله . فقالت له : سَمِّه يارسول الله ، فقال : اسمه محمد وكنيته أبو سليمان ، فكان من أبناء الصحابة الذين شرفوا برؤية رسول الله لهم حين مولدهم مثل الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، فتفتحت عيونهم على دنيا جديدة تشرق بآيات الله وسنة رسوله ، وجهاد المؤمنين فى نشر الرسالة ، وبشائر النصر التى تجىء إلى المدينة من حين إلى حين فتملؤها بهجة وعزة وإيماناً . وكم استمع محمد من أبيه وأمه عن حياة الرسول وجهاده فى سبيل الله ، وموقفهما من الدعوة الإسلامية ، فكان ما يسمعه يزيده إيماناً وإقبالاً على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، والتأمل فى معانيه ، والامتثال لأوامره ونواهيه ، فيزداد عشقاً للمسجد والتهجد وإطالة السجود حتى دعى بالسجاد ، وهو لقب غلب عليه وعرف به ، وقد أراد عمر بن الخطاب تغيير كل من كان اسمه محمداً ؛ لأنه نظر(١) إلى ابن أخيه وكان اسمه محمداً ، ورجل يقول له فعل الله بك وفعل وجعل يسبه ، فقال عمر عند ذلك : يابن زيد ، ادن منى ، ألا أرى محمدا يُسبُّ بك ! ؟ والله لا تدعى محمداً مادمت حيا . فسماه عبد الرحمن ، ثم أرسل إلى بنى طلحة وهم يومئذ سبعة أكبرهم محمد ، فأراد أن يغير اسمه . فقال محمد بن طلحة : يا أمير المؤمنين ، أنشدك الله فوالله إن من سمانى محمدا لمحمد فقال عمر : قوموا فلا سبيل إلى من سماه محمد ﷺ . »

ومن تمام القول أن طلحة كان يسمى أبناءه بأسماء الأنبياء حتى قال الزبير العوام ، إن

---

(١) الطبقات = ترجمة محمد بن طلحة .

طلحة يسمى أبناءه بأسماء الأنبياء ولا نبى بعد محمد ، أما أنا فأسمى أبنائى بأسماء الشهداء لعلهم ينالون الشهادة . ولما توفيت أم المؤمنين زينب بنت جحش أمر عمر محمد بن طلحة أن ينزل فى قبر خالته فأدى ما أمر به .

وعاش السجَّاد – لسجوده وإخلاصه لعبادته – مرغوباً فيه محبوباً ، ومنظورا إليه مقدوراً من كل الناس حتى وقعت الفتنة وقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فرأى أباه متجهاً شطر مكة ، فتبعه ، وهناك وجد أناساً كثيرين يتحدثون عن قتلة عثمان ، وإذا به يجد نفسه مع الجموع الثائرة السائرة نحو البصرة مع أم المؤمنين السيدة عائشة وأبيه طلحة والزبير ومروان بن الحكم ، وفى البصرة كانت المفاجأة هو فى جيش أم المؤمنين ، وجيش يعاديها هو جيش أمير المؤمنين ، وتتفاقم الأمور بين عينيه حتى فى أداء الصلاة فحين حضرت الصلاة اندفع طلحة والزبير كل منهما يريد أن يؤم المسلمين حتى كادت الصلاة تفوت ، ثم اصطلحا على أن يصلى عبد الله بن الزبير صلاة ، ومحمد بن طلحة صلاة ، فذهب ابن الزبير يتقدم فأخَّره محمد بن طلحة وذهب محمد ليتقدم فأخره عبد الله بن الزبير ، فاقترعا فقرعه محمد بن طلحة فصلى بالناس فقرأ : « سأل سائل بعذاب واقع » .

ثم تراءى الجمعان ، واقتتل الجيشان ، فلما تغلب جيش على ، وعقر الجمل ، وقتل كل من أخذ بخطامه تقدم محمد بن طلحة فأخذ بخطام الجمل وعائشة عليه فقال لها : ما ترين يا أُمَّه ؟ قالت : أرى أن تكون خير بنى آدم – تعنى أنه يكف عن القتال – فلم يزل كافًّا ، فأقبل عليه فارس ، فحمل عليه بالرمح . فقال له محمد : « أذكِّرك حَم » فلم ينفعه التذكير ، بل طعنه بالرمح فقتله وأنشد ،

وأشعث قَوَّامٍ بآيات ربه ... قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
فتكت له بالرمح جيب قميصه ... فخر صريعاً لليدين وللفم
يذكرنى (حاميم) والرمح شارع ... فهلا تلا حاميم قبل التقدم
على غير شىء غير أن ليس تابعاً ... عليًّا ، ومن لا يتبع الحق يندم

فالفارس القاتل مسلم يقتل مسلماً أشعث قواماً بآيات ربه ، لا يؤذى أحداً ، ولا يضمر كيداً لأحد ، قد كفَّ عن القتال ، واعتصم بالأخوة الإسلامية ، فذكَّره بالقرآن وبسوره ، ولكن ذلك الفارس الذى ضرِىَ بالدماء ، وصار وحشاً ضارياً همه فى القتل ، لا تعطِّفه أخوة ولا صلات روحية ، ولو ذكَّره بحاميم ،

ولِمَ كل ذلك ؟ لأن السجَّاد ليس تابعاً لعلى ، ألا يتخذ الحوار بالرأى سبيلاً إلى تفهُّم

مقصده ، والتعرف على رأيه ؟ إنه يمسك بخطام جمل عليه أم المؤمنين ، وكان ينبغى أن يتذكر أنه يقاتل رجلاً لا يقاتل ، ويخاصم مسلماً غير مخاصم ، ويقينى أن تلك الأبيات تشف عن ندم صاحبها وإن بدا فى صورة المباهى المفتخر ، أو الذى أدى عملاً يشكر عليه . ثم صار السجاد مخاصماً له عند خالق السموات والأرض ، والجنة والنار ، وبيده الملك وهو على كل شىء قدير ، وسيكون له سلطان على قاتله ، وله الحجة البالغة عند التقاضى .

وقد وقفت طويلاً عند قوله « يذكرنى حاميم » ولم اختار محمد حاميم دون سور القرآن ؟ ونظرت فى كل سورة بدأت بكلمة (حمٓ) لعلى أهتدى إلى السر فى اختياره ، والقرآن الكريم فى كل سوره يدعو إلى العظة والعبرة والقدوة الحسنة ، ثم تبين لى أن (الحواميم) فيها كثير من الآيات التى تشير إلى المؤمنين وتوادهم وتراحمهم والنعيم المقيم الذى ينتظرهم . ففى سورة (غافر) تهديد فرعون بقتل موسى ومعاذ موسى بربه ، ثم موقف المؤمن . قال تعالى : « وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله »

وفى سورة (فصلت) يقول تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم . ومن أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئه ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

وفى سورة (الشورى) : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » وفى سورة (الزخرف) : الأخلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنو بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

وفى سورة (الدخان) : « إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين » وفى سورة (الجاثية) : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين » وفى سورة (الأحقاف) : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها

جزاء بما كانوا يعملون» ، فهل أراد (السجاد) بقوله لمقاتله أو قاتله «أذكرك حمٓ» كل هذه الآيات أو أراد سورة بعينها ؟ أرجح أنه قصد إليها جميعها ، فحم اسم يطلق على كل السور التى تجمعها هذا الجمع (حواميم) لأن فيها عطف المؤمن على المؤمنين ، وحديث الاستقامة والشورى والنعيم الذى يكمل بجلوسهم على الأرائك متقابلين جزاء بما كانوا يعملون . ولكن القلوب القاسية لا تلين ، والغاشية حين ترين على النفوس تحجب العقول عن الطريق المستقيم ، ويكفى لبيان جسامة المرأى أن الحسن يقول لأبيه . ومن أبوه ؟ إنه على بن أبى طالب : ماكان أغناك عن هذا ! ويقول الأب الكريم : ياحسن ود أبوك أنه قد كان مات قبل هذا بعشرين سنة . رحم الله محمد ابن طلحة فقد قتل وهو كاف عن القتال وسنه فى الثلاثين أو تزيد قليلاً .

السيد حسن قرون

إذا غابت الحكمة والتعقُّل . .
ساد الجهل واستشرت الفتنة

لاَ يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَسَراةَ[1] لَهُمْ
وَلاَ سَرَاةَ إذَا جُهَّـالُهُمْ سَادُوا
تُهْدَى الأُمُورُ بأهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ
فَـإنْ تَوَلَّتْ فَبِـالأَشْرَارِ تنْقَـادُ
إذَا تَوَلَّى سَرَاةُ النَّـاسِ أمْرَهُمُ
نمَا - عَلَى ذَاكَ - أمْرُ ٱلْقَوْمِ ، وازْدادُوا

الأَفوَه الأَوْدِىّ

---

(١) سراةُ كلِّ شَىْءٍ أَعْلاه .

إختلاف الرأى بين الشطط والاعتدال

دكتور محمد رجب البيومى
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

تتقدم الإنسانية فى مدارج الرقى بتقدّم العصور ، حيث كنا نرى فى تاريخ النقاش العلمى من ضروب التهجم والافتيات ، ووسائل القدح والتنقّص ، ما ينفر منه أكثر المتجادلين اليوم فى حلبات النقاش ، إذ أن الإنصاف خلق حميد يجب أن يحرص عليه ذو العلم ممّن يتصدَّرون للمقارنات النظرية ، كما أن محاولة التنقص والازدراء لمن يذهبون مذهباً مخالفاً لا تدل على سعة الأفق ، وامتداد المحيط ، بل تضائل كثيراً من مكانة ذويها ، وإن كانوا أهل صواب فيما يقرّرون ، لأن الصواب لا يكتمل على وجهه الصحيح دون رعاية للأدب فى الحديث .

وقد مضى وقت كان التعصب الفقهى فيه على أشده ، بحيث لا يطيق نفر من المتشددّين أن يسلموا بوجهة نظرة سديدة فى مذهب مخالف ، ولم يكن الخطب فى ذلك عاما شاملاً بل كان يخصّ جماعة متشددة ، ضاقت بسعة الصدر وتحجَّرت فى زواياها الضيّقة ، على حين وُجدت شخصياتٌ مستنيرة ، ناقشت الرأى باعتدال واعترفت بالصواب لمن أتى به دون نظر إلى اتجاهه المذهبى ، وهذا هو المظنون فى قوم يحملون راية العلم ويدعون إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلون بالتى هى أحسن ، وسنضرب المثل لكلا الفريقيْن ، ليرى القارئ الكريم كيف يحتفظ التاريخ بالكلمة الأخيرة ، فيقولها خالصة صادقة لترجح بالمعتدل وتشيل بالمتسرّع العجول .

كان الإمام الشافعى رحمه الله حجة فى علم العربية كما هو حجة فى التشريع ، وقد رحل إلى البادية فشافه الأعراب ، وجمع اللّغة ، وروى أشعار الهذليين حتى رويت عنه ، وعزيت إليه ، وكان الأسلوب الفقهى فى كتابى الأم والرسالة روعة عاقلة رصينة ، وأقول ذلك لأن بيانه الفقهى ذو تركيز دقيق ، يعجب عشاق المعانى المحددّة ، والأدلة السافرة والإمام شاعر أديب وكان فى قدرته أن يستفيض فى تأليفه الفقهى بما يمتع الوجدان ، ولكنّه

علم أن لغة القانون غير لغة الأدب ، وأن النبوغ فى التأليف التشريعى يعتمد على المركز ، والحجّة المحدّدة ، فجاء أسلوبه ذا روعة عاقلة رصينة ، إذ هى روعة عقل ، وليست روعة وجدان ، وطبيعى أن يجعل آيات القرآن حجته الأولى ، وأن يشرح ما يستشهد به من تلك الآيات ، وقد وُجد من ناقشه فى بعض ما اتجه إليه جانحاً إلى غير وجهته ، وذلك طبيعى غير مستغرب ، ولكن المستغرب حقاً أن يوجد من كبار العلماء من يحاول أن يترك القول إلى القائل ، وإذا جاز أن نرى ذلك لدى الأغرار من الناشئة فكيف نراه لدى أئمة أعلام ، وهم بلاشك يعرفون موهبة الإمام الفقهية ! وقد آن أن نستشهد بالمثال .

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة النساء (وإن خفتم ألاّ تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألاّ تعولوا) .

وقد ذهب غير الشافعى إلى أن معنى (ألا تعولوا) هو (ألا تجوروا) من قولهم عال الميزان عولاً إذا مال ، وعال القاضى فى حكمه إذا جار ، وقد روى أن أعرابياً حكم عليه قاض بما لا يحبّ ، فصاح فى وجهه : أتعول علىّ ! أى أتجور علىّ كأنه يستنكر حكمه ، ويرميه بالجور .

أمّا الشافعى فقد ذهب إلى أن معنى ألا تعولوا هو أى لا يكثر عيالكم لأن الزوجة الواحدة لا يكثر أولادها كثرة من يتزوج بثانية وثالثة ورابعة !

ولكلّ فقيه أن يأخذ بما يترجح لديه من التفسير ، فليس لأحد أن يلتزم بتفسير الشافعى إذا رجح لديه سواه ، ولكن الذى ليس له أن يتطاول على شخصه بما يجب أن يحترز عنه . وممن تطاولوا على الشافعى أبو بكر بن العربى ، والشريف الرضى ، وممّن وافقوه من غير رجال مذهبه الزمخشرى الحنفى ، والقرطبى المالكى ، وسنشير إلى نبذ من أقوالهم جميعاً ، ليرى الدارس كيف يضائل التهجم من شخص صاحبه ، وكيف يرتفع الإنصاف بذويه إلى أفق نبيل .

١ – أما أبو بكر العربى فقد قال فى تفسيره « بيان أحكام القرآن » المسألة العاشرة قوله تعالى (ذلك أدنى ألا تعولوا) اختلف الناس على ثلاثة أقوال فى تأويله ، الأول ، ألا يكثر عيالكم ، قاله الشافعى ، الثانى ، ألا تضلُّوا ، قاله مجاهد ، والثالث ، ألا تميلو ، قاله ابن عباس والناس .

ثم قال ابن العربى : أعجب أصحاب الشافعى بكلامه هذا ، قالوا : هو حجّة لمنزلته

فى اللّغة ، وشهرته فى العربيّة ، والاعتراف له بالفصاحة.. حتى لقد قال الجوينى هوأفصح من نطق بالضاد مع غوضه على المعانى ومعرفته بالأصول ، واعتقدوا أن معنى الآية (فانكحوا واحدة إن خفتم أن تكثر عيالكم)

وتَابَع يقول : (وكل ما قيل عن الشافعى أو وصف به فهو كله جزء من مالك ، ونُغْبَة من بحره ، ومالك أوعى سمعاً وأفصح لساناً ، وأبرع بياناً ، وأبدع وصفا ، ويدل على ذلك مقابلة قول بقول ، فى كل مسألة وفصل) .

ثم قال (والفعل – عال ، فى كثرة العيال – رباعى لا مدخل له فى الآية ، فقد ذهبت الفصاحة ، ولم تنفع الضاد ، المنطوق بها على الاختصاص) .

هذا ما قاله ابن العربى ، وقد تعرّض إلى الموازنة بين إمامين عظيمين ليرفع أحدهما ، ويخفض الآخر ، وما كان له أن يتجه إلى ذلك فما منهما إلاّ له مقامه المعلوم ، وقد اعترف مالك بذكاء الشافعى حين قرأ عليه الموطأ ، كما قال الشافعى (إذا ذكر العلماء فمالك النجم) فما دخول ابن العربى بين التلميذ وأستاذه وقد أعجب مالك بتلميذه وتنبأ له الإمامة ، وحُسِبَ من حسناته ،حتى إذا بلغ مرتبته دافع عن كثير من أحكامه ، وإذا ذهبت الفصاحة من مثل الشافعى أفتبقى لابن العربىّ ؟ !

٢ – على أن أبا بكر لم يستقص ما قال اللغويون فى معنى كلمة (عال) وكان عليه كمفسّر يتعرض لتخطئة الأئمة الكبار أن يحرص على هذا الاستقصاء ليقف على أرض صلبة لا تهزها الزعازع ، وقد جاء من بعده الفقيه المالكى (القرطبى) ليقوم بهذا الاستقصاء فى تفسيره الشهير ، فيظهر تعجّل ابن العربى فيما أسرع به من تخطئة الشافعى .

قال القرطبى (وقد قال الشافعى (ألا تعولوا) ألا تكثر عيالكم ، قال الثعلبى ، وما قال هذا أحد غيره ، وإنما يقال (أعال يُعيل) إذا كثر عياله .

يريد أنه من الفعل الرباعى لا الثلاثى ، وزعم ابن العربى أنه على سبعة معان لا ثامن لها ، يقال : عال بمعنى مال ، وزاد ، وجار ، وافتقر وأثقل وقام بمؤونة العيال ، وغلب ، وأعال الرجل كثر عياله أما عَالَ كثر عياله فلا يصح .

ورد القرطبى على ذلك فقال : أما قول الثعلبى [عن الشافعى] ما قاله غيره ، فقد أسنده الدارقطنى إلى زيد بن أسلم ، وهو أيضاً قول جابر بن زيد ، فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعى إليه .

وأما ما ذكره ابن العربى من الحصر وعدم الصحة فلا يصح ، فهناك عال الأمر : اشتد

وتفاقم ، حكاه الجوهرى وقال الهروى فى غريبه «وقال أبو بكر [يريد ابن دريد] يقال عال الرجل فى الأرض يعيل فيها إذا ضرب فيها ، وقال الأحمر : يقال عالنى الشىء يعيلنى إذا أعجز.

وأمّا عال بمعنى كثر عياله فقد ذكره الكسائى وأبو عمرو الدودى وابن الأعرابى . .»

ومعنى ذلك أن لكلمة عال معانى أخرى فوق ما حدده ابن العربى ، وأن من هذه المعانى ما قاله الشافعى وقد حكاه زيد بن أسلم وجابر بن زيد والكسائى وأبو عمرو وابن الأعرابى !

وهذا التصحيح من القرطبى يدل على إنصاف وأدب : أما الإنصاف فقد اتجه به إلى الشافعى ، وأما الأدب فقد التزم به مع ابن العربى إذ اكتفى بتصويب خطئه دون جموح ، وهذا ديدن الأصلاء من الباحثين .

٣ – فإذا تركنا ابن العربى إلى الشريف الرضى فى كتابه (التأويل فى متشابه التنزيل) فإنا نجده يترك للسانه المجال ليتسع فى انتقاص الشافعى ، وقد تجرأ فقال عن الإمام رضى الله عنه (وكفى بأقواله بُعداً عن علم اللّغة وغربة عن وطن العربية) وهى حملة خاطئة مخطئة ، لأن الشريف الرضى إذا كان يفخر بعربيته لأنه هاشمى ، فالشافعى أعرق منه فى الهاشمية . فهو من بنى المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فكيف يكون بعيداً عن وطن العربيّة ؟ ! ! ثم إن الشريف من رجال القرن الرابع الهجرى ، والشافعى من رجال القرن الثانى فأيهما أقرب إلى التماس الفصحى من أعراب البادية قبل أن تختلط الألسنة ؟ ! ! وإذا كان المؤرخون قد سجلوا للشافعى إلمامه بلغة الأعراب وانتجاعه إياهم حتى روى الأصمعى وأمثاله عنه ، فهل قرأ الشريف من علم اللغة إلاّ ما حصّله الشافعى مشافهة ، ويسّره لحاضرٍ لم يَبْدُ لتقييد العلم؟ ! ! وإذا خالفه فى معنى (ذلك أدنى ألا تعولوا) وفرضنا – من باب التسليم الجدلى فقط – صحة ما ذهب إليه الشريف ، أفيكون تفسيره للآية على غير مايرام كافياً لبسط القلم بعبارات تؤذى الناقد ولا تصيب المنقود .

٤ – لقد كان الإمام الزمخشرى أهدى بصيرة ، وأقوم سبيلاً من الشريف وأمثاله حين قال فى تفسير الآية الكريمة (ذلك أدنى ألا تعولوا من قولهم عال الميزان عولاً إذا مال ، وعال الحاكم فى حكمه إذا جار ، والذى يحكى عن الشافعى رحمه الله ، أنه فسّر ألا تعولوا أى لا يكثر عيالكم ، وكلام مثله من أعلام العِلم ، وأئمة الشرع ، ورءوس المجتهدين ، حقيق بالحمل على الصحة والسداد ، وألا يُظَنَّ به تحريف تُعيلوا إلى تعولوا . وكفى بكتابنا

المترجم بـ (شافى العى من كلام الشافعى) كافياً بأنه كان أعلى كعباً ، وأطول باعاً فى كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب ، فسلك فى تفسير هذه الكلمة طريق الكنايات ، وقرأ طاووس : ألاّ تُعيلوا ، من أعال الرجل إذا كثر عياله ، (وهذه القراءة تعضد قول الشافعى) .

أرأيت إلى أدب الزمخشرى وإنصافه ، لقد بدأ بذكر المعنى الذى يرتضيه ، ثم ثنّى بما ذكره الشافعّى منوّها بمكانته ومستبعدا أكبر الاستبعاد أن يخطئ مثله الفرق بين الفعل الرباعى والفعل الثلاثى ، وملتمساً له التأييد فى قراءة قرأ بها طاووس ! أليس هذا سبيل المنصفين الأثبات ! والزمخشرى حنفى المذهب ، ولكنّ العلم رحم موصولة بين العلماء !

إنّ مما دفع إلى التهجم المذهبى لدى السابقين هو مااشتهر من المناظرات الفقهية العلنية فى الأماكن العامة بعد انتشار المدارس النظامية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، فقد كان لكل مذهب رأسه الكبير الذى يؤلف فى فقهه ، ويدرّس لتلاميذه ، ويقوم بالمناظرة عند الاختلاف ، وفى معمعان الجدل العلنى يتولّد التعصب وينتقل إلى الكتب ، وكان على الغلاة من المتناظرين أن يعرفوا أنهم طلاّب حق وأنهم ورثة السابقين من أمثال مالك والشافعى وأبى حنيفة وابن حنبل رضى الله عنهم ، فقد كانوا جميعاً يختلفون مع نظرائهم فى الفتوى دون لجاج ، وقد حفظ لنا التاريخ مناظرة فقهية هامة بين الليث بن سعد ، ومالك بن أنس دارت على بعض المسائل ذات الاختلاف ، وقد أوضح كلّ من المتناظرين رأيه فى حيدة وإخلاص ، ولئن جاز الشغب العلمى – على أنه لا يجوز – فى قضايا الفلسفة وما يمت إليها من فروع فلن يجوز فى علوم دينية ترجع أصولها إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله الكريم ، وإجماع الصفوة من المجتهدين .

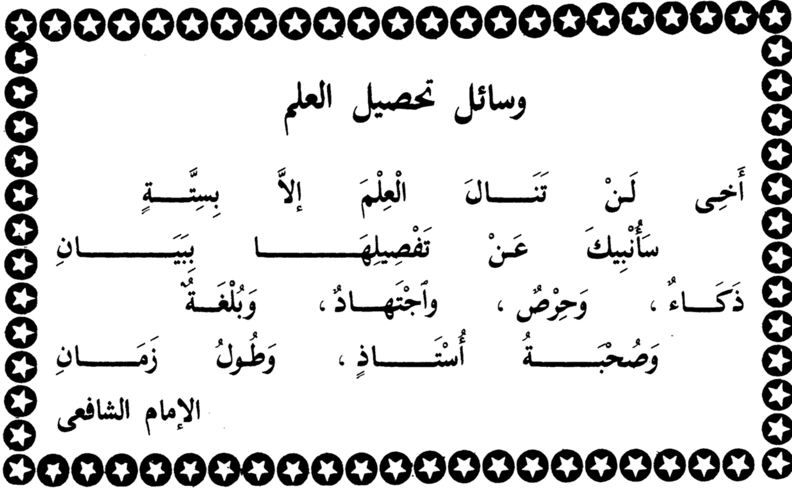
ولابد أن يحدُث الاختلاف بين العلماء فى تطبيق القواعد . وفهم النصوص ، حتى ليفتى الفقيه بالحِلِّ فى مسألة مَّا ، ويفتى زميله بالحرمة فيها ، وعلى العلماء أن يتداولوا الأدلة المتعارضة فى هدوء عاقل ، وأن يبتعدوا بمواطن الخلاف عن صحافة العامة ، إذ ليس كلّ قارئ بقادر على أن يَتَتَبَّع وجهات النظر ، ولكنه ينظر فيجد اختلافاً يتركه فى مكان الحيرة والقلق ، وها نحن اليوم نرى لغطاً متعارضاً حول مسائل التأمين والاستثمار ، ونرى الصحافة تفسح مجال النشر لكل كاتب فتتعدّد الآراء عن خطأ لا صواب ، ولبعض الأدعياء غرور يظنّون به أنهم على شىء ، ومتى نشرت لهم الصحف غير المتخصصة رأياً مبتسراً ظنّوا أن النشر دليل الصحّة ، وتابعوا الفتوى دون أصالة ، وللفتوى الصحيحة رجالها المتخصصون

فى مجمع البحوث ، وفى لجنة الفتوى وفى كليات الشريعة ، وفى دار الإفتاء . فيالله كيف لا نأتى الشئ من بابه فَنُصِيخ إلى كلّ داع دون اعتبار .

وإذا كان اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية ، فكيف يجرؤ بعض خطباء المنابر على الصراخ المزعج ، والعداء الأهوج ، إذا قرأ حكماً لا يرتضيه ، فيدفع بالعامة إلى بلية لا يطيقونها ، ولماذا لا يكتب إلى ذوى الاختصاص أو يرسل إلى الجريدة التى نشرت الرأى مخالِفاً فى أدب وموضوعية ، وسيتكلم المتخصصون لا محالة ، فتنجلى الرغوة عن الصريح ، ويذهب الزبد جفاء ، ويبقى فى الأرض ما ينفع الناس .

هذا بعض ما نرجوه فى هذا المجال ، وليس بالعسير بعد على من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ،

د . محمد رجب البيومى



---

(١) البلغة : ما يتبلغ به من العيش .

قضايا لغوية

نظرات حول الترادف اللغوى

دكتور توفيق محمد شاهين

* اللغة مقوِّم رئيسى من مقومات وجود الأمة واستمرارها ، وأى خطر يهددها هو خطر يتهدد شخصية الأمة فى وجودها واستمرارها ، وفى توجيه اختياراتها ومسارها فى شتى المجالات الحياتية .

ومن ثم فلابد من دراسات عميقة وجادة فى حياة اللغة وكينونتها ، والدفاع عنها ، لحماية الذات الفكرية للشعوب ، وانطلاقاً من هذا الجانب ، لأن اللغة موجهة فكر ، وأداة حضارة ، وصانعة بلاغ .

* ولهذا فاللغة ، هدف للاستعمار الثقافى ، وأساسه الغزو اللغوى ، وينفذ من مسارب منها :

(ا) إهمال الأبناء للغتهم : لجهلهم ، أو لأنهم تربوا فى حجر المستعمر فكانوا فى عونه ، وهم نوابه وأدواته ، حين يغيب شخصه ، وبخاصة بعد أن يتصدروا التوجيه فى بلادهم ، بعد نيلهم درجاته العلمية بتوجيه معين يريده ، فيحطوا من شأن لغتهم ، ويقللوا من قيمتها ويوهنوا من عراها فتنقض واحدة بعد الأخرى ، حتى تتلاشى أو تكاد . .

(ب) وبالسعى الدائب والدفع القوى من الغاصب ، لنشر لغته ، والتمكين لها وغرسها وتثبيتها وتعهدها .

(جـ) أو لأن اللغة لا تحمل فى طياتها وكوامنها عوامل النمو والحركيَّة ، والنزوع نحو الحياة والبقاء العزيز . .

وحمى الله العربية من (جـ) ولكن اعتراها ما ذكر فى (ا ، ب) وتحيفتها لذلك الحتوف والنوب السود ، ردحاً من الزمن . . ولولا كفالة من القادر بحفظ كتابه العزيز ولغته ، ولولا يقظة الأزهر من قديم لكان الحال والمآل غير الحال والمآل للغة العربية حين غفا أهلها زمناً . .

* * *

– وحين جاء القرآن الكريم بلسان عربى مبين . . خلدت العربية وتحدَّت فغلبت فى كل ألوان الصراعات التى شنت عليها ، لأنها تحمل فى طياتها عوامل نصرها ، وأسباب قوتها ونموها .

يقول «رينان» فى كتابه : (تاريخ اللغات السامية) : –

«من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر ، وصعب حل سر انتشاره : . . (اللغة العربية) : فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذى بدء . ثم ظهرت فجأة لغة كاملة سلسة كل السلاسة ، غنية إلى أبعد حد ، ليست لها طفولة ولا شيخوخة . . ظهرت لأول أمرها مستحكمة . . .» بل كادت أن تصبح لغة دولية ، كما ذكر العلامة ، محمد كرد على ، فى كتابه : (الإسلام والحضارة العربية) . وسحر رنينها الأسبان فاعتنقوها ، وتناولوها شعراً ونثراً تناول النابغين من أهلها وأبناء جلدتها الأصلاء .

ورحم الله شاعر النيل حيث يقول : –

وسعْت كتاب الله لفظاً وغاية   وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق آيات لمخترعات

* وقضايانا اللغوية – فى العربية – مازال الغموض يكتنف الكثير منها ، والصعوبات التى تواجه الباحث لاتزال بعض منافذها منغلقة ، وعسيرة المعالجة والكشف . . وذلك يدعو الحانق والحاقد والجاهل والمتحامل إلى تجسيم الشائعات ورمى لغتنا بما هى منه براء ، تنفيساً عن حنق قاتل ، وحقدكامن ، وجهل متبع ، وتحامل معيب .

وحتى نسدى جميلاً للغتنا – وهى صاحبة الجميل – التى هى جوهر أصالتنا . . وحتى لا يفقد شبابنا الطامح إيمانه بلغته . . لابد أن تهفوا الهمم إلى أبحاث عميقة للعناية بها ، وشموع تنير وإضافات جليلة بناءة ، يتضح بها وجه الحق ، وتنكشف الطريق ، ويرد الكيد ، ويظهر الجمال والجلال والكمال .

* * *

وقد اضطربت آراء علمائنا اللغويين قديماً وحديثاً فى شأن قضية «الترادف اللغوى» ، أو المشترك المعنوى فى العربية ، واتسع مسار الخلف بينهم بين مثبت وناف ومتردد .

ولذا بات حسم الخلاف واجباً فى قضية طال أمدها ، صيانة للغة ، ورأفة بأجيال حاضرة وآتية .

* فإذا كان «الترادف» من عوامل نمو العربية وحركيتها . . فبأى قياس نفحصه ؟ وما

موقف علم اللغة الحديث منه :

أيبارك « اختصاصية » الكلمة ، أم يقر لها « اشتراكيتها » فى معنى بعينه مع تعدد اللفظ ؟ وهل يستطيع المحافظة على جوهر اللغة وسمة البلاغة ؟ والمحافظة على التوازن بين جسد اللغة الممثل فى « لفظها » وبين (روحها) الممثل فى معناها ؟ وهل الترادف خاص بلغتنا ؟ أم هو قدر مشترك بين لغات عديدة ؟

أسئلة كثيرة ، وخواطر شتى ، تدور بالأذهان ، وتلوح فى أفق الباحث تتحدى وتستحث ، وتتطلب إجابات شافية ، وحبذا لوكانت وافية . .

* * *

ويحب أن نذكر بادئ ذى بدء :

أن العرب تتصرف فى لغتها ، ولا تعرف لها قيوداً اصطلاحية ، وما من عربى إلا وهو فى حكم العرب كلهم ، باعتبار الفطرة اللغوية التى يرجع إليها أصل الوضع . فهى مفردات وضعها أفراد ، وقد يرى كل واحد منهم أشياء ويصفها على نحو ما يجد فى نفسه من أثرها وصفاتها المختلفة ، فلا جرم أن تختلف الألفاظ الموضوعة لها بحسب ذلك .

كما أن الكلمة الواحدة فى لغتنا تعطى من المعانى والدلالات بقدر ما يتاح لها من الاستعمالات ، لأن كثرة الاستعمالات لابد أن تخلق كلمات جديدة تلبى بها مطالب الحياة والأحياء .

وإن علماء اللغة « لم يدوِّنوا منها إلا كفاية الحاجة القليلة ، أو المتناظرين . . أما تدوينها على أنها أصل من أصول الدلالة التاريخية فى اللغة ، فلم يتنبه له أحد إلا القليل النادر . والسبب أن تدوينها كان لخدمة القرآن والسنة ولغتها قرشية حضرية مهذبة ، وذلك يقلل الاختلاف ، لأن الحضرية ثابتة فكأنها فى حكم المروية »(١)

ومن ثم فقد أصبحنا بحاجة ملحة إلى معجم لغوى تاريخى ، على نحو ما نادى به الأستاذ يحيى حقى ، من أننا « فى أشد الحاجة إلى المعجم اللغوى التاريخى حتى يتتبع منشأ الكلمة وتطورها واستعمالاتها المجازية على مر العصور ، ويساعدنا – اليوم – على استحداث المجازات الجديدة ، داخل نطاق اللغة الصحيحة » (٢) . ولأنه لإثبات أن فى لغتنا ترادفاً ، فلابد من استقراء تاريخ اللغة (٣) وبذا يسهل حل مشكل الترادف ، ويبين وجه الحق فيه .

* * *

و « الترادف » : هو توالى الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد ، باعتبار واحد ،

كالإنسان والبشر (٤).

أو الألفاظ التى اختلفت صيغها وتواردت على معنى واحد ، كالقمح والبر والحنطة ، وفى والباء (٥).

ويراه الجرجانى بمعنى « التقابل فى كل الخصائص » (٦) والتوحيدى يشير « بالنظائر » إلى المترادفات .

ويعد المبرد من كلام العرب : « . . اختلاف اللفظين والمعنى واحد » مثل : ظننت وحسبت ، وذراع وساعد . وأنف ومرسن »(٧)

ويقول الإمام الشافعى : « وتسمى – العرب – الشىء الواحد بالأسماء الكثيرة ، وتسمى بالاسم الواحد المعانى الكثيرة » وإن ذلك من سنن العرب . (٨)

وعد بعض المتأخرين أسماء الله تعالى من أقسام الترادف وسماه « المتكافئة » وكذا أسماء النبى ﷺ .

ويقول الشيخ عز الدين : إن من جعلها مترادفة نظر إلى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن منع نظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهى تشبه المترادفة فى الذات ، والمتباينة فى الصفات .(٩)

فالترادف دلالة عدة ألفاظ على معنى واحد ، كالبُّر ، والقمح ، والحنطة . فالبر يستعمله أهل العراق ، وعند أهل مصر يطلقون عليه القمح ، وعند أهل مكة : الحنطة .

* * *

وشرط علماء اللغة فى الترادف : أن يكون من لغة واحدة ، لا لغات متعددة ، كما قرر الأصفهانى (١٠) ، وإن يتفق اللفظان تماماً فى المعنى على الأقل فى ذهن الكثرة ، مع اتحاد العصر (١١) .

فلا ترادف بين الشىء وصفته ، ولا بين الحقيقة والمجاز ، ولا بين الألفاظ المتباينة بالتفاضل أو التواصل ، كالسواد والبياض ، والسيف والصارم (١٢) ولا بين الحد والمحدود ، لأن الأول يفيد الفصل ، والثانى يفيد الماهية إجمالاً . ولا بين الحد والرسم ؟ لدلالة الأول على الذاتيات والثانى على العرضيات .

يقول د . أنيس : إذا دلت نصوص اللغة على أن تلك الفروق طفيفة لا يصح أن تعد من المترادفات ، لأن شرط الترادف الحقيقى : هو الإتحاد التام فى المعنى(١٣)» كما شرط غيره من

المحدثين ضرورة الاتحاد فى البيئة اللغوية ، والانتساب للهجات بينها ترابط قوى– ومع الاتحاد فى العصر (١٤) ولكننا نثير هنا سؤالا :

إن اللفظ كثيراً ما يستعمل فى غير ما وضع له ، لحال شبيهة بحال وضعه ومعناه ، وقد لا يلمح بسهولة أصل اللفظ المنقول فيما نقل إليه لكثرة استعماله فيه ، وقد ينسى الوضع الأصلى ، حتى اختلف فيه العلماء حينئذ : هل هو وضع ثان ؟ أم هو باق على إعجاز ؟ ولذا أثر عن بعضهم : « النقل فى اللغة كالنسخ فى الشريعة » .

أفلا يجدر بعلماء اللغة قديماً وحديثاً– والحالة هذه– أن يخففوا من صرامة الشروط ، وتراكم وتصلب التحرزات والقيود ؟ ؟

لن نتناسى الفروق ، ولن نهمل الوضع ، ولكن لا نبالغ فى القيود ، وفيها مغمز ، ومنها مخرج .

* * *

وقد يؤنس المقام أن نعرض نماذج للترادف وللنموذج وزنه فى الاستشهاد والدليل . مع ملاحظة أن « الأقدمين عدوا الجزيرة العربية وحدة لغوية واحدة . وحسناً فعلوا ، للحركة الدائبة والهجرة الدائمة ، والاجتماعات المتكررة » .(١٥)

وحين نشط علماء اللغة لجمعها خوف الضياع والاختلاط ، وفدت أم الهيثم إلى العراق– وكانت أعرابية فصيحة ، تؤخذ عنها اللغة– فالتفوا حولها ، وسألها أبو عبيدة ليؤنسها : مم كانت علتك ؟ فقالت : كنت وحمى للدكة ، فشهدت مأدبة ، فأكلت جبجبة من صفيف هلعه : فاعترتنى زلخة » . فقيل لها : يا أم الهيثم ، أى شئ تقولين ؟ فقالت : أو للناس كلامان ؟ والله ما كلمتكم إلا العربى الفصيح . فاستفهم حتى اللغويون عن ألفاظها الغريبة عن أذهانهم . ومعنى . وحمى : متوحمة . والدكة : الدسم . والجبجة أو الجبجبة : المصران . والهلعة : العنز (١٦).

والمستعرض للقرآن الكريم ، والأدب الجاهلى – يجد المترادف مبثوثاً فيهما بكثرة ، يقول تعالى :

« تالله لقد آثرك الله علينا » ، « وأنى فضلتكم على العلمين » « وأقسموا بالله » ، « يحلفون بالله » ، « أشكو بثى وحزنى إلى الله » .

ومسائل ابن الأزرق ، وإجابات ابن العباس عليها مشهورة ، ذكرها ابن الأنبارى فى كتابه : « المواقف » ، والطبرانى فى « معجمه الكبير» ، وفيها تفسير هذاه المواد : الوسيلة ،

والشرعة ، والمنهج ، ويياس ، والفوم ، ومراغماً . . على الترتيب : الحاجة ، والدين ، والطريقة ، ويعلم (فى لغة بنى مالك) ، والحنطة ، ومنفسحاً (بلغة هذيل) . واستشهد على أن الحوب هو الإثم فى لغة الحبشة ، بقول الشاعر :

فانى وما كلفتمونى من امركم ليعلم من أمسى أعق وأحوبا

– ويروى المطرز الزاهد ، عن ثعلب عن ابن الأعرابى ؛ أنه سأل أعرابياً فصيحاً – ما رأى أفصح منه منذ ثلاثين سنة – عن « الخجال » بمعنى « السم » فقال : القشب ، قلت : فما القشب؟ قال : الزعاف . قلت : وما الزعاف ؟ قال : الزئفان . قلت : فما الزئفان؟ قال : الزيفان . قلت : فما الزيفان؟ قال : الديفان . قلت : فما الديفان ؟ قال : الأرون . قلت : فما الأرون؟ قال : الجوزل . قلت فما الجوزل ؟ قال : الحرسم . قلت : فما الحرسم ؟ قال : السم . قلت : فما السم ؟ قال : السم »(١٧)

وقد كان ابن الأعرابى مهذباً ، وصبوراً . وليس كأعرابى أبى زيد ، والذى حدث عنه ابن دريد فى « الجمهرة » أن أبا زيد ، قال : قلت لأعرابى : ما المحبنطئ ؟ قال المتكأكئ : قلت : فما المتكأكىء ؟ قال : المتآزف . قلت فما المتآزف ؟ قال : أنت أحمق »(١٨) .

ويقول النبى – ﷺ – لأبى هريرة : ناولنى السكين ، حين وقعت منه ، فتلفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، وقال : آلمدية تريد يارسول الله ؟ أو تسمى سكيناً عندكم ؟ » وإن كان بعضهم يرد القصة ، لأن أبا هريرة لم يسلم إلا فى السنة الثامنة الهجرية(١٩) .

وقال ابن جنى بالسَّند : إن ابن الأعرابى أنشد للمرقش الأكبر :

وموضع زبن لا أريد مبيته . .

فقال له شيخ من أصحابه : أنشدتنا ، وموضع ضيق : فقال : سبحان الله : تصحبنا منذ كذا وكذا ، ولا تعلم أن الزبن والضيق واحد . وقد قال الله تعالى : « قل : ادعو الله أو ادعو الرحمن ، أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى » .

. . . ويقول ابن جنى : « إذا جاز أن يكون فى أصول هذه اللغة المقررة على اختلاف اللفظين والمعنى واحد ، كان جميع ما نحن فيه جائزاً سائغاً ، ومأنوساً به متقبلاً » (٢٠)

كما ذكر ابن جنى – أيضاً – : إن من الحرفين ما يستعمل أحدهما مكان الآخر ،

كقوله تعالى : « الرفث إلى نسائكم » ، بمعنى بنسائكم ، أو مع . لكن الرفث هنا بمعنى الإفضاء فصح استعمال إلى . . ويعلق بقوله : (وفيه أيضاً موضع يشهد على من أنكر أن يكون فى اللغة لفظان بمعنى واحد ، حتى تكلّف لذلك أن يوجد فرقاً بين قعد وجلس ، وبين ذراع وساعد) . . . فابن جنى يؤكد وجود المترادف ما وجد سبيلاً إلى ذلك .

ويؤكد أيضاً بقول رؤبة بن العجاج : (بال بأسماء البلى) . . فجعل للبلى – وهو معنى واحد – أسماء.[٢١] والعرب تكرر إذا اختلف اللفظان كنأى وبعد ، وأقوى وأقفر[٢٢] .

وقال الضبى : المجد : الأصل . وقال يعقوب : المحتد ، والمحفد ، والنحت ، والإرث . . . كل ذلك بمعنى الأصل »[٢٣] .

وذكر قرطب أن « الجونة » من أسماء الشمس ، واستشهد بقول الخطيم الضبابى ، كما قال ابن برى – أو قول الأجلخ بن قاسط الضبابى ، كما فى الصغانى – يصف حماراً وحشياً :

يبادر الآثار أن تؤوبا   وحاجب الجونة أن تغيبا

قال : ومن أسماء (الشمس) : ذكاء ، واستشهد بقول ثعلبة بن صعير المازنى يصف ظليماً ونعامة :

فتذاكرا ثقلاً وئيداً بعدما   ألقت ذكاء يمينها فى كافر[٢٤]

وقال عدى بن زيد :

وقـددت الأديم لراهشيه   وألفى قولها كذباً ومينا[٢٥]

وقال الحطيئة :

ألا حبذا هند وأرض بها هند   وهند أتى من دونها النأى والبعد

والكذب هو المين ، والنأى هو البعد ، فقد نسقه عليه لما خالف لفظه »[٢٦]

وقد ولع المتأخرون بالمترادف ، كما شغل المتقدمين ، فجاء فى تذكرة الحفاظ :

(كالحسن) والجمال قل : نضارة   وسامـــة وضّاءة ونضره
صبـاحـة ملاحـة رشاقـة   ورونـق وزهرة وزينـــه
(كالأصل) والعنصر قل جرثومة   والنحر والضئضئ والأرومه
ومحتـــد ونبعـــة ومنبت   عرق نجا مغرس أبوه[٢٧]

هذا غيض من فيض، لأمثلة حفلت بها أمهات الكتب الأدبية واللغوية، من الترادف اللغوى. ولاشك فى أن المتأمل لها يأنس بوجوده فى لغتنا العربية، وهى ليست فى ذلك بدعاً بين اللغات التى تحوى ترادفات، على نحو ما ذكر الواعون من الدارسين.. والحديث موصول.

د. توفيق شاهين

المراجع

١ – تاريخ آداب العرب للرافعى ١٢٤/١.

٢ – مجلة المجلة ع ١٣٨ مايو سنة ١٩٦٣م.

٣ – مجلة (الفكر) التونسية ع ٤ س ٢١ يناير ١٩٧٦م.

٤ – المزهر للسيوطى ٤٠٢/١.

٥ – علم أصول الفقه للمرحوم الشيخ محمد عبد الله أبو النجا ٣٢.

٦ – الأسرار للجرجانى ص ١٥.

٧ –كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ص ٢.

٨ – الرسالة للإمام الشافعى ٣٢.

٩ – المزهر للسيوطى ٤٠٥/١.

١٠ – الخصائص لابن جنى ٢٦٢/١، والمزهر ٤٠٥/١.

١١ – اللهجات العربية د. إبراهيم نجا ٩٨. وفى اللهجات د. أنيس ١٦٦.

١٢ – المزهر ٣٦٨/١.

١٣ – المصدر السابق ٤٠٢/١.

١٤ – دلالة الألفاظ د. أنيس ٢١٣. واللهجات العربية د. نجا ص ١١٦.

١٥ – اللهجات العربية د. إبراهيم نجا ٩٨.

١٦ – الإتقان للسيوطى ١٢٠/١.

١٧ – المداخل فى اللغة للزاهد ٧٣.

١٨ – المزهر ٤٠٢/١.

١٩ – اللهجات د. أنيس ١٦٤.

٢٠ – الخصائص ٤٦٧/٢ – ٤٦٨.

٢١ – المصدر السابق ٣١٠/٢.

٢٢ – شرح المعلقات للتبريزى ٣٢١.

٢٣ – المفضليات للضبى، بشرح ابن الأنبارى ٥٩٥.

٢٤ – الأزمنة لقطرب (مجلة المجمع العلمى بدمشق ٣٧/١ للسنة الثانية).

٢٥ – الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٤٣، وذيل ديوان عدى بن زيد ١٨٣.

٢٦ – شرح الجاهليات لابن الأنبارى ٢٩٨.

٢٧ – تذكرة الحفاظ فى بعض المترادف من الألفاظ للحضرمى ٣.

الشاغبون على السنة
دعاة باطل لا دعاة حق
ومن شذ شذ فى النار

بقلم فضيلة الأستاذ : محمد نجيب المطيعى

كتب كاتبان كأنهما من شدة التحامهما والتصاقهما وتناسق نغمهما ، وانتظام إيقاعهما وتراقصهما المتوافق على صفحات جريدة واحدة فى يد مدرب صناع قد استطاع أن يوردهما من الشرب (بكسر الشين) مورداً واحداً ، وقد تكدر هذا الشرب بمعانى البطلان وثوران القاع من ضآلة المورد وكدورتة ، فلما استعملا هذا الكدر مداداً كتبا به ما كتبا جاء نتن الرائحة ، تفوح رائحة الكريهة فى معاطس المؤمنين الأحرار فيرتابون ، وحق لهم أن يرتابوا ، فمن كتب هذه المقالات إما عالم فيكون سىء النية سقيم الطوية صاحب هوى وبدعة مضلة ، وإما جاهل جرىء يقتحم قدس رحاب السنة بغير احتراس أو مبالاة ، ونعوذ به تبارك وتعالى من كآبة المنظر وسوء المنقلب .

كتب أحدهما يرد علىَّ فيقول : إنه يجوز لكل مسلم أن يَرُدَّ الحديث الصحيح كما فعلت عائشة وعمر رضى الله عنهما إذ رد كل منهما حديثاً بلغه من ثقات ، ويدفع بذلك قولى بأن كل من يكذِّب حديثاً صحيحاً يسلك فى عقد الكذابين .

وأقول أن من يكذب حديثاً صحيحاً تلقته الأمة بالقبول كابراً عن كابر بحفَّاظها وعلمائها وفقهائها وقضاتها وأئمتها لمجرد الوهم أو المكابرة فإنا نسلكه فى عقد الكذابين ولا كرامة له ، والخبر الذى رواه ذلك الكاتب عن عائشة رواه مبتسراً ومحرفاً ، إذ لو صدق فى الإلمام بنصه الكامل لامتنع عن الاحتجاج به لأنه سينقلب عليه ، وسيكون برهاناً يصفع صفحته التى كتبها بقلمه .

قصة عائشة التى يزعمون فيها أنها ردت الحديث الصحيح تأولا

زعموا أن عائشة رضى الله عنها بلغها أن عمر وابنه يحدثان عن النبى ﷺ « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه فقالت لابن عمر : نولك ما توليت وحسبك القرآن فإنه يقول : « ولا تزروازرة وزر أخرى » .

والصحيح الذى أخرجه أصحاب السنن وبعض ذلك فى الصحيحين فكأن أصل الرواية فى الكتب الستة عن أبن أبى مليكة قال : «لما هلكت أم أبان حضرت مع أناس فجلست بين عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس فبكين النساء فقال ابن عمر : ألا تنهى هؤلاء عن البكاء فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه ، فقال ابن عباس : قد كان ابن عمر يقول بعض ذلك . خرجت مع عمر حتى إذا كنا بالبيداء رأى ركباً تحت ظل شجرة فقال : أنظر من الركب ؟ فذهبت فإذا صهيب وأهله ، فرجعت إليه فقلت يا أمير المؤمنين هذا صهيب وأهله ؟ فقال : عليَّ بصهيب ، فلما دخلنا المدينة أصيب عمر فجلس صهيب يبكى عنده يقول : وا أخيَّاه ، فقال عمر : يا صهيب لاتبك فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه . قال : فذكرت ذلك لعائشة فقالت : أما والله ما تحدثون هذا الحديث عن كاذبين مكذبين ولكن السمع يخطىء وإن لكم فى القرآن لما يشفيكم (ولا تزروازرة وزر أخرى ٣٥ : ١٨) ولكن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه) .

وفى البخارى ومسلم وموطأ مالك والترمذى والنسائى عن عمرة بنت عبد الرحمن قالت : سمعت عائشة رضى الله عنها وذكر لها أن عبد الله بن عمر يقول (إن الميت ليعذب ببكاء الحى عليه) تقول «يغفر الله لابى عبد الرحمن أما أنه لم يكذب ولكن نسى أو أخطأ ، إنما مر رسول الله ﷺ على يهودية يُبكى عليها فقال : إنه ليبكى عليها وإنها لتعذب فى قبرها» وقد انعقد الإجماع لأحاديث أخرى أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه إذ البكاء من سنته وذلك ما ورد من قوله تعالى وليس من قول عائشة ولم يرد ذلك عنها (نوله ما تولى) ومن ثم نعلم أن عائشه كانت تصحح واقعة سماعها لحديث رسول الله ﷺ للأدلة الآتية :

(١) أنها ذكرت الصيغة النبوية واللفظ الشريف .

(٢) أنها ذكرت المناسبة التى حدَّث فيها النبى ﷺ بهذا الحديث .

(٣) أنها لم تكذب الراوين الجليلين ولم تنف صدق تحديثهما عن النبى ﷺ .

(٤) عزت اختلاف روايتها عن روايتهما إلى عدم عصمة السمع من الخطأ .

(٥) لم يكن استدلالها بالآية رفضاً للحديث وإيثاراً للآية لرد الحديث وإنما كان ذكرها للآية لتتطابق روايتها مع منطوق الآية ، وإنما كان هذا النهج للجمع بين الحديث

والآية وهى قاعدة عند المحدثين أن القرآن إذا تعارض ظاهره مع رواية صحيحة وأمكن الجمع بينهما فإنه لا يصار إلى رد الخبر الصحيح بحال وجاء من مزاعم هؤلاء الداعين إلى توْهِين السنة والغض منها ، وإعلان راية القرآن ، وكفى أن السنة لا تعدو أن تكون تطبيقاً عملياً للقرآن . ولا أدرى من أين أتوا بهذا التعريف الذى لا يوافقة منهج علمى – لأن هؤلاء الأبناء يلوكون كثيراً هذه النغمة التى يلجأ إليها (الْعَيِىُّ فى تَهْتَهَتِهِ) كما يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده [1] فهم يزعمون دائماً عن أى حق لا يوافق هواهم مهما قامت عليه البراهين أنه لا يوافق منهجهم العلمى ويثرثرون كثيراً بهذا الشعار ليزحزحوا حزب الله المعتصمين بحبل السنة المطهرة ،وينهنهوهم [2] عن الحق الذى هم عليه .

ولنناقش هذا التعريف العلمى العلمانى :

إن معنى أن تكون السنة مجرد تطبيق عملى للقرآن أن يرد فى القرآن النص على مواقيت الصلاة تفصيلاً وعدد الركعات تحديداً ، وأُرُوُش الجنايات ومقادير الديات وأحكام الشركات والبيعات وعقود القرض والقراض ، ثم يأتى النبى ﷺ فيطبق ما فى القرآن لأنه كما جاء (تفصيلاً لكل شىء) فيرى أن المغرب ثلاث ركعات فيمتثل النبى ﷺ ويصلى كذلك ، ويأتى الصبح فى القرآن ركعتين فيصليهما النبى ﷺ تطبيقاً عملياً لما هو مفصل ومبين فى القرآن ! ! وهذا الكلام لم يقله واحد من أمة محمد ﷺ على الإطلاق ابتداء من أهل السنة إلى العترة إلى الخوارج إلى غيرهم من كل مذهب معتبراً وغير معتبر ، والصواب أن يقال أن السنة تفصيل لما هو مجمل وتفسير لما هو مبهم ، وانشاء أحكام وأصول ليست مذكورة فى القرآن ولكن القرآن تضمن الأمر بهذا على طريق التبع والضمن حين أمر باتباع النبى ﷺ وحين أمر النبى ﷺ أن يبين للناس ما نزل إليهم ، وبين الله تعالى فى الكتاب أنه جل شأنه أوحى إلى نبيه الكتاب والحكمة ، وأنه يعلم أمتة الكتاب والحكمة والله يقول (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ويمكننى بعد ذلك أن أقول وأنا مطمئن : أنى صليت المغرب ثلاث ركعات لأن ذلك فى القرآن إذ أمرنى الله أن أتبع النبى ﷺ وهو قد فعل ذلك وثبت ذلك فى سنته ، ويمكن أن أقول : أن علم الكيمياء والطبيعيَّات وصناعة الصواريخ فى القرآن ، لأن الله تبارك وتعالى قال (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) ، فإذا سئلت : كيف أصنع الصواريخ

---

(١) رسالة التعصب من مجلة العروة الوثقى التى كان يصدرها هو وجمال الدين الأفغانى فى باريس .

(٢) نَهْنَهَهُ عن الشىء : أى زجره لِيَكَفَّ عنه – المحرِّر .

وكيف أعلم دقائق الطبيعيَّات والكيمياء أذكر قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، وبهذا يكون القرآن قد اشتمل على كل شيء ، ثم أن القرآن وجهنا إلى الأخذ بالسنة من حيث كونها أحد الوحيين مكملة للقرآن ، ولا يتوهَّمَنَّ متوهم أن بالقرآن نقصاً إلا إذا لم يكن فيه النص على المتبع الذى تستقى منه هذه الأحكام ، أما وقد دلك على الوسيلة ، وأرشدك إلى الطريق فلم يغادر بذلك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، وقد أستشهد أحد هؤلاء الأبناء بكلام علامة الشام القاسمي فى تفسيره ليسوغ لنفسه خرم السنه ورفضها بتمحل المعاذير والتأويلات المنتحلة إذ يقول القاسمى : (إن منكر الحديث الصحيح الآحاد متأولاً لمعارضتة للقرآن لا يكفر ولا يفسق) نقول : نعم لا يكفر ولا يفسق ولكن نخطئه لأن الحديث الصحيح يجب العمل به فإذا عارض القرآن فعندنا طرق (أحدهما) الجمع بينهما بقدر الإمكان وبذل الوسع فى الجمع خير من بذله فى التماس أدلة الشغب على الحديث لرده ورفضة والإطاحة به (ثانيهما) ألا يكونا على أختلاف قولين وإنما يكونان على اختلاف حالين فيكون لكل نص حال نزل الحكم للعمل به فيها ، فما جاء به الوحى قرآنا له حال ينهض حكماً فيها ، وما جاء به الوحى سنة له حال كذلك ، وهذه قاعدة معروفة عند من تمرس بالاجتهاد والاستنباط أو تتبع أعمال المجتهدين .

فالاستشهاد بعدم تكفير الرادّ للآحاد أو تفسيقة لتسويغ الرد ورفع الرأس بذلك وجمع الناس لذلك ودعوتهم له لا يعدو أن يكون كاستشهاد من يقول : أن من ينصب الفاعل ومن يرفع المفعول ومن يجزم المجرور لا يكون كافراً ولا فاسقاً . فهل معنى هذا أنه لا يكون مخطئاً ولا يكون كما قلنا فى هذا المقال كاذباً فى إخلاله بالقاعدة .

قال الإمام العلامة ابن حزم الظاهرى فى الجزء الأول من كتابه «الإحكام فى أصول الأحكام» بتحقيق المرحوم أحمد شاكر : الباب الحادى عشر (قال على : لما بينا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه فى الشرائع نظرنا فيه فوجدنا فيه إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ ووجدناه عز وجل يقول فيه واصفاً لرسوله ﷺ (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى بوحى) فصح لنا بذلك أن الوحى ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله على قسمين : (أحدهما) وهو متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن (والثانى) وحى مروى منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقروء وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ وهو المبين عن الله عز وجل مراده منا ، قال تعالى (لتبين للناس ما نزل إليهم) ووجدناه تعالى قد أوجب طاعة هذا القسم الثانى كما أوجب طاعة القسم الأول الذى هو

القرآن ، ولا فرق . فقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فكانت الأخبار التى ذكرنا أحد الأصول الثلاثة التى ألزمنا طاعتها فى الآية الجامعة لجميع الشرائع أولها عن آخرها وهو قوله تعالى (أطيعوا الله) فهذا أصل وهو القرآن ثم قال تعالى (وأطيعوا الرسول) فهذا ثان وهو الخبر عن رسول الله ﷺ ، ثم قال تعالى (وأولى الأمر منكم) فهذا ثالث وهو الإجماع المنقول إلى رسول الله ﷺ حكمه وصح لنا بنص القرآن أن الأخبار هى أحد الأصلين المرجوع إليهما عند التنازع ثم قال بعد كلام طويل جيد :

وقال (إنما أنذركم بالوحى) فأخبر تعالى كما قدمنا أن كلام نبيه كله وحى والوحى بلا خلاف ذكر والذكر محفوظ بنص القرآن أ هـ .

وللإمام ابن حزم وجميع أئمه المسلمين ما عدا بعض أصحاب الرأى – وليسوا جميعاً – القول بأن السنة تخصص من القرآن عامَّه ، وتقيد مطلقه ولوكان الخبر آحاداً ولوكان غريباً [١] صحيح الأسناد .

أما الابن الآخر فيقال أنه طبيب وكان آخر العظائم التى قذف بها فى وجوه المسلمين كلمة جريئة ينكر فيها حديثاً يقر بصحته – وهنا مكمن الفجور الفكرى – ويصر على رده بدعوى أنه مدسوس من الإسرائليات وكأن إسرائيل لمَّا يكفها أنها كانت تدعى طول الذراع للنيل من أعماقنا أرضاً حتى جاء من يبشر بطول هذه الذراع بطريقة ملتوية حتى وصلت إلى أصح كتاب تحت أديم السماء بعد القرآن ذلك هو صحيح البخارى ، وأظن أننا قد بترنا بقوة الله وعونه فى العاشر من رمضان هذه الذراع ، ولكنها بقيت عند بعض أصحاب الأقلام التى انسلخت من الركائز الصحيحة للمنهج العلمى فى شرائع الله ، فتمثلت فى عقولهم شبحاً عابثاً بكل شىء ، وقد بنى دعواه على :

أولاً : لأنه من قول صحابى (لاطلع ولا نزل) .

ثانياً : أنه يخالف – أعنى الحديث – مقاله وما ساقه من مقدمات ليصل بها فى تعسف ظاهر وإقحام لا مسوغ له إلا أن هذا الحديث يخالف منطق حضرة النطاسى .

ثالثاً : أنه يساعده على نشوء الجماعات السرية التى تقاوم الكفر البوَّاح والباطل الصرَّاخ (هكذا يريد الكاتب) ولنذكر الحديث كما ورد فى الصحاح والسنن والمسانيد وتلقته الأمة بالقبول إلى يوم الدين : (عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وعلى أثرة علينا وألا ننازع الأمر

(١) وللغرابة مفهوم عند أصحاب هذا الشأن من المحدثين سنوضحه إن شاء الله فى بحوثنا .

أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) .

ونريد أن نقول : أن البيعة من الصحابة للنبى ﷺ ثابتة بنص القرآن فى غير موضع لا ينكرها مسلم فتح كتاب الله تعالى . فمن أنكر البيعة فهو زنديق ينكر ما نزل به الكتاب العزيز صريحاً لا شبهة فيه وإن كان الاعتراض على عدم السمع والطاعة فى الكفر البواح الذى قام عليه برهان لا يختلف فيه اثنان وهو واضح وضوح الشمس كالأمر بترك الصلاة أو الأمر بارتكاب الزنا أو الأمر بعبادة غيرالله ، هل يترك الرسول ﷺ الأمة حائرة دون أن يوضح لها ما ينبغى عمله عندما تتاح هذه الفتنة العمياء لا قدر الله ، أليس فى القرآن ما يدل على هذا المعنى حتى بالنسبة لأقرب الأقربين كالأبوين مثلاً (وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتَّبع سبيل من أناب إلى) فلتحذف هذه الآية أيضاً من الكتاب خوفاً من أن تستغل على منطق النطاسى فتشجع على تكوين الجماعات السرية ، ولقد كان فى رده للحديث كالدب الذى أراد أن يجلى (الذباب عن وجه صاحبه فانقض عليه ، وهو برده للحديث كأنما يصرح بالمفهوم والمنطوق أن النظام ينطبق عليه ما فى الحديث وكذب ، فإن الحاكم لا يشك فى إسلامه أحد والنظام أساسه إسلامى لأنه يقوم على قاعدة عريضة من الشعب المؤمن بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، مجتمع فيه الأزهر لا يمكن أن يكون فيه كفر بواح .

بقى قول النطاسى أن الحديث قول صحابى . نعم هو خبر يخبر به الصحابى عن أمر فعله رسول الله ﷺ فهو حديث مرفوع وفيه حديث قولى وهو قوله ﷺ (إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) ولعل الشبهة جاءت النطاسى من عدم إلمامه بآفاق اللغة العربية ومناهج التعبير فيها فقول عبادة (وعلى أثرة علينا . إلا أن تروا الحديث) يسمى عند علماء اللغة (التفاتا) وهو فى القرآن منه فى مواضع كثيرة ، ويسمى أيضاً خطاب التكوين قال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) فالقائلون : ربنا أبصرنا هم المجرمون المعبر عنهم بضمير الغائب ثم عبر بلسانهم بلغة الالتفات وهو الصرف والتحدث بضمير الغائب إلى التحدث بضمير المتكلم . وانظر إلى قوله تعالى (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) وهذا من الخطاب لشخص ثم العدول إلى غيره ، فإن الله تبارك وتعالى يقول (فإن لم يستجيبوا لكم ثم يوجه الخطاب إلى الكفار فيقول :

فاعلموا أنما أنزل بعلم الله – إلخ ، وكقوله تعالى (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله .) ونقول لهؤلاء مرة أخرى تعلموا لغة القرآن لتفهموا الإسلام والله الهادى إلى سواء السبيل .

محمد نجيب المطيعى
صاحب تكملة المجموع شرح المهذب للشيرازى

الْعِلْم

اَلْعِلْمْ شَىْ بَعِيدُ الْمَرَام ، لاَيُصَادُ بالسِّهَام ، ولا يُقْسَمُ بالأَزْلاَم ، وَلاَ يُكْتَبُ لِلِّئَام ، وَلاَ يُرَى فى الْمَنَام ، وَلاَ يُضْبَطُ باللِّجام ، وَلاَ يُورَثُ عَنِ الآبَاءِ والأعْمَام .

وَزَرْعُ لاَ يَزْكُو إلاَّ مَتَى صَادَفَ مِنَ الْحَزْمِ ثَرىً طَيِّباً ، وَمِنَ التَّوفِيقِ مَطَراً صَيِّباً ، وَمِنَ الطَّبْع جوًّا صافياً ، وَمِنَ الْجُهْدِ رُوحاً دَائِماً ، ومن الصَّبْرِ سقْياً نَافِعاً .

وَغَرَضُ لا يُصَابُ إلاَّ بِإفْتِرَاشِ الْمَدَرِ ، وإسْتِنَادِ الْحَجَر ، وردِّ الضَّجَر ، وركُوبِ الْخطَر ، وَإدْمَانَ السَّهَر ، وإصْطِحَاب السَّفَر ، وكَثْرَةِ النَّظَر ، وإعمال الْفِكَر . .

بديع الزمان الهمذانى

الخلق الجنسى فى الإسلام

مختصر محاضرة ألقاها الدكتور خليل سمعان فى اجتماع الندوة العربية)
(فى جامعة ولاية نيويورك فى نغمطن)

«لا خُلُق فى الإسلام Il n'y a pas de morale en Islâm. » هذا ما يدّعيه المستشرق الفرنسى بوسكه G.-H. Bousquet فى كتاب له نشره فى عام ١٩٦٦ فى دار G.-P. Maisonneuve et Larose فى باريس : –

وبوسكه هذا ، فى كتابه المذكور أعلاه ، يصرح ، بدون خجل ، أنه فى قوله بانعدام وجود خلق فى الإسلام ، إنما يقلد سابقيه ، الهولندى سنوك هرخرونيه والدانمركى تور أندريا ، الأول فى قوله بأن الدين الإسلامى خَلِيٌّ مما يسمى فى الغرب بالقانون ، والثانى فى تصريحه بأن الدين الحنيف خَلِيٌّ من النظام الدينى للعبادة بالمعنى اللاهوتى الغربى .

والمطلع ، المتحرر من العنصرية ، والموضوعى ، ليس بحاجة لمن يمحص مناقشاً أقوال السادة هؤلاء . إن آراءً كهذه لا يمكن أن يكون الدافع لها حب الاطلاع ، أو أن تكون نتيجة بحث موضوعى رزين . فالواقع أن الإسلام تعرض ويتعرض لتهجمات تزمتية وعنصرية كثيرة ، هدفها تشويه صورة الدين الحنيف ، وإظهاره بمظهر الدين البدائى الذى يتجاوب وحاجات شعب بدائى لا قدرة له على التفكير الفلسفى الدينى العميق . ولكم تمنيت لو كان باستطاعتى القول بأن عملية تشويه سمعة الإسلام هى عملية فاشلة ، يقوم بها أشخاص صغار العقول متزمتون ، لا أثر لعملهم العنصرى هذا فى مجتمعهم المثقف . فالواقع أن هذا العمل العنصرى أضرّ ويضر بسمعة الإسلام والمسلمين ، وأساء ويسىء فهم تعاليم الدين الحنيف ، وزاد ويزيد تجريحاً فى سمعة الإسلام شعوباً ودولاً ودبلوماسية .

وليس هدفنا اليوم تمحيص جميع أقوال السيد بوسكه فى الخُلُقِ الإسلامى ، وفى موقف الشريعة الإسلامية من العلاقات الزوجية وسواها فى أحكام النكاح . وجُلُّ ما يسمح لنا

---

(1) L'éthique Sexuelle de l'Islam.

وقت هذه الكلمة هو دحض رأى هذا الرجل ، بمجرد الإشارة إلى تعاليم الإسلام الرئيسية ، المحتواه فى سجل هذا الدين السماوى ودستوره « القرآن الكريم » وتعلمون بأن هنالك مراجع أخرى لمن يرغب فى التوسع وزيادة الاطلاع ، هى فى أصول الفقه حديثاً وقياساً وإجماعاً وما دوّنه السلف من فتاوٍ فى هذا الموضوع الكثير التعقيد .

والمدهش حقاً أن يقوم بعملية التشويه هذه أشخاص مثقفون ، درسوا ويدرسون حضارة العرب والإسلام ، يكتبون وينشرون المقالات والأبحاث عن تاريخ وآداب العرب والمسلمين ، ويدرّسون فى معاهد الغرب لغات العرب والأمم المسلمة . . . هذه الحقيقة ترغمنا على القول أن عملاً كهذا لا يمكن أن يمت للعلم بصلة ولا يجوز أن يُسمحَ لقائله بتدريس تاريخ العرب والمسلمين فى معاهد وجامعات ، شرقية كانت أم غربية . إن أعمال التشويه هذه يجب أن يشار إليها باسمها الحقيقى : الدعاية العنصرية .

ولنعد إلى موضوعنا الرئيسى : لا وجود لكلمة « جنس » بمعنى Sex فى القرآن وكتب اللغة القديمة . فالكلمة تعنى « النوع » وهى قريبة فى معناها من الكلمة الأغريقية Genus المستعملة فى جميع اللغات الهندأوروبية . واسم « الجنس » فى كتب اللغة لا يدل فى شىء على العمل الجنسى (أو التناسلى أو عمل الحب أو الجماع أو الباه ، إلخ) وما نجد فى القرآن معبَّراً عنه بكلمة « النكاح » هو اتحاد الرجل والمرأة جسدياً فى أحوال معينة أهمها وأكرمها عند الله الزواج . والقرآن الكريم يذكر أحوال علاقات الرجل بالمرأة مفصِّلاً وبدون غموض البتة . ففى النساء عامة ، هنالك الآيات ٢ (٢٢٨ و ٢٨٢) و ٣ (١٩٥) و ٤ (١ – ٣٥ ، ١٢٤) و ١٣ (٢٣) و ٣٠ (٢١) و ٣٦ (٥٥ ، ٥٦) و ٤٠ (٤٠) و ٤٢ (١١) و ٤٣ (١٨١ ، ٧٠) و ٤٦ (١٥) و ٤٨ (٦) و ٤٩ (١١) و ٥٧ (١٨) وفى المؤمنات الآيات ٩ (٧١ ، ٧٢) و ١٦ (٩٧) و ٢٤ (٣١) و ٢٣ (٣٥ ، ٥٨ ، ٧٣) و ٤٧ (١٩) و ٤٨ (٥) و ٥٧ (١٢) و ٦٠ (١٠ و ١٢) و ٧١ (٢٨) و ٨٥ (١٠) . وفى أسيرات الحروب والإماء الآيات ٢ (٢٢١) و ٤ (٣ ، ٢٤ ، ٢٥) و ٢٣ (٦) و ٢٤ (٣٣) و ٣٣ (٥٠ ، ٥٥) و ٧٠ (٣٠) . وفى الزواج والطلاق والزنى ، الآيات ٢ (١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٢١ – ٢٤١) و ٣ (١٤) و ٤ (١ – ٣٥ ، ٤٣ ، ١٢٧ – ١٣٠) و ٥ (٥) و ١٦ (٧٢) و ٢٣ (٥ – ٧) و ٢٤ (٢ – ٩ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣١ – ٣٣ ، ٦٠) و ٣٣ (٦٢٤ ، ٢٨ – ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٩ – ٥٣ ، ٥٩)

و٥٨ (١ – ٤) و٦٠ (١٠ – ١٢) و٦٤ (١٤) و٦٥ (١ – ٧) و٦٦ (١ – ٥ ، ١٠ – ١٢) و٧٠ (٣٠ – ٣١) .

وهاكم ما انتقيناه من نصوص صريحة تفى بحاجتنا وتوصل إلى الهدف الذى صرحنا به فى مطلع هذه الكلمة ألا وهو دحض القول بأن الإسلام خَلِىٌّ من الخُلُق : السورة رقم ٢ البقرة .

الآية ٢٢١ – ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن . . . ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا . . . فاعتزلوا النساء فى المحيض . . .

الآية ٢٣٢ – فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن (بعد طلاقهن منكم) .

السورة ٤ النساء .

الآية ٣ – فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة .

الآية ٢٢ – ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء .

٢٣ – حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين .

الآية ٢٥ – ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن .

الآية ١٢٧ – (يفتيكم الله فى) يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهنَّ ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن (عليكم القيام بالقسط) .

السورة ٢٤ .

الآية ٣ – الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك .

الآية ٤ – الذين يرمون المحصنات ولم يأتوا بأربعة شهداء – ٨٠ جلدة .

الآية ٣٢ – وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم .

الآية ٣٣ – وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله .

الآية ٦٠ – والقواعد من النساء الذين لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة .

السورة ٢٨ القصص .

الآية ٢٧ – قال أنى أريد أن أنكحك أحدى إبنتى هاتين (لموسى) .

السورة ٣٣ الأحزاب .

الآية ٤٩ – إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً .

السورة ٦٠ الممتحنة .

الآية ١٠ – ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن .

سيداتى وسادتى :

أكتفى بهذا القدر من التعاليم الخلقية التى يحتوى عليها القرآن الكريم ، منبع الخلق الإسلامى ، فتدركون ما فى كلام المستشرق بوسكه وأمثاله من الظلم والحَيْفِ ، وبهذا أكون قد قمت بدحض تصريحه الخاطىء القائل بأن الإسلام خلى من التعاليم الخلقية فى كل ما يتعلق بالعلاقات الجنسية ، حلالها وحرامها . وأملى أن أكون قد وُفِّقت إلى إظهار نبل تعاليم الكتاب ووصاياه فى موضوع كلمتنا هذه المتعلقة بعلاقة الرجل بالمرأة وبمعاملته إياها ، وما على الإثنين من واجبات ومالها من حقوق ، وذلك على ضوء تعاليم الإسلام الخلقية . فما ذكرناه مما فى الكتاب من تعاليم ووصايا تثبت بأن الإسلام .

١ – يُحِلُّ العلاقات الجنسية ويحدد من حقوقها وواجباتها فى حالات الزواج وسواها .

٢ – يوصى بعدم اعتبار الوضع العائلى الاجتماعى أو المالى كدافع للزواج أو عدمه .

٣ – يمنع زواج مسلم من مشركة ومشرك من مسلمة ، وبديهى ما فى هذا المنع من حكمة وتخلق .

٤ – يوصى بعدم التعرض للمتزوجين فى حريتهم الجنسية .

٥ – يوصى المسلم الذى لا قدرة له على الزواج من مؤمنة بنكاح من يملكه من الإماء .

٦ – وأنه واجب على المسلم الذى لن يعدل فى زواجه من أكثر من واحدة بالاكتفاء بذلك .

٧ – بأن للوالد الحق فى العمل على تزويج ابنته من رجل عاقل صالح .

٨ – أن على الامرأة التى لا قدرة لها على الزواج أن لا تتبرج ولا تتزين لذلك .

٩ – أن الزانى لا يعاقر سوى الزانية والعكس بالعكس .

١٠ – أن للمسلم الزواج من مشركة أسلمت وللمسلمة الزواج من مشرك أسلم .

أو يمكن بعد هذا أن يقال بأن الإسلام خَلِيٌّ من الخُلُق ؟

شكراً .

الحقد والحسد

ألاَ قُـلْ لِمَـنْ بَـاتَ لِى حَاسِداً
أَتَـدْرِى عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ ؟
أَسَأْتَ عَلَى الله فى حُكْمِـهِ
إِذْ أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِى مَا وَهَبْ

شاعر عربى

للهِ دَرُّ الْحَسَدِ وَمَا أعْدَلَه ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قبل أن يَقْتُلَ الْمَحْسُود . .

على بن أبى طالب

من تراثنا الحديث

متى نكون أمة صالحة

للعلامة المرحوم
محب الدين الخطيب

نكون أمة صالحة يوم نلتفت ذات اليمين فنرى لبلادنا جحافل من الجيوش المنظمة مجهزة بأحدث الأسلحة وأسرعها، مصنوعة بأيدينا وفى مصانعنا وتحت سماواتنا.

ونلتفت إلى سواحلنا فنرى لنا فى مياهها أساطيل حربية وتجارية تملأ قلوب الأمم إيماناً بصلاحنا، وإستسلاماً لهيبتنا.

ونلتفت إلى جماركنا فنراها منهمكة بالتصدير، لا بالإستيراد..

ونلتفت إلى جامعاتنا فنراها تعمل على تكوين علماء عاملين فى جميع ضروب المعرفة: من تحقيق لتاريخنا، تتجلى لنا به نفوس السلف كما هى طاهرة نقية، عاملة ناصبة، دائبة على الخير، مقيمة للحق، ناهضة بالمثل العليا. مكونة للإنسانية الخيِّرة المتواضعة المتعاونة، وتتجلى لنا به عوامل الشر التى طرأت على ذلك الماضى الطيب فعبثت بسننه الفطرية، واكتفت من حقائقها بقشورها وألفاظها، وحولتها عن اتجاهاتها إلى غير ما كانت ترمى إليه.

ومن تنظيم وتنقيح لمبادئنا التشريعية، وأحكامنا القضائية والفقهية، يتبين منه للناس أن أمم الأرض مجتمعة من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة، لم تتوَّخ فى أحكامها ما توَّخاه الإسلام وشريعته وفقهاؤه من تحرى الحق والعدل والخير، غير متأثرين بأهواء أحد من الناس.

ومن استنباط واستخراج لأسرار الله فى الكون، وقوى الخليقة الكامنة فى عناصرها، — وتحويلها إلى خير الإنسانية وسعادة الخلائق.

ونلتفت إلى ما أنعم الله به علينا من تربة وأنهار وينابيع ومناجم ونقود ومتاع فنشكره عليها بحسن استعمالها واستغلالها واستنتاجها حتى لا ندع قطرة من ماء ولا شبراً من أرض ولا ذا قيمة من ركاز أو معدن، إلا حولناه — بالتدريج، وبلا فتور — إلى قوة نافعة للناس مؤيدة للخير، ذابة عن الحق.

نفعل ذلك كله بأخلاق فاضلة ، ونفوس عفيفة ، وجهود دائبة نشيطة ، وقلوب وعقول متجهة إلى الله متوخية مرضاته ، عاملة لطاعته .

يومئذ نكون أمة صالحة ، ويومئذ نكافأ من الله على هذا الصلاح بأن يؤهلنا لنكون خلفاء على الأرض .

ولكن متى يكون هذا ، ومن ذا الذى يفعله ، وكيف يفعله ؟ ! ! . .

اليابانيون – قبل غلطتهم الأخيرة – حاولوا بعضه فى ستين أو سبعين سنة ، وكان العامل فى وجوده روح عامة سرت فيهم ، وإرادة ملأت نفوسهم ، واندفاع فردى وجماعى إلى العلم والعمل التمسوا فيه طرقها ، يختار كل واحد ما ترتاح إليه نفسه ، ويوافق مشربه وما تطيقه مواهبه ، ويلتئم مع ظروفه . وكان الواحد منهم إذا ارتاحت نفسه إلى باب من أبواب العلم ، أو ضرب من ضروب العمل ، ورآه فوق طاقته وأوسع من نطاق ظروفه ، بحث له عن أعوان من أشباهه ونظرائه فتعاونوا مجتمعين ، على ما ينوءون به منفردين . فكان تعاونهم عليه بإخلاص وإنصاف وصدق فى السر والعلانية . ومن هنا نشأت المصانع الضخمة ، والشركات البحرية التى ملأت آفاق المحيط سفيناً ، وبهذا وجدت صحفهم اليومية الكبرى التى تدار بآلات من صناعة بلادهم أقاموا لها أضخم المبانى . وببركة هذا التعاون وجدت شركات النشر التى أخرجت للناس دوائر المعارف المتقنه ، والمعاجم الكبرى ، وسلاسل المصنفات العجيبة فى شتى العلوم وصنوف المعرفة .

ومما زادهم توفيقاً ونجاحاً فى هذه النهضة الجدية إخلاص العمال والعاملات وقناعتهما ، فبينما كانت أوربا وأمريكا تتخبطان فى أنانيات أصحاب الأعمال والعمال وتناحرهما ، كانت اليابان فى راحة من هذا الفساد بإقبال العمال على أعمالهم مخلصين للمصنع كأنهم أصحابه ، بل أكثر مما يفعل أصحابه لو كانت أيديهم فى مكان أيدى العمال ، فاتسعت بذلك الصناعات ولم تبق تحت سماء اليابان يد واحدة بلا عمل من نساء أو رجال ، فهى بلاد لم تعرف التسول ولم تعرف التعطل ، وكانت أوربا وأمريكا تحسدانها على هذا التعاون بين العمال وأصحاب الأعمال ، وعلى قلة تكاليف الصناعات ، حتى أغرقت اليابان الدنيا كلها بصناعاتها ؟

وغزت بها بلاد أوربا وأمريكا بالرغم من الحواجز الجمركية القاسية الجائرة التى أقيمت فى وجهها ، بل كانت اليابان تعمد إلى صميم ما انفردت به أمة من أمم أوربا ، فتقلده ، وتصنعه بربع تكاليفه وتبيعه فى البلاد التى كانت تصنعه . فكانت هذه المباراة الصناعية

حرباً قبل الحرب وقتالاً بلا سلاح . وكاد اليابانيون أن يُدخلوا إلى مصر وغيرها قبل الحرب الأخيرة سيارة صغيرة بمقعدين أو ثلاثة يستطيع المرء منا أن يشتريها بعشرين أو ثلاثين جنيهاً فيستغنى بها صغار الموظفين بل العمال عن ركوب الترام ، لولا أن اليد الاستعمارية حملت الجمارك على صد هذه الحملة الاقتصادية بأسلحة تشريعية حالت بين مصنع السيارات اليابانى ومستهلكى مصنوعاته فى الخارج .

ولو أن اليابانيين اقتبسوا من الإسلام طريقته الحكيمة فى الاتصال بالأمم كما اقتبسوا من أوربا وأمريكا طريقتها القويمة فى الصناعات وعلومها ، وبنوا على ذلك تعاونهم مع الصين وأندونيسيا وبورما والفلبين وسائر المشرق ، لاتقَّوا بذلك الكارثة التى وقعوا بها أخيراً فأرجعتهم إلى الوراء ستين أو سبعين سنة . ولكنهم – برحمة من الله لأمم المشرق – تعلقوا بمبادئ الاستعمار الأوربى ، فاصطدموا به الصدمة التى أتاحت لأندونيسيا هذه النهضة المباركة التى ستؤتى أكلها بعون الله طيباً نافعاً بعد خمسين أو ستين سنة بما لا يكاد قارئ هذه السطور أن يصدقه لو أردت أن أصف ما أرجو وقوعه .

أيها العرب ، أيها المسلمون ، إن الأمم لن تعيش بعد اليوم إلا مرتفعة الرأس بالسيادة أو منكسة الرأس بالعبودية .

وللسيادة أخلاق لابد من حملها . .

وللسيادة طرق لابد من سلوكها . .

وللسيادة مبادئ لابد من التخلق بها . .

وللسيادة علوم لابد من الحصول عليها . .

وللسيادة عمل دائر دائب مستمر يتحطم الكسالى والمهملون تحت عجلاته وبين دوَاليبه .

أول عناصر السيادة للعربى والمسلم أن يعرف حقيقة العروبة وسجاياها التى أهلتها لحمل رسالة الإسلام الأولى على خير الوجوه وأنجحها ، وأن يعرف رسالة الإسلام ومهمته فى الأرض كما كان يفهمها أهله الأولون .

إن سجايا العروبة أخلاق هذبها الإسلام وقام على أركانها فكانت له السيادة ، وكانت للإنسانية به المثل العليا مشاهدة فى تصرفات أهله ومعاملاتهم ، بعد أن كانت خيالاً وهمياً وأملاً ميئوساً من تحقيقه . أما رسالة الإسلام ومهمته فهى تكوين الأمة (الصالحة) ، وتعميم صلاحها فى الأمم ، حتى يعم الإنسانية كلها .

أصاب سلفنا الأول مراد الإسلام من (الصلاح) و (الفقه) فاتصفوا بهما مدة الخلفاء

الراشدين ، وفى زمن التابعين لهم بإحسان ، وكانوا بذلك خلفاء الله على الأرض . على معظم الأرض التى كانت معروفة يومئذ ، فى آسيا ، وأفريقية ، وأوربا ثم أخطأ الذين بعدهم فهم (الصلاح) و (الفقه) بمعناهما الإسلامى ، فحصروهما فى أشياء ، وأبعدوهما عن أشياء فانقطعت السلسلة ، وانفرط العقد ، وخرجوا عن طريقة الإسلام فى تكوين (الأمة الصالحة) .

الأمة الصالحة هى التى تتكون من أفراد صالحين . وصلاح الأفراد يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة ، لأن الإسلام جاء للسعادتين فيهما معاً . والدنيا فى الإسلام مزرعة الآخرة ، والأمة التى تهمل إصلاح دنياها توشك أن تكون أكثر إهمالاً لما يصلح أخراها .

و (الفقه) أحكام إسلامية استنبطناها من الهداية المحمدية بصريح النص أو بالقياس عليه أو بالإجماع على أنه يوافقه أو أنه غير معارض له ، وأعجب ما أعجب له أن يتقيد المسلم بالحكم الشرعى المستنبط من النص فيما يتعلق بالحيض والنفاس ونواقض الوضوء ، ولا يبالى بالنص المحمدى الصريح فيما يتعلق بالأخلاق الفردية والبيتية ، والتوجيهات الاجتماعية ، والأمور التى تتصل بكيان الأمة والدولة . وأعجب من ذلك كله أن ننعت بالصلاح الرجل الذى يتقيد بأحكام الشريعة فى الوضوء والتيمم ومناسك الحج ، ويخالف أكثر سنن الإسلام وهدايته فيما يتعلق بالأخلاق الاجتماعية وروابط الأمة واتجاهات الدولة ، فإذا فرط فى هذه الأمور الأخرى ، وداجى ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، وكتم ما أخذ الله على العلماء أن يجهروا به ، كان ذلك فى نظرهم هيِّناً ، وهو عند الله عظيم .

إن الأمة الإسلامية الصالحة هى التى يتعاون جميع أفرادها – كلٍ واحد من الجانب الذى هو فيه – على استكمال جميع أسباب القوة والسعادة والخير باتخاذ أسبابه ، والوقوف على دخائل العلوم المؤدية إليه ، والعمل لتحقيقه بأمانة وإخلاص وقناعة وإتقان ، وأن يوفق كل فرد فى الأمة ين مصلحته الشخصية والمصلحة العامة التى تتمثل بها قوة الأمة وكرامتها وسيادتها .

أنا من خمسين سنة إلى الآن أتتبع نصوص الإسلام ، وأطيل النظر فى عقائده ، وقواعده وسننه ، وفى فهم الصحابة والتابعين لها ، ثم فى الألاعيب التى اخترعها الزنادقة والدجالون والجهلة لتحويلها عن أهدافها .

وقد تكوَّن فى قلبى اليقين بأنه ليس فى عقائد الإسلام عقيدة ، ولا فى عباداته عبادة ولا فى مبادئه وسننه مبدأ أو سنة ، ولا فى نصوصه وتوجيهاته نص أو توجيه ، إلا وله أثر عملى

فى تكوين (الفرد الصالح) و (البيت الصالح) و (الأمة الصالحة) وما أخَّر الإسلام المسلمين، ولكن المسلمين عطَّلوا دينهم وشوَّهوا جماله، فلم يسيئوا إليه لأن الله تولى حفظه لمن يريد أن ينتفع به، وإنما أساؤا إلى أنفسهم، وإلى جماعاتهم وأوطانهم، وإلى ذراريهم (والجزاء من جنس العمل).

الإيمان الإسلامى يتعلق بما هو حق من أمر الغيب كما يتناول ما هو خير من حياة الشهود، ولذلك تشعب إيماننا إلى بضع وسبعين شعبة: منها الحياء، ومنها السعى الحلال والكدح المنتج، ومنها الصدق، ومنها التعاون على الخير، ومنها الاعتدال ومنها مقاومة البغى، ومنها الأمانة، ومنها العزة بالحق، ومنها التواضع فيما لا ينافى الكرامة، ومنها النصح للجميع، ومنها الاقتصاد فى كل مالا تمس إليه الحاجة الضرورية – حتى الماء الذى يتوضأ به المتعبد وهو على النيل يجب عليه أن لا يسرف فيه، خوفاً على النفس الإسلامية أن تتعود السرف والتبذير – كل ذلك وما أشبهه (مما تكون به الأمة الصالحة) معدود فى الإسلام من شعب الإيمان به، بل إن أدنى ما فى الإيمان الإسلامى وأقل ما نحصيه من مزاياه، أن المؤمن ينبغى له أن يميط الأذى عن طريق الناس إنما النفس الإسلامية بأدب الإحسان فى كل شىء، عملاً بقول رسول الله ﷺ فى حديث شداد بن أوس «إن الله كتب الإحسان على كل شىء» ثم ضرب ﷺ المثل للإحسان حتى عند قتل من وجب قتله، وعند ذبح الحيوان الذى استباحت الإنسانية ذبحه فقال «فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته». رواه الإمام أحمد بسند صحيح. وهكذا المعانى التى أشرت آنفاً إلى أنها من شعب الإيمان الإسلامى قد ورد فى كل منها النص ودل عليه الهدى وأصبح ذلك كله من مدلول الإيمان عند المسلمين.

فالأمة الإسلامية التى تتأدب بهذا الأدب، وتلتمس علم أسرار الكون ومكنونات الخليقة لتعمل بهما وتعتمد عليهما فى تكوين قوتها وتوسيع صناعاتها، لا تحتاج لأكثر من خمسين سنة حتى تكون (أمة صالحة)، ويومئذ يستخلفها الله على الأرض كما استخلف سلفها الأول عندما سار فى نفس الطريق. أما إذا عاندت هذا التوجيه الإسلامى – ولو بالمكر والرياء – وأرادت حبس الإسلام فى الجامع، ولم تأذن له بدخول القلب، والعقل، والمنزل والمتجر، والمصنع، والمحكمة، وديوان الحكم، ونظام الدولة، فإنها لا تسئ بذلك إلى الإسلام، وإنما تسئ إلى نفسها.

ولعلك تسألنى: ومن الذى يفعل ذلك، ومن هو المسئول عنه؟ ولعلك بسؤالك هذا

تريد أن ترمى الخشبة عن كتفك قائلا : إنها من واجب ولاة أمر المسلمين.

وأنا أجيبك على سؤالك بأن المسئول عن تحقيق هذه الأمنية كل من آمن بها من الأفراد والجماعات ، ولو لم يكن فى المسلمين غيرى وغيرك لوجب علينا أن نبدأ به من أنفسنا ، وندعو إليه كل من يصغى إلى دعوتنا ، وأن نحتال على أهل القابلية من الأصفياء الأذكياء من أبنائنا وبناتنا ، فنبث هذا الإيمان الإسلامى فى قلوبهم . ومتى كثر هؤلاء وصاروا شيئاً يذكر ، اكرمهم الله حينئذ بالولاة الصالحين (وكما تكونوا يولى عليكم) . أما أن تكون أنت راعياً غير صالح على نفسك ، وعلى نقودك ، وعلى العمل الذى تعيش منه ، وعلى زوجك ، وأولادك الذين فى أمانتك ، وعلى ما علّمك الله من فقه وحكمة ومعرفة ، وعلى ما هداك إليه على لسان أكمل رسله من فضائل وحقائق وتوجيهات ، ثم تريد أن تكون أمتك صالحة وأنت غير صالح ، فهذا مخالف لسنن الله فى خلقه . ولعلك إذا وليت كرسى الحكم تكون شراً من الذى تشكوه . فلنكن أنا وأنت صالحين بالمعنى الإسلامى للصلاح . ولنتعاون على تعميم هذا المعنى والدعوة إليه إلى أن تكون الأمة كلها من أهله ، فيكافئنا الله بالدولة الصالحة ، ويجعلنا خلفاءه على الأرض . .

أَدَبُ الْحِكْمَة

قَالَ أَعْرَابِىٌّ : فَازَ قَوْمٌ أَدَّبَتْهُمُ الْحِكْمَةُ ، وَأَحْكَمَتْهُمُ التَّجَارِبُ ، وَلَمْ تُغرِّرْهُمُ السَّلاَمَةُ الْمُنْطَوِيَةُ عَلَى الْهَلَكَةِ ، وَرَحَل عَنْهُمُ التَّسْوِيفُ الَّذِى قَطَعَ بِهِ النَّاسُ آجَالَهُم ، فَأَحْسَنُوا المَقَال ، وشَفَعُوهُ بِالفِعَال ، تَرَكُوا النَّعِيمَ لِيَنْعَمُوا ، لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ ، لاَ تَرَاهُمْ إِلاَّ فِى وَجْهٍ عِنْدَ اللهِ وجِيهاً . .

من قضاة الإسلام

كعب بن سور الأزدى

دكتور فؤاد عبد المنعم

تطلّب الخليفة العادل الحازم : عمر بن الخطاب فيمن يقيم أمر الله بالفصل بين الناس ثلاث خصال : لا يصانع ، ولا يضارع (أى يشبه فعله الرياء) ، ولا يتبع المطامع . وقد أستبان بالتجربة لعمر رضى الله عنه توافر هذه المواصفات فى كعب فولاه قضاء البصرة ، وكانت أحكام كعب من دليل صحتها لا يُختلف فيها أو عليها . فكانت الشهادة التقديرية من عمر لكعب قوله : « نعم القاضى أنت » .

معالم حياته :

* كعب بن سور بن بكر بن الأزدى ، من قبيلة من أهل اليمن ، لم تشر المصادر والمراجع التى بين أيدينا إلى تاريخ ولادته وإن أجمعت أن وفاته كانت فى موقعة الجمل سنة ٣٦ هـ .

* كان كعب مسيحياً فى الجاهلية ، واعتنق الإسلام عن وعى وإدراك – واقتناع ، فكان من القلة الخيِّرة المؤمنة من أهل الكتاب الموصوفة من الله بقوله : « ليسوا سواء : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين « آل عمران : الآيات (١١٣ – ١١٥) فقد آمن كعب إيماناً صادقاً عميقاً ، وكاملاً وشاملاً وانضم إلى الصف المسلم وقام بحراسة دين الإسلام .

* لم تثبت رؤيته للرسول ﷺ ، ولم يرو عنه أى حديث ، وإن عاصر كبار الصحابة ، وفَقِه آيات الأحكام والحديث . ويعد كعب من كبار التابعين .

* مكث فى القضاء اثنى عشر عاماً فقد استقضاه عمر قاضياً على البصرة فى سنة ١٨ هـ ، ولم يزل كعب قاضياً لعمر حتى استشهد عمر رضى الله عنه فى عام ٢٣ هـ ، وفى

عام ٢٩ هـ ولّى عثمان بن عفان عبد الله بن عامر على البصرة ، فأعاد ابن عامر كعباً على القضاء فلم يزل حتى استشهد .

كيف ولى عمر كعباً لقضاء البصرة ؟

يحدثنا الشعبي : أن كعب بن سور كان جالساً فجاءت امرأة ، فقالت : يا أمير المؤمنين : ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي إنه ليبيت ليله قائماً ، ويظل نهاره صائماً فى اليوم الحار ما يفطر ، فاستغفر لها وأثنى عليها . وقال : مثلك أثنى الخير . . . وقال : واستحيت المرأة فقامت راجعة . فقال كعب : يا أمير المؤمنين ، هَلاَّ أُعَنْتَ المرأة على زوجها أن جاءتك تستعديك ؟ قال : أو ذاك أرادت ؟ قال : نعم . . . فُرُدَّت ، فقال : لا بأس بالحق أن تقوليه ، إن هذا زعم أنك جئت تشتكين زوجك ، أنه يجتنب فراشك . قالت : أجل إنى امرأة شابة ، وإنى أتتبع ما يتبع النساء ، فأرسل إلى زوجها فجاءه . فقال لكعب : أقض بينهما ، فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهمه . فقال كعب : أمير المؤمنين أحق أن يقضى بينهما ، فقال : عزمت عليك لتقضين بينهما قال : فإنى أرى كأنها امرأة عليها ثلاث نسوة هى رابعتهن فأقضى له بثلاثة أيام ولياليهن ، يتعبَّد فيهن ، ولها يوم وليلة (ليس له فيها إلا أداء الفريضة) فقال عمر : والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر ، إذهب فأنت قاض على أهل البصرة .

وفى رواية أخرى طريفة عن المدائنى تتفق معها فى المعنى وتنفرد بأنها تصور حجج الخصوم وأدلتهم بصياغة شعرية . . فالمرأة التى أتت عمر بن الخطاب تثنى على زوجها فقال له كعب بن سور : إنها تشكوه . فقال عمر : اقض بينهما . فتكلمت المرأة فقالت :

يا أيها القاضى الحكيم رشده ألهى خليلى عن فراشى مسجده
زهَّده فى مضجعى تعبُّده نهاره وليله ما يرقده
ولست فى أمر النساء أحمده فأقض القضاء يا كعب لا تردده

فقال الزوج :

إنى امرءاً أذهلنى ما قد نزل فى سورة النور وفى السبع الطول
زهدنى فى فرشها ما فى الحجل وفى كتاب الله تخويف جلل
فحثها فى ذا على حسن البعـــل

فقال كعب :

إن أحق القاضيين من عقل ثم قضى بالحق جهداً وفصل
إن لها حقاً عليك يا بعل نصيبها من أربع لمن عدل
فـــأعطهـــا ذاك ودع عنك العلـــل

كعب يراجع عمر فى قضائه فى عين ماء :

ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى : أن صاحب عين أتى عمر ، وعنده كعب ابن سور ، فقال : يا أمير المؤمنين إن لى عيناً فاجعل لى خراج ما تسقى . فقال : هو لك . فقال كعب : يا أمير المؤمنين ليس ذاك له . قال : ولم ؟ قال : لأنه لا يفيض ماؤه عن أرضه فيسقى أرض الناس ، ولو حبس ماءه فى أرضه لغرقت ، فلم ينتفع بمائه ، ولا بأرضه ، فمره فليحبس ماءه عن أرض الناس إن كان صادقاً . فقال له عمر : أتستطيع أن تحبس ماءك ؟ قال : لا . قال عمر هذه لكعب مع الأولى . ذلك لأن موقف كعب تطبيقاً لقاعدة إسلامية كلية « الخراج بالضمان » ، ومعنى الخراج ما يخرج من الغلة والنتاج والمنفعة ومعنى الضمان ما يصرف من النفقات أو يتحمل من الأضرار .

تَقَيَّأ كعب الهدية لأنها سُحْتٌ ورشوة :

حدث المدائنى قال : قالت بنت كعب بن سور : أَلْطَفَنا بعض الحى بلُطف (الهدية) فدخل أبى فرآه فأدنيناه إليه ، فأكل ثم قال : من أين هذا لكم ؟ قلنا له : أهداه ، لنا فلان فتقيأه . لأن الهدية إذا دخلت بيت القاضى دفعت إلى الطمع منه والشبهة فيه ، فقد كانت تعاليم عمر بن الخطاب إلى عماله – من جراء تجربته – أن الهدايا هى الرشا . فقد روى لنا الشعبى أن رجلاً كان يهدى إلى عمر بن الخطاب كل عام رجل جزور (صغير الناقة) خاصم إليه يوماً ، فقال : يا أمير المؤمنين : أقض بيننا قضاء فصلاً كما يفصل الرِّجل عن سائر الجزور ، فشعر عمر بثقل هذا القول وأثره على نفس القاضى الذى قد يحيد به عن وجه الحق فى الدعوى ، وقد قضى على الرجل لأن الحق لم يكن معه ، وكتب إلى عماله : ألا إن الهدايا هى الرشا فلا تقبلن من أحد هدية ، إنه تطبيق حى من كعب لتعاليم ولى الأمر العام .

من قضاياه واجتهاده :

● اختصم إلى كعب رجلان ، باع أحدهما صاحبه ورقاً على أن يقطع برضاه ، فجعل يأتيه بالأديم (آلة القطع) فيقول له : اقطع لى من وسطه ورقة ودع باقيه ، فقال كعب : إما أن تقطعه كله أولا تفسده عليه ، وإلا فخذ دراهمك . وذلك من كعب تطبيقاً للمبدأ « لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام » ، ولا يزال هذا أساس نظرية التعسف فى استعمال الحق فى الفقة الإسلامى » .

● أشترى رجل من رجل أرضاً ، فوجدها صخرة ، فأختصما إلى كعب بن سور فقال كعب : أرأيت لو وجدتها ذهباً . أكنت تردها ؟ قال : لا . قال فهى لك . لقد أستند كعب بن سور إلى معيار الشخص العادى فى تقدير العيب المألوف ، وطبق قاعدة : « الغرم بالغنم » ، يعنى أن من ينال نفع شيء يتحمل ضرره .

● حدَّث الرواة : أن أمرأتين رقدتا ، ومع كل واحدة ولدها ، فانقلبت إحداهما على أحد الصبيين فقتلته ، وأصبحتا وكل واحدة منهما تدعى الباقى ، فاختلفا إلى كعب.بن سور فبعث إلى القافة فأوطوا (القافة : من يقتفى الأثر ، أوطوا : اتفقوا) فألحق الشبه بإحدى المرأتين ، فقال كعب : إنى لست بسليمان بن داود ، ولم أجد شيئاً أفضل من أربعة من المسلمين شهوداً . إن اجتهاد كعب فى المسألة المعروضة عليه . وكل من طرفيها مدع ومدعى عليه فى آن واحد ، والتجاءه إلى خبرة رجال الأثر والإلصاق بالشبه مقرونة بتعددهم وعدالتهم لهودليل ظنى مفضى فى الغالب إلى اليقين ، وما التحليل الدموى للطفل والمنسوب اليهما فى العصر الحديث من الوقوف على الفضائل الدموية إلا إلحاقاً للشبه وبناء على الظن القريب من اليقين أيضاً . .

موقف كعب بن سور من الخارجين على الخليفتين عثمان وعلى :

بعث الخليفة عثمان بن عفان إلى كعب بن سور وذوى الشوكة والولاة فى الأمصار أن ينصروه ويحثوا الرعية على طاعته ، بعد ظهور الفتنة والتفاف أهل الشغب بداره مطالبينه بأن يخلع نفسه من الخلافة بمقولة أن عماله من أقاربه دون الكفاءة والأمانة المسندة إليهم ويستبدون بالأمر من دونه . وإن كان الواقع أن وراء هذه القوى أيد خفية معادية للإسلام دخلته بقصد الإفساد والقضاء على دولته ورجاله ، وكانت تبث سمومها ورسائلها المزورة إلى

الأمصار على لسان كبار الصحابة تدعوهم فيها إلى الخروج على عثمان ، وفى مقدمة هؤلاء اليهودى عبد الله بن سبأ ، وكان الغرض أن يتكاثر الخارجون على عثمان وتزداد المطالبة بخلعه .

وقد قام كعب بحق ولى الأمر وحث أهل البصرة على نصرة الخليفة عثمان وطاعته . . ومضى كعب إلى عثمان بناء على طلب الأخير وأكد له أن البصرة عامة والأزد خاصة فى طاعته ونصرته وذلك فى سنة ٣٥ هـ ، ولكن الأحداث تصاعدت بعد ذلك وتمكن بعض رجال الشعب من اقتحام دار عثمان وقتله والمصحف فى يده . وأصبحت البلاد وقد استشهد رئيسها والثوار وأهل الشغب كادوا أن يملكوا الزمام فى حاجة إلى الإمام الذى يدرك أن — الحكم مسئولية وتضحية ، وقد اتفق الجميع فى الظاهر بما فيهم الثوار على بيعة على بن أبى طالب وإن كان طلحة والزبير قد بايعاه كارهين لأنهما طلبا منه أن يُنَصِّبهما فى ولايات معينة ، وأن يبدأ بالقصاص من قتلة عثمان ، ولم تكن الظروف لتسمح بذلك . لذلك فقد مضى طلحة والزبير إلى أم المؤمنين عائشة التى كان لها موقفاً خاصاً من ولاية الإمام على بن أبى طالب ، ومضوا جميعاً إلى البصرة مطالبين بثأر عثمان أو خلع الإمام على ، وقد بعث طلحة والزبير إلى كعب بن سور برسالة بقصد استقطابه نصها : «أما بعد ، فإنك قاضى عمر بن الخطاب ، وشيخ أهل البصرة ، وسيد أهل اليمن ، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فاغضب له من القتل والسلام «فأجابهما» : أما بعد فإنا غضبنا لعثمان بالأيدى والغير باللسان ، فجاء أمر الغير فيه بالسيف ، فإن يكن عثمان قتل ظالماً فما لكما وله ، وإن يكن قتل مظلوماً فغيركما أولى به ، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل» .

وقد كان موقف كعب فى البداية الاعتزال عن الحرب ويحث الناس على ذلك فى المساجد ويقول : ويلكم أطيعونى ، اقطعوا هذه النطفة (الماء القليل) وكونوا من ورائها ، وخلوا بين الغاوين ، فوالله لا يظهر طائفة منهم إلا احتاجوا إليكم ، فتصدى له صبرة بن شيمان سيد الأزد وقال له : اسكت إنما أنت نصرانى صاحب ناقوس وصليب وعصا . . فرجع كعب إلى منزله فى دار عمرو ابن عوف فأمر بزاده ليخرج من البصرة ، فبلغ عائشة الخبر وقيل لها إن اتبعك كعب بن سور خرجت الأزد كلها معك ، فجاءت إليه على بعيرها ولم تزل تقنعه بأن غايتها الإصلاح دون قتال حتى خرج معها وراية الأزد معه ، ولما نشب القتال بين فريقها وفريق على كان كعب ممسكاً بزمام جملها «عسكر» فكلفته عائشة بقولها :

خل يا كعب عن البعير وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه ودفعت إليه مصحفاً ، فمضى يحث القوم على العمل بكتاب الله بيد أن سهماً غرب فأصابه فكان أول مقتول بين يدى عائشة وأهل الكوفة . .

وقيل أنه أصيب مع كعب ثلاثة أخوة أو أربعة ، فجاءت أمهم ، فوجدتهم فى القتلى فقالت :

أيا عين جودى بدمع سرب على فتية من خيار العرب
فما ضرهم غير جبن النفوس أى أميرى قريش غلب

ونختم مقالتنا بكلمة للأمام على بن أبى طالب وقد مر على أثر المعركة فى القتلى فوجد كعباً بن سور وهو قتيل ، فقام عليه (صلى عليه) وقال : والله ما علمت أن كنت إلا صلبا فى الحق ، قاضياً بالعدل . . وأثنى عليه على ما ذكره بن وكيع فى أخبار القضاة . .

فضل العلم

يُعَدُّ رَفِيعَ الْقَوْمِ من كَانَ عَالِماً
وإِن لَّمْ يَكُنْ فى قَوْمِهِ بِحَسِيبِ
وَإِنْ حَلَّ أَرْضاً عَاشَ فيها بِعِلْمِهِ
وَمَـا عَـالِمٌ فى بَلْـدَةٍ بِغَرِيبِ

شاعر عربى

نبى الإسلام كما يراه الجنرال ر . ف بودلى

عُرِف محمد بالأمانة والجد ، فما تخطى الخامسة والعشرين حتى كان من أكبر تجار القوافل وأنشطهم فى غرب بلاد العرب ، فعهد اليه كثيرون غير عمه بأمر تجارتهم . وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار ، فبعد انقضاء يومه يقضى وقته فى السوق ، أو فى دار صديق ، حيث يجتمع رجال الفنون ورواة القصص والشعراء . ولطالما أنصت هناك الى الفلاسفة ورجال الاديان يتحادثون فى أمور دينهم وعقائدهم . وتعاقبت رحلاته فألم خلالها بتاريخ تلك البقاع من آسيا وتقاليدها ، وتهيأ له ما تهيأ لأمثاله ممن يقضون أعمارهم فى الرحلات من الحكمة الدنيوية . وإن الدارس لقصة محمد لتبهره حكمته الساطعة ، وليرى محمدا شيئا مميزا لا يمت لعصره بسبب ، وانه ليعجب احيانا من اعتدال أحكامه التى تعالج الامور العامة ، كانت أفكاره سابقة لأفكار معاصريه .

لقد كان محمد ﷺ على نقيض من سبقه من الأنبياء ، فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية ، بل تكشَّفت له الدنيا ومشاكلها ، فلم يغفل الناحية العلمية الدنيوية فى دينه ، فوفَّقَ بين دنيا الناس ودينهم ، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملى . لقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها الله ، وأن الجنة نهاية المطاف .

وظلت اخلاقه ثابتة لا تتبدل ، أيا كان العمل الذى يعمله ، سواء أكان يرعى غنمه فى سكون البادية ، أو يبيع عطوره أو أنماطه فى دمشق ، ولم تتبدل أمانته ، ولم يتغير صدقه ، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام ، حتى لقب « بالامين » ، ولم تفتنه النساء قط ، ولم تفتنه الشهوات أيضا ، وبقيت غرائزه الجنسية مهذبة ، وكان حاضر البديهة ، عذب الحديث ، ميالا الى معاشرة الناس ، معتنيا دائما بملابسه وهندامه ، فكان يلبس للخيام لبسا وللطريق لبسا ، ويعتنى بلباسه غاية العناية اذا ما كان فى الدار ، وكان يهتم بعمامته ، وكانت ملابسه نظيفة أبدا ، وكان يفضل البياض وإن كان قد لبس الألوان الزاهية فى أيامه الأخيرة . .

وما كان محمد ثرثارا ، وان كان صادق الترحاب بمن يقبل عليه . وكان على سليقته– العربية لا يتكلم إلا إذا كان هناك ما يصلح للحديث ، وقد أعلن أن من الإيمان الإعراض عن اللغو.

وكان متوسط الحال ، وقد قال بعضهم فيه يوما : « انه أخفر من عذراء فى خدرها » ، . . ولم يثبت فى تاريخه حتى اليوم أنه أتى أمرا خارقا ، وأن الحادث التالى الذى يذكر على سبيل التدليل على فطنته ، ليبرهن على أنه كان يتفوق على أقرانه برجاحة عقله ، فقد أثرت الأمطار فى الكعبة فتصدعت جدرانها ، وأصبح شد بنيانها أمرا ضروريا ، وأقبلت قريش على هذا العمل بعد إحجام.

ولما آن وضع الحجر المقدس فى مكانه زاد الخصام ، واشتد الامر ، واستفحل الخطب ، وكادت تندلع نار الحرب ، قال احدهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل باب الصفا . فلما رأوا محمدا أول من دخل هللوا غبطة ووضعوا الأمر بين يديه . ففكر قليلا ثم خلع عباءته ونشرها ، وأخذ الحجر الأسود ووضعه فيها ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطارف هذا الثوب . فحملوه جميعا الى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله ووضعه فى موضعه قبل أن ينشب خلاف آخر.

أما زهد النبى وأتباعه فقد صوره المؤلف بفقرته التالية :

(ولقد أوضح محمد منذ اللحظة الاولى أن الاسلام يقوم على البساطة ، ولقد اعتنق أصحابه تلك المبادئ حتى بعد موته . فما يروى أن خالدا قائد جيوش المسلمين فى الشام أيام خلافة عمر اجتمع بقائد الجيش الرومانى تحت خيمة كبيرة ، وكان الرومان يرتدون الكسى المزخرفة البراقة ، ويحملون سيوفا مرصعة بالجواهر المتلألئة . أما خالد وأصحابه فكانوا يرتدون رداء الأعراب المقاتلين ، دروعا بسيطة ، وسيوفهم إلى جانبهم لا بريق فيها ولا زخرف . وألقى المسلمون التحية لدى دخولهم وجلسوا أرضا . فسألهم القائد الرومانى : لم لا يجلسون على المقاعد . فأمعن خالد فيه النظر ثم قال :

« لقد خلقت من الارض ، منها نبت واليها نعود ، الله خالق الارض ، وما يخلقه الله أثمن من طنافسكم الحريرية » . .

وفى اليوم التالى هزم خالد وبدوه الزهاد جيش الرومان هزيمة لم يعرف لها مثيل من قبل ، واستولوا على القدس .

حتى النبى عندما حقق انتصاره الاكبر ، ودخل مكة وحطم أصنام الكعبة ، وأتم فيها

أهم جزء من رسالته بتطهير بيت الله من الأوثان ، نام على قطعة من الحصير ، كما كان ينام وهو أجير يقود القوافل للقرشيين ولخديجة بنت خويلد .

فلله درهم . . أولئك الزهاد . . الذين لم يقيسوا الدنيا بما فيها من غرور . . . وإنما عالجوها المعالجة التى تؤدى الى الخير ، والذين ساووا أنفسهم بأصغر صغير من أتباعهم ، لم تخدعهم المناصب ، ولم تغرهم أبهة السلطان ، وفى المدينة وضعت صيغة الآذان لدعوة الناس إلى الصلاة ، وكانت فكرة موفقة صائبة ، وإن صوت المؤذن لينبعث كل يوم خمس مرات مناديا « الله أكبر . . الله أكبر . . أشهد ان لا إله إلا الله . . وأشهد أن محمدا رسول الله . . فاذا بالرنين الحلو ينساب من فوق مآذن المساجد فى أنحاء العالم ، وإنه لرنين يهز قلوب الناس ومشاعرهم أيًّا كانت عقيدتهم » .

الرسول كسياسى ودبلوماسى

ومن الحوادث التى تناولها هذا المؤلف بالبحث والتحليل صلح الحديبية عام ٦٢٨ الذى وصفه بأنه نصر سياسى دبلوماسى لنبى الاسلام جدير بالاعجاب والتسجيل . . . وفى هذا الصدد كتب بودلى يقول :

(وجد النبى بعد خروجه من مكة أن الامل فى الاتفاق مع القرشيين ضعيف ، وأضعف منه أنه يأخذ مكة بقوة السلاح . لهذا سعى لتوطيد سلم بين مكة ومحمد بطريقة لا تجرح المسلمين .

وقد واتت محمدا فكرة بديعة هى أن يأخذ رجاله غير مسلحين ، ويشترك فى الحج السنوى الى الكعبة وسيأمنون الغدر بهم لانهم سيكونون فى الأشهر الحرم .

وفى فبراير سنة ٦٣٨ اجتمع خارج المدينة ألف وخمسمائة من حجاج المسلمين فى ثياب الإحرام البيض ، وتحركوا الى مكة حتى بلغوا مشارفها وضربوا خيامهم ، وتربّص محمد ليرى كيف يتصرف القرشيون .

ولم يكن هؤلاء ينوون الإذعان بسهولة لهذه الجرأة فبعثوا إلى النبى يفاوضونه فى أن يرجع هذا العام ويعود فى العام التالى فيحج الى الكعبة ، وانتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد هذه المعاهدة فى مارس سنة ٦٢٨ .

وبمقتضى هذه المعاهدة بين محمد بن عبد الله وسهيل بن عمر ، يتفق الطرفان على أن

يعود محمد ورجاله فورا الى المدينة ، ويؤذن لهم بالرجوع فى العام التالى للحج ، وستخصص لهم ثلاثة أيام يؤدون فيها فرائضهم حول الكعبة وفى هذه الفترة يخلى القرشيون مكة ، ويعسكرون خارج أسوارها ، وسيكون على الحجيج من أتباع محمد أن يكونوا غير مسلحين إلا بالسيوف المغمدة التى يؤذن للراجلين بحملها للدفاع عن النفس . وتدوم هذه المعاهدة عشرة أعوام . تجرى فيها قوافل الطرفين فى أرض مكة والمدينة بسلام . ويعاد الى مكة كل المكيين الذين يَلْجَأون الى المدينة بقصد الاسلام دون موافقة عائلاتهم على ذلك .

ولا شك أن هذه المعاهدة كانت أعظم نصر دبلوماسى حققه محمد ، ففيها اعتراف به كزعيم لجماعة كبيرة من العرب يحسب لها حساب . ولها قوة وحقوق . وإمضاء معاهدة معه بهذا الوصف . بعد طول الطراد والنزال نصر مؤزر . . وأى نصر ! ! . .

وكان محمد يتطلع الى أبعد من ذلك ، كان يرى أن المعاهدة مقدمة لها ما بعدها . فإن مجرد استطاعته وضع قدمه فى مكة ، كفيل بأن يبقيه فيها أبد الآبدين . .

الحج عام ٦٢٩ م

فى العام التالى قصد النبى على رأس الحجاج إلى مكة . فلما أصبحوا على مرمى النظر خرج المكيون من منازلهم ، وتركوا المدينة وعسكروا خارجها ، ودخلها المسلمون . فلما لمحوا الكعبة ، انبعثت من حناجرهم التكبيرات ، «لبيك اللهم لبيك» . . . .

وبعد أن أدوا مناسك الحج ، باتوا ليلتهم حول الكعبة ، فلما أصبحوا أمر النبى بلالا أن يؤذن . فأذن قائلا « الله أكبر . . الله أكبر» . .

لقد كان لهذا الآذان وقع لا يبارى . . لقد سمعه أهل مكة جليا . ورأوا آلهتهم جامدة كالصخر ، لم تثر ولم تغضب لانتهاك حرمتها ، ولم ترسل الصواعق مدرارا على رؤوس أولئك الكفرة ، ولم تفجر ينابيع الارض ، أو تشقق جوفها تحت اقدامهم .

رأى القرشيون ذلك وتأثروا به ، فكان أن قصد خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وعثمان ابن طلحة إلى النبى بعد ثلاثة أشهر فى المدينة وأعلنوا اليه إسلامهم .

ولم يقتصر الأمر على أهل مكة ، بل لقد قصدته القبائل من كل أنحاء الجزيرة تعلن اسلامها ، فما انتهى عام ٦٢٩ حتى رأى محمد أن الوقت قد حان لتصفية الموقف مع أبى سفيان .

وعندما اعتدت قبيلة من حلفاء قريش على أخرى من حلفاء محمد كان ذلك حجة قوية لهذا النبى ، للرد على نقض المعاهدة ، ودخول مكة بقوة حراب المسلمين .

أحاط النبى وقواده أمر الحملة بالكتمان التام ، فأغلقت كل الطرق الموصلة الى مكة ، ومنعت قبائل البدو من التحرك فى الصحراء ، وبذلك لم يعلم العدو شيئا عنها حتى أصبحت على أبواب مكة ،

تحرك الجيش فى أول يناير سنة ٦٣٠ وبلغ عشرة آلاف مقاتل كاملى العدة والسلاح ، وولى الزبير قيادة المقدمة ، يعاونه مائتان من الخيالة ، والرسول على رأس قلب الجيش ، وتولى عمر تنسيق تقدم هذا الجيش الجرار ، فقاده ، خلال مسالك غير مطروقة ، ولم يأذن بدق الطبول أو التكبير .

والتقى الجيش فى الطريق بالعباس عم النبى وهو فى طريقه الى المدينة ليعلن إسلامه ، وبذا كان آخر المهاجرين .

وأخيرا حط الجيش رحاله إلى جوار مكة ، وأذن عمر باشعال النيران فاشتعلت منها ألوف ، ورآها أهل مكة فتولاهم الذعر والفزع ، وأوفدوا أبا سفيان لتقصِّ حقيقة الامر ، فالتقى به العباس الى جوار معسكر الجيش فنصحه بالمبادرة الى التسليم ، قبل أن يدمر محمد مكة .

وفى الصباح أعلن أبو سفيان بين يدى النبى إسلامه وأنه سيسلم مكة ففرح النبى . . . ها هى مكة تُسَلَّمُ اليه دون أن تراق الدماء ودون أن يقتل الأخوة وأبناء « العمومة » .

وطلب محمد من أبى سفيان أن يأمر الناس بالبقاء فى منازلهم ، فمن فعل فهو آمن . . » .

وعاد أبو سفيان فأعلن ذلك للناس فدخلوا دورهم ولزموها . واستعرض محمد جيشه ، وسلم بيرق المسلمين لعلى . واحتاط من أى خيانة بأن طوق المدينة أولا ، ثم دخلها من جهاتها الاربع فى وقت واحد فدخلها خالد على رأس الخيالة من الجنوب ، وقاد الزبير جماعات البدو على جمالهم من الشمال ، ومن الغرب تقدم أهل المدينة بقيادة سعد بن عباده . أما من الناحية الشرقية فتركت للمحاربين القدماء برياسة أبى عبيدة ، ثم دخل النبى وقواده تحيط به فرقة رماة الرماح المدرعين ، بقيادة أسد الصحراء العربية على بن أبى طالب . . وتم كل ذلك بنظام بديع . . دون أى مقاومة ، فيما خلا حادثة واحدة . وقعت بين طابور خالد وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل . وانتهت فى دقائق بقمع التمرد . .

وبدل محمد ثيابه الحربية . وطوّف بالكعبة . ثم دعا أعوانه الذين صحبوه من البداية فأخذوا فى تحطيم أصنام الكعبة . وهم يرددون (جاء الحق وزهق الباطل . . . ان الباطل كان زهوقا » . .

الحرب

قال ﷺ :

« لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَة ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فاثْبُتُوا ، وَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوف . . » .

مقترحات لإذاعة "القرآن الكريم"

دكتور عبد الودود شلبي

هذا التخبط الذى يعيش فيه الشباب ، والفراغ الدينى الذى يسيطر عليه ، وهذه البلبلة الشائعة فى اسلوب التفكير ، واسلوب العمل ، واسلوب الدعوة الى الله ، والحفاظ على قيمنا الرفيعة ومثلنا العليا . . . .

هذه الامور وغيرها مما تحفل به الساحة الاسلامية ويتردد صداها فى ارجاء عالمنا الاسلامى والعربى . وينعكس «سلبا وايجابا» على الواقع الملئ بالتناقضات الصارخة ، والسلبيات الشائعة . . فما علاج ذلك كله ؟ وما الحل الامثل لتلافى هذه العيوب ، والوقاية من هذه الامراض ، وارشاد الشباب وغيره من طوائف الامة الى سبيل الحق والرشاد ؟

ان تقصيرنا فى هذا المجال واضح ، ودورنا فى هذا الميدان لايزال محدودا ، وهمتنا فى مواجهة هذه الظواهر لاتزال واهنة ، وتصورنا للعلاج لا يتجاوز وظيفة «دعى الطب» فى القرى النائية .

* * *

منذ قرابة عشرين عاما وقع خلاف بين القيادة السياسية فى «مصر» والقيادة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، على امواج الاثير ، وفى صفحات الجرائد ، وعلى السنة الساسة ورجال الفكر ، وخرجت المظاهرات فى هذا الوقت تهتف بسقوط الشيوعية ولعنة الاتحاد السوفييتى عدو الاسلام والعروبة .

وقد اتصل وزير الاعلام فى هذا الوقت «الدكتور عبد القادر حاتم» بوزير الأوقاف «السيد/أحمد عبد الله طعيمة» للاتفاق على اختيار بعض العلماء لإلقاء أحاديث عن مفاسد الشيوعية ، وخطرها على الدين والعروبة ، واتصل وزير الاوقاف بمدير المساجد فى هذه الفترة الاستاذ الشيخ محمد الغزالى ، وكان من نتيجة هذه الاتصالات تشكيل لجنة للاضطلاع بهذه المهمة ، واقتراح ما تراه وافيا لتحقيق هذه الغاية . ثم تطورت الامور بعد ذلك الى تقديم اقتراح بانشاء اذاعة خاصة تسمى اذاعة «صوت الاسلام» ووقع الاختيار

على فضيلة الشيخ محمد الغزالى لوضع البرامج المفصلة لهذه الاذاعة . وبخاصة بعد الحصول على وثيقة صادرة عن مجلس الكنائس لانشاء محطة تبشيرية لمنطقة الشرق الادنى والمنطقة العربية ، واشتركت مع فضيلة الشيخ الغزالى فى التخطيط لهذه البرامج التى تم اعدادها فى يوم وليلة .

وقد كتب فضيلة الشيخ الغزالى الى الدكتور حاتم يشرح فكرة هذه الاذاعة ، والاسباب الداعية الى انشائها بسرعة :

إن ما لمسته فى قلبكم من ايمان كريم ، وما عرفته امتنا العربية عنكم من نشاط مثمر وجهد دائب يجعلنى اتقدم لكم بهذه المعلومات والمقترحات آملا أن تلقى منكم ما تستحقه من عناية وهى تتصل بالوقوف امام دسائس الاستعمار وكشف الازياء التى أخذت تظهر فيها محاولة النيل من العرب ورسالتهم فى هذه الأيام .

سيدى : يقوم اتحاد الكنائس للشرق الادنى فى الوقت الحاضر ببناء اذاعة فى الحبشة تحت اسم اذاعة صوت الانجيل لتقوم ببث البرامج الدينية والاستعمارية باللغة العربية واللغات الافريقية .

ولهذه الاذاعة قصة تبدأ عندما وعد كميل شمعون الاتحاد الكنائسى بالسماح له باقامة هذه الاذاعة فى لبنان . ولكن احداث عام ١٩٥٨ فى لبنان قضت على المشروع ، وبالتالى استدعت اعادة النظر فى الموضوع وبناء عليه عدل المشروع الى الشكل التالى :

١ – إقامة محطة فى أديس أبابا قوتها ١٥٠ كيلوات موجهة الى الشرق الاوسط وافريقيا وهذه المحطة ستكون جاهزة فى نهاية عام ١٩٦٢ [1] ، وستتكلف أربعة ملايين دولار .

٢ – اقامة استديوهات لتسجيل البرامج العربية فى كل من : بيروت ، القاهرة ، عمان ، والكويت لتغذية الاذاعة وقد بدأ فعلا اعداد وتحضير هذه الاستديوهات .

وقد عقد الاتحاد الكنائسى للشرق الادنى اجتماعا استمر من ٢٦ فبراير لغاية ٢ مارس فى القاهرة بحث خلاله الترتيبات اللازمة لنجاح المشروع ، وقد قرر فى اجتماعه المذكور التستر بالمؤسسات الثقافية والدينية لتأمين البرامج اللازمة للمحطة .

وقد ظهر أثر هذا العمل باتخاذ استديو كلية بيروت الامريكية للبنات مركزا لتحضير

---

(١) لقد قامت عدة إذاعات تبشيرية فى العالم العربى وفى أفريقيا منها إذاعة فى لبنان ، وأخرى فى «أديس أبابا» وثالثة فى منزوفيا . ورابعة فى مونت كارلو .

هذه البرامج . وخطر هذه الاذاعة جسيم لأن الاتحاد الكنائسى للشرق الادنى مرتبط ارتباطا وثيقا باليهودية العالمية والصهيونية ، وهو الذى يجمع فى كنائسه فى امريكا المبالغ الطائلة سنويا تبرعا لاسرائيل .

وعليه يجب أن تقاوم هذه الاذاعة التى تمثل تكتلا تبشيريا استعماريا صهيونيا بطريقين :

١ – اقفال الاستديوهات التى ستقام فى البلاد العربية مع شن حملة دعاية ضد الفنانين والمذيعين الذين قد يتعاونون مع هذه الاذاعة .

٢ – ادخال تعديلات على برامج الاذاعة العربية وخصوصا اذاعة صوت العرب حتى تستطيع ان تواجه بطريقة لبقة هذا التعصب الدينى الأعمى .

هذا ويسرنى ان اضع بين ايديكم صورة من برنامج « اذاعة صوت الاسلام » الذى سبق ان اقترحنا مواده على السيد الاستاذ احمد طعيمة وزير الاوقاف السابق فربما أمكن الانتفاع به فى هذا المجال ، ولعل اذاعة صوت العرب يمكنها ان تتوسع فى دائرة الثقافة الدينية على ضوء ما جاء به .

ذلك وآمل ان تتقبلوا تحياتى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

مدير المساجد

اذاعة صوت الاسلام

غايتها :

١ – ربط المسلمين بدينهم ومثله العليا ، وتزويدهم بأغذية روحية وثقافية تجعل حياتهم العملية مطابقة لمبادئ الاسلام .

٢ – عرض الاسلام على الامم كافة عرضا يتسم بالشرح والاعتماد على ذكر الحقائق المعروفة من الكتاب والسنة .

٣ – توكيد رغبة الاسلام فى مسالمة اتباع الاديان الأخرى ، وكفالة حق الحياة وحرية العقل والضمير لسائر الأمم والاجناس .

وسائلها :

١ – القرآن الكريم . تلاوته . تفسيره . مقاصده . اغراضه . علومه . صلته بالكتب السابقة وانواع هدايته .

٢ – السنة النبوية . وما فيها من فضائل أحكام ومقارنتها باهداف القرآن وواقع الحياة .

٣ – شرح العقائد الاسلامية شرحا مبسطا يقترن بآثارها فى حياة الرسول وصحابته وبيان أصول الوحدة الدينية التى تجمع بين الانبياء فى صعيد واحد . وهى الوحدة التى يعتمد عليها الاسلام فى تفسيره لعناصر الايمان .

٤ – التنبيه الدائم لاهداف الاسلام الانسانية فى المجتمع والنفس . ودعم كل هدف بالنصوص التى تقررها من الكتاب والسنة .

٥ – شرح العبادات العملية من صلوات وزكوات شرحا يستهدف التقريب بين المذاهب الفقهية الاسلامية الشائعة . ويعين على جعل هذه العبادات رياضية نفسية عميقة الأثر .

٦ – الاهتمام بالجانب الروحى ، واحياء التراث الخلقى العالى الذى تركه أئمة التصوف ، مع شرح الاساليب الرقيقة التى تتصل بعواطف الحب الالهى وذلك باستعراض التراث الصوفى بعد تقويته من الدخيل والشوائب .

٧ – التذكير بأمجاد المسلمين المدنية والثقافية والعسكرية . ونشر تراجم جلية للقادة والأئمة والساسة والدعاة . واعطاء الأولوية فى ذلك للسيرة النبوية وتاريخ الخلفاء .

٨ – تاريخ انتشار الدعوة الاسلامية بين الشعوب الاسلامية . وكيف استقبلت تلك الشعوب الاسلام ومن بينهم أشهر الدعاة الى هذا الدين كل فى وطنه .

٩ – لفت انظار المسلمين الى البدع التى اقترنت بالاسلام ولم تكن قبل ذلك شيئا لا فى اصوله ولا فى فروعه .

١٠ – التعريف ببلاد العالم الإسلامى تعريفاً مقتبساً من واقع جماعاته وأوطانه المتفرقة فى أنحاء العالم .

١١ – الكشف عن مآسى الاستعمار فى العالم الاسلامى . وبيان الأسباب التى أدت الى سقوط كثير منها فى براثنه . والدعوة الى استخلاص ما بقى منها تحت قبضته ونفوذه .

١٢ - فضح المطامع الصهيونية . وكشف القناع عن أغراضها التوسعية . وبيان ما فى (تلمودها) من العودة الى القتل والهمجية .

١٣ - الاهتمام بتعليم اللغة العربية وتخصيص بعض البرامج لتعليمها لأبناء الدول الاسلامية والانتفاع بذلك بطريق راديو (لندن) وصوت أمريكا فى تعليم اللغة الانجليزية .

التفصيل العملى للبرامج

١ - لماذا نحن مسلمون ؟

برنامج تعرض فيه مبادئ الاسلام عرضا مبسطا . . مع ملاحظة هذين الاعتبارين الهامين .

الأول : ايقاظ مشاعر الايمان فى قلب المسلم حتى يرسخ ايمانه .

الثانى : بيان ما فى الاسلام من فضائل يتميز بها على غيره من الاديان والعقائد .

٢ - حقائق وأباطيل :

رد على خصوم الاسلام من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين . ويكون ذلك بما يأتى :

أولا : فضح أساليبهم .

ثانيا : بيان ما يريدون بأكاذيبهم .

ثالثا : رأى الاسلام فى أباطيلهم .

٣ - الأمة الواحدة :

يتولى هذا البرنامج تضييق شقة الخلاف وتقريب وجهات النظر بين الطوائف والجماعات الاسلامية ويتحقق ذلك بما يأتى :

(ا) الاعتماد على الكتاب والسنة فيما يتصل بالتشريع والفقه بين أهل السنة .

(ب) التقريب بين الشيعة وأهل السنة .

٤ - بطولات اسلامية :

برنامج قصصى أو تمثيلى يعرض لاحدى الشخصيات الاسلامية التى قامت بعمل عظيم فى تاريخ الاسلام مع ابراز ما فى هذه الشخصية من خصائص الفدائية والبطولة .

٥ - ليس من الاسلام :

برنامج يدعو إلى التصدى لكل فكر خارج على جوهر الاسلام ويحارب البدع والخرافات الشائعة فى أرجاء العالم الاسلامى .

٦ - ظلام من الغرب :

دعوة الى نبذ التقاليد الضارة والعادات السيئة الدخيلة على المجتمع الاسلامى فى التشريع والاخلاق والعادات والتقاليد .

٧ - الفتاوى .

برنامج يرد على أسئلة المستمعين فى أنحاء العالم الإسلامى .

٨ - البرنامج الدينى لإذاعة القاهرة .

القرآن الكريم . الأحاديث الدينية . الآذان . صلاة الجمعة والأعياد .

٩ - مبادئ . . . ورجال .

يتناول هذا البرنامج حياة رجل من زعماء الإصلاح الإسلامى .

أولا : عرض تاريخه .

ثانياً : بيان أفكاره ، ومناهجه .

١٠- الوطن الإسلامى .

تعريف ببلاد الإسلام من الناحية :

الجغرافية ، السياسية ، الاقتصادية ، الاستراتيجية .

١١- رسائل من العالم الإسلامى .

يتولى هذا البرنامج الرد على اسئلة المستمعين التى يثيرونها حول قضايا العالم الإسلامى ومشكلاته .

١٢- قضايا العالم الإسلامى .

فلسطين ، كشمير ، الأقليات الإسلامية التى تعانى من الضغط والاضطهاد . . كل هذه قضايا لابد من اهتمام المسلمين بها ، وتعريفهم بأسبابها ثم تعاونهم بعد ذلك على حلها كل فى وطنه حسب إمكانياته وظروف بلاده .

١٣- الأنباء .

نشرة إخبارية خاصة بأخبار العالم الإسلامى .

وتحرر هذه النشرة من إخصائيين يدركون ما فى العالم الإسلامى من جهات مختلفة وآراء

سياسية متعارضة .

١٤ - حى على الفلاح :

برنامج حضارى اصلاحى يقوم على ما يأتى :

١ - عرض ما فى الاسلام من رقى وطهارة .

٢ - اقتباس النافع من أساليب الغرب فى المدنية والحضارة

١٥ - لا سادة ولا عبيد :

برنامج يدعو الى محاربة العنصرية والتفرقة بين سكان العالم .

لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى وطاعة الله .

١٦ - مخربون لا بناءون !

برنامج يعرض للمذاهب الهدامة المنتشرة فى عالمنا المعاصر . (الشيوعية- الماسونية- البهائية القاديانية . .الخ .

١٧ - حقيقة الصهيونية :

مطامعها . جرائمها . اسرارها . اسفارها وتلمودها .

لماذا نحاربها ونقاومها . . . ؟

١٨ - برنامج موسيقى غنائى يقدم اشهر الاغانى والالحان الدينية والوطنية والعاطفية المهذبة من جميع اقطار العالم الاسلامى .

هذه هى الملامح العامة للبرامج المقترحة لهذه الاذاعة ، وهى - كما نرى- جديرة بالاهتمام والدراسة ، وفى اذاعة «القرآن الكريم» بصفة خاصة . .

وفى رأينا- لكى تأخذ هذه البرامج طريقها إلى التطبيق العملى فى هذه الاذاعة- ان تدعم اذاعة «القرآن الكريم» بالخبرات الاذاعية الناجحة ، وبالاجهزة الفنية القوية ، وان يتدخل«الفن الاذاعى « فى اخراج برامجها بطريقة تجذب إليها المستمعين من كل طائفة . . .

لقد زوحمت اذاعة «القرآن الكريم» باذاعة تبشيرية لصيقة وهى إذاعةٌ إرسالها من «مونت كارلو» امارة الفجور والقمار العالمية ، وقد تعمدت هذه الاذاعة ان تبث ارسالها بجوار - اذاعتنا القرآنية- لتصيد المستمعين الذين يبحثون عن اذاعة القرآن الكريم فى كل أمسية . .

لقد سبقت البرامج الموجهة (الى غرب افريقيا) كل اذاعاتنا فى هذه الناحية .

فالتخطيط فى هذه الاذاعة يسير وفقا لخطة موضوعية ، ويتناول قضايا الفكر والعقيدة بلغة مبسطة ، وقد قدمت هذه البرامج الكثير فى هذا الميدان منذ سنوات طويلة ، واستكتبت لهذه الغاية خيرة المفكرين فى مصر الخالدة . . .

انى اقدم هذه المقترحات ايمانا بدور الاعلام فى شرح قضايانا العقدية والحضارية وحبا لاذاعة «القرآن الكريم» التى نأمل ان تكون خير اذاعة ، وان يصل صوتها المقدس الى آذان المسلمين وغير المسلمين فى انحاء الدنيا .

د / عبد الودود شلبى

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين [(١)]

تأليف العلامة : أبى الحسن الندوى

عرض وتلخيص : الأستاذ : عبد الحفيظ فرغلى القرنى

فى أعقاب مؤتمر علماء المسلمين الثامن الذى نظمه مجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة . أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب الكريم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » الذى أعتقد أنه لم تغب فصوله وماخط فيها من سطور ذهبية عن أعين هؤلاء العلماء الأجلاء ، الذين جمعتهم من أقطار العالم الإسلامى الغيرة على دينهم والرغبة فى الحفاظ عليه واستعادة تاريخه المشرق وتعاليمه السمحة المباركة ، وقد ظهر ذلك واضحا فيما أصدره المؤتمر فى جلسته الختامية من قرارات وتوصيات ، نضرع إلى الله أن تتحول إلى تطبيق عملى ومنهج واقعى فى حياة المسلمين وقادتهم .

وهذا الكتاب الذى أشرف بتقديمه نفذت طبعته العاشرة باللغة العربية بعد أيام قلائل من صدورها هذا العام ، كما نفذت طبعته الثالثة باللغة الإنجليزية ، وطبعته الثانية باللغة الفارسية ، وطبعته السادسة باللغة الأوردية وقد تخاطفت نشره دور النشر المختلفة التى لم يستأذن بعضها مؤلفه فى ذلك ، وتناولته بعضها بالتحريف والتغيير والتقديم والتأخير ، وليس لذلك تعليل سوى أهمية هذا الكتاب الذى جاء – كما يقول مؤلفه فى مقدمة طبعته الرابعة – فى أوانه ، وصادف رغبة غامضة واتجاها مبهما فى النفوس ، وبأنه يتجاوب مع شعور كثير من المفكرين والمثقفين فى العالم العربى ، ويلتقى مع أفكارهم ودراساتهم . .

ومؤلف هذا الكتاب القيم غنى عن التعريف فهو من أكبر المفكرين الإسلاميين ، ومن أقدر أساتذة الجيل العصرى الذين يعتز بهم الإسلام ويفخر بانتسابهم إليه ، وله مؤلفاته العديدة ومقالاته الواسعة التى يعرض فيها قضايا الإسلام ويناقش مشكلات المسلمين فى دقة بالغة وموضوعية نادرة وتحليل بارع وفكر سديد وحرص كريم على أن يتبوأ المسلمون مكانتهم اللائقة بهم ، ويعودوا إلى سابق مجدهم الذى يستحقونه بجدهم وحرصهم على تنفيذ تعاليم دينهم .

---

(١) صدرت الطبعة الأخيرة عن دار الأنصار – القاهرة .

والكتاب الذى بين أيدينا صورة صادقة لفكر هذا العلامة الإسلامى العظيم ، الغيور على دينه المتفهم له المتعمق فيه وفى غيره من وجوه الثقافات الأخرى على اختلاف منابعها واتجاهاتها . مما جعله أقدر على المقارنة والاستقصاء والعرض والاستخلاص والتمثيل والاستشهاد ، يعينه على ذلك عقيدة صافية وفكر مرتب وقلم مطوع وأسلوب سهل ممتنع .

وقد قدم له أساتذة أجلاء ، لاينبغى لهذا القلم الذى فى يدى أن يرتفع إلى مستواهم ، فإن كتب شيئا فهو جهد متواضع – وليس إضافة جديدة – فى التنويه بهذا الكتاب العظيم ، الذى جعل الدكتور محمد يوسف موسى قراءته فرضا على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام . والذى وصفه الأستاذ العظيم المرحوم سيد قطب بأنه من خير ماقرأ فى هذا الاتجاه فى القديم والحديث ، سواء لمايبعثه فى نفس قارئه من أحاسيس العزة من غير كبر وروح الثقة فى غير اغترار وشعور الأطمئنان فى غير تواكل ، وبما يلقيه على كاهل المسلمين من تبعة إنسانية ، هى تبعة الوصاية على هذه البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة وهدايتها إلى الدين القيم والطريق السوى . .

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

يقدم الكتاب نفسه بهذا السؤال . ملقيا الضوء على سر هذا التساؤل وسبب هذه الخسارة التى حاقت بالعالم بتأخر الإسلام ، ويصف ذلك بأنه مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس ولاأعم منها ، فلوعرف العالم حقيقة هذه الكارثة وانكشف عنه غطاء العصبية لاتخذ هذا اليوم النحس الذى وقعت فيه يوم رثاء ، ولتبادلت شعوبه التعازى ، وإنما هذا الحادث وقع تدريجيا دون أن يحسب العالم له الحساب الصحيح ؛ وذلك أن المسلمين فى دولتهم لم يكونوا كغيرهم من الأمم التى تحطمت بعد أن بغت وظلمت فاستحقت من الله ذلك ، ولكن المسلمين كانوا عافية الجسم الإنسانى ، هم حملة رسالة الأنبياء ، وهم روح المجتمع البشرى فكان انهيارهم انهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا معا . .

وبهذه المقدمة يرسم الكتاب خطوات بحثه ، ثم يمضى ليصف لنا كيف أنقذ الإسلام الإنسانية من الاحتضار :

العصر الجاهلى : جاء الإسلام فى ظروف اقتضت مجيئه ، فقد نسى الإنسان خالقه فنسى نفسه ومصيره ، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر ، لقد انسحب رجال الدين من الحياة ، ولاذوا بالأديرة والخلوات فرارا من الفتن ، أورغبة فى الهدوء أو فرارا من

تكاليف الحياة أوإخفاقا فى كفاح الدين والسياسة . . لقد أصبحت الديانات فرصة للعابثين حتى فقدت روحها وشكلها . .

لقد جاء للمسيحية فى القرن السادس الميلادى من طمس معالمها وطعّمها بخرافات الوثنية ، وقضى على البقية الباقية منها « قسطنطين » فأصبحت مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية والأفلاطونية المصرية والرهبانية ، وتلاشت فى جانب ذلك تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة فى اليمّ ، وحيل فى ظل المسيحية الجديدة بين العقل والعلم وثارت محاولات شغلت فكر الأمة وانتهت إلى حروب واغتيالات وانتهاب وتعذيب . . واشتد هذا الصراع بين نصارى الشام والدولة الرومانية وهؤلاء يطلق عليهم « الملكانيين » وبين نصارى مصر الذين يطلق عليه « المنوفيسيين » حتى صار الصراع كأنه حرب عوان بين دينين مختلفين ، ولم يتمكن هرقل المنتصر على الفرس توحيد هذه الدول المتصارعة . . وتحولت رسالته الى اضطهاد تقشعر منه الجلود . فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون إغراقا ، وتوقد المشاعل وتسلط على الأشقياء حتى يسيل الدهن منهم . . وهذا الإرهاب الفكرى الفظيع يظاهره انحلال اجتماعى وقلق اقتصادى أدى إلى أن ذابت الفضيلة وأنهارت الأخلاق وبيع العدل وراجت الرشوة والخيانة .

ومصر بلد النيل السعيد أصبحت أشقى بلاد الله بالنصرانية وبالدولة الرومية لما كان يدور فيها من مناظرات عقيمة فى طبيعة المسيح وفلسفة ماوراء الطبيعة . ولما كانت تلقاه من اضطهاد الروم واستبدادهم حتى قال الدكتور غوستاف فى ذلك : « لقد أكرهت مصر على أنتحال النصرانية ولكنها هبطت بذلك الى حضيض الانحطاط الذى لم ينتشلها منه سوى الفتح العربى » . . لقد أتخذها الروم شاة حلوبا ، ولم تكن الحبشة خيرا من مصر ، كان التوحيد فيها ضربا راقيا من الوثنية خلعت عليها لباسا من علم ومصطلحات نصرانية . وكانت الأمم الأوربية المتوغلة فى الشمال والغرب تتسكع فى ظلام الجهل المطبق والأمية والحروب . ولم تظهر بعد على مسرحها الأندلس العربية لتؤدى رسالتها المشرقة فى العلم والمدنية . . هذا بالنسبة للمسيحية ، فماذا بالنسبة لليهودية ؟

لم يكن اليهود عاملا من عوامل الحضارة ، فقد قضى عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم ، وقد أورثتهم عقدة الاضطهاد والجشع وشهوة المال والربا نفسية غريبة تفردوا بها بين الأمم وتوارثوها عبر العصور ، وانطبعوا بطابع خلق خاص ، فهم يخنعون عند الضعف ويبطشون ويسيئون السيرة عند الغلبة ، وهم ختالون منافقون فى عامة الأحوال كما

أنهم يتسمون بالقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل والصدّ عن سبيل الله ، كما وصفهم القرآن الكريم . . .

وقد اشتدت العداوة بينهم وبين المسيحية لسوء سيرتهم ، وسامهم المسيحيون الخسف والهوان فى عهد الامبراطور « فوكاس » فانتقموا منهم بأن ساعدوا كسرى ضد نصارى الشام ومصر حتى خرب الكنائس وقتل وسبى عدداً لايحصى ، حتى جاء هرقل فهزم الفرس فخضع له اليهود وخدعوه فأمنهم ، ولكن أحبار المسيحيين زينوا له البطش بهم فأبادهم . .

هذا ماكان عليه أمر اليهود والنصارى فى العصر الذى صحب ظهور الاسلام . فماذا كان من شأن الأمم الأخرى ؟

أما إيران : فقد أضطربت أحوالها الإجتماعية وأنتشر الفساد وساء نظام الأسرة فيها حتى تزوج « يزدجرد » ابنته ثم قتلها وتزوج « بهرام » أخته ، وكان الفارسيون يعتبرون هذا الزواج تقربا إلى الله ، ثم ظهر « مانى » كرد فعل عنيف للنزعة الشهوية السائدة فدعا إلى تحريم الزواج تعجيلا بفناء العالم الفاسد فقتله بهرام ، ولكن دعوته لم تنقطع بموته وعاشت فترة حتى قهرتها قوى الطبيعة التى ظهرت فى دعوة « مزوك » الإباحية التى قضت على مابقى من كرامة الأسرة الفارسية ، والتى جعلت المال والمرأة نهبا موزعا يشترك فيه الناس جميعا ، ونتج عن ذلك أن الرجل لايعرف ابنه ولاالابن أباه ، وزاد على ذلك تقديسهم الملوك وتأليههم ، وقد ترتب على ذلك تفاوت خطير فى الطبقات لاحظه المغيرة بن شعبة واعتبره نذيرا بضياع ملك الأكاسرة وكان رده على رستم حين استكثر أصحابه أن يجلس بجواره على السرير ردا مفحما ، فقد قال لرستم : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولاأرى قوما أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء ، لايستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم – وكانوا قد أنزلوه من فوق السرير – أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لايستقيم فيكم فلانصنعه ، ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن مُلْكا لايقوم على هذه السيرة ولاعلى هذه العقول . على أن الذى زاد الأمر سوءا عبادة الفرس النار ، وقد وضع أساس هذه البدعة « زرادشت » الذى قال لهم : إن نور الله يَسْطَعُ فى كل مايشرق ويلتهب فى الكون ، فجاء مَن بعده فغالى فى تقديس النار حتى اتخذوها إلها يعبد .

والصين : لم تكن خيرا من الفرس فقد تقسمتها أديان ثلاثة أَهَمُّها البوذية التى كانت فى أول أمرها بسيطة ثم جرفتها البرهمية فى تيارها وحولتها إلى وثنية تحمل معها الأصنام أينما

سارت وتسرب إلى مناهج العبادة فيها السحر والأوهام وأصبح الإله والإيمان به موضع خلاف وشك . .

وكذلك كان الحال فى أمم آسيا الوسطى ، فقد كانت ديانتهم بين بوذية فاسدة ووثنية همجية لاتملك ثروة علمية ولانظاما سياسيا راقيا .

أما الهند فقد كان أحط تاريخ لها هو فى هذه الفترة التى بدأت بمستهل القرن السادس الميلادى حيث فاقت جيرانها فى التدهور الخلقى والاجتماعى، بل امتازت عنها فى ظواهر ثلاث : كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة حتى أصبح عدد الآلهة يقدر بـ ٣٣٠ مليونا ، وكثرة الشهوات الجنسية الجامحة إلى درجة أن آلة التناسل أصبحت أحد الآلهة التى تعبد وأن دور العبادة تحولت إلى مواخير للدعارة ، والتفاوت الطبقى المجحف إلى درجة أن إحدى طبقات المجتمع أصبحت نجسة منبوذة ، وأن المرأة وصلت الى حد من المهانة لايمكن تصوره .

والعرب وإن كانوا قد امتازوا بين الأمم والشعوب بأخلاق ومواهب فقد ابتلوا فى العصر الأخير بانحطاط دينى شديد ووثنية سخيفة وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق وتعددت آلهتهم التى كانوا يعبدونها إلى جانب الآلهة التى كانوا ينحتونها بأيديهم فبعضهم يعبد الجن وبعضهم يعبد الملائكة وبعضهم يعبد النجوم وبعضهم يعبد الأشجار ، وهكذا ولم يفد انتشار النصرانية واليهودية العرب شيئا ، فقد كان اليهود والنصارى بما انحدروا إليه فى دينهم صورة سيئة من الفساد والانحلال .

ولم يتصور العرب كيف يمكن للرسول أن يكون بشرا وكيف يمكن للميت أن يعود إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والنشور . كانت الخمر شائعة فأفسدت عقولهم ، وكانت الربا تجارة رابحة والميسر أمراً يثير الفخر ، والنكاح متعدد الصور ومن صوره الزنا ، وكانت البنت توأد ، والعصبية القبلية والدموية شديدة جامحة ، والحرب تشتعل لأتفه الأسباب .

وخلاصة القول أنه لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء .

كانت هناك ومضات ولكنها خافتة واهنة ظهرت فى صورة أفراد قلائل يتعطشون الى المعرفة ويتوقون الى الهداية ويتكبدون فى طريق ذلك ضروبا من المشقة والعذاب والمخاطر . ومن أمثال هؤلاء سلمان الفارسى الذى تحكى قصته المكافحة المنتصرة كتب السيرة المختلفة .

تلك صورة لأحوال الدنيا الدينية والاجتماعية عرضها المؤلف فى الفصل الأول من الباب الأول من الكتاب . فماذا كانت عليه نُظُمُها السياسية والاجتماعية ؟

لقد فصل ذلك فى الفصل الثانى تفصيلا وافيا ، وأوضح أن الحكم كان ملكيا مطلقا جائرا مستبدا . يقوم على تقديس البيوتات الخاصة فى فارس ، وكان الصينيون يسمون ملكهم الامبراطور أى ابن السماء ، وقد يقوم على تقديس الشعوب والأوطان كما كان ذلك فى المملكة الرومية التى تقدس نفسها وشعبها ،وربما كان ذلك سببا فى انقراضها وفنائها ، فالغرور يقتل صاحبه أويعجل بنهايته على الأقل ، وقد ظهر فساد الحكم الرومانى فى مصر والشام واضحا حيث استغل هاتين الدولتين استغلالا سيئا .

كما كانت السياسة المالية جائرة غير مستقرة نابعة من أخلاق الجباة العاملين وأهوائهم لايتحرزون من الخيانة والاغتصاب وظلم الناس ، ومايجبى من المال لاينفق منه على الدولة إلا القليل والكثير يذهب الى خزائن الملوك ، كان الغنى لأفراد معدودين والفقر لمعظم الأهلين . وكذلك كان الأمر بالنسبة للمناصب فأصبح المجتمع يرزح تحت نظام طبقى جائر .

لقد أستحوذ الترف على بعض الناس وغرقوا فيه إلى أذقانهم ، فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين فى غفلتهم لاهم لهم إلا اللذة ، كان لكسرى اثنا عشر ألف امرأة وخمسون الف جواد وشىء لايحصى من أدوات الترف والقصور ، وكذلك كان الشأن فى بلاط الروم . ولاشك أن ذلك كان على حساب الشعب المقهور . ولقد شقى الجمهور كثيرا بعد أن أصبح أهل البلاد فى الدولتين طبقتين متميزتين إحداهما طبقة الملوك ومن يتصل بهم أويعمل لهم ، وطبقة الفلاحين وأصحاب المهن وهؤلاء يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات حتى هجر الفلاحون أرضهم وترك الجنود معسكراتهم هربا من سوء المعاملة وقسوة الحياة « لقد ضاعت رسالة الأنبياء والأخلاق الفاضلة والمبادىء السامية فى العالم المتمدن بين غنىً مطغ وفقر منس ، فالغنىُّ فى شغل عن الدين بنعيمه وترفه والفلاح أو العامل مشغول بهمومه واحزانه ، وهكذا كانت رحى الحياة تدور حول الناس فى قوة لايرمقون فيها إلى الدين والآخرة رأسا ، ولايتفرغون لمايتصل بالروح والقلب والمعانى السامية ساعة » .

الخلاص : وكان الخلاص من هذا الشقاء الشامل لأنحاء الأرض بالإسلام وبنبيه الكريم محمد ﷺ . . نظر النبى إلى هذا العالم الذى وصفه الكاتب بعين الأنبياء ، رأى الأمم قطعانا ليس لها راع والمواهب البشرية ضائعة أوزائفة ، ورأى أفراد البشر كخامات لم تحظ

بصانع حاذق . . رأى كل ناحية فى هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح . لقد نشأ فى مجتمع هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شىء فيه فى غير محله ، أصبح الذئب راعيا والجائر قاضيا . .

لوكان مصلحا عاديا : ولوكان النبى ﷺ رجلا من عامة المصلحين لتوفَّرَ على إصلاح ناحية من نواحيها وظل طول عمره يعالج عيبا من عيوب المجتمع ، ذلك أن نفسية الإنسان معقدة التركيب رقيقة النسج وإن زاغت لايؤثر فيها إصلاح ، وكل داء من أدواءِ المجتمع يتطلب إصلاحه حياة كاملة ويستغرق عمر إنسان بطوله ، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولايزول . .

نظر النبى ﷺ إلى المجتمع بنظرة الأنبياء فعرف داءه ووضع له دواءه ونجح . ومن أمثلة نجاحه :

علاج الخمر : فإذا ذهب أحد يطارد الخمر فى بلاد نشأت على حياة الترف واللذة أعياه أمرها وذهبت جهوده عبثا ، لأن شرب الخمر ليس إلانتيجة نفسية تعشق اللذة حتى فى السم ، فلاتهجره بمجرد الدعاية والنشر والخطب وسن القوانين ، إنها لاتهجره إلابتغيير نفسى عميق . وهذا هو منهج الانبياء . لقد نجح النبى بمفرده فيما لم تنجح فيه أمريكا بقوتها وغناها ومقدرتها . .

ماذا حدث فى أمريكا بالنسبة للخمر ؟ لقد حاولت منع الخمر وطاردتها فى بلادها بجميع الوسائل حتى قدر ماأنفقته فى ذلك مايزيد على ستين مليون دولار ، وماكتبته ونشرته يشتمل على عشرة ملايين صفحة ، وماتحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة أربع عشرة سنة لايقل عن خمسين ومائتى مليون جنيه ، وقد أعدم ثلثمائة نفس ، وسجن عدد يقرب من نصف مليون شخص ، وبلغت الغرامات ستة عشر مليون جنيه ، وصودر من الأملاك ماتزيد قيمته على أربعمائة مليون جنيه . ولكن ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر واغراقا فيها حتى اضطرت الحكومة فى سنة ١٩٣٣ م إلى سحب القانون الخاص بتحريم الخمر والعودة إلى إباحتها :

عالمية الرسالة : لماذا كانت الجزيرة العربية مركزا لهذه الرسالة ؟

كان مجال العمل فى بلاد العرب فسيحا لو أن الرسول ﷺ رجل إقليمى ، ولو أنه سار سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين ، وكان يمكنه أن يجعل من الأمة العربية لواء تنضم

اليه قريش والقبائل العربية ، ولكنه لم يبعث ليكون ملكا أوزعيما إقليميا أو وطنيا ولم يرسله الله لينسخ باطلا بباطل أوليخرج الناس من سلطان فارس والروم إلى سلطان عدنان وقحطان .

لقد أرسله الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

كان خطابه للنفس البشرية أيًّا كان موقعها ، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق أن يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافى واستقلالها السياسى خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته .

وقد أتى النبى ﷺ الإصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك المفتاح هو الإيمان ، ولذلك نجحت دعوته ، وكل من جاء للإصلاح من غير هذا الطريق فشلت دعوته . والمثل فى ذلك واضح فى فشل دعوة « غاندى » التى كانت تحفل بكثير من المبادىء والمثل ، ولكنها أغفلت هذا المفتاح السحرى العجيب . مفتاح الإيمان .

ويجيب الأستاذ الكبير فى الفصل الثانى من الباب الثانى الذى يدور حول رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام عن هذا السؤال :

لماذا اعترض الجاهليون على دعوة الإصلاح ؟

لقد فهموا أن هذه الدعوة سهم مسدد إلى كبد الجاهلية فقامت قيامتها لتدافع عن تراثها الدفاع الأخير ، وأنطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد . . لقد أصبح كل ركن من أركان الجاهلية مهددا فهب ثائرا على هذا الرجل ومن آمن معه ، ووقعت حوادث الاضطهاد والعنف . . ولكن النبى ﷺ وفق فى دعوته وثبت عليها ولم يلن أمام جبروت الطغاة ، وصابر معه المسلمون الذين آمنوا به عن عقيدة لايسحقهم طيش الشباب ولايستهويهم مطمع من مطامع الدنيا ، إنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة ، سمعوا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمَنَّا ، ولم يزدهم العذاب فى ذلك إلا إيمانا . .

هذه هى التربية الدينية :

لقد غذى الرسول ﷺ أرواحهم بالقرآن وربى نفوسهم بالإيمان فكانوا يزدادون كل يوم

سمو روح ونقاء قلب ولطافة خلق ، لقد استطاع أن يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح حميتهم العربية ويقول لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة ، فينقادون لأمره ويكفون أيديهم ، وتحملوا فى مكة الأذى دون أن يرفع أحد منهم سيفا مع كثرة الدواعى إلى ذلك وقوتها ، حتى إذا بلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة ، وأذن لهم حينذاك بالدفاع عن أنفسهم ، وتشهد المدينة أروع لقاء بين الأخوة المسلمين المهاجرين والأنصار ، وتتوحد صفوف الأنصار وقد كانت بالأمس سيوفهم تقطر دما من حروب الأوس والخزرج ، وتتم الأخوة بينهم وبين المهاجرين ، فكانت أخوة تزرى بأخوة الأشقاء ، وتبذ كل ماروى التاريخ من خلة الأخلاء .

وهذه الجماعة الإسلامية هى التى وقت العالم ، وهى التى حفظته من الانحلال الذى كان يهدده ، وعصمت الإنسانية من الفتن والأخطار التى أحدقت بها ، لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة « إلاتفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

لقد انحلت العقدة الكبرى وهى الشرك والكفر فانحلت العقد كلها ، جاهدهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى ، وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى فكان النصر حليفه فى كل معركة . . لقد دخل هؤلاء المسلمون فى السلم كافة ، وأصبحوا لايجدون حرجا فيما قضى عليهم الرسول ، ولم يكن لهم الخيرة من بعد ماأمر ونهى . . خرج منهم حظ الشيطان وحظ النفس ، وأنصفوا من أنفسهم ، فأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وخير داعية إلى دين الله . .

لقد كان هذا أغرب انقلاب فى تاريخ العالم ، كان غريبا فى كل شىء ، فى سرعته وفى عمقه وفى سعته وفى شموله وفى وضوحه وفى قربه ويسره . ذلك لأنه اعتمد على الإيمان ، والإيمان الصحيح له تأثير قوى فى الأخلاق والميول .

وكيف ذلك ؟ كانت الديانة قبل ذلك سطحية تافهة ، يسجد فيها الإنسان لما خُلق له ، ويؤمن بإلهه على أنه إله أتم صنعه وانزوى وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم صفة الربوبية فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وخلا ايمانهم من الخشوع والحب .

وبنت فلسفة اليونان إيمانها بالله على أسس من السلب لا الإثبات ، أثبتت للإله الخلق الأول فقط ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ، وبذلك حرمت القلب من حب هذا الخالق والخضوع لسيطرته وقدرته . .

لقد انتقل العرب الذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الى المعرفة القوية الواضحة ، وعرفوا صفات الخالق القوى الرازق الباعث المحيى المميت . .

وعلمهم هذا الإيمان وخز الضمير ومراقبة النفس ومحاسبتها ، فكانوا يعترفون بذنوبهم ويتطهرون منها ، وبهذا أصبح الإيمان حارسا لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، وهو الذى أقام أعناقهم فلم يخضعوها لغير الله ، وجعلهم يستهينون بزخرف الحياة ومظاهرها الجوفاء ، وملأقلوبهم شجاعة واستهانة بالحياة . .

لقد نقلهم الإيمان من الأنانية إلى العبودية ، كما كان الصحابة موفقين سعداء حين عولوا فى معرفتهم بالله على رسول الله ، ولم يكونوا كسابقيهم الذين ضيعوا ماأتاهم من رسلهم ، ولذلك سعد هؤلاء الصحابة بالثمرة ووفروا ذكاءهم وقوتهم وأوقاتهم فصرفوها فيما يغنيهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوثقى وأخذوا فى الدين- بلب اللباب .

حب رسول الله ﷺ :

لقد رسم هذا الحب صورة المجتمع الإسلامى ، حين انقاد المسلمون لرسولهم وأحبوه من أعماقهم فنفذوا توجيهاته ومبادئه ، وصاروا أعوانا على الحق أمرهم شورى بينهم ، لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولوكان أميرا . . واقتلعوا جذور الجاهلية وحسموا مادتها وتحمل كل إنسان مسئوليته بثقة وأمانة ومقدرة . . لاعجب فقد عمر الحب قلوبهم وحرس الإيمان خطواتهم فى طريقهم إلى الله . .

لقد حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية ، هذا مايعرضه الفصل الرابع من الباب الثانى ، لقد انطبق عليهم قول الله « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » ومن عجائب الإنسانية : عمر بن الخطاب الذى كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب فإذا به يفاجئ العالم بعبقريته وعصاميته ، وابن الوليد الذى يصبح سيفا من سيوف الله لايقوم له شيء من أمر الجاهلية إلا حصده ، وأبو عبيدة الذى يتولى قيادة المسلمين العظمى ويطرد هرقل من ربوع الشام ، وعمرو بن العاص فاتح مصر ، وسعد بن أبى وقاص الذى تقلد مفاتيح المدائن وفتح العراق وإيران . . . وغيرهم كثير . .

لقد صنع النبى ﷺ من هؤلاء كتلة لم يشاهد التاريخ البشرى أحسن منها اتزانا كأنها حلقة مفرغة لايدرى أين طرفاها ، هم كالمطر لايعرف أوله خير أم آخره .

« لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية ، فانفتح على مافيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب ، وأصاب الجاهلية فى مقتلها وصميمها وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحوا جديدا ويفتتح عهدا سعيدا . ذلك هو العهد الإسلامى الذى لايزال غرة فى جبين التاريخ » .

ولابد للكاتب أن يخصص بابا لهذا العصر الإسلامى ، يتحدث فيه عن عهد القيادة الإسلامية وخصائص هؤلاء القواد . ويوضح فيه أن الأمة الإسلامية تميز أفرادها بخصائص كفلت لهم النجاح فى مهمتهم والتفوق فى رسالتهم ومكنت لهم فى نفوس الناس أجمعين . من ذلك : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية لم تتعرض للتغيير والتبديل .

٢ – لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية للنفس .

٣ – لم يكونوا خدمة جنس ورسل شعب أووطن يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ولكنهم قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا الى عبادة الله وحده .

٤ – أنهم نظروا الى تربية القوى الإنسانية جميعا ، فالإنسان جسم وروح وقلب وعقل وعواطف وجوارح لايسعد ولايفلح ولايرقى حتى تنمو هذه القوى كلها نموا مناسبا لائقا بها .

لقد عرفوا الإجابة على هذا السؤال الذى حير الأمم : كيف توجد المدنية الصالحة ؟ عرفوا أنها توجد إذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسدى يمكن للإنسان فيه بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى .

كما عرفوا الوسيلة إلى إيجادها ، إنها توجد إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة معا ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية وأصحاب عقول سليمة راجحة وعلوم صحيحة نافعة . . فإذا فقدت ذلك فقد تزدهر المدنية فى المادة ولكنها تجدب فى الروح وقد يكون العكس ولذلك لابد من التوازن فى القيادة .

يمتاز أصحاب النبى ﷺ بأنهم جمعوا بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة ، كانت تتمثل فيهم الإنسانية ، بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم حتى خلقوا المدنية الفاضلة . .

إن هذا الرعيل من أتباع محمد ﷺ ، كان خليقا بأن يسعد النوع الإنسانى فى ظله ، وكان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها فى القرن الأول للهجرة فصلا جديدا فى تاريخ الأديان والأخلاق ، وظاهرة جديدة فى عالم السياسة والاجتماع انقلب به تيار المدنية واتجهت به الدنيا اتجاها جديدا .

ماذا ظنت الجاهلية بالإسلام ؟

عهدها به دعوة دينية روحية فإذا به نجاة وسعادة وروح ومادة وحياة وقوة ومدنية فاضلة قوية البنيان محكمة الأساس تعمل للدنيا والآخرة معا ، فأصبح الناس لايجدون عائقا عن الإسلام ولايواجهون صعوبة وعنتا فى قبوله ، ويدخل فيه الرجل فلايخسر شيئا ولكنه يجد برد اليقين وعزة الإيمان .

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيما ، فقد كان الطريق إلى الله شاقا عسيرا محفوفا بالمخاطر ، فأصبح فى ظل الإسلام سهلا ميسورا ، بل حدث انقلاب فى طبائع الناس ومعتقداتهم ، فقد أصبحوا يتأثرون بالإسلام من حيث يشعرون ولايشعرون ، وأصبحت مبادؤه تتسرب إلى أعماق نفوسهم ، فهم يخجلون من الشرك والمعصية بعد أن كانوا يباهون بهما ، وسرى ذلك إلى غير العرب كما يقول الأستاذ أحمد أمين « ظهرت بين النصارى حركة تدعو الى عدم الاعتراف أمام القسس تأثرا بالإسلام . كما ظهرت حركة تدعو الى عدم تعظيم التماثيل ورفض تقديس الصور »

وهذا يدل على تأثير الإسلام فى الأديان الأخرى : كما ظهر تأثير الإسلام فى النصرانية أيضا فى رفض بعض النصارى عقيدة التثليث وشرحها بما يقرب من الوحدانية . وحتى تأثر « لوثر » فى حركته الإصلاحية بالإسلام ، كما تأثرت الأديان الأخرى بِهِ فى الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة والدعوة إلى المساواة . وظهر الاتجاه إلى عبادة الله عند الهنادك حتى قال من قال من أهل الهند : إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلا من نور ، ولايستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش فى العالم المتمدن المعمور تدعى أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين فى قليل أوكثير . .

لقد فعل الإسلام الكثير حتى فى عهود تأخره مازال فيه مشعل النور . . ولكن متى بدأ الانحطاط فى الحياة الإسلامية ؟ قال أحد الأدباء « شيئان لايحدد لهما وقت بدقة : النوم فى حياة الفرد ، والانحطاط فى حياة الأمة ، فلايشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا » ولكن التدلى فى حياة الأمة الإسلامية أوضح من غيره ، فقد ظهر بالخط الفاصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أوملوكية المسلمين .

ذلك لأن زمام القيادة الإسلامية فى عهد الخلافة الراشدة كان بين رجال كل منهم يعتبر

معجزة جليلة للنبى ﷺ ، والزعامة فى الإسلام لها مقدمات تجمعها كلمتان هما : الجهاد والاجتهاد . . أما الجهاد فهو بذل الوسع لنيل أكبر مطلوب ، وأكبر مطلوب للمسلم هو طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه ، ومن مقتضيات هذا الجهاد الذى يجب أن يكون ماضيا إلى يوم القيامة ، أن يكون الإنسان عارفا بالإسلام الذى يجاهد لأجله ، وبالكفر الذى يجاهده ، والاجتهاد يقضى بِأنْ يكون الذى يرأس المسلمين قادراً على القضاء الصحيح فى النوازل والحوادث التى تعرض للمسلمين ، وأن تكون عنده معرفة كاملة لروح الإسلام وفهم أسرار الشريعة ولديه من الذكاء والنشاط ما يمكنه من حل المشاكل وما يستخدم به الكون المسخر له . .

ولذلك كان من المؤسف أن يتولى منصب قيادة المسلمين رجال لم يعدوا له عُدَّة ولم يأخذوا له أهبة . فظهر بذلك ثلمات فى الإسلام لم تردم حتى الآن . ووقع الفصل بين الدين والسياسة عمليا . وأصبح كثير من الحكام بحكم منصبهم قدوة للناس وهم غير أهل للقدوة فساء تمثيلهم للإسلام « وبدأ الإسلام بالانحطاط لأن البشرية بدأت تشك فى صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة » هذا بالإضافة الى قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة من جانب العلماء . بل اهتموا بعلوم ماوراء الطبيعة والفلسفة الإلهية التى أغناهم عنها دينهم . وماوصلو إليه من علوم تجريبية لايتناسب مع فتوحاتهم العظيمة ، وما خلفوه من تراث فى ذلك استفادت به أوربا ، يتضاءل أمام المكتبة الأوربية التى أنتجتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وزاد الأمر سوءا ما اخترعته الأوهام من خرافات وأساطير، الإسلام منها براء .

إشراقات مضيئة فى الظلام ، وقد ظهر حسن بلاء العالم الإسلامى فى القرن السادس الهجرى حين ظهر قادة وقفوا فى وجه الصليبيين الذين كانوا أكبر خطر على الإسلام بعد الردة . من أمثال عماد الدين زنكى ونور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى ، وقد أثبت هؤلاء أن الإسلام لم ينته دوره ولم يفقد الحيوية والإنتاج ، وإن كان الإسلام قد افتقد امثال هؤلاء القواد فى المحنة التى أصابته على يد الصليبيين الجدد فى القرن التاسع عشر .

ولكن على الرغم من الانحطاط الذى بدأ يصيب العالم الإسلامى إلا أن خليته مازالت تعسل ، فيظهر أفراد من الملوك والقائمين يتمثلون الصحابة والسلف الصالح ، والمسلمون على الرغم من انحرافهم عن سيرتهم الأولى هم أقرب الى طريق الأنبياء من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم . . ولم تتجاسر عليهم الدول حتى مزق التتار حكومة خوارزم شاه .

فدور القيادة العثمانية :

لقد تجدد رجاء الإسلام بظهور العثمانيين على مسرح الأحداث وفتحهم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية المنيعة فى منتصف القرن التاسع الهجرى بقيادة محمد الثانى ابن مراد وهو ابن أربع وعشرين سنة . . وتفرد الشعب التركى المسلم تحت حكم العثمانيين بمزايا متعددة منها الحماس والطموح ، وتحليه بروح الجهاد ، والسلامة من الأدواء الاجتماعية والخلقية ، ومنها القوة الحربية واستيلاؤهم على أحسن مركز للقيادة العالمية ، حتى قال نابليون : لوكانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها .

فلو وفق الله هؤلاء لأن يتقدموا فى ميدان العلم ليسبقوا الأمم النصرانية لقادوا العالم إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوروبا زمام العالم لتقوده الى النار والدمار . ولكن شاء الحظ العاثر أن تتدلى تركيا إلى أسفل ويصيبها داء الأمم العقيم . .

يقظة أوروبا : شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر الميلاديان نهضة اوربية شاملة ، فقد استيقظت أوربا من سباتها وأخذت تعدو إلى غايتها لم تضيع ساعة من نهار أوليل فى الوقت الذى ضيع المسلمون أحقابا وأجيالا . وبذلك سبق الأوربيون وتأخر المسلمون الذين كانت تتزعمهم تركيا فى ذلك الوقت ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الدولة العثمانية – تسجيلا للواقع – حصنا منيعا للإسلام ، فقد أخفقت كل محاولات المسيحية واليهودية فى العبث بالمقدسات الإسلامية ولم تنجح هذه المحاولات إلا بعد أن نجح هؤلاء الأعداء فى إثارة الفرقة بين العرب والأتراك ، وفى فصل الأقطار العربية عن الامبراطورية العثمانية ، عند ذلك قامت اسرائيل التى استشرت واسْتَأْسدتْ وكانت نهاية الامبراطورية العثمانية أكبر انتصار للصليبية الأوربية واليهودية العالمية .

بين حضارة الاسلام والحضارة الغربية الحديثة :

والخسارة التى حاقت بالعالم من انزواء حضارة الاسلام يحدثنا الكاتب فى الفصل الأول من الباب الرابع الذى جعل عنوانه « العصر الأوربى » عن طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها ، ويوضح أن للحضارة الغربية جذورا من حضارة الإغريق والرومانيين ، وتحمل الحضارة اليونانية شعار المادية ، التى ورثتها الرومانية وخلطتها بديانتها النصرانية التى اعتنقتها ، وزادت على ذلك فابتدعت الرهبانية التى تحولت إلى شر على الإنسانية والمدنية ، وتبع ذلك

جناية رجال الدين على الكتب الدينية واضطهاد الكنيسة للعلم والعلماء حتى أحرقت العالم الطبيعى ، « بروتون » لأنه قال بتعدد العوالم ، والعالم «غليليو» لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس . . وانتهى الأمر بثورة المتنورين على رجال الكنيسة ، وتحول العلم تحولا ماديا صرفا وقطع كل علاقة له بالدين . . وهكذا أصبحت ديانة أوربا المادية لاالنصرانية ، وفى ذلك دليل واضح على حضارة الإسلام العظيمة التى تحترم العلم والعلماء .

حتى إن كان هناك اتجاه روحى فى الغرب فإنما مرده إلى المادة أيضا ، فالتضحية للسمعة والرياء وحسن الأحدوثة لالوجه الله وتزكية النفس كما هو الأمر فى الإسلام .

لقد بلغ النظر المادى فى أوربا إلى درجة الاستغراق فيه كما هو ظاهر فى بدعة الشيوعية التى ابتدعها كارل ماركس ، وتغلغل هذا الفكر المادى بنظرية دارون إلى عتمة الاعتقاد بأن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية وأنه لاعلة فيه سوى السنن الطبيعية ، ولايخفى مافى الاتجاه المادى من فساد للعالم وخراب للأمم وضياع للمبادىء والأخلاق ، يرتكب الساسة عمدا مايرتكبون من آثام متصورين فى وهم أن ذلك فيه مصلحة لبلادهم . .

لقد لعبت الأهواء بالأمم الأوربية ، وانكسرت الكنيسة اللاتينية ولم تزد ثورة لوثر الإصلاحية فى الكنيسة إلا إثارة روح القومية والوطنية فحسب ، حتى قال أحد المعلمين الألمان : لأى شئ يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية ؟ ولماذا يقص على أولادنا قصص ابراهيم واسحاق ؟ ينبغى أن يكون إلهنا أيضا ألمانيًّا . بل لقد نشأت فى ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لأنه من بنى اسرائيل والذين لايزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية . لقد ظهرت موجة عنيفة من التعصب للأوطان . وشملت كافة الأقطار .

وبكل أسف سرت هذه العدوى إلى الأقطار الإسلامية . عدوى التعصب للوطن أوالقومية متجاهلة روح الدعوة الإسلامية التى آخت بين المسلمين . وساعد على انتشارها أعداء الدين الإسلامى الذين يهمهم تفرق أبناء الإسلام .

ماذا كان من نتائج انحلال النظام الدينى وانتعاش النَّعْرَة القومية فى أوربا ؟ لقد أصبحت أوربا كلها معسكرا واحدا ضد الشرق كله ، ثم أصبحت الشعوب والدول عوالم مستقلة . كل دولة منها تجعل من نفسها إلها تدين له . وهذا الدين الجديد يشتمل على شيئين أحدهما ايجابى وهو الاعتقاد بأن الأمة فوق كل شىء ، وأن الله - إذا كانت هذه الأمة تعترف به - لم يخلق أفضل منها ولاأنجب منها ،والثانى سلبى يتمثل فى بث الكراهية والخوف

فى نفوس الشعب. الكراهية لأى شىء والخوف من أى شىء من عدو حتى ولوكان من اختراع السياسيين ، وهكذا يلعب الوهم بأقدار الشعوب ، التى تندفع بأوهامها الى حروب غاشمة ظالمة . لقد وجه الإسلام أبناءه إلى العدو الحقيقى الذى يجب أن يحاربه الناس : إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وبذلك كانت الحروب الإسلامية ميمونة مباركة . ولايوجد حرب أقل إراقة للدماء منها ولاأعود منها على الإنسانية بالخير !

إحصائية منصفة : والدليل على ذلك أن عدد المقتولين من الفريقين فى جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التى ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ودامت الى السنة التاسعة لايزيد على ١٠١٨ نفسا منهم ٢٥٩ مُسْلِماً و٧٥٩ كافرا أما المصابون فى حرب ١٩١٤ فيبلغ عددهم ٢١ مليون نسمة . القتلى منهم ٧ مليون والجرحى ٢١ مليون والمصابون فى حرب ١٩٣٩ يبلغ عددهم ٥٠ مليونا وقد كلف قتل رجل واحد فى الحرب الأولى عشرة آلاف جنيه ، أما مجموع نفقاتها فيبلغ سبعة وثلاثين ألف مليون جنيه ، وتبلغ تكاليف حرب الساعة الواحدة فى الحرب العالمية الثانية مليونا من الجنيهات .

فما أبعد الفرق بين روح الإسلام السمح وهذه الوحشية الضارية ، أجل ، ماأبعد الفرق بين حكم الهداية وحكم الجباية ، قامت حكومة الإسلام على منهج النبوة لتصلح أخلاق المحكومين ، أما الحكومات غير الإسلامية فلا شأن لها بالأخلاق بل هدفها جباية الأموال واستغلال الشعوب ، وربما شجعت على الانحلال والفجور . .

أوربا إلى الانتحار : مافى ذلك شك على الرغم مما وصلت اليه من اكتشاف واختراع لأنها لم تحقق الغاية المثلى من ذلك ، فالغاية من الاختراع هو التغلب على متاعب الحياة والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة فى هذا الكون ، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علو فى الأرض ولافساد . وكان موقف الإسلام من ذلك واضحا حيث دعا إلى العلم للانتفاع والهداية وشكر الله واعلاء حكمته . ولكن الإنسان باختياره يحول المصنوعات الى خير أوشر . وقد حول الأوربيون مصنوعاتهم الى الشرِّ ، بل كثيرا ماحولوا الاشياء الخيرة فى نفسها الى شر . وماذلك الابخبث السريرة وسوء النية . لقد فقد الأوربيون الدين ففقدوا العاصم ، لقد فقدوا التعادل بين القوة والاخلاق والتوازن بين العلم والدين فلم تزل القوة والعلم فى ارتفاع والدين والأخلاق فى انحطاط . . وهذا هو الذى أدى إلى أن تسير أوربا فى طريق الانتحار » والحاصل أن البذرة الخبيثة التى ألقيت فى تربة أوربا فى نهضتنا الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ولكنها سامة ، أزهارها جميلة

ولكنها شائكة ، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازا ساما لايرى ولكنه يسمم البشر . ولاصلاح لأوروبا إلاباجتثاث هذه الشجرة من أصلها .

ما الرزايا الإنسانية والمعنوية التى أصابت العالم فى عهد الاستعمار الأوربى ؟

يجيب المؤلف على هذا السؤال فى الفصل الرابع من الباب الرابع بماياتى : رُزِئَتْ الإنسانية بعودة النظام الجاهلى الذى قوضه الإسلام بدعوته ، وكان رزء المسلمين مضاعفا ظهر فى مظاهر متعددة : منها بطلان الحاسة الدينية التى ترتب عليها جحد الغيب والمكابرة فيما هو وراء الطبيعة ، والمعاندة فى المعانى الدينية التى ترقق القلوب وتهز النفوس ، ومنها زوال العاطفة الدينية التى ترتب عليها خمود جذوة الدين فى القلوب وانصراف الرغبات عن الدين والروحانية الى المعاش والمادة . . وسريان الشك وسوء الظن وضعف الثقة بالله وتفشى العقوق وأصبحت الدنيا سوقا ليس فيه إلا البيع والشراء . ومنها طغيان المادية والمعدة ، فقد تضخمت معدة الحرص فى الانسان حتى أصبحت لايشبعها شىء وتولد فى الناس غليل لايشفى ونهم يلتهم الحلال والحرام ، بعد أن اعتقد الناس أنه ليس الا الحياة الدنيا ، وراج لذلك الأدب العصرى الذى لايتحدث إلاعن المادة وأصحابها . ومنها تدهور الأخلاق والمجتمع إلى درجة أصبحت فيها النَّفْعِيَة مقياسا لكل شىء ، وتغيرت الذمم حتى بيعت أقلام المسلمين لغير المسلمين . وأصبح بعض المأجورين يدعون للعدو ويتحمسون فى الدفاع على موجات الأثير وفى صفحات الصحف والمجلات . .

لقد أصبح – نتيجة لذلك – الذهن الغربى والمنطق العصرى عاجزين عن الاهتداء الى منفعة غير محسوسة لاتجلب لذة واغتباطا ، فأصبح العقل الأوربى مدافعا عن المادية لايحكم على الأخلاق إلا بمقدار جلبها للمنافع – فأين مثاليات الشرق وإشراقات الدين ودعوة الإسلام الى التعاون فى الخير والتعاضد فى المعروف والدعوة الى البر ؟

ويَمْضى الكاتب فى بيان العلل التى أصابت البشرية فى الصميم حتى يصل الى ضرورة الحل الإسلامى والعلاج المحمدى القرآنى : إنه لاعلاج لهذه الجاهلية الجديدة التى شملت العالم والتى حملت لواءها أوربا التى طوحت وراءها ظهريا كل تعاليم المسيح عليه السلام ، والتى أصبحت لاتؤمن إلا باللذة . والنفعية ، ولاتدين إلابالوطنية المعتدية والقومية الغاشمة وشغلت بالآلات واستهانت بالغايات ونسيت مقاصد الحياة ، وداست فى طريقها كل القيم

والمثل وأهلكت الحرث والنسل ، وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة أخذت أوربا بناصية الأمم فقادتها إلى الهاوية ، بل أصبح المسلمون لايملكون من أمرهم شيئا وكلما تقدمت أوربا فى القوة والسرعة ازداد الأمر سوءا حيث النار والدمار والانتحار . .

وسيأتى اليوم على الشعوب والدول الآسيوية والشرقية لتسير إلى هذه الغاية نفسها مادامت لاتنكر على الأوربيين مسلكهم ولاتنقم عليهم أخلاقهم وسيرتهم . وقد بدأ هذا الوباء يظهر فعلا بين الدول التى استقلت حديثا عن سيطرة المستعمر . .

لابد إذن أن تتحول القيادة من اليد الآثمة الخرقاء التى أساءت الاستعمال إلى اليد البريئة الحاذقة . . من الدول المادية إلى العالم الإسلامى الذى يقوده سيدنا محمد ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم . .

إن حقا على العالم الإسلامى أن يمنِّى نفسه بهذه المهمة الجليلة التى نيطت به ، فمن الغريب الواقع أن يرضى المسلمون بالتبعية ، وأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدلا من أن يكونوا قادة الجيش الإسلامى ، من المؤلم أن تسرى فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادىء الفلسفة المادية ، كأنهم لايؤمنون بالآخرة ولايوقنون بالبعث والحساب والجزاء . .

والمسلمون الآن على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل لأنهم الأمة الوحيدة التى تعد خصيم الأمم الغربية ، ومنافستها فى قيادة الامم ، وقد صور الشاعر الإسلامى محمد إقبال خطر هذه الأمة على الغرب فى « برلمان ابليس » .

العالم الآن فى حاجة إلى رسالة الإسلام لتنقذه من الظلمات إلى النور وتأخذ بيده إلى طريق السلام والأمان .

وكيف يؤدى المسلمون هذه الرسالة : يؤدونها بالاستعداد الروحى والقوة المعنوية وبالإيمان القوى وبالشوق الى الله . لابد من إشعال العاطفة الدينية فى النفوس بمختلف الوسائل التقليدية والحديثة ، والقرآن الكريم وسيرة الرسول العظيم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا فى العالم الإسلامى نار الحماسة الدينية والإيمان .

لقد فرط المسلمون فى حقوقهم وأسلموا الزمام حتى فى تخصصاتهم إلى غيرهم – فى اللغة العربية وآدابها وعلوم الدين والتفسير والحديث والفقه – من المستشرقين الذين أصبحوا مرشدين وموجهين فى البحث والتحقيق وعدد كبير منهم متعصبون ضد الإسلام ويجب ألاّينسى المسلمون أن هؤلاء هم أصحاب الدعوة الى فصل الدين عن السياسة ، وأن الدين قضية شخصية لاشأن له بالمجتمع والدعوة الى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية

على أساس الحضارة الغربية .

لقد عجز كتاب الشرق ومفكروه عن مواجهة الحضارة الغربية وجها لوجه ، ونقد أسسها وقيمها نقدا حرا جريئا مبتكرا مستقلا ، وبكل أسف بلغ الحد أن بعضهم رأى أن الحضارة الغربية هى آخر ماوصل إليه العقل البشرى ولابد من مجاراتها واتخاذها أساسا للشرق - فلابد من قيام عمالقة ينتقدون الحضارة الغربية ، ولابد من تنظيم العلم الجديد فى العالم الإسلامى بما يوافق روح الدين ورسالته ولغته ، ولابد من الاستقلال فى التعليم عن الغرب ، ولابد إلى جانب ذلك من أن تكون الزعامة العلمية للعالم الإسلامى ، ولابد من الاستعداد الروحى والصناعى والحربى حتى يتقدم الشرق من جديد .

زعامة العالم العربى :

يعقد الكاتب الكبير فى نهاية كتابه القيم أملا كبيرا على العالم العربى فى زعامته للمسلمين واضطلاعه برسالة الاصلاح والخلاص ، فالعالم العربى له أهميته الكبرى فى خريطة العالم السياسية ، فهو إلى جانب ثروته ومناخه وخصوبته وعروبته ومقدساته ينظر إليه المسلم نظره غير التى ينظرها غير المسلم ، فالمسلم ينظر إليه على أنه مهد الإسلام ومشرق نوره ومبعث نبيه ﷺ الذى هو روح العالم الإسلامى كله ومنقذه ومخلصه من شقائه وحيرته وضلاله ، فإن هذا التاريخ المجيد وهذه الحضارة الزاهية وهذا الأدب الزاخر وهذه الدول العربية ليست إلاحسنة من حسنات محمد ﷺ .

فعلى العالم العربى تبعات يتحملها بالإيمان الذى ينبغى أن يكون قوته ، وهو سلاحه اليوم كما كان سلاحه بالأمس ، إنه لايستطيع ان يحارب عدوه الغنى القوى بقلب يحب الحياة ويكره الموت ، وبجسم يميل الى الدَّعة والراحة وبعقل يخامره الشك ، بل يحاربه باليقين والعقيدة والثقة والإيمان القوى الذى لايتزعزع .

وبالتضحية فانها القنطرة الى سعادة البشرية ، وقد ضحى المسلمون قديما فاسعدوا العالم برسالة الإسلام ، وعلى المسلمين الآن أن يقوموا بهذا الدور الخطير فيضحوا . إن العالم لايصل الى السعادة إلا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها الشباب المسلم ، إن الأرض فى حاجة إلى سماد وسمادها التضحية بالمطامع والشهوات .

وبالفروسية التى يجب أن تعود إلى الشباب الذى يجب أن يتربى على البساطة والخشونة وتحمل المشاق والصبر على المكاره ونكران الذات .

يجب على الحكومات الإسلامية أن تضرب على يد الصحافة الماجنة والأدب الخليع والملحد وعلى أولياء أمور المسلمين أن يحاربوا التبذير والترف وحياة اللذة . وعلى العالم الإسلامى أن يتخلص من الأثرة فإنه لامحل فى الإسلام للأثرة ، وأنه لامستقبل فى العالم إلا للإسلام وإن طالَ أجل الأثرات .

ولابد من ايجاد الوعى فى الأمة الإسلامية حتى تعرف صديقها من عدوها ، كما لابد لها من الاستقلال فى كل شىء فى تفكيرها وتجارتها وماليتها وصناعتها وسلاحها .

إن العالم الإسلامى له رجاء فى العالم العربى أن يتقلد زعامة العالم الإسلامى ويزاحم أوربا بعد الاستعداد الكامل لذلك . .

لقد أوضح الكاتب المنهج الذى يستعيد المسلمون به مكانتهم فى الأمم ، ويؤدون رسالتهم التى وضعها على عواتقهم دينهم الكريم السمح الذى اختاره الله علاجا للبشرية من أدوائها فى مشارق الأرض ومغاربها . .

لقد حدث تطور عظيم برسالة محمد ﷺ أشارت إليه سورة الإسراء بإعلان النبى ﷺ نبياً للقبلتين واماما للمشرقين والمغربين ووارثا للأنبياء قبله وإماما للأجيال بعده .

لقد أكرم الله العرب قديما بقيادة العالم حين أخلصوا للدعوة الإسلامية فأحبهم الناس فى العالم وقلدوهم فى كل شىء . .

وبقيت هذه القيادة مدة طويلة لايفكر أحد فى الثورة عليها ، لأن صلتهم بها صلة المتدين بالدين ، صلة المؤمن بالمؤمن .

والطريق الآن إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب ، وهى الطريق التى جربوها فى عهدهم الأول ، هى « طريق الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها وتبنيها والتفانى فى سبيلها ، وتفضيل منهج الحياة الإسلامى على جميع مناهج الحياة »

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل . .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

مسئولية القادة

فضيلة الشيخ
أبو الوفا المراغى

حدثنا محمد بن عبد الملك عن أبى الشوارب حدثنا ابو عوانه . حدثنا عبد الملك بن عمير عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من اجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا ، أخرجه ابن ماجه .

كثر خلاف علماء الحديث وشراحه فى معنى هذا الحديث واتسع مجال الجدل بينهم فيه وهو من جوامع كلمه ﷺ ، وفيه من العمومات ما يبرر هذا الاختلاف ، فالعمومات هى الألفاظ الصالحة لأرادة معان كثيرة والذى يعّين المراد منها بعينه هى القرائن والسياقات الكلامية المحيطة بها . والسنة الواردة فى الحديث فى قوله : من سن سنة حسنة فله أجرها ليس مرادا بها معناها اللغوى – وهو المنهج والطريقة مذمومة كانت أم محمودة ، وإنما المراد بها المعنى الشرعى حيث جاءت فى السياق الدينى الشرعى ، فقد جاءت على لسان الشارع الذى أرسل لهداية الناس بالشرع ، وليس من مهمته بيان اللغة واستعمالات الألفاظ وحول هذا المعنى الشرعى كان اختلاف العلماء ، هل المراد بالسنة الطريقة فى الدين والعبادة ، أو المراد الطريقة فى العبادة وفى غيرها ، أعنى الطريقة فى الدين والدنيا وفى أسلوب الحياة والمعاش وغير ذلك ، واذا كان المراد بالسنة الطريق فى العبادة ، فهل هى الطريق المقطوعة الصلة بأصول الدين وقواعده أو هى الطريق المتصلة بها . ولا شك بين العلماء فى اشتراط كونها مرتبطة بقواعد الدين وأصوله لتكون حسنة ، وحينئذ قد يطلق عليها بعض الناس اسم البدعة الحسنة باعتبار ان هذه الطريقة ابتدعت ولم تكن على صورتها هذه فى عهد رسول الله ، وكثير من العلماء يرفض اعتبار أى طريقة فى العبادة لم تكن على عهد رسول الله مهما كان حُسْنها ، ويرى أنَّ تلك الطريقة زيادة فى الدين تنافى قوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم .

ويتشابك الكلام بين العلماء فى السنة الحسنة والسنة السيئة الواردتين فى الحديث ، وبين البدعة ، وهل هناك فرق بينهما أو يجمعان أحيانا ويفترقان أحيانا والكلام فى ذلك مبسوط فى مواضعه من كتب الحديث وكتب الأصول .

وإذ قد عرفنا ان فريقا من العلماء يرفض تفسير السنة الواردة فى الحديث والتى يؤجر من استنها عليها ويؤجر مثل أجور من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيئا لمنافاتها ظاهر الآية كما ذكرنا ، وعرفنا أيضا أن رسول الله ﷺ بعث هاديا ومرشدا للناس فى أمور دينهم ودنياهم بالتعاليم التى جاء بها والتى تحقق لهم السعادة فى عاجلهم وآجلهم أمكننا أن نرجح أن المراد بالسنة فى الحديث ؛ الطريقة والمنهج فى حياتهم الدنيوية التى تجلب لهم الخير وتدفع عنهم الأذى والضرر مما لم تكن فى حياة الرسول ، وطرق الخير ومناهجه التى لم تكن فى عهد الرسول لا حصر لها ، فالجمعيات الخيرية التى تؤدى للناس مختلف الخدمات ، وصناديق الإقراض الشرعى ، والجمعيات التعاونية ، وجمعيات الإسعاف ، وجمعيات تأهيل المعوقين ، ومنح الجوائز العلمية والتشجيعية ، فهذه مناهج فى الخير يستحق منشئوها والمفكرون فيها أن يُكافئهم الله ويؤجرهم عليها ويكافئُ من يفكر فى أمثالها ويعمل على منوالها .

والمناهج التى سنها العلماء واكتشفوها لا حصر لها فى جميع الميادين ، فقد سنوا واكتشفوا فى ميدان الطب من العلل والأمراض .والعلاجات ووسائل الوقاية والتشخيص والتحليل وكشفوا أسرار النفس ووظائف الأعضاء ما يبهر ويذهل ، واكتشفوا فى ميدان الزراعة من وسائل الاستكثار وطرق مكافحة الآفات وتهجين النباتات وغير ذلك مما يلم به أهل الفن ما يثير الدهش والاعجاب وأغرب ما سنه العلماء واكتشفوه ما وقع فى المجال الحربى ، وحسبنا فى ذلك أن نذكر القنابل النووية والصواريخ والرادارات الاستكشافية والطائرات التى تسبق الصوت مدى وسرعة .

إن حضارتنا الراهنة مزيج من السفن والطرق والاكتشافات ، وفى أكثرها الخير والسعادة للناس ، فهل هناك مانع أن تكون من السنن الحسنة التى وعد الله عليها بأجرها ومثل أجر من عمل بها ، ويكون ذلك الأجر حافزا وتشجيعا عليها ، واغراء للناس ان يجدوا ليبحثوا ويستكشفوا من الطرق ما ينهض بالبشر وما يحقق لهم السعادة والرفاهية .

سيقول قائلون : وكيف يثاب من سن الطرق والمناهج الجديدة فى الحياة بما ذكر فى الحديث ، وأكثرهم ليس لهم إيمان صحيح ومنهم من لا يبالى بالحساب ، ولا يعترف بفكرة الثواب والعقاب .

ولهؤلاء نقول : ان الله يرزق هؤلاء ويمدهم بالصحة ويمنحهم الأذهان الصافية والأفكار النافذة ، فلا مانع ان يثيبهم بما يشاء وكيف يشاء ، وقد أشار العلماء عند الكلام على الأرزاق إلى حل هذا الإشكال .

وفى مقابلة ما ذكر الحديث من الجزاء على من سن سنة حسنة ذكر الجزاء لمن سن سنة سيئة وإن عليه وزرها أى جزاء ذنبها وذنب من عمل بها وهذه مقابلة طبيعية فللمحسن جزاء إحسانه بقدر ما قدم من الخير للناس وافاده ، وللمسئ جزاء إساءته بقدر ما أساء إلى الناس وأزعجهم ونغص عليهم حياتهم ، من عمل صَالِحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد .

إن الحديث قاعدة دينية واجتماعية من القواعد التى يعتز بها الدين الإسلامى والفكر الإسلامى حيث لا تتدافع فى صدقها العقول فى جميع العصور والأحوال ، ألا وأننا سنجد فى بعض القارئين ممن يفكرون بالتفكير المادى ويتكلمون بالمنطق المادى ويحبون العاجلة من ينفض رأسه ويهز كتفه لهذا التفسير إذ جعلنا الأجر والثواب على ما يسن من السنن الحسنة والمناهج الجديدة فى الحياة حوافز وتشجعيات آلهية ويرى ان الحوافز والتشجعيات هى النقود والمكافآت العاجلة التى تعقب الأعمال وتكون ثمرات سريعة لها ، وأما الحوافز الآلهية التى تذكرونها ، فأمدها بعيد ونحن فى حاجة إلى الإسعاف السريع ويذكرون من الأمثال ما لاينا سب قدسية الأديان ، وهؤلاء مرضى جديرون بالرثاء لأنهم فقراء فى أيمانهم وفى عقولهم محتاجون إلى مكافحة المادية وتهذيبها فى نفوسهم ليفيقوا من غفلاتهم ويعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها وكما يحبون أن يدخروا لمستقبلهم الدنيوى فيجب أن يدخروا لمستقبلهم الأخروى ، وما أقرب اليوم الذى يقف فيه المرء مهما كان مقامه على عتبة الآخرة ويتفقد ما تزود به فلا يجد شيئا ، وعلى الرغم منى أن أقف فى كلمتى هذه واعظا لهؤلاء فقد كثر الوعظ وكثر الترهيب ولكن قلَّت الاستجابة واستعصى الانقياد .

إن هذه الجوائز الآلهية التى وعد الله بها فى الحديث هى الجوائز التى تليق بذى الجلال الجواد الواسع الغنى ، فكم هم الذين يعملون بالسنن الحسنة ؟ وكم ثوابهم الذى يستحق مثله من سن لهم تلك السنن ؟ وأين الجوائز البشرية المحدودة المقدار من الجوائز الآلهية التى لا تحد ولا تعد ، وشتان بين واهب لا تنفد خزائنه وواهب ليس فى خزائنه إلا ما يمنحه سيده ومولاه ، فلنربط دنيانا بآخرتنا ولنعش فى الدنيا للآخره ولنجتهد فى سن ما ينفعنا وينفع الناس لنفوز بما وعد الله المحسنين العاملين .

كن من خير الفريقين :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت الآخرة همه ، جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم تأته من الدنيا إلا ما قدر له .

وزاد فى رواية فلا يمسى إلا فقيرا ولا يصبح إلا فقيرا وما أقبل عبد إلى الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع . أخرجه الترمذى . ليعلم الناس : جميعا المسلمون وغير المسلمين أن الرسالة الإسلامية أو الدين الإسلامى لم يتضمن لا تصريحا ولا إشارة أو دعوة إلى التكاسل والقعود عن العمل وانتظار الرزق من السماء ، فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ولو تضمن ذلك لكان مناقضا للفطرة ، ولم تأت الاديان لتناقض الفطر ، وإنما جاءت لترشدها وتوجهها وجهة الخير وتكفّها إن جمحت أو اشتطت ، وفطرة الإنسان وطبيعته محرك قوى دافع إلى العمل فالإنسان خلق ليأكل ويشرب ويسكن ويكتسى ويتعلم وكل ذلك فى حاجة إلى وسائل من العمل والمال والجد ليتحقق ويتوفر ، وإنى لأعجب لإلحاح الكتاب والوعاظ فى الدعوة إلى العمل ، كما أعجب لاتهام بعض الحمقى للإسلام بأنه دين التواكل والكسل ، إن هؤلاء الملحين فى الدعوة إلى العمل يغفلون عن أن العمل يكاد يكون جزءا من فطرة الإنسان تزكيه الضرورة ويضعفه الاستغناء ، وما جاء فى الإسلام من الدعوة إلى العمل إنما جاء لتنبيه الفطرة حتى لا يخبو أوارها ، وأكثر ما جاء فى الإسلام للحث على العمل إنما جاء فى الحث على العمل للآخرة مثل قوله تعالى : « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » . وقوله تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » . وما جاء فيه مما يختص بالعمل للدنيا فإنما جاء لطلب الاقتصاد منه والترفق فى طلبه وعدم الانسياق مع الفطرة فى التهالك عليه والاستغراق فيه استغراقا يلهيه عن واجباته نحو ربه ونحو الناس : يا أيها الناس اتقوا الله واجملوا فى الطلب فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها فى الدنيا .

إن الدعوة إلى العمل للدنيا دعوة تكاد تكون لا محل لها لأنه من طبيعة الإنسان وكيف يطلب إليه أن يعمل ما تقتضى طبيعته أن يعمله وهل يطلب منه أن يأكل أو يشرب أو ينام أو يتنفس ؟ كل إنسان عامل بطبيعته لدنياه فإن وجد فى القديم أو الحديث من آثر الزهد وارتضى العزلة وانصرف عن العمل فذلك اجتهاد منه وفلسفة خاصة به ولنتركه وما رآه وله

أو عليه ما انتواه ، وإن هؤلاء لقلة لا تنتقض بهن سنن الفطرة ولا تختل بهم موازين الوجود ولا يعادل بهم الانبياء والصديقون ومصلحو الأمم الذين أفنوا أعمارهم فى العمل لرسالاتهم وغاياتهم .

لقد قلنا : لم يلح الاسلام على العمل للدنيا لإن إلحاح الفطرة أقوى وأبلغ من إلحاح الدين وإنما ألح الإسلام فى الدعوة إلى العمل للآخرة وحذر أشد التحذير أن يستغرق عمل الدنيا وقت الإنسان وجهده فينسى عمل الآخرة وله فى ذلك الأساليب التى تلين الحديد وتذيب الجلاميد ترغيبا وتخويفا من مثل قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم .

ولعل من أقوى النصوص الإسلامية فى هذا المقام ماورد فى حديثنا الذى صدَّرنا به كلمتنا هذه ، والفكرة العامة فى هذا الحديث دعوة المسلمين إلى العمل للدنيا فى تلطف وتروٍّ ، دون إغراق وإرهاق حتى لا يؤدى الانهماك البالغ إلى التفريط فى الواجبات الدينية والعمل للآخرة وتلك الفكرة تلتقى أو تتطابق مع قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

فالعمل للآخرة ينبغى أن يكون المقصود الأول للمسلم حتى فيما يزاول من عمل الدنيا وأن يكون العمل لمتاع الدنيا هو المقصود الثانى ، وما أحوج العالم اليوم إلى الاسترشاد بهذه الفكرة وجعلها ميزانا فى سلوكه ، فقد تهالك الناس على العمل تهالكا أعمى أبصارهم وبصائرهم عن كل القيم الروحية ، فهم يعملون ويعملون ويكسبون ويكسبون لا عن ضرورة وحاجة وأنما يدخرون ويجمعون خوف الفقر ، كأنهم يضمنون بما يجمعون مستقبلهم ومستقبل ابنائهم وأحفادهم ويغفلون عما تخبئه الغيوب والأقدار ، ولا يبالون فيما يكسبون بدين أو خلق أو عرف صالح أو تقليد محمود ، وقبل أن نحاول تفصيل فكرة الحديث ينبغى أن نشير لى ما جاء فيه من صور بيانية رائعة ، فقد يعين ذلك على بيان يُعَمِّقُ ما قصده الرسول من توجيهات فى هذا الصدد ، فمن ذلك قوله « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ماقُدِّر له » ، قال الإمام الرضى فى كتابه المجازات النبوية : من كانت نيته الآخرة جعل الله سبحانه غناه فى قلبه وأتته الدنيا

وهى راغمة » . هذه استعارة والمراد أتته الدنيا من حيث لا يطلبها ودرت عليه منافعها من حيث لا يحتسب ، وقال : « من كانت الدنيا همه جعل الله فقرا بين عينيه » ، وهذا الكلام مجاز ، والمراد به أن من جعل الدنيا همه وقرَّ عليها باله وأعرض عن الآخرة بوجهه ، وأقبل على تثمير الأموال عاقبه الله على ذلك بأن يزيده فقر نفس فلا تسد مفاقره كثرة ما جمع وعظيم ما أثل وثمر ، فكأنه يرى الفقر بين عينيه فهو أبدا خائف من الوقوع فيه ، فلا يزال آكلا لا يشبع ، فمعه حرص الفقراء وله مال الأغنياء ، وقوله عليه السلام « جعل فقرا بين عينيه » مبالغة فى وصفه بتصور الفقر فكأنه قريب منه وغير غائب عنه ، ولم يشر الرضى إلى ما فى قوله ﷺ جمع الله شمله وفى قوله فرّق أمره من تعبير كنائى بلاغى ، فجمع الشمل كناية عن استجماع باله وانتظام حاله وتصريف شئونه فى اتِّزان ورويَّة ، وتفريق الأمر والشمل ضد ذلك .

وإذا ساغ لنا أن نضيف إلى بيان الرضى للعناصر الهامة للحديث شيئا ، فإنا نقول : إن الحديث لم يرد بما ذكر الإخبار عن طائفتين من الناس بأن إحداهما كانت نيتها فيما تعمله الآخرة فجمع الله شملها والثانية كانت نيتها الدنيا ففرق الله شملها ، وإنما أراد الحديث الترغيب فى سلوك الطائفة الأولى والزجر والتخويف من سلوك الطائفة الأخرى ، فهو خبر فى معنى الإرشاد والنهى كالأسلوب المتبع فى أكثر أحاديث الوعظ والتذكير ، فالمقصود بالحديث تنبيه المسلم إلى الاقتصاد فى العمل للدنيا فلا يرخى زمام نفسه فتغرق فى العدو فى هذا السبيل ، فانه من فعل ذلك انطلقت به إلى غير حد ، ويعينه على ذلك أن يستذكر الآخرة فيما ينتوى أن يعمله بمعنى أن يذكر أن عمل الدنيا هو وسيلة وعون على العمل للآخرة ، فيأكل ويشرب ويلبس ويسكن بمقدار ما يحفظ جسمه وعقله وذهنه ليستطيع القيام بعمل الآخرة ، فإنه إن نوى ذلك وعزم عليه اطمأنت نفسه وشعر بالغنى فى قلبه وانتظم حاله وقرَّ باله وعاش راضيا سعيدا لا يأسى على فائت لأنه يعلم أن ما قدر له فسوف يأتيه والقانع الراضى يرى القليل من فضل الله كثيرا فيقبل عليه فى كل حال بالشكر والحمد ، أما من جعل الدنيا همه فلا يفكر إلا فيها ولا يعمل إلا لها ويتمثل له الفقر فى كل لحظة فهو بائس مشتت الفكر والخاطر فى الاحتياط من الفقر يعمل ولا يفتر ويجمع ولا يشبع

وقد وعد الله من يذكرهُ فى عمله ويراقبه فى تصرفه أن يجزيه بأمور ، وعده أن يجعل غناه فى قلبه فيعيش قانعا راضيا بما قدر له . فلا يأسف على ما فاته ، ووعده أن يجمع شمله . أى يجمع خاطره وفكره فلا يتشوش ولا يضطرب فى تصرفه يعدو هنا وهناك حرصا

على تحقيق ما يطمع فيه . ووعده أن يكون معه فى سعيه بالتوفيق والعون والتسديد ويحقق رجاءه باسرع مما يتوقع ووعده ان يرضى عنه المؤمنين فيألفوه ويتوددوا إليه وينقادوا له فيما يحبه ويحبه الله وتلك نعمة لا يقدرها إلا من حرم منها . ووعد العاملين للدنيا والمشتغلين بها عن الله بفقر النفس وتفريق الشمل وبغض الناس وذلك هو الشقاء المقيم .

غنىُ النفس ما عمرت غنىٌ وفقر النفس ما عمرت شقاء

وبعد فانى استعيذ بما استعاذ به سيدنا رسول الله فأقول : أللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها .

مساجد الله — لله

عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده : ان رسول الله ﷺ . نهى عن الشراء والبيع فى المساجد . وان ينشد فيه ضالة . وان ينشد فيه شعرا ونهى عن الحلق قبل الصلاة يوم الجمعة . اخرجه الترمذى والنسائى وعن بريدة رضى الله عنه : ان رجلا نشد ى المسجد فقال . من دعا الى الجمل الاحمر فقال رسول الله ﷺ : لا وجدت انما بنيت المساجد لما بنيت له . اخرجه مسلم .

قال عز من قائل : « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . وقال سبحانه : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين » . وقال جل ثناؤه : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أحب البلاد إلى الله مساجدها ، وابغض البلاد الى الله أسواقها . وممن وعدهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، — رجل تعلق قلبه بالمساجد .

إن المساجد بقاع مباركة اختارها الله وشرفها بالإضافة اليه وجعلها رحابا لمناجاته وتسبيحه وذكره ومقامات لسؤاله والتضرع إليه والأنس فى الخلوة به ، فيها تطمئن القلوب وتنشرح الصدور . وتنفرج الهموم ، وتزول الكروب ، هى بيوت الله والمعتصم بها والملتجئ اليها طامع فى كرمه ، وهيهات أن يخيب له رجاء ويحرم من عطاء فهو واسع الكرم جزيل العطاء ، واذا كان للبيوت حرمات وكرامات يجب أن تصان وتحترم ، فبيوت الله أحق

البيوت بالصون والاحترام والإجلال ، فالله أغير من كل غيور ، ولمنزلة المساجد عند الله وجلال رسالتها حرص الاسلام على تقديسها وتوفير المهابة لها حتى يحس القاصد إليها أنه قاصد بقعة مباركة من بقاع الأرض ذات جو روحى خاص تتخلى فيه النفس عن هموم الدنيا وشواغل الحياة للتفرغ لما قصدت إليه من العبادة والمناجاة .

ولقد حرص الإسلام بوصاياه وتعاليمه أن يوفر للمسجد جوه الدينى الخالص ليجتمع للمصلى باله وخاطره وسمعه وبصره ، فيقيم صلاته كاملة الأركان مستوفية ما ينبغى لها من خشوع واطمئنان ، والأحاديث فى ذلك كثيرة تضمنت الأوامر بما ينبغى لها من الاحترام والنواهى عما يمس منها جانب الرعاية والتقدير ، وفى هذا الحديث جملة من النواهى فى هذا الشأن وأول تلك النواهى ، النهى عن البيع والشراء والحديث فيهما فى المساجد ، لأن المساجد ليست أسواقا للبيع وليست مجالا للحديث فيه ، والبيع والشراء والحديث فيهما يشوِّش على المصلين وربما يلفت أذهانهم إلى التفكير فى أشياء لم تكن لهم على بال فينال من الاطمئنان فى صلاتهم كما أن فى البيع والشراء تضييقا على المصلين وتقذيرا للمساجد بنفايات السلع وبقاياها ، ولا يليق ذلك ببيوت الناس فضلا عن بيوت الله ، ومن الأمور التى نهى عنها النبى ﷺ أن ينشد الإنسان ضالة فيها – والضالة هى الأشياء التى فقدها صاحبها لنسيان أو زحام سواء كانت عينا أم نقدا أو طيرا أو بهيمة « أو نحو ذلك مما يمتلك وله قيمة ويتأثر صاحبه بفقده ، ونشْدها طلبها فى مظان وجودها ، ونشدها فى المسجد شغل له بما لا ينبغى أن يشغل به ، وقد غضب النبى غضبا شديدا حين سمع بعض الناس ينشد ضالته فى المسجد . قال داعيا عليه : لا وجدتها انكارا عليه وزجرا له ولغيره . وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك ، ومما جاء النهى عنه فى الحديث ؛ إنشاد الشعر فى المسجد وقد رأى بعض العلماء انشاد الشعر فى المسجد ايا كان موضوعه وغرضه عملا بعموم النهى فى الحديث ورأى آخرون : أن النهى فى الحديث خاص بالنهى عن الشعر الذى يعالج الموضوعات التى تنافى المروءة ولا تليق بأماكن العبادة كالهجاء والغزل المكشوف الفاحش ونحو ذلك من الأغراض ، أما الأشعار التى تعالج الموضوعات الجادة التى تحض على مكارم الأخلاق وتدعو إلى الجهاد والدفاع عن الأوطان فلا بأس بانشادها فيه كما كان يفعل الصحابى الجليل حسان بن ثابت رضى الله عنه فى دفاعه عن المسلمين بشعره لأول العهد الاسلامى ، فقد كان ينشد ورسول الله يشجعه

ويقول : اهجهم - يعنى المشركين - وروح القدس معك .

وفى الحديث ؛ النهى عن التجمع والجلوس حلقات يوم الجمعة حتى لا يضيِّقوا على المصلين لأن المسلمين يحرصون على شهود الجمعة فربما تزدحم بهم المساجد ، ولا يخلو التجمع عادة من الانزلاق بالحديث فيما لا يعنى ولا يفيد ، والإسلام يحرص فى هذه المناسبات أن يكون المناخ فيها نقيا من الانحرافات لتكون لحظاتها خالصة لله مما لا يرضاه .

هذا ما ورد فى الحديث من الأمور التى يجب أن تصان منها المساجد ، وورد فى أحاديث أخرى النهى عن أمور غير هذه لمثل هذا الغرض فقد جاء فى بعض الأحاديث النهى عن ادخال الصبيان الصغار فى المساجد احتياطا من الأقذار التى لا يتحرزون عنها فقد جاء فى حديث : جنبوا مساجدكم صبيانكم ، وما كرهه العلماء السؤال والاستجداء فى المساجد كما كرهوا أن تقام فيها الحدود والتعازير خشية تلويثها بالأقذار والدماء التى يحتمل وقوعها فى هذه المناسبات وللعلماء مؤلفات خاصة فى أحكام المساجد تدور كلها حول تهيئتها لأداء رسالتها الدينية وتوفير ما يجب لها من الوقار والصيانة والنظافة حتى تمتلئ قلوب روادها بالمهابة وتستجمع نفوسهم لمناجاة من يريدون مناجاته .

وفى ضوء ما ذكرنا من الأحاديث وأقوال العلماء يمكن تقييم الدعوة إلى تطوير رسالة المساجد وتوسيعها بتلك الدعوة التى لا شك فى حسن نوايا القائمين بها والداعين اليها ، فمما يدعون اليه - وقد تحقق بعضه مع الأسف - أن تلحق بها المستوصفات ولساحات الرياضية والمكتبات وبعض المدارس ، بل تطرف بعضهم فدعا إلى أن تكون أماكن للقضاء والحكم والفصل فى الخصومات ، ولا شك أن هذه دعوة جافاها الصواب . وغفل القائمون بها عن رسالة المسجد ، ولو تحقق ما يدعون اليه انقلبت المساجد بما يلحق بها أسواقا تتخطف الأبواق والأجراس وأصوات الجماهير المتجمعة حولها أذهان المصلين وقلوبهم وتفسد عليهم مناجاتهم وصلواتهم ، ولعلنا نعانى بعض ذلك الآن فى المساجد التى أخذت بهذا التطور ، إنا اذ ندعو بما دعا اليه النبى ﷺ - وهو أن تكون المساجد لما بنيت له يعنى خالصة للعبادة مجردة من كل ما ينال من هيبتها * لا نغفل عما ورد فى الآثار من أن الرسول قد حكم فيها وكان يعلِّم منها الصحابة وأنه كان يدعو فيها إلى الجهاد ونحو ذلك * ولكنا نقول إن ذلك كان ضرورة مؤقتة لعدم توافر الأمكنة لهذه الشئون فى أول العهد الإسلامى بدليل أن المساجد بعد ذلك لم تكن مقار دائمة لهذه الشئون ، وإلحاق المدارس ببعض المساجد بمصر كان ابتداعا مملوكيا لم يتحر القائمون به آراء من سلف من العلماء .

إن الحديث فى هذ الموضوع مجال لاختلاف وجهات النظر ، وكل ما أرجوه أن يعاد النظر فى فكرة تطوير المساجد وتوسيع وظائفها وتقدير ما يترتب على ذلك مما لا يناسب جلال المساجد وسمو رسالتها ونجعلها كما قال رسول الله : «إنما المساجد لما بنيت له» والله الهادى إلى سواء السبيل.

أبو الوفا المراغى

رُوِىَ عَنْ سَيِّدِنا أَبِى بكْرٍ رَضِىَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : «سُبْحَان مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِلْخَلْقِ طَرِيقاً إِلَى مَعْرِفَتِهِ إلاَّ بالْعَجزِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ . .»

وَيَقُولُ أَحَدُ الصُّوفِيَّةِ : «سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الإِقْرَارَ بِالْعَجْزِ عَنْ إِدْرَاكِ مَعْرِفَتِهِ إيماناً ، كَمْا جَعَل إِقْرَارَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بالْعَجْزِ عَنْ إِدْرَاكِ شُكْرِهِ شُكْراً . .»

مدخل إلى الشخصية الإسلامية

للأستاذ طه محمد كسبه

« الشخصية » . . وماذا تعنى ؟

اختلف الكتاب والفلاسفة فى تعريف الشخصية ، مثلما اختلفوا فى كثير من الأمور والقضايا ، ومن ثم فإننا فى بحثنا لم نعثر على تعريف واحد جامع لهذه الكلمة ، بل إننا لم نجد دراسة وافية شاملة حول الشخصية ، تحدد ماهيتها وأبعادها ومكوناتها وأنماطها ، وغير ذلك من جوانب الشخصية العديدة ، ولذا فإننا – نلمح مع ذلك – تعدد هذه التعريفات ، وتنوع الأفكار والآراء التى تناولتها .

فهناك من التعريفات التى تركز اهتمامها على السلوك الخارجى للإنسان وبما يقوم به فى إطاره الخارجى الواضح للعيان ، وبما يحدثه من تأثير فى الآخرين ممن يحيطون به ، كما أن هناك من التعريفات التى تولى اهتماما كبيرا بالتكوين الداخلى والظواهر الداخلية للشخصية والتى تتمثل فى مدركات الفرد واتجاهاته وقيمه ودوافعه وغير ذلك من السمات الداخلية التى قد لا تظهر فى سلوك مباشر ظاهر للفرد أمام العيان .

وعليه فإن الشخصية قد تعنى مجموعة الصفات والمزايا الذاتية والصفات العقلية والخلقية والجسدية والإرادية التى يتوج بها الإنسان نفسه وتميزه عن غيره من بنى الإنسان وهى فى – مجملها – تشير دائما إلى نشاط الإنسان كله أو إلى وجهات من التكامل ، تميز الفرد عن قرينه ، كما أنها قد تعنى التنظيم الفريد للأفكار والمعتقدات والاتجاهات والقيم والعادات التى نظمها الفرد فى شكل أدوار ومراكز يستغلها فى تفاعله مع الغير ومع نفسه .

وبما أن مجال بحثنا هنا فى شخصية المجتمع ، فإنا نقول إن هذه التعريفات تنطبق على أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، فشخصية أى مجتمع إنما هى مجموع الصفات العقلية والخلقية والإرادية والجسمية ، أى أنها مجموع الصفات والمميزات الذاتية التى يتوج بها المجتمع نفسه ، وتميزه عن غيره من المجتمعات البشرية الأخرى .

والشخصية كما نرى ، لها أصل اجتماعى وعمق تاريخى وبعد زمنى ، والشخصية لها ارتباط بمكان ، كما أن فيها يكمن معنى الحياة وقيمة الإنسان والمجتمع ، والشخصية بعد هذا كله إنما هى ثمرة الحضارة تتمثل فيها شخصية المجموع وشخصية الفرد ، ومن هنا كانت أزمة الشخصية اليوم- أىّ شخصية - هى أزمة الحضارة العصرية التى يريد أن يقيمها إنسان القرن العشرين وأن يحياها .

كما وأن الشخصية فى النهاية ، معيار الحرية للفرد ومعيار الكرامة للمجموع ، وبغير هذه الشخصية فلا كرامة لمجموع ولا حرية لفرد فى أى مجتمع ، على أن شخصية أى فرد وشخصية أى مجتمع ليست صفة جامدة إلا فى الجسم الميت أما فى الجسم الحى أو الجسم القابل للحياة فهى صفة متحركة متطورة تبعا لما تتلقاه من غذاء ومن تأثير الأحداث والتجارب والخبرة والمعارف وغير ذلك ، فالشخصية متجددة طالما هى متحركة ونشطة وهذا بالضبط بعض ما كانت تتسم به الشخصية الإسلامية إلى عهد قريب .

« الشخصية الإسلامية » . . وكيف تكون ؟

لقد «عالج الإسلام أعمال الإنسان الصادرة عن حاجاته العضوية وغرائزه بالأحكام الشرعية المنبثقة عن هذه العقيدة نفسها معالجة صادقة تنظم الغرائز ولا تكبتها ، وتنسقها ولا تطلقها ، وعلى هذا نجد أن الإسلام يكوِّن الشخصية الإسلامية بالعقيدة الإسلامية ، فبها تتكون عقليته وبها نفسها تتكون نفسيته ، إن جعل الإسلام مقياساً لجميع الأفكار عملياً وواقعياً يجعل عند الإنسان عقلية إسلامية ونفسية إسلامية ، وهُما اللتان تجعلان ميولها كلها على أساس الإسلام فيكون الإنسان حينئذ بهذه العقلية وهذه النفسية شخصية إسلامية بغض النظر عن كونه عالماً أو جاهلاً ، لأن كل من يفكر على أساس الإسلام ويجعل هواه تبعاً للإسلام يكون شخصية إسلامية .

« والإسلام جاء ليطبق عمليا وهو واقعى أى يعالج واقعا لا يصعب تطبيقه ، وفى متناول كل إنسان مهما بلغ تفكيره من الضعف ومهما بلغت غرائزه وحاجاته العضوية من القوة ، فإنه يمكن له أن يطبق الإسلام على نفسه بسهولة ويسر ، المسلم عندما يطبق الإسلام على نفسه يصبح شخصية إسلامية ، ويصبح مؤهلا للجندية والقيادة فى آن واحد ، جامعا بين الرحمة والشدة ، والزهد والنعيم ، يفهم الحياة فهما صحيحا فيستولى على الحياة الدنيا بحقها ، وينال الآخرة بالسعى لها ، ولذا لا تغلب عَلَيْهِ صفة من صفات عباد

الدنيا ولا يأخذه الهوس الدينى ولا التقشف الهندى ، وفى الوقت الذى يكون سريّا يكون متواضعا ويجمع بين الامارة والفقه ، وبين التجارة والسياسة ، وأسمى صفة من صفاته « انه عبد الله تعالى خالقه وبارئه »(١).

هكذا هى الشخصية الإسلامية ، لا تعدو أن تكون إلا عبدا من عباد الله تأتمر بأمره ، وتنتهى عما ينهى عنه ، وهى لذلك فى حاجة دائما الى التربية وإلى التنمية ، وعليه فإنا نجد أن الشخصية الإسلامية – الحقيقية – شخصية قوية ، وهذه الشخصية بالذات كانت دائما محور رسالة الإسلام «وبالنسبة للإسلام بالذات الذى يهمنا معرفة موقفه من تربية وتنمية الشخصية القوية ، فإننا لا نعتقد أن هناك أى دين آخر أو فلسفة أو نزعة من النزعات الدينية والتربوية والسياسية التى سادت العالم قديما أو تسوده فى الوقت الحاضر قد اهتمت بتنمية الشخصية الإنسانية نموا شاملا متكاملا ، وهيأت لهذا النمو كافة الظروف والعوامل المساعدة عليه ، وأزالت من طريقه كل الحواجز والعقبات مثل ما اهتم وفعل الإسلام الذى جاء يربى الإنسان ويهديه إلى التَّى هى أقوم ، ويرفع من شأن كرامته وعقله وحريته وحقه فى العدل والمساواة والأمن والاطمئنان ، ويجعل صلاح الفرد شرطا وخطوة نحو صلاح المجتمع وصلاح الباطن شرطا لصلاح الظاهر ، والإيمان شرطا لصلاح العمل والعمل الصالح شرطا لتمام الايمان ويوفق بين مطالب المادة ومطالب الروح ويستجيب للحاجات الإنسانية الضرورية ، ويدعو الى الإيمان بالله والثقة به والأمل فيه والتوكل عليه والرضا بقضائه وقدره والى الصبر والحلم والشجاعة والقوة وقوة العزيمة وضبط النفس وكتم الغيظ والهدوء والرزانة والمرونة والشفقة والرحمة والمروءة والشهامة وعلو الهمة والقناعة والبشاشة والحشمة والوقار ، وينفر من الكفر والنفاق والوهن واليأس والتواكل والتكلف وخشونة الطبع والتكبر والتجبر والغرور والضجر والضعف والاستهتار والاستسلام للأهواء والتنطع والجمود والأنانية والطمع ، ذلك أن الدين الاسلامى بتأكيده ودعوته إلى هذه المبادئ والفضائل وتنفيره من أضدادها قد يسر السَّبِيلَ أمام بناء شخصية قوية ناجحة » وبناء مجتمع قوى ناجح(٢).

وهكذا هو المجتمع – الذى يعنينا فى هذا المقام بالدرجة الأولى – يصبح مجتمعا إسلاميا ، أو تصبح له شخصية إسلامية بقدر ما يطبق الإسلام على نفسه ، ويتمشى مع

---

(١) الثقافة والثقافة الإسلامية ص ١٤ الأستاذ/سميح عاطف الزين

(٢) من بحث للدكتور عمر التومى الشيبانى بمجلة الثقافة العربية عدد يناير ٧٧ ص ٥٨ .

طبيعته ، فحين يصبح أبناء هذا المجتمع عِباداً لله فهم مسلمون وشخصيتهم إسلامية العقيدة والسلوك وبقدر ما يصبح هذا المجتمع إسلاميا ذو شخصية إسلامية بقدر ما يعمل بشريعة الله وبتعاليم دينه الحنيف .

مكونات هذه الشخصية :

ونحن إذا ما تفرسنا فى ملامح هذه الشخصية ، وإذا ما واصلنا البحث فى مكوناتها ومقومات تركيبها نجد أنها تتميز بالعديد من الخصائص التى تميزها عن غيرها من التراكيب العقائدية والسلوكية والاجتماعية ، بمعنى أنها تنفرد بخصائص معينة قد لا تتوافر– بعينها– لغيرها من الشخصيات ، وعليه فيمكن القول بأن الشخصية الإسلامية تتميز بأنها :

إسلامية الإيمان :

أى أنها تؤمن إيمانا كاملا بمكونات العقيدة فى الإسلام لا تحيد عنه ولا تنحرف ، لا تشط ولا تفرط ، فهى ملتزمة التزاما كاملا بأشراط هذا الإيمان الذى نص عليه القرآن الكريم وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولقد جاء فى الأثر الكريم حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما رواه مسلم من حديث جبريل أن رسول الله ﷺ لما سئل عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » .

وكلمة الإيمان يفهم منها معنى الأمن ، وهو شعور قلبى بالطمأنينة والثقة والسكينة وارتياح بأن ما يعتقده حق وصدق ، « والإيمان بالله من هذا القبيل إذ هو التصديق بوجوده الذى لم يُسْبق بعدم ولا ينتهى بعدم ، وبكل ما يليق به من صفات الكمال والجمال والجلال وبكل ما أنزله من كتب ومن أرسله من رسل ، عن دليل قوى يطمئن إليه القلب والعقل ويرتاح له الشعور والضمير وينعقد عليه العزم والتفكير ، ومن ثم نرى إن مجرد التصديق بالعقل لا يكفى فى تحقيق معنى الإيمان وإنما يتحقق معنى الإيمان حين تحتل العقيدة مكانها من قرارة النفس والضمير ويصحبها الاطمئنان إليها والحرص عليها والعمل بمقتضاها والسير على هداها »[1].

والإيمان الذى نعنيه ليس قولا ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده ، ولا آيات من . .

(١) الدين عند الله ص ٧٤ الأستاذ/عبد الرحيم فودة

القرآن الكريم تكفى فى مقام الاستشهاد بالارتباط بالإسلام كما أنه ليس نصائح يوردها الناصح لغيره من الناس ، ولا معرفة بالدين تلقن لمن لا يعرفها ، ولا وظيفة خاصة يتعيش منها محترف ، ولكنه إيمان سلوك وتصرف ، كما أنه إيمان عقيدة وعبادة وتصوف .

وعليه فإن مكونات العقيدة هذه والذى يشتمل عليها الإيمان فى الإسلام تتكون من ستة عناصر هى :

- الإيمان بالله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .
- وملائكته (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من العالمين) .
- وكتبه (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنو بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) .
- ورسله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) .
- واليوم الآخر (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) .
- والقدر خيره وشره (يا غلام : إنى أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[١] .

- إسلامية السلوك : (العبادات) :

وفى هذا تلتزم الشخصية الإسلامية ببيان هذا السلوك الذى حدده القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، بحيث يصبح هذا البيان دستور حياة يلتزم به التزاما يتمشى مع واقع الحياة

---

(١) رواه الترمذى عن أبى عباس عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

الاسلامية المنشودة وفلسفتها وغايتها ومنهجها القويم . ولكى « تظل النفس البشرية على المستوى المرضى من الاتزان والاعتدال مع ذاتها ومع غيرها فرض الإسلام الوانا من العبادات (السلوك الاسلامى) بها تبقى العقيدة حية ويبقى الاتزان النفسى متجددا فى كيان الإنسان فلا تلتوى السبل ولا تتوزع نفسه على مختلف المسالك بل ينبعث سلوكه فى شتى جوانب التعامل وفق المنهج المرضى الذى شرعه الله فى كتابه وسنة نبيه ، فالعبادات للمسلم مذكِّر ومنبِّه ، تظهر فى أعماقه الاحساس إذا غفا ، وتنبه منه الشعور إذا فتر ، وتنمى فى الوجدان تطلعه إلى الخير والمزيد منه وتتسامى به وتحرره من عبودية الشهوات والأهواء » (١).

– فالصلاة : اتصال دائم بالله يعصم المسلم من التردى فى مهاوى الفحشاء ويمنعه من استجلاب سخطه تعالى باقتراف المنكر (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) .

– والزكاة : ليست مجرد حل من الحلول التى فرضها الاسلام لمشكلة الفقر والتخفيف من داء الشح ومرض الأثرة وعبادة المال (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) .

– والصوم : تربية للارادة على المقاومة والصمود وأرهاف للحس والمشاعر ، وفيه تدريب على ضبط النفس ، كما أنها تدفع النفس فى مغالبة الشهوة والانتصار عليها (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

– وحج البيت : حيث يتم ذلك اللقاء الدورى الجامع بين الحجيج القادمين من مشارق الارض ومغاربها على النقاء والطهر والأخوة المبرأة ، ففيها اجتماع وتعارف كما أن الحج فريضة تلتقى فيها الدنيا بالآخرة للعبرة والعظة (وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهن من بهيمة الأنعام) .

– إسلامية الثقافة :

هذه الثقافة التى نعنى بها مجموعة القيم والتقاليد الاجتماعية التى يتلقَّنها الفرد منذ مولده إلى حين وفاته ، كما أنها المحيط الذى يعكس حضارة إسلامية تضم ثمرات الفكر من علم وفن وقانون وأخلاق ، هذه الثقافة التى هى فى مفهومها السليم شىء يجاوز المهارة والبراعة

(١) الإسلام وبناء المجتمع الفاضل ص ٨٩ الأستاذ الدكتور/يوسف عبد الهادى الشال .

فى أى منحى من مناحى العلوم النظرية أو العلمية ، هذه الثقافة التى يمكن التعبير عنها بأنها تلك الحصيلة الطبيعية للقراءة الواعية والدراسة المستمرة لأفكار الآخرين ومشاعرهم ونظرياتهم وتجاربهم ، أى أنها أعمق من مجرد التعليم والتلقين .

هذه االثقافة وهذا العلم الذى كان الكلمة الأولى التى نزلت من القرآن الكريم حين صدع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لأمر ربه (اقرأ) تلك الكلمة التى منحت له عليه الصلاة والسلام مقاليد كل الأمور والتى كانت بداية وحى استمر ثلاثة وعشرين عاما متصلة ، والتى كانت البداية الحقيقية للثقافة الإسلامية التى تستمد أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من فعل أو قول وتقرير ، وأمر أو نهى وتوجيه أو إرشاد ، ومن التراث الإسلامى الذى خلفه المسلمون حتى الآن .

تلك الثقافة الإسلامية القرآنية المصدر ، السنية التوجيه ، التاريخية النسب ، الإسلامية الملامح والقسمات ، هذه الثقافة الإسلامية التى تتميز بأنها ثقافة إنسانية عالمية تنظر إلى الناس بمقياس واحد ، كما أنها ثقافة متدينة يمثل الدين قوامها وأساسها بالإضافة إلى أنها ثقافة إيجابية بناءة تدفع المرء والمجتمع إلى الأمام وإلى احراز التقدم والرقى فى شتى مناحى الحياة[1].

– إسلامية الخلق :

ذلك أن أول شىء يلاحظه الباحث فى الإسلام من تناسق وتكامل وشمول هو أن الإسلام عقيدة قبل أن يكون نظاما ، وأنه أخلاق قبل أن يكون تشريعا وقانونا ، ولقد ألزم الإسلام أفراد مجتمعه أن يكونوا على مستوى من حسن التعامل يكفل للعلاقات إيجابية الحياة ، « وميزة الإسلام فى هذا أنه لا يجعل من الفضائل والآداب سلعا فى سوق التجارة تعرض على مقياس الربح والخسارة ، وعليه فإن الإسلام حين يأمر بالصدق مع الناس يأمر به خلقا واجب الإلتزام أولا وبالذات يعبر عن إيمان المؤمن » . والإسلام فى كل هذا يجعل نصب عينيه بناء شخصية إسلامية قوية راسخة ، ذلك أن المجتمع لا يقدر النبوغ الذهنى إلاّ مقترنا بالأخلاق ، ولا يعترف لصاحب هذا النبوغ بقوة الشخصية إلاّ متى اكتمل فيه سلطان الأخلاق ، لا بد لكل منها من خاصة ممتازة أو ملكة نادرة أو موهوبة بارزة يجب أن نستوثق منها ونحللها ونلاحظها ونلاحظ اغراضها ، علينا أن نبرزها ونصقلها ونهيئ لها

---

(١) رأينا تلخيص فكرة مقالنا السابق المنشور بالمجلة فى عدد ربيع أول توضيحاً للفكرة ومنعاً للتكرار.

الظروف الصالحة لنموها[١].

ولعل من نافلة القول أن الإسلام قد جاء ليكمل الرسالة الخلقية للأديان السابقة عليه ، وذلك بمتابعة وتقوية القيم الخلقية واستكمالها بدقائق السولك الحسن والذوق العام ، فبعد أن جاءت المسيحية وتابعت وصايا موسى العشر خَطَا الإسلام خطوات أبعد فى توكيدها ، وباضافة كثير من التفاصيل والتشريعات ، فحين حرم الإسلام قتل الإنسان لاخيه الإنسان دعم ذلك بقواعد أكثر إنسانية ونبلا حين قال (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا[٢] ، كما أكد الإسلام تحريم الزنى والسرقة والربا وشهادة الزور ، وأضاف إلى قائمة التحريم بعض الآثام الأخرى مثل الخمر والميسر ، كما استنكر الفتنة استنكارا قويا[٣] وحرم الإسلام الرشوة والفساد[٤] وكما حرم الفضول والريبة والتشهير والغيبة والنميمة[٥] ونهى عن التجسس[٦] ودعا إلى التحقق والتثبت مما يقال[٧] وأوجب على المسلمين الإعراض عن اللغو وفضول الهذر[٨] ونهاهم عن الخيلاء والزهو[٩] ونهاهم كذلك عن التفاخر والتزام الأدب فى مجالس الرسول عليه الصلاة والسلام[١٠] كما نهى عن قهر اليتيم ونهر السائل ايًّا كان[١١] كما دعى المسلمين إلى أن يلتزموا الصِّدق والحق[١٢] وأن يردوا الأمانات إلى أصحابها[١٣] كما أمرهم بالعدل[١٤] وحثهم على الحياء والتواضع[١٥] ودعاهم إلى الطهر والعفة[١٦] وإلى احترام الوالدين وطاعتهم[١٧] وإلى الإحسان من بذل للخيرات وإعطاء للصدقات[١٨].

---

(١) المثل الأعلى للشباب المسلم ص ١٠٢ الأستاذ/أنور الجندى .

(٢) سورة المائدة آية ٣٢ .

• نظراً لكثرة الآيات التى استشهدنا بها ولضيق المساحة فضلت أن أشير إليها مستأذناً القارئ فى أن يرجع إليها فى المصحف أنى شاء .

(٣) البقرة آية ١٩٣ .

(٤) البقرة آية ١٨٨ .

(٥) الإسراء آية ٣٦ .

(٦) الحجرات آية ١٢ .

(٧) الحجرات آية ٦ .

(٨) المؤمنون آية ٣ .

(٩) النساء آية ٣٦ .

(١٠) الحجرات آية ٢ - ٥ .

(١١) الضحى آية ٩ .

(١٢) البقرة آية ٤٠ .

(١٣) النساء آية ٥٨ .

(١٤) النساء آية ١٣٥ .

(١٥) المؤمنون آية ١ - ٣ .

(١٦) النور آية ٣١ - ٣٣ .

(١٧) الأحقاف آية ١٥ .

(١٨) التوبة آية ٦٠ .

ومن الجدير بالقول أن من مكونات الشخصية الاسلامية ، بالاضافة الى ما سبق تلك المعانى والقيم والأفكار التى يمكن أن يعطيها المفهوم الاسلامى للاقتصاد والحكم والاجتماع والتشريع ، بمعنى ان الاقتصاد الاسلامى الذى يقوم على ان المال مال الله وان الناس مستخلفون فيه شرط ان يتداولوه فيما بينهم دون كنز او اخفاء ، وتكون الشورى اساس للحكم حيث تكون السيادة للشرع والسلطة للأمة ، وان يعمل الحاكم بكتاب الله متبنيا الاحكام الشرعية التى نص عليها دستور الاسلام الخالد ، كما ان من مكونات الشخصية الأسلامية ان تعمل بالنظام الاجتماعى الذى ارساه الاسلام ذلك النظام الذى يبحث فى علاقة المرأة بالرجل ، وما ينشأ بينهما من صلات وعلاقات وكذا فى مجال التشريع حين يكون تقنين الشريعة الاسلامية امرا حتميا حتى يعيش المجتمع الاسلامى فى امن وسلام ، ورخاء ورفاهية .

وعليه فانا نستطيع القول بان الشخصية الاسلامية هى تلك الشخصية التى تحددت ملامحها وسماتها باتباع ما جاء بالقرآن الكريم به من تعاليم وارشادات وتوجيهات بحيث اذا تميزت هذه الشخصية باسلامية الايمان والسلوك والثقافة والخلق ، وباسلامية النظرة والتصرف- الاقتصادية والاجتماعية وباسلامية الحكم والتشريع ، فيلزم ان ننسبها الى الاسلام .

على ان اهم معالم هذه الشخصية الاسلامية وابرزها تتركز فى النقاط التالية :

١ - الطموح : بمعنى ان الشخصية الإسلامية سواء أكانت فردا ام مجتمعا- شخصية حركية تسعى الى التقدم والرقى رغم أنف دعاة الأفكار الغربية ، ذلك أن الاسلام يقف ضد اعداء الله والانسان ، ومن هنا فان هذه الشخصية مادامت متمسكة بكتاب الله وسنة نبيه ، ساعية الى تملك أسباب القوة والنجاح ، آخذة بأسباب العلم والثقافة والفكر التى أوضحها القرآن ، فهى شخصية طموحة تسعى الى أن تحيا فى رخاء مادى ومعنوى ، جسدى وروحى على التوازى .

٢ - التكامل : بمعنى ان هذه الشخصية الاسلامية- الفرد والمجتمع - تحيا حياة متكاملة بحيث تتجاوز فيها الروح والمادة ، العقل والقلب والارادة ، والوجدان ، والفكر والعاطفة ، فطالما ان الاسلام هو جماع هذا كله ، فان الشخصية الاسلامية المؤمنة به تكون كذلك بحيث لا يطغى جانب على جانب .

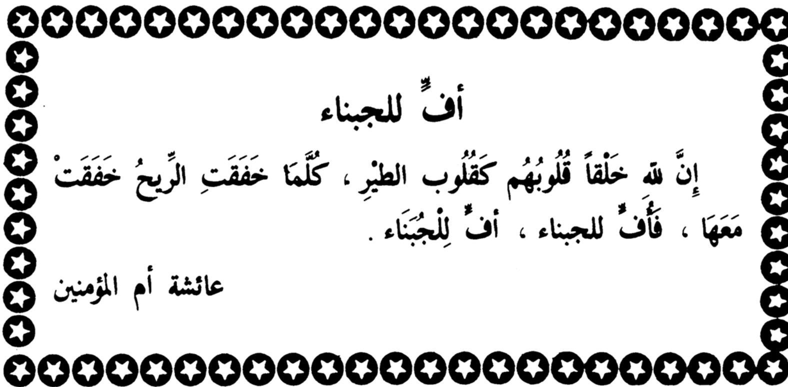
٣- الاخاء : فالمسلمون إخوة متحابون ، يعيشون فى مجتمع يحض على التعاون وعلى

المحبة بحيث يكون المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، وبحيث يكون من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة ، وحيث يصبح المسلمون المؤمنون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

٤- فعل الخيرات : وهذا المعلم تؤكده تلك الآية الكريمة التى أبرزت سمات هذا . . المجتمع القرآنى العظيم حيث أشارت الى أن العرب والأسلام والمنتسبين اليهما هم خير أمة أخرجت للناس ، وذلك لكونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولأنهم فوق ذلك مؤمنون بالله ، فدستور هذه الشخصية الاسلامية- الفرد والمجتمع - هو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بما يكفل فعل الخيرات النابع من الايمان القوى بالله وبما يعنيه هذا الايمان(١).

وأخيرا لا أملك إلا أن أدعو كل المخلصين لدينهم ووطنهم أن يحافظوا على هذه الشخصية الاسلامية ، وأن يعملوا على أن تظل لهذه الشخصية مقوماتها ، وأن يوفروا لها أسباب القوة والمنعة ، حتى تكون الشخصية الاسلامية حية متجددة ، وأن تتمكن من مواجهة كل التحديات التى يصنعها أعداء الاسلام والمسلمين ، داعيا الله العلى القدير ان يوفقنا جميعا الى ما فيه خير ديننا وأمتنا . آمين .

طه محمد كسبه



(١) إشارة إلى الآية (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

مع العارفين

ميمون ابن أبى شهاب

قال ميمون : أردت الجمعة زمن الحجاج ، فتهيأت للذهاب ، ثم قلت : أذهب وأصلى خلف هذا (الحجاج) ؟ فقلت مرة أذهب ، وقلت مرة لا أذهب ، فأجمعت رأيى على الذهاب فنادانى مناد من جانب البيت : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله » . . فذهبت . وجلست مرة أكتب كتابا ، فعرض لى شئ إن انا كتبته فى كتابى زين كتابى وكنت قد كذبت ، وإن انا تركته كان فى كتابى بعض القبح وكنت قد صدقت ، فقلت مرة أكتبه ، وقلت مرة لا أكتبه ، فأجمعت رأيى على تركه ، فنادانى مناد فى جانب البيت : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . . فتركته .

هذا كل ما ذكره الأصبهانى من كلام أبى نصر ميمون بن أبى شهاب ، الفقيه المحدث الشهيد وفيه يتكشف جانب من نفسه الطيبة ، هو الجانب المبارك الذى يتميز به السالكون لهذا الطريق المشرق الى الله ، فهم دائما حتى فى دقائق اعمالهم ، يسيرون بهذا الشعاع الهادى من قلوبهم الحية العامرة ، ويستوحون المنطقة القدسية الرائقة فى نفوسهم الكبيرة : إنهم ينشدون السكينة والرضا فى كل عمل ، وفى كل حركة ، ويتقدم هذا (النشدان) فى حياتهم الروحية حتى يكون الرائد الذى يسبق حدود الفقه ويطبعها بطابعه ، وليس معنى ذلك أن يهمل أحدهم هذه الحدود أو أن يستغنى عن عملها وعن الرجوع اليها ، لا ، فأبو نصر مثلا فقيه محدث ، ولكن معنى ذلك أن فقه الفقيه منهم لم يكن حملا لاثقال من العلم يجعلها فى رأسه مبوبة مفصلة ثم يمد يده فى كل مسأله ليبحث عن حكمها . . بل كان أمرا أكبر من ذلك ، كان فقها عن الله . . يلتقى فيه الحلال المشروع بالشعور برضاء الله ، والحرام الممنوع بالشعور بغضب اللهَ ، والمشتبه بينهما بالورع الصادق الذى نصح به رسول الله ، وحين يكون الفقه هكذا فقها عن الله : يصبح مركزه الاصيل فى قلب الفقيه الحى وفى مشاعره الأمينة المرهفة ، وتصبح (اشارة المرور) لسالك هذا الدرب المضئ هى

الاشارة التى قررها لسان النبوة (استفت قلبك وان افتاك الناس وافتوك وافتوك) . .

أنه مقام جليل يستوى لأصحابه بقدر استواء نفوسهم ورسوخ ما بينهم وبين الله . . ونجهد أنفسنا لبلوغه على قدر ما نطيق ، معتمدين فى كل مراحل طريقنا اليه على شريعة الله الواضحة فى السراجين الخالدين : كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

وإذا استبان ذلك وأنست النفس اليه ، فلا بأس أن يكون مراد أبى نصر من قوله : (فنادانى مناد من جانب البيت) أنه تلقى الهاتف من نفسه المؤمنه الموصولة ببيت الله الحرام . . أليس هذا البيت هو المركز الذى اختاره الله من كل جوانب الأرض ليتجه اليه العابدون ركعا سجدا ؟ أوليس عنده يطوف الطائفون ولا يحل لهم طواف عند سواه ؟ أو ليس هو البيت الذى خصه الله - فى القرآن بالنسبة اليه :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ؟ أو من عجب إذاً أن ينسب أبو نصر هاتف ايمانه بالله الى جهة البيت الحرام الذى يتجه اليه ويتمثله كلما وجه لله وقال : « الله أكبر » .

* * *

وقد أسند ميمون عن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ ، والمقداد . وابن ذر ، وابن عباس ، وعمار ، والمغيرة بن شعبة ، وسمرة بن جندب ، وعائشة، رضى الله عنهم أجمعين ، ومما رواه عن معاذ : (بعثنى رسول الله ﷺ الى اليمن فلم يزل يوصينى حتى آخر ما أوصانى قال : عليك بحسن الخلق فان أحسن الناس خلقا أحسنهم دينا) . .

* * *

ومما رواه كذلك عن معاذ : (خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فرأيت منه خلوة فاغتنمتها ، فأوضعت بعيرى نحوه حتى سايرته فقلت يا رسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة . قال : (قد سألت عظيما وإنه ليسيرٌ على من يسره الله تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان) ثم سار وسرت ، فقال : (وان شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل) ثم قرأ (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ثم سار وسرت ، ثم قال : (ألا أنبئك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه : الجهاد فى سبيل الله) ثم سار وسرت فقال : (إن شئت أنبأتك بما هو أملك على الناس من ذلك كله) فكانت منه سكتة ، وكانت منى

التفاتة ، فرأيت راكبا يوضع نحوه ، فخشيت أن يأتيه فيشغله عنى ، فأومأ الى لسانه وفيه ، قلت : يا رسول الله : وإنا لنؤاخذ بما نتكلم ؟ قال : (ثكلتك امك يا ابن جبل . . ما تقول الا لك أو عليك . . وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم الا حصائد السنتهم ؟ . .)

ومما رواه عن المقداد ، قال : (جاء رجل يثنى على عامل لعثمان عند المقداد ، فحثا المقداد فى وجهه التراب وقال : (ان رسول الله ﷺ قال : (إذا رأيتم المداحين فاحثو فى وجوههم التراب) . ومما رواه عن عمار بن ياسر قال: (قال رسول الله ﷺ من ضرب مملوكه ظالما أقيد منه يوم القيامة) .

ومما رواه عن عائشة : (انها كانت فى سفر ، فأمرت لناس من قريش بغداء فمر رجل غنى ذو هيئة فقالت : ادعوه فنزل فأكل ومضى . . وجاء سائل فأمرت له بكسرة ؟ فقالوا لها أمرتينا أن ندعو هذا الغنى وأمرت لهذا السائل بكسرة ؟ فقالت : إن هذا الغنى لم يحمل بنا الا ما صنعنا به ، وان هذا السائل سأل فأمرت له بما أرضاه وان رسول الله ﷺ أمرنا أن ننزل الناس منازلهم) .

رضى الله عن أبى نصر وأرضاه

المصيبة هينه

قالوا : «كُلُّ شَيْءٍ يبدو صغيراً ثُمَّ يَعْظُمْ ، إلاَّ المصيبة ، فإنَّها تَبْدُو عَظِيمَةً ثُمَّ تَصْغُر» .

أخطاء شائعة

الأستاذ عباس أبو السعود

٢٧٥ – ويعتقدون خطأ أن الدابة خاصة بالمؤنث غير العاقل ، وأنه لا يجوز أن تطلق على المذكر ولا على العاقل .

والحق أنها اسم لما دب على الأرض من الحيوان عاقلا كان او غير عاقل ، ومذكراً كان أو مؤنثا ، قال تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يشمى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع » ولما كان ذلك لمن يعقل ولما لا يعقل « قيل فمنهم » ، ولو كان لما لا يعقل فقط لقيل فمنها أو فمنهن .

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه قوله سبحانه « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » أى من الإنس والجن ، وقوله « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . . فذِكر كلمة الناس والفعل كسبوا متصلا بواو الجماعة فى الآية الأولى ، وذكر الذين وواو الجماعة فى الآية الثانية كل أولئك يشير إلى أن الدابة يجوز إطلاقها على المذكر العاقل ، ولما قال الخوارج لقطرىّ : أخرج إلينا يا دابة فأمرهم بالاستغفار ، تلوا هذه الآيات حجة عليه ، ونظير ذلك من المحمول على المعنى قولهم للخروف هذا شاة ، قال الخليل ومثله قول الله جل شأنه : هذا رحمة من ربى .

٢٧٦ – ويقولون : لهذا الرجل شَنَب طويل ، يعنون الشعر الذى يسيل على فمه ، وهذا خطأ لأن للشنب مَعْنىً لا صلة له بمعناهم هذا ، فهو ماء ورِقَّة وعذوبة فى الأسنان تقول : ثغر أشنب وفيه شَنَب أى رقة وصفاء وبرد ، وكذلك هو حدة الأنياب تراها كالمنشار .

ويقال : شنِب يومنا من باب فرح إذا برُد فهو شانب وشَنِب ، والمشانب هى الأفواه الطيبة .

والفصيح أن يقال : لهذا الرجل شاربٌ طويل ، جمعه شوارب ، والشوارب أيضا عروق فى الحلقوم ، ولذا يقال لمنكَر الصوت : صَخِب الشوارب تشبيها له بالحمار – قال أبو ذؤيب .

صَخِب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبى ربيعة مُسبَعُ[١]

٢٧٧ – وينكرون أن يقال . فاطمة أدت الامتحان وكانت من الفائزين ، ويصرون على أنه ينبغى أن يقال : وكانت من الفائزات .

وها هم أولاء قد نسوا أن التذكير هنا للتغليب ، وللإشعار بأن مهارة هذه الفتاة لم تكن أقل من مهارة الفتيان الكاملين .

ويؤيد صحة ما رأينا قوله جل شأنه فى محكم كتابه «وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين» وقوله «يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» .

٢٧٨ – ويقولون : حضر الفضلاء ، وهذا خطأ لأن كلمة فضيل لم ترد فى العربية حتى تجمع على فضلاء ، والصواب أن يقال : حضر الأفاضل جمع أفضل ، كما يجمع أقرب على أقارب ، وأمثل على أماثل ، وأمثلُ القوم أدناهم الى الخير ، وفى التنزيل «إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما» وأماثل القوم خيارهم وكما يجمع أرذل على أراذل ، والأراذل الأخساء ، قال تعالى «وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا» ، وكما جمع أكبر على أكابر فى قوله تعالى «وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها» .

ولك أن تجمع الأفضل جمع مذكر سالما فتقول حضر الأفضلون ، كما جمع أقرب هذا الجمع فى قوله تعالى «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» ، وكما جمع الأرذل فى قوله «قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون» وكما جمع الأخسر فى قوله سبحانه «لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون» وقوله «وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين» .

٢٧٩ – ويقولون : كان غداؤنا اليوم عددا من الكوارع ، وهذا فاسد ، والصواب أن يقال : كان غداؤنا اليوم عددا من الأكْرُع أو من الأكارع ، الواحد كُراع وزان غراب ، يذكر ويؤنث ، وهى ما دون الكعب من الدواب ، وما دون الركبة من الأناسى ، قال :

يا نفسُ لن تُراعى إذا قطعت كُراعى إن معى ذراعى .

وقال آخر :

فظلت تكوس[٢] على أكرع ثلاثٍ وكان لها رابع

وفى المثل «أُعْطِىَ – العبد كراعا فطلب ذراعا» لأن الذراع فى اليد وهو أفضل من الكراع فى الرجل ، ولذا يقال للسِّفلة من الناس أكارع تشبيها بأكارع الدواب لأنها أسافل .

(١) المُسبَع : من فى العبودية إلى سبعة آباء .

(٢) تكوس : تمشى على ثلاث قوائم .

وللكُراع فوق ذلك معنيان : أحدهما طرف الشيء ، تقول : امش فى كُراع الطريق أى فى طرفه ومن ذلك قولك : تكرّع فلان إذا توضأ للصلاة لأنه أمرَّ الماء على أكارعه أى أطرافه ، وعن النخعى قوله : كانوا يكرهون الطلب فى أكارع الأرض أى فى أطرافها ، ومن ذلك أيضا قولهم : نزا الجُندُب بكراعيه أى وثب برجليه قال :

ونفى الجندب الحصى بكراعـ ـيه وأوفى عوده الحرباء

والآخر : أنه اسم خاص بالخيل ، تقول : احبسْ الكراع فى سبيل الله أى الخيل ، أما الكوارع فكلمة عربية سليمة بيد أن لها معنى لا صلة له بالأكارع ، هو أنه جمع كارعة وهى النخلة التى تشرب بعروقها تقول : نخل كوارِع وكارعات إذا شربت بعروقها لقربها من الماء ، قال النابغة :

وتسقى إذا ما شئت غير مصَرَّد[1] بصهباء[2] فى حافاتها المسك كارعُ

٢٨٠ – وينكرون أن تجمع كلمة الخَضْراء بمعنى الخُضَر على خضراوات جمع مؤنث سالما ، ويصرون على أنها لا تجمع إلا جمع تكسير على خُضْر مستأنسين بقوله تعالى « ويلبسون ثيابا خضرا » والحق أنها لا تجمع إلا على خضراوات .

وبيان ذلك أن ما يجمع على فُعْل لابد أن يكون صفة على أفعل ومؤنثة فعلاء . وخضراء هنا ليست مؤنثة أفعل فى الصفات ، وإنما هى اسم للخُضَر والبقول ، وفى الحديث « تجنبوا من خضرائكم ذوات الريح » يعنى الثوم والبصل والكراث ونحوها ومتى فُقدت الوصفية تعينت الأسمية بالغلبة ، ولهذا قال النبى ﷺ « ليس فى الخضراوات صدقة » يعنى الفاكهة الرطبة والبقول .

وإنما يجمع هذا الجمع ما كان اسما لا صفة ، والعرب سمت هذه البقول بالخضراء ولا تريد لونها ، قال ابن سِيدَه : جمعت الخضراء جمع الاسماء كورقاء وورقاوات ومما يؤيد ما ذهبنا اليه من أن الخضراء قد تكون اسما أن العرب سمت السماء بالخضراء وفى الحديث « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء[3] أصدق لهجة من أبى ذر » وأن العرب قالت : ما تحت الخضراء أصدق حديثا من محمد ﷺ ، وما تحت الخضراء أكرم من حاتم طيئ .

٢٨١ – وهم يخطئون حين يقولون: طهونا اليوم لحما ثم نضجه بعد غَلْوة واحدة ، لأن

---

(١) غير مصرد : أى لم يكن السقى قليلاً .

(٢) الصهباء : الخمر .

(٣) الغبراء : الأرض .

الغلوة اسم مرة من فعل واوى بابه عدا ، تقول : غلا يغلو غلوا بدليل جمعها على غلوات كشهوة وشهوات ومعناها رمية سهم أبعد ما يقدر عليه الرامى ، ويقال : هى ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة ، تقول غلا الصياد بسهمه إذا رمى به أقصى الغاية .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : ثم نضجه بعد غَلْية واحدة اسم مرة من فعل يائى بابه رمى .

يقال : غلت القدر تغلى غلْيا وغليانا ، قال الفراء : إذا كان الفعل فى معنى الذهاب والمجئ مضطربا فلا تهابن فى مصدره الفَعَلان ، كما فى قولك : خفق القلب خفقانا ، وفاض الماء فيضانا ، وجال السائح جولانا وفى لغة : غليت القدر تغلَى من باب تعب ، وهذا ضعيف ، قال :

ولا أقول : لقدر القوم قد غليت ولا أقول لباب الدار مغلوق

ومجيئها من باب رمى هى اللغة الفصحى ، وبها جاء الكتاب الحكيم فى قوله « كالمهل[1] يغلى فى البطون كغلى الحميم[2] » .

٢٨٢ – وقد فشا على ألسنتهم قولهم : فلان متبجِّح ، وفيه بجاحة ، يعنون أنه سيئ الأدب قليل الحياء ، بعيد من كرم الخلق ، وهذا التعبير فاسد ، لأن البَجَح بالتحريك معناه الفرح والتعظيم ، تقول : بجح فلان يبجح من باب طرب إذا فرح فهو بجح كطرب ، وباجحْ ، وبجّاح للمبالغة ، قال الجوهرى : بجح بالشئ وتبجح به إذا فرح به فهو متبجح ، وأبجحه الأمر فرّحه ، وفى حديث أم زرع « وبجحنى فبجحت أى فرحنى ففرحت » وقيل إن المعنى عظمنى فعظمت نفسى عندى ويقال : فلان باجح من قوم بجَّح أى هو عظيم من قوم عظماء ، قال رؤبة :

عليك سَيبُ الخلفاء البجّح

أى عطاء الخلفاء العظماء ، وتقول : تبجّح فلان بعلمه أو بماله إذا فخر به فهو متبجح والنساء يتباجحن فيما بينهن إذا تباهين وفخرن ، وعدت كل منهن مفاخرها وحُظوتها قال اللحيانى : يقال : فلان يتبجح ويتمَجح أى يباهى ويفخر بشئ ما ، قال الراعى :

وما الفقرُ فى أرض العشيرة ساقنا إليك ولكنا بقرباك نبجحُ

أى لم يسقنا إليك إلا رغبتنا الملحة فى السرور بالقرب منك والمباهاة بجليل فضلك

---

(١) المهل : القيح وصديد الميت .

(٢) الحميم : الماء الحار .

وعظيم خلالك ، وتقول : بجحت الشىءَ أبجحه إذا عظمتَه .

٢٨٣ - ويقولون : كتبنا هذه القصيدة فى لوحة ، وأثبتنا أسماء الفائزين فى لوحات ، والفصيح أن يقال : فى لوح كما فى قوله تعالى « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » واللوح كل صحيفة عريضة خشباً كانت أو عظماً ، جمعه ألواح كقوله سبحانه « وحملناه على ذات ألواح » .

واللوح لا يؤنث بالهاء لأنه اسم ذات ، وأسماء الذوات لا تدخلها الهاء إلا ما شذ منها ، كسبُع وسبعة ، وأسد وأسدة ، ورجل ورجلة ، وذئب وذئبة فلا يقال فى حصان حصانة ، ولا فى بعير بعيرة ، ولا فى جمل جملة ،

٢٨٤ - ويقولون : شاركه تجارته ، وشاركه عمله ، وهذا خطأ صُراح لأنهم جعلوا الفعل متعديا إلى مفعولين ، وهو لا يتعدى بنفسه إلا إلى مفعول به واحد ، أما الثانى فلا يتعدى إليه إلا بفى ، سواء أكان ثلاثيا أم مزيدا .

تقول : شرِكه فى الميراث من باب علم ، وله فيه شِرك وشَركة ، وشاركه فى التجارة ، واشتركا فيها ، وأشركه معه فى التجارة ، فكان عليهم أن يقولوا شاركه فى تجارته ، ومما يؤيد هذا الرأى قوله تعالى « وشاركهم فى الأموال والأولاد » وقوله « وأشركْه فى أمرى »

٢٨٥ - وهم يزعمون أن كلمة مصران مفردة كعنوان ، وهذا زعم باطل ، والحق أنها جمع مَصير كرغيف ورُغفان ، وكثيب وكُثبان ، والمصير وزان أمير هو المِعَى ، ويجمع على مُصران ، ثم يجمع المصران على مصارين جمعا للجمع .

٢٨٦ - ويقولون : صنع فلان عُزومة قيمة دعانا إليها بالأمس ، وهذا خطأ لأن كلمة عزومة عامية ، والفصيح أن يقال : صنع مأدبة بضم الدال وفتحها ، وهى طعام يصنع لدعوة ، تقول : أدبه يأدِبه إذا دعاه إلى طعامه كآدبه إيدابا ، وأدب يأدب أدَبا محركة إذا عمل مأدبة فهو آدب ، أو يقال : أولم وليمة ، جمعها ولائم ، ولها أنواع عدة

١ - فهى العُرس بالضم إذا كانت وليمة الإملاك والزواج ، تقول : أعرس فلان بأهله إذا بنى عليها ، وكذا إذا غشيها ، وجمع العُرس أعراس .

٢ - وهى الخُرس بالضم إذا صنعها الرجل عندما يولد له ، والخُرسة طعام النفساء والخَروس وزان صبور البكر فى أول حملها ، وهى التى تعمل لها الخرسة ، تقول خرّس الرجل على امرأته تخريسا إذا أطعم فى ولادتها ، وتخَرَّست هى إذا اتخذته لنفسها ، ومنه المثل « تخرسى يا نفس لا مخرسة لك » قالته امرأة ولدت ولم يكن لها من يُعنى بها ، ويضرب فى اعتناء الإنسان بنفسه .

٣ – وهى الإعذار والعذيرة إذا صنعها الرجل عند ختان أحد أبنائه ، تقول : كنا فى إعذار فلان وفى عذيرته ، وهو طعام الختان ، وأعذر الرجل للقوم أى عمل لهم هذا الطعام .

٤ – وهى الوكير والوكيرة إذا صنعها الرجل عند الفراغ من وكره أى بناء بيته أو شرائه قال :

كل الطعام تشتهى عميرة الخُرس والإعذار والوكيرة

٥ – وهى النقيعة وزان سفينة إذا صنعت للقادم من سفره ، وقولهم الناس نقيعة الموت مأخوذ من النقيعة التى هى ذبيحة العائد من السفر ، وفى المثل «إنه لشرّابُ بأنقع» يضرب فى المجرب ، شبهه بالطائر الذى يرد مناقع الفلوات ، ولا يرد المياه المعروفة خِيفة القَنّاص .

٦ – وهى الهضيمة إذا صنعها الرجل عند موت أحد أقاربه ، جمعها هضائم والدعوة العامة تسمى الجَفَلَى ، والخاصة تسمى النَقَرى كلتاهما بفتحتين ، قال طرفة :

نحن فى المشتاة ندعو الجَفَلَى لا ترىَ الآدابَ فينا ينتقرْ

أى لا ترى الداعى منا يدعو بعضا دون بعض ، بل يعمم بدعوته فى زمان القلة وذلك غاية فى الكرم .

٢٨٧ – وينكرون كلمة العِياط بمعنى الصُّراخ ويصرون على أنها عامية ، والصواب أنها عربية سليمة تقول : عيّط الولد تعييطاً إذا مد صوته بالصريخ ، والإسم العياط بكسر العين وللعياط معنى آخر ، تقول عاطت المرأة تعوط عياطاً كصامت تصوم صياماً إذا لم تحمل عدة سنين من غير عُقْر فهى عائط ، والجمع عُوط وزان سود ، وعِيط وزان ميل وعُيّط وزان ركع أما العَيَط بالتحريك فهو طول العنق ، فالذكر أعيط ، والأنثى عيطاء .

ومن المجاز قولك : عز أعيط أى عال رفيع ، وقصر أعيط أى مُنيف ، قال أمية :

نحن ثقيف عزنا منيعُ أعيطُ صعبُ المرتقى رفيعُ

٢٨٨ – ويقولون : نشعت الأرض ، ونشعت القِربة ، ونشع السقف ، يعنون أن الماء أنبعث من هذه الأشياء قليلاً قليلاً وكل هذه التعبيرات مشوبة بالخطإ ، لأن النشع لا صلة له بالماء وإنما له معان عدة منها .

١ – انتزاع الشئ فى عنف ، تقول : نشع الولد الكتاب من يد أخته إذا انتزعه من يدها فى شدة وعنف .

٢ – التلقين : تقول : نشع الأستاذ تلميذه الكلام المفيد إذا لقّنه إياه .

٣ – الولوع بالشئ والشغف به ، تقول : نُشِع فلان بأكل اللحم بالبناء للمجهول فهو منشوع ، أى محب له مقبل عليه .

ومن المجاز قولك : نَشَع فلان كذا ، ونَشَع بكذا بتعدية الفعل إلى المفعول الثانى بنفسه ، أو بالباء ، فمن الأول قول مُرّانِ بن مُنقذ :

إليكم يالئام الناس إنى نُشِعت العز فى أنفى نشوعاً

ومن الثانى قول عَبْدة بن الطبيب :

لا تأمنوا قوماً يشب صبيُّهم بين القوابل بالعداوة يُنشع

وقول مُغلِّس الرِبعى :

خليلىّ إنْ أصعدتما أو مررتما على أهل جَفْنَاءَ الغضا فاذكرانيا
وقولا أثيبى يا علىَّ متيَّما أخا الموت منشوعاً بذكراك عانياً

والصواب أن يؤدى المعنى الذى يريدونه بأن يقال : رشحت الأرض ، ورشحت القربة بالماء ، ورشح السقف بالماء ، وكل إناء يرشح بما فيه .

ومن المجاز قولك : أصابنى فلان بنعمة من عطائه ، ورشحة من سمائه أو يقال : نزّت الأرض نزّا بالفتح ، ونُزوزا بالضم ، أى تحلب منها النزّ ، وهو ما يتحلب من الأرض من الماء .

٢٨٩ – وينكرون استعمال كلمة فنّان للشخص المولع بالفن ، والمشغوف بأن يأتى فيه بالعجائب ، وله فيه أفانين ، معتمدين على أن معاجم اللغة لم تعرضها بهذا المعنى ، وإنما ذكرت له كلمة مِفَن وزان مِسن ومجن فقالت رجل مفن ، وأمرأة مفنة ، كما أوردت أن الفنان هو الحمار الوحشى له فنون من العدو .

والحق أن كلمة فنّان تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة مفن ، لأن الفنان له أساليب كثيرة فى فنه ، كالحمار الوحشى له طرق فى جريه ، كما أن لفظ فنان أسهل نطقاً وأكثر شيوعاً .

وقد أقر مجمع اللغة العربية أن يصاغ فعّال للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشئ ، وفنان محترف للفن وملازم له .

٢٩٠ – ويقولون : اجتمع الجند فى منطقة القتال ، وأقيم فلان مديراً للمَنْطِقة التعليمية فيخطئون فى كلمة منطقة خطأين : أحدهما أنهمْ يفتحون ميمها ، والصواب أن تكون مكسورة . والآخر أنها لا تؤدى المعنى الذى يريدونه فى هذين التعبيرين ، وذلك لأن المِنطقة بكسر الميم لم تضعها العرب إلا لتدل على ما يُنتطق به ، تقول : انتطق الولد

بالمنطقة إذا شد وسطه بمنطقة ، ونطَّقه أبوه تنطيقاً إذا ألبسه المنطقة .

فى القاموس : المِنطقة كمكنسة ما ينتطق به ، والمِنطق كمنبر ، والنِّطاق ككتاب شُقَّة تلبسها المرأة وتشد بها وسطها ، وانتطق الرجل شد وسطه بمنطقة كتنطق .

وفى اللسان : والمِنطق ، والمِنطقة ، والنِطاق بكسرهن كل ما شد الإنسان به وسطه وقيل : والمنطقة معروفة اسم لها خاصة ، تقول منه . نطَّقت الرجل تنطيقاً فتنطق أى شدها فى وسطه ، ومنه قولهم : جبل أشم مُنطّق ، لأن السحاب لا يبلغ أعلاه ، وإنما يكون كالنطاق له .

تقول : انتطق فلان بالنطاق والمنطقة ، وتنَّطق وتمنطق ، الأخيرة عن اللحيانى والنِّطاق والمِنطق بالكسر فيهما شبه إزار فيه تِكَّة تنتطق به المرأة ، وهوَ أن تلبس ثوبها ثم تشد وسطها بشئ وترفع وسط ثوبها وترسله إلى الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها .

وفى المحكم : النطاق شقة أو ثوب تلبسه المرأة ، ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الرُّكبة ، جمعه نُطُق بضمتين ككتب ، وجمع المنطق مناطق والمنطق والنطاق واحد ، كما تقول : مِئزر وإزار ، وملحف ولحاف .

تقول : انتطقت المرأة وتنطقت إذا شدت نطاقها على وسطها ، وأنشد ابن الأعرابى :

تفتالُ فى عُرض النقبة[1] المُذالةْ[2] ولم تنطِّقهـا غِلالـةْ[3]

وذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، وسميت بذلك لأنها شقت نطاقها ليلة خروج النبى ﷺ ومعه أبوها إلى الغار ، وقيل : كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتحمل فى الآخر الزاد للرسول وأبيها حين كانا فى الغار مما عرضنا من أقوال رجال اللغة استبان أن كلمة المنطقة لا تستعمل إلا مكسورة الميم ، وفيما ذكرنا ، وأنه ينبغى أن يقال : اجتمع الجند فى ميدان القتال ، وأقيم فلان مديراً للتعليم .

٢٩١ – وهم يخطئون حين يقولون للعنب الصغار الذى لا عجم[4] له (عنب بناتى) .

والفصيح أن يقال له كِشْمِش بالكسر وزان مِشْمش ، وهو نوع ألين من العنب المعروف وأقل قبضاً وأسهل خروجاً .

---

(١) النقبة بالضم : ثوب كالإزار تجعل له حجرة مصيفة .

(٢) المذالة : الأمة لأنها تهان وهى تتبختر .

(٣) الغلالة بالكسر : شعار يلبس تحت الثوب .

(٤) العجم بفتحتين : النوى من التمر والعنب والنبق ونحو ذلك واحدته بهاء .

٢٩٢ - ويقولون : تعهد فلان إلى أخيه بتقديم العون ، وهذا خطأ لأن الباء لا تستعمل مع هذا الفعل ، والصواب أن يؤدى المعنى الذى يريدونه بالفعل الثلاثى فيقال : عهد إليه بكذا يعهد عهداً من باب فهم إذا قدمه إليه ، ومن هذا قوله عز شأنه « ألم أعهد إليكم يا بنى آدام ألاّ تعبدوا الشيطان » أى بألا تعبدوه ، وقوله « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين » أى بأن طهرا .

وعهد إليه عهداً إذا أوصاه ، ومنه العهد الذى يكتب للولاة ، والعهد الأمان والوصية تقول . بين فلان وصديقه عهد أى موثق ، وفى التنزيل « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » والعهد أيضاً المعرفة والعلم تقول لمحدثك : الأمر كما عهدت أى كما عرفت ، وفلان قريب العهد بكذا أى قريب العلم به ، وكذلك هو اللقاء تقول : عهدته بمكان كذا إذا لقيته فيه ، وعهدى به قريب أى لقائى به قريب .

أما التعهد فهو التردد إلى الشئ وتفقده ، وفعله مُتعد إلى المفعول به دائماً ، تقول تعهدت أمورَ أبى وأملاكَه وتعهدت اليتامى ، إذا ترددتَ إلى كلٍّ ذلك وأصلحتَه .

والمعاهدة المحَالَفة التى يجب الوفاء بها ، ومنها قوله تعالى « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » . وقوله « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » .

والعهَيد هو المعاهد ، تقول : هذا عهيدك أى معاهدك ، قال نصر بن سيار :

وَلَلتّرك أوفى من نزار بعهدها فلا يأمنن الغدر يوما عهيدها

والعُهدة بالضم التبِعة ، تقول : عهدة هذا العمل على فلان أى ما وقع من تبعة فإصلاحه عليه ، وعليك فى هذا عهدة لا يُتفصَّى منها أى تبعة .

٢٩٣ - ويقولون : تضامن الشركاءُ تضامناً ، وبين الدول العربية الآن تضامن طيب عجيب ، وكلا التعبيرين خطأ ، والصواب أن يقال : تعاون الشركاء كما فى قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » أو يقال : تناصروا وبينهم نُصرة بالضم وهى حسن المعونة ، أو تآخوا وبينهم مؤاخاة وإخاء وشد الله بينهم أَوَاخى الإخاء ، أو يقال : بينهم مساعدة ومؤازرة وتضافر ومظاهرة ومن هذا قوله جل شأنه « وظاهَروا على إخراجكم » وقوله « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب » .

أما التضامن فَلم يرد عن العرب وإنما قالت : ضَمِن فلان الشئ وبه ضماناً وضمناً بفتحها فهو ضامن وضمين إذا كفله ، وضمنته الشئ تضميناً فتضمنه عنى أى غرمته فالتزمه ومن المجاز قولك : ضمن الوعاء الشئَ وتضمنه إذا اشتمل عليه وكان فى ضمنه ، وضُمِّن

كتاب أخى إلىَّ أخباراً سارة ، وضُمِّن شعر شوقى معانى رائعة تأخذ بمجامع القلوب .

ولك أن تقول : لقد تحققَ الآن بين العرب أو بين فلان وفلان ضَمانة بالفتح أى حب وارتباط .

٢٩٤ – ويقولون : نحن لا نكذب قطُّ ، ولا نقول قطُّ إلا حقاً ، وهذا فاسد ، لأن قط بضم الطاء مشددة ظرف مختص بالزمن الماضى ، تقول : ما رأيته قطَّ أى فيما مضى من الزمان أو فيما انقطع من عمرى ، ولا يجوز دخوله على المستقبل ، فلا يقال : ما أفارقه قط .

وقط مخفف الطاء لغة فيه مع فتح القاف وضمها ، هذا إذا كانت بمعنى الدهر ، وأما إذا كانت بمعنى حسْب وهو الاكتفاء فهى مفتوحة ساكنة الطاء ، تقول رأيته مرة واحدة فقط وتكون اسم فعل بمعنى يكفى ، فتزاد عليها نون الوقاية ويقال : قطنى كذا فإن قلّلت بقط فاجزمها ، وقل : ما عندك إلا هذا قطْ .

وتختص بالنفى ماضياً ، وفى مواضع من البخارى جاءت بعد المثبت منها فى الكسوف قال أطول صلاة صليتها قط ، وفى سنن أبى داود ، توضَّأ ثلاثاً قط وأثبته ابن مالك فى الشواهد لغة ، قال : وهى مما خفى على كثير من النحاة ومن « مَعَانِى » القط القطع ، والقصير الجَعْدِ من الشعر ، تقول : رجل قط الشعر وقَطَطه[1] محركة ، جمعه قَطّون ، وقطَطُون ، وأقطاط ، وقِطاط بالكسر .

والمِقطّة كمِذبَّة عُظَيم يقُطُّ الكاتب عليه أقلامه .

ومن معانيه أيضاً الغلاء وارتفاع السعر ، تقول : قَطَّ السعر يقط ، وقُط بالبناء للمجهول قَطّا وقطوطاً بالضم فهو قاط ، وقطٌّ ومقطوط إذا غلا ، والقاطط السعر الغالى .

قال أبو وجزة :

أشكو إلى الله العزيز الجبارْ ثم إليك بُعدَ المُسْتارْ
وحاجة الحىّ وقطَّ الأسعارْ

أما القِط بالكسر فله معنين أحدهما السِنّور الذكر ، جمعه قِطاط ، وقِططة بكسرهما والآخر النصيب ، جمعه قُطوط ، تقول : لى قِط من ذلك أى نصيب ، وأخذ فلان قِطه من أحرز قِسطه ، ومن هذا قوله تعالى « وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : نحن لا نكذب أبداً ، أو أبد الدهر ، أو أبد الأبدية ،

(١) ومن المعانى المجازية للقَطَط المحرك شدة البخل ، تقول : فلان جَعْد قطَطٌ أى بالغ الشح قال :

سمح اليدين بما فى رحل صاحبه جعد اليدين بما فى رحلة قَطَطْ

أو أبد الأبَد بالتحريك ، أو أبد الأبيد ، أو أبد الآبدين أو أبد الآباد أو يقال : نحن لا نكذب عوض مثلثة الضاد ، وهي ظرف مبنى لاستغراق المستقبل فقط ويعرب إذا أضيف كما فى قولك : لا أخون أحداً عوَضَ العائضين ، أى دهرَ الداهرين وسمى بذلك لأنه كلما مضى منه جزء عوضه جزء آخر .

٢٩٥ – ويقولون لقدر خاص من الأرض معروف : فدّان بتشديد الدال وزان حَمّام ، وهذا خطأ محض لأن الفدان له معنيان لا صلة لكل منهما بما يبتغون : فهو آلة الحرث ، وكذلك هو الثوران يُحرث عليهما فى قِران ، جمعه فدادين ، ومثله تماما فيما ذكرنا من المعانى الفَدَان بتخفيف الدال وزان سحاب ، جمعه أفدنة ، وفُدُن بضمتين .

والفدّادون بتشديد الدال أصحاب الإبل الكثيرة ، وهم مع ذلك جُفاةُ أهلُ كبر وخُيَلاء ، وفى الحديث « إن الجفاء والقسوة فى الفدّادين » قال أبو عمرو : الفدادين مخففة واحدها فدّان بالتشديد وهى البقر التى يحرث عليها .

ويطلق على أصحاب الفدادين الفدّادون كما يطلق على أصحاب الجمال الجمالون . وأصحاب الحمير الحمّارون ، وقد قالوا : من صحب الفدادين والفدّادين فلا دنيا له ولادين ، وذلك لصياحهم فى حروثهم ومواشيهم ، وفى الحديث « هلك الفدّادون إلا من أعطى فى نجدتها ورسلها » يريد إلا من أخرج زكاتها فى شدتها ورخائها .

والفَدَن محركة القصر المشيّد ، جمعه أفدان ، وقد قالوا : لولا الفدّان لم تُبن الأفدان ، وجاءوا بجمال كأنها أفدان أى قصور ، والتَّفدين تسمينُ الإبل وتطويل البناء ، تقول . جَملٌ مفدّن إذا فدّنه الراعى تفدينا أى سَمَّنَهُ وصيّره كالفَدَن ، قال القُطامى

فلما أن جرى سِمنُ عليها كما طينت بالفَدَن السَّياعا

وهذا من باب القلب ، أى كما طينت بالسَّياع الفَدن ، والسياع بالفتح الطين بالتبن يطين به .

٢٩٦ – ويقولون : الصوم محتّم علينا بتشديد التَاء ، يعنون أنه يجب عليهم أداؤه ، وهذا خطأ لأن الفعل الرباعى لم يرد عن العرب ، والفصيح أن يؤدى المعنى المبتغى .

١ – إما باسم مفعول من الثلاثى فيقال : الصوم محتوم من قولهم حَتم الله الصوم يحتمه من باب ضرب حتما ، أى أوجبه .

٢ – وإما بمطاوع الثلاثى فيقال : انحتم الصوم وتحتم أى وجب وجوبا لا يمكن إسقاطه .

وللتحتم عدة معان : فهو التمنى كما فى قولك : تحتمتُ لأخى بالخير إذا تمنيتَه له ، وهو التصيير كما فى قولك : تحتم فلان الشئ إذا صيره وجعله حتما ، وهو أكل الحُتامة بضم الحاء وهى ما يبقى على المائدة من الطعام .

٣ - وإما بمصدر الثلاثى فيقال : الصوم حتم مقضى وحكم مرضى ، ومن هذا قوله تعالى « وإن منكم إلا واردُها كان على ربِّك حتما مقضيا » .

والحتم الخالص اللاصق كما فى قولك : فلان أخٌ حتم أى لاصق النسب ، وأنت لى بمنزلة الولد الحتْم وهو ولد الصلب ، قال الهُذَلى .

فوالله لا أنساك ما عشتُ ليلةً صفِيّى من الإخوان والولد الحتم

أى الولد الحق الذى لا يشك فى صحة نسبه ، وفى المثل « رب أخ لك لم تلده أمك »

٢٩٧ - ويقولون : شرابٌ مثلّج ، ومياه مثلّجة بتشديد اللام فيهما ، وهذا خطأ لأن المضعف من ثلج لم يرد فى اللغة ، والصواب أن يؤدى المعنى المراد إما باسم مفعول من الثلاثى فيقال : شراب مثلوج ومياه مثلوجه من قولهم ثلجتنا السماء تثلجنا من باب نصر إذا ألقت عليهم الثلج ومنه يقال : ثلجت الأرض بالبناء للمجهول إذ أصابها الثلج فهى مثلوجه .

وإما باسم مفعول من المزيد بالهمز فيقال : شراب مُثلَج ومياه مثلَجة بضم الميم وفتح اللام خفيفة فيهما . ومن الثلاثى يقال للبليد : مثلوج الفؤاد ، لأن الذكى إنما يوصف بالتوقد والاشتعال ، قال كعب بن لؤى .

لئن كنت مثلوجَ الفؤاد لقد بدا لجمع لؤى منك ذلةُ ذى غَمضِ

ويقال : ثَلجت نفس فلان بالنجاح تثلج ثلوجا من باب دخل ، وتثلَج ثَلَجا من باب تعب إذا اطمأنت وسرت وبردت .

ويقال من الرباعى المهموز : أثلج يومنا إذا اشتدت برودته ، وأثلج ماء البئر إذا انقطع وأثلجت صدرى بخَبَرك إذا فرحت وانشرح صدرى قال :

فقرت بهم عينى وأفنيت جمعهم وأثلجتُ لما أن قتلتهمُ صدرى

ومن الثلاثى والمزيد بالهمز يقال : أثلجت عن المريض الحمى وثلجت إذا أقلعت وتركته .

٢٩٨ - ويقولون : لهذا الرئيس سُلطة عظيمة على مرءوسيه ، يعنون قدرته وقهره وشدته

يأمرهم فيأتمرون ، وينهاهم فينتهون ، وهذا التعبير يشوبه الخطأ ، لأن كلمة السلطة عامية لم يعرفها العرب .

والفصيح أن يقال : له عليهم سَلاطة بالفتح أو سُلوطة بالضم ، أو يقال له عليهم سلطان أى تسلط ، كما فى قوله تعالى « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا » أى تسلطا بالمؤاخذة والقصاص ، ومن معانى السلطان الحجة والبرهان ، ومن هذا قوله سبحانه « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » أى وحجة بالغة الوضوح والسلطان بهذا المعنى لا يجمع ، لأن مجراه مجرى المصدر .

أما السلطان بمعنى الوالى فجمعه سَلاطين كبرهان وبراهين ، وقد يطلق السلاطن على الجمع كما فى قول الشاعر .

عرفت والعقل من العرفان أن الغنى قد سُد بالحيطان
إن لم يغتنى سيد السلطان

أى سيد السلاطين وهو الخليفة ، والسلطان بمعنى الوالى يذكر ويؤنث ، والتذكير عند الحذاق أغلب ويؤنث فيقال : قضت به السلطان أى السلطانهقال ابن الأنبارى ، وقال أبو زيد سمعت من أثق بفصاحته يقول : أتتنا سلطان جائرة .

والسليط هو الزيت ، وكذلك هو الرجل الفصيح حديد اللسان ، أما السليطة فهى المرأة الصخَّابة طويلة اللسان ، والسِلطة بكسر السين هى السهم الدقيق الطويل ، جمعه سِلَط ، وسِلاط بكسرهما .

٢٩٩ – ويطلقون على بعض أبنائهم اسم عبد الجيّد ، وهذا خطأ ، لأن كلمة جيّد ليست من أسماء الله الحسنى ، وإنما معناها ضد الردئ ، جمعها جِياد ، وجمع الجميع جيادات ، أنشد ابن الأعرابى :

كم كان عند بنى العوّام من حسبٍ ومن سيوف جيادات وأرماح

وتجمع أيضا على جيائد جمعا غير قياسى .

تقول : جاد المتاعُ يجود جُودة بالضم ، وجَودة بالفتح إذا صار جيدا ، وأَجادَ فلان إذا أتى بالجيد فهو مُجيد ومجواد ، وهم مجاويد .

ويقال للكريم السخى : رجل جواد من قوم أجواد، وأجاويد ، وجُوَداء بزنة فقهاء ، وجُود بضم الجيم ، وللسخية أيضا امرأة جواد كما فى قول أبى شهاب الهذلى :

صَناعٌ بإشفاها حَصانٌ بشكرها جواد بقوت البطن والعِرْق زاخرُ

ويقال فى الجمع ، نسوة جُود بالضم كالمذكر قال :

وفيهن فضل قد عرفنا مكانه فهن به جُودٌ وأنتم به بُخْلُ

وقال الأخطل : (وهن بالبذل لا بخلٌ ولا جودُ)

وتقول : إستجاد الفقر فلانا إذا طلب جودَه فأجاده درهما أى أعطاه إياه وأجادت المرأة إذا ولدت ولدا جوادا ، وأجاد الرجل بالولد إذا ولده جوادا ومن المجاز قولك لصديقك : إنى لأجَادُ إلى لقائك أى أشتاق إليه وقد اختلف العلماء فى أصل كلمة جِّيد ، فقال البصريون أصلها جَيْوِد بسكون الياء وكسر الواو ، وقال غيرهم : أصلها جَويد وزان كريم ، وعلى كلا الرأيين استثقلت الكسرة على الواو فحذفت ، فالتقى ساكنان فقلبت الواو ياء وادغمت فى الياء الأصلية ومن معانى الجود الجوع ، كما فى قول أبى خراش :

تكاد يداه تُسلمان رداءه من الجود لما استقبلته الشمائل

٣٠٠ — ويقولون لمن يفضل نفسه ويؤثرها على غيره من الناس (أنانى) وهذه كلمة عامية والصواب أن يقال له أثِر بفتح فكسر كفرح ، والاسم الأثرة بفتحات ، تقول : استأثر فلان بكذا إذا استبد به وخص به نفسه ، وفى الحديث « سترون بعدى أثرةً » أى سيستأثر امراء الجور بعدى بالفئ .

وضد الأثرة الإيثار ، وهو أن يفضل الإنسان غيره على نفسه تقول : آثرت غيرى بمد الهمزة إيثارا إذا قدمته على نفسك وأكرمته ، ومنه قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة » وقوله « بل تؤثرون الحياة الدنيا » أى تفضلونها .

أما قولهم (أنانى) فيزعمون خطأ أنه منسوب إلى قول من يقدم نفسه ويفضلها : أنا أنا وهذا نسب فاسد ، لأن الضمير لا ينسب إليه ، على أنه لو نسب إليه لقيل (أنوى أنوى) إذ أن ألف المقصور يجب أن تقلب واوا فى النسب إذا كانت ثالثة كما يقال قَهوى فى النسب إلى قَها .

٣٠١ — ويقولون : زَيَّت الطاهى الطعام تزيتا ، يعنون أنه وضع عليه الزيت فهو طعام مُزيَّت بتشديد الياء وزان معظَّم .

والفصيح أن يقال : زات الطاهى الطعامَ ، وزتُّ أنا الطعام أزيته زَيْتا من باب باع إذا جعلت فيه الزيت فهو طعام مَزيت ومزيوت ، كمبيع ومبيوع ، قال أبو ذؤيب الهذلى :

أتتكم بعير لم تكن هَجرِية ولا حنطة الشام المزيت حميُرها

وتقول : زِتُّ القوم إذا جعلت أدمهم الزيت ، وزتُّ الصبى إذا دهنته بالزيت أما

التزييت فمعناه التزويد والتقديم ، تقول : زيّت البدال حُرفاءه إذا زودهم الزيت وقدمه إليهم ، وهم يتزيتون بزنه يستعينون أى يستوهبون الزيت أو يطلبونه

٣٠٢ – ويقولون : تنبأ الفلكى بنزول المطر ، أو بخسوف القمر ، يعنون أنه ادعى علم الغيب ، وهذا التعبير فاسد ، لأن التنبؤ معناه ادعاء النبوة ، ومنه المتنبى أحمد بن الحسين الشاعر المعروف وسمى بهذا الاسم لأنه خرج إلى بنى كلب وادعى أنه حَسَنىّ ثم ادعى أنه نبى ، فشهد عليه بالشَّام وحُبس زمنا ثم استتيب فتاب وأطلق .

والنبى هو المخبر عن الله تعالى وترك همزه هو المختار ، ولقد نادى أعرابى الرسول ﷺ بقوله : يا نبئ الله ، فأنكره عليه وقال له « لا تنبِر باسمى » أى لا تهمز « فإنما أنا نبّى الله » وفى التنزيل « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » جمعه أنبياء ، كما فى قوله تعالى « قل فلم تقتلون أنبياء الله » ونبيون كما فى قوله

« يحكم بها النبيون الذين أسلموا » والاسم النبوة كما فى قوله « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » وعلى هذا فالنبى فعيل بمعنى فاعل .

وقيل : إن النبى مأخوذ من النباوة وهى ما ارتفع من الأرض ، أى أنه شرف على سائر الخلق ، فأصله غير مهموز ، وعلى هذا الرأى فهو فعيل بمعنى مفعول .

والفصيح الذى ورد عن العرب أن يؤدى المعنى المبتغى بقولنا : تكهن الفلكى بكذا لأنهم قالوا : كهن له كهانة أى قضى له بالغيب فهو كاهن ، ومنه قوله جل شأنه « فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » جمعه كُهّان وكهنة ككفار وكفرة والكِهانة بالكسر صناعة الكاهن ، وعن ابن عباس رضى الله عنه « لا تتبع النجوم فإنها تؤدى إلى الكهانة » .

٣٠٣ – ويقولون : فلان شاطر يعنون أنه نشيط متسم بالعبقرية ، وهذا خطأ ، إذ تقول : شطرَ فلان بصره شطُورا إذا نظر اليك وإلى آخر ، وشطرت الدار بعدت ، ومنزل شطير بعيد ، ورجل شطير منفرد ، قال :

لا تتركنّى فيهمُ شطيرا إنى إذن أهلكَ أو أطيرا

ومن ذلك يقال : شطر فلان على أهله من باب قتل إذا ترك موافقتهم خبثا فهو شاطر وهم شطار والشطارة اسم منه ، ويقال : شطر أيضا من باب ظرف شطارة .

مما تقدم استبان أن الشاطر هو الخليع ومن أعيا أهله خبثا ولؤما ، وأنه موضع للتحقير لا لحسن التقدير .

٣٠٤ – ويقولون : هذا اللص كثير النَصب ، وافر السُراقة [١] بضم السين ، يعنون الخداع والختْل ، ولكن العرب وضعت كلمة النصب بفتح النون لتؤدى معانى عدة لا صلة لكل منها بالمعنى الذى أرادوه فى عبارتهم .

١ – فهو إعراب الكلمة بالفتح ، تقول : نصبت الفعل أو الاسم بأحد نواصبه فهو منصوب .

٢ – وهو ما نصب فعبد من دون الله كالنصُب بالضم والنُصُب بضمتين ، والجمع أنصاب ومن ذلك قوله تعالى « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس » .

٣ – وهو الغِناء المتسم بأنه أرق من الحُداء ، تقول : نصب محمد عبد الوهاب نَصْبا إذا غنى غناء رقيقا ، وفى الحديث « لو نَصب لنا نصبَ العرب ؟ ونصب العرب ضرب من مغانيها أرق من الحداء .

٤ – وهو التعب ، تقول : نصِب العامل نَصبا بفتح الصاد ونصْبا بسكونها إذا أعيا وأتعبة العمل ، ومنه قولهم : همٌّ ناصب أى ذو نَصَب ، وسمع قولهم : نصبه الهمُّ نصبا إذا أعياه ، قال النابغة :

كِلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطئ الكواكبِ

٥ – وهو إقامة الشئ ، تقول : نصبتُ العَلَم فانتصب ، ونصبت فلانا لأمر كذا فانتصب له ، ونُصب فلان لعمارة البلد إذا أقيم لها ، ومنه قوله جل شأنه « أفلا ينظرون الى الأبل كيف خُلِقَت وإلى السماء كَيف رُفعت وإلى الجبال كيف نصبت » .

٦ – وهو المعاداة ، تقول : نصبت لفلان نصبا إذا عاديتَه ، ومن هذا قول جرير :

وإذا بنو أسد على تحزبوا [٢] نصبتْ بنو أسد لمن رامانى [٣]

ومنه الناصبية والنواصب وأهل النَّصْب الذين يدينون ببغضة على كرَّم الله وجهه .

٧ – وهو الأمام ، تقول : وضعت هذا الأمر نَصب عينى بالفتح أَى أمامها ، وهو بالضم أفصح وقيل : إن هذا فى الأصل مصدر استعمل بمعنى المفعول أى منصوبا مرئيا رؤية ظاهرة بحيث لا ينسى ولا يُغفل عنه .

٨ – وهو المشورة ، تقول : نصبت لفلان رأيا إذا أشرت عليه برأى لا يعدل عنه .

---

(١) السُراقة بضم السين : هى مانال اللص من السرقة .

(٢) تحزبوا : صاروا ضدى أحزاباً وتألبوا على قتالى .

(٣) رمانى : ناضلنى وعادانى .

٩ – والنصب بالفتح وبضمتين ، وبالضم وزان فُعُل هو الداء والبلاء والشر ، ومنه قوله تعالى « إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنُصْب وعذاب » .

١٠ – والنصب بالفتح أيضا هو العلم المنصوب كالنَصَب بالتحريك والغاية ، وفى القوافى أن تسلم القافية من الفساد .

روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أراد استعمال وال على الموصل ، فاستشار أصحابه فأشاروا بتولية رجل صالح سمَّوْه . . فطلبه . . وجاءه فوجد عمراً يصلى وأولاده الصبيان يعابثونه ويمتطونه وهو ساجد . . فيطيل السجود حتى لا يفزعهم .

فلما فرغ عمر رضى الله عنه من الصلاة . . استنكر الرجل أن يكون هذا حال أمير المؤمنين . . فسأله عمر : كيف أنت مع أهلك ؟ . قال : إذا دخلت بيتى صمت كل من فيه . . فلا تسمع إلا همساً . .

ومضت فترة أحس فيها الرجل أن عمراً قد انصرف عنه وأهمله فقال : طلبتنى ؟ . . فأجاب عمر : لأمر لم أجده فيك . . من لا يرحم أهله لا يرحم المسلمين .

باب الفتوى

للأستاذ عبد الحميد شاهين

وردت رسالة إلى المجلة من السيد الأستاذ عبد الله عبد الحليم سابق ، الموجه بوزارة التربية بالقاهرة تتضمن أسئلة حول بعض الأحكام التى تتعلق بالأسرة المسلمة والعلاقة الزوجية . . .

وقد تفضل فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله عبد الخالق المشد عضو لجنة الفتوى بالأزهر بالأجابة عليها مشكوراً . . ونظراً لأهميتها ننشرها فيما يلى ليعم النفع .

جـ ١ :

ما جاء فى كتاب الإقناع : من أن دواء المرض وأجرة الطبيب لا يجب على الزوج لزوجته : إنما هو اجتهاد من متأخرى فقهاء مذهب الشافعية . وجاء مثل هذا الحكم على ألسنة متأخرى فقهاء المذاهب الأخرى دون استناد أحد منهم على نص من كتاب أو سنة ، أما الأئمة الأربعة : فليس لهم حكم فى هذه المسألة ، وإن كان لهم حكم يناقض هذا الحكم فيما هو شبيه بهذه المسألة ، فقد حكموا : بأن تكفين الزوجة وتجهيزها من النفقة ، والنفقة واجبة عليه حال حياته فتجب فى ماله حتى بعد وفاته لو ماتت قبل توزيع تركته .

فذهب أبو يوسف من الحنفية والشافعى ورواية عن أبى حنيفة ومالك إلى أن تجهيزها واجب على زوجها ولو كانت موسرة . وهو المفتى به وعليه جرى القانون ، وذلك لبقاء آثار الزوجية بينهما بعد الوفاة كالوراثة ، ولذا جاز للزوج أن يغسل زوجته بعد وفاتها لذلك غسل على رضى الله عنه فاطمة الزهراء .

وفى رواية عن أبى حنيفة ومالك : ليس على الزوج تجهيزها إذا كانت موسرة . فإذا اعتبر الأئمة رضوان الله عليهم تكفين الزوجة وتجهيزها من النفقة مع انقطاع النكاح بالموت لبقاء بعض آثاره .

ألا يعتبرون ثمن الدواء وأجرة الطبيب من النفقة مع بقاء النكاح بجميع آثاره من حب وود ، ورحمة وسكن وقياسها برعاية بنيها وأطفالها ، منه وقد يكون مرضها نتيجة إرهاق

ومعاناة من كثرة عملها .

وإذا أوجب لها الأئمة على الزوج خادماً يساعدها فى أداء عملها بل خادمين إذا كانت ممن تخدم باعتبار أن الخدمة نوع من النفقة أفلا يقاس عليها ثمن الدواء وأجرة الطبيب ويندرجان تحت عموم الأدلة فى قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » وقول النبى ﷺ – لهند زوج أبى سفيان « خذى من ماله ما يكفيك وأولادك بالمعروف » وقوله « استوصوا بالنساء خيراً » وقوله « خيركم خيركم لأهله » .

وقد جاء الإسلام بقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » وهو بهذه القاعدة المنصوصة يمنع الأذى عن أى كان لأن الله لا يحب المعتدين وشريكة حياة الزوج أولى الناس برفع الضرر عنها فلا يجوز للزوج أن يؤذى زوجته بإمساكها مريضة فقيرة دون علاج ولا دواء . وهى التى جعلها الله سكناً له وأنساً وراحة وأمناً ، وأمر بإحسان عشرتها فى قوله تعالى : « فأمسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضِراراً لتعتدوا . ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه »

جـ ٢ :

قال فى الهداية جـ ٢ – ص ٣٢

وعلى الزوج أن يسكنها فى دار مفردة ليس فيها أحد من أهله إلا أن تختار ذلك لأن الله أوجب السكن مقروناً بالنفقة فى قوله تعالى : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجْدِكمْ » . وأذا أوجب الله لها حقاً ليس له أن يشرك غيرها فيه لتضررها به لعدم أمنها على نفسها ومتاعها ونقصان استمتاعها ، إلا أن تختار انتقاص حقها فإذا امتنعت عن السكن مع أهله لا تعد ناشزاً

جـ ٣ :

لا يجوز للزوج أن يمنع زوجته من زيارة والديها . ولا يمنعهما من الدخول عليها فى كل جمعة ، وغيرهما من المحارم كل سنة ، لأن المنع المطلق فيه قطيعة للرحم ، وحمل للزوجة على مخالفته ، وقد أمر الله بالمعاشرة بالمعروف وليس هذا منها .

ويباح للمرأة الخروج لقضاء حوائجها بإذن من زوجها .

جـ ٤ :

الزوجة الموظفة : يجوز لها إيداع ما تدخره من راتبها أومن غير راتبها من أموال فى مصرف بحساب جار باسمها دون فائدة ، ولا تجبر على إيداعه بحساب زوجها ، ونفقتها شرعاً

على الزوج نظير احتباسها وقيامها بشئونه الزوجية ، فإذا خرجت للوظيفه بإذنه فقد انتقصت من احتباسها الواجب شرعاً الذى استحقت له النفقة .

لهذا وجب على الموظفة أن تشارك فى نفقة نفسها نظير انتقاص حقه فى الاحتباس فإن لم تفعل فهى عاصية لأكلها نفقة كاملة بغير حق ، ولا تعد ناشراً .

جـ ٥ :

كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد : « انظروا من طالت غيبته أن يبعثوا نفقة أويرجعوا ، أويفارقوا ، فإن فارق فإن عليه نفقة ما فارق من يوم غاب » .

وما نعلم مخالفاً لعمر لأن النفقة بإزاء الزوجية ما لم يثبت نشوزها لأنهن محبوسات عليهم وعليه فنفقة الزوجة وبنتها الصغيرة ، ونفقات الولادة وما تخلف عنها مما احتاجته الزوجة والوليدة من علاج ودواء يكون على الزوج الغائب فى ماله شرعاً وإن كانت إقامة الزوجة فى بيت أهلها فى أثناء سفره .

الشئون الفنية — والله ولى التوفيق

مكتب الإمام الأكبر — عضو لجنة الفتوى بالأزهر

(عبد الفتاح بركة) — (عبد الله عبد الخالق المشد)

س : ما حكم الشرع فى نقل الدم للمسلم المريض المحتاج له من شخص غير مسلم ؟

ج — تفيد لجنة الفتوى بالأزهر : بأن الله تعالى قال فى كتابه الكريم : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

وقال سبحانه فى آية أخرى : . . فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » وفى آية أخرى : « وقد فصَّل لكم ما حُرِّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » . . .

وهذه الآيات الكريمة تفيد : أنه إذا توقف شفاء المريض أو الجريح وإنقاذ حياته على نقل الدم إليه من آخر — بألا يوجد من المباح ما يقوم مقامه فى شفائه وإنقاذ حياته — جاز نقل الدم إليه بلا شبهة ولو من غير مسلم ، وكذلك إذا توقفت سلامة عضو وقيام هذا العضو بما خلقه الله له على ذلك جاز نقل الدم إليه . .

أما إذا لم يتوقف أصل الشفاء على ذلك ولكن يتوقف عليه تعجيل الشفاء فنصوص الشافعية تفيد أنه يجوز نقل الدم لتعجيل الشفاء فقد جاء فى الباب الثامن عشر من كتاب

الكراهية من الفتاوى الهندية ما نصه «يجوز للعليل شرب الدم والبول وأكل الميتة للتداوى إذا أخبره طبيب مسلم أن شفاءه فيه ولم يجد من المباح ما يقوم مقامه ، وإن قال الطبيب بتعجيل شفائه . فيه وجهان» ١ . هـ

ولكن أيجوز الاعتماد فى ذلك على طبيب غير مسلم ؟

ظاهر مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة أنهم يقيدون الطبيب الذى يعول على خبره فى مثل ذلك يكون مسلماً . والمالكية يرون الاعتماد على غيرالمسلم حينئذ إذا لم يوجد طبيب مسلم . . وبعض العلماء لا يرون وجوب كونه مسلماً حتى فى حالة وجود الطبيب المسلم . . وهذا ما تختاره لجنة الفتوى وتفتى به ؛ لأن المدار على ما يوجب غلبة الظن ، وهذا يتوافر كثيراً فى غير المسلم بالتجربة كما يتوافر فى المسلم .

فقد جاء فى الجزء الثالث من كتاب بدائع الفوائد لشيخ الإسلام ابن القيم الحنبلى ما نصه «فى استئجار النبى ﷺ – عبد الله بن أريقط هادياً فى وقت الهجرة وهو كافر ، دليل على جواز الرجوع إلى الكافر فى الطب والكحل والأدوية والكتابة والحساب والعيوب ونحوها – ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة . ولا يلزم من مجرد كونه كافراً ألا يوثق به فى شىء أصلاً – فإنه لا شىء أخطر من الدلالة فى الطريق ولاسيما فى مثل طريق الهجرة .

وقال ابن مفلح الحنبلى فى كتاب الآداب الشرعية من الجزء الثانى نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية ما نصه «إذا كان اليهودى أو النصرانى خبيرا بالطب ثقة عند الإنسان جاز له أن يستطب ، كما جاز له أن يودعه المال وأن يعامله كما قال تعالى : «من أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينارٍ لا يؤده إليك» الآية وبهذا علم الجواب عن السؤال وهو جواز نقل الدم من مسلم أوغير مسلم على حسب ما فصلنا والله تعالى أعلم .

عبد الحميد السيد شاهين

كتاب الشهر

****

منهج العلماء

في ضبط إدراك الحكم الشرعي

دكتور: رءوف شلبي

منهج العلماء
فى ضبط إدراك الحكم الشرعى

(ا) التشريع وسياستهُ فى الإسلام

أولاً : فى ظل النبوة الإسلامية :

كان المجتمع العربى قبل الرسالة المحمدية مجموعة من القبائل التى يسيطر عليها حكم العرف القبلى المسنون من العادات والتقاليد الموروثة ، فلم تكن عندهم فكرة التقنين ، لسهولة الاتصال اليومى ، وتقارب أفراد المجتمع فى الدم ، والعصبية .

والقوانين تظهر دائماً عندما يتركب المجتمع تركيباً معقداً يصعب معه احترام العادات والتقاليد الموروثة كنظام يملى إرادته ، ويحدد سلوك الناس داخل منطقة التعاشر اليومى .

فلما جاءت رسالة الإسلام الإنسانية ارتفعت بالجنس البشرى من دائرة الحكم الخاضع للتقاليد التى تحدد دائرة المجتمع بالصغر والذاتية ، والقومية العنصرية ، إلى دائرة الحكم الإلهى العام لجميع الناس ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم بما مارسوه فى بدء الدعوة من تدريب على عالمية الحكم الإسلامى ، وارتفاعهم بدينهم فوق العصبية ، والعنصرية إلى عالمية الإنسانية بالإسلام الحنيف قد أدركوا أن الفكر التقنينى العادل لمجتمع الإسلام مرجعه الأساسى : الله ، ورسوله ، فاستقبلت صدورهم المشرقة بنور الإيمان كل حكم يحل حلالاً أو يحرم حراماً بعقيدة ثابتة أنه هو ذلك المستوى الفاضل لحياة الإنسان فمن أصدق من الله حديثاً ؟ فالقرآن يترى به الوحى آنافآنا ، والأحداث تتولد مع نمو المجتمع ، والرسول ﷺ يشرع بما يوحى إليه ، وبما يفسره ويبينه بالسنة لجانب من الذى أوحى إليه « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .

ومع هذا فقد أخذت عملية التشريع منهجاً فريداً يدرب النفوس على استقبال الحكم ، فبعد أن ثبتت العقيدة درج الله وقسط فى الأحكام .

ومع التدريج والتقسيط هيأ الله النفوس لتقبل الحكم الشرعى : فأخذت الأحكام تتوزع مع وجود الحاجة خطوة بعد خطوة ، وكلما أشرفت أنوار الإيمان فى الصدور حج الناس إلى رسول الله ﷺ يسألونه :

– يسألونك عن اليتامى ؟

قل : إصلاح لهم خير .

– يسألونك عن الخمر والميسر ؟

قل : فيهما أثم كبير ومنافع للناس .

– يسألونك عن المحيض ؟

قل : هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن .

– يسألونك ماذا ينفقون ؟

قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين .

– يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟

قل : قتال فيه كبير .

– يسألونك عن الأهلة ؟

قل : هو مواقيت للناس .

فالمجتمع يسأل ، والوحى يترى ، والرسول ﷺ يجيب ، وينبوع إجابته وحى الله ، « ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » .

وعلى قدر طاقة العباد منح الله الناس الدين والشريعة بالتقسيط والتأنى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . (النساء)

« يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » . (النساء)

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . (البقرة)

فقد استمرت الدعوة فى عصر وجودها المكى زهاء ثلاثة عشر عاماً تحرر القلوب والعقول من الشرك الحجرى ذلكم الذى يحقر كرامة الإنسان ، ويبعده عن الكيان البشرى وتخرجهم إلى الحق والعدل والنور بشهادة التوحيد ، فلما تجمع للدين طائفة موحدة وقيادة

أمينة بعد أحد عشر عاماً فى مكة فرض الله الصلاة كوصلة تشرف الإنسان فى اتصاله بربه وتكون ركيزة الأسس للعلاقات الاجتماعية لتستمر الرقابة الاجتماعية التى هى مصدر حماية القوانين متصلة بالله الحق حتى يكتمل للبشر أساس حريتهم فالكل لله عبد والكل ينبغى أن يراقب الديان الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وذلك وحده هو عصب العدل والخدمة الاجتماعية التى تبذل حسبة لله وابتغاء مرضاته :

« إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » . (الإنسان)

ثم انتقلت الدعوة إلى المدينة بعد جهاد ثبت قواعد الحرية والعدل « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، ليتهيأ المجتمع الذى رغب بنفسه فى قبول الإسلام كنظام للدولة ، وبايع على هذا مرتين للمسئولية التاريخية فكان التشريع القانونى الذى درجه الله وقسطه :

فرض الجهاد فى السنوات الأولى من الهجرة : حماية للدعوة ، والمجتمع ، ورداً للمعتدين :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » .

فرض الله الزكاة وفرض أحكاماً عدة ثم فرض الله الحج فى الأعوام الأخيرة للرسالة :

« ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » . (آل عمران)

وهى أحكام لا تتنافى مع سلوك موروث فى المجتمع ، ومع هذا فقد خفف الله عن الأوائل حتى تتهيأ نفوسهم بعد رسوخ العقيدة لتقبل شريعة الله بالهنيهة بعد الهنيهة ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

أما الأحكام التى لها صفة الجبرية لأنها تغيرْ سلوكاً موروثاً فقد أخذت هذه الأحكام منهجاً خاصاً فى عملية التدرج والتهيئة فالأساس العام الأكبر « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » .

فالخمر : كانت عادة عالمية درج عليها جل المجتمع العربى كبقية المجتمعات العالمية التى اتخذتها شراباً مألوفاً ، فلما جاء الإسلام لم يهدف بادىء ذى بدء لكشط تلك العادة التى تلغى عقل الإنسان الذى يعد فى العرف المنطقى الميزان الفاصل بين الإنسانية فى البشر ، والحيوانية فى البهيم ، فإنه مع فحش آثار الخمر من وجهة نظر المنطق السوى لكرامة الإنسان كان من العسير على الأمزجة أن تتقبل دفعة واحدة تحريم الخمر ، رغم أن فى التحريم تبجيلاً ، وتكريماً لمنزلة الإنسان ، ولكن الله رأف بالعباد فدرج فى التدريج ؟ :

١ - فعندما سئل عنها النبى ﷺ نزل الوحى يتلو :

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » . (البقرة)

فقال الناس : قال الله فيهما إثم ولم يقل حرام ؟ واستمروا .

٢ – فلما خلط الناس صلاتهم بشرابهم ، قال عمر : اللهم أرنا بياناً فى الخمر ؟ فأنزل الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . (النساء)

فامتنع بعضهم عنها بتاتاً ، وتناولها بعضهم فى غير أوقات النهى الموضحة فى الآية .

فتهيأت بذلك نفسية المجتمع كله للحكم الأخير .

٣ – فأنزل الله تعالى – فى أواخر حياة التشريع بالمدينة –

« إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . (المائدة)

فانتهى المجتمع كله انتهاء تحميه تلقائية الرقابة الدينية التى مردها « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، وتزكيه النفس الراضية ، ويسعد به العقل الذى تبجل ، وتنشرح به الصدور التى استقر فيها الإيمان بالإرادة .

ومثل هذا من الأحكام التشريعية التى تغير تقاليد المجتمع القديمة : الزواج من زوجة الابن الدعى ، فقد شب المجتمع على تقاليد أسرية لا تتفق مع مقررات الإسلام .

فالتبنى قد ألغاه الإسلام :

« أدعوهُمْ لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » . (الأحزاب) .

فأبطل بذلك علاقة البنوة ، واستبدلها بعلاقة الإخوة الدينية التى هى كرم فى نظر العقيدة والحق ، والأقوى فى سياج التشريع إذ الأخوة الدينية أساس التضامن الإنسانى فى داخل التعاشر الاجتماعى :

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

« المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » .

غير أن آثار ذلك الإلغاء يحتاج إلى تهيئة خاصة ، فاختار الله لهذه التهيئة أرق أسرة فى المجتمع الإسلامى تملك ضبط حدة إنفعالات التجربة التى تجابه نظاماً موروثاً منذ الآباء صار له حكم العادة الجبرية اللازمة فكان زواج زيد بن حارثة مولى سيدنا رسول الله ﷺ من ابنة عمة النبى ﷺ زينب بنت جحش :

(ا) رفض أخوها عبد الله أولاً خطبة النبى ﷺ زينب لمولاه زيد حسب التقاليد الأسرية المتوارثة فنزل قوله تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . (الأحزاب)

فقال عبد الله : سمعنا وأطعنا يا رسول الله .

(ب) وتزوج زيد من زينب ، وأخذت العلاقات الزوجية مستواها الطبيعى من الود تارة والخلافات أخرى ، حتى شاء الله واحتدم النزاع ، وطلقت زينب .

(ج) فأمر الله نبيه ﷺ أن يتزوجها إعلاناً بتشريع جديد يلغى أفك التقاليد القديمة . (لم يكن فى الأمر شىء أكثر من ذلك ومن زاد فقد ابهت)

يقول الله تعالى :

« فلما قضى زيد منها وطراً زَوَّجْنَاكَهَا لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم وكان أمر الله مفعولاً » .

وهكذا كانت حكمة الله جل شأنه اختيار الأسرة الأولى فى المجتمع الإسلامى لتتحمل مسئولية تغيير العادات التى دأب عليها المجتمع أحقاباً قديمة من الزمن لأنها وحدها التى تملك القدرة على ضبط انفعالات التجربة القاسية . . وتزيدها أوامر الله شرفاً فترضخ لحكم الله بلا تفلسف ، إذ غيرها من الأسرات لا يقدر أن يواجه أحداث تجربة مهمتها تغيير عادة لازمت العقول ، وخالطت السلوك حتى صارت واحدة من فقه اللزوم الاجتماعى منذ مئات السنين وصارت ديناً وخلقاً وقانوناً .

ومع تلك الرحمة الإلهية فى التشريع كان الصحابة رضوان الله عليهم حريصين على تلقى العلم من رسول الله ﷺ ، وكان يكفى المحتاج منهم لحكم من الأحكام أن يسمع القرآن من النبى ﷺ فيفقه حاجته من التلاوة فالقرآن عربى ولسان الرجل عربى ، والذكاء العربى عربياً خالصاً على الفطرة ، كما كانوا رضوان الله عليهم يستفسرون فى كل ما يعن لهم ، ويتبعون الرسول فى كل ما يرونه منه من فعل ، يروى القاضى عياض فى شرحه للشفاء عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم فلما قضى صلاته قال : ما حملكم على إلقاء نعالكم ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك ، فقال : إن جبريل أخبرنى أن فيها قذراً » .

وبهذا الاتباع المحمود كان للمسلمين فى رسول الله أسوة حسنة فانتفعوا بالإسلام ومكنوا لدين الله فى دولة تحمى العدل وتحمى كرامة الإنسان من موات الجاهلية الأولى ؟

ثانياً – فى ظل الصحابة :

تحمل الصحابة من بعد النبى ﷺ مواريث الدولة الإسلامية . . فاتسعت رقعة الدولة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكان على عاتقهم – وهم أمناء – أن يوضحوا للرعية أحكام الله ، وهم لذلك رأوا أن الحيطة فى الحكم الشرعى تستلزم التثبت من نسبة رواية الحديث إلى النبى ﷺ فأخذت هذه الحيطة أسلوباً خاصاً حسب رأى وبصيرة الإمام رئيس الدولة :

١ – فسيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يراها مع الشاهد الآخر كما جاء فى حديث توريث الجدة : ما كان يعلم أبو بكر رضى الله أن لها شيئاً ثم استفتى الناس فروى المغيرة أنه سمع النبى ﷺ يعطيها السدس فطلب أبو بكر معه شاهداً فشهد معه محمد بن مسلمة ، فقويت نسبة الرواية إلى رسول الله ﷺ فأنفذه أبو بكر رضى الله عنه .

٢ – ومثل ذلك الصنيع من التثبت بالشاهد عمل سيدنا عمر رضى الله عنه سلم عليه أبو موسى ثلاثا فلم يجبه فرجع فسأله عمر : لم رجعت ؟ فروى أبو موسى حديثاً عن النبى ﷺ « إذا سلم أحدكم ثلاثا فلم يجب فليرجع » فطلب منه عمر بينة وإلا نكل به فذهب أبو موسى إلى أصحابه ممتقع اللون وسألهم الشاهد فأرسلوا معه من يشهد له بصحة الرواية .

٣ – وكان للإمام على رضى الله عنه منهج خاص فقد كان يكتفى بالقسم يحفظ تاريخ السنة عنه كرم الله وجهه « وكان إذا حدثنى غيره – يعنى غير النبى ﷺ استحلفته » .

مع هذا الجو من الرياسة الإسلامية الأمينة الواثقة فى شخصية رئيسها كان الناس يستقون الأحكام من الصحابة رضوان الله عليهم وهم جميعاً عدول أعدل ما تكون العدالة ، وأمناء أدق ما تكون الأمانة بأيهم اقتدى الناس اهتدوا وفازوا .

ومن ألمع ما يحمله التاريخ ويورثه للعلماء الذين احتسبوا أنفسهم للدعوة أن الفتوى فى ظل الصحابة أخذت ثوباً فكرياً فريداً بالتعاون ، والعودة الى الأدق فى الحكم والاختلاف فى الرأى لا يفسد وحدة الأمة فقد روى أن رجلاً قتلته أمرأة أبيه وخليل لها فرفع الأمر إلى عمر ، وهو رئيس الدولة ، فتردد ، هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فعرض القضية على فقيه الدولة ومفتيها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه وقال له : أرأيت لو كان

نفراً اشتركوا فى سرقة جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم ؟ قال عمر : نعم ، قال على : فكذلك ، فعمل عمر برأيه فاقتص من الكثير للواحد .

وإذا كانت هذه الفترة من التفكير تمتاز :

١ – بالحيطة فى الحكم الشرعى .

٢ – وبالحيطة فى دليله .

٣ – وبالتعاون فى الفتوى .

٤ – فهى كذلك تمتاز بمراجعة الفتوى والعدول عنها إذا بان أن الحق فى غير جانبها .

فقد رفعت إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مسألة فى الميراث تسمى (المسألة المشتركة) .

وهى التى مات فيها امرأة وتركت : زوجاً ، وأماً ، وإخوة لأم ، وإخوة أشقاء قسم عمر الميراث حسب الفروض المحكمة : للزوج النصف ، وللأم السدس ، وللإخوة للأم الثلث ، وعلى ذلك فلم يبق للإخوة الأشقاء شىء من الميراث ، فقالوا لرئيس الدولة عمر : هب أن آبانا كان حجراً فى اليم ، ألسنا أبناء أم واحدة ؟ فعدل عمر عن فتواه وأشركهم فى الميراث .

وكان عمر دائماً يقول : لولا على لهلك عمر « وبهذا يرث العلماء فى العصر الحديث هذه المواريث عساهم يقدموا لدين الله شيئاً من الواجب المقدس .

ثالثاً : بعد الفتح الإسلامى :

ومع اتساع الفتوحات الإسلامية فى شمال أفريقيا ، وشرق آسيا وغيرهما انتشر العلماء من الصحابة فى الأمصار والبلاد التى حقق لها الإسلام آمالها فى الحق والعدل والكرامة فألتف الناس حولهم ينهلون من فيوضات علمهم وأبحر فقههم ويسألون فيفتون فيعملون بما انتفعوا به من الهدى فيحيون حياة الكرامة التى أرادها لهم الإسلام الحنيف .

– فكان فى (المدينة المنورة) أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدرى ، عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت .

– وكان فى (مكة) عبد الله بن عباس .

– وكان فى (الكوفة) عبد الله بن مسعود .

وكان فى (البصرة) أنس بن مالك .

– وكان فى (مصر) عبد الله بن عمرو بن العاص صاحب الصادقة .

– وكان فى (الشام) معاذ بن جبل [بعد انتهاء مدته فى اليمن] .

رضى الله عنهم جميعاً .

فحملوا للناس السنة ، وعلموا الناس فقه الإسلام كما تحملوه هم من رسول الله ﷺ وافتوا بما أطمأنت إليه النفس ووثقت فيه الذمة وأرضى الله ورسوله ونصح للأمة فكانت دولة الإسلام التى خلفها محمد ﷺ ما تزال فى ثوبها الموحد وثقافتها الرفيعة التى ترطب كبد الحرية ، وتقوى أزر الصديق وتوفر العدل للبشر جميعاً كما أمر الله وأرشد نبيه ، ووصى به القرآن والسنة والخلفاء الراشدون من بعد .

وكان لهؤلاء الأساتذة والشيوخ الكبار تلاميذ وأبناء حملوا عنهم العلم والفتوى والفقه والفهم ، فانتقلت على أيديهم رسالة الدين يعلمون ، ويهذبون البشر فلما اختلط الفكر الإسلامى الصافى بالفكر البشرى القديم ذى الحضارة العتيقة واختلطت الأنساب والدماء ظهرت ثقافة جديدة خليط من ثقافة الكهوف التى احتفظت بها النفسيات اللاشعورية من أبناء القوميات العريقة فتميعت :

١ – عروبة الخاطر واللفظ السليق وامتزجت الفكرة الإسلامية بخليط من الثقافات الأولى التى دخل أهلوها فى دين الله أفواجاً ، ومع حلاوة الإيمان استبقوا طلاء ثقافتهم الأولى فلم يستطيعوا الخلاص منها فقد استقرت فى الدم استقرار المواريث الأخلاقية والصفات .

٢ – كما خفت الرقابة الدينية ، ووهت العزائم ، وصار للدنيا طلاب ألهتهم حياتهم عن العمل والفقة ، وساعد على هذا اللهو ، ضعف القدرة المعرفية ، وبلادة الذوق والتذوق للقرآن ، والسنة . بالإضافة إلى خليط العبث السياسى الذى منيت به الأمة وتميزت به أحقاب من الزمن ليست بالقليلة فى عمر البناء فأخذت العبادة المحل الثانى فى النفوس ، وصار الإسلام ملكاً عضوداً يحتاج ملكه إلى المؤازرة ، والتعضيد فصارت الإمامة للدنيا وجعل الدين تابعاً فنسى الناس رسالة الحق وابتعدوا عن الدين روحاً وسلوكاً وهنا ألحت الظروف : الفكرية والسياسية ، والاجتماعية ، على وجود العبقرية العابدة الطاهرة الأمينة الزاهدة الجريئة ، لتدرك للناس الحكم الشرعى من أصوله الرئيسية : القرآن ، والسنة الصحيحة ، بعد أن عالج الناس سوء الحياة فلجوا فى أخطارها وولغوا فى طهر المياه بما اخترعوه بهتاناً فأفسدوا حقائق العلم التى يرتوى بها فكان ذلك مبدأ فجر جديد صادق لاتجاهات الفقة الإسلامى بذل فيها الأمناء الصادقون النصيحة لله ولرسوله وللأئمة المسلمين

وعامتهم أقصى الجهد لتقديم الحكم الشرعى :

- ثابت الدليل .
- مؤسساً على الحجة .

ليأخذ الناس أحكام الشريعة من مدارك الفقهاء الذين وظفوا أنفسهم فى سبيل الله لا من أجل دنيا أوجاه أو رزق بل ابتغاء مرضاة الله وخدمة للدين الحنيف وتأدية للواجب ورعاية للمجتمع الإسلامى الذى يجب له النصح والتوجيه على سنة الله ورسوله .

وفى خلال عملية إدراك الحكم الشرعى من مصادره الأصلية أخذت الوسائل عدة أنواع : تعددت وتنوعت عند العلماء الكبار بناء على ظروف العصر ومقتضيات الفكر فى المنطقة :

● فالإمام أبو حنيفة رضى الله عنه فى العراق يسند دليل النقل برأى العقل لأن البلد الذى هو فيه بلد حضارة مارسوا الأدب والنقاش والتفكير والذين تمرنوا على هذا الأسلوب يعوزهم فى إدراك الحكم وتقبله إدراك العلة العقلية ليتسق مع الوجدان اقتناع العقل .

● والإمام مالك رضى الله عنه فى المدينة المنورة يحترم عمل أهل المدنية كواحد من وسائل استنباط الحكم الفقهى لأنهم المخالطون العارفون الأقربون من سنة النبى ﷺ .

● والإمامان الشافعى وابن حنبل رضوان الله عليهما فى الحجاز بلد الحديث ومواطن الدعوة يشدون أيديهم على السنة لأن المجتمع مجتمع مولد الرسالة فتح عينيه القانونية والثقافية على نور النبوة لا غير ومن قبل كانت أمة أمية .

والكل ملتزم فى عملية الاجتهاد والاستنباط بأصول التشريع : القرآن والسنة والإضافات فى الوسائل التى بها يدرك الحكم إنما اقتضتها ظروف البلد دفاعاً عن الدين لا حباً فى هوى ، ولا أساساً للاختلاف بين الناس ، ولا مشاحة فى هذا الاختيار ولا يمكن لأحد أن يطعن فالأئمة فى مركز من الطهر لم يبلغه واحد من علماء العصر الحديث : هم أرادوها لله ، ونحن نريدها للدنيا . وهم أحاطوا بالأصول ونحن مازلنا نحبوا فى روضتهم وبعد لم نبلغ الدرجة الصغرى .

وفى خلال العمليات الأدراكية الاستنباطية للحكم الشرعى ظهرت قواعد ضبط إدراك الحكم الشرعى الفقهى التى جعلت منهجاً للعلماء فى عملية الاجتهاد والتى اشتهرت فى العلم بين الناس بأنها علم (أصول الفقة) .

وإذن :

فأسس التشريع الإسلامى : القرآن ، والسنة الإسلامية الصحيحة وطريقة الاجتهاد : هى : عملية إدراك الحكم الشرعى القائمة على شروط خاصة فى المجتهد .

وآلات الاجتهاد : هى : الإجماع ، والقياس بالاتفاق غالباً ، وبزيادات تخضع لظروف بلد الإمام : مثل : عمل أهل المدينة ، والاستحسان والمصالح المرسلة . . . إلخ .

وعلى هذا النمط عرف الفكر الإنسانى :

منهج العلماء فى ضبط إدراك الحكم الشرعى حتى شهد الخصوم لعلماء الإسلام بالسند المتصل ، وبفضلهم فى تحمل الأمانة العلمية .

(ب) حول تدوين منهج العلماء فى إدراك الحكم الشرعى

أولاً : المبـــدأ

الأحكام الفقهية :

هى نتائج البحوث المكتسبة من الأدلة التى فصلت هذه الأحكام ، والبحث للوصول إلى هذه الأحكام له أصول : هى مصادر استندت الأحكام إليها وهذه المصادر هى :

القرآن ، والسنة ، لا غير

وعملية البحث لاكتساب هذه الأحكام الفقهية من مصادرها الأصلية هى الطاقات الفكرية الأمينة التى بذلت خدمة لدين الله للتعرف على هذه الأحكام رعاية لسلوك المجتمع على شريعة الله ، وآلات البحث الكاشفة عن هذه الأحكام التى تستخدم فى عملية البحث : إما أن تكون الإجماع ، أو القياس ، أو أنواع أخرى من آلات الاستدلال التى أقرها العلماء أو وثق فيها الإمام المجتهد .

والأحكام الفقهية بهذا المعنى متأخرة فى مولدها عن عصر النبوة والصحابة .

إذ فى الصدر الأول لم يكن المسلم فى حاجة للحصول على حكم شرعى أكثر من الرجوع إلى النبى ﷺ ، أو أن يسمع القرآن ، فيفهم المراد ، أو يبلغه الحديث فيكفيه العلم بالسند ليدرك مبلغ صلة الحديث بالنبى ﷺ لقرب الزمان ، ووضوح الأحوال ، وشدة الرقابة الدينية فى النفوس .

وقد سمح رسول الله ﷺ للمبعوثين من قبله إلى المسلمين فى البلاد البعيدة أن يفتوا

بما أطمأنت إليه نفوسهم على نحو ما هو مشهور فى حديث سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه ، حين ذكر للنبى ﷺ أنه سيقضى بين الناس بما فى القرآن فإن لم يجد فبما فى سنة رسول الله ﷺ فإن لم يجد فسيجتهد ولا يقصر ، فإن إدراك المعانى من ألفاظها ، واستنباط الحكم من أدلته ، ومراعاة الروح الإسلامية فى بناء الدولة وإقامة العدل ، جبلة فى نفوس الصدر الأول اشرقت بها الصدور إشراقة الحلاوة بالعقيدة فكانوا على نور وهدى من الله ، ومن يهدى الله فهو المهتد .

ثانياً : المولد

فلما انقرض السلف ، وانقلبت العلوم صناعة ، واختلطت الملكات ، وضعف الفكر ووهيت القريحة وصار العلم مستوردا بمشاغل الدنيا وأقبل الناس على الحياة يلهون ، واحدثت فتن كالليل المظلم ، ولدت اضطرابات فى المرويات ، وأدخلت الهوى المتبع على الحق الأبلج حتى تشككت الأحوال ، فاضطر الناس إلى قواعد تعصم إدراك الحكم الشرعى من مظنة الخطأ فعمد إلى ذلك الفقهاء فمزجوا الحكم بقاعدته فنشأ عن ذلك أسلوب فقهى ممزوج بجم من قواعد الاستنباط ، يضبط كل أمام بهذه القواعد إدراك الحكم الشرعى على قدر بصيرته وغاية جهده :

- فكتب الإمام أبو يوسف ، وصاحبه الإمام محمد بن الحسن الشيبانى جملة من تلك القواعد .
- وأشار إلى قدر منها فى موطّأ الإمام مالك بن أنس .

فكانت تلك الكتابات المبدئية المختلطة بالفقه مرحلة المولد لعلم أصول الفقه الإسلامى من غير أن يكون له الاسم الرسمى المشهور به حالياً ، أو له كتاب خاص بقضاياه وحده .

ثالثاً : النمو

فلما كان الإمام الثبت محمد بن أدريس الشافعى رضى الله عنه تطور به المولد إلى علم مستقل كامل أملته ظروف الحياة فى ذلك العصر الذى هاجم فيه الملاحدة كتب السنة ، وأسرف المتشرفون بالكلام فى موضوعات تفاضل بين تقديم القياس على خبر الواحد . . . إلخ .

فانبرى لهم الإمام الشافعى كمنافح عن مصادر التشريع الإسلامى ومدافع عن حياض

السنة ، وينابيع الثقافة الإسلامية ، ووسائل إدراك الحكم الشرعى فإن الشريعة الإسلامية شريعة الحياة مدى الأجيال البشرية ؛ والأزمان كلها ، وجوهر عالميتها ، واستمرارها هو : القرآن والسنة ، وغلاف هذا الجوهر هو : ضوابط إدراك الحكم الشرعى التى تضمن للتشريع الإسلامى السلامة من اتباع الزيغ ، وشطط الأهواء فى عملية الاجتهاد . فيتبع الناس باسم الحق أهواء الضلالة والذين يضلون . . . فيتدرب المجتمع على جحود الشمس وهى فى كبد السماء .

فجمع الله بجهود الشافعى مدخرات الأولين من العلماء ، وصنف فيه المراجع العلمية الأمينة وسماه « أصول الفقة الإسلامى » فكان بدء ازدهار التصنيف والكتابة فى هذا العلم الذى يمنع الله به ضلالة الفكر عن الصراط المستقيم ، لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ؟

وأول ما وصل إلى الفكر الإسلامى من مادة علم أصول الفقة هو ما دونه الإمام الشافعى ومن قبل كانت المادة مجموعة من القواعد منشورة فى ثنايا قضايا أحكام الفقه على أنها أدلة إدراكها ليلمح منها المسلم أصل الحكم الشرعى فجزاه الله وجزى معه السابقين من أئمتنا خير الجزاء على ما قدموه من علم يحرس الله به مستقبل شريعته وينفع به من يشاء من عباده السالكين إليه طريق المحجة البيضاء .

رابعاً : من ثمار النمو

ثم انفتح باب التدوين والكتابة فى علم الأصول حتى كانت له ثمار جمة الأنواع والتصانيف كان فى مقدمتها :

١ – رسالة الإمام الشافعى التى تكلم فيها عن القرآن ، وعن السنة ومنزلتها من القرآن وتكلم عن الناسخ والمنسوخ ، وعن علل الحديث والإجماع ، والقياس ، وخبر الواحد . .

٢ – ومن بعده تتابع المنافحون عن الشريعة : فكتب الإمام أحمد بن حنبل فى موضوعات أصول الفقة ثلاثة كتب : كتاب طاعة الرسول ﷺ وكتاب الناسخ والمنسوخ وكتاب العلل .

٣ – ثم انهمر سيل الفكر : فكتب علماء الأحناف وأطنبوا فى الكتابة والتحقيق بمنهج خاص لهم .

وكتب معهم علماء علم الكلام وعمدوا إلى تحقيق المسائل الأصولية بمنهج خاص لهم فورث الفكر الإسلامى منهجين :

المنهجـان :

(ا) أما الفقهاء :

فقد تناولوا قضايا أصول الفقه بالشرح والتحليل المبنى على الاستشهاد من قضايا الفقه كتطبيق عملى للقاعدة مع فرعها المنبثق منها ، فهم يذكرون القواعد الأصولية أولاً ثم يأتون بأصل الدليل من مصدره الأمين : القرآن والسنة ، ثم يفسرون كيفية إدراك واستخراج واستنباط الحكم الفقهى من دليله الأصلى بناء على قاعدته الأصولية .

(ب) أما المتكلمون :

فقد ارتفعوا بقضايا الأصول عن موطن التطبيق ، فبحثوا قضاياه مجردة عن الفروع الفقهية مكتفين بالاستدلالات العقلية ، والبرهنة الفكرية .

٤ – ومن مواريث الثمار ، وكنتائج لطريقى المنهجين سلك العلماء فيما بعد طريقة التألف :

(ا) فعلى طريقة الفقهاء كتب جمع من علماء الأحناف منهم :

- أبو بكر الرازى المتوفى سنة ٣٠٧ هـ
- أبو زيد البدسى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ
- شمس الأئمة السرخسى المتوفى ٤٣٨ هـ
- فخر الإسلام البزدوى المتوفى سنة ٤٨٢ هـ

(ب) وعلى طريقة المتكلمين كتب جمهرة من علماء الشافعية ، منهم :

- أبو الحسن البصرى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ (كتاب المعتمد)
- أبو المعالى الجوينى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (كتاب البرهان)
- أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (كتاب المستصفى)

خامساً : مرحلة الجمود والتعقيد

لم يكن علم أصول الفقه مادة علمية هدفها ذاتها ؟ نعم الفقه مادته من حيث هو علم الأحكام السلوكية التى تبين للناس الطريق السوى إلى الله ولكن أصول الفقه ليس بهذه المثابة ، بل هو قواعد وآلات تسعف المجتهد فى إدراك الحكم الشرعى من مصدريه الأساسين : القرآن والسنة .

إنه فى أدق مداركه : منهج الإمام المجتهد ، وهو وحده الذى يملك أن يقرر القواعد الأصولية التى يحاجج بها ، يزيد أو ينقص منها ، ذلك لأنه هو وحده المسئول أمام الله عن نتائج بحثه التى يترتب عليها عبادة الناس لله رب العالمين ، فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

ومعنى هذا : أن الخلف غير المجتهدين إنما حظهم من أصول الفقه والنظر فى قواعد الاجتهاد ووسائله هو التعلم ، وإدراك الدقة العلمية التى ضبط بها العلماء الأول عملية الاستنباط ليحصل من التابعين لهم التبجيل وفاء لما بذلوه لوجه الله من جهد هو عليهم ضريبة ، ولهم من الله منحة ، دون أن يزيد الاتباع فيه شيئاً بالتقرير أو بالحاشية ، إذ رأى غير الإمام فى قواعد الأصول ليس بذى معنى وليس بذى غاية .

وإذا تجاوزنا نحن الاتباع حد هذا الحق إلى الزيادة أو الاختزال ، أو الاختصار فقد عقدنا الأمور ، وصعبنا السهل ، وأظلمنا النير دون ما فائدة أو حسنة ، وذلك هو ما منيت به دراسات أصول الفقه التى هى فى جوهرها « منهج المجتهد فى استنباط الحكم الشرعى » ولكن الخلف من بعد الرعيل المجاهد تدخلوا بالرأى : تقريراً ، وتحشية وتخطئة ، وتصويباً . . . إلخ فأطالوا فى شرح المختصرات . واختصروا شروح المطولات وجمعوا الكتب فى مختصر ، واختصروا المختصر فى مختصر آخر حتى خفيت المعانى بين أحجار العبارات التى عجت بها – فى غير تسلسل وأنسياب – كتب الأقدمين –

وكان ذلك نتيجة للمرض الفكرى الذى أصيب به الشرق الإسلامى بعد الانتكاسات السياسية ، والاجتماعية ، التى اعيت الفكر ، وأذبلت العزيمة ، وأضعفت الإرادة ، وثبطت الهمة .

فكان من محاصيلها مجموعة من المختصرات ، والمجموعات لما سبق من التصانيف والتآليف ومن بين ذلك :

١ – اختصر النسفى م ٧٩٠ هـ كتاب فخر الإسلام البزدوى م ٤٨٢ هـ

٢ – واختصر صدر الشريعة م ٧٤٧ هـ كتاب البزدوى ، وكتاب ابن الحاجب فى كتاب واحد سماه « التنقيح ، ثم شرحه هو بكتاب سماه « التوضيح »

٣ – واختصر الرازى م ٦٠٦ هـ ثلاثة كتب فى كتاب واحد :

الكتب الثلاثة هى :

البرهان لإمام الحرمين « الجوينى » .

المعتمد لأبى الحسن البصرى .

المستصفى للإمام الغزالى .

وسمى هذا المختصر من هذه الكتب الثلاثة « المحصول » .

ثم جاء من بعد ذلك محمد بن الحسن الأرموى م ٦٥٦ هـ فاختصر المحصول فى كتاب سماه « الحاصل » .

ثم جاء من بعده القاضى عبد الله البيضاوى م ٦٥٨ هـ فاختصر الحاصل فى كتاب سماه « المنهاج » .

فانظر كيف تختصر ثلاثة كتب فى كتاب واحد ، ثم يختصر الكتاب الواحد هذا فى كتاب آخر ، ثم يختصر هذا الأخير فى كتاب آخر ؟

كيف يفى مختصر المختصر من المختصر الأول بمراد واحد من الكتب الثلاث بله كلها أجمع ؟

يعنى : كيف يفى المنهاج الذى اختصره القاضى البيضاوى من الحاصل الذى اختصره الأرموى ، الذى هو مختصر من المحصول الذى هو مختصر من الكتب الثلاثة الكبرى :

المعتمد ، البرهان ، المستصفى ؟

وعلى نفس الطريقة يلخص سيف الدين الآمدى م ٦٤١ هـ الكتب الثلاثة السالفة فى كتاب سماه « الأحكام فى أصول الأحكام » .

ثم يأتى ابن الحاجب المالكى م ٦٤٥ هـ ويختصر كتاب الآمدى فى كتاب سماه منتهى الوصول ، ثم اختصره هو بنفسه مرة ثانية فى كتاب سماه « مختصر المنتهى » .

وتختم الحلقة بمختصر تاج الدين السبكى م ٧٧١ هـ الذى سماه « جمع الجوامع المشهور بالتعقيد والصعوبة وخفاء المعنى فى بطون أمهات الكتب التى جمع منها وهى : كما يقول هو - تزيد على السبعين كتاباً » .

وبهذه المرحلة يتجمد البحث فى علم أصول الفقه الإسلامى اللهم إلا رسائل جديدة فى بعض قضاياه ألفت على نمط الإحصائيات التاريخه أو على نمط التفلسف والتبحر فى بعض قضاياه .

وآخر أبحاث موضوعية معاصرة قدمها فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ الفاضل بن عاشور

إلى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف فى المؤتمر الأول لعلماء المجمع فى عام ١٩٦٤ م وكذلك أبحاث قدمها لفيف من كبار العلماء منهم فضيلة الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن الوكيل السابق لمشيخة الجامع الأزهر وفضيلة الشيخ الوزير السابق محمد فرج السنهورى .

على بدء نعود :

وإن وظيفتنا هنا هى أن نعود بعلم الأصول إلى غايته حتى نقف على أسس البحث الفقهى عند السابقين من أئمتنا فنشرحها كما حققها الأئمة على أنها قواعد منهج تضبط علمية استنباط الحكم الشرعى دون ما زيادة منا أو تعمق « حشوجى » أو اتباع لمن زاد واطنب .

أما من وهبه الله طهراً فى القلب ، وإخلاصاً فى النية ، وعلماً واسعاً بالقرآن والسنة وصح منه العزم ، ورغب فى الله ورسوله وجهاد فى سبيلها فليتبوأ مقاليد هذه الخطوة وليضف للقواعد ما أطمأنت إليه نفسه حتى ينافح عن الدين بالسلطان والخبرة والعلم والحكمة فإن النبى ﷺ قد تفاءل لهذه الأمة أن يحيا فيها طائفة تجدد الدين للناس وتحمى الشريعة من البلاء النفسى يقول ﷺ « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

وهو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

أن الأمر دين يصان وواجب يؤدى فمن استأنس واستبرأ لعرضه ودينه فليخضها على بركة الله فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر ، ولكل درجة .

دكتور

رءوف شلبى

فهرس العدد

الصفحة

الصفحة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٩١٤
٩٠٥٥٠٦

الجزء الثالث – السنة الخمسون – رجب ١٣٩٨ هـ – يونيو ١٩٧٨ م



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والغرب

فضيلة الإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإنّ الإسلام واضح جلى ، وتعاليمه سهلة ميسورة ، تنسجم مع العقل والمنطق ، وإذا كان الأمر كذلك ، فما الذى يمنع الغربيِّين من الدخول فى الإسلام زرافات ووحدانا ؟ . .

وما السر فى عدم أخذ الأوربيين بهذا الدين ، وعدم اعتناقهم له فى سرعة سريعة ، وفى كثرة هائلة ؟ . .

الواقع أن العوامل التى تمنع الأوربيين من اعتناق الإسلام كثيرة قوية ، ومن المؤسف أن بعض هذه العوامل يرجع إلى المسلمين أنفسهم ، ولنتحدث أولا عن

العوامل الخارجية عن الإسلام والمسلمين .

١ - وأول هذه العوامل هى الكنيسة :

لقد أتقنت الكنيسة فن النظام ، فلا ارتجال فيها ، كل شيء فيها معد مرتب منسق ، قد بحث عن رويَّة وأُعِدَّ إعدادا تاما . .

وكان ممّا أعدّته مشروعان كبيران أحدهما : للتبشير. والثانى : لصد الهجوم عن الديانة المسيحية .

أما فيما يتعلق بالتبشير ، فإنه من الأوليات عندها ، أن يعرف المبعوث لغة المرسل إليهم ، ويدرس عاداتهم ، وتقاليدهم ، وديانتهم ، ومواطن الضعف فيهم ، والوسائل التى تجذبهم ، وأن يعلم فضلا عن ذلك ، بعض مبادئ الطب ، ويعلم قبل ذلك وبعده كيفية الهجوم على الديانة المتوطنة . وكيفية الدعوة لديانته ، أما المشروع الآخر وهو الذى يعنينا - على الخصوص - هنا ، فهو على الخصوص يتركز فى دراسة مستمرة متجددة فى أحدث الوسائل لتشويه ديانات الآخرين فى ذلك .

وما نشر من أضاليل عن الإسلام لايُحصر ولايُعدّ ، إنها أضاليل تنشر متتابعة متكررة ، تتردد فى صور مختلفة ، وينتهى بها التكرار والترديد إلى إيمان من تنشر عليهم بها ، وتبلغ بهم الصفاقة إلى أن يعكسوا الحقائق عكسا تاما ، فالدين الإسلامى مثلا ، وهو دين التوحيد الخالص ، ودين التنزيه التام ، يشيعون عنه أنّه دين عبادة الأوثان . .

ويكررون ذلك فى مختلف الأمكنة والأزمنة ، وينتهى المسيحيون بالاعتقاد بأن هذا الدين إنما هو : عبادة الأوثان .

وهكذا تسير الدعاية تضليلا وتشويها وعكسا للحقائق .

ومن أهم الوسائل أيضا لتحصين المسيحية مايسمّونه نظام الحرمان من الدين المسيحى ، وهو نظام بمقتضاه يسهل على الكنيسة أن تحرِّم قراءة أى كتاب ترى فيه خطرا على المسيحية ، سواء كان هذا الكتاب هجوما عنيفا على المسيحية ، أودعاية بارعة للإسلام ، أوحتى نمطا ممتازا من الدعاية القوية لسعة الأفق وتحرير الفكر .

وقد استعملت الكنيسة هذا الحق فى شأن كثير من الكتب الممتازة ، واستعملت هذا الحق أيضا فى شأن كثير من الكاتبين ، وكان موقفها من كل كاتب لايمكنها أن تستولى عليه - بوسيلة الرغبة أوبوسيلة الرهبة - أن تُحَرِّم قراءة كتبه ، وأن تَحْرِمَه هو من رحمة السماء .

عند الكنيسة إذن : الرغبة والرهبة . عندها المال ، وعندها الحرمان .

٢ - على أنّ الأسباب التى ترجع إلى

المسلمين ، لاتقل خطرا عن الكنيسة !

إن أية دعوة مهما كانت من السموّ لايمكن أن تجتذب إليها الأنصار إلا إذا كان لها دعاية . . وقد أخذت الدعاية فى العصر الحديث مكانا يجعلها فى الدرجة الأولى من الأهمية .

ويعرف ذلك المسلمون ، يعرفه تجارهم ورجال الأحزاب منهم ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنهم لايعملون به فيما يتعلق بنشر الإسلام .

أين دعاتنا فى الشرق أوالغرب . أين مبعوثونا . أين الدعاة منا ؟

لاشىء من ذلك مطلقا ، ومن المعروف أن مبعوثى الحكومة ومبعوثى الأزهر إلى الأقطار الخارجية : إنما بعثوا لتعليم الحساب والخط والإملاء واللغة العربية فى مدارس إسلامية ابتدائية أو إعدادية أو ثانوية ، ليس لنا فى الخارج قط مبعوثون ، وإذا كان الدين الإسلامى ينتشر فإنما ينتشر بقوته الذاتية ، رغم الهجوم عليه ، ورغم العقبات التى تعترض طريقه .

ولنقارن ذلك كله بالإرساليات التبشيرية ، ومن أمامها ومن خلفها : المستشفيات والملاجئ ، والمدارس والمعاهد ، والمال يُغْدق ، والوظائف تُهَيَّأ ، ولنتصور كفتى ميزان إحداهما لاشىء فيها وتلك هى كفة المسلمين بالنسبة للإسلام ، والأخرى فيها كلُّ شىء ، وتلك هى كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية .

وسبب ثان تحدث عنه جمال الدين الأفغانى ، وكان يرى أنه أقوى الأسباب ، ذلك هو حالة المسلمين .

وكثيرا ماقال جمال الدين : إن الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين ، فإنهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء مستكينين ، فرّقت بينهم الأهواء والشهوات وقعدت بهم الصغائر ، وانصرفوا عن عظائم الأمور ، وأصبحوا مستعبدين مستذلين ، ولو كان الإسلام دينا قويا لما كان المسلمون هكذا . .

ينظر الغربيون إلى المسلمين فى العصر الحاضر ، وينسون شيئين :

ينسون أن المسلمين فى العصر الحاضر غير مستمسكين بالإسلام ، وتكاد الصلة التى بينهم وبينه تكون مجرد صلة اسمية ، وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا مستمسكين بالإسلام ، وأيام أن كانت الدنيا لهم .

ولعل المسلمين يعودون إلى دينهم صافيا نقيا ، ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الإسلام قويا ساميا .

وآداب الإسلام حقيقة كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلا قويا مهذبا كريم النفس ، ولكن المسلمين ابتعدوا كل البعد عن

الإسلام .

ولنتخذ مثلا بسيطا ، مسألة النظافة . .

لقد دعا الإسلام إلى النظافة دعوة لم يَدْعُها دين من الأديان ، ولم يدعها مذهب من المذاهب قديما أو حديثا ، ولكن إذا نظرنا إلى الأقاليم ، الإسلامية أو إلى الأحياء الإسلامية ، وقارنَّاها بالأقاليم أو الأحياء الأخرى ، نجد الفرق واضحا ، سواء كنا فى مصر ، أم فى تونس ، أم فى مراكش ، أم فى غير ذلك من البلدان .

ونأخذ مسألة أهم من ذلك ، مسألة اتحاد الأمم الإسلامية .

فقد دعا إليها الإسلام فى صور لاحصر لها ، وبأساليب لاحدّ لتنوعها ، مهدِّدا متوعِّدا تارة ، مرغِّبا محببا تارة أخرى ، متحدثا عن الثمرات المادية والدنيوية للاتحاد ، ومع ذلك فقد كان كل ذلك صرخة فى واد ، وكأن المسلمين عن الاتحاد صم بكم عمى فهم لايعقلون .

وخذ آداب الإسلام واحدا فواحدا ، وانظر إلى حال المسلمين .

هل تجد توافقا وانسجاما بين المسلمين والإسلام .

يقول جمال الدين :

« إذا أردنا أن ندعو للإسلام ، فليكن أول مانبدأ به أن نبرهن للغربيين أننا لسنا مسلمين » وسبب ثالث لعدم انتشار الإسلام آت من المسلمين أنفسهم . .

منذ سنوات جاء أحد الأمريكان ليمكث فى مصر فترة من الزمن يتعلم فيها الإسلام ، واتصل بالهيئات التى تمثل الإسلام ، فبلغت الحيرة منتهاها حينما أرادت هذه الهيئات اختيار كتاب يتعلم من خلاله الإسلام .

ومن الطبيعى أن يتجه الذهن إلى كتب علم الكلام ، فهى كتب الدفاع عن العقيدة . . ولكن إذا نظرنا فى كتب علم الكلام نجد أنها جدال لاينتهى بين الذين يبحثون فيه ، بالزيغ . وابتغاء الفتنة ، والجدال فيها يبدأ ويعاد ولاينتهى .

ثم هى تصور – على الخصوص – المستوى الثقافى للعصور الوسطى ، ولاتمت بصلة إلى الأبحاث الحديثة . ومن الطبيعى أن تكون كذلك لأنها أُلِّفت فى العصور الماضية ، وماأُلِّف منها حديثا ، ألف على نمطها اتباعاً للآباء والأجداد ، وبغضا للخروج عن المألوف .

وإذا لم نأخذ الدين من كتب علم الكلام فهل نأخذه من كتب التفسير ؟ .

لقد انتهى تفسير القرآن إلى أن أصبح مسرحا يتبارى فيه النحويون واللغويون وبلاغيُّو العصور المتأخرة ، وغشت هذه النواحى على الهداية لما أنزل الكتاب من أجله أى الهداية للأقوام .

وإذا كانت كتب الكلام قد استفاضت فى الحديث عن القدر، مع نهى رسول الله ﷺ نهيا صريحا عن الحديث فيه، وإذا كانت قد استفاضت فى الحديث عن صلة الذات الإلهية بالصفات، إذ إنه محاولة لاكتناه الذات الإلهية التى نهينا عن التفكير فيها، وأمرنا بالتفكير فى آثارها، وإذا كانت كتب الكلام قد تعرّضت لذلك دون جدوى ولا ثمرة، فإن كتب التفسير أيضا قد تعرضت لهذه المشاكل نفسها دون جدوى ولا ثمرة.

ومما لاشك فيه أن اكتناه سر الألوهية من حيث الذات، أومن حيث القدر، من المتشابه الذى نهينا عن الخوض فيه..

ولكن اكتناه سر الألوهية من الأمور التى تتطلع إليها نفوس طائفة من الناس أرادوا بعقلهم المحدَّد تعيين مالا يُحَدّ، وطمعوا فى أن يُحِدُّوا بعلمهم الجزئى مالايحيطون به علما.

ونشاهد الاتجاه فى عهد الرسول نفسه، وكان موقف الرسول منه حاسما، والأحاديث كثيرة مستفيضة فى النهى عن الخوض فى الذات أو فى القدر، ومما يروى فى ذلك:

« الأمر المتكرر المتنوع بالتفكير فى الخلق دون ذات الخالق حتى لانهلك »

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال:

« خرج رسول الله ﷺ، ونحن نتنازع فى القَدَرِ فغضب، حتى احمر وجهه، ثم قال: أبهذا أُمِرْتم أم بهذا أُرْسِلْت إليكم.. إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر.. عزمت عليكم ألاتنازعوا.. »

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده قال:

« خرج رسول الله ﷺ، ذات يوم وهم يتراجعون فى القدر، فخرج مغضبا، حتى وقف عليهم فقال: ياقوم، بهذا ضلت الأمم قبلكم: باختلافهم عن أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا، ماعرفتم منه فاعملوا به وماتشابه فآمنوا به..

وبعض الأحاديث تذكر: « فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله، ثم انتهرنا.. أوفغضب حتى لكأنما فُقِىء فى وجهه حَبّ الرمَّان ».

وكان من الممكن لو استقامت عقول الناس، ونزعت من قلوبهم الأهواء والشهوات أن يكتفى بنهى القرآن، وبنهى الرسول ﷺ، ولكن الذين فى قلوبهم زيغ موجودون فى العالم فى كل آونة وحين، وفى كل بيئة ومكان.

فقد أطلّت الفتنة فى عهد عمر بن

الخطاب ، رضى الله عنه ، ممثلة فى صبيغ الذى كان يتكلم فى القدر ، فأخذ عمر يضربه بعراجين النخل على رأسه حتى تاب ، فتركه بعد أن أدمى رأسه وقال حسبك ياأمير المؤمنين ، قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى : يريد بذلك أنه قد تاب ،وأن نزغاته قد بدّدتها عراجين النخل ، وذهبت مع الدم الذى سال من رأسه . .

وسأله سائل عن آيتين متشابهتين ، فعلاه بالدرّة . .

يقول الإمام ابن قتيبة فى شرح مختلف الحديث :

« . . وقد تدبّرت مقالة أهل الكلام ، فوجدتهم يقولون على الله مالايعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون الناس ، بالقذى فى عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجذاع ، ويتهمون غيرهم فى النقل ولايتهمون آراءهم بالتأويل ، ومعانى الكتاب والحديث ، وما أودعاه من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة لايدرك بالطفرة والتولّد ، والعرض ، والجوهر ، والكيفية ، والأينية . . ولو ردّوا المشاكل منها إلى أهل العلم لوضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة . .

إنَّ عَرْضَنا الدين الإسلامى على هذا النمط من العرض ، جعل كتبنا لايتيسر فهمها للأجانب عنا ، ولو لم يكن فى الإسلام تلك القوة الذاتية الّتى تستولى على القلوب وتغمر الأفئدة لضاق بهذه الكتب المسلمون أنفسهم . . الإسلام إذن بحاجة إلى عرضه عرضاً سهلاً مُيَسَّرا قوياًّ ، وبأساليب متنوعة وصور مختلفة حتى نتلافى هذا التقصير .

ومع كلّ هذا . . هل مَنَعَت هذه العوامل من انتشار الإسلام وذيوعه ؟

هذا وبالله التوفيق ،

د .عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

فضلُ البعثة المحمّدية[١]

العلامة أبو الحسن الندوى

إعلان فريد فى تاريخ الرسالات والديانات :

قال الله تعالى مخاطباً لنبيه محمد - ﷺ - : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[٢] » هذا إعلان فريد من نوعه ، جاء فى كتاب خالد قدّر الله سبحانه وتعالى له أن يتلى فى كل مكان وزمان ، ويبلغ عدد قرائه ملايين الملايين ، وقال عنه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[٣] » .

إن سعة هذا الإعلان وإطاره الكبير ، ومساحته بحساب الزمان والمكان ، تجعلان هذا الإعلان خارقاً للعادة ، لا يمكن أن يمرَّ به الإنسان الواعى مرًّا عابراً سريعاً ، فإن مساحته الزمنية تحوى جميع الأجيال ، والأدوار التاريخية التى تتلو البعثة المحمدية ، ومساحته المكانية تسع العالم كله ، فإن الله سبحانه وتعالى لم يقل إننا أرسلناك رحمة لجزيرة العرب ، أو للشرق أو للغرب أو لقارة مثل آسيا مثلاً ، بل إنه قال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

الحق أن سعة هذا الإعلان وشموله ، وعظمته وسموه ، واستمراره وخلوده ، كل ذلك يقتضى أن يقف عنده مؤرخو العالم وفلاسفته ونوابغه وأذكياؤه حيارى مشدوهين ، بل يقف أمامه الفكر الإنسانى كله حائراً مشدوهاً ، وينقطع إليه كليًّا - رُدْحَةً من الزمن - يبحث فى مدى صدق هذا الإعلان ، أو صحة هذا الواقع ، لأننا لم نجد فى تاريخ الأديان والنِّحَل ، وفى تاريخ الحضارات والفلسفات ، وتاريخ الحركات الإصلاحية والمحاولات الثورية ، بل فى تاريخ العالم

---

(١) تعريب : محمد الحسنى رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامى » .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) سورة الحجر : ٩ .

كله ، وفى المكتبة الإنسانية بأسرها مثل هذا الإعلان المحيط بالكون كله ، والأجيال البشرية كلها ، والأدوار التاريخية بأجمعها حول أى شخصية من شخصيات العالم ، حتى إن خلاصة تعاليم الأنبياء السابقين ، ونبذة من أحوالهم وسيرتهم التى وصلت إلينا هى أيضاً مجردة عن مثل هذا الإعلان .

أما اليهودية – وهى ديانة قديمة مشهورة – فإنها تنظر إلى الله كـ « ربِّ بنى إسرائيل » ، وإله بنى إسرائيل فى الغالب . . إن صحف العهد القديم ، والكتب المقدسة الدينية عند اليهود تخلو عن ذكر الله (كربّ العالمين ورب الكون بتاتاً) ، ولذلك فالبحث فى سيرة نبى من أنبيائهم مثل موسى وهارون . أو داود وسليمان ، عن مثل هذا الإعلان ، عبث وإضاعة وقت ، فإن هذه الديانة لم تكن – فى أى مرحلة من مراحلها – رسالة رحمة ومساواة للجيل الإنسانى كلِّه من غير تمييز عنصرى ، ولم تشجع فيها الدعوة إلى هذه الديانة خارج شعب إسرائيل أبداً [١]

أمَّا المسيحية التى عُرِفَتْ بتسامحها وحماسها للدعوة وعطفها على الانسانية ، فإن نبيَّها المسيح عليه السلام – صرح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بنى إسرائيل الضالة [٢] . وحين لُفِتَ نظرهُ إلى بعض المرضى الذين لم تكن لهم صلة رحم ونسب ببنى إسرائيل اعتذر وقال « إنى لست ذلك الرجل الذى يعطى خبز الأولاد للكلاب [٣] » .

أما الديانات الشرقية والأسيوية الأخرى ، وخاصة الهندوكية فإنها لا تختلف كثيراً عن النموذج السابق ، بل إنها تسبق الديانات السابقة أحياناً فى تقديس النسب والسلالة وتوزيع الناس فى طبقات توزيعاً ظالماً جائراً . لا يعرف اللين والمرونة والمساواة ، ومن أُولَى حقوق الإنسان ، وأبسط مبادئ الإنسانية ، لا يجوز لهم تحصيل العلم ، والتعليم والتدريس ، والتطلع إلى الهضبة الروحية ، فقد خص دراسة « ويدا Vida » وتقديم القرابين والنذر لآلهتهم وأوثانهم بالبراهمة فحسب [٤] » وكان النظر فى كتب « ويدا » ودراستها مقصوراً على فئة كاشترى والويش [٥] وقد صرح « منوشاشتر » أن المنبوذين لم يخلقهم الله إلا

---

(١) انظر للتوسع والتفصيل فى هذ الموضوع كتاب المهتدية الأمريكية الفاضلة مريم جميلة :

(٢) إنجيل متى ، الإصحاح ١٥ – فقرة ٢٤ ، الإصحاح ١٠ – فقرة ٦ – ٧ .

(٣) متى الإصحاح ١٥ – فقرة ٢٦ .

(٤) منوشاشتر : الباب الأول – ٨٨ .

(٥) الباب الأول – ٨٩ – ٩٠ .

لغرض واحد ، وهو خدمة الطبقات الثلاث التى مضى ذكرها[١] . . إن أهل الهند القدامى لم يكونوا يعرفون وراء جبال « هملايا » دنيا ولا صلة لهم بالعالم الخارجى ، وبالشعوب الأخرى ، ولا رغبة لهم فى الإطلال عليها . . لذلك فإن البحث عن مثل هذا الإعلان عن نبىٍّ أو ولىٍّ أو مصلح فيهم عبث وإضاعة جهد ووقت ، الحقيقة أن البحث عن نبى يكون رحمة للعالمين فى ديانة لا تحمل عقيدة « رب العالمين » غير معقول وغير منطق .

قيمة الرحمة التى اقترنت بالبعثة المحمدية كمًّا وكيفاً :

إنَّ لتقدير شيء ووضعه فى محله المناسب ومكانه اللائق مقياسين بصورة عامة : الأول : مقداره وحجمه الذى يعبر عنه فى المصطلح الحديث بالكمّ (Quantity) والثانى جوهره ووصفه الذى يقال له الكيفية (Quality) . . وهذا الإعلان الذى نادى به القرآن يشمل هذين النوعين ، ويجمع بين الناحيتين . . فإن بعثته – صلى الله عليه وسلم – وشخصه العظيم وتعاليمه السامية الخالدة أفاضت على الإنسانية بمسحة جديدة من الحياة والنشاط ، وكانت السبب المباشر فى شفائها من أسقامها وعلاتها وفى حل معضلاتها ، ونهاية آلامها وأحزانها وهطول أمطار الرحمة والبركة ، واليمن والسعادة ، والخير والفلاح على أرضها المجدبة القاحلة وكانت هذه المعطيات المحمدية الغالية منقطعة النظير بحساب السعة والوفرة ، والحجم والكمية (Quantity) وبحساب النفع والإفادة والجوهر والكيفية (Quality) أيضاً .

« الرحمة » لفظ شاع استعماله فى حياتنا اليومية ، وهو يطلق على كل شيء ينال به الإنسان نفعاً وراحة . . أما أنواع الرحمة وأقسامها ، درجاتها ومدارجها فلا حصر لها ، يقدم أحدنا الماء البارد إلى أخيه العطشان ، ويَدُلّ المسافر والغريب على الطريق ، ويحرك له المروحة فى يوم صائف ، شديد الحر ، والأم تحنو على طفلها ، الأب يربى ولده ويعلمه ويزوده بحاجيات الحياة ، والمدرس يعلم تلاميذه ، ويمنحهم ما عنده من نعمة العلم . . وهكذا إطعام الجائع المسكين ، وإكرام الضيف ، وكساء العريان . . كل ذلك من مظاهر الرحمة العامة وألوانها المختلفة الزاهية ، وهى تستحق منا كل تقدير ، واعتراف وشكر .

---

(١) الباب الأول – ٩١ .

ولكن أكبر مظهر من مظاهر الرحمة ، وأروع صورة من صورها الجميلة أن ينقذ أحدنا أخاه من مخالب الموت . . هناك طفل صغير برىء نراه فى حالة الاحتضار كاد يلفظ نفسه الأخير ، والأم تقف إلى جواره تبكى ، قد أظلمت الدنيا فى ناظريها ، وانقطع أملها فى فلذة كبدها ومأوى حنانها وحبها ، والأب يسعى هنا وهناك هائماً على وجهه ، فلا يجد راقياً وأنيساً . . هنالك يأتى طبيب حاذق ، كما ينزل الملكُ من السماء ويقول مهلاً . . لا داعى للقلق ولا موجب لليأس ، ولا يلقى فى فم الطفل قطرات قليلة من الدواء حتى يفتح عينيه وينشط . . . تصور ماذا يقال لهذا الطبيب ، ألا يقال له إنه ملك الرحمة أرسله الله لإنقاذ هذا الطفل ، وإعادة الحياة إليه ، هنالك تتلاشى كل هذه الأنواع من الرحمة التى قدمناها أولاً ، وتذوب أمام هذا المظهر الرائع الأخَّاذ من الرحمة ، إنها ليست مِنَّةً على الطفل فقط ، بل على أسرته كلِّها .

نرى أعمى يمشى متوكئاً على عصاه ، قد شارف هوة عميقة أو بئراً ، قد تكون خطوته التالية خطوة الموت ، فيهرول إليه عبد من عباد الله ويأخذ بيده ويمنعه من الوقوع فى هذه الهوَّة . . أفلا نسميه ملك الرحمة ؟ .

هذا شاب يافع ، قرة عين أبويه ، وكفيل عائلته الفقيرة قد أشرف على الغرق فى نهر فائض ويحاول أن يطفو على الماء ، ولكن بدون جدوى ، فيقفز إليه رجل مجازفاً بحياته ، ويأخذ به إلى ساحل النجاة ، فيحمله رب الأسرة أو إخوة هذا الشاب ، على أعناقهم ويضمونه إلى صدورهم ، بحرارة وحب ، ولا ينسون فضله على أسرتهم الصغيرة مدى الدهر؟ ترى هل تساوى مظاهر الرحمة الأولى ، هذه الرحمة العظيمة الغالية ؟ .

البعثة المحمدية أنقذت الجيل البشرى من الشقاء والهلاك :

ولكن آخر مظهر من مظاهر الرحمة وقمتها وذورة سنامها ، هى أن ينقذ رجل الإنسانية كلها من الهلاك ، وهناك فرق عظيم ين هلاك وهلاك ، وبين خطر وخطر ، ذلك هلاك محدود سطحى وخطر عابر قد يزول ، وهذا هلاك أبدى . وخطر مستمر لا يزول . . لذلك فإن رحمة الأنبياء بالنوع البشرى لا تقاس أبداً على هذه الرحمات ، رغم أهميتها وعظمتها .

إن أمامنا بحراً هائجاً مائجاً من الحياة لم يلتقم الأفراد والآحاد فحسب ، بل إنه ابتلع الأمم والبلاد ، وهضم الحضارات والمدنيات ، ترتفع أمواجه العاتية الهائلة ،

كأفواه التماسيح الفاغرة ، وتنقض على الجماعات البشرية كالأسد الضارى ، والمشكلة أنَّه كيف نعبر هذا البحر الهادر الزاخر الذى لا يعرف الرحمة ، وكيف ننزل بسفينة الإنسانية على بر الأمان ، ولا يكون صاحب الفضل الأكبر فى هذا المجال ، ولا يعتبر أكبر منقذ للإنسانية وصاحب المنَّة عليها ، والإحسان إليها إلا من يجدِّف هذه السفينة ، التى تلعب بها العواصف الهوجاء ، والأمواج الهائلة كالجبال ، والتى غُصَّت بركابها ، وغاب الملاح والربان ثم يوصلها بسلامة إلى ساحل النجاة .

إن النوع البشرى شاكر لهؤلاء الذين منحوه هدية العلم ، ويشكر هؤلاء الذين جمعوا له هذه الأكداس من المعلومات . ويشكر الذين هيأوا له كل هذه التسهيلات وزودوه بوسائل الراحة والرخاء ، زللوا صعاب الحياة ، واقتحموا عقباتها وشعابها ، إنه لا يبخس حق أحد من هؤلاء ، ولا ينكر فضلهم عليه ، ولكن قضيته الكبرى ، ومشكلته الأولى هى أنه كيف ينقذ نفسه من أعدائه الذين وقفوا له بالمرصاد ، وأحاطوا به من كل جانب ، وكيف يصل بسفينته إلى بر السلامة والأمان .

فما هى أمواج هذا البحر ، وما هى تماسيحه الضارية الشرسة ؟

إنها الجهل عن خالق هذا الكون ورب العالمين ، وعن صفاته العليا ، وأسمائه الحسنى والوقوع فى حبائل الشرك والوثنية ، وعبادة الأصنام ، والاسترسال مع الخرافات والأوهام . . إنها بلادة حس الإنسانية ، وذهولها عن نفسها ، وغفلتها عن خالقها وبارئها .

إنَّها عبادة المادة والمعدة ، وتعدِّى الحدود ، وانتهاك الحرمات ، وسَوْرة النفس الأمَّارة بالسوء ، والتهرب من أداء الواجبات والحقوق ، والإصرار على المنافع والحظوظ . .

إن أكبر خطر على الإنسانية أن يحدث فى بنائها خلل ، وتحيد لبنتها الأساسية عن مكانها الصحيح ، فينسى الإنسان قيمته ومداركه ، وغاية حياته ، ويظن نفسه ذئباً مفترساً أو أفعى أو ثعباناً ، فحين يذهل الإنسان عن هذه الحقائق الكبرى يتحول بحر هذه الحياة إلى نار متأججة ، ولهب مرتفعة ، هنالك يزدرد الإنسان أخاه ، ويفترسه ، ولا يحتاج إلى الثعابين ، والعقارب ، والذئاب ، والفهود . فقد ينقلب الإنسان أكبر ذئب فى هذه الغابة الإنسانية . . تخجل أمامه ذئاب ، ويتحول شيطاناً مارداً ، تستحى منه الشياطين ، هنالك يحترق الإنسان ، ويشوى فى ناره التى أشعلها بنفسه ، ولا يحتاج إلى أن

يستوردها من الخارج .

فى هذه الفترة الرهيبة المظلمة تهب نفحة من نفحات الرحمة الإلهية ، وتنعش رفات الإنسانية الخامدة الهامدة ، وتزودها بملاحين يجدفون سفينتها بنجاح ومهارة .

مهمة النُّبُوَّة ودورها فى الإنقاذ والإسعاد وطبيعة عمل الأنبياء :

وأضرب - لتوضيح مهمة النبوة ، وطبيعة عمل الأنبياء مثلاً سوف نفهم به مهمة النبوة وموقفها من غير دلائل فلسفية دقيقة .

يُحْكَى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة فى البحر ، أو للوصول إلى البر . . وكان فى النفس نشاط وفى الوقت سعة ، وكان الملاح المجدِّف الأمى خير موضوع للدعابة والتنادر ، وخير وسيلة للتلهى ، وترويح النفس ، فخاطبه تلميذ ذكى جرىء وقال : يا عمّ ماذا درست من العلوم ؟ قال الملاح : لا شىء يا عزيزى - قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عمى ؟ قال ، كلا وما سمعت بها .

وتكلم أحد التلاميذ ، فقال : ولكنك لا بد درست علم الإقليدس والجبر والمقابلة - قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أنى أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة .

وتكلم ثالث (شاطر) فقال : ولكنى متأكد من أنك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال : هل هما إسمان لبلدين ، أو عَلَمَان لشخصين ؟

وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ما سنُّك يا عم ؟ قال أنا فى الأربعين من سنى - قالوا : لقد ضيَّعت نصف عمرك يا عمَّنا . . وسكت الملاح الأمىّ على غصص ومضض ، وبقى ينتظر دوره والزمان دوَّار .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب ، والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب فى السفينة - وكانت أول تجربتهم فى البحر - وأشرفت السفينة على الغرق .

وجاء دور الملاح الأمى ، فقال فى هدوء ووقار : ما هى العلوم التى درستموها يا شباب ؟ وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التى درسوها فى الكلية ، ويتوسعون فيها فى الجامعة ، من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم . . ولما انتهوا من عدّ العلوم المرعبة اسماؤها ، قال فى وقار تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائى هذه العلوم الكثيرة فهل درستم علم السباحة ؟ وهل تعرفون إذا

انقلبت هذه السفينة – لا قدّر الله – كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟ قالوا : لا والله يا عم ، هو العلم الوحيد الذى فاتتنا دراسته والإلمام به .

هنالك ضحك الملاح ، وقال إذا كنت ضيعت نصف عمرى ، فقد أتلفتم عمركم كله ، لأن هذه العلوم لا تغنى عنكم فى هذا الطوفان ، إنما كان ينجدكم علم وحيد هو علم السباحة الذى تجهلونه[1] .

هذه مهمة النبوّة ودورها فى إنقاذ البشرية المشرفة على الغرق ، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والرسل ، وامتيازه عن سائر أصناف التعليم والتربية ، والترويح والتسلية ، يمنحون الجيل البشرى (علم النجاة) ويعلمونه فن السباحة ، وتجديف سفينة الحياة .

إن التاريخ الإنسانى يدل دلالة واضحة على أنه لما غرقت سفينة الحياة لفساد أخلاق الناس وسوء أعمالهم ، غرقت بكل ما فيها من مجموعة بشرية ، ورصيد حضارى ، ومحصول فكرى وإنتاج علمى وفلسفى . . وبكل ما فيها من روائع الشعر والأدب والبيان . . وإن هذه السفينة لم تغرق أبداً من أجل الانحطاط الأدبى ، وقلة المدارس والجامعات ، وفقدان التعليم المالى ، أو من قلة المال وانخفاض مستوى المعيشة . . إنها غرقت لأن الإنسان أعد نفسه للانتحار ، إنه صار معولاً هدَّاماً لذلك البناء الذى فيه متاعه وأهله ، إن التاريخ يدلنا على أن الفكر الإنسانى أصيب فى كثير من الأحيان بنوبات عصبية دفعته إلى التدمير ، والإبادة بدلاً من التعمير والبناء ، فقد رأينا مستغربين مأخوذين بالحيرة والدهشة ، ورأينا بأم أعيننا – ونحن لا نكاد نصدق هذا الواقع لهول المنظر وبشاعة الوضع – أن الإنسان قام بهدم أساسه بكل قوة وحماس ، ذلك الأساس الذى قام عليه صرحه الحضارى ، والفكر العظيم..وظل مشتغلاً بهذه العملية المجنونة بكل شوق ورغبة كأنها عملية بناءة ومأثرة إنسانية رائعة وخدمة ممتازة ، وصار يلح على الوقوع فى خندق الموت ، وقد تملكته السآمة من الحياة ، واستبد به الشوق إلى الهلاك كأن الحياة عذاب وجحيم ، والهلاك جنة ونعيم .

تصوير العصر الجاهلى وتهيُّؤه للإنهيار والانتحار :

ذلك الوضع الذى ساد على العالم فى القرن السادس المسيحى . فإننا نجد هناك استعدادات عامة للانتحار الاجتماعى العام ، لم يكن النوع البشرى فى ذلك الزمان راضياً بالانتحار فحسب ، بل كان

(١) القصة مقتبسة من كتاب المؤلف : (النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن) .

يتساقط عليه ، ويتهالك فيه ، كأنه نذر به وحلف ، فيريد أن يفى بنذره ولا يحنث فى قسمه ، ولقد صوَّر القرآن العظيم هذا المنظر وهذا الوضع تصويراً دقيقاً لا يصوره أى رسَّام أو أديب ، أو روائى أو مؤرخ .

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها (١) » .

رحم الله المؤرخين ، ورواة السيرة فإنهم لم يصوروا الجاهلية حين سردوا لنا وقائع البعثة المحمدية – تصويراً صحيحاً دقيقاً ، وهم معذورون ومأجورون ، مثابون ومشكورون ، فإنَّ ذخيرة الأدب واللغة لا تسعفهم كل الإسعاف . . والحقيقة أن هذا الوضع فى قمة من الهول والفظاعة ، وفى منتهى الدقة والتعقيد ، لا يمكن وصفه بريشة قلم ، أو التعبير عنه بأى قدرة ، بيانية ، وصلاحية لغوية .

هل كان العصر الجاهلى – الذى بعث فيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم – قضية انحطاط اجتماعى أو خلقى ، هل كان قضية وثنية مجردة ، أو قضية خمر وقمار ، وعبث واستهتار ، أو ظلم واستبداد ، أو قضية قوانين اقتصادية جائرة وتعسف الحكام الغاشمين ، هل كان قضية وأد البنات ؟؟

كلا . . إنه كان قضية وأد الإنسانية كلها .

لقد انتهى هذا الدور ، وانقرض هذا الجيل ، وغاب هذا التصوير البشع عن أعين الناس فكيف نعيده ونُمثله ، ونجعله حسيًّا شاخصاً تراه الأبصار ، وتلمسه البنان ؟ . وجُلُّ ما نستطيع أن نقول : إنه عصر جاهلى لا يفهمه حق الفهم إلا من عاش فيه واكتوى بناره . . ولو كان لمصور يحاول التصوير يمكن أن يمثِّل البشرية فى صورة إنسان فى غاية الجمال والصحة والأناقة وحسن الهندام ، الإنسان الذى هو نموذج بديع فريد لصنع الله الذى أتقن كل شىء والذى هو محسود الملائكة ، وغاية الخلق ، الذى كلله الله بتاج خلافته ، فصار زينة الوجود ، ولب لباب الحقيقة والعرفان ، وبه تحولت هذه الأرض الخراب اليباب إلى روضة غناء ، وحديقة فيحاء ، ثم يصور هذا الإنسان أنه يريد أن يقفز إلى خندق عظيم هائل ترتفع منه ألسنة اللهيب ، وقد تحفَّز واستجمع قواه ، وجمع ثيابه ، ورفع رجله فى الفضاء فعلاً وكاد يقع فيه ، وما هى إلاَّ دقائق وثوان حتى يغيب فى هذا الظلام المرعب ، ظلام الموت ! ! . . فلعل هذا التصوير يصور بعض الجانب من العصر الجاهلى عند بعثة النبى ﷺ . . وقد أشار القرآن إلى هذه

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

الحقيقة فقال فى إيجاز وفى إعجاز : (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) وذلك ما شرحه لسان النبوة بمثال رائع بليغ ، فقال عليه الصلاة والسلام :

(مثلى كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه ، فيقتحمنها ، فأنا أحجزكم عن النار ، وأنتم تقفزون فيها ، وقال فى آخرها فذلك مثلى ومثلكم أنا أحجزكم عن النار هلم عن النار . هلم عن النار ، فتغلبونى وتقحمون فيها [١]) .

لقد كانت القضية الكبرى فى هذه القصة كلها ، أن تصل سفينة الإنسانية بسلامة الله وفى حفظه ورعايته إلى شاطئ النجاة ، لأنه حين يستوى الإنسان ويعتدل طبعه ، وتتحلى الحياة بالاقتصاد والاتزان ، وتنفعه فإذا كل هذه المشروعات البنائية والإنمائية ، أو الأدبية والعلمية التى أوتى مواهبها كثير من أصدقاء الإنسانية وأنصارها ، ومن هنالك ، فإن الإنسانية كلها مدينة للأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لأنهم أنقذوها من تلك الأخطار المحدقة التى سلطت على رأسها كالسيف المصلت ، ولا يتحرر من منّتهم وفضلهم مشروع علمى ، وتخطيط اجتماعى ، ولا مدرسة فكرية أو فلسفية ، كما أن العالم المعاصر مدين لهم فى هذا البقاء والاستمرار ، وجدارة الحياة ، لأن الإنسان اعترف أحياناً كثيرة – بلسان حاله ، إن لم يقل بلسان مقاله – أنه فقد حق البقاء فى هذه الأرض ، وأنه لا يحمل الآن أى رحمة وبركة وفيض وإفادة ، ودعوة ورسالة للإنسانية ! ! . . إنه رفع الدعوى فى المحكمة الإلهية ضد نفسه ، وشهد عليه ، لقد كانت ملفاته مهيأة للحكم العادل الأخير ، وقد نصب الإنسان نفسه لأكبر عقوبة تتصور ، بل لعقوبة الإعدام ، ولا عجب فى ذلك ، فحينما تتعدى المدنية حدودها الطبيعية وتخرج من طورها ، وتنسى القيم الخلقية كليًّا أو تكفر بها صراحة وعلناً ، ويتغافل الإنسان عن كل غاية نبيلة ، ومقصد شريف وعن كل واقع وحقيقة غير الحقائق المادية ، وتحقيق مآربه الجسدية ، وإرواء ظمئه الحيوانى ، وحينما يحل محل القلب الإنسانى قلب الذئب والنمر والفهد . . وتتكون فى جسمه معدة خيالية أو صناعية ونفس أمارة بالسوء ، لا يقر لها

---

(١) متفق عليه ، برواية أبى هريرة رضى الله عنه :
الحديث كما هو وارد هنا ليس بلفظه . . فالمؤلف قد ترجمه إلى الإنجليزية ثم أعاده المترجم بمعناه إلى العربية . . «المحرر» .

قرار ، ولا يضبطها وازع أو رادع ، وحينما تصيب الإنسانية نوبة شديدة من الجنون ، يبعث الله لها جماعة من الجراحين ، أوعصابة من السفاحين ، وتأتى لأورامها المنتفخة سكاكين من ظهر الغيب تقضى عليها وتقطع دابرها وتستأصل شأفتها .

إن فساد المدنية وهوسها وجنونها أشد من جنون الملكية والحكم الشخصى وأوسع منه شراً لأنه حين يجن جنون شخص ضعيف نحيل واحد يقض مضاجع أهل الحارة كلها ، وينغص عشهم الهادى . . فَتَصَوَّر ماذا يحدث فى العالم إذا جن جنون النوع البشرى أجمع ، ونخر هيكل المدنية وتعفن ، وفسدت طبيعة الإنسانية ؟ هل له من رقية أو علاج ؟

إلا أنه لم تفسد المدنية فحسب فى العصر الجاهلى ، بل تفسخت جثتها ، وتعفنت ونشأت فيها ديدان قذرة ، وأصبح الإنسان يقتنص الإنسان ويصطاده ، ويتلذذ بسكراته وشدائده عند الموت ، ويتمتع بحالة الاحتضار ، كما يتمتع أحياناً بمنظر البساتين والأشجار والورود والأزهار ويطرب ويهتز لاضطرابه وتقلبه على الحجر ، ويفرح بأنين المصاب والمريض والمنكوب وصراخه وعويله ، كما يفرح بالشراب الهنىء ، والطعام الشهى أو بالمنظر السار الجميل .

سرِّح طرفك فى تاريخ روما التى تغنت أوربا – ولا تزال – بفتوحها وبطولاتها وأمجادها وتشريعها وحضارتها ، تجد نموذجاً حيًّا للقسوة البشرية التى بلغت قمتها فى هذا العصر يقول (لبكى) فى كتابه (تاريخ أخلاق أوربا) يصور جانباً من همجية الإنسان وضراوته ووحشيته النادرة ، يقول :

(إن أكثر المناظر سحراً على نفوس أهل روما ، وأعظم تسلية ومتعة لهم كان حين يسقط الجريح فى مبارزة أحد الأبطال من بنى جنسه ، أو مصارعة سبع ضار يتشحط فى دمه ، هنالك كان يفلت الزمام ، ويغلب الناس على أمرهم ، ويفقدون رشدهم ، فيتهالك الحشد الحاشد وفيه النساء والأطفال ، والشيوخ العجز – على الدنو من هذا المنظر الرهيب ، والإنسان البائس الشقى ، وهو من بنى جلدتهم وأبناء بلادهم ليمتعوا نفوسهم بمشاهدة احتضاره وليرنّ فى آذانهم رنين أنينه فقد كان أجمل من كل غناء وموسيقى ، وسجع الطيور ، وكان رجال الشرطة الذين كان من واجبهم المحافظة على النظام ، يقفون مشدوهين مكتوفى الأيدى أمام هذه الموجة العارمة من المتعة الظالمة الآثمة ، لا يملكون من أمرهم شيئاً [١]) .

(١) راجع (تاريخ أخلاق أوربا) للمؤلف الإنجليزى لبكى ج١ ص ٢٣٠ .

فى مــرآة المستشرقين

الدكتور عبد الجليل شلبى

١ – ذكرت فى غير حديث أن كتابة الغربيين عن الإسلام كانت فى بداية أمرها لونا من ألوان الدعاية الحربية ، وأن العداء المستحكم بين الشرق والغرب منذ اقتطع المسلمون أطراف الدولة الرومانية وغزوا البحر المتوسط ظل يقوى ويشتد بين الطرفين . . ثم كانت الحرب الصليبية مما ألقى على نيرانه وقودا جديدا ، وكان الغرب يدرك كل الإدراك أن الإسلام وحده وهو الذى منح الشرق قوة الصمود أمام هجماته ، كما أنه كان الباعث الأول على الغزوات المتلاحقة التى اقتضت من الدولة الرومانية أثمن كنوزها . . ولهذا كان هَمُّ ساستهم وكتابهم على السواء أن يشوِّهوا هذا الدين وأن يحطوا من شأنه . .

وفى عصر الاستعمار بُذِلَت جهود جبارة عنيفة لإخماد الروح الإسلامى فى نفوس المسلمين . . وعمل الحكام فى المستعمرات وأشباه المستعمرات على تحويله إلى طقوس جوفاء وأعمال آلية فارغة ، ففصلوا الدين عن السياسة ، وعزلوا رجال الدين أو فقهاء الإسلام عن تيارات الحياة . .

وبدافع من ذلك كله قام عديد من المستشرقين بتشويه جمال الإسلام وتغيير حقائقه كما قاموا بهجوم على نبىِّ الإسلام ، وتحريف تاريخ الدعوة الإسلامية ، وتاريخ الإسلام بوجه عام .

ونجحت هذه الحركة فى لفت نظر الشعوب الأوربية عن الإسلام ونفورها منه ، ولا يزال صدى هذه الدعوة فى آذان الأجيال الحاضرة مما بقى من آثار هؤلاء الكتاب .

وكان لهذه الحركة جانب آخر هو نشاط المبشرين بالدِّين المسيحى ، فقد طاب لهم أن يبنوا دعوتهم بأنقاض الإسلام ، واستساغوا أن يؤدوا رسالة المسيح بالأكاذيب والمفتريات ، فدعوا إلى الأخلاق بسوء الأخلاق ، وإلى التسامح

الذى جاءت به رسالة المسيح بأشنع أنواع التعصب وأسوأ الأكاذيب ، ووجدت دعوة هؤلاء مجالا بين الشرقيين السُّذَّج من أبناء إفريقية وآسيا ، ووجد المستعمرون من جانب والصهيونيون من جانبٍ آخر فى دعوة المبشرين سلاحا فعالا تستفيد منه مطامعهم ، فسخوا عليهم بالمعونات المادية والحماية السياسية والتأييد والإجلال .

٢ – لم تهدأ هذه التيارات أو تخف حدتها إلاَّ بعد الحرب العالمية الثانية . . خفَّت من جانب المستعمرين ونشطت أكثر من جانب الصهيونية ، ذلك لأنَّ ظل الاستعمار تقلص عن كثير أو عن أكثر البلاد الشرقية ، لكن مطامع الصهيونية استيقظت فى ذلك الوقت . . وكان على الاستعمار أن يؤيدها ، إذ رأى فى قيام الدولة الصهيونية – فى قلب الشرق – خنجرا داميا يشل حركته ، ويقطع نشاطه ، ولذا تعاونت الكتلتان الشرقية والغربية فى بناء دولة إسرائيل ، ثم وجد من مستشرقى اليهود من طاب لهم أن يطلبوا الضرب على « أوتار الصليبيين » وكما عاون اليهود المبشرين بدعوة المسيح (وهم أعداء المسيح) عاون المسيحيون اليهود (وهم أعداء اليهود) .

لكن تغلْغُل الغرب فى الشرق أثناء سنوات الحرب وكثرة نزوح الشرقيين إلى الغرب بعدها أدى إلى تقارب أكثر ، ودعا إلى تعارف أوسع ، ووجد من كتاب الغرب من عناه البحث عن الحقيقة بقدر ما تسوغ له طاقته ، وما تهيئه له معلوماته ودراسته عن الشرق والإسلام .

هؤلاء الكتاب ليسوا كَثْرَةً بل هم قلة نادرة فى كل قطر أوربى .

ولمَّا يستطيعوا للآن أن يتخلصوا من قيود الماضى أو يبحثوا بحثا حرًّا ينقاد للعقل وحده ولا تستطيع كتابتهم – وهذا طبيعى – أن تصمد لتيارات المبشرين وادعاءات المغرضين .

وقصارى ما انتهت إليه هذه الحركة أنْ آمن كتابها بنهضة الإسلام وسماحة الإسلام ولكنهم ينكرون رسالة محمد ونبوته ، ولقد كان فيما أحدثه الإسلام من تغيُّر فى حياة العَرَب وما نالهم منه من نهضة وتغيُّر فى أوضاع حياتهم ، ما يقنع بصحة الرسالة المحمدية ، لكن هكذا ظل اتجاه المستشرقين على ما هم عليه .

وأكثر ما يبرز فى كتابة هؤلاء هو الحديث عن سماحة الإسلام ، وأن فتوحات المسلمين كانت خيراً وبركة على البلاد التى فتحوها ، وأن قادة العرب لم يكونوا يكْرِهُون أحداً على قبول الإسلام .

وهذه كلها تعارض منهج المبشرين وكُتَّاب الأجيال السابقة .

٣ – وهناك أمر لم يستطع أحد أن يعارضه وإن استطاع الإغضاء عنه « ألا وهو تيار الحضارة الإسلامية . . وما كان له من أثر فى نهضة أوربا الحديثة ، فمما لا ريب فيه أن الفرق كان واسعا جدًّا بين ما أنشأه الإسلام من حركة فكرية راقية وبين ما كانت عليه الدول الأوربية من جهل وتأخر ، وما تعيش فيه من همجية وانحطاط .

ولم يتناول الكُتَّاب العرب فيما سجلوا من أحداث التاريخ حال البلاد الأوربية ولم يأت منها فى حديثهم إلا ما كان أمراً عارضا ، من ذلك الرسائل المتبادلة بين الملوك أو بين القواد ، أو ما سجله الرحالة المسلمون من ملاحظات . . وهذه العوارض لا تكفى للموازنة بين الحالة الاجتماعية هنا وهناك ، وإهمالها يؤدى إلى نقص كبير فى تقدير الإسلام وما أحدثه من تغيير بالغ فى حياة العرب ، فالإسلام ظهر فى قوم غاية فى التأخر والهمجية ، وكانوا أيضا غاية فى الضعف والهوان ، ومع ذلك استطاع فى فترة وجيزة أن يسمو بهم إلى درجة بدت حياة الأوربيين بجانبها ساذجة وضعيفة .

وأَبْرَزُ المستشرقين الذين عُنوا بهذا الجانب فى كتابتهم الإسلامية « ألفريد بتلر » « وآرثر أرنولد » . . أما الكتابات التى جاءت فى مطولات المؤرخين أمثال جيبون فليست هيِّنة فى هذا الجانب – جانب الموازنة بين حكومات الإسلام وحكومات الغرب – ولكنها تأتى عرضا ، ويحتاج قارئها إلى شىء من الأناة والجهد حتى يستخرجها .

٤ – وكلا الكاتبين الأولين عُنى باستعراض التيارات الفكرية والسياسية فى الدولة البيزنطية قبيل الفتح الإسلامى للشام ومصر وغزو المسلمين للبحر الأبيض ، ولكن بتلر كان معنيا بالجانب السياسى ، وحديثه فى جملته توضيح للأسباب السياسية والاجتماعية التى هيأت انتصار المسلمين وانكسار الرومان ، وحديثه محدود الجوانب « لأن بحثه يدور أساسا على فتح العرب إقليم مصر ، أما آرثر فحديثه أوسع لأنه يتابع حركة الدعوة الإسلامية فى بقاع شتى .

وبخصوص انتشارها فى ممتلكات الرومان لم يقف عند قطر معين وقد عرض فى بحوثه صوراً مظلمة قاتمة لحياة الأوربيين وشرح كثيرا من مواقف اضطهاد المسيحيين للمسيحيين ، ومُثُلاً من ظلم الحكام وإكراههم الناس على قبول مذهب معين ، بينما كان الإسلام يوجه حكامه إلى العدل والمساواة والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبهذا تبدو صورتان متقابلتان تُبْرِزُ كل منهما خصائص الأخرى وطبيعة منهجها ، فالظلم الأوربى يبدى

عدالة الإسلام ، كما يبدى جَمَالَ الإسلام وبهاؤه مما تتصف به حياة الأوربيين من قبح ومجافاة لكرامة الإنسان .

٥ – ولعل أحق هؤلاء الكتاب بتقدير المسلمين والالتفات إلى كتابته هو أودين هول Idwin Hall وقد كتب عن حياة المسلمين فى الأندلس أو على الأصح عن « حياة الأندلس تحت حكم المسلمين » ، فعُنى بإبراز الحياة الفكرية والثقافية بين المسلمين بجانب تخلف الأوربيين وبعدهم كل البعد عن هذا الأفق السامى الذى أنشأه الإسلام .

وجاء فى هذا العرض أن المسلمين أنشأوا فى أوربا مكتبات كبيرة ضخمة . . حين لم تكن تعرف أوربا شيئا من هذا النظام ، وهذا طبيعى لأن المسلمين أنشأوا جامعات وألفوا كتبا واستعملوا مراجع عديدة ، بينما كان الأوروبيون يغطون فى نوم الأمية وليلها الطويل . وحين أيقظتهم هذه الحركة الإسلامية ودفعتهم إلى السهر فى ركابها ظلوا حتى فجر النهضة الحديثة متخلفين عن ركب الفكر الإسلامى .

ومن الأدلة التى ساقها لتوضيح هذا الحكم أن مكتبة الحَكَم بن عبد الرحمن فى قرطبة كانت تحوى أربعمائة ألف كتاب ، ولم تكن وحدها المكتبة العامة فى قرطبة بل كان هناك نحو سبعين داراً أخرى للكتب وكلها مكتبات عامة Liberaries بينما كانت هناك مكتبات التجارة فى الكتب والأوراق Book Shops ثم دور الوراقية التى يعمل بها النساخون . . . ، وبعد ذلك بأربعة قرون جهد الإمبراطور الفرنسى شارل الحكيم فى إنشاء مكتبة ، فاستطاع أن يجمع بها نحو تسعمائة كتاب فقط . بينما كانت مكتبة الحكم تحوى كتبا فى شتى أنواع الفكر وتياراته ومختلف العلوم .

كانت مكتبة شارل الصغيرة تحوى ستمائة كتاب فى الديانات . . أو على الأصح فى الديانة المسيحية ، وثلثمائة كتاب فقط فى المواد الأخرى ، وكان هذا قصارى جهده ، وقد خلع عليه لقب الحكيم لتضلعه فى العلوم والمعارف ؟ ؟

وقد عُنى كلاًّ من عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم أن ينشئوا حركة ترجمة ، وأن ينفقا بسخاء على المترجمين ، كما استقدموا كبار العلماء من الشرق إلى الأندلس ، وأرسلا بعوثا من أبناء الأندلس إلى العواصم الشرقية ، واشتريا الكتب الضخمة من مؤلفيها ، ثم تلاهما المنصور العامرى فلم يأل جهدا فى اقتفاء أثرهما فى هذا السبيل ، فإذا ذكر نشاط شارل الحكيم بجانب هذا النشاط كان البون واسعا ؟ ؟

٦ – ومع أن هذه الحركة العلمية التى

أنشأها المسلمون هى التى أيقظت الأوربيين ووجهتهم توجيها فكريا فإنهم لم يقدِّروا الإسلام قـدره ، بـل رأت فيـه عـدوًّا يُخشى خطره ويستحق أن يضغط ويخمد .

وقد حدث فى القرن السابع عشر أن استولى الإسبانيون على سفينة لأمير مراكش كان بها كتب كثيرة وأمتعة ، فأغضى الأمير عن الأمتعة وطلب الكتب ، فقرر الأندلسيون أن يعطوه كتب المعارف العامة ، وأن يستبقوا لديهم كتب الدين الإسلامى ، لأنها مما يوقظ همم المسلمين ويبعث حميّتهم إلى تعزيز قواتهم ، ولكن المسألة لم تكن من السهل أن يفصل فيها هيئة واحدة ، فوضع هذا القرار أمام وزراء الدولة ، فقرّ رأيهم على إحراق الكتب جميعها . ودلُّوا بذلك على أنهم لم يتقدموا أنملة واحدة عن عصر (بيتر المحترم) الذى أفتى فى القرن الخامس عشر بأنّ كتب المسلمين كلها نجس . . وأمر بإحراقها .

ولكن أحد الأمراء لم يرضه هذا الرأى فعارض فكرة إحراق الكتب ، فاتفقوا على إيداعها مكانا حصينا . . وأن لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها ، ولا ترد لصاحبها .

وهذا حقا توضيح جيد للفارق بين عقليتين مختلفتين فى هذا الوقت .

فالمسلمون منذ القرن السابع الميلادى – الثانى الهجرى – عملوا على نقل الكتب وترجمتها ، وهمهم أن يعرفوا أفكار السابقين وفلسفاتهم ، فكانت تيارات عديدة من الفكر الشرقى والغربى القديم تصب فى بغداد ، ثم تصفى كلها ويستخرج منها لون جديد ، أما هؤلاء فكانوا بعد خمسة عشر قرنا متخلفين عن ركب المسلمين .

٧ – هؤلاء جماعة من المستشرقين أستطيع أن أُلْحِق بهم – تساريس وادى – صاحبة كتاب « العقل السليم » الذى تحدثت عنه فى كتاب « صور استشراقية » أنصفوا الإسلام بعض الإنصاف ، وأنصفوه دين حضارة وعلم ، ودين مساواة وعدل ، ودين إنهاض للأمم ودافع لها إلى التقدم والرقى ، ودين حكم صالح تسعد فى ظله الرعايا مسلمين وغير مسلمين . . . إلخ .

وبعد كل هذا ليس بين هؤلاء من ينصف محمدا – ﷺ – ويعترف بالنبوة وهؤلاء أغضوا – أو لم يكن من بحثهم أن يتحدثوا – عن صلة محمد بالكتابيين ، لهذا خلت كتاباتهم من التحريف والتحامل الذى حفلت به كتب الآخرين . .

د . عبد الجليل شلبى

الإسلام والمدنية الحديثة

العلامة أبو الأعلى المودودى

نقد القومية

أما المبدأ الثانى : القومية : فإن أريد بها الجنسيــة (Nationality) فهى أمر فطرى لا نعارضــه ، وكذا إن أريد بها انتصار الفرد لشعبه شريطة أن لا يستهدف تحطيم الشعوب الأخرى ، وإن أريد بها حب الفرد لشعبه فنحن لا نعارضها كذلك . إذا كان هذا الحب لا يعنى معنى العصبية القومية العمياء التى تجعل الفرد يحتقر الشعوب الأخرى وينحاز إلى شعبه فى الحق والباطل على السواء .

وإن أريد بها مبدأ الاستقلال القومى فهو هدف سليم كذلك ، فمن حق كل شعب أن يقوم بأمره ويتولى بنفسه تدبير شئون بلاده[1]

أما الذى نعترض عليه ونعتبره شيئا ممقوتا نحاربه بكل قوة ، فهو القومية (Raciality) التى تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم ، والحق عندها هو ما كان محققا لمطالبها واتجاهاتها ورفعة شأنها ولو كان ذلك بظلم الآخرين وإذلال نفوسهم .

إنه إذا كان فى المجتمع شخص يتبع هواه ويعبد نفسه ويؤثرها على غيره ولا يبالى بأىّ تصرف مهما كان سيئًا مادام فى سبيل مصلحته الفردية ، وإذا كان فى المدينة أسرة تخدم مصالحها متغاضية عن مصالح

---

(١) أن الطير ليحن إلى وكره ، وإن الأسد ليذود عن عرينه ، وحنين الإنسان إلى بلده وأهله وعشيرته ، وحمايته للذمار مما ركّزه الله فى فطرته ، ولكن هذه الدوافع الفطريه فى الإسلام يجب أن تكون مرهونة باتباع الحق ، والإنتصار له ، وقد هاجر رسول الله ﷺ بدينه من مكة مسقط رأسه ومهد صباه ، وكان فيما قاله فيها : (والله إنى لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إلىَّ ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت) .

غيرها وتعمل لتحقيقها بكل وسيلة سواء كانت مشروعة أم غير مشروعة ، أو كان فى البلاد طبقة تناهت فى الأنانية وحب الذات واندفعت وراء أغراضها ، ضاربة بمصالح الآخرين عرض الحائط (كطبقة المهريين مثلا) – إنه إذا كان هناك شيء من ذلك فلا يساورنا شك فى أن نعتبره لعنة ما بعدها لعنة ، فلماذا نعتبر على الصعيد الإنسانى الشعب الذى يتخذ مصالحه القومية إلّها يُعْبد ، ويقرر فيما يقرر من مبادئ لعبادته وطاعته « الحق هو الذى يلائم المصالح القومية والباطل هو الذى لا يلائمها » ؟ – لماذا لا نعتبر على الصعيد الإنسانى هذا الشعب لعنة بالنسبة للجماعات الإنسانية ؟

إن ضمير الإنسان يقطع بأن معانى الأثرة والأنانية على النطاق الإنسانى لعنة من اللعنات بكل تأكيد ، كما أن معانى الأثرة والأنانية على النطاق الفردى أو القبلى أو العائلى لعنة كذلك . ألا وإنكم ترون بأمّ أعينكم المدنية الحديثة وقد ورَّطت أمم الدنيا فى هذه اللعنة . الأنانية القومية المستعلية الباغية ، وهى المسئولة عن تحويل العالم إلى ميادين للصراع القومى العنيف ، وبفضل هذا شهد العالم فى نصف قرن حربين عالميتين أُزْهِقَت فيهما ملايين الأرواح ، وهو الآن على وشك أن يشهد اندلاع حرب ثالثة يورى شررها وراء مظاهر الاستعداد العسكرى الذى يقوم على قدم وساق ، مع أنّ جروح الحربين السابقين لم تندمل بعد .

نقد الديمقراطية :

أما المبدأ الثالث : الديمقراطية ، أو تأليه الإنسان . فبانضمامه إلى المبدأين السابقين ، تكتمل الصورة التى تضم فى إطارها محنة هذا العالم ومتاعبه .

لقد قلت آنفا : إن مفهوم الديمقراطية فى المدنية الحديثة هو « حاكمية الجماهير » ، أى أن يكون أفراد قطر من الأقطار أحراراً فيما يتعلق بتحقيق مصالحهم الجماعية ، وأن يكون قانون هذا القطر تابعا لأهوائهم ، وعلى هذا الأساس فإن الأفراد لا يتبعون القانون ، ولا يكون الغرض من تكوين الحكومة الاستعانة بأجهزتها الإدارية وإمكانياتها المادية فى تحقيق المصالح الجماعية ، على عكس ما يجب أن يكون .

وإذا تأملنا المبادئ الثلاثة الآن فإننا نجد : أن العِلْمَانية قد حرَّرت الناس من عبادة الله وطاعته وخشيته ، ومن الضوابط الخلقية الثابتة ، وألقت حبْلهم على غاربهم ، وجعلتهم عبيدا لأنفسهم غير مسؤولين أمام أحد ، ثم تأتى القومية لتقدِّم لهم جرعات كبيرة من خمر الأنانية والكبرياء ، والاستعلاء واحتقار الآخرين .

وتأتى أخيراً الديمقراطية وتُجْلِس هذا الإنسان بعد أن أُطْلِقَ له العنان وصار أسير أهواء النفس وأخيذ نشوة الأنانية — على عرش التأليه فُتَخوِّلُ له جميع سلطات التشريع والتقنين ، وتسخِّر له الجهاز الحكومى بكافة إمكانيَّاته فى الحصول على كل شىء يطلبه .

ولنتساءل إذن بعد هذا : هل تختلف حالة شعب متحرّر من كل ضابط يتمتع بسلطات الحاكمية المطلقة ويزاولها بدون قيد أو شرط عن حالة فرد شرس جامح فاجر ؟ وفى أى شىء تختلف ؟ أليس من الصحيح أن كل عمل يزاوله هذا الفرد الشرس فى نطاقه المحدود يزاوله ذلك الشعب المتحرّر فى نطاقه الواسع ؟ وإذا كان العالم مؤلَّفاً من شعوب كهذا الشعب تنهل من نفس المورد وتقدس الأقانيم الثلاثة (١) فكيف يتأتى أن يسود هذا العالم الأمن والهدوء والسلام ؟ وأن ينجو من أن يكون ميدان صراعٍ ونضال وحروب ، ولا يتحول إلى حلبة سباق تصطرع فيها ذئاب الشر ؟ ؟ .

هذه هى الوجوه التى تجعلنا نرى كل نظام يقوم على المبادئ الثلاثة المذكورة نظاما فاسدا باطلا ، ومن أجل هذا فإننا نعارض النظام العلمانى القومى الديمقراطى سواء أقامه غربيون أم شرقيون ، مسلمون أم غير مسلمين ، وحيثما حلت هذه البليَّة وأينما نزلت فإننا نحاول إشعار عباد الله بخطرها الداهم وندعوهم لمحاربتها .

المبادئ الثلاثة :

وحين نعارضُ هذا النظام لا نكتفى بمعارضته بل نقدِّم تجاه مبادئه الثلاثة،مبادئ ثلاثة أخرى نعتقد بصلاحيتها وسدادها ، ونضعها تحت أنظار المنصفين ، ونحتكم إلى ضمائرهم يمحِّصوها ، وينظروا فيما إذا كانت سعادتهم ورفاهيتهم وسعادة العالم كله ورفاهيته تقوم على قبول هذه المبادئ النزيهة الحقة التى نقدِّمها ، أم تقوم على تلك المبادئ الخبيثة الفاسدة التى ذكرناها آنفا .

(١) الأقانيم : جمع أقنوم ، وهى كلمة يونانية بمعنى الأصل أو المبدأ ، وكان فلاسفة الإغريق يرجعون وجود العالم إلى أصول ثلاثة ، وقد أثرت هذه الفلسفة الإغريقية فى تفلسف المسيحية بعقيدة التثليث ، إذ أولوا نصوص العقيدة على نمط الفلسفة الإغريقية فى الأقانيم الثلاثة ، والألفاظ الدالة عليها فى المصدر النصى للمسيحية هى : الله ،كلمة الله ، الروح القدس . فالله فى مقابل أقنوم الوجود ، وكلمة الله فى مقابل أقنوم العلم ، والروح القدس فى مقابل أقنوم الحياة ، وهى ترجع فى نظر النساطرة إلى شىء واحد ، هو الوجود ، فالوجود هو الجوهر ، وهو الذات الواحدة والعلم والحياة صفتان أو اعتباران له ، والمدنية الحديثة كذلك تعتبر هذه المبادئ الثلاثة أصولاً لها وأنصف الأستاذ المودودى فى التعبير عنها بالأقانيم .

١ - إننا نقدِّم مبدأ التسليم لله وطاعته بديلا عن العلمانية .

٢ - ونقدم مبدأ الإنسانية العالمية بديلا عن القومية المحدودة الضيقة .

٣ - ونقدم مبدأ سيادة الله وخلافة المؤمنين بديلا عن مبدأ سيادة الشعب أو حاكمية الجماهير .

ولنستعرض فيما يلى هذه المبادئ الثلاثة واحداً واحداً .

مبدأ التسليم :

إننا فى ظل هذا المبدأ نؤمن ونعتقد بأن الله هو خالقنا وسيدنا وحاكمنا ، وخالق العالم وسيده وحاكمه ، فينبغى أن نقيم حياتنا وفق أوامره وتشريعاته ، إذ لا غنى لنا عنها ، لا فى نطاق حياتنا الفردية ، ولا فى كل مظاهر حياتنا الاجتماعية بكافة صورها ، ونعنى بذلك : أن تكون كل ناحية من حياتنا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وأن تكون مؤسساتنا الثقافية والاقتصادية ، وأن تكون مؤسساتنا التعليمية والتربوية ، وأن تكون أوضاعنا القانونية ومحاكمنا وأجهزة حكومتنا وأن تكون سياستنا فى نشوب الحرب أو تقرير الصلح أو العلاقات الدولية وفق المبادئ والحدود التى شرعها الله للناس ، فيجب علينا أن لا نمارس حرياتنا إلا فى نطاق الأسس والضوابط المشروعة التى بينها الله لنا ، ولا ينبغى أن نبدلها أو نبطلها بل علينا أن تكون أنظمتنا وفق منطوقها وبوحى من جوهرها وروحها .

مبدأ العالمية :

وهذا المبدأ يعنى أن نظام الحياة القائم على مبدأ التسليم لإرادة الخالق والخضوع له لا ينبغى أن يكون فى داخله تمييز بين أفراد أمته بالجنس أو الأرض أو اللون أو اللغة ولا أن تبرز فى ظله أدواء الأنانية والكبرياء والاستعلاء والعصبيات القومية العمياء ، تلك التى تبرز فى ظل القومية المقيتة .

وهذا النظام يجب أن يكون فكريًّا عقائديا[١] قائما على مبادئ ثابتة معينة وقيم صحيحة لا على مبادئ قومية ، وأن تفتح أبواب هذا النظام لكل من يتقبل هذه

---

(١) قد يظن بعض الناس أن الدولة الفكرية العقائدية من سمات العصر الحديث ، ولم يعرف التاريخ دولة فكرية تقوم حدودها على العقيدة كدولة الإسلام ، التى تجعل العقيدة الإسلامية وطن المسلم وجنسيته ، كما أشار الأستاذ المودودى ، وهى التى تمايز اصطلاحها بدار السلام ودار الحرب ، فدار الإسلام هى وطن العقيدة ، ودار الحرب هى وطن من خالفها وحاربها ، وروى أنه قيل لسلمان رضى الله عنه وهو يُقَسِّم غنائم الفرس : أتفعل هذا بملك آبائك وأجدادك؟ فقال : أنا لست من أبناء الفرس ، وإنما أنا ابن الإسلام .

المبادئ ويعتنقها ويكون مستعدا وقادرا على المشاركة فى تنفيذها على قدم المساواة المطلقة فى الحقوق دون تمييز ، وألاَّ تحصر المواطنة (Citizenship) فى ظل هذا النظام بحوافز جغرافية أو طبيعية بل تشمل كل شخص يؤمن بأسسها العقائدية .

والأفراد الذين لا يرضون عن هذه المبادئ ولا يستعدون لقبولها لسببٍ مّا لا ينبغى إبادتهم أو الضغط عليهم بوجه من الوجوه[1] بل يحتفظ هذا النظام بكيانهم تحت مبدأ الصيانة (Security) ويعطى لهم الحرية فى ممارسة حقوقهم المقررة ، وتُهَيَّأُ لهم الفرصة المواتية ليكونوا أعضاء موجِّهين يشاركون سائر المواطنين فى الحقوق على قدم المساواة بمحض رغبتهم وإرادتهم الحرة وقناعتهم بصحة المبادئ التى يقوم عليها هذا النظام .

إن هذا النظام الذى لا يحد بأرض أو جنس أو لغة أو لون ، القائم على مبدأ الإنسانية العالمية[2] لا ينافى القومية بمعنى حنين الإنسان إلى قومه وإن قصرها على حدودها القطرية ، كما لا ينافى القومية القائمة على حب الوطن والعمل فى سبيل إسعاده ورقيه دون مساس بمصالح الآخرين : مشاعرهم وحقوقهم ، ويؤمن بالاستقلال القومى الذى لا يرغم الإنسان على الاحتجاز فى مناطق ضيقة من أقطار الأرض يصعب اجتيازها والخروج منها إلى الأفق الإنسانى العام ، وينكر سيطرة شعب على شعب بدافع من الأنانية والاستعلاء والأثرة ، فمن مطالب مبدأ الإنسانية العالمية أن يتولى كل شعب أمره بنفسه بكل حرية واستقلال ولا يخضع لشعب آخر ، بيد أن جميع الشعوب المتفقة على المبادئ الأساسية للحضارة البشرية يجب أن تتكاتف وتتساند على العمل فى إسعاد البشرية ورفاهيتها ، وأن يسودها التعاون لا التنافس (Emulation) وأن تستأصل منها النعرات العنصرية والعصبيات الجنسية ، وأن يتم بينها تبادل مقومات الحياة ومعطيات الحضارة والمدنية فى جوٍّ من الحرية والتكريم .

إن كل فرد من الأفراد يعيش فى مثل هذا النظام الفكرى المهذب يكون مواطنا عالمى الفكرة إنسانى النزعة . يعتبر كل قطر أو مكان يعتنق فكرته موطنا له ومسكنا حتى يمكنه أن يعلن بكل تأكيد ما عبر عنه الشاعر الإسلامى الدكتور محمد إقبال :

« كل البلاد موطنى لأنها بلاد ربى »

والمواطن فى ظل هذا النظام يتمتع

---

(١) هذا الكلام لا ينطبق إلا على أهل الذمة خاصة إلى انتهاء عهدهم أو ما أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولعل هذا هو مقصود الأستاذ المودودى .

(٢) (Cosmopolitan)

بحقوق وحريات لا تتوفر للمواطن فى ظل القوميات القائمة على وضع حدود وعراقيل عبر أراضيها ، وتنظر إلى الغريب نظرتها إلى لص أو مشبوه تراقب حركاته وسكناته ، ويعيش فى جوٍّ بوليسى رهيب يتعرض فيه للتفتيش والاستجواب ، وتفرض القيود على قلمه ولسانه وخطواته ، ويحرم من الحريات والحقوق الأساسية . فكيف يقال بعد هذا إن القوميات تصلح للحياة فى ظلها ! ؟

وإزاء ذلك فإننا نريد نظاماً عالميا ائتلافيا يقوم على وحـدة المبادئ ، ويسير فيه المواطنون على نهج المواطنة المشتركة (Cosmopolitan) ينتقل كل واحـد من بلد إلى بلد بدون قيد أو شرط ، وعلى هذا فنحن نتمنى أن يعود علينا عهد كعهد ابن بطوطة الذى سافر فيه من شاطئ المحيط الأطلسى إلى شاطئ البحر الهـادى ولم يعتبر فى أى قطـر مرّ به أجنبيا (Foreigner) بل واتته الفرص حيثما حل لأن يصبح قاضيا أو وزيرا أو سفيرا ، ولم يراقب فى حركاته وسكناته ، ولم يسأله أحد عن هويته أو جنسيته أو مهنته أو وطنه .

مبدأ سيادة الإله :

وخذوا الآن المبدأ الثالث : نحن نؤمن بنيابة الشعب أو استخلافه فى ظل سيادة الله بديلا عن حاكمية الجماهير ، لأننا نعارض سيادة فرد أو أفراد أو طبقة سيادةً مطلقة تستأثر بالسلطة أكثر من معارضة المتحمسين للديمقراطية الغربية ، ونؤكد المساواة فى الحقوق وتكافؤ الفرص أكثر من تأكيد أنصارها . ونحارب كل نظام يكبت الحريات فلا يبيح حرية التعبير أو التجمع أو العمل . أو يضع العراقيل فى سبيل بعض الأفراد لاختلافهم فى الجنس أو الطبقة أو أصل الولادة بينما يعطى الآخرين حقوقا وامتيازات خاصة .

فإذا كانت الديمقراطية الغربية تعتبر هـــذه الأمور جوهرها (Essence) وروحها فإنه لا خلاف بينها وبين ديمقراطيتنا الإسلامية التى عرفها المسلمون خلال تاريخهم ؛ بل أعطوا تفسيرات عملية لها ونماذج صالحة منذ قرون مضت قبل أن تولد الديمقراطية الغربية .

وإنما تختلف ديمقراطيتنا الإسلامية العريقة عن الديمقراطية الغربية الناشئة ، فى أن الأخيرة تتبنى مبدأ سيادة الجماهير المطلقة من كل قيد سوى ما تضعه الجماهير لأنفسها ونحن نعتبر هذا المبدأ باطلا فى حقيقته ، يجر إلى العواقب الوخيمة الهدامة ؛ لأن الذى عليه واقع الأمر فى هذا الكون هو أن حق السيادة (Sovereignty) لله وحـــده الذى خلق البشر ، ويسّر لهم أمور حياتهم

ومعاشهم ، ناصية الخلائق بيده ، وشؤون العوالم كلها فى قبضته وأى ادعاء بالسلطة والسيادة ضمن نطاق سيادة الله وسيطرته فهو ادعاء باطل سخيف غير ذى موضوع ، وما ينجم عنه من آثار سيئة يقع على المدَّعين أنفسهم الذين تجاوزوا مكانهم الحقيقى ووضْعهم الصحيح ، سواء كان هذا الادعاء من شخص أو طبقة ، أو كان مما يسمونه بالجماهير.

ولا يصح إزاء هذه الحقيقة الناصعة إلا أن نؤمن بحاكمية الله تعالى ، ونقيم نظام حكمنا على فكرة الاستخلاف أو النيابة ، وهى نيابة ديمقراطية فى جوهرها وروحها . يتم فيها انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وبإرادتهم الحرة كما يتم فيها انتخاب أهل الحل والعقد والشورى كذلك ، وهم الذين لهم الحق المطلق فى نقد تصرفات الحكام ومحاسبتهم .

وينبغى أن يتوفر الشعور بأن الأرض لله تعالى ، وهو مالكها الحقيقى دون الناس وإنما نحن البشر خلفاء الله فى أرضه[1] نعمل بأمره ، وننفذ ما شرعه للناس ،

---

(١) ذكر الأستاذ المودودى فى هذا الفصل العبارات الآتية :

استخلاف الشعب . نحن البشر خلفاء الله فى أرضه ، انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وبإرادتهم الحرة ، وإزاء هذا فإننا نضع أمام القارئ الأمور التالية :

١ – الخلافة : مصدر خلف ، يقال : خلفه خلافة ، أى كان خليفته وبقى بعده ، والخلافة فى الاصطلاح : هى رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبى ﷺ ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية والراجعة إليها . إن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

وبهذا يتبين أن الخليفة يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية على خلاف ما كان فى الغرب فى العصور الوسطى . حيث فرقوا بين السلطة الزمنية – وهى للحاكم السياسى – والسلطة الروحية – وهى للبابا – الذى يعتبر « قسيساً أعظم » يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وهو المرجع الأعلى فى الأمور الدينية .

٢ – واختلف العلماء فى تسمية الإمام بـ « خليفة الله » ، فأجازه بعضهم مستدلاً بقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) ومنع ذلك الجمهور ، وقالوا : يستخلف من يغيب أو يموت ، والله لا يغيب ولا يموت ، وقد قيل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يا خليفة الله فقال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله ﷺ ، ومعنى قوله (خلائف الأرض) تخلفون من قبلكم فيها .

٣ – يذكر العلماء أن الإمامة تنعقد بأحد أمرين :

(ا) اختيار أهل الحلّ والعقد ، والشروط المعتبرة فيها ثلاثة :

١ – العدالة . ٢ – العلم الذى يُتَوَصَّل به إلى معرفة من يستحق الإمامة . ٣ – أن يكون من أهل الرأى=

وسوف يحاسبنا عن كل عمل نقوم به . خيرا كان أو شرا .

هذا وإن المبادئ الخلقية والأحكام القانونية والحدود المفروضة التى شرعها الله لنا ثابتة دائمة لا تقبل التغيير أو التبديل ، ومبدأ نيابة الشعب واستخلافه لا يبيح لمجالس الشورى أو البرلمانات أن تسن نظاما أو تصدر حكما فيما ورد فيه نص صريح واضح فى شريعة الله ، وإنما يوجب عليها أن تستمد جميع قوانينها وأنظمتها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وأن تقف عند النص الوارد فى ذلك .

أما مالم يرد فيه نص شرعى — وهو المجال الأوسع فلأهل الحل والعقد أن يجتهدوا فى سن الأنظمة التى تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة ، إلا أنها يجب أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة الإلهية وتوجيهاتها ، وأن تكون متفقة فى نصها وروحها مع القواعد الشرعية الثابتة التى وصّى الله بها .

ولهذا كان من الضرورى أن تستند إدارة هذه الأنظمة سياسية كانت أو ثقافية أو اقتصادية إلى أناس يخشون الله فى كل أمورهم ويطيعونه ويسعون فى سبيل مرضاته فى السر والعلن ، تشهد حياتهم العملية بإيمانهم اليقينى وقناعتهم التامة وشعورهم الكامل بقيامهم لرب العالمين ، ومسؤوليتهم أمامه « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . ويعكس سلوكهم الشخصى والاجتماعى صورة تؤكد ارتباطهم الربانى بشرع الله ، وتقيد اجتهادهم بحدود مبادئه ، وليسوا كالخيل الجامحة التى تجاوز كل حمى محظور وتتعدى حدوده .

هذه المبادئ الثلاثة التى أجملت فيها القول تهدف إلى إقامة خلافة إنسانية خاضعة لله تحلّ محل السيادة القومية العلمانية الديمقراطية التى تقوم عليها مدنية الغرب وقد وضعنا العمل لإقامة هذه الخلافة نصب أعيننا ، وتستطيعون الآن أن تعرفوا بدون عناء ما فى هذين النظامين من اختلاف واضح وبون شاسع ، وتقرروا : أى النظامين أصلح وأفضل لحل مشكلات الجنس البشرى والأخذ بيده إلى شاطئ السعادة والرخاء وبر الأمان ؟ وأى النظامين أحق بأن تقوموا لتحقيقه وتبذلوا كل غال ورخيص فى رفع لوائه .

= والتدبير المؤدين إلى اختيار من هو للإمامة أصلح .

(ب) عهد الإمام من قبل ، فقد عهد أبو بكر إلى عمر رضى الله عنهما وعهد عمر إلى أهل الشورى والسنة .

كلمة للمسلمين :

وإنى أقول للمسلمين بصراحة إن الديمقراطية القومية العلمانية تعارض ما تعتنقونه من دين وعقيدة ، وإذا استسلمتم لها فكأنكم تركتم كتاب الله وراء ظهوركم ، وإذا ساهمتم فى إقامتها أو إبقائها فستكونون بذلك قد خنتم رسولكم الذى أرسله الله إليكم . وإذا قمتم لرفع لوائها فكأنكم رفعتم لواء العصيان لله ربكم .

إن الإسلام الذى تؤمنون به . وتُسَمُّونَ أنفسكم « مسلمين » على أساسه يختلف عن هذا النظام الممقوت اختلافا بَيِّناً . ويقاوم روحه ويحارب مبادئه الأساسية بل يحارب كل جزء من أجزائه ، ولا انسجام بينهما فى أمرٍ مهما كان تافها ، لأنهما على طرفى نقيض .

فحيث يوجد هذا النظام فإننا لا نعتبر الإسلام موجودا ، وحيث وجود الإسلام فلا مكان لهذا النظام .

وإذا كنتم توقنون بالإسلام الذى نزل به القرآن وبعث به محمد ﷺ فإنه يجب عليكم مقاومة الديمقراطية القومية العلمانية . والمبادرة إلى إقامة الخلافة الإلهية القائمة على عبادة الله أينما كنتم ، وحيثما حللتم ، لا سيما فى القطر الذى بيدكم سيادته ، أما إذا أصبحتم أنتم القائمين بهذا النظام الذى يكفر بالله ورسله فليس لنا إلا أن نبكى ونتأوه على إسلامكم المشبوه ، وادعائكم الكاذب له بملء الفم ! ؟

وأقول وأنا بصدد شرح نظام الحياة الإسلامى – مخاطبا إخوانى المسلمين : إن بعض المنتسبين إلى الدين يوهمون الناس فى هذا السبيل – ولعلهم أنفسهم مخدوعين – فيقول لهم : إن السيادة أو الحكومة إنما هى جائزة من الله ، يمنحها من يصلّى ويصوم ويعمل عملا صالحا ، أما السعى فى الحصول عليها وجعلها هدفا وغاية فأمر دنيوى دنىء يخالف الإسلام كل المخالفة ، وهذا القول لا يصدر إلا عن الذين لم يفهموا حقيقة الإسلام ، بل أقول بصراحة – معتذرا إليهم – إنهم لا يعتزمون فهم حقيقة دينهم لأن هذا يعنى تعكير صفو حياتهم ورغد عيشهم الذى يتمتعون به أو يطمعون فيه فى ظل سيادة النظام العلمانى الحاضر . فهم لا ينظرون إلى القضية إلا من ناحية القيام بما أوجبه الله عليهم – فإنها تغيب عن أذهانهم .

ولا شك أن قيام الخلافة الإلهية فى الدنيا نعمة من نعم الله تعالى ينعم بها على عباده ، بيد أن السعى لإقامتها كذلك واجب دينى محتوم ، حتى يحلّ النظام الصحيح الحق محل سيادة الشيطان ، هذا النظام الذى يزدهر فيه المعروف ، ويذبل المنكر .

كلمة لغير المسلمين :

أمّا غير المسلمين[١] فأنصح لهم نصح الأمين : أن لا يضعوا على قلوبهم أقفال العداء والعصبية التى احتلت الأذهان والعقول بسبب ما جرى فى التاريخ بالماضى وما يجرى اليوم من صراع عنيف بينهم وبين المسلمين .

إن المبادئ والمعتقدات ليست ميراثا خاصا لأمة من الأمم وحكرا عليها ، ولا تحمل طابع قومية بعينها من القوميات ، وإذا ما أثبتت فكرة أو عقيدة صلاحها فهى للناس جميعا دون تمييز ، وإذا ما تبين خطؤها فهى خاطئة بالنسبة للناس جميعا كذلك ، بغض النظر عن الشخص الذى قدمها ، أو اللغة التى عبر عنها .

وأقول على سبيل المثال : إنه لا ينشأ أبدا فى قواعد الصحة ومبادئ الطب والاقتصاد والصناعة والزراعة والعلوم وما إلى ذلك من الفنون والنظم عما إذا كانت تنتمى إلى شعب (فلان) أو بلد (علاّن) أم لا ؟ ، أو من أى بلد تأتى ؟ فمن استمسك بالعصبية القومية أو الوطنية فى قبول هذه القواعد والمبادئ أو رفضها فإنه لا يضر إلا نفسه ، وهذا المنطق نفسه ينطبق على مبادئ الأخلاق والمدنية والاجتماع والحضارة والاقتصاد والسياسة ، فذلك كله من المبادئ التى لا يملكها شعب دون شعب أو جنس دون جنس . ولا يجوز الحكم بقبولها أو رفضها إلا بمقياس ما تحمله فى ذاتها من حَسَنٍ أو قبيح . .

وإنكم إذا اخترتم من قواعد الحياة أحسنها فلا تسدون بذلك جميلا على أحد سواكم ، وإذا استمسكتم بقواعد منحرفة فلا تجنون إلا على أنفسكم .

ومن المشاهد المعلوم أنكم لا تتعصبون فيما يتعلق بالمبادئ الأخرى التى تروج اليوم فى دنيا الناس ، وهذه الديمقراطية القومية العلمانية لم تأتكم إلا من شعب إنكليزى حكم بلادكم وأذل عنقكم بكل وسائل العنف والإرهاب طيلة مائتى سنة فلماذا لم تبدوا أية عصبية بشأن الديمقراطية العلمانية ؟ ولم تقولوا : إنها بنت أفكار شعب اضطهدنا وداس حرياتنا ؟ وهاكم نظم الاشتراكية والشيوعية التى يندفع وراءها قوم منكم بسرعة مخيفة ، وهى إنما تنبعث من عقلية يهودية : عقلية ماركس ، واحتضنتها روسيا ، فهل لكم أدنى قرابة بهؤلاء القوم ؟ وإذا لم يكن لكم قرابة بهم فلماذا لم تعتبروها

---

(١) ألقى الأستاذ المودودى هذا الخطاب قبل تقسيم البلاد ، حينما كان المسلمون وغير المسلمين يعيشون جنباً إلى جنب ، وكانت الاضطرابات الطائفية على أوجها بسبب السياسة الخاطئة التى تتبناها بعض قادة الحركات الاستقلالية آنذاك (المترجم) .

أجنبية ؟ وإذا كنتم نسيتم كل عصبية فى هذه المبادئ وأحببتم أن تنظروا إليها نظرة المحايد الباحث عن الحق فلا مبرر لأن يأخذ الشعب إلى قلوبكم سبيله فيما تقدم لكم من أسس وقواعد ، لا لشىء إلا لأننا ننتمى إلى شعب تشتكون منه فى بعض تصرفاته فى التاريخ القديم ، أو نشب اليوم صراع بينكم وبينه .

ولا ريب أن العالم سيظل فى محنة يعانى منها الويلات والمآسى ويتردى فى مهاوى الرذيلة وظلماتها حتى يقضى الله له أن يستنير بنور هديه ، ويعتنق مبادئ الحق التى تصون الحقوق الإنسانية ، وعندئذ تصفو سماؤه ويزول منها القلق والاضطراب ، وتسطع عليه أنوار الراحة والهناءة والسلام .

المروءة

هِىَ اجْتِنَابُ الرِّيبَ ، فَإِنَّهُ لاَ يَنْبُلُ مُرِيبٍ ، وَإِصْلاحُ الْمَالِ ، فَلاَ مُرُوءَةَ لِمُحْتَاج ، والْقِيَامِ بِحَوَائِج الأَهْلِ ، فَلاَ مُرُوءة لِمَنْ يَحْتَاجُ قَوْمُهُ إِلىَ غَيْرِه . .

عمرو بن العاص

الشورى أصل من أصول الحكم

للأستاذ / أحمد حسين

فى هذا الوقت الذى ينهض فيه المسلمون من كبوتهم ، وينشطون فى شتى الميادين تحت نظر الدنيا وسمعها فقد حان الوقت الذى يتقدم فيه المسلمون لحضارة الإنسانية بالعطاء ، ولطالما نبّهت إلى أن ما أسموه بالحضارة الأوربية ما هو إلا امتداد لما اقتبسوه من الحضارة الإسلامية ، وطالما مثّلت لذلك بما نادت به الثورة الفرنسية التى تعتبر انطلاقة أوربا فى العصر الحديث ، من « حرية وإخاء ومساواة » فليس ذلك إلاّ أساس التعاليم التى جاء بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا .

يقول القرآن الكريم « إنّما المؤمنون إخوة » والقرآن كله قائم على حرية الإنسان مما لخصه سيدنا عمر بن الخطاب فى عبارته المشهورة « متى إستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا » .

أما عن المساواة ، فلم تعرف الدنيا مساواة – ولن تعرف – كتلك التى طبّقها الإسلام بالفعل وروى عن رسول الله ﷺ قوله « المسلمون سواسية كأسنان المشط » والخلاصة أن الحضارة الأوربية عندما ازدهرت فقد كان ذلك بمبادئ وقيم إسلامية . . واليوم والحضارة الغربية تتردى وتتدهور فليس ذلك إلاّ لانحرافها عن هذه المبادئ . ومهمة المسلمين أن يعودوا لقرآنهم وسنة نبيهم بحثا عما ينفعهم وينفع البشر معهم .

الحكم ونظام الشورى :

وليس شك فى أن سعادة المجتمع أو شقاوءه تقوم أول ما تقوم على نظام الحكم . . ونظام الحكم فى الإسلام يقوم على دعامتين الأولى : الشريعة ، والثانية : الشورى .

وليس حديثنا اليوم عن الشريعة فلهذا مناسبة أخرى ، ولكن حديثى اليوم هو عن الدعامة الثانية من دعائم الحكم الإسلامى

وهو الشورى .

ولا يَتَصورنَّ متصور أننى سوف أفصِّل قواعد الشورى وأحكامها ، ومن هم أهل الشورى ، وكيف تتم عملية الشورى ، وما هى الحدود التى يجب أن يلتزمها الحاكم فى موضوع الشورى ؟ ! . . كل هذه أمور فى حاجة لاجتماع علماء المسلمين من مشارق الدنيا ومغاربها لتقنينها . . أى استنباطها من القرآن والسنة ، وإعدادها فى مواد وقوانين . وإنما سوف يقتصر مقالى هذا على تأصيل المبدأ وعرض ما جاء بصدده فى كتاب الله وسنة نبيه ، تاركا التفصيل والتفريع واستخلاص الأحكام للمتخصصين ولمن هم أقدر منى .

الشورى فى القرآن :

الشورى فى اللغة من « شرت الدابة » أى علمت خبرها وأحوالها ، ولكنها فى الاصطلاح تعنى مشاورة أهل الشورى ، أى استطلاع رأيهم . . واللفظ لم يرد فى القرآن إلا فى ثلاثة مواضع بإيجاز شديد ، ومع ذلك فهى كافية بل قاطعة فى فرض الشورى ليس فقط على الحكام ، بل على كل مؤمن فيما يعرض له من قضايا . . وإليك هذه المواضع الثلاثة :

- « وأمرهم شورى بينهم » (سورة الشورى الآية ٣٨)
- « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » (سورة آل عمران الآية ١٥٩)
- « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » (سورة البقرة الآية ٢٣٣)

وأمرهم شورى بينهم :

فأما عن الآية الأولى « وأمرهم شورى بينهم » فهى فى سورة الشورى ، وهى سورة مكية . . أى أنها نزلت فى مكة قبل الهجرة ، والمسلمون مستضعفون فى الأرض أبعد ما يكون عن أن تكون لهم دولة ، وقد وردت الآية فى معرض وصف المؤمنين بأن « أمرهم شورى بينهم » فدل ذلك على أن التشاور صفة من صفات المؤمنين . . قال رسول الله ﷺ :

« لا ندم من استشار » . . ذلك أن المؤمن عندما يستطلع رأى من هم أهل للشورى من ذوى قرباه ، أو من أهل الخبرة ، أو من أهل الثقة ، فهو يستفيد بحصيلة كل هؤلاء من التجارب والعلم . . وفى هذا من الفائدة ما فيه . . ولما كان الله سبحانه يريد للمؤمنين القوة والعزة والنجاح والفلاح فقد وضع أيديهم على أحد أسرار بلوغ هذه الغاية ، وهى التشاور ، فجعلها صفة أصيلة من صفات المؤمنين .

وشاورهم فى الأمر :

على أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعمق وجوب الاستشارة فى نفوس المؤمنين فاختار لذلك أقوى صيغة يمكن أن تطوف بالذهن ، وقوة الصيغة لا تنبع من كونها وردت فى صيغة الأمر الصادر لرسول الله ، بقدر ما تنبع من الظرف والمناسبة التى نزل بسببها هذا الأمر ، فحيث يتصور البشر أنّ الموقف يملى على رسول الله أن ينصرف عن الشورى ويزهد فيها . . إذا بهذه الآية الكريمة تأمرة أمرا بهذه المشاورة ، فقد نزل هذا الأمر الإلهى لسيدنا محمد ﷺ فى أثر ما أصاب المسلمين فى غزوة أُحُد ، وقد كان المسلمون قد فقدوا النظر الذى أتاحه الله لهم بسبب عصيان البعض لأوامر سيدنا محمد ، بل إن الخروج (ابتداءً) لمقابلة المشركين خارج المدينة كان على خلاف رأى سيدنا محمد ﷺ . . وهكذا تضافر عديد من العناصر لصرف سيدنا محمد عن الشورى والنزول على مقتضياتها . . وهذه العناصر هى :

أولا : إذا كان يمكن أن يوجد فى الدنيا مذ خلقها الله إنسان واحد من حقه أن يستقل برأيه فهذا الإنسان هو سيدنا محمد . . فلم تعرف الإنسانية له مثيلا فى كماله وعظمته وقد قرر القرآن عنه أنّه « لا ينطق عن الهوى ٥٣ : ٣ » .

ثانيا : عندما جاء المدينة الخبر بأن مشركى قريش فى طريقهم إليها . . كان من رأى رسول الله الانتظار فى المدينة ، ولكن الأغلبية أشارت بالخروج لملاقاة العدو ، فنزل رسول الله ﷺ عند رأيهم الذى يخالف رأيه . . وكان هذا الذى كان . .

ثالثا : كان التطور الذى حدث فى غزوة « أُحُد » بحيث حولها من نصر إلى هزيمة هو النتيجة المباشرة لعصيان أوامر الرسول كما قدمنا ، ومع ذلك فإن الوحى ينزل عليه آمرا إياه بأن يعفو عنهم وأن يستغفر لهم . . ثم يزيد على ذلك فيأمره بالتشاور معهم ، فدلّ ذلك على أن الشورى لازمة ، لازمة لا سبيل للتحلل منها تحت أى ظرف من الظروف ، وإذا كان الأمر يصدر لسيد الخلق وهو من هو ، فكم بالأحرى يكون الحال بالنسبة لمن هم دونه .

عن تراض منهما وتشاور :

لا يفرق الإسلام بين مسلم ومسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ومن هنا لم يفرض الإسلام الشورى على الحاكم فحسب ، وإنما جعلها صفة من صفات المؤمن ، وهو هنا يذكرنا بإحدى صور التشاور فليس لأحد الأبوين أن يستقل برأيه فى موضوع « فطام الطفل » فى بعض

الأحوال ، فلا مناص أن يتمَّ ذلك من خلال « التشاور » .

الشورى فى السُّنَّة النبوية :

وكانت السنة النبوية هى الشارحة والمبيِّنة لما أجمل القرآن . واستشارة النبى صلوات الله عليه وسلامه فى الحروب مشهورة . . فاستشار فى غزوة بدر ، وفى أحد ، ولكن غير المشهور أن رسول الله ﷺ قد استشار حتى فى خصوصياته ، والتاريخ يحدثنا عن أصل الخلاف بين السيدة عائشة وسيدنا على بن أبى طالب يرجع إلى رأى أبداه سيدنا علىّ فى حادث الإفك ، عندما استشاره رسول الله .

الشورى بعد وفاة رسول الله :

والسُّنَّة النبوية كما تكون قولية فهى أيضا فعلية ، أى تقوم على فعل الرسول وعمله ، والعمل كما يكون بالإيجاب فإنه يكون بالسلب . . كأن يسكت رسول الله ﷺ عن عمل يقع أمامه ، فيعتبر هذا السكوت بمناسبة إجازه ، ومن الواضح بل من المحقق أنه بمجرد مرض رسول الله مرضه الأخير ، لم يدع رسول الله شكاً فى أن يخلفه أبو بكر . . فراح يومئ إلى ذلك بإيماءات متعددة كأن يأمر صحابته أن يسدوا جميعا أبوابهم المفتوحة على المسجد فيما عدا « خوخة أبى بكر » وهو الاسم الذى كان يطلق على هذه الأبواب ، فقد استثناها رسول الله من هذا القرار .

يصلى وراءه :

على أن الأمر الذى لم يكن يحتمل أى شك فى رغبة سيدنا محمد ﷺ فى أن يخلفه سيدنا أبو بكر كان عندما أمر أن يصلى أبو بكر بالناس فتصورت السيدة عائشة أنه يطلب واحداً من صاحبيه « أبى بكر وعمر » ، فطلبت من عمر أن يصلِّى بالناس ، فلما سمع رسول الله صوت عمر غضب غضبا شديداً وأصر على طلبه أن يكون أبو بكر هو الذى يصلى بالناس ، وعندما شرع أبو بكر فى الصلاة دخل رسول الله المسجد ، فتصور أبو بكر أنه أصبح من الواجب عليه أن يتنحى . . ولكن رسول الله أشار إليه أن يواصل الصلاة . . وصلى رسول الله خلفه . . ونحسب أنْ ليس وراء ذلك إشارة إلى مكانة سيدنا أبى بكر عند رسول الله . . ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ لم يشأ أن يأمر أصحابه بأن يكون الخليفة من بعده هو أبو بكر . . وهو لو قال لأطاعوه ما تخلف منهم رجل واحد . . ولكن هكذا شاءت إرادة الله . . والتزم بها سيدنا محمد أن يكون الأمر (شورى بينهم) .

ثلاث صور :

وعلى ذلك فقد توافرت لنا ثلاث صور من الشورى لاختيار الحاكم فى عهد الخلفاء الراشدين . . أما الصورة الأولى فما جرى يوم السقيفة حيث بايع زعماء المهاجرين والأنصار سيدنا أبا بكر . . فكان ذلك بمثابة ترشيح وافقت عليه عامة المسلمين .

أما الصورة الثانية فصورة ما فعله أبو بكر حيث راح يتشاور مع أئمة الصحابة فيمن يخلفه . . فاستقر الرأى على أن يخلفه عمر ، . . أما الصورة الثالثة فعندما فوض عمر بن الخطاب لبضع نفر من زعماء الصحابة أن يختاروا الخليفة منهم . . وغنى عن البيان أن هذه الإجراءات كانت تتم على مسمع صحابة رسول الله ، فكانوا يقرونها . . وكان ولى الأمر بمجرد أن يلى الأمر يشاور فى كل أموره ، ولا عجب فى ذلك فهم تلامذة رسول الله . . وعندهم القرآن قبل ذلك وفوق ذلك – يأمرهم بالشورى .

تجربة السعودية فى الشورى :

وعندى أنه للسعودية اليوم دور رائد وتجربة حية فى قضية الشورى . . وإن أنس لست أنسى كيف يطلق على مؤسس هذه الدولة ، وأعنى به عبد العزيز آل سعود ، كان يطلق عليه اسم الشيخ . . وفى ذلك إشارة إلى أن مجلسه كان يضم أهل الشورى من الشيوخ . . ثم كان للملكة مجلس للشورى . . وكل هذه أمور ينبغى على علماء المسلمين أن يجتمعوا ليستعرضوها ويدرسوها فيما يدرسون ، والأمر المحقق أن الشريعة الإسلامية قد قررت المبدأ الأساسى وهو « الشورى » تاركة التفاصيل لجماعة المسلمين ، ولا مانع من الاستفادة بتجارب الأمم إذا ما كانت تحقق المصلحة ، وقد قيل كل ما يحقق مصلحة (عند غياب النص بطبيعة الحال) فهو من الشرع ، شريطة أن يظل داخل الإطار الإسلامى .

نسأل الله التوفيق والسداد .

أحمد حسين .

حول تقسيط
الضريبة المعاشية بالفوائد

فضيلة الشيخ على البولاقى

(سأل) بعض عمال اليومية بالسكة الحديدية – إحدى المجلات الإسلامية السؤال الآتى :

« لعمال اليومية بالحكومة مشكلة وهى أن من يرغب فى احتساب المدة التى لم يخصم منها قيمة المعاش فعليه سداد القيمة فورا أو بالتقسيط على مدد مختلفة خمس سنوات فأكثر ، فمثلا المبلغ المطلوب مائة جنيه فورا ، وبالتقسيط مائة وثلاثون جنيها ويزيد المبلغ على هذا إذا طال الأجل . فما حكم هذه الزيادة نرجو البيان ، مع العلم بأن بعض العلماء أفتى بأن هذه الزيادة ليست من الربا » ا . هـ

(فأجابت المجلة) بما يأتى :

« يجب على من يرغب فى المعاش أن يدفع هذه المائة فورا ونقدا ولو أدى ذلك إلى أن يقترضها قرضا حسنا ، فإن لم يجد من يقرضه القرض الحسن فليكتف بما تبقى له من قيمة المعاش ، وليس بلازم أن يحرص على المعاش كاملا من طريق محفوف بالمخاطر ، والله تعالى هو الرزّاق ذو القوة المتين – ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . . . ، « ويجعل له من أمره يسرا » أما من أفتى من العلماء بأن هذه الزيادة ليست ربا فإنى لم أقف لهم على دليل من كتاب أو سنة أو إجماع ، وعليهم بالدليل إن كان لديهم دليل ، « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » ا . هـ

أقول :

إن الحكم على معاملة من المعاملات بالحل أو الحرمة أو الشبهة متوقف على بيان صفتها التى تدخل بها فى باب الحلال أو الحرام أو الشبهة ، وكما لا يجوز الحكم بالحل بلا دليل كذلك لا يجوز الحكم بالحرمة بلا دليل ، قال تعالى « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » النحل : الآية ١١٦ .

وقد بحثت هذه المسألة بحثا دقيقا تبين لى منه أن تقسيط الضريبة المعاشية مع زيادة نسبة سنوية – لا ينطبق عليه باب من أبواب الربا التى ذكرها الفقهاء والمفسرون والمحدثون وإن كان الاقتصاديون الذين وضعوا هذه الزيادة اقتبسوها من الحساب الربوى الذى درسوه فيما يسمى بحساب الربح المئوى .

وإذا كان السيد مفتى المجلة التى أشرنا إليها قد طالب من يفتى بعدم الربا بدليل على فتواه من الكتاب أو السنة أو الإجماع فإنى أذكر له دليلا يرجع إلى الكتاب والسنة والأجماع وهو (الاستقراء) وذلك بأن نتتبع أنواع الربا الواردة فى كتاب الله تعالى وفى سنة رسول الله ﷺ ثم نقرن تقسيط الضريبة المعاشية بكل نوع من هذه الأنواع فنجده لا ينطبق عليه فنعلم أنه لا ربا فيه ، واليك البيان .

الربا الوارد فى كتاب الله تعالى نوعان : أحدهما ربا الدين وثانيهما ربا القرض ، والربا الوارد فى سنة رسول الله ﷺ ثلاثة أنواع : » أحدها ربا الفضل وهو بيع النقود بنقود من جنسها مع عدم العلم بالتماثل ، وكذا بيع مطعوم الآدمى بجنسه مع عدم العلم بالتماثل ، وثانيها – ربا اليد وهو بيع النقود بنقود ولو من غير جنسها مع عدم قبض العوضين أو أحدهما فى المجلس وكذا بيع مطعوم بمطعوم الآدمى ولو من غير جنسه مع عدم قبض العوضين أو أحدهما فى المجلس . وثالثها – ربا النساء ، وهو بيع النقود بالنقود ولو من غير جنسها مع التصريح بتأجيل القبض وكذا بيع مطعوم الآدمى بمطعوم الآدمى مع التصريح بتأجيل القبض للعوضين أو أحدهما ولو لمدة يسيرة ، والفرق بين النوعين الثانى والثالث هو أنّ النوع الثانى يتأخر فيه القبض على المجلس من غير نصٍّ على التأجيل والنوع الثالث ينص فيه على التأجيل . هذه هى أنواع الربا الخمسة ولا سادس لها فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسول الله ﷺ وإليك أمثلتها :

١ – (ربا الدين)

هذا النوع من الربا يسمى ربا الجاهلية أو ربا النسيئة ، وله أمثلة : (منها) أن يكون لإنسان على آخر دين يجب الوفاء به فى موعد ، فإذا جاء الموعد اتفق الدائن والمدين على تأجيل الدين على أن يدفع المدين شيئا زائدا ، فهذا الزائد هو ربا النسيئة سواء أكان من جنس الدين أم من غير جنسه ، وسواء أكان الدين دين بيع أو إجارة أو قرض أو غير ذلك ، وسواء أكان الدين نقودا أم قمحا أم تمرا أم غير ذلك ، وسواء أكان التأجيل إلى أجل مسمى كشهر أو سنة أم إلى أجل غير مسمى كأن يقول

المدين أجِّل الموعد على أن أعطيك كل شهر عشرة قروش ما دام الدين فى ذمتى ثم أوفيه كاملا (ومنها) أن يتعاقد اثنان على المعاملة بالدين كبيع ثياب بثمن مؤجل أوكشراء ثمر مؤجل بثمن حال ويتفقا من حين العقد على أنه إن لم يوف الدين فى موعده يزاد عليه كذا أو يزاد عليه كل شهر كذا إلى الوفاء ، (وهذان المثالان) يجمعان أمثلة كثيرة تفصيلية كما لا يخفى ، والربا فى جميع هذه الأمثلة فى مقابلة التأجيل كأنه أجرة للمنفعة كأجرة سكنى الدار ، غير أن منفعة سكنى الدار لها قيمة شرعية ومنفعة التأجيل للدين اسقطها الشارع فلم يجعل لها قيمة وحرم تقديمها ، ولا يضيرنا أن نجهل الحكمة فى هذا التحريم بل نقول كما قال الله تعالى « وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومَنْ عادَ فأولئكَ أصحاب النَّارِ هم فيها خَالِدون » البقرة – الآية ٢٧٥ . . على أن الباحثين ذكروا حكمة التحريم فى بعض صور ذلك الربا وإذا حرم فيها حُرِّم فى غيرها سدًّا للذريعة وإغلاقا لباب الفساد كما فى تحريم قليل الخمر .

٢ – (ربا القرض)

هذا النوع من الربا هو الذى أشاعه اليهود وتعاملوا به مع أنفسهم ومع الأجانب ولم يبالوا بالنهى عنه ، قال تعالى « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِم طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثيراً . وأَخْذِهِمُ الرِّبا وقَدْ نُهُوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أموالَ الناسِ بِالباطِلِ وأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً » ١٦٠ – ١٦١ – النساء ، وفى سفر حزقيال الإصحاح الثامن عشر من فقرة ٦ إلى فقرة ١٠ « والإنسان الذى كان بارا وفعل حقا وعدلا لم يأكل على الجبال – ولم يرفع عينيه إلى أصنام بيت إسرائيل ولم ينجِّس امرأة قريبة ، ولم يقرب امرأة طامثا ، ولم يظلم إنسانا بل رَدَّ للمديون رهنه ، ولم يغتصب اغتصابا ، بل بذل خبزه للجوعان ، وكسا العريان ثوبا ، ولم يعط بالربا ، ولم يأخذ مرابحة ، وكف يده عن الجور ، وأجرى العدل الحق بين الإنسان والإنسان ، وسلك فى فرائضى ، وحفظ أحكامى ، ليعمل بالحق فهو بار » وفى سفر اللاويين إصحاح ٢٥ فقرة ٣٦ « فضتك لا تعط بالربا ، وطعامك لا تعط بالمرابحة ، أنا الرب إلهك » وفى سفر نحميا إصحاح ٥ فقرة ١٧ » هال النبى نحميا تفشى الربا بين الشعب اليهودى ، فجمعهم وطفق يوبخهم ثم أمرهم أن يردوا فى اليوم عينه كل ما أخذوه من الربا ، وختم كلامه مع الشعب اليهودى بتهديد إلهى خطير حيث نفض حجره قدامهم وقال : هكذا ينفض

الله بيت المرابى ، ثم قال أخيرا لنترك هذا الربا «وفى المزامير» المؤمن لا يعطى بربا » [١] وفى سفر التثنية بالإصحاح الثالث والعشرين « لا تقرض أخاك الإسرائيلى بربا ، ربا فضة أو ربا طعام ، أو ربا شيء مما يقرض بربا . . للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك [٢]» وهذا النص الأخير فيه تقييد تحريم الربا بالإسرائيلى دون الأجنبى وهذا من تحريفهم فقد حكى الله عز وجل عنهم أنهم يستحلون أكل أموال الأميين أى غير الإسرائيليين – افتراء على الله ، قال تعالى (وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ منْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إلا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، ويَقُولُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمون » الآية ٧٥ – آل عمران

وقد شاع هذا الربا بين الناس بإشاعة اليهود له وتنظيم كل المعاملات الاقتصادية على أساسه وجعلوا ذلك فنا يدرسه الدارسون ويتقنونه ويتخرجون فيه ويؤسسون من أجله المصارف الصغيرة والكبيرة واقتدى بهم فى ذلك المسيحيون والمسلمون حتى عم أرجاء المعمورة وذلك مصداق ما رواه أبو داود وابن ماجه عن الحسن البصرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد الا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره » والحسن لم يسمع من أبى هريرة ولكنه لا يروى عنه ولا عن غيره إلا ما كان صحيحا فلهذا كانت مراسيله مقبولة ، ومنها هذا الحديث الذى يكاد يكون من المعجزات فإن جميع الأموال التى فى أيدى الناس اليوم إنما أخذوها من المصارف التى تتعامل بالربا فالآخذون جميعا أصابهم غبار الربا وإن لم يقصدوا التعامل به .

ولهذا النوع من الربا أمثلة (منها) أن يقرض إنسان إنسانا ذهبا أو فضة أو تمرا أو خبزا أو بقرة أو غير ذلك – على أن يرد إليه زيادة عما اقترض سواء أكانت الزيادة من جنس ما اقترض أم لا ، كأن يقول له أقرضتك مائة جنيه على أن تردها بعد سنة مائة وعشرين ، أو أقرضتك هذه المائة على أن تعطينى فى رأس كل شهر جنيها مادام الدين فى ذمتك فإن أديته بعد ذلك أديته كاملا ، (ومنها) أن يقرضه إلى أجل معلوم ويشرط عليه أنه إذا لم يوف الموعد فعليه أن يدفعه بعد ذلك مع زيادة قدرها تسعة فى

(١) انظر كتاب الربا بين الاقتصاد والدين للأستاذ عز العرب فؤاد .

(٢) من مقال فضيلة الشيخ محمد أبى زهرة رحمه الله فى مجلة (المسلمون) .

المائة مثلا عن كل سنة من سنوات التأخير . ومعنى هذا أن يحسب ما يزاد عن السنة ويقسم اثنى عشر قسما ليعلم ما يؤخذ عن كل شهر أو يقسم ثلاث مائة وستين قسما ليعلم ما يؤخذ عن كل يوم من أيام التأخير.

وهذا ، المثالان يجمعان أمثلة كثيرة عند التفصيل كما لا يخفى .

(وها هنا تنبيه مهم) وهو أن ربا القرض اليهودى وربا الدين الجاهلى يجتمعان فى نوع واحد وهو الربا فى مقابلة تأجيل الدين ، فالجاهلى حينما يؤجل الدين بزيادة تكون الزيادة كأنها أجرة للإمهال أو للصبر أو للضرر الذى حاق بالدائن حيث لم يأخذ الدين فى موعده ، واليهودى حينما يقرض بشرط رد زائد فإن هذا الزائد فى مقابلة تأجيل الدين الشرعى فإن مقتضى القرض شرعا هو رد المثل ، فيكون المثل وحده دينا شرعيا ويكون الزائد زائدا على هذا الدين الشرعى فى مقابل التأجيل أو الضرر الذى حاق بالمقرض بخروج هذا المال عن يده مدة من الزمان ، فالنوعان كلاهما زيادة فى مقابلة تأجيل الدين غير أن الدين ، فى الحالة الأولى كان ثابتا ثم اتفقا على تأجيله والزيادة عليه والدين فى الحالة الثانية لم يكن ثابتا من قبل بل ثبت هو والزيادة فى وقت واحد حيث كانت العبارة هكذا : أقرضتك هذه المائة بمائة وعشرة أو أقرضتك هذه المائة على أن تردها مائة وعشرة فالشرع يفصل بين المائة والعشرة لأنه لا يبيح الزيادة على المثل فى القرض فتكون الزيادة ربا لزيادتها عن المشروع الجائز ، وبهذا تفارق البيع بالثمن المؤجل فإن صاحب الأرض مثلا لو كان يبيعها بألف جنيه حالة وبألف وثلثمائة مقسطة على مائة شهر فذهب أحد الراغبين فى الشراء وقال له بعنيها بالثمن المقسط فهذا الثمن يصير كله دينا ولا تكون الثلثمائة ربا لأن البائع ليس مكلفا شرعا بأن يبيع بمثل الثمن الحال بخلاف المقرض فإنه مكلف شرعا أن يقرض بالمثل فيكون الزائد زائدا على الدين الشرعى .

٣ – (ربا الفضل)

لهذا النوع من الربا أمثلة كثيرة (منها) بيع الذهب بالذهب مع الجهل بالمماثلة كأن يضع سوارا ذهبيا على كفه اليمنى ويضع سوارا مثله على كفه اليسرى ويقول إنهما متساويان فهذا لا يكفى بل لابد من الوزن إلا ما علم تساويه يقينا كجنيهين ذهبيين معلومى الوزن ومتساويين فى العيار (ومنها) بيع ذهب بذهب مع العلم بالتفاصيل كبيع سوار جديد بسوار قديم يزيد عنه فى الوزن (ومنها) بيع جنيه ذهبى عليه صورة جورج بجنيه ذهبى عليه صورة فيكتوريا مع عشرين قرشا ، فهذه العشرون ربا لأن الجنيهين

متساويان فى الوزن والعيار (ومنها) بيع مصوغ جديد وزنه أربعة وعشرون جراما وعياره ثمانية عشر بمصوغ قديم وزنه أربعة وعشرون جراما وعياره واحد وعشرون ، وكلاهما من الذهب فهذا ربا لأن الذهب الخالص فى المصوغ الأول هو ثمانية عشر جراما فقط والذهب الخالص فى المصوغ الثانى هو واحد وعشرون جراما فهو يزيد عنه ثلاثة جرامات وإن كان وزنهما الكلى متساويا فإن قال الصائغ أو غيره كيف أبيع الجديد بالقديم متساويا معه وكيف أبيع الصحيح بالمكسر أو المصوغ بالسبيكة مع التساوى ؟ فهذا غبن قلت له إن لم ترض بالغبن فبع ذهبك بنقود غير ذهبية ثم اشتر الذهب الآخر بنقود غير ذهبية وبهذا تحترز عن الغبن وعن الربا . وبهذا يعلم حكم ما يحدث فى الصاغة من أن امرأة تعرض على الصائغ مصوغا قديما فيطالبها بأن تدفع معه مائة قرش مثلا ويعطيها مصوغا جديدا بوزن المصوغ القديم وعياره ويقول إن القروش هى أجرة الصنعة ، فهذا ربا والواجب عليه أن يقول لها أشترى منك هذا السوار بكذا من النقود غير الذهبية ثم يبيعها السوار الآخر بنقود تزيد مائة قرش فيحذر من الربا ويأخذ أجرة صنعته (ومنها) بيع الفضة بالفضة مع الجهل فى التماثل بالوزن أو مع العلم بالتفاضل فيه على ما سبق فى أمثلة الذهب (ومنها) بيع القمح بالقمح ، أو التمر بالتمر ، أو الشعير بالشعير ، أو الملح بالملح مع الجهل بالتماثل فى الكيل أو العلم بالتفاضل فيه ، فإن قال التاجر كيف أبيع التمر الجيد بالتمر الردىء المساوى له فى الوزن ؟ ألا يكون هذا غبنا ؟ قلنا له إن رسول الله ﷺ قد أرشد البائعين للتمر إلى ما به يزول الغبن والربا وذلك بأن يبيعوا تمرهم الجيد بدارهم ويشتروا التمر الردىء بدارهم أقل منها فيحصل لهم مقصودهم من غير ربا ومن غير غبن ، وكذا يقال فى القمح الجيد والقمح الردىء والملح الصحيح والملح المطحون ونحو ذلك من كل ما لا تسمح نفس التجار فيه بالمساواة بين العوضين كيلا ووزنا ، ولعل الحكمة فى تحريم بيع الطعام بجنسه ومتفاضلا تضييق هذا التبادل منعا للاحتكار كما يقول بعض الباحثين .

(وها هنا تنبيه مهم) وهو أن أحاديث الربا لم تنص إلا على الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح ، واختلف الفقهاء هل يقاس على هذه الستة غيرها ؟ فالظاهرية منعوا القياس ، والحنفية قاسوا على الذهب والفضة كل الموزونات كالحديد والنحاس وقاسوا على الأطعمة الأربعة كل المكيلات ولو لم تكن طعاما ، والمالكية لم يقيسوا على الذهب والفضة غيرهما وقاسوا

على الأطعمة الأربعة بقية الأطعمة القابلة للادخار كالذرة والأرز والحمص والعدس والفول والزبيب ، والشافعية لم يقيسوا على الذهب والفضة وقاسوا على الأطعمة الأربعة كل طعام للآدميين للتغذى كالذرة أو التفكه كالتفاح أو التداوى كالمصطكى والصبر والمر ، والحنابلة بعضهم ذهب مذهب الحنفية وبعهضم ذهب مذهب الشافعية (ويجب فى زماننا هذا) أن تقاس النقود الورقية على الذهب والفضة فالنقود الورقية المعتمدة فى بلد تكون جنسا واحدا كالأوراق النقدية المصرية فإذا بيعت ورقة ذات عشرة جنيهات بعشرة أوراق من ذات الجنيه فلا تفاضل وإن بيعت بأكثركان فيها ربا الفضل ، وهكذا يقال فى نقود الأردن والعراق والكويت والسعودية وليبيا فلا يجوز التفاضل فى القيمة بين نقود البلد الواحد وإنما يجوزالتفاضل بين نقود بلدين فالدينار الكويتى لو بيع بجنيهين مصريين أو جنيهين وربع أوجنيهين ونصف لم يكن فيهار با الفضل وهكذا يقال فى سائر النقود الورقية لأنها تعتبر أثمانا كالذهب والفضة ، فلا يجوز لنا أن نجمد على ما تلقيناه عن الأئمة من أن الذهب والفضة لا يقاس عليهما غيرهما عند الشافعية والمالكية ويقاس عليهما الموزونات فقط عند الحنفية والحنابلة فلا يكون فى النقود الورقية ربا الفضل ولا اليد ولا النساء فالتحقيق هو قياسها على الذهب والفضة فى الربا كما تقاس عليها فى وجوب الزكاة إذا بلغت نصابا كما قررنا ذلك فى مقال سابق .

ولعل الحكمة فى منع بيع النقود بالنقود من جنسها إلا مع الحلول والتقابض والتماثل وبنقود من غير جنسها إلا مع الحلول والتقابض – هى التضييق فى بيع النقود بالنقود وهو المسمى بالصرف لأن من يجعلون تجارتهم خاصة بالنقود يوسوس لهم شياطين الإنس والجن أن يقرضوا الناس بالربا ، وشيوع القرض بالربا يؤدى إلى أضرار فردية واجتماعية لا تخفى .

٤ – (ربا اليد)

لهذا النوع من الربا أمثلة (منها) بيع النقود بنقود من جنسها أو من غير جنسها مع تأخير قبض العوضين أو أحدهما عن المجلس سواء أكان التأخير منصوصا عليه فى العقد أم حصل مصادفة .

وهذا المثال يجمع أمثلة كثيرة (منها) بيع الذهب بالذهب أو الذهب بالفضة أو الفضة بالفضة مع تأخير القبض كما لو أعطى إنسان فضة للصائغ ثمنا لسوار ذهبى ثم قام قبل أن يتسلم السوار ليقضى بعض حاجاته أو قام الصائغ لبعض شأنه قبل القبض فهذا ربا يجب الاحتراز عنه فإما أن يتقابضا العوضين قبل التفرق وإما أن يفسخا

عقد البيع لئلا يقعا فى الربا (ومنها) بيع مطعوم الآدمى بمطعوم الآدمى ولو من غير جنسه مع تأخير القبض للعوضين أو أحدهما عن المجلس كما لو باع قمحا بتمر وكان نموذج القمح موجودا دون باقيه فبعد انعقاد البيع ذهب لإحضاره فهذا لا يجوز فيجب فسخ البيع قبل قيامه فإذا قام وأحضر القمح وعاد تبايعا من جديد وقبض كل واحد منهما حقه قبل التفرق .

(فإن قيل) هذا تضييق على الناس وليس من شأن الشرع التضييق (قلنا) إن التضييق مقصود لكى ينصرف الناس عن مبادلة المطعوم بالمطعوم لأن شيوع هذه المبادلة يؤدى إلى الاحتكار ، ولا يخفى ما فيه من الأضرار فلينصرف الناس عن هذا التبادل ، وليبيعوا الطعام وليشتروه بالنقود .

٥ – (ربا النَّساء)

لهذا النوع من الربا أمثلة (منها) بيع النقود بنقود ولو من غير جنسها وبيع المطعوم بالمطعوم ولو من غير جنسه مع التصريح فى العقد بتأجيل العوضين أو أحدهما ولو مدَّة يسيرة كأن يقول البائع بعتك هذا الجنيه بجنيه تأتينى به غدًا أو بمائة قرش تأتينى بها غدا وكأن يشترى إنسان سوارا من الصائغ بنقود فضية يأتيه بها بعد ساعة (وهذه الأنواع الثلاثة) قد تجتمع وقد يجتمع منها اثنان وقد ينفرد منها واحد (مثال اجتماع الثلاثة) أن يبيع تمرا جيدا بضعفه من التمر الردىء على أن يسلمه التمر الجيد بعد ساعة ثم يتفرقا قبل قبضه فيتحقق فى هذه المعاملة ربا الفضل لأن الردىء ضعف الجيد فى الكيل وربا اليد لأن المشترى فارق المجلس قبل القبض وربا النساء للتصريح بالتأجيل (ومثال اجتماع اثنين) أن يبيع القمح بشعير ويصرح بتأجيل تسليم القمح ساعة ثم يتفرقا قبل القبض ، فيتحقق ربا اليد للتفرق قبل القبض وربا النساء للتصريح بالتأجيل ولا يتحقق ربا الفضل لأن الطعامين ليسا من جنس واحد ، وكذلك بيع القمح بقمح لا يساويه فى الكيل مع تأخير قبض واحد منهما عن المجلس من غير نص على التأجيل فهذا يتحقق فيه ربا الفضل وربا اليد دون ربا النساء لعدم النص على التأجيل وكذلك بيع القمح بالقمح المساوى له فى الكيل مع النص على تأجيل التسليم ساعة ثم التفرق فى المجلس قبل انتهاء الساعة فهذا يتحقق فيه ربا اليد والنساء دون ربا الفضل ، وكذلك بيع القمح بقمح لا يساويه مع التصريح بتأجيل القبض ساعة ثم يحضر القمح قبل التفرق فيقبضه المشترى فيتحقق ربا الفضل لعدم التساوى فى الكيل وربا النساء للنص على التأجيل ولا يتحقق فيه ربا اليد لأنهما لم

يتفرقا قبل القبض – ولا يخفى على القارئ الكريم بقية الأمثلة .

(وها هنا تنبيه مهم) وهو أن ربا النَّساء غير ربا النسيئة لأن ربا النساء هو بيع النقود بالنقود أو المطعومات بالمطعومات مع النص على تأجيل قبض العوضين أو أحدهما وربا النسيئة هو الزيادة على الدين فى مقابلة تأجيله وهو ربا الجاهلية أو اشتراط رد زيادة على مثل المال المقترض وهو ربا القرض الذى تعامل به اليهود .

التطبيق :

بعد أن أوضحنا الأنواع الخمسة للربا وبيَّنَّا أن النوعين الأولين فى الديون والأنواع الثلاثة الأخيرة فى البيوع نستطيع أن نقارن بينها وبين تقسيط الضريبة المعاشية التى سأل عنها عمال اليومية فنقول :

(الأصل فى نظام المعاش) أن تقتطع الحكومة من المرتب الشهرى للعامل نسبة محصومة حتى إذا بلغ سن الإحالة على التقاعد تقاضى مع تقاعده معاشا شهريا ثم تتقاضى زوجته بعد وفاته وأولاده القصر وأبواه الفقيران بعض المعاش ، وكلما كانت المدة التى اقتطعت الحكومة منها الضريبة المعاشية طويلة كان المعاش الذى يصرف بعد الإحالة على التقاعد كبيرا كما أنه يكون صغيرا إذا كانت المدة قصيرة ولهذا يحرص العامل على أداء الضريبة المعاشية عن المدة الماضية ليحصل على معاش أكبر ، وفى هذه الحالة تحسب الحكومة المبلغ الذى كان واجب الاقتطاع عن المدة السابقة ثم تطالب العامل بدفعه نقدا بلا زيادة أو يدفعه على التقسيط مع زيادة مقدارها كذا فى المائة ، ولما كانت هذه الحسبة تشبه الحسبة الربوية ظن بعض الباحثين أنها من الربا وليست هى من الربا فى قليل أو كثير فإن تقسيط المعاش لا ينطبق عليه ما عرَّفناه من ربا الفضل واليد والنساء والقرض فالحكومة لم تعقد مع العامل عقد بيع بالمفاضلة أو التأخير أو الأجل ولم تعقد معه عقد قرض بالفائدة ، فلم يبق بعد ذلك سوى ربا الدين ، فلننظر هل تقسيط الضريبة المعاشية ينطبق عليه هذا النوع من الربا أو لا ينطبق ؟ فلنقل : هل الضريبة المحسوبة عن المدة الماضية للعامل صارت دينا عليه بمجرد الطلب ؟ فيكون تقسيطها مع الزيادة من الربا ؟

والجواب : الواقع أنها لم تصر دينا عليه فإنه لما طالب بدخوله فى نظام المعاش قيل له أن مجموع الضريبة عن المدة الماضية هو مائة جنيه مثلا وإذا قسط على ستين شهرا صار مائة وثلاثين مثلا ، ولا شك أن هذا القول من الحكومة لم يلزمه بالمائة ولا بالمائة والثلاثين وإنما هو عرض للاختيار ، فإذا اختار المائة صارت دينا

عليه . وإذا لم يخترها بل اختار المائة والثلاثين ابتداء فالثلاثون لا تكون ربا . لأنها ليست زائدة على دين ثابت فى ذمة العامل وليست زائدة على دين سيثبت فى ذمته ، وإنما هى مع المائة تصير دينا واحدا بعد الاختيار (فإن قيل) إن الحاسبين الحكوميين قد اعتبروا أن العامل كان يجب عليه دفع المائة ، فالمائة فى عرفهم دين يجب دفعه فورا ، فمن لم يدفعه فورا قسط عليه بالفائدة المئوية فالفائدة وهى الثلاثون مثلا زائدة على الدين فى مقابلة تقسيطه ، وذلك هو ربا الجاهلية بعينه .

(قلنا) إن اعتبار الحكوميين أن المائة دين إنما هو اعتبار « حسابى » تخيلى فهو دين فى الألفاظ والأوراق تخيلوه ليبنوا عليه الفائدة ، والخيال غير الحقيقة .

(فإن قيل) لم لا يقاس الدين الخيالى الاعتبارى الفرضى على الدين الحقيقى فتكون الزيادة عليه من أجل التقسيط ربا ؟

(قلنا) لو كان الدين الخيالى التقديرى الفرضى ربا لامتنع البيع بالتقسيط بثمن أعلى من الثمن الفورى ، فإن التاجر يفرض أن الأرض أو السيارة أو المنزل أو الثلاجة تساوى مبلغا معينا يدفع فورا ثم يحسب للتقسيط حسبة كالحسبة الربوية فيقول إن المائة الفورية تزاد ثمانية مثلا عند التقسيط على أربعة وعشرين شهرا وتزاد ستة عشر عند التقسيط على ثمانية وأربعين شهرا ، وهلم جرا ، فإذا جاءه من يريد الشراء أعلمه أن الثمن الفورى كذا وأن الثمن المقسط أكثر منه وأنه بالخيار بين أن يشترى بأحدهما ، فإذا اختار الشراء بالثمن المقسط لم تكن الزيادة ربا لأنها ليست زائدة على دين فى ذمة المشترى وإنما هى جزء من الثمن وإن كانت زائدة على دين خيالى فرضى تقديرى. فإن التاجر إنما حسب الزيادة فى ألفاظه وفى أوراقه حسبة ربوية كما قلنا وقد أجمع العلماء على أنه يجوز البيع بالأجل والتقسيط بثمن أعلى من الثمن الفورى وأنه ليس ملزما شرعا أن يقف بالزيادة عند حد إلا أن ينهاه ولى الأمر عن الزيادة الفاحشة لأن لولى الأمر التسعير فى الفوريات والمقسط والمؤجلات تبعا للمصلحة العامة فإنه مسئول عن حاضر الرعية ومستقبلها .

وخلاصة هذا الجواب أن مجموع الضريبة المعاشية التى يحسبها الحاسبون على العامل عن المدة التى لم يطالب فيها بالدفع – إنما هو دين خيالى قدروه وفرضوه ليحسبوا ما يزاد عليه إذا قسط على ستين شهرا أو أقل أو أكثر ، فهو مثل الدين الخيالى الذى يفرضه التاجر ليحسب الزيادة عليه عند تقسيطه فكلاهما دين خيالى غير واقعى فالزيادة عليه ليست ربا وإن سميت

فائدة وحسبت بالحساب المئوى الزمنى

(فإن قِيل) ان الضريبة المعاشية ليست مقابلة لسلعة فليست مثل الثمن المقسط ؟ قلنا : كلاهما دين خيالى تقديرى غير حقيق ولا تأثير لسبب الدين . وهذا واضح جدا .

(وها هنا تنبيه مهم) وهو أن التاجر لو قال لمريد الشراء أنا أبيع بكذا حالا وبكذا مقسطا فهذا ليس عقدا وإنما هو بيان للثمن الذى يرضى به ، فإذا قال له مريد الشراء اشتريته بالثمن الحال فقال التاجر قبلت ثم وجد المشترى أن التقسيط أيسر له فقال للتاجر قسط الثمن واضمم إليه الزيادة فهذا ربا الجاهلية لأن الثمن الأصلى صار دينا عليه بمجرد القبول وبهذا يعلم أن ما يفعله بائعو الأراضى وغيرها من قولهم (باع الطرف الأول أرضا مقدارها كذا وسعر المتر المربع كذا يدفع منه الربع مقدما ويقسط الباقى على مائة وعشرين شهرا بفائدة سنوية مقدارها كذا فى المائة – تقليد للكفار الذين لا يبالون بالربا – فالمشترى الذى يقبل البيع بهذه الصيغة يقع فى الربا لأنه قبل الثمن الأصلى ثم الزيادة للتقسيط فصار الثمن الأصلى هو الدين والفائدة ربا ، ولو حسب البائع الثمن الفورى ثم أخرج ربعه وزاد الفائدة على ثلاثة أرباعه وجمع الجميع فى أوراقه فكتب فى الصيغة « باع الطرف الأول للطرف الثانى أرضا مقدارها كذا من الأمتار بثمن مقداره كذا على أن يدفع الطرف الثانى من الثمن مبلغاً فورا ويقسط الباقى على مائة وعشرين شهرا فيكون مقدار القسط كذا ، فإنه يحصل على مقصوده بغير ربا ، وليس هذا الصنع من الحيل الربوية الممقوتة وإنما هو إرشاد إلى السبب المشروع الحلال الذى يغنى عن السبب الفاسد الحرام .

(فإن قيل) إن الضريبة المعاشية التى تقتطع من المرتب الشهرى للعاملين تسمى معاشا وهى تقابل المعاش الذى يأخذه المحالون على التقاعد للعجز أو المرض أو الشيخوخة فهى نقود مقابلة لنقود غير معلومة التماثل ومؤخرة التقابض فشأنها هو شأن بيع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة مع الجهل بالتماثل ومع تأخير القبض عن المجلس ومع العلم بالأجل كأنه منصوص لأن المعاش المقتطع يكون قبل الإحالة على التقاعد والمعاش المأخوذ فى مقابلته إنما يكون بعد التقاعد فهو ربا جامع بين ربا الفضل وربا اليد وربا النساء فكيف تزعمون أن تقسيطه ليس ربا ؟

(قلنا) لو كانت هذه المقابلة بين المعاش المقتطع والمعاش المأخوذ مقابلة بيع أو مقابلة قرض لكان أصل نظام المعاش فاسدا من حيث الربا والغرر ولكن السيد مفتى المجلة التى أشرنا إليها قد أفتى بأن يدفع

العامل المائة المطلوبة فورا ولا يقسطها مع زيادة الثلاثين ، وهذا الإفتاء صريح فى إباحة أصل نظام المعاش مع ما فيه من مقابلة نقود بنقود مؤجلة عنها مع عدم العلم بالتماثل .

(والواقع) أن المقابلة بينهما ليست مقابلة مثمن وثمن ولا مقابلة قرض ووفاء بالمعنى الاصطلاحى بل بالمعنى المجازى كما فى قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » التوبة — الآية ١١١ وقوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) » الحديد الآية ١١ فالجهاد بالنفس والمال مقابل للجنة مقابلة الإحسان بالجزاء الأوفى فشبه الإحسان بالمثمن وشبهت الجنة بالثمن وكذلك شبه العمل الصالح بالقرض الحسن وشبه جزاؤه المضاعف بالوفاء للدين مع التضعيف ، ولو كانت المقابلة فى الآية الأولى مقابلة مثمَّن بثمن حقيقيين لكان فيها ربا النَّساء ولو كانت المقابلة فى الآية الثانية بين قرض حقيقى ووفائه المضاعف لكان قرضا بالربا المضاعف وهو أشد أنواع الربا تحريما .

(فإن قيل) إذا لم تكن المقابلة بين المعاش والمعاش مقابلة بين مثمن وثمن ولا بين قرض ووفاء فماذا تكون ؟

(قلنا) إنها مقابلة إعانة بإعانة . فإن ولى الأمر راع ومسئول عن رعيته حاضرها ومستقبلها فمن شأنه أن يقوم بمصالحها ، ويدبر المال لذلك فيفرض ضرائب مختلفة الأنواع والأسباب ويلتزم بأمور ينفق فيها أموالا لأعمال ولأشخاص حسب المصلحة ومن هنا نرى أن ناسا يطالبون بأموال وآخرين تصرف عليهم أموال وقد يطالب إنسان بدفع مال فى وقت ثم يعطى مالا فى وقت آخر أو يؤخذ منه مال وتؤدى إليه منفعة ، ولا يراعى فى المال المأخوذ والمدفوع أن يكونا متماثلين ولا متقابضين وإنما يراعى أن يكون المأخوذ والمدفوع مؤديين للمصلحة ، ومن ذلك إلزام الموظفين الدائمين بمعاش يقتطع من مرتباتهم الشهرية ليوضع فى صندوق المعاشات ويضم إليه مثله أو ضعفه من أموال الدولة المأخوذة من موارد أخرى وينفق من المجموع على من أحيلوا إلى التقاعد للعجز أو المرض أو الشيخوخة فيتقاضوا معاشات شهرية مدى الحياة ثم أزواجهم وأبناؤهم القاصرون وبناتهم اللاتى لم يتزوجن وآباؤهم وأمهاتهم بشروط مخصوصة دون باقى الورثة . ولا يشك عاقل فى أن المأخوذ والمقتطع ليسا عوضين فى بيع ولا قرض وإنما هما إعانتان متقابلتان داخلتان تحت قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) المائدة الآية ٢

(ومما يوضح ذلك) قصة الأشعريين

وقصص أمراء الأجناد المروية فى صحيح البخارى وغيره.

روى البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ «إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم» وروى البخارى فى صحيحه أيضا عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال «بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل. فأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه وهم ثلثمائة وأنا فيهم فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش فجمع ذلك كله، فكان مِزْوَدَىْ تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلا قليلا حتى فنى، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت وما تغنى التمرة، فقال لقد وجدنا فقدها حين فنيت» الحديث.

هذان الحديثان وأمثالهما تدل دلالة واضحة على أن ما يجمع بقصد التعاون ويوزع بقصد التعاون لا يشترط فيه التماثل بين مايؤخذ من الواحد وما يدفع إليه، فالأشعرى فى الحديث الأول والجندى فى الحديث الثانى قد يكون ما يعطاه أكثر أو أقل مما أخذ منه لو كانت المقابلة بيعا أو قرضا لكانت المعاملة ربا لمقابلة طعام بطعام مع عدم التماثل لكنها لم تكن كذلك لأنها مقابلة معونة بمعونة، فصاحب الطعام القليل وصاحب الطعام الكثير كل منهما يقصد أن يكون طعامه مشتركا بينه وبين الجميع، فإذا جمع الطعام كله كان مشتركا بينهم فإذا وزع أخذ كل واحد حقه بقطع النظر عما أخذ منه، وهذه اشتراكية إسلامية مبنية على التواد والتراحم والتعاطف والأخوة الصادقة.

فكذلك نظام المعاش أخذا وإعطاء فكل موظف يقصد أن يكون ما يقتطع منه مشتركا بين المتقاعدين، وكل متقاعد يعلم أن ما يعطاه مأخوذ من ضرائب الموظفين مع ما يضم إليها من الخزانة فالموظف معين والمتقاعد معان ثم إذا تقاعد الموظف صار معانا من الموظفين الجدد، وهكذا دواليك.

(فإن قيل) إذا لم تكن فوائد تقسيط المعاش لعمال اليومية ربا أفلا تكون شبهة ربا لأنها فوائد تأجيل لمال مطلوب، والشبهة ينبغى اتقاؤها كما هو معلوم.

(قلنا) بعد إلقاء الضوء على هذه المعاملة وبيان أن الفوائد فيها ليست فى مقابلة تأجيل دين ثابت ولا دين منشأ تبين أنها قريبة الشبه جدا بفوائد تقسيط الثمن فكما أن الثمن الأصلى وفوائد التقسيط يصيران معا بعد اختيار التقسيط دينا واحدا

لا تفصيل فيه فكذلك المطلوب الأصلى من العمال وفوائد تقسيطه يصيران بعد اختيار التقسيط دينا واحدا لا تفصيل فيه ، والأول حلال بالإجماع ، فالثانى مثله ، وإذا اشتبه الأمر على العمال وعلى من لا يعلمون فقد أوجب الله عليهم أن يسألوا أهل الذكر كما قال تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » النحل الآية ٤٣ والأنبياء الآية ٧ فإذا سألوا فأجيبوا بالحق الذى يدمغ الباطل فيزهقه فلا شبهة ينبغى اتقاؤها .

(وها هنا سؤال يطرح نفسه) وهو أن بعض الموظفين الذين يقتطع من مرتباتهم الشهرية معاش قد يقومون بإجازة بدون مرتب عدة أشهر ثم يعودون للعمل فيطلب منهم دفع مجموع المعاش عن شهور الإجازة فإذا لم يدفعوه حالا قسط على الشهور الباقية إلى بلوغهم سن التقاعد بفوائد سنوية مقدارها أربعة ونصف فى المائة فما حكم هذه الفوائد ؟ (والجواب) إن الموظف إذا اختار التقسيط بالفوائد كان متعاملا بالربا لأنه بعقد الوظيفة يصير آخر كل شهر دائنا بمرتب الشهر ومدينا بالمعاش فإذا تقاضى صافى المرتب فلا دين له ولا عليه فإذا طلب الإجازة بدون مرتب فبانقضاء كل شهر يصير مدينا بالمعاش وليس دائنا بالمرتب فإذا عاد إلى العمل صار مدينا بمعاش شهور الإجازة فإذا اختار التقسيط بالفوائد كانت هذه الفوائد ربا لأنها فى مقابلة تأجيل الدين فعليه أن يختار الدفع فورا أو يمتنع عن الدفع وفى هذه الحالة يقسط المبلغ بالفوائد جبرا ومعلوم أنه لا ربا مع الجبر لأن الربا عقد من الجانبين والجبر تصرف من جانب واحد

وإذا قلنا إن هذا الجبر ليس ربا وإن تقسيط المعاش عن المدة التى سأل عنها عمال اليومية ليس فيه ربا أيضا فليس معنى ذلك تبرئة نظام المعاش من الثغرات فإن القائمين بوضع هذه القوانين ليسوا معصومين فنقترح أن تعدل بحذف النصوص التى بمقتضاها تطلب الحكومة من المدينين المتأخرين فوائد سنوية ويقيننا أن هذا هو الذى سيكون فى المستقبل القريب إن شاء الله .

على البولاقى

دراسة قرآنية

التحريم بالرضاعة ومتى يكون

فضيلة الشيخ/مصطفى محمد الحديدى الطير

قال تعالى فى سورة النساء :

« حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » الآية ٢٣

وقال فى سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » من الآية ٢٣٣

البيان

دلت الآية الأولى على أن الرضاعة من أسباب تحريم الزواج ، فتجعل المرضعة فى حكم الأم من النسب للرضيع ، وبناتها فى حكم الأخوات من النسب له ، فيحرم على الرضيع إذا كبر أن يتزوج مرضعته أو إحدى بناتها (١) ، سواء رضعت معه أم لا ، لأنهن جميعا أخواته برضاعه من أمهنّ ، سواء كُنَّ قبله أو معه أو بعده فى الرضاع ، وإن كان الرضيع أنثى حرم على أبناء مرضعته جميعا من النسب أو الرضاع أن يتزوجوا بها لأنها أختهم من الرضاع ، وكما نصت الآية على ذلك نصت عليه السنة ، قال ﷺ « إن الرضاعة تُحرِّمُ ما تحرم الولادة » أخرجه الإمام مالك فى الموطأ عن عائشة ، وكذا البخارى ومسلم ، واللفظ لمالك

زمن التحريم بالرضاع

يقول الله تعالى فى سورة البقرة « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين

(١) نسباً أو رضاعاً

لمن أراد أن يتم الرضاعة» وهذا النص الكريم يدل على أن الرضاعة لا تحرم إلا إذا كانت فى السنتين التاليتين للولادة ، فقد دلت على أن الرضاعة تتم بمضى حولين منها ، وليس بعد التمام شىء ، وبهذا أخذ كثير من علماء الصحابة ومن جاء بعدهم .

قال القرطبى فى المسألة الخامسة من تعليقه على هذه الآية : انتزع مالك رحمه الله ومن تبعه وجماعة من العلماء أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب ، إنما هى ما كان فى الحولين ، لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة ، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة — هذا قوله فى مُوَطَّئِه — ثم قال : وهو قول عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم . وذكر على سبيل المثال الشافعى وأحمد وأبا يوسف ومحمدا ، إلخ — ثم قال : وروى عن مالك أنه يعطى حكم الحولين الزيادة اليسيرة عليهما ، واختلفت الروايات فى ضبطها ، فبعضهم ضبطها بأيام وآخرون بشهر ، وحكى عنه الوليد بن مسلم أن ما كان من رضاع بعد الحولين بشهر أو شهرين أو ثلاثة ، فهو فى حكم الرضاع فى الحولين ، وما كان بعد ذلك فهو عَبَث — إلى غير ذلك من الروايات عنه ، قال القرطبى : والصحيح الأول[١] لقوله تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» وهذا يدل على أنه لا حكم للرضاع بعد الحولين ، وأيد ذلك بما أخرجه الدارقطنى عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ «لا رضاع إلا ما كان فى الحولين» .

ثم نقل القرطبى فى تفسير آية المحرمات فى النساء أن أبا حنيفة كان يرى أن الرضاع بعد الحولين يحرم فى خلال ستة أشهر تالية لهما ، دون مازاد على ذلك ، ولم نر له سندا من السُّنَّة على تلك الزيادة ، ولعله جعلها مُحرِّمة بحجة أن القريب من الشىء يعطى حكمه

ثم ذكر عن زُفَر أن الطفل مادام يرتضع من الثدى ولم يفطم فإن إرضاعه يحرم وإن أتى عليه ثلاث سنين .

ونقل ابن تيمية فى كتابه (زاد المعاد) فى بحث الرضاع الذى جاء فى أواخر كتابه — نقل عن طائفة من الفقهاء — أن الرضاع يحرم قبل الفَطْم ولم يقدروا ذلك بزمن ، وقال : صحَّ ذلك عن أم سلمة وابن عباس والزهرى والحسن والأوزاعى ،

وذكر أن الأوزاعى قال : إن فطم وله عام واحد ، واستمر فطامه ، ثم رضع فى الحولين . لم يحرم هذا الرضاع شيئا ، فإن

(١) أى والصحيح من قَوْلَىْ مالك الأول وهو أن الرضاعة المحرمة ما كانت فى الحولين — كما نص عليه فى موطئه ، دون مازاد عليهما .

تمادى رضاعه ولم يفطم ، فما كان فى الحولين يحرم ، وماكان بعدهما لا يحرم : وهذا الرأى أحرى بالقبول ونقل ابن تيمية أيضا عن الحسن بن صالح وابن ذؤيب وجماعة من أهل الكوفة : أن مدة الرضاع المحرم ثلاث سنين ، فما زاد عليها لم يحرم ، إلى غير ذلك من الأقوال .

ولعل أصحاب مثل هذه الأقوال يرون أن التحديد بحولين كاملين فى الآية الكريمة يراد به قطع النزاع بين المطلقة وزوجها الذى طلقها بشأن مدة الرضاع التى تستحق عليها الأجرة ، فإن آية (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» جاءت متممة لأحكام المطلقات ، فهى لا تمنع من نقص مدة الرضاع أو زيادتها عندما يريد الوالدان ذلك ، ولا تمنع من استمرار التحريم بالرضاع بعد الحولين مادام الرضاع متصلا ، عملا بعموم قوله تعالى «وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة» فإن حكم التحريم بالرضاع فيها مطلق ولم يقيد بزمن ،

هل إرضاع الكبير يحرم

من الفقهاء من قال إن إرضاع الكبير يحرم كإرضاع الصغير ، لعموم قوله تعالى «وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة» ولحديث سهلة بنت سُهَيْل ، فقد روى مالك عن ابن شهاب أنه سئل عن رضاعة الكبير فقال : أخبرنى عروة بن الزبير أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة — وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وكان قد شهد بدرا ، وكان تبنى سالما الذى يقال له سالم مولى أبى حذيفة ، كما تبنى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، وأنكح أبو حذيفة سالما وهو يرى أنه ابنه — أنكحه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهى يومئذ من المهاجرات الأول ، وهى من أفضل أيامى قريش ، فلما أنزل الله تعالى فى كتابه ، فى زيد بن حارثة ما أنزل ، فقال «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم» رُدَّ كل واحد من أولئك إلى أبيه ، فإن لم يعلم أبوه رُدَّ إلى مولاه ، فجاءت سهلة بنت سُهَيْل — وهى امرأة أبى حذيفة ، وهى من بنى عامر بن لؤى — إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله كُنَّا نرى سالما ولدا ، وكان يدخل على وأنا فضلٌ[1] وليس لنا إلا بيت واحد ، فماذا ترى فى شأنه ، فقال لها رسول الله ﷺ : أرضعيه خمس رضعات فيحرم بِلَبَنِهَا» وكانت تراه ابنا من الرضاعة ، فأخذت بذلك أم المؤمنين عائشة) ثم قال : (وأبى

(١) أى مكشوفة الرأس والصدر ، وقيل على ثوب واحد لا إِزَارَ تَحْتَه

سائر أزواج النبى ﷺ أن يدخل عليهن بتلك الرضاعة أحد من الناس ، وقلن : لا والله ما نرى الذى أمر به رسول الله ﷺ سهلة بنت سهيل إلا رخصة مِنْ رسول الله ﷺ فى رضاعة سالم وحده ، والله لا يدخل علينا بهذه الرضاعة أحد فعلى هذا كان أزواج النبى ﷺ فى رضاعة الكبير) .

فأنت ترى أن رسول الله ﷺ قد رخص لسهلة أن ترضع سالما لكى يصبح ابناً لها من الرضاع ، وقد كان وقت هذه الرخصة فى دَوْرِ الرجولة ، قال ابن القيم فى فصل الرضاع من كتابه زاد المعاد : قد صح عن النبى ﷺ صِحَّةً لا يَمْترى فيها أحدٌ أنه أمر سهلة بنت سهيل أن ترضع سالما مولى أبى حذيفة – وكان كَبِيراً ذا لحية[1] – وقال أرضعيه تحرمى عليه : إلخ

رأينا فى قصة سالم

نحن نرى أن سماح النبى ﷺ لسهلة أن ترضع سالما ليحرم عليها ، إنّما عالج به مشكلة لن تتكرر ، فهو علاج مؤقت لمشكلة مؤقتة ، وبيان ذلك أن التَّبَنِّى كان معروفا ومُتَّبعاً فى الجاهلية وصدر الإسلام ، ومن صوره أن الرجل يُعْتِقُ عبده ويَتَبَنَّاهُ ، فيثبت له بهذا التبنى حقوق الأبناء ، فَتَبْدُو عَلَيْه أمُّه بالتبنى ، كما تَبْدُو الأمُّ على ولدها ، فكان يرى منها عنقها وذراعها ونحو ذلك مما لا تظهره للغريب ، ولا تمنع عنه الولد ، كما أنه يرث من تبناه كما يرثه ابنه من النسب ، إلى غير ذلك من حقوق الابن النسيب التى يعامل بها الابن الدَّعِىُّ وكان أبو حذيفة وزوجته سهلة قد تَبَنَّيَا سالماً بعد عِتْقِه ، وكانت سهلة بِحُكْمِ هذا التبنى لا تتحفظ معه كما لا تتحفظ الأم مع ابنها ، فكانت بعض أجزاء من جسمها كالعنق والذراع والساق تظهر له ، كما جاء فى حديثها «كان يدخُلُ علىَّ وأنا فُضُلٌ» أى مكشوفة الرأس والصدر والذراع ، فلما نسخ الله عادة التبنى بقوله «وما جعل أدعياءكم أبناءكم» وقوله «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم» أصبح هؤلاء الأدعياء غرباء ، فبعد أن كان سالم يدعى سالم بن أبى حذيفة ، قطع عن نسبته إليه وأصبح أخا له فى الإسلام ومولى[2] له ، وأصبح غريبا فى منزل أبى حذيفة ، فيجب الاحتجاب عنه ، بعد هذه الفترة الطويلة التى مَرَّت عليه فى البنوة وهو صبى ثم فتى

(١) نعم كان ذا لحية لأن هذه سنة الإسلام ، ولكنه كان شابًّا وقد تربى فى بيتها على أنه ولَدُها ، وسنبين لك ما نراه فى هذه القصة .

(٢) أى عتيقاً له .

وشاب صاحب لحية ، ولكن كيف يمكن الاحتجاب عنه بعد هذا كله ، وبعد أن أصبح ركنا من أركان الأسرة ، ومُعيناً فى شئونها ، فلهذا توجهت سهلة إلى رسول الله ﷺ ليحل هذه المشكلة التى داهمتهم وأمثالهم ، فأفتاها بأن ترضع سالما خمس رضعات يصبح بعدها ابناً لها من الرضاع فتحرم عليه كأمه من النسب ، ويباح لها بذلك أن تظهر عليه كما تظهر على ابنها من النسب : وليس بلازم أن يكون الرضاع من الثدى مباشرة ، بل لا ينبغى أن يحدث ذلك مُبَاشَرَةً مع كبير ، وإنما تحلب اللبن من ثديها فى إناء ، ويتناوله صاحب المشكلة من الإناء كل مرة من الخمس ، وبهذا يكون قد ارتضع منها خمس رضعات ، لأنها مصدر اللبن ، وهذا هو المقصود من الارتضاع منها . وهذه الفتوى وإن كانت أمرا مُوَجَّهاً إلى سهلة ، فإنها أمر إرشادى لها ولمثيلاتها ممن لهن مثل حالتها ، فإنه لا وجه لخصوصية سالم وسهلة بهذا الحكم ، فإن عدالته تعالى لا تتسم بالخصوصية ، فتشمل المشكلة التى حصل الخطاب بشأنها وما شاكلها من المشكلات الناشئة عن نسخ التبنى .

ولا ينبغى أن يتوسع فى هذا الحكم ، فإنه لا يصح أن يطبق الآن بعد نسخ التبنى على أى حالة سواه ، فلو أرضعت امرأة بلبنها رجلا كبيرا خمس رضعات ، فإن هذا الرضاع لا يحرمه عليها ، ولا يبيح له النظر إليها ولا مجالستها فى خلوة ولا السفر معها .

وكذلك كان ينبغى أن لا يطبق على أية حالة بعد انتهاء مشكلة التبنى ، فإن الضرورة تقدر بقدرها ، ويزول حكمها بزوالها ، والأصل فى الرضاعة أن تكون للصغار لتكوينهم حتى يقدروا على تناول غير اللبن ، فيزول حكمها حينئذ ، وبهذا أخذ جمهور العلماء ، ومنهم ابن مسعود ، قال القرطبى : قدم رجل بامْرأته من المدينة ، فوضعت وتورَّم ثديها ، فجعل يمصه ويمجه ، فدخل فى بطنه جرعة منه ، فسأل أبا موسى الأشعرى فقال : بانت منك [1] ، وأتيا ابن مسعود فأخبراه . مـا فعلا فأقبل ابن مسعود بالأعرابى إلى أبى موسى الأشعرى وقال : أَرضيعاً تَرَى هذا الأشمط [2] ؟ إنما يُحَرِّمُ من الرضاع ما يُنْبِتُ اللحم والعظم ، فقال الأشعرى : لا تسألونى عن شىء وهذا الحَبْرُ بين

(١) أى انفصلت منك وفسخ نكاحك لها . لأنك صرت ولدها بالرضاع – هكذا فهم الأشعرى قبل أن يراجعه ابن مسعود ويجعله يعدل عن فهمه .

(٢) الأشمط هو الذى اختلط بياض الشعر بسواده فى رأسه ،

أظهركم : اهـ

وكان أبو موسى يقول بتحريم الرضاع للكبير والصغير ، فلما سمع ذلك من ابن مسعود ، رجع عن رأيه وقصر التحريم على زمن الرضاع المعهود

مذهب عائشة فى إرضاع الكبير

قد علمت من حديث سالم وسهلة الذى رواه الإمام مالك فى موطئه ، أن السيدة عائشة كانت ترى أن رضاع الكبير يحرم كرضاع الصغير . وأن سائر زوجات الرسول كان رأيهن ، أن تحريم سالم على سهلة وبنوته لها بإرضاعها إياه خمس رضعات ,وهو كبير إنما هو خصوصية لهما ، فلا يطبق على أى حالة سوى حالتهما ، ولعل زوجاته ﷺ كان غرضهن من اختصاص التحريم بقصة سالم ، أنه يختص بها وبما ماثلها من حالات التبنى التى نسخها الله ، إشفاقا على الناس من المتاعب التى سببها نَسْخُ التبنى ، فقد أصبح به المتبنَّى غريبا يجب الاحتجاب عنه ، بعد أن كان ابناً يرى من أمه أطراف جسدها التى يراها الابن من النسب ، فهو يختص بهذه الحالات ولا يطبق فى سواها من أحوال الكبار .

وقد بدت هذه الرواية التى رواها الإمام مالك فى موطئه بالنسبة للسيدة عائشة - بَدَتْ - واضحة الغرابة ، إذا قورنت برواية أخرى له تفيد أنها كانت تصنع ذلك مع الرضعاء الصغار ، فقد روى فى موطئه عن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر أخبره (أن عائشة أم المؤمنين . أرسلت به وهو يرضع إلى أختها .

أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق ، فقالت : أرضعيه عشر رضعات حتى يدخل علَىَّ ، قال سالم : فأرضعتنى أم كلثوم ثلاث رضعات ، ثم مَرِضَتْ فلم ترضعنى غير ثلاث رضعات . فلم أكن أدخل على عائشة من أجل أن أم كلثوم لم تتم لى عشر رضعات) .

فأنت ترى من هذا النص الذى رواه مالك ، أنها كانت شديدة الحرص على تنفيذ شريعة الحجاب ، وأنها لحرصها على دوام الصلة بين آل أبى بكر وآل عمر ، كانت تبعث بالرضيع من آل عمر إلى أختها أم كلثوم لترضعه ، حتى إذا كبر أمكن أن يدخل عليها لأنها خالته من الرضاع ، وأنها كانت تتشدد فى عدد الرضعات المحرمة فترى أنه لا يحرم سوى عشر رضعات ، ولهذا لم يتمكن سالم بن عبد الله بن عمر فى كبره من الدخول عليها ، لأنه لم يستكمل فى طفولته سوى ثلاث رضعات من أختها

أسماء ، لأنها مرضت فلم تستطع أن ترضعه عشر رضعات كما أمرتها عائشة ، فلو كان رضاع الكبير يحرم عندها فى غير موضوع مَنْ نُسِخَ تَبَنِّيهم ، فلماذا لم تفعل ذلك مع سالم فى كبره ، بعد أن فاته الرضاع فى صغره ، فتجعله يرضع من إحدى قريباتها ، ليكون بهذا الرضاع محرماً لها ، فيصح دخوله عليها ، ثم إنك ترى نافعاً شديد الدقة فى روايته لقصة رضاع سالم بن عبد الله بن عمر من أختها أسماء ، إذ يقول « أرسلت به وهو يرضع » ليشير بذلك إلى أنها كانت تفعل ذلك فى سن الرضاعة ، لا بعدها ، ولهذا قال سالم فى آخر الحديث (فلم أكن أدخل على عائشة من أجل أن أم كلثوم لم تتم لى عشر رضعات) أى لم تتمها لى وأنا صغير فى سِنِّ الرضاعة ، كما هو الشأن شرعا وكما أمرت به عائشة .

ومن الشواهد على عنايتها بأمر الحجاب ، ودقتها فى عدم الأخذ بأحكام الرضاعة إلا عند الاطمئنان إليها ، ما رواه الإمام مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها أخبرته ، (أن أفلح أخا أبى القعيس جاء يستأذن عليها — وهو عمها من الرضاعة — بعد أن نزل الحجاب — قالت — فأبيت أن آذن له علىَّ ، فلما جاء رسول الله ﷺ أَخْبَرْتُهُ بالذى صنعتُ ، فأمرنى أن آذن له علىَّ) وأخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، ومثله مسلم .

فلهذا أستبعد ما جاء فى الخبر ، من أنها ذهبت إلى أن إرضاع الكبير يحرمه على من أرضعته ، ويجعلها فى حكم أمه ، ويجعل بناتها وبنيها فى حكم إخوته ، وأنها كانت تأمر أختها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق أو بنات أخيها أن يرضعن من أحبت أن يدخل عليها من الرجال — كما جاء فى حديث سالم وسهلة الذى أخرجه مالك وغيره ، وأنها تفردت بهذا الرأى بين أمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ ، فإنهن رأين أنها رخصة اختص بها سالم بسبب نسخ عادة التبنى كما شرحناه .

إننا نستبعد هذا الخبر عن أم المؤمنين عائشة ، فإنه يفتح باب الفتنة ، ونخشى أن يكون من اختراع المنافقين الذين افتروا عليها قصة الإفك التى حكاها الله تعالى فى سورة النور ، أو من افتراء غلاة الشيعة ، وأن هؤلاء أو أولئك دسوه على رواة السنة ، والذى يطمئن له الفؤاد هو نحو ما جاء بحديث سالم بن عبد الله بن عمر ، أى أنها كانت تصنع ذلك فى بعض الأطفال الرضعاء المحيطين ببيت النبوة ، الذين سوف يدخلون عليها فى كبرهم ، فكانت تحتاط لذلك ، فَتُعِدُّهم بهذا الرضاع فى صغرهم ، لكى يكون دخولهم عليها فى

كبرهم مشروعا ومباحا ، لكونها خالتهم أو عمتهم بهذا الرضاع ، ولا شك أن أمرها مع سالم بن عبد الله بن عمر يؤكد حرصها على الحجاب ، فإنه لمّا لم يكتمل له عشر رضعات فى صغره لم يدخل عليها فى كبره

آراء العلماء
فى الرضعات المحرمة

اختلفت العلماء فى عدد الرضعات التى تحرم الرضيع – أى تجعله كالولد من النسب فى حرمة النكاح – فمهم من يحرمه برضعة واحدة محققة ، فإنها أقل ما يطلق عليه اسم الرضاع الذى جعله الله سببا للتحريم فى قوله « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » وفى ذلك يقول الليث بن سعد : الرضاع قليله وكثيره يحرم فى المهد ، كما يفطر الصائم بالقليل والكثير

ومن العلماء من اشترط ثلاث رضعات للتحريم بالرضاع ، لقوله ﷺ « لا تحرم المصة ولا المصتان » أخرجه مسلم . قال القرطبى : وهو يفسر قوله تعالى « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » أى أرضعنكم ثلاث رضعات فأكثر : ا . هـ وقد جاءت الرضعات الثلاث فى رواية لحفصة .

ومهم من اشترط خمس رضعات لحديث سهلة الذى مرَّ ذكره ، فقد جاء فيه « أرضعيه خمسا يحرم عليك » وقد جاءت الرضعات الخمس فى رواية أخرى لحفصة ، وبه أخذ الإمام الشافعى ، وهو الذى عليه الفتوى الآن ، ولعله أدنى ما يتناسب مع قوله ﷺ « لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم » أخرجه أبو داود عن ابن مسعود برفعه ، وكذلك ما أخرجه الترمذى من حديث أم سلمة أنه ﷺ قال « لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء فى الثدى ، وكان قبل الفطام » .

ومنهم من قال : لا يحرم إلا عشر رضعات ، وبه أخذت عائشة رضى الله عنها ، وقد مر بيانه فى قصة سالم بن عبد الله بن عمر ، وقيل غير ذلك ، وأقواها دليلا ما ذهب إليه الشافعى ، وهو أن التحريم لا يثبت إلا بخمس رضعات معلومات فأكثر – والله أعلم –

الحكمة فى التحريم بالرضاع

جعل الله الرضاع لُحْمَة كلُحْمَة النسب . بحيث يحرم فى النكاح ما يحرمه ، لأن الرضيع يعيش على اللبن الذى يخرج من ثدى مرضعته كما يعيش ولدها عليه ، ولأن اللبن خلاصة من دمها ، وقد تعاونت أجهزة جسدها على تحويله إلى لبن خالص من بين فرث ودم ، فقد اشترك فى ذلك قلبها وأعصابها وغددها وخلاياها ، فإذا

تغذى به الطفل فإنما يتغذى بخلاصة من دمها وجسدها ، فصار بذلك كأنه جزء من جسدها ، فلهذا أعطى حكم ولدها فى حرمة النكاح .

الجهات التى تنتقل إليها الحرمة بالرضاع

قلنا إن الحرمة تثبت برضاع الطفل فى أثناء الحولين التاليين لولادته خمس رضعات معلومات يقينا ، وإن هذا العدد هو الذى عليه الفتوى لقوة دليله ، ولما فيه من منع الحرج على الناس فيما هو أقل منه أو كان مشكوكا فى كونه خمسا ، فإذا أرضعت المرأة طفلا خمس رضعات معلومات يقينا ، صارت أمًّا له من الرضاعة ، فيكون لها بذلك حكم الأم من النسب فى حرمة نكاحه لها بعد كبره ، وصارت بناتها أخواته من الرضاعة ، فيكون لهن حكم الأخوات من النسب فى حرمة التزوج بهن ، وكما يحرم على الرضيع أن يتزوج بنات المرضعة نسبا . يحرم عليه أن يتزوج بناتها رضاعة فهن جميعا أخواته من الرضاعة ، فيستوى فى حكم التحريم من رضعت منهن معه أو قبله أو بعده .

وإذا كان الرضيع أنثى حرم على جميع أبناء المرضعة نسبا أو رضاعا أن يتزوجوا بها ، سواء من رضع منهم معها أو قبلها أو بعدها ، لأنها أختهم من الرضاعة ، فحكمها فى ذلك حكم الأخت من النسب ، وفى ذلك يقول النبى ﷺ « يحرم من الرضاع ما يُحرم من النسب » وينتقل التحريم من المرضعة إلى أصولها وحواشيها وفروعها ، فأبوها جده لأمه من الرضاع وأمها جدته كذلك ، وأختها خالته ، وأخوها خاله ، وبنت ابنها تعتبر بنت أخيه ، وبنت بنتها تعتبر بنت أخته — إلى غير ذلك من الصور التى تثبت حرمة الزواج بين الرضيع وبين أقاربها من الأصول والفصول والحواشى — ذكراً كان الرضيع أو أنثى .

وزوج المرضعة الذى جاء لبنها بسبب حملها منه يكون والدا للرضيع ، وأصوله أجداده وجداته ، وأولاده ولو من غير المرضعة إخوته وأخواته ، وإخوة صاحب اللبن وأخواته أعمام الرضيع وعماته وهكذا .

أخرج الإمام مالك فى موطئه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت « جاء عمى من الرضاعة يستأذن علىَّ ، فأبيت أن آذن له علىَّ حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فجاء رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال « إنه عمك فَأْذَنى له — قالت — فقلت : يا رسول الله إنما أرضعتنى المرأة ولم يرضعنى الرجل ، فقال : إنه عَمُّك

فَلْيَلجْ عليك » أى إنه عمك من الرضاع فليدخل عليك وقد أخرج هذا الحديث البخارى فى كتاب النكاح ، ومسلم فى كتاب الرضاع .

أما إخوة الرضيع من النسب ، فلا حرمة بينهم وبين مرضعته ، فلأىٍّ واحد منهم أن يتزوجها أو إحدى بناتها ، ولأخوات الرضيع من النسب أن يتزوجن صاحب اللبن أو أبناءه أو أبناء مرضعته ، لعدم وجود رضاع لهؤلاء أو أولئك ، وفى موسوعات التفسير وكتب الفقه فروع كثيرة ، وقد أسهب ابن القيم – رحمه الله – فى حديثه عن أحكام الرضاع فى أواخر كتابه زاد المعاد ، فراجعه إن شئت ، وحسب الكافَّةِ ما ذكرناه ، والله تعالى أعلم .

مصطفى محمد الحديدى الطير

الْبَخِيلُ شَقِىٌّ بِمَالِهِ

لَمْ أَرَ أشْقَى بِمَالِهِ مِنَ الْبَخِيلِ ، لأَنَّهُ فى الدُّنْيَا يَهْتَمُّ بِجَمْعِهِ ، وَفِى الآخِرَةِ يُحاسَبُ عَلَى مَنْعِه ، غَيْرُ آمِنٍ فى الدُّنْيا مِنْ هَمِّهِ ، وَلاَ نَاجٍ فى الآخِرَةِ مِنْ إِثْمِه ، عَيْشُهُ فِى الدُّنْيَا عَيْشُ الْفُقَراء ، وَحِسابُهُ فى الآخِرَةِ حِسَابُ الأَغْنِيَاء . .

الحسن البصرى

من أخلاق الإسلام

فضيلة الشيخ أبو الوفا المراغى

عن مالك بن أنس رضى الله عنه بلغه أن عيسى بن مريم يقول : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية . أخرجه الموطأ .

لعل مما يصح وصف اللسان به أنه ملك أو شيطان ، ملك إذا صلح واستقام لأنه ينطق بالحكمة والموعظة فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويترجم عن العلوم ودقائق المعارف ومكنونات الضمائر ويؤديها إلى الناس فيفهموها ويفيدوا منها وتستنير بها أذهانهم وعقولهم فتسمو إلى سماء العز والكرامة ، وشيطان إن فسد وانحرف يسعى بين الناس بالفساد ويكون رسول الحقد والكراهية إذ يغرى بعضهم ببعض ويؤلب بعضهم على بعض وميدانه فى ذلك فسيح يجرح وقل أن يأسو .

وما أروع ما قال الغزالى فى الموازنة بين اللسان وغيره من الجوارح ، إذ يقول اللسان رحب الميدان ليس له مرد ، ولا لمجاله منتهى وحد ، له فى الخير مجال رحب ، وله فى الشر ذيل سحب ، فمن اطلق عَذَبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يُكَبُّ الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع .

وإذا كان الإسلام نظاماً كاملاً لحياة الإنسان تناول سلوكه فى جميع مراحله بالتنظيم والتهذيب والتوجيه وكان اللسان أهم أدوات السلوك الإنسانى كان من الطبيعى أن يتناوله بالتخطيط ويرسم له ميدان العمل المباح ، ولخطر اللسان وضمان عدم الخطأ فى الكلام فضل الإسلام كما فضلت الأديان الصمت ومدحه وحث عليه فقال ﷺ : من صمت نجا . وقال :

الصمت حكم وقليل فاعله . ولكن إذ كان لابد من الكلام كان من رحمة الإسلام وحزمه أن يضع حدوداً لماله ضرورة من الكلام فى المخاصمات فى الحقوق والمجادلات فى العلوم وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم حظر الكلام فى مواطن كثيرة لسوء آثاره وتفاقم أخطاره ، وإن أبغض الرذائل إلى الفطر جميعاً وإلى الأديان عامة كثرة الكلام واللغو فيه ، ولم يكثر العلماء والحكماء ورجال الأخلاق الحديث فى نقيصة خلقية مثلما أكثروا الكلام فيها ، ولقد انكرت الأديان كثرة الكلام لخطرها على صاحبها فى دينه ودنياه ، أما فى الدين فلأن فيما ينطق به ما ينال الناس ويؤذيهم وهو مؤاخذ به ومحاسب عليه قال تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وأما فى الدنيا فإنه يستجر عليه الإحن والحفائظ دون غرض صحيح وفائدة مرجوة ، إن للسان مزالق كثيرة من الخطأ والكذب والنميمة والغيبة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات ، ولا يأمن الإنسان إذا تكلم أن يقع فى أحد هذه المزالق وكلها ذنوب ترين على القلوب فتقسيها وتطبع عليها فتنسيها الله وتبعدها عنه وخير من الكلام فيما لا يعنى وشغل اللسان بفضول القول شغله بذكر الله ، ففى شغل اللسان بذكر الله سلامة من العثرات واكتساب لرضا الله بذكره والثناء عليه وفى ذكر الله اطمئنان القلب واجتماع البال كما قال سبحانه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . ولقد كرر الله فى عشرات الآيات الأمر بذكره وتسبيحه فقال : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً » . وقال سبحانه : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وقال سبحانه : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيًّا وحين تظهرون » .

إن الاقتصاد فى الكلام وتوفير وقته لمهمات الأمور خلق حضارى رفيع فالشعوب المتحضرة تكره الثرثرة وتعدها بضاعة المتبطلين الفارغين إلا أن ذلك الخلق الحضارى كان ولا يزال خلقاً دينيا تظاهرت الأديان والعقول على امتداحه واستحسانه ، كما تضافرت على ذم المستكثرين من الكلام كما روى فى الحديث عن عيسى بن مريم عليه السلام ، وكما روى فى حديث آخر عن نبينا عليه الصلاة والسلام فقد روى عنه فى حديث له : ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون

المتفيهقون .

ذلك مجمل الكلام فيما تضمنه الشق الأول من القول فى فضيلة الاقتصاد فى الكلام وفى شقه الثانى تنويه بفضيلة خلقية خطيرة فى آثارها إن تحققت وخطيرة فى آثارها إن أهملت ، تلك الفضيلة هى التى أشار إليها الحديث بقوله : لا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية ، وآثار هذه الفضيلة إن تحققت أن تصلح شئون الناس جميعاً وتقل فيهم الجرائم ويسودهم الصفاء والود فلو نظر كل إنسان إلى ذنوبه وتفكر فى شرورها وعواقبها وحاول كفاحها فأقلع عنها وتطهر منها سلم له دينه ودنياه وكان قدوة لغيره وإذا تم ذلك بباعث الخشية من الله كانت عبوديته عبودية خالصة له وهى أقصى مراتب القرب منه ، وإذا تجرد من هذه الفضيلة واستسلم لهواه وشيطانه وشغل نفسه بعيوب الناس وذنوبهم استبدل الأدنى بالذى هو خير وانساق من هذه النقيصة إلى نقائص أخرى كلها آثام وشرور ، سينساق إلى سوء الظن بالناس فى كثير مما يعملون وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه كما يقولون ، وسيفسر أفعال الناس بأسوأ التفاسير ويستبعد ما عسى أن يكون لهم من معاذير وينسى فى غمرة الجهل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » ، وستسوقه نقيصة الاشتغال بذنوب الناس إلى تتبع عوراتهم والتفتيش عن سوءاتهم ليرضى شهوة التطلع الخبيثة فيقع فى خطيئة التجسس التى نهى الله عنها فى الآية الكريمة بقوله « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً » ، وسيجره سوء الظن والتجسس إلى التشهير بإخوانه المسلمين وإذاعة السوء عنهم ولكل ذلك عواقبه فى علاقاته بإخوانه واستجلاب غضبهم وكراهيتهم .

ولو وقف كل منا من نفسه موقف المحاسبة والمعاتبة وتدبر حقيقة النفس الإنسانية وأنها على استعداد للخير والشر وأنها إلى الشر أميل لدافع الهوى والشيطان والرغبة فى اللذة العاجلة كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم » . لو تدبر كل منا ذلك وعلم أنه بحكم فطرته له حظه من الطاعة وحظه من العصيان ولا يسلم من الخطيئة إلا من رحمه الله واصطفاه لأغضى عن عيوب الناس وأسبل عليهم جلاليب الستر وتأدب بأدب الرسول حيث يقول من ستر أخاه المسلم فى الدنيا فلم يفضحه ستره الله يوم القيامة . قد يقول قائل

إن هذا الحديث يغلق باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو الأمر المهم فى الدين والذى تواترت النصوص القرآنية والنبوية على الاهتمام به وإحيائه فى جميع الأزمان بين المسلمين فالحديث يوجب ظاهره أن ينظر الإنسان إلى ذنوبه وعيوبه فيشتغل بإصلاحها ولا ينظر إلى ذنوب غيره ويشغل نفسه بها وذلك تعارض والذى نراه فى تأويل هذا الظاهر ليدفع التعارض وتلتقى النصوص الواردة فى الأمر بالمعروف مع الحديث أن معناه ولا ينظر إلا ذنوب غيره أى لا يفتش على ما خفى منها لينكره على صاحبه ويكتفى بإنكار ما ظهر منها بالأسلوب الذى رسمه الإسلام فى الإنكار بأن يكون بالرفق واللين دون تعنيف أو استطالة وترفع أو تشهير وأن يخفى إنكاره قدر الإمكان وأن يغلب على ظنه أنه على استعداد لقبول النصح دون لجاجة أو مكابرة فإن غلب على ظنه الرفض والمكابرة أو وقوع الأذى فليس عليه أن يتصدى لهذا الشأن ، وهذا ما فسر به العلماء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . قال صاحب المنار بعد ما أفاض فى تفسير هذه الآية « والتحقيق أن من علم أو ظن ظنًّا قويًّا أنه ينال الأذى إذا أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر يسقط عنه الفرض ويكون الأمر والنهى حينئذ فضيلة لا فريضة هذا إذا رجّح أن المنكر يزول بإنكاره فإذا رجح أنه يؤذى ولا يترتب على نصحه فائدة فحينئذ يكره له أو يحرم إذ كان من الإلقاء باليد إلى التهلكة » .

ويصلح أن يكون هذا التفسير وجهاً آخر لتأويل الحديث بمعنى أن الإنسان عليه أن ينظر فى ذنوبه ويترك الناس وذنوبهم ولا ينكر عليهم إذا يئس من استجابتهم لوعظ وإنكار لأنه عمل دون جدوى ، وملخص دفع التعارض أن يقال إن النص الوارد بالأمر بالمعروف إنما ورد فى حالة الظن بفائدته والنصّ الوارد فى ترك الأمر بالمعروف إنما ورد فى حالة اليأس من ذلك .

إن الخطيئة مرض النفس وهو كمرض الجسم فمن ألم منها بشىء فهو مريض مبتلى خليق بالرثاء والشفقة ومن سلم منها فقد صح وتعافى وعلى المسلم أن يقدر ذلك ويدعو لمرضى النفوس بالشفاء ويحمد الله على العافية .

وبعد فقد تضمن الحديث فضيلتين من أصول الفضائل الإنسانية التى اتفقت عليها الأديان وردتا عن عيسى عليه السلام ، وأقرهما الإسلام وما أكثر الفضائل التى اتفقت عليها الأديان وإنها لتلتقى جميعاً فى تطهير نفوس الناس لتوفير السعادة والصفاء بينهم .

اعتبار الإسلام الفروق بين الناس

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : كم نعفو عن الخادم فصمت ، ثم أعاد الكلام فصمت . فلما كان الثالثة قال : اعفوا عنه فى كل يوم سبعين مرة . أخرجه أبو داود .

وعن أبى رافع بن مكيث رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم . أخرجه أبو داود .

سبحان الله لقد وزع الحظوظ على الناس من العقل والعلم والمال والجاه وغيرها من النعم فأعطى وحرم ليبتلى كلا من المحظوظين والمحرومين وليجزى من يرضى ومن يسخط بما يستحق من الثواب والعقاب على الرضا والسخط ، ومن آثار ذلك التوزيع أن يستخدم بعض الناس بعضاً ويستسخر بعضهم بعضاً فتتيسر شئون الحياة وتنتظم أمورها ولتستقر أحوالها ، قال تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضاً سخريًّا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

إن الفوارق بين الناس فى نعم الدنيا سنة من سنن الوجود وطبيعة الخلقة والتكوين ، فمحاولة التسوية بينهم بأى وسيلة أو بأى مذهب من المذاهب البشرية معارضة لتلك السنن لا تنتهى إلا بالفشل مهما أحيطت بسلاح القانون أو سلاح الإرهاب ، وكيف يمكن لمجتمع أن يعيش ويستقر فى ظل نظام يسوى فيه تسوية كاملة بين رئيس الدولة وجامع القمامة أو سائس الخيل أو راعى الغنم أو بالغ الذروة فى العلم والشادى فيه مهما زينت الدعايات وزخرفت فى القول لتلك المذاهب . فواقع ما يجرى من شئون الحياة وواقع التطبيق لتلك المذاهب كفيل بالكشف عن باطلها وبيان زيفها .

إن الإسلام وهو دين الفطرة والواقع قرر التسوية بين الناس فى أصل الخلقة والتكوين وخصائص الإنسانية وتكاليف الدين والمثوبة على العمل بتلك التكاليف ، وفرق بينهم فى الرزق والعلم والجاه والكفاية لحمل الأعباء والقدرة على خدمة الجماعات بتحقيق المنافع ، وفيما يتصل بالتسوية فى أصل الخلق يقول تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . وفيما يتصل بالتسوية فى التكاليف بأحكام الدين يقول تعالى : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » . ويقول تعالى : « يأيها الرسل كلو من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم » .

وفيما يتصل بالمثوبة على العمل بأحكام الدين يقول تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . ويقول تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره » . وينبغى أن نلاحظ أن الصيغ الواردة فى هذه الآيات هى من صيغ العموم التى تشمل جميع الناس ولا تفرق بين أحد منهم ، وفيما يتصل بأمر الرزق والعلم والتصدر لقيادة الناس وسياستهم وتدبير شئونهم وأمور معاشهم عامة يقول سبحانه : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » ، ويقول سبحانه : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريًّا » ، ويقول جل شأنه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ولقد اصطفى الله بعض خلقه لحمل رسالاته ولم يجعلهم جميعاً أنبياء ورسلاً وامتنَّ على بعض الأمم بأن جعل فيهم أنبياء وملوكاً وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين،فإطلاق قضية التسوية ، بين الخلق فى جميع الشئون قضية ينقصها التحرير والتوضيح حتى لا ينخدع بها بعض العوام فيتخذها أداة للهدم والتخريب بعد أن يلبسوها ثياب الدين .

وفى الناس بحكم الفطرة والدين رئيس ومرءوس وسيد ومسود ولكل منها – كى تنتظم شئون الحياة فى المجتمعات – حدود وقيود عنى الإسلام ببيانها ، فبين حدود السادة والرؤساء فيما احتملوا من مسئوليات وما أعطوا من سلطات وبين حدود الخدم والمسودين فيما احتملوا كذلك ، وقد تكفلت كتب التفسير والحديث والفقه بشرح كل ذلك وتفصيله والذى يعنينا هنا بيان حدود السيد وعلاقته بخادمه وكيف أولاها الإسلام عنايته ولقد جاء الإسلام والاستخدام شائع فى العالم وبخاصة استخدام الرقيق ، وكانت نظرة السادة إلى الرقيق نظرة خاطئة ومعاملتهم إياهم معاملة سيئة قاسية . فكانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى البهائم والمتاع يبيعونهم ويبتاعونهم ويسومونهم سوء العذاب بل يقتلونهم إن شاءوا فحاول الإسلام أن يغير تلك النظرة ويعيد إليهم اعتبارهم كأناس فأخذ يوصى بهم وبحسن معاملتهم ، وأكثر النبى من الأحاديث فى الرفق بهم والعفو عنهم وفى الحديثين اللذين صدرنا بهما كلمتنا نموذج من تلك الوصايا . ففى أحدهما أمر بالعفو عن الخادم وإن تكرر خطؤه وتوالت عثرته ، فقد يصلح الإغضاء والتسامح من أمر الخادم ما لا يصلحه الضرب ، وفى الثانى إرشاد إلى أن حسن الملكة أى التملك وهى

معاملة الرقيق بالملاينة والتلطف سبيل إلى البركة والزيادة فى الرزق فبحسن المعاملة ينشط الرقيق والخادم ، فى الخدمة وتتوافر أمانته وحرصه على ما اؤتمن عليه ووكل إليه التصرف فيه من مال سيده أو مخدومه فينمو ويزداد ولن يحصل ذلك إن أساء معاملته واشتط فى عقابه وتأديبه وكم من خادم أمتلك قلب سيده واكتسب ثقته وعطفه دون أقرب الأقرباء إلى السيد والمخدوم ومن شواهد التاريخ على ذلك أننا نجد كثيراً من هؤلاء السادة قد وقفوا عقاراتهم وأموالهم على معاتيقهم وخدمهم مكافأة لهم على حسن خدمتهم وأمانتهم وحرموا من ذلك أهلهم وأقاربهم ، وإذا كانت قواعد الإسلام وجوب الرفق بالناس عامة فإنه قد خص طبقة الرقيق والخدم بمزيد من الرفق لأنها طبقة مستضعفة يجب أن ينصرها ويأخذ بيدها ويحترم إنسانيتها التى يحاول بعض الجهلة والطغاة إهدارها .

وقد كثرت أحاديث الرسول فى ذلك بأساليب رائعة من الترهيب والترغيب ، ويمكن إجمال معانيها دون التطويل بذكر نصوصها فى أن الإسلام نظر إلى الخادم نظرة إنسانية سامية هى نظرة الأخوة الرقيقة الحانية لا نظرة الملكية المستبدة المتغطرسة ، وعلى هذا الأساس أمر الإسلام السيد أن يطعم خادمه مما يطعم وأن يلبسه مما يلبس ويرفق به فى العمل فلا يحمله منه إلا ما يطيق ، فإن كلفه بما يشق عليه فقد أوجب عليه أن يعينه وأمر باللطف فى ندائه ودعوته حتى لا يجرحه فى إنسانيته ولا يصادمه فى شعوره ، فلا يقول له يا عبدى يا أمتى ولكن يقول له : يا فتاى يا فتاتى ، لأنه إنسان ذو إحساس وشعور إلا أن ظروفه القاسية وحاجته الملحة هى التى ألجأته إلى هذه المنزلة ، ومن المروءة أن نقدر له إنسانيته ونخفف قساوة الحال عليه .

كما نهى الإسلام عن تعذيب الخادم وضربه ولطمه وعد ذلك جريمة تستوجب العقاب ، لأن ذلك يحمله على الكذب والسرقة والخداع وينزع من نفسه الحياء والاحترام ويورثه سوء الظن بمخدومه كما يورثه التفريط فيما تحت يده مما يملكه سيده أو مخدومه نكاية به بل ربما يبعثه إلى أن يكون عيناً عليه لعدوه لإيقاع الأذى به .

إن فى وصايا الإسلام وإرشاداته فى معاملة الرقيق والخدم نوعاً من وسائل الإصلاح الاجتماعى لطبقة من الأمة لها دور فى حياتها عامة ، فبإصلاح الخادم بالرفق وغرس المحبة والاطمئنان فى نفسه تستقر الأسرة ويتفرغ فيها كل ذى شأن لشأنه فى أمان واطمئنان .

فى رحاب الاخلاق النبوية :

عن أنس بن مالك رحمه الله قال : إن أناساً قالوا : يا رسول الله ويا خيرنا وابن خيرنا ويا سيدنا وابن سيدنا فقال رسول الله ﷺ : السيد الله ، قالوا : أنت أفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولاً فقال : يأيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، إنى لا أريد أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنيها الله تبارك وتعالى : أنا محمد بن عبد الله ورسوله ، أخرجه رزين .

لك الله يا رسول الله ما ألطف توجيهك وأعذب لفظك وأحلى نطقك وأرق بيانك وأرق أسلوبك ، إنه لذوب الشهد والسلسل العذب فى هاجرة الحر حسُنْتَ خَلْقاً وخُلُقاً وعلوت نسباً وحسباً فكنت أهلاً للاصطفاء والرسالة ، أدبك ربك ولم يؤدبك مؤدب وعصمك الله ولم يعصمك عاصم سواه ، وأديت رسالتك العظمى فكنت بين إخوانك الرسل إماماً وكنت فى التاريخ مناراً لم تُذكر موهبة لعظيم إلا كنت الراجح فيها ولم يذكر خلق عظيم إلا كنت المثل الكامل فيه فماذا يقول المجادلون فى عظمتك وتساميك وقدرك وتعاليك

فاق النبيين فى خَلق وفى خُلق

ثم اصطفاه رسولاً بارئ النسم

لم يكن ينقصه ﷺ خلق من الأخلاق الفاضلة وحاشاه ذلك ولم يكن فى خلق أكمل منه فى خلق آخر بل كان المثل الكامل فى كل خلق وكان سلوكه تطبيقاً كاملاً لتلك الأخلاق ولو شئت أن تضرب من سيرته الطاهرة عشرات الأمثال لوسعك المجال وانفسح المقال وكان خلقه فى العلانية مرآة لخلقه فى السر لا يحرص على خلق فى العلن ثم يفرط فيه فى السر فذلك نفاق سلم منه بطبعه وبرسالته ، ولئن كان فى رسالته شرائع وأحكام إلا أن الجانب الأخلاقى أخذ منها حظًّا كبيراً وربما رجح الجانب الأخلاقى الجانب التشريعى فى كثرة نصوصه ولم يكن ذلك استهانة بالجانب التشريعى فيما نعتقد وإنما كان ذلك تقديراً للجانب الأخلاقى ولأثره فى حياة الناس واستقرار أمورهم ، ولو حسنت أخلاق الناس لقلت حاجتهم إلى الشرائع والقوانين وكلما فسدت أخلاق الناس اشتدت حاجتهم إلى الأحكام وإلى الحراس والشرط ، وما أصدق قول القائل : لو أنصف الناس استراح القاضى ، إن من الأخلاق ما هو خاص بصاحبه كالثوب الأنيق الرقيق يبدو صاحبه فيه جميلاً أنيقاً مستلطفاً يتطلع الناس إلى النظر إليه لعلهم يقبسون من جماله فيحاكوه أو ينسجوا على منواله ومن الأخلاق ما يتعدى صاحبه إلى غيره فيعم النفع به وتعظم الفائدة منه

كالنسمة الرقيقة يأخذ كل إنسان حظه منها فتنتعش قلوبهم وتصح أبدانهم وأذهانهم ، ولخطر هذه الفضائل الأخلاقية المتعدية حض الإسلام على تحقيقها وترسيخها فى المجتمع الإسلامى ، وكأنه بما ساقه من نصوص الترغيب فى التمسك بها والترهيب من التفريط فيها يدفع الناس إليها دفعاً ويدعُّهم إليها دعًّا ، وتكاد هذه الأخلاق لا تحصى ومن أمثلتها الصبر والعفو والنصيحة والبذل والشجاعة وقضاء حاجات الناس والشفاعة فى الخير ، ومن تتبع النصوص الإسلامية قرآناً وسنة تجمع له من ذلك أسفار ، وإن كان العلماء رضى الله عنهم قدَ حاولوا ذلك فقد فاتهم الكثير ، ولو قارنا ما جاء فى الإسلام خاصا بذلك بما جاء فى الأديان التى غلب عليها الطابع الخلقى والوعظى لرجح الإسلام غيره فيها .

ومن تلك الأخلاق المتعدية التى خصها النبى بعنايته ونوه بفضلها قولاً وعملاً التواضع أو فضيلة التواضع ، والتواضع حقيق بهذه العناية ، ويستطيع المتحدث أو الكاتب أن يقول فى آثاره الإيجابية والسلبية ما شاء ، يستطيع أن يقول إنه شيمة العقلاء ويستطيع أن يقول إنه رسول الود والمحبة والتعاطف بين المسلمين ويستطيع أن يقول إنه مادة التلاحم بين الأفراد والجماعات ، يستطيع أن يقول إنه مغناطيس التجاذب بين الناس حيث يغرى بعضهم ببعض فيتآلفون ويتلاحمون ، وبالجملة فالتواضع مفتاح الخير وسبيل الرضا ، ورضا الناس غاية غالية الثمن فمن ظفر بها فقد ظفر بسعادة الدنيا والآخرة وهذه هى الآثار الإيجابية للتواضع أما آثاره السلبية التى تستتبع الحرمان منه فهى القطيعة والحقد والبغض وكف اليد عن التعاون واستجلاب الشر والأذى جزاء نفوره وتعاظمه فيفقد الولى والنصير ويعيش غريباً حتى بين أهله وأقرب الناس إليه ، إن التواضع مفتاح الخير ، والتكبر مفتاح الأذى والشر وينبغى أن نشير هنا إلى أن إلزام النفس بالتواضع يحتاج إلى مجاهدة ورياضة لحمل النفس عليه ، فحب التظاهر والتعاظم والتسلط غريزة من أقوى الغرائز وألصقها بالنفس ، ومما يغرى بها أن يجتمع للمرء أسباب التسلط والقهر ، كما تجتمع للملوك والأمراء والرؤساء وقديماً ركب فرعون شيطان الغرور فاستعلى على قومه كما حكى القرآن الكريم « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » قال الإمام الغزالى : وقد فوض

الله تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره.

وانطلاقاً من هذا المفهوم لطبيعة الإنسان حرص النبى ﷺ على توضيح الأسلوب الذى يمكن أن يروض به الإنسان نفسه على خلق التواضع حرص على توضيحه بقوله وفعله، أما بقوله فما أكثر ما جاء عنه فى الحض عليه وبيان فضله وإذا أمر بشىء أو نهى عنه أو عما يجر إليه بدأ بنفسه، ومما جاء فى ذلك قوله ﷺ: تواضعوا وجالسوا المساكين تكونوا من كبراء الله وتخرجوا من الكبر وجاء فى أحاديث أخرى عنه لا تخيرونى على موسى ولا تفضلوا بين أنبياء الله وجاء: ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى ومن أقواله ما جاء فى حديثنا هذا فقد أبى على أصحابه أن يخاطبوه بيا سيدنا وابن سيدنا أو أفضلنا وابن أفضلنا وأرشدهم إلى أن ينادوه بما ناداه به الله: محمد بن عبد الله ورسوله.

ما أحلى هذا النداء وأعذبه فى القلوب والأسماع إنه لنداء التكريم والإجلال من ذى العظمة والجلال.

وأما توضيحه بمجاهدة أسباب الكبر ومحاولة اكتساب التواضع بالفعل فقد كان فى سلوكه بين أهله فى بيته وسلوكه بين أصحابه وفى حياته عامة فإنه كان يأبى أن يتقدم أصحابه إذا مشى ويطلب إلى من تأخر عنه من أصحابه إجلالاً لمقامه أن يتقدم ليكون بمحاذاته لا خلفه، وإذا اشترى شيئاً من السوق حمله بنفسه ويأبى أن يحمله عنه غيره، وفى بيته كان يقوم ببعض ما يتيسر من مصالحه فكان يكنس البيت ويخيط الثوب ويصلح النعل ولا يثقل على أهله فى شىء من طعامه فيأكل مما حضر من الطعام ولا يرد شيئاً منه ويرى فى كل شىء فضلاً من الله ونعمة لا يتشهى غائباً ولا يتطلع إلى حاضر.

إن الحديث عن تواضعه ﷺ قولاً وعملاً حديث عذب طويل يكشف عن صفاء قلبه وكرم نفسه ومقدار فضله فكيف الحديث إذا رتعنا فى رياض أخلاقه وإنها لرياض نضرة مونقة الأزاهير شذية النسمات لو يستمتع كل منا بنفحات منها ونظرات إليها لطابت نفسه وانشرح صدره واعتدل مزاجه واستقام سلوكه وصفت نظرته إلى الحياة وتبددت عتماتها وتجلى له ما فيها من أنعم الله وفواضله وامتدت أسباب الوصول بين المنعم المفضل وبينه وعرف له قدره وحقه ووفى له بذلك الحق شكراً وتسبيحاً وتقديساً وتنزيهاً وتمجيداً وتعبداً وإخباتا، والله بعباده لطيف خبير رؤوف رحيم.

وبعد.. فإن الحديث فى التواضع مردد معاد وقد يكون فى الإعادة إفادة،

وأقل فوائدها الذكرى وما أجلها حيث أحلها الله من المنزلة ما أحلها إذ يقول « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » ، والسلام عليكم يا سيدى يا رسول الله يا صفوة المرسلين وقدوة المتواضعين . . .

أبو الوفا المراغى

من وصايا الخليفة للقائد

قَالَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – لِخَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ حِينَ وجَّهَهُ قَائِداً لِقِتَالِ أَهْلِ ٱلرِّدَّةِ :

« سِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ، فَإِذَا دَخَلْتَ أَرْضَ ٱلْعَدُوِّ فكنْ بَعِيداً عَنِ الْحَمْلَةِ ، فإنِّى لا آمَنْ عَلَيْكَ الْجَوْلَة ، وَٱسْتَظْهِرْ بالزَّادِ ، وَسِرْ بالأدِلَّاءِ . ولاَ تُقَاتِلْ بِمَجْرُوحٍ فَإِنَّ بَعْضَهُ لَيْسَ مِنْهُ ، وٱحْتَرِسْ مِنَ ٱلْبيَاتِ ، فَإِنَّ فِى الْعَرَبِ غِرَّةً ، وأَقْلِلْ مِنَ الْكَلاَمِ فَإِنَّما لَكَ مَا وُعِىَ عَنْكَ » .

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

مناقشة دعوى استقلال الفلسفة عن الدين

الدكتور يحيى هاشم

تتصدى هذه المقالة لدعوى استقلال العلم عن الدين فى ضوء مفهومين للعلم :

المفهوم القديم الذى يعنى المعرفة الإنسانية التى تشمل الفلسفة والمعارف الكونية والطبيعية وكل ما يدخل فى دائرة المعرفة الإنسانية .

هذا المفهوم ظل سائداً فى الحضارات القديمة حتى عصر النهضة الأوربية .

والمفهوم الحديث : الذى يعنى العلم باعتباره خاصا بالبحوث والنظريات والنتائج التى تقوم على المنهج التجريبى . وما عدا ذلك فليس من العلم ، وإنما هو من الفلسفة أو من الدين . .

ربما كان من المتبادر إلى الذهن ، أن العلم بمفهومه القديم الشامل للمعرفة الإنسانية بكل أنواعها لم يكن مستقلا عن الدين . وما علينا إلاَّ أن نلاحظ أن العلم فى العصور القديمة كان شاملاً لجميع أنواع المعرفة بما فيها الدين ، والسحر ، والفلسفة وما إليها ، فالكلام فى هذه النقطة نافلة من القول لا جدوى من ورائها . .

ولكننا نرد على ذلك فنقول :

مع أن العلم بالمفهوم القديم كان شاملاً لجميع أنواع المعرفة إلا أن الفلسفة العقلية . كانت هناك ، وقد كانت قائمة فى طور رقيها على البحث العقلى الحر المستقل عن الدين أو تدعى ذلك ، وكانت تنشر تأثيرها فى جميع أنواع المعرفة السائدة . . أيضاً . .

هذا من ناحية . .

ومن ناحية أخرى فنحن نريد بالكلام عن استقلال العلم عن الدين ، لا استقلاله من ناحية الموضوع أو المعلومات . . . ولكننا نريد أن نتكلم فى جذر القضية :

أى استقلاله من ناحية المنهج . .

وبعبارة أوضح وأدق : نريد أن نجيب على السؤال الآتى :

عندما وضع العلم منهجه بمفهومه القديم أو بمفهومه الحديث : هل كان مستغنياً عن الدين ؟

هذا هو السؤال ؟

وقبل أن نجيب عليه يلزمنا أن نوضح المقصود بالدين فى مجال هذا البحث .

نحن لا نريد أن ندخل هنا فى مشكلة تقديم تعريفٍ للدين يكون جامعاً مانعاً . .

فلكل تعريف فى هذا المجال مآخذه . .

ويكفى أن نذكر أن ما نريده بالدين فى مجال هذه المقالة . وبحسب طبيعة الموضوع الذى نتصدى له بالبحث . . . المعنى العام الذى لا يختص بالدين الصحيح ، وإنما يشمل أى نظام من المعتقدات التى تتوفر لها الخصائص التالية كلها أو بعضها . .

أولاً : أن تقوم على إيمان أوَلى . .

ثانياً : أن تقوم على التسليم بوجود غيبى غير خاضع للإدراك الحسى المباشر أو غير المباشر .

ثالثاً : الإيمان بأصْل للكون يتصف بالقدم والخلود وترجع إليه الأشياء فى طبيعتها وقوانين وجودها .

رابعاً : انتظار الحياة المؤجلة التى يستكمل فيها ما نقص من هذه الحياة الحاضرة .

ولنبدأ إذن فى محاولة الإجابة على السؤال الذى قدمناه ، فيما يختص بالعلم بمفهومه القديم ، هل كان محقًّا فى دعواه الاستغناء عن الدين والتحرر من المعتقدات الأولية السابقة على البحث العقلى ؟

إنه فى نظر الفلسفة القديمة نجد أن التعلم لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هناك علم سابق ، وهذا العلم السابق لا يمكن أن يتسلسل إلى غير نهاية ، بل لابد أن يقف الإنسان عند أشياء ضرورية يقينية بعدها تبدأ البرهنة .

وتقوم حينئذ مشكلة هى :

من أين لنا الوصول إلى هذه المعرفة الضرورية اليقينية الأولية . . . ؟ اضطر أفلاطون ليحل هذه المشكلة إلى القول بالتذكر ، فهو يرى : أن هذه المعارف الضرورية لا يجدها الإنسان فى نفسه إلا لأنه قد حصلها من قبل فى حياة سابقة حَيَتْها النفس فى عالم المثل . . .[1]

أما أرسطو فكان يرى أن مصدر هذه الأوليات هو العقل ، وهى دائماً صادقة .

وتقوم هذه الأوليات جميعاً على مبدأ عدم التناقض « وأرسطو يقول عن هذا المبدأ إنه لا يمكن لأى عاقل أن يشك فيه بجد ، كما أنه لا يمكن مطلقاً البرهنة عليه ، لأنه أولى . . .[2] » .

وهنا ينشأ سؤال :

ما هو هذا العقل الذى هو مصدر هذه الأوليات ؟

(١) أرسطو للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٦٢ طبعة ١٩٦٤ النهضة المصرية .

(٢) المصدر السابق ص ٧٨ .

يقول أرسطو فى الجزء الثانى من كتابه عن النفس :

أما فيما يمس العقل فليس هناك شيء بديهى بشأنه . .

والعقل عند أرسطو :

عقلان :

العقل الهيولانى وهو ذلك الجزء من النفس الذى من شأنه أن يكون محلاً أو مستودعاً يقبل معانى الأشياء .

العقل الفعّال : هو الذى ينتزع المعانى فعلاً ، ويلقى الضوء على الصور الخيالية لتخرج منها الصور العقلية من القوة إلى الفعل ، وقد وصف أرسطو هذا العقل بصفات تسمو عن عالم الإنسان وعن العالم الطبيعى .

يقول الدكتور محمود قاسم فى كتابه فى النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام :

(ترك أرسطو مشكلة العقل غامضة) .

وقد حاول شراحه تفسير هذا الغموض . .

وعلى رأس هؤلاء إسكندر الأفروديسى الذى ذهب إلى أن العقل الفعال عند أرسطو « ليس جزءاً من أجزاء النفس أو وظيفة من وظائفها ، بل هو الإله الذى يتمثل فى نفوس البشر ويقوم مقامهم فى إدراك معانى الأشياء » . وإسكندر الأفروديسى هذا هو الذى يقول عنه أبو نصر الفارابى من حكماء المسلمين : « لن يكون المرء فيلسوفاً إلا إذا كان على رأى الإسكندر »[1] .

فإذا انتقلنا إلى فلاسفة المسلمين وجدناهم يذهبون إلى أن العلم يحصل عن طريق الفيض من العقل الفعّال .

ذلك أن الإنسان بممارسته النظر والبحث يعد ذهنه لهذا الفيض ، والنتيجة وهى العلم تفيض عليه وجوباً .

يقول الفارابى :

« الروح الإنسانية تتمكن من العلم بقوة لها تسمى « العقل النظرى » وهذه الروح كالمرآة .

وهذا العقل النظرى كصقالها .

وهذه المعقولات ترتسم فيها من الفيض الإلهى ، كما ترتسم الأشباح فى المرايا العقلية » .

وهنا نتساءل ، أو يجب أن نتساءل . .

ما مصدر الثقة بهذا العقل ؟

إن العقل نفسه ولا أحد سواه يضع أمامنا أن يكون هو نفسه ضالاً مضلاً ؟

فما هو الضامن لسلامة العقل ، وقدرته

---

(١) انظر فى النفس والعقل عند فلاسفة الإغريق والإسلام للدكتور محمود قاسم ص ١٩٧ – ١٩٨ – ٢٠٢ .

على معرفة الحقيقة ؟

هنا تضع الفلسفات القديمة هذا الضمان كما رأينا من ناحية ما تقرره من نظرية فى الوجود ، تتضمن انتماء جوهر العقل إلى الكائنات العليا ، وأن ما يفيض عليه من علوم إنما يأتيه من المبادئ العليا المقدسة التى تتسلسل فى وجودها من الله إلى العقل الفعّال .

ومن هنا تظن الفلسفة القديمة أنها وضعت الأساس العقلى للثقة فى العقل . .

لكن الحقيقة أنها مخدوعة – منهجيًّا – فى هذا الأمر .

لأن هذه الثقة – من الناحية المنهجية – مترتبة على نظرية الوجود التى أشرنا إليها .

وهذه الثقة بدورها إنما هى نتيجة نظر عقلى ، وهذا النظر العقلى هو نفسه الذى نتساءل عن مصدر ثقتنا به ؟

وإذن فطبيعة الأمور تقضى بأن توضع هذه الثقة أولاً – أى قبل الوصول إلى نظرية الوجود – وإلا فإن كل ما يصل إليه العقل – نتيجة النظر – يكون مبنيًّا على أساس عقلى بحت ، ويظل العقل بكل ما حققه من نظر وبكل ما وصل إليه من نتائج ، قائماً على هّوة سحيقة لا قرار لها معلقة بالجواب على هذا السؤال : ما مصدر ثقتنا بهذا العقل وبنظره ، ونظرياته . . . ؟

لا إجابة على هذا السؤال فى الفلسفة القديمة إلا إذا نقلنا نظرية الوجود من كونها نتيجة للنظر إلى كونها مقدمة له ، وإذن تصبح نظرية الوجود إيماناً أو ديناً ، فإذا انتقلنا إلى المتكلمين نرى الآتى :

ذهب المتكلمون من المعتزلة إلى : أن معرفة الله تعالى لا تكون بالدليل النقلى وإنما تكون بالدليل العقلى المستقل .

والمراد بالدليل العقلى المستقل الذى يقوم فيه العقل بالاستدلال ، بجهد ذاتى ، يتبع فيه الطرق المنطقية وينتقل فيه من العلوم الضرورية إلى العلوم النظرية ، دون أن يستند إلى شىء من حجية النصوص الدينية ، أى السمع .

وهم يبينون لنا الميادين التى يجب أن يخوضها العقل مستقلاً ، وهى : معرفة الله بتوحيده ، وعدله وذلك بأن ينظر فى :

الحوادث ليعرف أنها محدَثة . .

وأنه لابد لها من محدِث .

وأن هذا المحدث يصح أن يفعل ، ليعلم كونه قادراً

وأن فعله محكم ، ليعلم كونه عالماً

وأنه ليس بجسم ولا عرض

وأنه غنى غير مفتقر لغيره

وأنه لا يرى بالأبصار

وأنه واحد

وأنه عالم بقبح القبيح

وأنه عدل حكيم .

وأنه قادر على إرسال الرسل .

وإظهار المعجزة على أيديهم ، ليدل بها على صدقهم .

وأنه متكلم ، ليوحى إليهم بالرسالة .

– أما بقية المباحث :

كالوعد والوعيد .

والأسماء والأحكام .

وبقية الأمور السمعية التى تتعلق بأخبار البعث ، واليوم الآخر ، والجنة والنار . فتشترك فيها الدلالتان :

العقلية

والسمعية

ولا تستقل السمعية فيها

وأئمة الأشاعرة – وبخاصة المتأخرين منهم الذين يمثلون عصر نضج علم الكلام – يذهبون إلى أن العقل يستقل بمعرفة المسائل الآتية :

حدوث العالم

ووجوب المحدِث

وقدرته

وإرادته

وكونه حيًّا

متكلماً

صادقاً

مرسلاً للرسل

مظهراً للمعجزة على أيديهم ، ليدل على صدقهم .

– وأما بقية المسائل ، فإنه مع أنَّ العلم بها يتوقف على السمع ، فإن للعقل فيها دوراً حاسماً ، لأنها لا تصح إلا إذا كانت مما يجوّز العقل وقوعه .

– إن العبارة التى تلخص موقف علم الكلام عند الأشاعرة من استعمال الدليل العقلى أو النقلى هى ما قاله الإيجى صاحب كتاب المواقف :

« ودلائله – أى علم الكلام – يقينية يحكم بها صريح العقل . .

وقد تأيدت بالنقل . . »

فبصريح العقل يتم الحكم .

وبالنقل يحصل التأييد

مجرد التأييد .

وليس أصرح من ذلك ادعاء باستقلال العقل واستغنائه بنفسه فى معرفة الله تعالى . . فهل تم فعلاً للمتكلمين ما أرادوه من استقلال العقل بالمعرفة فى وضع أسس الاعتقادية ؟ . . لننظر :

إن المعرفة العقلية المستقلة على أى شىء تقوم ؟

– إنها تقوم على العلوم النظرية .

والعلوم النظرية تقوم بدورها على العلوم الضرورية .

والمقصود بالعلوم الضرورية : البدهيات . وما يلحق بها مما لا يحتاج فى إثباته إلى دليل .

– وما مصدر هذه البدهيات ؟

يقول المتكلمون إن الله هو الخالق للعلوم الضرورية . .

كما قالوا فى مواضع أُخرى : إنه الخالق للعلوم النظرية . .

قال بذلك الأشاعرة . .

– وما مصدر هذه البدهيات ؟

يقول المتكلمون : إن الله هو الخالق للعلوم الضرورية . .

كما قالوا فى مواضع أخرى : إنه الخالق للعلوم النظرية .

قال بذلك الأشاعرة .

وقال بذلك المعتزلة أيضاً على الرغم من أنهم يقولون فى سائر الأفعال الأخرى : إن العبد خالق أفعال نفسه .

يقول القاضى عبد الجبار من كبار علماء المعتزلة .

« لا تبطل العلوم الضرورية ، لأنها من فعل الله تعالى » .

ويقول عضد الدين الإيجى وهو من كبار علماء الأشاعرة « إن العلم غير واقع بالنظر أو بقدرتنا ، بل بخلق الله تعالى ، وهو مذهب أهل الحق من الأشاعرة »

وإذن فمتى أردنا جواباً من المتكلمين عن سبب ثقتنا فى العقل وفيما يقدمه لنا من بدهيات ؟

فسوف يكون الجواب :

– لأنها من خلق الله تعالى . .

ويترتب على ذلك بالضرورة أن تكون معرفتنا بالله متقدمة على أى إجراء يقوم به العقل نحو معرفة الله . وإلا كان كل ما يترتب على هذه البحوث معلقاً على هذا . . السؤال : لماذا نثق ؟

فإذا قدمنا معرفتنا بالله على قيام العقل بنشاطه وبحوثه كان معنى هذا أن الإيمان غير المعلل هو الأساس .

وإذن فقد وجب عليهم أن يتنازلوا عن ادعاء قيام الإيمان بالله على أساس عقلى بحت . وثبت أن الإيمان بالله يجب أن يسبق جميع الخطوات .

إن المثال الذى قدمه الإمام الغزالى لأهمية العقل مؤيداً به مذهب المتكلمين حيث قال :

« مثال العقل . . البصر السليم ، ومثال القرآن . . الشمس المنتشرة الضياء . . »

أقول : إن هذا المثال لا ينطبق على الذين يحتِّمون السير فى طريق طويل « قبل إثبات النبوة » بالعقل وحده .

فى هذا الطريق الطويل يحتم الأشاعرة والمعتزلة على السواء الاستدلال بالعقل وحده . .

فأين نور الشمس إذن فى هذه المرحلة ؟ ؟

إن المثال الذى ضربه الإمام الغزالى

صحيح ، وهو يقتضى أن يكون الشرع هو الذى ينير الطريق من البداية إلى النهاية . بل يقتضى أكثر من ذلك .

يقتضى أن يكون الشرع هو الذى ينير الطريق وحده ، والعقل لا دور له إلا النظر . . النظر فى ما يقدمه الشرع من ضياء .

ويقتضى قبل ذلك أن يكون لنا إيمان بالله قبل أن يكون لنا إيمان بالعقل ، لأنه لا ثقة لنا بهذا العقل – أى بهذا البصر – ولا ضمان لنا من أن لا يكون مضلاً لنا . . إلا إذا استقينا هذا الضمان ، وهذه الثقة من مصدر غيره . . عن الإيمان بالله .

أى يتقدم هذا الإيمان على أى نشاط عقلى .

لكن على أى أساس يقوم هذا الإيمان ؟

هذا هو السؤال الكبير . .

الذى نؤجل الإجابة عليه إلى القسم الأخير من هذا المقال . .

د . يحيى هاشم

حِجَابٌ مِنْ نُورٍ

رَبِّ اغْمِسْنِى فى بَحْرٍ مِنْ نُورِ هَيْبَتِك ، حَتَّى أَخْرُجَ مِنْهُ وَفِى وَجْهِى شُعَاعَاتُ هَيْبَةٍ : تَخْطَفُ أَبْصَارَ الْحَاسِدِينَ مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ ، فَتُعْمِيهِمْ عَنْ رَمْىِ سِهَامِ الْحَسَدِ فى قِرْطَاسِ نِعْمَتِى ، وَاحْجُبْنِى عَنْهُمْ بِحِجَابِ النُّورِ الَّذِى بَاطِنُهُ النُّور ، وَظَاهِرُهُ النَّارُ .

أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ النُّورِ أَنْ تَحْجُبَنِى فِى نُورِ اسْمِكَ بِنُورِ اسْمِكَ : حِجَاباً يَمْنَعُنِى مِنْ كُلِّ نَقْصٍ يُمَازِجُ مِنِّى جَوْهَرًا أَوْ عَرَضاً ، إِنَّكَ نُورُ الْكُلِّ ، وَمُنَوِّرُ الْكُلِّ بِنُورِكَ . .

الإمام البونى

بلاغة الأسلوب النبوى

فضيلة الشيخ منشاوى عبود

تمهيد :

بينت فى المقال السابق أن «مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام إبلاغ شريعة الله تعالى إلى الناس بقول سديد ، وكلام بليغ ، وحجة مستنيرة ، وبيان مشرق ، كما قال عز وجل فى تحديد تلك المهمة : «فهل على الرسل إلا البلاغ المبين» [١]

وأوضحت : أن بلاغة القول إذا كانت أمرا لازما تقتضيه رسالة كل رسول للقيام بأعباء دعوته - فهى بالنسبة لرسولنا الأكرم - أشد لزوما ، وأكثر حاجة ، وأجل أثرا إذ قد بعث - صلوات الله وسلامه عليه - فى أمة عربية تعتز بفصاحة اللسان ، وتتبارى فى بلاغة القول وتمجّد البيان ، وتسمو بأهل الإجادة والبراعة فيه إلى أسمى مراتب التقدير والإكبار .

فاقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزته - ﷺ - من جنس ما يشغل فراغ القوم ، ويأخذ بألبابهم فأنزل عليه القرآن الكريم حافلا بأعلى صورة لجزالة المعنى وإحكام النظم ، وروعة البيان ، فخرّ أئمة البلاغة صاغرين أمام عظمته ، وأذعنوا لإعجازه .

واقتضت الحكمة الإلهية أيضا أن يكون الرسول الذى أنزل عليه القرآن المعجز فى رتبة من البيان تلى رتبة الكتاب الكريم ليتمكن من إبلاغه والاقتناع به فى صورة محكمة رائعة .

لذا أتم الله تعالى على رسولنا الأعظم نعمة البيان فكان المثل الأعلى فى الفصاحة وبلاغة الكلام ، وما من شأن من الشئون تحدث فيه - ﷺ - إلا كان أبين غرضا وأصدق لهجة ، وأبلغ قولا ، وأروع أداء ، وقد مثلت لنموذجين من صنوف بلاغة الأسلوب النبوى - وأحاول فى هذا المقال أن أمثل لبعض النماذج الأخرى لبلاغة هذا الأسلوب فأقول :

---

(١) سورة النحل آية رقم ٣٥ .

يمتدح علماء البلاغة الكلام القليل الدال على المعانى الكثيرة فيقولون : « البلاغة الإيجاز » وعندما نستعرض الأحاديث النبوية نجده - عليه الصلاة والسلام - السابق المجلّى فى هذا الميدان - فقد أتاه الله تعالى جوامع الكلم ، ومنحه القدرة على الكلام الوجيز الحامل لكثير من المعانى الرفيعة القيمة .

فمن أمثلة ذلك قوله - صلوات الله وسلامه عليه - فى فضل الحياء وبيان حميد عاقبته :

(الحياء لا يأتى إلا بخير) (١)

وقوله فى الحض على اختيار الصديق ، وتحرى الصاحب

(الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل) (٢)

وقوله فى ذم السؤال من غير حاجة ، وتقبيح هذا السلوك الشائن :

(من سأل الناس تكثُّرا فإنما يسأل جمرا ، فليستقل ، أو يستكثر) (٣)

وقوله فى الإشادة بصلة الأرحام للقاطعين ، ومقابلة هجرهم ، ومنعهم بالتقرب منهم ، والإحسان إليهم : (ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها) (٤) أى ليس الواصل الذى يعتد بصلته يكافئ صاحبه بمثل فعله ، ويعطيه نظير ما أعطاه ولكن الواصل حقا هو الذى إذا قطعه أرحامه ، ومنعوه وصلهم وأعطاهم

وقوله فى التنويه بنعمتين عظيمتين ، والتوجيه إلى المسارعة للنفع بهما فى كسب صالح الأعمال والتزوّد من الطيبات (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ) (٥)

وبدل أن نستطرد بذكر كثير من الأمثلة نجتزىء بعرض ما قاله - صلوات الله وسلامه عليه - تحدثا بنعمة ربه ، واعتزازا بجزيل عطائه : (أُعطيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصارا) (٦)

يذكر البيانيون التشبيه على أنه طريق من طرق الأداء لجلاء المشبه ، وإيضاح المعنى المراد ، وإكسابه رفعة وسموا .

(١) متفق عليه .
(٢) رواه أبو داود والترمذى .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخارى .
(٥) رواه البخارى ، والمراد بالفراغ هدوء البال وعدم شغله بما يعكر صفو الحياة .
(٦) رواه أبو يعلى فى مسنده عن ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ورواه أيضاً البيهقى فى الشعب والدارقطنى عن ابن عباس - رضى الله عنهما .

واذا نظرنا إلى تشبيهات رسول الله - ﷺ - وجدناها وردت فى أروع صورة ، وأزهى حلة ، وأقوم عبارة ، تحدد الهدف ، وتجلى القصد ، وتجتذب انتباه السامع وتثير إعجابه . فمن ذلك قوله - ﷺ - فى رفع شأن الذاكر لربه والتقبيح لحال الغافل عن الذكر « مثل الذى يذكر ربه ، والذى لا يذكره مثل الحى والميت »(١) ووجه الشبه بين الذاكر والحىّ الاعتداد بكل منهما ، وثبوت أهلية العون والنصرة فيهما .

ووجه الشبه بين تارك الذكر والميت عدم الاعتداد بكل منهما وتعطيل القلب والجوارح عندهما - وقوله فى بيان الأهمية لمعاونة المؤمن لأخيه ، ومؤازرته (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك ﷺ أصابعه)(٢) ووجه الشبه بين المؤمن المعاون لأخيه والبنيان التماسك والقوة ، وحاجة كل منهما فى جميع شئونه إلى الآخر ، ولتأكيد وجه الشبه شبك - عليه الصلاة والسلام - بين أصابعه .

وقوله فى الإشادة بالمؤمن من حيث أكله من طيبات الرزق وما ينشأ عن ذلك فى كسبه لصالح الأعمال (مثل المؤمن مثل النحلة . لا تأكل إلا طيبا ولا تضع إلا طيبا)(٣)

ووجه الشبه بين المؤمن والنحلة طيب الأكل وعظم النفع والأثر ، وقوله فى العناية بأمر الصلاة المفروضة وتصوير أثرها العظيم فى محو الخطايا والتطهير من الذنوب والآثام : (مثل الصلوات الخمس ، كمثل نهر جار عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات . فما يُبقى ذلك من الدنس ؟)(٤) وواضح أن وجه الشبه بين الصلوات الخمس والنهر ، كون كل منهما أداة للتطهير بيسر وسهولة .

وقوله فى تقرير أن سلامة الأمة تكون بمقاومة المنحرفين من أبنائها والأخذ على يد العابثين بأمنها ووحدتها .

(مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ مَنْ فوقنا . . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه ابن حبان فى الصحيح ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير عن أبى رزيم رضى الله عنه .
(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه .

على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)[1] ومعنى حدود الله أحكام شريعته . . والمراد من القيام عليها التزامها بالعمل بها كما أن المراد من الوقوع فيها مخالفتها وترك العمل بها ومعنى استهموا على سفينة : اقترعوا على قسمتها وأخذ كل فريق سهما بالقرعة . وفى الحديث ثلاثة تشبيهات :

الأول : تشبيه القائمين على حدود الله الذين يحلون الحلال ويحرمون الحرام ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بمن يركبون أعلى السفينة بجامع العلوّ فى كل .

الثانى : تشبيه الواقعين فى حدود الله التاركين الأمر بالمعروف وفعله المقترفين للمنكر بمن يركبون أسفل السفينة بجامع الانخفاض فى كل .

الثالث : تشبيه ضمنى وهو تشبيه أحكام الشريعة السمحة بالسفينة ، فكما أن السفينة متى أحسن ركابها تصريفها ، وسددوا قيادتها وصلت بهم إلى بر السلامة ، ونالوا ما يبتغون ، كذلك الشريعة القيمة إذا التزمها أهلها ، واستمسكوا بهديها خاضوا معترك الحياة وهم فى أمن من الخطر ، ومنجاة من الزلل ، وبلغوا ما تطمح إليه نفوسهم من عز الدنيا وسعادة الآخرة . ولا يصح أن تكون هذه التشبيهات من قبيل التشبيه المتعدد ، لأن ذلك إنما يستقيم حيث يمكن استقلال كل تشبيه بمعنى صحيح مقصود على حدته وإنما المراد أن يكون المسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضا ، وألا يفروا من العصاة بل يدعوهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة فالتشبيه فى الحديث ، من قبيل التشبيه المركب ، وهو تشبيه حال المسلمين القائم منهم على الحدود والواقع فيها ، والساكت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحال قوم شركاء فى سفينة تنازعوها ، فاستهموا على قسمتها فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فأراد من أسفلها خرقها تيسيرا للحصول على الماء ولم يجدوا بأسا من ذلك على اعتبار أنهم يتصرفون فى خالص نصيبهم ، فإن منعهم من هم فى أعلى السفينة من هذا التصرف الخطر نجا الجميع ، وإن تركوهم وما أرادوا هلك الجميع – والجامع هو الهيئة المنتزعة من اجتماع نافع وضار فى محل واحد .

فهل رأيت أروع من هذا التصوير فى إيضاح أن صيانة الأمة وأمنها لا يحصلان إلا بأخذ الراشدين فيها على أيدى العابثين والمفسدين ؟ .

منشاوى عثمان عبود .

(١) رواه البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه .

بناء الاقتصاد فى الإسلام

الله أكبر
فى المعركة الاقتصادية

فضيلة الشيخ زيدان أبو المكارم

لقد أكرم الله أمتنا بالعاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ والحمد لله ، وانتقلنا من الشعور الأليم بمرارة الهزيمة إلى الثقة بالنفس ، والأمل فى المستقبل .

ومادمنا قد استطعنا أن نحرز هذا القدر من النصر فى الميدان العسكرى ، فإن فى قدرتنا أن نكسب مثله فى سائر الميادين : فى الاقتصاد ، والحرية ، والصحة ، والتعليم ، والثقافة ، والصناعة ، والزراعة . . . إلخ .

ولكن حكمة الشعب وإيمانه ووعيه بالتجربة تجعله يُنادى :

« لا تنسوا – بعد الاعتراف بفضل العلم والتخطيط والتدريب والسلاح ، وشجاعة الرجال فى المعركة »

« لا تنسوا قبل ذلك وبعده وفى كل وقت فضل « الله أكبر » معبرة عن إيمان ويقين ، وآخذة من كل قوة أقصى طاقتها وأكثر من طاقتها بعون الله ، فيصبح الرجل الواحد اثنين بل بعشرة من الرجال ، وتصبح البندقية مدفعا ، والطائرة الواحدة سِرْباً ، والبارجة أُسطولا ! !

كيف ؟ لأننا بذلنا أقصى طاقتنا ، ثم وصلنا قلوبنا – ونحن نفعل ذلك – بِمَنْ لا نهاية لقدرته ، ولا غالب يغلبه : الله عز وجل .

لا يجوز أن ننسى هذه التجربة العسكرية فى ظلال الإيمان ، ومدد رمضان ونحن نواجه أية معركة أخرى .

وعلينا أن نعرف كيف يكون الإيمان سلاحاً يشترك فى حَلّ جميع الأزمات ، ونعلو به فوق الماديات وأطماعها الخائبة ، كما ارتفعت أرواح المجاهدين والشهداء ، فقهرت شهواتها ونقائصها ، وقهرت أعداءها ، وحقّقت النصر ! !

والآن : كيف يتمُّ ذلك فى ميدان الاقتصاد ؟

لابُدّ من تحديد غاية شريفة ، لا يختلف عليها أحد .

ولابُدّ من الإيمان بها ، وبِسُمُوِّها وعدالتها ، إيمان يقينى لا شك فيه .

ولابُدّ مع وضوح الغاية من توضيح الطرق السليمة للوصول إليها عند جميع الناس .

ولابُدّ من التعبئة الشاملة لها فى ظلال : الإيمان ، والحرية ، والاقتناع ، والحب ، والإخلاص ، والجدية ، والخلق المستقيم ، والحماس الدائم .

تلك عناصر ضرورية من أجل البداية ، ومن أجل الاستمرار ، فالمعركة الاقتصادية لا تنتهى ، بينما المعركة العسكرية لها بداية ، ولها نهاية .

ما غايتنا من خوض المعركة الاقتصادية لحل الأزمة ؟

– تسديد الديون ، الارتفاع بمستوى التنمية ؟

– التصنيع ، زيادة الإنتاج ، القضاء على البطالة ؟

– الرفاهية ، تلبية الطلبات والرغبات ؟

– بناء الاشتراكية ؟

على قدر قراءاتى المحدودة[١] ، لم أستطع أن أعرف هدفاً مُتّفَقاً عليه ! ! ولكنى لاحظت أن نصيب (الإنسان المصرى المؤمن) تائه ، أو ضائع ؟ !

فإذا عَدلنا الميزان ، ورجعنا إلى (الإنسان المصرى المؤمن) وجدناهُ يتعلق بعقيدته ، وبكتابه المقدّس ، يطلب منه الحَلّ وتحديد الهدف ، ويقول واثقاً :

إذا وجّهنا وُجُوهنا وقلوبنا نحو كتاب الله وسنة رسوله ، فسوف نكتشف الغاية ونُمَيِّز بينها وبين الوسائل ، وسوف نكسب المعركة بقوة الله الذى وضع الإيمان فى قلوبنا .

– من واجبى ألا أُطيل عليك ، ولكنى أُريد أن أكون واضحاً وأنا أضع الأمانة بين يدى رجل عرف بإخلاص النصيحة لأُمته وحُكّامها :

لقد واليتُ العناية بالاقتصاد فى الإسلام منذ أكثر من عشرين سنة فى ظلال القرآن والسنة .

وما نشرتُه من رسائل ومقالات لا زلتُ أرجو أن يلْتفتَ إليها بالنقد والدراسة أساتذة الفقه الإسلامى ، وأساتذة علم الاقتصاد .

وفى إيجاز شديد أُقدِّم بعض الإيضاحات الضّرورية .

أوّلاً : فى مجال غاية الإسلام من الاقتصاد :

– الهدف : إقامة «العدل الاقتصادى»

وهذه الغاية هى مسئولية خالدة ، كلّف الله بها الإنسان قبل الإسلام وبعده :

(لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيِّنات ، وأنزلْنا

---

(١) وآخرها مقال د . القيسونى فى الأهرام ٢٢ رمضان ١٣٩٧ هـ الموافق ١٩٧٧/٩/٥ م تحت عنوان : مشكلة مصر الاقتصادية .

معهم الكتابَ والميزانَ ، ليقوم الناس بالقِسْطِ) « ٥٧ : ٢٥ »

والقِسْطُ : هو العدل .

– واذا كانت الرأسمالية تُلخِّص مذهبها فى قولها : من كُلٍّ حسب مواهبه وقدراته ، إلى كُلٍّ بقدر عمله .

–كما تُلخِّص الشيوعية ومشتقّاتها مذهبها فى قولها : من كُلٍّ بقدر طاقته ، إلى كُلٍّ بحسب حاجته .

– فإن الإسلام ، يبرأُ من مظالم المذهبين ، وهى مظالم حتمية تنشأ من اعترافهما التّامّ بضرورة وجود (فائض القيمة) وهذا هو منبع الظلم .

والرأسمالية ترى أن (فائض القيمة) حق الفرد الرأسمالى .

والشيوعية ترى أن (فائض القيمة) حق الجماعة ، تستولى عليه الدولة ، لتنفق منه على مصالح الجماعة .

وأما (العدل الاقتصادى) فى الإسلام فإنه يقول :

(أوفوا الكيل ، ولا تكونوا من المخسرين ، وَزِنُوا بالقِسْطَاسِ المستقيم ، ولا تبخسوا النّاس أشاءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) « ٢٦ : ١٨١ – ١٨٣ »

– يجب أن يأخذ كل إنسان حقّه كاملاً ، وحينئذ لا يبقى (فائض القيمة) على الإطلاق .

ولكل إنسان يعيش على أرض الوطن التى وهبها الله لجميع سُكّانه على السواء ، حَقّان :

الأول : حَقُّه فى الانتفاع بنصيبه العادل فى ثمرة الجزء الذى يخصه من تقسيم خيرات الوطن ، بَرِّهِ وبَحْرِهِ ، وباطن أرضه على أبناء الوطن بالعدل والتساوى .

الثانى : أجر عمله بالعدل ، بغير بخس ولا ظلم .

كل إنسان لابُدّ أن ينال حَقّهُ الأول ، والحكومة هى القادرة بالوسائل العلمية على تعيينه ، شرعاً ، وعَقْلاً ، وسُلطانا .

أما الحقّ الثانى ، فإن الذى يناله هوكُلّ قادر على العمل ، ولا يستطيع أن يناله : العاجز والمريض ، فَتُكَمِّلُ الزكاة المفروضة حاجاته .

– وأساس الكسب فى (العدل الاقتصادى) هو « العمل » .

– القيمة العادلة : حلال ، تجب حمايته ، وتشجيع طالبيه فى جميع الميادين .

– فائض القيمة : رِباً ، حرام ، يَجِب ردُّه إلى أصحاب الحق فيه ، من المنتجين أو المستهلكين .

– بخس القيمة : حرام ، يجب منع من يفعله ، وتأديبه ، واسترداد ما ينتج عن بخسه من ثروات ، ولذلك عقوبات وتعزيرات شرعية .

– والمعادلة فى (العدل الاقتصادى) تقول :

عمل + عدل اقتصادى = سعادة حقيقية + تَقَدُّم حقيقىّ

عمل – عدل اقتصادى = شقاء حقيقى + تَقَدُّم مُزَيّف

ثانياً : فى مجال وسائل الإسلام ، لتحقيق (العدل الاقتصادى) :

نرى الإسلام يعتمد على دعائم منها :

– التربية الإيمانية والاقتصادية ، التى تحيى الضّمير ، وتوقظ الشعور برقابة اللهّ عز وجل ، وترهف الإحساس بحساب النفس على كسبها فى الدنيا قبل أن تحاسب عليه فى الآخرة ، وهى تربية تَتِمُّ دائماً ، وفى جميع المستويات : فى البيت ، والمدرسة ، والجامعة ، والمسجد ، والسوق ، والحقل ، والمصنع . . إلخ ، وعن طريق جميع وسائل الإعلام .

– وضوح الرؤية ، من خلال وُضُوح الغاية لدى أجهزة الحكم . حتى تتجّه القوانين إلى تحقيق (العدل) بالأساليب المناسبة الواضحة :

فالزكاة ، ثم الضرائب ، والجمارك ، والرسوم . . . إلخ .

وسائل جباية ، لإحسان التوزيع ، أو التماس العدل فى إعادة التوزيع .

– استخدام كافة الوسائل العلمية لتقدير قيمة كل سلعة وكل خدمة حتى لا يعتدى أحد على (القيمة العادلة) ويقع فى جريمة الحصول على (فائض القيمة) وهو رِباً .

ومن هنا ترتبط الثروة ارتباطا شرعيا وعمليا ، بالعمل ، عن طريق (القيمة العادلة) ، فمن حقق عملا أكثر نال ثروة أكثر ، وثواباً من الله على كسب الحلال .

لقد كان رسول الله ﷺ يطوف بالأسواق وينهى عن الغش ، وَيَكْشِفُهُ ويُرسل مَن يراقب الأسواق ويضرب مرتكبى العدوان الاقتصادى .

لابُدّ إذاً من :

١ – توضيح (القيمة العادلة) لكل سلعة ولكل خدمة ، وإعلان ذلك إعلاناً واضحاً لجميع الناس .

٢ – استنباط العقوبات الشرعية التى تحمى (القيمة العادلة) من أىّ عُدْوَانٍ يقع عليها ، وأوّلها استرداد (فائض القيمة) ، ثم تُوَقَّع العقوبات المناسبة ، وتبدأُ من الكلمة الزاجرة ، إلى الضرب ، والمصادرة الجزئية ، وأخيراً «القتل» .

٣ – التربية الاقتصادية على جميع المستويات ، ومحورها :

– احترام العمل الشريف .

– حب العدل وتقديسه .

– حب الكسب الحلال ، واحترام أصحابه ، وتكريمهم وإعلاء منزلتهم

– كراهية الكسب الحرام ، والترفع النفسى عن حيازته أو قبوله ، أو احترامه ، وإسقاط قيمة من يُصِرُّ على ارتكابه .

٤ – الرقابة الحكومية والشعبية ، ليسود الحلال ، ويأخذ مكانته فى المجتمع ، ويخزى الحرام ويموت مذموماً مخذولاً من جميع الناس ، بقانون الشريعة وبتقاليد المجتمع .

هذا إيجاز شديد فى مجال المبادئ والوسائل .

والآن نضع أمامنا بعض التساؤلات التى أُحب أن أعرف رأى الناس فيها ، ومنها :

١ – هل أنت مُوافق على إلغاء الدّعم للسلع التموينية مع زيادة الأجر؟ ،

٢ – هل ترى أن يكون الإلغاءُ كُلِّياً أو جزئيا ؟

٣ – كيف يصل الدّعم – إذا بقى ، أو اقتصر على بعض السلع – إلى مَن يَسْتحِقُّهُ من المواطنين .

٤ – هل أنت راضٍ عن مستوى الأداء فى الوحدات الإنتاجية ، ووحدات الخدمات ؟

٥ – ما هى مقترحاتك لرفع مستوى الأداء ؟

٦ – الإنفاق الحكومى مازال – برغم كل المحاولات التى تُبْذَل – ينطوى على فاقد كبير ، ماذا ترى لعلاج ذلك ؟

٧ – هل ترى أن يبيع القطاع العام السلع التموينية ؟ أم يقتصر دَوْرُه على الاستراتيجية القومية ، كالحديد والصلب ، والبنوك ، وشركات التأمين والصناعات الثقيلة ؟

٨ – كيف يمكن تحقيق العدالة بين المواطنين فيما يتحملونه من أعباء ضرائبية ؟ .

٩ – هل يستطيع القطاع الخاص أن يُسهم فى خطة التنمية ؟ وكيف ؟

١٠ – مَنْ هو مَحْدُود الدّخل ؟

– أكتفى الآن بهذه النقاط العشر ، داعياً المولى القدير أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير مصر العزيزة . .

الإجابة عن الأسئلة

١ – الأسئلة عن « الدّعْم » : (وهى الأَسئلة الثلاثة الأُولى) .

– لقد قدّم وزير التخطيط تحليلا بيّن فيه عيوب سياسة (دَعْم السلع التموينية) .

والعيبان الرئيسيان هُمَا : الانحراف الذى يتمثل فى أن مَنْ لا يستحقون الدّعم يستغلون سلع الدّعم لنهب مغانم تصل من الألوف إلى الملايين .

ثُمّ العيب الثانى ، وهو الإسراف فى

الاستهلاك ، الذى يندفع إليه المستحقون للدّعم وغيرهم .

وَكِلا الأمرين يجعل أعباء الحكومة تتضخّم تضخماً مَرَضِياً لا يتوقّف ! !

– ما الحل ؟

يجب أن نلتمس حَلاًّ يجعل معونة الدولة تصل إلى مستحقيها دون وساطة ، والمستحق إذا وصل إليه حَقّهُ كاملاً ، كانت ثمرة الحكمة فى استعماله عائدة إليه ، وحينئذٍ يأخذ حاجته ، ولا يسرف ولا يُبَذِّر فى الاستهلاك ، ولا يتمكن المستغلون من الاستغلال عن طريق الدّعْم .

– وفى هذا المجال يبرز المبدأ الأساسى فى العدل ، ليقول كلمة : يجب أن ينال كلُّ عامل أو موظف حَقَّهُ كاملاً عن عمله ، فإن كثيراً مِنْ هؤلاء يَحِسُّون أنهم مَبْخُوسُونَ فى أُجورهم ومرتباتهم ، وحينئذٍ سوف لا تحتاج الحكومة إلى الدّعم . والفلاح يَحِسّ أنه مغبون من وسطاء السوء ، حيث يبخسون أسعار منتجاته شراءً ، فإذا باعوها نهبوا وحدهم فارق السعر الهائل المتزايد .

– العدل : مَبْدَأٌ يجب أن يسود .

العدل : حَلٌّ أفضل لكل المشكلات .

– ولابُدّ من النظرة العادلة الدائمة ، لإقامة التوازن بين القيم فى ميادين العمل ، وبين الأُجور فى ميادين السِّلع والخدمَات من الجهة المُقَابِلة .

– وسنعرض فى المجموعة الثالثة – مع ذلك –لبعض الحُلول المرحلية الواقعية .

٢ – الأسئلة عن الحكومة وأدائها وإنفاقها :

(وهى الأسئلة الثلاثة التالية للمجموعة الأُولى) .

– نسمع عن بعض المصالح الحكومية وإدارتها أنها تؤدِّى واجباتها أداءً نُمُوذَجياً ، ونسمع عن أُخرى أنها قليلة الأداء ، أو سَيِّئة الأداء ، وفى تصوُّرنا أن القسم الثانى أكثر من القسم الأول ، وهذا وذاك له أسبابه الجوهرية المعقولة :

– منها : عدم وُضوح الأهداف لدى العاملين فى تلك الجهات بدرجة كافية تثير حماسهم ، وتحرك مواهبهم لتحقيق الأداء الأمثل .

– ومنها : الإحساس – والإحساس والشعور أمران جوهريّان بكل مقياس – بعدم وجود العدل فى الجزاء ، من حيث المرتبات ، ومن حيث الثواب والعقاب عند المتابعة والتقدير .

ومنها : فقدان دور الإيمان بالله ، والحلال والحرام ، بدرجات متفاوتة فى ميادين العمل الوطنى ، وعدم وضوح الصلة بين الإيمان والنّجاح الدينوىّ فى جميع الأعمال .

– ما الحَلّ ؟

من التشخيص الموجز أعلاه يمكن معرفة الأُمور التى يجب اتّخاذها ، وعلى رأْسها :

– وجوب توضيح الهدف الذى يُثير حماس الإيمان .

– وكذلك إعطاء (العدل الاقتصادى) حَقّه من الإيمان والتنفيذ والجدِّية .

٣ – أسئلة القطاعين العام والخاص . وتحقيق العدالة :

(وهى الأسئلة الأربعة الأخيرة) .

– لماذا أُنشئ القطاع العام ؟ وماذا يجب أن يفعل ؟

ليس من الأوصاف الذاتية لكل حكومة أن تكون مُنْتِجَة سَيّاراتٍ أو بضائع أو تاجرة قماش أو دجاج ! ؟

فإنه يُمكن أن تكون هناك حكومة ناجحة ، ولا تفعل شيئا من ذلك . اشتراكُ الحكومة فى الإنتاج والتِّجارة له أسباب تجعله ضروريًّا فى بعض الأحيان والمراحل .

– من هذه الأسباب انحراف القطاع الخاصّ ، حين يظلم العمال والموظفين ويَبْخَس أُجورهم ، وحين يحتكر ، فَيَضُرّ بالمستهلكين ، وحين يهرب من الضرائب ، ويرشو ، ويغش ، فَيَضُرّ الاقتصاد الوطنى كلّه ، وقد يُعرِّض الوطن كلّه للاحتلال الأجنبى ، حين تطغى مَصَالِحَهُ الخاصّة على كل القيم الدينية والوطنية والقوميّة .

– ومن هذه الأسباب أن يعجز القطاع الخاصّ عن القيام بإنتاج كبير يحتاج استثماره إلى زمن طويل ، كما هو الشأن فى الصناعات الثقيلة ونحوها مما لابُدّ منه للشعوب المتقدمة .

لشىء من هذا وذاك نشأ القطاع العامّ . والمعيار الذى يُقاس به دور (القطاع العام) هو : حيث يفشل القطاع الخاصّ أو يَعْجَز أو ينحرف ، يجب أن تتدخّل الحكومة بسلطة (القطاع العام) لتؤدى الدور القانونى للشرطىّ الأمين الذى يُمسك بالمُعْتدى ، ويعطى كل ذى حَقّ حَقّهُ بعد ما تبيّن ، ثم يَمْضِى إلى عمله الأساسى فى الرقابة القانونية ، ونَشْر الأمن .

– وفى هذا المجال ، يلوح لى أن مِنَ الأفضل الآن أن يصبح القطاع العامّ (موزع جملة أمين) بدل (تاجر الجملة) ، يُسَلِّم السّلع التموينية إلى (الجمعيات التعاونية) التى تُنْشَأُ الآن على مستوى المصالح والأحياء ، ولها مُسَاهِمُوها ، على أن نُعْنى عناية فائقة بتوجيه وترشيد الناس . ليحسنوا التعاون على إدارة هذه الجمعيات بالنسبة لجميع المشتركين ، الذين ينبغى أن يكونوا جميع أرباب الأُسَر فى أنحاء الجمهورية .

– وفى مجال الضّرائب ، وتحقيق العدالة بين المواطنين فيما يتحمّلونه من أعْباء .

– نبدأُ بالحديث عن (محدود الدّخْل) مَنْ هُوَ؟

لو أنعمنا النظرة الاقتصادية والضريبية والقانونية ، لرأينا :

بإنصاف – أن (محدود الدّخْل) هوكل من يُحَدِّد دَخْلَهُ نظام قانونى أو طبيعى يَحْكُمُه الواقع .

– ينطبق ذلك على العدد الأكبر من العاملين داخل الوطن ، ويدخل فيه رئيس الجمهورية ، والوزراء ، وجميع الموظفين فى الحكومة والقطاع العامّ والخاصّ . والفلاحون ذوو الملكيات الصغيرة – فالقانون الوظيفى والطبيعىّ بأنواعه يحكم دخولهم جميعاً ، ويحددها ، ويربطها .

– ويخرج من هذه القوانين : التجار . والمهنيُّون ، وذوو الأعمال الطفيلية . وهؤلاء لا يَحْكُم دخولهم أحد ، ولا يربط مكاسبهم سوى إرادتهم وذِمّتِهِم ، ومنهم من يُكسب من حلال ، ومنهم من لا يبالى حلالاً ولا حراماً ، فهو يلتهم كلّ مَا يقع تحت يده ، ويصل فى وقتٍ وجيز إلى الألوف وأُلوف الألوف ، من الاحتكار ، وفروق الأسعار ، واستغلال الضرورات الغذائية والصحية والأمْنِيّة . . . إلخ .

ولقد أصبح هذا الفريق القليل من ذوى الدُّخُول غير المحدودة يمثل خطراً كبيراً . ! ؟

– يذكر وزير التخطيط[1] أن هذا الفريق امْتَلَكَ مِنْ فروق الأسعار فى ثلاث سنوات ٨٠٠ ثمانمائة مليون جنيه ، بدون إنتاج حقيقى (أى من «فائض القيمة» بالاصطلاح الاقتصادى . أو من «الرِّبَا» بالاصطلاح الشرعى فى ، الحلال والحرام) .

ما الحَلّ ؟

– هل يجوز أن نعتمد على فلسفة الضرائب ؟

العدل : يقول : لا ، إن الضرائب إنما تكون عن الثروة التى يعترف القانون بشرعيتها وشرفها .

– فهل يحمى القانون الكسب الحرام ؟ .

لابد إذاً من إقامة العدل : نُحِلّ الحلال ونَحْمِيه ، ونَحْمى أصحابه ونُحَرِّم الحرام ، ونعيده إلى أصحابه المظلومين . . ؟ ؟

عندئذٍ سوف لا نُحمِّل فلسفة الضرائب مالا تستطيع أن تَحْمِلَهُ تَحْت غوايات (فائض القيمة) المُقامِر الْمُغَامِر ،

(١) الاهرام ٩/٩/١٩٧٧ م .

والرّاشى ، والمُرَابى المُخَرِّب ؟ ؟

–كيف تستعيد «الحكومة» (فروق الأسعار) ، التى بلغت نحو ألف مليون جنيه – فى الدّاخل – لتردها إلى أصحابها الذين أُخذت منهم ظُلْماً ؟

طريق الإقناع الشرعىّ ، والقانونىّ ، والعلمىّ – فى ظلال الْمَحَبّة والحريّة والإخلاص لله والوطن – هو عندى أفضل الطرق .

– وفى يد «الأزهر» فتاواه الشرعية النزيهة ، وخطبه ومواعظه ومؤلفاته

– وفى يد الحكومة وسائل التغيير الدّاخِلِىّ ، والإقناع المشروع ، عن طريق أجهزة الإعلام والصّحَافة والقانون .

وفى يد الشعب نقاباته وجمعياته المتنوِّعة : الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية ؟ ؟

وأخيراً :

فإننى أتصوّر – بالنسبة إلى «مشكلتنا الاقتصادية» أننا تجاه (معركة) ، لماذا ؟

– الأزمات العالمية فى الاقتصاد ، قد التهمت من اقتصادنا فى التضخم العالمىّ من ١٩٧٣ – ١٩٧٦ فقط :

١ – ٢٨٠٠ ألفان وثمانمائة مليون من الجنيهات (فروق أسعار) .

٢ – وفى الداخل التهمت (فروق الأسعار) ٨٠٠ ثمانمائة مليون جنيه من الاستهلاك الشعبىّ ، كما التهمت ١٥١ مائة وواحداً وخمسين مليون جنيه من الاستهلاك الحكومى ؟ ؟

– ما الهدف من خوض هذه المعركة ؟

تصحيح المسار الاقتصادى ، وذلك يَقْتَضِى أمرين :

١ – إيقاف نزيف «الرِّبا» الذى يسميه الاقتصاديون «التّضَخُّم» . وذلك بحسب مظهره الخارجىّ .

٢ – وضع الأسس الراسخة التى تَمْنَع عودته إلى الظهور مَرّة أُخرى فى مُستقبل قريب أو بعيد ؟ ؟

– إن هذا الذى يسمونه «التَّضَخُّم العالمىّ» قد أَلْحَق الأذى بجميع الدول النامية فى العالم الثالث ، وأحست جميعها بوَطْأته الثقيلة عَدَا دُوَل البترول – ولقد احتشدوا لعلاجه ، وهذا أمرٌ لازم وواجب ، ولا يزال دائراً ، والدول الصناعية الكبرى تُحَاوِر وتُراوِغ ! ! والدول النّامية تُطالب وتلحّ للخروج من الأزمة . ومهما وصف من حُلول مِثْل : زيادة المعونات ، وتسهيل الاقتراض ، وإطالة فترات السَّماح فى سداد الدّيون إلى آخر هذه المقترحات . . فإن ذلك لو أُخذ به كله أو ببعضه ، لَنْ يكون حَلاًّ جذريًّا ، وسَوف يسمح بعودة الأزمة مرة أُخرى ومّرات

بأشكال أشد ثقلاً ، وأكثر وَطْأَة على الشعوب النامية .

وإنما الحلّ الجذرى يكمن فى الاتفاق على وجوب (تحديد الأسعار العالمية) بطريقة علمية عادلة ، ثم تثبيتها .

– بعد هذا التحديد العادل ، سيكون التّنافس شريفا ، لخير البشريّة جَمْعَاء .

– أما الخضوع لصنم (العرض والطلب) فى تحديد الأسعار ، فسوف يجعل الكلمة الأُولى والأخيرة دائماً لأُولئك القادرين على الاحتكار والتحكم فى الأسواق بالظلم والبغى .

– والمثل واضح فى (أسعار البترول) التى انتقلت الكلمة فيها إلى منتجى البترول ، بعد حرب رمضان (٦ أكتوبر ١٩٧٣) .

وسياسة مصر فى مجموعة الدول النامية يَجِبُ أن تتّجه إلى تأييد (التسعير العلمىّ العادل) على المستوى العالمى ، حتى تَتّقى الوقوع فى خسارة ٢٨٠٠ مليون جنيه مرة أُخرى ، أو أكثر؟ ؟

هذا فى الخارج على مشقته واضح .

– فماذا عن الداخل ؟ وقد خسرنا ٨٠٠ مليون جنيه فى الاستهلاك الشعبى و١٥١ مليون جنيه فى الاستهلاك الحكومى ، والمجموع نحو ألف مليون جنيه ؟ .

– يلزمنا أن نواجه هذا الخلل مواجهة حاسمة ، نحاسب فيها أنفسنا ، لنهزم عوامل الشّر والاستغلال والشقاء فى داخلها ، فلا شك أن النفوس إذا طَهُرَت من الأطماع ، والعقول إذا نَوّرتها الهدايةُ الإلٰهية ، والعلاقات الاجتماعية إذا آنسها الإخلاص والمحبة ، كُلّ ذلك كَفِيلٌ بأن يَعْلَق الجميع بالحلال من الرزق . ويحدث تيارا كاسحا للبراءة مما حرم الله من : الربا ، والسحت ، والرشوة ، والغش ، إلى آخر هذه المُوبقات المهلكات .

ولنبتدئ حياة مباركة طيبة فى ظلال الكسب الحلال ، وبخطط اقتصادية قائمة على شرف الغايات ، وطهارة الوسائل ، والزمن جزء من العلاج .

وينبغى أن يؤلف :

« المجلس الأعلى لإقامة العدل الاقتصادى » .

حيث يبدأ (معركة تصحيح المَسَار الاقتصادى) على النحو التالى :

١ – القائد : الحكومة .

٢ – غرفة العمليات لمساعدة الحكومة بالمشورة والرأى ، لإصدار القرارات فى أوقاتها المناسبة لتقبُّل الرّأى العام ، وتَضُمّ :

(ا) الاقتصاديين الفنيين .

(ب) الفقهاء الإسلاميين من الأزهر والجامعات .

٣ – القادة المساعدون :

من علماء المساجد والوُعّاظ ، وقادة وسائل الإعلام فى الصحافة والإذاعة والتأليف الأدبى والفنى ، وضباط الداخلية ومُفَتِّشُو التموين . . . إلخ .

٤ – الجنود : جميع أفراد الشعب بدون استثناء ؟ ؟

٥ – من شعارات المعركة :

« العدل الاقتصادى حَقَ لجميع الناس »

« سيادة الكسب الحلال ، وتطهير الكسب من كلّ أمر حرام ، بذلك تَتِمّ سعادة الوطن » .

٦ – الحلال بَيِّنٌ ، والحرام بَيِّنٌ .

ويجب أن تصدر البيانات الشرعية والعلمية والقانونية التى تبيِّن بيَاناً حاسماً حدود كل من : الحرام ، والحلال ؟ ؟

٧ – المعلومات المؤثرة على القيم :

لابُدّ أن تكون تحت أنظار كل من له اتصال بالتقدير ، وإصدار القرارات فى التسعير والتقييم .

٨ – يجب أن يكون الاعتماد الأكبر فى الإصلاح على (التغيير الداخلى) فى النفوس عن طريق وسائل الإقناع والإعلام ، فى المساجد والمدارس والصحافة والإذاعة والجمعيات العلمية والاجتماعية والسياسية

٩ – القدوة الحسنة فى هذا المجال من أقوى وسائل التغيير :

كم يكون الطريق مُمَهّداً ، حينما يندفع عدد من الذين يحوزون (فوائض القيم) الهائلة ، ليتجردوا من آثار جَهَنَّم ، ويُطَهِّروا أنفسهم وأولادهم من آثار المال الحرام ، ليعيشوا طاهرين مُتطَهِّرين .

١٠ – النصوص القرآنية : هى القائد المقبول فى كل خطوة تخطوها الحكومة فى المراحل المتتالية لتحقيق العدل الاقتصادى .

– وفى ختام هذا الموجز نذكر قول شعيب عليه السلام رسول الاقتصاد الإلهى :

(وَسِعَ ربُّنا كل شىء علما ، على الله توكلنا . .

(ربنا افتَح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين) « ٧ : ٨٩ » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

زيدان أبو المكارم حسن

الوقائع والأحداث في شعر حسان بن ثابت

الأستاذ / السيد حسن قرون

اجتمع لحسان بن ثابت مالم يجتمع لأحد من شعراء الرسول ﷺ ، فهو أول من سمع البشرى بمولده من أهل المدينة ، فقد روى عنه أنه قال : إنى لغلام يفع ابن سبع سنين أو ثمان إذا يهودى يصرخ ذات ليلة : يا معشر يهود ، فلما اجتمعوا قالوا : ويلك ! مالك ؟ قال : طلع نجم أحمد الذى ولد به فى هذه الليلة . قال محمد بن إسحاق : فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان فقلت : ابن كم كان حسان بن ثابت حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ؟ فقال : ابن ستين . وقدمها رسول الله وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين . وأسلم حسان مثل قومه من بنى الخزرج ، ثم إنه يجتمع مع رسول الله من جهة النسب فى عدى بن النجار ؛ لأن سلمى أم عبد المطلب من بنى عدى بن النجار ، فهو يمت له بصلة القرابة ، فإذا أضفت إلى هذا موهبته الشعرية ونباهة شأنه بين العرب وجدْتَه جديراً بحب رسول الله وتقديمه . ويمتاز على غيره من شعراء عصره بمكانة عالية جعلته يمدح ملوك الحيرة وملوك الشام ولا يحدث له ما حدث للنابغة الذّبيانى مما يدعوه إلى الاعتذار ، وهو حين يمدح الغساسنة بالشام يمدح أبناء عمومته ؛ فنسب الخزرج والأوس ينتهى إلى الأزد كما ينتهى إليه نسب الغساسنة ، وصلاتهم له لم تنقطع حتى بعد أن أسلم وتنصروا . حكى عن نفسه قال : أتيت (جبلة بن الأيهم الغسانى) فأذن لى فجلست بين يديه ، وعن يمينه رجل له ضفيرتان ، وعن يساره رجل لا أعرفه ، فقال : أتعرف هذين ؟ فقلت : أما هذا فأعرفه وهو النابغة وأما هذا فلا أعرفه ، فقال : فهو (علقمة بن عبدة) فإن شئت استنشدتهما وسمعت منهما ، ثم إن شئت أن تنشد بعدهما أنشدت ، وإن شئت أن تسكت سكت . قلت فذاك ، فأنشد النابغة :

كلينى لِهَمٍّ يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطئ الكواكب

فذهب نصفى . ثم قال لعلقمة أنشد ، فأنشد :

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بُعَيْدَ الشباب عصرَ حان مشيب

فذهب نصفى الآخر . فقال لى : أنت أعلم الآن – وخيره – قال حسان : فتشددت ، وقلت : لا ، بل أنشد . قال : هات . فأنشدته :

أبناء جفنة حول قبر أبيهمُ
قبر ابن مارية الجواد المفضل
يسقونِ من ورد البريص[1] عليهم
بردى يصفّق[2] بالرحيق[3] السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول

فقال له (جبلة) : أدنه ، أدنه ، لعمرى ما أنت بدونهما ، وأمر له بثلثمائة دينار وعشرة أقمصة لكل منها جيب واحد . وقال : هذا لك عندى فى كل عام .

ويهمنى من تلك النادرة أمران : أما أولهما فحديثه عن الشاعرين وتخييره فى الإنشاد رعاية لمقامه وتجنباً لسقوطه أمام أكبر شاعرين ، فالنابغة محكَّم الشعراء فى سوق عكاظ ، وبكلمة منه يعلو الشاعر أو ينزل ، والثانى عارض امرأ القيس أمير الشعراء فى قصيدة واحتكما إلى زوج امرئ القيس فكان حكمها لعلقمة لا لزوجها ، ولكن شاعريته أبت عليه أن يكون دونهما . أما آخرهما فهو القرار الذى جعله يتقاضى من الغساسنة ثلثمائة دينار كل عام ، وبقيت حتى بعد انتشار الإسلام وحسان من أنصاره .

وعلى هذا فحسان فحل من فحول الشعراء ، وقد قيل : إنه أشعر أهل المدر ، وكان يفضل – كما يقول الرواة – على الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) النبوة ، وشاعر الْيَمَنِ كلها فى الإسلام ، لأن حسان كما قلت من بنى (قيلة) وقيلة من (الأزد) والأزد من اليمن .

أسلم بنو قيلة : الأوس والخزرج ، وهاجر إليهم رسول الله ، واحتاجت الدعوة إلى لسان يعبر عنها ، وينافح دونها ، وبدا ذلك جليا بعد موقعة (بدر) فانطلقت ألسنة شعراء قريش تتناول أعراض المسلمين ، وأظهر شعراء قريش ومن تابعهم : عبد الله بن الزبعرى السهمى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ،

---
(١) نهر يتشعب من بردى نهر دمشق .
(٢) يمزج .
(٣) الخمر .

وضرار بن الخطاب الفهرى ، وعمرو بن العاص السهمى ، وفزع الصحابة إلى على بن أبى طالب ليرد عليهم ، فلم يقبل الرسول ؛ لأن عليًّا «ليس عنده ذاك» ثم قال للأنصار : ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرنى به مِقْوَلٌ بين بصرى وصنعاء . فقال : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : إنى أسُلُّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين . فقال النبى : اللهم أيده بروح القدس .

ومن هذا اليوم شمَّر حسان عن ساعده ، ووظف شعره فى الدفاع عن الرسول وصحابته ودعوته ، فكان شعره صدى للحوادث والوقائع ، فكان شعراء قريش يرهبونه أكثر مما يرهبون الشاعرين : كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكانا من شعراء الرسول ، وهجاء حسان يتسم بالواقعية ، والبعد عن الفحش ، إنما يلجأ إلى ما يحبون ستره فيفضحه ، ويستعين بأبى بكر رضى عنه ليطلعه على أنساب قريش ليوجع من يتعرض لهجو الرسول ويفتخر بقومه وما قاموا به من الإيواء وبذل النفس والنفيس دفاعاً عن الإسلام ، فقد رمتهم الجزيرة العربية بكل داهية دهياء ، فحين ينتصر المسلمون يصف شجاعة أولى البأس وأثرهم فى جذب النصر ويهزأ بالمغلوبين من الكفار ، وحين تحدث هزيمة لا ينكص على عقبيه فعنده ما يقوله ، يعيرهم بالكفر ، ويوضح لهم مثواهم من النار ، انظر إليه يعاتب من تلومه ويهزأ (بالحارث بن هشام) أخى (أبى جهل) : لهربه :

إن كنت كاذبة الذى حَدَّثْتِنِى
فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم
ونجا برأس طِمِرَّةٍ ولجام
وبنو أبيه ورهطه فى معرك
نصر الإله به ذوى الإسلام

ويعتذر الحارث عن هربه بشعر ، ولكن حسان لا يتركه لعذره ؛ بل يقول له :

ياحار قد عولت غير معول
عند الهياج وساعة الأحساب
إذ تمتطى سُرُحَ اليدين نجيبةً
مَرْطَى الجراء طويلة الأقراب
والقوم خلفك قد تركت قتالهم
ترجو النجاة وليس حين ذهاب

ويفخر قائلاً :

ألا ليت شعرى هل أتى أهل مكة
إبارتنا الكفار فى ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا
فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر

قتلنا أباجهل وعتبة قبله
وشيبة يكبو لليدين وللنحر

كثير ذلك الشعر الذى قاله فى غزوة بدر جعل شعراء قريش يرجعون بهزيمتين، هزيمة المعركة، وهزيمة الشعر.

وجاءت غزوة أحد، ولقيت قريش فيها حظًّا، وقتل حمزة، ومصعب بن عمير وأناس من الأنصار رضى الله عنهم ووجد شعراء قريش فرصتهم فوجهوا الكلام لشعراء الرسول وافتخروا فحمى حسان ولم يترك لهم مجال النصر، بل أوصده دونهم ببراعة تستحق الإعجاب، فإن ذكروا النصر ذكرهم هزيمة بدر، وإن شمتوا بمقتل حمزة بين لهم منزلته من الجنة ورضا الله عنه وعدد لهم أشرافهم الذين قتلوا وألقوا فى القليب ثم هم من أصحاب النار وشتان بين من يؤيدهم جبريل بأمر الله ومن ينعق فى قفاهم الشيطان، ويبكى حمزة والشهداء:

ياحمزَ، لا والله لا
أنساك ما صُرَّ اللقائح[1]
لمناخ أيتام وأضيا
ف، وأرملة تلامح[2]
ولما ينوب الدهر فى
حرب لحرب وهى لافح[3]
ذكرتنى أسد الرسو
ل وذاك مِدْرَهُنا المنافح
لهفى لشبان رزئناهم
كأنهم المصابح
شم، بطارقة، غطا
رفة، خضارمة[4]. مسامح
المشترون الحمد بالأموال
إن الحمد رابح

وتتوالى الأيام والجهاد مستمر، والانتصار يتتابع، وتعلو راية الإسلام خفاقة، وإذا وقع الغدر من قبيلة على دعاة المسلمين أطلق لسانه فى الغادرين. وجعلهم مضغة الأفواه، فحين غدرت هذيل (بخبيب بن عدى) وأصحابه وهم ستة أرسلهم الرسول لتفقيه (عَضَل والقارة) كطلب هاتين القبيلتين جعل منها سبة الدهر لتلك القبائل، والوفاء بالعهد وإجارة النزيل وإكرام الضيف من عزائم الأمور عند العرب فكيف غدرت تلك القبائل؟ يقول حسان:

إن سرَّك الغدر صِرْفاً لا مزاج له
فأت (الرجيع)[5] فسل عن دار لحيان[6]
قوم تواصوا بأكل الجار بينهمُ
فالكلب والقرد والإنسان مثلان
لو ينطق التيس قام يخطبهم

---

(١) النوق الحالبن.
(٢) تنظر سريعاً.
(٣) زائد شرها.
(٤) من يكثرون العطاء.
(٥) ماء لهذيل.
(٦) حى من هذيل.

وكان ذا شرف فيهم وذا شان

وهو أسلوب ساخر بلحيان التى تعرف الغدر خالصاً ، وتتواصى بأكل الجارِ ، ولا تعرف حقوق الإنسان ، والبيت الثالث فيه كل السخرية ، وحدث غدر مثله فى (بئر معونة) فشنَّ حسان الغارة على بنى عامر الذين لم يفوا بوعدهم ولم يحموا من نزلوا عندهم من الصحابة بطلبهم ، وكان عامر بن الطفيل هو الغادر فاستعان ببنى سليم ، هنا يقول حسان يحرض (بنى براء) على عامر بن الطفيل :

بنى أم البنين ألم يرعكم

وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكم (عامر) (بأبى براء[1])

ليخفره وما خطأ كعمد

وتستمر الدعوة الإسلامية ، والتضحيات تساوقها الانتصارات ، وحسان يرصدها ويسجلها يوماً بيوم ، صور زحف الأحزاب وهزيمتهم ، وصور الغزوات واحدة بعد أخرى حتى كانت غزوة مكة ، أو فتح مكة ، فجال كل مجال وصال أبلغ مصال ، تحدث عن غدر قريش بالهدنة ، وسيوفهم التى استعان بها بنو بكر على بنى كعب من خزاعة ، وحرض على القتال :

عَنَانِى ولم أشهد ببطحاء مكة

رجالَ بنى كعب تُحَزُّ رقابها

بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم

وقتلى كثيراً لم تجن ثيابها

ويعنى بالرجال الذين لم يسلوا سيوفهم قريشاً فقد عاد نوابها ولم يحاربوا ، ولم يجن ثيابها يريد لم يستروا بالدمن .

وهيأ الرسول جند الرحمن وزحف إلى مكة فى عشرة آلاف مقاتل ، فيهم المهاجرون والأنصار ، وينطلق صوت حسان :

عدمنا خيلنا إن لم تروها

تثير النقع موعدها كداء[2]

ينازعن الأسنة مصغِياتِ

على اكتافها الاسل الظماء

تظل جيادنا متمطرات

يلطمهن بالخمر النساء

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا

وكان (الفتح) وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم

يعين الله فيه من يشاء

وجبريل رسول الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء

وجاء النصر وتم الفتح ودخل الناس فى دين الله افواجا . ويذكر حسان حينئذ خصمه ابن الزبعرى وقد هرب إلى نجران

(١) هو الذى طلب الدعاة ويلقب بملاعب الأسنة .

(٢) موضع بمكة .

خوفاً من عقاب رسول الله ، فيرميه ببيت واحد أرعبه وهده ، هو .

لا تَعْدَمَنْ رجلاً أحلك بغضُه
نجرانَ فى عيش أَحَذَّ لئيم

بلغ ابن الزبعرى هذا البيت فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فلم يجد بدًّا من ترك العيش الضيق اللئيم فى نجران وأتى إلى الرحمة المهداة محمد بن عبد الله رسول الله طالباً الصفح والمغفرة ، فما إن مثل بين يديه حتى أنشد :

يا خير من حملت على أوصالها
عيرانه سُرُح اليدين غشوم
إنى لمعتذر إليك من الذى
أسديتُ إذ أنا فى الضلال أهيم
فاغفر فدى لك والداى كلاهما
زللى ، فإنك راحم مرحوم

ونال العفو ، ونجا من «عيش أحذ لئيم» فالإسلام يجبّ ما قبله ، وصار أخاً فى الإسلام لحسان .

وكان فتح مكة مَسْحاً لأحزان حسان التى عاناها من استشهاد أمراء المسلمين فى مؤتة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة الذين بكاهم بشعر يقطر أسى وألماً .

ويأتى عام الوفود فيكون حسان لسان صِدق فى الذود عن الحياض ، والاعتلاء بفنه على كل شاعر وافد ، غلب شاعر تميم واعترف الوفد بذلك فى قصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنناً للناس تتبع

وعاش فى كنف حبيبه ونبيه فى مكانة عالية وعز لا يرام ، وبينما هو كذلك وقد آن له أن يستريح إذا برسول الله يمرض ويخير فيختار الرفيق الأعلى ، وينظر حسان فيرى المنبر قد خلا من خطيبه ، فيبكى بكاء مرًّا ، ويرثيه رثاء يبين عن إيمان عميق ، وحب مكين ، وشعور صادق ، لقد تلقى بشرى مولده ، وتلقى نعيه ففجر كل ذلك عاطفة شاعر جياش الشعور ، عارم الخيال ، صادق الوفاء ، أريحى الوداد :

بطيبة رسم للرسول ومعهد
منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تنمحى الآيات من دار حرمة
بها (منبر الهادى) الذى كان يصعد
وواضح آثار ، وباقى معالم
وربع له فيه مصلى ومسجد

ويسير على هذا باكياً منتحباً مبيناً آلاء الرسول وما أدى من رسالة ، ويذكر القبر وبكاء الصحابة :

لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة
عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم
وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

يبكون من تبكى السموات يومه
ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوماً رزية هالك
رزية يوم مات فيه محمد ؟
لقد تقطع منهم منزل الوحى ونوره الهادى ، والقدوة الحسنة ، إمام يهدى فينال السعادة تابعه ، يعفو عن الزلات ، ويحمل عنهم مالا يستطيعون حمله ، فعنده تيسير ما تعسر ، وتوسيع ما تحجر :
فبيناهم فى نعمة الله بينهم
دليل به نهج (الطريقة) يُقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
فبكِّى رسول الله ياعين عبرة
ولا عرفتك الدهرَ دمعك يجمد
وتراه هنا يمتح عن روح إسلامية أصيلة ، ففى حياة الرسول ترى مدحاً أشبه بمدح الملوك إلا بعض تأثره بالقرآن الكريم والحديث الشريف ولكنه هنا فى روحانية غالبة ، وربانية رابية ، وقد لمح الدكتور زكى مبارك لمحة ذكية حين جعل الطرق الصوفية فى تسميتها راجعة إلى (الطريقة) التى جاءت فى تلك الأبيات ، وما أصدقه حين يقول :
وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد
ويصفه بالكرم والوفاء ، وحسن المنبت وعلو النسب ، وتربية الله إياه ، وأنه :
تناهت وصاة المسلمين بكفه
فلا العلم محبوس ولا الرأى يفند
ختمها برجاء يتمناه كل مؤمن صادق الإيمان قال :
مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد
قصيدة رائدة ، ويقينى أن النقاد لم يقتربوا منها إلا لأنهم يفرون من الحديث عن وفاة سيد الخلق ﷺ ، وإلا فهى جديرة بالتحليل وبيان ما فيها من جمال وجلال .

هل سلمت حياة حسان من المؤاخذة إبان تلك الحقبة التى عاشها فى كنف رسول الله على أنه شاعر الرسول ؟

يَقْتَضينا هذا السؤال أن نذكر موقفاً لحسان عُدّ فيه مذنباً ، ولا أدرى كيف وقع فى هذا الذنب ؟

حدث فى غزوة بنى المصطلق أمران فى غاية من الخطورة والحساسية يتصلان بالمجتمع الإسلامى المكون من المهاجرين والأنصار ، الأمر الأول وقع بين المحاربين ، فقد تشاحن بعض المهاجرين مع بعض الأنصار على الماء فتفوه رأس النفاق (عبد الله بن أبى بن سلول) بكلمة نابية سجلها القرآن الكريم وهى : «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»

يقصد رد المهاجرين إلى مواطنهم فى مكة وما حولها مما دعا الرسول إلى التعجيل بالعودة من حيث أتى ، وبلغ حسان الخبر . فشايع (ابن أبى) وقال شعراً : منه :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا
وابن الفريعة أمسى بيضة البلد
قد ثكلت أمه من كنت صاحبه
أو كان منتشباً فى برثن الأسد

وطبعاً هذا يؤلم الرسول ، لأنه سمى المهاجرين «جلابيب» وهى لفظة كانت تطلقها قريش عليهم زراية بهم وحطًّا من منزلتهم . ويعنى بابن الفريعة نفسه ؛ لأن الفريعة أمه : وهى من بنى ساعدة .

الأمر الثانى اشتراكه فى حادث الإفك ، وحادث الإفك موجزه : أن النبى كان إذا خرج إلى غزاة أقرع بين زوجاته ، فكان من نصيب السيدة عائشة خروجها فى تلك الغزاة ، وكان من عادتهم أن يضعوا زوج الرسول فى هودج تكون فيه وهى على البعير أوعلى الأرض ، وكذلك صنعوا بالسيدة عائشة ، وحدث فى أثناء الرجوع أن أمر الرسول باستراحة الجيش ، وحين أذن مؤذن الرحيل كانت السيدة عائشة تبحث عن عقد سقط منها حين خرجت من الهودج لقضاء الحاجة ، ورجعت فوجدت الجيش قد رحل ، فتلففت فى ملابسها منتظرة أن يفطنوا لها فيعود أحدهم إليها . وبينما هى كذلك جاء (ساقة الجيش) الصحابى (صفوان بن المعطل السلمى) كانت مهمته جمع ما تركه الجيش سهواً ، فلما رآها – وكان يعرفها قبل الحجاب – قال : ظعينة رسول الله ؟ ولما لم تجبه أناخ بعيره وابتعد عنها وطلب إليها الركوب ، فركبت وسار بها حتى دخل المدينة ، وهنا تقول أهل الإفك وعلى رأسهم ابن أبى ودخل فى الشائعات حسان مع (مسطح بن أثاثة) و(جمنة بنت جحش) أخت زينب زوج الرسول ، وبرأ الله السيدة عائشة بقرآن يتلى فى المحاريب ، وأقام الرسول الحد على من اشتركوا فى هذا الأمر ومنهم حسان . وغضب صفوان من شعر حسان ، فضرب حسان بالسيف ، ولكن الله سلم ، وكادت تكون فتنة بين المهاجرين والخزرج لولا تدخل عبد الله بن رواحة الذى ذهب بهما إلى الرسول ليقضى بينهما وهنا عاتب الرسول حسان على ما قاله فى شأن المهاجرين قائلاً له : «تشوهت على قومى أن هداهم الله للإسلام» واعتذر حسان ثم أرضاه الرسول على تنازله عن حقه قبل صفوان فأعطاه عقاراً (وسيرين القبطية) أخت (مارية) جارية الرسول . وهنا فاض قلب حسان بالشعر . فقال يصف السيدة عائشة بالطهر والنبل ، وتنصل مما قال :

حصان رزان ما تُزَنُّ بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
عقيلة حى من لؤى بن غالب
كرام المساعى مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خِيمَهَا (١)
وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتم
فلا رفعت سوطى إلىَّ أناملى

وهكذا انقشعت تلك السحابة ، وعاد الرضا للشاعر ، وبقى وده للرسول وآله – وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه –

عاش حسان طويلاً بعد الرسول ، وعاشر خلفاءه بالحسنى ، شاهد خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وتوفى سنة ٥٤ هـ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، ولم يعكر صفو حياته فى تلك المدة الطويلة سوى حدثين أولهما يسير محمله وآخرهما ثقيل حمله ، كان الأول فى عهد عمر رضى الله عنه ، وذلك –كما يقول صاحب الأغانى – إن عمر بن الخطاب نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركى قريش وقال : فى ذاك شتم للحى والميت وتجديد الضغائن وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء به من الإسلام . فقدم عبد الله بن الزبعرى السهمى وضرار بن الخطاب الفهرى فنزلا على أحمد بن جحش بالمدينة وقالا : نحب أن ترسل إلى حسان بن ثابت حتى يأتيك فننشده وينشدنا ما قلناه وما قاله ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : يا أبا الوليد هذان أخواك : ابن الزبعرى وضرار ، وقد أحبا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما .

فقال حسان : أفتبدأان أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن . قال : أنشدا ، فأنشداه حتى فار كالمرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة دون أن يسمعا شيئاً منه ، فما كان منه إلا أنه ذهب إلى الخليفة عمر فقص عليه قصتهما وقصته . فقال عمر وهو العادل : لن يذهبا عنك ، وأرسل من يردهما ولو بلغا مكة . فلما كانا بالروحاء رجع ضرار إلى صاحبه وقال : يابن الزبعرى ، أنا أعرف عمر وذبه عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به . وبين له أن عمر لابد أن يرسل فى طلبهما ، والأفضل أن نبقى هنا إلى أن يأتينا الخبر. فأقاما بالروحاء فما كان إلا كمر طائر حتى وافاهما رسول عمر ، فرجعا إليه . فدعا لهما بحسان وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لحسان : أنشدهما ما قلت لهما ، فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما . فقال عمر : أفرغت ؟ قال : نعم .

قال : أنشداك فى الخلاء وأنشدتهما فى

(١) طبيعتها

الملأ . وبذلك هدأ ورضى . ويروى صاحب الأغانى أن عمر قال لمن حضره من الأنصار : إنى نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعا للتضاغن عنكم ، وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذ أبوا فاكتبوه واحفظوه ، فدونوا ذلك عنهم . والعهدة على الراوى .

أما الأمر الآخر فموقفه من مقتل عثمان رضى الله عنه ، فقد حزن وأنكر ولم يهش لخلافة على بن أبى طالب وبلغ عليًّا أن حسان والنعمان بن بشير وكعب بن مالك يقدمون بنى أمية ويقولون : الشام خير من المدينة ، فاستدعاهم فدخلوا عليه . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن عثمان أقتل ظالماً فنقول بقولك أم قتل مظلوماً فنقول بقولنا أم نكلك إلى الشبهة ؟ فالعجب من يقيننا وشكك ، وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه فهاته نعرفه وأنشده شعراً باكياً على عثمان : فقال لهم على رضى الله عنه : لكم عندى ثلاثة أشياء : استأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، وعند الله ما تختلفون فيه يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى بذلك العرب ولا تعذرنا فيه . فقال على : أتردون على بين ظهرانى المسلمين بلا نية صادقة ولا حجة واضحة . اخرجوا عنى ولا تجاورونى فى بلد أنا فيه أبداً . فخرجوا من بيوتهم فساروا حتى أتوا معاوية بالشام فقال لهم : لكم الولاية والكفاية ؛ فأعطى حسان ألف دينار ، وكعب بن مالك ألف دينار ، وولى النعمان بن بشير حمص ، ثم نقله إلى الكوفة بعدُ ، وهذا الخبر يدلك على تغيير رأى حسان فى على أيام رسول الله فقد كان عنده إحدى دعائم العز للإسلام ، جبلاً تضؤل دونه الحجارة المجتمعة ، وسيداً كريماً من البهاليل . انظر إليه تجده يقول فى رثاء جعفر بن أبى طالب :

وكنا نرى فى جعفر من محمد
وفاء وأمراً حازماً حين يأمر
فما زال فى الإسلام من آل هاشم
دعائم عز لا يزلن ومفخر
هم جبل الإسلام والناس حولهم
رضام إلى طود يروق ويقهر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه
(على) ومنهم أحمد المتخير

فكيف صار بنو أمية أفضل منه ؟ وكيف صارت الشام أفضل من المدينة ؟ أيكون حسان قد جعل من الأخوة التى بين أوس أخيه وعثمان قرابة قريبة ، فهو يتعصب لها ، ويغضب فى سبيلها ؟ إذ آخى النبى إثر الهجرة بين أوس بن ثابت وعثمان ، وقد يكون لمصرع عثمان وإحراق داره ، ودفنه ليلاً أثر كبير فى نفسه ؟ وقد تكون الحوادث أعجلته عن التروى ، والنظر إلى الأحداث

بفكر ثاقب ، لا بعاطفة شاعر ، إنها الفتنة ! لم يسكت حسان بل قال شعراً فيه بكاء وتحريض منه :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطِّع الليل تسبيحاً وقرآنا[1]
لتسمعنَّ قريباً فى ديارهمُ
الله أكبر ياثارات عثمانا

وقد فصل فى الأمر أسلافنا فقالوا فى مثل معاوية اجتهد وأخطأ وله أجر واحد ، وفى علىٍ وأصحابه : اجتهد وأصاب وله أجران . وكان عروة بن الزبير إذا ذكر مقتل عثمان يقول : كان على أتقى لله من أن يعين فى مقتل عثمان ، وكان عثمان أتقى لله من أن يعين فى مقتل على . ورحم الله الجميع ، فقد كانوا مصابيح الظلام .

وقد وضعت أمامك نصوصاً من شعره على اختلاف عهوده ، منها ما هو جاهلى . ومنها ما هو إسلامى فى عهد الرسول وعهد خلفائه ، وإنك لتراها من معدن واحد ، وإن اختلف المدلول ، ففى الجاهلية اتجاه يخالفه الاتجاه الإسلامى ، فأكثر ما يقال فى مدح ملك أوعظيم فى الجاهلية أنه كريم أو شجاع ، أوعظيم النسب ، وأين هذا من حديث التقوى وتوحيد الله والجهاد فى سبيله والثواب المدخر للمؤمنين الصادقين الذين الله فى ظعنهم وإقامتهم ، فى حربهم وسلمهم ، وأين الغسانية من محمد ﷺ وأصحابه ، وصار للوفاء معنى غير ما كان عليه قبل ، فهو وفاء يصاحبه خشية المعرة فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ؟ على أن النقاد فى العصر العباسى رأوا أن شعر حسان فى الجاهلية أقوى منه فى الإسلام وعللوا ذلك بأن الشعر لا يقوى إلا فى باب الشر الذى يحظره الإسلام ، وفاتهم أن الإسلام إن حظر الباطل والسفه فقد ترك الباب مفتوحاً لكثير من فنون القول ، فليست الحياة وقفاً على الخمر والعربدة والاستهتار بالنساء والفخر بالآباء ، فهناك المثل العليا ، والمبادئ السامية وحديث البطولة والوقائع الحربية وفتوح البلدان ونشر الإسلام والاستشهاد فى سبيل الله والأريحية ساعة العسرة ، وتفنيد مقال الخصوم الكاذب : وبيان حقيقة الإسلام وعدالته ويسر أحكامه ، وقد وجد حسان من كل ذلك مجال القول نسيماً ، فصال وجال وأتى بالعجب العجاب ، وما جاءت به قريحته مما وصل إلينا لا يقاس به ما قاله فى جاهليته ، ولقد اعتز حسان بثلاث قصائد : أولاها فى الجاهلية مدح بها الغساسنة ، وقد ذكرت بعضها عند حديثى عن لقائه الشاعرين : النابغة وعلقمة فى

---

(١) قراءة .

يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينيبون إلى مجلس جبلة بن الأيهم الغسانى ، ونال عليها الجوائز السنية . أما الأخريان ، فواحدة فى الرد على ابن الزبعرى ، وواحدة فى فتح مكة ، والقصيدة التى رد فيها على ابن الزبعرى وذكر فيها عدة حملة لواء قريش فى غزوة أحد أعجب بها ناظمها ؛ فقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية أن حسان نظمها ليلاً فدعا قومه فقال لهم : خشيت أن يدركنى أجلى قبل أن أصبح فلا ترووها عنى . ومعنى هذا أنه كان حريصاً عليها وعلى روايتها ، وقد نهج فيها منهج القصيدة العربية ذات الأغراض المتنوعة ، ولكن حالته النفسية ربطت بين معانيها فكأنها فى غرض واحد ، بدأها بالتشبيب فقال :

منع النوم بالعشاء الهمومُ
وخيال إذا تغور النجومُ
من حبيب أضاف[1] قلبك منه
سقم فهو داخل مكتوم
يا لقومى هل يقتل المرءَ مثلى
واهنُ البطش والعظام سئوم
لو يدب الحولى من ولد الذ
ر عليها لأندبتها[2] الكلوم

وفخر فقال :

إن خالى خطيب جابية[3] الجو[4]
لان عند النعمان حين يقوم
وأبى وواقدٌ أطلقا لى
يوم راحا وكبلهم مخطوم[5]
وَسَطَتْ نسبتى الذوائب منهم
كل دار بها أب لى عظيم
وأبى فى (سميحة)[6] القائل الفا
صل يوم التقت عليه الخصوم

وهجا شاعر قريش فقال :

تلك أفعالنا وفعل الزبعرى
خامل فى صديقه مذموم
لا تسبِّنى فلست بِسبِّى
أن سى من الرجال الكريم

وقال عن عدة أصحاب اللواء :

وَلِيَ البأس منكم إذ رحلتم
أسرة من بنى قصى صميم
تسعة تحمل اللواء وطارت
فى رعاع من القنا مخزوم
وأقاموا حتى أبيحوا جميعاً
فى مقام ، وكلهم مذموم

ومن الحكمة قوله فيها :

رب حلم أضاعه عدمُ الما
ل وجهل غَطَّى عليه النعيمُ

وهى قصيدة فيها منهج القصيدة العربية

(١) زار .
(٢) أثرت فيها .
(٣) الحوض .
(٤) موضع بسورية حوله نزاع الآن .
(٥) مكسور .
(٦) بئر .

الموروثة من التشبيب والفخر والهجاء ووصف المعركة والحكمة ومعانيها واضحة ، ولم يستخدم فيها الخيال المهوم ، ولكن روعتها فى صدقها ، وعفته عن القذف فى الهجاء ، فكفاه أن ابن الزبعرى خامل ليس له من المكارم نصيب ، ثم هو ليس كفؤا له ، فيبادله السباب « إن سبى من الرجال الكريم » وخصمه ليس هناك . ولم يصف حملة اللواء من بنى عبد الدار بالجبن ، بل قال عنهم إنهم أقاموا حتى أبيحوا جميعاً ، وذمهم لأنهم لم يهتدوا والنور أمامهم ، إنما وصف قريشاً بالهرب فلم يكونوا بجانب حملة اللواء . قال :

وقريش تفر منا لواذًا
أن يقيموا وخف منها الحلوم
لم تطق حملَه العواتقُ منهم
إنما يحمل اللواءَ النجومُ

والشطر الأخير فى نهاية الجمال فيه مدح وإنصاف لحملة اللواء وسخر واستهزاء بقريش فى صورة فنية رائعة تصلح أن تكون حكمة . أما قصيدته فى فتح مكة فقد سبق التنويه بها ، وفيها منهج القصيدة العربية من غزل وبكاء الديار وحديث عن الخمر والحياة الناعمة ثم وصف الجيش الزاحف ، ورد على أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وتراه يقتبس من آيات الذكر الحكيم مما يدل على تشربه للروح الإسلامى . مثل حديثه عن رسول الله وعدوه :

أتهجوه ولست له بكفء
فشركما لخيركما الجزاء ؟

ينظر إلى قوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . ومثل وصفه للسيدة عائشة بأنها :

حصان رزان لا تُزَنّ بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فإنه يقتبس بمهارة قد تخفى عن غير المتأمل فكلمة « غَرْثى » أى خميصة البطن من لحوم الناس من قوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » وكلمة « الغوافل » يريد العفيفات الغافلة قلوبهن عن الشر كما قال سبحانه : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات . . » الآية ، وكثير مما قال يشبه هذا ويجىء فى موضعه مطمئنا .

وينفرد حسان عن بقية الشعراء ببراعته فى الحط من الغدر وفاعليه ، وقد ذكرت لك أبياتاً فى غدر هذيل ، وإليك أبياتاً فى غدر الحارث بن عوف المرى ، وقد وقع فيما وقع فيه (عضل والقارة) من طلب الداعية إلى الإسلام ، فقد طلب الحارث إلى الرسول ذلك فأرسل معه أحد الصحابة فغدروا به ، وجاء إلى الرسول معتذراً فتلقاه حسان بقوله :

يا (حار) من يغدر بذمة جاره
منكم فإن محمداً لم يغدر
وأمانةُ المرىِّ حيث لقيته
مثل الزجاجة صدعها لم يجبر
إن تغدروا فالغدر منكم شيمة
والغدر ينبت فى أصول السخبر

فقال الحارث : أنا عائذ بك يا محمد من شره ، اكففه عنى على أن أؤدى لك دية الخفارة فأداها وكانت سبعين ناقة عشراء .

ذلك أن حسان كان من الوفاء بمكان يشار إليه بالبنان ، كان وفيا لدينه ولنبيه ولأصحابه ولقومه ولأبنائه ولصباه .

حكى المبرد فى الكامل قال : حدثنى غير واحد من أصحابنا عن أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى بسنده قال : كانت وليمة فى أخوالنا وهم حى يقال لهم بنو نبيط من الأنصار ، فحضر الناس وجاء حسان بن ثابت وقد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن يقوده ، فلما وضع الطعام وجىء بالثريد ، قال حسان لابنه : يا بنى أطعام يد أم طعام يدين ؟ فقال : بل طعام يد ، فأكل ، ثم جئ بالشواء فقال : أطعام يد أم طعام يدين ؟ فقال : طعام يدين ؟ فأمسك وفى المجلس قينتان تغنيان بشعر حسان :

انظر خليلى بباب جِلِّقَ هل
تؤنس دون البلقاء من أحد ؟

وحسان يبكى يذكر ماكان فيه من صحة البصر والشباب وعبد الرحمن يومئ إليهما أن زيدا ، قال أبو زيد : فلأعجبنى ما أعجبه من أن تبكيا أباه ، ومعنى العبارة يقول : ما الذى أعجبه من أن تبكى أباه حتى تركنى أعجب مثله ؟

وعبد الرحمن ليس قاسياً على أبيه فى ذلك الموقف فهو شاعر كأبيه ويعلم أن البكاء يخفف الأشجان ويعين على الأحزان ، وما بكى حسان إلا لأنه وجد نفسه فى حال ليست كالحال التى كان فيها شابا قادراً على الاضطراب فى الأرض ، وقد ذكره الشعر بأيام جلق والبلقاء والغساسنة فاهتاج ، وما كان له إلا أن يريق الدمع ليهدأ ويستريح ، إنه الوفاء للشباب والصبا والحياة الفارهة . ووفاؤه هو الذى دفعه إلى البكاء الدائم على رسول الله بعد وفاته يقول :

بأبى وأمى من شهدت وفاته
فى يوم الاثنين النبى المهتدى
فظللت بعد وفاته متبلداً
متلدداً ، يا ليتنى لم أولد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم
يا ليتنى صُبِّحْتُ سمَّ الأسود ؟
والله أسمع ما بقيت بهالك
إلا بكيت على النبى محمد

رحمه الله ، فقد كان شاعراً جاهد بلسانه ووفى بجنانه ، ووصل بإيمانه ، وأعلى كلمة الحق ببيانه . وكفاه قوله الذى لم يقله أحد غيره :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمد

حكى عروة بن الزبير قال : كنت جالساً عند عائشة (خالته) فُمُرَّ بجنازة حسان بن ثابت فنلت منه ، فقالت : مهلاً . فقلت : أليس الذى يقول فيك ويقول ؟ قالت : «فكيف بقوله :

فإن أبى ووالده وعرضى
لعرض محمد منكم وقاء

إنى لأرجو أن يدخله الله الجنة بقوله هذا» كان ذلك سنة ٥٤ هـ ، والناس يذكرون أنه عاش ستين سنة فى الجاهلية وستين سنة فى الإسلام ، وهو قول تقريبى والحقيقة أنه عاش ستين فى الجاهلية وأربعاً وخمسين فى الإسلام فيكون قد عاش ١١٤ سنة .

السيد حسن قرون

الزُّهْدُ

ذُكِرَ ٱلزُّهْدُ عِنْدَ ٱلْفضِيلِ فَقَال :
هُوَ حَرْفان فى كِتابِ اللهِ تَعَالى :
«لِكَيْلا تَأْسَوْا على مَافَاتَكُمْ ، وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» .

القرآن والأحرف السبعة

الدكتور رؤوف شلبى

على عادتنا دائماً فى مناقشة الموضوعات المتعلقة بالقرآن والوحى والنبوة وكل ما يتصل بالخبر المعصوم فإننا نعتصم دائماً بالذاتية الإسلامية التى تبدو فى قبول العقل للنصوص الإسلامية مع تدبر دون تفيهق أو تشدق أو تفلسف أو مراء أو جدل .

وقضية : نزول القرآن على سبعة أحرف إذا بحثناها من الناحية الأكاديمية مع الاعتصام بالذاتية الإسلامية نجد لها عدة جوانب نطرحها فى أسئلة ست :

السؤال الأول :

هل نزول القرآن على سبعة أحرف نظرية تناقش فكريًّا ؟

أو هل هى أحداث وقعت بالفعل ؟

السؤال الثانى :

هل وقوع هذه الأحداث يساعد على تحديد المراد من (سبعة أحرف) ؟

السؤال الثالث :

كيف يستعمل الحرف فى الاصطلاح العربى . . . وهل يمكن استعماله اللغوى من أن يساعدنا فى تحديد المراد من معنى (سبعة أحرف) ؟

السؤال الرابع :

ارتباط الأحرف السبعة .

برأفة النبى ﷺ بأمته وعالمية الدعوة الإسلامية ،

السؤال الخامس :

ماهى حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف ؟

السؤال السادس :

آراء العلماء التقليديين فى الحروف السبعة ونخص منهم :

١ – الرازى

٢ – ابن قتيبة

٣ – والقاضى الطيب

٤ – ابن الجوزى .

هل هى أحداث أو نظرية :

قبل أن نخوض غمار الحديث فإننى أحب أن أنبهكم إلى عدة مسائل :

المسألة الأولى :

أن الأحرف السبعة ليست نظرية ثقافية يمكن عرضها على بساط البحث والمناقشة الأكاديمية الجدلية التى يلعب الذكاء والعقل الحصيف فيها دوره ويفعل أفاعيله . .

وإنما هى أحداث واقعية سنبرهن عليها بالأحاديث الصحيحة إن شاء الله .

المسألة الثانية :

ليس المراد من نزول القرآن على سبعة أحرف أن كل كلمة فيه تقرأ على سبعة أحرف قال أبوعبيد ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات بل اللغات السبع متفرقة فيه »[1] .

المسألة الثالثة :

ليس المراد من الأحرف السبعة القراءات . .

قال أبو شامة : ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل »[2] .

المسألة الرابعة :

نزل القرآن أولاً بلغة قريش ثم يسر الله تعالى على الناس أن يقرءوا ما تيسر منه .

نقل أبو شامة عن بعض شيوخه أنه قال : أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ، ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب »[3] .

وإذن فلا مجال للرأى فيما يتعلق بالأحرف السبعة اللهم إلا فى ضوء الهدى النبوى الكريم .

المسألة الخامسة :

لا تناقض بين هذا وبين (ورتل القرآن ترتيلاً ٧٣ : ٤) . .

الأحرف السبعة أحداث واقعية :

١ – روى الإمام البخارى بسنده عن

---

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٢ .

(٢) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٦ .

(٣) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٢ .

ابن شهاب [الزهرى] قال :

حدثنى عروة بن الزبير أن المِسْور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول :

سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ . فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت ، كذبت فإن رسول الله ﷺ ، قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . . فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه[1] .

إن هشام بن حكيم أسلم هو وأبوه يوم الفتح وعمر من الذين أعز الله بهم الإسلام فلما سمع قراءة هشام شك فى صحتها فقاده من تلابيبه إلى رسول الله ﷺ . فحسن قراءتهما معاً .

٢ – وفى تفسير الطبرى : عن أبى طلحة عن أبيه عن جده قال :

قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فغير عليه فقال :

لقد قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير على .

قال : فاختصما عند النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ألم تقرئنى آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ، قال : فوقع فى صدر عمر شىء فعرف النبى ﷺ ذلك فى وجهه قال : فضرب صدره وقال : أبعد شيطانا قالها ثلاثا . . . ثم قال : ياعمر : إن هذا القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة »[2] .

٣ – ويروى ابن حجر فى فتح البارى ما أخرجه عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص : أن رجلاً قرأ آية من القرآن فقال له عمرو : إنما هى كذا وكذا فذكرا ذلك للنبى ﷺ فقال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا فيه » إسناده حسن[3] .

٤ – ووقع مثل هذا الاحتكاك بين

---

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٩٩/٤٠١ راجع تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٣ .

(٢) الطبرى جـ ١ ص ١٣ .

(٣) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠١ .

عبد الله بن مسعود وأُبىّ بن كعب فى قراءة سورة النحل . فاحتكما إلى النبى ﷺ فقال لهما : كلاكما محسن ، قال أبى فقلت ما كلانا أحسن ولا أجمل ؟ قال فضرب فى صدرى وقال : يا أبى : أرسل إلىّ : أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف .

٥ – وأبى بن كعب يسمع رجالاً يقرءون فى الصلاة قراءة ينكرها عليهم فلما انتهت الصلاة دخلوا على رسول الله ﷺ فحسن قراءتها ففى مسلم ، من طريق عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبى بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما فقرءافحسن النبى ﷺ شأنهما قال : فسقط فى نفسى ولا إذ كنت فى الجاهلية فضرب فى صدرى ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله فرقاً فقال : يا أبى أرسل إلىّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثانية : اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف . . الحديث[1] .

ملخص هذه الأحاديث :

١ – أن خلافاً وقع بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم فى قراءة سورة الفرقان .

٢ – أن أُبىّ بن كعب اختلف مع عبد الله بن مسعود فى قراءة سورة النحل .

٣ – أن أبى بن كعب سمع رجالاً يقرءون القرآن على غير الحرف الذى يقرأ هو عليه .

٤ – أن عمر بن الخطاب صحح قراءة رجل فأخبره أنه قرأ ذلك على النبى ﷺ ولم يغير عليه .

٥ – أن عمرو بن العاص كذلك اختلف مع رجل فى قراءة آية .

وكل هذا الاختلاف ليس فيه تغيير للمعانى وكل هذه الأحرف التى قرأ بها رضوان الله عليهم بلهجاتهم أو بلغاتهم أو بأحرف قراءتهم قد أجازها النبى ﷺ وحسنها جميعاً وقال لهم :

«أنزل القرآن على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم»

«ثم نهاهم عن الاختلاف فقال :

فلا تماروا فيه» . . .

ومعنى هذا أن مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ليس بحثاً نظريًّا خاضعاً لمقاييس الذكاء والعبقرية فى البحث

---

(١) مسلم جـ١ ص ٥٦٢ راجع فتح البارى جـ١٠ ص ٣٩٨ .

والدراسة وإنما هو أحداث وقعت وعلى المسلم أن يتبصرها فى جوّ : « أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » أو فى جو الذاتية الإسلامية حتى يسلم البحث من تهوُّك المتفلسفين الذين قيل فيهم ثلاث مرات :

« هلك المتنطعون » .

ثانيــاً :

هل يمكن تحديد الأحرف السبعة من خلال الأحداث التى وقعت ؟

وإذا تتبعنا الأحاديث التى تصور وقوع تعدد فى القراءات واللهجات والتى كان الصحابة يتلقونها عن رسول الله ﷺ وجدنا عدة أنواع من الأحاديث :

النوع الأول : أحاديث تدل على الاختلاف فى القراءة .

النوع الثانى : أحاديث تدل على الاختلاف فى اللغة .

النوع الثالث : أحاديث تدل على الاختلاف فى أوجه المعانى .

النوع الرابع : أحاديث ناهية عن المراء والاختلاف فى القرآن الكريم .

النوع الخامس : أحاديث ميسرة ومرغبة فى قراءة القرآن الكريم .

* * *

نموذج النوع الأول :

أحاديث تدل على الاختلاف فى القراءة

يروى الإمام الطبرى فى تفسيره :

١ – أن أبا جهم الأنصارى أخبره : أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن فقال هذا : تلقيتها من رسول الله ﷺ ، وقال الآخر : تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا رسول الله ﷺ عنها فقال رسول الله ﷺ : «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تماروا فى القرآن ، فإن المراء فيه كفر».(١)

٢ – فيما مضى من قصة اختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم انطلق عمر يقود هشام حتى وصلا إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ اقرأ يا عمر فقرأ القراءة التى اقرأها إياه رسول الله ﷺ فقال له كذلك أنزلت ، ثم قال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه .

٣ – أقرأ النبى ﷺ رجلاً من المسلمين : «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ٤٤ : ٤٣ ، ٤٤» ، فلم يستطع أن ينطق

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٩ .

بكلمة الأثيم فأقرأه «طعام الفاجر» هذه الأحاديث والوقائع نماذج للخلاف فى القراءة فهل المراد من سبعة أحرف : الخلاف فى القراءة ؟

أو هل الخلاف فى القراءة واحد من سبعة أحرف ؟

نموذج النوع الثانى :

أحاديث تدل على الاختلاف فى اللغة

أورد ابن حجر فى فتح البارى : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن - قال : والعجز : سعد بن بكر ، وجشعم بن بكر ، ونصر بن معاوية وثقيف .

٢ - وأخرج أبو عبيد مرة وجها آخر عن ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبيين : كعب قريش ، وكعب خزاعة قيل : وكيف ذاك ؟ قال لأن الدار واحدة[1] . .

قال فى تفسير الطبرى : حدثنى أبو العالية قال : قرأ على رسول الله ﷺ من كل خمس رجل فاختلفوا فى اللغة فرض قراءتهم كلهم فكان بنو تميم أعرب القوم[2] .

٣ - روى الأزهرى عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﷺ نزل القرآن على سبعة أحرف فقال :

ما هى إلا للغات . .

فهل تدل هذه الأحاديث على أن المراد من الحروف السبعة اللغات ؟

أو هل تدل على أن اللغات واحد من الحروف السبعة ؟

نموذج النوع الثالث :

أحاديث تدل عل الاختلاف فى وجوه المعانى

١ - فى تفسير الطبرى : روى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ومحكم ومتشابه ، وأمثال . فأحلوا حلاله وحرموا حرامه « وافعلوا ما أمرتم ، وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله ، وأعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا »[3] .

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٢ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٩ ، ٢٩ .

(٣) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٣٠ .

٢ – ويروى أيضاً : عن أبى قلابة قال : بلغنى أن النبى ﷺ قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف : أمر ، وزجر ، وترغيب ، وترهيب وجدل ، وقصص ، ومثل » .[1]

ويعلق ابن حجر على هذه الرواية وأمثالها بقوله :

ومما يوضح أن قوله زاجر وآمر . . إلخ ليس تفسيراً للأحرف السبعة ما وقع فى مسلم من طريق يونس عن ابن شهاب عقب حديث ابن عباس الأول . . قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك الأحرف السبعة إنما هى فى الأمر الذى يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام[2] .

ونص الحديث فى مسلم :

عن ابن شهاب حدثنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة :

أن ابن عباس حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : أقرأنى جبريل عليه السلام على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده فيزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف » ا.هـ .

قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك السبعة الأحرف إنما هى فى الأمر الذى يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام[3] .

فهل هذه الأحاديث تجعل الاختلاف فى الوجوه تفسيراً للحروف السبعة ؟ أو تجعلها واحدة من الحروف السبعة ؟

قبل أن نجيب نود أن نتأدب أولا بآداب السنة النبوية فيما يتعلق بنماذج النقطة الرابعة والخامسة . .

[البحث موصول]

دكتور رءوف شلبى

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ٣٠ فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٤ .

(٢) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٥ .

(٣) مسلم جـ ١ ص ٥٦١ .

تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٤ .

نظام الحكم في الإسلام

الأستاذ / زاهر عزب الزغبي

أرَاد الله للحاكم أن يكون كفئا صالحا ، عادلا غير ظالم ولا طاغية ولا مستبدا ، وأن يعمل لصالح الناس لا لمصلحته الشخصيَّة . . فكانت وسيلة الوصول إلى الحكم – فى الإسلام – إرادة الأمة وحدها . .

والأمة فى اعتبار الإسلام هى سائر أفراد المسلمين الذين يعيشون فى أرض منيعة عزيزة غير خاضعة لغير السيادة الإسلامية .

وهؤلاء الأفراد المسلمون جميعا لهم حق اختيار واحد منهم ليحكمهم . . وهم يستطيعون – دون ريب – أن يتعرَّفوا على الأنسب والأصلح والأجدر ، فَيُسْلِمُون له زمام الأمر فيهم ، ويدينون له بالطاعة . .

وفى اختيار الحاكم قرر الإسلام مبدأ الشورى . . والشورى – كما يقررها الإسلام – ليست مجرد اقتراع أو تصويت كما هو معتاد فى الأنظمة الديمقراطية الحديثة . بل هى أشمل من هذا وأعمق . . فهى تشاور وتداول الرأى بين جماعة المسلمين ، ومن شأن هذا التشاور أن ينتهى إلى اتفاق فى الرأى وإجماع عليه . . فلا يبقى هناك مُمَارٍ فيه أو مخالفٌ له أو راغب عنه أو غير راض به ، وهذا دون شك أوفق وأجدى من الانتخابات الديمقراطية التى تجعل رأى الأغلبية ملزما للكل ، وقد يكون إحراز الأغلبية بعدد ضئيل من الأصوات . . مما يجعل جزءا كبيرا من الأمة – يقارب نصفها – محكوما بغير إرادته . .

والنظم الانتخابية تضيِّق حدود الاختيار وتحصره فى نطاق من رشَّحوا أنفسهم أو رشحتهم هيئة مسئولة . . وكثيراً مَّاهم هؤلاء الناخبون الذين يذهبون إلى صناديق الاقتراع وهم على ثقة من أن كافَّة المرشحين الذين سيصوِّتون لواحد منهم غير أكفاء وغير صالحين ، ولا يتمتعون بالصلاحيَّات المطلوبة .

أما الشورى فإنها مُدَارسةٌ يرشِّح خلالها من شاء أيًّا مِمَّن يشاء ، ويعرِّف غيره من المتشاورين بمرشحه ، ويبين أفضاله وما

يتمتع به من كفاءات وصلاحيات . . ثم تتبلور العملية فى النهاية إلى اتفاق فى الرأى وإجماع من المتشاورين على شخصية محددة تحوز رضا الجميع واختيارهم . .

وبهذا فإن نظام الشورى يضمن للرياسة أن يتولاها خير الرجال وأقربهم إلى قلوب الأمة ، وأحبهم لدى أفرادها ، وأشدهم اكتسابا للثقة ، وأكثرهم احتراما . .

وقد توفى النبى ﷺ واختلف المسلمون على من يتولى الرياسة بعده . وقام عمر بن الخطاب فرشَّح أبا بكر ، وخطب فى الناس مبيِّناً مزاياه مشيداً بأفضاله ، وكان أبو بكر معروفا من الجميع . . فسرعان ما استقر الرأى علىَ اختياره رئيسا وخليفة وحاكما يدين له الكل بالطاعة والإذعان . . فى حين أن أبا بكر لم يكن طامعا فى هذه الخلافة ، ولم يسع إليها أو يطلبها .

والخلافة فى الإسلام تكليف وواجب . . فهى مسئولية ، وهى عمل من أجل الجميع ولصالح الأمة . . وليست وسيلة للتمتع بأبَّهة السلطة وجاه الرياسة . . ولهذا كان من غير الممكن أن يتخلَّى عنها من اختير لها إذا لم يكن هناك من يستطيع أن يسوس الدولة ، وينهض بأعباء تنظيم أمورها سواه . . وليس من حقه أيضا أن يتنحى عن المسئوليات التى وضعتها الأمة على عاتقه إذا لم يجتمع رأى الأمة من جديد على شخص غيره ، أو إذا تعذر ذلك لسبب من الأسباب . . .

والشورى الإسلامية – حين ضمنت للرياسة أن يتولاها خير رجل – تَحُول دون أن يتحوَّل الرئيس إلى طاغية . . . لأنها تقوم على حق الجماهير– لا فى انتخاب الحاكم فحسب– بل وفى محاسبته أيضا . . . لأن المجتمع الإسلامى لم يتكون جزافا ، وإنما تكون والتف حول ميثاق الله . . وجميع أفراد هذا المجتمع – سواء فى ذلك الحاكم والرعايا – ملزمون باتباع هذا الميثاق الممثل بشريعة الله وأحكام دينه . .

وقد أخذ الله من الناس ميثاقهم بأن ينصرهم ، وبأن يضمن لهم الصلاح فى دنياهم وأخراهم ماداموا على كتاب الله وسنة رسوله . .

وهذا الميثاق يحدد خطة السير ونهج العمل لكل من الحاكم والرعايا . . وهو يضبط أمور الأمة ويحدد أهدافها . . وإذا كان الهدف الأساسى هو إسعاد الكل وصلاح حال الجميع فإن هذا يوضِّح مهمة الحاكم ، وقد بيَّن له الميثاق كيف يعمل وكيف يتصرف وكيف يسير . كما تتضح به أيضا مهمة كل فرد فى الأمة ، وتتبيَّن به كيفية العمل والسلوك الشخصى لكل مسلم . .

والعلاقة هنا بين الحاكم والرعايا عبارة عن مسئولية متبادلة . . فعلى الحاكم أن يُنظِّم ويُصْلِح ويعدِّل ويسوس وفق ميثاق الله . . وعلى المحكوم أن يطيع وأن يكيِّف حياته وسلوكه وفق هذا الميثاق . . فإن تمرَّد أو انحرف كان من مسئولية الحاكم أن ينفِّذ فيه حَدَّ الله وعدالته . . وإن تهاون الحاكم فى أىٍّ من مسئولياته كان على الرعايا أن يحاسبوه ، وأن لا يسمحوا بالتمادى فى الخطأ على أى وجه من الوجوه .

وعلى هذا يمكن اعتبار الحاكم فى الإسلام « وكيلا ذا سيادة »

وبمقتضى هذه الوكالة فإن الحاكم يقع تحت عبء من الالتزام . . وأبرز جانب من هذا العبء هو مسئولية الحاكم أمام سائر المسلمين . . وهى مسئولية قد تؤدى إلى العزل بسبب عمل لا يتفق مع مضمون الوكالة . ومضمون الوكالة هذا لا يخرج عن كونه المسعى الحسن والإخلاص فى العمل بما جاء فى ميثاق الله . . ومسئولية الحاكم أمام سائر المسلمين لم تَتَوجَّب حقاً عليه لهم لأنهم هم الذين اختاروه وولَّوه . . . بل وجبت عليه لأنه فى الأصل واحدٌ منهم ، وقد التزم منذ البداية بالميثاق والعمل بمقتضاه . . وليس فى تنصيبهم له إلا تحديداً لمسئولياته وواجباته حيالهم . . لأنه حينئذ قد اختص دونهم بصفة الحاكم . . .

وللحاكم فى الميثاق مسئوليات خاصة عليه وحده أن ينهض بأعبائها . .

وكما قامت الشورى بمهمة اختيار الحاكم فإنها تقوم أيضا بدورها فى محاسبته وتوجيهه . . ومن واجب الحاكم أن لا يستبد برأيه وأن لا يتخذ قرارا بناء على اجتهاده الخاص ولو فى الأمور الخطيرة على الأقل . . بل عليه أن يتشاور مع الرعايا فى مثل هذه الأمور . . وعلى الأخص فى المسائل التى لم تقل فيها الشريعة رأيها بنص قاطع . . والواجب على كل ذى رأى من المسلمين أن لا يبخل به حتى ولو لم يطلب منه الإدلاء بشىء منه . . .

والإسلام يحتِّم على المسلمين أن يظلوا على يقظة دائمة لمجرى الأمور فى مجتمعهم ، وكيفية جريانها ، وألاَّ يسمحوا بأن يُقادوا كالأنعام عُمْياً بغير وعى . . فإذا لم تكن أمور الحكم تسير وفق ما ينبغى وجب عليهم أن يجابهوا الحاكم بأخطائه ، وأن يوضِّحُوا له الطريق الصواب . . وفى كل هذا يتحتم أن يكون العمل — لا بالجهود الفردية وحدها — بل يجب أن يكون عملا جماعيا ، وأن توحِّده وتنظِّمه الشورى إلا فى الهنات اليسيرة التى لا تستدعى سوى النصيحة . . وهذه يكفى فيها أن تتم على نطاق فردى . . وقد ترك الإسلام للجماعة تحديد التزامات الحاكم واختصاصاته التى يمكن أن يتصرف

برأيه منفردا فى نطاقها ، والمسائل التى يتعين عليه فيها الرجوع إلى الأمة قبل أن يصدر بشأنها قراراً نهائياً .

والخلفاء الراشدون أنفسهم كانوا يبدأون مهمتهم بأن ينبِّهوا الناس إلى ضرورة النصيحة وتقويم الخطأ . . وكانوا يقتدون بالنبى ﷺ فى استشارته من يرجو عنده الصواب والرأى السديد . . وكانت الأمور آنذاك تتم دائما فى نطاق من الشورى الصحيحة والمدارسة الحقة . .

والإسلام إذْ أوجب الشورى لم يحدِّد لها صورة معينة . . بل ترك المسألة للمسلمين يقررون فيها ما تقتضيه ظروفهم التى تختلف باختلاف الأزمان والأمكنة . .

ومن الجائز – طبقا لهذا – أن تتم الشورى على الشكل البرلمانى فى النظم الديموقراطية الحديثة ، سواء أكان ذلك البرلمان من مجلس واحد أو من مجالس متعددة . . ومن الممكن أيضا أن تتم على نطاق اتحاد يمثل القاعدة الشعبية كلها . . أو على نطاق اتحادات يمثل كل منها قطاعا خاصا من المجتمع . . أو على مستوى عدد من المجالس الاستشارية ذات المسئوليات والخبرات الكافية .

ولكن المهم أن تجرى الشورى فى جو تتوفر فيه الحريات والخبرات التى يمكن أن تسفر عن رأى صحيح حر غير مغرض أو متحيز أو منتزع بالإكراه والعنت . .

وقد جاءت الشورى الصحيحة فى الإسلام على أشكال متعددة . . فالنبى عليه السلام كان يتشاور مع من يحضر مجالسه من الصحابة رضوان الله عليهم ، وكانت مجالسه هذه ندوات عامّة يحضرها كل من استطاع من المسلمين . . وكان سكان يثرب (المدينة المنورة) يحافظون على ارتيادها فى سائر أوقاتها . .

واختيار أَبى بكر للخلافة كان نتيجة لانعقاد الشورى فى محفل عام تحت سقيفة مفتوحة تَجَمَّعَ تحتها من أتيح له الحضور من الأنصار والمهاجرين ، فتمت على صورة مؤتمر شعبى عام . .

أمَّا اختيار عمر للخلافة فجاء على صورة إجماع عام بالموافقة على رأى أبى بكر حين عهد بها إليه . . ولو كان فى الأمة الإسلامية آنذاك فرد واحد لا يوافق على تولى عمرُ الخلافة لما عَدِمَ الوسيلة للتعبير عن رأيه بوسيلة أو بأخرى . .

وعثمان بن عفان ، وعلىٌّ بن أبى طالب ، فقد جاء اختيارهما نتيجة لانعقاد الرأى فى مجلس شكَّله عمر بن الخطاب من عدد كاف من كبار أجلاء الصحابة الذين اشتهروا بالحصافة والعدالة فى الرأى والشجاعة على الجهر به . . وقد جعل عمر ابنَه عبدَ الله عضوا فى هذا المجلس لِمَا يعرفه

فيه من سداد الرأى والمقدرة على إبدائه بشجاعة ، ولكن عمر حرم ابنه من حق انتخابه للمنصب ، حتى ينفى عن نفسه أيَّة شبهة فى أن يكون له فى تكوين مثل هذا المجلس أى مطمع شخصىّ ، أو فى أنه يعمل على أن يصل ابنه إلى مقاليد السلطة .

وقد امتاز الإسلام بأنه دين استطاع أن يوحِّد بين الناس من جميع الأجناس والأمم ، وأن يوجِّههم جميعا وجهة واحدة ، بل وأن يَحْمِلَهم على نهج واحد وغاية واحدة . . وما استطاع الدين الإسلامى أن يفعل ذلك إلاَّ لأنَّه عقيدة ونظام . .

وإذا كان الإسلام فى حقيقته عقيدة ونظاما ، فإنَّ مقتضى طبيعته أن يكون حُكْماً . . وإذا كان قيام النظام الإسلامى يقتضى قيام حُكْم إسلامى فمعنى ذلك أن الحكم الإسلامى من مقتضيات الإسلام أو قل إنه طبيعة الإسلام .

والإسلام ليس دينا فحسب ، وإنما هو دين ودولة ، لأنه قد أنشأ أمة ، ووحَّدها وكتَّلها وأظلها برايته ومنعها وأعزَّها ، وجعلها أمة ذات سيادة . .

والدولة الإسلامية كانت كيانا قائما معترفا به منذ البداية . . وقد زاول النبى ﷺ حقوقا لا تكون إلاَّ لحاكم دولة ذات سيادة ، فقد عقد المعاهدات وجيَّش الجيوش ، ووجَّه البعثات الدبلوماسية إلى ملوك الدول الأخرى ، بل خطط حدود دولته وحافظ عليها من أن تنتهك أو يُعْتَدى عليها . . وقد كانت غزوة تبوك تحرُّكاً عسكريا مهمته أن يحمى حدود الدولة الإسلامية من الحشود الرومانية التى تجمعت لغزو الأراضى الإسلامية والاعتداء على سيادتها . .

وقد أبنَّا كيف كان لهذه الدولة حاكم ، كما أوضحنا طريقة الإسلام فى اختيار هذا الحاكم . .

فالإسلام عقيدة ودين
والإسلام شعب وأمة
والإسلام وطن ودولة
والإسلام أيضا نظام وحكم . .

ومن المسلم به أن أكثر ما جاء به الإسلام لا يدخل تنفيذه فى اختصاص الأفراد . . وإنما هو من اختصاص الحكومات . . وهذا وحده يقطع بأن الحكم من طبيعة الإسلام ومقتضياته . . فالإسلام قد حرّم الكثير من الأفعال واعتبر إتيانها جريمة يعاقب عليها ، وفرض لهذه الجرائم عقوبات ، ومن هذه الجرائم القتل العمد وعقوبته القصاص ، والسرقة وعقوبتها قطع اليد ، والقذف وعقوبته الجلد . .

ومما لا شك فيه أن الإسلام لم يأت

بهذه التشريعات عبثا . . وإنما قصد بها أن تُنفَّذ وأن تقام . . وإذا كان هذا هو قصد الإسلام فمن الواضح أنه يوجب على المسلمين أن يقيموا حكومة تسهر على إقامة هذه التشريعات وتلتزم بتنفيذها . .

والإسلام حين أوجب على المسلمين أن يؤمِّروا عليهم رئيسا أو خليفة . . فقد أناط بهذا الرئيس كل مسئوليات الحكم وواجباته . . وألزم هذا الرئيس بأن يحقِّق المساواة بين المسلمين ، وأن يقيم العدالة فيهم ، وأن يحمى حدود الله ، فيعاقب على كل جريمة منعها الله ، وأن يلزم كل فرد من المسلمين بأداء كل واجب فرضه الله . .

وإذا كان هذا هو مسئولية الرئيس فمن واجبه أن يقيم جهازا كاملا للحكم يستطيع به أن ينهض بكل هذه التبعات . . ولم ينكر أحد من المسلمين على الخلفاء حقهم فى تعيين الولاة (حكام المقاطعات) والقضاة والشرطة والجباة ، والكتبة والجند وقوادهم ، وكل ما تقتضيه ضرورة الحكم من وظائف وموظفين بما فى ذلك الوزراء . .

ولقد كان للإسلام دائما جهاز قوى للحكم . . ويريد الإسلام أيضا لهذا الجهاز أن يكون دائما حكومة مثاليَّة . . والحكومة المثالية – كما يريدها الإسلام – هى التى تقيم أمور الدنيا بأمر الدين . . فتأخذ مواطنيها بما أمر الله ، وتمنعهم عما نهى الله . .

وإذا كان الإسلام قد أوجب على الحكومة الإسلامية أن تقيم فى الأمة الإسلامية أمر الله فإنه ينكر أن يقوم بوظيفة الحكم غير مسلم . .

ومن أهم واجبات الحاكم أن يعرف طبيعة عمله ، وتفاصيل مهمته ، فوجب عليه أن يكون على إدراك كاف بأحكام الدين . .

وفى غير الرئيس الأعلى يكفى للمسئول الحكومى الذى يشغل منصبا له مهمة محدَّدة أن يكون فقط على علم بأحكام الدين فى مجال وظيفته واختصاصها .

وإذا كانت الحكومات تقوم على طاعة المحكومين فقد أوجب الإسلام أن يطيع المسلمون أولى الأمر فيهم والقائمين على شئونهم من الحكام . . لكن الإسلام أيضا قد أوجب على المحكومين أن يتحلَّلوا من هذه الطاعة إذا ما خرج الحاكمون على طاعة الله . . فى ذلك يقول الرسول ﷺ :

« لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وبذلك فقد ربط الإسلام طاعة المحكومين للحاكمين بطاعة الحاكمين لأمر الله . .

فالحكومة الإسلامية يجب أن تقوم على أمر الله . . وليس لها بأى حال أن تنحرف عنه ، وإلا فقدت حقها فى الطاعة وبالتالى حقها فى الحكم . .

والحكومة الإسلامية من حيث إنها حكومة يختار رئيسها الأعلى بواسطة المواطنين وبطريق الشورى تماثل الجمهوريات الديمقراطية من بين نظم الحكم المعاصرة مع الفارق البسيط فى أمرين اثنين :

أما الأول : فهو أنَّ الرئيس فى الدولة الإسلامية يختار مدى الحياة ، ولا يسقط أو يعزل مادام قائما بالعمل على تنفيذ أحكام الدين . . ومما هو جدير بالتنبيه هنا أن هذه المسألة قد روعى فيها المصلحة العامة واستقرار أمور الحكم وسياسة الدولة . . ولكن إذا اقتضى الأمر غير ذلك فليس هناك ما يمنع أبدا من أن يكون اختيار الخليفة لأجل موقوت أو لمدة محدَّدة . كما هو معمول به الآن فى كثير من نظم الحكم المعاصرة .

والفارق الثانى يتعلق بالدستور ، فالدستور فى الجمهوريات الديمقراطية الحديثة يكون من عمل الناس . . أما الدستور فى الحكومة الإسلامية فهو تنزيل من الله لا يقبل فى قواعده المنصوص عليها تغييرا أو تبديلا . . وذلك بعكس الدساتير الحديثة التى تغير فيها الشعوب والحكومات حسب ما تقتضيه المصلحة وظروف الحياة وأحوالها المتغيرة . . وكثيرا ما تلعب الأهواء والأغراض الخاصة دورها فى العبث بهذه القوانين والدساتير باسم الديمقراطية فتسوء حال المجتمعات والشعوب . .

وعلى هذا فتبرز ثلاث صفات رئيسية للحكومة الإسلامية : أولاها أنها حكومة دستورها القرآن ، وثانيتها أنها حكومة شورى ، وثالثتها أنها حكومة خلافة أو إمامة . .

وبهذا تكون الحكومة الإسلامية فريدة فى نوعها ، وليست على نسق أى من الأنظمة الحكومية المعاصرة . .

فهى بعيدة كل البعد عن أن تكون حكومة ديكتاتورية لأن الحاكم فيها مختار بالشورى وتقيمه الأمة التى لها حق محاسبة هذا الحاكم على سائر تصرفاته ، ومن واجبات الأمة أن تخرج على طاعته إذا خرج عن دستور الله وشريعته اللذين يجب عليه أن يلتزمها وأن لا يستبد برأيه أو يخالفها . .

وهى وإن كانت تشبه كثيرا – بمقتضى نظام الشورى فيها – الأنظمة النيابية . . إلا أن نظام الشورى يخالف كثيرا النظام النيابى سواء فى شكله أو فى أغراضه . . فالنظام النيابى من اختصاصه التشريع . . أما الشورى فإنها تلتزم بشريعة الله وليس من مهمتها أن تغير أو تبدل فى أصول هذه الشريعة المنصوص عليها فى القرآن وسنة الرسول . . والالتزام بشريعة الله يحصر المهمة فى التطبيق .

وليست حكومة ثيوقراطية . . لأن الحكومات الثيوقراطية تقوم على مبدأ السيادة الكهنوتية التى تستمد سلطانها من الله . . وهى بهذا تفرض نفسها على الرعايا . . أما الحكومة الإسلامية فإنها تستمد سلطتها من الشعب . . وإلتزامها لأحكام الدين لا يؤثر فى حق الشعب فى إختيارها وإقامتها وإسقاطها . . وهى فوق ذلك تباشر سلطات مدنية بحتة لأن الله قد شرع للناس – ضمن ما شرع – نظمهم المدنية . .

وهى تشبه النظام الديمقراطى ولكنها ليست منه . . فهى وإن كانت توجب اختيار الحكام بواسطة الشعب وتوجب قيام العدل والمساواة المطلقة وتوجب إطلاق الحريات بسائر أنواعها . . إلا أنها تختلف عن النظام الديمقراطى فى أن الشريعة الاسلامية تقيد كلا من الحاكمين والمحكومين بقيود هى مجمل أحكام الدين وتشريعاته ، وفى أن الإسلام لم يترك مقاييس العدالة والمساواة وغير ذلك من الفضائل الإنسانية فى يد البشر يرسمون حدودها فيوسعونها تارة ويضيقون فيها تارة أخرى طبقا لأهوائهم . . وإنما رسم الإسلام حدود الفضائل الإنسانية ، ووضع مقاييسها وأوجب أن يخضع البشر لهذه المقاييس الإلهية ، وبذلك حمى الإسلام الحياة العامة من الفساد ومن تلاعب الأهواء . . وبذلك أيضا خلا النظام الإسلامى من العيوب التى تؤخذ على النظم الديمقراطية .

وهى تشبه النظام الجمهورى من حيث طريقة اختيار الرئيس الأعلى للجمهورية . . ولكنها تختلف عنه من حيث إنها تسمح بانتخاب الرئيس مدى الحياة . . وتختلف عنه أيضا بما سبق بيانه فى أوجه الخلاف بين الحكومة الإسلامية والنظم الديمقراطية والنيابية . .

وقد جاء الإسلام بنظام حكمه الخاص لأنه قد حوى جميع المزايا التى فى كل نظام من أنظمة الحكم المعروفة وتحاشى جميع ما فيها من مساوئ وعيوب . .

ولا تتضح مثالية نظام الحكم الإسلامى ولا قوته ولا إيجابيته ولا فعاليته الممتازة إلا إذا أدركنا أنه يقوم على دستور سليم وشريعة صالحة . . وصلاح النظام الإسلامى إنما تحقق لأنه انبنى على مبادئ قيمة أكدت التجربة حكمة الله فيها ، وأثبتت أنها خالية من العيوب تماما . .

وإذا استعرضنا كافة المبادئ والمثل التى يتبناها دعاة الإصلاح الاجتماعى والسياسى فى كل عصر نجدها بعضا مما قرره الإسلام بصورة أوسع وأدق .

فالعدالة والحرية والمساواة وسائر الحقوق الإنسانية ليست فى الإسلام مجرد شعارات

وإنما هى كلها واقع حقيقى طبَّقة الإسلام ونفَّذه على جميع الأفراد بلا تمييز ولا تفرقة ، ولم يُحِدّ منها أو يقيدها إلا بقدر ما يستفيد منه المجموع . . وفى هذا أيضا مصلحة تعود على الفرد نفسه . .

ومن قبيل التجنى أن يوجه أى نقد لنظام الحكم فى الإسلام . . لأنه خير النظم وأكثرها انطباقا على الطبيعة ، فهو يأتى إلى الحكم بأرشد الناس ، وهو قد وضع كافة الضمانات التى تجعل عملية الحكم لصالح الرعايا لا لمصلحة الحاكمين . .

والحاكم فى الإسلام يخدم ولا يتحكَّم ، ويسهر على المصلحة دون أن يستبد أو يستفيد . . فراتبه قدر الكفاية من بيت المال من غير إسراف أو ترف . وقد ضرب عمر بن الخطاب للخلفاء المثل فى الاكتفاء بالقدر الضرورى لنفقة الخليفة وأهله حين اشتهت زَوْجُه الحلوى فطلبتها منه ، واعتذر لها الخليفة بضيق ذات يده . . وفوجئ الخليفة بعد أيام بزوجته تعطيه قدرا من المال ليشترى لها طِلْبَتَها . فسألها عن مصدر هذا المال ، وأخبرته بأنها اقتصدته على مدار هذه الأيام . . كل يوم كذا حتى اكتمل لها هذا المبلغ . . وكان عدة دراهم . . فأخذه منها عمر ورده إلى بيت المال ورفض أن يشترى الحلوى لأنها إسراف لا مبرر له ، وزاد على ذلك بأن أنقص من راتبه بمقدار ما استطاعت زوجته أن توفره ، فقد وضح له أنه فائض عن الحاجة وزيادة عن القدر الضرورى لنفقة أسرته . .

والإسلام يحرِّم على الحاكم أن يستغل نفوذه أو سلطته للإثراء أو تحقيق أية منفعة شخصية ، حتى ولو كان ذلك فى صورة العمل المشروع . . ولهذا حاسب الخليفة عمر بن الخطاب أحد الولاة على ما جمعه من ثروة خلال مدة ولايته . . فقال له الوالى : « لقد تاجرتُ فربحت » فاستنكر عليه ذلك عمر قائلا :

« وهل أرسلناك للتجارة ؟ ! » . .

وبهذا كان الإسلام أول من قرر مبدأ « من أين لك هذا » فى محاسبة الحكام وموظفى الدولة . .

والإسلام يحرِّم على الحاكم أخذ الرشوة كما يحزم عليه قبول الهدية ممن لم يبح العرف له أن يتبادل معهم الهدايا . . أو إذا كان فى الإهداء أية شبهة للرشوة ولو كانت من أقرب الناس إليه . .

والإسلام يحرم على الحاكم أن يمالئ معتديا أو ينصر ظالما مهما كانت قوة هذا الظالم وذلك المعتدى أو منزلتهما عنده . .

والإسلام يحرم على الحاكم أن يهمل أية شكوى لأى مظلوم أو يتهاون فى أى حق . . وفى سبيل ذلك يتعين على الحاكم أن يرتب

ديوانا خاصا للنظر فى كل شكوى وكل مظلمة بحيث تتيسر وسائل الشكوى والتظلم لكل مسلم . .

والإسلام يحرم على الحاكم التعرض لأى حق من حقوق المسلم إلا بحق . .

والإسلام يحرم على الحاكم التهاون فى أية مصلحة خاصة أو عامة للمسلمين . . فالشئون الخاصة بالتكافل الاجتماعى – ومسئولية الدولة فيها – يجب على الحاكم أن ينهض بها كاملة غير منقوصة . . وكذلك المرافق العامة كالطرق ومسالك الرى وأجهزة الأمن كالشرطة وما إلى ذلك يجب على الحاكم أن يضمن لها الصلاحية والكفاية لتتحقق المصلحة فيها بصورة كاملة . .

والإسلام يحرِّم على الحاكم أن لا يغفل عن القوة الدفاعية للدولة . . حتى لا تبقى الدولة ولو للحظة واحدة عاجزة عن رد أى اعتداء خارجى .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »

زاهر عزب الزغبى

من صفات الخليفة

لا يُقَوِّمُ أَمْرَ النَّاسِ إلاَّ حَصِيفُ العُقْدَةِ ، بَعِيدُ الغُرَّةِ ، لاَ يَطَّلِعُ مِنْهُ النَّاسُ عَلَى عَوْرَةٍ ، وَلاَ يَحْنَقُ فىِ الْحَقِّ عَلَى جَرَّةٍ ، وَلاَ تَأْخُذُهُ فى اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ . .

عمر بن الخطاب

حقيقة الإيمان

الأستاذ / موسى محمد على

يقول الله تعالى :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً ٤ : ٦٥ » .

ثبت بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع الأمة أن الله تعالى قد فرض على العباد طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه فى كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسوله ﷺ : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ٣ : ٣١ » .

حتى كان صدّيق الأمة وأفضلها بعد نبيها ﷺ ، ورضى الله عنه يقول : « أطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم » .

واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوماً فى كل ما أمر به ونهى عنه إلاّ رسول الله ﷺ ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة : «كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ » . .

وهؤلاء الأئمة الأربعة قد نهوا الناس عن تقليدهم فى كل ما يقولونه ، وذلك هو الواجب .

وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه: هذا رأيى ، وهذا أحسن ما رأيت ، فمن جاء برأى خير منه قبلناه .

ولهذا : فلما اجتمع أفضل أصحابه « أبو يوسف » بإمام دار الهجرة « مالك بن أنس رضى الله عنه » ، وسأله عن مسألة الصاع ، وصدقة الخضراوات ، ومسألة الأحباس ، فأخبره مالك رضى الله عنه بما دلت عليه السنة فى ذلك فقال :

رجعت لقولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبى ما رأيت لرجع كما رجعت .

والله سبحانه وتعالى علق سعادة الدارين بمتابعته ﷺ ، وجعل شقاوة الدارين فى مخالفته ، فلأتباعه صلوات الله وسلامه عليه : الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش فى الدنيا والآخرة . . ولمخالفيه

ﷺ : الذلة والصغار ، والخوف والضلال والخذلان والشقاء فى الدنيا والآخرة .

وقد أقسم سيدنا رسول الله ﷺ ، بأن لا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

وأقسم الله سبحانه بأنه لا يؤمن من لم يرض بحكمه ﷺ فى كل ما تنازع فيه هو وغيره . . وإنما المؤمن هو من قبل حكومة الرسول ﷺ ولا يجد فى نفسه حرجاً مما حكم به ، ثم يسلم له تسليماً ، وينقاد له انقياداً .

يقول سبحانه : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ٣٣ : ٣٦ » .

فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره تعالى وأمر رسوله ﷺ ، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ ، بل إذا أمر فأمره حتم ، وإنما الخيرة فى قول غيره ، إذا خفى أمره ، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته .

بهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الأتباع ، لا واجب الاتباع ، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه ، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه ، ولو ترك الأخذ بقول غيره ، لم يكن عاصياً لله ورسوله ،

فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه ، ويحرم عليهم مخالفته ، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله :

فلا حكم لأحد معه ، ولا قول لأحد معه ، كما لا تشريع لأحد معه وكل أحد سواه : فإنما يجب اتباعه على قوله ، إذا أمر بها أمر به ، ونهى عما نهى عنه ، فكان مبلغاً محضاً ومخبرا لا منشئا ومؤسساً .

فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد ، بحسب فهمه وتأويله ، لم يجب على الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها ، حتى تعرض على ما جاء به ، فإن طابقته ووافقته ، وشهد لها بالصحة ، قبلت ، وإن خالفته وجب ردها واطراحها ، وإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جعلت موقوفة ، وكان أحسن أحوالها : أن يجوز الحكم والإفتاء بها ، وأما أنه يجب ويتعين فلا .

وظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس ، لأنه يدل على

أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق ، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره . ومثل هذه المبالغة المذكورة فى هذه الآية قلما يوجد فى شىء من التكاليف ، وذلك يوجب تقديم عموم القرآن الكريم والخبر الصحيح على حكم القياس . .

وقوله (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت) مشعر بذلك ، لأنه متى خطر بباله قياس يفضى إلى نقيض مدلول النص ، فهناك يحصل الحرج فى النفس ، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ، ويسلم النص تسليماً كليا ، وهذا الكلام قوى حسن لمن أنصف .

وقوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون »

قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط : أولها قوله تعالى : « حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ، وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمناً ، وأن من يتمسك بهذه الآية فى بيان أنه لاسبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بإرشاد النبى المعصوم ، لأن قوله : « لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ، تصريح بأنه لا يحصل لهم الإيمان إلا بأن يستعينوا بحكم النبى عليه الصلاة والسلام فى كل ما اختلفوا فيه ،

فلزم بحكم هذه الآية أنه لا يحصل الإيمان إلا بحكمه وإرشاده وهدايته ، ذلك أن عقول أكثر الخلق ناقصة وغير وافية بإدراك هذه الحقائق ، وعقل النبى المعصوم كامل مشرق ، فإذا اتصل إشراق نوره بعقول الأمة قويت عقولهم وانقلبت من النقص إلى الكمال ، ومن الضعف إلى القوة ، فقدروا عند ذلك على معرفة هذه الأسرار الإلهية ، والذى يؤكد ذلك أن الذين كانوا فى زمان الرسول ﷺ كانوا جازمين متيقنين كاملى الإيمان والمعرفة ، والذين بعدوا عنه اضطربوا واختلفوا ، وما حدث هذا الاضطراب وهذا الاختلاف إلا بعد زمان الصحابة والتابعين .

وقوله : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت »

قال الزجاج : « لا تضيق صدورهم من أقضيتك » .

والراضى بحكم الرسول ﷺ ، قد يكون راضياً به فى الظاهر دون القلب ، فبين سبحانه فى هذه الآية ، أنه لابد من حصول الرضا به فى القلب ، وأن ميل القلب ونفرته شىء خارج عن وسع البشر ، فليس المراد من الآية ذلك ، بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين فى القلب بأن الذى يحكم به الرسول ﷺ هو الحق والصدق .

وقوله : « ويسلموا تسليماً » .

فمن عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقًّا وصدقاً قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف فى ذلك القبول ، فبين تعالى ، أنه كما لابد فى الإيمان من حصول ذلك اليقين فى القلب فلابد أيضاً من التسليم معه فى الظاهر.

فقوله : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت »

المراد به الانقياد فى الباطن .

« ويسلموا تسليماً » المراد منه : الانقياد فى الظاهر.

عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال :

لو أن قوماً عبدوا الله تعالى ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصاموا رمضان ، وحجوا البيت ثم قالوا لشىء صنعه رسول الله ﷺ ألا صنع خلاف ما صنع ، أو وجدوا فى أنفسهم حرجاً فكانوا مشركين ، ثم تلا هذه الآية :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ٤ : ٦٥ » .

وفى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها دلالة على أن الإيمان الحقيق ، لا يحصل إلا لمن حكّم الله تعالى ، وحكّم رسوله ﷺ على نفسه ، قولاً ، وفعلاً ، وأخذاً ، وتركاً ، وحبًّا وبغضاً ، ويشمل ذلك حكم التكليف وحكم التصريف ، والتسليم والانقياد واجب على كل مؤمن فى كليهما .

فأحكام التكليف : الأوامر والنواهى ، المتعلقة باكتساب العباد .

وأحكام التصريف : هو ما أورده عليك ، من قهر المراد .

فتبين من هذا أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان إلا بأمرين :

بالامتثال لأمره : والاستسلام لقهره .

ثم إنه سبحانه وتعالى ، لم يكتف بنفى الإيمان ، عمن لم يحكم ، أو حكم ووجد الحرج فى نفسه على ما قضى ، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة ، برسوله ﷺ ، رأفة وعناية ، وتخصيصاً ورعاية .

لأنه لم يقل : « فلاوالرب » وإنما قال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ٤ : ٦٥ » .

ففى ذلك : تأكيد بالقسم ، وتأكيد فى المقسم عليه ، علماً منه سبحانه بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ، ووجود النصرة ، سواء كان الحق عليها ، أولها ، وفى ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ ، إذ جعل حكمه حكمه ، وقضاءه قضاءه ، فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه ، والانقياد لأمره ، ولم يقبل منهم الإيمان بإلاهيته ، حتى يذعنوا لأحكام رسوله ،

ﷺ : لأنه كما وصفه ربه :

« وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ٥٣ : ٣ ، ٤ » .

فحكمه : حكم الله ، وقضاؤه قضاء الله ، كما قال :

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ٤٨ : ١٠ » . وأكد ذلك بقوله : « يد الله فوق أيديهم » . وفى الآية إشارة أخرى لعظم قدره ، وتفخيم أمره ، ﷺ ، وهى قوله تعالى :

« فلا وربك »

فأضاف نفسه تعالى إليه ، كما قال فى الآية الأخرى :

« كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا ١٩ : ١ ، ٢ » .

وأضاف الحق سبحانه ، اسمه إلى محمد ﷺ : وأضاف زكريا إليه ليعلم العباد ، فرق ما بين المنزلتين ، وتفاوت ما بين الرتبتين .

ثم إنه تعالى : لم يكتف بالتحكيم الظاهر ، فيكونوا به مؤمنين ، بل اشترط فقدان الحرج - وهو الضيق - من نفوسهم ، فى أحكامه ، ﷺ ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها .

وإنما تضيق النفوس ، لفقدان الأنوار ، ووجود الأغيار ، فعنه يكون الحرج : وهو الضيق ، والمؤمنين ليسوا كذلك .

إذ نور الإيمان ملأ قلوبهم ، فاتسعت وانشرحت ، فكانت واسعة بنور الواسع العليم ، ممدودة بوجود فضله العظيم ، مهيأة لو أرادت أحكامه ، مفوضة إليه فى نقضه وإبرامه .

يقول ابن تيمية :

« إنما جيء بصيغة التحكيم مع أنه ﷺ حاكم بأمر الله إيذاناً بأن اللائق بهم أن يجعلوه عليه الصلاة والسلام حكماً فيما بينهم ويرضوا بحكمه وإن قطع النظر عن كونه حاكماً على الإطلاق » .

ولعل حكم هذه الآية باق إلى يوم القيامة ، وليس مخصوصاً بالذين كانوا فى عصر النبى ﷺ ، فإن قضاء شريعته عليه الصلاة والسلام قضاؤه .

وبعد : فإن الالتجاء إلى الله تعالى ، والتسليم المطلق لما قضى رسوله ﷺ ، وإيثار تحكيمه صلوات الله وسلامه عليه فيما أشكل من أمور ديننا ودنيانا ، هو الإيمان الصادق الذى يذوق معه العبد حلاوة الإيمان ، ويغمر قلبه برد الرضا وسلامة التسليم .

روى مسلم فى صحيحه ، والترمذى فى سننه عن العباس بن عبد المطلب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ذاق طعم الإيمان ، من رضى الله ربًّا ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً » .

يقول صاحب التحرير ، رحمه الله تعالى :

« معنى رضيت بالشيء قنعت به . واكتفيت به ، ولم أطلب معه غيره . فحينئذ يكون معنى الحديث :

لم يطلب غير الله تعالى ، ولم يسع فى غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ .

ولا شك فى أن من كانت هذه صفته ، فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه ، وذاق طعمه « اهـ

وقال القاضى عياض رحمه الله : معنى الحديث :

« صح إيمانه ، واطمأنت به نفسه ، وخامر باطنه ، لأن رضاه بالمذكورات ، دليل على ثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ، ومخالطة الإيمان بشاشة قلبه « اهـ .

وفى هذا الحديث الشريف دليل على أن من لم يكن كذلك ، لا يجد حلاوة الإيمان ، ولا يدرك مذاقه ، وإنما يكون إيمانه صورة لا روح فيها ، وظاهراً لا باطن له ، ومرتسماً لا حقيقة تحته .

وفيه إشارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى ، تنعم بملذات المعانى ، كما تنعم النفوس بملذات الأطعمة .

وإنما ذاق طعم الإيمان ، من رضى بالله ربًّا ، لأنه لما رضى بالله ربًّا : استسلم له ، وانقاد لحكمه ، وألقى قياده إليه خارجاً عن تدبيره واختياره ، إلى حسن تدبير الله واختياره ، فوجد لذاذة العيش وراحة التفويض .

ولما رضى الله رباً ، كان له الرضا من الله ، كما قال الله تعالى :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه ٩٨ : ٨ » .

وإذا كان له الرضا من الله ، أوجده الله حلاوة ذلك ، ليعلم ما منّ به عليه ، وليعلم إحسان الله إليه ،

ولا يكون الرضا بالله إلا مع الفهم ، ولا يكون الفهم إلا مع النور ، ولا يكون النور إلا مع الدنو ، ولا يكون الدنو ، إلا مع العناية ،

فلما سبقت لهذا العبد العناية ، خرجت له العطايا من خزائن المنن ، فلما واصلته أمداد الله وأنواره ، عوفى قلبه من الأمراض والأسقام ، فكان سليم الإدراك ، فأدرك لذاذة الإيمان ، وحلاوته لصحة إدراكه ، ولسلامة ذوقه ،

ولوسقم قلبه بالغفلة عن الله — والعياذ بالله تعالى — لم يدرك ذلك لأن المحموم ، ربما وجد طعم السكر مرًّا ، وليس هو فى نفس الأمر كذلك .

فإذا مازالت أسقام القلوب ، أدركت الأشياء على ما هى عليه ، فتدرك حلاوة الإيمان ولذاذة الطاعة ، ومرارة القطيعة والمخالفة .

فيوجب إدراكها لحلاوة الإيمان، اغتباطها به، وشهود المنة من الله عليها فيه، وتطلب الأسباب الحافظة للإيمان، والجالبة له.

ويوجب إدراك لذاذة الطاعة، المداومة عليها، وشهود المنة من الله فيها.

ويوجب إدراكها لمرارة الكفران والمخالفة، الترك لها، والنفور عنها، وعدم الميل إليها، فيحمل على الترك للذنب، وعدم التطلع إليه، وليس كل متطلع تاركاً، ولا كل تارك غير متطلع.

وإنما كان كذلك: لأن نور البصيرة دال على أن المخالفة لله، والغفلة عنه، سم للقلوب مهلك.

فنفرة قلوب المؤمنين عن مخالفة الله تعالى، كنفرتك عن الطعام المسموم.

وقوله ﷺ: «وبالإسلام دينا».

لأنه إذا رضى بالإسلام ديناً، فقد رضى بما رضى به المولى واختاره، لقوله تعالى:

«ورضيت لكم الإسلام ديناً ٥ : ٣»

ولقوله تعالى:

«إن الدين عند الله الإسلام٣ : ١٩»

ولقوله تعالى:

«ومن يبتغ غير الإسلام ديناً، فلن يقبل منه ٣ : ٨٥».

ولقوله تعالى:

«إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ٢ : ١٣٢».

وإذا رضى بالإسلام ديناً. فمن لازم ذلك:

امتثال الأوامر، والانكفاف عند وجود الزواجر، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والغيرة إذا رأى ملحداً يجادل، أن يدخل فيه ما ليس منه، فيدفعه ببرهانه، ويقمعه بتبيانه.

وقوله ﷺ، «وبمحمد رسولاً».

فلازم من رضى بمحمد رسولاً أن يكون له وليًّا، وأن يتأدب بآدابه، وأن يتخلق بأخلاقه، زاهدا فى الدنيا، وخروجاً عنها، وصفحاً عن الجناية، وعفواً عمن أساء إليه، إلى غير ذلك من تحقق المتابعة. قولاً، وفعلاً، وأخذاً، وتركاً، وحبًّا، وبغضاً، وظاهرا وباطناً.

فمن رضى بالله، استسلم له، ومن رضى بالإسلام: عمل له، ومن رضى بمحمد ﷺ: تابعه، ولا تتكون واحدة منها إلا بكلها،

إذ محال أن يرضى بالله ربًّا، ولا يرضى بالإسلام ديناً، أو يرضى بالإسلام ديناً، ولا يرضى بمحمد نبيًّا، وتلازم ذلك، بين لا خفاء فيه...

هذا وبالله التوفيق

موسى محمد على

الأزهر جامعًا وجامعة

الأستاذ / محمد كمال السيد

١

روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : (فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة . وفى مسجدى بألف صلاة . وفى مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة) .

هذه المساجد الثلاثة هى أقدم المساجد وأكثرها تقديساً عند المسلمين ويليها مباشرة فى الشهرة والمكانة الجامع الأزهر .

ولا ترجع مكانة الأزهر إلى قدمه فقد أنشئت قبله جوامع عديدة فى العواصم الإسلامية وكان يستتبع الفتوحات الإسلامية إنشاء المدن وإنشاء جامع فى كل مدينة تنشأ أو تفتح فقد أنشئ جامع البصرة سنة ١٤ هـ وجامع الكوفة سنة ١٦ هـ . وجامع عمرو بالفسطاط سنة ٢٠ هـ . وجامع العسكر شمال الفسطاط سنة ١٣٣ هـ عندما قضى العباسيون على الأمويين . وجامع أحمد بن طولون بالقطائع فى الشمال الشرقى فى العسكر سنة ٢٦٦ هـ كما أُنشىء جامع الزيتونة فى تونس سنة ١١٤ هـ وجامع القرويين فى فاس (بالمملكة المغربية) سنة ٢٤٥ هـ وهكذا . . . مع ملاحظة أن بلاد المغرب فتحت فى القرن الأول الهجرى . فلم يكن إنشاء جامع القرويين بسبب الفتح فاسمه نسبة إلى مهاجرين من القيروان من تونس كانوا يقطنون الحى الذى أنشىء فيه الجامع سنة ٢٤٥ هـ . أى قبل الأزهر بأكثر من مائة عام وسنعود لذكر هذا الجامع ثانية بإذن الله .

ولكن ترجع مكانة الأزهر إلى الدور الذى اضطلع به الأزهر أكثر من ألف سنة فى التاريخ الإسلامى من الحفاظ على العلوم الدينية والثقافة الإسلامية واللغة العربية لغة القرآن وأنه كان مقصد الطلاب والدارسين فى كل البلاد الإسلامية يحجون إليه ليتزودوا من شيوخه العلم والمعرفة .

والأزهر يعتبر أقدم الجامعات القائمة للآن لا فى البلاد الإسلامية فحسب ولكن

فى جميع أنحاء العالم . فالأزهر أُنشىء فى منتصف القرن الرابع الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حين أن الجامعات فى أوربا وأمريكا لم تنشأ إلا بعد هذا التاريخ . ونذكر على سبيل المثال أن جامعة باريس أُنشئت فى القرن الثانى عشر الميلادى وجامعة أوكسفورد بإنجلترا فى القرن الثالث عشر وجامعة لوفان فى بلجيكا ، وأوبسالا فى إسبانيا أُنشئتا فى القرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر أنشئت جامعة أشبيلية فى إسبانيا وجامعة المكسيك وجامعة بوجوتا فى كلومبيا وجامعة القديس مرقس فى ليما عاصمة بيرو . وفى القرن السابع عشر أُنشئت جامعة قرطبة الوطنية فى الأرجنتين ، وهكذا . .

وينافس جامع القرويين السابق ذكره الجامع الأزهر فى التاريخ الجامعى إذ يعتبره البعض أقدم الجامعات . حيث استمرت الدراسة فيه منذ إنشائه سنة ٢٤٥ هـ إلى الآن بدون انقطاع تقريباً . وفى سنة ١٩٣١هـ صدر مرسوم من السلطان محمد الثالث بتقسيم التعليم فيه إلى ثلاث مراحل : ابتدائية ، وثانوية ، وعالية . ويتألف التعليم العالى من اختصاص دينّى واختصاص أدبى . ثم أضيف للجامع معهد للفتيات يؤهل للعالمية وبعد استقلال المغرب سنة ١٩٥٦م تقرر اعتبار جامع القرويين جامعة مكونة من ثلاث كليات : الآداب ، والشريعة ، والعلوم . وكان بالجامع مكتبة تحوى كثيراً من المخطوطات النادرة تبدد أغلبها مع الزمن .

ونقول إنه ولو أن جامع القرويين أقدم عهداً من الأزهر . لكن الأزهر ينفرد أنه أول جامعة تولت الدولة الإنفاق على مدرسيها وتعهدتهم بالرعاية منذ عهد العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمى ووزيرهما يعقوب بن كلس (توفى سنة ٣٨٠هـ) فضلاً عن تنوع العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر فلم يقتصر التدريس فيه على العلوم النظرية من دينية وأدبية . بل كانت تدرس فيه أيضاً العلوم العملية مثل الطب والرياضة والفلك وغيرها . كما أن موقع مصر المتوسط ومكانتها فى العالم الإسلامى جعلا الأزهر محط الرجال وكعبة القصاد .

والأزهر كما هو معروف أُنشئَ مع إنشاء القاهرة المعزية الفاطمية . وبدئ فى بنائه بعدها ببضعة شهور ، واستغرق بناؤه ما يزيد قليلاً على العامين ، وافتتحه القائد جوهر الصقلى بصلاة الجمعة فيه فى ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ (٩٧٢/٦/٢١م) فالمعز لدين الله الفاطمى لم يقدم من المغرب ويدخل القاهرة إلا بعد سنة كاملة من هذا التاريخ .

وكما ذكرنا أن إنشاء المدن كان يستتبع

عادة إنشاء مسجد جامع للمدينة الجديدة فكان اسم الجامع الأزهر جامع القاهرة .

وقيل عن اسم القاهرة إن جوهراً أسمى المدينة أولا بالمنصورية وعندما قدم المعز لدين الله لمصر سنة ٣٦٢ هـ أسماها القاهرة . وقيل إن جوهراً أسماها القاهرة تبعاً لنجم المريخ ، وهو عند الفلكيين القدماء قاهر الفلك ، وأن المريخ كان بالأفق عندما ألقى العمال الأساس . وأن التسمية جاءت مصادفة ، فقد وضع الفلكيون حبالاً حول الأساس بها أجراس ، وأخذوا يرصدون الفلك ليختاروا لحظة مرور نجم حسن الطالع فيأمروا بالبدء فى البناء ، فوقف طير على الحبال فدقت الأجراس فألقى العمال ما فى أيديهم فى الأساس ووجد المريخ قاهر الفلك فى الأفق فأسموها القاهرة .

والقول الثانى أكثر شيوعاً بين المؤرخين .

وأود أن أذكر أن دائرة المعارف الإسلامية ذكرت فى (الترجمة العربية جـ ٣ ص ١٨٣) أن جوهراً كان معروفاً باسم إلياس الصقلى ، ولكنها فى مادة إلياس (جـ ٤ ص ٣٨١) لم تذكر هذا ، وذكرت أن إلياس النبى عند المسلمين هو إيليا المذكور فى التوراة ، ونسبت للمسلمين بعض الخرافات المتعلقة به وبالخضر عليهما السلام ، ورد على أقوال الدائرة الأستاذ محمد عرفة فى تعليقه على المادة .

نعود فنقول : إنه سواء أكانت تسمية القاهرة من القائد جوهر أو من الخليفة المعز لدين الله ، فقد عرف الجامع الأزهر فى صدر الدولة الفاطمية باسم جامع القاهرة .

فلما تعددت المساجد التى أنشأها الفاطميون داخل القاهرة الفاطمية اختير له اسم الجامع الأزهر .

فقد أنشأ العزيز بن المعز الجامع الأنور عند باب النصر وأتمه ابنه الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣ هـ فنسب إليه وعرف بجامع الحاكم ، وأنشأ الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ الجامع الأقمر (بجهة بين القصرين) وأنشأ الظافر بأمر الله بن الحافظ لدين الله سنة ٥٤٣ هـ الجامع الأفخر (بجهة العقادين) وهو المعروف بجامع الفاكهيين ، والأخيران بشارع المعز لدين الله .

وقد ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى (جـ ٣ ص ٣٦٥ و ص ٥١١) أن الجامع الأنور وهو جامع المقس بباب البحر ، وهذا مخالف لغيره من المؤرخين (خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٧) وحسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ١٤٠) وجامع المقس من إنشاء الحاكم بأمر الله أيضاً ، وهو الذى عرف أخيراً بجامع أولاد عنان بشارع الجمهورية بالقرب من ميدان رمسيس وقد هدم هذا الجامع فى السنوات الأخيرة لإنشاء مسجد مكانه باسم مسجد الفتح ، وكان موقع هذا

الجامع يطل على النيل ، قبل أن يتحول غرباً إلى مجراه الحالى ، وهناك كانت الميناء النهرية للقاهرة ، وقيل : إن المقس أصلها من المكس أى الجمارك ، وقيل : إنها من المَقْسِم حيث قُسمت هناك غنائم الحرب عند الفتح الإسلامى وربما كان فى هذا تعليل اختيار اسم الفتح للجامع الجديد ، والمعروف أن الحاكم بأمر الله هو الذى أتم الجامع الأنور فنسب إليه ولكن فى خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٧) أن العزيز بالله صلى الجمعة فيه سنة ٣٨١ هـ (والعزيز توفى سنة ٣٨٦هـ) وأن الحاكم أمر بإتمامه سنة ٣٩٣ هـ فيبدو أن العزيز بالله صلى الجمعة فيه قبل إتمامه ، وعرف الجامع الأنور بجامع الحاكم ، كما عرف أيضاً بجامع الخطبة بسبب سنذكره فيما بعد بإذن الله .

ولا يعرف على وجه التحقيق وقت اختيار اسم الأزهر للجامع الأَزهر ولكن الأرجح أنه فى وقت متقدم من حكم الفاطميين بدليل اختيار أسماء المساجد التى أُنشئت بعده بداخل القاهرة الفاطمية : الأنور والأقمر والأفخر ، لتسير على نمط لفظه .

كما أن اختيار اسم الأزهر يرجع إلى لقب السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، ووالدة الإمامين الحسن والحسين وإلى الإمام الحسين ينتسب الفاطميون ، فجدهم إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق ، والأخير هو الإمام السادس عند الشيعة الإمامية والإسماعيلية .

فأول الأئمة عند الشيعة على بن أبى طالب ، ثم ابنه الحسن بن على ثم الحسين بن على ثم ابنه على زين العابدين بن الحسين ، ثم ابنه محمد الباقر بن على زين العابدين ثم ابنه جعفر الصادق بن محمد الباقر .

وبعد جعفر الصادق تفترق الطائفتان ، فالإمامية يرون أن الإمامة بعده لابنه موسى الكاظم ، والإسماعيلية يرون أنها لمحمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق لأن إسماعيل كان أكبر من أخيه موسى الكاظم ولكنه توفى فى حياة والده .

واستطراداً نقول : إنه ينسب إلى على زين العابدين المشهد الموجود بالقاهرة ، بجهة المذبح ، والحقيقة أنه توفى سنة ٩٥ هـ ودفن بالبقيع (بالجانب الشرقى من المدينة المنورة) وأن مشهد القاهرة أقيم على رأس ابنه زيد الشهيد الذى ثار على الأمويين وقتل سنة ١٢١ هـ وأرسل رأسه إلى القاهرة وطيف به فيها .

وكان الأزهر محل تقدير الخلفاء الفاطميين فقد كان الخليفة يصلى الجمعة الثانية من شهر رمضان فى الجامع الأزهر والثالثة فى الجامع الأنور المعروف بجامع

الحاكم والرابعة فى جامع عمرو بالفسطاط ، أما الجمعة الأولى فكانت راحة ، وقال المقريزى : (فينال الناس من هذه الجمع الثلاث رسوم وهبات وصدقات) .

وظل تقليد صلاة ولى الأمر الجمعة الأخيرة من رمضان فى جامع عمرو معمولاً به فى مصر حتى ثورة سنة ١٩٥٢ م .

وذكر المقريزى نقلاً عن ابن الطوير فى الكلام على الجامع الأنور أن الجمعة الأولى راحة والثانية فى الجامع الأنور والثالثة فى الجامع الأزهر والرابعة فى جامع عمرو ، ولكنه عاد فقال نقلاً عن ابن المأمون : (ووصل من الطراز الكسوة الشريفة المختصة بغرة رمضان وجمعتيه بدلة كبيرة مذهبة ويرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها أبيض ، ويرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى . . إلخ) (خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٩٥ ، وجـ ٢ ص ٢٨١ ، وص ٢٨٢) .

وقال أيضاً (الخطط جـ١ ص ٤٩٥) : وكان الخليفة يركب كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس فى جامع القاهرة الذى يعرف بالجامع الأزهر مرة ، وفى جامع الخطبة المعروف بالجامع الحاكمى مرة وفى جامع عمرو بن العاص بمصر أخرى) .

وكان موكب الخليفة لصلاة الجمعة فيه عظمة وجلال فيخرج من القصر راكباً وبين يديه الآلاف من الغلمان بين راكبين وراجلين ، وتدق الطبول ، وتنفخ الأبواق وحوله قراء الحضرة وإخوته وأولاده وكبار رجال الدولة . وتُهَيَّأ له بالجامع مقصورة يجلس فيها حتى يؤذن للصلاة . وقد فرشت المقصورة وأمام المحراب بفرش خاص ويعلق ستران على جانبى المحراب ، كتب على الأيمن منهما بخط واضح الفاتحة وسورة الجمعة وعلى الستر الأيسر الفاتحة وسورة المنافقون .

ويصعد قاضى القضاة المنبر ، وبيده مبخرة بها أطيب البخور من نَدٍّ وعود فيبخر الذِّرْوَة التى عليها الغشاء كالقبة ، فإذا أذن للصلاة يدخل قاضى القضاة على الخليفة ويقول : السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته الصلاة يرحمك الله فيخرج الخليفة ويصعد المنبر فيجلس عليه والوزير بباب المنبر ووجهه إلى الخليفة فيشير إليه بالصعود فيصعد إليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يعود بظهره وهو مستقبل الخليفة فيزرر عليه باب المنبر ، وإن لم يكن الوزير صاحب سيف فيزرر عليه قاضى القضاة ويقف ضابطاً للباب .

وبعد الخطبة ينزل إلى المحراب فيصلى

بالناس قارئاً فى الركعة الأولى من الستر الأيمن الفاتحة وسورة الجمعة ، وفى الركعة الثانية فى الستر الأيسر الفاتحة وسورة المنافقون

وسبب التزرير عليه فى المنبر أن الخليفة كان يقرأ الخطبة من مكتوب كذلك تعليق السترين على جانبى المحراب حتى لا يرتج عليه ، وكان الحاكم بأمر الله ينيب عنه فى الخطبة لأنه كان يرتج عليه .

وكما كان الأزهر محل تقدير الفاطميين فقد كان أيضاً محل عنايتهم إذ أرادوا أن يكون منطلقاً للمذهب الشيعى فأشار أبو الفرج يعقوب بن كُلِّس – وزير المعز ثم وزير ابنه العزيز – على العزيز أن يرتب رواتب لجماعة من الفقهاء يعملون فيه حلقات للتدريس ، فرتب خمسة وثلاثين فقيهاً – وبنى لهم داراً بجانب الجامع وكانوا يحلِّقون – أى يجلس كل منهم فى حلقة – فى الجامع بعد صلاة الجمعة حتى صلاة العصر ، وكانت تطلق لهم – فضلاً عن المرتبات – الخِلَع والصِّلات فى المواسم والأعياد من دار الخلافة ومن دار الوزارة وهذا ما جعل الأزهر أقدم جامعة فى العالم باقية للآن تتولى الدولة الإنفاق على مدرسيها كما سبق ذكره .

وكان يعقوب بن كلس المذكور يهوديًّا أصله من بغداد وقدم مصر فى زمن كافور الأخشيدى ووجد الدين مانعاً من تحقيق طموحه فأسلم ولعله أخلص فيما بعد فى إسلامه بدليل مؤلفاته وتاريخ حياته ونزح من مصر إلى الغرب حيث التحق بخدمة المعز لدين الله وعاد معه إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ وولاه المعز الخراج وجميع وجوه الأموال من أعشار وجوالى وأحباس وكذلك الحِسْبة والسواحل واستمر فى عمله أيضاً فى عهد العزيز بن المعز وعلا شأنه ومقامه حتى لقب بالوزير الأجل وهو أول وزير للفاطميين .

والأعشار جمع عشر والجوالى هى الجزية التى كانت تجبى من أهل الذمة بواقع كل نفس منهم ، والأحباس هى الأوقاف .

ونصب فى داره الدواوين وجعل فيها خِزَانَةً للكتب ورتب فيها الأطباء والكتاب وجمع فيها العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء وأرباب العلوم ورتب مجالس أسبوعية يتناظرون فيها وألف كتباً فى الفقه والقراءات وكتباً فى آداب الرسول وآخر فى علم الأبدان وكتاباً فى الفقه مما سمعه المعز والعزيز ويسميه الشيعة مصنف الوزير ويعتبره بعضهم أنه يلى القرآن والحديث فى الأهمية ، وكان يلقى بعض الدروس من كتبه فى الجامع الأزهر .

وتوفى يعقوب بن كلّس سنة ٣٨٠ هـ وقد ذكرنا ترجمة حياته فى مقال سابق (المقال التاسع من سلسلة صفحات من تاريخ القاهرة بمجلة الأزهر فى ذى الحجة

سنة ١٣٩٥ هـ ديسمبر ١٩٧٥ م) كما ذكرنا أن داره أصبحت داراً للوزارة حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالى (توفى سنة ٤٨٦ هـ) وتولى الوزارة للمستنصر بالله الفاطمى ، فلم يسكن دار ابن كلس وسكن دارا أخرى بحارة برجوان بالخرنفش ، ثم بنى ابنه الأفضل داراً جديدة للوزارة شرقى القصر الشرقى الفاطمى الكبير (فى موقع جزء منها الآن جامع بيبرس ، الجاشناكير بالجمالية) .

أما دار ابن كلّس فقد جعلت داراً ينسج فيها الحرير والديباج برسم الخلفاء الفاطميين فعرفت بدار الديباج وعرف الخُط كله بخُط الديباج بعد أن كان يعرف بخُط الوزيرية وكان موقع دار الديباج بالنسبة لمفهومنا الحاضر جنوبى شارع الأزهر وشرقى شارع الخليج . (بورسعيد حاليا) ثم عرف الحى هناك بسويقة الصاحب لما سكنه الصاحب بن شكر وزير العادل الأيوبى . وقد ذكرنا ترجمة الصاحب بن شكر فى المقال المذكور ، كما ذكرنا خطأ البلدية فى تسمية شارع هناك باسم شارع السلطان الصاحب فالصاحب بن شكر كان وزيراً فقط .

ولو أن الفاطميين قصدوا أن يجعلوا من الأزهر منطلقاً للدعاية لمذهبهم الشيعى ولكن حرية الفكر العلمى تأبى القيود ، كما أن سعة الأفق عند الفاطميين كانت ترفض التعصب أو التزمت ، فقد استوزروا يهوداً أو نصارى ، وكانوا يشاركون رسميا فى الاحتفال ببعض الأعياد الدينية المسيحية ، وعينوا أحياناً فى مركز القضاء من غير المذهب الشيعى ، فكذلك كان يُدْرَسُ فى الأزهر فضلاً عن التفسير والحديث واللغة فقه المذاهب الأربعة ، وليست هى المذاهب الأربعة التى نعرفها الآن ولكنها كانت المذهب الشافعى والمذهب المالكى ومذهب الشيعة الإمامية ومذهب الشيعة الإسماعيلية .

وابتدع الفاطميون بما عرف عنهم من ترف وحب التّنَعُّم . أعياداً جديدة منها ليالى الوقود الأربع . وهى مستهل رجب ونصفه ، ومستهل شعبان ونصفه ومنها الموالد الستة .

وهى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومولد الإمام على بن أبى طالب ومولد السيدة فاطمة الزهراء ومولد الإمام الحسن ومولد الإمام الحسين ومولد الإمام الخليفة القائم بالحكم .

وفى ليالى الوقود كانت تنار الجوامع الست الكبرى وهى الأزهر والأنور والأقمر وجامع ابن طولون وجامع عمرو وجامع القرافة ، فضلاً عن باقى المساجد والمشاهد التى بها الأعضاء الشريفة أى مشاهد آل البيت النبوى الكريم .

وكذلك فى أيام الموالد الستة .

وكان بجوار الأزهر بالجهة القبلية (بشارع محمد عبده سابقاً والتبليطة حاليا) مِنْظَرة تشرف على الجامع الأزهر يجلس فيها الخليفة لمشاهدة ليالى الوقود .

ولم يكن عند الشيعة خلاف فى أوائل الشهور فقد كانت العرب تعرف أن السنة القمرية ٣٥٤ يوماً وخمس يوم وسدس يوم ، أى $\frac{١١}{٣٠}$ ٣٥٤ يوماً ، أى ٤٨ ق ، ٨,س ، ٣٥٤ى . وهذا يطابق الحساب الفلكى الصحيح ، أى أن ستة شهور من السنة تامة من ثلاثين يوماً وستة شهور ناقصة من ٢٩ يوماً ، فاعتبروا الشهور الفردية تامة والشهور الزوجية ناقصة ويضاف يوم إلى ذى الحجة– وهو من الشهور الزوجية الناقصة – كلما تقارب كسر اليوم من يوم صحيح ، ويتكون من كسر اليوم أحد عشر يوما كل ثلاثين سنة ، فكانوا يضيفون يوماً كل سنتين أو ثلاث بترتيب وضعوه كالتالى : ٣– ٥ – ٧– ١٠ – ١٣ – ١٦– ١٨– ٢١– ٢٤– ٢٦– ٢٩) ويسمون السنة التى يضاف إليها اليوم كبيسة من ٣٥٥ يوماً فإذا قسمت السنة الهجرية على ٣٠ وكان باقى القسمة أحد هذه الأعداد كانت سنة كبيسة من ٣٥٥ يوماً ، وإلا فهى سنة بسيطة من ٣٥٤ يوماً .

فيكون رمضان دائماً عندهم ثلاثين يوماً لأنه الشهر التاسع فى السنة فهو فردى وإذا لم تصادف رؤية الهلال فى أول رمضان فقد تأولوا فى تفسير الحديث الشريف (صوموا لرؤيته) أن معناه صوموا اليوم الذى يرى الهلال فى عشيته .

وعلى هذا فلم يكن هناك أيضاً خلاف فى أول رجب ، لأن جمادى الآخرة من الشهور الزوجية فهو دائماً تسعة وعشرون يوماً وكذلك لا خلاف فى أول شعبان لأن رجب من الشهور الفردية فهو دائماً ثلاثون يوماً .

ولم يكن الوقود قاصراً على الأربعة أيام المذكورة ولكن كان يوقد أيضاً فى ليالى الجمْع من شهرى رجب وشعبان فضلاً عن طول شهر رمضان .

فقد ذكر المقريزى نقلاً عن المُسَبِّحى فى حوادث شهر رجب ٣٨٠ هـ فى عهد العزيز بالله بن المعز (الخطط جـ ١ ص ٤٦٥) قال : (وفيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم فى ليالى الجُمع وليلة النصف إلى جامع القاهرة يعنى الجامع الأزهر وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع وحول صحنه التنانير والشمع والقناديل على الرسم فى كل سنة والأطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة ، وطيف بها وحضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف المقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد وقدمت إليه سلال

الحلوى والطعام وجلس بين يديه القراء والمنشدون وغيرهم وأقام إلى منتصف الليل بعد أن قدم إلى من معه أطعمة من عنده وبخرهم) اهـ .

والْمُسَبِّحِى الذى نقل عنه المقريزى هو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ هـ وتولى عدة مناصب كبرى منها الوزارة للحاكم بأمر الله وكتابه (أخبار مصر) ذكر ابن خِلِّكان أنه بلغ ١٣٠٠٠ ورقة وهو مفقود علمت بعض فقراته من الإشارة إليه من غيره من المؤرخين (مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية للأستاذ محمد عبد الله عنان ص ٣٦) .

أما القاضى محمد بن النعمان المذكور فهو ابن أبى حنيفة النعمان وهو غير أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى - وكان أبو حنيفة هذا قاضياً للمعز قدم معه من المغرب ولكن لم يوله القضاء ، وأقر أبا طاهر محمدا البغدادى الذى كان قاضياً بها منذ كافور الإخشيدى ولما استعفى أبو طاهر قبل موته بقليل عين العزيز للقضاء عليًّا ابن النعمان سنة ٣٦٦ هـ ثم أخاه محمد بن النعمان المذكور ٣٧٤ وتوفى ٣٨٩ هـ (حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ٩٢) .

وقال المقريزى أيضاً نقلاً عن المُسَبِّحى فى شعبان من نفس السنة : (وكان الناس فى كل جمعة وليلة النصف مثل ما كانوا عليه فى رجب وأزيد - وفى ليلة النصف من شعبان كان للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد - ووقدت التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء - وحمل إليهم العزيز الأطعمة والحلوى والبخور فكان جمعاً عظيماً) اهـ .

ونرى من قول الْمُسَبِّحى فى الفقرتين السابقتين عن رجب وشعبان سنة ٣٨٠ هـ وهو معاصر لهذا التاريخ : أن اسم الأزهر لم يكن وُضِعَ للجامع فهو يُعَبِّر عنه فى الفقرتين بجامع القاهرة .

وكان للمقيمين بالأزهر رواتب من الخبز والحلوى تصرف لهم ليالى الجمع وليالى الوقود فى الشهور الثلاثة - رجب وشعبان ورمضان - فأبطل الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٢ هـ هذه الرواتب - كما أبطل ليالى الوقود .

وسنرى فى المقال التالى بإذن الله كيف أعيدت .

محمد كمال السيد

قضايا لغوية

نظرات حول الترادف اللغوى

الدكتور / توفيق محمد شاهين

٢

ووجود الترادف فى العربية يرجع إما إلى الاختلاط الكثير بسبب الهجرة الدائبة والدائمة للعرب ، جرياً وراء الكلأ والرعى ، حين تمحل الأرض أو تبخل السماء ، أو حين يجتمعون فى الأسواق ، فيستعمل بعضهم ألفاظ بعض ، فتنتشر هذه الألفاظ وتشيع على الألسنة .

وقد يكون سبيله المجاز الذى اشتهر ، حتى أصبح فى درجة الحقائق .

والعرب تتصرف فى لغتها ، ولا تعرف لها قيوداً اصطلاحية ، وما من عربى إلا وهو فى حكم العرب كلهم باعتبار الفطرة اللغوية التى يرجع إليها أصل الوضع ، إذ هى مفردات وضعها أفراد ، وقد يرى بعضهم أشياء ويصفها على نحو ما يجد فى نفسه من أثرها وصفاتها المختلفة ، والقريبة أو البعيدة ، ويذهب غيره منحى آخر - فمن تمورهم - مثلاً - البرنى والصرفانى والعرب تعالجه بالماء أو السمن وله فى كل حالة لفظ يدل عليه ، وتسميه قبيلة بما لا تسميه به الأخرى . والعرب كلها حجة فى لغتها ، فلا مناص بعدئذ من اختلاف الألفاظ الموضوعة للمعنى الواحد أحيانا بحسب ذلك .

ونادراً ما يكون الترادف من واضع واحد - كما ذكر السيوطى ، بحسب الملحظ فى الأثر أو الصفات عند التسمية والوضع .

« والأقدمون عدوا الجزيرة العربية وحدة لغوية واحدة - وحسناً فعلوا - للهجرة والاجتماعات المتكررة ، وبخاصة حين يتفق اللفظان تماماً فى المعنى على الأقل فى ذهن الكثرة واتحاد العصر ، شريطة ألا يكون ذلك نتيجة لتطور صوتى[٢٨] » .

ويقول الشيخ عبد الله العلايلى :

« يتخذ بعض من دارسى العربية اليوم الترادف علامة على قلق اللغة ، وبعض آخر يتخذه أثراً من الاختلاف القبلى أو ما يشبه الرواسب المتبقية من جراء امتدادات

طويلة . والحقيقة وإن كان فى المذهب الأخير شيء من الحق والصدق ، ليس هو كل الحق » .

ويرى الشيخ العلايلى القول الأول منكراً من القول وزوراً ، لا ريب فى ذلك ولا شك . ولقد يكون صحيحاً لو لم يكن من مواد الاشتقاق بخصائصها المعنوية التى تعين ملحظ الاشتقاق فى المترادف دليل قصده ، فأين منه القلق المزعوم ؟[٢٩]

فالشيخ العلايلى وإن نفى القلق ، لكنه لا يقبل أن يكون الترادف من اختلاف القبائل على علاته ، للمبالغة فى كثرة الترادف أحياناً إلى حد المئات والألوف للمعنى الواحد ، ونحن معه فى ذلك .

ويروى الأصمعى – كما فى عيون الأخبار ٢/١٧٨ – « إذا تظرف العربى كثر كلامه ، وإذا تظرف الفارسى كثر سكوته » . وقد تأتى كثرة الكلام بالترادف .

* * *

وكان ادعاء هذه الكثرة الكاثرة مدعاة للتوسع عند بعض الباحثين فى الترادف ، فعد من ألوانه :

مترادفات وضع ، لاختلاف القبائل ، كالإنسان والبشر ، والأسد والليث . اشتقاق ، كالمعطس والمبسم للأنف والفم . . أوحروف دون ترتيب (القلب المكانى) ، مثل ، جذب وجبذ ، وشرائع وشعائر ، أو تصحيف ، مثل لدع ولذع . ومزح ومرح . . أو مجاز كالأسل للرماح ، أوكناية كسبط الأنامل ، وطويل النجاد ، للكرم .

أو تناسب ، مثل : نهق ونعق ، أو اتباع ، مثل : حسن بسن أو حذف مثل : عم صباحاً ، من أنعم . . .[٣٠]

* * *

ومن استقراء تاريخ الشواهد ينبئنا بأن علماء القرن الثانى الهجرى – أو كثيراً منهم على الأقل – قد سلموا بوجود الترادف اللغوى . . ولكن القرن الذى يليه : « شهد تلمس العلماء للفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة ، وعلى رأسهم ثعلب – واشتد الجدل فى أمر الترادف فى القرن الرابع الهجرى ، وظهر من ينكره ، ومن يؤيده صراحة »[٣١] .

ومحصل هذين المسربين أن وجد فريق يؤكد وجود الترادف فى الفصحى ، بل وبكثرة كاثرة ، وعدوا ذلك مبعث افتخار واعتزاز باللغة والتراث .

كما وجد فريق آخر من العلماء يثير الشك ، ويبعث الحيرة ، ليصل إلى إنكار الترادف ورده .

ونتيجة لهذا الخلف نشأت فرقة متوسطة بين الإفراط فى الاعتراف ، والغلو فى الإلغاء ، وخير الأمور الوسط .

وإذا كان القرن الرابع شهد ذروة الجدل والخلاف بين العلماء اللغويين حول المترادف ، بين مثبت ومنكر ، إلا أننا نلاحظ أن الأكثرية منهم على إثباته ووجوده فى العربية :

« وممن أيد وجوده : المبرد ، كما أسلفنا[٣٢] . والإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، وهو عربى له بصر بالعربية . والمطرز الزاهد فى (المداخل) وابن الأنبارى فى (الوقف) ، وفى شرح القصائد الجاهليات ، والطبرانى فى (المعجم الكبير) ، وابن دريد فى (الجمهرة) ، وعلى عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى فى (حلية الفرسان وشعار الشجعان) ، وابن النحاس فى (شرح المعلقات) ، والقالى فى (أماليه) ، وقطرب فى (الأزمنة والأمكنة) : وابن سيده فى (المخصص) . والضبى فى (المفضليات) ، ومجد الدين الفيروزابادى فى الروض المسلوف فيماله اسمان إلى ألوف ، وابن خالويه فى : أسماء الأسد .وأسماء الحية . . وفى أمالى القالى والزجاجى . والاشتقاق لابن دريد . . وغيرهم من علماء اللغة والأدب .

كما أيد وجوده : « الرازى . والسبكى ، وابن السكيت ، والهمذانى ، وقدامة بن جعفر مؤلف (جواهر الألفاظ) ، وأبو الحسن الرمانى (ت ٣٨٤) جامع كتاب (الألفاظ المترادفة) .

كما ذكر ذلك الأستاذ مصطفى أبوهلال فى مقاله القيم عن الترادف بمجلة « الفكر » التونسية ٢١ع٤ – ١٩٧٦ م .

وجمع ابن منظور خمسمائة اسم للأسد ، ومائة للثعبان . . .

ويروى من هِجِّيراه البحث والغوص والتدقيق (ابن جنى) – رحمه الله – : أن « اختلاف اللفظين واتفاق المعنيين كثير فى كتب العلماء وقد تناهبته أقوالهم ، وأحاطت بحقيقته أقوالهم »[٣٣] .

ويؤكد ابن جنى أنه لا فرق فى التعبير بأحد الألفاظ المترادفة ، وكأنما المقصود باللفظ الذى عبر به هو هو ، لا يتخلف يقول :

« وهذا ونحوه – عندنا – هو الذى أدى إلينا أشعارهم وحكاياتهم بألفاظ مختلفة على معان متفقة ، وكأنه إذا أورد المعنى المقصود بغير لفظه المعهود كأنه لم يأت إلا به ، ولا عدل عنه إلى غيره ، إذ الغرض فيهما واحد ، وكل واحد منهما لصاحبه مرافد .

وكان أبو على (الفارسى أستاذ ابن جنى – رحمه الله – إذا عبر عن معنى بلفظ فلم يفهمه القارئ عليه ، وأعاد ذلك المعنى عينه بلفظ غيره ففهمه ، يقول : هذا إذا رأى ابنه فى قميص أحمر عرفه ، فإن رآه فى

قميص كحلى لم يعرفه . . .

وقرأ أبو سوار أو أبو سرار المازنى – وهو أعرابى فصيح من رواة اللغة – : « فحاسوا خلال الديار » بالحاء المهملة ، فقيل له : إنما هو « جاسوا » فقال : حاسوا وجاسوا واحد . وعلق ابن جنى فى المحتسب ٣٣٦/٢ : هذا يؤنس بأن القوم كانوا يعتبرون المعانى ويخلدون إليها ، فإذا حصلوها وحصنوها سامحوا أنفسهم فى العبارات عنها . .

ويحكى ابن جنى أن قوماً ترافعوا إلى الشعبى فى رجل بخص عين رجل فشرقت بالدم ، فأنشدهم بيت الراعى :

لهـا أمرها حتى إذا ما تبوأت
بأخفافها مأوى تبوأ مضجعا

ولم يزدهم على ذلك ، فانصرفوا « راضين » بالفتوى ، وهم عارفون بغرضه فيها . والمراد ينتظر بها إلى أن يستقر أمرها ، ثم يحكم فى أمرها بما توجبه الحال[٣٤] مما يدل على أن أمر الترادف كان معروفاً لدى القاصى والدانى ، وأنه لم يمنع الدقة فى حكم جنائى . . وبالتالى فهو لا يمنع من نهضة علمية حديثة .

وكثير من علماء فقه اللغة اليوم يؤيدون وجود الترادف ، شريطة الاعتدال وعدم المبالغة فى وجوده .

وهناك فئة تلقى القول على عواهنه ، فتزعم أن جامعى اللغات وضعت مفردات من عندا نفسها ، تزيداً فى كلام العرب ، لحاجات فى نفس يعقوب . . وهذه فرية ننزه عنها رجالاً مخلصين ، أفنوا العمر كدًّا ودأباً فى إخلاص لله ، ولغة القرآن والسنة .

ومن ذلك ما يحاوله البعض من التشكيك فيما روى عن أم الهيثم البصرية العجوز من بنى منقر ، حين قالت لرواة اللغة كلاماً ما فهموه ، لأنه لم يبلغهم أو طال به العهد ، فأقسمت لهم أنها ما كلمتهم إلا بالعربى الفصيح (أمالى القالى ٦٩/٣) ، ويقول المشككون : إن ابن دريد ذكر النص فى الجمهرة ١١/١ ، منسوباً لأبى حاتم ، ومسنداً لأعرابية أخرى . ونقول : ورد النص ، فلا يضر اختلاف الرواة . وإلا شككنا فى كل ما ورد عن الأعلام . ورونه الثقات ، وحفظته أمهات الكتب .

ومن أنكر الترادف :

أبو على الفارسى وقد اعترض على ابن خالويه ، حين قال فى مجلس سيف الدولة : إنه يحفظ للسيف خمسين اسماً ، فقال الفارسى : أما أنا فلا أحفظ له إلا اسماً واحداً ، هو السيف ، وأرجع الباقى إلى الصفات ، وتهكم على ابن خالويه بأنه لا يفرق بين الاسم والصفة[٣٥] .

كما أنكر ثعلب[٣٦] وابن فارس فى

(الصاحبى) وابن الأثير فى (المثل السائر) وأبو هلال العسكرى فى (الفروق اللغوية) ، والأب هنرى كولا منس اليسوعى فى (فرائد اللغة فى الفروق) . والأستاذ حفنى ناصف فى (مميزات لغة العرب) ، والدكتورة بنت الشاطئ فى مؤلفها : (كتاب العربية الأكبر) .

ومحصل كلامهم : أنه لا يوجد لفظان مترادفان ، إلا وبينهما فرق فى المعنى ، كما فى أسماء السيف ؛ فبعض أسمائه من عمله : كالحسام ، والباتر ، وبعضها ينسب لبلده : كالمهند واليمانى ، وبعضها من لونه كالأبيض . . . أما موضوع الآلة : فهو السيف فقط لا غير .

* * *

ويلخص القول فى أمر الترادف أديبنا – البليغ – مصطفى صادق الرافعى فى أربعة آراء :

(ا) الإنكار المطلق من بعض العلماء ، مثل ثعلب وابن فارس ، لأن وجوده ينفى الحكمة عن هذه اللغة الحكيمة . . واعتبروا أن المترادفات إنما هى أسماء تزيد معنى الصفة .

(ب) أو الإنكار المطلق أيضاً – كالرأى السابق – ولكن على أساس أن المترادفات صفات محضة ، كما يرى الفارسى .

(جـ) أو إثبات الترادف ، لكنه مخصوص بإقامة لفظ مقام آخر ، لمعان متقاربة يجمعها معنى واحد ، كما يقال : أصلح الفاسد ، ولم الشعث . . أما إطلاق الأسماء على المعنى الواحد فيسمونه المتوارد : الخمر والعقار ، والليث والأسد « وهذا المذهب من تقسيم بعض علماء الأصول » .

(د) إثبات الترادف مطلقاً : بدون قيد ولا اعتبار ولا تقسيم ، وعليه أكثر اللغويين والنحاة »[٣٧] .

فالأمر يدور بين الإثبات والإنكار أولاً ، لكن على اعتبارين لكل منهما .

* * *

ذلك رأى الفريقين . . ولنا أن نذكر بأن من حق العرب أن تقول ما تشاء لأنها لغتها ، وهى صانعتها ، ولها فى صناعتها حرية تواكب حرية العربى الواسعة فى حياته بجوانبها العديدة .

كما أن اللهجات العربية كلها فصيحة صحيحة على اختلافها ، والآخذ بإحداها مصيب غير مخطئ كما قرر ابن جنى ، بل وجوزوا للعربى أن ينتقل إلى لغة غيره إذا رأى ذلك : إذ جوز ابن جنى للعربى أن ينتقل لسانه ، ويصبح حجة إذا انتقل لسانه إلى فصيح .

ولا يظن ظان أنه مع هذه الحرية كان الأمر فوضى ، فقد عرفت العرب الدقة

الفائقة فى التعبير اللغوى :

يقول الأصمعى : سأل رجل من أهل الحضر رجلاً من أهل البادية : هل عندكم ما يرعى ؟ فقال البدوى – وهو يهزأ به – : نعم ، عندنا : « مقمل ومدب ، وباقل ، وحانط ، وثامر ، ووارث » . وإنما عنى بذلك كله (الرمث) لأن الرمث أول ما يتفطر بالنبت يقال له : أقمل . فإذا زاد على التفطر شيئاً ، قيل : قد أدبى ، وهو الباقل . ثم الحانط وهو المدرك من كل شىء ، والثامر : الذى أخرج ثمره »[٣٨] .

ومن مظاهر حريتهم فى لغتهم : ذكر الواحد ، والمراد به الجمع ، والعكس : قال تعالى :

(هؤلاء ضيفى) ويقول سبحانه : (ثم يخرجكم طفلاً) .

واعتبر ابن جنى من شجاعة العربية : الحمل على المعنى : لأن العرب ذكرت المؤنث وعكسه ، وتصورت المعنى الواحد فى الجماعة وعكسه ، كقول الشاعر :

إن امرأ غره منكن واحدة
بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

وقال تعالى : « يلتقطه بعض السيارة »[٣٩] وتأول السهيلى حديث الرسول « أقبلت راكباً على حمار أتان » ، ونظر له بحية ذكر ، وبطة ذكر ، وهو شاة وهذا بقرة »[٤٠] .

بل أنثوا لفظة « رجل » و« ثور » : ذكر المبرد لبعضهم .

كل جار ظل مغتبطاً
غير جيرانى جبله
خرقوا جيب أمهـم
لم يبالوا حرمة الرجله

وقال الأخطل :

جزى الله فيها الأعورين ملامة
وعبدة ثغر الثورة المتضاجم

(ثغر الثورة : فرجها ، والمتضاجم : الواسع)[٤١] .

وصغر أعرابى الحبارى على حبرور ، ولم يجمع ابن الشحرى الحرنجم (لأنه ما فرقه شىء حتى يجمعه) ، وحقر بعضهم الدمكمك (القوى من كل شىء) على : شخيت (الضعيف من كل شىء)[٤٢] وغير ذلك كثير . مما دعا ابن الأعرابى أن يقول : (هى العرب تقول ماتشاء)[٤٣] .

إذا كانت تلك هى حرية العرب فى قولها ، أفيكثر عليها ، أو نحجر عليها أن تقول الألفاظ المترادفة ؟! .

يقول أبو عثمان المازنى – كما فى أمالى القالى ٢/٧٨ – سمعت أبا سرار الغنوى يقرأ قوله تعالى : « وإذ قتلتم نسمة فادّارأتم فيها » ، فقلت له : إنما هو « نفساً » فقال النسمة والنفس واحد .

ذاك طرف من وجهات النظر بين

النافين والمثبتين قديماً وحديثاً . . فما هو الرأى المستخلص والمرتضى ؟

[الحديث موصول]

المراجع

٢٨ – اللهجات د . أنيس ١٦٥ .
٢٩ – المقدمة للشيخ العلايلى ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
٣٠ – مجلة المجمع اللغوى بالقاهرة ٩ / ١٢٤ لسنة ١٩٥٧ من بحث للأستاذ خليل سكاكينى .
٣١ – اللهجات د . أنيس ١٦٣ .
٣٢ – كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ٢ .
٣٣ – الخصائص ٢ / ٩٤ .
٣٤ – الخصائص ٢ /٤٦٧ – ٤٦٨ .
٣٥ – المزهر ١ /٤٠٥ ، واللهجات العربية د . إبراهيم نجا ٩٧ .
٣٦ – مجالس ثعلب ١ /٢٩٣ .
٣٧ – تاريخ آداب العرب للرافعى ٢٠٤ .
٣٨ – الخصائص ٢ /٤٣٦ .
٣٩ – أمالى السهيلى ٦٢ .
٤٠ – الكامل للمبرد ١ /٢١٠ .
٤١ – الخصائص ٢ /٤٢٦ .
٤٢ – المفضليات بشرح ابن الأنبارى ٢١١ .
٤٣ – بصائر ذوى التمييز ، للفيروزابادى

القضاء المستعجل

حول زواج المسيحى بأكثر من واحدة
حيثيات حكم أصدره المستشار عبد العزيز هندى

محكمة الأمور المستعجلة
الجزئية بالقاهرة
فى ٤ فبراير سنة ١٩٥٨

المبادئ القانونية :

١ – يتعين عند اختلاف الملة أو اختلاف الطائفة بين المصريين غير المسلمين تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى مسائل الأحوال الشخصية إعمالا لصراحة نص المادة السادسة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ .

٢ – إلا أنه لما كانت القاعدة الجوهرية الواردة فى الشريعة الإسلامية وهى (أننا أمرنا بترك الذميين ومايدينون) فإنه يتعين وسماحة الإسلام تطبيق الشريعة المسيحية على العلاقات الصحيحة التى نشأت بين طرفين غير مسلمين فى ظل قانونهما الخاص لأن الأصل فى هذه العلاقة هو الصحة .

٣ – ولو أن شريعة الأقباط الأرثوذكس تقضى فى المادة ٢٤ من قانون أحوالهم الشخصية ببطلان الزواج بأكثر من واحدة إلا أنه إعمالا لنص المادة ٤٢ من ذات القانون والتى تقضى بأنه ولوحكم ببطلان مثل هذا الزواج إلا أنه يترتب عليه مع ذلك آثاره القانونية بالنسبة للزوج حسن النية ويكفى فى هذه الحالة أن يكون أحد الزوجين حسن النية ليتعين الاعتداد بآثار هذا الزواج بالنسبة للأولاد الناشئين عنه لأن حسن النية لايمكن تجزئته بالنسبة للأولاد خاصة .

٤ – لم يرد فى الإنجيل نص مانع قاطع يحرم تعدد الزوجات وإنما أصبح ذلك تقليداً مسحيًّا بعد أن نص على ذلك فى مؤتمر نيقيا .

٥ – من الخطأ المشهور القول بأن الإسلام وحده هو الذى عرف تعدد الزوجات فإن نظام تعدد الزوجات كان معروفا فى البيئة المصرية منذ عهد الفراعنة ثم لم تحرمه الشريعة اليهودية حتى مؤتمر فيمر كما لم يرد فى الإنجيل نص صريح مانع قاطع

يحظره حتى مؤتمر نيقيا .

٦ – نظام الزواج هو نظام اجتماعى بالنسبة للآثار المترتبة عليه ويتعين لذلك التفرقة بين مايمس العقيدة بالنسبة له ومايمس المجتمع ، فندع مالقيصر لقيصر ومالله لله . وبالتبعية يكون الزواج باعتباره أحد أسرار الكنيسة السبعة خاضعاً لهذه الكنيسة التى يتبعها الفرد فى نطاق ولايتها الروحية عليه فقط ، أما ماجاوز ذلك من أمور الزوجية وآثارها فإن على الشارع أن يتولى هو تنظيمها بما يسنه من قوانين . كما وأنه لن يخرج المسلمين عن دينهم أن يحظر الشارع تعدد الزوجات وتنظيم إثبات الزواج وآثاره بما يسنه من قوانين إذا اقتضى الأمر ذلك وعلى الشارع أن يستكمل الخطوة التى بدأها بتوحيد جهات التقاضى بتوحيد قانون الأحوال الشخصية .

٧ – حسب المحكمة أن تستبين أن عقد زواج والد المدعى – وهو قبطى أرثوذكسى – بالمدعى عليها الأخيرة – وهى من طائفة الروم الأرثوذكس – وكان سنها وقتئذ سبعة عشر عاماً وذلك بحضور شهود وقعوا عليه ممايظاهر القول بحسن نية الزوجة – ومن المستخرج الرسمى عن شهادة ميلاد المدعى ونسبته فيها . إلى والده ومن شهادة تعميد المدعى وأنه لم يحكم بعد بإبطال عقد الزواج ، للقول بأن للمدعى مصلحة ظاهرة تتطلب اتخاذ إجراء موقوت حفظا لحقوقه .

المحكمة :

« حيث إن المدعى أقام دعواه ابتغاء الحكم بإقامة حارس على الأعيان المبينة بصحيفة الدعوى لإدارتها والمحافظة على نصيب المدعى فيها حتى يفصل فى دعوى الموضوع . قولا منه بأن المرحوم صالح شكرى شكر الله توفى بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٩٤٨ عن ورثة هم المدعى عليهم فضلا عن المدعى الذى كان قاصراً وقتئذ وبلغ رشده فى سنة ١٩٥٥ – وعن تركة هى المبينة بصحيفة الدعوى وبمحضر جرد التركة المقدم ضمن حافظة المدعى – وأضاف المدعى أنه لجأ إلى القضاء الموضوعى لإثبات وراثته للمورث المذكور كما أقام دعواه الماثلة تحوطا للمحافظة على حقه فى تركة هذا المورث . وقدم بين يدى هذه الدعوى مستندات التى تضمنتها حوافظه .

« وحيث إن المدعى عليهم الأربعة الأول طلبوا رفض الدعوى فى مرافعاتهم ومذكرتهم (٩ دوسيه) ويخلص دفاعهم الذى أفصحوا عنه فى هذا الصدد أن مورثهم المرحوم صالح شكرى شكر الله كان قبطيا أرثوذكسيا وتوفى فى ٢١ يناير سنة ١٩٤٨ عن زوجته المدعى عليها الأولى وعن أولاده منها وهم المدعى عليهم من الثانى إلى

الرابعة وانحصر إرثه فيهم وحدهم بمقتضى إعلام ثبوت وفاة ووراثة صادر من مجلس / ملى مصر بتاريخ ٣٠/١/١٩٤٨ . وأنهم فرغوا منذ ذلك الحين من قسمة تركة مورثهم فيما بينهم دون منازع – وأن القول من المدعى ببنوته لمورثهم المذكور أوبقيام الزوجية بينه وبين والدة المدعى وهى المدعى عليها الأخيرة أمر لايسوغ مطلقاً – إذ أن الجمع بين زوجتين محرم وباطل فى الشريعة القبطية الأرثوذكسية التى كان يتبعها المورث المذكور – وأنه لما كانت المدعى عليها الأولى هى الزوجة الأولى والوحيدة التى يقوم على زوجيتها صحيح العقد المقدم من المدعى عليهم المعارضين وإعلام الوراثة سالف الذكر واعتراف المدعى – فإن مزاعم المدعى تكون – فيما يراه المدعى عليهم المعارضون – منهارة الأساس متعينة الرفض . فضلا عن أن ماتقدم به المدعى من مستندات ، لاينهض لحمل دعواه .

« وحيث إن المحكمة ترى أن تتخذ قرارها الموقوت فى الدعوى – بعد استظهار سائر أوراقها وسجال الطرفين فيها على هدى الملاحظات التالية – وذلك دون مساس بأصل الحق الذى يبقى دائما سليما للمناضلة فيه أمام محكمة الموضوع :

أولا : أن البادى من الاطلاع على الترجمة طبق الأصل عن اليونانية المؤرخة ١٧ يناير سنة ١٩٥٨ لمحضر المعمودية الصادر من ديوان الوكيل البطريركى بالقاهرة لبطريركية الروم الأرثوذكس والمقدم من المدعى بحافظته (١٣ دوسيه) أن القس ديمتربوس راعى الكنيسة قد أتم بتاريخ ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٦ تنصير ابن صالح شكرى شكر الله من أبناء طائفة الأقباط الأرثوذكس من أهالى القاهرة وصناعته مزارع وأمه مارى جورج ساربس من أبناء طائفة الأرثوذكس المولود بالقاهرة يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٤ وأعطى لهذا المولود المتعمد اسم جورج بمعرفة عرابته – وأن على هذه الشهادة توقيعات راعى الكنيسة والعرابة والوالدين – كما وأن البادى من الاطلاع على الشهادة الصادرة كذلك من نفس الديوان البطريركى المذكور والمؤرخة ٢٢ / ١١ / ١٩٥٧ أن جورج المذكور هو من أبناء طائفة الروم الأرثوذكس ومعروف أيضاً باسم وحيد صالح شكرى شكر الله – ولما كان ذلك وكان المدعى عليهم المعارضون لم يجحدوا أنهم كالمرحوم والدهم من طائفة الأقباط الأرثوذكس – فقد أضحى لزاما – إزاء اختلاف الفريقين المتنازعين فى الطائفة – وتطبيقاً للقانون رقم ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ الخاص بتوحيد القضاء – أن تستهدى المحكمة – فى نطاق ولايتها الموقوتة – بأحكام الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد ، تطبيقاً

لهذا القانون من جهة واستناداً إلى نص المادة ٨٧٥ مدنى من جهة أخرى .

ثانياً : ذلك أن اتحاد الطرفين فى الملة لايغنى عن وجوب اتخاذها فى الطائفة كما ذهب إليه البعض (انظر محاضرات السيد المستشار حلمى بطرس لكلية الحقوق ص ٣٩ – ٤٦) ذلك لأن هذا الرأى فضلا عن أنه يهدر صريح النص الذى أوردته المادة السادسة من القانون ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ التى تقضى بأنه « بالنسبة للمنازعات المتعلقة بالأحوال الشخصية للمصريين غير المسلمين والمتحدى الطائفة والملة الذين لهم جهات قضائية ملية منظمة وقت صدور هذا القانون فتصدر الأحكام فى نطاق النظام العام طبقا لشريعتهم ، فهى بهذه المثابة تستوجب اتخاذ الطائفة والملة معا لو جرى تطبيق الشريعة الخاصة – وقد كان هذا هو الرأى السائد حتى قبل توحيد جهات القضاء (انظر أحمد صفوت ص ٢٣ ، ٢٤) .

فضلا عن أن القول بغير ذلك يجافى حكمة قانون توحيد جهات قضايا الأحوال الشخصية – فقد صدر هذا القانون ليحد من تعدد التشريعات الداخلية التى تحكم مسألة واحدة لمواطنين يجمعهم وطن واحد (انظر محاضرات الدكتور أحمد سلامة لطلبة كلية الحقوق سنة ٩٥٧ – ٩٥٨ ص ٦٤ ومابعدها) .

ثالثا : ولكن ماهو رأى الشريعة الإسلامية فى هذا المقام ، وهل ينتهى إلى غير ماينتهى إليه تطبيق شريعة الزوج وهو قبطى أرثوذكسى ؟ إن عبارة الشريعة الإسلامية تعنى اصطلاحا ماشرعه الله لعباده من الأحكام التى جاء بها محمد ﷺ سواء ماتعلق منها بأعمال الناس ويسمى بالفقه أوماتعلق بمعتقداتهم وهو التوحيد (راجع فى هذا المعنى أحكام الأحوال الشخصية فى الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص ٩ ومابعدها) .

أما القسم الثانى فلا شأن لهذه الدعوى به – وأما القسم الأول الخاص بالمعاملات فى الشريعة الإسلامية ، فإن الأمر مستقر فيه حتى الآن وبعد إلغاء المحاكم الشرعية – لأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة حسبما نصت على ذلك المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية ، وقد احتفظ القانون ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ لها بقوتها الإلزامية . وقد تضمن فقه أبى حنيفة قواعد يختص بها المسلمون كما تضمن أخرى يختص بها أهل الكتاب ولامحل لتطبيق مايختص بالمسلمين على سواهم ، كما ذهبت إلى ذلك بعض الأحكام . فقد ألغت محكمة استئناف القاهرة بحكمها الصادر بتاريخ ٦ مارس سنة ١٩٥٧ فى الدعوى رقم ١٦٦ سنة ٧٣ ق حكما ذهب هذا المذهب وأيدته بحكم تال

صدر منها بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٩٥٧ – ورأت أن الإمام أبا حنيفة يقر غير المسلمين على جميع الأنكحة وإن كانت فاسدة بين المسلمين متى كانت صحيحة وجائزة فى ذمتهم – ويرى ترتيباً على ذلك ألايتدخل القاضى من تلقاء نفسه ليفرق بين الزوجين ولايتدخل لمجرد مرافعة أحد الزوجين دون الآخر.

وإذا كان الصاحبان محمد وأبو يوسف يريان خلاف ذلك . فإن رأى الإمام يجب أن يرجح . والواقع أن جوهر رأى أبى حنيفة هو أنه يقر غير المسلمين على أنكحتهم متى كانت صحيحة فى شرائعهم حتى لو كان مثلها فاسداً عند المسلمين ويمنع على القاضى المسلم أن يتعرض لمثل هذا الزواج سواء من تلقاء نفسه أو بناء على مرافعة أحد الزوجين فهو يقول : أصل النكاح كان صحيحاً – فرفع أحدهما إلى القاضى ومطالبته بحكم الإسلام لايكون حجة على الآخر فى إبطال الاستحقاق الثابت له باعتقاده بل اعتقاده يكون معارضاً لاعتقاد الآخر . فبقى حكم الصحة على ماكان عليه (انظر كتاب المبسوط جـ ٥ ص ٤٠) وذلك تأسيساً على قاعدة جوهرية فى الشريعة الإسلامية هى « أننا أمرنا بترك الذميين ومايدينون » . وترى المحكمة أن هذا الرأى يتفق مع سماحة الإسلام ومن ثم ترى التعويل عليه فى هذا المقام وعدم الاعتداد بما ذهب إليه بعض الفقهاء الآخرين من رأى مخالف (انظر كتاب أحكام القرآن للجصاص جـ ٢ ص ٤٣٤) وقارن بما ذهب إليه الكاسانى الحنفى فى كتابه « بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع جـ ٢ ص ٣١٠ – ٣١٤ موافقا لماذهبت إليه المحكمة » .

رابعاً : وحيث إنه وقد انتهت المحكمة إلى ماسلف من وجوب تطبيق الشريعة المسيحية على العلاقة التى كانت قائمة بين والد المدعى والمدعى عليها الأخيرة وعلى آثارها – وترى المحكمة استهداء بماذهب إليه الشارع فى المادة ١٣ من القانون المدنى فى سريان القانون الذى ينتمى إليه الزوج وقت انعقاد الزواج على الآثار التى يرتبها عقد الزواج بما فى ذلك من أثر بالنسبة إلى المال ، أن تطبق فى الدعوى الماثلة شريعة طائفة الزوج ، فماذا تقول هذه الشريعة فى هذا الصدد .

خامسا : تقضى المادة ٢٤ من قانون الأحوال الشخصية للأقباط الأرثوذكس الذى أقره المجمع المقدس والمجلس الملى العام وطبعته دار رمسيس للصحافة والطباعة والنشر – بأنه لايجوز لأحد الزوجين أن يتخذ زوجاً ثانياً مادام الزواج قائما – كما تقضى المادة ٤٠ من هذا القانون بأنه يعتبر باطلا كل عقد يقع مخالفاً لهذه المادة ولو

رضى به الزوجان – ولكن يجب التحرز من قياس هذا البطلان على مثيله فى القانون العام – فقد قررت المادة ٤٢ من نفس القانون وهى ٤٤ فى طبعة أخرى صراحة بأن مثل هذا الزواج الباطل ولو حكم فعلا ببطلانه إلاأنه يترتب عليه مع ذلك آثاره القانونية بالنسبة للزوجين وورثتهما إذا ثبت أن كليهما حسن النية – أى كان يجهل وقت الزواج سبب البطلان الذى يشوب العقد أما إذا لم يتوفر حسن النية إلا من جانب أحد الزوجين دون الآخر فالزواج لايترتب عليه آثاره إلا بالنسبة لهذا الزوج والأولاد المرزوقين له من ذلك الزوج .

والواقع أن حكم هذه المادة ليس مبتدعاً ، بل إن الغالب الأعم من الشرائع قد طبقته بصورة أوبأخرى وحاول الفقه بدوره أن يجد الوسيلة الفنية التى تبرره فقال بنظرية الزواج الظنى Marriage Potaif وقد احتضنها القانون الكنسى كى يوازن بها تشدده فى شروط الزواج ، إذ كلما كان ثمة تشدد فى هذه الشروط كلما كثرت أحوال البطلان . ثم استقرت هذه الفكرة فى التشريعات الوضعية ووجدت أيضاً فى الشريعة الإسلامية فى الزواج بشبهة – وكل ذلك إنما يهدف إلى رعاية حق الصغير الذى كان ثمرة لمثل هذا الزواج الباطل دون جريرة منه أوذنب جناه .

وحسن النية التى تتطلبه المادة ٤٢ من القانون سالف الذكر قد ناقشه الفقه الفرنسى طويلا ، وانتهى فيه إلى أن حسن النية هنا كحسن النية فى غير هذا المجال – أمر مفترض – وعلى من يدعى عكس المفترض يقع عبء إثبات دعواه – والمادة ٤٢ سالفة الذكر تتفق فى هذا الصدد مع حكم المادة ٢٠١ مدنى فرنسى – ويستتبع أن المخالطة الجنسية التى حدثت قبل الحكم ببطلان الزواج تعتبر علاقة شرعية – حقا أن المادة ٤٢ تتكلم عن الزوج حسن النية – لكن يجب أن يراعى أن صفة المشروعية لاتتجزأ ، ومتى ثبتت بالنسبة لأحد طرفى العلاقة فيجب حتما أن يمتد أثرها إلى الأولاد المشتركين ثمرة هذه العلاقة ، فهم يعتبرون شرعيين نظراً لعدم إمكان تجزئة هذه الصفة ، إذ إنه من غير المقبول أن يعتبر الأولاد شرعيين بالنسبة لوالدهم حسن النية مثلا وطبيعيين بالنسبة للأم سيئة النية على هذا الأساس . وبهذه الصفة يرثون فى تركة أى من والديهم بعكس ماذهب إليه بعض الشراح .

وقد ذهب القضاء الفرنسى إلى أنه بالرغم من عدم مشروعية العلاقة التى قامت فإن على المرأة أن تعتد وأنه يجب أن يظل نسب هؤلاء الأولاد بأبيهم وأمهم ثابتاً وفقاً لما جاء بشهادة ميلادهم . واتجه الفقه فى

مصر إلى الأخذ بهذا الرأى .

(راجع محاضرات الدكتور سلامة سالفة الذكر) .

سادسا : نصت المادة ٩١ من قانون الأحوال الشخصية للأقباط الأرثوذكس وهى المادة ٩٦ فى طبعة أخرى مماثلة – على أنه تثبت البنوة الشرعية بشهادة مستخرجة من دفتر قيد المواليد فإذا لم توجدشهادة فيكفى لإثباتها حيازة الصفة ، وهى تنتج من اجتماع وقائع تكفى للدلالة على وجود رابطة البنوة بين شخص وآخر ومن هذه الوقائع أن الشخص كان يحمل دائماً اسم الوالد الذى يدعى بنوته له – وأن هذا الوالد كان يعامله كابن له – وكان يقوم على هذا الاعتبار بتربيته وحضانته ونفقته – وأنه كان معروفاً كأب له فى الهيئة الاجتماعية وكان معترفاً به من العائلة كأب له – فإذا لم توجد شهادة ولاحيازة فليكن إثبات البنوة بشهادة الشهود المؤيدة بقرائن الأحوال .

سابعاً وأخيراً : فإن المحكمة ترى أن تلفت النظر فى هذا المقام إلى أن القانون رقم ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ وإن خطا خطوة موفقة نحو توحيد جهات اختصاص المحاكم فى قضايا الأحوال الشخصية إلا أن ذلك يجب أن يستتبع وبطريق التلازم – تنظيم التشريع الخاص بها . فيكون لها قانون موحد لاتتفرق فيه السبل أو تضل الآراء ، على أن يراعى فيه التحرز من الخلط بين العقائد والمعاملات – فأما الأولى فهى قائمة بين الشخص وربه ، وأما الثانية فهى قائمة بين الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه بما يضمه من أشخاص وأموال ، وبذلك ندع مالقيصر لقيصر ومالله لله . فيكون الزواج مثلا – بوصفه أحد أسرار الكنيسة السبعة خاضعا لهذه الكنيسة التى يتبعها الفرد فى نطاق ولايتها الروحية عليه فقط – فتباركه أو تقرر طرد من يخالف تعاليمها أو شلحه دون تدخل من المجتمع فى عقيدة الفرد أوتأثيمه .

أما ماجاوز ذلك من أمور الزوجية وإثباتها وماتستتبعه من آثار قانونية ومالية واجتماعية – فإن على الشارع أن يتولى هو تنظيمها بما يسنه من قوانين تقتضيها حاجة المجتمع ومطالبه – فلو رأى المجتمع أن من صالحه قصر الزواج بين أفراده – مسلمين وغير مسلمين – على زوجة واحدة فقط فلاتثريب عليه ولن يخرج ذلك المسلمين من دينهم أو يمس عقيدتهم فى شىء . فإن التزام ذلك لم يجعل المسلمين فى البلاد التى تحظر التعدد – سواء كانت إسلامية كتونس ، أوغير إسلامية ، لم يجعلهم غير مسلمين أويتعرض لعقيدتهم الإسلامية فى شىء . وكذلك الحال إذا رأى المجتمع أن يرتب عند حصول تعدد الزوجات آثار هذا التعدد على نحو أوآخر – صراحة بدلا من التوصل

إليها من الباب الخلفى وراء شتى النظريات – ولعل من الخطأ المشهور القول بأن الإسلام وحده هو الذى يبيح تعدد الزوجات ، فإن المتتبع لتاريخ التطور الدينى يلاحظ فى يسر وسهولة أن نظام تعدد الزوجات ليس غريباً على البيئة المصرية ، فقد كان سائدا فى الدول الفرعونية عند الملوك وذوى اليسار ، ولعل تمثال رمسيس الثانى القائم بميدانه بالقاهرة ومانقش عليه من أسماء زوجاته العديدات وألقابهن خير دليل على ذلك – ثم كان هو النظام السائد بعدئذ فى الديانة اليهودية ولم يحرم هذه العادة إلا المجمع « وورمز الربانى » الشهير الذى عقد فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى وإن كانت بعض طوائفهم لاتزال تمارسه حتى اليوم أسوة بأنبياء بنى إسرائيل ولم يرد فى الإنجيل نص صريح مانع قاطع يحظر هذا التعدد . والنصوص التى يستند إليها القائلون بغير ذلك لاتستقيم دون الاعتساف فى تأويلها وتفسيرها ، ذلك بأن السيد المسيح لم يهدم الناموس الذى جاء به موسى عليهما السلام ، بل إن تعدد الزوجات ظل قائما فى المجتمع المسيحى حتى قرر مجمع « نيقية » تحريمه . وتلاه المجمع « الترينيوتى » وأورده كتاب « المجموع الصفوى » للشيخ الصفى ابن العسال العالم المسيحى المشهور – ولو لم يكن قائما حتى ذلك الحين لما كانت بهم حاجة إلى النص على تحريمه – وذلك تمشيا مع الآراء التى سادت الفلسفة المسيحية وقتئذ والتى ترى أن من يقول بأن الزواج خير من عدم الزواج يحرم .

ولما كان ذلك وكان الزواج هو نظام اجتماعى فى آثاره – فإنه يجب أن يكون رهناً بما يراه المجتمع فى هذا الشأن مع عدم المساس بعقيدة أحد بإلزامه باتباع نظام التعدد دون نظام التوحيد .

وإنما على المجتمع أن ينظم حدوده وضوابطه وآثاره على كل حال ، فقد يرى المجتمع نظراً لارتفاع مستوى المعيشة أولمقتضيات اجتماعية أوخلقية يراها – أن يلزم أفراده باتباع نظام الزواج الفردى – أويكون العكس فيعم الرخاء أوتقوم ضرورات حربية من وجود عدو يتربص بالبلاد الدوائر ، ويزيد هذا العدو من تعداده بوسائل مشروعة وغير مشروعة تقتضى مقابلتها بما يدرأ خطرها – فعلت ذلك كل من فرنسا وألمانيا بعد أن ذهبت حروبها المتصلة بخيرة شبابهما فاضطرتا إلى توريث الابن غير الشرعى تشجيعا لزيادة النسل عن أية سبيل ، أوقد تقع – لاقدر الله – حروب ذرية أوهيدروجينية تفنى الحرث والنسل فيتطلب الأمر عندئذ زيادة التكاثر لملء الفراغ الذى تحدثه أمثال هذه الكوارث بأسرع مستطاع .

ولما كان ذلك كذلك ، وكان تنظيم الزواج وآثاره من شأن المجتمع على النحو الذى سلف تفصيله ، ورغبة فى أن يتولى قانون محدد تنظيم الأسرة المصرية كوحدة اجتماعية متجانسة فى وطن موحد - فإن المحكمة تهيب بالمشرع أن يستكمل مابدأه فى هذا السبيل واستكمال مايعتور القانون رقم ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ من نص فى هذا الصدد ، بالعمل على توحيد القانون بعد أن وحد المحاكم التى تطبقه .

« وحيث إنه بإنزال حكم ماسلف فى البند السابق جميعه على وقائع الدعوى الماثلة لتستبين المحكمة على هديه ماإذا كان للمدعى حقًّا ظاهراً فى تركة من يدعى نسبه إليه ، فإن حسب المحكمة أن تستبين من زواج المرحوم صالح شكرى شكر الله ، بالمدعى عليها الأخيرة والدة المدعى ، والذى تم على يد كاهن فى كنيسة الروم الأرثوذكس هو القس استفانوس خورى بتاريخ ١٩٢٩/٦/١ وكان سن الزوجة وقتئذ سبعة عشر سنة فقط ، وذلك بحضور شهود وقعوا عليه ممايظاهر القول بحسن نية الزوجة - ولو لم يثبت ذلك فى دفاتر الكنيسة كما قرر المدعى عليهم المعارضون استناداً إلى الشهادة السلبية المقدمة منهم - ومن المستخرج الرسمى عن شهادة ميلاد المدعى ونسبته فيها إلى والده مورث المدعى عليهم الأربعة الأول - ولوكان ذلك بتبليغ من القابلة التى تمت الولادة على يديها كما جرى عليه العمل فى أمثال هذه المناسبات ومن شهادة تعميد المدعى وتسميته باسمه الحالى على النحو الذى سلف بيانه - حسب المحكمة ذلك - وأنه لم يحكم بعد بإبطال عقد الزواج الذى يستند إليه المدعى ، للقول بأن للمدعى مصلحة ظاهرة تتطلب اتخاذ إجراء موقوت حفظاً لحقوقه المحتملة وفقاً للمادة الرابعة من قانون المرافعات وأن النزاع الذى يقيمه المدعى فى هذا الصدد له من سمات الجد مايستنهض المحكمة لإضفاء حمايتها الموقوتة عليه - على النحو المقرر فى المادتين ٧٢٩ . ٧٣٠ من القانون المدنى ، درءاً لما يتهدد حقوقه المحتملة من خطر عليها إذا استمرت أعيان التركة تحت يد تنازعه الحق فيها .

« وحيث إنه وإن صح ماسلف ، فإنه وقد تقدم كل من شكر الله كامل شكر الله وحنا كامل شكر الله ، طالبين قبولهما خصما فى الدعوى أستنادا إلى القول بأن الأطيان المطلوب فرض الحراسة عليها من بين أعيان تركة المرحوم صالح شكرى شكر الله تدخل ضمن أطيان وقف أخرى قدرها ١٢٠ فداناً ، كان طالبا التدخل ناظرين عليها فأصبحا حارسين قانونيين بعد حل الأوقاف على غير الخيرات ، وقدما بين يدى دعواهما

حكما صادراً من المحكمة الشرعية العليا بتاريخ أول مايو سنة ١٩٥١ يفيد إقامتهما وثالث معهما هو المدعى عليه شكرى صالح شكر الله نظاراً على أعيان وقف المرحوم صالح شكر الله ولم يمار أحد من طرفى الدعوى فى مدعياتهما بشىء وقد طلبا إقامتهما حارسين قضائيين على هذه الأطيان إذا رأت المحكمة فرض الحراسة القضائية عليها ، وترى المحكمة قبولهما من ثم خصما فى الدعوى .

« وحيث إنه لما كان ذلك ، وكان البادى من الاطلاع على حكم المحكمة الشرعية العليا سالف الذكر ، أن المتدخلين فى الدعوى والمدعى عليه المذكور ، قد أقيموا نظاراً منضمين غير منفردين على أعيان وقف مورث الطرفين ، ولم يجحد ذلك أحد منهما – بل سارع المدعى إلى ترشيحهما للحراسة كما سبق أن وافق من قبل على حراسة المدعى عليه المذكور ، الأمر الذى يحدو بالمحكمة أن تخلص من كل ماسلف إلى استبدال الحراسة القضائية بالحراسة القانونية المفروضة على هذه الأطيان موضوع التداعى فى هذه الدعوى والمبينة بالصحيفة ، وتقيم كلا من المتدخلين فى الدعوى والمدعى عليه شكرى صالح شكر الله حراساً قضائيين ، منضمين غير منفردين وبدون أجر عليها وعلى باقى أعيان تركة المرحوم صالح شكرى شكر الله ، المبينة بصحيفة الدعوى وذلك لإدارتها وتحصيل ريعها وتقسيم صافى هذا الربح بين المدعى والمدعى عليهم الأربعة الأول بحسب الشريعة الإسلامية للذكر منهم مثل حظ الأنثيين ، وتسليم المدعى عليهم المذكورين نصيبهم فيه وإيداع نصيب المدعى خزينة المحكمة ريثما ينتهى الخلف بين الطرفين إلى رضاء أوقضاء بحكم حاسم للخصومة القائمة بينهما بشأن الميراث وذلك بعد أداء الضرائب القانونية ومصروفات الإدارة الضرورية ، وتقديم كشف مفصل بأوجه الحساب مدعم بالمستندات ، كل ستة أشهر وإيداعه قلم كتاب المحكمة . وذلك مع إضافة المصروفات إلى عاتق الحراسة باعتبارها إجراء كافلا لحقوق الطرفين كليهما – وبغير حاجة للنص على النفاذ فهو حتمى (م ٤٦٦ / ١ مرافعات) » .

القضية رقم ٩٧٧٨ سنة ١٩٥٧ رئاسة السيد الأستاذ عبد العزيز هندى القاضى .

حول التفاهم الإسلامي المسيحي

رسالتان متبادلتان : بين صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر والدكتور ميجيل دى إيبالثا سكرتير عام جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية بمدريد – أسبانيا

السيد المحترم صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فيسر جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية فى مدريد ان تتوجه إلى فضيلتكم لتشرف بإخباركم بما استقر عليه الراى من انعقاد مؤتمر قرطبة العالمى الإسلامى المسيحى الثالث خلال عام ١٩٧٩ . إن شاء الله وقد رات إدارة الجمعية اختيار موضوع «محمد وعيسى ملهمان للقيم الاجتماعية المعاصرة» ليكون محور اللقاء الإسلامى المسيحى المقبل والمقصود ان يشرح المسلمون كيف يعبر النبى ﷺ عن هذه القيم المعاصرة بالنسبة لمسلمى اليوم سواء برسالته وعقيدته ودعوته . او بشخصيته وسلوكه ونفسيته المثالية ، بينما يشرح المسيحيون كيف يعبر عيسى عليه السلام عن القيم الاجتماعية نفسها عند مسيحيى اليوم . . ورغبتنا ان يدرس هذا الموضوع مجموعة ممن يعيشون فى مجتمع متكافل يفيض بالمودة والوفاق . وإن اختلفت عقائد مواطنيه وتنوعت اديانهم .

وسوف يتولى عملية تنظيم وإعداد المؤتمر من الجانب المسيحى الكليات المتخصصة فى علوم اللاهوت نذكر منها بصفة خاصة كلية اللاهوت بمدريد . والجامعة البابوية فى روما . . ويعد الموضوع – بمشيئة الله – من الجانب الإسلامى الجامعات المتخصصة فى بعض البلدان الإسلامية . ومؤسسات إسلامية وشخصيات مسلمة ، يستوى فى ذلك من يعيشون داخل إسبانيا ومن يقيمون خارجها .

ونعتقد انه من الممكن دراسة رؤوس

الموضوعات التالية فى نطاق الموضوع العام للملتقى وهى : الحرية والعدالة والمساواة فى مختلف مظاهرها وجوانبها المتعددة فى هذا الدين أو ذاك . ولا يعنى هذا بطبيعة الحال . ان هذه هى الكلمة النهائية على العكس ، نحن نتوجه إليكم منذ الان وفى لحظة نشاة الفكرة املين ان تبروا الموضوع بما تقترحونه وان تتفضلوا بإضافة ما ترونه مفيدا ونافعا ، ولسنا نشك فى إنكم ستزودوننا بسديد الراى وصائبه — بإذن الله . فأنتم ادرى بهذا الحقل منا ، ولكم فى هذا الميدان خبرة قد لا تتوافر للكثيرين بحكم احتكاكم بالمجتمعات ، وجهودكم فى القارات المختلفة . وقد سبق أن شرفتمونا حين تفضلم بإيفاد وفد مثل بلادكم فى مؤتمر قرطبة الإسلامى المسيحى الاول الذى عقد فى عام ١٩٧٤م .

وما نبغيه فى هذا المرحلة — مرحلة الإعداد والدراسة — هو النصيحة وتبادل الراى ، والاستفادة بالمشورة دون إلزام او التزام بحضور المؤتمر . وسوف نتصل بكم فى مرحلة اخرى إن شاء الله من اجل توجيه الدعوة لحضور جلسات الملتقى نفسه إذا رغبتم فى دلك .

وفى انتظار كريم ردكم نرجو أن تتقبلوا خالص تحياتنا وأطيب أمنياتنا بالصحة والسعادة .

وسلام الله عليكم وتحياته ورحمته وبركاته ، ، ،

سكرتير عام جميعة الصداقة الإسلامية المسيحية

(إمضاء)

دكتور . ميجيل دى إيبالثا

مدريد ابريل ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم د . ميجيل دى إيبالثا

تحية طيبة وبعد

فقد وصلنى خطابكم المؤرخ : ابريل ١٩٧٨ م

وإنى اشكر لكم هذه الرغبة فى التفاهم بين المسلمين والمسيحيين وإثراء الفكر المعاصر بالحلول التى أوحاها الله تعالى إلى محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم . وذلك فيما يتعلق بالمشاكل المعاصرة .

وقد وصلتنى أخبار المؤتمرين السابقين .

واحب أن أنبه . فى مودة ، ومن أجل تفاهم عميق إلى بعض الامور :

١ — إن الاسلام — منذ أن بدأ — خالف الجوّ العالمى : اليهودى والوثنى . . . فى أمر عيسى عليه السلام . لقد أعلن الإسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه . اما عيسى عليه السلام فهو وجيه فى الدنيا والاخرة . وأما أمه فهى صديقة .

ووجود عيسى عليه السلام جزء من إيمان المسلم . وبراءة امه وطهرها جزء من إيمان المسلم . ولم يقف الإسلام من عيسى عليه السلام ومن امه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم إلى الان من عيسى وامه . لقد افتروا - ومازالو - على عيسى وعلى أمه ورموهما ببهتان شنيع . . اما الإسلام فإنه مجدهما ومازال مستمرا فى تمجيده لها .

فماذا لقى المسلمون من المسيحيين فى مقابل ذلك ؟

٢ - إنه لابد من الاعراف بالدين الإسلامى وبرسوله حتى ينال المسلمون فى أوربا ما يناله اليهود من الاعتراف باعيادهم وبشعائرهم . . وأنه لا يتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحترمه المسلمون هو عيسى عليه السلام واتباع رسول لا يعرف به المسيحيون وهو محمد ﷺ .

٣ - إن المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد وكان يجب ان يسيرا فى خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة . . ولكن - للاسف - يسير المسيحيون فى طريق تنصير المسلمين بقوة : فهم يعملون ليل نهار على ان ينصروا المسلمين فى كل مكان فى العالم ، وكل الدول الغربية وامريكا ترسل إرساليات لتنصير المسلمين باسلوب مكشوف واضح او باسلوب خفى مستور ، ويضيق المسلمون بذلك ضيقا شديدا . ورغم ذلك فإن ملايين الجنيهات تنفق فى سعة للتنصير بكل الطرق .

ومما هو ملاحظ ان الدول الإسلامية ليس لها إرساليات تبشيرية . . وقد ارسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة . ومع ذلك فإن المسيحيين تركوا خراف بنى إسرائيل الضالة واخذوا يعملون على تنصير المسلمين . . تساعدهم الثروة . وتساعدهم وسائل الحضارة الحديثة .

ولو حصروا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما اثار ذلك ضيق المسلمين الشديد . وكراهيهم للاسلوب ولموضوع التنصير نفسه .

٤ - والمسلمون أقليات فى بعض الاقطار المسيحية مثل الفلبين . وهذه الاقليات المسلمة ينكل بها باسم المسيحية : تؤخذ ارضها وييتم اطفالها وتترمل نساؤها . ولا تجد إلا ارتياحا فى نفوس الاغلبية المسيحية . . ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين فى الاقطار التى بها الأغلبية المسيحية : نحن نحب ان ينتهى ذلك : إنسانية ونحب أن ينتهى ذلك ديناً .

٥ - وفى المؤتمرات التى تعقد فى إسبانيا وغيرها هناك اسلوبان للحديث :

(ا) التزام العقل . وهنا يتحلل

المسلمون من مبادئ دينهم فيتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالأسلوب العقلى فيكون موقفهم منهما موقف اليهود : يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا . ويقولون على المسيحية نفسها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا .

ولكن المسلمين فى هذه المؤتمرات يتبعون مبادئ دينهم فيحترمون المسيح عليه السلام وأمَّه . . أما المسيحيون فإن البعض منهم لا يبالى ، فيتحدث عن رسول الإسلام بما يضيق به المسلمون : فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم ، وإنما تكون وسائل تنافر ، وذلك كما حدث فى المؤتمرين السابقين من بعض المسيحيين .

(ب) التزام ما تمليه روح التفاهم : فلا يساء إلى المسلمين فى مقدساتهم .

٥ – ونحن من جانبنا قد قدَّمنا أسس التفاهم واضحة سافرة : احترام المسيح عليه السلام ، احترام أمه عليها السلام . . .

فماذا قدم المسيحيون ؟ لا شىء ! ! .

بل على العكس من ذلك لقد هاجموا ومازالو يهاجمون رسول الإسلام ومبادئ الإسلام . فهل يمكن مع ذلك التفاهم ؟

٦ – وأحب أن أقول إن الإسلام هو العامل الأكبر فى تثبيت المسيحية حين اعترف بوجود المسيح عليه السلام وحين برَّأ أمه . ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثيل له ومازال يقابل بهذا الجحود من المسيحيين على أكبر خدمة أديت للمسيح عليه السلام .

وبعد : فإنى أحب صادقاً أن نتعاون فى صدِّ كل انحراف . . وأحب أن أقول إنه لولا تقديرى لكم لماكتبت لكم هذا . وإننى يسرنى أن أقرأ لكم .

وسأتحدث إليكم عن رأيى فى موضوع المؤتمر فى المستقبل إن شاء الله .

ولكم تحيتى وتقديرى . . .

« د . عبد الحليم محمود »
شيخ الأزهر

الفتاوى

إعداد الأستاذ / عبد الحميد شاهين

(س ١) ما معنى كلمة « القدر » التى ورد ذكرها كثيرا فى القرآن الكريم ؟

(جـ ١) القدر الذى جاء فى القرآن الكريم مضافا إلى الله مثل قوله : « إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر » (١) وقوله : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » (٢) وقوله : « والذى قدر فهدى » (٣) وغير ذلك . . يرجع معناه إلى أن الله خلق هذا الكون على سنن مضبوطة ومقادير معينة . ولم يكن صادرا عن طريق الصدفة التى لا تعتمد على نواميس يجرى عليها ، ويسير على مقتضاها ، ويؤدى بها مهمته . ولا توجد فى القرآن كلمة « قدر » بالمعنى الذى يفهمه كثير من الناس ، والذى يرجع إلى أن الإنسان مجبور فى أفعاله بحيث يكون مقهورا عليها . .

والقدر بالنسبة للإنسان معناه : أنه خلقه بإرادة وحرية واختيار فيما كلفه به من أعمال الخير والبعد عن أعمال الشرّ . وكل نصوص القرآن تدل على ذلك دلالة واضحة ، واختيار الإنسان أساس لتكليفه ومحاسبته ، ومحال أن يكون الإنسان مجبورا على فعله ثم يكلف ، ويثاب أو يعاقب على مالا يستطيع صرف نفسه عنه . . وعلمُ الله بما سيكون من الإنسان باختياره وإرادته يحقق معنى الاختيار وينفى القهر والجبر . وصفة العلم صفة كشف وليست صفة تأثير . .

(س ٢) ما حكم الشرع فى تقبيل أيدى العلماء والوالدين ؟

(جـ ٢) التقبيل من العادات القديمة التى عرفها الناس وانتشرت بينهم . . ومنه القبيح المستهجن . . ومنه الحسن المقبول ، وقد اختلط على الناس . بحكم التقاليد المختلفة والأهواء النفسية – قبيحه بحسنه – ومستهجنه بمقبوله ، وصرنا نرى منه ما يمقته الشرع والدين . . وما تنكره المروءة

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٣ من سورة الأعلى .

والشرف ، وما قد يصل بصاحبه إلى عتبة الكفر والخروج من الإيمان . . ونرى منه مالا بأس به فى نظر الشرع وتقدير الشرف . . .

والواجب فى هذا الشأن النظر فيما ينبغى أن يكون فيفعل ، ومالا ينبغى أن يكون فيترك ، والأصل ، الذى يجب أن نجعله أساسا – هو تقدير الباعث عليه ، فإن التقبيل قد يكون بقصد الخضوع وإعلان العظمة ، وقد يكون بقصد إشباع الغريزة تحت ستار التحية والتعظيم ، وقد يكون تلبية لعازفة الشفقة والرحمة ، وقد يكون اعترافا بفضل . . وهكذا تتنوع بواعثه . .

فإن كان الباعث يمقته الشرع – أخذ التقبيل حكمه وكان ممقوتا ، وذلك كتقبيل الأرض أمام الملوك والعظماء وأدعياء التصوف . . وقد صرح العلماء بحرمته ، وقالوا : إن فاعله والراضى به آثمان ، لأنه يشبه العبادة ومن مظاهر الوثنية .

ومنه تقبيل الأجنبيات ، سيدات أم فتيات ، فى الخدود أو الأيدى ! ! فهو محرم ممقوت ، وفاعله والراضى به آثمان .

وإن كان الباعث لا يمقته الشرع أخذ حكمه . . وذلك كالتجلة والاحترام لتقىّ ورع ، أو عالم عامل ، أو حاكم عادل . تستقيم بعدله الأحوال ، ويقيم حدود الله . .

والوالدان مقدمان على الناس جميعا فى استحسان تقبيل أيديهما . . « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (١)

(س ٣) :

(ا) يقطع بعض الزراع الفول الأخضر والذرة الخضراء قبل نضجها فهل تجب فيهما زكاة ؟

(ب) وهى فى الطماطم التى تباع فى الأسواق زكاة ؟

(جـ) وهل فى الموالح والفاكهة زكاة ؟

(د) مع الإحاطة بأن من الناس من يزرع هذه الأشياء ويبيعها لحسابه . . ومنهم من يزرع ويبيع لتاجر الجملة .

(جـ ٣) نفيد عن الأول بأن ما يبيعه الزارع من الفول الأخضر والذرة الخضراء تجب الزكاة فى ثمنه بنسبة نصف العشر إن كان سقيه بالآلة ، وما يأكله الزارع أو يهديه فيجب نصف عشر قيمته إن كان سقيه بالآلة كذلك .

وعن الثانى بأن الطماطم لا زكاة فيها عند جمهور الفقهاء ، وتزكى عند أبى حنيفة ويخرج الزكاة من ثمنها على ما تقدم فى السؤال الأول .

وعن الثالث بأن الموالح والفواكه تأخذ حكم الطماطم فتزكى عند أبى حنيفة

(١) الآية ٢٤ من سورة الإسراء .

ولا زكاة فيها عند جمهور الفقهاء .

هذا بالنسبة للزراع ، أما التجار فإن عليهم زكاة التجارة فى كل ما يتجرون فيه يقوِّمون تجارتهم آخر العام ويخرجون من قيمتها ربع العشر حيث بلغت نصابا والله أعلم .

(س ٤) هل يجوز للحائض قراءة القرآن من غير مسّ للمصحف ؟

(جـ ٤) نفيد بأن يجوز شرعا للحائض أن تقرأ القرآن من غير مس للمصحف ما دام الحيض نازلا . فإن انقطع الدم يحرم عليها القراءة حتى تغتسل ، وهذا هو مذهب الإمام مالك رضى الله عنه .

(س ٥) هل يجوز أن يخطب رجل الجمعة ثم يصلى مأموما ويؤم الناس إمام غيره ؟

(جـ ٥) نعم يجوز أن يخطب خطيب ، ويصلى بالناس غيره . وكل من الخطبة والصلاة صحيحة فى هذه الحالة والله أعلم .

(س ٦) هل يجوز نقل جزء من جسم ميت إلى حى ؟

(ج) يتأذى الميت مما يتأذى منه الحى ، فأخذ جزء منه يؤذيه ، وقد يتأذى أهله كذلك . وعدم انتفاع الحى بعضو من أعضائه وتعطل نفعه ضرر يفوق ضرر الميت إذا قورن به ، لأنه إذا ترك جزء الميت للميت فإنه يبلى ولا ينتفع به أحد . وإذا نقل إلى غيره من الأحياء فإنه سيؤدى وظيفته وينتفع به الحى ، وقد يتعدى نفعه لغيره من الأحياء كذلك فيعود نفعا عامًّا .

ولا يقف دون هذا ضرر الميت بأخذ جزئه منه ، فإن الضرر الأخف يحتمل لدفع الضرر الأعظم ، ولا شك أن ضرر الحى أكثر ، فالنقل إليه أولى أن يسلك سبيله ويتبع ، على أن الإنسان اجتماعى لم يخلق لنفسه ، وإنما خلق له وللمجتمع ، فإذا أمكن أن تبقى منفعة بعض أجزائه ولو لغيره بعد وفاته فلا مانع منه ، ولا يقف الدين فى سبيل ذلك بشرط ألا يكون فى ذلك مُثلة بالميت ، وأن يستأذن أهله فى ذلك حتى لا يترتب على ذلك مفسدة . .

(س ٧) هل يجوز حرمان الابن العاق من الميراث ؟

(جـ ٧) قسوة الولد على أبويه أو أحدهما أو على أحد أفراد أسرته أمر لا يجوز بحال من الأحوال ولا يرضاه الله من الولد . . وهو بذلك مسىء إلى نفسه وإلى دينه ، ومحل سخط من الله فى الدنيا والآخرة . .

ومع ذلك فحرمانه من التركة مخالفة لتشريع الله ، ولم يجعل الله عقوبة العبد بقطع رزقه . . أو ضياع استحقاقه فى التركة ، لأنه سوف لا يستحقها إلا بعد وفاة المورث له . سواء كان الأم أو

الأب .

ومن الجائز أن يكون حين استحقاق نصيبه فى الميراث مهذب النفس طيب الأخلاق حسن السلوك ، فلا مسوغ لعقوبته بالحرمان ، ونظرا لوجود إخوة صغار يستحقون التربية فإنه يجوز للأب أو الأم أن يخص الأولاد الصغار بشىء من الملك دون هذا الولد الكبير الذى انتهت تربيته واستغنى عن والديه . . وذلك عن طريق الوصية فى حدود ثلث المال ، تمييزا لهم عن أخيهم العاق عملا بقانون الوصية الذى أجاز الوصية للوارث دون توقف على رضا بقية الورثة . . والله أعلم *

عبد الحميد السيد شاهين

« وفد ندوة العلماء بالهند »

يزور مصر الآن وفد ندوة العلماء بالهند بدعوة من الإمام الأكبر شيخ الأزهر . للاطلاع والدراسة على نظام العمل فى الأزهر الشريف ومؤسساته .

ويتكون الوفد من الأستاذين : سعيد الأعظمى الندوى مدير مجلة البعث الإسلامى التى تصدر باللغة العربية فى الهند ، والأستاذ واضح رشيد الندوى أستاذ اللغة العربية وآدابها بندوة العلماء .

وسيغادر الوفد مصر فى منتصف شهر يونيو القادم إلى المملكة العربية السعودية للمهمة نفسها .

---

* الإجابة عن السؤالين الأول والثانى من كتاب الفتاوى للأستاذ الإمام الشيخ محمود شلتوت . والإجابة عن بقية الأسئلة من سجلات الفتوى بالأزهر .

كتاب الشهر ..

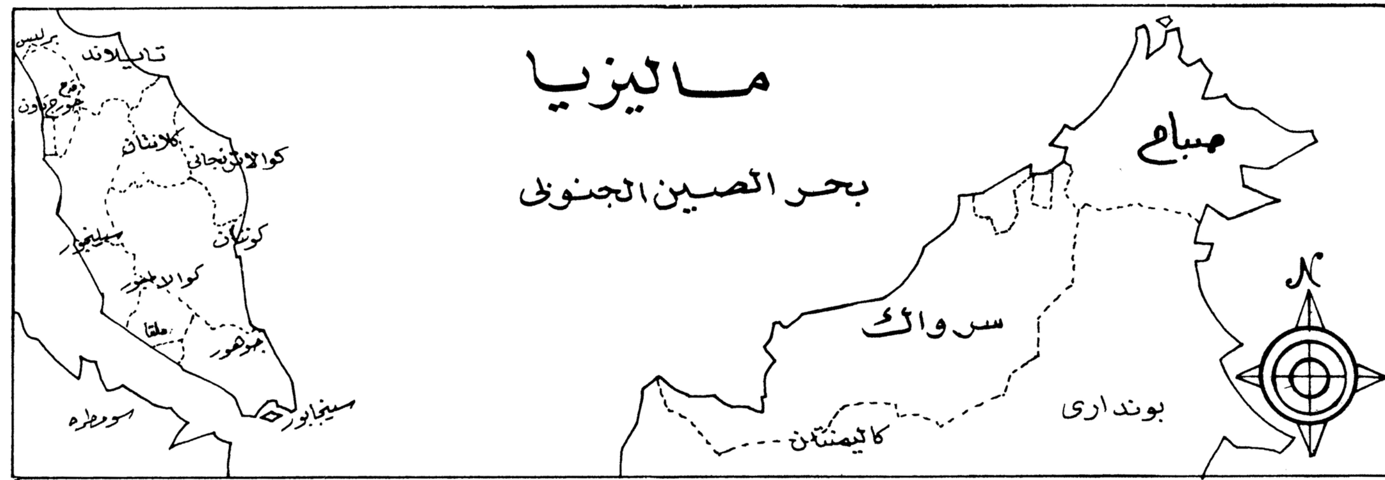
****

ماليزيا ..

MALAYSIA

الناس والخطر .

الدكتور عبد الودود شلبي


ماليزيا
بحر الصين الجنوبي
سراواك
صباح
بونداري
كاليمنتان
تايلاند
برليس
كلانتان
كوالاترنجانو
كوانتان
كوالالمبور
ملقا
جوهور
سينغافورا
سومطره
N

فى عام ألف وثلثمائة وستين بعد الهجرة . . دلفت – ولأول مرة – إلى ساحة الجامع الأزهر الشريف بعد تسجيل اسمى كطالب فى معهد القاهرة . وتذكرت حين تجوالى بين أروقته دعوة أمّى التى طالما تمنت لولدها أن يكون من علماء هذه الجامعة المباركة . وأن يمسك عمودا من تلك الأعمدة التى ترمز إلى مقام صاحبه الكبير فى العلم والفتوى . .

لقد صحبنى والدى فى هذه الزيارة ، وقدمنى فخورا إلى أحد شيوخه الذين تربطه بهم صلة . . وما زلت أذكر حتى هذا اليوم صورة الشيخ « أبو القاسم إبراهيم » . . فقد كان من علماء الأزهر المنتسبين إلى الجمعية الشرعية ، وكانت بينه وبين خالى الشيخ « سيد » زمالة فى هذه الجمعية ، وتعاون صادق فى الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة المحمدية . . !

ماذا أرى فى هذه الساحة ؟ خليط من الأساتذة والطلبة . . ومزيج من الأجناس والشعوب المختلفة . ماأروعك أيها الأزهر العظيم . . لقد جمعت فى ساحتك كل الدنيا . . وزويت لك الأرض حتى صارت تحت مآذنك العليا . .

وتقدم إلى طالب من أصحاب هذه الوجوه الغريبة . ثم طلب منى رعاية كتبه ريثما يعود من دورة المياه القريبة .

كان هذا الطالب من « الملايو » فقد قرأت اسمه على صفحة كتاب من تلك الكتب . . وعرفت بلده من الغلاف الموشّى بماء الذهب . . ومنذ ذلك اليوم . . وهذه الكلمة لم تغب عنى . . الملايو . . وأين تكون ؟ . . وفى أى القارات تقع ؟ . . وماذا يركب المسافر إليها من وسائل النقل ؟ . . الغليون . . ؟ ولكن ماهو الغليون ؟ . . انى لاأعرف عن هذه الكلمة أكثر مماكانت تحدثنى به جدتى فى ليالى السمر . . أم « الرفاص » الباخرة النيلية الصغيرة التى كانت وسيلتنا المحببة فى السفر . . أم الجمال – هكذا كنا نسمع من

الحجاج الذين يسافرون إلى أرض الحرم . . لم يكن ركوب الطائرة قد شاع كما هو الحال فى أيامنا هذه . . بل كنا نحسب من يركب الطائرة كافرا يستحق اللعنة . . وَعَدُوًّا من أعداء الشريعة والمِلة . . !

وفى حى « الجودرية » . . كانت إقامتنا بمنزل من تلك المنازل التى تعود سكناها « المجاورون » أى الطلبة . . لم يكن يشاركنا فى هذا البيت غير صاحبته العجوز « أم أحمد » . . وذات يوم سمعنا دبيبا وحركة فى الشقة المجاورة . . وجاءت العجوز لتخبرنا عن الساكن الجديد وتقول : إنه من « جاوة » . . جاوة ! . . وما « جاوة » هذه أيضا ؟ ! . . إن كل مانعرفه عن هذا البلد أنها تشتهر بنوع من البخور يسمى « الجاوى » . . وحتى هذه التسمية هل هى نسبة إلى « جاوة » أم هى شىء من اختراع الدجالين والسحرة . . ؟ ولم تمض غير أيام قليلة حتى توثقت بيننا وبين هذا الأخ العلاقة ، وتكرر الحديث عن بلاده فى كل زيارة . . وعلمت منه لأول مرة – أن الشرق الذى ننتسب إليه ينقسم فى كتب الجغرافيا إلى قسمين : شرق أوسط تقع فيه مصرنا العزيزة . . وشرق أقصى تقع فيه الملايو ، وجاوة ، وسومطرا . .

* * *

لقد مضى أكثر من ثلث قرن على هذه القصة . . ألا ماأسرع مرور الأيام فى هذا الزمن . . هل نقص النهار والليل ؟ أم مُحِقَت البركة فى كل شىء ؟ أم مات فى الناس الشعور والوعى ؟ ولكنها سنَّة الحياة . . بل هى طبيعة البشر حين تختل فى القلوب موازين الخير فينقلب كل شىء إلى النقيض والعكس . وينعكس أثر ذلك على القلب والنفس ، وكم أشعر بهذه الحسرة حين أُرْجع بصرى فى رحاب الأزهر . الأزهر الجامع والأزهر الجامعة ، والأزهر التراث ، والأزهر أمل المسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض .

نعود إلى الملايو . . أو إلى ماليزيا بعد أن عرفت بهذا الاسم إثر قيام الاتحاد الذى يضم ثلاث عشرة ولاية هى : جوهور (Johore) وقدح (Kedah) وكلانتون (Kelantan) وملقا (Malka) ونجرى سمبيلان (Negrismbilan) وبارليس (Parlis) وصباح (Sabah) وسرواك (Sarwak) وسلانجور (Selangor) وترنجانو (Trenggano) وكوالا لامبور (Kuala Lumpur) العاصمة ، وكانت سنغافورة (Singapore) عضوا فى هذا الاتحاد . ثم انفصلت عنه خوفا على (بوذيتها) من الإسلام الدين الرسمى للاتحاد .

ولم يكن انفصال سنغافورة هو بداية

المشكلات فى هذا الاتحاد.. بل إن إندونيسيا المسلمة شعباً. الشيوعية حكومة (فى عهد سوكارنو). ناصبت هذا الاتحاد العداء منذ قيامه، وأعلنت عليه حربا سياسية ضارية حساب أعدائه.

ولايعرف بالضبط متى وصل الإسلام إلى الملايو. ولكن من المعروف أن علاقة شبه جزيرة الملايو كانت قوية مع الهند.. وخاصة مع سواحلها الغربية التى انتشر فيها الإسلام فى وقت مبكر. نتيجة التجارة وانتقال المراكب المستمر بينها وبين أطراف شبه الجزيرة العربية التى انطلق منها الإسلام، وكذلك كانت روابطها متينة مع جزيرة سومطرة المواجهة لها من جهة الغرب، والتى وصلها الإسلام أيضا لأن أطرافها الشمالية أقرب إلى الغرب حيث كانت تمخر السفن الإسلامية، وتتحكم فى طرق المحيط الهندى البحرية وفى موانئه وقواعده ومراكزه وبحاره، وينتقل التجار المسلمون والدعاة على سواحله يحملون مع بضائعهم بضاعة جديدة هى العقيدة.

وقد وصل الإسلام إلى جزيرة سومطرة فى القرن الثالث عشر الميلادى، فعندما زار الرحالة الإيطالى «ماركوبولو» المنطقة عام ١٢٩٢ م وجد التجار المسلمين فى ميناء «برلاك» على الساحل الشمالى للجزيرة ذات الصلة الوثيقة بالملايو. ومن سومطرة انتقل الإسلام إلى الملايو، وتقول إحدى الروايات أنّ «مالاقا» الواقعة على الطرف الغربى من بلاد الملايو قد دخلت فى الإسلام قبل هذه الفترة، فتروى أن سفينة عربية قادمة من «جدة»، يقودها سيدى عبد العزيز، قد رست فى ميناء مالاقا عام ١٢٧٦، واستطاع ركابها أن يحولوا ملك مالاقا إلى الإسلام، وأطلقوا عليه اسم السلطان محمد شاه، وتبعه شعبه فى اعتناق الدين الجديد. وبذا قامت أول مملكة إسلامية تعمل على نشر الإسلام فيما جاورها من البلاد، وفى غضون نصف قرن أصبحت مالاقا مركزا يشع منه الإسلام على المناطق المجاورة، فأسلمت باهانغ وجنوب الملايو.

وتذكر بعض الروايات أنه فى القرن الثالث عشر قامت مملكة «تماسبك» فى سنغافورة، وفى أوائل القرن الرابع عشر قامت فى «جاوة» إمبراطورية «ماجاپا هيت» الهندية القوية التى استطاعت القضاء على مملكة تماسبك.. وكان الإسلام قد وطد دعائمه فى أجزاء من شبه جزيرة الملايو. وقد استطاع ملك تماسبك أن يغادر سنغافورة مركز حكمه السابق، وأن ينتقل إلى مالاقا مع ١٥٠٠ شخص من أفراد العائلة المالكة، وأن يؤسس هناك حكومة، وقد اعتنق الإسلام بتأثير من

أعتنقه من سكان المنطقة ، وأطلق على نفسه اسم إسكندر شاه وكان ذلك فى بداية القرن الخامس عشر حوالى عام ١٤١٤ م .

ويقال إن الإسلام قد انتقل من باساى فى شمال سومطرة إلى مالاقا بعد أن أسلم حاكمها ليتزوج أميرة مسلمة من باساى وذلك لأن المسلمة لايصح أن تتزوج غير مسلم ، وكان ذلك حوالى عام ١٤٠٠ م ، ثم اعتنق شعب مالاقا الإسلام بعد إسلام حاكمه .

وقد كان ميناء سرى فيجايا فى شبه جزيرة الملايو أكبر مرفأ تصل إليه السفن الإسلامية . . وخاصة بعد القرن العاشر الميلادى عندما أُغْلِق ميناء « كانتون » الصينى فى وجه التجار الأجانب نتيجة لاضطرابات مملكة تانك الصينية ، وفى ذلك الوقت أصبحت سرى فيجايا أبعد نقطة تصل إليها السفن الإسلامية آنذاك .

ورغم ماحدث فى العالم الإسلامى من أحداث جسيمة مثل تدمير بغداد على يد هولاكو عام ١٢٥٨ م ، وسقوط الخلافة الإسلامية إلاّ أن المسلمين قد بقوا سادة التجارة فى المحيط الهندى .

ومن المحتمل أن يكون تجار جنوب الهند هم الذين كان لهم الأثر الواضح فى إسلام الملايو . . إذ أنّ المسلمين هناك يؤدون عبادتهم على المذهب الشافعى وهو المذهب المنتشر فى جنوب الهند . . بينما أثر التجار الكوجراتيين فى الهند كان أقل ، حيث يتعبدون على مذهب الإمام أبى حنيفة الذى لم ينتشر فى الملايو ، كما أن الصوفية قد انتشرت هناك عن طريق جنوب الهند وليس من شبه جزيرة العرب ، وقد يكون تجار غرب الهند وجنوبها قد لعبوا دورهم معا فى الدعوة ، وهذا لاينفى أثر الدعاة العرب الذين ما انفكوا يفدون إلى البلاد بعد أن توقفت الفتوحات الكبرى ، وانصرف المسلمون إثر ذلك إلى نشر الدعوة عن طريق التجارة والتنقل لهذه الغاية .

ويقــول الســير توماس أرنولد (Sir Thomas Arnold) فى رواية لطيفة نقلها عن أخبار « قويدة » - إحدى ولايات شبه جزيرة الملايو - وكيفية دخول الإسلام إلى هذه المنطقة :

قدم عالم عربى يدعى الشيخ عبد الله إلى « قويدة » وزار الراجة "Raja" . وسأله عن ديانة البلاد ، فأجابه الراجة :

إننا جميعا نعبد الأصنام . . فقال الشيخ : إذن أما سمعتم جلالتكم قط شيئا عن الإسلام والقرآن الذى أنزله الله على محمد ، ونسخ به كل الديانات الأخرى ؟ فقال الراجة : إذن أرجو منك - إن كان حقا ماتقول - أن تعلمنا هذا الدين الجديد وتهدينا بنوره .

فتهلّل الشيخ عبد الله تهلل الحماسة المقدّسة لسؤال الراجة إياه هذا السؤال . واحتضنه ثم فقَّهه فى الدين . . ولما اقتنع الراجة بتعاليم الشيخ أرسل فى طلب آنية الأرواح(١) التى طالما عكف عليها ، وأفرغ مافيها على الأرض بيديه ، ثم أمر بعد ذلك أن تحضر كل الأصنام التى فى قصره . فجمعت بين يديه أكوام من أصنام الذهب والفضة والطين والخشب . . فكسرها الشيخ عبد الله قطعا بسيفه وبفأسه ، وأحرقت الأجزاء فى النار . . ثم طلب الشيخ إلى الراجة أن يجمع كل نساء القلعة والقصر ، فلما قدمن جميعا فى حضرة الراجة والشيخ ، تعلمن عقائد الإسلام ، وكان الشيخ مهذبا لطيف المعشر كما كان جذابا رقيقا فى لغته ، حتى إنه جذب إليه قلوب ساكنى القصر ، ولم يلبث الراجة أن أرسل فى طلب وزرائه الأربعة المُسنِّين ، ولما دخلوا البهو استولى عليهم الدهش حين رأوا شيخا يجلس إلى جوار الراجة . فأبان لهم الراجة المهمة التى جاء من أجلها الشيخ ، وعندئذ أظهر الزعماء الأربعة استعدادهم للاقتداء بجلالته . . وقالوا : إننا نأمل أن يعلِّمنا الشيخ عبد الله كذلك ، ولما سمع الشيخ هذه الكلمات احتضنهم وقال لهم : إنه يأمل – لكى يبرهنوا – على إخلاصهم أن يستدعوا شعبهم بأسره إلى بهو الاستقبال ، ويحضروا معهم كل الأصنام التى تعودوا أن يعبدوها . . وأجيب الشيخ إلى طلبه ، وأحضرت فى الوقت المحدّد كل الأصنام . . وهناك حُطِّمت وحرقت وأصبحت رمادا تذروه الرياح ، ولم يأسف واحد منهم على ماأصاب آلهتهم الزائفة . . وكانوا جميعا فرحين بدخولهم فى حظيرة الإسلام . ثم سأل الشيخ عبد الله الوزراء الأربعة ما اسم أميركم ؟ قالوا اسمه « برا أونج مها وانجسا » فقال الشيخ دعونا نستبدل اسمه باسم آخر ، وبعد تبادل الرأى طلب الراجة أن يحول اسمه إلى السلطان « مزلف الشاه » .

وقد وصلت أخبار تحول سكان « قويدة » إلى الإسلام إلى « أنجيه » فأرسل إليهم سلطان هذه البلاد ومعه رجل يدعى الشيخ نور الدين – كان قد قدم من مكة – بعض الكتب ورسالة تقول : « من سلطان انجيه ونور الدين إلى أخينا سلطان « قويدة » والشيخ عبد الله اليمنى الذى يقيم الآن فى « قويدة » أرسلنا إليكم كتابين من كتب الدين حتى تتأكد دعائم العقيدة

---

(١) آنية الأرواح عبارة عن قارورة منبعجة على هيئة جَرَّة صغيرة من البلور أو الفخار ، يقتنيها أتباع الديانتين الهندوكية والبوذية لحفظ بعض من الرماد المتخلف من حرق أجداث أسلافهم بعد وفاتهم ، وفى اعتقادهم أن أرواح هؤلاء الأسلاف تبقى مع هذا التراب . .

الإسلامية ، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعلما كاملا :

وقد أرسل الراجه والشيخ عبد الله رسالة يردان فيها على هذه الرسالة ويشكرانهما على ماأنعما به عليهما . . ومن ثَمَّ ضاعف الشيخ عبد الله جهوده ، وبنى زوايا فى كل القرى على اختلافها . . بالإضافة إلى مافيها من المساجد ليكون الانتفاع عاما . . ثم علم الناس كل أحكام الدين وشعائره . . وكان الراجه وزوجته ملازمين للشيخ يتعلمان قراءة القرآن . . وبحث هذان الزوجان عن امرأة من نسل الراجات لتكون زوجة للشيخ ، ولكن لم يرغب أحد فى أن يهب ابنته زوجة للشيخ لأن هذا الرجل المقدّس كان يوشك أن يعود إلى بغداد .

ويعلق سير توماس أرنولد على هذه القصة قائلا :

إنه وإن كان ليس لدينا أخبار مفصلة أخرى فى تاريخ تحوّل أهالى شبه جزيرة الملايو إلى الإسلام لكننا نجد فى أماكن كثيرة أضرحة دعاة العرب الذين كانوا أول من دعوا بينهم إلى هذه العقيدة . . وقد أدت معاشرتهم الطويلة للعرب ومسلمى ساحل الهند الشرقى إلى جعلهم محافظين شديدى التمسك بفروض دينهم ، واشتهروا بين الناس بأنهم خير من يقتدى بهم من مسلمى الأرخبيل ، كما أنهم شديدو التمسك بالمحافظة على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج إلى مكة . .

* * *

هذه الصورة الوضيئة لأهل الملايو . وتدينهم العميق – يلمسها كل مسلم يلتقى بهؤلاء الإخوة ، فى لندن وفى حى بادنجتون (Paddington) تعرفت على بعض هؤلاء الإخوة من الدارسين فى جامعات بريطانيا وكانوا – كما يقول – أرنولد – محافظين على عقيدتهم . وفى المسجد الحرام كان يلفت نظرى الكثير من الحاجات القارئات فى المصحف وهن يرتلن آياته البينات فى خشوع وتقوى ولن أنسى الحاجة « فريدة » القارئة الشهيرة فى عموم ماليزيا وهى ترتل القرآن فى الحفل التذكارى الذى أقامه مركز الدراسات الإسلامية العالية فى فيلم بورى . . وفى كل عام تقام مسابقة دولية لأحسن القارئين والحافظين لكتاب الله فى العاصمة كوالالمبور ويتم الاحتفال بهذه المسابقة فى شهر رمضان . . وبرعاية الملك والملكة . . إن فى ماليزيا أحسن القراء لكتاب الله بعد مصر وأحسن هؤلاء القراء من الملاويين موجودون فى « كوتابارو (Kota Bharu) عاصمة ولاية كلنتن (Kelantan) .

* * *

لقد قرأت الكثير عن الملايو . .

وإندونيسيا . . فى كلية أصول الدين عام ١٩٥٠ م تعرفت على الأخ « محمد محيى الدين موسى » زميل الدراسة فى هذه الكلية . . رأيته ذات يوم يحمل كتابا اسمه « مرديكا » . . أى الحرية كان موضوع هذا الكتاب عن حركة التحرير فى إندونيسيا . . وعن جهاد المسلمين فى سبيل الاستقلال والحرية واعتقدت من ذلك اليوم أن الأخ محمد محيى الدين إندونيسى استعرت منه الكتاب الذى ألهب مشاعرى الإسلامية تجاه إخواننا فى هذه المنطقة النائية بالشرق الأقصى ومنذ ذلك الحين وخيالى يحلق ويطوف حول هذه الآفاق الغالية من الوطن الإسلامى .

إندونيسيا وماليزيا — لقد تبين لى أن هذه التفرقة فى الاسم خرافة . فإندونيسيا هى ماليزيا إيمانا وعاطفة — وكلانتون وسومطرا شقيقتان فى الروح والعقيدة ، والشعبان على جانبى الارخبيل اسمان لحقيقة واحدة هى الإسلام والأخوة .

فى مطـــــــار كوالالمبور (Kual Lumpur) وصلنا متأخرين عن موعدنا إحدى عشرة ساعة كنا متجهين إلى كوتابارو للاشتراك فى الاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس مركز الدراسات الإسلامية العالية فى فيلم بورى (Milam Puri) لم نجد فى انتظارنا أحدا . . لقد يئس المستقبلون من وصولنا بعد هذا التأخير . جلست على مقعد من شدة الإرهاق . . ليلتان بدون نوم . فأقبل على رجل ليسلم بحرارة ويحتضننى بقوة ثم يهتف وقد تملكته الدهشة : عبد الودود . . محمد محيى . . لقد كان هذا الرجل هو أخى فى الكلية . إنه الطالب الذى استعرت منه كتاب الحرية لم يكن إندونيسيا كان ماليزيا . . ولم يكن هذه المرة طالبا بل مديرا للتعليم الدينى فى الوزارة المركزية .

وقد مضى أكثر من ربع قرن على تخرجنا فى الكلية . . تغيرت الملامح وماجت الحياة بشتى الصور والأحداث . وتباعد فيما بيننا المكان والزمان ولكن شيئا واحدا بقى ولم يتغير .. الإيمان والحب . . والإسلام والقلب . . وإيمان الحب . . وإسلام القلب هما الرباط الوثيق بين المسلمين فى كل شعب . .

وها نحن فى طريقنا إلى فيلم بورى (Milampuri) فقد تلقينا الدعوة من الوزير داتو حاج بن محمد عسرى والأخ محمد على هارون للاشتراك فى الاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس مركز الدراسات الإسلامية العالية . . وقد مثل الأزهر فى هذا الاحتفال الأساتذة الدكتور : عبد الجليل شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ، وفضيلة الدكتور محمود شوكت

العدوى عميد كلية الشريعة والقانون والدكتور عبد الواحد بصيلة عميد كلية الطب . وعبد الودود شلبى مدير ورئيس تحرير مجلة الأزهر.

لقد تأسس هذا المركز فى الرابع من جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ على قطعة من الأرض تقدر بحوالى خمسة عشر فدانا . وبتأييد من السلطان يحيى بن المرحوم السلطان إبراهيم سلطان ولاية كلانتون (Kelantan) الذى قدم قصره هدية إلى هـــذا المــركز فى فيــلم بورى (Ketnton) فبدأ المركز عمله بإعلان افتتاح كلية الشريعة والقانون فى تلك السنة نفسها لتكون نواة صالحة للجامعة الإسلامية المقترحة وكان عدد طلبتها ٣٤ طالبا وطالبة فقط . وفى نفس الوقت افتتح معهد الدعوة والإمامة كقسم توجيهى لهذه الكلية الفريدة .

وفى ١٠ من أكتوبر ١٩٦٨ أصدر مجلس الحكومة الحالية (كلنتن) بموافقة جلالة الملك رقم ١٩٦٨/٩ بشأن الاعتراف بهذا المركز رسميا لدى الحكومة .

وفى سنة ١٩٧١ أعلن المركز افتتاح قسم التربية لخريجيه الذى كان هدفه تزويد الطلبة بالمواد التربوية الإسلامية والحديثة . وقد نجحت كلية الشريعة والقانون فى أن تقيم جسرا من التعاون بينها وبين جامعة ملايا بكوالالمبور فقبلت كلية التربية بالجامعة المذكورة خمسة من خريجى كلية الشريعة والقانون للحصول على الدبلوم فى التربية وقد أبدى هؤلاء الطلاب تفوقا ملحوظا فى دراستهم بهذه الجامعة .

وفى عام ١٣٩٤ هـ خطا المركز خطوة أخرى بافتتاح كلية جديدة هى كلية أصول الدين والاجتماع التى كان من أهدافها إعداد العلماء القادرين على حمل لواء الدعوة الإسلامية وتزويدهم بأحدث العلوم العصرية وقد اعترفت جامعة الأزهر بالشهادات الممنوحة من كليتى الشريعة وأصول الدين وقدمت المنح الكثيرة لهذا المركز حتى يستكمل الطلاب دراستهم العليا فى كليات الأزهر ومعاهده المختلفة .

وقد وضع مؤسسو هذا المركز نصب أعينهم هذه الأهداف الرئيسية منذ قيامه وتأسيسه :

– إحياء الدراسات الإسلامية العالية .

– تكوين جيل واع يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

– القيام على حفظ الثقافة الإسلامية والتراث العلمى للأمة الإسلامية .

– العمل على إيجاد الاتصالات بين الجامعات الأخرى فى الميادين العلمية داخل ماليزيا وخارجها .

– اتاحة الفرصة للطلبة الخريجين من

المدارس الثانوية الإسلامية والعربية لمواصلة دراستهم فى المستوى الجامعى .

– إعداد المدرسين المؤهلين لتدريس المواد الدينية واللغة العربية فى المدارس الثانوية وإعداد الموظفين الإداريين الملمين بالإسلام والملتزمين بشريعته .

– إتاحة الفرصة لخريجى المركز لمواصلة دراستهم العليا فى مستوى الماجستير والدكتوراه فى الجامعات والمؤسسات الإسلامية وغيرها فى داخل ماليزيا وخارجها .

المجلس الأعلى للمركز :

تتولى إدارة المركز هيئة يطلق عليها اسم « المجلس الأعلى لمركز الدراسات الإسلامية العالمية » وأعضاء هذه الهيئة يعينون من قبل جلالة سلطان الولاية لمدة ثلاث سنوات ولهذا المجلس كافة الصلاحيات فى جميع النواحى .

المجلس العلمى :

وفى المجال العلمى فإن المجلس الأعلى قد عين أعضاء هذا المجلس لمدة سنتين وفوض إليهم كل الأمور المتصلة بهذا المجال .

مجلس الكلية :

يعين المجلس العلمى أعضاء مجلس الكلية فمجلس كلية الشريعة والقانون يرأسه الأستاذ هاشم حاج يحى بصفته عميد الكلية ويساعده الأستاذ عبد الوهاب ومجلس كلية أصول الدين والاجتماع يرأسه الأستاذ محمد ابن جىء ووء بصفته عميد الكلية ويقوم بمساعدته الأستاذ أحمد حاج داود .

المواد التى تدرس فى المركز :

١ – كلية الشريعة والقانون :

تدرس فيها المواد الآتية : الفقه الإسلامى ، الفقه المقارن ، الأحوال الشخصية ، أصول الفقه ، المعاملات الحديثة ، قانون ولوائح المحاكم الشرعية تفسير آيات الأحكام ، أحاديث الاحكام ، مصطلح الحديث ، التاريخ الإسلامى ومدخل الفقه الإسلامى ، النظام الدستورى ، القانون المدنى الجنائى ، القانون التجارى ، القانون الدولى العام ، القانون الإدارى ، الاقتصاد ، اللغة العربية ، اللغة الوطنية وآدابها ، واللغة الإنجليزية .

ومدة الدراسة بالكلية للحصول على الإجازة العالية فى الشريعة والقانون هى أربع سنوات .

٢ – كلية أصول الدين والاجتماع :

تدرس فيها المواد الآتية : التفسير . علوم القرآن ، أصول التفسير ، ومناهج الحديث ، مصطلح الحديث ، رجال المفسرين ،

الأثر ، العقائد ، تاريخ الدعوة والدعاة ، الفقه ومدخله ، مقارنة الأديان ، أنتروفولوجيا العلوم السياسية . الاقتصاد ، علم الاجتماع ، النظام الدستورى ، علم النفس . المعتقدات الدينية والنزعات الباطنية ، الفلسفة ، التاريخ الإسلامى ، دراسة الأخلاق من الكتاب والسنة ، التصوف ، دراسة العلاقات بين القوميات المختلفة ، طرق البحث . اللغة العربية ، اللغة الوطنية وأدبها ،

ومدة الدراسة فيها للحصول على الشهادة العالية فى أصول الدين والاجتماع أربع سنوات .

٣ - القسم التوجيهى :

المواد التى تدرس فيه اللغة العربية (من نحو وصرف وبلاغة ونصوص أدبية مقال ، مطالعة ، الفقه الإسلامى ، أصول الفقه ، التفسير ، الحديث ، التوحيد ، المنطق ، الاقتصاد ، اللغة الوطنية وأدبها . اللغة الإنجليزية ، وحفظ سور من القرآن .

ومدة الدراسة فيها للحصول على الشهادة التوجيهية سنة واحدة .

لقد عادت بى الذاكرة إلى الوراء وأنا أتجول فى أرجاء هذا المركز . . تمثلت لى صورة الأزهر العريق - القديم - فى هذه المنطقة الغالية من العالم الاسلامى ، وسبح خيالى بعيدا - بعيدا . . إلى تلك الأيام التى عشتها فى معهد القاهرة الدينى ، كل شىء هنا يذكرك بالله علما . . وعملا . . الطلبة والطالبات فى سباق كبير للتحصيل والبحث ، إن الأزهر أمامى هنا فى مركز الدراسات العالية . . الأزهر الحقيقى الذى تركته بعيدا فى مدينة القاهرة . .

لكن من هم الرجال الذين يقفون وراء هذا العمل الكبير المخلص ؟ وماسر هذا النشاط السائد فى كل موقع ؟ وماالسبب فى هذا النجاح الفائق بهذا المركز ؟ إنهم باقة من خيرة الناس فى ولاية كلانتون . . مثلا . .

داتو محمد عسرى الوزير السابق ورئيس الحزب الإسلامى ، ومحمد على هرون مدير المركز ويحى عثمان نائب المدير وساعده الأيمن .

إن داتو محمد عسرى رجل يجذبك إليه ببساطته وبشاشة وجهه تشعر من أول وهلة أنه أخوك - وصديقك .

ومحمد على هرون - الهادئ ، الوديع الباسم - خريج الأزهر يلفت نظرك إليه أدبه الجم . . وزيه الأزهرى الناصع المهندم . . أما يحى عثمان . فشعلة من النشاط والحركة يجذبك إليه ، بمجرد سماعك صوته . . لقد أطلق عليه وفد الأزهر اسم « العفريت » لخفة ظله وتوقد ذكائه وعاطفته .

ثلاثة نماذج لحقيقة واحدة . . حقيقة

الإخلاص الذى هو سر النجاح والنجاة . . وحقيقة الداعية المتجرد لأقدس رسالة فى هذه الحياة . .

وقد آثر الأخوة فى فيلم بورى أن نقيم فى فندق يبعد بضعة كيلومترات على شاطئ بحر الصين الجنوبى . . وهذه المنطقة من الشاطئ تسمى بـ (شاطئ الغرام) . . والفندق نفســه يحمــل اسم هــذه المنطقة Beach of Passionate Love Hotel

إنه أشبه بفيلات صغيرة (Chalets) تفصل فيما بينها أشجار النرجيل ، ونخيل الزيت وكان منظرا رائعا تسلق القرود لجمع ثمار « جوز الهند » من شجرته العالية السامقة وبحركة فنية رشيقة .

فى هذا الفندق تعودت ملكة بريطانيا الإقامة كلما زارت هذه المنطقة وقد استرجعت فى مقامى هنا ذكريات الحرب العالمية الثانية ، هذه الصورة العذرية للغابات المتوحشة ، وماتحفل به من أسرار عجيبة ، ومايحيط بها من أحراش كثيفة كانت مثيرة لخيالى وقراءاتى البعيدة .

وفى الطريق من فيلم بورى إلى كوتابارو . . إلى شاطئ الغرام على بحر الصين الجنوبى رأيت هذه الطبيعة بجنونها وهدوئها . . بأمطارها وأنوائها . . أشجار زيت النخيل ، وأشجار المطاط ، وأشجار جوز الهند ، وحقول الأرز وأمواج بحر الصين وهى تترامى هادرة على الشاطئ الوديع حاملة إلى هذا البلد المسلم بقايا « الثورة الثقافية » وحطام النجم الأحمر – والخوف الذى يغلف قلوب الناس بغلالة من القلق والترقب ؟ !

إن هذه المنطقة من الساحل أشبه بلسان يمتد إلى داخل البحر ، ومن وجهة النظر الاستراتيجية . فإن هذا المكان هو أصلح موقع للنزول والغزو– ولاأدرى لماذا خطر ببالى قصة الجنرال « ياماشيتا » اليابانى فى هذا الوقت . كنت قد قرأت فى صحيفة « المصرى » التى توقفت منذ حوالى ربع قرن . . أن هذا القائد اليابانى زحف على سنغافورة بجيش يحمل جنوده أغصان الأشجار الضخمة . . واستمر اليابانيون فى الزحف حتى دخلوا المدينة وفوجئ الناس بهذه الأغصان تتحول إلى جنود وإلى تلك الأشجار وهى تطلق عليهم البارود وعندما حاول القائد البريطانى المقاومة كان كل شىء قد انتهى . . والقائد « ياماشينا » يقف تحت علم بلاد الشمس المشرقة منتصرا . . !

أعود إلى شاطئ الغرام مرة ثانية . . لقد خلوت إلى نفسى متسائلا : أليس من الجائز أن يكون غزو اليابانيين قد بدأ لماليزيا من هذه المنطقة وأجاب الإخوة الماليزيون : نعم من هنا بدأ الغزو– ونزل الجنود اليابانيون إلى البر ومنذ ذلك الوقت كنت أحس وقع

أقدام الجنرال «ياماشينا» وهى تغوص فى الوحل . . وأشعر برائحة البارود الملتهب فى جوف الرمل ! .

قد يكون ذلك خيال شاعر قديم ذى إحساس مرهف فى جوف الليل ، ولكنه الواقع الذى أحسه كلما سافرت إلى بلد مسلم ، والمرارة التى تفيض بها النفس خوفا من المستقبل «إن المشاكل التى تواجهها ماليزيا الآن خطيرة نتيجة الأوضاع المهددة فى الأقطار المجاورة لاسيما تايلند وفيتنام ولاوس وكمبوديا وأن دور الإسلام فى ظل تلك الأوضاع مهم جدا ، لأنه الأمل الوحيد فى الحياة والقدرة على الصمود ومقاومة الهجوم الوحشى للشيوعية المحيط بماليزيا . ومن ثم فإن الإسلام هو حصن الدفاع المنيع ضد الفساد الغربى والشيوعية ، وفى ظل تلك الظروف يصبح من واجب الدول الإسلامية الغنية فى العالم أن تتقدم بأقصى سرعة لإنقاذ الدول الإسلامية المكافحة فى شرق آسيا ، وعلى الأخص ماليزيا وإندونيسيا .

إن ماليزيا تحتل موقعا استراتيجيا مهماً ومن ثم أصبحت مركز الاهتمام وهدف الحركة الشيوعية الأسيوية ، كما أنها هدف لتيارات الأفكار الغربية الفاسدة وماليزيا تتكون من ١٤ ولاية وعدد سكانها يبلغ ١٢ مليون نسمة ٥٣ فى المائة فقط مسلمون ومن المتوقع أن تنخفض نسبة المسلمين فى المستقبل إذا استمر الحال على ماهو عليه وهذا يعنى أن الصينيين سوف ينتزعون السلطة السياسية فى البلاد ، وهذا يشكل تهديدات خطيرة مختلفة بالنسبة لماليزيا والإسلام ، ومن الحقائق المسلمة أن الشيوعية فى ماليزيا ذات صلة وثيقة مباشرة - بالصينيين فإذا أصبحت مقاليد الحكم بأيدى الصينيين فهذا معناه قيام دولة شيوعية .

إن الصينيين والهنود فى ماليزيا جاليتان مهاجرتان من الصين والهند وقد منحت هاتان الجاليتان الجنسية الماليزية فى خلال محاولات التوفيق السياسى وتسهيلات النظام الديمقراطى وتتمتع هاتان الجاليتان الآن بمثل الامتيازات التى يتمتع بها أبناء البلاد الحقيقيون من المسلمين وقد أثار الصينيون بصفة خاصة مشاكل خطيرة بسبب ولائهم المزدوج والانحياز لقوميتهم وتعاطفهم مع القضية الشيوعية ورغبتهم القوية فى مساعدة الحركة الشيوعية وظهر هذا بكل وضوح خلال فترة الطوارىء فى ماليزيا سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٦٠ وتعتمد الحركة الشيوعية فى ماليزيا أساسا على الصينيين من حيث الطاقة البشرية ، وأما الهنود فجعلوا من أنفسهم عناصر مشاغبة من خلال احتكارهم وسيطرتهم على اتحادات العمال .

والمواطنون الذين يكنون الولاء الحقيقى للدولة هم أبناء البلاد الحقيقيون من المسلمين والمواطنين الأصليين غير المسلمين . وبناء على ذلك فقد نشأ هناك وضع مؤسف فى ماليزيا حيث أصبح أبناء البلاد الذين يحملون الولاء الخالص للوطن أصبحوا مهددين من الأجناس الوافدة من الخارج . وفى مجال الاقتصاد نجد الصينيين والهنود مسيطرين دائما على التجارة والصناعة وإذا سمح للأوضاع الحاضرة بأن تتطور خلال عشر سنوات من الآن فسوف ينتزع الصينيون السلطة السياسية أيضا :

ويمكن تقسيم الأخطار الداخلية التى تهدد ماليزيا إلى ثلاثة أقسام :

(ا) الأخطار الداخلية .

(ب) الأخطار الخارجية .

(ج) مشاكل الدول المجاورة .

وفيما يلى بيان موجز عن كل منها :

(ا) الأخطار الداخلية :

الشيوعية تمثل الخطر الرئيسى الذى يهدد أمن ماليزيا وحياتها وتعتمد الحركة الشيوعية الدولية على التسهيلات التى يقدمها الصينيون وولاء الصينيين المزدوج واضح للعيان ، والصين فى نظرهم هى الوطن ، أما ماليزيا فتعتبر محطة انتقال للمصالح الاقتصادية ويطلق عليهم اصطلاح الجالية الصينية فى الخارج وعلى كل فإن هذا الاصطلاح أخذ يندثر حيث إن الصينيين فى ماليزيا حاليا كثيرا مايتحدثون عن الجنسية الماليزية والولاء الماليزى ، وهم مضطرون إلى إعلان ذلك فى الظاهر لأسباب سياسية واقتصادية وهم فى الحقيقة يتعاونون مع الشيوعيين من أجل تحقيق الأهداف وقد كانت فترة الطورىء فى ماليزيا وكذلك فترة الشغب والاضطرابات فى سراواك منذ نهاية الحرب الثانية فى الواقع نتيجة لنشاط الصينيين .

أما الإرساليات المسيحية فتشكل تحديا خطيرا للإسلام بفضل التأييد الكامل والمساعدة الضخمة لهم من المنظمات الدولية وأعمال التبشير المسيحى فى منتهى النشاط لاسيما فى سراواك وصباح فالمبشرون المسيحيون ينزلون إلى أعماق الغابات والمناطق النائية المختلفة ومعهم هذه الإمكانيات الهائلة .

(ب) الأخطار الخارجية :

هناك دلائل تكشف عن دور الصين الحقيقى فى ذلك النشاط الشيوعى ، فقد كانت الشيوعية الدولية التى تعمل بهمة وجد فى تأييد الاضطرابات الداخلية التى تستهدف الاستيلاء على الحكومة الإسلامية فى ماليزيا وهذا بدوره يشكل خطرا على الأمن فى ولايات ماليزيا الإسلامية .

(جـ) أخطار الدول المجاورة :

إن انتصار الشيوعيين فى الدول الواقعة شمال ماليزيا (فيتنام ولاوس وكمبوديا) يثير قلقا عظيما ومخاوف شديدة فى ماليزيا أوينطوى على تشجيع للشيوعيين المحليين خصوصا إذا وقعت تايلند تحت سيطرة الشيوعيين ، وبالنسبة لماليزيا فإنها تستطيع أن تقف ضد الشيوعية إذا توافرت لها العقيدة الإسلامية القوية ومن ثم يصبح من واجب جميع الدول الإسلامية أن تشد من أزر ماليزيا لتقوية ودعم موقف المسلمين فى معركة الحياة أوالموت ضد الشيوعية ، وماليزيا تعتقد أنها تستطيع أن تقاوم الشيوعية عن طريق الإسلام ومهما يكن من شيء فإن ماليزيا تعتقد أنها لو وقعت تحت سيطرة الشيوعيين – لاقدر الله – فإن إندونسيا وبروناى « الدولتان المسلمتان » سوف تلقيان نفس المصير وتصبحان شيوعيتين . .

وتشير الدلائل إلى وجود أعمال تبشير نشط عبر حدود ولاية سراواك وولاية صباح ولقد تدفقت ملايين الدولارات إلى هذه المنطقة من المنظمات المسيحية من جميع أنحاء العالم وهناك تقارير تفيد وضع كثير من طائرات الهليوكبتر تحت تصرف المبشرين وفيهم عدد من القسس الأجانب ، ونظمت العملية كلها تنظيما محكما ، ومولت تمويلا سخيا ، وهناك أيضا شكوك تحوم حول دور وكالة أجنبية فى هذا المشروع وينبغى أن يهتم العالم الإسلامى اهتماما خاصا بهذا الأمر لأنه يمكن أن يؤثر على تقدم الإسلام ونموه فى هذه المنطقة .

والمعروف أن دولة اتحاد ماليزيا دولة مسلمة ينص دستورها على أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة وللشعب الماليزى ، ومن ثم فهى تسير حسب قواعد ومبادئ الدين الإسلامى الحنيف وشعبها شعب مسلم يطبق أحكام الشريعة الإسلامية ، ولايألو جهدا فى السعى والجهاد من أجل تثبيت المبادئ والقواعد الإسلامية مستمدة أصولها من المصادر الإسلامية الأصلية لاسيما كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ومن هنا كانت خطورة ماليزيا ودورها القيادى فى مجال الدعوة الإسلامية ومن هنا نرى أن المهمة الإسلامية شاقة وخطيرة فهى ذات ميادين متعددة فى الداخل حيث توجد جنسيات غير ماليزية الأصل معظمها غير مسلم وهى فى احتكاك مستمر مع الماليزيين المسلمين وفى الخارج حيث الشيوعية تحيط بماليزيا من جميع الجوانب وتتربص بها الدوائر .

ولذلك قامت الحكومة الماليزية يعضدها الشعب الماليزى المسلم بواجبها الدينى وأسهمت الحكومة الماليزية بقسط

وافر فى الإصلاحات الدينية وامتدت هذه الإصلاحات إلى المجالين الحكومى والشعبى .

أولا : فى المجال الحكومى وعلى المستوى الرسمى :

نظرا لأن ماليزيا هى اتحاد فيدرالى وتوجد بها حكومة فيدرالية وحكومات للولايات المختلفة التى يتكون منها الاتحاد الماليزى ، فإن النشاط الدينى الإسلامى ينقسم إلى قسمين ، نشاط الحكومة الفيدرالية ونشاط حكومات الولايات . فيما يختص بنشاط الحكومة الفيدرالية أنشأت الحكومة الفيدرالية المجلس الوطنى الأعلى للشئون الإسلامية ويتبع رئاسة الوزراء مباشرة ورئيسه رئيس مجلس الوزراء والأعضاء يتكونون من رؤساء مجالس الشئون الدينية فى الولايات بحكم وظائفهم ومن ستة أعضاء آخرين يعينون من قبل الملك . وتتفرع من المجلس الوطنى الأعلى للشئون الدينية الإسلامية الإدارات الآتية :

١ – إدارة البحوث الإسلامية :

ونشاطها يتركز فى الدراسة والبحث عن الوسائل الفعالة لمقاومة المبادئ الهدامة والمذاهب الدينية المنحرفة كالقاديانية والبهائية والشيوعية والماسونية وغيرها والكشف عن حقيقة كل منها وماتهدف إليه من تضليل وانحراف وزيف ، ثم بيان وجه الحق للمسلمين ليتبعوا الطريق الصحيح .

٢ – إدارة الدعوة الإسلامية :

ويشمل نشاطها عقد ندوات علمية إسلامية فى مقر الإدارة يحضره عدد كبير من المسلمين رجالا ونساء كما تنظم ندوات خاصة لرجال الجيش والبوليس للتثقيف الدينى الإسلامى وتبصيرهم بقواعد الدين ومبادئه ، كما ترسل هذه الإدارة بعض الدعاة الإسلاميين إلى كل مكان يطلبهم المسلمون لإلقاء المحاضرات عن الإسلام ومناقشة المسلمين فى المسائل الدينية والشرح والتوضيح لكل من يحتاج .

٣ – إدارة الترجمة والنشر :

وقامت هذه الإدارة بترجمة تفسير القرآن الكريم إلى اللغة الماليزية وتمت هذه الترجمة فعلا ، وطرحت فى الأسواق وهى الآن فى أيدى المسلمين ، وتقوم الآن بترجمة شرح بعض الأحاديث النبوية الشريفة المختارة التى تمس المسائل والموضوعات العصرية التى يحتاجها المجتمع الإسلامى الماليزى .

٤ – إدارة تحفيظ القرآن الكريم :

مقر هذه الإدارة فى مسجد « نجارا »

ويفد إليه التلاميذ من جميع أنحاء الولايات الماليزية ويقومون بحفظ القرآن الكريم وتجويده ، ومن يتخرج منهم يمكن أن يواصل دراسته فى هذا المجال فى مصر أو السعودية .

٥ – لجنة الإفتاء :

وتتكون من مفتى الولايات وستة معينين من قبل الملك ورئيس هذه اللجنة من أعضاء المجلس الوطنى للشئون الإسلامية وينتخبه الأعضاء لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد ونشاط هذه اللجنة هو البحث فى المسائل الدينية المطروحة عليها من مجلس السلاطين أوالملك التى يقتضيها الصالح العام للمسلمين فى ماليزيا .

٦ – التعليم الدينى الإسلامى :

تشرف وزارة التربية والتعليم على التعليم الدينى الإسلامى فى جميع مراحل التعليم الحكومى الخاص وتمده بالمساعدات المالية والخبرة العلمية اللازمة للتخطيط والتنظيم وهناك التعليم الإسلامى فى كليات تتبع الجامعات .

* * *

وفى المؤتمر السنوى للحزب الإسلامى المركزى الذى يرأسه داتو حاج بن محمد عسرى قال رئيس الحزب فى هذا المؤتمر :

إن هذا هو المؤتمر الثالث للحزب الإسلامى بعد اشتراكه فى الجبهة القومية وبالنظر إلى أن العلاقة والصلة بين الطوائف المرتبطة تقوم على الاتفاقية لصالح مشترك فإنى أرى أن تقويم هذه الاتفاقية يكون ضروريا حينا بعد حين وخصوصا فى مثل هذه الظروف الحاسمة .

وعلينا أن ننتبه إلى الحركة الشيوعية المهددة لسلامة البلاد والأمة الإسلامية سواء أكانت تلك الحركة إرهابية أم كانت مسلحة وسواء أكانت تلك الحركة تتحرك فى المدن والغابات النائية والحدود أم كانت تنطلق من قاعدة خارجية .

إن المسلمين والشعب الملايوى يمثلون العمود الفقرى لبقاء دولة الاتحاد وإذا تشقق هذا العمود الفقرى وبالأحرى إذا ماتكسر ، فإنه سوف يؤدى إلى انهيار أسس هذه البلاد وإذا حدث هذا فلسوف يفقد المسلمون أوضاعهم ويفقد الملاويـون مكانتهم التى لايحتمل أن يكون هناك بديل لها ، ولايعلم مصيرهم إلاالله .

ولهذا فإنى دائما أؤكد بأنه من الضرورى للحزب الإسلامى الماليزى أن يواصل عملية تنظيم وتوحيد صفوفه وينبغى علينا أن نذكر دائما بأن الإسلام هو هدف كفاحنا وأننا نسعى لإعلاء كلمة الله وخاصة فى بلادنا . فإذا أهملنا وأغفلنا هذا المبدأ

وذلك الهدف فإن الجيل القادم سوف يلومنا على ذلك وأن لعنة الله سوف تحل علينا .

إن حياتنا متوقفة على عوامل متعددة فى مقدمتها الاستقرار السياسى والاقتصادى داخل البلاد كما يتوقف على قوة الدفاع والإيمان وطهارة الذيل ، كما تتوقف كذلك على الأمن والاستقرار فى المنطقة ويقظتنا للاطلاع على النوايا وتغيرات الموقف من أية جهة كانت .

وقد حان الوقت للنهوض بالإسلام بعد أن انحدر من قمة مجده منذ خمسمائة سنة وربما يضيق بنا الوقت لذلك يجب علينا أن نستعد للدفاع بكل مانملك عن إيماننا ومبادئنا .

إن المشكلة التى يواجهها شعب ماليزيا هى نفس المشكلة التى تواجهها الشعوب الإسلامية فى أنحاء العالم لأن ألد خصوم الإسلام هو العلمانية المسيطرة على جميع مناحى حياتنا ، ونحن اليوم نعيش فى فترة الانتقال من الحضارة المزيفة إلى الحضارة الحقيقية المتكاملة من الناحية الإنسانية ، وإذا فاتنا ركبها فإننا سنخسر خسارة كبرى .

إن جهاد الأمة على مر العصور كان من أجل إعزاز الإسلام ولم يكن دورنا إلاسلسلة من هذا الجهاد ، وعلى الرغم من استقامة جهادنا فإننا لابد من أن نعمل على تقوية الأمة بكافة الوسائل حتى يكلل جهادنا بالنجاح ، فإن الحق لايمكن أن ينتصر إلا بالتنظيم والقوة .

إن ماليزيا تمثل خط الدفاع الإسلامى الأول فى هذه المنطقة . . ولو انهار هذا الخط وزحفت على حصونه جحافل التتار الجدد . . فلسوف تنهار قلاع إسلامية كثيرة . . ويفاجأ العرب والمسلمون بمأساة « فلسطين » جديدة .

وعندما تدق ساعة الخطر . . فلن تتخلى بكين عن أبنائها وسيظهر « بوكرك » جديد يضرب بأساطيله ثغور الإسلام وموانئه فى المنطقة كلها .

لقد هتف الصينيون بعد نجاح بعض مرشحيهم فى الانتخابات العامة بماليزيا .

أيها الملاويون . . ليس مقامكم هنا . . فعودوا إلى الجبال والأحراش . .

وكانت مذبحة أوقفتها الحكمة . . والتجمل بالصبر والفطنة . . لقد زرعت بريطانيا فى قلب كل وطن مسلم مشكلة . . فى الهند ، كانت وراء المذابح والفتن وجعلت من الأخ عدوا لأخيه فى الوطن . . فى فلسطين . . لاتزال دماء الضحايا والشهداء تنزف والقتال بين المالك . والسارق قائم لم يتوقف . !

الصومال مزقت أوصاله . . والسودان فصلت بين جنوبه وشماله . . ويلك يابريطانيا . . ثم ويلك . .

وفى ماليزيا حوالى خمسمائة مؤسسة تبشيرية موزعة على النحو التالى :

الولاية	المدارس التبشيرية	المؤسسات	الكنائس المركزيـــة
برلس	١	—	١
قدح	٩	١	١٣
بينانج	٢٣	٤	٢٦
فبراق	١٦	١٦	٣١
كلانتون	٢	١	—
زيخانو	٤	١	—
بهانغ	١٥	٨	٤
سلانجور	٢٥	١٤	١٥
سمبيلان			
نجرى	١٧	٩	٦
ملقا	١٧	٤	١١
جوهور	٢٨	٨	١٨
سراواك	٤٠	٢٣	١٣
صباح	٥٠	٣٠	١٥
كوالا لمبور	١٧	١٥	٢٦

* * *

إن المسافة من كوتابارو إلى جنوب تايلند لاتزيد عن أربعين ميلا . . وفى هذا الجنوب جنوب تايلند يقع إقليم «فطانى» الذى يقاتل فيه المسلمين دفاعا عن العقيدة . والوطن والحرية .

وقد كانت «فطانى» من قبل إمارة مستقلة ترتبط مع بقية إمارات الملايو بروابط وثيقة ومن أهم هذه الروابط الدين والعقيدة .

وفى عام ١٦٠٣ هاجمها السياميون سكان تايلند لأول مرة ولكنهم باءوا بالفشل ثم تابعوا اعتداءهم عليها مرتين متواليتين وذلك فى عامى ١٦٣٢ ، ١٦٣٣ إلا أنهم لم يحصلوا إلا على ماحصلوا عليه فى المرة الأولى ، وأخيرا استطاع السياميون من احتلال المنطقة عام ١٧٨٦ وقتلوا سلطانها وحملوا معهم آلاف الأسرى إلى بانجوك وفى العام الثانى لهذا الاحتلال أجبر السياميون سكان فطانى على دفع الجزية وبعد أن استعمرت انجلترا المنطقة أبرمت مع تايلند معاهدة بانجوك عام ١٩٠٩ اعترفت فيها إنجلترا بضم إمارة فطانى إلى تايلند وذلك ضمن سياسة إنجلترا فى تقسيم المسلمين وتسلط غيرهم عليهم .

لم تهدأ الثورات فى هذه الإمارة منذ أن حكمها السياميون فقد قامت ثورة تنكو كميدين عام ١٧٨٩ ثم قامت ثورة بقيادة داتو ففكالن عام ١٨٠٨ م وقامت ثورة الأمراء عام ١٨٣٢ كما أنها لم تهدأ بعد المعاهدة الإنجليزية التايلاندية عام ١٩٠٩ والتى أصبحت فطانى إثرها جزءا من تايلند رسميا فقد تفجرت ثورة كبيرة عام ١٩٤٨

بقيادة العالم المشهور الحاج محمد سولونج الذى اغتيل فى ظروف غامضة عام ١٩٥٢م وقسمت فطانى إلى خمس مقاطعات هى :

١ - « فطانى » ومركزها مدينة فطانى المرفأ الشهير على بحر الصين الجنوبى .

٢ - « ناراثبوت » ومركزها مدينة « ناراثبوت » وهى مرفأ أيضا على بحر الصين الجنوبى .

٣ - بالا ومركزها مدينة بالا وهذه المقاطعة أكثر المقاطعات امتدادا فى أرض ماليزيا .

٤ - سونغكلا ومن مدنها الشهيرة « سادو » و « بانا » .

٥ - « ساتون » ومركزها مدينة « ساتون وهى » فى الطرف الغربى على ساحل المحيط الهندى وتتبع هذه الولاية مجموعة جزر أشهرها جزيرة « تاروتا » وجزيرة « راوى » .

ويلاقى المسلمون تعنتا كبيرا من قبل السياميين ، فبعد الانقلاب العسكرى الذى حدث فى تايلند عام ١٩٣٢ وأطاح بالملكية المطلقة ووضع السلطة بأيدى العسكريين انتشرت الدعوة القومية السيامية المتعصبة وقامت لجنة تعرف باسم « لجنة الثقافة القومية السيامية » وكان الشعب الفطامى ضحيتها الأولى فهو شعب مسلم وذو ثقافة إسلامية على حين أن السياميين بوذيون وأصحاب ثقافة بوذية وقد أغلق البوذيون المساجد والمدارس الدينية وأجبروا المسلمين على دخول المعابد البوذية .

ويذكر بعض مؤرخى الملايو :

أن كراهية أهل سيام للإسلام قد زادت عندما غلبت فى كل حروبها ضد ملقا وأخذ ملك سيام يهيىء جيشا ثالثا وهو يكاد ينفجر غيظا وكانت القيادة فى يد ابنه للهجوم على ملقا أملا أن يكون على يدى ابنه هلاكهم وفناؤهم وشعر بذلك الملك المظفر فأخذ يهئ نفسه لاستقبال جيش العدو وهو قلق حزين لأنه يعلم تماما أنه لايملك من العتاد مثلما يملكون وأخذ يفكر فيما يجب عمله حتى يضمن النصر للمسلمين وفى غمرة تفكير دخل عليه شيخ تقى متصوف وقال :

المتصوف : مالى أرى سمات الأسى والحزن تعلو جبينك أيها الملك العظيم ، وقد عهدته وضاء باسما ؟

المظفر : ألم تسمع أيها الشيخ الفاضل بالهجوم الذى دبره ملك سيام ضد مملكتنا وجعل القيادة هذه المرة لابنه « تشبو باندان » وأنت تعلم أنه مقبل علينا بجيوشه وسوف تكون الطامة واللطمة للمسلمين إذا انتصر علينا هذا الملك الكافر .

المتصوف : لاتحزن ولاتبتئس إن الله معنا ولينصرن الله من ينصره أتحسب أن الله

محز قوما يقولون « ولاتدع مع الله إلها آخر » و « كل شيء هالك إلا وجهه » كلا أيها الملك العظيم إن الله الذى أعاد إليك الملك وأهلك خالك الخائن « ريكن » ونصرك مرتين على ملك سيام سوف ينصرك بقلة عددك وعتادك « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

وأنت تعلم أيها الملك أنهم يحاربوننا ليطفئوا نار الحقد التى تتأجج ين ضلوعهم وليوسعوا من مساحات أرضهم وملكهم ، أما نحن فلانحاربهم بل ندافع عن أنفسنا وديننا وحقوقنا ولن يتخلى الله أبدا عن المؤمنين ، وسوف تذهب ريحهم وتكون كلمة الله هى العليا وكلمتهم هى السفلى فليطمئن قلبك ودعنى أيها الملك أقابل جيش العدو وحدى هذه المرة وبطريقتى الخاصة .

فعجب الملك وحار فى أمر ذلك الشيخ المتصوف ولكنه كان يعلم مبلغ ورعه وتقواه ، فقال له افعل ماتشاء وليعنا الله على هذا البلاء ، اللهم لانسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه ، إنى أترك لك أيها الشيخ حرية التصرف ، ولكن كيف ستقاتل هذا الجيش العرمرم وحدك ؟

المتصوف : سترى بنفسك أيها الملك .

وأخرج المتصوف سهما من جرابه وأطلقه فى الهواء قائلا فلتمت يا « تشبوباندان » فلتمت بإذن الله « ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

ابتسم الملك عندما رأى مافعله الشيخ المتصوف وهو فى شك من أمره وسأله ترى أيموت حقا ياشيخنا الفاضل ذلك المدعو تشبوباندان عندما صوبت إليه هذا السهم فى الهواء ؟ إذا حدث هذا فأنت بحق من أصحاب الكرامات .

ولم يمض سوى أيام قلائل حتى سمع السلطان المظفر الجواب على أسئلته التى وجهها للمتصوف أن ابن ملك سيام تشبوباندان وقائده الذى كان سيرسله للهجوم على ملقا مات قبل أن يتحرك من بلاده وكان يحس بأن طعنات السهام تمزق صدره ومات على أثر ذلك فحزن أبوه على ولده أشد الحزن .

ونجا بذلك المظفر وشعبه من جبروت الملك الظالم ! !

* * *

إن كوتابارو مدينة جديرة بالإعجاب والحب . . كل شيء فيها يذكرك بالإسلام

والعروبة . . . وقد كان منقوشا على علم جيشها القديم « لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفى المعرض الذى افتتحه رئيس الوزراء حسين عون بمبنى مركز الدارسات رأيت ملابس جنود هذا الجيش وقد كتب عليها : نصر من الله وفتح قريب .

إن ماليزيا من أنظف بلاد العالم الإسلامى التى رأتها عيناى . . البيوت نظيفة . والشوارع ملساء ناعمة . . لا تقع عيناك فى شوارع كوالالمبور على قشة . . أو ورقة ملوثة . . . إن عقوبة هذا الخطأ كبيرة . . . وفى كوتابارو تخلع حذاءك قبل أن تدخل البيت ، والفتيات والنساء فى غاية الوقار والحشمة . وفى » المعهد المحمدى » يبهرك هذا البهاء فى وجوه طالبات المدرسة . .

لقد استقبلنا الأخ عبد القادر محمد مدير المعهد المحمدى ، والذى درس فى كلية أصول الدين القديمة . مرحبا بوفد الأزهر .

وصادف موعد زيارتنا للمعهد ، ولمدرسة النعيم للفتيات يوم الامتحان فى اللغة العربية وقد اخترت هذه النماذج من الأسئلة لأبين مدى تعلق هؤلاء الإخوة بالإسلام واللغة العربية تقول هذه الاسئلة :

* قيمة كل إنسان بأخلاقه وآدابه — لا بشكله ولونه . . .

* اكتب رسالة إلى معلمك تعتذر فيها عن عدم حضورك إلى المدرسة مبينا السبب .

* دور الزكاة فى بناء المجتمع السليم .

* * *

فى الطريق . . . تسمع آيات القرآن الكريم مرتلة بأصوات قراء مصر وتشنف أذنيك أنغام « ولد الهدى » وكأنك فى حى « الحسين » .

إنه الازهر ذو المقام الشريف فى كل قلب . هؤلاء الذين يحملون شارته فوق هذه الأرض . ويبلغون رسالته إلى هذه الآفاق . . . ويعلمون لغته وثقافته للناس . . . كانوا طلبة نشأوا فى رحابه الطاهر . . فاغترفوا من معين حكمته العذب ، وحملوا أمانته بكل صدق وظلوا — كما كانوا أوفياء لجنابه ، سائرين فى ركابه ، مقتفين أثر شيوخه وطلابه :

محمد على هرون — يحيى عثمان — محمد شيوك — عبد القادر محمد — أحمد بن الحاج داود . عبد الوهاب عبد الحميد .

إن من حقكم علينا . . بل على الأزهر الذى تحبونه . . . بل على مصر العزيزة الغالية لديكم . . من حقكم علينا جميعا هذه التحية . وتسجيل مشاعركم النبيلة الزكية . .

رجعنا إلى شاطئ الغرام استعداداً لرحلة العودة إلى القاهرة ولم نشأ أن نترك هذا المكان حتى نسأل عن السر فى هذه التسمية شاطئ الغرام (Beach of Passionate Love)

قالوا عن السبب فى هذه التسمية . إن سلاحف البحر تأتى إليه من شواطئ استرالية لتضع بيضها كل عام مرة واحدة ، وهنا على الشاطئ يتم اللقاء بين الإناث والذكور فى عملية زواج كبرى . . ثم تعود هذه السلاحف بالرفاء والبنين – إلى وطنها الأصلى بعد ذلك إلى كانبيرا . !

ولكن قصة غرام حقيقية كادت تقع فى هذه المنطقة . . . ففى حوار بين الخادم وفضيلة الشيخ محمود شوكت . . فهم الخادم من طلب الشيخ بعض المساعدة أنه يريد عروسا . . وبعد ساعات قليلة من هذا الحوار كان هذا الخادم يقف بجوار فتاة ليدق باب حجرة الشيخ التقى المبجل . . وفزع الدكتور العدوى من المفاجاة وخرج هائجا يستنجد بالدكتور عبد الجليل الذى حول الأمر إلى دعابة لطيفة :

قال الدكتور عبد الجليل : من هذه ؟

الخادم : العروس التى طلبها الشيخ .

الدكتور عبد الجليل : ولكن أين أبوها ؟

الخادم : فى المدينة على بعد خمسة أميال

الدكتور : لابد من حضوره لإتمام العقد واستلام الصداق والمهر . . !

الخادم : متى يكون ذلك ؟ .

الدكتور : غدا إن شاء الله فى الخامسة ظهرا . .

وفى اليوم الموعود . . وفى تمام الساعة العاشرة صباحا . . . كانت الطائرة تحملنا من كوتابارو إلى كوالالمبور . . وبقيت قصة الزواج المعلق على شاطئ الغرام قصة تحكى فى المناسبات الجميلة . . وتطالب أى إنسان يتكلم بغير لغته أن يعرف دلالات كل كلمة وحرف فى هذه اللغة . . إنها مشكلة تصادف كل مسافر إلى الخارج . . وأحيانا ينطق الإنسان كلمة ينقصها حرف . . أو ينطقها دون معرفة بأصول النطق . . فتكون النتيجة عكس ما يريده بالضبط .

وداعاً يا فيلم بورى . .

وداعاً ياكوتا بارو . .

وداعاً يا شاطئ الغرام الذى كاد يصبح حقاً وحقيقة . . ! ! !

* * *

من كوالالمبور (Kuala Lumpur)

ركبنا طائرة شركة الخطوط الجوية الماليزية إلى بانكوك Bangkok عاصمة تايلند Thailand) إن الخدمة على متن الشركة الماليزية لا تقل عن مثيلاتها فى أرقى الشركات العالمية . . دقة فى المواعيد غاية فى النظافة . كل من فى الطائرة يخدمونك بود ومحبة . الشاى والقهوة

يقدمان فى أى وقت ، وكما يحب أى راكب . وبدون ملل أو تباطؤ.

وفى بانكوك Bangkok انتـظرنا يومـاً لنركب الطائرة المصرية القادمة من طوكيو ويالها من طائرة – أقصد الخدمة فيها . والمضيفات العاملات بها . .

كان جلوسى على مقعد بجوار النافذة . . وجاءت المضيفة تحدثنى بلغة إنجليزية . . فرددت عليها بلهجة مصرية صميمة . . كنت أظن أن ذلك سيسعدها . . . فنحن فى غربة ، ونحلق فوق سبع وثلاثين ألف ياردة – وفى الغربة تشف النفوس وتتصافى . . وفى مثل هذا الارتفاع تذوب أمراض النفس وتتلاشى . . !

كان الدكتور عبد الجليل قد ترك معى صندوقا صغيرا وضعته تحت المقعد . . وبعصبية بالغة ، ولهجة همجية آمرة – قالت :

– ارفع هذا من هنا . .

– ماذا تعنين ؟

– هذا الصندوق . .

– وأين أضعه ؟

– لا أعرف . .

– إلا يمكن التفاهم بغير هذا الأسلوب ؟

– من فضلك لا تتفلسف . .

– لست فيلسوفا . . وأنا أتحدث بلغة بسيطة إلى أخت مصرية . .

– لست أختا لأحد . . !

– لقد منحتنى شرفا كبيرا . . !

– ماذا تقصد ؟

– وهل هناك شىء يستحق أن يقصد ؟

– وهذا الصندوق ؟

– لست صاحبه . .

– من يكون إذن . . ؟

– اسألى فى الطائرة . .

وطار صواب المضيفة . . وذهبت إلى قائد الطائرة الذى حضر مسرعا للتحقيق فى الواقعة فقلت للكابتن حسين . وكان لطيفا ومهذبا . .

أعتقد أنكم عند تعيين هذه المضيفة لم تطلعوا على صحيفة سوابقها فى وزارة الداخلية ولو كان الأمر بيدى لذهبت بها الى سجن النساء فى القناطر الخيرية . . .

* * *

وفى بانكوك (Bangkok) تخوض قدماك فى وحل الخطيئة من أول خطوة – كل شىء هناك فى متناول اليد ، وعلى مرأى ومسمع من الشرطة وفى ظل قانون خدرة الحشيش والجنس والرشوة . . .

أهذه هى بانكوك التى قرأت عنها فى الكتب . ؟ منذ ثلاثين عاما كنت قد قرأت تلخيصا لكتاب وضعته مدرسة إنجليزية عن حياتها فى هذه المملكة الغامضة . وقد نشر تلخيص هذا الكتاب فى مجلة « المختار » التى

كانت تصدر فى القاهرة : . . اسم هــذا الكتــاب (المــلك وأنــا The Kingand I) إن الصـــورة التى رسمتهـا يراع هذه الكاتبـة جعلنى أحلم بزيارة هذه المنطقة : الحياة الفاتنة الأخاذة . . الشرق بسحره الغامض — الناس بعقائدهم العجيبة . . الطبيعة بتقلباتها المختلفة . . . كانت « سيام » أو تايلند تمثل فى خيالى حلما من أحلام الطفولة . . . البراءة النقية . . . الفردوس والجنة . . . الحور والملائكة . . . وهاأنذا فى بانكوك . . . ولكن . . أية بانكوك هذه التى أقف عند بابها مفعما بأحلامى القديمة . . ؟

لقد شعرت بالضيق من أول لحظة . فالشوارع مقبضة . . . وغير نظيفة — والهواء ثقيل يقبض أنفاسك اللاهثة . . . وآثار الفقر والخطيئة تزيد من شعورك بالانقباض والضيق فى كل لحظة ؟ ؟

فى الفندق الذى نزلنا فيه تبدد كل أمل فى الهدوء والراحة . . صخب وعبث وقمار ولهو . . ومساومات رخيصة . . . جو خانق معتم . . . حتى الطعام لم أذق منه لقمة واحدة . . . لقد اختفى الجوع فجأة . . . وحلت مكانه غصة فى الشعور والعاطفة .

وفى تلافيف هذه الظلمة يسطع شعاع من نور الأمل فى صورة شاب يتقدم منحنيا على يدى الشيخين عبد الجليل وشوكت . إنه الطالب التايلندى عبد الله محمد . . . كان مسافرا إلى الكويت لاستئناف دراسته التى بدأت . . . ولاحظ مودعوه ذلك فهرولوا مسرعين لالتماس البركة التى حلت . . .

لقد ظهرت بانكوك فى صورة جديدة . وامحت صورة القمار والبغاء والرشوة .

إن المسلم يختلف تماما عن غيره . . . سر من أسرار الخالق يكمن فى أعماقه . .

أصله من تراب وفطرته من نور . . عبد تخلق بأخلاق الله واستغنى عن الدنيا . ألقى عليه الحب . وكسى المهابة والجلال . نزيه برىء فى السلم والحرب . إن إيمانه هو مركز الدائرة التى يدور حولها العالم وكل ما عداه وهم وطلسم ومجاز . إنه الغاية التى يصل إليها العقل . . . ولب لباب الإيمان والحب . . .

فإلى غير رجعة . . . يا مدينة الخطيئة مسكينة أنت يا تيلند . .

وليحفظ الله عبدالله محمدا . وكل مسلم يعبد الله فى هذه الأرض .

* * *

الطائرة تتهيأ للإقلاع . . . لكن حركتها بطيئة . . . وبليدة . . . ترى هل تغيرت طبيعة الأرض . . ؟ أم فقدت جاذبيتها فوق تايلند . . ؟ أم أن الشياطين تسد فى وجهها الأفق ؟ أم اعترض « بوذا » بحجمه الهائل :

طريقها الممهد ؟

وهل هذا الذى أراه حقيقة أم وهم أم أن عقلى الباطن لايزال شاردا فى قاع مدينة الفجور واللهو . .؟

طوفان تتراكض أمواجه العالية فى داخل النفس وأشباح تطارد عقلى الذى توقف عن التمييز والفكر ! ؟

وأخيرا ترتفع الطائرة . . . وتهدر محركاتها القوية مزمجرة . . . لقد تصورتها تصرخ فى وجه عوامل السقوط المثبطة . . وتقاتل أشباح الفساد فى هذه المدينة الضائعة ! !

ومن بين ثنايا الضباب الكثيف تتسلل الطائرة إلى مدارها فى الأفق البعيد ، ومن حولها تتناثر أشلاء السحاب الأسود فى طريق الصعود . . . حتى إذا استوت فى الأفق ، وعبرت حدود بورما فى طريقها الى الهند . . . كان القمر قد ظهر متألقا من خلال أشجار النرجيل والجوز متخطيا حقول الألغام والموت قائلا لـ (آسيا) الحزينة :

يا قارة الحروب والفقر . . ! !

إنى أنا القمر قاهر الظلام . . . وفى الإسلام

يا آسيا النور والأمل والسلام .

فهرس العدد

الصفحة

الصفحة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢ ٩٠٥٩١٤ ٩٠٥٥٠٦

الجزء الرابع – السنة الخمسون – شعبان ١٣٩٨ هـ – يوليو ١٩٧٨ م



بسم الله الرحمن الرحيم

الأحوال الشخصية ومجلس الشعب

لفضيلة الامام الاكبر شيخ الازهر
الدكتور عبد الحليم محمود

« رَبَّنا لا تُزِغ قُلوبَنا بعد إذْ هَديْتنا، وَهبْ لَنا مِن لدُنك رَحمةً، إنك أنت الوَهَّاب » .

من آن لآخر يثار فى المجتمع الإسلامى قانون الأحوال الشخصية . . ويختلف الكتّاب تبعاً لأهوائهم : فبعضهم يستجيب للنّصّ القرآنى لا يريد به بديلا ، وبعضهم يأخـذ فى محاولة الالتواء بالنص ليُقرِّبَهُ مما يجرى العملُ به فى الغرب ، أو ليقرِّبَهُ من أهوائه التى ينحرف بها تلبية لرغبة منحرفة أو لهوى جامح .

ولكنك إذا سألت الجميع فإنهم يقولون لك : نحن مع الوحى ومع الرأى

الإسلامى . ولا يمكنهم أن يقولوا غير ذلك ، حتى لا يثيروا الرأى العام عليهم . وأحب أن أقول :

إن النتيجة الحتمية التى ينتهى إليها كل باحث مخلص .. ينتهى إليها تاريخياً ، وينتهى إليها إسلامياً : أمران بدهيان ، وهما من البداهة بحيث لا يمارى فيهما من كان فى قلبه حبة خردل من إيمان .

أما أولهما : فإن الطلاق بيد الرجل .. يوقعه حينما يشاء لحكمة يراها لاقيد عليه فى ذلك ولا تحديد ، ذلك هو الأمر الذى سار عليه التشريع الإسلامى منذ أن نشأ للتشريع الإسلامى . وهو الأمر الذى يلجأ إليه الغرب الآن .. حتى فى إيطاليا نفسها .

فإذا كان الغرب قد أخذ بمبدأ الطلاق وبالتالى فى التقرب إلى الإسلام فهل نحاول نحن الابتعاد عن الإسلام للتقرب من الغرب القديم ، فى الوقت الذى يتخلى فيه الغرب عن مبادئه القديمة ؟

إنك مهما حاولت — حتى ولو متعسفاً — فلن تجد مناصاً من القول بأن الطلاق بيد الرجل يوقعه متى شاء حسب حكمة يراها . على أنه من المباح الجائز أن تشترط المرأة عند العقد أن يكون لها حق تطليق نفسها إذا أضيرت ، فيكون الطلاق بيدها توقعه حينما ترى أن مصلحتها تقتضى ذلك .

وعن الطلاق يقول المستشرق الفرنسى « أتيين دينيه » :

« وهل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لبعضهما صبراً وقد خاب ظنهما فى الزواج ، ولم يدركا السعادة التى طلباها من وراء ذلك ، . .

هل أشد من الحكم عليهما بأن يُخَلَّدَا يقضيان بقية أيامهما فى عذاب ونكد وشقاء ؟

كذلك إذا كان أحدهما عاقراً ؟

أو كان غير كفء لزميله ؟

هل يحرم الآخر من أن يبنى لنفسه بآخر ، وأن يقيم له عائلة من جديد ؟

هذا ما يقوله مستشرق غربى .

ويقول الله تعالى :

« الطلاقُ مرتان : فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان »

* * *

أما عن تعدد الزوجات فإنه من الواضح أن الإسلام يبيحه : ذلك واضح نصاً ، وذلك واضح من الوجهة التاريخية ، وإن ذلك أيضاً بدهى ومهما حاول ذوو الأهواء فإنه لا يمكن للدارس إلا أن يقول :

إن التعدد مباح فى الإسلام ، فعله الخلفاء الراشدون ، وفعله الصحابة

كبارهم وصغارهم ، وفعله التابعون ، وتابعو التابعين ، قرناً بعد قرن .

والقرآن الكريم ينص عليه ، والأحاديث الشريفة تدل عليه ، ثم إن الوضع الاجتماعى يوجبـه . .

وربما يدهش بعض الناس لقولنا : إن الوضع الاجتماعى « يوجبه » ونحن فى ذلك نورد أموراً :

١ - فى أحد الأقطار منع زعيم القطر تعدد الزوجات : وحصلت حادثة أمام سمعه وبصره ، هذه الحادثة تتلخص فى أن شخصاً من الأشخاص متزوج ، وعنده أولاد من زوجته ، ثم أصبحت زوجته هذه فى وضع غير صالح من الناحية الجنسية ، فكان هو بين أمرين :

إما أن يزنى، وإما أن يتزوج .. ولكن التعدد ممنوع ، فماذا يصنع ؟

إن امرأته الأولى ليست مسئولة عما حدث لها ، هذا قضاء الله بالنسبة لها ، فما ذنبها لتطلق ؟ ولم يطلقها ؟

إنها لم تسىء إليه ، لم يطلق ، وإنما ذهب وعقد عقداً شرعيًّا على امرأة وتزوجها بحسب الشرع ، وأسكنها فى مسكن ، وكان يذهب إليها ويبيت عندها..وبُلِّغ عنهأنه تزوج امرأة أخرى والقانون لا يتساهل ، وذهبت الشرطة وضبطوه متلبساً بالجريمة، جريمة الزواج بامرأة أخرى،وأتى به للتحقيق وقالوا له :

هل تزوجت امرأة أخرى ؟ فقال.. كلا . .

فقيل له : ولكنك كنت عندها .

قال : نعم .

وتنفق عليها ؟ قال : نعم .

قالوا : وقداستأجرت لهاهذا المسكن؟

قال : نعم .

قالوا : وتبيت عندها ؟

قال : وأبيت عندها .

قالوا : ماذا تكون إذن ؟

قال : إنها عشيقة .

فقالوا له : اذهب لا ملام عليك لا لوم عليك . !!!

حرّموها زوجة بالفعل والتحقيق ، تحقيق البوليس ، وأباحوها عشيقة وخدينة .

٢ - ويأتى أيضاً فيما يتعلق بالتعدد أن « أتيين دينيه » مستشرق فرنسى كان قد ذهب إلى الجزائر ، فى عهد الفرنسيين وهو فرنسى ، وأقام فى الجزائر فى بلدة اسمها « بوسعادة » استراح إلى الجو ، واستراح إلى الناس واستراح إلى الخلق ، وكلُّها أغْرته :

الجو ، الطبيعة ، الصحراء ، الناس : كلها أغرته بأن يقيم فى الجزائر فأقام .

أقام فى عهدين : عهد كان فيه عدم التعدد ، أو الدعوة إلى عدم التعدد ، أو الإقلال من التعدد .

فلاحظ ثلاث ملاحظات ، كتبها باللغة الفرنسية فى أحد الكتب .

كتب يقول :

حينما منع التعدد والطلاق ، وجدت ظواهر لم تكن موجودة ، أيام إباحة التعدد والطلاق .

ما هى هذه الظواهر ؟ هذه الظواهر التى وجدت عندما منع التعدد ؟

أولا : كثرة العوانس ، هذا أمر .

الأمر الثانى : كثرة اللقطاء .

الأمر الثالث : كثرة الأمراض السرية .

هذه المسائل الثلاث ، حدثت بعد أن منع التعدد ، وبعد أن منع الطلاق ، وليس معنى إباحة التعدد أنه مفروض ، وليس معنى ذلك أنه لا بد من التعدد .

كلا ، وأنتم تعلمون أنه مع إباحة التعدد الآن فى القاهرة فإنه لا يزيد عن نصف فى الألف ، إن هذا النصف فى الألف من الناس فقط هو الذى يعدد الزوجات ، إنه يعدد الزوجات إلى اثنتين . .

أما الثلاث والأربع فلا وجود لها . .

وهكذا الأمر ، نعنى : يكاد يكون التعدد — مع إباحته — معدوماً .

ولكن من الوجهة النظرية وفى حالات الندرة ، وفى حالات الحاجة لو فرضنا أن شخصاً من الأشخاص ، إما أن يتزوج ، وإما أن ينحرف يباح له الزواج .

هذا رأى الكاتب الفرنسى الذى يقول ، ويشاهد ، بالتعداد وبالتجربة ما حدث ، وما كان . .

ثم ماذا : ألم يتزوج الخلفاء الأربعة كل منهم بأكثر من واحدة ؟ والحسن؟ والحسين؟ وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم ؟ وكلهم : مثنى وثلاث ورباع ؟

* * *

وبعد فإن مما يشبه اليقين عندنا : أن لا ينساق مجلس الشعب وراء أهواء تنحرف بالإسلام : إنه لا قيود على الطلاق إلا من ضمير المسلم . . ولا قيود على التعدد إلا من ضمير المسلم .

« وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

شيخ الأزهر

عبد الحليم محمود

التصور الإسلامى لنظام الحكم

حوار بين العلامة المودودى .. وإذاعة باكستان

مندوب إذاعة باكستان :

سماحة الأستاذ الكبير مولانا سيد أبو الأعلى المودودى قائد الحركة الإسلامية .

من اللحظات السعيدة لإذاعة باكستان أن يحضركم مندوبها ، ويوجه إليكم بعض الأسئلة ، ولا يخفى على سماحتكم أن دولة باكستان تريد الاعتصام بحبل الله بعد أن عاشت ثلاثين سنة فى ظروف الانحراف . ومن فضل الله علينا أنه لا يختلف اثنان اليوم فى جعل باكستان دولة إسلامية .

سماحة الأستاذ : هناك أكثر من واحد من الرواد والقادة ولكننا لا نزال نعانى الاضطراب والتشويش من عدم الاهتداء إلى ما هو الحق ، وصرنا فى وضع يتمثل جيداً فى قول الشاعر الأردى ما معناه بالعربية : أمشى مع كل من يسير فى الدرب خطوات قليلة . ولا أزال أجهل من هو الرائد .

نحن اليوم فى حاجة ملحة إلى التوجيهات التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم حتى نسير فى الطريق المستقيم ويصلح بذلك دنيانا وديننا .

صاحب السماحة : أول ما نرجوه منكم هو أن تبينوا لنا الأسلوب الذى اختاره الرسول عليه الصلاة والسلام للحكم . وثانياً : كيف يمكن لنا اتباع هذا الأسلوب فى العصر الحاضر .

ولمعرفة محاسن دولة راقية أو عيوبها فى العصر الحاضر تؤخذ الأمور الأربعة بالاستعراض :

١ — من هو مصدر السلطة العليا فى الدولة .

٢ — ماهو مدى حرية القضاء ونزاهته فيها .

٣ — ما هى نوعية السلطة التشريعية وحدودها ونطاقها .

٤ — ما هى حدود السلطة التنفيذية واختصاصاتها وخصائصها .

ومن هذا المنطلق نتوجه إليكم

برجاء حار أن تلقوا الأضواء على عهد النبى صلى الله عليه وسلم . حيث نحن وراء البحث عن كنوز تجعلنا نعيش وفق أحكام الرسول صلى الله عليه وسلم وتعاليمه : نعيش وفقها اليوم ، وغدا ، بل أبداً دائماً .

الأستاذ المودودى : يسرنى كثيراً أنكم أتحتم لى هذه الفرصة لأبين للمسلمين فى بلدى بصفة عامة ، ولحكامه بصفة خاصة أن نظام الحكم الذى أقامه النبى صلى الله عليه وسلم ماذا كان شكله وأساسه .

إن الأمر الأساسى الذى عرضه الرسول عليه الصلاة والتسليم هو : أن السلطة العليا المطلقة ليست إلا لله سبحانه وتعالى . فالأرض أرض الله . وكل ما نعيش عليه من ماء وهواء وضوء وما إلى ذلك هو ملك لله سبحانه وتعالى . هذا الجسم الذى نعيش به ، والقوى الكامنة فيه ، وأعضاؤه ، وجوارحه هو الذى وهبنا إياها . ولايحق لنا ابتداء أن ندّعى لأنفسنا السلطة المطلقة ، أو نعترف بها لأحد يدّعيها من دون الله. سواء أكان ذلك المدّعى شخصاً أو حزباً أو فئة أو مؤسسة .

فأول شىء عمّقه النبى صلى الله عليه وسلم فى أذهان البشر ودعا الناس إلى الإيمان به هو : أن الملك لله تعالى ، والحكم له أيضاً . ولا يجوز لأحد أن يشرع للناس قانونهم .

والأمر الثانى الذى له أهمية أساسية فى الدين أيضاً هو أن النبى صلى الله عليه وسلم أوضح للناس أن الله سبحانه وتعالى لا يؤتى قانونه للناس مباشرة . وإنما يؤتيه لهم بواسطة أنبيائه ورسله . والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حاكماً ولا منتخباً ولم يصطنع حكمه من تلقاء نفسه ، بل الله سبحانه وتعالى أعطاه هذا المنصب ، وأمره بأن يعلم الناس ، ويزكيهم ، ويصلح أذهانهم وأفكارهم ويقوّم أخلاقهم ، ويبلغهم رسالات الله وأحكامه . ويطبقها بالذين يؤمنون بها ويطيعونها ابتغاء مرضات الله .

والأمر الثالث الذى دعا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان به هو الآخرة . فالإنسان إذا لم يؤمن بكونه مسؤولا أمام الله . وبأنه يبعث بعد موته ، ويقوم أمام الله ، ويحاسب على كل عمل من أعماله لا يمكنه أن يسير فى طريق الإسلام . كما لا يمكنه أن يصبح إنساناً حقيقياً .

إن هذه الأمور الأساسية الثلاثة ظل النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إليها ، ويعرضها على الناس فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة متتالية فالذين آمنوا به ورضوا بتلك العقائد جعل منهم أمة واحدة ونظمهم فى جماعة واحدة .

وفى السنوات الثلاثة الأخيرة من عهده صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة آمن به جماعة قليلة من أهل يثرب وهم دعوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يهجر إليهم ويهجر معه أصحابه . وصدقت السيدة عائشة رضى الله عنها حينما قالت : « إن المدينة فتحت بالقرآن » إذ لم يكن هناك سيف أو قوة قاهرة أرغمت أهل المدينة على الإسلام . بل لما بلغهم القرآن وعلموا بما أنزل فى مكة من سور القرآن آمنوا بها إيماناً صادقاً . ولم يكتفوا بذلك ، بل دعوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى الهجرة إلى قريتهم (يثرب) الصغيرة . ولم تكن لهم هذه الدعوة دعوة اللجوء إلى هذه القرية بل كانت لأجل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم لهم معلماً ، ومربيًّا ، وحاكماً ، وأن يكون المهاجرون والأنصار أمة إسلامية واحدة ، وأن يقام فى تلك القرية ذلك النظام للحياة الذى آمنت به الأمة ديناً وشريعة .. وعلى ذلك فقد قامت الحكومة الإسلامية فى المدينة المنورة فى ذلك اليوم الذى نزل فيه النبي صلى الله عليه وسلم المدينة .

وأول ما قامت به الحكومة الإسلامية هو العناية بنشر العلم والوعى بين الناس . لأن الإسلام هو العلم لا الجهل . واستنفد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهودهم فى أن يعرف الناس دينهم ، ويؤمنوا به على وعى وبصيرة . وبقدر ما انتشر الوعى ، وأصبح الناس يعتنقون الإسلام ازدادت قوة الإسلام وتوطدت دعائمه .

والأمر الثانى الذى حققه الرسول عليه الصلاة والسلام هو أنه زكّى نفوس الناس ، وأقام اعوجاجهم وأنشأ مجتمعاً يقوم كل شىء فيه على أساس الأخلاق المستقيمة . إذ أن أى نظام للحكم مهما كان يبلغ من السمو قمته ، ومهما كانت قوانينه تبلغ من الصلاح أوجها .. إذا كان بناؤه لا يقوم على قاعدة من الخلق النزيه ، وإذا كان القائمون به لم يكونوا من أصحاب السيرة المستقيمة والسلوك النظيف ، وإذا كان المجتمع

الذى يخاطبه لم يكن مجتمعاً يؤمن بالله ويخافه لن يدوم ذلك النظام للحكم أبداً . ولذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم مع تكريسه الجهود فى الدعوة إلى الإيمان بالله ونشر العلم ركز عنايته على تزكية النفوس وتحسين الأخلاق . وكان من مقتضى طبيعة نظام الحكم الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم أن تكون أخلاق الناس تساير طبيعته وتنسجم معه . ولذلك لم يفتقر النبى صلى الله عليه وسلم إلى استخدام القوة لتنفيذ الأحكام والقوانين فى أغلب الأحيان ، ولم يحتج إلى إرغام الناس على الطاعة قسراً . وإنما كان يكفيه أن يقول للناس : إن الله أمركم بالأمر الفلانى ونهاكم عن الأمر الفلانى وإذا بالناس يأتمرون بما أمروا وينتهون عما نهوا عنه عن طواعية أنفسهم . ولم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم من شرطة أو سجن أو شبكة للمخابرات ، وما كان يدور بخلد أحد أن يبلغ الناس شىء من الرسول للعمل به فيخالفوه .

خذوا مثالا على ذلك حكم تحريم الخمر : عندما أعلن فى المدينة حكم التحريم أصبح الناس يريقون الخمور ويكسرون أوانيها ويمتنعون من تناولها . وأصبح من كان يشربها وبلغه النهى يصرفها عن فمه ، ولا تجدون ولا مثالا واحداً فى جميع تاريخ البشرية لهذا النوع من الالتزام والاتباع . وما يوم أمريكا ببعيد . إنها صرفت آلاف الملايين من الأموال لإقناع الناس بأضرار الخمر ومساويه . وقد جندت كافة الوسائل الإعلامية لشرح النتائج السيئة للإدمان . وأدخل على الدستور الأمريكى بعد تأييد الرأى العام تعديل منع بموجبه الخمر فى أمريكا . ولكن اليوم التالى لصدور قانون منع الخمر بدأت ظواهر المخالفة القانونية فى طول البلد وعرضه . صار الناس يشربون الأنواع الرديئة من الخمور . وقد بلغ الأمر إلى حد أن الشارع الأمريكى اضطر لإلغاء قانون منع الخمر . ولكم الآن أن تقارنوا بين المثالين : مثال يبرهن على أنه ما إن صدر حكم تحريم الخمر إلا وأقبل الناس على تطبيقه إيماناً واحتساباً . ومثال يوضح أنه يقرر قانون منع الخمر معززاً بالتأييد الشعبى ، بعد تمهيد الجو وبذل الدعاية على أوسع النطاق . ولكن صدور القانون يقترن بمخالفة بدون ما تأخير . وهذا دليل واضح على أن نظام الحكم الصالح أساسه الإيمان والتقوى ،

وبانعدام هذين الأمرين مهما وضعنا أحسن الدساتير وأفضل القوانين لايعدو حبراً على الورق ولاينال طريقه إلى التنفيذ فى الأرض .

مندوب إذاعة باكستان: الخصائص الأربعة للنظام الديمقراطى الغربى اليوم الذى أشرت إليه فى البداية هل كان الحكم الإسلامى أيام النبى صلى الله عليه وسلم يتسم بتلك الخصائص ؟ وإذا كان فبأى شكل ؟

سماحة الأستاذ : فيما يتعلق بالسلطة العليا سبق أن قلت أن تلك السلطة ليست إلا الله سبحانه وتعالى كما علّمنا ذلك النبى صلى الله عليه وسلم . وأما تصنيف الحكومة إلى ثلاث سلطات : التنفيذية والتشريعية والقضائية فهذا التصنيف لم يكن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . فهو صلى الله عليه وسلم كان شارعاً وكان قاضياً وكان حاكماً .. فكل السلطات كانت مجتمعة فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم بحيث كونه نبيًّا مأموراً من الله . ولكن كان من دأب الرسول عليه الصلاة والسلام أن الأمر الذى كان يأتيه من الله عز وجل كان يطالب الناس باتباعه اتباعاً كليًّا . ولم يكن هناك متسع فى مناقشته . أما الذى لم ينزل فيه أمر من السماء فكان يستشير فيه أصحابه ، وكان يعطى لهم الحق فى الاختلاف معه . وحدث أكثر من مرة أنه صلى الله عليه وسلم تخلى عن رأيه إلى رأى أصحابه والمثال على على ذلك ما حدث فى غزوة بدر حيث أنه صلى الله عليه وسلم اختار مكاناً للنزول فقام أحد أصابه الحباب بن المنذر يسأل : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزله الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فأنزله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه .

يمكنكم أن تفهموا من خلال ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يروض الناس على أمرين : أحدهما : كل أمر ينزل من الله يطيعوه إطاعة مطلقة بدون تلكوء . وثانيهما : الأمـر الذى لم ينزل

فيه حكم من الله يُستشار فيه أصحاب الرأى والبصيرة ويتاح لهم حق مناقشته، واستبانة ما فيه جوانب الحسن أو القبح، ويتاح لهم حتى الاختلاف معه فى بعض آرائه ، وعرض رأى آخر عليه ثم الأخذ بالرأى الذى يقرَّر بعد المشاورة .

ولكم مثال آخر من هذا القبيل : عندما اكفهرت الظروف واشتدّ البلاء فى غزوة الأحزاب أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعقد الصلح مع بعض القبائل من اليهود : أعداء الإسلام على ثلث ثمار المدينة ، لأجل فصلها من تكتل المشركين . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله : أمراً نحبه ونصنعه ؟ أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا (قال : بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، جاءوا لكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكهم إلى أمر ما ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى (ضيافة) أو بيعاً . أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزّنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذلك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا .

ويمكنكم أن تعرفوا مما ذكرت آنفا أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم للحكم حيث أن الأمور التى كان الله ينزل فيها حكمه لم يكن فيها ما نصطلح عليه اليوم بالديمقراطية . والأمور التى لم يكن فيها حكم الله كانت تتسم بروح التشاور (روح الديمقراطية بدون تشبيه) .

ونأخـــذ الآن موضوع السلطة القضائية : أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قاضياً حيث قال الله عز وجل «إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ لتَحكُمَ بَيْنَ الناسِ بما أراكَ الله » . وعلى هذا كانت السلطة القضائية بيد النبى صلى الله عليه وسلم . وكان أسلوبه فى القضاء وتسوية النزاعات أنه صلى الله عليه

وسلم كان يحرص على أن لا يتحقق العدل الكامل فقط بل أن يلمس الناس بوضوح ذلك العدل الإسلامى . فكل القضايا كانت تطرح فى المحكمة العلنية. ولا نجد ولا مثالا واحداً للمحاكمة السرية . من المشهور أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى مشركى مكة قبيل الفتح أخبرهم باعتزام المسلمين بالهجوم عليهم فعثر على هذا الكتاب . وكان هذا الأمر بمثابة التجسس لحساب العدو والخيانة مع الحكومة . ولو سألنا اليوم آراء الناس لقالوا : أن هذا النوع من القضايا لا بد أن يحاكم فيها فى المحكمة السرية إلا أن الرسول عليه الصلاة والسلام أقام المحكمة فى المسجد علناً ، وسمع إلى الأدلاء وقضى ما شاء الله أن يقضى . وكانت القاعدة الثانية من قواعد القضاء النبوى أن لايقضى فى أمر إلا بعد أن يستمع إلى ما عند الخصمين ، وأن لا يحرم أحد من حق من الحقوق الأساسية إلا بعد إتاحته الدفاع عن نفسه بكل حرية . وأن القضاة الذين عينهم النبى صلى الله عليه وسلم خارج المدينة كان ينصحهم بأن لا يقضوا فى خصومة بدون أن يسمعوا إلى ما عند أطراف الخصومة .

وقد أغلق النبى صلى الله عليه وسلم باب الشفاعة بكل شدة فيما يرجع إلى القضاء . وحدث بعد فتح مكة أن أن سرقت امرأة من قريش : تقول عائشة رضى الله عنها : أن قريش أهمهم شأن المخزومية التى سرقت . فقالوا : من يكلّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : من يجترئ عليه إلا أسامة حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلمه أسامة فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله » ؟ ثم قام فخطب ، فقال : يا أيها الناس إنما هلك الذين قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه . وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . وهكذا فقد سد النبى صلى الله عليه وسلم باب الشفاعة فى الحدود .. بل لقد وضع قاعدة شاملة جعل بموجبها كل الناس سواسية فى القانون ، ومنع الناس من تضليل القاضى والحصول على الحكم لهم بهذه الطريقة . قال صلى الله عليه وسلم : إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع

فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها .

ونلقى الآن الأضواء على السلطة التشريعية فإن الدين الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم كان القانون فيه لله سبحانه وتعالى كمبدأ أساس . وكذلك كان حق التشريع فيه لله تعالى ولذلك لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فيه مشرعاً مستقلا . إنما كان منفذاً لقانون الله ، وشارحاً له ومربياً للناس على تنفيذه بالعدل والقسط. فيبينْ للناس أولا ما هو قانون الله ثم شرح ذلك ؟ القانون فيما نجده فى سنته صلى الله عليه وسلم . فمثلا ورد فى القرآن حكم السرقة حيث قيل : « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . «وهذا حكم موجز كل الإيجاز مجمل كل الإجمال ولكننا نجد فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كيف نطبق هذا الحكم ، ومتى نطبقه ومتى لا نطبقه . وما هى السرقة ، وما هى ليست بسرقة وما هو نصابها الذى بموجبه يطبق هذا الحكم ، وما هى الأموال التى تدخل فى حكم السرقة والتى لا تدخل فى حكمها . ولولا التفصيل الذى جاء فى السنة لما استطعنا أن نطبق حكم السرقة بصورة صحيحة . ويتضح من ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن مشرعاً مستقلا ، بل الله سبحانه وتعالى هو المشرع ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم شارحاً لقانونه بتكليف منه عز وجل . فالذى نسميه القانون الإسلامى هو ما فى كتاب الله ، وأما السنة فهى ما يحتوى عليه كتب الحديث .

والأسلوب الذى اختاره النبى صلى الله عليه وسلم لتنفيذ القانون كان يشتمل على ما يلى من المبادئ الرئيسية :

١ – ادرءوا الحدود بالشبهات .

٢ – أن الأمام أن يخطئ فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة .

٣ – أن يقضى الناس فى الخصومات بالتراضى بينهم ولهم أن يعفوا عن أحد إذا أرادوا أو أن يستروا أحداً . وكل ذلك قبل أن يبلغ الأمر القاضى . فإذا بلغ القاضى فلا عفو ولا ستر ، فالقاضى يقضى فيه بما يراه من الحق .

٤ – ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم بكل شدة من بذل أية محاولة فى التأثير على القاضى . وأمر القاضى بأن يقضى فى ضوء كتاب الله وسنة رسوله وبما يراه من الحق .

٥ – وقال صلى الله عليه وسلم :

القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة واثنان فى النار . فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ورجل عرف الحكم فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس عن جهل فهو فى النار .

وهناك أمور أخرى يجب أن تفهموها جيداً : لا نستطيع أن تفهم جيداً ما كان عليه عهد النبى صلى الله عليه وسلم من شؤون الحكم إذا جعلنا النظريات السياسية المعاصرة مقياساً لفهمها . فالدولة فى العصر الحاضر تتكون من ثلاث شعب : التنفيذية والقضائية والتشريعية ، والقانون الأساسى للدولة تقرر ما لكل شعبة منها من الحدود والاختصاصات . هذا فى العصر الحاضر أما ما كان عليه عصر النبى صلى الله عليه وسلم وهو أن المدينة المنورة قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم كان فيها لكل دار من دور القوم حيطان منفصلة كانت تشتمل على أراضيهم وحدائقهم وبيوتهم وسقائفهم التى كانت يجتمعون تحتها عند المهام . وكان يسودهم النظام القبلى . وكل قبيلة منهم كانت تتولى شئونهم . ولما أسلم نفر من أهل المدينة فى بيعة العقبة فى مكة طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يعين لهم النقباء فعين النبى صلى الله عليه وسلم لهم اثنى عشر نقيباً ممن كانوا أكثرهم صلاحاً ونفوذاً وثقة عند القوم . وكان من مسؤولية كل نقيب منهم أن يستعين بمن فى قبيلته من وجهاء وأشراف فيهم العلاج والنجابة يستعين بهم فى نشر الإسلام وإصلاح الأخلاق وتسوية المعاملات . والذى آمن من أشراف القبائل ورؤسائها جعله النبى صلى الله عليه وسلم أيضاً سيد قومه وشيخ قبيلته . ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أقر بنفس النظام . وكل ما كان هناك من فرق هو أن الأشراف المسلمين من المدينة حلوا مناصب الرئاسة محل الأشراف المشركين . وهذا التغير لم يحدث بالانتخاب أو التصويت .

وإنما كان ذلك من طبيعة الانقلاب الإسلامى أن يبتعد الأشراف المشركون ويتقدم الأشراف المسلمون فى كل مجال من مجالات الحياة . ولتسيير شؤون المدينة كان النبى صلى الله عليه وسلم يستشير أصحاب الرأى من المهاجرين والأنصار . وهذا الوضع لا يشبه النظام التشريعى أو البرلمانى فى العصر الحاضر ، والذين كانوا من ذوى النفوذ

والرأى والأمانة من المسلمين سواء أكانوا من المهاجرين أو الأنصار كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعوهم كلما أهمه الأمر أو مسته الحاجة . وهؤلاء لم يكونوا منتخبين من كل العوام . ولم يكن هناك من انتخاب حسب المصطلح الحديث . إلا أنهم كانوا على قدر من المعرفة والبصيرة والنفوذ عند العوام حيث لو أجرى لهم الانتخاب على الطريقة الحديثة لكانوا هم الناجحون بكل تأكيد . ثم لم يكن من الضرورى أن يدعى كل واحد منهم عند كل ملمة أو معاملة . بل كلما كان الأمر يتطلب إلى التشاور استشير من كان حاضراً فى المدينة . وكان يكفى حتى عند أهم القضايا وأخطر المسائل أن ينادى مناد حضور الناس فى المسجد النبوى .

ولما اتسعت دائرة الدولة الإسلامية خارج المدينة عين النبى صلى الله عليه وسلم ولاة وعمالا فى مختلف المناطق . وهم الذين كانوا حكاماً يتولون الشئون الإدارية ، وكانوا قادة يتولون شئون الجند . ولم يكن فى ذلك العهد جيش نظامى كجيوشنا بل عامة المسلمين كانوا يخرجون إلى الجهاد متطوعين عندما يدعوهم الداعى فكذلك عين النبى صلى الله عليه وسلم قضاة فى مختلف الأقطار وكانوا فى حرية تامة فى شئون القضاء حيث لم يكن لعامل أو وال أن يتدخل فى شئونه . وكذلك استعمل النبى صلى الله عليه وسلم نفراً من أصحابه على تعليم الناس دينهم . ولم تكن الغاية من التعليم تعليمهم القراءة والكتابة . بل كان مراده أن يتلو المعلم للناس القرآن ، ويلقنهم معانيه ويبين لهم سنة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان التعليم فى أغلب الأحيان شفاهياً . وكذلك المعلمون كانوا يتولون تربية الناس خلقيًّا وفكريًّا بنفس الأسلوب الذى كانوا تعلموها من النبى صلى الله عليه وسلم . فمثلا بعد فتح مكة جعل النبى صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد واليًّا وجعل معاذ بن جبل معلماً فيها .

أما جباية أموال الزكاة فعين النبى صلى الله عليه وسلم محصلين فى بعض النواح . وأمر رؤساء القبائل جباية أموال الزكاة فى النواح الأخرى . والأقطار التى استسلمت للدولة الإسلامية على الخراج لم يكن فيها من يجبى أموال الخراج . ولما فتحت خيبر وتصالح

يهود خيبر مع النبى صلى الله عليه وسلم على نصف زروعها كان النبى صلى الله عليه وسلم يبعث أحداً من أصحابه أيام الحصاد وكان يجعل كل الزروع نصفين . وكان يخيرهم أن يأخذوا أيهما أرادوا .. وجاء فى كتب التاريخ أن المسلمين لما أخذوا منهم الخراج على هذه الطريقة قال اليهود : على هذا العدل تقوم السماوات والأرض .

هذه هى الصورة الموجزة لنظام الحكم النبوى .

فى الإخلاص والنية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يغزو جيش الكعبة . فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم . قالت (أى عائشة أم المؤمنين) قلت : يا رسول الله : كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ، ومن ليس منهم . قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم » .

حيرة الشباب المسلم .. أسبابها وعلاجها

العلامة أبو الحسن الندوى

السؤال الأول : أستاذنا ، العالم الإسلامى بأسره اليوم يعيش حيرة مردية ، عقيدة وتصوراً وسلوكاً ، وأبرز ما تكون هذه الحيرة فى الشباب المسلم فى بلادنا خاصة ، فنريد أن نعرف أولا : ما هى الأسباب التى خلقت هذه الحيرة أو ساعدت على وجودها[1] ؟

إن من أعظم الأسباب فى هذه الحيرة التى يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة وشباب العالم بصفة عامة ، هو التناقض فى التوجيه والإعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذى سلط عليهم ومنوا به هو السر فى هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد فى بيت إسلامى فى أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعى أو بغير وعى ، ثم إنه نشأ فى بيئة دينية تؤمن بمبادئ الإسلام ، وقرأ التاريخ الإسلامى — إذا أكرمه الله بذلك وتسنت له هذه الفرصة الكريمة — وكان سعيداً بوجوده فى بيئة واعية دينية ، ثم سبق — ومعذرتى إلى اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال فى سن مبكرة وليس له خيار — إلى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة — الذين يجلهم ، لأنهم أصحاب اختصاص وأصحاب دعامة فى كثير من العلوم — كل ما ينقض ما أبرمته البيئة

---

(١) هذا الحديث مقتبس من ندوة علمية انعقدت فى عمان فى عام ١٩٧٣ ، حضرها نخبة من الأساتذة الكبار والمثقفين وفضلاء النبلاء ، وأدارها الأستاذ محمد إبراهيم شقرة بلباقة ومقدرة ، وكان من ضمن الأسئلة هذا السؤال الخطير . وقد سجل هذا الحوار شيخنا الندوى بقلمه فى كتاب « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » .

وكل ما غرسته فى قلبه وعقله من التربية الإسلامية ، يسمع ويرى ما ينفى كل ذلك أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع فى تناقض عجيب وصراع فكرى عنيف ، وهذا الصراع الفكرى يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنها معجزة حقاً فى هذه البيئة التى نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة. إنه قد يواجه الصراع فى ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنه يعالجه فى المسجد ، ويعالجه فى المدرسة ، ويعالجه فى البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، هذا الصراع المرير الهائل العميق يتلقى من مؤسسة « الإعلام » ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذى جاء حديثاً ، يسمعون إذاعات وأحاديث وبرامج تقضى على البقية الباقية من آثار التربية القديمة وتحدث فيهم ثورة فكرية وقلقاً نفسيًّا ، والصحافة التى هى «صاحبة الجلالة» فى نظر كثير من الناس تقدم إليهم فى أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسر الصفرا على تعبير إخواننا السوريين ، وقبل أن يتلوا شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظرهم صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للإيمان والثقة ، فيتلقون هذا فى رغبة ونهامة ، وفى شوق واستجابة ، إنه يقع فى أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم فيرون ما يشككهم فى الدين يشككهم فى التاريخ الإسلامى ، يشككهم فى مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى فى مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم فى صلاحية هذه الأمة ، وفى خلود الرسالة التى يحملونها ، يشككهم فى صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادئ وإغراءات ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك فى حيرة لا تعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يوقع الإنسان — وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل حصيف الرأى — فى حيرة ، فكيف بالشباب الغض الناعم ، وكيف بهذه البراعم الناعمة التى لم تتفتح بعد ، كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة .

إن مثل ذلك — أيها الإخوان السادة —

كمثل عجلة أو مركبة ركب فيها فرس فى الأمام وركب فيها فرس فى الوراء وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جدًّا أن يكون ركابها فى حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون فى أرجوحة يميناً وشمالا .

إن الأدب الذى لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى ، التى كان لها التوجيه وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، وهذه غرست فى قلوب الناشئة وفى قلوب الشباب ، بل فى قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى فى وجودهم ، تشككوا فى كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التى أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف أو تصفيق حاد ، إن هذه كلها غرست فى قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسى والسر فى حيرة الشباب .

ثم وجه الأستاذ سؤالا ثانياً : وهو « ما هو العلاج الصحيح لهذه الحيرة التى يقع فيها الشباب » ؟ وكان جوابى على ذلك : « إننى أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو إنقاذ الشباب من هذه الحيرة المردية هى توحيد نظام التعليم ، واسمح فى حاجة إلى شرح هذه النقطة ، إن المعسكر التعليمى موزع بين قسمين ، المعسكر الدينى ، والمعسكر اللادينى أو العلمانى ، أو المعسكر القديم ، والمعسكر الجديد ، وهذه الثنوية أو الازدواجية فى التعليم هى السبب الأكبر فى خلق هذه الحيرة التى يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها نحو الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هى تنسيق غايات التعليم ومواد التعليم ، لا أعنى بالتنسيق بين تعليم قطر وبين تعليم قطر آخر ، إنما أعنى به التنسيق فى تعليم القطر ، فهنالك كما قلت تناقض فى المواد الدراسية ، فالذى يبنيه تعليم يهدمه تعليم آخر ، والعلوم التى لم تكن لها صلة بالعقائد أصبح لها اتصال بالعقائد ، وما أصبح التعليم مجرداً ، إن الاعتقاد بأن من التعليم ما هو محايد وما هو نزيه كل النزاهة ، وما هو بعيد كل البعد عن التأثير فى العقيدة قد أصبح نظرية قديمة ولا نصيب لها من الصحة ، الخطوة الأولى : الخطوة الثورية الجذرية هى إحداث تنسيق فى نظام التعليم ، فلا قديم ولا جديد ولا دينى بالمعنى اللاهوتى ،

وبالمعنى الكهنوتى المسيحى الأوربى ، لا بالمعنى الإسلامى الصحح ، فلا تعليم لاهوتى ولا تعليم دنيوى أو زمنى أو علمانى ، بل التعليم وحدة لا تتجزأ ، إنما ينقسم بين غايات ووسائل ولابد أن تكون بين هذه الوسائل وحدة تربطها وتخضعها للغاية الأساسية .

ثم إزالة هذا التناقض الذى يعبر عنه لسان الشريعة ، ولسان القرآن بكلمة : « النفاق » إن هذا يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب ، يعنى إحداث نظام تعليمى كوحدة متكاملة متناسقة ، وهذا يحتاج إلى ثورة عارمة ، إلى ثورة جريئة ودقيقة وشاملة ، ويحتاج طبعاً إلى أناس عندهم الأصالة الفكرية ، لا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب . إنه يحتاج إلى الاجتهاد فى المواد الدراسية ، وهذا يحتاج طبعاً إلى مشاريع عملاقة ، وإلى جهود كبيرة واسعة النطاق عميقة الجذور ، ويحتاج كذلك إلى أن تتبناها الحكومات الإسلامية والمجامع الاسلامية الكبيرة ، فإذا نجحنا فى تطوير نظام التعليم تطويراً جديداً ، وإذا نجحنا فى إزالة النفاق عن هذا المجتمع الذى نعيش فيه ، إذن من المؤمل أن ننقذ الشباب من هذه الحيرة المردية .

ثم وجه الأستاذ سؤالا ثالثاً وهو :

« لعل أستاذنا أبا الحسن يبين لنا الدور الإيجابى الذى ينبغى للدولة أن تقدمه لهذه المؤسسات ، حتى يتم التناسق الصحيح بين هذه المؤسسات كلها » .

وكان جوابى على ذلك :

فى الحقيقة أن دور الدولة عظيم وحاسم فى إزالة هذه العوامل الهدامة وفى رد المجتمع إلى حياة سليمة لا صراع فيها ولا حيرة ، ولكن هذا يتوقف على أن تكون عند الدولة فكرة واضحة — لست أعنى دولة دون دولة ، ولا أعرض بدولة — إنما هى موضوع علمى ، فكرة واضحة عن الدين الذى تؤمن به وتدين ، وعن الأهداف التى تتبناها وتريد أن تعيش هذه الأهداف ، ولا تعيش فقط بل تنمو وتزدهر ، وإذا آثرنا التعبير الإسلامى الدينى ، قلنا : « الإيمان والعقيدة » إيمان راسخ ، وعقيدة جازمة بفضل الإسلام أو بفضل الأهداف التى تدعو إليها وتعيش لها ، وأن تكون متمسكة بمبدأ الهداية لا الجباية[1] .

---

(١) وتمثل هذه الفكرة خير تمثيل جملة مأثورة عن سيدنا عمر بن عبد العزيز يخاطب بها أحد عماله الذى شكا إليه انتشار الإسلام والنقص فى الجزية . « ويحك ! إن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما بعث هادياً ولم يبعث جابياً » .

ثم الإخلاص والعـــزم الصادق والتضحية التى لا غنى عنها ، هذه كلها عوامل لوجود بيئة مناسبة أو الأجواء المناسبة لنمو الشخصية الإسلامية وإكمالها ووصولها إلى الغاية المطلوبة .

ثم ختم الندوة بالسؤال الأخير وهو : « ونترك فى الختام التعليق على هذه الخطوة الأخيرة للأستاذ أبى الحسن صاحب التجارب الكثيرة التى مر بها فى دور الشباب والكهولة ، وهو الآن فى دور الشيخوخة ، ولا بد أخيراً من نصيحة فيها إلى الشباب بارك الله فيه » .

قلت : لست متشائماً ولا يائساً من دور الشباب ومن صلاحيتهم ومن حرصهم أن يعملوا شيئاً فى مجال الدعوة الإسلامية ، والفكرة الإسلامية ، وفى أن يمثلوا دورهم كشباب مسلم فى هذا المعترك الفكرى الذى لم يشاهد تاريخ الإنسانية معتركاً فكرياً مثله ، إن الشباب طبقات وأقسام كثيرة وليس هناك طراز واحد من الشباب . إننا شاهدنا عدداً كبيراً من الشباب يتلهفون شوقاً إلى أن يلعبوا دورهم ، وهم فى استعداد تام وعندهم التألم الشديد مما هو واقع حولهم ، إن هؤلاء الشباب هم أمل اليوم وجيل المستقبل ، وفى الحقيقة أن الشباب هم الذين يستطيعون أن يحولوا هذا التيار ، وعندى من المعلومات ما تؤكد لى أن فى الشباب مجالا واسعاً للعمل الإسلامى والفكر الإسلامى ، وعندهم قلق والقلق أول خطوات النمو والتقدم والتحسن ، إن الشباب قلقون اليوم ، وإن الحضارة الغربية قد عجزت عن تسليتهم وإرضائهم ، وإن هنالك فراغاً لم يملأ ولا يمكن أن يملأ كما تفضل الأستاذ كامل الشريف ، إن هنالك ديناً واحداً يستطيع أن يملأ الفراغ الهائل الذى أحدثته أوروبا بين القلب والروح والجسم والمادة ، وهذا من خصائص الحضارة الغربية التى لها تجارب خاصة ، ومراحل معينة مرت بها فى رحلتها الطويلة ، ولكن — مع الأسف الشديد ومن سوء حظ الإنسانية — لما آلت القيادة إلى أوروبا أثرت هذه التجارب فى تفكير الأمم التى كانت فى عزلة عن هذه التجارب ، تجارب مجتمع خاص ، كانت المدينه طبيعة خاصة ، وقد حدث فيه صراع بين الكنيسة والحكم ، وصراع بين تعليم الدين ، وصراع بين الكهنوت والعقل السليم والعلم الحديث ، هذا كله من تجارب الغرب ، وكان الشرق غنياً عن

هذه التجارب ، لم يكن منها فى عير ولا نفير ، ولكن فرض الغرب وفرضت الثقافة الغربية هذه التجارب وانطباعات هذه التجارب، ومردود هذه التجارب ، وقيمة هذه التجارب ، فنظرية « الدين قضية شخصية » و « الفصل بين الدين والسياسة ، هذه كلها تجارب الأمم الأوربية لظروف خاصة ، وأجواء خاصة وللطبيعة المسيحية التى دانت بها أوربا ، ولكنها قد أشركت فيها الشعوب الشرقية من غير سبب ومن غير مبرر ، فهذا الفراغ موجود فى الشباب ، والشباب بدأوا يشعرون بهذا الفراغ ، إن ما نشاهده من انحرافات وشذوذ ومن مبالغات ومن تطرف فى حياة الشباب ، كل ذلك شعور لهذا الفراغ ، وإننى أستطيع أن أقول فى ضوء تجاربى ومشاهداتى فى الشرق وفى آسيا ، أن الشباب فيهم قابلية واستعداد كبير ليكونوا قادة حركة جديدة ، وليخوضوا هذه المعركة .

ولكننا نعيش فى عزلة عن الشباب وعندنا كثير من سوء تفاهم ، ومن إساءة ظن ومن جهل للوضع الذى يعيش فيه الشباب ، فإذا ملئت هذه الفجوة بين الكهول والشباب ، وبين الدعاة إلى الدين وبين الشباب الجامعيين والشباب المثقفين بالثقافة الغربية ، يمكن أن نجر عدداً كبيراً ونجعلهم مقتنعين مستجيبين لهذه الدعوة متحمسين لها ، ولكن ذلك يحتاج إلى مخططات دقيقة عميقة ، مخططات علمية مدروسة ، يحتاج ذلك إلى مكتبة جديدة ، يحتاج ذلك إلى أسلوب جديد فى الحديث مع الشباب ، يحتاج ذلك إلى الحكمة التى أشار إليها القرآن بقوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » يحتاج ذلك إلى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة ، وأن تكون عندنا تلك المقدرة البيانية والطلاوة الأدبية ، وحلاوة التعبير التى لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام وأن تنفذ فى عقول الشباب وفى نفوسهم عن غير هذا الطريق .

إننا نرى — مع الأسف الشديد — أن كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلع فى آداب اللغة ، والحصول على تلك المقدرة البيانية الأسلوب البليغ الذى يدخل إلى قرارة النفوس من فضول واجبات العلماء وعلى هامشها ، وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم وانحرافاً عن جادتهم ، مع أننا نرى أن القرآن نوه بهذه الحقيقة ،

وكلنا نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء ، ولكنه أنزل كتابه فى أساوب معجز ، وفى لسان عربى مبين ، ولم ينزل فى لسان عربى مبين فحسب بل نوه بهذه الناحية فى غير موضع من مواضع القرآن ، فقال : نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ، « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فمعنى ذلك أن ناحية اللفظ وناحية الأسلوب وناحية البلاغة ناحية مهمة ، وإذا رجعنا إلى تاريخ الإصلاح والتجديد رأينا أن الذين كانوا على قمة الإخلاص وعلى ذروة الإنقطاع إلى الله وإلى الربانية الصادقة ، كانوا لا يستهينون بهذه الناحية ، إنما كانوا يهتمون بها كل الاهتمام ، ولا نضرب المثل بالنبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المناسبة لأنه صلى الله عليه وسلم أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء من غير شك وهذا معروف عند الجميع ، ولكننى أضرب المثل بسيدنا على بن أبى طالب ، إنه كان فى قمة من البلاغة ونواصل سيرنا إلى آخر القرون الإسلامية ، فنرى أن من تبوأ القيادة أو الزعامة فى الدعوة الإسلامية كانوا على جانب عظيم من البلاغة ومن فهم نفسية المخاطبين ، إننى فى الحقيقة أوخذ بالحيرة إذا قرأت خطب سيدنا عبد القادر الكيلانى ، فأنا أرى أن هذا الرجل الذى اشتهر فى العالم كله ، وفى جميع العصور بزهده وبقناعته ، وبربانيته ، وبإشراقه وتبتله ، إنه يخاطب الجيل المعاصر والمجتمع الذى كان يعيش فيه فى بغداد : البلد الذى ولد فيه الحريرى ، وولد فيه ابن الجوزى : وولد فيه الصابى ، وولد فيه هؤلاء الشعراء ، وتغنى فيه البحترى ، والشريف الرضى ، والمتنبى ، وأبو تمام ، والمعرى .

كانت بغداد عاصمة عالم الإسلام ومركز الخلافة العباسية ، كانت محط كل عبقرى من جميع الأصناف ، فسيدنا عبد القادر الكيلانى نراه يخاطب الجيل المعاصر فى بغداد بلسان يحلق فى البلاغة ، ويخاطبهم بأسلوب ساحر ، بأسلوب يبلغ إلى الأعماق ، بأسلوب لا تزال له الصولة إلى الآن ، وإذا قرأنا خطبه التى دونها المدونون ، وحرصوا على نقل اللفظ الصحيح لاعتقادهم أن ما يصدر من القلب يدخل فى القلب أقررنا بهذه الحقيقة ، وهذا كان من دواعى الحرص على نقل الكلام بالحرف .

وهذا كله يعطيه الفكرة عن أهمية الأدب والأسلوب ، إننا إذا أردنا أن نوجه الشباب التوجيه الإسلامى العميق ، فعلينا أن نتسلح لذلك ، وأن نعد له عدته ، وأن نستوفى تلك الشروط التى كانت لكل زمان ومكان ، وهى لا تزال لها قيمتها وأهميتها وتأثيرها ، وهو إحداث مكتبة إسلامية علمية ، تلائم عقلية الشباب وتؤثر فيها ، ويتقبلها الشباب بقبول حسن بل يتشوقون إليها ويمدون إليها أيديهم ، فإذا وفينا هذه الشروط فإنى واثق بأن الشباب مستعدون ليكونوا : لا مؤمنين بهذه الفكرة فحسب ، بل دعاة متحمسين لهذه الفكرة والدعوة متفانين فيها ، متهالكين عليها ، لا يعدلون بها شيئاً » .

فى الإخلاص والنية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . فهجرته إلى الله ورسوله : ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو أمراة ينكحها . فهجرته إلى ما هاجر إليه .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
يجب أن يظل دائماً فى حدود
الحكمة والموعظة الحسنة

الأستاذ / أحمد حسين

فى هذه الأيام التى اختلط فيها الحابل بالنابل ، واشتدت عوامل السخط العام والتذمر والقلق ، ثَـمَّـة شعاع من الضوء يسطع وسط هذه الظلمات الحالكة ، ألا وهو تمسك الجماهير بالإسلام ، وإيمانها بأنه حبل النجاة ، فارتفعت الأصوات من أعلى ومن الأجيال الصاعدة بوجوب أن يحكم المجتمع بالشريعة الإسلامية .

وكما هو الشأن فى فترات الانتقال وما يسودها من اضطراب وقلق وفوضى ، فقد تواجدت الحركات ، وارتفعت الصيحات المتطرفة (وليس يدخل فيها بطبيعة الحـــال الحركات الوحشية الإجرامية) وإنما أعنى بالتطرف : هذا الذى لا يزال يصدر من أشخاص لا شك فى إيمانهم وتدينهم ورغبتهم المؤكدة فى الإصلاح والخير كبعض خطباء المساجد الذين تتسارع الألوف لسماع خطبهم ، وبعض الكتاب المسلمين الذين تتأثر الناس بكتاباتهم وهؤلاء هم من أكتب لهم هذا المقال فى الدرجة الأولى ، وأوجهه بعد ذلك لملايين الشباب فى العالم الإسلامى الذين أصبحوا متعطشين لرفعة الإسلام . . فلهؤلاء وهؤلاء أقول إنّ أمر الله صريح وواضح لكل من كان يؤمن بالإسلام والقرآن .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وهذا نص ولا يجوز لأحد أن يجتهد أمام النص . .

شروط الدعوة إلى سبيل الله :

ويتضح من هذا النص أن الدعوة إلى سبيل الله ليست مطلقة من أى قيد

أو شرط ويحسب أى إنسان يتصور نفسه أنه داع إلى سبيل الله كى يعطى نفسه الحق فى أن يقول ما يشاء ، ويجرح من يشاء ، ويسبُّ من يشاء ، فضلا عن أن يفعل ما يشاء ، فكل هذا انحراف بل خروج صريح عن أمر الله الذى طلب أن تكون الدعوة إلى سبيله :

أولاً : بالحكمة ، ويجب أن نقف طويلا أمام « بالحكمة » فهى تعنى أول ما تعنى فهم الظروف والملابسات التى تحيق بالمجتمع ، وما ينفعه ويفيده فى ظرف معين ، أو يضره . . وفى نصوص القرآن وفى سيرة الرسول تحديد لهذه الحكمة ومفهومها وكيفية ممارستها ، كقول الله تعالى لموسى وهارون ، عندما قرر إيفادهما لفرعون لهدايته : فقولا له قولا ليناً لعله يذكر أويخشى.

فهذا هو الله سبحانه وتعالى القادر على كل شىء ، والقادر على أن يصعق فرعون (وقد أغرقه فيما بعد) ، ولكن لأن الله يريد أن يعلمنا « الحكمة » فى الدعوة إلى سبيله ، أمر سيدنا موسى بأن يكون قوله « لينا » . . فعندما يتصور كائن من كان أن الإغلاظ فى القول فضلا عن السب والشتم هو فى سبيل الدعوة إلى الله فهو إما جاهل بالإسلام والقرآن ، وإما خارج عن تعاليم الدين لغرض فى نفس يعقوب .

الحكمة كما طبقها الرسول :

معلوم أن الدعوة إلى التوحيد ، والتخلى عن الشرك بعبادة الأوثان ، كان هو جوهر الدعوة المحمدية التى قام بها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام نزولا عند أمر ربه ، ومع ذلك نراه بعد أن يجهر بالدعوة ويبلغها يلتزم الحكمة بعد ذلك فى نشر الدعوة حتى ليطلب من أصحابه أن لا يسبوا الأصنام لئلا يكون ذلك سبباً للمشركين فيسبوا الله عدواً بغير علم » .

ورضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستظل بحماية عمه أبى طالب المشرك ليؤدى رسالته مع أنه فى حماية رب العالمين وما ذلك إلا ليعلمنا كيف تكون الدعوة بالحكمة ، ومن الحكمة الانتفاع بكل الأنظمة والتقاليد التى قد تفيد فى الدعوة إلى الله .

تصور خاطىء لموضوع النسل :

بقى أن البعض يتصور أن ذلك كله كان فى صدر الدعوة وإن ذلك كله قد نسخ فيما بعد ، ولم يعد للإسلام إلا

لغة واحدة يخاطب بها المخالفين وهى لغة « السيف » وهو تخرّص قال به أعداء الإسلام . . ومن يتصوره من المسلمين يدخل على الفور فى زمرة أعداء المسلمين ، فالقرآن كتاب الله القديم نزل تبياناً لكل شىء وتنظيما لكل شىء ، ولما كانت الحرب إحدى سنن الحياة ، فقد نظمها القرآن الكريم فيما نظم وهذا لا يعنى بحال أنه ألغى نظام الدعوة ، فلم تعد « بالحكمة » فللسيف مجاله وأحكامه ، وللدعوة شرائطها وأحكامها . . وأولها الحكمة كما قدمنا .

ثانياً : والموعظة الحسنة . . ثم انظر إلى شرطه الثانى فهو لم يكتف بالحكمة والوعظ ، بل اشترط أن يكون الوعظ حسناً تتفتح له القلوب ، وهنا يقع كثير من الدعاة فى الوهم بأن بحسبهم تفتح قلوب المؤيدين ، ولكن هؤلاء « بداهة » ليسوا هم المحتاجين للموعظة ، وإنما يحتاجها المخالفون ، فعندما يشترط القرآن حسن الموعظة فهو يشترطها بالنسبة للمخالفين ، بدليل ما جاء فى الشرط الثالث .

ثالثاً: « وجادلهم بالتى هى أحسن .. والجدال لا يكون إلا بين المتخالفين فنص القرآن على وجوب الإحسان فى الجدل.

الحكمة كما طبقها الرسول :

ولقد عن لى فى شبابى ، أى منذ أربعين سنة ، وقد كان يحيط بى شباب متدين متحمس لدينه وعلى رأسهم طيب الذكر الأستاذ حسين يوسف (ألف فيما بعد شباب محمد) وكانت الخمارات ومحلات بيع الخمور منتشرة فى كل مكان (أمام المدارس وبجوار المساجد) فعن لنا أن نقاوم بعمل مادى انتشار الخمر بهذا الأسلوب وذلك نزولا على قول الحديث الشريف « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه . . . إلخ الحديث » .

فعمد بعض الشباب المحيطين بى فهاجموا متجرين أو ثلاثة لبيع الخمور وحطموا بعض زجاجات الخمر ، وأراقوا براميله . . . وهاجت الدنيا وماجت ، واعتبر ما حدث عدواناً على نظام الدولة ، وتصدت لنا حكومة ذلك الزمان بكل قوة وعنف ، ولم يدهشنى ذلك بطبيعة الحال ، فقد كان الإنجليز هم الذين يحكمون مصر

فى موضوع الأمن العام وحماية الأجانب .

ولكن الذى روّعنى حقاً وأصابنى بخيبة أمل شديدة مقال كتبه الشهيد حسن البنا، يعترض فيه على الأسلوب الذى انتهجناه، وأنا أعلم الآن أنه كان يتحدث بما يمليه الإسلام «روحاً ونصاً» كما سيظهر لى بعد الدراسة ، ولكنى فى ذلك الوقت غضبت أشد الغضب ، واعتبرت الأمر مناورة حزبية .

ورحت أطالع (وأنا فى السجن) كل ما قاله فقهاء المسلمين عن حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومدى حق المسلم العادى فى التغيير باليد ، فإذا بى أفاجأ بإجماع الفقهاء الأربعة، على أن تغير المنكر باليد هو من حق « ولىّ الأمر » وحده ، وليس للأفراد تغيير المنكر باليد . . وذهلت لهذا الاتفاق ، وعبثاً حاولت أن أجد مخرجاً من المأزق الذى وجدت نفسى فيه . . إذ رحت أتحدث باسم الدين ، وها هو حكم الدين ، يدل عليه إجماع الأئمة الأربعة (مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل) وليس إلا عند الغزالى وجدت الرخصة فى أن للمسلم أن يريق وعاء الخمر عنوة ، ويحطم الدف والمزمار . . .

وتفضل الشيخ الورع مفتى الديار المصرية المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم فأصدر فتوى تتضمن أقوالا لابن تيمية من نوع ما قاله الغزالى . .

ولكن حجة الأقطاب الأربعة ظلت تعلو ما قال به الغزالى وابن تيمية . خاصة وأن ما رخصوا به ، يظل فى حدود ما أجمع عليه الأئمة الأربعة .

وتتلخص هذه الحجة « الحكيمة » أننا لو أبحنا للفرد العادى أن ينكر على غيره باليد فربما تنشأ عن ذلك مضرة تفوق ما كان ينكره ، كأن يحطم عنوة زجاجة خمر فيتسبب فى مشاجرة قد تؤدى إلى القتل وهو ذروة الكبائر .. وأشهد أننى اقتنعت بذلك إلى الحد الذى جعلنى أكره العنف بقية حياتى ، وأصبح لزاماً علىّ أن أحذر الشباب مما وقعت فيه فلا يتصورون أن بحسبهم أن يقولوا هذا حرام وهذا حلال ، ليندفعوا بعد ذلك لتغيير ما يرونه حراماً باليد فالمسألة ليست بهذه البساطة .. ومن قيد الله سبحانه وتعالى أن تكون الدعوة إليه «بالحكمة» وليس من الحكمة فى قليل أو كثير « الإشارة » أن ما يحتاجه العالم الإسلامى فى الدرجة الأولى لكى ينهض من كبوته أمران فى الدرجة الأولى :

١ - إعطاؤه القدوة .

٢ - التربية .

فعلى كل عامل فى حقل الدعوة الإسلامية إذا أراد أن يكون نافعاً حقاً ، أن يقدم بسلوكه الشخصى القدوة لكل من حوله .. فالناس تنقاد لصاحب السير الحميد بأكثر من أى شىء آخر . .

وعلينا بتربية الأجيال الصاعدة التربية الإسلامية الحقة وهو ما أرجو أن أخصص له مقالى التالى .

أحمد حسين

فى التوبة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه . فأيس منها . فأتى شجرة . فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته . فبينما هو كذلك ، إذ هو بها قائمة عنده . فأخذ بخطامها . ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح .

المكتبات الإسلامية

فضيلة الدكتور / عبد الجليل شلبى

المكتبات العامة فى أى دولة عنوان نهضتها الفكرية ، ومقياس اتجاهها العلمى ، ونشاطها العقلى . . وقد بدا هذا كله فى الأمة الإسلامية منذ وقت مبكر جداً ، حتى أننا لا نجد أمة أخرى تباريها فى هذا السَّبْق . . ومع تضافر الأدلة التاريخية عليه ، وثبوته على أقلام المستشرقين وغير المسلمين من كتاب الشرق ، طاب لفريق من أولئك وهؤلاء أن يتهموا الإسلام والمسلمين بأنهم لم يكونوا دعاة ثقافة ولا وجَّههم الإسلام توجيهاً فكرياً . . وجاء على لسان غير واحد منهم أنهم انقضُّوا على أطراف الإمبراطورية الرومانية كالذئاب الجائعة ، وأنهم لم يكن لهم همٌّ إلا غنائم الحرب والاستكثار من التَّسرِّى .

وردُّ هذه التهم قد يطول ويتفرع الحديث فيه ، ولكنى أريد هنا فى إيجاز وسرعة أن أستعرض نشأة المكتبات الإسلامية وما بذل المسلمون فى بنائها ، ثم ما نالها من غير المسلمين من إتلاف وتبديد . . ولعل فى هذا ما يكفى إنصافاً للإسلام والمسلمين ، وكشفاً لمغالطة هؤلاء الذين لم يروا فى الفتوحات الإسلامية إلا طلب الغنائم والتسرى .

ومن المعروف — وهذا مما يبرز معجزات الإسلام فى بناء الدولة الفكرى — أن الإسلام ظهر فى أمة أمِّيَّة لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف شيئاً عن الكتب ، بَلْهَ المكتبات ، وقد كان وقوف هؤلاء الأميين إزاء دعوة الإسلام ومعارضاتهم لنبيِّه مما عاق نشاط الإسلام الثقافى إلى حين ، وكان لابد بعد هدوء هذه المعارضة أن تستغرق هذه الدولة الناشئة فترة من الزمن تتعلم فيها أولا ، ثم تقتنى الكتب ثانياً ، ثم تنشأ المكتبات العامة فيها بعد ذلك .

ولم تنشأ هذه المكتبات العامة

إلا فى عهد الدولة العباسية ، أى بعد قرن ونصف قرن من الهجرة النبوية ، أو ما يقرب من هذا الزمن . .

كانت بداية ظهورها فى عهد الخليفة الرشيد ، وتم نماؤها — وإن لم يقف تيار ازديادها — فى عهد المأمون .

ولكننا نرجع إلى الوراء فنجد أن نواتها بدأت قبل ذلك بأكثر من قرن كامل .. ذلك أن خالد بن يزيد كان قد شُغِلَ بالعلم ، وهمُّه أن يحصِّل من فروعه ما لم يكن يعرفه العرب من قبل ، وكان خالد بعد أن فاتته الخلافة رأى أن يفرِّغَ نفسه لدرس هذه العلوم المستحدثة لديهم والموروثة عن الأمم القديمة .. وقد استطاع أن يتصل بمكتبة الإسكندرية وعلمائها ، وقد ترجم له شىء من تراثها العلمى وترك هو بحوثاً ومؤلفات مهما يكن من شأنها كانت بداية اتجاه ونواة نهضة علمية ، وكان لديه مكتبة خاصة هى أول مكتبة عرفت فى الإسلام .

ويبدو أن هناك حركة خفية لم يأبه التاريخ بها ولم يحدثنا عنها حديثاً تفصيلياً واسعاً ، هذه الحركة هى استمرار البحث العلمى واتصال تياره فيما بين خالد بن يزيد الأموى والرشيد العباسى ، فنحن فجأة نجد هذا الخليفة يستكثر من الكتب الأجنبية حتى إنه فى سفرة له إلى الرقة حمل معه ثمانية عشر صندوقاً من أسفار الأمم القديمة[1] ، وكاد الوزير جعفر البرمكى يبتاع كتب الفلسفة يونانية وغير يونانية ويأمر التراجمة بتعريبها ويقال أن عمل جعفر كان مما أعرى الرشيد بالاتجاه إلى الترجمة ونقل تراث السابقين[2] ، على أن الخليفة المنصور كان له عمل محدود فى ذلك .

هــذا الاستكثار المفاجئ لا بد أنه كان استمراراً لحركة سابقة ، وأن التيار الذى بدأه خــالد لم ينقطع جريانه . ولا يتأتى لمبتدئ أن يحمل فى سفرة طارئة كل هذه الكتب أو أن يهتم بالترجمة كل هذا الاهتمام .

وقد أنشأ المأمون بيت الحكمة أو على الأصح أوسع فى بنائه وسخا عليه لأن نواته موجودة منذ عهد أبيه ، وكان مجمعاً علمياً ومنتدى بحث ، إذ

---

(١) أنظر حضارة الإسلام ص ١٦٢ من الأغانى ٥/٦٧ (ساس).

(٢) انظر ابن خلكان ١/٢٣٦ .

كان به مكتبة عامة ولجنة ترجمة ومجلس مناظرات ، وهو ولا ريب أهم مجمع علمي بعد مكتبة الإسكندرية ، واستتبعت هذه المكتبة عملا علمياً آخر . وهو عمل الوراقين ، فقد كان هؤلاء ينسخون الكتب المترجمة إما لأنفسهم وإما لمن يستأجرهم لنسخها ، وكانت هذه مهنة مدرة على مشقتها ، وكان النساخ يستفيدون كثيراً من المعارف إلى جانب فائدتهم المادية ، ويكفي أن يكون منهم ابن النديم وابن سعد صاحب الطبقات وأبو حيان التوحيدي . وكان الرجل العالم إذا لم يجد ما يعيش منه اشتغل بالوراقة ونسخ الكتب ، وكان غير المسلمين يكتبون للمسلمين ما يروقهم وما هو على غير دين الكاتب وملته ، وقد كتب يحيى بن عدى المنطقي النصراني نسختين من تفسير الطبري وفيه ما يعد احتجاجاً على النصرانية ، كما كتب ما لا يحصى من كتب المتكلمين ، وربما كتب في اليوم والليلة مائة ورقة[1] .

وكان سخاء الخلفاء ومحبي العلوم مما يشجع على نشاط هذه الحركة ، وقد اشترى الرشيد بعض المخطوطات بوزنها ذهباً ، وكان للبرامكة لبني موسى ابن شاكر سخاء ونشاط في جمع الكتب وترجمتها ، وكانت بغداد كلها في هذا الوقت تعج بالعلماء وتنتشر فيها قاعات البحث والمناظرات ، وكانت تيارات الفكر وأنواع العلوم قد تعددت من أصيلة ودخيلة ، ولكل فرع علماؤه وطلابه ، وكان الأثرياء يسخون على الطلاب تشجيعاً لهم ورغبة في نشر العلوم وتفقيه الناس .

وقد أخرج الحسن بن الفرات من خزانته عشرين ألف درهم لطلاب الحديث وقال : لعل الواحد منهم يبخل على نفسه بدانق أو ما هو دونه فيقتطعه من قوته أو ملبسه ليجعله ثمن ورق وحبر وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم[2] .

لم يقف تأسيس المكتبات عند بيت الحكمة — وهو أمر واضح — فكانت هناك مكتبات أخرى عامة وخاصة .

كان للكبراء والأثرياء مكتباتهم الكبيرة في بيوتهم وكانوا يفتحونها لراغبي الاطلاع ، وكانت المساجد أيضاً دور كتب ، وكان العلماء يهبون

(١) انظر الفهرست ٣٨٣ ط التجارية .

(٢) انظر ياقوت ١/٢٥٥ .

كتبهم للمساجد ، ووقف الخطيب البغدادى كتبه على المسلمين(١) .

وانتشرت بجانب ذلك دور بيع الكتب ، فكان فى أحد شوارع بغداد ما يزيد على مائة حانوت لبيع الكتب ، وكان أصحابها غالباً من الخطاطين وكانت هذه الدور أيضاً أندية بحث ومناظرة .

وتبع هذه الحركة الثقافية حركة التأليف ، والحق أنها حركة بدأت قبل حركة الترجمة ، وكانت بدايتها الرغبة فى تعليم الدين وضبط قواعد العبادات ، وقد كتب جابر بن عبدالله المتوفى سنة ٧٨ منسكاً فى الحج ، ثم كان للغويين نشاط أوسع — وحركتهم بدأت بأبى الأسود ، ولكن يقال إنه لم يضع إلا باب الفاعل والمفعول ، وقيل وضع أيضاً باب التعجب ثم كان عبدالله الحضرمى فبعج النحو ، ثم كان عيسى بن عمر (١٤٩) فترك نيفاً وسبعين تصنيفاً ، وقال : كنت أكتب ليلا حتى ينقطع سوائى أى ظهرى(٢) .

ولم تقف دور الكتب وحوانيت بيعها عند أسوار بغداد بل نجد العواصم الأخرى تتحلى بمكاتب كبيرة عامة ونجد أمراءها يسخون على العلماء ويجتلبون الكتب من مختلف البقاع ، فكان بالموصل مكتبة كبيرة لأحد الأثرياء ، يختلف إليها الطلبة للقراءة والبحث وتقدم لهم الأوراق بالمجان ، وكان بالبصرة مكتبة يتجه إليها كل راغب فى القراءة من الطلبة وغير الطلبة ، وكان صاحبها يجيز المتفوقين فى المناظرات بمكافآت علمية تغريهم بالمزيد من القراءة والتعمق فى الدرس والمعرفة(٣) .

وكان لكل من الصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهى مكتبة كبيرة خاصة حتى أن الصاحب أراد أن يسافر مرة فاحتاج إلى عدد من الإبل لحمل كتبه ، وقد ترك الصاحب معجماً لغوياً كبيراً أثبت فيه محصوله اللغوى وما استدركه على من سبقوه(٤) أما مكتبة المعتضد فكانت فى شيراز وكانت الكتب فيها مرتبة ترتيباً أبجدياً وكانت ذات فهارس خاصة تساعد على

(١) نفسه ٢٨٧/٤ .

(٢) أنباه الرواه ٣٧٥/٣ — ياقوت ١٠٥/١٦ .

(٣) أنظر المقدس ٤١٣ .

(٤) توجد نسخة خطية من هذا المعجم بالمتحف البريطانى — ويقال إنها اشتريت باثنى عشر ألف جنيه استرلينى .

الاهتداء والبحث ، وكان هذا أمراً ضروريًّا لكثرة ما بها من الكتب .

وكان بالرِّيِّ مكتبة تحمل كتبها أربعمائة بعير ولها فهرس كبير يقع فى عشرة مجلدات .

وبعض هذه المكتبات كالتى كانت بالرى وجنديسابور كانت موجودة قبل العرب ، ولكنها كانت فى المعابد ولم يستفد المسلمون منها شيئاً كثيراً لأنها كانت تدور حول دياناتهم المجوسية وتأليه الكواكب والنجوم ، فأعرض المسلمون عنها ، لكن بعضها كان به بحوث فى الفلك والتنجيم والطب الذى يستندإليها وهذه قرأها المسلمون وأخذوا منها ما أخذوا ، واتهمهم بعض المحدثين بأنهم أحرقوها ونفى ذلك آخرون .

ومهما يكن من شىء فهناك خمسة من الحكام إليهم يرجع أكبر الفضل فى إنشاء المكتبات ودور العلم وهم المأمون ونظام الملك ونور الدين زنكى والحاكم بأمر الله الفاطمى . ثم الحكم بن هشام الأندلسى .

ونعرض للمكتبات الإسلامية فى حديث لاحق .

فى الصدق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« دع ما يريبك إلى مالا يريبك . فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة » .

دراسات قرآنية

لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والناسِ

فضيلة الشيخ / مصطفى الحديدى الطير

قال الله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وأْمُر بالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَن الْجَاهِلِين »
(الآية ١٩٩ من سورة الأعراف)

وقال : « وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِى الْقُرْبَىٰ والْمَسَاكِينَ والْمُهاجِرِينَ فى سَبِيلِ اللهِ »
(الآية ٢٢ من سورة النور)

البيان

عنى الإسلام بالحث على بذل المعروف والإحسان لعباد الله وإن أساءوا ، حتى يزول الحقد والضغينة والخوف من مجتمعهم أو يكاد ، وحتى تسود المحبة والود بينهم ، قال الله تعالى آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم ومن ورائه أمته : « خُذ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرفِ وأعْرِضْ عن الجاهلين » .

فالله جل جلاله يأمرنا أن نعفو عمن أساء إلينا ، ونعالج حقده ومساءته بالمعروف والإحسان إليه ، إلى جانب العفو عنه ، وأن نعرض عن جهالة الجاهلين ومساءاتهم ، فلا نقابلهم بمثلها ، ولا نحاسبهم عليها ، فإن فعلنا ذلك حولنا عداوتهم إلى صداقة ، وطهرنا قلوبهم من مرض الحقد الخطير وجعلنا منهم أعضاء صالحين فى المجتمع الإسلامى .

ولقد كان للإمام محمد عبده درس فى الأزهر ، وكان يمر بزاوية الحلوجى فى طريقه إليه ، وكانت له آراء فقهية ومذهبية متحررة خلقت له خصوماً ، وكان بعضهم عنيفاً فى خصومته إلى حد السفه ، فجلس

إليه أحدهم عند زاوية الحلوجى ، ينتظر مروره به وهو ذاهب إلى درسه فى الأزهر ، فحينما بصر به أمطره شتماً وسفهاً وصل إلى رميه بالكفر ، وكان الشيخ وقتئذ مفتيًّا للديار المصرية ، وله منزلة فى الدولة يستطيع بها أن يعاقب هذا السفيه بما يجعله عبرة لأمثاله.. ولكنه آثر أن يعالجه من حقده ، وأن يصرفه عن عداوته ، وأن يفتح عقله وقلبه ، فلم يجد محققاً لهذا كله سوى المعروف والإحسان ، فقد رأى بالرجل حاجة ، وأدرك أن هذه الحاجة هى التى جعلته سيئ الفكرة سريع الإنفعال ، فلهذا بعث إليه بمعروفه وغمره بإحسانه.

ولما مر به بعد فى طريقه إلى درسه ، أقبل عليه وأحسن تحيته ، وأظهر أسفه وندمه على ما كان منه نحوه ، وهكذا حوله الإحسان من صفوف الأعداء إلى صفوف الأولياء والنصراء .

وهذا معاذ بن جبل يذكر لنا وصية النبى صلى الله عليه وسلم له حين بعثه واليًّا على اليمن فيقول : « لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال : «ما زال جبريل يوصينى بالعفو ، فلولا علمى بالله ، لظننت أنه يوصينى بترك الحدود » فأنت ترى أنه صلى الله عليه وسلم يخبر معاذاً بوصية جبريل له بالعفو ، ليجعله سبيله فى معاملة الناس ، ليألفوا الإسلام ويعرفوا فيه الرفق والصفح ، ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة مع أهل الشر ، فإن الحزم حينئذ أجدى وأحسن آثاراً ، فإن الكرم لا ينبغى أن يوضع موضع العقاب ، والشدة لا ينبغى أن توضع موضع الإحسان ، فكل فى موضعه هو الدواء، وهو العلاج ومن بعده الشفاء .

أبو بكر يحسن إلى من أساء إليه فى عرضه :

ولا يوجد أشد على النفس من أن يسىء إليك من تحسن إليه ، وأن يكون هذا المسىء من أهل قرابتك ، ومع هذا فقد أمرنا بالتجاوز عن مساءاتهم وإعادة الإحسان إليهم ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، فلا بد من أن يصحو ضميره ، ويَتَلَوَّم بسبب تتابع الإحسان إليه مع توالى إساءته ، روى فى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل : «إنَّ الذين جاءوا بالإفك عُصْبَةٌ منكم » الآيات. قال أبو بكر — وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره — والله لا أنفق عليه أبداً بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى : « ولا يأتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنكم وَالسَّعَة » ، إلى

قوله: «أَلاَ تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لكم» فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فأرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً » . قال عبد الله بن المبارك : هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى ، وقال القرطبى : إن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة ، بأن لا يغتاظ ذو فضل وسعة ، فيحلف أن لا ينفق على من هذه صفته . .

وكان مسطح ابن خالة أبى بكر ، ومن المهاجرين البدريين المساكين ، فتأثر بكلام المنافقين فى حق عائشة ، فكان يستمع إليهم ولا يردهم ، فلما غضب أبو بكر وقطع عنه نفقته ، جاء واعتذر إليه بأنه كان يسمع ولا يقول ، فلم يقبل منه هذا الاعتذار ، فلما نزلت الآية الداعية إلى إعادة إحسانه إليه ، استجاب لربه وأعاد إليه إحسانه كما مر بيانه .

وعمر يدعو إلى المعروف ويبذله :

وقد كان عمر بن الخطاب على شدته حريصاً على بذل المعروف فى موضعه ، شعوراً منه بمسئوليته العظمى أمام الله تعالى — باعتباره أميراً للمؤمنين — وكان يرى ذلك أفضل العبادة ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: « أفضل العبادة أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، كما كان يدرك بثاقب فكره ، أن الإحسان عظيم الأثر فى جذب القلوب ، ونشر الأمن والطمأنينة ، وكان يحلو له أن يردد قول الشاعر :

مَنْ يفعل الخيرَ لا يعدَمْ جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

وكان له فى الإحسان والرحمة عُمَرِيَّاتٌ لا تجارى ، سجلها التاريخ بمداد الاعتزاز والفخار ، كما سجل نجاحه بها فى الحكم الأمثل للمسلمين فى المشارق والمغارب ، وربما خصصناه بمقال إن شاء الله تعالى .

موقف خطير فى الوفاء وبذل المعروف :

وقف مُعِن بن زائدة موقفاً خطيراً فى بذل المعروف ، كاد يعرضه للإطاحة برأسه ، ولكن الله نجاه : لأنه أجار مظلوماً ، وحماه من إهدار دمه .

وتفصيل ذلك أن الخليفة المهدى بلغه عن رجل أنه يتزعم فتنة ضده فى بغداد ، فصدق الوشاة ، وأهدر دم هذا الرجل ، وجعل لمن دل عليه مكافأة عظيمة .

ولما كانت الفتنة لا عقل فيها ، حتى يستطيع المظلوم أن يجادل عن نفسه ، فلهذا اضطر البغدادى المتهم زوراً أن يختنى لينجو من الهلاك ، فلما طالت أيام اختفائه ، ظن أن العيون عنه نامت ، وشخصيته جهلت ، وقصته نسيت ، فظهر يوماً فى بغداد ، فبصر به رجل من أهل الكوفة يعرفه ، فأخذ بمجامع ثوبه قائلا : أنت مطلوب أمير المؤمنين . فاشتد به الحرج وأدرك أنه هالك ، فإذا هو يسمع من ورائه وقع الحوافر ، فالتفت فإذا معن بن زائدة ، فقال الرجل : يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله ، فوقف وقال للرجل الذى أمسك بتلابيبه : ما شأنك ؟ قال : هذا رجل أهدر دمه أمير المؤمنين ، وجعل لمن دل عليه مالا جزيلا ، فقال معن لرجل من رجاله : انزل عن دابتك واحمل الرجل عليها ، فصاح الرجل : أتحول بينى وبين ثائر على أمير المؤمنين ، فقال له معن : اذهب وأخبر أمير المؤمنين أنه عندى ، فانطلق الرجل إلى قصر المهدى وأخبر حاجبه بما حدث ، فأبلغ الحاجب الأمر إلى مولاه ، فأمر بإحضار معن ، فأتته الرسل ، فأحضر جميع رجاله وآل بيته ، وأمرهم بالمحافظة على الرجل الذى أجاره وقال : لا يخلص إليه أحد وفيكم عينٌ تطرفُ ، ثم ركب متجهاً إلى المهدى ، فلما دخل عليه سلم فردَّ سلامه وقال : يا معن أتجير علىَّ ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، قال المهدى : تقول نعم . واشتد غضبه ، فقال يا أمير المؤمنين . قتلت فى اليمن فى يوم واحد خمسة عشر ألفاً فى طاعتكم ، إلى جانب أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائى وحُسْن عنائى ، فما رأيتمونى أهلا لأن يوهب لى رجل واحد استجار بى ، فأطرق المهدى طويلا ثم رفع رأسه وقد سرى عنه وقال : قد أجرنا من أجرت ووهبناه لك ، فقال معن إن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه ، قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، قال : فيأمر أمير المؤمنين بتعجيلها ، فأمر بها فأحضرت ، فانصرف معن إلى الرجل بالمال ، وأضاف من عنده سواه وقال له : خذ هذا والحق بأهلك ، ولم ينس أن يوصيه بطاعة ولى الأمر ، ولا شك أنه بهذا الإحسان سيكون من أشد الناس ولاء لأمير المؤمنين الذى منحه العفو وشفعه بالإحسان .

أسلوب معاوية فى تأليف القلوب :

كان معاوية بن أبى سفيان حسن التصرف فى تفادى الأزمات وتأليف القلوب ، وكان من أنجح وسائله وضع الإحسان فى مواجهة الحدة أو الإساءة ، ومن ذلك ما حدث بينه وبين عبد الله بن الزبير ، فقد كان لابن الزبير أرض له فيها عبيد يعملون بها ، فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير ، فكتب إلى معاوية يقول : أما بعد يا معاوية فإن عبيدك قد دخلوا فى أرضى فانههم عن ذلك وإلا كان لذلك شأن — فلما قرأه معاوية دفعه إلى ولده يزيد فقرأه : فقال معاوية لولده ما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وأخره عندك يأتوك برأسه ، فقال : أو خير من هذا يا بنى ؟ ثم أخذ ورقة وكتب فيها إلى عبد الله بن الزبير فقال : وقفت على كتاب ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءنى ما ساءه ، والدنيا بأسرها هينة فى جنب رضاه ، وقد كتبت على نفسى صكاً بالأرض والعبيد وأشهدت على نفسى بذلك ، فليستضفها إلى أرضه مع عبيدها : والسلام .

فلما قرأ عبد الله بن الزبير كتاب معاوية كتب إليه : وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ولا أعدمه هذا الرأى الذى أحلهُ من قريش هذا المحل ، والسلام .

فلما قرأ معاوية كتاب ابن الزبير دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه علتْ البشاشةُ وجههُ ، وعرف حسن معالجة أبيه لمعضلات الأمور بإسداء المعروف ، فقال معاوية : يا بنى من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال القلوب ، فإذا ابتليت بمثل ذلك فداوه بمثل هذا الدواء .

وكان معاوية على نمط ممتاز من ضبط النفس والحلم ، فكان يقول : أنى لآنفُ أن يكون فى الأرض جهل لايسعه حلمى ، وذنب لا يسعه عفوى ، وحاجة لا يسعها جودى ، وكان يقول : لو كان بينى وبين أحد خيط من عنكبوت ما انقطع ، فإنه إذا شدّ أرخيت ، وإذا أرخى شددت .

ومن أمثلة حلمه العجيبة أنه وزع قطعاً من القطيفة على رؤساء الأمر ، فأخذ شيخ منهم ثوباً ، فلما فحصه فى بيته لم يعجبه ، وأقسم أن يضرب به رأس معاوية ، فذهب به إليه وقال :

يا معاوية . كيف تختار لى هذا الثوب المعيب . لقد حلفت أن أضرب به رأسك ، فأجابه قائلا : برَّ بقسمك وليرفق الشيخ بالشيخ .

الرشيد يعفو عن ثائر فيشتريه بعفوه عنه :

هؤلاء القادة كانت لهم قلوب أشعتها نفاذة ، فكانوا يعالجون المسيئين بالإحســـان ، ويستلهمون ضمائرهم فتهديهم سواء السبيل ، انظر إلى الرشيد : حين خرج عليه بعض رعاياه فى جموع كثيرة ، فجهز له جيشاً حاربه حتى هزمه وظفر به ، فلما أدخل على الرشيد قال له : ما تريد أن أصنع بك ؟ قال له : اصنع بى ما تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه وهو أقدر عليك منك علىّ ، فأطرق الرشيد مليا ثم رفع رأسه وأمر بإطلاقه ، فلما خرج قال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين تقتل رجالك وتفنى أموالك ، وتظفر بهذا الذى خرج عليك وتطلقه بكلمة واحدة ، ألا ترى أن هذا يجرىء عليك أهل الفساد ، فأمر الرشيد برده ، فلما عاد ومثل بين يديه ، علم أنه قد سعى به وأشير على الخليفة بقتله ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تطع فىَّ مشيراً يمنعك عفواً تدَّخر به عندالله يداً ، ويبعثك على الانتقام الذى ليس من مكارم الأخلاق ، واقتد بالله تعالى ، فإنه لو أطاع فيك مشيراً لما استخلفك طرفة عين ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، فأمر بإطلاقه وأن لا يعاوده فى شأنه ، فظل بعد ذلك للرشيد مخلصاً وفيًّا .

صاحب رحبة سوار والمهدى :

يقص علينا محمد بن القاسم الأنبارى قصة ممتازة فى أثر المعروف ، يحدثنا بها عن سوار صاحب الرحبة المعروفة باسمه ، وكان من جلساء المهدى وأصفيائه ، قال سوار : انصرفت يوما من دار المهدى ، فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام ، فلما قدم بين يدى لم تقبل عليه نفسى ، فأمرت به فرفع ، ودخلت وقت القــائلة لأنام ، ولكن النوم نأى عنى ولم أجد له سبيلا ، فأمرت ببغلة فأسرجت وأحضرت ، فركبتها فاستقبلنى وكيلى حين خرجت ومعه مال ، فقلت : ما هذا ؟ قال : ألف درهم جئت بها من مستغلك الجديد ، قلت أمسكها معك واتبعنى .

قال سوار يتابع حديثه — كما رواه

محمد بن القاسم الأنبارى – عبرت البغلة الجسر إلى شارع دار الرفيق ، حتى انتهت إلى الصحراء ، ثم رجعت إلى باب الأنبار ، فانتهيت إلى باب دار عليه شجرة ، وبالباب خادم ، فوقفت عنده وقد أصابنى عطش ، فقلت للخادم : أعندك ماء تسقينيه ؟ قال نعم ، فأخرج قلة طيبة الرائحة عليها منديل فشربت ، وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً إلى جانب الباب ، فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يتلمس فقلت : ما تريد يا هذا ؟ قال : إياك أريد ، قلت وما حاجتك ؟ فجلس إلىّ وقال : شممت منك رائحة طيبة ، فقلت إنك من أهل النعيم ، فأردت أن أحدثك بشىء هام، فقلت له : قل ما عندك ، قال : ترى عظمة هذا القصر ؟ قلت نعم ، قال : إنه كان لأبى فباعه ، وخرج إلى خراسان وخرجت معه ، فزالت عنا النعم التى كنا فيها ، وكف بصرى ، فقدمت إلى هذه المدينة ، وأتيت صـاحب القصر لأسأله شيئاً أصل به إلى سوار ، فإنه كان صديقاً لأبى ، قلت ومن أبوك ؟ قال : فلان بن فلان ، فإذا هو من أصدق الناس لى ، فقلت له إن الله تعالى قد أتاك بسوار ومنعه النوم والطعام والقرار حتى جاء به وأجلسه بين يديك ، ثم دعوت وكيلى فأخذت منه الدراهم ودفعتها إليه وقلت له : إذا كان الغد فسر إلى منزلى ، ثم مضيت فقلت : ما أحدثُ أمير المؤمنين المهدى بشىء أفضل من هذا ، فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى، فحدثته فأعجبه الحديث ، فأمر بألفى دينار وقال : أدفعها إلى الأعمى ، فنهضت فقال : اجلس . أعليك دين ؟ قلت نعم ، قال : كم دينك ، قلت : خمسون ألف درهم ، فجعل يحادثنى ساعة فى غير موضوع الدين وقال : أمض إلى منزلك ، وإذا بخادم معه خمسون ألف درهم يقول لى : أمير المؤمنين بعث بها إليك لتقضى بها دينك ، فلما كان الغد أبطأ على الأعمى ، فأتانى رسول المهدى يدعونى : فجئته فقال : فكرت البارحة فى أمرك فقلت : يقضى دينه ثم يحتاج إلى القرض ، فلهذا أمرت لك بخمسين ألف درهم أخرى ، فقبضتها وانصرفت ، فجاءنى الأعمى فدفعت إليه الألفين ، وقلت له : قد رزق الله بكرمه وحسن

معاملتى إياك أضعاف ما أخذته منى ، ثم أعطيته منحة أخرى وجهزته وانصرف.

وهكذا من يزرع جميلا يحصد جميلا مثله أو خيراً منه ، فإن رب القلوب كما يحركها فى الإحسان بداية ، يحركها فى المكافأة عاقبة ، والله تعالى هو الموفق .

مصطفى محمد الحديدى

فى الصبر

قال صلى الله عليه وسلم :

الطهور شطر الإيمان . والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو . فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . . . »

الفيلم السراب

نقد لفيلم « الرسالة »

لسماحة الشيخ / حسن كتبي

« والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . . . » (قرآن كريم)

لقد شاهدت فيلم (الرسالة) المعروض فى إحدى دور السينما فى لندن .. ورأيت من الواجب أن أسجل انطباعاتى وملاحظاتى عليه .

أعتقد أن هذا الفيلم عالج عرض حقائق تاريخية ، ودينية ، وانتفاضة إنسانية عالية على مستوى أعلى بكثير من جميع الإمكانيات التى تتوفر للكفاءات السينمائية معالجتها على الوجه السليم . .

فالموضوع أعظم بكثير – إلى حد الإعجاز – عن القدرة على جمع أبعاده فى إطارات محدودة تعطى ولو بعض الشمول لبعض جوانبه . . ومن يستطيع أن يحصر حجم الشمس فى رابعة النهار عند اكتمال إشراقها فى إطار واحد .. أو إطارات متعددة ليسهل على العين المجردة الإحاطة بكامل حجمها .. أو بحجم يقرب من حجمها الحقيقى ..

وكذلك شأن جميع الكائنات التى أوجدها الله ليمكن للعقل الإنسانى الكامل التفتح والذكاء أنْ يسبح فى شواطئها القريبة الضحلة حتى يعرف من تجاربه فى هذه الممارسة آفاقها ، وعظمة الحقائق التى تُكِنُّها فى أعماقها تلك الآفاق ، والأعماق البعيدة – الممتدة إلى شواطئ الخلود .. والتى لن يصل إليها عقل فى هذا الوجود ..

« قُلْ : لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ

تَنْفدَ كَلِمَاتُ ربى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً » .

فموضوع رسالة الإسلام — تأتى مقدمته من (التحضير الإلهى لوجود هذه الرسالة) . . التحضير فى أكوانه التى تتألف من الأزمنة والأمكنة والأجيال المتعاقبة الموغلة فى القدم . .

والتحضير فى تنظيم الرسالات السماوية التى سبقت الإسلام . . وما صادفته من قبول ورفض وثواب وعقاب . . بما فى ذلك اختيار وتحديد الأمكنة والأزمنة والشعوب التى وجهت إليها الرسالات السماوية . . وما صادفته تلك الرسالات من مدٍّ وجزر . . ومقاومة وتأييد .

كل ذلك تمهيد ضرورى ينبغى أن يسبق (الدخول) إلى عرض رسالة الإسلام . . وهذا الأمر يبدو ذا أهمية عظمى وأبعاد شاسعة ليظهر تفاعل تلك الرسالات العميق مع رسالة الإسلام التى جاءت خاتمة لها — ويبدو هذا الجزء من أجزاء (رسالة الإسلام) أعظم من جميع الطاقات الفكرية والفنية التى يستطيع الفن السينمائى بكامل أجهزته تصوّره . . ثم نقل ذلك التصور إلى شىء مرئى ومسموع . . يخضع لإمكانيات عرضه فى لقطات سينمائية ، وإلى حركات تخضع لأقوى عدسات أجهزة التصوير لتنقلها فى شكل قريب من حقيقتها على ما كانت عليه فى كل حقبة من أحقاب التاريخ التى سبقت حلقاتها تلك الحلقة الهائلة التى جاءت فى ختام تلك المسلسلة الإلهية والتى هى (رسالة الإسلام) .

وإذا كان التحضير (لرسالة الإسلام) على نحو ما ذكرنا باختصار وإيجاز ، ينمُّ على العجز عن تصوير المعنى الكامل لذلك التحضير الإلهى لتلك الرسالة العظمى . .

إذا كان هذا التحضير هو عنصر رئيسى من موضوع رسالة الإسلام التى أريد لها أن تقدَّم فى هيئة فيلم سينمائى لجيل هذا العصر الذى اختلطت فى مداركه الحقائق العلمية التى هى من (كلمات الله) التى وردت الإشارة إليها فى الآية الكريمة . . اختلطت هذه الحقائق بتمرد العقل المادى على قوانين الروح التى فطرها الله على الإيمان به ، ونجم عن ذلك الخلط هذه المشاعر القلقة التى تغمر بالفزع والرعب والحرمان من نعمة الاستقرار والاطمئنان حياة إنسان هذا العصر .

إذا كان هذا التحضير الذى يعتبر من أهم وأوليات عناصر الإخراج للفيلم فى حكم الاستحالة فإن محاولة إخراج الفيلم قامت على أساس من (العدم المطلق) لتحقيق صورة من (الوجود المطلق) ذلك الوجود الذى جعله الله فى هيئة أنظمة محكمة دقيقة يعجز العقل البشرى عن أن يتابع جوانب من ظواهرها . . وكل حظه من القدرة هو أن يقف خاشعاً عند إدراك بعض أسرارها .. مغتبطاً عند حل شىء من رموزها .

وإنه ما من إنسان ملمٍّ برسالة الإسلام إلا وقد أدرك بوضوح أن عنصر (التحضير للرسالة) معدوم كُلِياً فى الصور التى عرضها الفيلم ، وبانعدامه بدأ الفيلم أشبه مايكون « بمفاجأة حمقاء » لأنها جاءت مبتورة عن المقدمات الطبيعية لها التى توفر فى نفوس المشاهدين القابلية لتلقِّيها .

فرسالة الإسلام ليست هى الرسالة السماوية الوحيدة على الأرض وللبشر .. كما أنها ليست من نوع وطبيعة تختلف عن الرسالات السماوية التى سبقتها . وهى معروضة لمشاهدين يعتنقون شتى الرسالات السماوية ، ويؤمنون بها ، ويتعصبون لها ، ويتطلعون إلى معرفة مركز رسالة الإسلام من الرسالات التى سبقتها والتى يؤمنون بها . كما يتطلعون إلى التسلسل الطبيعى الذى أدى إلى وجود هذه الرسالة . . لأنها من عند الله . . ومن أبسط حقائق الإيمان أن رسالة سماوية لا تأتى من غير حاجة إليها . . وهى إذا جاءت ينبغى معرفة الحقائق التى تلتقى عندها الرسالات السابقة . . والحقائق التى تأخذ شكلا غير شكل سابقتها . . وما هى المصلحة العليا فى هذا التطور فى تعاليم منزهة عن الشك فى صدقها ومطابقتها . . .

وباختصار . . فإن المشاهدين الذين يعتنقون رسالة من الرسالات السماوية كانوا يتطلعون منذ بدأ الفيلم إلى رؤية عرض مرتب يصور معانى الديانات السماوية فى جمل مختارة من تعاليمها الأساسية التى لا تختلف بحال من الأحوال . كما يصور الغاية من تلك التعاليم . . والأحداث الزمنية التى سلكت بهذه الرسالات مسالك تنحدر من الضد إلى الضد فى صور من الكفر بها . . ومسالك تقودها إلى الشـقاق بدلا من الوفاق ، وإلى عكس الغاية التى خلق الله الإنسان من أجل تحقيقها ، وجعل خلقه من

أصل واحد هو « آدم » ثم خلق جنسه (حواء) من ذاته . . وكان قادراً على أن يخلقه خلقاً مستقلا ، ولكن إرادته العليا لتوحيد خليقته سبقت بأن يخلق حواء من كيان آدم ليتحقق الكيان المتحد فى الوجود الإنسانى . . .

أما الغاية التى خلق الله الإنسان من أجلها فهى التى توضحها رسالة الإسلام – « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ».

فالتعارف إنما يتم عن حقيقة واحدة هى المساواة المطلقة فى أصل الوجود . أما التفاضل بين إنسان وآخر فإنه يأتى من العمل : عمل الخير ، وعمل الشر ، وهما خطَّا السير فى الوجود على الأرض.

فأما خط الخير فينتهى بسالكيه إلى الكرامة واستحقاقها والجدارة لها . . حتى يسلمهم إلى نعيم مقيم لا يحول ولا يزول ولا تدركه العقول .

وأما الخطُّ الآخر فإنه ينحدر بسالكه إلى صور من المآسى الخاصة والعامة التى يعرفها جيل هذا العصر أكثر من أى جيل مضى قبله . . لأن جميع الفضائل اهتزَّت معاييرها وكثير منها أنطفأ نورها ، وأقيمت المآتم على قبورها إمَّا على شكل أسى وحزن من العارفين بحقها . . أو على أنغام الجاز وموسيقى الهيبز الداعرة من الراقصين فرحاً على زوالها والخلاص منها .

فالحقائق التى تلتقى على تأكيدها جميع الرسالات السماوية هى أهم ما كان ينبغى أن يأتى كمقدمة للدخول على الفيلم لتحضير نفوس المشاهدين لتقبُّل ما يأتى بعدها . . .

ولكن الفيلم بدأ بمفاجأة حمقاء . . كما لو كان يصور (قصة) بطل ظهر فى ظروف غامضة ، وغير متوقعة . . ليحدث وجوداً تبدو المفاجآت التى لا حد لها ولا عد فى جميع ظروف قصته .. ثم يُصَعِّدُ الفيلم أحداث القصة حتى تظهر آثارها وقد طبقت المشارق والمغارب . . وبعد ذلك ينهيها باختفاء البطل صانع القصة وكلٍّ من صاحبه فى صنعها بعد أن توسعت آفاقها إلى ما لا نهاية . . يختفون جميعاً عندما تكون الصورة الأخيرة من الفيلم كالعاصفة القوية فى أشدها . . إذ تنطفىء الأنوار فجأة على الشاشة ، ويترك المشاهدون فى نهاية من الظلام والحيرة تشبه البداية التى بدأوا منها .

وإننى بعد ما تقدَّم أجد مجال القول واسعاً جدًّا . . ويوشك أن يخرج بنا من نطاق الأفلام السينمائية المحدودة إلى آفاق الديانات التى لا حدود لها ، وإلى مثلها السامية ، وأهدافها فى تكريم المواهب الإنسانية التى أنعم الله بها على الإنسان ، وكرَّمه بالعلم وسلحه بالعقل ، وخلق له ما فى الأرض جميعاً ، ليستخدم عقله ومواهبه فى معرفة أسرار الخليقة والتمتع بها ، والتنعم بما أودعه فيها .

إن مجال القول على نحو ما تقدم يخرج بنا عن الموضوع : وهو الحديث عن فيلم الرسالة الذى كانت حصيلته أرباحاً هائلة لأصحابه . . وخسارة محزنة لمشاهديه . . .

وسأحصر الحديث فى انطباعاتى عن هذا الفيلم فى النقاط التالية — وهى :

١ — أن موضوع الفيلم أثبت حقيقة واحدة هى أن موضوع الأديان أسمى وأعظم من أن تطوله أعلى الكفاءات السينمائية وأجهزتها وقدراتهـــا . . وكل ما استطاعته السينما بهذه المحاولة أنها أثبتت عجزها التام على أن توفى حتى أبسط جوانب الموضوع حقَّه من العرض المناسب .

٢ — أنه يجب على كل إنسان غيور على دينه الذى يعتنقه مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أن يمنع بكل عنف محاولة السينما وصانعيها ومحترفها من التعرض للديانات السماوية والرسل وحوارييهم وأنصارهم وحملة دينهم الذين ينقلونه من جيل إلى جيل . . ويجب أن ترتفع مشاعر الغيرة الدينية إلى أقصى الحدود التى ترهب أولئك الذين يحاولون أن ينحدروا بالقيم السامية للأديان ورسلها والمبشرين بها وبتعاليمها إلى مستوى الروايات التى تعزف الألحـــان فى منعطفاتها .. وتراق الخمور على ندواتها.. فالأديان السماوية : الإسلام . . والمسيحية . . واليهودية — وحتى تعاليم الأنبياء الذين لم نعرف أسماءهم وقد جاءوا مبشرين بتلك الأديان الكبرى يجب أن يدافع معتنقوها عن انتقاصها ووضعها فى المستوى الذى يجعلها مادة للمستهزئين .

٣ — أن أبطال فيلم الرسالة كانوا فى تمثيلهم على عكس صفات ومميزات الأبطال الحقيقيين الذين مثلوا أدوارهم .

فحمزة وبلال . . وعلىّ . . كانوا فى حياتهم على صورة تختلف كل الاختلاف عن الصور التى مثّلث

عنهم فى الفيلم — فقد كانوا معروفين بالأدب والتواضع وخفض الصوت فى مخاطبة الرسول عليه السلام . . . والتنزه عن التشنجات التى ظهر بها أبطال فيلم الرسالة فى أحاديثهم مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . .

ولقد عرف عنه — عليه السلام — وعنهم أنهم فى مجالسه كانوا كأنما على رؤوسهم الطير من السكينة والوقار والحب والاحترام والأدب حتى لا يستطيع الواحد منهم أن يملأ عينه من النظر إلى وجه سيدهم مهابة وتوقيراً وتعظيماً . ..

وهناك مناظر عديدة ينكرها المسلمون ويحتقرونها فى هذا الفيلم ، ويعرفون أنها مناقضة لما هو ثابت فى تاريخهم ظهرت فى لقاء المسلمين مع قريش فى الحديبية وعند فتح مكة . . وفى تسلق بلال على ظهر الكعبة للآذان ، وفى الأسلوب الذى جرى عليه تبليغ تعاليم الإسلام للمسلمين بالنسبة لحقوق المرأة ، والجار ، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض ، وآداب المحاربين وما يحظره الإسلام فى معاملة المحاربين وما يجيزه . . وغير ذلك . . فكل هذه المناظر كانت فى أسلوبها مشوهة لحقائقها التاريخية ومتعارضة مع قدسيتها . .

وأخيراً — فإن الذين حاولوا إخراج رسالة الإسلام فى هذا الفيلم مثلهم كناطح صخرة يوما ليوهنها — فلم يضرها . . وإنما تحطمت رأسه على بأسها وصلابتها وقوتها . .

وليس هذا شأن هذا الفيلم وحده . . ولكنه شأن جميع الأفلام التى تصدت للأديان السماوية الأخرى ورسلها وحواريهم والأمناء فى كل شعب من الشعوب وجيل من الأجيال على نقل رسالة الدين إلى المؤمنين .

وأذكر فى ختام ما قدمت أننى لم أكتب ما كتبت تحت تأثير عصبية دينية أو رغبة فى معارضة عمل فنى بُذِلَتْ فيه أموالٌ طائلة .. وقد تكون من بين دوافعه الخفية نوايا صالحة ، وأهداف شريفة من قبل بعض الذين شاركوا فى الاهتمام بإخراجه .

كما أؤكد أننى حين حضرت لرؤية هذا الفيلم كنت متأثراً بأحاديث كثيرة لأصدقائى الذين سبقونى لمشاهدته . . وقد ترك فى نفوسهم ارتياحاً لمناظر قسوة كفار قريش على المسلمين وتعذيبهم ، ثم انتصار الدين وشموله جميع أقطار العالم . . . وكان من الممكن أن تبقى آثار انطباعاتهم ماثلة فى ذهنى عند مشاهدة الفيلم . . . ولكنى أعتقد أن

العواطف السطحية سريعة الانفعال لا يمكن أن تؤثر فى التعبير عن أى حقيقة فى الوجود إذا لم تطابق جوهر الحقيقة وطبيعة تركيبها . . وفرق الضد للضد بين العواطف التى تقوم على الانفعال . . . وبين رسوخ الحقائق وصلابتها وعدم خضوعها للمتغيرات الطارئة التى لا تقوم على أسس سليمة .

وفى الختام — أؤكد أيضاً أن فيلم « الرسالة » حجب حقيقة الإسلام ولم يظهرها . . وإنما قدم لمن يجهلون الإسلام صورة مشوهة عن المبشرات به . . وانتشاره . . وتعاليمه — وأهمل الجوانب المهمة فيه التى تثبت أن أول من بشر بظهور الرسول عليه الصلاة والسلام هم أحبار اليهود وقسس النصارى.. وأنه جاء مؤيداً لجميع الديانات السماوية بحيث لا يسمح لمعتنقيه بالشك فى تلك الديانات ولا بإنكار رسلها .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون : كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله . . وقالوا سمعنا وأطعنا . . » .

بل إن هذا الفيلم شوه حياة قريش فى جاهليتها ومسخها وصوّرها فى المناظر التى عرضت فى الفيلم تصويراً يتفق مع الأفلام التى تشابه صور الجاهلية فى شعوب الجرمان والإغريق — أكثر مما يتفق مع الشعب القرشى . . الذى كانت تحكم حياة مجتمعاته قوانين أخلاقية وتقاليد تخالطها كثير من الآداب والمعانى الفاضلة . . .

لذلك فإن أضرار الجانب السلبى فى الفيلم تفوق أضعاف الانفعالات التى تحدّث بها من شاهدوه مشاهدة سطحية ، وهم بمعزل عن معرفة عظمة وجلال الرسالة التى حجبها هذا الفيلم عنهم — بل لقد عمل على تشويهها ، وإلحاق أضرار بليغة بحقائقها ..

وبعد :

فعنوان هذا الفيلم (الرسالة) قد أخرجه هذا العنوان من صفوف الأفلام.. ولم يدخله فى صفوف (الرسالات) . . وقد تعاملنا مع العنوان فقط . . ولذا جاء ما كتبناه بصدده على الأسلوب الذى هو عليه — والذى استحق الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم انسجاماً مع عنوان الرسالة . . وليس مع واقع الفيلم .

حسن محمد كتبى

القرآن والعمل

للعلامة الشيخ / عبد الله بن كنون

تحت هذا العنوان كتب مؤلف كتيب : (هل يمكن الاعتقاد بالقرآن) فصلا استهله بما سماه بديهية وهو قوله : « إن كل ما يوجد على وجه الأرض يعد من صنع يد الإنسان وعقله كما هو معلوم » ونجد أنفسنا مضطرين لنقض بديهيته هذه ببديهية حقيقية لا يمارى فيها مؤمن ولا ملحد ، وهى أن من جملة الأشياء الموجودة على ظهر الأرض الإنسان نفسه ، فهل هو الذى صنع نفسه بيده وعقله ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين ؟ وكيف ؟

أسـئلة نوجههـا إلى الفيلسوف (رحماتوف) منتظرين جوابه الذى يحل جميع المشاكل على الطريقة الشيوعية السوفييتية .

وإذا كان أول الدَّنِّ درديًّا كما يقول المثل ، فلا نتوقع أن نرى فى هذا الفصل أحسن من هذه البداية السيئة ، وهكذا بعد أن يتساءل المؤلف عن موقف القرآن من العمل يقول :

« القرآن يذكر أن العمل هو العقاب» الذى جازى الله به الإنسان على خطاياه ثم يستدل بالآية ٥٦ من سورة الذاريات التى تقـول : « (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) » وهذا كلام غامض يظهر أن المؤلف سمعه من أحد المبشرين — المسيحيين أو قرأه فى كتاب من كتبهم ولم يفهمه فنقله على علاته ، وكيفما كان الأمر فقد طبق عقيدة المسيحيين فى الخطيئة الأولى أو الكبرى كما يسمونها ، على الإسلام ، وحيث إن المسيحيين يعتقدون أن صلب المسيح كان هو الكفارة عن هذه الخطيئة فقد ظن هو أن الإسلام جعل العبادة ، وهى العمل فى نظر المؤلف عقابا للإنسان على خطاياه ؟

فأى خبط مثل هذا ؟ وما هى

العلاقة بين العمل والعبادة حتى تجعل العبادة هى كل العمل ؟ ومن قال له إن العبادة فى الإسلام هى عقاب للإنسان على ما ارتكبه من الخطايا ؟

هنا يتبين أن المؤلف يهرف بما لا يعرف ، فقد حمل العقيدة المسيحية على الإسلام ، وهو براء منها ، بل هى من الأخطاء التى جاء الإسلام لتصحيحها بقول الله عز وجل فى القرآن الكريم : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فضلا عن أن هذه الخطيئة الأولى قد غفرها الله لآدم منذ أدرك خطأه ، واستغفر ربه ، كما قال تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم) . .

ثم إن العبادة ليست هى كل العمل ، بل هى جزء قليل منه ومع ذلك فهى ليست عقابا ، وإنما هى قربة وزلفى من العبد لله عز وجل وشكر له على نعمه التى لا تحصى ، واختصاص له بالعبودية التى يجب فى شرع الإسلام أن لا تكون إلا لله .

على أن العبادة فى الآية الكريمة التى استشهد بها هذا المؤلف ، إنما هى توحيده عز وجل ومعرفته بصفاته العليا فالمحققون من المفسرين يقولون : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أى إلا ليوحدونى ويعرفونى .

فسقط كل من هول به من كلام مدخول ملفق يكاد يكون لا معنى له ، لولا أن أخرجنا خبأه وبينا زيفه .

بعد هذا يقول : « إن من يأخذ بتعاليم القرآن ، عليه أن لا يشتغل إلا بعبادة الله ، لكن كيف يمكن أن يعيش ؟ كيف يدبر المؤمن أمر معيشته ؟ الجواب حسب تعاليم الإسلام سهل جداً ، وهو : « إن الله هو الرزاق » إن الإسلام وضع المؤمن أمام أحد أمرين ، إما أن يشتغل بطلب الرزق ويكون حظه الحرمان فى الآخرة ، وأما أن يقبل الحرمان فى الدنيا ويكون جزاؤه الجنة فى مملكة الله ويستشهد على قوله هذا بالآية الكريمة : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب)[1] . .

وبما بيناه آنفا من أن المراد بالعبادة فى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) هو معرفة الله تعالى وتوحيده ، يبطل قوله هذا وما

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الشورى والمؤلف قال أنها من سورة مريم (١٩) .

شيده عليه من نزعات لا حقيقة لها ، فإن من يأخذ بتعاليم القرآن عليه أن يسهم بما فى استطاعته ، فى بناء مجتمع فاضل يقوم على العدالة الاجتماعية والإحسان فى العمل ويمتنع هو كما يمنع غيره من المنكر والبغى وجميع الشرور ، على حسب ما جاء فى القرآن فى آيات كثيرة من أكثرها دلالة على ذلك قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ليس عليه ألا يشتغل إلا بالعبادة كما زعم هذا المؤلف ، كيف والقرآن يقول : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) ، فأمر المؤمنين بمجرد انصرافهم من الصلاة أن ينتشروا فى الأرض طلباً للرزق ، وذلك يكون بجميع أنواع العمل من صناعة وتجارة وفلاحة ، وبالسفر والتنقل فى البلاد جلباً وتصديراً لخيراتها ومنتجاتها على سبيل تبادل المنافع وتنمية الموارد إلى غير ذلك مما يدخل تحت هذه العبارة الفذة الجامعة : (فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) ولكن من أين للمؤلف أن يفهم سر البلاغة العربية والإعجاز فى الأسلوب البيانى للقرآن ؟

والمهم هو أن القرآن يحض على طلب الرزق ، ويأمر المؤمنين به أن ينصرفوا من الصلاة إلى السعى فى الأرض لتدبير معيشتهم ، عكس ما ادعاه المؤلف من آنه إنما يلزمهم بالعبادة ولا يدع لهم فرصة لطلب الرزق اعتماداً على أن الله عز وجل هو الرزاق ، فها هو القرآن يكذبه ويعكس ما ادّعاه ، فيجعل أفضل الوقت للعبادة وأكثره للعمل والسعى وتدبير المعيشة وذلك فى يوم الجمعة الذى هو اليوم المفضل من أيام الأسبوع ، لأن هذه الآية من سورة الجمعة وفى صلاتها المفروضة ، بل إن مما امتاز به الإسلام على غيره من الأديان ما تدل عليه هذه الآية ، أنه لم يستثن حتى هذا اليوم الفاضل — أعنى يوم الجمعة — من طلب العمل فيه والسعى لتدبير المعيشة ، كما يستثنى اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد وإنما أمر بإقامة صلاته فى الجماعة وهى لا تستغرق أكثر من نصف ساعة بما فى ذلك من سماع الخطبة أو عظة الجمعة بعبارة أخرى ، والصلاة ثم قال : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) فما أعظم الإسلام وأكثر تجاوبه مع مطالب الحياة . .

ومما يدخل فى نطاق الحض على السعى فى طلب الرزق قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — « من بات وانياً فى طلب معيشة أهله ، بات مغفوراً له » — وبما سبق للمؤلف من أن الحديث يأتى فى المرتبة الثانية بعد القرآن وأنه المبين له يعلم أن قول المؤمنين أن الله هو الرزاق اعتماداً على تعاليم الإسلام ، ليس معناه ترك طلب الرزق ، ولكن الاعتقاد بأن ما يكسبه الإنسان بعمله وكده هو من عطاء الله وفضله لأنه رب العالمين وخالق الكون وما فيه ، وواهب القدرة على العمل ، فمرجع ذلك إلى عقيدة الإيمان والتوحيد التى هو جوهر الإسلام .

وقال عمر بن الخطاب وهو الذى أنشأ إمبراطورية الإسلام العظمى ، وليس هناك من يدعى اليوم أنه يفهم أمر الإسلام فى هذا الصدد أكثر منه : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، وهو يقول : « اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » فطلب الرزق لا ينافى قول المؤمن : « اللهم ارزقنى » ، وإنما هو جمع بين الإيمان والعمل وهذا لا يرقى إليه فهم الماديين المفتونين من أمثال المؤلف .

أما آية : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب) . فهى لم تنه عن حرث الدنيا وإنما تلفت النظر إلى أن العمل للدنيا يجب أن يكون مقرونا بالعمل للآخرة ، فمن عمل لآخرته مع عمله لدنياه ، تطبيقاً لتعاليم القرآن التى تحض على العمل لهما معاً كما فى الآية الأخرى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخـــرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) بارك الله عمله وأعطـــاه من خير الدارين ومن قصر نظره على الدنيا ولم يعمل شيئاً لآخرته ، وأول عمل الآخرة الإيمان ، آتاه الله نتيجة عمله الدنيوى ولم يكن له فى الآخرة حظ ولا نصيب ، فهى من باب الحسنى على الجمع بين الإيمان والعمل ، بالنصوص التى ذكرناها من قبل . وتعلق المؤلف بها كالتعلق بخيط العنكبوت .

ومع ذلك فهو يتورك عليها ويقول : إن مثل هذه الأحكام ليست بجديدة ، (يعنى فى الإسلام) إنها اللا أخلاقية الدينية التى يتسم بها البغاة الماكرون ، والكسالى المتبطلون ، وجميع طوائف المتفقرة الذين لا يعملون ولكن يأكلون) .

فهو يخرج من اتهام الإسلام إلى

اتهام جميع الأديان ، شنشنة أعرفها من أخزم ، أى من الشيوعيين وجميع الملاحدة ، وقوله هذا هو من باب ما جاء فى الأمثال : (رمتنى بدائها وانسلت) فاللاأخلاقية الشيوعية هى المهتمة بالأكل ، وهى التى يكاد جميع نشاطها يدور على الأكل... ولعلها لما رأت الأخلاقية الدينية التى توصى بالقناعة والتقلل من الطعام وهى إنما قامت لمناهضة الأديان — جعلت وكدها هو السعى لتوفير المواد الغذائية ومضاعفة إنتاجها ، ولكن الواقع هو أن القدرة الإلهية عكست مرادها ، فضنت عليها بما جادت به على غيرها ، فلا ترى بلدا شيوعيا إلا وهو يعانى من ضنك العيش وقلة المؤونة بقدر ما يبذل من الجهد ويتحمل من المشقة ، وقد بلغت أثمان بعض المواد الضرورية كالطماطم والبطاطا والأرز ونحوها فى عاصمة بلاد شيوعية أرقاماً خيالية ، وحدثنى بعض رجال الدبلوماسية أنهم يخرجون إلى القرى البعيدة من العاصمة بعشرات الكيلومترات فى طلب حبتين أو ثلاث من البصل ونصف رطل من الفاصوليا ، وأما الفاكهة فلا كلام عليها .

ولقد كنا فى بعض البلاد الشيوعية نازلين فى فندق من أفخم الفنادق فكان طبق الفاكهة الذى يقدم إلينا من الطماطم والخيار ، وفى بلد شيوعى آخر بأوربا احتاج أحد كبار الناس إلى لتر واحد من اللبن لغذاء مريض عزيز عليه ، فلم يجده وكان له صلة برئيس ذلك البلد فذهب إليه وشكا له الحال فأعطاه لتر اللبن المطلوب من بيته ، أفيكون هذا الحرمان هو الذى يجعل أصحابنا الشيوعيين يكثرون الكلام على الأكل ويجدون فى نفوسهم على الذين يأكلون ؟

لكن الذى لا ريب فيه هو أن هذه الحالة هى مصداق لقوله تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، وقوله عز من قائل (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

ويعود المؤلف إلى الإسلام ، يخص رجاله بعد تعميم ، فيصفهم بالخداع وتخدير عقول الناس ، واختراع الأناشيد الدينية والدعوات ، لإلهاء الشعب ، وإيهامه أنه لا فائدة من العمل ، لأن

الله هو مدبر الأمور ، وكل شيء مكتوب عنده في اللوح المحفوظ ، قائلا : (ونحن نتساءل كيف يمكن لله أن يكتب في اللوح مسيرة الملايين من البشر منذ بدء الخلق ؟ وما هو مقياس هذا اللوح السرى ؟) ثم يعقب على ذلك بقوله « إن جواب الوعاظ المسلمين هو أن الله وحده هو الذى يعرف سر هذه الأمور » .

ونحن لا نجيب على ما يكيله لرجال الدين الإسلامى من تهم وما يصفهم به من أوصاف نابية لا تصدر من رجل مهذب ، لا ندرى كيف انخرط في رجال الديبلوماسية ، وهو بهذه الرعونة والسلوك المعوج ، ولكننا نرد عليه قوله بأن رجال الدين الإسلامى يوهمون الشعب بأنه لا فائدة من العمل ، فقد أثبتنا بالحجة القطعية أن ذلك خلاف الحقيقة وأن رجال هذا الدين ما زالوا يحثون أتباعه على العمل والسعى اعتباراً بما جاء في كتاب الله العزيز وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وتقدم بعض ذلك ، ومنه أيضاً قوله تعالى : (وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقوله صلى الله عليه وسلم : «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع فيأكل ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وقول عمر بن الخطاب : « إنى لأرى الرجل فيعجبنى ، فأقول هل له حرفة فإذا قيل لا ، سقط من عينى » والكلام في هذا الباب لا حصر له .

وكون الله عز وجل هو مدبر جميع الأمور ، هو مما لا نزاع فيه عند جميع المؤمنين من أتباع الأديان وغيرهم من الحكماء والعلماء والمفكرين ، إلا الملاحدة الذين لا يؤمنون بشيء وهؤلاء لا يهموننا ما دامت الأكثرية الكاثرة من سكان المعمورة على الإيمان الراسخ والاعتقاد الجازم بأن الله خالق الكون ومدبره ومصرف أموره كما يشاء ويريد ، ومنذ كانت الدنيا وهى لا تخلو من طائفة من الجاحدين والمنكرين لوجود الله وهم بمثابة الشذوذ الذى يثبت القاعدة والخارجين على النظم والآداب العامة الذين ينبذهم المجتمع ويتقيهم كما يتقى إحدى الآفات .

ولما كان المؤلف لا يؤمن بالله ولا يعرفه فمن الطبيعى أن ينكر تصريفه للأمور وإثباته للمقادير في اللوح المحفوظ . . .

وغاية ذلك علم الله الشامل المحيط بما يقع في الكون من أعمال الخلق وتسجيله فيما يسمى باللغة التى يمكن أن نفهمها ؟ (لوحا) تقريباً لهذا الأمر

الغيبى من الأذهان ، وإلا فجلال الله وعظمته وما يتصل بعلمه وقدرته ، مما لا تدركه العقول ولا تتصوره الأفهام . . وكيف يدرك العقل وهو محدود الإدراك ، ما لا حد له ولا نهاية ؟ وبحق أطلق عليه الفلاسفة اسم المطلق ، وقال فيه آخرون : العقل الأول :

إننا نقول للمؤلف : إن كانت العقول الألكترونية وهى من صنع البشر تعد الملايين والملايين من الأشياء وتضبطها ، فماذا يكون إحصاء مسيرة الملايين من البشر بالنسبة إلى العقل الأول أو إلى المطلق وبالعبارة التى هى أعظم من كل ذلك بالنسبة إلى الله ... أما مقياس هذا اللوح ، فانظر إلى سعة الكون من الأرض والسماء والكواكب والمجموعات الشمسية والمجرات وعظمتها التى يصفها العلماء ، واستحضر عظمة خالقها وسعة قدرته ، وعندئذ تعرف مقياس اللوح أو السجل الذى يناسب هذا الخالق .

ولقد أصاب وعاظ المسلمين الذين تندرت بهم ، فيما قلت إنهم يجيبون به ، من أن علم ذلك خاص بالله سبحانه ، وهو جواب مقتبس من الآية الكريمة (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) .

ويكرر المؤلف كلامه السابق فى بلادة لا تحتمل ، عن القدرة والرزق والقسمة غير العادلة ، ويقول : إن القرآن يأمر المستضعفين أن لا يشكوا حالهم ، ولا يحسدوا الأغنياء ، فقد جاء فى السورة ٢٠ الآية ١٣١ قوله : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) ولو كان لهذا المؤلف ضمير حى لتقبل هذا النصح بأحسن التقبل ، فإن هذه الحالة قائمة فى كل المجتمعات ومنها الشيوعية ، وإن خير ما تواجه به هو عدم التشوف إلى الغير واطمئنان الإنسان إلى ما عنده ، وإلا فإن ما يسببه لنفسه من انفعالات وما ينشأ عنده من الحسد لذلك الغير ، هو من الأدواء التى يصعب علاجها ، وما زال الحكماء من قديم يوصون الإنسان بأن ينظر إلى من فوقه فى العلم والفضل وإلى من تحته فى المال والجاه ، تفاديًا لمثل هذه الحالة ، فالقرآن وهو كتاب دينى أخلاقى تربوى لا يمكن أن يشذ عن هذه القاعدة ليكسب المؤمنين به طمأنينة النفس وراحة البال .

وقلت إن هذه الحالة لا يخلو منها

حتى المجتمع الشيوعى وأنا أعنى ما أقول فهل يستطيع أن يثبت لى سعادة السفير (رحماتوف) أن لباس زوجه وحليها هو ما تلبسه أى امرأة من عامة الشعب السوفييتى وتتحلى به إن كان لها حلى ؟ ودع عنك امرأة رئيسه وزير الخارجية وغيرها من نساء (الطبقة العالية) فى الاتحاد السوفييتى .

ويجمجم المؤلف بما يوجد فى بيت المشـــايخ والبكوات من المؤن والطرف بحيث إنها على حد تعبيره لا ينقصها إلا حليب الطيور ، فى الوقت الذى يطلب من الفقراء والمستضعفين الصبر على ما هم فيه من الحاجة والضيق ، كأن بيوت قادة الحزب ومسيرى تشكيلاته تخلو مما يوجد فى بيوت من ندد بهم من المشايخ والبكوات ، أو كأن بيوت العمال والطبقة الدنيا من المجتمع الشيوعى تحتوى على ما يوجد فى بيوت من ذكرنا من رجال الحرب ، ولذلك فنحن لا ننكر التفاوت الموجود بين الفقراء والأغنياء من المسلمين ، وإنما نحدثه عن حفلة استقبال أقامها زعيم نقابى كبير فى (إحدى) فيلاته قال الذين حضروها أن (الكافيار) كان يقدم فيها بالكيلوات) فى صحون (الصينى) مع العلم بأن ذلك فى بلد لا ينتج الكافيار بل يستورده بأغلى الأثمان .
وحسبنا هذا لفتح بصر المؤلف الغيور .

ويأتى المؤلف بعد ذلك بعبارة لا ندرى من أين استقاها وهى قوله : « إن القرآن يحرم على المسلم العمل ويُحِلُّ له التجارة » وإذا كنا نتحداه أن يأتينا بنص قرآنى أو إسلامى على العموم بصدق قوله هذا ، فإن فى النصوص المتقدمة التى تحض على العمل وتطالب المسلم أن يسعى لكسب رزقه ، ما يكفى الرد عليه ، ثم نسأله : كيف أنشأ المسلمون حضارتهم التى استمدت منها الإنسانية جمعاء ، وأسسوا المدن ، وفتحوا أقطار العالم ، وحكموا الدنيا بالعدل والمساواة طوال عشرة قرون بل تزيد ؟ هل كان ذلك بالتجارة فقط ؟ أم بالعمل الذى تقول إن القرآن يحرمه عليهم . . .

وهو يبنى على ذلك فذلكة طويلة فى الإشادة بالشيوعية وعمل الشعب السوفييتى الذى يؤمن بأن الشيوعية هى المستقبل الزاهر للإنسانية ، ويقول : (إن واجبنا هو الكفاح ضد هذه التركة الحاملة بجميع الوسائل ، لتسود الشيوعية فى بلادنا أولا ، وبعد ذلك فى البلاد التابعة لها ، ثم فى جميع بلدان العالم كما أوصى بذلك المؤتمر الثانى والعشرون

للحزب الشيوعى السوفييتى . . .)

وإذا كان لهذا الكلام من خلفية نستطلع منها ما يخفيه المؤلف فإنها المجابهة التى تلقاها الشيوعية من الإسلام فى بلاد الاتحاد السوفييتى أولا : — واستعصاء تطويع الشعوب الأخرى المبتلاة بسيطرة الحزب الشيوعى ثانياً وأما سيادة الشيوعية فى العالم ، فإن بوارق إخفاقها فى عقر دارها ، وخفض جناحها للإمبريالية الغربية، مما يدل على أنها حلم من الأحلام .

ويتمادى المؤلف فى غروره فيقول (النصر على جميع عناصر الطبيعة يحطم صرح الديانة ، والشعب السوفييتى الذى ليس له أمل فى الله يصنع الطبيعة بوسائله العلمية، أن الفلاحين السوفييت قد أخرجوا ٢٠ ضرباً من القمح من الأنواع الـ٥٣ المعروفة ، ومربى الماشية قد استنتجوا ٤٠٠ صنف من جنس البقر و ٢٥٠ من الغنم و ١٥٠ من الخيل . إن هذه الإنجازات تؤكد القوى الخلاقة للإنسان ، وتنقص عناصر الكتب السماوية التى تحصر قدرة تغيير أجناس الحيوان والنبات فى الله) ..

لا يخامرنا شك فى أن المؤلف إنما ولى سفارة بلاده بإيمانه الأعمى بالشيوعية، لا بمؤهلاته العلمية ، وإلا فكيف يعتقد أن تحسين نوع من أنواع النبات أو جنس من أجناس الحيوان بالتلقيح والتوليد هو تغيير للنوع والجنس ؟ وكيف يجهل أن ما فعله فلاحوا السوفييت ومربوا الماشية فى روسيا ، هو ما يفعله غيرهم فى بلاد أخرى ؟ فاستخراج أنواع جيدة من القمح هو مما يقع عندنا فى المغرب ولا نحتاج أن نذهب إلى بلد من بلاد أوربا وأمريكا . ولكن أحداً عندنا حتى من الفلاحين البسطاء لم يفهم أن ذلك تغيير لجنس القمح . وتحسين نوع الماشية هو أيضاً من هذا القبيل ، وكم يعرض منه فى معارضنا الفلاحية الموسمية . هل حول البلاشفة الخيول إلى أناس ؟ إلى رجال يفكرون ويعملون ؟ هل حولوا جنس البقر أو الغنم إلى نساء يحملن بأطفال بشرية ، ويقدمن عرضاً للحبالى فى أحدالمسارح ؟ هذا هو تغيير الجنس يا سيد (رحماتوف فأين أنت منه ؟

عندنا كلمة حكيمة تقول : (فى تلقيح الأجناس تحسين للنوع) وهى قديمة وقد جربها الفلاحون المسلمون منذ قرون وخرجوا منها بنتائج مضمنة فى كتبهم التى وضعوها فى علم الفلاحة التى نقلت إلى اللغات الأوربية واعتمدها

العلماء فى أبحاثهم وما تزال مرجع المؤلفين منهم فى هذا العلم ومنها فلاحة ابن العوام وفلاحة أبى الخير وفلاحة ابن بصال وغيرها ، ومع ما كان لأصحابها من علم ومقدرة فى ميدان التجارب الفلاحية فإن واحداً منهم لم يأخذ منه الغرور المأخذ الذى جعلك تقول ما تقدم من الكلام فى جانب الألوهية وتتباهى تباهى الأطفال بلعبهم الملونة ؟

وإليك هذه الحكاية من تاريخنا المغربى — كتب أحد علماء مدينة فاس منذ ثلاثة قرون إلى أحد علماء إقليم تافيلالت يسأله عن أنواع التمر التى تنبت فى بلده ، فأرسل إليه حمل بعير من التمر كل حبة منه من نوع لا يشبه النوع الآخر ، وكتب إليه بهذه الآية القرآنية : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . .

عبد الله بن كنون

فى التوبة

قال عليه الصلاة والسلام :

« يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه . فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

كتابة التاريخ بين
الإنصاف والإجحاف

دكتور / محمد رجب البيومى
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

وُجدت فى مصر بعد ابن خلدون عناية هائلة ضخمة بتدوين التاريخ سابقاً ومعاصراً ، فأنت تذكر المقريزى وابن حجر والبدر العينى وابن عربشاه وابن تغرى بردى والصيرفى والسخاوى وابن إياس والسيوطى وابن زنبل وابن خليل وغيرهم ممن لا تزال مؤلفاتهم مخطوطة تتطلب النشر والتحقيق ، وفيهم من عكف على التاريخ وحده ومَن كتبَ فى علوم كثيرة ، ولكنه جعلَ التاريخَ من همّه ، فجارى الفحولَ من المتخصصين ، ومن الواضح الجلىّ أنَّ أَثر ابن خلدون كان ضئيلاً فى أَكثر ما خطَّه هؤلاء ، لأَن طريقتَه التحليلية ، ومنهجَه التعليلى ، ووقوفه المطمئن أمام الظواهر المتعارضة ، لم يجد تطبيقَه العملىّ لدى هؤلاء على وجه شاف مبسوط ، بل إنَّه لم يكد يجدُ تطبيقه العملى لدى ابن خلدون نفسه ، لأَنه رَسَم القواعد الدقيقة فى مقدمةِ الكتاب ، ولم يتقيدْ بها فى أكثر ما تلاها من الفصول ، حتَّى ظنّ بعضُ الدارسين أَن المقدمةَ كُتبت أخيرًا ، بعد أَن انتهى المؤلف من كتابه ! وهذا ظن معقول نشاهده فى ذَواتِ أَنفسنا ، إذ نلجأُ إلى كتابة المقدمة للكتاب بعد أَن نفرغ من تدوين فصوله ، وليس معنى ذلك أَن المؤلف الذى يُرْجئُ المقدمةَ إلى النهاية يظعنُ على عمياءَ دون تحديد ، بل معناه أَنَّه يحتفظُ بطريقةِ السيْرِ فى نفسه محاولا تطبيقها حتى إذا فرغ من مُهمّته عكف على

كتابة المقدّمة موضِّحاً جهده العلمى كما كان لا كما سيكون .

ولقد كان المأمول ممّن ذكرنا من هؤلاء أن يرتفعوا إلى الإنصاف الحميد فى كلّ ما يكتبون ، وبعضُهم من كبار العلماء الذين كتبوا فى التفسير والحديث ومسائل التشريع ، ولكنّ الإنصافَ الدائم مطلب عسير لا يبلغُه غير الصفوة ممن اجتباهم الله ، وليسَ الإنسانُ مَلَكاً فى كل أحواله ، ولكنَّه بَشرٌ يحلّقُ ويسفّ وكلّ امرئ بما كسب رهين .

إن الباحثَ ليطالعُ كثيرًا مما خطّ هؤلاء فلاَ يعدمُ الإنصاف السديد ، والأَمانة الحميدة فى كثيرٍ مما يقرأ ، ولكنه من ناحيةٍ أخرى يشاهدُ جموحاً لا مبرّر له ، ويرى اعتسافاً يَضِلُّ به صاحبُه سواءَ السبيل ، ولو علم الذى يركبُ متن الشطط أنه ليسَ وحدَه فى الميدان ، وأَنَّ إخوانَه يكتبونَ فيما يكتب ، وسَتُتِيح المقارنةُ الدقيقة وجهَ الحق فيما يُدونُه المتسرعون ، وقد ينقضى عصرُه دونَ أَنْ يُكشَفَ الّلثامُ عن الإسراف ، ولكنَّ باحثِى العصور التالية سيقرءُون ويُوازنون ، وسيحلّلونَ البواعث ، وسيبحثون عن السرائر – وحينئذٍ تنجلى الرغوة عن الصريح – أما الزبدُ فيذهب جفاءً ، وأما مَا ينفعُ الناس فيمكث فى الأَرض ، أَقول : لو علم الذى يرتكبُ الاعتسافَ فى التاريخ أَنَّهُ موضعُ بحثٍ دقيق ، وأَنه مسئولٌ مفحُوص ، لخشىَ عاقبةَ التسرع ، ورحم اسمَه من النَّاقدين ، وأَكبرُ الظَّن أَنه يعلمُ ذلك ويَعِيه . ولكنْ أَيْنَ الإرادةُ القويةُ التى تسيطرُ على النوازع؟ وتعصمُ الميزانَ أَن يميل ؟ وإذا وُجِدتْ فى بعض الأَوقات ، فهل يُقدَّرُ لها أَن تطَّرد وتستقيم ؟

وسأحاولُ أَن أَضربَ مثلاً لبعض الشطط الذى كُشِف أَمرُه ، وانتقلَ إثْمُه من المتحدَّثِ عنهُ إلى المتحدث به ، ليعرفَ جمهرةُ الدارسين أَنَّ الإجحافَ لا يستمرّ ، وأَنه لا يصحُّ غير الصحيح مهما أَرجفَ الباطل ، وجَلَب

على الحقّ بخيْلِهِ ورجله .

نعرفُ جيّدًا كتابَ (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) منذ أَخذتْ دارُ الكتب المصرية فى نشره وتحقيقه لأربعينَ سنةً خَلَتْ ، ونعرفُ من قِراءَةِ الكتابِ الضخم دونَ تَزكيةٍ خارجيةٍ أَن مؤلفه أَبَا المحاسن جمالَ الدين يوسفَ بن تغرى بردى كان ذا نظرٍ ثاقبٍ ، وتدقيقٍ بارع ، وسردٍ سهل على أعجميّةٍ لم تمنعْ عذوبةَ لُغَتِه ، وسلاسةِ سرده ، هذا ما تنطقُ به أَجزاءُ الكتاب ، وهى وثيقةٌ صادقةٌ لا تقبلُ الإرجافَ من متنقّص لجوج ، فإذا تركنا هذه الوثيقَة الشاهدةَ ودرسنَا حياةَ المؤلف لم نجدْ أَنهُ أَعجمىٌّ أَلكنُ اللسان يتطفَّل على العلم دون دراسة وتحقيق، كما حَاوَلَ أَعداؤه أَن يقولُوا فى إجحافٍ مغرض ، بل نرى طالبَ علمٍ أُولِعَ بالتحقيق منذُ نشأَته ،وقد سلك سبيلَ المجتهدين من ذوى النجابة . فقامَ على تربيتِه المعيشيّةِ والعلمية معاً زوجُ أختِه ، وهو قاضى القضاة ناصرُ الدين بن العديم الحنفى ، فإذا فارقَ الحياة خلفهُ على هذه التربيةِ المزدوجةِ زوجُ أختِه أَيضاً قاضى القضاة جلالُ الدين البلقينى الشافعى! فما ظنُّكَ بمن يُشرف على ثقافتِه الأولى رأسُ الحنفيّة ورأسُ الشافعية معاً ، حتى إذا غرَسَا فى نفسِه ظمأً المعرفة ، وأَوْقدَا حرارةَ التطلّع، بادر بنفسهِ إلى مجالسِ العِلية الكبار من أَساتذةِ الحلقاتِ العلمية الكبرى فى عصرِه فتتلمذَ على أستاذِه الأَوّل المقريزى، وناهيك به فى مجالِ التاريخ ، وواصلَ الأَخذَ عن الشهاب ابنِ حجر والبدرِ العينى ، وهما عَلَمُ العصر تاريخاً وفقهاً وسنَّة ، ولم ينسَ مَن دُونهما من النابهين كابنِ عربْشاه وابنِ ظهيرة وابنِ العليف وابنِ الشماع وبعْضهم فى غيرِ مصر من بلاد الإسلام ، فتجشّم إليهم الرحلةَ مشوقاً ! ! وانكبَّ على التأليفِ حين استوى على ساقه واستحصدَ فأَخرجَ شطأَهُ الذى أَعجبَ وراق ، وقرأَ معاصرُوه اثنْى عشَرَ كتاباً مِن تأليفه ، أَشهرُها كتابُ

(النجوم الزاهرة) الذى كتبهُ فى سبعِ مجلدات ضخام ، ومن ينشرونهُ الآن سيمتدُّون بالأَجزاءِ إلى حيِّزٍ مستريح ، محلاَّةً بالتحقيقِ والتوثيقِ والشرح ! هذا المؤرخُ النَّابهُ الذي يجيء ثالثاً فى حلقةٍ ممتازةٍ تبتدئُ بابنِ خلدون وتُثنِّى بالمقريزى وتُثَلِّثُ بأَبِى المحاسن هذا ، ثم تَمضِى فى اتّساقها المطرد حتى ننتهىَ بابن إياس ، هذا المؤرخُ النابهُ يجدُ من معاصريه وتلاميذه من يثلبُه طاعناً فى غير سداد ، ونحنُ لا نحرِّمُ على أحدٍ أن ينقدَ أحداً ـ فلنْ تظهرَ الحقيقةُ إلاَّ بعدَ مُثَافنةٍ وتمحيص ، ولكننَا نُحرِّم أَن يكونَ النقدُ طعناً ظالماً دون حقٍّ ، فقد تَرجم لهُ نور الدين بنُ الجوهرى الخطيب فى كتابهِ عن (أَنباء العصر) فذكرَ المعروفَ من أَساتذتِه ، وزادَ على ما ذكرناه من قبل ، فنصَّ على أَنهُ حضرَ مختصَر القدُورىّ فى الفقه ، وشروحَ أَلفيه ابن مالك فى النحو ، وإيساغوجى فى المنطق وشرحَ العقائد لسعدِ الدين التفتازانى ، وسَمِع المسانيدَ فى الحديث ، وأَعلَى ما سَمِعه سُنَنُ أَبى داود الترمذىّ ، والشمائل ، ومسند ابن عباس ، كما قرأَ علمَ العروضَ على النواجى ، وأَخذَ علم النّغمات عن فتحِ الدين العجمى !! هذَا الدَّارِسُ الصبورُ الذى أَخذ شتَّى العلوم عن أَئِمّتها ، وأَظهرَ من المؤلفاتِ ما يدلّ على ضلاعتِه البارعة لم يجد الجوهرىُّ فى نفسِه حرجاً من أَن يقول عنه .

(وحاصلُ الأَمر فيه أَنهُ عامىٌّ ، والمصداقُ لما قلتُه يشهد من خطِّهِ فى كُتبه التى سردناها ، فإنه يكتبُ كتابةً ما تصدرُ عن صغار الكتَّاب المتعلمين من تصحيفٍ وزيادةٍ فى الأَحرف ونقصٍ ولحنٍ مفرط ، وإذا نقل حكايةً فتجد غالبَها تصحيفاً ولحناً ، ولعمرى فهذه العلومُ التى سردَها ، والشيوخَ الذين حضرَ عليهم ما استفادَ منهم مسأَلةً ، والظن أَنه كلما فرغَ من تصنيفٍ يترجمهُ به إلى مَن يعرفُ العربيَّةَ ، فيصلحهُ له ،

ويصيرُ له به مزيّة ، ولكنْ إذا أراد الله أمرًا بلغه .

ولقد حاضرتهُ مرارًا ، فإنه كان يحضرُ عند مخدومِنا وصاحبنا وجارنا المقر الزينى ، فكنتُ أمشِى معه فى الحوادث فلم يمْشِ ، وأتكلمُ معه فى شىءٍ من الفقهِ فأجدُه عارياً منه ، وكذا فى النحوِ والعروض ، ومن حِينِ عَرَفَ أنِّى اشتغلتُ بفنّ التاريخ لَمْ (أعَارَنى) كتاباً من كتبه ولا أوقفنى على شىءٍ من مصنفاته) اهـ .

هنا مربطُ الفرس حقًّا ! إذ أنَّ العلةَ فى هذه الحملةِ أنَّ الجوهرىّ قد طلبَ مؤلفاتِ صاحبهِ التاريخيّة فرفض أن يُعطِيها إياه ! فلا بدّ أن تقومَ القيامةُ على الرجل ، لا سيما وقد انتقلَ إلى رحمةِ ربّه ، وتركَ من المنافسين ما يؤلمهُم ذيوعُ تآليفه ، فليحاولْ أن يسلقَه بتجريحهِ الظالم ، ولعلَّ أدهَى ما فى هذا التجريح هو التشنيعُ على فسادِ العبارة عندَ أبى المحاسن حتى اضطُر إلى اتخاذِ من يُراجع قولَه ليصحّح الخطأَ ، لأَن فسادَ العبارة لدى الجوهرى أشدُّ وأفدحُ . وفى كتابِه ركاكاتٌ وأخطاءٌ تمنعُه أن يتصدّر للحكم على البناءِ الأسلوبى لدى سواهُ وأهونُها أن يقولَ (ولم أعَارَنى كتاباً) !

لقد تحدثَ الجاحظُ عن تحاسدِ العلماءِ فُخيّل إلىَّ أنه أفرطَ وبالغ ، ولكنَّ بعضَ ما نستشهدُ به الآنَ يميلُ بنا إلى تصديقهِ ، كما أنَّ الذين كتبُوا فى الجرحِ والتعديل أشارُوا إلى (المعاصرة) وعدَّها أكثرُهم مانعاً من قبولِ الشهادة ، ولستُ أرَى أن الكلامَ على إطلاقه ، فقدْ تكونُ المعاصَرةُ حائلةً دون الإنصاف لدَى قومٍ تهيجُ أنانيّتهُم حين يتقدمُ سواهم ويتأخرون ، ولكنَّ هناكَ من رُزقوا السلامَ النفسى فما ضرّهم فى شىءٍ أن يُجيد المجيد ، بل أسعدَهم أن يُسارعوا إلى تقديره ، والثناءِ عليه ، ولم يعدمْ أبو المحاسن مَن عرفَ مكانَه من الكبار ، فقد نالَ تقدير ابن حَجَر وهو علاَّمةُ الإسلام فى عصره ورأسُ القضاةِ الشافعيّين ، كما عَرف

مكانتَه البدرُ العينىّ ، وهو منافسُ ابن حجر فى التَّصورِ والفتوى والترأس ، بل إنَّ العينىّ كانت تـأتيه الأَسئلةُ العويصةُ فى بعض الغوامض التاريخيّة فلا يستنكفُ أن يُحيل على تلميذه أبى المحاسن كى يُجيب معتذِرًا بتقدمِ السِّن ، وتـأَخّرِ الصّحة ، وقد ترجمَ له ابنُ تغرى بردى فأَشارَ إلى شىءٍ من ذلك حين قال (ولما انتهيْنا من الصلاةِ على قاضِى القضاة (العينى) قالَ لى بدرُ الدين محمد بن عبد المنعم (خَلاَ لكَ البرّ) فلم أَردّ عليه ، وأرسلتُ إليه بعدَ عودتِى إلى منزلى ورقةً بخطّ العينىّ ، يسأَلنِى فيها عن شىءٍ سُئل عنه ، ويعتذرُ عن الإجابةِ بكبر سنه وَتَشتُّتِ ذهنِه ، ثم بَسَط فىَّ الشكرَ والثناءَ ، إلى أن قال : وقدْ صارَ المعوّلُ عليكَ الآن فى هذا الشأنِ ، وأَنتَ فارسُ ميدانِه وأَستاذُ زمانه فاشكر اللهَ على ذلك ، وكانتْ كتابة هذه الورقةِ فى سنة ٨٤٩ هـ أى قبل وفاة العينى بسنتين) .

ماذا نـأخذُ من هذا النَّص ؟ نـأخذُ منه صراحةً أَنَّ العينىَّ لم ير بعد انتقال المقريزىّ وابن حجرٍ مَن يعتده مَرجعاً فى قضايا التاريخ غير أَبى المحاسن؟ كما نـأخذُ منه صراحةً أن الفقيه الحنبلى بدر الدين بن عبد المنعم قد لَسَّنَ حين قال لأَبى المحاسن فى جنازة العينى (خلا لك البر) وإذا كان الجوهرى والسخاوى والسيوطى عند وفاة العينى دون أَبى المحاسن سنًّا وإنتاجاً ، وهُم الذين واصلوا مسيرة التاريخ فيما بعد ، فإن الرجل قد أَخذ زعامة التاريخ عن استحقاق ، وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم !

لقد قرأتُ فصولاً مما كتب الجوهرى فلم أَرتحْ إلى لغتِه بالقياس إلى لغة أَساتذته ، ونظرائه ، وعرفتُ أَن المثل القائل (رمتْنى بدائها وانسلَّت) قد انطبق عليه ، والشاهدُ الناطقُ بيننا هو آثارُ الرجليْن ، وإذا كان السخاوى - عفا الله عنه - . قد تجرأ ظالماً على ابن خلدون والمقريزى وأَبى المحاسن ،

أَفيما كتُ صادقاً عن الجوهرى ؟ !

لقد عنَّ لى أن أراجع ما كتبَه عنه فوجدتُه يقول :

(وقد نسخ (البداية) لابن كثير ونحوها فى مجلَّدات يُضحك أَو يبكَى عليه فيها ، والعجبُ أَنه قرظَها له كثيرون ثم آلَ أَمرُه إلى أَن نفد غالبُ ما معه واحتاج ، فناب فى القضاء . . . ونصبَ نفسه لكتابةِ التاريخ ، فكان تاريخاً لكونه لا تمييز لَه عن كثيرٍ من العوام إلاَّ بالهيئة ، مع سلوكِه لما يُستقبح بحيث أَمسكَه جماعةُ الوالى ، وصار الفقهاء والقضاةُ به مُثلةً ، وصُرِف بأَمر السلطان مرّة بعد أخرى . . . ثم لما كثُر تردده إلىَّ توقفتُ فى كونه يُحصل شيئاً ، وعملتُ له مقامةً بعد أُخرى للزيْن بن مزهر ، ومع كونِه كَرَّر قِراءَتها علىَّ غِيرَ مرةٍ لم يُحسن قراءَتها عنده) .

هذا ما قاله السخاوى ، وما استشهدتُ به لأَنقلَ رأيه فى الجوهرى وحدَه ، بل لأَتجاوزَ ذلك إلى مؤاخذتِه المنصفةِ حين هاجمَ زملاءَه وأَساتذتَه ملحفاً محتدًا ، وحين تصدَّرَ معركةً طاغية جارحةً فَلاقَى من السيوطِى والبقاعِى نِدّين جهيريْن ، وشغلُوا الناس بقذائفهم دونَ نكوص ، وهمْ من أكابر العلماء ورؤساء المحدثين ، وكانَ من الخيرِ للجدلِ العلمى أَن يقتصرَ على الحقائقِ الفكرية دونَ أَن ينقلب إلى مماراةٍ وتشهيرٍ بالمواقف الهابطة ، فينتقل من الموضوعيّة الجديرة بالاعتبارِ إلى الذّاتيةِ التى يتضخم لديها غرورُ الشخصيّة حتّى ما يَرى صاحِبها سوى نفسه ! والقومُ بعدُ علماءُ مفسّرون ، ومِن واجبهم أَن يلتزموا بحقٍّ قول الله عز وجل (ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

آنَ لنا أَن نصِلَ إلى موضع العبرة مما ذكرناه ، فقد اتَّضح لنا أَنَّ الهجومَ على أَبى المحاسن لم يجد الإقناعَ الجازم فى عصره ، ثم مضى الزمنُ فى سيره واهتمت المؤسساتُ العلمية الآن فى الجامعاتِ ودورِ البحث بمراجعاتٍ دقيقة لأَعلام التراث ، ودُرِس ما عُثِر عليه

من آثار السّابقين دراسةً عادلةً ، ووُزِن ما قيل من النقدِ بميزانه الدقيق مُحاطاً ببواعثِهِ ودواعيهِ ، فإذا هؤلاء المظلومونَ من أمثالِ المقريزى وابن خلدون وأبى المحاسن يأخذونَ اعتبارهم العادل فتُعرفُ لهم مزاياهم وسقطاتُهم جميعاً ، ثم تميل كفَّتهم إلى الرجحان حين تَثقل جهودهم الصائبة ، وتشيل هناتُهم التى لا بدّ منها ، وإذا هؤلاء الظالمون من أَمثال الجوهرىّ والسخاوى يرتدون إلى حجومهم الطبيعية دون اتساع ، ولئن حُمِدتْ لهم جراءَةُ البحث وقوةُ الدفع فقد أُخِذُوا بما تورطوا فيه من افتياتٍ وادعاء ، وأَذكُر أَن المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة قد كتب بحوثاً جيدة تحت عنوان (المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى : القرن التاسع الهجرى) كانتْ على وجازتها الدقيقة شافيةً صادقة ، وقد حفظتْ للمقريزى وأَبى المحاسن مَكانَى الرياسة والتصدّر ، ولو كان ابن خلدون من رجالِ هذا القرن لخصَّهُ المؤلف ببحثٍ منصف كما خصّ زميليه !! على حين جعل السخاوىّ والجوهرىّ والسيوطى ممّن عنفوا فى المؤاخذة والتشهير بمنزلةٍ دون أولئك ! ولم يرسل القولَ إرسالا دون استدلالٍ ولكنْ شَرَحَ وعلّلَ واستنتَج حتى بلغَ الشاطئَ فى اطمئنان مريح ، وقد صدق شوقى حين رثى المنفلوطى فقال :

سكن الأَحبة والعدى وفرغت من
حقد الخصوم ومن هوى الأَشياع
فإذا مضى الجيل المراض صدوره
وأَتى السليم جوانب الأَضلاع
فافزع إلى الزمن الحكيم فعنـده
نقد تنزّه عن هوى ونزاع
فإذا قضى لك أُبْتَ من شُمِّ العُلى
بثنيّةٍ عزتْ على الطّلاع

د. محمد رجب البيومى

النهاية المؤكدة

الشيخ / أسعد التميمى

اشتد الصراع بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين الكفار من قريش حيث خافت قريش على ما يوفره الكفر لها من امتيازات طبقية ودينية ، وأخذ الصراع بين الحق والباطل يتصاعد بين الدين الجديد وما يمثله من خير للإنسان وما يعطيه للبشرية من حياة كريمة يعبد فيها الإنسان ربه الذى خلقه ويسجد لبارئه الذى أوجده فلا يسجد لبشر ، ولا ينحنى أمام حجر أو شجر ولا يعبد فلكاً ولا مظهراً من مظاهر الكون ، وإنما يستمد العزة لنفسه من عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

اشتد الصراع بينه وبين الشرك وما يمثله من انحطاط فى الفكر الإنسانى والسلوك البشرى الذى يظهر فى السجود لحاكم أو رجل دين أو حجر أو شجر أو فلك . . ذلك الانحطاط الذى ينتج عنه أن الغرائز فى الإنسان تتحكم فى مسيرته لا مقياس عنده يقيس به الأمور ولا حلال ولا حرام ، وإنما كل أمر مباح : من قتل نفس أو ظلم إنسان أو أكل مال حرام ، أو استعباد نفس أو إذلال للخلق ، فلا عجب أن ظهرت الطبقية العرقية الممثلة فى السادة والعبيد ، والأشراف والسوقة ، والطبقة الاقتصادية الممثلة فى تجارة الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، واستغلال حاجة الآخرين للإثراء غير المشروع ، والطبقية الدينية بحيث يصبح الدين وفهمه احتكاراً على طبقة معينة وناس مخصوصين يستغلون جهل الناس ويطلبون منهم أن يعبدوهم ، ويطلبون منهم تقديم النذور والقرابين لهم ولما يمثِّلون .

وأخذ الكفر يقاتل عن مواقعه بشراسة حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة مرتين فراراً بدينهم وحرصاً على عقيدتهم ، وحتى يأذن الله بالفرج .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى

مكة يقارع قومه الحجة ، يبين باطل ما هم فيه وما عليه حياتهم ، ولكنهم أصابهم الكِبرُ ولحق بهم العناد ، وكان الله قد هيأ له زوجة صالحة تعتنى بأمره وتدعمه بمالها ، وتخفف عنه قسوة عناد قومه ، وجهل عشيرته ، وهيأ له كذلك أبا طالب يحميه ، ويمنعهم من قتله واغتياله ، وإن لم يمنع عنه ما دون القتل والاغتيال من الأذى ، وهم مع هذا يحسبون حساب عمه .

ثم إن خديجة رضى الله عنها ، وأبا طالب ماتا فى عام واحد قبل هجرته بثلاث سنين ، فعظمت المصيبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بموتهما ، وذلك أن قريشاً وصلوا من أذاه بعد موت أبى طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه فى حياته منه ، حتى نثروا التراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله يقول لها : « يا بنية لا تبكى فإن الله مانع أباك » رواه الطبرى .

ما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم فى الطائف :

ولما استعصت قريش ، وصمت آذانها ، وأغلقت قلوبها وعقولها ، اتجه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، فلما وصلها عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم ثلاثة إخوة عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب ابن عمرو بن عمير ، فردوه رداً غير جميل فقال أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك كلمة أبداً لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم فيما ذكره شيخ المؤرخين المسلمين الطبرى وأنا أروى عنه : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يناجى ربه مناجاة الصابر المحتسب يطلب منه المدد والعون حيث

قومه لا يستجيبون للنور ولا يلتقون على الخير ، والطائف كانت أسوأ من مكة ، وأقسى من قريش ، فأخذ يقول كما يروى الطبرى « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم بحادثة الإسراء :

فى هذا الجو القاتم الشرس كان الله بنبيه رؤوفاً رحيما ، وكانت حادثة الإسراء من مكة إلى القدس ، وكان المعراج من أرض المسجد الأقصى إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، وكان فى الإسراء أكثر من معنى وأثره لا يزال على مر الأيام وكر السنين يفعل .

يكرم الله نبيه على صبره ويجازيه الجزاء الأوفى على تحمله فيستدعيه إليه ويقربه منه ، ويرفعه إلى درجة لم يصلها أحد من خلقه حتى ولا الملائكة المقربون . ويقدم له أرض الشام ، أرض فلسطين ، أرض القدس ، المسجد الأقصى هدية إيمان وجائزة رضوان فيفتح النبى أرض الشام ، ومنها أرض فلسطين فتحاً ماديًّا بجسده الشريف ، ويعلن الله للدنيا فى ذلك الحين وللدنيا فى هذا الحين ، وللدنيا فى كل حين أن المسجد الأقصى أصبح مسجداً للمسلمين ، فيصلى فيه النبى الصلاة الإسلامية الأولى إماماً للأنبياء المرسلين حيث أحياهم الله له ويصلى الصلاة الثانية بعده عمر وأبو عبيدة ، وكبار الصحابة والجنود المؤمنون يوم أن دخل عمر القدس ، واستلمها من بطريركها صفرونيوس وأعطاه العهدة العمرية التى تنص فيما نصت عليه : أن لا يسكن إيليا (القدس) أحد من اللصوص واليهود وذلك أن كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا على علم منه لا يعلمه بقية الناس ، وهذا النص فى الوثيقة يدل على مبلغ فهم عمر لخطر اليهود على هذه الأرض .

ولا يقال بأن عمر جاء بناءاً على أمر صفرونيوس ، فما كان للخليفة المنتصر

أن يستجيب ويأتمر بأمر البطريرك المهزوم ، لولا معرفته الحقيقية بمنزلة القدس عند الله وفى الإسلام ، وهو أحد وزيرى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويسجل الله سبحانه وتعالى فى هذه المعجزة كتابه القرآن العظيم فيقول فى سورة الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

قدسية المسجد الأقصى المبارك :

وسورة الإسراء تتحدث عن المسجد الأقصى وإسراء النبى إليه وتقرر أن هذا المسجد الذى بنى بعد البيت الحرام بأربعين سنة كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الأرض قال : المسجد الحرام، قلت ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة ثم الأرض لك مسجداً فحيثما أدركتك الصلاة فصل » فعاد للمسجد بالاسراء قدسيته وطهره حيث كان المسجد خرابا يبابا لا يصلى فيه أحد إلى أن جاء النبى صلى الله عليه وسلم فتقررت مسجديته فى القرآن واستلمه عمر فكان ينظفه هو وأصحابه من الكناسة وطهروه ، وأصبح من يومها منارة علم ودار إيمان ومحجة زوار ومحراب صلاة .

إذن سورة الإسراء تتحدث عن علاقة المسلمين بالمسجد ، وأن المسجد للمسلمين حيث أسرى بنبيهم إليه وتقرر السورة بركة أرض الشام ومنها أرض فلسطين ، وتبدأ بعد ذلك فى الحديث عن الفساد والعلو لليهود والتدمير الذى سيلحق بهم ، وأنهم سينازعون المسلمين أرض الإسراء والمسجدالأقصى .

الإفساد الأول :

وهنا لابد أن نقرر أن علماء التفسير اختلفوا اختلافاً كبيراً فيمن دمر (العلُوَّيْنِ) والإفسادين اللذين أشارت إليهما الآية الكريمة وهى قوله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً ، فإذا جاء وعدأولاهما بعثناعليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) فقال قوم هم أهل بابل ، وكان عليهم بختنصر قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، وقال قتادة أرسل عليهم جالوت فقتلهم فهو وقومه أولو بأس شديد ، وقال

مجاهد جاءهم جند من فارس يتجسسون أخبارهم ومعهم بختنصر ، وقال محمد ابن إسحق إن المهزوم سنحاريب ملك بابل وقيل إنهم العمالقة إلى غير ذلك من الأقوال المتضاربة ، ونحن حين ننظر إلى الآيات نظرة موضوعية نجد الأشياء الآتية :

أولاً : الآيات مكية وتتحدث عن علوين وإفسادين لليهود فهل مضى هذان العلوان قبل نزول الآية أم أنهما آتيان؟!

مما لاشك فيه أن اليهود دُمِّرُوا أكثر من مرة قبل الإسلام ، وقبل نزول الآيات فقد سباهم البابليون ، ودمرهم الرومان وذلك أنه منذ أن غضب الله عليهم نتيجة سوء تصرفهم وحقدهم على الله وأنبيائه غضب الله عليهم وجعلهم يتصرفون تصرفاً يلجئ البشرية إلى إذلالهم وضربهم يقول الله تعالى فى سورة البقرة الآية ٦١ (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) ثم تقرر آية أخرى فى سورة أخرى أن العذاب سيستمر فى اليهود والتدمير لهم إلى يوم القيامة : (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) . الأعراف الآية ١٦٧ .

إذن لا غرابة أن يكون إفساد اليهود وعلوهم ثم تدميرهم أكثر من مرة قبل الإسلام ولا غرابة أن يكون كذلك علو وفساد بعد الإسلام مرة أو أكثر ثم تدميرهم .

وليس هناك ما يمنع أن يكون الفساد والعلو ثم التدمير لمرتين بعد نزول الآيات والواقع أن المتعمق فى الآيات يجد أن المرتين اللتين أشارت إليهما آية الإسراء فى علو اليهود وإفسادهم ثم تدميرهم هما بعد نزول آيات الإسراء .

وذلك أن الله يقول : (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما) و « إذا » ظرف للمستقبل من الزمان ، ولا علاقة لما بعدها بما قبلها فوجود كلمة « إذا » فى الآية تدل على أن الفساد والعلو ثم التدمير الأول آت وأنه لم يمر كما أن استعمال إذا للمرة الثانية يدل على أنها آتية لم تمر كذلك .

وقوله تعالى : (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار) .

أى أن الذين سيتولون تدمير اليهود هم من المؤمنين إذ أن الله سبحانه وتعالى

حين يضيف كلمة العباد لذاته تكون فى موضع التشريف ، ويخص بها المؤمنين ، يقول الله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) ويقول : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) ويقول : (سبحان الذى أسرى بعبده) ، وأعظم منزلة للنبى صلى الله عليه وسلم أنه عبدالله ورسوله . وفى التحيات (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) .

وهذا التشريف والتكريم الإيمانى لا ينطبق على البابليين ولا على الرومان لأنهم جميعاً من الوثنيين . إذن ينطبق هذا الوصف على رسول الله وأصحابه الذين جاءوا إلى المدينة ولليهود فيها نفوذ سياسى واقتصادى . وكان من أول أعماله فى المدينة إبرام المعاهدة السياسية بينه وبين اليهود وأن اليهود جماعة مستقلة وأن المسلمين جماعة مستقلة ، فلما غدر اليهود ونقضوا العهد كعادتهم ودأبهم سلط الله عليهم المسلمين فجاسوا خلال الديار اليهودية وتغلغلوا فيها وأزالوهم عن المدينة وخيبر وتيماء ، وزال سلطانهم وتم تدمير علوهم فكان ذلك من خلال معارك بنى قريظة وبنى النضير ، ومعارك خيبر الشهيرة ، وتأتى سورة الحشر لتؤكد هذا المعنى فى قوله تعالى فى وصف معارك المسلمين مع اليهود فى المدينة : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) الآية ٢ .

الإفساد الثانى :

إذن هو أخرجهم لأول الحشر ، فخرج قسم منهم إلى أذرعات من أرض الشام حتى تبدأ المرة الثانية من علوهم وفسادهم . ويقول الله تعالى : (وكان وعدا مفعولا) يعنى أنه تم تدمير العلو الأول فى عهد النبى والوحى ينزل ، وأتمه أصحابه من بعده . وتبدأ الآيات بعد ذلك تتحدث عن المرة الثانية فى العلو والفساد ، فتخبر الآيات أن الله سيجعل لليهود الكرة عليهم ، على من ؟ على الذين جاسوا خلال الديار أول مرة ، والكرة الدولة والسلطة . وحين أراد الله لليهود أن يكروا استعمل كلمة (ثم) وثم كما هو معروف معناها العطف مع التراخى أو المهلة فهل كر اليهود فى التاريخ على البابليين وكانت

لهم دولة وسلطة عليهم ؟ لم يحدث ذلك فى التاريخ ، ولن يحدث الآن ولا فى المستقبل ، حيث إن البابليين قد انقرضوا من الدنيا كأمة وليس لهم مكان يعرفون فيه أو دولة يعيشون فيها وحاشا لله أن لا يصدق القرآن أو يكون خبره غير محقق إذن لا بد أن تكون الكرة على أبناء من جاسوا خلال الديار وهم المسلمون أو العرب المسلمون فقد كر اليهود على بلاد الشام وفلسطين منها وهذا هو الذى قد حدث ونعيشه الآن ويعانى منه المسلمون كل المسلمين ، وانظروا معى إلى بقية الآيات تمضى فتصف الواقع الذى نعيشه وتعيشه دولة اليهود . إذ بعد أن جعل الله الكرة لليهود علينا يقول الله تعالى لليهود : (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) وهنا نسأل مرة أخرى : هل أمد الله اليهود بأموال وبنين غير هذه المرة ؟ لم نعرف أن ذلك قد حدث واليهود منذ أن غضب الله عليهم وهم فى بلاء متصل وعذاب مستمر فقبل الإسلام كان عذاب البابليين لهم والرومان ، وبعد الإسلام أخرجهم المسلمون من الجزيرة ثم بدأت أوربا تعذبهم فى إسبانيا وفى بقية أقطارها حتى جاء المسلمون فأنقذوهم من الإسبان واستمر العذاب ولقد عاش اليهود فى ظل دولة الإسلام عبر القرون آمنين مطمئنين ، تحفظ لهم دماؤهم وأموالهم ، ولكنهم لم يحفظوا الجميل .

وحتى نرى مبلغ صدق الآية ، ونرى إعجازها بأعيننا نجد دولة اليهود تعيش على البنين الذين يأتونها من أطراف الأرض ليمدوها بالجند ، وفى هذه الفترة من روسيا بالذات ، وترى الأموال من دول الغرب تأتيها بمساعدات مذهلة حتى تستمر فى عدوانها وطغيانها وجبروتها ، ثم يقول الله سبحانه : (وجعلناكم أكثر نفيراً) ، ولذلك فإن أكبر قوة فى الأرض وأكبر دول الأرض تساند دولة اليهود فى حال نفرتها وحربها .

إذن هذه هى المرة الثانية من العلو فما بال الفساد ؟ وحتى يتحقق الفساد فنرى اليهود فى دولتهم يرتكبون أفظع الجرائم بحيث فاقوا كل أنواع العذاب التى عانوا منها فى زعمهم أو عاناه غيرهم ولذلك يحذرهم الله فيقول لهم : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وهم قد إساءوا فقتلوا النفس الإنسانية وعذبوها ويتموا الأطفال وسجنوا النساء وهدموا البيوت واغتصبوا الأرض وأقاموا المستعمرات ، وحرقوا المسجد الأقصى فى ٢١ /٨ /١٩٦٩ . والأقصى عند

الله عظيم ، ودنسوا مسجد الخليل عليه السلام ، والخليل عند الله هو الخليل ، وارتكبوا جريمة الجرائم فى مسجد الخليل يوم أن عمدوا إلى كتاب الله فمزقوه وداسوه .

وهنـــا تأتى عقوبة الله لهم على ما اقترفوه من الإثم والجرائم بتفسير من الآيات إن دولتهم لن يطول فسادها ولا علوها فيقول الله : (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تتبيرا) وهنا حين يخبر الله عن زوال دولتهم استعمل كلمة الفاء للعطف ولم يستعمل ثم والفاء للعطف مع التعقيب ، والتعقيب على كل شيء بحسبه وما يناسبه وهو يدل على السرعة فى حصول المقصود (فإذا جاء وعد الآخرة) أى لذهاب علوهم الثانى تصبح وجوه بنى إسرائيل سيئة ويبشرنا ربنا جلت قدرته أننا سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وفى هذه الآية إشارة لطيفة إلى دخولنا المسجد مرتين . والمرتان حدثتا بعد نزول الآية ، المرة الأولى : الفتح العمرى للمسجد حين دخله باسم الله والإسلام ، والمرة الثانية : هذه التى نحن على أبوابها حيث سيدخل المسلمون المسجد فاتحين للمرة الثانية ، ثم يقرر الله أننا سنتبر أى ندمر ، ونهلك علو اليهود المادى والمعنوى . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن فلسطين لم تعرف العمارات ذات الطوابق التى تزيد على أربعة أو خمسة طوابق إلا فى ظل اغتصاب اليهود لها . ولذلك فإن هذه العمارات الشاهقة التى يقيمونها فى الأرض المباركة سيلحقها التدمير والخراب ثم تمضى الآيات فتحذر اليهود من محاولة العودة للفساد والتعالى فيقول الله لهم (وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) ، وتأتينا البشرى من الله بعد أن يفهمنا ربنا أن القرآن يهدى إلى الطريق السوى والحياة الصحيحة تأتينا البشرى بالنصر فيقول : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات إن لهم أجراً كبيراً) . وفى آخر السورة سورة الإسراء آية أخرى تتعلق بهذا الأمر ، وهى قوله تعالى فى آخر السورة : (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) الآية ١٠٤ و « لفيفا » أى جماعات ملتفة وفى بقية الآية إنذار لليهود وبشرى لنا ، فيقول الله (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) بشرى لنا وإنذار لهم فإذا ربطنا هذه الآيات وتفسيرها بالحديث

الذى يدلنا على صدق النبوة . ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم حين أخبرنا عن قتال اليهود فيما رواه الشيخان البخارى ومسلم وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » .

أيقنا بعد ذلك لماذا لم تنجح المحاولات لتثبيت دولة اليهود وذلك أنه منذ سنة ١٩٤٨ ، وكل محاولة للصلح وتثبيت دولة اليهود يفشلها اليهود أنفسهم وذلك لأن الله يلهمهم الخطأ فيرفضون كل الحلول لأن اليهود لا يعالجون أى أمر إلا بالحقد والتآمر والخديعة ، ويقرر الله أن لا عقل عندهم فيقول (لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) الآية ١٤ ، وذلك كله يجرى حتى يأتى اليوم الموعود يوم تتخلص المعركة أو ديار المسلمين من الأيديولوجيات المنافية للإسلام وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر فى حديث قتال اليهود أن الحجر والشجر سينطق ويقول : « يا مسلم يا عبد الله خلفى يهودى فتعال فاقتله » إذن لن يكون قتال النصر فى فلسطين قتالا يمينياً ولا يسارياً ، وإنما يكون قتالا إسلامياً فى سبيل الله كما كان دائماً قتال النصر للمسلمين (ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً) .

الأرض المباركة :

وبعد فإن الآية فى سورة الإسراء نصت على بركة الأرض التى تحيط بالمسجد الأقصى وكذلك آيات أخرى نصت على هذه البركة مثل قوله تعالى فى حق الخليل إبراهيم : (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) وقوله : (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين) سورة سبأ ، والبركة : الزيادة فى كل شىء وليست بركة هذه الأرض مادية وإنما بركتها بالإضافة إلى الأشياء المادية بركات معنوية تتمثل فى أنها عش الأنبياء ولذلك فكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دفنه فى بيت المقدس عند وفاته باعتبارها عش الأنبياء ، وكانت لم تفتح بعد ، وهى مهبط الوحى وهى مسرى النبى ومعراجه منها صلى الله عليه وسلم وهى القبلة الأولى

فقد صلى المسلمون إلى مسجدها ستة عشر شهراً ومسجدها تشد إليه الرحال كما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

ومن بركة هذه الأرض الاستقراء أنه حينما يبتعد المسلمون عن محور عزهم ومركز قوتهم وهو الإسلام يضعفون ويتمزقون وتكثر دولهم ودويلاتهم فيسهل على العدو أن يتسرب من خلالهم فيأخذ الأرض المباركة ويأخذ المسجد الأقصى وعندها يتحرك المسلمون حركة حياة من جديد ، وينفضون غبار الهزيمة فيعملون لاستخلاص هذه الأرض فعن طريق استخلاصها يتم توحيد المسلمين من جديد . ألا ترون أنه بسبب حريق المسجد الأقصى كان مؤتمر القمة الإسلامى الأول فى المغرب الذى انبثق عنه مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الذين كونوا الأمانة العامة الإسلامية فى جدة ، وهذا من بركة هذه الأرض التى باركها الله . ولذلك لن يصل أحد مع اليهود وأعوانهم إلى حل حتى يأتى أمر الله ويتوحد المسلمون ، ويعود الإسلام محركاً للحياة فى ديار الإسلام وفى العالم كله .

وقد ظهرت بركتها فى الحروب الصليبية إذ بعد أن أخذها الصليبيون وظنوا أن الأمر قد استقر لهم كانت حروبهم سبباً فى توحيد المسلمين من جديد فكان نور الدين زنكى الذى وحد الأجزاء المبعثرة وأخذ الراية منه صلاح الدين ، فكانت حطين النصر المبين وكانت معركة القدس فيما بعد ودخلها رحمه الله فأعاد الأمن والأمان إليها وعاد مسجدها إلى قدسيته وطهره .

ربط أهل الشام :

وَقَدَرُ أهل الشام — وفلسطين منها — أنهم مرابطون إلى يوم القيامة حيث الكفار لا يتركون الأرض المباركة يستقر أهلها وهم يريدون مسجدها ليقيموا عليه الهيكل .

روى الطبرانى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم وإماءهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون فمن نزل مدينة أو قرية من المدائن فهو فى رباط أو ثغر من الثغور فهو فى جهاد ، وقدر أهل الشام كذلك أن ينتقم الله بهم من أعدائه فعن خريم بن مالك « أن أهل الشام سوط الله فى أرضه ينتقم بهم ممن يشاء من عباده وحرام على منافقيهم أن

يظهروا على مؤمنيهم ولا يؤتون إلا همًّا وغمًّا » رواه الطبرانى مرفوعاً وأحمد موقوفاً ورجاله ثقات ، وعن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول « الملحمة الكبرى بأرض يقال لها الغوطة فيها مدينة يقال لها دمشق خير منازل المسلمين يومئذ» رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وقد روى أبو بكر ابن شيبة عن أبى الزاهرية قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « معقل المسلمين من الملاحم دمشق ومعقلهم من الدجال بيت المقدس ومعقلهم من يأجوج ومأجوج الطور .

وعلى هذا فالأرض المباركة بركتها بالإضافة إلى الأشياء المادية التى ذكرها المفسرون من الثمار والأشجار والأنهار والأرض المعطاء والسهل الخصيب والجبال العالية والأرض المنخفضة التى تجعلك تنتقل فى ساعة زمن أو أقل من مستوى سطح البحر إلى العلو الشاهق إلى الغور المنخفض فهناك البركة المعنوية والبركة المادية تتصاغر أمام البركة المعنوية والتى باركها الله فجعلها القبلة الأولى يصلى إليها المسلمون وأسرى بنبيه إليها وعرج به من مسجدها إلى السموات العلا ، وجعل مسجدها الأقصى تشد إليه الرحال وهى عش الأنبياء وهذا مما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأتى بنفسه لاستلام القدس .

الوطن البديل :

ولذلك فحينما يتحدث اليهود وأعوانهم عن الوطن البديل للفلسطينيين يظنون أن أى أرض يمكن أن تستبدل بها الأرض المباركة ويظنون أن الأمر أمر إسكان لاجئين أو استقرار مشردين وما علموا وهم يتجاهلون أن هذه الأرض لا تدانيها أرض أخرى ولا يمكن أن يقوم مقامها وطن بديل فى أى بقعة من بقاع الكرة الأرضية إذ أن هذه الأرض مرتبطة بعقيدة المسلمين سجلت فى كتاب الله بوصفها القبلة الأولى وبوصفها مسرى النبى وبوصفها معراج الرسول وبوصفها الأرض المباركة ولذلك فهى لا تخص الفلسطينيين وحدهم ولا تخص العرب وحدهم بل تخص المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا وما دام كتاب الله القرآن موجوداً على الأرض يتلى وفى الأرض مؤمنون فليس هناك استقرار لدولة اليهود وهى فى طريقها لأن تصبح من مخلفات التاريخ كما أصبحت دولة الصليبيين من قبلها من مخلفات التاريخ تؤلف الكتب عن أسباب زوالها ويكتب الباحثون أبحاثهم ويعطى العلماء آراءهم فى

ذلك كلهم أو جلهم وسينسى أو يتناسى الحقيقة الأزلية وهى استحالة أن يملك هذه الأرض غير المسلمين وأن تبقى فى حوزة أعدائهم لأن هذه إرادة الله بينها ليلة الإسراء . . .

والواقع أن العالم كله يفقه القضية الفلسطينية أو القضية اليهودية بالأحرى وإنما كل فئة تنظر إلى القضية من زاوية معينة تتفق مع مصلحتها وهذه النظرة بالنسبة لمصالحها صحيحة ، فالغرب ينظر للقضية على أنها امتداد للحروب الصليبية ، وأن اليهود أداة فى يديه لتمزيق الوطن الإسلامى والسيطرة على بلاد المسلمين وتهديدهم حتى لا يفيقوا مرة أخرى فيتعرضوا لقيادة الدنيا وإنقاذها مما تعانيه . والشيوعية تنظر إلى القضية على أن بقاء دولة اليهود فى بلاد المسلمين أمر ضرورى لإيجاد التناقض حسب الفكر المادى ولذلك هى مع بقاء دولة اليهود ، وتحارب الطبقة الحاكمة فى إسرائيل حرباً طبقية باعتبارها عميلة للغرب ، ويهمها أن يبقى التناقض فى المنطقة ، وعدم الاستقرار لأن ذلك حسب وجهة نظرها يغذى الحركة الشيوعية وينميها .

وأهل البلاد الذين أخرجوا من ديارهم (الفلسطينيون) ينظرون إلى القضية من زاوية أنهم شعب ظلم وشرد واضطهد فهم يريدون حياة الاستقرار فى الأرض التى ولدوا فيها أو نبت آباؤهم فيها أو دفن أجدادهم فى ترابها فهم يحنون بفطرتهم إليها ولا يرون فى الدنيا أرضاً تكون بديلا لها وهذا صحيح ولكن هذه النظرات المختلفة للقضية من زواياها المختلفة ليست هى القضية وإنما القضية تتعلق باليهود أو بغضب الله على اليهود والمستمر عبر التاريخ بالعذاب الواقع بهم نتيجة سوء تصرفهم وحقدهم على الإنسانية فحلقة من حلقات الغضب والسخط عليهم من الله . إن الله أخبر فى القرآن فى آيات الإسراء كما أسلفت فى أول البحث وفى حديث البخارى ومسلم أنه قبل قيام الساعة ستقوم لليهود دولة ثم يتولى المسلمون تصفيتها حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله خلفى يهودى فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود .

حتمية زوال دولة إسرائيل :

ولقد حاول العالم منذ ١٩٤٨ أو القوى الكبرى فى العالم أو الغرب على وجه التخصيص أن يثبت إسرائيل دولة فوضع الحلول وحاك المؤامرات ولكن المؤامرات تفشل والطبخات تحترق وذلك

بفضل الله وبمعاونة اليهود أنفسهم حيث يرفضون كل ما يعرض عليهم حتى يأتى يومهم الموعود وقدرهم المرصود فتزول دولتهم بآثامها وشرورها وإن الغرب اليوم يحاول جاهداً لإنقاذ دولة اليهود من مصيرها المحتوم وقدرها المرسوم رغم أنفها ، ولكن اليهود يتمردون على من أوجدهم، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون وصدق الله إذ يقــول فى حقهم (لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) .

وإن من بركة الأرض المباركة أن المسلمين يتوحدون دائماً عن طريق استخلاصها من أيدى أعدائهم وذلك أن الأمة الإسلامية حينما تبتعد عن محور قوتها وهو الإسلام يلحقها الضعف والتشتت فتقام فيها دول ودويلات حتى تصل فى صغرها إلى مستوى الأحياء والحارات فيأتى العدو ليتسلل عبر هذا الضعف فيأخذ الأرض المباركة وتسقط القدس، ويسقط الأقصى فى يديه، عند ذلك تبدأ الأمة فى التحرك حركة الحياة من جديد حتى إذا وقفت على قدميها كرت على عدوها لتخلص الأرض المباركة منه فتتوحد من أجل ذلك أو بسبب ذلك كان ذلك فى الحروب الصليبية وكان ذلك فى حروب التتر وهو الآن . ولذلك بسبب حريق الأقصى فى ١٩٦٩/٨/٢١ انعقد مؤتمر القمة الإسلامى الأول وخرجت من ذلك المؤتمر منظمة الدول الإسلامية الممثلة فى الأمانة العامة الإسلامية فى جدة والتى يعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية مؤتمرهم السنوى فى أحد العواصم الإسلامية وسيستمر اللقاء والتقارب حتى يصل إلى حد التمازج والتلاحم فيشترك المسلمون كل المسلمين فى تحرير الأرض المباركة التى تكون سبب وحدتهم .

بلاغة الأسلوب النبوى

فضيلة الشيخ
منشاوى عثمان عبود

تمهيد :

شاءت إرادة الله تعالى ، واقتضت حكمته أن يجعل من رسولنا الأعظم — صلوات الله وسلامه عليه — نموذجاً فريداً فى المكارم والمحامد . وأسوة طيبة خالدة للناس كافة ، ومثلا أعلى لمن يحاولون الوصول إلى رفيع الخصال ، وكريم الخلال ، فجمع له من صفات الكمال ما يتفوق بين صنوف البشر ، ومنحه من العطاء ما لم ترق إليه نفس ، ولم يدن من ساحته أحد ، وما كان هذا غريباً أمام قدرة الله القاهرة ، وإرادته النافذة ، وحكمته البالغة — كما قال الشاعر العربى :

وليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم فى واحد

ومن هذه الكمالات التى أتم الله تعالى النعمة فيها على رسول الله عليه الصلاة والسلام ملكة البيان . . فكان قمة فى القول السديد والكلام البليغ ، والحجة المشرقة والأداء الرائع .

وفى المقالات الماضية مثلت لأربعة نماذج من صنوف بلاغة الأسلوب النبوى . . وأحاول فى هذا المقال أن أمثل لبعض نماذج أخرى لبلاغة هذا الأسلوب فأقول : يذكر البلاغيون الاستعارة على أنها طريق آخر من طرق الأداء ، وتطلق عندهم على معنيين :

الأول : المعنى المصدرى : وهو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له .

الثانى : المعنى الاسمى : وهو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه ، مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له

فإذا عرف أن أركان التشبيه : مشبه — مشبه به — وهما الطرفان — ووجه شبه، وأداة .. عرف أن أصل الاستعارة تشبيه حذف فيه أحد الطرفين ووجه الشبه والأداة .

فإذا قال شخص : كان الخطيب ينثر الدرر من فيه — فإنه يريد أن يقول : إن الخطيب أتى بكلام كالدرر فى الحسن .

وأصل هذا تشبيه لكلام الخطيب باللآلىء الحقيقية بجامع الحسن فى كلٍّ ، فحذف وجه الشبه ، وحذفت الأداة ، واستعملت كلمة « الدرر » فى كلام الخطيب — فكلمة « الدرر » يقال لها : استعارة بالمعنى الأسمى ، لأنها لفظ مستعمل فى غير ما وضع له وهو كلام الخطيب ، لعلاقــة المشابهة بين ماوضع له (الدرر) (اللآلىء الحقيقية) وبين ما استعمل فيه (كلام الخطيب) مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له ، وهى كلمة ينثر من فيه . . واستعماله كلمة (الدرر) فى كلام الخطيب ؛ يقال له استعارة بالمعنى المصدرى لأنه استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة إلخ .

ويقسم علماء البلاغة الاستعارة — باعتبار ذكر المشبه به وعدمه إلى تصريحية : إذا كان لفظ المشبه به مذكوراً فى الكلام وإلى مكنية : إذا كان لفظ المشبه به محذوفاً من الكلام ورمز إليه بشىء من لوازمة . ويسمى إثبات لازم المشبه به المحذوف للمشبه المذكور استعارة تخييلية : وهى قرينة الاستعارة المكنية فهى لازمة لهـــا لا تفارقها إذ لا استعارة بدون قرينة . وسميت الاستعارة التخييلية — استعارة لأنه استعير لها ذلك من المشبه به للمشبه وتخييلية : لأن إثبات اللازم للمشبه — خيل اتحاده مع المشبه به ..

كما يقسمون الاستعارة التصريحية باعتبارها المستعار — إلى :

أصلية : وهى التى يكون المستعار فيها اسماً غير مشتق : وإلى تبعية : وهى التى يكون المستعار فيها اسماً مشتقاً ، أو فعلا ، أو حرفاً .

وكما أن التشبيه يجرى بين مفردين كذلك يجرى بين مركبين بأن تشبه هيئة منتزعة من عدة أمور بأخرى مثلها — فمثل هــذا التشبيه يسمى التشبيه المركب أو تشبيه التمثيل . فإن حذفت منه الأداة — والمشبه — ووجه الشبه — وبقى المشبه به كان ذلك استعارة تمثيلية . فالاستعارة التمثيلية : هى

اللفظ المركب المستعمل فى غير المعنى الموضوع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، والاستعارة كما يقول البلاغيون — لابد فيها من تناسى التشبيه والمبالغة بادعاء أن المشبه (المستعار له) فرد من أفراد المشبه به (المستعار منه) وداخل فى جنسه — فإذا قال قائل : وردت بحراً — يريد جواداً كريماً — فقد استعار لفظ البحر للرجل الكريم ، فأفاد بهذا القول المبالغة فى وصف الرجل بالجود وبسط يده بالبذل والعطاء .. فكانت الاستعارة أبلغ من التشبيه فى تأدية المعنى المراد وأوقع فى النفس من الأداء عن طريقه .. لأن التشبيه مهما تناهى فى المبالغة فلا بد فيه من ذكر المشبه والمشبه به .. وهـذا اعتراف بتباينهما وتغايرهما وأن العلاقة ليست إلا التشابه والتقارب — فلا تصل إلى درجة الاتحاد إذا جعلت لكل منهما اسماً يتميز به دليل عدم اتحادهما وامتزاجهما .

بخلاف الاستعارة فيها دعوى الاتحاد والامتزاج وأن المشبه والمشبه به صارا معنى واحداً يصدق عليهما لفظ واحد .

فنى المثال السابق جعل الجواد والبحر شيئاً واحداً حتى صح أن يسمى أحدهما باسم الآخر ، ولولا ما أقام القائل من القرينة على ما أراد ما خطر ببال أحد يسمعه إلا أنه يريد البحر الذى تعورف بهذا الاسم .. وهذا اللون من البيان نجده فى الأسلوب النبوى على أرفع مثال من عذوبة اللفظ ، وإحكام السبك ، ودقة المسلك واستبانة الغرض وروعة المظهر .

فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا ، وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له)(١) .

اللغة :

قوله : (همه) يقال : هم بالشىء يهم هما من باب رد إذا نواه وأراده ، ويؤيد هذا رواية أخرى للحديث فى سنن ابن ماجه بلفظ (من كانت الآخرة نيته) ومعنى كون الآخرة همه أنها مقصودة له .

(شمله) يدعى به للشخص ، فيقال : جمع الله شمله ، أى ما تفرق من

(١) رواه الترمذى عن أنس بن مالك — رضى الله عنه .

أمره ، ويدعى به عليه ، فيقال : فرق الله شمله أى ما اجتمع من أمره ، والشمل بسكون الميم ، والشمل بفتحتين لغة فى الشمل ومن ذلك قول الشاعر :

قد يجعل الله بعد العسر ميسرة

ويجمع الله بعد الفرقة الشملا

(راغمة) الرغام : التراب ، يقال : أرغم الله أنفه — أى ألصقه بالرغام — وهذا هو الأصل ثم استعمل فى الذل والانقياد على كره ، فمعنى (أتته الدنيا وهى راغمة) أتته ذليلة منقادة :

فنى قوله : (وجعل غناه فى قلبه) أريد بالغنى القناعة ففيه استعارة تصريحية أصلية حيث شبهت القناعة بالغنى بجامع راحة النفس بكل واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وقرينة الاستعارة قوله : (فى قلبه) وكانت الاستعارة هنا تصريحية للتصريح فيها بلفظ المشبه به ، وأصلية لجريانها فى اسم غير مشتق .

وفى قوله : (وهى راغمة) استعارة تصريحية تبعية بتشبيه تيسر أحوال الدنيا وقضاء الحوائج فيها بانقياد الذليل للعزيز ورغمه على طاعته ، بجامع الوصول إلى الغرض فى كل دون مشقة ، واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، واشتق من الرغم بمعنى التيسر راغمة بمعنى متيسرة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وقرينة الاستعارة إسناد الرغم للدنيا . . وكانت الاستعارة هنا تصريحية للتصريح فيها بلفظ المشبه به ، وتبعية لأنها جرت فى المشتق بعد جريانها فى المصدر .

ويصح فى هذا القول استعارة مكنية بتشبيه الدنيا فى تيسر أحوالها لمن كانت الآخرة همه بشخص مغلوب على أمره ، لا يسعه إلا أن ينقاد لغالبه ، بجامع الخضوع فى كل ، واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو راغمة بمعنى ذليلة التى تعتبر من خواص الأحياء ، وإثبات هذا اللازم للمشبه (الدنيا) استعارة تخييلية وهى قرينة الاستعارة المكنية .

وفى قوله : عليه الصلاة والسلام (جعل الله فقره بين عينيه) مبالغة فى وصف ما يشعر به المنهمك فى طلب الدنيا من تصور الفقر فكأنه شاخص أمامه ، لا يغيب عنه أبداً ، كما تقول لشخص تريد أن تؤكد

له تصورك التام لمسألته وحاجته : حاجتك بين عينى أى لا تغيب بحال عن فكرى .

وهذا من قبيل التمثيل : تمثيل حال المتلهف على الدنيا ولا تزيده إلا ذلا بحال مفترضة من مثول الفقر بين العينين ، بجامع الباعث على الضرر والفزع فى كل ، واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية .

وما أروع هذا كله وأحقه بأن يصير فى النفس أزهى صور التقدير والإعجاب .

منشاوى عثمان عبود

فى الإخلاص والنية

قال صلى الله عليه وسلم

« إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

دور مصر فى انتشار الإسلام

إلى الصديقين : منظور خان فى باكستان
ومحمود عباس فى إيران : استجابة لرغبتهما
فى هذا المقال .

دكتور / عبد الودود شلبى

لم يكن فتح مصر فى سنة ٢١ هـ مجرد انتصار على جيوش الدولة البيزنطية الظالمة أو إضافة قطر جديد إلى دولة الخلافة الإسلامية العادلة .

بل كان هذا الفتح مقدمة لفتوحات أخرى فى القارة الأفريقية ، وقاعدة انطلاق واسع وبعيد للدعوة الإسلامية .

وقد لعب مركز مصر الجغرافى دوره الخطير فى هذه الناحية ، فقد كانت مصر بحكم هذا الموقع هى « المفتاح » الذى مهد لانتشار الإسلام فى هذه القارة ، وكان دخولها فى الإسلام « بابا » لدخوله فى أقطار أخرى مختلفة ، إنه قدر كتب على مصر منذ فجر الحضارة وأمانة تاريخية تحمّلها شعبها المؤمن عن ثقة وجدارة .

ولقد يبدو غريباً فى نظر بعض الإخوة أن نربط بين حديثنا عن دور مصر فى انتشار الإسلام وبين وضعها الجغرافى ، إلاّ إن العلاقة بينهما فى هذا الشأن وثيقة ، وتأثير كل منهما فى الآخر واقع وحقيقة .

ولنضرب لذلك مثلا بانتشار الإسلام فى أفريقيا . .

هل كان يمكن للإسلام أن ينتشر فى أقطارها هذا الانتشار الممتد شرقاً من المحيط الهندى مخترقاً وسط القارة الشمالى حتى يصل إلى غربها على المحيط الأطلسى . . هل كان يمكن ذلك لولا دخول الإسلام إلى مصر واتخاذه منها قاعدة لانطلاقه شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ؟ لقد كانت مصر هى

القاعدة التى انطلقت منها جيوش الإسلام إلى أعماق هذه القارة فعلى امتداد الساحل الشمالى سارت جيوش المسلمين حتى بلغت المحيط الأطلسى ، ومن واحات مصر الغربية انطلقت قوافل العلماء والدعاة إلى غرب القارة مروراً بجنوب بلاد المغرب ، ومن بلاد المغرب « جنوب تونس » إلى بلاد « برنو » اتخذ الإسلام طريقه إلى شمال السودان ، ومن جنوب « الجزائر » إلى بلاد « الحوصا » شمال نيجيريا ومن جنوب « مراكش » إلى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر ، ومن القاهرة اندفع الإسلام جنوباً بمحازاة النيل أو عن طريق الصحراء الشرقية ليستقر بعد ذلك فى السودان وبلاد النوبة .

لقد كانت مصر هى « الباب » الذى دخل منه الإسلام إلى هذه القارة وكان لموقعها الجغرافى أثره فى انتشاره وتقدمه بسرعة . وإلا هل كان من الممكن أن يقوم إمام جليل وشيخ للإسلام بهذه الرحلة التى تجشم فيها أخطر المصاعب للوصول إلى بلاد « التكرور » وهى ما يسمى فى عصرنا هذا ببلاد غرب أفريقيا ، أو بلاد « القولانى » و « الحوصا » فقد ذكر الشيخ آدم بن عبد الله الالورى فى كتابه « الإسلام فى نيجيريا » أن الإمام الحافظ السيوطى رحل من مصر إلى بلاد التكرورية وأقام فيها مدة للتدريس فى « أكدز » و « كشنة » وكانت بينه وبين ملك نيجيريا مراسلات يطلبون منه فيها الوعظ والنصيحة . .

وفى هذا الكتاب نفسه يحدثنا الشيخ آدم عن علماء بلاده الذين رحلوا إلى مصر والتقوا بعلمائها الأجلاء فى الأزهر الشريف . ومن هؤلاء العلماء الذين تعلموا فى مصر وكان لهم دور كبير فى انتشار الإسلام — الشيخ أحمد بن محمد أفيت ، والشيخ عاقب بن عبدالله الاكدزى ، والقاضى محمد بن أحمد القادختى .

وقـــد ذكر معظم المكتشفين الجغرافيين الأجانب أن الذين يقومون بنشر الإسلام فى أفريقيا أكثرهم من الدعاة والمسلمين الذين درسوا فى الأزهر بصفة خاصة . هذا الجامع الذى يهرع إليه الطلاب من جميع أنحاء العالم وبخاصة من شعوب أفريقية. وقد قام هؤلاء المعلمون بإنشاء المدارس والزوايا لتعليم أصول الدين ، والتفقه فى أحكام الإسلام . وقد ذكر المقريزى فى خططه أن عدد هؤلاء

الطلاب بلغ فى عهده — فى القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر الميلادى — ٧٥٠ طالباً وكان لكل طائفة منهم « رواق » — يعرف بهم . وكان من أهم هذه الأروقة رواق « الدكارته » و (رواق السناريه) و « رواق الجبرت » و (رواق برنو) . .

وقد انتهى عهد الأروقة فى الأزهر الآن بعد أن تكاثر عدد الوافدين إلى مصر من أنحاء العالم الإسلامى . حيث أنشئت لإقامتهم مدينة خاصة هى « مدينة البعوث الإسلامية » تضم حوالى عشرة آلاف طالب من كل الجنسيات المعروفة فى العالم .. وكان آخر ما وصل إلى هذه المدينة من الطلاب الدارسين فى الأزهر ، طلبة من اليابان ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وجنوب أفريقيا وبريطانيا . .

وقد عمل الأزهر على تسهيل دراسة هؤلاء الطلاب الذين لا يعرفون حرفاً واحداً من اللغة العربية ، فأنشىء من أجل ذلك قسم الدراسات الخاصة لتعليم اللغة العربية ، كما أنشئ « معهد البعوث الإسلامية » الذى تسير مناهجه وفقاً لحاجات هؤلاء الطلاب اللغوية والدراسية ، وكلاهما أى قسم الدراسات الخاصة ومعهد البعوث تابع للأزهر الشريف الذى يقدم لهؤلاء الطلاب المنح الدراسية ، ويوفر لهم كل أسباب الراحة طوال سنوات التعليم والدراسة .

وقد تخرج الألوف من هؤلاء الطلاب فى الأزهر الشريف ، وتولوا فى بلادهم أرفع مناصب التعليم الدينى والتوجيه .. ولم يكن ذلك ليتم لولا تلك الرعاية التى شملتهم بها مصر طوال سنوات التعليم ، ولولا الدور الذى تقوم به مصر فى خدمة الدين . .

وقد خطت مصر فى هذا المجال خطوة أخرى تختلف عنها فى الصورة وأن اتفقت معها فى القصد والغاية .

هذه الخطوة أو « الخطة » تتمثل فى إرسال العلماء والدعاة إلى مختلف أقطار العالم الإسلامى ، وفى إنشاء المراكز الإسلامية فى العواصم الهامة ، وفى إقامة المعاهد والمدارس الخاصة .

وفى نيجيريا مثلا توجد بعض المراكز الثقافية التى تنفق عليها مصر وتشرف عليها ، وفى الصومال أنشئ العديد من المدارس على حساب مصر لتعليم أصول الدين واللغة العربية ، كما أن هناك فرعاً لجامعة القاهرة فى مدينة الخرطوم ، وفى الخرطوم نفسها قام أكبر مركز إسلامى لتخريج الدعاة

الإسلاميين بمساعدة كبرى من القاهرة وإشرافها . .

وفى خارج العالم الإسلامى ، كان أول مركز إسلامى أنشئ فى أوربا — وهو مركز لندن — من سَعْيِ مصر وعملها ، وهناك مركز آخر فى وشنطن أقامته مصر بجهودها ، وتبع ذلك إنشاء مراكز إسلامية أخرى فى كل من « مونتريال » وباريس ، ونيويورك . وتقوم هذه المراكز برعاية أحوال المسلمين فى أمريكا وأوربا . كما تقوم بتوضيح مبادئ الإسلام وشرحه للراغبين فى اعتناقه من غير المسلمين فى الولايات المتحدة ، وبريطانيا .

وللأزهر الشريف أكثر من خمسين بعثة تؤدى عملها فى مختلف أقطار الدنيا ويختلف عدد أعضاء هذه البعثات من دولة إلى أخرى . حسب الأهمية وحسب ظروف المسلمين فى كل دولة . فللأزهر الآن بعثات فى كل من :

سوريا — الكويت — لبنان — قطر — السعودية — العراق — البحرين — أفغانستان — باكستان — الهند — ماليزيا — أندونيسيا — الفلبين — السودان — الصومال — تنزانيا — كينيا — أوغندا — جزر القمر — بنجالاديش — موريشيس — مالاجاسى — ليبيا — الجزائر — المغرب — السنغال — موريتانيا — غانا — غينيا — نيجيريا — توجو — داهومى — ساحل العاج — النيجر — مالى — جابون — أفريقيا الوسطى — تشاد — وأخيراً فى الولايات المتحدة — وفرنسا — وكندا — وبريطانيا — والبرازيل — الأرجنتين — والبرتغال .

كما تقوم وزارة الأوقاف المصرية بتقديم المساعدات المالية ، وإرسال الوعاظ وإقامة المساجد فى بعض الدول الإسلامية النامية .

كما يقوم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — التابع لهذه الوزارة — بتقديم المنح الدراسية ، وطبع الكتب الإسلامية وترجمة الكثير منها إلى اللغات الحية ، كما قام هذا المجلس بطبع المصحف الشريف وتسجيله ، وقدم الكثير من نسخه إلى المسلمين فى أقطارهم المختلفة .

لكن . . . هل هذا كل ما فعلته مصر فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية ؟

إن فى مصر إذاعة خاصة بالدعوة الإسلامية هى «إذاعة القرآن الكريم » . . هذه الاذاعة التى بدأت عملها منذ حوالى أربع عشرة سنة ، وتبث إرسالها على موجتين قصيرة ومتوسطة وتتنوع

برامجها لتشمل كل حاجات المسلمين الروحية والفكرية وتذيع يومياً لأكثر من ثمانى عشرة ساعة .

وقد وضع لهذه الاذاعة تخطيط جديد يتفق مع رسالتها السامية ، ويقوم المسئولون حالياً بالاعداد لتقوية إرسالها حتى يصل إلى كل ناحية .

كما لا يفوتنا أن نسجل ما تقوم به « البرامج الموجهة » فى نشر الوعى بالحضارة الإسلامية ، وتلبية حاجات المستمعين فى القضايا الدينية ، لقد سجلت « البرامج الموجهة » تفوقاً ملحوظاً فى هذه الناحية ، واستكتبت لبرامجها كبار العلماء والمفكرين فى الأزهر الشريف والقاهرة .

وكان لتعدد اللغات التى تذيع بها هذه البرامج أكبر الأثر فى التعريف بالإسلام وفى تبليغ كلمته ورسالته إلى أقصى مكان .

إن فى مصر كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « خير أجناد الأرض » وحين سئل عن سبب ذلك قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة . .

وهذا هو « قَدَرُ » مصر .. قَدَرُها ديناً . . وقَدَرُها تاريخاً . . وقَدَرُها مكاناً وموقعاً .

د. عبد الودود شلبى

فى التوبة

قال صلى الله عليه وسلم :

« أن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل . حتى تطلع الشمس من مغربها » .

الديناميكية فى التصوف الإسلامى

للمستشرق الفرنسى/روجر ارنالديز

ترجمة : حامد طاهر

كان من الضرورى أن ينقضى وقت طويل حتى يدرك الفكر الأوربى أن المشاعر الإنسانية لا تنحصر فى أى نظام من أنظمة الفكر الواضحة ، ولا يمكن التعبير عنها بأية وسيلة من وسائل المنطق الأرسططالى .

فالمشاعر لا تخضع لمبدأ التناقض ، وهى فى ارتباطها بالضمير — الذى يعتبر أساساً حركة يختفى حين يراد تحديده ، ولا ينغلق فى مفاهيم أو موضوعات — من النادر أن تكون صافية ، لكنها قادرة عندما تعاش أن تضم فى ذاتها المتناقضات : فلا يوجد سرور دون بقايا حزن ، كما لا يوجد حب دون بغض ، أو بغض دون حب . وليس معنى ذلك أن الضمير قادر على أن يحس — فى نفس الوقت — بشعورين متوازيين ومتضادين : إن الأشياء عندما تمثل على هذا النحو ، ينتج منها واقع هزلى مضحك ، كما فعل رابليه عندما أظهر جارجانتيا ، بطل روايته ، حزيناً على وفاة زوجته ، وسعيداً بميلاد ابنه . وتدل هذه المهزلة على كاريكاتيرية الضمير ، حيث لم يتم تناول المشاعر فى ذاتها ، وإنما تبعاً لأسباب خارجية استدعتها . والواقع أنه فى الحالة الواحدة التى يمكن أن يوجد فى الضمير شعوران متناقضان لا يعدو الأمر أن أحد هذين الشعورين قد خرج من الآخر واستدعاه ، بينما يعود الآخر إلى الأول . وفى الحقيقة ، يوجد للمشاعر قطبان يتذبذب الضمير بينهما على نحو مستمر وهذا الطابع الجدلى هو الذى يولد الديناميكية .

وعلى قدر ما اهتمت الفلسفة الكلاسيكية بالضمير الأخلاقى ، وبحثت عن تحديد الفضائل والعيوب ، والمشاعر الطيبة والمشاعر الرديئة ، فقد حاولت أن تزج بالقيم السيكلوجية

فى المستويات المنطقية . ولم يحدث بالتدريج أن أدركنا استقلال عالم المشاعر وعدم اختزاله : فليس هناك مشاعر طيبة من الضرورى أن تكون مرتبطة بالأفكار الصحيحة الواضحة والمتميزة ، كما لا توجد مشاعر رديئة تنتج أفكاراً خاطئة غامضة وغير مقبولة . وليس هناك من شك فى أن متطلبات الحيـــاة الدينية فى رفعها للإنسان كى يتجه إلى أحوال الضمير قد ساعدت فى اكتشاف الطبيعة الجدلية للمشاعر .

ولما كان المنطق عاجزاً عن التعبير عن هـــذه الحركة الأساسية ، فقد كان ينبغى على البلاغة — بطائفة من الــكلمات والصور — أن تنهض بهـــذه المهمة .. فعندما قال سينكا بصدد الإنسان المرتبط جداً بحياته ، والذى لا يكف عن الاهتمام بأدق الأمور من أجلها : « الحياة فى صيانة مريض . . » كان قد ابتكر (عبارة جيدة) اشتهر استعمالها ، ربما أكثر من رسائله المنطقية ذاتها . فليس باكتناز الحياة يعيش الإنسان ، وإنما بالمخاطرة بها والتعرض للموت . وقد بين فيلون الإسكندرى أن هناك نوعين من الموت : موت النفس أمام الله الذى وهبها الحياة ، وموتها مع الإنسان الذى يرغب فى الحياة ، وهو من أجل ذلك يقتل فى الحقيقة نفسه . وإذن فهناك كلمات كثيرة تبدو فى استعمالها المحدد غامضة ، ومع ذلك فهى وحدها التى تستطيع أن تعبر عن الواقع (السائل) للضمير الإنسانى .

تحتوى اللغة العربية على عدد كبير من المصطلحات التى تشير فى وقت واحد إلى دلالات متناقضة ، وتلك هى « الأضداد » ، وبالتالى فمن المهم فحص دورها الذى يمكن أن تقوم به فى لغة التصوف الإسلامى ، خاصة وأننا قد رأينا أن الاهتمام بالقيم الدينية التى يعيشها الضمير ، ينحصر بصفة خاصة ، فى اكتشاف الطبيعة الجدلية للمشاعر .

حدد صوفية المسلمين ثلاثة مستويات داخل الكائن الإنسانى : مستوى النفس ، الذى هو الإحساس بالذات ، ومستوى القلب ، ومستوى السر . وتمتد حياة النفس من الميلاد إلى الموت . وهى متميزة (بمقامات) تتتابع بالتوالى بعد أن يستمر كل منها وقتاً ما . ومن مشاعر الضمير يتكون لحن النفس ، غير أنه بمقدار ما يتوقف الضمير فى كل واحد من هذه المواقف ،

لا يستطيع أن يحتوى أبداً على أى مجموع ، أو على الأقل : المجموع الكامل لحياته ، وبالتالى فهو لا يعرف نفسه ، ولا يستطيع أن يحاكمها . فلكى يحاكم القاضى لا بد أن يزن ويقيس ، ولكى يفعل ذلك لا بد أن يكون خارجاً. ولذلك فإنه من منظور النفس، يتم الحكم عادة بعد الموت (إذا قضى الأمر — ١٩ / ٣٩) وقد أعلنت الشريعة قبل موعد هذا الاستحقاق ، حتى تحذر الناس ، وتقودهم إلى الطريق المستقيم . وإذن فإن ما يميز الشريعة أنها عبارة عن وعد مرتبط بتنفيذ العبادات والطاعة ، وقد حددت — على نحو موضوعى رقيق ، ما ينبغى أن يتلفظ به من قول ، أو يحدث من حركة أو إشارة ، وكذلك الأوقات التى يجرى فيها كل هذا . . لكن الشريعة لا تحدد بنفس الطريقة أعمال الباطن ، وقد لاحظ ابن حزم، بصدد حديثه عن النية —التى تعتبر ضرورية— أنها تملأ الفراغ الذى يمكن أن يصاحب أعمال العبادات . لكن النية قائمة ببساطة على أن ما يأمر به الله كاف ، وهى إذ تحول دون أى إعجاب بالنفس فإنها تتجنب وضع النموذج الذى لا يستطيع الإنسان عادة بلوغ مستواه الروحى . وهكذا تنحصر أحقية العمل الدينى فى هـذه الحدود . فهى لا تشترط مثلا للنية نية، ولا نية نية النية ذلك الذى يمكن أن يذهب إلى ما لا نهاية دون فائدة. إن انكفاء الضمير على ذاته أمر مكروه.. والعقيدة لا تتكون من تأمل الإنسان فى ذاته ، واستمرار دورانه حول نفسه .. فالهداية تأتى بالتأكد من الخارج ، من الله القادر على كل شىء ، المنفرد فى تساميه المطلق ، وأمامه لا يملك المؤمن المخلص إلا الطاعة فى خشوع . . (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون — ١/٢٣ ، ٢) .

وإذن فإن هذه الطاعة الخاشعة عبارة عن موقف فى مواجهة (الوحى) الذى يلقيه الله فى ذاكرة الناس . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » ٥٧ / ١٦) . وفى اللحظة التى يستهلك الموت فيها كل شىء ، يرتفع الغموض الأساسى عن مشاعر النفس . تقول الآية . « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم — ١٤ / ٢٢ .

وإذن فالشيطان ، إبليس ، هو الذى يغوى بالمتشابهات الباطلة وبالتلبيس،

وهو الذى يحصن الإنسان على أن يتعلق بهذه الخيرات والمخلوقات الحادثة التى يظهرها له مشروعه ومباحة . إن كل ما تبتلى به النفس يمكن أن يعود : إمـّا إلى الله الذى يرسله ، وإمـّا إلى النفس ذاتها ، التى ترغب فى الكِبْرِ والعظمة ، ليس فى الحقيقة ، وإنما أمام الناس . ولأن النفس ليست كائناً صلب التكوين ، فإنها تستسلم بسهولة للزهو بنفسها : وهذا هو ما يطلق عليه الصوفية (الرياء) الذى ينبغى عدم خلطه بالنفاق ، لأن الأول يعنى فكرة أن يعرض الإنسان نفسه أمام الآخرين ، وهذا ما يحدث تزويراً كاملا للكائن . ويمكن الإشارة هنا إلى نظريات سارتر فى سوء الظن واللهو والكوميديا التى تتكون من حياة الكائن الذى يحس بذاته وللتعبير عن عدم تلاؤم الاحساس بالذات مع النفس، فإن اللغة العربية تحتوى على الصيغة الفعلية (تفاعل) التى تعد ذات علاقة بصيغة (فاعل) الذى يعبر عن المنافسة مع الآخرين . فمثلا نجد (تماجد وماجد) ينطبقان على معنى واحد ، لأن المنافسة مصحوبة دائماً بتفاخر وظهور أمام الناس. و (فاخر وتفاخر) لهما أيضاً معنى المنافسة فى المجد .

لقد كانت الأخلاق البدوية ، فى الجاهلية ، قائمة على أخلاق التنافس . فالكرم معناه أن يكون الإنسان أكرم من كل الآخرين وإن يباهى كذلك بالكرم (= كارم) . وجاء الإسلام فعارض هذا المستوى من القيم . فالله وحده هو الكريم المختص بالكرم، الرحيم . . . إلخ .

ولا أحد على الإطلاق يطمع فى أن يضاهيه ، وإذن فمن الضرورى مكافحة هذا الاتجاه الذى يتمثل فى أن تقارن النفس الآخرين ، وتتصنع أمامهم وهذا هو الذى جعل من قيم البدو ، بالنسبة للمسلمين وكذلك لكثير من المسيحيين « عيوباً زاهية » فليس ما لديهم سوى أمور براقة خادعة . والمشكلة إذن هى فى الوصول إلى (الإخلاص) الحقيقى . لكن الإنسان على المستوى الصوفى لا يقدر على ذلك ، لأنه لا يتصنع فقط فى محاولته العظمة ، وإنما أيضاً فى محاولته للخشوع . أنه يتصنع الفقر (تفاقر) والجهل (تجاهل) ، وبصفة عامة ، فليست النفس إلا (تصنعاً) وهكذا فإن أى تطور صوفى ، على مستوى الإخلاص الصوفى ، يفترض صراعاً (لمخالفة النفس) .

إن الشريعة فى شكلها المادى تنذر وتحذر . وبإمكان المؤمن الذى يطيع قوانينها أن يتخلص من أنواع الغموض الشيطانية ، ومن لبس الضمير . وألا يثق فى نفسه ، وإنما يجهد لكى يحقق مشيئة الله فيه . وليس بمقدار ما يحفظ نفسه من الوقوع فى الشر ، إنه يصل على نحو إيجابى إلى الخير . لأن كل مرحلة على الطريق ، حتى لو تجنب السقوط ، تظل معرضة لغموض الضمير المؤكد . وإذن فإن النجاة عن طريق الشريعة تتكون من تمسك الضمير الإنسانى بالنص المحدد لهذه الشريعة ، ووضع نفسه فى المكان الذى يحل فيه ضمير الشريعة محل ضميره نفسه . وهذا النوع من النجاة يشترك فيه عامة المؤمنين . فما يعنى المؤمن فى اتباع الأوامر هو ما ذكره القشيرى : فكرة الحياة الأخرى ، والوعود والأخطار التى تتمثل له فيها . وهنا خطوة نحو الاخلاص(إنا اخلصناهم بخالصة ذكر الدار — ٣٨ / ٤٥) . وتبعا للمفسرين يمكن أن تقرأ هذه الآية بطريقتين : بخالصة (بالتنوين) أو (بالاضافة) وفى حالة التنوين يكون المعنى ، كما يقول فخر الدين الرازى : لقد جعلنا من ابراهيم واسحاق ويعقوب رجالا خالصين ، تبعاً للخلصة الخالصة التى لا شوب فيها ، والتى هى عبارة عن البلاغ الخاص بالجنة الخالدة .

وفى حالة الإضافة يكون المعنى : لقد اخلصناهم تبعاً لما هو خالص فى ذكرى هذا البلاغ ، لأن هذه الذكرى يمكن أن ترجع إما إلى الله — إذا لم تعتقد إلا فيه ونحن نفكر فى الإقامة بها — وإما إلى الإنسان إذا ما تذكر فى نفسه . .

وهاتان القراءتان هامتان جداً ، لأنهما تعنيان أن المفكرين المسلمين كانوا على وعى بالفكرتين وأنهم لا يستبعدون أياً منهما. إن الله تعالىهو دائماً الذى يهب الإنسان الإخلاص ، لأنه لا أحد على الإطلاق يمكنه أن يصل إلى الإخلاص الكامل الذى هو عبارة عن : بساطة دون امتزاج بأى كائن لكن هذا الاخلاص ، وهـــذا الصفاء الصوفى يمكن تصوره (كطبيعة) يتقبلها المؤمن المحافظ على الشريعة ، طبيعة أشبه ما تكون بمنحة فى ذكرى البلاغ الإلهى . وذلك هو ما نعبر عنه بقولنا :

« يحل ضمير الشريعة محل الضمير الإنسانى » . . وفى الواقع يذكر الرازى بصدد (ذكرى الدار) أن

المشار إليهم فى الآية مستغرقون بالكلية فى تذكر بلاغ الآخرة ، وإن الذكرى المستمرة التى يعيشونها توصلهم إلى حد أنهم ينسون هذه الدنيا . وتذهب القراءة الثانية (= الإضافة) إلى أبعد من ذلك إذ ليس فقط بالاستغراق فى الشريعة تتم النجاة ، ولا بنسيان الدنيا نفكر فى الآخرة ، أو بالخلاص من غوايات إبليس نحقق دعوة الخير ، وإنما بنسيان النفس من أجل الله ، وذلك باكتشافها فى ذاتها ، وما وراء ذلك من الصفاء الذى أبدعه الله ، حيث يكمن الإخلاص الحقيقى فى صفائه ونصاعته .

لقد عتقد الصوفية المسلمون أن هذين الشكلين من الاخلاص : الموضوعى والذاتى ، مرتبطان باطنياً ، وأنه يجب الانتقال من الأول ، الذى يتكون فى إطار قوانين الشريعة ، إلى الثانى الذى يتم بالاتجاه الصادق إلى الله .

لكن كيف يتم هذا الانتقال من مستوى النفس إلى مستوى القلب ، الأكثر عمقاً ؟ . . بمنحة الهبة . فبينما تعتبر النفس مجالاً للجهد الانسانى (وهنا توجد علاقة بين « قام بجهد » و « تظاهر ») فإن القلب هو محل العطايا إنه يتلقى الفضل الإلهى فى (الأحوال) . وليست الأحوال غامضة مثل مقامات النفس التى لا تحقق الصفاء الصوفى الكامل للاخلاص .

وتحتوى تلك الأحوال على قطبين أساسيين متقابلين . وهى لا مدة لها ، ومع ذلك فليست خاطفة . فلأنها لا تبقى زماناً طويلا ، لا يمكن أن تمثل تارة وجهاً وتارة وجهاً آخر ، كما هى الحال فى أحداث الضمير . ولأنها ليست خاطفة لا تحقق الوحدة الكاملة المنزهة عن كل إمكانية للشرك ، أنها لحطبة وتلك هى أوقات القلب ، الشبيهة بما يسميه الفيزيقيون « لحظات الامتزاج أو التزاوج » ، وهى ديناميكية ، بمعنى أنها عبارة عن توتر بين قطبين متقابلين وتذبذب مستمر من احداهما للآخر ، وهى تبث فى القلب قوة ترج النفس وتهزها كما تفعل إيقاعات لحن موسيقى . .

وإذا كانت مشاعر النفس تقبل التعبير عنها بواسطة صيغة (تفاعل) فإن أحوال القلب ، التى وصفناها ، تقبل التعبير عنها (بالأضداد) ، تلك الكلمات التى يتذبذب معناها بين دلالتين متقابلتين . ومن المؤكد أنه كان من الملائم جداً أن نرى كل

الأسماء التى أعطاها الصوفية لأحوال القلب – من الإضداد . على الأقل سوف نرى أن المصطلحين الأولين يتبعان مستوى الأضداد ، وهى (الخوف والرجاء) تقول الآية (ويرجون رحمته ويخافون عذابه ١٧/٥٧) لكن يستشهد فى المعنى المقابل بآية (فمن كان يرجو لقاءَ ربه فليعمل عملاً صالحاً – ١٨/١١٠) . وكذلك بآية « يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر – ٢٩/٣٦) حيث يفسر فعل الأمر (ارجو) بـ (احذروا واخشوا) ويترجم بالاشير هذه الآية (الذين لا يرجُون لقاءَنا – ١٠/١٥) :

(لا يرجون = لا يخشون ، أى ليس عندهم خوف) وبهذه المناسبة ، يحدد الخليل أن فعل (رجا) مثل (أمل) لا نلتقى أبداً بمعنى فزع ، إلا إذا لحقته أداة نفى . وهذا ما حدث فى الآية السابقة ، بيد أن أبا الطيب يلاحظ أنه يمكن أن يأخذ هذا الفعل نفس المعنى حتى لو لم يكن منفيًّا ، كما نرى فى أمثلة أخرى مستشهد بها .

ويدل الفعل (خاف) على الفزع ، عندما يتعلق الأمر بشىء لسنا متأكدين منه . لكنه يستعمل أيضاً عندما نكون متأكدين . وهكذا فإنه (فان خفتم ألا تعدلوا – ٣/٤ . ينبغى أن تفهم على معنى « إذا علمتم جيداً وتأكدتم أنكم لن تعدلوا » ، وليس (إذا خشيتم » . لكنه بمقدار ما يفهم منه عدم التأكد ، فإنه يعنى فى نفس الوقت : خشى ورجا ، كما أشار إلى ذلك قطرب . إن الحياة الدينية كلها فى الإسلام تبدأ من (الوعد) و (الوعيد) اللذين يذكرهما الله تعالى فى القرآن معلناً التبشير بالجنة ومنذراً من عذاب النار (انظر ١٨/١٢) و (الخوف) و (الأمل) من المشاعر المشتركة فى النفس الإنسانية ، وهنا يأتى الكلام الالهى ليحرك فيها كل ما هو عادى جداً وعام من الذى لا يرى الأخطار الجسيمة التى يمكن أن تقع له ، ولا يستغرق من الناحية السيكلوجية والروحية ، فى رعب كامل ومستمر ؟ . . وفى المقابل يظل هناك أمل خادع ، لا يحده شىء ، ومنه تنتج ضروب الغفلة والذنوب . لكن النفس تميل إلى أن تطيل مقاماتها عندما تنتقل من شعور إلى شعور مضاد ، وهذا دائماً بالتعاقب : فهى ترجو بعد أن تخاف ، وتخاف بعد أن ترجو . . وتولد هذه الانفعالات المتعاقبة اضطراباً فى النفس . أما

فى القلب ، فالأمر على عكس ذلك تماماً، لأن الخوف الكامن فى الرجاء ، والرجاء الكائن فى الخوف يجعلان الإنسان فى يقظة دائمة ، دون أن يفتر أو يتجمد. إن دنياميكية الأحوال الصوفية لا تدع النفس تغفل أبداً ، وفضلا عن ذلك فإن تحقق مفهوم المصطلحين الأولين يولد — بفضل الله— تحقق مفهوم المصطلحين التاليين على نحو أكثر كمالاً . ويؤثر هذا المفهوم الأخير على النفس بدوره ، بحيث يجعل الإحساس بالذات يتحرر بالتدريج من ذاته خالصاً ، بمعنى الاخلاص الداخلى (ولم يعد الأمر هنا يتعلق بمستوى الضمير الموضوعى الذى يتحقق فى قوانين الشريعة) ثم ابتداء من المصطلحين الأولين ، تتوالى باقى المصطلحات الزوجية (قبض وبسط) ، (هيبة وأنس) . . . إلخ . وإذا لم تكن هذه المصطلحات أضداداً على المستوى المادى للغة ، فإنها من حيث انبثاقها وتطورها عن المصطلحين الأولين تظل الأضداد على مستوى المعنى الروحى .

وهكذا بعد عملية التصفية ، المنشطة بحيوية الأحوال ، تبلغ النفس درجة التقوى ، فى وحدتها الأكيدة ، تختزن منها رصيداً ضخماً. وهنا يحدد الصوفية (أصل) التقوى ، كما لو كانت عبارة عن (تجنب أى شرك مع الله) والتحفظ مما سوى الله . كذلك الابتعاد عن أى لبس : عبارة عن (تجنب أى شرك مع الله) والتحفظ مما سوى الله . كذلك الابتعاد عن أى لبس : (اتقاء الشرك والشبهات) . ومن المعلوم فى الإسلام أن الشرك لا يقتصر فقط على عبادة الأصنام التى صنعها الإنسان، وإنما أيضاً على عبادة اهوائه الخاصة ، والخضوع لها كما لو كانت أرباباً من دون الله . وإذن فإن التقوى تؤدى مباشرة إلى تلاشى الشعور بالذات ، وإلى فناء النفس ، والقضاء على كل ما هو مثار شك فيها .

عندئذ يمكن للقلب أن ينخرط كلية فى طريق الله . وهو تواب (أى الذى يتجه نحو الله ، من الفعل تاب ، أى رجع إلى الله ، وهو قريب جداً من الفعل تاب بمعنى رجع أو عاد) والتوبة كما يذكر الغزالى ، عبارة عن إسقاط الحجب التى تفصل الإنسان عن الله : المخلوق الذى يحب عن الخالق المحبوب ، وإذن فكلمة تاب تعتبر من الأضداد ، بهذا المعنى الذى ينطبق على الإنسان الذى يتوب ، وعلى الله ،

تعالى ، الذى يتوب عليه . تقول الآية . . .

(إن الله يحب التوابين – ٢/ ٢٢٢) وبالنسبة لله تعالى (قابل التوب– ٣/٤٠) . لكن تبعاً للمعنى المضاد ، الله أيضاً تواب (انظر القرآن ١٦/٤ ، ١٠/٢٤ . فالآية تقول (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه – ٣٩/٥).. إن كلا من فكرة التعبير القرآنى (ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ٩ / ١١٨) والآية رقم ١١٧ من السورة السابقة تقدم معنين متطابقين لفعل تاب (لقد تابَ اللهُ على النبى والمهاجرين والأنصارَ الذيـَن اتبعوه فى ساعةِ العسرةِ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم أنهُ بهم رؤوف رحيم) . وقد حاول بعض المفسرين (كالجلالين مثلا) أن يحدد من المعنى الدقيق للجذر (ت و ب) المنطبق على الله تعالى ، فقالوا : إن الله (يوفق) الناس فى توبتهم ، وأنه (يديم) توبتهم .. لكن الصوفية المسلمين لم يفتهم أن يستفيدوا من القدرة التعبيرية الموجودة فى الأضداد ، لأنه فى ديناميكية فعل واحد نجد الإنسان يتجه نحو الله ، والله نحو الإنسان وفى قمة التطور الروحى ، سوف نكتشف أن هذا الفعل الواحد ليس له إلا فاعل حقيقى واحد ، هو الله تعالى .

وفى الواقع عندما يجد القلب فى أحواله من شبهات النفس ويقضى على السلطان الخادع للإحساس بالذات يكتشف المؤمن أن كل ما فيه ليس إلا لله : إنه موجود بالكلية لله . وهذا هو (البقاء) ، ومع ذلك يبقى عمل أخير لا بد منه ، وهو أن الاخلاص الصوفى لا يدرك فى اللحظة التى يكتشف فيها فقط أن – (كل ما هو كائن ، وكل ما فى ذاته لله) وإنما أيضاً (ليس إلا فعل الله) .

بهذا ننتقل إلى مستوى (السر) ، فالمؤمن على مستوى القلب يحب الله ، فهو (مريد ، محب) والله (مراد ، محبوب) . أما فى السر فينقلب كل شىء ، ويصبح الموجب سالباً . إذ فى حب الإنسان لله ، يكتشف أنه هو المحبوب ، وإن الله تعالى هو المحب . ويبلغ النشاط الإنسانى فى بحثه عن الله ، غايته ، عندما يتحقق بصورة كاملة فى حالة مطلقة ، حيث يمتد الفعل الإلهى الذى يخلق وينجى معاً على كل شىء . وهكذا يجد الإنسان نفسه فى نقطة أبعد من

مقامات النفس وأحوال القلب ، حيث يتقبل اللمسات الإلهية التى تعتبر بصورة مطلقة ، لحظية : (الطوارق) . وهنا لم يعد الأمر يتعلق باظهار ما يعطى الله فى توكل النفس وتسليم القلب ، كما لم يعد أى اكتساب أو كسب . لامكان إلا للقدرة الكلية العميقة التى يحققها الله تعالى ، الفاعل لكل شىء ، وذلك هو (التفويض) . لقد تجاوزت (العبادة) الخارجية الموجودة فى النفس (علم اليقين) وكذلك العبارة الداخلية (العبودية) الموجودة فى القلب : (عين اليقين) ، إلى مستوى السر حيث يصير المؤمن هو حقيقة العبارة ذاتها (العبورة) ، وتلك هى ما يحققها الله وحده : (حق اليقين) . وهنا تجهد النفس لكى تحصل على (التواجد) ويتمتع القلب فى شطحاته(بالوجد) ، أما السر فهو الوجود الحقيقى : (الوجود) الذى يحقق الاخلاص الصوفى الكامل .

وهكذا نجد أنه قد أشير لهذا العمق الأخير للكائن بكلمة (السر) التى تندرج صيغتها الفعلية (أسرَّ) فى قائمة الاضداد ، لأنه فى الواقع ، يدل معاً على (أظهر وأخفى) إنه يظهر فى الجوهر الخالص لفعله وحقيقة الفاعل الوحيد ، لكنه يخفى عن كل إدراك ، وذلك حين يكون موضوعاً للحمد والعبادة أو الحب ، فهو (الفاعل) المطلق فى فاعليته .

وتعتبر الأضداد ، من وجهة النظر اللغوية ، كلمات لها ، فى وقت واحد معنى إيجابى ومعنى سلبى . فمثلا (الأمين) تدل على الشخص المؤتمن (بكسر الميم الثانية) وعلى الشخص المؤتمن (بفتحها) . ومهما يكن من أمر فالفرق بين الطبيعة الموجبة والطبيعة السالبة يوجد فى تغيير الحركات لقد كان ماسينيون يذكر بأن الحروف الصامتة ، المكتوبة بالحبر الأسود ، هى الهيكل العظمى للكلمات ، بينما الحركات الأصلية أو الاعراب ، المكتوبة بالحبر الأحمر هى النفس الحى الذى يبث الحياة فى هذا الهيكل والانتقال من الموجب إلى السالب ، الذى هو انتقال من (القلب) إلى (السر) ما هو إلا (حركة) النفس ، وارتباط الحياة بالكائن .

ومع ذلك ، لا ينبغى استنتاج أن التصوف الإسلامى يعتمد فقط على هذه الخاصية الهامة للغة العربية المتمثلة « فى الأضداد » ، لكنه — عمداً أو عن غير عمد — انتزع جزءاً كبيراً

من مجال الكلمات التى تعبر عن مواقف (مفاتيح) لكى يقيم منها صرحاً متماسكاً جداً للغة التصوف . وبناء على ما علقه مفكرو العرب على اللغة العربية دائماً من أهمية ، فلن يكون من المدهش أن يؤثر طابع الأضداد ، المعروف جيداً ، فى تطور « تعدد القطب » فى الأحوال الصوفية ، وفى الديناميكية التى بفضلها تجاوز التصوف مستوى التظاهر والاحتفالات العلنية بأعمال الضمير ، وأصبح فى إمكانه بلوغ الاخلاص الصوفى ، حيث يختفى الظاهر ، ليحل محله ظاهر خالص ، وذلك عن طريق التحول (بالتوبة) حيث التواب هو — فى وقت واحد وبالتضامن — الإنسان والله .

فى الصبر

قال صلى الله عليه وسلم :

« عجبًا لأمر المؤمن .. إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له . وأن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

النظام الاقتصادى فى الإسلام

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

لقد نظّم الإسلام كلاً من الملكية الفردية والملكيّة العامة، طبقاً لنظرية الاستخلاف . . وهى تقضى بأن كل شىء فى الأرض مملوك أصلا لله . . الذى استخلف الإنسان فيها وسوّده عليها . . وطبيعة هذا الاستخلاف أن يبدأ جماعيًّا ، ثم يتطرق إلى أن يتوزع فرديًّا . . .

وهذه النظرية الإسلامية تجعل حق الجماعة فى المال أظهر من حق الفرد فيه . . ولذا منع الإسلام الفرد من أن يتملك ما كانت المنفعة فيه ضرورية للجماعة : كالماء والكلأ والنار . . وأبقى ملكيتها عامة للجماعة تنظّم كيفية الانتفاع بها . . حتى يجد كل فرد نصيبه منها وقت حاجته إليه . . فلا يتملكه فرد أو أفراد فيحتكرون المنفعة ويمنعونها عن الباقين .

وهكذا سار الإسلام فى إقرار حق الملكية للفرد وللجماعة ، فوضع التشريعات الخاصة بالملكية على أسس قويمة تستند على الحقوق المكفولة لكل من الفرد والمجتمع فى الانتفاع بنصيب من نعم الله التى أتاحها للإنسان فى الكوكب الذى يعيش عليه . . كما تستند هذه التشريعات فى أسسها أيضاً على الحرية التى جعلها الإسلام حقاً من الحقوق الطبيعية للإنسان . .

وحينما يكون الحق والحرية هما أساس البناء الاقتصادى فى المجتمع تنتفى عنه العيوب الخطرة وتتوارى بعيداً عنه . .

والملكية فى الإسلام ليست إلا استخلافاً . . وحق الله فيها أظهر من أن يحجبه ما أعطاه للإنسان من حق عليها . . . ولذا كانت الملكية بالنسبة للإنسان حقاً فى الانتفاع أكثر منها حقاً فى التملك . . . ولكن لما كان حق الإنسان فى الانتفاع – كما قرره الإسلام – حقاً مطلقاً : به يحوز

الشىء وبه يتصرف فيه تصرف المالك.. أمكن اعتباره - تجاوزاً - حقاً فى الملكية . . وقد أخذ القرآن بهذا الاعتبار أيضاً حين نسب المال إلى البشر ولم ينسبه إلى الله حيث يقول :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »
(البقرة ١٨٨)

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم »
(آل عمران ١٨٦)

« خذ من أموالهم صدقة »
(التوبة ١٠٣)

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »
(الذاريات ١١)

والقرآن الكريم أيضاً ينبه الناس فى كثير من المواضع على أن ما فى أيديهم من المال ليس إلا ملكاً خالصاً لله استخلفهم فيه إذ يقول :

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »
(النور ٣٣)

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »

(الحديد ٧)

والإسلام إذ قرر للإنسان حق الانتفاع بالمال وسماه على سبيل التجوز تملكا ربط وسائل هذا التملك بالحلال والحرام، فحلل طيبها وحرم خبيثها . . وأطيب وسائل كسب المال عمل الرجل بيده . .

وقد فرض الإسلام العمل وجعله واجباً تكليفيا . . فلا يجوز للقادر عليه أن يعيش كَلاًّ على الناس ويسألهم أن يطعموه . .

والإسلام حين أوجب العمل على كل مسلم قادر عليه . . جعله حقاً له لا يجوز لأحد أن يصده عنه أو ينكره عليه . . وأوجب أن يكون أجر العامل الأجير مساوياً لجهده ، وحقاً خالصاً له لا يجوز حجزه عنه أو انتقاصه فيه . .

وللعمل أنواع كثيرة ، بعضها يدوى وبعضها ذهنى ، ولكنها كلها من قبيل السعى الواجب فى سبيل الرزق . .

وقد حض الإسلام على هذا السعى وشجع عليه ، فأطلق حدود الكَمّ فيما يستطيع المسلم أن يحصل عليه من مال نتيجة لسعيه ، وأجاز له التمتع والانتفاع بهذا المال على أى وجه مشروع يريده ، وأجاز له التصرف فيه - وفى نطاق أحكام الشريعة وقوانينها - بالبيع أو الهبة أو الوصية . . أو بالتبرع والصدقة ، أو باستهلاكه

فى منافعه وشئونه الخاصة ، فإذا ما مات عن فضل منه انتقل هذا كله إرثاً إلى الأقربين الذين جعلت لهم الشريعة حق الميراث فيه . . .

فالسعى هو الوسيلة الأصلية للتملك ، وغيره من الوسائل المشروعة كالصدقة أو الهبة أو الوصية أو التبرع أو الإرث كلها وسائل فرعية .

وقد حرم الإسلام امتلاك المال عن طريق الظلم أو الغش وسائر أنواع الإضرار بالغير أو بالنفس ، فحرم الربا والقمار والاحتكار والنصب والسرقة والرشوة وكل ما كان من قبيل الظلم ... وحرم الختل والتغرير والنصب والاحتيال وكل ما كان من قبيل الغش والخداع . . وحرم أجر البغاء وثمن الخمر ومكسب التجارة مع العدو وكل ما كان فيه إضرار بالغير سواء أكان فرداً أو جماعة . .

وكما قدم الإسلام حق الجماعة فى ملكية المال قبل حق الفرد فيها فإنه اعتبر أيضاً مصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد فى وظيفة المال وأوجه استعماله وطرق استغلاله . . فالإسلام يجعل وظيفة المال وظيفة اجتماعية بحتة وليست فردية إلا بقدر حاجة المالك الضرورية لهذا المال ، وبالقدر الذى يَكفُّ عنه وعن أسرته الحاجة ويدفعها فى حدود الاعتدال بلا إسراف ولا تقتير . . قال تعالى :

« كلوا واشربوا ولا تسرفوا »

(الأعراف ٣١)

« كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه »

(طه ٨١)

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »

(الفرقان ٦٧)

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط »

(الإسراء ٢٩)

ومن أجل ذلك حرّم الإسلام الترف واعتبره سبباً للفسوق والإفساد قال تعالى :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها »

وعلماء الاقتصاد المعاصرون يعتبرون الترف من أخطر الآفات الاقتصادية والاجتماعية . . لأنه إما أن يكون نتيجة للثراء ، أو أنه يجعل الثراء ضرورياً ، فهو يفسد الأغنياء والفقراء على السواء ، يفسد الأولين بمزاولتهم له ، والثانين برغبتهم فيه ، كما أن الترف يبيع

المواطن وبالتالى يبيع الوطن للنعومة والحور والحيلاء . . وينتزع من الدولة كل مواطنيها ، إذ يجعلهم عبيداً لبعضهم البعض ، وكلهم عبيداً للأهواء والمطامع . .

ومن أجل ذلك حرم الإسلام أيضاً التبذير وأوجب على الجماعة الحجر على السفيه المبذر وكف يده عما يمتلكه من مال قال تعالى :

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما »

(النساء ٥)

كما حرم الإسلام اكتناز المال ، وعمل على عدم تكديس الثروات ، وعلى توزيعها واستمرار تداولها حتى تخدم أكبر قدر ممكن من المجتمع .. وقرر أوجه التكافل الاجتماعى على أوسع مدى وأتم صورة وأكمل منفعة ..

ووسع مجال الإرث فأشرك عدداً كبيراً من الورثة فى المال الموروث حتى تتسع دائرة الانتفاع فتشمل أكبر عدد من الأقرباء ، وبذلك تتوزع الثروة ولا تتكدس فى يد وارث واحد كما هو الحال فى كثير من القوانين المعاصرة . . وجعل مآل التركة التى لا وارث لها إلى بيت المال وهو بمثابة الخزانة العامة التى يمتلكها المجتمع ممثلا فى الدولة وحكومتها . .

وفضلا عن ذلك فقد فرض الإسلام حق الجماعة فى الملكية الفردية ، فأوجب الزكاة وأجاز للجماعة بواسطة ممثليها أن تضيف إلى الزكاة واجبات مالية أخرى تفرضها على الأموال وتجبيها لصالح الجماعة إذا اقتضت ذلك ضرورة اجتماعية أو مصلحة عامة . .

وجاءت التشريعات الاقتصادية فى الإسلام فجعلت التملك مبنيًّا على الإباحة وساوت فى هذا بين الجميع .. ولكنها استثنت من هذا المبدأ أموراً منعتها لأن فيها أضراراً أدبية أو مادية تحيق بالفرد وبالمجتمع على السواء كالخمر والخنزير والأنصاب فحرمتها ، أو لأن فى تملك الأفراد لها إضرار بالمجتمع كالماء والهواء فحرمت استئثار الأفراد بها ، وتركت ملكيتها على الشيوع ، وأعطت للمجتمع حق تنظيم كيفية الانتفاع بها . . وتطبيقاً لمبدأ المساواة منعت تفاوت الفرص فى التملك فلا تفاضل بسبب من الطبقة أو الجنس .. بل لكل على قدر سعيه واجتهاده الخاص .

ثم راعت هذه التشريعات المصلحة

المطلقة والخـــير المطلق يستوى فى ذلك الفرد والمجموع . . فحصرت وسائل الحصول على الملكية فيما لا يعود منه ضرر على المجموع . . فحرمت الربا والمقامرة والنهب واستغلال ضعف الآخرين ، وجعلت العلاقة بين العامل وصاحب العمل تقوم على أساس من المنفعة المتبادلة وعلى قدم المساواة فى الحق والكرامة . . وحاربت الجشع الغريزى فى نفس الإنسان فحرمت عليه أن يشق على نفسه ويهلكها ببذل ما فوق طاقته من جهد فى سبيل الحصول على المزيد من الثروة ، وحددت كيفية الاستمتاع بالمال ، فحرمت اكتنازه واحتكاره واتخاذه وسيلة لإيذاء الغير أو التنكيل بهم أو التحكم فيهم ، كما منعت الاستهتار بالمال والتبذير فيه .

ثم راعت هذه التشريعات حق الجماعة فى مال الفرد ففرضت فيه نفقة الأقارب والزكاة ونفقات الدولة ، وأعطت للجماعة حق الحد من الملكية الفردية أو انتزاعها كلها ، فى إطار ما تقتضيه المصلحة العامة نظير تعويض مادى مجز لصاحبها . . ومنعت تضخم الثروات فوزعتها بالميراث ، واعتبرت الفقر رذيلة يجب درؤها بكل الوسائل . . فحثت على التخلص منه بالسعى والعمل، وجعلت العمل واجباً قبل أن يكون حقاً ، فيجوز للحاكم أن يجبر عليه من يكون ضرورياً له وهو قادر عليه ، وسنت التزامات التكافل الاجتماعى ، واستعانت بالقوة الروحية فى الدين وبكل ما فيه من مثل ومبادئ أخلاقية . . فنوهت بالبر ، وأشادت بالتعاون ، ودعت إليهما ، وضاعفت لهما الثواب والبركة ، وبذلت فى هذا الصدد كل جهد يمكن أن يبذل ، وسلكت كل سبيل يمكن أن يطرق ، حتى جعلت للقيم الروحية والمبادئ الأخلاقية الفضل والسيطرة على المادية والمتاع الدنيوى .

« قل إن متاع الدنيا قليل »

(الآية)

ومن هذا يتضح أن الإسلام قد قد عالج المشاكل الإنسانية معالجة حكيمة حصيفة.. فلم يدع للحرية الفردية أن تطغى على مصلحة المجتمع ، كما لم يترك لسيطرة المجتمع أن تحد من حرية الفرد وكرامته . وهو فى نفس الوقت لم يتخل عن تحقيق العدالة والمساواة . .

والكيفية التى حقق بها الإسلام كل هذا النجاح فى حل القضايا الإنسانية يجب أن تظل على الدوام محل عناية واهتمام الباحثين يستكنهون خفاياها ،

ويستخرجون كنوزها ، ويكشفون عن كل ذلك .. فيقدِّمون أجلَّ خدمة للعالم المعاصر الذى ناءت الجهود البشرية عن أن تقدم حلولا صحيحة لمشاكله المعقدة ، فوقع الناس جميعاً فيه ضحايا لمذاهب وأفكار فجة عاجزة ، وبدلا من أن يحققوا لأنفسهم قدراً — ولو ضئيلا — من السلام والاستقرار والسعادة . . وانقسم الشطر الأكبر من سكان هذا العالم إلى معسكرين اخترع كل منهما لنفسه طريقة للحكم ، ونظاماً اجتماعيًّا ونهجاً اقتصاديًّا خاصًّا به ، وظن كل فريق أن ابتكاراته كفيلة أن تصل به إلى النجاح والسعادة ، وادعى كل منهما لنفسه حق القوامة على الآخر فتغاضيًّا عن إمكانية التعايش وراحا يتنابذان بل يتناحران باسم الديمقراطية وباسم الحرية وباسم العدالة وباسم المساواة .

وفى الحقيقة أن كلاًّ من هذين النظامين قد خلا من الديمقراطية الحقّة ومن الحرية الحقّة ومن العدالة الحقّة ومن المساواة الحقّة ، بل فى كليهما ضاعت كرامة الإنسان وأهدرت حريته وتعطلت حقوقه ..

وليس فى هذا الضجيج إلا الشعارات الجوفاء والألفاظ التى فقدت مدلولاتها الصحيحة . .

وفى وسط هذا كله يوشك هذا التناحر المذهبى الذى يدور على شكل حرب باردة — أن يتطور إلى حرب ساخنة فى عصر بلغ فيه العلم تقدماً كبيراً فى السيطرة على قوى الطبيعة الهائلة .. ومنح كلا من المعسكرين طاقات ضخمة جبارة ، ومضى كل معسكر يستغل هذه القوى الهائلة والطاقات الجبارة فى تهديد الآخر ، بل وكرّس كل جهوده فى الاستعداد لتدمير منافسه وإفنائه . . بدلا من الاستعانة بها على توفير الرخاء والهناء للشعوب المضناة المكدودة القلقة المرتاعة . .

وهذه القوى الهائلة الجبارة وقد استُغِلَّت على هذا النحو السيئ أصبحت خطراً رهيباً مفزعاً ، لأنها جديرة بإهلاك العالم وفناء الحياة من فوق سطح الكرة الأرضية كلها . .

وعلى هذا الخطر المدلهِمِّ المترقب يقف سكان العالم بأجمعه وأبصارهم زائغة وأعصابهم مشدودة . . يترقبون الهلاك ، ويتوقعون الفناء والدمار فى كل لحظة وفى كل آونة . .

ولم تصل الأمور بهذا العالم إلى هذه الخطورة المرعبة إلا لأن كلا من النظامين المتناحرين قد نشأ فاسداً ، وقام على اعتبارات ناقصة غير كاملة ،

وانتهج أساليبَ خاطئة فعجز كلٌّ منهما عن أن يحقق خيراً للبشرية أو يعالج مشكلة من مشاكلها، أو أن يكون عاصماً دون الشر والقسوة . .

ولقد بدأت الرأسمالية كفكرة مثالية أراد بها دعاة الإصلاح الاجتماعى فى أوربا أن يخلِّصوا شعوب القارة من إقطاع القرون الوسطى الذى أهدر حرية الإنسان وكرامته إهدارا كُلِّيًّا.. حيث كان الناس آنذاك عبيداً يعملون بلا أجر فى مزارع الإقطاعيين . . وكانت الكنيسة تمالئ هذا الإقطاع ضماناً لمصالحها . . وتضفى عليه تأييداً دينيًّا..

ووسط هذا الظلام الحالك الذى ران على أوربا عبر القرون الطويلة . . كانت تبدو بين الحين والحين كالبرق الواهن لمعات من الأفكار الحرة التى تتضمن مبادئ إصلاحية تحررية . . وهذه وإن كانت جهوداً فردية فجَّة عديمة الجدوى لكنها لم تتوقف . . ولم تستطع المقاومة العنيفة التى كان يبديها الإقطاعيون وكرادلة الكنيسة أن تقضى عليها أو تئدها . . بل ظل المشْعَل ينتقل من يدٍ فدائيةٍ إلى أخرى خلال الأجيال والقرون .. حتى استطاع فى عصر النهضة أن يكون له آثاره الإصلاحية المجدية . .

ومن هؤلاء الفدائيين الذين جهروا بآرائهم الإصلاحية، وجابهوا بها أمراء الإقطاع ذوى القوة والجبروت والطغيان، ورجال الدين ذوى النفوذ والدهاء متجولد Mitgold وهو داعية بابوى تنكب الطريق المرسوم له من قبل الكنيسة، وبشر بآرائه الحرة فى حوالى سنة ١٠٨٠ م . . ثم القديس توما الإكوينى (حوالى سنة ١٢٥٠) . . وقد كتب اللورد آكتون يقول: «إن القديس توما الإكوينى لديه قدر كبير جداً من التحررية السياسية» . . ثم قام هوكر Huker ليعلن أن إنسان أوربا قد آن له أن يسترد حريته..

وجاء الفيلسوف الإنجليزى لوك Locke وكان عبير الثقافة قد بدأ يُعطِّر جوَّ أوربا وخلق ظروفاً مناسبة لنجاح الحركات الإصلاحية، وانتشار مبادئها، وذيوع أفكارها . . وقد أقبل الشعب البريطانى فى هذا الوقت المبكِّر على قراءة مقالات لوك وسماع محاضراته، لأنها تميَّزت بالمهارة فى عرض الأفكار والمبادئ التحررية المعقدة فى أسلوب بسيط يسهل تناوله على الناس العاديين.. ووضع لوك الأسس الرئيسية للعقد الاجتماعى Sociol Contraet

«تلك الأسس التى قام روسسو

Rousseau وهيوم Hume فيما بعد بتفصيلها وبسطها .

ولقد غلبت نسبة هذا العقد الاجتماعى إلى روسسو لأنه أولا : كان أديباً يملك ناصية التعبير أكثر مما كان فيلسوفاً يملك زمام الفكر ، فاستطاع أن يصوغ الأفكار والمبادئ بأسلوب رشيق جذب إليها عقول الناس وحببها إلى نفوسهم ، فازدادوا اقتناعاً بها واستعداداً للتضحية فى النضال من أجلها . . ولأنه ثانياً كان يكتب باللغة الفرنسية التى كانت فى هذا الوقت أكثر اللغات الأوربية انتشاراً وأشدها تأثيراً وأدقها تعبيراً وأقواها على الإقناع . . ومن أجل ذلك عرف الناس العقد الاجتماعى من خلال روسسو الذى لم يكن مجرد مترجم لأفكار غيره وإنما كانت له فيه ابتكاراته الخاصة –بصورة أشمل وأعم– وبقدر لم يتح لشريكيه لوك وهيوم . .

ويتحدث لوك عن الملكية فى الفصل الخامس من رسالته الثانية التى ضمنها طرقاً للإصلاح الاجتماعى والحكم فيقول :

« إنه من الجلى أن الله – كما يقول داود الملك فى المزمور ١١٥ – قد أعطى الأرض لبنى آدم ومنحها للجنس البشرى مشاعاً . . وعلى الرغم من أن الأرض وجميع المخلوقات الدنيا مشاع بين الناس جميعاً ، فإن كل شخص يملك شيئاً فى شخصه كجسمه وعمل يديه ، فأى شىء أخرجه المرء عن الحالة التى وجد عليها فى الطبيعة يصبح ملكاً لهذا الإنسان ، لأنه قد خلط عمله بإنتاج الطبيعة ، وأضاف إلى إنتاج الطبيعة شيئاً جديداً من عنده هو ، فاستحق أن يتملكه بحق . .

والطبيعة قد حددت وضع الملكية تماماً بمدى ما يبذله الناس من عمل وبمطالب الحياة ، فلا يستطيع إنسان أن يخضع بعمله كل شىء ، أو يأخذ كل شىء لنفسه ، كما أن حاجته لا يمكن أن تستهلك سوى جزء بسيط ، وبهذه الطريقة كان من المستحيل على أى شخص أن يعتدى على حق لغيره» ، وهكذا كفل العمل فى بداية الأمر الحق فى الملكية حيثما شاء أى إنسان أن يستخدمه فى الأشياء التى كانت مشاعاً . .

وبهذه الصيحات التى أطلقها لوك ومن بعده هيوم وروسسو تحددت الأسس التى قام عليها النظام الرأسمالى ، وهى تتلخص فى حرية الفرد فى أن يتملك كل ما يستطيع تملكه عن طريق استغلال قدراته وجهوده ومواهبه ، وأنه لا يحق للكنيسة ولا للدولة ولا للمجتمع أن يقوم فى وجه سعى المرء للارتقاء والانتفاع . .

وأنه ينبغى لحرية الفرد أن تنطلق إلى آماد غير محدودة فى كل شعبة من شعب الحياة وفى كل طريق من طرق العمل ، وأن تطلق من كل قيد من القيود الرسمية والدينية . .

ولا شك فى أن هذا الكلام كان يبدو جميلا براقاً فى أعين هؤلاء المستعبدين الذين كانوا يباعون مع الأرض التى يفلحونها ، ويحصد خيراتها السيد الإقطاعى . . فما أسعد أن يتحرر العبد ، وأن يملك نتاج جهد وعمل يديه . . ولكن ما إن دخلت الرأسمالية فى دور التطبيـــــق حتى سرعان ما تكدست الثروات فى يد من هم أقدر من غيرهم على التحرر من سلطان الضمير والأخلاق . . وراح هؤلاء يكوِّنون إقطاعاً جديداً يتحكم فى رقاب الناس عن طريق الحاجة إلى لقمة العيش وضرورات الحياة . . حتى هذه اللقمة التى كان يضمنها إقطاعيو القرون الوسطى لعبيدهم أصبحت فى ظل النظام الرأسمالى غير مضمونة ، بل غير ميسورة . . وأصبحت الحريات فى ظل هذا النظام شيئاً لا معنى له . . أو شيئاً يسمع عنه الناس ويبحثون عنه فلا يجدونه حتى ولو استعانوا بكل ما حوته مجلدات الدساتير وكتب القانون من تشريعات . . هى فى الحقيقة لاتفيد إلا الذين يملكون المال ، ولاتساعد أبداً أى واحد من المعدمين . .

ولم يمض طويل وقت حتى اتضح فشل الرأسمالية فى حل المشكلة الإنسانية.. بل إنها زادت الطين بلة . . بأن حررت الناس من روح الدين ، وأبعدتهم عن الفضيلة ، وقتلت فى نفوسهم مثالية الأخلاق ، وقذفت بهم إلى حمأة المادية الجشعة . . . فلم يجدوا فيها أى خير بل وجدوا فيها الرذيلة والبؤس واليأس . .

وفى منتصف القرن التاسع عشر قام داعية نشيط يعلن أنه قد ابتكر علاجاً يخلص الناس من جحيم الرأسمالية ويحقق لهم الرفاهية والخير فى عدل وفى مساواة .. وكان هذا الداعية هو كارل ماركس وكان العلاج الذى ابتكره هو الشيوعية .

وقامت الشيوعية على أساس النظريات التى قامت عليها الرأسمالية وهى تساوى حقوق الناس فى موارد الطبيعة المشاعة.. ولكن الشيوعية خالفت الرأسمالية فى التطبيق ، فقد انتحت جانب ثبوت الحق دون الحرية فيه . . فأنكرت حرية التملك ، بل منعت مجرد الملكية الفردية . . وتركت كل الموارد على شيوعها ، ليستغلها المجتمع كله تحت إشراف حكومة يجب أن تقوم عليه

ثم توزع المنافع على الجميع . .

وفى ظروف الأزمة العصيبة التى خلقتها الرأسمالية فى العالم ، وجدت هذه الأفكار الجديدة من يستمع إليها ، بل من يتعصب لها ويتحمل المشاق فى سبيل نشرها والدعوة لها ، من أمثال أنجلز ولينين الذى أتاحت له الثورة الشعبية فى روسيا ضد القيصر ونظامه الفاسد سنة ١٩١٧ قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى فرصة تجربة هذا العقار الجديد فى مساحة شاسعة وشعب كبير . . هى مساحة روسيا كلها وشعب روسيا بأكمله . . ولكن لشد ما كانت تفاهة هذا العقار وفساده.. ولشد ما كانت فداحة التجربة وقسوتها..

وسرعان ما أسفرت هذه التجربة عن دكتاتورية عنيفة قتلت فى نفس كل فرد كل أمل وكل رغبة فى الطموح ، وكل قدرة على تحمل أى قدر من المسئولية ، وحرمته كل حق فى الحرية أو الاختيار ، وأفقدته كل قدرة على التمييز ، وجعلت من الناس قطعاناً تصنف وتساق وتوجه ، ولا تجد فى النهاية إلا القليل الردئ السيئ من المرعى . .

فالرأسمالية قد فشلت لأنها اعتبرت حق الناس فى الحرية ولم تهتم بتحقيق العدالة.. والشيوعية قد فشلت لأنها راعت جانب المساواة فى الحق والعدالة فيه ، وأنكرت الحرية وأهدرت الكرامة . . وكلاهما قد جانبت الصواب حين قبعت فى نطاق المادية ، وابتعدت عن الاعتبارات الروحية والمثل الأخلاقية .. وحين اقتصرت فى علاجها للأدواء الإنسانية فى الجوانب السطحية وعلى نطاق جزئى . .

أما الإسلام فإنه أخذ فى اعتباره جميع المشاكل الإنسانية برمتها ، وتعمق فيها من جميع جوانبها وأنحائها ، واعتبر فيها الإنسان من حيث ضرورته الروحية وحاجاته المادية وأحواله المتباينة... اعتبره فرداً وجماعة.. واعتبره قوياً وضعيفاً .. واعتبره حاكماً ومحكوماً . . واعتبره غنياً وفقيراً . . واعتبره جسماً وروحاً ، واعتبره عقلا وغريزة ، أخذ فيه بجميع الاعتبارات والاحتمالات ، ثم خرج بالعلاج الصحيح عاماً وشاملا ، وبالدواء الناجع كُلاً مُتَكَامِلاً .. وما أشد الفرق بين دواء تفضل به الله ، وبين دواء هو من إعداد نفر من البشر من أمثال لوك وروسسو وهيوم وماركس وأنجلز ولينين.

زاهر عزب الزغبى

القرآن والأحرف السبعة
النهى عن المراء فى القرآن

دكتور / رءوف شلبى

نماذج النوع الرابع :

أحاديث ناهية عن المراء فى القرآن :

١ ــ فى تفسير الطبرى :

إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر[1] . . . اهـ .

٢ ــ أنزل القرآن على سبعة أحرف فالمراء فى القرآن كفر ــ ثلاث مرات ــ فما عرفتم منه فاعلموا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه[2] . . . اهـ

٣ ــ اختلف رجلان فى سورة فقال هذا : أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم، وقال هذا أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبر بذلك قال : فتغير وجهه وعنده رجل فقال :

اقرءوا كما علمتم فإنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم على أنبيائهم[3] .

٤ ــ قال عبد الله بن مسعود تمارينا فى سورة من القرآن فقلنا خمس وثلاثون أو ست وثلاثون آية . قال : فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدنا عليا يناجيه قال : فقلنا : إنا اختلفنا فى القراءة قال : فاحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم بينهم قال : ثم أسر إلى على شيئاً فقال لنا علىّ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تقرءوا كما علمتم[4] .

٥ ــ عن شقيق قال : قال عبدالله : إنى قد سمعت القراء فوجدتهم متقاربين فاقرءوا كما علمتم وإياكم والتنطع فإنما

---

(١) الطبرى جا ص ١٩ .

(٢) تفسير الطبرى جا ص ١ .

(٣) الطبرى جا ص ١٢ .

(٤) الطبرى جـ ١ ص ١٢ .

هو كقول أحدكم هلم وتعال[1] .

هذه الأحاديث والآثار تقصى القرآن الكريم عن معركة الجدل وتيسره لكل لسان وقوم وجنس .

نماذج النوع الخامس :

أحاديث تدل على تيسير قراءة القرآن للناس كافة

١ — إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه ج ١ ص ١٣ الطبرى .

٢ — إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة ج ١ ص ١٣ الطبرى .

٣ — أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف ج ١ ص ١٣ ، ١٩ .

٤ — نزل القرآن على سبعة أحرف فما قرأت أصبت ج ١ ص ١٤ ، ١٥ الطبرى .

٥ — إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف فقلت اللهم رب خفف عن أمتى قال اقرأه على حرفين . . . فأمرنى أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب من الجنة كلها شاف كاف ط ص ١٦ ، ٢٠ الطبرى .

٦ — إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ولا حرج ، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة . ج ١ ص١٩ الطبرى.

٧ — قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ليقرأ كل إنسان كما علم ، كل حسن جميل ج ١ ص ١٣ الطبرى .

* من هذه النماذج ندرك أنه لا يمكن تحديد الحروف السبعة وليست واحدة مما ذكر من الاختلاف فى : القراءة ، واللغة ، والوجوه بالمراد من الحروف السبعة لا هى منفردة ولا هى مجتمعة .

* كذلك من النماذج السالفة ندرك أن طرح موضوع الحروف السبعة لإدراك صدقها فى مجال البحث العقلى الصرف مراء ممنوع منه الخلصاء الذين لهم إيمان صاف ، وذاتية إسلامية لا تأبه بالعلمانية الاستشراقية الغربية التى تريد أن تميع الذاتية الإسلامية فى البحث العلمى حتى يتخلص المسلمون من أخص خصائصهم . . وأنهم البانون حضارة الإنسان بمنهج الذاتية الإسلامية التى تعبد كل شىء لله رب العالمين .

* ومع هذا نجد فى النماذج السالفة كذلك حث وتيسير لمن شاء أن يقرأ

---

(١) الطبرى ط ص ٢٢ .

القرآن كما تعلم من شيخه دون خروج على ما تعلم .

قال ابن حجر : «وحاصل ما ذهب إليه هؤلاء أن معنى قوله — عليه الصلاة والسلام — أنزل القرآن على سبعة أحرف أى نزل موسعاً على القارئ أن يقرأه بأى حرف منها وذلك لتسهيل قراءته[1] .

* وليس معنى أن يقرأ الإنسان حسب هواه بغير علم . .

قال ابن حجر : إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهى :

أى أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته بل المراعى فى ذلك السماع من النبى صلى الله عليه وسلم ويشير إلى ذلك — يعنى إلى فهم ابن حجر — قول كل من عمر وهشام فى حديث الباب — يعنى المروى فى البخارى ، أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم[2] اهـ .

وعلى هذا فإنه لا ينبغى أن نمارى فى تحديد المراد من الحروف السبعة حتى لا ننقل العمل بالقرآن من الجو الإسلامى البنائى التطبيقى إلى مدرجات وقاعات المحاضرات والبحث دون أن ينفذ القرآن كإمام وهاد وصديق وأنيس فى جميع مجالات الحياة وذلك ما كان يحرص عليه النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة المهديين بنور إرشاده وبركاته.

ثالثاً — استعمال الحرف فى الأسلوب العربى :

وهل يمكن استعماله اللغوى من مساعدة تحديد المراد من الحروف السبعة ؟

أولا — قال فى لسان العرب :

الحرف يطلق على حرف التهجى : أ — ب — ت وعلى ما يقابل الفعل والاسم فى تقسيم الكلمة إلى :

اسم وفعل وحرف .

ويمكن إطلاق الحرف على اللغة ، وعلى الناقة الضامرة ، وكل كلمة تقرأ على وجه من الوجوه تسمى حرفاً .

وفى القاموس المحيط : الحرف من كل شىء طرفه وواحد حروف التهجى وعند النحاة ما جاء لمعنى ليس باسم ولا بفعل ، ومن الناس من يعبد الله على حرف أى وجه واحد ..

ثانياً — قال فى أساس البلاغة: ومن المجاز : هو على حرف من أمره : أى على طرف كالذى فى العسكر إن رأى غلبة استقر وإن رأى ميلة فر ،

---

(١) فتح البارى ط ص ٤٠٤ .

(٢) فتح البارى ط ص ٤٠٢ .

وناقة حرف شبيهة بحرف السيف فى هزالها .

وعلى هذا فالحرف يستعمل فى الحقيقة وفى المجاز .

* فهو حقيقة : فى حرف التهجى : أ – ب – ت .

وفى الحرف المقابل للاسم والفعل ، وفى طرف كل شىء . .

* وهو مجاز : فى الناقة الضامرة ، وموقف الرجل المتأرجح وهو الوجه الخاص فى تصرف من التصرفات .

وبعد :

أفلا يجعلنا ذلك الاشتراك أن نقول بأن المراد من الحروف السبعة هنا المفهوم الكنائى المجازى لا الحقيقى ؟

إن الإمامين حجر يقول : ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة الآحاد .

كما يطلق السبعين فى العشرات والسبعمائة فى المئين ولا يراد العدد المعين .

وإلى هذا جنح الإمام عياض صاحب كتاب الشفاء وهذا هو ما ينبغى أن يستقر عليه الأمر ودليل ذلك :

أولاً – أن تفسير الحرف بمعناه الكنائى المجازى يدفع عرض الموضوع فى مجال الجدل – والمناقشة وذلك مراء ممنوع منه الفرد المسلم : لا تماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر .

* اقرءوا القرآن ما أتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فيه فقوموا . .

* كلاهما حسن .

* أى ذلك قرأتم أصبتم .

وتلك كلها توجيهات نبوية تنضم إلى النص القرآنى . .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » . .

قال ابن كثير فى تفسيرها : سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ج ٤ ص ٢٦٤ .

ثانياً – يُقَوِّى أن المراد بالعدد هنا المعنى المجازى ذكره فى وحدة المائة بلفظ سبعين :

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .
(٨٠ – التوبة)

فإن المراد من العدد هنا كثرة الاستغفار وقد اتفق فى العربية على أن العدد إذا ذكر سليماً من الكسور كان مراداً به المعنى المجازى مثل : سبعة وسبعين وسبعمائة .

أما إذا كان العدد فيه كسور مثل: الرؤيا الصادقة جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة «كان العدد» ست وأربعين هنا مقصوداً .. فقد اتفق العلماء أن مدة الرؤيا الصادقة ستة أشهر والنبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد النبوة ثلاثة وعشرين عاماً فتكون ستة أشهر جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة لأن العام فيه اثنا عشر شهراً ونصفها ستة .

وعلى هذا فالاستعمال العربى والقرآنى معاً يقويان وجهة نظر أن المراد من الحروف السبعة المعنى المجازى .

ثالثاً — التعبير النبوى نفسه كاف بحل الإشكال فقد أنزل القرآن على سبعة أحرف ولم ينزل بسبعة أحرف ، ومعنى على يفيد الشرط كأنه نزل مشروطاً بالتسهيل والتيسير .

يقول فضيلة الشيخ الزرقانى : كأنه قال :

أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة .

وإذن فالسبعة أنزل عليها ولم ينزل القرآن بها لقد نزل كما شاء الله . ميسراً سهلا ونزل على هذه السهولة واليسر .

« وأى ذلك قرأتم أصبتم »

والمهم أن يتدارس المسلمون القرآن على حرف يسر الله لهم ما دام ذلك عن شيخ مجود للقرآن مأمون الخلق والعلم والسلوك . .

رابعاً :

ارتباط الأحرف السبعة برأفة النبى صلى الله عليه وسلم وعالمية الدعوة الإسلامية :

١ — الدعوة الإسلامية دعوة عالمية للإنسان على وجه الأرض مهما اختلفت لغته وجنسيته ووطنه ، والقرآن الكريم هو النبع الصافى الذى يستقى منه البشر جميعاً مبادئ الإسلام ، ومن خصائص هذا القرآن أن الله يسره للذكر : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » . وهذا التيسير مباح لجميع البشر . . . ونموذج هذا التيسير واضح فى شعب جنوب شرقى آسيا . . ذلكم الشعب الطيب الذى يقرأ القرآن بيسر وسهولة وخشوع دون أن يعرف للعربية نحواً أو صرفاً .

٢ — وقد شاء الله تعالى أن تتحمل خصائص القرآن الكريم عالميته للناس جميعاً . . . والنبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى لا ينطق عن الهوى أبداً . . يدرك خصائص القرآن ويسره على لسان المسلم فى كل وطن . ومن هنا

فقد شاء الله تعالى أن يمنح أمته فى كل جزء من الأرض مندوحة القراءة مع اليسر والتسهيل .

٣ — وقد روى الطبرى بسنده قال : سمعت عبدا لله بن عمر عن سيار أبى الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . . ذكر : أن رجلين اختصما ، فى آية من القرآن ، وكل يزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم أقرأه فتقارءا إلى أبى ، فخالفهما أبى فتقارءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبى الله اختلفنا فى آية من القرآن وكلنا يزعم أنك اقرأته ، فقال لأحدهما : اقرأ ، قال : فقرأ ، فقال : « أصبت » ، وقال للآخر : اقرأ فقرأ خلاف ما قرأ صاحبه فقال : « أصبت» ، وقال لأبى : اقرأ فقرأ ،فخالفهما ، فقال: « أصبت» قال أبى : فدخلنى من الشك فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دخل لى من أمر الجاهلية ، قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فى فى وجهى ، فرفع يده فضرب صدرى ، وقال : « استعذ بالله من الشيطان الرجيم» ، قال: فنضضت عرقاً ، وكأنى أنظر إلى الله فرقاً وقال :

إنه أتانى آت من ربى فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : رب خفف عن أمتى ، قال : ثم جاء فقال : إن ربك يأمرك أن تقر القرآن على حرف واحد ، فقلت : رب خفف عن أمتى قال: ثم جاء الثالثة : فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : رب خفف عن أمتى قال : ثم جاءنى الرابعة فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة مسألة : قال : قلت : رب اغفر لأمتى ، رب اغفر لأمتى ، واختبأت الثالثة شفاعة لأمتى ، حتى إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم خليل الرحمن ليرغب فيها[1] .

٤ — ومن حديث أبَىّ بن كعب قال :

أتى النبى صلى الله عليه وسلم جبريل وهو لدى بنى غفار ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف واحد ، قال : فقال : اسأل الله مغفرته ومعافاته — أو قال : معافاته ومغفرته — سل الله لهم التخفيف فإنهم لا يطيقون ذلك ، فانطلق ثم رجع فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ، قال : اسأل الله مغفرته ومعافاته — أو قال :

(١) الطبرى جـ١ ص ١٨ .

معافاته ومغفرته – إنهم لا يطيقون ذلك فسل الله لهم التخفيف ، فانطلق ثم رجع فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . فقال : اسأل الله مغفرته ومعافاته – أو قال: معافاته ومغفرته – سل الله لهم التخفيف فانطلق ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فمن قرأ منها بحرف فهو كما قرأ(١) .

وواضح من هذه النصوص أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى أن ييسر تلاوة القرآن للأمة الإسلامية فى كل صقع من أصقاع الأرض .

ولقد يسره الله على القلوب والآذان فقد قص بعض الإخوان أنهم وهم فى سفرهم إلى أمريكا على باخرة استأذنوا الربان فى إقامة صلاة الجمعة وكان مظهراً فريداً فى عالم الرحلات البحرية أن تتجمع جماعة إسلامية فوق ظهر باخرة فى وسط المحيط ثم يأخذون فى تأدية شعائر صلاة الجمعة ، والتف الناس حولهم يستمعون للخطبة . . وبعد الصلاة تقدمت سيدة غير مسلمة ولا تعرف العربية أبداً ولا زارت بلاد العرب مطلقاً وقالت للخطيب : كان يتخلل حديثك كلام تقشعر منه نفسى وتستجيب له عواطفى ، كنت أحس أن نوراً ينقذف فى قلبى ، فما هذا الذى كنت تقوله وسط كلامك ؟ . . فقال لها الأخ المسلم الكريم سيد قطب – رحمه الله – وهو الخطيب فى هذه الحادثة : إنه القرآن الكريم .

هكذا يسر الله القرآن للذكر والتذكر . . وتلك واحدة من خصائص القرآن وعالميته ، وواحدة من بركات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولهذا فإن الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن الكريم هى تلك السهولة والتيسر الذى امتاز به القرآن الكريم على اللسان والقلب والمشاعر ، يدور الزمن ويطول العمر ليلقى ظلالا على مفهوم نزل القرآن على سبعة أحرف بعيداً عن التشاكس والعراك المذهبى والكلامى . ليعلم المسلمون أن الله قد يسر لهم أمر دينهم وأفسح لهم فى رخصة واسعة تلاوة كتابه العزيز .

وفى المحيط الإسلامى : نجد إخواننا المسلمين هنا . . وخاصة الناس فى القرى على اتصال دائم بتلاوة القرآن الكريم دون دراية لهم بالنحو والصرف . ودون تعلم اللغة العربية ، وهم يخشعون

(١) الطبرى جـ١ ص ٢٠ .

فى القراءة كأنما المعانى تتسرب إلى قلوبهم نوراً وضيئاً . . . وتلك هى واحدة من تيسر القرآن للذكر . . وهى من نفحات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأفته بأمته وعالمية دعوته .

خامساً :

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف

١ – روى الإمام الترمذى عن أبى ابن كعب قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المروة قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : « إنى بعثت إلى أمة أمين ، فيهم الشيخ الفانى ، والعجوز الكبير ، والغلام ، قال : فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف » قال الترمذى حسن صحيح .

فالحكمة هنا كما وضحناها سالفاً هى الرأفة التى قصدها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتوسعة التى أرادها لأمته فى قراءة القرآن .

٢ – بيان حكم من أحكام الشريعة ، ففى قوله تعالى :

• « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس » فى قراءة سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه « وله أخ أو أخت من أم » بزيادة (من أم) فتبين بهذه الزيادة أن المراد من الأخوة فى هذا الحكم الأخوة لأم دون الأشقاء ومن كانوا لأب وهو أمر مجمع عليه .

• ومثال ذلك أيضاً :

« فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » هناك قراءة (رقبة مؤمنة) بزيادة (مؤمنة) فتبين بهذا الشرط أن الرقيق الذى يكون كفارة لا بد وأن يكون مؤمناً . . . وذلك واحد من أساليب الإسلام للقضاء على الرقيق بأسلوب القرآن الخاص فى سياسته الشرعية للتغلب على المشاكل الاجتماعية دون حدوث مضاعفات فيما بعد .

• ومثال ذلك أيضاً :

« فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » هناك قراءة بتشديد الطاء (يطهرن) فعلى الأولى يفيد انتهاء فترة انتهاء فترة الانعزال بمجرد انتهاء فترة الحيض ، وعلى الثانى يفيد أن انتهاء فترة الانعزال مشروطة

بالطهارة والاستحمام من الحيض فلا بد من الاغتسال .

٣ ــ للدلالة على حكمين شرعيين :

« فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » .

قرئ (وأرجلكم) بنصب اللام عطفاً على وجوهكم وأيديكم وهذا فى حالة الوضوء عند عدم الحاجة .

وقرئ (وأرجلكم) بكسر اللام وذلك عند الضرورة والمسح على الخفين .

فأفادت القراءتان حكمان شرعيان فى حالتين مختلفتين .

٤ ــ رفع توهم ما ليس مراداً :

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » .

قرئ (فامضوا) فعلى الأول يمكن أن يفهم أن المراد الجرى والسرعة فى المشى عند سماع آذان الجمعة ، وعلى الثانى أفاد أن المراد هو حضور الجمعة مطلقاً فرفعت ما يمكن أن يتوهمه القارئ فى القراءة الأولى .

٥ ــ تفسير كلمة غريبة :

« وتكون الجبال كالعهن المنفوش » .

قرئ كالصوف المنفوش ، **فوضحت** القراءة الثانية معنى العهن **وأنه مراد** به الصوف .

وتلك واحدة من الحروف السبعة التى يسر الله بها للأمة الإسلامية **قراءة** وتدبير كتاب الله الكريم .

سادساً :

آراء العلماء فى الحروف السبعة :

وبعد ما قدمته من عرض **قائم على** أساس الذاتية الإسلامية ، **فإنه دون** بأس لا أجد مانعاً أن نقف على ما ارتآه علماؤنا الأجلاء من **معان** للحروف السبعة .

وفى مقدمة هؤلاء العلماء :

١ ــ ابن قتيبة .
٢ ــ أبو الفضل الرازى .
٣ ــ القاضى ابن الطيب .
٤ ــ ابن الجوزى .

وقبل أن أعرض آراءهم أحب أن أذكر أنهم جميعاً متفقون على أن الاختلاف المراد هنا هو **اختلاف** التضاد وليس اختلاف التغاير ، **لأنه** لا يمكن أن يكون الشىء دائراً بين شيئين متغايرين ، مع صحة كل منهما كالحل والحرمة ، **فإن ذلك**

لا يقع إلا فى التغاير وهو خاص بالناسخ والمنسوخ وقد مر أنه قيل :

« لا تختلف فى حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى »[١] .

قال الإمام الطبرى :

ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك لكان مستحيلا أن يصوب جميعهم ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته فى ذلك على النحو الذى هو عليه[٢] .

لهذا فإن الاختلاف المراد هو اختلاف التضاد :

أولاً — رأى ابن قتيبة :

١ — اختلاف فى حركة الكلمة من غير أن تتغير الصورة ولا المعنى مثل : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » — قرئ ولا يضار بفتح الواء دون تشديد .

٢ — اختلاف فى حركة بناء الكلمة من غير أن تتغير الصورة ولكن بتغير المعنى مثل :

«ربنا بَاعِدْ بين أسفارنا» (١٩سبأ).

— قرئ : بَاعَدَ على صيغة الفعل الماضى .

٣ — اختلاف فى حروف الكلمة دون تغير فى الصورة والإعراب وبتغير المعنى مثل :

« وانظر إلى العظام كيف ننشزها » (٢٥٩ البقرة) قرئ ننشرها فاختلف المعنى مع حروف الكلمة دون الصورة والإعراب .

٤ — اختلاف فى صورة الكلمة دون المعنى مثل :

« إن كانت إلا صيحة واحدة » (٢٩ يس) قرئ زقية .

٥ — اختلاف فى الصورة والمعنى مثل :

قرئ (وطلع) — وطلح .

٦ — اختلاف بالتقديم والتأخير مثل :

« وجاءت سكرة الموت بالحق (١٩ق) قرئ : وجاءت سكرة الحق بالموت .

٧ — اختلاف بالزيادة والنقص مع اتحاد المعنى مثل :

« وما عملت أيديهم» (٣٥ يس) — قرئ : وما عملته أيديهم .

ثانياً — رأى أبى الفضل الرازى :

١ — اختلاف الأسماء : إفراداً وتثنية وجمعاً مثل :

---

(١) الطبرى جـ١ ص ٢٣ .

(٢) الطبرى جـ١ ص ٢١/٢١ .

«والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون»
— قرئ : لأمانتهم — بالأفراد .

٢ — اختلاف الأفعال : ماضى — مضارع ، أمر ، مثل :

« ربنا بَاعِدْ بين أسفارنا » — قرئ : ربنا بَاعَدَ — على أنه مبتدأ .

٣ — اختلاف وجوه الإعراب — مثل :

« ولا يضارّ كاتب ولا شهيد » — قرئ : ولا يضار — بالرفع على أن لا نافية فالفعل مرفوع .

٤ — اختلاف بالنقص والزيادة مثل : مثل :

وما خلق الذكر والأنثى — قرئ : والذكر والأنثى ، بدون (ما خلق) .

٥ — اختلاف بالتقديم والتأخير مثل :

« وجاءت سكرة الموت بالحق » — قرئ : وجاءت سكرة الحق بالموت .

٦ — اختلاف بالإبدال مثل :

وطلع ممدود (بالحاء) — قرئ : وطلع ممدود (بالعين) .

٧ — اختلاف اللهجات :

وهل أتاك حديث موسى — تقرأ بالفتح وتقرأ بالإحالة وهى الكسر المرخم.

ثالثاً — رأى القاضى أبى الطيب :

١ — تغير الحركة مع بقاء المعنى والصورة :

ويضيق صدرى — بإسكان القاف — قرئ :

ويضيق صدرى — برفع القاف .

٢ — تغير المعنى مع بقاء الصورة ربنا باعد بين أسفارنا — قرئ : باعد — الأول دعاء — والثانى إخبار.

٣ — تغير الحروف والمعنى مع بقاء الصورة :

ننشزها — ننشرها .

الأول بالزاى — ومعناها الخلق .

والثانية بالراء — ومعناها البعث .

٤ — تغير الصورة دون المعنى مثل :

« كالعهن المنفوش « قرئ » : كالصوف المنفوش .

٥ — تغيير الصورة والمعنى معاً

طلح منضود

طلع منضود

الطلح — هو الموز

والطلع هو البرعم أو الرائحة للطلح .

٦ — التقديم والتأخير مثل :

وجاءت سكرة الموت بالحق — قرئ وجاء سكرة الحق بالموت .

٧ — الزيادة والنقص :

« له تسع وتسعون نعجة — قرئ له تسع وتسعون نعجة أنثى — بزيادة لفظ (أنثى) .

رابعاً – رأى ابن الجوزى :

١ – اختلاف فى الحركات دون تغيير فى الصورة والمعنى مثل :

« إن يمسسكم قَرْحٌ (١٤٠ آل عمران) قرئ قُرْحٌ – بضم القاف .

٢ – اختلاف فى المعنى فقط دون الصورة :

واذكر بعد أمة (٤٥ يوسف قرئ بعد أمة–بالتخفيف ومعناه النسيان.

٣ – اختلاف فى الحروف والمعنى دون الصورة مثل :

« هنالك تبلو كل نفس (٣٠ يونس) قرئ

هنالك تتلو

الأول معناه : تتحمل

الثانى معناه : تقرأ

٤ – اختلاف فى الحروف والصورة دون المعنى مثل :

« وزادكم فى الخلق بسطة (٦٩ الأعراف) .

قرئ : بصطة – بالصاد والمعنى واحد .

٥ – اختلاف فى الصورة والمعنى مثل :

« فاسعوا إلى ذكر الله »

قرئ – فامضوا

٦ – اختلاف بالتقديم والتأخير مثل :

« وجاءت سكرة الموت بالحق »

قرئ : وجاءت سكرة الحق بالموت

فأذاقها الله لباس الجوع والخوف (١١٢ النحل)

قرئ – فأذاقها الله لباس الخوف والجوع .

٧ – اختلاف بالزيادة والنقص مثل :

أوصى ربك – قرئ : ووصى

إن الله هو الغنى الحميد (٢٦ لقمان) .

هذا وبالله التوفيق

دكتور رءوف شلبى

المراجع

١ ـ تفسير الطبرى ج ١

٢ ـ فتح البارى ج ١٠

٣ ـ مسلم ج ١

٤ ـ مناهل العرفان ج ١ — للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى

٥ ـ مباحث فى علوم القرآن — مناع القطان

٦ ـ التبيان فى علوم القرآن — الصابونى

٧ ـ البرهان للزركشى — بدر الدين الزركشى ٧٩٢ هـ

٨ ـ الإتقان للإمام السيوطى

٩ ـ النبأ العظيم — للدكتور محمد دراز

١٠ ـ القرآن والنبى — للدكتور عبد الحليم محمود

١١ ـ تاريخ القرآن — للأستاذ إبراهيم الابيارى

١٢ ـ مدخل لدراسة القرآن الكريم — الدكتور محمد أبو شهبه

١٣ ـ تقريب النشر فى القراءات العشر — لابن الجوزى

١٤ ـ سراج القارئ المبتدئ — أبو القاسم على بن عثمان بن محمد بن أحمد ابن الحسن القاضى العذرى البغدادى

١٥ ـ التفسير والمفسرون — الدكتور محمد حسين الذهبى

١٦ ـ المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز — لابن شامة ٩٦٥ هـ

١٧ ـ مواقع العلوم من مواقع النجوم — جلال الدين

١٨ ـ جمال القرآن — للسخاوى ٦٤١ هـ

١٩ ـ الإبانة فى القرآن — لابن حموش الأندلسى

٢٠ ـ علل القرآن — لابن على الفارسى

٢١ ـ المصاحف — للسجستانى

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

مناقشة دعوى استقلال العلم التجريبى عن الدين

دكتور / يحيى هاشم

لا بد لنا أولا من أن نقرر :

أن القول بأن المنهج التجريبى من اختراع الحضارة الأوربية الحديثة فى عهد النهضة على يد فرنسيس بيكون قول مبنى على شىء كثير من الغرور والادعاء والمغالطة . .

إن فرنسيس بيكون عندما دعا إلى المنهج التجريبى كان مستمداً من سلفه الذى ظهر قبله بقرنين (روجر بيكون) .. وكان هذا مستمداً من علماء الحضارة الإسلامية عندما اطلع على تراثهم ، وتتلمذ على أيديهم.. والحضارة الأوربية بصفة عامة متتلمذة فى هذ على الحضارة الإسلامية أثناء احتكاكها بها فى الحروب الصليبية .

كذلك فإن الحضارة الإسلامية كانت مستمدة فى هذا من روح الإسلام والقرآن والسنة وكذلك كانت مكملة لما كان عليه الإغريق واليونان .. خلافاً لما اشتهر عنهم من أنهم أهملوا البحث التجريبى .

إن البحث التجريبى له تاريخ طويل ينشط بنشاط الحضارة ويضمحل بجمودها وتأخرها.. ولم يكن توهم الغربيين أنهم كانوا البادئين بالمنهج التجريبى إلا لأنهم كانوا العاملين على أماتته وإخماده فترة مرورهم فى عصور الظلام والعصور الوسطى ، فلما تحركت فيهم عوامل النهضة تنبهوا إلى هذا المنهج وبهروا به وحسبوا أنهم أصحابه ومريدوه ، بينما هم فيه تبع لغيرهم .

ونحن لا ندعى بذلك أن هذا المنهج هو اليوم كما كان فى بداياته فى عصر اليونان ومن قبلهم فى عصر المصريين القدماء .

لا شك أنه صار اليوم أكبر وأعمق

وأشد سيطرة على العقول والقلوب والسلوك والتطور ومجرى الحياة .

كان فى بدايته أكثر التصاقاً بالتفكير العقلى والتأملى المجرد . . وما ذلك إلا لضعف وسائل المنهج التجريبى ، وآلاته حينذاك .

أما اليوم فهو يبتكر هذه الآلات ويتقدم وينمو بها فى أطوار متلاحقة يتضاعف فيها كل طور عن طور سابق ، ويبدو تراكم النمو فى الأطوار الأخيرة هائلا مدهشاً بينما معدل النمو واحد فى البدايات والنهايات ، إذا أسقطنا من الاعتبار عوامل التأخر الحضارى .

وهنا يمكننا أن نقول :

أن هذا المنهج التجريبى منذ ظهر فى الحضارة الأوربية فى عصر النهضة أعلن استقلاله عن الكنيسة ، دون أن يحسم موقفه من الدين بصفة نهائية ، حتى ظهرت الثورة الفرنسية .

وفى أتون الثورة الفرنسية ظهرت الفلسفة الوضعية على يد الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت » الذى توفى (عام ١٨٧٥ م) . .

فقد رأى أوجست كونت أن الاضطراب العقلى الذى تعانيه الإنسانية مرجعه إلى أن الناس يعتمدون على ثلاث فلسفات متعارضة هى :

الفلسفة اللاهوتية ، والفلسفة الميتافيزيقية ، والفلسفة العلمية أو الوضعية .

وأنه قديماً سيطرت الفلسفة اللاهوتية بمضمونها الأسطورى الخرافى ، ثم أفسحت مجالا للفلسفة الميتافيزيقية .. وهى وثيقة الصلة بالخرافة ، فى حين أن الفلسفة الوضعية لم تتخذ طريقها إلى العقول إلا بعد تقدم العلوم الطبيعية المادية ابتداء من القرن السابع عشر .. ومع ذلك فإن هذه الفلسفة الأخيرة لم تستطع القضاء نهائياً على الرواسب اللاهوتية والميتافيزيقية مما أدى إلى ظاهرة الفوضى العقلية ، وما يترتب عليها من صراع وأخطاء أخلاقية واجتماعية .

واعتقد أوجست كونت أن النصر سيكون فى آخر الأمر حليف التفكير الوضعى . والفلسفة الوضعية عنده تعنى :

أن كلاً من اللاهوت والفلسفة الميتافيزيقية ، قد استنفدت موضوعاتها وافتقدت ما يبرر وجودها إذ كانت قائمة عندما كانت بديلا للعلم أو مرادفة له ، ولكن العلم قد انفصل عنها موضوعاً ومنهجاً وأصاب من النجاح ما لم يقدر شىء منه للميتافيزيقية أو اللاهوت .

وتكاثرت بعد ذلك المذاهب المادية

التى ترتدى مسرح العلم ، منكرة للدين مدعية أنها تستغنى عنه بالعلم . لافرق فى ذلك بين ما يسمى وضعية أو وضعية منطقية أو ماركسية أو واقعية ، أو تجريبية ، أوسارترية ، أوغيرها من الأسماء.

وهنا نتساءل :

هل حققت هذه المذاهب دعوى الاستغناء عن الدين باسم العلم ؟

أم تراها عن طريق هذا العلم نفسه .

وجدت نفسها مضطرة لاصطناع دين جديد له الخصائص العامة للدين من حيث :

١ – الإيمان الأولى .

٢ – والإيمان بغيبيات لا تقع تحت الإدارك الحسى المباشر أو غير المباشر .

٣ – وترقب الحياة المؤجلة التى يستكمل فيها ما نقص من هذه الحياة الحاضرة .

٤ – والإيمان بأصل للوجود تخضع له الكائنات ؟

هذا ما نحاول الإجابة عليه فيما يأتى :

أما عن قيام العلم الحديث على الإيمان الأولى واحتياجه إليه :

فإليكم ما يقوله ألبرت أينشتاين على سبيل المثال :

إن العلم لا يخترعه إلا أولئك المتشبعون تماماً بحب الحق والإدراك السليم .. وهذا المصدر من مصادر الشعور ينبع من ميدان الدين . ويتصل بهذا الميدان أيضاً الإيمان بأنه من الممكن أن تكون القواعد التى تنطبق على عالم الوجود معقولة . أى تمكين إدراكها بالعقل ولا أستطيع أن أتصور عالماً حقاً بغير هذا الإيمان العميق . ويمكن التعليق على هذا الرأى بهذه الصورة : «العلم بغير دين أعرج والدين بغير علم أعمى »[1] .

ويقول الدكتور جيمس . ب كونانت :

إن الفلسفة التجريبية للقرن السابع عشر إنما نشأت فى حجر نظام فلسفى يتصل بما وراء الطبيعة ، وأنه لولا هـذا النظام الماوراء الطبيعة ما كان تجريب ولا كان علم . إنه ليس بين الملاحدة واللاأدريين من كان فى قلبه من الإيمان باطراد الطبيعة واتساقها وما يكفى لممارسة العلم : وتجاريب العلماء[2] .

---

(١) أنظر كوخ ص ١٠٨ .

(٢) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم للدكتور جيمس . ب كونانت ترجمة الدكتور أحمد زكى نشر دار المعارف عام ١٩٦٣ ص ٦١ والدكتور كونانت من أعلام العلم الحديث ، تولى مناصب علمية مرموقة ، منها رئاسته لجامعة هارفارد من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٥٣ .

ويقرر هربرت سبنسر فى كتابه « المبادئ الأولى » فى كلامه عن الأفكار العلمية القصوى أن العلم مضطر إلى الاستعانة بالكثير من المفاهيم العامة التى لا سبيل إلى تفسيرها : كالزمان ، والمكان ، والمادة ، والحركة والقوة وما إلى ذلك . وليس فى استطاعة العقل البشرى أن يستغنى عن أمثال هذه المفاهيم . . .

ويقول أننا لو حاولنا أن نتصور كل هذه المفاهيم العلمية فى العقل تصوراً واضحاً متمايزاً لانتهينا إلى مجموع من المتناقضات التى لا يمكن أن يقبلها العقل . ولننظر مثلا إلى مفهومى المكان والزمان : فهل نقول بأنهما مفهومان واقعيان موضوعيان أم نقول بأنهما مفهومان ذهنيان ذاتيان ؟ هذا ما يجيب عليه سبنسر بقوله : أن العقل البشرى عاجز تماماً عن تفهم حقيقة أمر كل من « المكان » ، والزمان . . .

وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى المفاهيم العلمية الأخرى كمفاهيم المادة والحركة والقوة ، فإنها جميعاً تصورات غير قابلة للتعقل .

ولم يقتصر الأمر على الفيلسوف هربرت سبنسر بل نجد العلم الحديث يقدم لنا مفهوماً للزمان فى منتهى الغرابة :

فقد اقترح ريتشارد فيلبس فاينمان من معهد كالفورنيا للتكنولوجيا نظرية مؤداها أن البوزيترون ليس سوى إلكترون يتحرك حيناً إلى الخلف فى الزمان وحيناً إلى الأمام وأن فى الكون مادة نقيضة لمادتنا تتحرك فى الزمان عكس حركتنا . . ويقولون أنه قد ثبت صواب مفهوم فاينمان من عكس الزمان حتى أنه استحق فى عام ١٩٥٣ ميدالية ألبرت أينشتاين ، كما نال فى عام ١٩٦٥ جائزة نوبل ، وقال عنه كبار العلماء أن نظرية فاينمان تمثل أقوى لطمة منى بها مفهوم الزمان فى علم الطبيعة . .

وقد نشأت عن نظرية فاينمان صعاب منطقية وبذلت محاولات للتغلب عليها من بينها فرض أدريان دويس الذى يقول بوجود بُعْدَين زمانيين بدلاً من واحد ، وتحدث آخرون من العلماء منهم سيرادنجتون عن الكون ذى الأبعاد الخمسة : ثلاثة أبعاد مكانية وبعدين زمانيين .

والآن ما هى المادة فى ظل العلم التجريبى الحديث ؟

إنها لم تعد كائناً مادياً . .

يقول أحد كبار العلماء المحدثين :

« لقد حررت الذرة بالتدريج من كل الخصائص الحسية ، وأصبحت

الخصائص الهندسية هى الخصائص الوحيدة . التى ظهر أنها تحتفظ بها لمدة طويلة . . فهى تشغل الفضاء ولها مكان ولها حركة . . . غير أن التطور فى الفيزيقيا الذرية الحديثة قد أزال حتى هذه الخصائص .. ويقول أيضاً : « لقد وضع كل ما توصلنا إليه من تفهم للمادة فى شكال معادلات رياضية » .

ويقول أحد مساعدى أينشتين فى كتابه « الفيلسوف والعلم » :

« نحن نعتقد بوجود أجسام أصغر من الذرة . .

لا لأننا رأيناها ولو بشكل غير مباشر ولكن لأن افتراض وجودها يشكل أسهل فرضية يمكن لها تعليل الوقائع المشاهدة » .

أليس هذا هو الإيمان المحض ؟

ويقول برتراند رسل : « أن علم الطبيعة وعلم النفس بدآ يلقيان ظلا من الشك على الازدواج بين العقل والمادة . .

حيث أصبح دارسو علم الطبيعة مثاليين ، وأصبح كثير من علماء النفس على حافة المادية » . .

« إن العقل والروح — شأن المادة —

ليست سوى رموز لأشياء غير معروفة » .

والماديون يعتقدون أن للطبيعة المادية قوانينها التى لا تقهر . .

وهذا محض اعتقاد لم يساندهم فيه العلم الحديث .

إن العلم الحديث ينظر اليوم إلى القوانين الطبيعية على أنها لا تتضمن عنصر الضرورة ، وإنما تقوم على الاحتمال والرجحان .

إن القول بحتمية القوانين الطبيعية أكذوبة نجد افتضاحها فى ميدان الفلسفة الحديثة وفى ميدان العلم التجريبى على السواء .

أما فى ميدان الفلسفة فنجد ذلك عند ديفيد هيوم الفيلسوف الإنجليزى ، الذى ينكر إرجاع مبدأ العلمية الى ضرورة عقلية ، ويفسره بالتداعى والترابط العادى وقد سبقه إلى مثل ذلك الإمام الغزالى .

وذهب فتجنشتين — وهو من أعلام المنطقية الوضعية — إلى أن جميع قوانين العلوم الطبيعية قوانين احتمالية فقط لا ضرورة فيها .

بما فى ذلك قانون الاستقراء وقانون السببية . . .

أما فى العلم الحديث فقد تقرر أن عالم الذرة غير خاضع لضرورة أو حتمية .

إن علاقة عدم التحدد التى اكتشفها

هيزنبرج تبين أن الذرة حرة فى أن تعمل هذا أو ذاك ، وكل أحكامنا عنها تشير إلى احتمالات لا إلى يقينيات.

ومن الأمور المشهورة أن قانون الجاذبية هو مثل واضح للقوانين الطبيعية الثابتة ثبوتاً قطعياً مطلقاً .

لكن العلم الحديث اكتشف أن هناك ما يسمى بـ « التنافر الكونى » وهو يعمل بطريقة مناقضة تماماً لقانون الجاذبية .

يقول السير آرثر أدنجتون من كبار أعلام العلم الحديث :

(من الاستنتاجات التى أخذناها عن النظرية النسبية أنه يجب أن توجد قوة تعرف باسم « التنافر الكونى » تعمل على نشوء هذا النوع من التشتت الذى معه يتباعد كل جرم عن أى جرم آخر » . وهذا التشتت هو ما أثبتته الكشوف الفلكية والطبيعية الحديثة » .

وفضلا عن أنه لم يعد فى مجال العلم ما يسمى بالقانون النهائى فإننا نجد العلم مضطراً فى بعض الحالات إلى الأخذ بنظريتين متعارضتين ، يعلم العلماء ما بينهما من التعارض والتنافر ، ولكنهم يجدون أنفسهم مضطرين إلى الأخذ بهما معاً . .

وهذه الحالة نجدها فى التفسير العلمى لظواهر الضوء . .

ويقول كونانت :

« كثير من الظواهر الضوئية يكون تفسيراً لضوء فيها على أنه حركة موجبة ، وفى بعض هذه الظواهر يكون تفسيره على أنه شعاع من نور يتألف من دقائق . .

وكانت هذه النظرية — نظرية الدقائق — هى أقدم النظريتين ، وكان مكانها فى العلم راسخاً حتى إذا جاء عام ١٨٠٠ حدث فيه أو حوله أن كشفت التجارب عن ظواهر يصعب تفسيرها — إن لم يتعذر — إلا بالنظرية الموجبة ، ثم ما انتصف القرن التاسع عشر حتى اطمأن العلماء إلى هذه النظرية ، النظرية الموجبة ، كل الاطمئنان .

وفى عام ١٩١٢ صار من الواضح أنه توجد ظواهر كثيرة فى امتصاص الضوء وانبعاثه لا يمكن تفسيرها إلا بنظرية الدقائق . .

ووقع العلماء فى حيرة ، وكان لديهم الأمل فى الخروج منها والاعتقاد بضرورة ذلك . . ولقد أذكر أنى سمعت فى تلك الأيام عمدة فى عالم البصريات بجامعة هارفارد يقول فى محاضرة : « إن الضوء لا يمكن أن يكون موجات ودقائق فى آن واحد ، إنه إذاً لسخف » . وعاد يؤكد لسامعيه أنه لا بد أن تجرى

تجربة حاسمة تقضى بين النظريتين . . وها نحن بعد عام ١٩٥٠ ولم تجر تلك التجربة بعد ، وإنى لأشك فى أن أجد اليوم كثرة من العلماء تؤمن بأن هذه التجربة الحاسمة لا بد آتية ، إن الظن الغالب الأغلب أنها لن تأتى أبداً . والرأى اليوم فى تفسير الضوء أن هناك نظريتين تفسران ظواهر الضوء جميعاً ، وظلتا تفسرانها منذ عشرات السنين ، إحداهما تفرض وجود دقائق وبها تتفسر بعض هذه الظواهر ، والأخرى تفرض وجود الموج ، وبها تتفسر ظواهر أخرى »[1] .

أما من ناحية الإيمان بحياة مؤجلة فيها يكمل ما نقص من هذه الحياة الحاضرة فإننا نجد فى ذلك كله أن العلم المادى قد عجز عن تقديم تفسير للكون يريح العقل وكما عجز عن تقديم نظام للحياة يسعد الإنسانية .

هذا ما ذهبت إليه الاشتراكية العلمية من وعد بحياة مؤجلة لم يتضح الطريق إليها بعد تسعد فيها الإنسانية فى ظل سيادة الشيوعية .

وهذا ما ذهب إليه برتراند رسل عندما أعلن العلم الحديث أن حركة

(١) مواقف حاسمة ص ٥٢ — ٥٣ .

الذرة لا تخضع لقانون أو ضرورة .

وبدلاً من أن يفترض رسل أن الذرة تدخل تحت قوانين غير قوانين الطبيعة التى عجز العلم عن كشفها أخذ يفترض عن طريق ما نسميه الإيمان الغيبى بالمستقبل: «إن نظرية الذرة الفردية الحرة تقع تحت رحمة علم الطبيعة التجريبى الذى ربما استطاع فى أى لحظة أن يكتشف القوانين التى تنظم سلوك الذرات الفردية » .

وهكذا ينتهى بنا الإلحاد المادى إلى وعد . .

مجرد وعد بالمستقبل المشرق . .

سواء فى مجال الطبيعيات ، أو فى مجال الإنسانيات . . .

وأخيراً فإن الماديين الذين يستندون إلى العلم الحديث لهم إله يعبدونه . . يقول الأستاذ إسماعيل مظهر :

« لماذا حمل دكتور شلبى شميل على الأديان ؟

حمل عليها متابعة لرأيه المادى ، بل جرياً وراء غاية محدودة ، غاية سعى إليها كثير من ماديى القرن الثامن عشر ، وتنحصر تلك الغاية فى أن يتبادل الناس بينهم ديناً آخر » .

وما هو ذلك الدين ؟

هو عبادة المادة .

أرادوا أن ينظروا إليها على أنها المصدر الأول للإنسان والعلة الأولى التى فطرته .

وأنها التى تحبوه بأسلوب الحياة التى ينعم بها فوق هذه الأرض .

ناهيك بأن إليها مرده ومعاده[١] . .

والتعبد للمادة : ليس سمة الماديين المحدثين فحسب بل هو سمة أسلافهم أيضاً :

انظر ما يقوله الإمبراطور مارك أوريل أنطونين أحد أعلام الرواقيين ، وهم ماديون :

« إننى إنما أتكوّن من صورة ومادة ، كلاهما لا يمكن أن يعدم إلى لا شىء ، أو يكون قد حدث من لا شىء .

كل ما يلائمك أيها الكون الفسيح يلائمنى .

وكل ما تنتجه أسبابك أيتها الطبيعة العظمى ثمرة شهية عندى .

منك كل شىء .

وفيك كل شىء

وإليك يعود كل شىء[٢] .

فإذا اتجهنا إلى الفلسفات المادية الحديثة التى تدعى القيام على العلم التجريبى نجدها تتخذ لنفسها ديناً .

وسنأخذ المثال على ذلك من أكبر الفلسفات الإلحادية المعاصرة وأشهرها ونقصد بذلك الفلسفة الوضعية . ثم الفلسفة الماركسية . .

ففى الفلسفة الوضعية التى قامت على استبعاد الدين والميتافيزيقا انتهى زعيمها الفيلسوف أوجست كونت (١٧٩٨ — ١٨٧٥) إلى اختراع ما سماه « دين الإنسانية » وفيه تكون « الإنسانية » هى المعبود ، وأبطالها هم موضع التعظيم والتكريم ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث وضع لهذا الدين الجديد معبداً حقيقيًّا ، تنصب فيه التماثيل ، ويصاغ فيه تمثال المعبود « الإنسانية » على هيئة أنثى ، وتقام بجواره تماثيل نصفية لأبطال التاريخ .

وفى الفلسفة الماركسية التى قامت على المادية الديالكتيكية (الجدلية) انتهى التفكير إلى إضفاء صفات الألوهية على « المادة » فهى تتصف بأنها « أصل الوجود » وأنها « باقية » لا تغنى ، وأنها « لا نهاية » ، وأن قانونها « الديالكتيك » يفرض نفسه على كل الأشياء ، ثم ذهبت هذه الماركسية أيضاً خطوة أعمق فى طريقها إلى جعل هذه الفلسفة « ديناً » ، حيث رأت ضرورة إدخالها فى عقول العمال وقلوبهم ، باعتبارها فلسفة « الشغلية » التى يعتمد عليها

---

(١) ملتى السبيل لاسماعيل مظهر ص ٤٣ .

(٢) ملتى السبيل ص ١٥٥ .

وعليهم فى تغيير المجتمع وتثويره ، ومن أجل ذلك أدخل زعماؤهم فى إطار القداسة التى تضفى على الأنبياء ، وكان لهم أصنام وقرارات يحج إليها الناس من أرجاء البلاد .

وهذا يدل على أن الإيمان بالله فطرة فى النفس البشرية ، وأن هذه الفطرة إن لم تجد تعبيراً لها فى الدين الحقيقى . أدخلت فى مسخ من المذاهب الإلحادية.

ومن هنا يمكننا أن نحكم بأنه ليس بلازم أن تقوم المناقشة بين الدين الإلهى « الإسلام » وبين المذاهب الإلحادية على أساس سوق الأدلة على وجود الله ، ومناقشتها وإنما ينبغى أن تجرى على أساس المقارنة بين المعبود هنا والمعبود هناك . .

وأخيراً فقد تبين لنا أن الإلحاد المادى المعاصر يكذب كذبة بلقاء إذ يزعم أنه باستناده إلى العلم التجريبى حقق الاستغناء عن الدين . .

إنه فى حقيقة الأمر لم يتمكن إلا من الاستقلال عن الدين الصحيح ، وأنه فى سبيل ذلك وجد نفسه فى نهاية المطاف متورطاً فى مسخ من المعتقدات القائمة على الإيمان بالغيب والمستقبل والاعتقاد فى أصل للكون لا يمكن إدراكه بالحس ، وهم لم يفعلوا إلا أن استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير . وكذلك كان شأن الفلسفات القديمة .

والآن نأتى إلى القسم الأخير من هذه المقالة الذى نرجو أن نتعرض له فى المقالة القادمة .

د. يحيى هاشم

قضايا لغوية

نظرات حول الترادف اللغوى

دكتور/ توفيق محمد شاهين

(٣)

والرأى الذى نذهب إليه إذن :

إن العرب عالجوا ألفاظ لغتهم معالجة استثمار ، فأكثروا فيها المترادفات لمعنى واحد ، أومعان متشابهة ، ولا نقول : أن مترادفاتهم بلغت المئات والألوف . وليست العربية بدعاً فى ذلك بين لغات البشر ، فكثير من اللغات تعرف هذا الترادف ، وتعبر عن المعنى الواحد بأكثر من لفظة ، كما فى الانجليزية مثلا .

وإذا اعتبر صاحب القاموس ، أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، أو كماله فى أمر من الأمور . . فدلت كثرة أسماء الأسد على كمال قوته ، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدتها وصعوبتها ، وكثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء القرآن دلت على كمال شرفه وفضيلته ، وَعَدَّ منها : القرآن ، والكتاب ، والفرقان ، والصدق ، والذكر ، والوحى . . . وساق الشواهد على ذلك(٤٤) .

أقول : إن نزعة الغلو هذه دفعت بالطرف الآخر إلى المسار المعاكس حين تضخم قاموس الترادف اللغوى أضعافاً مضاعفة لحشد ألفاظ كثيرة عُدَّتْ مترادفة على ضعف الشبه والصلة بينها ، مما دعا الطرف المنكر للترادف أن ينكره ويشكك فى وجوده .

ولا ننسى أيضاً أن من العرب القدامى من شغلتهم الموسيقا اللفظية وولعوا بها فتلمسوا المترادف ، وشغلوا به عن الفروق بين الدلالات ، وحدث أن تضخم قاموس المترادفات بحق وبغير حق ، ففرح المثبتون ، وتهكم المنكرون ، وكان العاصم هو الاعتدال والدقة .

ولا ترضينا نزعة الغلو هذه ، كما لم ترض غيرنا ، ذلك أن أصحابها . . .

« تناسوا كل الفروق بين الكلمات حتى المتميزة منها ، وقد أوسع لهم هذا المجال قدح الزناد بطلاقة لا تمت إلى الضبط العلمى بأوثق الصلة ، زد على هذا الخلط بين ألفاظ جاهلية وأخرى إسلامية ، حسبوها مترادفة »[٤٥]. وسيحد من هذا الغلو — ولا شك — المعجم اللغوى التاريخى ، على أن الفرق الزمنى بين العهدين ليس بالطويل فى مرحلتى الجاهلية والإسلام بالذات .

ولأن الغلو دعا إلى وجوب « تحديد معانى الألفاظ تحديداً منطقياً ، فلا نسرف فى اصطناع المترادف الذى يجعل الألفاظ غير مفصلة على قدود المعانى[٤٦] حتى نجعل العربية مبسطة وميسرة فى مجال التطبيق التعليمى .

وقد ذهبت فئة متسرعة من العلماء قديماً وحديثاً : تثير الشكوك حول المترادف ، « وأظهروا بوضوح عدم وجوده فى العربية ، ولم يقفوا بأبحاثهم عند هذا الجانب السلبى ، بل تلمسوا الأدلة ، وأبرزوا الدواعى ، واتجهت عنايتهم لبيان وتعداد الفروق ومغامز الفصل بين الدلالات المقول بترادفها .

وأبحاثهم — وإن كانت دقيقة وعميقة التحليل ، وبعد التصور ، وشمول الاستقراء — إلا أنها اصطبغت بصبغة « جدلية » ، كانت تنتهج سبيلها على إشعاع مبدأ : إخضاع اللغة للفلسفة ، خاصة وأن عقولهم فى ذلك الوقت كانت متأثرة « بالميتافيزيك » كما يرى المستشرق « جاك بيرك » .

ومن ثم يجب ألا نترك الحبل على الغارب لهذا الغلو فيكون ذلك داعياً قوياً إلى إنكار الترادف ، والوقوف فى وجهه ، وكيل التهم للقائلين بوجوده . . وسلفاً نحن لسنا أهلا لأن نكيل التهم لأجداد أفذاذ عملوا وأخلصوا لوجه الله تعالى .

فاللغة لا تخضع للفلسفة ، وحرية العربى فيها كبيرة كما أسلفنا .

وإذن فمن المغالاة إذن ما ألمعت إليه د . بنت الشاطىء ، فى كتابها . . (كتاب العربية الأكبر) من أن رفض الترادف فى العربية يعلل بأنه تزكية وإعلاء لها — حسب آفاق مناهج علم اللغات الحديث — ذلك أنه رئى فى الترادف فقدان حسى لغوى ، وعجز عن ضبط الدلالات والمفاهيم . كما أن الفن الأدبى ينكر لغة يمكن أن يستبدل لفظ فيها بعشرات أو مئات أو ألوف الألفاظ .

واستناداً إلى ذلك قررت – الدكتورة – أن القرآن حسم قضية الترادف ، لأن التتبع الدقيق لألفاظه يرينا أنه لا ترادف بين الألفاظ . واستشهدت لذلك باستعمال القرآن الكريم لمادتى (حلف ، وأقسم) ، وهما بمعنى واحد فى كتب اللغة والتفسير لكن مواضع استعمالها فى القرآن كله يمنع هذا الترادف ، حيث تأتى مادة (حلف) دائماً فى مقام الحنث باليمين »[٤١]. اهـ

وعلى هذا المنهج يقول بويسون : « ويكفى قليل من التفكير لكى نرى أن اللغة الحية لاتحوى مترادفات كاملة » .

بل ذكر بعضهم – فى خبث – إن فى العربية ترادفاً ، ليسلط عليها حكماً بالجمود ، وهو فناء ، فـ « العربية لا تصلح أن تكون لغة علم لعجزها عن تحديد دلالات الألفاظ ، وضبط مفاهيمها ، حيث تكثر المترادفات فيها بكثرة فاحشة »[٤٩].

هكذا قالوا ، وتلك شنشنة نعرفها من أخزم ، وتجديف غير علمى .

ومن نماذجهم فى التفرقة توصلا لجحد الترادف :

١ – الفرق بين القديم والعتيق : فالعتيق هو الذى يدرك حديث جنسه فيكون بالنسبة إليه عتيقاً ، ولهذا لا يقال : إن السماء عتيقة وإن طال مكثها ، لأن الزمان لا يؤثر فيها ، ولا يوجد من جنسها ما تكون بالنسبة إليه عتيقاً[٥٠].

٢ – والبخل هو المنع من مال نفسه ، والشح هو بخل الرجل من مال غيره[٥١].

ويضاف إلى ذلك ما استقاه السيوطى من الأصفهانى فى مفرداته وكذا الإمام الجوينى ، مثل : الخوف والخشية ، والسبيل والطريق والإيتاء والإعطاء والتمام والكمال » ..[٥٢]

وأقول : تلك تفرقة جائرة . .

بل صرح بعضهم بأن ما ظن من الترادف إنما هو من التباين ، إمّا لأن – أحدهما اسم للذات والآخر اسم للصفة ، أو صفة الصفة وهذا رأى قديم حديث : يقول ابن فارس : مذهبنا أن هناك فرقاً بين هذا وذاك . كما نفاه الإمام الرازى فى الأسماء الشرعية[٥٣].

وفرّق ثعلب وابن فارس بين الإنسان من النسيان ، والبشر من أنه ظاهر البشرة أى الجلد، وللسيف

اسم واحد وما بعده صفات .

كما قرر أبو علي الفارسي في مجلس سيف الدولة ، منكراً أن يكون للسيف أسماء كما ذكر ابن خالويه ، تصل إلى الخمسين »[٥٤] .

ويبالغ ابن الأثير فيرى أن الذى « لا يفرق بين الأسد والفدوكس والغصن والعسلوج فليس بعالم »[٥٥] .

وألف الأب هنرى كولا منسى اليسوعى : « فرائد اللغة فى الفروق » معتمداً على فقه اللغة للثعالبى ، وكليات أبى البقاء ، ومفردات الأصفهانى والألفاظ الكتابية للهمذانى ، ونفى بذلك وجود الترادف على زعمه .

ومن الطريف أن بعضهم ينكر الترادف ، لأن وجوده يحوج إلى حفظ الكل وفى هذا مشقة »[٥٦] .

وسيأتى خير رد على ذلك فى بيان الحاجة إلى الترادف .

ومثله طرافة : أنه (الترادف) لو وقع لعرى عن الفائدة ، واللازم باطل فبطل اللزوم لأن قيام الواحد كاف فى الإفهام والزائد عبث لا يليق لحكيم »[٥٧]

هكذا قيل ، وهو دليل على ضعف الذاكرة ، وضعف الطبع اللغوى قبل أى شيء آخر .

وفى هذا المسار (مسار الإنكار) ما يراه المرحوم حفنى ناصف من أنه عند الإمعان لا ترادف فى الحقيقة ؛ لأن قبائل العرب ليست بحاجة إلى أزيد من لفظ لكل معنى » . . والطريف أنه يرجع ما ورد — من مثل ذلك — إلى اختلاف القبائل التسع التى أخذت عنها اللغة . . وإذا كانت القبائل عربية فعلام نحمل كلامه بالرفض ، وهو الذى يروى فى بحثه أن الإمام على بن أبى طالب — رضى الله عنه — قال يوما لكاتبه :

« الصق روانقك بالجيوب ، وخذ المزبر بشناترك ، واجعل حندورتيك إلى قيهلى ، حتى لا أنغى نغية إلا أودعتها بحماطة جلجانك » . ومرادف ذلك : ألصق مقعدتك بالأرض ، وخذ القلم بأصابعك ، واجعل عينيك إلى وجهى ، حتى لا أنبس نبسة إلا وعيتها وحفظتها فى حبة قلبك . .[٥٨]

* * *

يقول ابن خلدون : مما ينبغى إثباته : أن اللغة إثبات أن اللفظ كذا ، لمعنى كذا »[٥٩] .

أى يختص كل لفظ بمعنى

معين ، وبذلك تصبح الكلمة بمثابة العلاقة للمعنى ، ومتى طرقت السمع أثارت فى الذهن دلالة معينة ، يشترك فى فهمها أفراد البيئة اللغوية « بهذا جرت الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغات فى العالم »(٦٠) وأقول : لعل تلك نظرة تعليمية وتيسيرية ، بعدأن عمت الشكوى من استعجام الطبع والذهن .

على أن ابن خلدون يقول : إن العربية دخلها تغيير حتى فى قبائل العرب نفسها ، لأنه كثيراً ما يجاب التفاعل الإنسانى والحياة باتساع الثنايا ، وتنوع الكائنات ، وتشابه الحادثات ، وتقارب الظواهر والأشياء وتلاحمها . . ويتسم كل ذلك باختلاف النظرة للمسميات تشتت ملكة التقييم . لذلك نشأت ألفاظ التقت فى معناها أجزاء وأخرى تم فيها التطابق واستقر استعمالها عند الجميع ، بما فيها تلك المفردات التى تشترك فى معنى واحد ، والتى صدر كل منها عن لسان قوم »(٦١) .

وقد قلنا من قبل إن شبه الجزيرة العربية اعتبرت واحدة .

تلك نماذج من أحاديث واستنتاجات وعلل الرافضين للترادف قديماً وحديثاً دعت بعض المفكرين والكتاب — ممن ليسوا ضليعين فى اللغة إلى التردد والتوقف فى قبول الترادف سقناها على طولها ، إنصافاً للجانبين ، وتلمساً للحقيقة .

ونقول : إذا كانت اعتراضات المعترضين ، لتيسير العربية فى المجال التعليمى والتطبيقى لظروف تقتضى ذلك — مجال آخر .

— كما أن الفروق اللغوية كثيراً ما تمحى ، أو تنسى ، أو تموت ويصبح البديل فى قوة الأصيل ، وسبق أن ذكرنا إن النقل القار للفظ كالنسخ فى الحكم .

— وإخضاع اللغة للنزعات والسبحات الفلسفية ، والقيود المنطقية ، أمر لا يتفق وحرية العربى الواسعة فى حياته ولغته .

— وإذا مالت صاحبة (كتاب العربية الأكبر) إلى إنكار الترادف وبخاصة فى القرآن — كما أسلفنا فى لفظى (حلف وأقسم) فهذا رأى قديم حديث .

إلا أنه بالاسقراء وللمتابعة ، والرجوع لكبار المفسرين ، الضالعين فى اللغة فاننا نلتى الترادف : « بكثرة فى ألفاظ القرآن ، رغم محاولة بعض

المفسرين أن يلتمسوا فروقاً خيالية لا وجود لها إلا فى أذهانهم للتفرقة بين الالفاظ القرآنية «المترادفة» (٦٢) ويسوق الأستاذ مصطفى بوهلال مثالا يؤيد ذلك من تفسير « التحرير والتنوير » للعلامة محمد الطاهر بن عاشور ، فى تفسير قوله تعالى : « فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون » ، فقد قال (المفسر) : الافتراء : الكذب وهو مرادف الاختلاق ، . . ونظيره إطلاق اسم الاختلاق على الكذب ، فالافتراء مرادف للكذب ، وإردافه بقوله هنا « الكذب » تأكيد للافتراء ، وتكررت نظائر هذا الإرداف فى آيات كثيرة » (٦٣).

فالقول بخلو القرآن الكريم من الترادف تجديف فى قضية كبرى . لا يكفى الحكم فيها بنظرة عجلى ، ورأى قد يكون فطيراً ، لما شابه واكتنفه من العجالة فى النظرة .

ولغتنا قد وسعت حضارات ، وتسنمت ذروة العظمة ، أيام كان أبناؤها فى أوج نشاطهم ورقيهم الفكرى ، وكانت حواضرهم مركز إشعاع علمى تتيه به على حواضر الدنيا من حولهم ، فلما أمسوا من النائمين أو النامين ، فقدوا حسهم اللغوى والوجودى ، فلم تفقد اللغة حسها اللغوى ، وإنما فقده أبناؤها ، فالعيب فيهم وليس فيها .

* والترادف فى كل لغات الدنيا ، وليست لغتنا بدعاً من بين هذه اللغات .

* وعابث من يدعى العبث فى الألفاظ الزائدة ، وإلا فمن أين يتأتى حسن اختيار اللفظ المناسب ؟ ومن أين يتأتى تسنم ذروة البلاغة ، والإبداع القولى ؟ وغير خاف أن اللغة للإمتاع ، كما هى للاستعمال .

* والقول بأن فى حفظ الزائد من الألفاظ مشقة تذرع بلداء أو كسالى .

* ولا وجه للتشكيك فى صلاحية لغتنا بمرادفاتها ، لمجاراة العصر بعلومه ، إذ فيها من المرونة والسعة مالا يبارى : فقد بدت حين بدا أصحابها ، وتحضرت حين تحضروا ، ووسعت ما وفد واستجد ودعت الحاجة إليه ، وضبطت بدقة متناهية المفاهيم والآلات ، وأثبتت أنها صاحبة قدرة فائقة على ملاحقة التقدم والتحديث والتعبير العلمى فى مختلف المجالات . . فهى قديماً وحديثاً ومستقبلا — بحق — أداة حضارة وصانعة بلاغ .

وتأصيل العلوم فى أية أمة ناهضة إنما يكون بلغتها ، فعلى أبناء العربية الأخذ بيدها وإشاعة استعمالها فى كافة الميادين ، وسيرون قدرتها على الوفاء بما يطلب منها ، وأنها جديرة بأن تكون

لغة العلم الحديث : تدريساً ، وتأليفاً ، وإستعمالاً ، وإمتاعاً . . . حين تكون المعايشة الكاملة لها ومعها . . وحيًّا الله شعوباً عربية سبقت فى هذا المضمار ونجحت وبذّت فى جعلها لغة التدريس فى كل المراحل التعليمية (كما فى سوريا الشقيقة وغيرها) ، ولعل هذا النجاح يطامن من ادعاءات بعض رجالنا فى جامعاتنا من أن العربية ليست لغة علم . .

والتاريخ والواقع يكذبهم ، ومن جهل شيئاً عاداه . والمرء ابن اللغه ، وهم قد ألفوا غير العربية فشنأوا لغتهم وأبغضوها — جهلا — وأحبوا غيرها تعصباً ، والتعصب بغير حق أعمى ومعيب .

* * *

ومعلوم أن اللغة — أية لغة — متينة الارتباط بالوجود الاجتماعى وتطوره ، ومفرداتها تتطور تبعاً لذلك خشونة ونعومة ، وثقلا وخفة ويروضها الاستعمال والتداول استئناساً ووحشة ، إن قيل بالغرابة ، وعدم الألف لبعض المفردات فى الترادف اللغوى عند اللاستعمال .

فيجب إذن ألا نبالغ فى التماس فروق — قد تبدو ضعيفة واهية — للتمييز بين المترادفات تمهيداً — لإنكارها أو التشكيك فيها ، فقيود المنطق الصورى وحدوده لا تطبق على العربى ولغته .

وعلينا ألا أن نؤمن بأن الحدث اللغوى هو الذى أمدنا — على ترامى الأجيال — بكلمات مترادفة أصلا .

وعلينا ألا نستسلم للسبحات الفلسفية اللغوية ، ولا للخطرات الحوارية ، ونجعلها سبب الضيق أو السعة فى وجود المترادفات .

وعلينا بالتالى ألا نفرط فنجعل من الترادف فوضى ، فينتظم الألوف والمئات من الألفاظ ، كما صنع الفيروزبادى ،

ولا نرفض ما كان من طبيعة اللغة ، وورثناه عن الموثوق بهم من علمائنا الأجلاء ولسنا أهلا لأن ننظرهم فيما أفنوا أعمارهم فيه ، ولا نتهمهم فيما وثقوه وأصلوه .

وعندئذ لن ينكر الحس اللغوى الصادق الترادف اللغوى وسنربط التعليم فى مراحله المختلفة بالمجتمع فى وطننا العربى بمودة وحب وإقبال ، ولن يكون هناك استيراد غير واع أو اقتراض بلا داع ، لنهضتنا فى التعمير والتفكير . وستزدهر ثروتنا اللغوية ، وسيبعث ما فى بطون المعاجم المليئة ، ليكون عوناً لنا حين نحتاج إليه مدداً ورديفاً طيباً . وما حفظته معاجمنا الحافلة به إلا للإرهاص بأنه رديف صالح يسد الحاجة ويفى بها ذاتياً بجدارة عند الحاجة .

* * *

وليس بصحيح ــ إذن ــ ما يقال : من أن الترادف يعاكس الروح العلمية .

وأن روح العصر لا تستسيغ التكرار فى الأدب .

١ ــ لأن فى الترادف ما يستعمل كوجه من أوجه السحر البيانى ، مع فصاحة فى التأنق فى الاختيار اللفظى : « بين كون هذه » اللفظة « مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية . أو أن حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن »[٦٤]. كما مر فى حديث أم الهثيم .

أو يكون لإحدى المترادفتين : (فى تحسين المعنى وتزيينه ، وأحداث خصوصية فيه تأثير لا يكون للأخرى »[٦٥]. :

كتب الأستاذ سيد قطب فى استعمال لفظة « القارعة » ما يلقى صورة الفزع واللطم . . ومن تناسق العرض أن تسمى بالقارعة ، ليتسق الظل الذى يلقيه اللفظ ، والجرس الذى تشترك فيه حروفه كلها ، مع منظر الناس كالفراش المبثوث ، والجبال كالعهن المنفوش »[٦٦]. .

وفى استعمال لفظة « الواقعة » تثير فى الشعور صوراً ومشاعر أخرى :

بما فيها مد ثم سكون أشبه بسقوط الجسم الذى يرفع ثم يترك فيقع ، فينتظر له الحس فرقعة ورجّة ، وهكذا يلبى لسياق ما يتوقعه الحس ، فهى (القيامة) خافضة رافعة[٦٧]. .

فلا ينكر ــ إذن ــ منصف ضرورة وجود المترادف وفائدته . . إذ ليَسَّر انتقاء اللفظ الملائم ووسع مجال التصرف ، وستر العيوب اللسانية :

(ا) وإذا كانت البلاغة هى : « أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية »[٦٨]. ، ففصحاناً بحاجة إلى الترادف ، كما فى لفظى القارعة والواقعة للتصوير الدقيق .

(ب) والترادف وسع مجال التصرف فأصبح من نتائج سعة « العربية » به اقتدر أصحابها على كتابة المعنى الواحد بعدة تراكيب بين عاطل ، ومهمل ، ومنقط ، ومشترك وبعض المفسرين كتب تفسيراً للقرآن الكريم بألفاظ ليس فيها حرف منقط[٦٩]. .

وإن كان ترفاً عقليًّا ، فلا شك إن به إمتاعاً .

فميزة الترادف : فى هذا الصدد : كثرة الطرق للإخبار عما فى النفس ، واختيار الأخف والأظهر بين الألفاظ ،

أو الترويح والإمتاع بالأحاجى والألغاز

وعلق فضيلة الشيخ محيى الدين عبد الحميد – فى تحقيقه على شرح القصائد العشر – على إنكار ثعلب وابن فارس للمترادف بقوله : « وهذا كلام عجيب من ثعلب : فإن فائدة تعدد الألفاظ لمعنى واحد ليست مقصورة على دلالة اللفظ على معناه : فأين التفنن فى الأسلوب ؟ وأين قوافى الشعر ؟ بل أين أوزانه ؟ ألا ترى اللفظ قد يصلح قافية فى بيت ، ولا يصلح فيه اللفظ الآخر؟ وهذا لايدع مجالا للشك فى أن العرب قد استعملوا ألفاظاً متعددة لمعنى واحد ، والنصوص تؤيد ذلك . . . فادعاء غير ذلك لا يقوم على دليل »[(٧٠)] .

(ح) ويستر الترادف العيوب اللسانية ، وما حكى عن الخطيب المصقع ، واصل ابن عطاء ، مشهور غير منكور ، وقد كان لا يحسن نطق «الراء» فخلت خطبته – التى ذم فيها بشار – من الراء ، ومن ثم مدحه الشاعر بقوله :

ويجعل البر قمحاً فى تصرفــه
وجانب الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق مطرا والقول يعجله
فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

قال الجاحظ : وسألت عثمان البرى : كيف كان واصل بن عطاء يصنع فى العدد : فى عشرة ، وعشرين ، والمحرم ، وصفر ، ورجب ، وربيع ؟ فقال : مالى فيه إلا قول صفوان :

ملقن ملهم فيما يحاولــه
جم خواطره جواب آفاق[(٨٠)]

وقد يستعذب الأديب نطق وتكرار ما لا يحسن نطقه ، ولا يستطيعه ، طرافة وملاحة ، أو حين يعجزه الإتيان بالمرادف ليتخلص من عيبه اللسانى فيمتص تهكم الآخرين بالعيب ، كصنيع أستاذنا الشيخ إبراهيم البديوى – وقد كان أديباً فكهاً وشاعراً فذًّا ، وله خلق ، وفيه مروءة وسماحة – أراد أن يهنئ الأميرة (فريال) وكان لا يحسن نطق الراء ، فقدم لقصيده بقوله :

مالى خرجت اليوم عن مكنون عاداتى
فنظمت قافيتى من « الراءات » . .

« الراء » من « فريال « قد كررتها
فنجــا لســانى وانجلــت عثراتى

فكانت مقدمته اعتذاراً بليغاً وملحة طريفة .

وبعد :

فإن اللغات تزداد ثروة وحيوية بقدر ما يتاح لها من شروط النماء والحياة . . . وفصحاناً أتيح لها من عوامل التنمية

الذاتية قبل غيرها ، بما لا نظير لها فى لغات العالم والكلمة الواحدة — قد تعطى من المعانى والدلالات بقدر ما يتاح لها من الاستعمالات ، « لأن كثرة الاستعمال لابد أن تخلق كلمات جديدة تلبى بها مطالب الحياة والإحياء والرقى . واحتفاظ لغتنا بالمهجور إرهاص بأنه قد يستعمل ، ويستغنى به لأنه رديف صالح » . .

بل وكان كل مِصْرٍ من العرب يفخر باستعمال لهجته وأنها أفصح من غيرها : يقول الجاحظ (البيان والتبيين ١/١٨) قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر : ليست لكم أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة . فقال ابن المناذر : أما ألفاظنا فأحكى لألفاظ القرآن ، وأكثرها موافقة له فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : (أنتم تسمون « القِدْر» برمة ، وتجمعونها على برم . ونحن نقول : قدر وقدور . وقال الله سبحانه : « وقدور راسيات » .

وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت « علية » وتجمعونها على علالى ، ونحن نسميه « غرفة » ونجمعه على غرفات وغرف . قال تعالى : « غرف من فوقها غرف مبنية » . وقال تعالى : « وهم فى الغرفات آمنون » .

وأنتم تسمون الطلع (الكافور) والإغريض . ونحن نسميه (الطلع) ، وقال الله تعالى : « ونخل طلعها هضيم » .

يقول الجاحظ عن أبى سعيد عبد الكريم بن روح : فعدّ عشر كلمات ، لم أحفظ أنا منها إلاّ هذه . اه.

ولعل هذا يطامن من حدة المنكرين للترادف اللغوى .

ويحكون إن إعرابيًّا وفد إلى اليمن لزيارة زيد بن عبد الله بن دارم ، على ربوته فقال له : « ثب » بمعنى اجلس فى لغة اليمن ، فقفز الإعرابى — سمعاً وطاعة — من العلو الشاهق ، فدقت عنقه ، لأنه ظن أن «ثب» بمعنى اقفز ، فقفز . وبعض اللغويين يستشهد بهذه القصة ، على أنه فى الإمكان التعبير عن شىء واحد بلفظين مختلفين ، ما دامت البيئتان اللغويتان متباينتين ، ولو صدر لفظ (وثب وقعد) بمعنى واحد عن قبيلة واحدة ، وفى بيئة لغوية واحدة . . لما كان ثمة احتمال للترادف بين اللفظين ، على أن المراد باختلاف بين لغتين الاختلاف بين لهجتين ، كلتاهما فرع للغة واحدة ، وتفرعهما عن أصل واحد ، هو الذى يسوغ ضم، ما عند هذه إلى تلك ، فيصح لنا — على هذا الأساس — التغنى بمآثر لغتنا ، التى

تشتمل على محصول لغوى لا مثيل له بين لغات العالم[٧١] .

وحسبنا أن نصفها عندئذ بأنها غنية وغناها ذاتى حفلت به معاجمها المليئة دليلا على ذلك .

ولن نستنكف عن رد الاعتبار إلى لهجة كل قبيلة لم تطرأ العجمة على ألسنتها ، ولم تلابس اللكنة الدخيلة ملاحنها ، فمثل هذه اللهجات سنستنبط منها مزايا لغتنا ، ومعانى مفرداتها وتراكيبها ومدى سعتها وتصرف أصحابها فى طرق تنميتها .

والترادف أخيراً : — كما يقول الشيخ عبد الله العلايلى : —

« عنوان على فراغ الأمة إلا من القول من وجه ، وعلى مرونة اللغة من وجه آخر . . وبما أنه أصبح صفة ظاهرة من صفات العربية إلى حد التغرد . وليس هذا فقط ، بل أصبح الأديب العربى يضيق جداً إذا لم تكن له فسحة من الألفاظ الشتى التى تتلاقى على معنى واحد .

وجب على الواضع الحديث ألا يهمل هذه الناحية أبداً ، وفى اللغة كفاء وغناء .. ويستطرد الشيخ العلايلى فيقول :

«ولكن ضعف الطبع اللغوى فى اللغويين ، جعلهم يتمنون على اللغة الأمانى : يتمنون أن لو كان لهم بهذه الكثرة من الترادف غنى يتناول ما فى العلم وما تجيش به النفس !! ولكنها أمنية — لو علموا — تنالهم أنفسهم دون اللغة »[٧٢] .

وسيبقى فى هذا الترادف الذى سخروا منه جوابها على مر الأيام والليالى ، هتافاً يثير شاكلة انتباه من سمع من يأتى من الأجيال :

أعزائى أبناء الضاد : هذا غناى إلى حد التزيد ، وهذا ضعفكم حتى عن الاستفادة بالأعلام المنثورة فى بطون معاجمى ، وفى متعرف السبل .

فلا ينبعى أن نغض الطرف ، ونقصر الجهد ، ونقر بالعجز ، ونرضى بالقليل ، ونرفض ونرد الترادف وقد ثبت وجوده ووضح كضوء الفجر الصادق ، لا ريب ولا شك فى ذلك.. » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » . .

توفيق محمد شاهين

المراجع

٤٤ ــ دلالة الألفاظ ٢٢١ .
٤٥ ــ مشكلات العربية للأستاذ محمود تيمور ١٥ نقلا عن « الفكر » التونسية .
٤٦ ــ « الفكر » التونسية س ٥ ع ٥ ص ١٠ .
٤٧ــ المصدر السابق س ٢١ ع ٤ للأستاذ مصطفى بوهلال .
٤٨ ــ المصدر السابق .
٤٩ ــ الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ٣٤ .
٥٠ ــ التعريفات للجرجانى ٣٤ .
٥١ ــ الإتقان للسيوطى ١/١٩٤ــ١٩٦
٥٢ ــ المزهر للسيوطى ١/٤٠٢ ، وحاشية البنان على المحلى ٢٩١ .
٥٣ ــ الصاحبى لابن فارس ٦٦ ، والمزهر ١/٤٠٣ .
٥٤ ــ المثل السائر لابن الأثير ٣٦٠ .
٥٥ ــ شرح البدخشى والإسنوى لمنهاج الوصول للبيضاوى ٢١٦ .
٥٦ ــ علم أصول الفقه للمرحوم الشيخ محمد عبد الله أبو النجا ٣٤ .
٥٧ ــ مميزات لغة العرب للأستاذ حفنى ناصف ٣٩ .
٥٨ ــ مقدمة ابن خلدون ١٠٦٤ .
٥٩ ــ دلالة الألفاظ د. أنيس ٢١٠ .
٦٠ ــ الترادف اللغوى للأستاذ مصطفى بوهلال س ٢١ ع ٤ مجلة « الفكر » التونسية .
٦١ ــ دلالة الألفاظ ٢١٥ .
٦٢ ــ الفكر التونسية س ٢١ ع ٤ ص ٥٥ .
٦٣ ــ دلائل الإعجاز للجرجانى ٣٥٢ .
٦٤ ــ المصدر السابق ٣٢٤ .
٦٥ ــ مشاهد القيامة فى القرآن ٦٦ .
٦٦ ــ المصدر السابق ١٠٨ .
٦٧ ــ دلائل الإعجاز ٨٥ .
٦٨ ــ تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جرجى زيدان ٥٥ .
٦٩ ــ شرح القصائد العشر ، هامش ٣٢٢ (للمحقق) .
٧٠ ــ نوادر المخطوطات ١/١٢١ ، والبيان والتبيين للجاحظ ١/٧١، وأمالى المرتضى ١/١٣٩
٧١ ــ درات فى فقه اللغة للشيخ صبحى الصالح ٣٠١ ، وراجع الصاحبى ٢٢.
٧٢ ــ المقدمة للشيخ العلايلى ٢٢٧ .

الأزهر جامعًا وجامعة
أو مصر في ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

٢

ذكرنا فى المقال السابق أن الحاكم بأمر الله أوقف سنة ٤٠٢ هـ رواتب المقيمين بالجامع الأزهر كما أبطل ليالى الوقود .

وفُقد الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ . وتولى بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله فأمر بإعادة ليالى الوقود وصرف المرتبات. ويحدثنا المقريزى : أنه فى ليلة النصف من رجب سنة ٤١٥ هـ حضر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ومعه السيدات وخدم الخاصة وغيرهم وسائر الرعايا والعامة . . فجلس الخليفة فى المنظرة . . يعنى منظرة الجامع الأزهر السابق ذكرها. وكان أيضاً فى ليلة نصف شعبان اجتماع لم يُشهد مثله من أيام العزيز بالله . وأوقدت المساجد كلها أحسن وقيد. وكان مشهداً عظيماً بَعُد عهد الناس به . . لأن الحاكم بأمر الله كان أبطل ذلك فانقطع عمله .

وبعد الظاهر تولى ابنه المستنصر بالله (٤٢٧ – ٤٨٧هـ) أى استمر عهده ستين عاماً . وفى عهده حصلت الشدة العظمى المعروفة التى استمرت سبع سنوات (٤٤٧ – ٤٥٤ هـ) لعدم فيضان النيل . فعزَّت الأقوات حتى أكل الناس القطط والكلاب .

وكان فى مصر فضلا عن المجاعة الأوبئةُ. وفتنٌ فى الداخل . واعتداءاتٌ من الخارج . وعجزت الدولة عن القيام بالتزاماتها فى المرتبات والأجور . فنهب الجند قصور الخليفة . وجرَّدوها من كل نفيس . وباعوا المنهوبات بأبخس الأثمان ليحصلوا على ما لهم من مستحقات. وجلس الخليفة المنتصر على حصير

لا يجد القوت إلا من تـَفـَضُّل إحدى المحسنات عليه . هكذا ذكر المؤرخون وقد يكون فيه بعض المبالغة . ولكن كان من الطبيعى أن يصرف النظر عن ليالى الوقود .

ويبدو أيضاً أن إبطالها استمر أيضاً فى عهد المستعلى بالله بن المستنصر بالله (٤٨٧ – ٤٩٥) حتى تولى الخلافة الآمر بأحكام الله بن المستعلى بالله (٤٩٥ – ٥٢٥ هـ) فأمر سنة ٥١٥ هـ بإعادتها . واستمرت حتى نهاية الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ .

ولم يكتف الفاطميون بالأزهر كأداة للدعاية لمذهبهم الشيعى فأنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم .

وقد أمر بإنشائها سنة ٣٩٥ هـ وحمل إليها الكتب من خزائن القصر ، وفرشها وزخرفها وعلّق على أبوابها وممراتها الستائر ، وأجلس فيها الفقهاء والقرّاء والعلماء والأطباء . وأقام فيها من يقوم على الخدمة والملاحظة والمحافظة . وأباح الاطلاع على الكتب ونَسْخِها لمن أراد . وكان كلّ حين يُحْضِر جماعة منهم للمناظرة بحضرته . . وأجرى عليهم الأرزاق . . وأوقف عليها ما يكفى لنفقاتها .

وكان مكان دار العلم المذكورة حارة « برجوان » الحالية بالخرنفش . وبرجوان هذا المنسوبة إليه هذه الحارة كان خِصِيّاً أبيض تام الخلقة من خدم العزيز بالله . أوصاه العزيز عند وفاته على ابنه الحاكم بأمر الله . واستولى على السلطة وأحسن التدبير . وبلغ النهاية من العز والنفوذ . فاشتغل بلذاته . وأقبل على سماع الغناء والطرب . واجتمع لديه الشعراء والموسيقيون . . وكان يقضى فى الأمور بدون استشارة . فنقم عليه الحاكم . ودبر له كميناً فى إحدى حدائق القصر الشرقى وقتله سنة ٣٩٠ . وكان عمر الحاكم عند ذاك ١٥ سنة . وذكره أبو الفدا فى المختصر باسم أرجوان .

ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مصر فى عهد المستنصر بالله الذى استدعاه من ولايته بعسقلان لمعالجة ما أصاب الدولة من ارتباك نزل بدر بدار « برجوان » وجعلها داراً للوزارة بدلا من دار يعقوب بن كلس السابق ذكرها فى المقال السابق . ثم جعلت دار برجوان داراً للضيافة ولاستقبال الرسل الوافدين من الخارج . وكانت دار العلم بجوار دار برجوان . وفى جزء من

مكان دار برجوان كان **سكن المقريزى** المؤرخ الكبير » .

وظلت دار العلم بمكانتها حتى وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى . فحدث سنة ٥١٣ أن بلغه أن بعض من فيها يفسدون العقول بفلسفتهم . وادّعى أحدهم — واسمه القصّار — الألوهية ، وتبعه كثيرون . فقبض على من وجده منهم وقتلهم . وهرب القصار . وأغلق الأفضل دار العلم .

ثم قتل الأفضل سنة ٥١٥ . وأمر الآمر بأحكام الله وزيره المأمون البطائحى بإعادة فتح الدار . ففتحت . وظهر القصار ثانية . واستفسد العقول . فقبض عليه وعلى أتباعه وقُتلوا جميعاً . وأغلقت الدار ثانية .

ولم يكن غلق الدار هذه المرة لأسباب دينية وفقهية فقط . ولكن أيضاً لأسباب سياسية . فقد كان.. يخشى من التجمعات حتى لا يقوى شأن النزارية وهم الذين كانوا يرون أن نزاراً بن المستنصر بالله. وهو عم الآمر بأحكام الله بن المستعلى بالله.أحق بالخلافة من المستعلى والآمر .

وأود أن أشير هنا إلى ما ورد فى كتاب (الأزهر وتطوره) إصدار وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر ص ٨ أن نزاراً المذكور هو والد الحافظ لدين الله الذى تولى الحكم بعد الآمر وهو سهو يلزم تصحيحه . فالحافظ هو ابن الأمير محمد أبى القاسم بن المستنصر بالله . فهو ابن أخى نزار لا ابنه (خطط المقريزى ، من المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ١٦ ، صبح الأعشى للقلقشندى حـ ٢ ص ٤٣١ ، المختصر لأبى الفدا حـ ٣ ص ٢١) .

ثم فتحت دار العلم بعد ذلك فى عهد الآمر بأحكام دين الله أيضاً . ولكن فى مكان آخر جنوبى القصر الشرقى الكبير فى الجزء الجنوبى من خان الخليلى فى موقع قريب من قهوة الفيشاوى الحالية. وظلت حتى انتهت الدولة الفاطمية .

وكما كان سكن المقريزى المؤرخ الكبير فى جزء من مكان دار برجوان بجوار دار العلم القديمة . فقد كان بجوار العلم الجديدة سكن مؤرخ مصرى آخر لا يقل أهمية عن المقريزى هو محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (٦٢٠هـ—٦٩٢) وكتابه (الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة) بكل أسف مفقود ولكن قد استعان به المقريزى فى خططه واستعاد كثيراً من فقراته . وذكر المقريزى سكنه باسم درب ابن عبدالظاهر

وقال : هذا الدرب بجوار فندق الذهب بخُطّ الزراكشة العتيق (خان الخليلى) وفى صفه ، وهو من حقوق دار العلم التى استجدت فى خلافة الآمر ووزارة المأمون البطايحى . فلما زالت الدولة اختط مساكن ، وسكن هناك القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فعرف به . اه . وظل هذا الاسم حتى عهد على باشا مبارك بجهة الحلوجى والصنادقية حتى زال الاسم والمكان بفتح شارع الشنوانى امتداد شارع السكة الجديدة (شارع جوهر القائد حالياً) . ونود أن نذكر أن على مبارك فى الخطط التوفيقية (ص ١٧ ص ٦٦) ذكر أن وفاة ابن عبد الظاهر كانت فى سنة ٧٩٢ هـ . وصحتها سنة ٦٩٢هـ كما ذكرنا وهو سهو أو خطأ فى النقل أو الطبع .

ويهمنا من موضوع دار العلم فضلا عن الناحية التاريخية أن نذكر أن إنشاءها لم يؤثر على قيمة الأزهر عند الفاطميين . فقد ذكر المقريزى أن الحاكم بأمر الله أوقف أوقافاً عديدة على الجامع الأزهر والجامع الأنور . وجامع المقس . ودار العلم . وكان نصيب الأزهر وحده من هذه الأوقاف $\frac{٧}{١٥}$ أى النصف تقريباً . وقد ذكر المقريزى فى الخطط (حـ ٢ ص ٢٧٤) حجة هذه الأوقاف وتفصيل توزيع أسهمها على المصارف المختلفة فى جهاتها المذكورة .

وجدّد الحاكم بأمر الله الجامع الأزهر ورفع سقفه ذراعاً عما كان . ووضع فى محرابه منطقة من الفضة وزنها ٥٠٠٠ درهم . وقد نزعها صلاح الدين الأيوبى بعد القضاء على الفاطميين . وبمتحف الفن الأسلامى (تحت رقم ٥٥١) باب الجامع الذى عمله الحاكم بأمر الله. وهو باب كبير بمصراعين ٢ متر × ٣,٢٥ متراً بهما نقوش وزخارف واسم الحاكم بأمر الله . وأيضاً بالمتحف محراب خشبى صغير من الممكن نقله من مكان إلى آخر . عليه نقوش وكتابة تدل على أنه عمل فى عهد الآمر بأحكام الله الفاطمى ١,٦٥ متراً × ١,١٩ متراً وهو تحت رقمى ٤٢٠ و٤٤٢ بالمتحف .

وجُدد الجامع فى عهد المستنصر بالله. كما جدد فى عهد الحافظ لدين الله . وأنشأ الحافظ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع . وكان موقع هذا الباب فى نهاية الطرقة المؤدية إلى الباب الحالى الكبير المطل على الميدان والمعروف بباب المزينين إلى صحن الجامع . وعرفت هذه المقصورة باسم مقصورة السيدة فاطمة . لأن السيدة فاطمة الزهراء رؤيت فيها بالمنام .

ولا يزال للآن من عمارة الحافظ لدين الله قبة بالمجاز حفلت جوانبها وقبتها بالزخارف والكتابات الكوفية ، وكلها آيات من القرآن الكريم فيها آية الكرسى وآيات من سورة يس ، وحفلت بزخارف جميلة ، وتعد أقدم قبة نقشت من الداخل

(الأزهر تاريخة وتطوره للمرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب) .

ورويت أسطورة أن بهذا الجامع طلسما . فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به . وكذلك سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره . وهو صورة ثلاثة طيور كل صورة على رأس عمود . وحدد المقريزى فى خططه (حـ ٢ ص٢٧٣) مواقع هذه الأعمدة .

ولكن المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب أثبت فى المرجع السابق ذكره بطلان هذه الأسطورة .فالطيور تغدو وتروح فى الجامع كقوله . وأن الأعمدة منقولة من آثار ومعابد قديمة. وأن نقش الطيور على أغلب هذه الأعمدة .

ونقول أنه ربما كانت الطيور لا تأوى فعلا إلى الجامع . فهى تفضل الأشجار أو الأماكن الهادئة . ولا أشجار فى الجامع . وهو فى حركة دائمة ليل نهار بين مصلين ومتعبدين ودارسين ومجاورين ممَّا أدى إلى رواج هذه الأسطورة .

وأسطورة أخرى ذكرها على باشا مبارك (الخطط التوفيقية حـ٢ ص١٦) إن فى أعلى المحراب الأصلى — أى قبل الأيوان الذى أضافة عبد الرحمن كتخدا كما سنذكر بإذن الله — على يمين المصلى صندوقاً موضوعاً على رف يقال أن به قطعة من سفينة ميدنا نوح عليه السلام . وقطعة جلد من بقرة بنى إسرائيل . وأن لذلك سراً عجيباً فى عمارته .

وعلمت من قدامى الموظفين بالجامع أن هذا الصندوق نقل إلى متحف الفن الأسلامى سنة بضع وثلاثين من القرن الميلادى الحالى . وقصدت المتحف للاستدلال عليه . ولكن لم أوفق فى العثور عليه ، وذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب (ص ١٦٠ فى المرجع السابق ذكره) أن هذا الصندوق فتح بمعرفة لجنة فى ١٠ / ٤ / ١٩٣٤ . وتبين أنه يحتوى على مجموعة من رقوق المصاحف الكوفية المدشوتة. وقطعة خشب أصلها رأس عبد ملفوف عليها قماش أخضر . وبلغ عدد المصاحف المدشوتة ١٦ مصحفاً بعضها بخط كوفى وبعضها بخط مغربى .

كذلك لم يؤثر إنشاء دار العلم على الأزهر فى دوره الثقافى والدعائى فيحدثنا ابن أبى أصيبعة (عيون الأخبار فى طبقات الأطباء حـ٢ ص٩٠) كما يحدثنا القفطى (إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١١٤) أن العالم العربى الشهير **الحسن بن الهيثم** كان يقيم بالأزهر .

والحسن بن الهيثم هو أبو على الحسن ابن الحسن بن الهيثم الذى يعرفه الغربيون باسم Alhazen . وعاش من ٣٥٤– ٤٤٢ هـ . أو بعدها (٩٦٥ – ١٠٥٠م) وكان أصلا من بغداد واستقدمه الحاكم بأمر الله لما بلغه من علمه . فقدم مصر واستوطن بها . .

وتعلمت منه أوربا الكثير عن نظريات الضوء وانكساره والعدسات وقوس قزح ، وتشريح العين وكيفية تكوّن الصور على شبكتها وأسماء أجزائها. وقد نقلت بعض هذه الأسماء العربية إلى اللغات الأوربية .

وقالت عنه دائرة المعارف الإسلامية : (وكان من أهم علماء العرب فى الرياضيات والطبيعيات . وكانت له فوق ذلك مشاركة فى الطب وعلوم الأوائل . خاصة فلسفة أرسطو . . . ثم قالت : وإن لكتاب (المناظر) أثر بالغ فى معارف الغربيين لهذا العلم فى العصور الوسطى منذ روجر بيكون Bacon (١٢١٤ – ١٢٩٤م) حتى كيپلر Kepler (١٥٧١ – ١٦٣٠م) .

وقالت عنه دائرة المعارف البريطانية أن ابن الهيثم هو أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى عالم البصريات .

وتعنى بطليموس كلوديوس الذى عرفه العرب باسم بطليموس القلوزى صاحب كتاب المجسطى الشهير فى الجغرافيا والفلك الذى ترجم للعربية عدة مرات . وهو عالم يونانى عاش بمصر وتوفى بها سنة ١٦١م . فكان بينه وبين ابن الهيثم ما يقرب من تسعة قرون .

وقال عنه مارتون أنه أكبر عالم طبيعى مسلم . ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر والضوء فى جميع الأزمان .

وعاش ابن الهيثم للعلم فلم يطمع فى مال أو جاه . وكان يكسب قوته من نسخ الكتب . ومع ذلك ترك ثروة علمية ضخمة تقرب من مائتى مؤلف . منها ٤٣ فى فى الفلسفية والعلوم الطبيعية ٠ و٣٥ فى العلوم الرياضية . وكتاب فى الطب من ثلاثين جزءاً . وغيرها . وعرفت جميعها بالعمق والدقة والأحاطة.

ورُوى عنه أنه فكر فى إمكان ضبط

مياه فيضان النيل عند أسوان . وهذا سبب استقدام الحاكم بأمر الله . وخرج الحاكم بنفسه لاستقباله عند الخندق (حى الدمرداش والمحمدى بالقرب من العباسية) وأرسله إلى أسوان ومعه جماعة ليستعين بهم فى هندسته . ولكنه لما ذهب إلى هناك شعر باستحالة ذلك ، ولم تكن الأمكانات العلمية من إقامة القناطر والسدود متقدمة كالآن . واستصغر نفسه أن يحاول ما لم يحاوله الفراعنة الأقدمون الذين تركوا هذه الآثار الضخمة على ما فيها من دقة الصنعة والهندسة واعتذر للحاكم . فولاه بعض الدواوين. فقبل الوظيفة رهبة لا رغبة ، فالحاكم كان سفاكاً للدماء . ثم أراد التخلص فادعى الجنون . فأمر الحاكم بوضعه تحت الحراسة بمنزله . واستولى على موجوداته . وظل كذلك حتى فقد الحاكم سنة ٤١١هـ فأظهر العقل وعاد إلى نشاطه العلمى .

وتوفى ابن الهيثم سنة ٤٤٢هـ أو بعدها. بالقاهرة ودفن بها .

كذلك يحفظ لنا التاريخ اسما من علماء الأزهر وأحد مدرسيه فى العهد الفاطمى هو المؤرخ القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ . وهو من أقدم من كتبوا عن تاريخ القاهرة وخططها . وكتابه (المختار فى الخطط والآثار) مفقود . ويشير إليه المقريزى والقلقشندى وغيرهما من المؤرخين فى أكثر موضع .

والقضاعى كان شافعى المذهب (حسن المحاضرة للسيوطى حـ١ ص ١٨٢) . ولم يمنع هذا من ولايته القضاء والتدريس فى الأزهر للتسامح وسعة الأفق التى اتسم بها الفاطميون . وله مؤلفات كثيرة أغلبها مفقود . منها تفسير للقرآن فى عشرين جزءاً .

وخلط على باشا مبارك بينه وبين أبيه المتوفى سنة ٣٩٩هـ . فذكر أن الأب هو المؤرخ . كما نسب للأب رؤيا لاحمد بن طولون . وهذا غير معقول لأن ابن طولون توفى سنة ٢٦٩هـ (الخطط التوفيقية حـ٥ ص ٤٨) .

وأمام الجامعة الأزهرية جامع الشيخ حسن العدوى أنشأه سنة ١٢٨٨ هـ — ١٨٧١م) وكان مكانه دار زينب بنت السلطان قلاوون . وقيل أن من ضمن المقابر التى بالجامع المذكور قبر محمد بن سلامة القضاعى صاحب الخطط وقبر أبيه . ولكن على مبارك أنكر هذا الزعم وقال أنهما مدفونان بالقرافة .

الأزهر فى عهد الأيوبيين :

وتوفى العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين فى عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ . وكان وزيره صلاح الدين الأيوبى قد قطع اسمه من الخطبة قبل ذلك بيومين . ولم يشعر العاضد بما حدث لمرضه . ودعا صلاح الدين فى الخطبة للخليفة العباسى المستضئ بالله المستنجد بالله .

وبذلك انتهت الدولة الفاطمية . وبانتهائها انتهى أيضاً المذهب الشيعى رسمياً فى مصر .

واستقل صلاح الدين بملك مصر مع التبعية الروحية للخلافة العباسية فى بغداد . ولكن كان لمصر كامل السيادة والاستقلال . وأراد صلاح الدين القضاء على المذهب الشيعى (مذهب الفاطميين) ووجد فى الأزهر أعلى بوق للدعاية والترويج لهذا المذهب . فقرر تعطيل خطبة الجمعة منه . اكتفاءاً بالخطبة فى الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم . مستنداً فى هذا على فتوى القاضى الشافعى بأنه لا تجوز خطبة الجمعة فى مسجدين فى مدينة واحدة . وقال صلاح الدين أن الجامع الأنور أوسع من الجامع الأزهر — وكان كذلك وقتها .

وهذا هو السبب فى أن من أسماء الجامع الأنور (جامع الخطبة) .

وقد ذكرنا فى مقال سابق نشر بمجلة الأزهر تحت عنوان (صلاح الدين الأيوبى وتعطيل الأزهر) عدد شعبان سنة ١٣٩٥ أغسطس ١٩٧٦ كيف لم يكتف صلاح الدين بذلك بل أخذ فى إنشاء المدارس العديدة فى القاهرة والفسطاط ، وبجوار مقام الأمام الشافعى للمذاهب السنية الشافعى والحنفى والمالكى ، وكيف تبع صلاح الدين فى هذا من أعقبه فى الحكم من بنى أيوب . حتى بلغ عدد المدارس التى أنشأها الأيوبيون ٢١ مدرسة فى مدة حكمهم التى لم تتجاوز ٨١ سنة . وهذه المدارس كانت عبارة عن كليات بكل معنى الكلمة .

وعانى الأزهر من هذه المحنة من انصراف الدولة عن الإنفاق عليه وإقبال الشيوخ والطلاب على المدارس الجديدة لما فيها من مزايا ومرتبات.

ولكن لم تكن المحنة كاملة فقد ظلت الدروس تلقى فى الأزهر . ويذكر لنا العالم العربى عبد اللطيف البغدادى الذى قدم مصر فى أواخر عهد صلاح الدين واستمر بها فى عهد ابنه العزيز. فقال فى كتابه المسمى (الإفادة

والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) المعروف بمختصر أخبار مصر : (وكانت مسيرتى فى هذه المدة أن أقرئ بالجامع الأزهر من أول النهار إلى الساعة الرابعة . ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره . وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر . ويقرئ قوم آخرون . وفى الليل اشتغل مع نفسى . ولم أزل على ذلك إلى أن توفى العزيز) اه . والعزيز توفى سنة ٥٩٥ هـ . واستمر البغدادى بمصر حتى سنة ٦٠٢هـ ثم تنقل فى بعض المدن الأسلامية ثم عاد إلى بغداد فتوفى بها سنة ٦٢٩ هـ.

وفى هذا ما يدل على أن الدراسة بالأزهر ظلت مستمرة . وأن الطب كان من ضمن العلوم التى تدرس فيه .

الأزهر فى عهد السلاطين المماليك :

وقد ذكرنا أيضاً فى المقال السابق ذكره كيف أنه بعد انتهاء الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨ هـ وانتقال الحكم إلى دولة المماليك البحرية . وفى عهد السلطان الظاهر بيبرس أعيدت خطبة الجمعة إلى الجامع الأزهر فى يوم الجمعة ١٨ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ ديسمبر سنة ١٢٦٦م) بعد تجديده وترميم الواهى من جدرانه وإصلاح سقوفه وتبليطه وتبييضه وفرشه حتى عاد حرماً . وهذا بعد أن ظلت الخطبة منقطعة منه ٩٨ عاماً .

واستند بيبرس فى هذا على فتوى من القاضى الحنفى بجواز خطبة الجمعة فى مسجدين فى نفس المدينة . بعد أن رفض القاضى الشافعى ذلك . وأن هذا كان من الأسباب التى أدت بيبرس إلى إنشاء نظام القضاة الأربعة . أى قاضى قضاة لكل من المذاهب الأربعة الشافعى والحنفى والمالكى والحنبلى . ولكن ظل قاضى قضاة الشافعية مقدماً على غيره وله امتيازات مثل نظر الأوقاف وبيت المال ومال الأيتام وغيرها .

وقد اضطررت لهذا التلخيص من المقال السابق نشره ليترابط البحث أمام القارئ بما لا يدعوه للرجوع إلى أعداد سابقة .

وسنتكلم فى المقال التالى بإذن الله عن الأزهر فى عهد السلاطين المماليك .

محمد كمال السيد

المجتمع الإسلامى إبَّان غزوة تبوك

الأستاذ / السيد حسن قرون

تبوك آخر غزوات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم التى قام بها بنفسه وقد اجتمع له فيها جيش كبير بلغ عدده ثلاثين ألفاً على حين كان جيشه فى غزوة بدر ثلثمائة وثلاثة عشر جنديًّا ، ففرق ظاهر بين هذا الجيش فى السنة التاسعة من الهجرة ، وجيش بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، وهذا يدل على أن الإسلام قد نما نموًّا مطرداً ، ولا سيما بعد فتح مكة إذ دخل الناس فى دين الله أفواجـًا .

وفى هذه الغزوة غيَّر الرسول خطته فأخبر بوجهة غزوه ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، وليستقلوا سفراً بعيداً ، ولقاء عدو خطير ، فقد بلغ رسول الله أن الروم قد حشدت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق جنده لسنة ، وجلب معه من العرب لخم وجذام وعاملة وغسان ، إذ كانت تلك القبائل تحت سلطانه وتدين بعقيدته ، ذلك أن الروم منذ بلغهم كتاب رسول الله إلى قيصر يدعوه فيه إلى الإسلام بدأ أتباعهم يتحرشون بأصحاب رسول الله ، فقد قتل الغساسنة أحد الصحابة ، وكان الغساسنة من الجنوب هاجروا إلى الشمال وأسسوا إمارة عربية تدين بسلطان الروم — فأرسل الرسول إليهم حملة تأديبية قوامها ثلاثة آلاف جندى بقيادة الأمراء : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة فكانت غزوة (مؤتة) ، ولكن هذه الحملة لم تحقق ما ذهبت إليه لأنها واجهت جيشـًا كبيراً مكوناً من مائتى ألف جندى منهم مائة الف من العرب ، وفى هذا يقول عبد الله بن رواحة .

فرحنا والجياد مسومات
تنفس فى مناخرها السموم
فلا وأبى (مآب) لنأتينها
وإن كانت بها عرب وروم

فلا عجب إذا قتل الأمراء الثلاثة

فى معركة غير متكافئة ، واستطاع خالد ابن الوليد أن يداور ويناور ويرجع بالجيش إلى المدينة ، فإذن استعداد الرسول لملاقاة هؤلاء الأعداء الذين يهددون الأمة الإسلامية كان استجابة لحماية أتباعه ولحماية العقيدة حتى لا تكون فتنة ، وهذا ما دعاه إلى أن يخرج فى وقت غير صالح للحرب ، فقد كان الصيف حاراً ، والثمار قد تهيأت لجنيها والمال غير موفور . إنها ساعة عسرة تحتاج إلى إيمان قوى وعزيمة لا تعرف للجهاد زمناً ، لذا كانت امتحاناً له ولأصحابه .

وقد يدور فى الأذهان سؤال لماذا تحرش الروم ولم يتحرش الفرس بسبب كتب النبى ؟ . . والجواب لقد تحرش كسرى حين بلغته الدعوة فمزق كتاب النبى فدعا عليه بتمزيق ملكه ، بل لقد أرسل إلى عامله « باذان » باليمن أن يبعث من قبله من يثق به ليمنع هذا العربى من دعوته ، فأرسل باذان رجلين من خاصته ، فلما بلغا المدينة وقابلا النبى أمرهما أن يحضرا إليه غداً ، ونفذا أمره ، فحين حضرا أخبرهما أن كسرى قتل وقتله ابنه فى يوم كذا ، فرجعا إلى باذان فأخبراه بحال النبى ومقتل كسرى ، وانتظر باذان ثم جاءته الأخبار بصدق النبى ، فأسلم هو ومن معه .. فالخطر من الشرق بعيد الاحتمال لموت كسرى والصراع حول عرشه .

أما الشمال فحدثت فيه تلك المناوشات التى صارت حروباً ، ومع أن قيصر أحسن استقبال رسول النبى إلا أنه كان للمسلمين بالمرصاد خوف أن ينتزع الشام من يده . . وكان النبى وصحبه يشفقون على أتباعهم منه .

مم تكون جيش المسلمين الذاهب إلى تبوك : المهاجرون والأنصار هم جند الإسلام ، والمهاجرون إيمانهم خالص يسكنون المدينة كما يسكنها الأوس والخزرج ، ويمتازون عن الأنصار بوحدتهم الثابتة وولائهم المحض . . ومع الأنصار الذين أخلصوا دينهم لله ووقفوا مع الرسول ضد المشركين واليهود ، كان جماعة من المنافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ومعهم بقايا من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام للكيد له ، وهذا كله له أثره على الجيش المحارب الذى يقوده صفوة الخلق لتكون كلمة الله هى العليا وليحمى الدولة الناشئة من الأخطار . فقد تقدمت الدعوة حدود الجزيرة العربية حين بلغت كتبه الملوك والأمراء .

ومن بدء الأمر بالتهيؤ للرحيل

وللغزو ظهرت تيارات منبسطة ، وكان الوقت — كما قلت — وهو الصيف القائظ وموعد جنى الثمار وقلة الأموال مما يساعد النفاق على إشاعة الروح الانهزامية.. وقد سجل القرآن تلك الغزوة تسجيلا كشف النفاق وزلزل أركانه ، ومحص قلوب المؤمنين قبل الرحيل وبعده وأثناءه فى سورة « التوبة » .

وقد تجلى إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين فى أجلى صورة ، فأقبل المؤمنون على رسول الله بأموالهم وأنفسهم اختياراً لا اضطراراً ، فنجد عثمان بن عفان يتبرع بألف دينار غير رواحله ، وعبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وهى نصف ماله فى ذلك الحين ، ويتبرع أبو بكر بماله ، فيقول له الرسول : ما أبقيت لعيالك ؟ فيجيب : أبقيت لهم الله ورسوله ، وكذلك فعل أغنياء الأنصار وفقراؤهم . ولكن انظر معى إلى تصرف النفاق .

قال الرسول للجد بن قيس : يا جد، هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر (الروم) فكان جوابه .. يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى أن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه الرسول ، وعذره أقبح من ذنبه ، وقد سجل القرآن موقفه .. قال تعالى : —

«ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى إلا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » .

وقال بعض المنافقين : لا تنفروا فى الحر نكوصاً عن الجهاد ، وشكًّا فى الحق وإرجافا بالنبى فأنزل الله فيهم ، « وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يعقلون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون». فما أسخف عقولهم : إنها مشقة قليلة منقطعة بجانب حياة ناعمة متصلة ، وقد بلغ الأمر بهم أنهم كانوا يتآمرون بمنزل (سويلم اليهودى) ومادروا أن الوحى كاشفهم ، والرسول يتعقب أخبارهم ، ومن لؤمهم أنهم يلمزون المتبرعين بالأموال. قالوا عن عبد الرحمن ابن عوف وعاصم الأنصارى ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وقالوا عن أبى عقيل وقد تبرع بصاع من تمر لا يملك غيره : الله غنى عن صاع أبى عقيل. والقرآن يقول فيهم «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » .

وهذه الغزوة لأهميتها وما تعطيه من نتائج أمر الله بها وحث عليها أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فقال : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

ومعنى هذا أن التخلف عن الجهاد نقيصة فى الدنيا وخزى فى الآخرة ، لذا جاء من لا يملكون المال ولا وسيلة الانتقال إلى النبى يطلبون إليه أن يحملهم وهم البكاؤون فقال لهم : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . أما المنافقون فجاؤوا معتذرين بأعذار واهية كانت لهم فضيحة فى ذلك المجتمع الذى يتهيأ لنشر النور فى الآفاق . وتجمع للرسول العدد والعدة فأمر بالمسير ، وكان نفر من المسلمين أبطأت بهم نيتهم حتى تخلفوا عنه دون شك وارتياب ، منهم كعب بن مالك من شعراء الرسول ، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وأبو خيثمة ، وأبو ذر الغفارى ، فلما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع واستعمل على المدينة « محمد ابن مسلمة الأنصارى » وضرب عبد الله ابن أبى بن سلول عسكره أسفل منه فى (ذباب) جبل بالمدينة وممن ضم عسكره المتخلفين وذوى الارتياب .. وكان عسكره زهاء عسكر النبى .

ورحل النبى ومن معه جلهم صادق الإيمان يرغبون فى الجهاد والاستشهاد وقليل منهم اندسوا فيهم إما حياء ورياء وإما تثبيطاً . وعلى بعد ثلاثة أميال من المدينة عند (الجرف) توقف الجيش ، على حين رجع ابن أبى وعسكره إلى المدينة كما فعل فى غزوة أحد انفصل بثلث الجيش ورجع من حيث أتى ، وقال للأئمة : لا قتال هناك .

ولم يسكت المنافقون عن الشائعات والجيش قد رحل ، فقد أشاعوا للوقيعة بين النبى وابن عمه وزوج ابنته فاطمة — على — وقد خلفه فى المدينة أن الرسول ما خلفه إلا استثقالا له وتخفيفاً منه ، وبلغ علياً مقالتهم فحمل سلاحه وخرج يجد حتى أتى الرسول وهو بالجرف فقال : يانبى الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى لأنك استثقلتنى ، وتخففت منى . فقال : كذبوا ولكنى خلفتك لما تركت من ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك . أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟ فرجع على وتحرك الجيش نحو مقصده . وكانت للمنافقين الذين رحلوا مع النبى مواقف نابية

عالجها النبي بحكمته العالية ، فحين نزل الجيش بقرى النبي صالح (الحجر) أمر النبي أصحابه ألا يشربوا من بئر الظالمين ، ولا يستخدموا ماءها فى الطعام فلما أصبحوا ولا ماء معهم شكوا إلى رسول الله ما يلاقونه من عطش ، فدعا فأرسل الله سحابه فأمطرت حتى ارتووا واحتملوا حاجتهم من الماء ، وإذا برجل من بنى الأشهل يعرف نفاقه . قالوا له : هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة .. وضلت ناقة لرسول الله فخرج أصحابه فى طلبها . فقال زيد بن اللصيت القينقاعى — وهو فى رجل عمارة بن حزم ، وعمارة عند الرسول — أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال رسول الله وعنده عمارة بن حزم : إن رجلا قال : كذا وكذا — كأنه سمعه — إنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى هذا الوادى فى شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها ، فذهبوا فجاءوه بها . ويرجع عمارة إلى رجله ، فيقص ما جرى متعجباً فقال رجل كان مع المنافق زيد : زيد والله قال هذه المقالة ، فأقبل عمارة عليه يطعنه فى عنقه ، ويصيح : إلىّ عباد الله ، إن فى رجلى لداهية ، وما أشعر . اخرج أى عدو الله من رجلى فلا تصحبنى . ويتحدث المنافقون والجيش منطلق إلى تبوك : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين فى الحبال .

يقولون ذلك إرهاباً للمؤمنين ، وإضعافاً من عزائمهم ، وأنكر عليهم قولهم رجل من أشجع ود أن يضرب كل منهم مائة جلدة ولا ينزل القرآن فاضحاً لهم . ويطلع الله رسوله على مقالتهم ، فيرسل إليهم عمار بن ياسر قائلا له أدرك القوم فانهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا فانطلق عمار إليهم بما حمل ، فهرعوا إلى النبي يعتذرون فقال وديعة بن ثابت من بنى عمرو بن عوف : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فنزل قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم . . » وإذا كانت هذه الصورة قائمة فإنك ترى بجانبها صورة مشرقة مضيئة ، الإيمان يزيدها تألقاً وتنوقاً [1] ، ترى ذلك بيّناً فى رجلين

---

(١) تنوق فى الأمر تأنّق فيه وتجمّل .

تخلفا عن رسول الله : أحدهما أبو خيثمة مالك بن قيس الأنصارى ، والآخر أبو ذر الغفارى. أما أبو خيثمة فكان من أمره أنه تخلف أياماً عن الرحيل ، ثم رجع إلى منزله يوماً فرأى زوجتيه فى بلهنية من العيش الرخيم: بستان وطعام وماء ، فلما رآهما على تلك الحال الحسنة قال : رسول الله فى الضح والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ ، وكامرأة حسناء فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج يغذ السير ، وفى طريقه أدرك (عمير بن وهب الجمحى) وعمير هذا قرشى كان عدو الإسلام فى غزوة بدر ، وتآمر على قتل الرسول بعدها، ها هو قد أسلم وحسن إسلامه وخرج يجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه وطلب إليه أبو خيثمة أن يتأنى فى سيره حتى يسبقه إلى لقاء الرسول ، فأجابه عمير إلى طلبه ، فلما دنا من الجيش قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل فقال الرسول : (كن أبا خيثمة) . فقالوا : يارسول الله إنه والله أبو خيثمة فلما أناخ راحلته أقبل فسلم على رسول الله فقال له: «أولى لك يا أبا خيثمة (يهدده بذلك)» فقص عليه أبو خيثمة قصته فقال له خيراً ودعا له بخير ، وصور ما جرى أبو خيثمة فى شعر قال :

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا
أتيت التى كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدى لمحمد
فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
وكنت إذا شك المنافق اسمحت
إلى الدين نفسى شطره حيث يمما

وأما الآخر وهو أبو ذر ، فقد ركب بعيره قاصداً رسوله فأبطأ عليه فنزل عنه وحمل متاعه على ظهره وأسرع يدفعه شوقه ، ونزل رسول الله فى بعض منازله فنظر من المسلمين فقال : يارسول الله : إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده. فقال رسول الله : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم قالوا : هو والله أبو ذر فقال رسول الله : رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده . وقد كان وبلغ النبى تبوك فأتاه يحنة بن رؤية صاحب (أيلة) ميناء على البحر الأحمر فصالحه ودفع إليه الجزية وأمره النبى على عمله وأتاه أهل جرباء وأذرح فكتب لهم كتاب الأمان وقدموا إليه الجزية ، ثم نظم النبى جيشه وأعد نفسه لملاقاة بنى الأصفر وقيصر ، وأقام

بتبوك عشرين ليلة يصلى بها صلاة المسافر ، وينزل عليه الوحى وهرقل قيصر الروم بحمص لا يجرؤ على الإقدام عليه ، وكان رئيس حرسه (عباد بن بشر الأنصارى) ثم انتدب خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارساً لفتح دومة الجندل — وكانت تتوسط موقعاً مهماً بين العراق والشام والحجاز ، كان أميرها (أكيدر بن مالك) رجل من كندة يدين بالنصرانية ، فقال لخالد: انك ستجده يصيد البقر . وصد من الله رسوله ، فقبل أن يدنو خالد بجيشه قالت امرأة أكيدر له والليلة قمراء وقد نظرت من عل إلى بقرات تسرح : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله. قالت : فمن يترك هذه ؟ فأغراه قولها بصيدها فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم إخوان له : حسان ومضاض فخرجوا ، وطاردوا البقر ، وتصادف وصول خالد، فاستأثر أكيدر ومضاض وأبى حسان إلا القتال فقتل ، وهرب من كان معهم فدخل الجيش الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتى به رسول الله على أن يفتح له دومة الجندل ففعل وصالحه خالد على أشياء سماها له . فقال شاعر من طيئ حضر المعركة .

تبارك سائق البقرات انى
رأيت الله يهدى كل هاد
فمن يك حائداً عن ذى تبوك
فانا قد أمرنا بالجهاد

وفى تلك المدة مات من أصحاب الرسول ذو البجاوين — سمى بذلك لأنه أسلم وأراد اللحاق بالرسول فمنعه قومه حتى أخذوا ملابسه فلم يبق له إلا كساء غليظ ، فشقه اثنين جعل منهما إزاراً ورداء فكان له هذا الاسم . تحدث عبد الله بن مسعود قال : قمت من جوف الليل وأنا مع الرسول فى غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجاوين قد مات وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله فى حفرته وأبو بكر وعمر يدنيانه إليه وهو يقول : أدنيا إلى أخاكما ، فدلياه إليه، فلما هيأه لدفنه قال : اللهم إنى أمسيت راضياً عنه فارض عنه . يقول ابن مسعود : ياليتنى كنت صاحب الحفرة.

ثم أمر الرسول بالقفول إلى المدينة ، فلبى الجيش أمره ، وسار حتى بلغ المدينة ، وكان خروجه إلى تبوك فى رجب والعودة فى رمضان من نفس العام فقال : الحمد لله على ما رزقنا فى

سفرنا هذا من أجر وحسبة ثم وافاه خالد بن الوليد قادماً من دومة الجندل ومعه أكيدر وأخوه فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما . ويحكى أنس بن مالك — وكان فى الغزوة — يقول : رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه . (القباء من ديباج مخوص بالذهب) فقال رسول الله : — أتعجبون من هذا ؟ فو الذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا :

وكان هذا توجيهاً سديداً من الرسول لأصحابه حتى لا تغرهم الدنيا فيجعلوا همهم إليها ، وأراهم نعيم الجنة لمن سبق منهم إلى دار البقاء مشيراً إلى الشهيد سعد بن معاذ ، لتكون القدوة ماثلة والزهد حاضراً .

انتهت الغـــزوة على الصورة التى قد مناها ، وبينا مالقى الرسول فيهامن الصادقين والمنافقين ، ولها نتائج يطيب لى أن أتحدث عنها من واقع الأحداث .

لم تقع مواجهة بين المسلمين والروم فى تلك الغزوة ، ولكنها أعطت انطباعاً فى قلوب قيصر ومن معه ، وجعلتهم يحجمون عن الإغارة على الجزيرة العربية ، وقد دخل أمير دومة الجندل فى حوزة الإسلام وكذلك صاحب أيلة ، وبذلك عرفت حدود الدولة حينئذ ، ومن هنا يتسنى للنبى وأصحابه أن يواجهوا الجزيرة العربية بأسسس الإسلام وقواعده من هنا تأمير أبى بكر للحج فى هذا العام ، وإعلان على بن أبى طالب القبائل فى يوم الحج الأكبر أنه لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وأن من له عهد من الكفار فعهده إلى مدته . . . وتهيأ الزمان ليؤدى فى العام المقابل رسول الله فريضة الحج وقد زال الكفر وحل الإيمان وانتشر النور فى كل مكان ، ولتكون تلك الحجة حجة الإسلام كما سماها السلف الصالح لا حجة الوداع كما هو المشهور .

ولينتهى النفاق ويقتلع من جذوره قال الله لرسوله :

(يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) وأخذ الرسول يستقبل المعتذرين فيعذرون والله لا يعذرهم : « يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

إن النفاق قاتل لحامله ولمجتمعه فصاحبه مضطر لأن يتعامل فى جانبين يلقى المسلمين بوجه ويؤدى معهم الصلاة

كسلان ، وينفق من ماله فى النزوات مكرهاً وهذا يؤلم نفسه ويؤرق ليله ، ومن جهة أخرى يستخفى عن الأبصار ليجلس مع اليهود أو الكفار أو مع امثاله ممن هم مذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء فيقولون منكراً ويخوضون فى أحاديث تحسب عليهم لألهم ، ثم هم مع هذا لم يبلغوا مبلغ الأذكياء الذين ينظرون إلى المستقبل من ستر رقيق فلو حكموا عقولهم ، وأزالوا الغشاوة عن أبصارهم لتكشفت لهم الأمور بما يسرهم ويبلى همهم ، إن الدين قد كملت وسائله ومقاصده أو كادت ، ويوشك بعد قليل أن يكون مصدر تلق لمن حوله ، لكنهم عموا فلا بد أن يعالجهم الرسول بثاقب رأيه ، وباهر عبقريته ، وبما يتلو عليهم من الآيات البينات .

يقول النسفى إن المنافقين كانوا ثلثمائة ، والمنافقات مائة وسبعين ، ويقول كعب ابن مالك أحد المؤمنين الصادقين الذين تخلفوا عن الجهاد : إن الذين تخلفوا كانوا اثلاثة وثمانين ومعنى هذا أن المدينة وهى دار الهجرة كانت تحتاج إلى جهاد من النبى وصحبه فإذا أضفنا من حولها من الأعراب وهم أشد كفراً ونفاقاً كما جاء فى سورة التوبة عرفنا مبلغ المعاناة ، والقدرة الكبيرة التى تواجه كل هذه الأعباء .

وضرب النبى بأمر الله النفاق فى صلبه ، فأمر بهدم مسجد الضرار كما سماه القرآن ، وكان أصحابه واتوه صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يارسول الله : إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فقال : إنى على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قد قدمنا — إن شاء الله — لأتيناكم فصلينا لكم فيه وأعلم الله رسوله أن هذا المسجد سيكون حرباً لله ورسوله ومعداً لاستقبال الفاسق أبى عامر الراهب : لذا وجب هدمه إبقاء على وحدة المسلمين ، ومنعاً للشغب ، وهذا العمل وضع المنافقين فى حيز الرعب والنصب ، ومات رأس النفاق عبد الله بن أبىّ ، فوقف الرسول على قبره مجاملة لابنه المؤمن (عبد الله) وتحمل الرسول عتاب ربه ، قال نعالى ، يخاطب رسوله ، « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ».

ويروى الرواة : أنه أسلم ألف من الخزرج لمجاملة النبى لابن هذا المنافق الفاسق . ومعنى هذا أن أعداداً كبيرة رجعت عن غيّها ، وآمنت بربها ودخلت فى المجتمع الإسلامى بقلوب سليمة .

من كل ذلك أرى أن الرسول عالج الأمر بالعنف تارة وباللين أخرى حتى استقام الأمر فى المدينة فى هذا العام ولا ننسى موقفه من الثلاثة الذين خلفوا وهم قادرون على الغزو ، وقلوبهم مليئة بالإيمان ، فقد أقبلوا عليه واعترفوا بذنوبهم ، فجعل الرسول أمرهم إلى ربهم ، ونهى أصحابه عن الحديث إليهم أو التعامل معهم فكان هذا تأديبًا له أثره فى النفوس وخطره على الذين يخالفون جميعاً . والثلاثة الذين خلفوا هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية وكلهم من الأنصار ، اعتزلهم المسلموون تنفيذاً لأمر النبى ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت — وضاقت عليهم أنفسهم ، ولزموا بيوتهم إلا كعب بن مالك فكان يخرج ولايجد أحداً يكلمه ، وبعد أربعين ليلة من الاعتزال أمر النبى أن يعتزلوا نساءهم لأنهن مؤمنات حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . يقول كعب بن مالك : كنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريبًا منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذ طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله فسكت وكرر منا شدته ثلاث مرات — فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى ، ثم عدت إلى السوق فبينا أنا امشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه إلى أهل المدينة يقول : من يدل على كعب ابن مالك ؟ فجعل الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتاباً من ملك الشام ، فإذا فيه : « أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك » قلت حين قرأتها وهذا من البلاء أيضًا قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فى رجل من أهل الشرك فعمدت بها إلى تنور فسجرته بها .

وحين تاب الله عليه فرح النبى بقبول توبته هو وزميليه ، ويشرهم المسلمون فرحين ، فقد أنزل الله على رسوله :

« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين

والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » قال كعب : فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام كانت اعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ إلا أكون كذبته فأهلك الذين كذبوا ، فإن الله قال فيهم شر ما قاله لأحد قال تعالى . « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » ويقول — وهو فهم عظيم منه : وليس الذى ذكره الله من تخلفنا من الغزوة ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عمن خلف واعتذر إليه فقبل منه. وهذا الأمر شغل أهل المدينة خمسين ليلة ، ولا ريب أنه ترك أثراً فى كل سكانها فالمؤمنون زادوا إيماناً والمنافقون حاسبوا نفوسهم ، ورجعوا عن غيهم.

وشىء آخر عالجه النبى فأفلح فيه وحسمه فى حينه ذلك أن المسلمين بعد أن رجعوا من تبوك جعلوا يبيعون أسلحتهم ويقولون : قد انقطع الجهاد ، فبلغ ذلك رسول الله فنهاهم وقال : لا تزال عصابة من أمتى يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال ، وفى هذا العام جاءته الوفود من أنحاء الجزيرة العربية .

وهكذا كانت تلك الغزوة معلماً من معالم الدعوة ، ومنهجاً من مناهجها استكملت بها أركانها من صلاة وصيام وحج وزكاة ، وجهاد فى سبيل الله — لا ينقطع ما دامت كلمة التوحيد تجمع المسلمين فى كل مكان : لا إله إلا الله محمد رسول الله . لذا ختمت سورة براءة بقوله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولو فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

وقد فهم خلفاؤه من بعده هذا الكلام فبلغوا به ذروة المجد فى الدنيا ، ومناط الحمد فى الآخرة وما زلنا فى حاجة إلى الاقتداء بهم ، وبين يدينا كتاب الله وسنة رسوله ، ولن نضل ما تمسكنا بهما أبدا . .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

السيد حسن قرون

الفراغ الديني ورسالة التصوف

الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلي القرني

لا تكف الصحف والمجلات فى الآونة الأخيرة عن ترديد كلمة « الفراغ الدينى » كأنها مشكلة نشبت حديثاً ولم يكن لها وجود سابق قبل أن تنفجر الأحداث الأخيرة .

والحقيقة التى لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان هى أن الفراغ الدينى مرض صاحب المادية فى زحفها على الشرق من الغرب ، وكان نتيجة لهذه الحمى المجنونة للقوة والسرعة وسيطرة المال وشهوة التسلط والجشع . لقد كان الفراغ الدينى ميراثاً من مخلفات الحضارة الغربية التى عنيت بالمظهر دون المخبر ، وبالعرض دون الجوهر ، وكان من جراء ذلك أن تسابق الناس فيما لا طائل تحته ، وعنوا باختراع كل ما يكفل الغلبة والقوة والسيطرة دون اعتراف أو تفكير فيما يحقق الأمن ويكفل الأمان ويرفع من شأن الإنسان .

والحق الذى لا مرية فيه أنه لم يتم التمكن للإنسان فى عصر من العصور كما أتيح له فى هذا العصر ، فهو قد قبض بيده على ناصية العلم يسخره فى تحقيق كمالياته كما يشاء . . ولقد بلغ من تمكنه أن وصل إلى أرض القمر يذرعه بقدمه جيئة وذهاباً ، ووصل به الفكر إلى قمة الخيال ، بل فاق الخيال ، وأخرجت المطابع — وما زالت تخرج فى كل يوم وساعة — آلاف الكتب والمقالات من نتاج العقول وابتكارات الخيال ، ومن بين هذا النتاج كتب دينية لا حصر لها . . كان فى الإمكان أن تنير الطريق وتوضح المسالك وتهدى المسيرة ، وكثير من هذا النتاج رائق الأسلوب مشرق العبارة ، هذا إلى جانب ما تقدمه موجات الأثير من كلمات منيرة وبرامج مثيرة . . . ومع ذلك فقد ازدادت الأرواح جدباً والقلوب فقراً والعقول فراغاً . . وما زلنا نمد أيدينا صباح مساء إلى ما يملأ

هذا الفراغ دون جدوى . لقد تقدم العلم حقاً ولكنه لم يقدم للإنسان حاجته من الحكمة الهادية والرحمة الحانية والدعوة الصافية ، إنه فصل بينه وبين الدين بسد منيع من المادية التى تلهى ، والمظهرية التى تطغى والنفعية التى تعمى ، لقد عادى العلم الدين حتى أصبح كل منهما فى واد بعيد عن الآخر ، وحتى وصلت هذه العدوى إلى علماء الدين أنفسهم ، فأصبح الدين عندهم شكلا ، وشعائره رسوماً ، وحقائقه مجرد مثل من المثل العليا التى يعبر عنها بأنها مطمح فوق إمكانية الوصول وغاية بعيدة المنال .

هذه الحيرة ما أسبابها :

لقد أفاق العلماء والمفكرون أخيراً على أحداث جسام ذكرتهم بما يجب عليهم ، وكانت فجيعتهم فى أحد العلماء الأعلام بصورة بشعة شرارة ألهبت الخواطر حول ما يجرى فى نفوس الشباب من أعاصير الحيرة والضياع .

ولقد صنع هذه الحيرة أسباب كثيرة أهمها — كما أشرت — تلك المادية الزاحفة التى أكلت كل غذاء للروح فى طريقها ، والتى وضعت على العيون والعقول غشاوة لا ترى إلا بها ، ولقد غدا كل ما يشغل البال هو جمع المال لا يبالى أن يكون جمعه من حرام أو حلال .

ومنها افتقاد القدوة الطيبة التى يقتدى بها الشباب ، فليس أمامه ذلك المثل الكامل الذى يملأ سمعه وبصره نوراً وقلبه يقيناً . ومنها هذه الأفكار الواردة والتيارات العاصفة التى تملأ طريق الشباب بالأشواك وقلبه بالشكوك ورأسه بالأوهام ، ويظاهر هذه الأفكار ويروج لها شياطين من الإنس همهم إشاعة البهتان والتعمية على الحق فى كل ميدان .

ومنها هذا المجون الظاهر والفساد الرائج واللهو السائد والأغلال المتسلطة .. حتى أصبح كل ذلك هو القاعدة والعازف عنها هو الشاذ ، وما أقل هذا الشاذ ، وما أضعف رأيه وأسفه عقله فى نظر الناس ، لقد أصبح فى هذا العصر سخرية الساخر وضحكة العابث .

ومنها وسائل الإعلام التى زينت الفساد بمختلف الألوان وقدمت للشباب مثلا لا تتفق وقواعد الدين ومبادئ الأخلاق ، ولا تخلو دار من جهاز من أجهزة الإذاعة بنوعيها ، ومن صحيفة أو مجلة ، ولا يكاد يخلو شارع أو حى من دار للخيالة أو ملهى من الملاهى .. وكل ذلك يسهم بنصيب فى نفث السموم وبث الضياع .

ومنها هذا التأرجح القائم بين شخصيتين مختلفتين . إحداهما من صنع التراث العربى المفقود الذى له عبيره الفواح ، والأخرى من صنع هذا الحاضر الذى اشتركت فى صنعه عوامل متناقضة قد تغرى ببريق متوهج ولكنه لا يضىء ، ولقد نتج عن ذلك أن أصبح المسلمون غرباء ، وغربتهم — كما يقول الدكتور عون الشريف فى مقال أخير له — مزدوجة . فشبابهم الذين تربوا بعيداً عن التراث فى مناهج التربية الحديثة مبتورون عن جذورهم غرباء عن أصول حضارتهم ، وهم فى كثير من اتجاهاتهم العقلية والسلوكية يرددون صدى المنجزات التى تتحقق فى أرض غير أرضهم ، ويتمسك أكثرهم فى ذلك بدعوى عالمية الحضارة . . وبعضهم مبتورون عن روح العصر بحكم ثقافتهم المتخصصة ، وهم فى نفس الوقت مبتورون عن روح تراثهم الذى كان يتخذ الدين قاعدة الانطلاق فى آفاق المعرفة . ومن هنا برز الانفصام فى شخصيتهم .

هذه بعض أسباب الحيرة والفراغ ، وكان لذلك أثره المروع الذى ملاء الحياة ألماً وحسرة وضياعاً . .

وما العلاج إذن ؟

لقد طرحت هذه القضية للبحث وتناولتها أقلام الكتاب والعلماء ، فمنهم من حمل المسئولية للمسجد ، ومنهم من حملها للمدرسة ، ومنهم من حملها لوسائل الإعلام ، ومنهم من حملها للبيت ، ومنهم من حملها لروح العصر وهكذا بحث من بحث عن المشجب الذى يعلق فوقه الثوب . . ولكن الأمر أكبر من ذلك ، فليست المشكلة فى البحث عمن يتحمل المسئولية ولكن فى البحث عن كيف يتحمل المسئولية . . حقاً إنها مسئولية هؤلاء جميعاً . ولكن كيف يتمكن كل من هؤلاء أن يتحمل المسئولية ؟ . . إنه لابد من إحياء الروح الدينى فى النفوس وإشاعته فى نواحى المجتمع المختلفة ، وبعث الطاقة الإيمانية الدافعة إلى العمل والمحافظة على تعاليم الدين السمحة ومبادئه الكريمة . . أما إحياء هذا الروح فذلك هو جوهر رسالة التصوف . .

ضرورة إحياء التراث الروحى :

إن المصلحين فى مختلف العصور لم يستطيعوا أن يغفلوا التنبيه لدور التراث الروحى ووجوب الانتفاع به فى خلق

مجتمع مثالى خال من العقد والفساد ، ولئن فشل بعض هؤلاء فى تحقيق ما يريدون فإنما يرجع هذا الفشل إلى أن شعارهم الذى يرفعونه لم يتحول إلى تطبيق عملى وحقيقة واقعة .

ولا شك أن التسلح بالقيم الروحية يخلق طاقة دافعة للتقدم ، وعزيمة قوية على الإصلاح . . ومن أجل ذلك كان المغرضون — ولا يزالون — يحاولون تحطيم هذا السلاح الروحى بوسائل مختلفة ، من بينها خلق التفسيرات التى تجعل الدين يتصادم مع الحياة . . ومن قبيل ذلك ما يرمون به التصوف من جمود . . وتخلف . . وأنه يقف حجر عثرة فى طريق التقدم والازدهار ، وأنه لكى نتقدم إلى الأمام لا بد أن نتخلص من ثقله .

ولقد قال ذلك من قاله لأنه يعتقد أن الحياة يمكن أن تتقدم على المادة فحسب . . ولقد جرب العالم كله ذلك فوجد الحياة لا تثمر فى ظل المادة سوى الشوك والحنظل ولم تؤد إلا إلى الحيرة والضياع .

قال ذلك لأنه يعتقد أن التصوف إنما هو « دروشة » وسلبية وخمول وكسل . . وأن المتصوفة جميعاً هم أصحاب الشعور الشعثاء المرسلة والملابس المهلهلة والعبارات الشاطحة والغيبيات الجامحة . .

وهذا فهم خاطئ للتصوف والمتصوفة فالتصوف فى حقيقته سمو ورفعة وتعطش دائم للمعرفة ، ونزوع للخشية ، وملازمة للتقوى ، ومجانبة للهوى ، ومراعاة للإخلاص . .

هو مشاهدة للحقائق ، وابتعاد عن التواكل ، ومراقبة دائمة ، ومحاسبة ملازمة ، وتحل بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، ونأى « عن سفساف الأمور وتفكر » فى عواقبها .

هو فكرة مشتعلة ، ويقين كامل ، وشوق متقد ، وحب لله لا تنطفئ جذوته ولا تخمد شعلته ، هو عمل متكامل لخيرى الدنيا والآخرة فى ضوء قوله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » وهو نشاط متواصل .

المتصوفة هم الذين عرفهم السيد محمود أبو الفيض المنوفى فى كتاب المدخل إلى التصوف الإسلامى بقوله «المتصوفة هم المجتمعة على الله هممهم ، المتعلقة بعظمته وحكمته ألبابهم ، الذين لا تشهد سوى الله أسرارهم ، وليس إلا إليه غدوهم ورواحهم . . فهم أحكم الناس وأعقلهم ، وأقرب الخلق إلى الحق وأكرمهم لأنهم أتقاهم » . .

إن الذين دخلوا غمار المتصوفة وليسوا منهم أو ليسوا متخلقين بأخلاق التصوف حقيقة لا ينبغى أن يحسبوا على التصوف فى شىء ، وليس من أجلهم نرمى التصوف بكل نكير ونصم أتباعه بكل سوء ، ولكن علينا أن نكون موضوعيين فى نظرتنا إلى التصوف وأهله ولا جدال — كما تقول مقدمة كتاب اللمع للطوسى — ان التصوف ابتلى كما ابتليت المعارف الإسلامية كلها بالدخلاء والأدعياء سلوكاً وقولا ، ولهذا نجد أئمة التصوف منذ القرن الثالث الهجرى وهم يحذرون وينذرون ، والسراج يحذر منهم ويشير إليهم ثم يضع قاعدة ذهبية للتصوف والصوفية وهى : أنهم علماء قاموا بشرط العلم ثم عملوا به ثم تحققوا فيه العمل فجمعوا بذلك بين العلم والحقيقة والعمل ، ولهذا كان الصوفية عبر التاريخ نماذج للجلال الخلقى والروحى ونماذج للكمال التعبدى والإيمانى ونماذج عالية سامقة فى أفق العلم والمعرفة كما يقول ماسينيون : إن رجال المعرفة الصوفية فى الإسلام كانوا دائماً النماذج التى تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار فى الإسلام .

وكيف إذن ندرك الغث من السمين :

والغيورون علـى التصوف الآن لا يبرئون أصحاب الطرق الصوفية من الشوائب التى تسربت إلى التصوف عبر عصور الضعف والاضمحلال الفكرى والحضارى — كما يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى مقال له بصحيفة الأهرام — حتى غلب على المتصوفة ما غلب على غيرهم من رجال الدين من العناية بالشكليات والرسوم التى لا صلة لها بجوهر التصوف ، وهذا الأمر هو الذى حدا بهؤلاء الغيورين إلى أن يعقدوا المؤتمرات لوضع حد للأخطاء التى يتردى فيها بعض المتصوفة عن قصد أو غير قصد ، حتى انتهت مؤتمراتهم إلى وضع قرارات وتوصيات وجدت طريقها إلى مجلس الشعب الذى صاغ لائحة جديدة لأبناء الطرق الصوفية وهى لائحة تبشر بالخير ان طبقت تطبيقاً صحيحاً ، ومن هنا يمكن إدراك الصوفى الحق من غيره ، فالصوفى الحق هو الذى يرمى بقصده إلى الله ، هدفه الأسمى تعمير باطنه وتنوير قلبه وتحرير نفسه من اسار شهواتها حتى تكون جديرة بمعرفة الله . أما غيره فمعنى بتزيين مظهره وتكثير

أتباعه وتحسين سمعته عند الناس جلباً للثناء وطلباً للعطاء .

التصوف المستنير ورسالته :

ولا يغفل أحد دور التصوف الحق فى بث الإيمان فى نفوس الشباب وإثارة الحماس الدينى فى قلوبهم ، وتبديد اليأس من حياتهم ، وإيقاظ جذوة الشعور المبنى على أساس من الحب الملهم — الحب لله ولرسوله وللناس جميعاً ذلك لأن التصوف له روحانيته القوية ومبادئه السمحة وصفاؤه المشرق وعزماته الماضية مما يجعل له عصاً سحرية تنفذ إلى الأعماق وتمس شغاف القلوب ، فتبدد ظلمات النفس وتجعل العمل الذى يقوم به الفرد خالصاً لوجه الله لا يبغى من ورائه جزاء ولا شكوراً .

إننا لم نشعر بحاجتنا إلى التصوف أكثر من حاجتنا إليه اليوم ونحن نبحث عن أسباب الفراغ فى نفوس الشباب ، ونحن نرمى إلى إعادة بناء نهضتنا ومستقبلنا ونحن نتطلع إلى سد الثغرات والانقسامات والخلافات بين أبناء الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ونحن نقاوم حملات الإلحاد والتشكيك ونزعات الكفر والتضليل ، فللتصوف إلهاماته القوية وفيوضاته الربانية ، ولرجاله الذين نرجو أن ترسم خطاهم عزم راسخ وإرادة صلبة ومثالية نادرة وإخلاص عظيم .

إن احتياجنا إلى التصوف لا يقف عند حدودنا وما تستوجبه ظروف بلادنا من أعباء تتطلبه ، ولكن العالم كله من أقصاه إلى أقصاه يشعر بحاجته الشديدة إلى الدفعة الصوفية الملهمة لتسدد طريقه وتحرس خطاه ، لقد أفلست القوى المادية وشعرت بقصورها عن تحقيق السعادة للناس ، وآن للقوى الروحية أن تأخذ طريقها الصحيح بين الشعوب وتتبوأ مكانتها العالية بين الأمم ، والثورة الروحية التى يتوق إليها المصلحون تعنى إنطلاق القوى الصوفية السليمة فى جميع جوانب الحياة حتى تمتلئ قوة وعزة ، وعفة ونقاء وصفاء وإخلاصاً ، لقد كان الروح الصوفى هو القوة الكامنة وراء العزة الإسلامية التى لم تهزم أمام الدنيا ، ولم تزل حيال بريقها ولم تلن أمام وثبات الجاهلية الباغية وحشودها عبر السنين والقرون كما يقول صاحب كتاب اعلام التصوف .

إن الاتجاه المادى الذى يسيطر على العالم اليوم ويدفعه إلى التسابق المجنون فى شتى ميادين الصراع يحتاج دائماً

إلى قوة تكبح جماحه ، ولن تكون هذه القوة إلا فى الاتجاه إلى الأفق الأعلى ، حيث يشعر الناس بالأمن والراحة والصفاء حيث ينسى الإنسان أحقاده وآلامه وشراسته ولا يذكر إلا أنه عبد ضعيف لا حول له ولا قوة . إن الإنسان الذى يملأ الدنيا ضجيجاً يصبح فى منتهى الذلة والمسكنة حينما يتعرض لأزمة أو تصيبه وعكة أو تضطرب الخطأ فى طريقه وحينئذ لا يجد مناصاً من أن يهتف من أعماقه طالباً النجاة فى حمى مولاه .

وهذا الاتجاه الإجبارى إلى الله إنما يفعله أهل التصوف طواعية بدافع الحب الذى يسيطر على قلوبهم نحو مبدع الوجود وخالقه ، لقد عرفوا الله بالحب فأبدلهم بالخوف أمناً وبالاضطراب اطمئناناً وبالقلق أنساً .

لم يعد هناك أمل فى إنقاذ الشباب إلا الروح وهذا واجب التصوف ، فبعد أن أفلت المذاهب والفلسفات فى الشرق والغرب لن تجد مفرا من أن تولى وجهها نحو جوهر الإسلام وحقيقته ، ذلك الجوهر الذى يكمن فى التصوف لأنه يعنى بذلك تمام العناية .

آثار فقدان القوة الروحية :

لو أن القوة الروحية هى التى توجه أنظار القادة والساسة فى العالم لما حدث هذا الصراع الدامى والمؤامرات المتفشية والقلاقل والاضطرابات التى تفزع الآمنين فى كل مكان ولما ذهبت بلايين (الدولارات) أدراج الرياح فى كشوف لا تسمن ولا تغنى من جوع ولوجهت إلى ما فيه خير الإنسانية جمعاء ولا استطاعت أن تحل مشكلات الجوع والفقر والتخلف التى تسود بقاعاً مختلفة وتقتل أقواماً وتضعف آخرين .

إن التسابق المحموم نحو المادة يقضى فى عرفه اللا أخلاقى أن تهدر الغلات وتقذف المنتجات الزراعية فى المحيطات ويعاد إلقاء الأسماك إلى البحار بعد اصطيادها حتى لا تكون كثرتها سبباً فى تخفيض أسعارها .

فلو أن هناك قوى روحية توجه أسلوب العمل والحياة لما تردى هؤلاء إلى هذا الدرك من النفعية المزرية والاستغلال المقيت . وهذه أمثلة طفيفة لما يسود العالم ولا علاج لذلك وغيره إلا التصوف الحق ، فهو الذى يرفع الناس فوق ضعفهم البشرى ويمكنهم

من السيطرة على شهواتهم ورغباتهم المحمومة .

إن دعوة الإصلاح لا تثمر إلا إذا كانت نابعة من صميم قوم انتصروا على شهواتهم وارتفعوا إلى مستوى الأعمال النورية الناضجة ، والتصوف هو الذى يحقق ذلك بتربيته الصحيحة وقدوته الكريمة ومثاليته الفريدة . ذلك أن التصوف هو كما يظهر أمثلة لا تحصى من الأقوال والأفعال نذكر بعضها :

قال الشبلى : التصوف هو التآلف والتعاطف والحرية هى حرية القلب .

ومن أقوال الخلدى : الفتوة الصوفية احتقار النفس وتعظيم حرمة المسلمين ، وسعى الأحرار لإخوانهم لا لأنفسهم أما الجنيد فيقول : التصوف هو العلو إلى كل خلق شريف والعدول عن كل خلق دنى .

والصوفية القدامى كانوا صورة مثالية فى الإيثار والود والتعاون والاهتمام بأمر الخلق استجابة للأثر الوارد من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

المتصوف الذى نريده :

ولكننا إذا دعونا لأن يأخذ المتصوف زمام المبادرة وأن يتسلم راية القيادة فعلينا أن ندعوه هو أولا بأن يحقق روح التصوف فى نفسه ، بمعنى أن يكون صورة صادقة للصوفى الحق الذى رأيناه فى الحسن البصرى والفضيل بن عياض والحارث المحاسبى وحجة الإسلام الغزالى وأبى الحسن الشاذلى وعبد الوهاب الشعرانى ومحمد عبده وأمثالهم ممن تركوا فى الطريق الصوفى آثاراً طيبة تشهد بحسن ريادتهم وعظمة قيادتهم .

لا نريد من المتصوف أن يكون رسماً بدون حقيقة وشكلا بدون مضمون وظلا حائلا بدون جوهر نريده أن يكون صورة للإشراق والسمو والرفعة والعمل الحق الدءوب حتى يظهر أثره السريع الواضح بين أتباعه ومريديه .

إن الصوفى الحق هو الذى ينطق الكلمة إذا بها شعلة حية مضيئة تمضى قدماً إلى قلوب السامعين وتنطبع فى أرواحهم ، ذلك لأنها خرجت من فم مؤمن بما يقول فعال لما ينطق حريص على الصدق فى القول والعمل والنية ، ولقد سئل أحد الصوفية : ما بالك تعظ فيبكى كل الحاضرين وواعظ المدينة يعظ فلا يبكى عند سماعه أحد ؟ فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

نريد أن يكون المتصوف إماماً فى الزهد الإيجابى والمعرفة والتقوى والصلاح وأن يكون شعلة متقدة لا تخبو من الإصلاح والهداية ، وقدوة طيبة فى العمل الحى واليقظة الكاملة .

لا نريد أن يكون المتصوف عالة على غيره جاهلا فى قوله وفعله ، أداة تحطيم للنفوس الواعية والقلوب العاملة .

نريده أن يكون جامعة إسلامية عميقة يطمئن إليها المجتمع ويهتدى بهديها ويقبس من لألائها ، ولا نريده أن يكون انطوائياً انعزالياً داعياً إلى الهزيمة والهروب أمام المسئوليات .

إننا الآن على الرغم مما يمر بنا فى مد دينى يبشر بصلاح الأمور وجدير بالتصوف أن يأخذ مكانه فى هذا المد لتكون اليقظة الدينية مبينة على أساس روحى متين . لقد آن الأوان ليدرك القائمون بأمر التصوف واجبهم الروحى الكبير فى قيادة هذا الشباب الحائر وفى شغل فراغه بما يملأ نفوسه يقيناً ويشبع أرواحه من زاد التقوى والصلاح .

إن الهدف الذى يشغل بال الصوفى هو معرفة الله والوصول إليه وإشاعة الحب بين الناس ولقد أسهر الصوفية ليلهم وأظمأوا نهارهم فى سبيل هذه الغاية السامية ، وهيهات أن يشعر عارف الله بفراغ .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

فى الصدق

قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

روح الحق في إنجيل يوحنا
وهل هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم

بقلم :
المستشار محمد عزت الطهطاوي

سبق للدكتور محمد السنباطى المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر أن حرر مقالا نشرته جريدة الجمهورية القاهرية فى عددها الصادر يوم الجمعه ١٧ من فبراير سنة ١٩٧٨ تحت عنوان (رسول السلام لكل البشر) بمناسبة المولد النبوى أورد فى هذا المقال نصًّا من إنجيل يوحنا فى الإصحاح ١٦ عدد ١٣ ، ١٤ قوله على لسان المسيح عليه السلام (وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم) .
وانتهى الدكتور محمد السنباطى فى مقاله إلى القول بأن المسيح عليه السلام فى هذا النص إنما يحدث عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام (فمحمد هو نور الحق والحق هو السلام) .

إلا أن هذا الرأى لم يلق قبولا من جانب بعض طوائف النصرانية لذلك نشر أحد كهنتهم وهو الدكتور غرينوريوس تعليقاً فى صحيفة الجمهورية بتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٧٨ خلص فيه إلى أن سياق الحديث فى النص الوارد بإنجيل يوحنا السابق الإشارة إليه عن روح الحق هو عن (الروح القدس وليس عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام بناء على تحقق وعد المسيح عليه السلام لتلاميذه ورسله وحوارييه عنه فى يوم الخمسين كما أورده سفر أعمال الرسل فى إصحاحه الثانى .

وقد حرر الدكتور محمد السنباطى مقالا آخر وافيًّا تحت عنوان بيان وبيان بتاريخ ١٣ / ٣ / ١٩٧٨ورد فيه أن النص المذكور يشير فى تفسيره إلى أن روح الحق هو محمد عليه الصلاة والسلام وذلك بناء على شهادة كبار الدعاة

والباحثين المسيحيين من أمثال (الأستاذ إبراهيم خليل) الذى كان أستاذاً للعقائد بكلية اللاهوت بأسيوط وقسيساً مبشراً بالإرسالية الألمانية فى أسوان سابقاً — فى كتابه (محمد فى التوراه والإنجيل والقرآن) — كما أورد شهادة الأستاذ (بشرى زخارى ميخائيل) فى كتابه (هكذا بشرت الأناجيل) .

ولئن كان فى المقال القيم للدكتور محمد السنباطى الكفاية إلا أننى أرى من واجبى خدمة للبحث العلمى أن أضيف النقاط الآتية :

يذكر الدكتور غرينوريوس (أن سياق الحديث يشير إلى أن روح الحق هو الروح القدس بناء على تحقق وعد المسيح عليه السلام لتلاميذه ورسله وحوارييه عنه فى يوم الخمسين لقيامته من بين الأموات) طبقاً لما ورد فى سفر أعمال الرسل فى إصحاحه الثانى وبالرجوع إلى هذا الإصحاح الثانى فى سفر أعمال الرسل يتبين أنه لا يشير من قريب أو من بعيد إلى أن **روح الحق هو روح القدس** — بل إن عبارة **(روح الحق)** لم ترد إطلاقاً فى الإصحاح المذكور — لذلك كان ماذهب إليه الأنبا غريفوريوس فى تفسيره من أن **(روح الحق) هو (روح القدس)** قول لا دليل له عليه وفيه تحميل للنصوص بما لا تحتمل والروح القدس كما فسره الفيلسوف المسيحى سبينوزا فى كتابه (رسالة فى اللاهوت والسياسة) يعنى الفكر الصائب المستقيم المستوحى من الله — أما عن روح الحق فهو ليس بهذا المعنى والحقيقة أن (روح الحق) نبى إنسان كما يشير النص به — وقد وضحه القديس يوحنا نفسه صاحب الإنجيل فى رسالته الأولى بالإصحاح ٤ عدد ١ بذلك فى قوله :

أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم — بهذا تعرفون روح الله) .

وقد استكمل القديس يوحنا ذلك الإيضاح بدقة فى عدد ٦ من تلك الرسلة بقوله (من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال) أى من هذا نعرف النبى الصادق من النبى الكاذب ويكون ذلك بعد اختبار هؤلاء الأشخاص وامتحانهم

وفيما ذكره السيد المسيح عليه السلام طبقا لما ورد عنه بالإصحاح ١٦ عدد ١٣ بإنجيل يوحنا فى قوله (لأنه لا يتكلم

من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية) قول لا يصدق إلا على إنسان يأتيه الوحى من السماء فهو لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع به من أمور الوحى يتكلم به فروح الحق طبقاً لهذا النص له صفة السمع والصفة لا تقوم إلا بذات .

وهذه البشارة ألا تصدق فى دلالتها على نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم إذ كان إنساناً يأتيه الوحى من السماء فيبلغه للناس بعد سماعه له لذلك فهو لم يتكلم من نفسه بل كل ما سمع من الوحى تكلم به وأخبر بكثير من الأمور الغيبية طبقاً لما ذكرته واحتوته صحاح السنة المطهرة وكتب السيرة النبوية . وفى قول المسيح عليه السلام الوارد بإنجيل يوحنا بالإصحاح ١٥ عدد ٢٦ ، ٢٧ ما يؤيد القول بأن روح الحق نبى إنسان وهذا النص هو:

(ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى) فالسيد المسيح يقرر فى هذا النص أن المعزى هو روح الحق ويشهد للمسيح عليه السلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم قد شهد للسيد المسيح بالنبوة والرسالة وشهد بطهارة أمه السيدة مريم بعد أن أنكر اليهود الرسالة والنبوة على السيد المسيح وطعنوا فى شرف أمه .

قد يقول قائل إن النص الوارد فى الإصحاح الرابع عشر عدد ٢٦ من إنجيل يوحنا يقرر أن (المعزى هو الروح القدس) وذلك فى قوله (وأما المعزى الروح القدس) .

إلا أنه بالرجوع إلى الأصل اليونانى لذلك النص وهو أساس ترجمة إنجيل يوحنا إلى كل لغات العالم ومنها اللغة العربية نجد أن أصل تلك العبارة (Hepikhator) وقد ترجمت إلى باقى اللغات الأجنبيه بعبارة (pericletos) ورسمت باللغة العربية (البارقليط) فى طبعات الكتاب المقدس القديمة وتعنى هذه العبارة فى معناها الحرفى (أحمد) وهو من أسماء رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ومفتاح صلاتهم الحمد لله — ومن ذلك نتبين أن المعزى هو روح الحق وليس الروح القدس (وقد قام بهذا التحقيق اللفظى للعبارات السابقة الباحث المسيحى المرحوم زكى النجار فى أبحاثه التى ضمنها كتابه (المنارات الساطعة فى

ظلمات الدنيا الحالكة والمطبوع سنة ١٣٦٩هـ سنة ١٩٤٩م .

ولقد سأل المرحوم الأستاذ عبد الوهاب النجار الدكتور (كارلونيلنو) المستشرق الإيطالى عن معنى الكلمة اليونانية السابق الإشارة إليها (Hedikhator) فقال ان معناها (الذى له حمد كثير) وهذا يوافق أفعل التفضيل فى اسم أحمد ويتفق مع ما ذكره القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام لقومه فى سورة الصف آية ٦ فى قوله (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوارة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

وهذه المناقشة مع الدكتور (كارلونيلنو) الإيطالى أوردها الأستاذ محمد رضا فى كتابه (محمد رسول الله) ولقد بلغ من وضوح هذه العبارة ودلالتها على اسم النبى محمد صلى الله عليه وسلم أن أحد الباحثين الإنجليز وهو المستر (أدوين جونس) يذكر فى كتابه (نشأة الديانة المسيحية) والمطبوع فى مطبعة كيجن بول وشركاه بلندن إن عبارة (pericletos) تعنى صراحة اسم (محمد) والمسيحيون لا يمكنهم أن ينكروا ذلك ثم نجده بعد ذلك للأسف بدلا من أن يبحث فى توافق الوحى الإلهى عند المسيح عليه السلام وعند الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه من آيات القرآن يفترض فرضاً غير معقول فيتهم المسيحيين بأنهم أقحموا تلك العبارة جهلا منهم فى إنجيلهم بعد ظهور الإسلام وتأثرهم بالثقافة الإسلامية .

وأما عن **روح القدس** فإنه لا يقال له روح الحق لأن روح الحق إنسان له صفة السمع (كما ذكرنا آنفاً) (فلا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به) — لكن روح القدس هو الذى كان يحل على الأنبياء عليهم السلام بمعنى أنه العناية الربانية روح الحكمة والفهم التى كانت تحل على هؤلاء الأنبياء والرسل وفى نصوص الكتاب المقدس ما يؤيد هذا القول طبقاً للآتى :

١ — ورد فى مزمور ٥١ عدد ١٢ قوله على لسان داود عليه السلام .

(وروحك القدوس لا تنزعه منى)

٢ — ورد فى سفر اشعيا إصحاح ١١ عدد ١ وما بعده قوله (ويخرج قضيب من جذع باسمى ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة

والقوة روح المعرفة ومخافة الرب — ولذته تكون فى مخافة الرب فلا يقضى بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه بل يقضى بالعدل للمساكين إلخ . . . . .

ومما تقدم يتضح بجلاء ان روح الحق ليس هو روح القدس وأن روح الحق تحوى بالإشارة أو بطريق الدلالة البشارة من قبل المسيح عليه السلام بنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم رسولا يأتى من بعده قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) سورة الإنعام ٢٠ .

محمد عزت الطهطاوى

فى التقوى

قال صلى الله عليه وسلم :

إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا ، وأتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء .

أخطاء شائعة

الأستاذ / عباس أبو السعود

٤٠١ ويصفون من لم يجرب أحداث الحياة بالبساطة ، فيقولون : هذا رجل بسيط ، كما أنهم إذا أرادوا أن يصفوا الشيء بالقلة قالوا : إنه بسيط ، وكل هذا خطأ ، لأن كلمة بسيط فعيل بمعنى مفعول أى مبسوط ، يقال : فراش بسيط ، وثوب بسيط أى مبسوط منشور ، ومنه البساط المعروف الذى يبسط ويفرش على الأرض . وكذا يقال : أرض بسيطة أى منبسطة متسعة ، قال تعالى « والله جعل لكم الأرض بساطاً » . وقال الشاعر :

ولو كان فى الأرض البسيطة منهمُ
لمختبط[1] عاف[2] لما عرف الفقر

ويقال : رجل بسيط الوجه إذا كان متهللا مسروراً ، لأن الإنسان إذا سر انبسط وجهه ، ومن المجاز قولك : إنه ليبسُطنى ما بسطك ويقبضنى ماقبضك : أى يسرنى ماسرك ويسوءنى ماساءك ، وفى حديث فاطمة رضى الله عنها « يبسطنى ما يبسطها » أى يسرنى ما يسرها ويقال : فلان بسيط اليدين إذا كان كريماً مسماحاً ، والجمع بسط قال :

فى فتية بُسُطِ الأكف مسامح
عند الفصال[3] قد يمهم لم يدثر[4]

والبسطة السعة والفضيلة ، يقال فلان فى بسطة من العيش أو العلم قال تعالى « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » ، ويقال بسط فلان يده إذا مدها ، ومن هذا قوله تعالى « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » ، كما

(١) المختبط : من يسأل بلا وسيلة ولا قرابة .

(٢) العافى : طالب المعروف ، جمعه عفاة كقضاة .

(٣) الفصال : الفطام .

(٤) لم يدثر : لم يندثر ، وبابه دخل ، يقال دثر الرسم يدثر دثوراً إذا درس وانمحى .

يقال : بسط الله الرزق إذا وسَّعه وكثَّره ومن هذا قوله جل شأنه « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ».

والبساطة السعة تقول : بسُط المكان بساطة كفصح فصاحة إذا اتسع .

مما أوردنا من معانى البساطة وما اشتق منها استبان أن هذه المعانى لاصلة لها بمعنى عدم الخبرة ، ولا بمعنى القلة

ولإصلاح تعبيرهم الأول ليؤدى المعنى الذى يريدونه ينبغى أن يقال : هذا رجل غِرّ بكسر الغين أو غَرِّير بالفتح ، أو غير مجرب ، والأنثى غرة ، أو غريرة ، أو غر بغير هاء بينة الغرارة ، والإسم الغِرَّة بالكسر ،

أو يقال : هو ساذج ، وهى ساذجة ، والجمع سُذّج وزان ركع .

ولإصلاح التعبير الثانى يحس أن يقال : هذا شىء قليل ، أو هذا شىء يسير من يسر الشىء ييسر يسراً من باب قرب فهو يسير ، أو يقال : هذا شىء تافه أو ضئيل ونحو ذاك .

٤٠٢ ويقولون : لهذا الرئيس على مرءوسيه سلطة هائلة ، يأمرهم فيأتمرون ، وينهاهم فينتهون ، يعنون قهره وشدته ، وهذا التعبير يشوبه الخطأ ، لأن كلمة السلطة عامية ، والصواب أن يقال : له عليهم سَلاطة بفتح السين ، وسُلوطة بضمها من قولهم سَلُط عليهم سلاطة كفصح فصاحة ، وظرف ظرافة .

أو يقال : له عليهم سُلطان أى تسلط وتحكم ، كما فى قوله تعالى « ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً » أى تسلطاً بالمؤاخذة وطلب القصاص ، وقوله سبحانه . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سُلطاناً » أى تسلطاً يكون سبباً فى انتصاركما على هؤلاء الكفرة المارقين.

وللسلطان فوق هذا المعنى معنيان آخران :

أحدهما الوالى وتذكيره أغلب عند الحذّاق ، وقد يؤنث فيقال : قضت به السلطان أى السلطنة قاله ابن الأنبارى وجماعة ، وقال أبو زيد . سمعت من أثق بفصاحته يقول : أتتنا سلطانٌ جائرة ، جمعه سلاطين ، وقد يطلق السلطان على الجمع كما فى قول الشاعر :

عرفت والعقل من العرفـــان
أن الفنى قد سد بالحيــــطان
إن لم يُغنّــنى سيـــد السلطـــان

أى سيد السلاطين وهو الخليفة

والمعنى الآخر الحجة والبرهان ، ومنه

قوله تعالى « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسُلطان مبين » أى وحجة بالغة القوة . وقوله سبحانه على لسان سليمان عليه السلام فى الهدهد . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ». أى ببرهان واضح على عذره، وهو بهذا المعنى لا يجمع ، لأن مجراه مجرى المصدر ويقال : رجلٌ سليط إذا كان فصيحاً حديد اللسان بيِّن السلاطة ، وامرأة سليطة إذا كانت صخّابة طويلة اللسان ، فهو مدح للذكر ، ذم للأنثى

٤٠٣ ويقولون : التزم فلان بدفع الغرامة المقررة علينا ، وهذا خطأ ، لأن هذا الفعل مطاوع لفعل ينصب مفعولين وهو ألزم كما فى قوله تعالى . وألزمهم كلمة التقوى » وقوله . « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » فلابد أن ينصب المطاوع مفعولا به واحداً ، وهاهم أولاء قد عدوه خطأ بالباء فقالوا بدفع الغرامة ، والصواب أن يتعدى بنفسه فيقال : التزم فلان دفع الغرامة المقررة

ومثل هذا قولك : التزم هذا النصرانى الدين الإسلامى إذا اعتنقه ، فالدين الإسلامى مُلْتَزَم بصيغة اسم المفعول، ومنه قيل لما بين الكعبة والحجر الأسود ملتزم لأن الناس يعتنقونه أى يضمونه إلى صدورهم .

أما الثلاثى فإنه يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد ، تقول : لزمت فلانا ألزمه من باب سمع لَزْما ولُزوماً ولزاماً بالكسر أيضاً ، وقد يتعدى إلى المفعول بالباء فيقال : لزمت بغريمى ليؤدى ما عليه لى .

٤٠٤ ويقولون : حظرت الحكومة التجول فى الشوارع ليلا ، وهذا فاسد، لأن التفعُّل من الجوْل والجولان لم يرد عن العرب ، والفصيح أن يقال : حظرت الحكومة التجوال بفتح التاء قال الرضى : إذا قصدت المبالغة فى مصدر الثلاثى بنيته على التَّفْعال ، تقول : التَّجوال فى كثرة الجولان ، والتَّسيار فى كثرة السير ، والتَّقتال فى كثرة القتل ، كما فى قول الخنساء :

فإن تكُ مُرّةُ أودت بـه
فقد كان يَكثر تقتالَها

والتحنان فى كثرة الحنين كما فى قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

فما عجولُ على بوٍّ تطيف به
لها حنينان إصغارُ وإكبارُ
لاتسمن الدهر فى أرض وإن رُبعت
وإنما هى تحنان وتَسْجَارُ

وقال أبو وجزة :

حَنَّ الفؤاد إلى سُعدى ولم تتب
فيم الكثيرُ من التحنان والطَّربِ

والتطواف فى كثرة الطوفان ، تقول : جوّل فى البلاد بالتشديد أى طوّف ، وهو جوّالة جوابة ، وتجاولوا فى الحرب تجاولا : جال بعضهم على بعض ، قال النابغة :

والخيلُ تعلمُ أنّا فى تجاولنا
يومَ الحفاظ أولو بُؤسى وإنعامِ

٤٠٥ ويقولون لمن كان كثير الشرب : شَرِّيب بفتح الشين وكسر الراء مشددة ،

وعلى هذا الوزن قالوا لمن كان كثير اللعب أو ماهراً فيه لَعِّيب ، ولمن كان ماهراً فى ركوب الخيل رَكِّيب

والحق أن هذا الباب سماعى ، فقد قالت العرب لمن أكثر أو مهر فى بعض الأشياء على وزن فِعِّيل بكسر الفاء وتشديد العين مكسورة أوصافاً مسموعة لا يقاس عليها منها :

١ — شِرِّيب لمن يشرب كثيراً ويولع بالشراب

٢ — صِدِّيق لكثير الصدق أو دائم التصديق ، وقد لقب بهذا اللفظ أبو بكر رضى الله عنه فقيل أبو بكر الصِّدِّيق .

٣ — حِدِّيث لمن يكثر الحديث ويحسن عرضه .

٤ — فِكِّير : لمن يكثر التفكير .

٥ — خِمِّير لمن داوم على شرب الخمر

٦ — فِسِّيق : لمن يكثر الخروج عن طاعة الله ، وقد قالوا : كان يزيد فِسِّيقاً خِمِّيراً ولم يكن للمؤمنين أميراً .

٧ — شِرِّير : لمن كان كثير الشر .

٨ — سِكِّير : لمن كان كثير السكر

٩ — سِكِّيت : لمن كان طويل السكوت .

أما كثير اللعب أو الماهر فيه فيقال له لُعَبَة بالضم وزان همزة ، وتِلْعاب ، وتِلْعابة بكسر التاء فيهما ، وأما كثير الركوب أو الماهر فيه فيقال : له : رَكوب وزان غفور ، ورَكّاب وزان غفّار كما يقال لكثير الطمع طَموع وطَمّاع بفتح كل منهما .

٤٠٦ ويقولون لأصدقائهم : بين بلدنا وبلدكم خمسُ محطات ، وبين بلدنا والقاهرة محطة واحدة ، وهذا خطأ ، لأن الحط هو النزول من عُلو إلى سُفل ، تقول حطوا الأحمال عن ظهور الجمال يحُطونها حطًّا من باب رد إذا أنزلوها ، واسم المكان مَحَطّ وزان مفعل بفتح الميم والعين لأنه مصوغ من ثلاثى مضارعه مضموم العين ، ومعناه مكان النزول ، ومثله فى ذلك :

مَصَب ومحَل ، ويجمع مفعل على على مفاعل فيقال : محاطّ القطار ، ومصابّ الأنهار ومحالّ الأزهار بتشديد الطاء فى المثال الأول ، والباء فى المثال الثانى ، واللام فى المثال الثالث ، لأن هذه الحروف أدغمت فى نظائرها ، والأصل محاطط ، ومصابب ، ومحالل .

وقد تلحق مَفْعَل هاء التأنيث سماعاً كما فى مقبرة ، ومزرعة ، ومدرسة ، ومهلكة ولكن ذلك لم يسمع فى محط .

٤٠٧ وينكرون أن يقال : قد لا يعود المسافر اليوم ، معتمدين على أن مجلة المجمع حرّمت أن يقال : قد لا يفيد الدواء ، أى بإدخال قد على الفعل المنفى ، ورأت أن يستبدل بهذا التركيب : ربما لا يفيد الدواء .

ومعتمدين أيضاً على أن الفيروزابادى قال فى قاموسه : وأما قد الحرفية فمختصة بالفعل المتصرف الخبرى المثبت المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، وهى معه كالجزء ، فلا نفصل منه بشىء ، اللهم إلا بالقسم .

والحق أن التعبير الذى أنكروه عربى صحيح برغم ما أوردته مجلة المجمع ، وما أثبته القاموس إذ ورد مثله فى الآثار العربية القديمة .

قال ابن منظور صاحب لسان العرب فى مادة (ذام) يقول أنس بن نُوَاس المحاربى :

وكنتَ مسوداً فيناً حميداً
وقد لا تعدم الحسناء ذاما[1]

وأصل الشطر الثانى لهذا البيت مثل قالته حُبَّىّ بنت مالك بن عمرو العدوانية بعد أن تزوجها ملك غسان لجمالها ، وكانت أعجلت عن التطيب ، فلما أصبح الملك قيل له : كيف وجدت أهلك ؟ قال : ما رأيت كالليلة قط ، لولا رويحة أنكرتها ، فقالت هى من خلف الستر : لا تعدم الحسناء ذاما أى لا تعدم من يذمها ويعيبها وقال النمر بن تولب :

وأحبب حبيبك حبّاً رويداً[2]
فقد لا يعولك[3] أن تَصرما[4]

وقال صاحب القاموس : فى مادة (دغْدغة)[5]

والدغدغة إنفعال فى نحو الإبط

---

(١) الذام : من يعيب غيره ويذمه .

(٢) رويداً : على مهل : هو تصغير رود بالضم .

(٣) يعولك : يثقل عليك .

(٤) الصرم : يقطع كلامك .

(٥) المدغدغة : الزغزغة وهى ضعف الكلا م والسخرية .

والبضع والأخمص وقد لا يكون لبعض الناس .

٤٠٨ وهم يوهمون حين يزعمون أن هناك فرقاً عظيما فى الاستعمال بين الفعلين : قضى ، وأدّى ، فيقولون قضينا الصلاة إذا صلوها بعد فوات وقتها ، وأديناها إذا صلوها فى وقتها المحدود شرعاً ، ويصرون على أنه لا يجوز أن يقال فى الحالة الأولى أدينا الصلاة ، ولا فى الحالة الثانية قضيناها .

والحق الذى لامرية فيه أن القضاء والأداء فى الصلاة والدين ونحوهما متفقان وزنا ومعنى واستعمالا ، ففى أمهات اللغة أدى فلان دينه قضاه ، وقضى حاجته وحوائجه أداها وتأديتُ له من حقه قضيتُه ، وقضيتُ الحج والعمرة أديتهما .

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : « فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم » . وقوله : « فإذا قضيت الصلاةُ فانتشروا فى الأرض ». وقوله : « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم . » فقضاء الصلاة فى الآيتين الأولى والثانية ، وقضاء المناسك فى الآية الثالثة كل منها معناه الأداء ، ولا يعقل أن يكون حصولها بعد الخروج من الوقت المعلوم ، وقال امرؤ القيس

خليليَّ مُرا بى إلى أم جُندبِ
نقضُ لبُانات الفؤاد المعذب

أى نؤدها وقد استعمل الفقهاء القضاء فى الشىء الذى يفعل خارج وقته ، والأداء فيما يُفعل فى وقته وهذا مخالف للوضع اللغوى ، بيد أنه اصطلاح للتمييز بين الوقتين .

وينفرد القضاء بمعان أُخر منها :

١ — الحكم كما فى قولك : قضيتُ بين الخصمين إذا حكمت لأحدهما على الآخر ومن هذا قوله تعالى « إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » وقوله : « إن ربك يقضى بينهم بحكمه » وقوله : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » أى حكم بذلك وفرضه .

٢ — الموت : تقول : قضى فلان إذا مات ، وقضى الجندى على اللص إذا قتله ، وسُمّ قاضٍ أى مميت ومن هذا اللون قوله جل شأنه : « فوكزه موسى فقضى عليه » ، والقاضية الموت كالقَضِىّ وزان غنى ، وفى التنزيل « ياليتها كانت القاضية » .

٣ — الصُنع والتقدير ، تقول : قضاه الله وقدره إذا صنعه وقدره ، ومن هذا قوله سبحانه : « فقضاهن سبع

سموات فى يومين » .

٤ – الوصية والإنفاذ، كما فى قولك : قضى الرجل على أخيه عهداً إذا أوصاه وأنفذه .

٤٠٩ – ويقولون : لمن لا يغار على أهله : مُعرّس بضم الميم وتشديد الراء وزان معظم، أو عَرْس وزان عدل ، وهذا خطأ ، لأن هاتين الكلمتين – على الرغم من أنهما عربيتان سليمتان – تحمل كل منهما معنى لاصلة له بالمعنى الذى أرادوه :

فالمعرس هو المكان الذى ينزل فيه المسافرون للاستراحة ثم يرتحلون ، اسم مكان من التعريس وهو النزول على الحال التى بيناها ، ومنه قولهم : ما نزلوا غير تعريسة كحُسوة الطائر أى أن النزلة كانت قصيرة ، وقول أحدهم : مالى بأرض الهوان من مُعرَّسٍ ساعة ، أما العِرْس فهو عمود فى وسط الفُسطاط والفصيح أن يؤدى المعنى الذى يريدونه بأن يقال : هو ديّوث وزان فروج ، أو قُمعوث بالضم وزان زُنبور ، أو طَزِع وزان كتف .

٤١٠ – ويزعم كثير من رجال الأدب أن تجاهل فعل لازم ، متابعين مجلة مجمع اللغة العربية حيث قالت فى الجزء الرابع : إن هذا الفعل لازم ، لأنه بمعنى أظهر الجهل وليس بجاهل ، ومعتمدين على أن معاجم اللغة لم تذكره متعدياً والحق أنه ورد متعدياً فى كتب الأدب بمعنى جهله ، كما ورد ضده وهو تعالم متعدياً بمعنى علمه .

١ – ففى الجزء الرابع من تاريخ الطبرى ص ١٥٨ كتاب لعمرو بن العاص يرد فيه على أرطبون قائد الروم بالشام يقول فيه :

جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك ، لو أخطأت خصلة **تجاهلت فضيلتى** وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد . . . إلخ .

٢ – وفى ترجمة مجنون بنى عامر فى الأغانى ص ٥٩ من الجزء الثانى : خبر حبيبين يتعاتبان .

فيقول لها :

غدرتِ ولم أغدر وخُنت ولم أخُن
وفى بعض هذا للمحب عزاءُ[1] .

جزيتُك ضعف الود ثم صرمتنى
فحبُّك من قلبى إليك أداءُ

وتقول له :

تجاهلتَ وصلى حين جدت عَمايتى[2]
فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصر

(١) صرمتنى : قطعت كلامى .
(٢) عمايتى : لجاجتى وغوايتى .

ولى من قوى الحبل الذى قدقطعته
نصيبٌ وإذ رأيى جميعٌ موفرُ
ولكنى آذنت بالصرم بغتة
ولست على مثل الذى جئت أقدر

٣ — وفى معجم الأدباء ص١٦٢ من الجزء الثامن عشر خطاب لأبى محمد بن الحسن الحاتمى ، شافه به المتنبى ، ليدفعه عن غروره ، ويوضح عيوب شعره قال فى تهكم لاذع ، وسُخرية ساخرة :

ياهذا . إذا جاءك رجل شريف فى نسبه **تجاهلت نسبه** ، أو عظيم فى أدبه صغّرت أدبه ، أو متقدم عند سلطان لم تعرف موضعه، فهل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ، لكنك مددت الكبر ستراً على نقصك ، وضربته رواقاً دون جهلك . . . . إلخ

ولم يعقّب أحد من النقاد على ما جاء فى الأغانى ، أو فى خطاب الحاتمى ويُستأنس لجواز تعدية هذا الفعل بأن العرب تحمل الشيء على ضده، وما دام قد ورد فى المعاجم أن تعالم بمعنى علم متعدية ، فلا مانع من قياس ضدها عليها ، فيكون تجاهل بمعنى جهل متعدياً .

إذاً لا عليك يا أمير الشعراء حين قلت:
فإن تجاهلته ذلك رب القلم

٤١١ ويقولون : ملأنا الغِرارة بالحنطة ، وملأنا الحُب بالماء ، وهذا خطأ مبين ، لأن الباء لا تستعمل مع هذا الفعل ، ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى لنا أن نستعمل أحد أسلوبين :

أحدهما : أن نستبدل بالباء كلمة (من) فنقول: ملأنا الغرارة من الحنطة ، وملأنا الحب من الماء ، فالغرارة ملأى وملآنة ، والحب مملوء وملآن ، وأوعية ملاء قالت العرب : فلان مملوء من الكرم ، ولم تقل مملوء بالكرم ، تقول : نظرت إلى صديقى فملأت منه عينى ، ولا تقل ملأت به عينى ، قال النمر بن تولب :

ألم ترها تريك غداة قامت
بملء العين من كرم وحُسنِ

وفى الحديث « املئوا أفواهكم من القرآن » .

والمِلء بالكسر ما يأخذه الإناء إذا امتلأ ، تقول: أعطه من العسل ملء القدح أو ملأيه أو ثلاثة أملائه ، وحجر ملء الكف وحجارة أملاء الأكف قالت امرأة من بنى حنيفة :

فإن تمنعوا منا السلاح فعندنا
سلاح لنا لا يُشترى بالدراهم

جلاميد[١] أملاءُ الأكف كأنها
رءوس رجال حُلقت[٢] بالمواسم

والأسلوب الآخر : استعمال التمييز وهو أجود ، تقول : ملأنا الغرارة حنطة ، وملأنا الجب ماء ، ويقال : : فلان يملأ العين حسناً .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قوله تعالى: « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً » وقوله « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديداً وشهبًا » وقوله « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به ».

قال أبو حاتم : يقال : حب ملآن ، وقربة ملأى ، وحباب ملاء بالكسر ، قال وإن شئت خففت الهمزة فقلت فى المذكر مَلان ، وفى المؤنث مَلا، ومنه قول الشاعر :

حبذا دلوك إذ جاءت ملاء

وللملإ معنيان : **أحدهما** أشراف القوم وعليتهم ،سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأى ، ولأنهم يتمالئون فى النوائب ، ومن هذا قوله تعالى: حكاية عن الملكة بلقيس: « يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » **والآخر** الخُلُق ، ومنه الحديث أنه قال لأصحابه حين ضربوا الأعرابى « أحسنوا أملاءكم » والممالأة المساعدة والمشايعة ، تقول : مالأت فلاناً ممالأة إذا ساعدته وعاونته وفى الحديث« والله ماقتلت عثمان ولا مالأت على قتله » .

والملىء هو الغنى المقتدر، جمعه مُلآء تقول : هو أملأ القوم أى أقدرهم وأغناهم والمُلاءة بالضم الربطة ، جمعها ملاء بحذف الهاء تقول : عليها ملاءة الحسن ، قال ابن ميادة :

بذتهمُ[٣] ميالة تميدُ[٤]
مُلاءة الحسن لها جديد

٤١٢ ويسمون الماء الذى يمرُق من اللحم إذا غلت به القدر (شُرْبة) بضم الشين ، وهذه تسمية خاطئة والصواب أن يسمى بأحد اسمين . **أحدهما** المرق بالتحريك والمرقة أخص منه .

تقول : أمرقتُ القدر ومرقتها بالتضعيف إذا أكثرت مرقها ، ولحم ممرق إذا كان دسماً جداً يكثر المرق ، وأطعمت ضيوفى مرقة مرقين وهى ماء القدر يعاد عليه اللحم مرات ، وأصله

---

(١) الجلاميد : الصخور .

(٢) حلقت بالمواسم : حلق شعرها بالمكواة والمواسم جمع ميسم بالكسر

(٣) بذتهم : غلبتهم وفاقتهم .

(٤) تميد : تتحرك وتتبختر وتتمايل .

مأخوذ من المروق وهو الخروج ، ولهذا كانت العرب تسمى الخوارج بالمارقة لخروجهم عن الدين والآخر الحساء بفتح الحاء وزان سلام ، تقول : شرب الضيف الحساء ، وأحسيته المرق فحساه واحتساه ، وتقول تحساه إذا حساه فى مهلة ، قال السرقسطى : يقال : حسا الطائر الماء يحسوه حسواً من باب قال ، ولا يقال شربه ، وقال الأصمعى : ويقال فى الحافر كله وفى الظلف : جَرِع الماء من بابى سمع ومنع إذا بلَعه

أما الشُربة بالضم فهى حُمرة تكون فى الوجه ونحوه ، تقول : أشربُ الثوب وفيه شُربة من الحُمرة ، وأُشرب فلان حب صديقه إذا خالط قلبه ، ومن هذا قوله جل شأنه « وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » . قال زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخـــل
والحـــب يُشربه فؤادك داءُ

ويقال : شرب فلان ما ألقى عليه إذا فهمه ، واسمع ثم اشرب أى افهم بعد أن تسمع والشرب بالفتح مصدر شرب ، وهو أيضاً جمع شارب كصحب من صاحب ، ويجمع الشارب كذلك على شاربين كما فى قوله تعالى « وأنهار من خمر لذة للشاربين » والشاربة هم الذين مسكنهم على ضفة النهر ، والمشربة بكسر الميم إناء يشرب فيه أما المشربة بفتح الميم والراء وقد تضم الراء فهى الغُرفة والعِلِّية .

ويقال : شرب به كسمع ، وأشرب به بالبناء للمجهول إذا كذب عليه ، وأشربتنى ما لم أشرب أى ادعيت على ما لم أفعل .

٤١٣ ويقولون للراعى الحسن القيام على المال خُولى بضم الخاء ، كما أنهم يطلقون هذا اللفظ لقباً لكثير من الناس تفاؤلا فيقولون مثلا محمد أحمد الخولى ، والصواب أن يقال له خَوْلى بفتح فسكون فياء مشدَّدة نسبة إلى الخوْل وهو حسن الرعاية للمال ، إذ يقال : فلان يخول على أهله خولا من باب قال ، أى يرعى عليهم أغنامهم ويكفيهم ، وبهذا النسب سمى بعض الصحابة ، منهم خولى بن أبى خَولىّ الجعفى وخولى ابن أوس ، وجمع الخَولى خَوَل بالتحريك ، وللخول المحركة غير هذا المعنى معنيان أحدهما أصل فأس اللجام والآخر ما أعطاك الله تعالى من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، للواحد والجميع والذكر والأنثى ويقال للواحد خائل ، تقول : فلان خائل مال أى راعية ومصلحة ، قال (ولا تحسبن أنى

لأمك خائل) والخـَوَل ، والخدم ، والحشم ، ثلاثتها متنفقة وزنا ومعنى بيد أن كلمة الحشم فى معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها كما قال ابن السكيت ، وفسرها بعضهم بالعيال والقرابة ومن يغضب له إذا أصابه أمر والتخول التعهد وفى الحديث «كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة » .

٤١٤ — ويزعمون أن كلمة — الضيف لا تقال إلا للمفرد المذكر ، والحق أنها تطلق على الواحد والواحدة والجمع ، لأنها فى الأصل مصدر قولك : ضافه يضيفه ضيفـًا من باب باع : الاسم الضيافة ومما يؤيد صدق هذه الدعوى قوله تعالى « إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون » وقوله « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين» وتجوز المطابقة فيقال للأنثى ضيفة ، وللجميع أضياف ، وضيوف ، وضيفان بالكسر.

قال ثعلب: تقول : ضِفْتُ فلاناً إذا نزلت به وأنت ضيف عنده ، وأضفته بالألف وضيفته بالتضيف — إذا أنزلته عندك ضيفـًا وقربته ، والضيفين بزيادة النون هو من يجئ مع الضيف متطفلا من غير دعوة .

وتقول أيضًا : أضفته إضافة إذا لجأ إليك من خوف فأجرته ، وتضيفنى فلان فضيفته إذا طلب القرى فقريته أو استجارك فمنعته ممن يطلبه ، وأضاف ماله إلى مال أخيه إضافة إذا ضمه إليه ، والمضاف فى الحرب من أحيط به .

ومن المجاز قولك أضاف إليه الأمر إذا أسنده إليه واستكفاه ، وماهو هو إلامضاف أى دعى كما قيل مسند ومُلصق ، وضافه الهم، وضاف وساده إذا انزل به .

٤١٥— كثيراً ما نسمع ممن يريد أن يعتذر لغيره عما فرط منه قوله : أنا آسف يعنى أن حزنه شديد ، وهذا خطأ صراح لأن الفاعل من الأسف لا يأتى بزنة فاعل ، وإنما هو على وزن فعل بفتح فكسر ، تقول : أسف فلان على ما فات يأسف أسفـًا من باب تعب إذا اشتد حزنـُه وألمـُه فهوأسف، وزان تعب ، ومنه قوله تعالى « فرجع موسى إلى قومه غضبـًان أسفـًا » .

ولتأدية المعنى المراد يجب أن يقال : أنا أسف على ما صدر منى إليك أو متأسف أو يقال : آسفنى ما وجهته إليك من لوم أو تأنيب ، أو يقال :

إنى إليك معتذِر ، أو معذر بتشديد الذال مكسورة ، والمعذر هو المعتذر الذى له عذر ومنه قوله سبحانه « وجاء المعذِّرون من الأعراب » .

٤١٦ ويقولون حين يدعون لمريضهم بالشفاء والعافية : محا الشافى العافى ما عندك من علة ، وكلمة الشافى — سليمة ، أما كلمة العافى فلها ثلاثة معان لاصلة لها بالمعنى المبتغى .

أحدها : من يصفح عن الذنب ويترك عقوبة المستحق ، تقول : عفا عنه ذنبه ، وعفا له ذنبه ، وعفا عن ذنبه ، فهو عافٍ ، ويجمع على عافين كما فى قوله تعالى « والعافين عن الناس »

والثانى : طالب المعروف ، تقول : عفاه يعفوه عفواً من باب عدا إذا أتاه يطلب معروفه فهو عافٍ ، وهم عفاة بالضم كقاض وقضاة .

والثالث : الكثير ، تقول : عفا الشىء إذا كثر ، وعفوته كثرته ، يتعدى ويلزم ومنه قوله تعالى « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا » أى حتى كثروا .

والصواب أن يقال : محا الشافى المعافى ما بك من علة ، مأخوذ من قولهم عافاه الله معافاة ويفاد بالكسر

٤١٧ ويقولون : هذا الحلاق مشهور بحسن الحِلاقة بكسر الحاء، وهذا خطأ صراح والصواب أن يقال : مشهور بحسن الحَلْق ، لأن الفعل من بابه ضرب ، تقول : حلق شعره يحلقه حلقا ، وحلاقا بكسر الحاء وحُلقاً بضمها أيضًا ، قال تعالى « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى مَحِله » ويقال : رأس فلان جيد الحلاق بكسر الحاء ، كما يقال : لأمك الحُلق بضمها أى حلق الرأس .

ولك أن تقول حلق فلان شعره تحليقًا للمبالغة والتكثير ، فهو محلِّق وهم محلِّقون ومن هذا قوله تعالى « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين — محلقين رءوسكم » وللمحلق[1] غير ما تقدم معنيان : **أحدهما** الطائر إذا ارتفع فى طيرانه ، **والآخر** الإناء إذا دنا من الامتلاء ، يقال : مكوّك واف ومحلق ، قال عبدة بن الطبيب :

شآمية تجزى الجنوب بقرضها
مراراً فواف كيلُها ومحلِّقُ

يعنى أن الجنوب والشمال تختلفان على الدار تتعارضان سفى التراب عليها ،

---

(١) من معانى المحلق : البسر قد بلغ الإرطاب تلثيه ، الواحدة بهاء .

فإذا جاءت نوبة الشمال ملأتها تارة، ونقصت من الملء أخرى .

أما الحُلاقة بالضم فهى ما حُلق من الشعر ، تقول : رمى الحلاق بالحُلاقة

وللحَلْق غير المصدرية معنيان : أحدهما الشؤم ، والآخر الحلقوم ، ومن هذا قوله تعالى « فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم » أى الحَلْق .

ويقال : حلق الفلاح معزه ، ولا يقال جَزّه إلا فى الضأن ، وعنز محلوقة وشعر حليق ، ولحية حليقٌ ، ولا يقال حليقة .

وللحالق معنيان : **أحدهما** من يحلق الشعر ، والآخر الجبل المنيف وهو من تحليق الطائر ، أو من البلوغ إلى حَلْق الجو ، تقول: هوى الولد من حَالق إذا هلك أما الحلق بكسر الحاء فهو خاتم الملك أو خاتم من فضة بلا فص ، تقول : أعطى فلان الحلق إذا أمّر قال المخبّل :

وأعطى منا الحِلَق أبيض ماجد
ردیف ملوك ما تُغب نوافلُه

وحلاق بفتح الحاء وكسر القاف المنية نقول: سُقوا بكأس حَلاقِ إذا ماتوا، قال :

ما أرجى بالعيش بعد أناس
قد أراهم سُقوا بكأس حَلاقِ

والحالقة قطيعة الرحم ، وكذلك هى من تحلق شعرها فى المصيبة والحلقة بسكون اللام هى الدرع ، وحلقة الباب ، وحلقه القوم جمعها حَلَق بالتحريك على غير قياس ، قال الأصمعى : الجمع حِلَق كبدرة وبدر ، وقصعة وقصع وقال أبو عمرو الشيبانى : ليس فى الكلام حلقه بالتحريك إلا فى قولهم هؤلاء قوم حلقة للذين يحلقون الشعر جمع حالق ككتبة وكاتب ، وعن أبى عمرو بن العلاء حلقة محركة للواحدة، والجمع حلق وحلقات .

التفسير القرآنى للقرآن الكريم

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

المجلد الأول والثانى

عرض ونقد

دكتور / سعد ظلام

الحلقة الثانية

فى حلقة سابقة نشرت فى مجلة الأزهر الغراء فى عدد شعبان سنة ١٣٩٧هـ (يوليو سنة ١٩٧٧م) تعرضنا بالدراسة والعرض والنقد لهذا الكتاب الذى صدر عن دار الفكر العربى مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٦٧ القاهرة ، وذكرنا أن الكاتب افتتح الكتاب بمقدمة تاريخية تحدث فيها عن الأمة الإسلامية ، وأنها أمة القرآن رعته فرعاها ، وتمسكت به فأرشدها الله وأعزها ، وما نأت عن الغاية إلا عندما وقعت الجفوة بينها وبين القرآن .

وقد أرجع السبب فى ذلك إلى الخلافات السياسية والمذهبية التى وقعت بين المسلمين .

وذكر أنه ما دام القرآن هو مصدر التشريع ، فلا بد من الفهم الصحيح له ذلك الفهم المبنى على طول التأمل والتدبر لكل ما يثيره من قضايا وأفكار ، ويكون بذلك اتصالنا الوثيق بكتاب الله ، وتصور المسائل الدينية تصوراً واضحاً .

وعنوان الكتاب يعطى للقارئ انطباعاً يفهم منه أن المؤلف يفسر القرآن بالقرآن ولكنه لم يلتزم بهذا المنهج . بل عارضه ، لأنه كما يقول يفسر القرآن من ناحية تسجيل

مشاعره إزاء ما يقرأ . وقد أفحم مشاعره فى كل فكرة ، واستغرق فى دوامة الرصد والتسجيل حتى نسى الغرض، وتبنى بعض الآراء ، واقتنع بها وألصقها بالقرآن إلصاقاً ، ودافع عنها .

وذكر فى مقدمته أن مباحث هذا المجلد هى الجن والشيطان وابليس ، والنسخ ولا نسخ فى القرآن ، هكذا يقول — وآدم ومادة خلقه . . والوصية للمتوفى عنها زوجها . وهوفى تفسير سورة الفاتحة قارن بينها وبين إصحاحات فى إنجيل متى . وذكر أن هناك تشابهاً بينهما ، وهو بهذا يسلم بصحة الإنجيل بل وأكد التشابه بين القرآن والإنجيل.

وانتقل إلى أفضلية آدم كخليفة لله فى الأرض . ويعلل لأفضليته على الملائكة بما فى الملائكة من بهاء وصفاء وطاعة ، والإنسان بما له من عقل وارادة هو المستأهل لهذه الخلافة . هكذا يقول .

ولآدم فى نظر المؤلف مفهوم مغاير لمفهوم المفسرين الذين يرى المؤلف أنهم اعتمدوا فى معرفتهم على الإسرائيليات وأساطير الأولين من قصة الخلق ومكان آدم فيها . وتعرض للجن وإبليس والشيطان ورأى أن إبليس على صفة خاصة غير صفة الشيطان والجن ، وإلا لما التزم القرآن ذكر إبليس فى هذه الصور المتعددة لموقف واحد . وقد رددنا عليه .

وتعرض لذكر الشيطان بلفظ المفرد والجمع — فيذكر الآيات التى تدل على ذلك ويقع فى مغالطة حين يستعرض الآيات التى أمر الله فيها إبليس بالسجود لآدم . ويستنتج منها أن إبليس كان من الملائكة .

وقد رددنا عليه .

وتعرض لقضية خلق آدم ، **فذكر أن القرآن عرضها عرضاً محكماً ، ومع أنه ليس كتاب علم. وليس من همه أن يقرر الحقائق العلمية . فإنه فى قضية خلق آدم قد أمسك بها من جميع أطرافها، وجاء بها على الوضع الذى يلتقى على الحقائق العلمية فى أصدق وجوهها وأضوائها .**

وقد رددنا عليه بأن الأليق فى العقل والمنطق أن تجىء الحقائق العلمية إذا جاءت مفسرة للقرآن ، لا أن يجىء القرآن على الوضع الذى يخضعه للحقائق العلمية .

وقد سار المؤلف مع الحقائق وأسلوبها، وأخضع الآيات إخضاعاً كلياً لها ، فقد فسر الحمأ المسنون ، بأنه بشائر الحياة

إذ هو « البكتريا » التى تولدت منها خمائر الحياة ، وظهرت فيها جرثومتها الأولى .

ويرى أن الطين الذى خلق منه الإنسان قد تقلب فى أطوار عدة حتى ظهر منه الإنسان ، فهناك التراب وهناك الطين ، والطين اللازب ثم الصلصال ثم الحمأ المسنون .

وبلغة العلم يكون التراب فالطين فالصلصال فالحمأ المسنون ، أربعة أطوار تنتقل فيها بذرة الحياة .

ويستنتج من قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » بأن آدم لم يجىء مباشرة ، وإنما كان ذلك بعد سلسلة طويلة من التطورات ، وبعد عمليات معقدة من التصفية — والانتخاب استمرت ثلاثين سنة حتى انتهت بظهور الإنسان .

ونسى أن عمليات التصفية المعقدة والانتخاب التى استمرت ثلاثين سنة حتى انتهت بظهور آدم لا تتفق مع قدرة الله المبدع الخالق وناموسه الإلهى القادر وأمره الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وإذا كان خلق آدم استمر ثلاثين سنة فكم استمر خلق السموات والأرض وهما أكبر من خلق آدم « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (غافر — ٥٧) .

وقد ربط بين خلق آدم وبين نظرية « دارون » مع أن إخضاع القرآن لقضايا العلم وتجاربه غير معقول وغير مستساغ كما سبق أن ذكرنا ولأنه مما يزعزع الثقة بالقرآن إذا اهتزت نتائج البحوث والنظريات . أو ظهر بعد ذلك فسادهما واختلال معاييرهما .

ونحن نعتقد أن لكل علم مناهجه ، وربط قضية خلق آدم بنظرية « دارون » « نوع من الاحتيال لإثبات أن القرآن يساير مناهج العلم الحديث ، وهو ما لا نسلم به ولا يسلم به معنا الكاتب نفسه الذى يذكر أن نظرية « دارون » قد يكون فيها قليل أو كثير من الخطأ فى الاستنتاج .

ولكنه مع ذلك يلجأ اليه للإيهام بأن تفسيره عصرى .

كان هذا استعراضنا كما ذكرناه فى الحلقة السابقة ، ونبدأ فى هذه الحلقة استكمالا لهذا الموضوع فنقول :

و« دارون » فى نظر المؤلف من أشد الناس إيمانا بالله ، ونظريته إنما تقوم على علم وتجربة .

أما آراء المفسرين فمن قبيل النقول الخرافية والمقولات الأسطورية والمؤلف يرمى كل من لا يؤمن بنظرية « دارون » « بأنه » ليس بالمسلم الذى يعترف دينه بالعقل .

وقد نوافق المؤلف على حماسه العنترى لتأييد العقل ومؤازرته ، ولكنه بشرط ألا يندفع هذا الحماس إلى المغالطات والتورط فى الإيمان بأمور يقول هو عنها : « إن فيها كثيراً أو قليلا من الخطأ فى الاستنتاج » .

وقد نوافقه على احترام العقل والتقدير للجهد الذى بذله صاحبها ، ولكن بشرط ألا ننسى أنها تجربة . والتجربة فيها مخاطر الخطأ والمجازفة بالصواب ، أو نظرية وليس للنظرية كما للقانون من من الثبات والصحة .

وقد تكون معه عندما يقول : أن كل عقل مدعو إلى الوقوف عندها والنظر فيها وأخذها يطمئن إليه منها .

ولكننا لسنا معـــه عندما يقول : « أما صد العقل عنها ، وفراره من بين يديها فذلك ازدراء بالعقل وامتهان له ، وتعطيل لوظيفته التى خلق لها ، وخروج على دعوة القرآن التى دعاه إليها »[1] .

فأى خروج على دعوة القرآن فى عدم تطبيق منهج علم فى البحث على منهج علم آخر ؟ .

والمؤلف — كما يبدو — حريص على أن يكون منهجه التفسيرى أو رصد مشاعره وتسجيلها كما يجب أن **يقول عن تفسيره — يحرص المؤلف على أن يكون منهجه عصرياً .**

والعصرية عنده تكون بتبنى النظريات الحديثة التى لم تثبت صحتها ولا أمنت نتائجها والترويج لتلك النظريات — والتهويل فى قيمتها ورمى من لا يؤمن بها بأنه ليس بمسلم يعترف دينه بالعقل ، والعصرية لا تكون برمى آراء المفسرين فى سلة المهملات لأنها لا تتواءم مع عقلية المؤلف العصرية .

وقد يكون فيما جمعه المفسرون مالا نوافقهم عليه ، ولكن ليس كله بالخرافة ، أنه خلاصة عقول ، وثراء فكرى يحسدنا عليه غيرنا من الأمم الأخرى ، عقليات لم تتأثر بالمفاهيم الخاطئة ، ولم تهتز إرادتها وفكرها ومنطقها أمام سانحة من سوانح الفكر الغربى ، بل إنها قرأته فى عصرها وصفّته من أوشابه ، وقدمته للحياة ودفعت فيه نبض الروح لأنها عندما قرأته قرأته وهى واثقة من عقليتها وتراثها الفكرى .

(١) القصص القرآنى ص ٤٠٨ مطبعة دار السنة المحمدية سنة ١٩٦٥م القاهرة .

ويبدو أن حماس المؤلف لتلك النظريات ، وإيمانه بها جعله يرددها فى أكثر من كتاب له .

فهو فى كتابه « القصص القرآنى فى مفهومه ومنطوقه » يقول عن نظرية « دارون » « هذه النظرية كانت ولا تزال عند كثير ممن أخذوا فهمهم للآيات القرآنية الواردة فى خلق آدم عن هذه النقول الخرافية وهذه المقولات الأسطورية التى جمعها المفسرون والقصاص من كل ساقطة ولاقطة ، كانت ولا تزال هذه النظرية عند هؤلاء من الكفريات والإلحاد التى إن جرت على لسان كان مجرد جريانها كفراً وإلحاداً ولهم عذرهم فى هذا[1] » .

وبعد أن يستعرض آراء بعض الصحابة فى كتب المفسرين ينكر أن يكون لها مستند صحيح من كتاب أو سنة ، « وإنما هى فى نظره من الإسرائيليات والأساطير والخرافات[2] ، هكذا يقول على طول الخط .

ثم ينتقل إلى الشجرة التى أكل منها آدم . فيفسر الشجرة بأنها مجرد شجرة ، ليست لها صفة خاصة تمتاز بها عن الأشجار التى معها.[3] ، إلا أن التحريم وقع عليها دون غيرها ، إمتحاناً لآدم وابتلاء لعزيمته أمام الإغراء وحب الاستطلاع الذى هو غريزة قوية عاملة فيه . فهو ينفى أقوال المفسرين ويطرحها ويصفها بأنها أساطير وخرافات وإسرائيليات ليطبق بعض نظريات علم النفس فى الغرائز والمكبوتات والأخرى نظريات لم تصل بعد إلى أن تكون قانوناً ، وأحكامها غير جازمة ، وليست منضبطة ، وكان الأولى به ألا يخطّىء أقوال المفسرين على طول الخط ، ولكن بالمناقشة الهادئة ، وما كان أجمله لو قام بها .

على أن الله سبحانه وتعالى أعلم بما فى نفس آدم « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »[4] .

ثم يذكر بعد ذلك أنه « لو لم يقم إبليس بإغراء آدم بالأكل من للشجرة لسار وحده إليها ، ولكن لا يكون هذا إلا بعد زمن متراخ عن هذا الوقت الذى اقترب فيه بالفعل من الشجرة وأكل منها »[5] .

---

(١) القصص القرآنى ص ٤٠٧ .

(٢) التفسير القرآنى المجلد الأول ص ٧٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٧١ .

(٤) الشمس ٧ — ١٠ .

(٥) التفسير القرآنى فى المجلد الأول ص ٧١ ، ٧٢ .

ومعنى هذا أن الله قد دفع إبليس إلى الوسوسة لآدم وإغرائه حتى يقع فى الإغواء فى الوقت الذى حدده الله، وفى هذه الحالة يكون الله قد علم من آدم حالة الإغواء قبل وقوعها ، وإنها قد تقع فى وقت لا يتفق والوقت الذى حدده للإغواء ، فدبر وسوسة الشيطان له ، ليقع الإغواء فى الوقت المحدد له .

وذلك على إطلاقه غير صحيح ، إذ لا يكون على إبليس إثم فى هذا ، لأن الله هو الذى دفعه إلى ما فعل — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولا يكون على آدم ذنب ويكون هبوطه من الجنة على الصورة التى ذكرها المؤلف نوعاً من التحايل والاحتيال . ويكون الله قد دفع بآدم فى الإغواء ، أو دفعه إلى الإغواء وذلك مخالف لأقل المبادئ فى منع الوقوع فى الذنب قبل التفكير فيه ، ويكون الله سبحانه وتعالى هو الذى دبر الوسوسة أو أوقع آدم فى شرك الإغواء وهذا مستحيل بالنسبة إلى الله تعالى .

والواقع أن وسوسة الشيطان لآدم كانت فتنة وإغراء قوياً « يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »[١] .

فالفتنة على هذا النحو ، وإرادة السوء كانت تدبير إبليس ، والقصد ترشيد آدم وذريته من بعده بعدوهم الأبدى .

وينتقل المؤلف إلى الجنة التى أهبط منها آدم[٢] .

وينكر المؤلف أن يكون آدم قد أهبط من جنة سماوية وإنما هى جنة أرضية أو هى تصوير لحالة بدائية . ويكون الإنسان فيها مقطوع الصلة بالبيئة التى يعيش فيها ، ومن ثم فإنه لا يحس بلذعة المطالب البشرية »[٣] .

والمؤلف بذلك يحمل لفظ القرآن على غير وجهه دون دليل أو نص ، وما رأيه فى التعبير بالهبوط فى قوله تعالى : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »[٤] .

وفى التعبير بالاستقرار فى الأرض بعد الهبوط إليها ، وشقاء آدم من أجل مطالب الحياة « فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »[٥] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٧ .
(٢) التفسير القرآنى ص ٧٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٧ .
(٤) البقرة — ٣٦ .
(٥) طه — ١١٧ .

وما رأيه فى إرشاد الله لآدم بأن الشيطان عدو له ولزوجه قبل الإغواء والوسوسة فبعد أن يبين الله لآدم أن إبليس عدوّ له ولزوجه يذكر بعد ذلك ما ترتب على مخالفة آدم لذلك الإرشاد الآلهى « . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها »[١] .

على أن التعبير بلفظ « الجنة » قد ورد فى كل السور التى وردت فيها قصة آدم ، كل ذلك يدل على أن آدم أهبط من الجنة ، وأداة التعريف تدل على ذلك وتؤيده .

وتعرض المؤلف للنسخ فى القرآن[١]

وقد رأى أنه لا نسخ فى القرآن ، وأما الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ فقد وضع نتيجة للاختلاف فى فهم الآية الكريمة[٢] .

وقد فصل القول فى هذا فعرف النسخ والمنسوخ ، وتساءل هل فى القرآن نسخ ؟ ورد على من قال بإن فى القرآن نسخاً ، وقد بان له بأنه ليس فى القرآن نسخ وما دل على ذلك حمله على نسأ وتأخير أو مجمل أخر بيانه أو خطاب حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام على خاص . . إلخ .

وقد أول الآيات التى يفهم منها معنى النسخ .

وتعرض للطلاق وحكمته عند تفسير قوله تعالى « الطلاق مرتان »[٣]

وقد رد على الذين يتهجمون على الشريعة بإحلالها الطلاق ، وعالج الموضوع معالجة حسنة وفسر الدرجة فى قوله تعالى : « وللرجال عليهن درجة » فسرها بمعنى الرتبة ، يقول : فكما كانا رجلا وامرأة فى الجنس كانا أولا — وثانياً فى الرتبة ، وليس هذا بالذى يدخل على أى منهما ما دام يحيا حياته على النحو الذى يلائم طبيعته »[٤] .

وإن كان ما ذكره بعد ذلك يشير إلى أنها درجة القوامة ، ولكن ليس فى صراحة ووضوح .

وتعرض لعدة المتوفى عنها زوجها :

وقد ذكر أن العلة فى كون عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً أن الوفاء لذكرى الزوج هو الداعى إلى ذلك . وأن للزوجة إذا ماتت مثل هذا

---

(١) طه — ١٢٠ .
(٢) التفسير القرآنى ص ١٢٠ .
(٣) المصدر ص ١٢١ .
(٤) المصدر ص ٢٦٢ وما بعدها .

الحق على الزوج فى العدة وإن لم توجبه الشريعة .

وفرع على ذلك بأن بعض الزوجات المتوفى عنهن الأزواج قد يذهب بهن الطيش والنزق إلى قطع علائق الزوجية وآثارها ، وفى ذلك اعتداء على حرمة تلك الرابطة المقدسة .

وقد يكون فى كلام الكاتب شىء من الوجاهة ، ولكن ليس الوفاء وحده السبب فى جعل عدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشراً ، ولكن السبب أن بعض الزوجات قد يكون منهن ما يوقعهن فى معصية إدخال طفل من رجل آخر على الزوج وقد نهى الرسول عن إدخال وارث وإخراج وارث .

ويكون ما ذكره الكاتب من قبيل الحيطة والحذر والتغليق لأبواب الشر التى أغلقها أو حاول الشرع إغلاقها[1] .

ولست أدرى ما الذين يقصده الكاتب من أن للزوجة إذا ماتت مثل هذا الحق على الزوج فى العدة وإن لم توجبه الشريعة ؟ . إن كان يقصد بذلك الوفاء فذلك شىء محمود وهو نوع من البر والوفاء الذى تقضى به شعائر الإسلام ، وإن كان يقصد أن الرجل يعتد أربعة أشهر وعشراً إذا ماتت زوجة كما تعتد المرأة إذا مات زوجها فهذا ما لا يوافقه عليه شرع أو يسانده فيه نص . وإن كان يقصد أن الرجل يحتد أى يلبس الحداد على الزوجة أربعة أشهر وعشراً إذا ماتت فليس ذلك مما أمر به الشرع . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث له ما معناه « لا تحتد امراة ولا رجل على امرأة ، ولا امرأة على رجل إلا المرأة على زوجها أربعة أشهر وعشراً » .

وفى ذلك صيانة للأنساب وحياطة لها ، واختبار للأرحام ، ووفاء من الزوجة للزوج ولهذا منع الشرع خطبة المرأة المتوفى عنها زوجها فى عدتها . وبالغ فيها أكثر من المبالغة فى عدة المطلقة ، فإذا كانت العدة فى الطلاق ثلاثة أشهر مثلا فقد زادت أربعين يوماً عليها عدة المتوفى عنها زوجها ، زيادة فى صيانة وحفظ وحياطة الأنساب ، واختبار الأرحام والوفاء الذى يحرص عليه الإسلام ، ويؤكد عليه فى الخلية الأولى للمجتمع بين الزوج وزوجه .

ومن هنا نهى الإسلام عن خطبة المتوفى عنها فى عدّتها وحرم العقد عليها فيها قال تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم على أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن

(١) المصدر السابق ص ٢٧٩ .

سرًّا إلا أن تقولوا قولا معروفًا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم »[(١)]

وقد أجاز الأئمة التعريض للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، أما المواعدة سرًّا من نحو التصريح بحبها أو المعاهدة على أن تتزوجه أو لا تتزوج غيره أو أخذ الميثاق به فقد نهى الله عنه ولا يصح العقد فى مدة العدة ، واختلفوا فيمن تزوج امرأة فى عدتها فدخل بها فإنه يفرق بينهما . وهل تحرم عليه أبداً على قولين ، الجمهور على أنها لا تحرم عليه أبداً ، أما الإمام مالك فقد ذهب إلى أنها تحرم عليه على التأبيد ، إعمالا لقاعدة من استعجل بشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه . وقاسها على القاتل فإنه يحرم الميراث[(٢)] .

هذا إذا لم تكن حاملا ، فإن كانت حاملا كانت عدتها وضع الحمل ولو زادت عن أربعة أشهر وعشراً فإذا انقضى تابع للعدة بالشهور[(٣)] .

كانت هذه رحلتنا مع هذا المجلد من هذا الكتاب الذى اعتبره صاحبه ونعتبره رصداً وتسجيلا لمشاعره إزاء ما يقرأ من القرآن أحسن مما يقال إنه تفسير أو تفسير قرآنى للقرآن .

ومن خلال هذا الرصد وذلك التسجيل للمشاعر كانت ملاحظاتنا ، ومن خلال محاولته أن يكون تفسيره عصريًّا كانت وقفتنا معه ، وقد حرصنا على إبداء تلك الملاحظات فى هذه الصفحات ، ونأمل أن تكون خالصة لوجه الله . والله من وراء القصد ، وهو يقول الحق وهو يهدى السبيل .

دكتور سعد ظلام

---

(١) البقرة – ٢٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٦/٢٨٧ الحلبى – القاهرة . .

(٣) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج٤ ص ٢٢١ المطبعة المصرية رمضان ١٣٧٩هـ .

فهرس العدد

صفحة

فى التوكل على الله

قال صلى الله عليه وسلم :

من قال (يعنى إذا خرج من بيته) بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هديت وكفيت ، ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان وكان إذا خرج من بيته يقول أيضاً :

بسم الله . توكلت على الله . اللهم إنى أعوذ بك أن أضِل أوأُضَل ، أوأزِل أوأُزَل ، أوأظلِم أوأُظلَم أوأجهِل أو يجهَل على » .

stand in need, benevolence unto parents and help unto the poor are all equally ordained. Briefly Islam enjoins good manners and nable conduct and so to labour in this world that you may attain happiness in the hereafter.

It is for this reason that Islam enjoins us to resist our own inclinations so that we may be of the elect abiding in the Kingdom of Heaven and that we may attain blessedness in this world and in the hereafter. It points out that our worst enemies are falsehood, misguidance, injustice, oppression and dissoluteness in any form they may assume, not only in others but even in our own selves.

Islam enjoins mercy and benevolence unto mankind and kindly treatment of them; to seek their benefit and to afford them opportunities of gain and, prosperity; and above all to ward off any evil befalling them.

In short it enjoined kindness, charity, faithfulness, kindly treatment of the neighbour, wayfarer, and guest and, lastly, kindness to animals.

Nor was the acquirement of knowledge left out of Islam. It ordained that man should acquaint himself with a measure of knowledge requisite for the amendment of beliefs, manners and conduct and the amelioration of life's conditions.

It enjoins righteousness which constitutes the refraining from any harmful act prejudicing one's chances in this world or in the hereafter, loyalty and fidelity in the cause of Allah and the faithful performance of worship for as the Tradition says :

«أَعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»

"Worship Allah as if you behold Him, for if you do not behold Him, He beholdth you."

(*Tradition.*)

It enjoins good counsel to mankind and the practice of patience and the resignation to the will of Allah.

It enjoins propriety of conduct, forbearance and satisfaction in the doing of good, as well as liberality, magnanimity, courage, zeal and manliness.

It enjoins prudence, judiciousness in judgment, thankfulness and fear of the Almighty and faith in and resignation unto Him. It further enjoins mercy to and compassion upon mankind,honesty and integrity, fulfilment of covenant and promise, perfect faith and yet to labour for one's living, toleration, hastening to the doing of good and also un wavering determination in upholding the tenets of the Religion. It enjoins love of Allah, the seeking of His favour, and reliance upon Him. Lastly it enjoins to free the human soul from the dire influence of desire and to bring it to account for the wrongs perpetarted by it, thus purging it of all the defects and imperfections which defile it.

"To be Continued"

pleasure of Allah and his approval of all that is pure and righteous of your actions, so that you may become the viceregent of your Lord and acknowledge no favours except those bestowed by Him.

It requires you to feel that you are an active and beneficent member of society who disdains to imitate or to be dependent on others or to be outrivalled by them in any virtue.

It enjoins you to seek exaltation through Allah and humility unto Him. It requires you to use your mind and powers in whatever useful avocation that has fallen to your lot, and to fear none save Allah as long as you practice what He has ordained.

Islam enjoins the belief in monotheism for which the reason can accept no other substitute and whithout which the hearts of men will find no comfort or peace.

All are humble unto Allah,- mere subordinate creatures; and the most favoured by Him are the righteous who obey His cmmandments.

The creed ordained by Islam has thus rendered man great and self-respecting and caused his heart to feel pride and exaltation. Small wonder it should be so when man realises that such attributes as greatness, majesty and grandeur could only pertain to the one, omnipotent and all-pervading Lord, and that all are mere subordinate creatures seeking His favour.

One of the great injunctions of Islam is to screen the failings of your fellow-Moslems and to keep away from places of suspicion lest others be tempted to evil thought and to slander.

Islam requires you to do favours unto your fellow-Moslems even by mere mediation or commendation.

Another commandment of Islam, is to hasten to greet and shake hands with any Moslem so that the credit of a good act will be yours.

Another commandment is to defend your friend in his absence and to protect, by word and deed, his honour and property.

Yet another commandment is to commiserate with your fellow-Moslems in their afflictions; to call on their sick, attend their funerals, visit their graves and offer prayers for the salvation of their souls.

Islam enjoins justice unto all people and to wish for them the same as you wish for your own self—exaltation, security, health, goad reputation and prosperity.

It ordanis prayers in gratitude and thankfulness to the Beneficent Bestower, fasting which leads to the elevation of minds and to the purification of souls, and almsgiving which constitutes the allotment to the poor of one fortieth (or two and half per cent) of the capital per year, in gaining Allah's favour and people's affection.

Nor are the other forms of charity left out in Islam. The giving unto the kindred of that which they

practices of the so-called Moslems of to-day.

Were it only for those radical reforms alone, which were introduced within a short period after the advent of Islam, and the reasons for which non-Moslems failed to discover for centuries after, the Moslem Religion should be accorded the highest honours by the just and discerning critic.

It should be remembered that this field of discussion is far too wide to be covered in detail with any tolerable measure of success I can only express very little of what I feel, which in turn is but a shadow of those comprehensive and all-pervading teachings of Islam.

The Qoran says :

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» .

"Were men and Djinn assemble to produce something equal to the Qoran in eloquence, rhythm and superb meaning, they could not, under any circumstance, produce anything like it. Nay but they could nat do it even though they co-operate together for the purpose and support one another as they may."

(*Alucy's Commentary.*)

Surely the sense of justice and fair play will have moved you by now to appreciate this saying of the Prophet of Islam :

«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»

"I am sent unto mankind to perfect noble conduct";

(*Tradition*).

as well as The Lord's saying in reference to the Qoran :

«وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» .

"It is an incomparable Book which yields to no abrogation or distortion and into which no falsehood could find a way from whatever side. It is a missive from The Wise. Lord to Whom all praise is due for the bounties He has bestowed upon mankind."

(*Baidawy's Commentary.*)

***

We will now proceed to consider some of the injunctions of Islam.

Islam requires you to be self-respecting enough not to degrade yourself by imitation of the beasts below you; to be great enough not to be a slave to your passion and desires; and to be dignified enough not to glorify anyone save your Lord.

Islam enjoins you to seek the

IV

Islam directed mankind to the path of goodliness and pointed out the worldly advantages accruing therefrom, as exemptified by the Tradition :

«مَنْ وَصَلَ رَحِمَهُ زِيدَ لَهُ فِي عُمْرِهِ وَوُسِّعَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ»

"Whoso giveth unto his kindred, will his life be blest and his prosperity augmented."

(*Tradition.*)

One of the most excellent tenets enjoined by Islam is to feel, in the performance of worship, entire submission to the sublime majesty of Allah and to be filled with complete awe and veneration for His grandeur and glory as such will act as a deterrent against committing sin and cause the soul to revert to its original purity. It also impresses upon you that you have a spiritual entity apart from your worldly one, and that you should not seek the world eagerly to the exclusion of all else, as by so doing you will engage in protracted contention with people and will only earn their hatred and animosity.

The material world should have as little fascination as possible for you and should exercise no more than a passing influence over your heart; for only thus will you know happiness and content and enjoy the love and good-will of people.

It would take a very long discourse indeed, should we continue to discuss all the moral and material features which Islam embraces. We may, however, later recount some of the excellent features of prayer and the other rites of Islam. Suffice it to say that ablution is now admitted by all people to be beneficial for many diseases particularly those of the nose. The thrice rinsing of the mouth and the constant use of the tooth brush requisite for the health and good care of the teeth and the sweetening of the breath were strongly insisted upon, particularly after sleep; somuch so that the Prophet well nigh made of them a religious injunction.

No less healthy and cleanly is the practice of frequently washing the feet; this, moreover, prevents any odour emanating therefrom which would be the case should they be left for a long period without being washed.

As such and other features of Islam have become known to the world, many have taken up the cudgels for Islam because of their complete satisfaction and admiration thereof, being convinced that the true Moslem Religion utterly repudiates many of the obnoxious

Also :

«وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ» .

"The recompense of evil is a like evil, but he who forgiveth the offender and reconcileth himself to his enemy and overlooketh the harm done him, will the Lord afford ample recompense."

(*Alucy's Commentary.*)

It describes the righteous thus, as :

«وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ. وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» .

"Those who suppress anger and give no vent thereto and forego the punishment of offenders."

(*Baidawy's Commentary.*)

Islam recognised the eagerness with which men seek the fleeting world and the sad regret with which they view the lost opportunities to secure material ends. They assign causes to their failure to avail themselves of those opportunities, but they progress no further in the direction of real knowledge and remain ignorant of the underlying causes which transcend allhuman knowledge or comprehension and whose minute workings are ordained from on high.

The following verse is significant in this connection :

«مَآ أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَآ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ» .

"No misfortune is there, that afflicteth the earth as dearth, sterility, blighted crops or earthquakes; or that afflicteth your persons as disease, plague wound or injury, but ere Allah caused it, was hnown to Him and recorded in the Book of Divine Decrees; for such is easy unto The Lord."

(*Alucy's Commentary.*)

Islam has strongly urged justice- in which is comprised the restraint imposed on the self to keep within certain assigned limits. It enjoined all virtues and fordabe all vices for thus it saith :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» .

"Verily Allah enjoineth justice, the doing of good and the giving to the kindred that of which they stand in need; and forbiddeth the following of lustful desires, evil and oppression."

(*Baidawy's Commentary.*)

ous, yet it recognised the tendency of the soul to succumb to the forbidden and ordained the most effectual remedy to counteract this tendecy:

« اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ
السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ
بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

"Fear Allah wherever you may be and cause the good deed to follow the evil so that it may be expiated thereby, and treat people in a kindly way;"

(*Tradition*).

and

« لَا يَبْلُغُ الرَّجُلُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ
حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ
بَأْسٌ » .

"Man will not attain to the exalted position of the pious until he refrain from the mere permissible lest he be tempted by it to lapse unto the forbidden."

(*Tradition.*)

It recognised that souls are susceptible to take offence at the least thing and that hatred and malice may be borne even against a well-meaning offender. It has therefore urged to peace-making and reconciliation among people and made such an act one of the best a man could do:

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ
إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » .

"Vain are their deeds except those who enjoin charity, do good and make peace between men. Whosoever doth that to please the Lord, will the Lord recompense beyond all measure."

(*Alucy's Commentary.*)

It recognised that human souls are prone to revenge and are not content, in the exercise of justice, with mere retribution. The offender might, out of pity, be forgiven on the grounds of ignorance or the overwhelming motive which impelled him to commit what he has committed. Forgiveness will, in such a case, be more compatible with mercy and farther removed from injustice and iniquity.

Islam has, therefore, repeatedly urged to forgiveness for thus it saith:

« خُذِ ٱلعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ
عَنْ ٱلجَاهِلِينَ »

"Use indulgence with sinners and forgive their transgression, and enjoin good deeds and return not the evil of the ignorant with a like evil."

(*Alucy's Commentary.*)

"Let ye enjoin the good and forbid the evil, prevent the iniquity of the unjust and force him back to the truth, lest hatred of one another be engendered in your hearts and ye be accursed as were the sons of Israel."

(*Tradition.*)

Islam recognised the inherent love of life and the covetousness of material ends in born in men, the hatred and the envy engendered in the hearts of the poor against the rich and the love of pelf and the cupidity of the latter. It, therefore assigned a share of the wealth of the rich to the poor every year and prescribed its collection by force if need be.

Islam has, furthermore urged the rich to charity so that enmity and hatred may be exterminated from the hearts of the poor and love and good-will substituted instead; also, that the rich may thus set themselves free from the vices of avarice and cupidity :

«وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

"Expend of what the Lord hath given unto you in the manner He ordained and save yourselves from the greed of your souls that ye may prosper."

(*Baidawy's Commentary.*)

It urged to lend the needy and set a greater value thereon than on chairty. By the forbiddance of all and any interest on loans, Islam has striven to strengthen the bonds of love and implant kindness and benevolence in the hearts of men.

It is deplorable, indeed, to see how far mankind have, to their detriment, disregarded the dictates of virtue. The reforms clamoured for by extremists in many Christian countries are not, indeed, without justification. Evil institutions are undermining the very edifice of society in those countries and a complete collapse is only averted through constantly grappling with the exigencies of the moment. But did they only give the question of religion their serious consideration, they would find in Islam and its benign teachings a perfect panacea for all their social evils.

Islam recognised the worldly needs of man and his tendency to covet material ends as a means to his welfare. It pointed out that therein lies the cause of his wretchedness and soul-ruin and ordained

«مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا فِي عَفَافٍ كَانَ فِي دَرَجَةِ الشُّهَدَاءِ»

"Whoso seeketh the world within the bounds of the lawful and according to the dictates of virtue, will be reckoned in the same category as the martyrs."

(*Tradition*).

It urged to righteousness and pointed out the signs of the righte-

"It is of good Islam that one should severely let alone what doth not concern one."

(*Tradition*).

In view of the inherent propensities of men, Islam recognised the advantages accruing from the enjoinment of good and the forbiddance of evil

«لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ
الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ
فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ »

"Let ye enjoin the good and forbid the evil, or will the Lord send the wicked among you to perpetrate evil, then the righteous will pray for deliverance in vain."

(*Tradition.*)

It showed that disregard of such an injunction would inevitably result in the disruption and downfall of nations. It referred to a people who evoked, through their sins, the wrath and damnation of the Lord thus :

«كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ
فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»

"The unbelievers forbade not one another such sins as they have committed before. Detestable indeed were their wicked actions."

(*Baidawy's Commentary.*)

Another verse counsels :

«وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »

"Fear ye a sin that will affect not only those who committed it but will affect you, one and all, in your entirety."

(*Alucy's Commentary.*)

The Prophet saith in this connection :

« إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ
كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَأَنْكَرَهَا كَمَنْ غَابَ
عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ
كَمَنْ شَهِدَهَا »

"If a sin be committed on earth, he who hath witnessed it and condemned it, will he be absolved of its sin; and he who hath not witnessed it and yet approved of it, will he be made a party thereto."

(*Tradition.*)

Another Tradition orodains :

«لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ؛ وَلَتَنْهَوُنَّ
عَنِ الْمُنْكَرِ ثُمَّ لَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ
وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا ؛ وَلَتَقْسِرُنَّهُ
عَلَى الْحَقِّ قَسْرًا ؛ أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللّٰهُ
قُلُوبَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ
كَمَا لَعَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

own; but a mere illusion attaineth not unto any truth."

(*Alucy's Commentary.*)

Also :

«وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»

"If thou followest the counsels of the unbelievers or of the ignorant, they will lead you astray from the path of righteousness, for they counsel nought but evil and follow a mere conjecture, and utter only untruths."

(*Baidawy's Commentary.*)

It showed that the path of righteousness could not be approached by way of conjecture or falsehoad and that it could only be found through sound and sane reflection. Hence the frequent repetition in the Qoran of such verses as :

«إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»

"There is verily a sign in such and such a thing for a people who understand;"

and

«إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»

"There is verily a sign in such and such thing for a people who reflect."

It reproves others thus :

«أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا»

"Have they not reflected !"

and

«أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا»

"Have they not witnessed!" and other like verses.

Islam recognised the value of time and that men are prone to waste it in vain discourse or futile pursuits. It warned against such waste and strongly urged us to make good use thereof. It described the blessed thus :

«وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ»

"Those who avoid vain discourse and futile pursuits and busy themselves with useful avocations."

(*Alucy's Commentary.*)

The Prophet said in this connection :

«إِنَّ اللهَ يَكْرَه أَنْ يَرَى عَبْدَهُ فَارِغاً مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»

"Verily Allah detesteth to see man unoccupied with a pursuit of this world or of the hereafter;"

(*Tradition*).

also

«مِنْ حسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»

"The most bitter enemy is thine own soul that lieth within thy breast."

(*Tradition.*)

And

«إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ»

"Verily the soul inciteth to evil."

Islam has recognised the in fluence exercised by passion over the minds of men, and has forcibly cautioned them against it. It has exposed the role it assumes in the direction of their souls and to what extent it ho'ds sway over their hearts.

So great indeed is the influence of passion over men, that it was refered to in the Qoran as a deity worshipped to the exclusion of Allah :

«أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» .

"Hast thou not seen he who hath deviated from the right path and so eagerly followed his passion as to make a deity thereof, and Allah hath forsaken him knowing of his misguidance and corruption of his soul, and hath sealed up his ears and heart so that he hearkenth not to goodly exhortations and is heedless of the signs of Allah."

(*Baidaway's Commentary.*)

It warned against following the precipitous path of passion :

«وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»

"Follow not the passion of thy soul lest it causeth thee to miss the signs of Allah with which He hath indicated the path of rectitude."

(*Alucy's Commentary.*)

And promised the righteous :

«وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» .

"He who hath feared his trial before his Lord on the Day of Judgment, hath curbed the unlawful desires of his soul, and was heedless of wordly gratifications, verily, Paradise shall be his abode."

(*Alucy's Commeutary.*)

Islam found mankind groping in the darkness of superstitions and delusions and reached forth a helping hand unto them to save them from the dire influence of conceit as signified by the verse :

«إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» .

"The unbelievers follow but a mere illusion, a false conceit of their

"A true Moslem is he who spareth his fellow-Moslems the evil of his hand and tongue."

(*Tradition.*)

It urged strongly to faithfulness and benevolence and warned against the insiduousness of hypocirisy and deceit whose taints corrupt the souls and detract from virtue :

«إنَّ الشِّرْكَ (الرِّيَاءَ) أَخْفَى فِيكُمْ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ»

"Verily hypocrisy is more imperceptible in you than the crawling of ants in the darkest of nights."

(*Tradition.*)

It recognised the natural tendency of mankind to injustice and warned against it in the most vehement manner, for thus it saith :

«مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُجَاءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةٌ يَدَاهُ فَلَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ» .

"No prince is there who rules over but ten people, but will be brought on the Day of Judgment with his hands chained together, and none will set him free save the justice he dispensed."

(*Tradition.*)

It insisted on maintaining Divine Justice, also benevolence, charity and compassion and made this incumbent on all people so that no one escaped the responsibility; for it most wisely saith in this connection

«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»

"Ye are all shepherds and ye are all responsible for you flocks."

(*Tradition.*)

Islam recognised the evil propensities of mankind and the ceaseless efforts on their part to satisfy their passions and desires, thus missing the good life and depriving themselves of blessedness and salvation.

It has transcended, in this respect, the knowledge of the greatest pedagogues that ever existed. It warned you against your own self as against your most inexorable enemy, for the wiles and guiles of the soul are the most pernicious and farthest removed from the sphere of consciousness. To succumb to temptation and to follow the precipitous path of passion will inevitably lead to deviation and perdition

The Tradition has said in this connection :

«أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»

N.B. — The soul is distinguished from the spirit. It may be called the self or the animal soul.

It strongly urged doing good unto all people whether you happen to know them or not. Nay, it goes further still and ordains the clearance of all harmful things from the path of people and considers such an act a sign of true belief.

Nor was the social side neglected in Islam. Good manners were insisted upon to such an extent, that the eating of garlic and onions before going to a meeting or visiting a mosque was forbidden lest the susceptibilites of other people might not be offended. Nor is that all;a bodily cleanliness and, on the occasions of meeting people, the use of perfume is recommended.

Islam ordained cleanliness. It prescribed, over and above the daily ablution, bathing one's self as an essential obligation particularly on Friday on account of the congregation that takes place on that day for prayer.

Not only has Islam urged to cleanliness, as pointed out before, but it requested further to have oneself perfumed. In short, it requested you to afford your brethren-in-Islam all possible pleasure and happiness and promised you the highest recompense therefore.

Islam united the believers with the strongest bond of brother hood which Allah hath fostered between them and made them thereby one family despite the difference of their races and the distances that separate their countries :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »

"Verily believers are but brethren."

III

Islam, so much enjoined love of one another that true belief was made conditional thereupon; for thus saith the Tradition :

« لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا »

"Ye shall not enter Heaven until ye believe, and ye shall not believe until ye love one another."

It ordained good counsel and made it to cover the whole religion as signified by the Tradition :

« الدِّينُ النَّصِيحَةُ »

"Religion is good counsel."

It enjoined the believers to refrain from inflicting harm on others and made such desistence the very essence of Islam for thus it saith :

« الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ »

"The best of you is he who is benevolent unto his people, and the worst of you is he who is malevolent unto them;"

(*Tradition.*).

also :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْشَرُ مَعَ الْمُتَجَبِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرُ أَهْلِ بَيْتِهِ » .

"Verily, man will be huddled together with the overbearing tyrants on the Day of Resurrection and yet he has had no others to illtreat except his own folk."

(*Tradition.*)

The Holy Qoran prescribes :

« لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » .

"Worship ye none other than Allah and be kind and benevolent unto parents, the kindred, the orphans and the poor, and treat people with kindness."

(*Baidawy's Commentary.*)

« وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى والْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً » .

"And serve Allah and do not associate anything with Him and be good to the parents and to the near of kin and orphans and the needy and the neighbour of your kin and the alien neighbour (stranger) and the companion on your journey and the wayfarer' and those whom your right hands possess. Surely Allah does not love him who is proud, boastful."

It first of all enjoined the worship of one God for He is the source of all good; then it ordained benevolence towards the parents on account of their love for and favours to you; then the kindred on account of their relationship, and according to their proper degree of kinship; then the orphans who have lost their providor and found nowhere to turn to; then the poor and needy; and lastly kindly treatment to all others.

Islam insisted on the kindly treatment of the neighbour so much so that the Prophet Muhammad saith in this connection :

« مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ »

"So often did Gabriel exhort me to kindly treatment of the neighbour, that I bethought he will give him the right even to inherit."

(*Tradition.*)

nebulae[1] or diffused gaseous matter from the verse :

«ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ»

"After the creation of the earth, The Lord applied Himself to the creation of the heavens which were in a gaseous state."

We quote the before-mentioned as we wish to point out that the Qoran does not contradict the facts established by science; nor is it unyielding to the proofs thereof to deserve to be called an enemy of science as is alleged by wily missionaries and misinformed Christians who know nothing of Islam.

Many European philosophers have, however, commended the Moslem Religion and its teachings.

Bentham[2], the great English philosopher and one of Europe's most able men of letters, has said that he who practices the tenets of virtue ordained by the Moselm Religion will never commit a sin or perpetrate a crime.

Societies in Europe and America have been established of late to promulgate a new religion which they call "the natural religion"; all the fundamental principles thereof are identical with those of the Moslem Religion.

* * *

We will now proceed to consider the teachings of Islam in some detail.

Islam ordains to seek your own welfare, that of your own people, your neighbours and all others. It forbids exposing yourself to danger as ordained in the verse :

«وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»

"Allah ordains, not to throw yourselves with your own hands into destruction."

(*Baidawy's Commentary.*)

It forcibly warns against committing suicide and acts as a deterrent, through the love and veneration of Allah which it engenders in the hearts of men, to restrain people from exposing themselves to danger and rushing headlong into destruction.

Man-made laws exercise no such influence over mankind and utterly fail in restraining people from committing suicide. Hence the prevelance of this evil in Europe and America.

Islam enjoins esteem and kindly treatment of the wife-for thus the tradition ordains :

«خَيْرُكُمْ مَنْ كَانَ خَيْرُهُ لِأَهْلِهِ
وَشَرُّكُمْ مَنْ كَانَ شَرُّهُ لِأَهْلِهِ»

(1) The nebular hypothesis expounded by Laplace and Sir W. Herachel to the effect that nebulae form the earliest stage in tne formation of stars and planets.

(2) Jeremy Bentham (1784 - 1832) exponent of doctrine of utilitarianism summed up by Priestly as "the greatest happiness of hte greatest number."

and

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ »

"We will shew the unbelievers Our signs through the signal triumphs of Islam in distant climes."

(*Baidawy's Commentary.*)

Recent discoveries have disclosed many undreamt of marvels of heavens and earth to which the Qoran referred long before.

In this connection we should allude here to the possible meanings which many Qoranic verses may be taken to imply. The rotation of the earth for instance could be implied by the verse :

« وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »

"And each one, doth journey in an assigned orbit;"

(*Alucy's Commentary*)

In fact, the Qoran does not contradict anything which science has definitely established and very often includes a reference to scientific facts or is at least in harmony therewith.

The verse :

« وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ »

"And a sign unto the ubelievers is that We have caused their offspring to embark on full-laden craft in pursuit of trade."

(*Baidawy's Commentary*).

« وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ »

"And We have created of the like of them such other things as they may embark on."

(*Baidawy's Commentary.*)

may be taken to refer to airships, etc.

Other modern vehicles could be inferred from the verse :

« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ »

"Allah hath created among other animals, horses, mules and asses that ye may ride them and make use thereof in splendor and display : and other things which ye know not, doth He create."

(*Alucy's Commentary.*)

It is feasible to deduce that the earth was a part of the sun as is now established by astronmers, from the verse :

« أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا » .

"Have the unbelievers not known that the heavens and the earth were joined together in one solid mass and that Allah hath separated them and made of them distinct-bodies."

(*Alucy's Commentary.*)

Again it could be easily inferred that the heavens were composed of

cuted by the French in Algiers and hounded down and banished by the Russians and were, therewithal, hated and despised wheresoever they set foot.

and

«وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»

"But they shall never wish for death on account of the sins they have committed."

The Jews who worshipped the calf, claimed that Paradise is exclusively assigned to them to the exclusion of all other people. In refutation of their claims they were challenged to wish for death if they were so sure of going to heaven, but never will they wish for it on account of the sins they have committed.

(*Baidawy's Commentary.*)

Nor was that the only prophecy that came true. The Qoran prophesied many other future events as testified by the following verses :

«سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»

"The host of unbelievers shall be utterly routed and shall take to their heels"(1)

(*Alucy's Cammentary.*)

(1) This referred to the Battle of Badr in which the Muslims complet routed their enemies.

and

«لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ»

"Ye shall enter the Sacred Mosque by Allah's decree in full security."

The Moslems were promised to enter Mecca in full security and this verse was revealed to the effect that they would enter the Sacred Mosque in Mecca; this entry was accomplished soon after;

(*Alucy's Commentary.*)

and

«غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ»

"The Greeks have been defeated by the Persian's in the nearest boundary town. But after their defeat, they shall overcome their foes."

The unbelievers of Mecca rejoiced at the victory as the Persians were unbelievers like themselves and the Greeks were followers of Scriptures like the Moslems. This verse was thus revealed foretelling a victory of the Greeks and over the Persians and was, fulfilled a few years later;(2)

(*Baidawy's Commentary.*)

(2) The victory of the Greeks referred to in the verse, took place about the third year of the Hejra.

Yet another discovery is the recognition of the advantages derived from ablution. Not only is it effectual against mouth and nose diseases, but it is also one of the most important preventive measures against consumption, the nose being the chief medium through which this virulent disease is contracted.

Small wonder therefore, that noses which are washed fifteen times a day should be completely free from the germs of this malignant malady. It is significant in this connection, that cases of consumption in Moslem countries are few and far between whereas they are decidedly more prevelant in other countries.

Again the Qoran proclaimed that men were created out of dust. a fact which was completely unrecognised at the time of its revelation- as signified by the verse :

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ»

"And of the signs of Allah, is that He hath created you out of mere sorry dust and then caused you to spread far and wide on the surface of the earth."

(*Alucy's Commentary.*)

This fact is now as well known as it is indisputable. The germ of life owes its origin to nutriments derived from animals dependent for their life on plants or from plants produced directly from earth.

Again the following verse is significant :

«بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»

"Allah hath caused the first creation, but men are dubious of a new one."

(*Alucy's Commentary.*)

The Qoran recognised the continual metabolism in man and that the tissues of the human body are periodically destroyed and renewed. The processes of anabolism and catabolism are ever taking place.

The Qoran has further foretold the persecution of the Jews and their continued suffering under the yoke of others as testified by the verse :

«وإذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» .

"And thy Lord hath declared that He would surely send against the Jews, until the end of the world, those who would inflict on them severe punishment and subject them to tyranny and humiliation."

(*Alucy's Commentary.*)

In fulfilment of the above, the Jews were scattered all over the world. They were ruthlessly perse-

ped in the days of yore to the exclusion of God."

(*Alucy's Commentary.*)

until recent discoveries disclosed that the Sun is a million and three hundred thousand times greater than the earth and that the Sirius is many times greater than the Sun and that the light of the Sun is one fiftieth of the light of the Sirius.

Through the development of natural sciences, many astronomical, medical and geographical facts referred to in the Qoran were definitely established. Nor did social, ethical and economic questions lack corroboration. Recent scientific and philosophical researches have fully borne out the concepts of Islam.

Some of these concepts pertaining to the hereafter and the planes of the spirit world, have long been made the object of derision and ridicule. The establishment by Islam of spiritual, apart from material worlds, was considered mythical and absurd. It was not until a faint ray of light from that prodigious world filtered through to us by means of spiritualism, which is already fast becoming an established fact, that the deriders of Islam realised their mistake and were convinced of what the Qoran says :

«وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ»

"And none is apprised of the varieties of Allah's creatures save the Lord Himself."

(*Alucy's Commentary*).

They knew, through the manifestations of the spirit which has broken all known material laws, the secret of the Lord's saying :

«قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم
مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً»

"Say ! the spirit which is the cause of life is a hidden secret which the minds of men fail to comprehend and whose reality is only known to Allah. The knowledge ye are given in that respect is but an iota compared with the infinite knowledge of Allah."

(*Alucy's Commentary.*)

Among other corroborative discoveries, is the prohibition of drinking water contained in a copper vessel and left exposed to the sun in hot climes on account of the chemical reaction that takes place.

Another discovery is that of eating salt which certain Islamic traditions hold to be an effectual cure of many diseases. Medical men were at first dubious regarding its efficacy and were disinclined to endow common salt with such curative properties. The discovery, however, was made and the facts thereof published in medical journals, the discoverer having shown that a hypodermic injection of saline solution is a sure remedy for many ailments(1).

(1) Dose 8 grammes of salt to every 1000 grammes of water injected under the skin.

مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا
لا يَعْلَمُونَ » .

"Glory be to Him who hath created all pairs of species of what the earth produceth[1], and of mankind themselves and of what they now not."

(*Baidawy's Commentary.*)

Commentators used to interpret these verses according to the scientific standards recognised at the time. It was not, however, until natural sciences discovered male and female species in plants, that we realized the full significance of those verses.

Again, such a verse as :

«حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ
قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ
لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ
لا يَشْعُرُونَ » .

"Till they came to the Valley of Ants[2]; said an ant, "O ye ants, enter your dwellings, lest Solomon and his hosts crush you and they know it not".

This verse taken for a mere similie or a kind of metaphor until the entomologists unravelled many astounding mysteries in the life of ants and the real meaning of the verse was thereby disclosed.

II

The Holy Qoran contains, moreover, the most striking references to animals which have caused the scientists of Europe no small amazement. An orientalist is said to have remarked in this connection, that there is nothing more clearly significant of the importance of animals than the Qoranic verse :

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا
طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ »

"No kind of beast is there living on the surface of the earth in any region thereof, nor bird that flieth in any clime with its wings, but are communities like unto you."

(*Alucy's Commentary.*)

Again, we were not aware of the magnitude of the Sirius[3] to which the Qoran referred in the verse :

« وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى » .

"And that He (Allah) is the absolute Lord of the Sirius worship-

(1) Plants and trees.

(2) A valley in Syria abounding in ants.

(3) The Dogstar or Canicula, the brightest star in the heavens. situated in the constellation of Canis Major. or the Great Dog.

anity, an obligation of the rich towards the poor.

This measure of legal taxation for alms is what certain parties in European countries persistently clamour for. They insist on the assessment of a levy on capitalists who contribute nothing to the public treasury in contradistinction to property and land owners.

There are other parties which call for the adoption of certain reformative measures corresponding, in more than one way, with the teachings of Islam; for lack of space these cannot be mentioned here.

Briefly : intuitive, scientific and empirical knowledge have all combined to prove the verity and truth of the Moslem Religion even in regard to the most transcendental questions as well as to other questions which were positively denied by past generations.

People were wont to deride the idea of the extinction of the luminary planets and the destruction of the universe until recent discoveries have shown that the celestial world is composed of the same constituents as this world; they discovered that potassium, for instance, is a constituent element of the sun, that the heat of the sun is gradually diminishing and that the laws of this terrestial world obtain in the celestial worlds as well.

We have already pointed out that Islam is in complete harmony with the natural sciences. In fact, Moslems themselves were ignorant of the significance of many of the Qoranic texts until the progress of natural sciences disclosed the meaning thereof—as for instance, the pollination of trees by winds which was only recently discovered. Over thirteen centuries ago the Qoran referred to this phenomenon in the verse : —

«وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ » .

"And We sent forth the pollinating winds."

This verse was interpreted according to the standard of knowledge of the period, until its full meaning was at last disclosed and the verse stood out - a marvellous sign of the Holy Qoran.

Again the verse

«وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » .

"And We have caused to grow in it[1] all pairs of beauteous species".

and the verse

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ »

"And of everything have We created a pair"

and the verse

«سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا

(1) The earth.

their bitter censure and condemnation. Subsequent events and disasters have, however, pointed to its efficacy under certain conditions and shown the advantages accruing thereform. The consequent increase in the number of men, the following augmentation of power and the amelioration of conditions in every sphere of life are too evident to need to be enumerated. The necessity of polygamy is particularly shown after devastating wars in which thousands upon thousands of men are lost to the race and countless numbers of women are rendered widowed in consequence.

The Moslems have often been envied the great increase of their number within short periods; this is on account of the prevalence of marriage among them.

We have lately noted with interest, the vigorous campaign conducted in the Christian press to encourage marriage among Christians. It is significant in this connection that the question of illegitimate children in Christian countries is assuming great dimensions and causing serious consternation and alarm; this is because their people have turned from the lawful to the unlawful, from the limited to the unlimited and from truth and rectitude to hypocrisy and deceit.

England on her side has officially prohibited prostitution. It has recognised, as Islam did, the serious harm which affects the race when such a breach of morality is licensed by the state.

Another teaching of Islam, is that in connection with speculation. Nations have introduced a law prohibiting speculation save within certain limits very nearly identical with the teachings of Islam.

Yet another teaching of Islam is alms-giving; regarding this a French orientalist says : —

"The Moslem Religion affords the most effectual safeguard against the menace of communism which threatens to disrupt the social structure and to shake the world-peace to its very foundations. This safeguard, is alms-giving ordained by Islam and constitutes the payment of a portion of the wealth of the rich to the poor every year. It made it incumbent on the ruler to collect these alms even through he had to enforce their collection in the name of the law."

But the knowledge of this French orientalist is even deficent in respect to this matter. Islam has, over and above enjoining the payment of legal alms, urged its followers to secret and public charity and has forcibly insisted thereon. It urges them to lend the needy, and it has set more recompense for such charity than for legal alms-giving.

It ordained that loans should be given free of any interest or advantage accruing to the rich from the poor. Benevolence was thus rendered one of the rights of hum-

well-wielded the sceptre of authority over its followers and exercised the most astounding influence over their minds. It comprised the essentials of all human progress, *viz.* learning and its application. Islam has left out nothing that tends to purge the soul of itsi mpurities and thus fit it for the fulfilment of its function.

Islam thus became the crowning conclusion of all Allah's dispensations and the ultimate end of man's salvation.

It aimed at strict moderation throughout and strove for the purging of minds of the taints of delusion, directing them to the sources of truth and blessedness.

It is inconceivable, therefore, that such a religion could be liable to abrogation or be doomed to extinction.

Indeed, time and the progress of civilisation are, ever and ever, offering fresh proofs of the verity and greatness of Islam. Many of its teachings were considered in olden days as merely devotional and appeared to have no justifiable ground or known cause : such, for example, was the scouring with earth of any vessel which a dog has licked and washing it thoroughly with water, for the dog, it is now maintained, often harbours different kinds of parasitic helminths which infect the human body with devastating results.

Pork, which is now commonly known to be the cause of many diseases particulary tape worm and trichina[1] which play havoc with the human body and very often cause death, was also forbidden.

Abstinence from alcoholic drinks is another ,teaching of Islam. Science has definitely established the pernicious effects accruing from drinking. It weakens the heart, damages the causes cirrhosis[2] of the liver, clouds the intellect and enfeebles the progeny.

Europe and America (conciously and unconciously) are gradually coming nearer and nearer Islam and adopting its teachings day by day.

Non-Muslims were wont to condemn the institution of divorce in Islam. When, however, they found out that it was necessary for the progress of civilisation, and that it is unreasonable to force a man into continuation of matrimony in spite of incompatibility of temperament and inclination, they were obliged to adopt that institution. Divorce courts were therefore established and the number of divorce cases increasing year by year, proves their necessity.

Then again the institution of polygamy. This institution evoked

(1) A parasitic worm which infects the intestinal canal and the muscular tissue of man and certain animals especially the pig.

(2) Inflammation and proliferation tending to destroy the liver cells and impede the flow of blood through the veins of the liver.

procur their assigned share of the means of subsistence which Allah hath bestowed as commonweal upon all His creatures.

It forbade interference with their religions and did not compel their adoption of Islam; this was in order that its own merits and clear teachings might be the sole incentive to its adoption. *In no instance, indeed, did Islam have recourse o the sword* to superimpose its will under penalty of death, as other religions did. The holy wars prescribed at the beginning of Islam were not waged to force people to profess that religion, but they were waged in order to defend it against outside attacks and to pave the way for its announcement and propagation so that the world, which was in desperate need of a new religion, might hear of it.

Islam enjoins kindly treatment of the neighbour, the wife, the friend, the parents and children and all kinsmen and others whether they profess it or not. This is pres cribed in the most eloquent and clear language. It warned against deviation from these rules on penalty of severe punishment in the hereafter and instituted such temporal penalties as were indispensable for the welfare of mankind.

Such then, are the main teachings which constitute the truths of Islam. They were the light that shone on a world steeped in a Stygian darkness of ignorance, penetrating its uttermost corners. It is the religion of nature for which nature willa ccept no other substitute

The fundamental precept of Islam is the acceptance of monotheism and the purging of souls of sin and wickedness. Its texts clearly point out that salvation is the outcome of mental and moral striving and that deviation and perdition is the result of mental and moral inactivity.

A philosopher has rightly remarked in this connection that the great thinkers of the world have, even from of old, been deeply interested in the search for a religion which fulfils the material needs and the spiritual aspirations of mankind. They searched for one which combined these two in a just and harmonious accordrnce, thus establishing the right proportion betwnen the respective claims of both in such a way as to keep them within bounds and to withhold the one from dominating the other. But they discovered it nowhere except in Islam, which guaranteed salvation in this world and the hereafter, and was not oblivious of either material or spiritual claims.

It is for this reason that the Islamic civilisation was assiduously persued by mankind and that it spread in a fashion unprecedented in the annals of history.

Anyone who has studied history and social science must certainly find that this civilisation was the most progressive and far-sighted of all civilisations and that it has

the defects from which other religions suffer, such as the doctrine of incarnation, trinity, anthropomorphism(1), negation of certain divine attributes and other doctrines which are definitely incompatible with the perfect divinity of Allah.

While followers of other religions are faced with the most serious complications and ambiguities which baffle the intellects, not only of the proletariat but also of the learned classes, the Moslem Religion is absolutely clear on these points and both the proletariat and the learned classes are able fully to understand them. The teachings which were handed down to the followers of other religions were not of such clarity as to be understood without painstaking assiduity; they were so vague and ambiguous on so many points that inquirers were apt to lose their way in a labyrinth of complications.

As for the regulation of temporal affairs and the amelioration of life's conditions, the Moslem Religion is decidedly a clear and limitless fount of information, and an end beyond which no one could aspire.

Islam rendered mankind a most inestimable service which previous religions had failed to offer; nor could the master minds of legislators interested in the organisation of human activities and the amelioration of social conditions, ever discover anything approaching it. It rigidly enjoined charity and benevolence towards the followers of other religions though they are the first, whose maltreatment would strike the imagination as a possible religious injunction.

« وَلَا تُجَادِلُوٓا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » .

"Dispute not except in the kindliest manner with the People of the Scriptures".

(*Baidawy's Commentary*).

and the Prophet Muhammad ays in this connection.

« مَنْ آذَى ذِمِّياً فَأَنَا خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

"Whosoever inflicteth harm on a Zimmi(2), will I be his adversary on the Judgment Day."

(*Tradition.*)

Islam enjoined that Moslems and all others should be treated on a footing of equity. This is clearly shown in various parts of the Qoran and the Traditions in order to realise the fulfilment of justice and the maintenance of equity so that non-Moslems may feel secure under the rule of Islam and may not find therein an unsupportable burden and also that they may

(1) The representation of the Deity in the form of man or with bodily parts.

(2) A Zimmi is a follower of the Scriptures under Moslem protection.

rouse their conscience by contemplation of Allah's blessings and marvels.

Thus it has thrown wide the door for reflection and has delivered mankind from the bondage of imitation.

It spared them the turmoils of faction, and enjoined that the Jew rever Jesus, that the Christian respect Moses and that all should venerate any messenger or prophet who might have been sent, unknown to us, to other people as pointed out in the verse : —

«وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ»

"And the story of others We have told thee not."

Islam is, thus, a universal religion which relies on the mind as its sole arbiter and forbids the submission of man to man or the glorification of any creature.

The Islamic teachings which were revealed to the Prophet Muhammad to announce unto mankind, and the goodly exhortations which were sent through him, to purge the souls of recklessness and sin, constitute an irrefutable and unassailable argument in the face of the most virulent attacks of criticism. These teachings are established on a solid substratum of reason which no criticism could affect or prejudice.

The tenets of Islam are purely intellectual and absolutely uncontaminated with delusion, superstitious beliefs or pernicious customs. They were not ordained in accordance with the consuetudinary approbation or censure of a particular people, but were instituted in strict accordance with intellectual truths established from all times and suited to all races of mankind.

It is for this reason that the message of Islam was universal; on account of its complete adaptability to all people in just the same way and same proportion, it was no more intended for the Arabs than for others or for urban than for nomadic communities; no wonder, therefore, that Islam is called the "Natural Religion"!

The teachings of Islam are classified into three main classes : —

1. Avowal of one Creator and the admitting of the Day of Judgment.
2. Actions which pertain to the Hereafter.
3. Actions which pertain to the regulation of temporal affairs and the amelioration of life's conditions.

These are the main divisions under which there are several other subdivisisions, the considration of which we defer for the time being.

As to the avowal of one Creator and the admitting of the Day of Judgment, they are nowhere more clearly ordained than in the Moslem Religion. It is for this reason that monotheism in Islam is free from

This is a fact which all just and. unbiassed people will readily admit. Superstitions, unsupported by tradition and not sanctioned by mind or conscience, crept into religions prior to Islam and the most flagrant errors and misconceptions could easily be traced in those religions, in the beliefs in Allah and His holy prophets and precepts; the consideration of this we leave entirely to your own judgment.

Islam required mankind to believe in all prophets without distinction and addressed them thus : —

« قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا
وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

"Say ye believers: We believe in Allah and that which hath been sent down to us (The Qoran), and that which hath been sent down to Abraham and Ismaïl and Isaac and Jacob and his offspring; and that which was given to Moses[1] and Jesus[2] and that which was given to the Prophets from their Lord. We make no distinction between any of them and to Allah we are resigned."

It addressed the people of the Scriptures thus : —

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ
حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » .

"O People of the Scriptures! Ye have no reliable Faith until ye observe the Torah[3] and the Evangel[4] and that which hath been sent down to you from your Lord."

(*Baidawy's Commentary.*)

And :

« وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا
وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ » .

"Ye shall not barter my signs for a paltry price and fear ye me; and confuse not the truth with falsehood and conceal not the truth when ye know it."

(*Baidawy's Commentary.*)

Islam has led mankind to the pure founts of religion and freed their minds from the confusion of misguidance and superstitions. It appealed to them to shake off the torpor from their minds and to

(1) The Mosaic Law.
(2) The Gospel.

(3) The Old Testament.
(4) The New Testament.

MESSAGE OF PEASE
A TREATISE ON ISLAM

By

The late Prof. **Sheikh Youssof El-Degwy**
of Al-Azhar University and member of the Body of Grand Ulama.

Translated From the Arabic)

By

Aly Z. Husn. M.A.

Part : 1

ISLAM
The Ideal Religion

I

Islam is a universal religion revealed to rectify the corrupted beliefs of mankind and to set the seal to previous Scriptures. It enjoins respect and veneration for all Prophets and is not a religion of egoism that preaches hatred and animosity to others; nor does it require its followers to believe only in their particular prophet imputing perfidy and falsehood to those of other religions. Nay ! the magnanimous spirit of Islam rises far above this, and enjoins the belief in all Allah's Apostles for thus Muhammad was addressed : —

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » .

"And We have sent Apostles before thee; the story of some of whom We have told thee; and the story of others We have told thee not".

in order to warn us against disbelief in or defamation of any of His prophets and to teach us to acknowledge that they were all sent with guidance, enlightenment and truth. The patriarchs and followers of anterior religions, however, have misconstrued and altered their texts and Islam was revealed to purify them from he taints of superstition and innovation and to lead mankind to the very sources of true belief. It honoured and revered their prophets and laid the responsibility of perverting on those who misconstrued and distorted the Word of Allah.

Muslems - and even by non - muslems - from many different parts of the world who are eager to scrutinize and assimilate the ideal concepts and high principles of Islam : "ALLAH'S GIFT" to mankind, that provides and grants success and happiness to humanity in this temporal life and in the final immortal existence.

"O' Our Lord: Lay not on us such a burden as Thou didst lay on those before us ! Our Lord : Impose not on us that which we have not the strength to bear !. Pardon us, absolve us and have mercy on us Thou, our Protector, and give us Victory over the dis-believing folk".. Amen.

Zaher A. El-Zoghby

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

٩٤٧

MAJALLATU'L AZHAR

(AL-AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd-ul-Wadoud I. Shalaby**
SUPERVISOR : **Zaher A. El-Zoghby**

The fiftieth year Fourth Volume Sha'aban 1398 H. — July 1978 A.D.

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

FOREWORD

By

Zaher A. El-Zoghby

Starting with this Volume, a well-written acurate and convincing treatise on Islam will be published sccessively.

This treatise was originally compiled in Arabic by the late Proffessor Sheikh Youssef El-Digwy of Al-Azhar University with the object of having it translated into English for the benefit of English - speaking people.

The Translation of this study has already been published in this monthly "Al-Azhar Magazine" during the third decade of the twentith century, under the comprehensive title: "MESSAGES OF PEACE" and consisted of three main parts : "ISLAM, THE IDEAL RELIGION — THE PROPHET MOHAMMAD — THE HOLY QURAN".

Although this translation first appeared more than forty years ago, We have been requested to reprint it by countless numbers of